المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التاريخ
مكة المكرمة

الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية عرض ونقد وتحليل

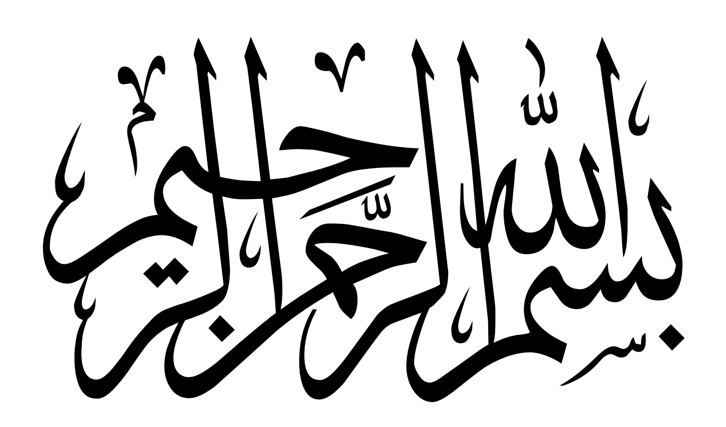
رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة
أماني بنت جعفر بن صالح الغازي

الجزء الأول

إشراف
أ.د / أميرة بنت علي مدَّاح

1431هـ/ 2010م



ملخص المادة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبهِ أجمعين وبعد ...

هذه الرسالة بعنوان " الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية " عرض ونقد وتحليل . وهي تشتمل على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول بالإضافة إلى التوصيات، وعدد من الملاحق وقائمة المصادر والمراجع.

تضمنت المقدمة أسباب اختياري للموضوع، وأهميته من منطلق أهمية دراسة الاستشراق، وأوضحت المقدمة أهم مصادر الدراسة، والمنهجية التي سارت عليها.

أما التمهيد فقد أختص بشرح منهجية المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي قبل العهد العثماني.

وتناولت الدراسة في الفصل الأول أثر قيام الدولة العثمانية في ازدياد الاستشراق، من خلال أربع مباحث ، أختص المبحث الأول بتناول مسألة تنامي أعداد كراسي الاستشراق في الجامعات الأوروبية ، أما المبحث الثاني فقد ركز على دعم البابوية لحركة الاستشراق ، بينما أختص المبحث الثالث بتوضيح أصداء الفتوحات العثمانية في أوروبا.ودور المستشرقين في إزكاء روح العداء ، وأخيراً تناول المبحث الرابع مسألة أثر سياسة التسامح الديني في نمو حركة الاستشراق.

أما فيما يختص بالفصل الثاني فقد ركز على دائرة المعارف الإسلامية نفسها، حيث عرف المبحث الأول بدائرة المعارف الإسلامية، وأهتم المبحث الثاني بتناول حياة المستشرقين الذين ستكون موادهم موضع نقض في الدراسة. وأختص المبحث الثالث بتوضيح دور اليهود في توجيه منهجية الكتابة عن الدولة العثمانية.

وعالجت الدراسة في الفصل الثالث آراء المستشرقين في كتابة التاريخ العثماني، من خلال ثلاث مباحث، الأول منها ناقش آراء المستشرقين في قيام الدولة العثمانية، بينما أختص المبحث الثاني بتحليل ونقد رؤية المستشرقين لسلاطين العصر الذهبي للدولة العثمانية. وتناول المبحث الثالث نظرة المستشرقين لسلاطين عصر الضعف.

أما الفصل الرابع والأخير فقد ركز على رؤية المستشرقين للنظم العثمانية، من خلال اختيار ثلاثة نماذج الأول منها النظم العسكرية " نظام الإنكشارية نموذجاً" ، والمبحث الثاني النظم الاجتماعية " نظام الحريم نموذجاً" ، وأخيراً المبحث الثالث النظم الشرعية " نظام شيخ الإسلام نموذجاً "

وخلصت الدراسة بعدد من التوصيات، جاءت في خاتمة الدراسة، وذُيلت الرسالة ببعض الملاحق التي احتوت على الخرائط والوثائق، وقائمة المصادر والمراجع.

والله من وراء القصد

الطالبة	المشرفة	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
أماني جعفر الغازي	**أ.د. أميرة علي مداح**	أ.د. سعود إبراهيم الشريم

Abstract

Praise is to Almighty Allah, peace and prayers may be upon his messenger, Mohammad, the son of Abdullah, and upon his followers as all.

This research is titled “Othman State Through Orientalist Writing within Islamic Encyclopedia” presentation, criticism and analysis. The research is divided into an introduction, preface, four chapters, additional recommendations, appendix and references.

Introduction includes reasons for choosing such a subject and its importance emanating from the importance of studying orientalism. It indicated the most important sources of the study and it's Methodism.

Preface was specified to explain orientalism Methodism in drafting Islamic history before Othman era.

In the first chapter, the study dealt with the effect of Othman state in increasing orientalism. It is divided into four sections. The first section discussed the increasing number of the increasing the number of the orientalism chairs in European universities. The second focus on baptisms support for orientalism. The third talked about Othman conquests echoes in Europe and orientalists role in increasing enmity spirit. The last section was concerned with the effect of religious forgiveness policy on orientalism growth.

The second chapter concentrated on the Islamic encyclopedia itself, the first section defined the Islamic encyclopedia, the second section discusses the Orientalist's life that will be a subject of criticism in this study. The third section indicates the Jewish role in directing writing Methodism about Othman state.

The third chapter treated the Orientalist's opinions in drafting Othman history in three section, the first section discussed the Orientalist's opinions in establishing Othman state, the second section includes a criticism and analysis of the Orientalist's point of view for the golden age of Othman sultans and the third section dealt with Orientalist's point of view for the sultans of weakness age.

The last chapter concentrated on the Orientalist's point of view for Othman systems through three examples, the first which is the military system "Inkshari system" as an example, the scond is social system "Harem system" as an example and the third is religious system "Shaikh al-Islam system" as an example.

The study summarized a number of recommendations mentioned at the study conclusion. There are some appendixes that contained maps and documents, and the research's references.

Student	supervisor	The Dean of Shara'a College
Amani J. al-Ghazi	Prof. Ameera Ali Maddah	Prof Sooud I. al shureem

انًلويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد المرسلين والهادي الأمين وأشرف خلق العالمين سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [1]

قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [2]

عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال : "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعهُ ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى الضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعهُ ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً " (رواه مسلم) . [3]

عندما ظهر الهلال العثماني في سماء الشرق الإسلامي ، كان العثمانيون قد صدموا أوروبا أكبر صدمة تلقتها على مر تاريخها عندما سقطت القسطنطينية في قبضتهم وكان للعثمانيين تجربة رائدة في حركة الفتوحات الإسلامية في أوروبا، حيث عملوا على تطبيق المبدأ القرآني بنشر الإسلام ، فأقاموا مراكز مهمة في اليونان ، وبلغاريا ، والصرب ، وجنوب شرق أوروبا ، ووسطها ، والقرم ، وبلاد المجر. أما على الصعيد الشرقي فقد دخلوا وضموا مصر ، والشام ، والحجاز تحت الحكم العثماني ، وامتدت حدود الدولة العثمانية من الدانوب حتى الخليج العربي ، ومن أراضي آسيا الصغرى إلى مصر ، فوطئت جيوشها أقاليم لم تخضع قط لحكم المسلمين من قبل ، وأحرزت باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة ، فضمت دولاً أوروبية ، وبذلك وصلت حدودها إلى فينا . وأدركت أوروبا حقيقة دور العثمانيين في الدفاع عن الدين ، وعن بلاد المسلمين ، لا يفرقهم وطن ، ولا لون ولا جيش. وتغير ميزان القوى بخسارة أوروبا لسيادتها العسكرية التي بدأت منذ الحملات الصليبية حتى ظهور الهلال العثماني ، وانقلاب الحال على أيدي العثمانيين الذين توسعوا في الفتوحات وأرسلوا الجيوش، وصارت أوروبا تعمل لهم ألف حساب ؛ ففرضوا الحماية على

---

[1] سورة آل عمران : آية 64 .

[2] سورة الزمر : آية 22 .

[3] صحيح مسلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ج13 ، ص 1640 .

العالم الإسلامي تحت رايتهم ، وبدأوا في صد الخطر الاستعماري عنه . وهنا يكمن السبب الرئيس للعداء ؛ لأن أوروبا ظلت في حالة حروب صليبية مستمرة.

ولتاريخ الدولة العثمانية أهمية خاصة ، تكمن هذه الأهمية في كونها الدولة الإسلامية الكبرى في التاريخ الحديث التي قامت في أساسها على الشريعة الإسلامية ، مما أكسبها قوة وتماسك حتى في عصر ضعفها حملت الإسلام إلى أوروبا ، ودقت به على أبوابها ، ففزعت الحكومات والشعوب الأوروبية من هذه الدولة الإسلامية التي هاجمتها في عقر دارها ، وبعد نهاية القرن 10هـ / 16م، بدأت أوروبا تفكر جدياً ، وتخطط لإيقاف هذا الزحف الإسلامي؛ إذ إنَّ للانتصارات العثمانية الإسلامية بلا شك تأثير على سياستها ، فكان للعامل الديني أثر في فزع أوروبا ، وجعلها تتخبط في القهر وحب الانتقام ، وزاد من فزعهم أيضاً انتشار الإسلام في أجزاء من أوروبا ، مما أدى إلى وقوفها ونهوضها ضد الدولة العثمانية بكل الطرق الحربية والفكرية ، ولم يعد همها إلا استرداد ما أخذه العثمانيون منها بل وتفتحت شهيتها على مناطق جديدة ، فعقدت المؤامرات والتحالفات الصليبية والتكتلات الحربية ضدها بمساندة الكنيسة وبابا روما. ويصدق فيهم قول الله : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[1]

ثم إنَّ اهتمام العثمانيين بنشر الإسلام جعل كل أوروبا برجال الدين فيها والسياسيين يقفون ضد هذا الانتشار ، فعملوا على تطويق العالم الإسلامي بأكمله، وإخراج الإسلام من المناطق التي انتشر فيها ، مثل رودس ، اليونان ، وبلاد المجر ، وغيرها .

وتابعت أوروبا عدوانها على الدولة العثمانية المسلمة حتى تحقق لها ما تريد في بداية القرن 14هـ / 20م ، حيث كُسِرت شوكة القوة العثمانية ، وتدفق الاستعمار بعد هذا الإنكسار كالسيول الجارفة تقضي على الأخضر واليابس ، وتلتهم البلاد الإسلامية بضراوة وقسوة .

هذا الانتقام جاء من أوروبا ؛ لأنَّ الدولة العثمانية عوضاً عن نشرها للإسلام، كشفت عن وجه أوروبا القاتم والمخزي أثناء استعمارها للبلاد الأخرى. وذلك من خلال سياسة التسامح الديني التي اتبعتها الدولة العثمانية ، وكانت سبباً في نشر الإسلام ، وترحيب أهالي البلاد بالحكم العثماني في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تبني حضاراتها على امتصاص خيرات ودماء الشعوب المستعمرة .

---

[1] سورة البروج : آية 8 .

كلّ هذه العوامل جعلت أوروبا تفكر في كيفية الكيد للدولة العثمانية والقضاء عليها ، إلى جانب المواجهة العسكرية ، وخوض المعارك الدامية ، لذا لجأت إلى أسلوب ومنهجية قديمة في مواجهة الخطر الإسلامي تمثل في الاستشراق.

حقيقة أن الاستشراق نشأ قبل ظهور الدولة العثمانية ، إلا أنهّ لمع بشكل قوي وظاهر وحضور واضح في عهد الدولة العثمانية ، خاصة بعد فتح القسطنطينية وهز عروش المسيحية . ومن أجل ذلك لجأت أوروبا إلى الفكر، والأقلام الحاقدة التي تسابقت في صراع محموم لصنع الافتراءات حول الدولة العثمانية سواء في رموزها الإسلامية أم تصوير حكمها في الولايات العربية بصورٍ قاتمة مظلمة ، يتخللها الاستبداد والظلم والقهر. ومن تلك الصور: مذابح الرعايا ، إعدام المثقفين ، عزل الولايات العربية عن الحضارة والتقدم ، وما إلى ذلك من التهم .

وتسابق المستشرقون في نسج الافتراءات حول فتوحات الدولة العثمانية في الأقاليم التي لم يدخلها الإسلام يوماً.ولذلك جاء تاريخها متأثراً في كثير من الحالات بروح العداء للإسلام ، فانبرت أقلام المستشرقين لها، حيث اعتبروا ذلك التاريخ مادة خصبة ثرية للكتابة عنها وتشويه أمجادها وماضيها ، وذلك عندما عجزوا عن غزوها عسكرياً ، فلجأوا لغزوها فكرياً، ومن ضمن وسائل الغزو الفكري تلك الأقلام الاستشراقية التي شوهت التاريخ الإسلامي .

ولحبك خيوط المؤامرة لابد من إيجاد مساحة حرة لهذه الأقلام تبث من خلالها أفكارها المشوهة وافتراءاتها ، ليس على الدولة العثمانية فقط ، وإنما على كل ما هو إسلامي. هذه المساحة ترتدي لباس العلم والبحث العلمي، فكانت المؤلفات الاستشراقية ، ومن أبرزها دائرة المعارف الإسلامية التي كانت مناسبة لأداء هذا الدور ضد الإسلام والمسلمين.

فدائرة المعارف الإسلامية موسوعة ألفها أساطين المستشرقين في بداية ق14هـ/20م على هيئة أبحاث منفصلة مرتبة فيها المواد حسب الحروف الهجائية ، وصدرت في عدة طبعات ، تُرجم منها طبعتان إلى اللغة العربية، واحتوت الموسوعة على تراجم لكثير من الشخصيات المشهورة في التاريخ ، وعلوم الدين والنظم والقبائل والمواقع ، كتب فيها 486 مستشرق تقريبًا في مختلف فروع المعرفة .

خاض المستشرقون فيها صولات وجولات ؛ لاختلاق أحداث وهمية مدعمة بمصادر خيالية ، والكتابة عن أحداث تَمَّت بالفعل مع إضافة الكثير من التشويه والكذب والافتراء ، والبحث الدائم عن مواضع الضعف في التاريخ والحضارة الإسلامية ، وإبرازها لأجل غاية

سياسية أو دينية ، من شأن ذلك أن يزعزع إيمان وثقة القارئ بكل ما هو إسلامي ، وبإسلامية وعدل الدولة العثمانية على الخصوص .

وقد لفت نظري ، وشد انتباهي ما كُتب في هذه الموسوعة عندما كنت أدرس في السنة المنهجية، حيث وقفت على أعمال المستشرقين، ومنهجهم في تشويه التاريخ الإسلامي عامة ، والدولة العثمانية خاصة ، فحرصت على التخصص في دراسة الاستشراق ؛ لكشف شبهاتهم ، والرد عليهم بما في كتب المسلمين من ثروة علمية تصُب في هذا الاتجاه .

ومن هنا جاءت أهمية الدراسة ؛ إذ تجمع خيوط كتابات المستشرقين عن الدولة العثمانية في دائرة المعارف الإسلامية ، وآرائهم المغرضة من عدة أوجه، بداية بقيام الدولة العثمانية ، وسلاطين عصر القوة الذين أثَّروا بشكل مباشر في تاريخ أوروبا، وسلاطين عصر الضعف والافتراءات التي لحقت بهم ، وأخيراً تعرض أو تقدم أمثلة عن النظم الإسلامية وتعدياتهم عليها .

والدراسة تلقي الضوء على خلفيات وآفاق كتاباتهم غير المنصفة في دائرة المعارف الإسلامية ، والتي اتخذت أسلوباً جديداً بدلاً من التشويه المباشر، ويظهر بوضوح في الأسلوب الرقيق الناعم الذي يشكك في الحقائق عن بعد عند تناولهِ لموضوعات الدولة العثمانية بشكل غير معلن ، لا سيما عند تناول سير السلاطين العثمانيين خاصة .

ولتكون هذه الدراسة جديرة بالاهتمام سأحاول - بعون الله- تفنيد افتراءات المستشرقين على الدولة العثمانية من خلال دحض آرائهم بالأدلة والبراهين الدامغة ،والمدعَّمة بالمصادر الموثوقة والصادقة في تناول تاريخ الدولة العثمانية، للوقوف على الحقائق التاريخية من خلال الوثائق التي تثبت عدم صدق ادعاءاتهم الواردة في دائرة المعارف الإسلامية .

وأحسب أنَّ هذه الدراسة هي الأولى من نوعها التي تتناول تاريخ الدولة العثمانية من خلال دائرة المعارف الإسلامية ، وتلقي الضوء عليها والأكاذيب التي احتوتها بين صفحاتها، إضافة إلى أنني أتوقع أنها أول دراسة علمية تناقش الافتراءات والأخطاء التي أُلصقت بتاريخ الدولة العثمانية .

ولا شك أن دائرة المعارف الإسلامية جعلت كثيراً من المؤرخين يصدرون أحكامًا جائرة ، وسم بها التاريخ العثماني ، وفيها كثير من الجور والمغالاة ، رغم أن الدولة العثمانية قدمت كثيراً من الخدمات الجليلة للأمة الإسلامية ؛ ولذا لم يكن تاريخها شراً كله ،

ولا خيراً كله ، فهي دولة إسلامية مثل بقية الدول الإسلامية ، وسلاطينها بشر يصيبون ويخطئون ، وهذه سنة الحياة .

وتعتبر دائرة المعارف الإسلامية وعاءًا كبيراً حوى أكثر آراء المستشرقين عن الإسلام ، وبالتالي عن العثمانيين ، وهي في الواقع ترديد لآراء المستشرقين اليهود والنصارى في قوالب مختلفة وجديدة .

لكن هذا لا يعني أن دائرة المعارف الإسلامية لم تقدم شيئًا من الفائدة للثقافة الإسلامية ، فمن خلالها عرف الناس في أوروبا عن ماهية الإسلام، وتاريخ رموزه وكفاءتهم وإن كان هناك تشويه لذلك كله ، قد أظهروا تعاليم الإسلام في بعض المواقع دون تحريف .

لكن خطورة دائرة المعارف تلك تكمن في انجراف أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم والمؤرخين الأتراك أنفسهم – إلا من رحم ربي – وراء آرائهم الخاطئة، وبذلك سعوا إلى إدانة فترة كبيرة جداً من تاريخهم ، مرتبطة بالإسلام وبهم وبتاريخنا في الشرق الإسلاميّ .

والمؤرخون العرب في ذلك ساروا في ركب الاتجاه المهاجم لفترة الدولة العثمانية مدفوعين بانبهارهم بالحضارة الأوروبية،والتبعية البحثية لمدارس التاريخ الغربي على اعتبار أنها الأفضل مكانةً والأكثر تقدماً، والأمر على العكس تماماً؛ لأن المدارس الغربية ليس لها أيّ منهجية علمية ثابتة وتسير وفق أهداف معينة ، وإنما تسير وفق هواها وأغراضها. ومدفوعين أيضاً بحب تقليد المؤرخين الغربيين دون تحمل المشقة والعناء للتأكد من صحة المعلومات التي يرددها المستشرقون ، والأخذ بها كأنَّما حدثت فعلاً ، بل والتمسك بها وعدم التنازل عنها .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [1]

ومن منطلق الآية الكريمة اخترت تلك القضية لتكون عنواناً وموضوعاً لأطروحتي لمرحلة الدكتوراة . ومن الأسباب التي دعتني إلى إختيار هذا الموضوع ما يلي:

١) وجدت نفسي مدفوعة لأن أقول كلمة حق في دائرة المعارف الإسلامية ؛ للحذر من الأخذ منها ، خاصة وأن أكثر كتابها تعود أصولهم إلى جذور يهودية، أو لهم ميول

---

[1] سورة الأحزاب الآية 70 ، 71 .

صهيونية ، وأن الحقبة التاريخية التي كتبت فيها هذه الموسوعة هي الحقبة التي تكالب فيها الاستعمار على البلاد العربية .

٢) وقد درست مادة (حركة الاستشراق) مع مشرفتي في السنة المنهجية ، ووقفت على أعمالهم المشوهة للتاريخ الإسلامي، ولا سيما التاريخ العثماني، فحرصت على التخصص في الاستشراق لدَحض آرائهم وإظهار عدم صحتها وصدقها ، إضافة إلى رد الافتراء عن الدولة العثمانية، التي لها واجبُ علينا فقد قامت بحماية البلاد الإسلامية والإسلام لستة قرون ، فلتاريخها منا كلمة حق وإنصاف ، حيث لم ينصفها إلا القليل، مع الأخذ في الاعتبار أنه تخصص لا يزال البحث فيه بكراً وغيرَ مطروق. ومن واجب المؤرخين أصحاب المنظور الإسلامي إعادة النظر في أهم جوانب تاريخ الدولة العثمانية، أملاً في التئام تلك الشروخ والفجوات التي كانت نتاج صياغة المستشرقين للتاريخ العثماني الإسلامي .

٣) اختياري لهذا الموضوع هو تحدٍ للاستشراق والمستشرقين ، لأن طريقة عرضهم للمعلومة،وتعصبهم الملحوظ حفّز لدي روح الدفاع عن الإسلام، وأصالة شخصياته المميزة، الأمر الذي دفعني لاستخدام البحث العلمي في تحليل ونقد كتاباتهم بشكل موضوعي ، ليس لكشف زيف أقوالهم فقط، وإنما لإصلاح القائم والاحتراس منه ، وإثبات أن عقلية المسلمين واعية لا تصدق كل ما يقال لها دون إخضاعه للتحليل والمنطق ومن منطلق التخصص أردت تصحيح صورة الدولة العثمانية المفترى عليها.

٤) حاجة المكتبة التاريخية الإسلامية العثمانية للكتب المحايدة التي تؤرخ لهذه الفترة من مصادر موثوقة لا يشوبها شائبة ، وتذكر الأحداث التاريخية بصدق وحقيقة واضحة.

٥) إن دائرة المعارف الإسلامية أصبحت–للأسف–مرجعاً لكثير من الباحثين والباحثات، ومعلوماتها في نظرهم لا تقبل الشك، وقد وجدت أن دائرة المعارف تلك لا تخلو منها أي مكتبة عامة داخل البلاد الإسلامية أو خارجها، حتى إنها متوفرة في المكتبات الأوروبية ، ويعدونها حجة فيما تتكلم عنه، ولذا أردت أن أقول كلمة حق في هذه الموسوعة؛ للحذر عند الأخذ منها، ولا يمنع ذلك وجود كثير من المعلومات الصادقة. ويعتبر لها الأسبقية فيها.

٦) على الرغم من تعدد مؤلفيها ، واختلاف أهوائهم الشخصية ، وأهداف كل واحد منهم، إلا أن الأهداف الأساسية واحدة ، وهي :

أ) زعزعة ثقة المسلمين بدينهم الإسلامي .
ب) تشويه الإسلام لصد الغربيين عنه .
ج) تهيئة المعلومات اللازمة والأجواء ؛ لخدمة الاستعمار والمنصرين .
د) تهيئة العقول المسلمة لاستقبال آراء الغرب وتقاليدهم وقوانينهم عوضاً عن الشريعة الإسلامية .

٧) هذه الدائرة الإسلامية رغم ما قيل عنها من مزايا،إلا أنها مليئة بالأخطاء التي أفقدتها قدراً كبيراً من فائدتها بسبب التشويه المتعمد ، مع الوقوع في أخطاء كثيرة لجهل الكثيرين من كتابها باللغة العربية، وبحقائق الإسلام ونظمه ، فوجدت أنه من الواجب بيان ذلك حتى لا يظهر أن ما كتبوه هو الصواب بإقرار المسلمين وسكوتهم على ذلك.

٨) إن وفرة معلومات هذه الدائرة الإسلامية حيث جمعت بين جنباتها تخصصات مختلفة، وتم صياغة معلوماتها بأسلوب سهل يستفيد منه الجميع ، فضلاً عن سهولة الرجوع إليها لحسن ترتيبها ، واغترار بعض الناس بأسماء كتابها ، وقبول كل ما كتب فيها ، حيث أطلق عليها لفظ " إسلامية " أي أنها مرجع لكل العلوم الإسلامية، هذه العوامل مجتمعة جعلتني أفكر ملياً في اختيارها موضوعًا للدراسة.

والحق يقال إن علماء الأزهر وأساتذة دار العلوم والجامعات المصرية أسدوا للترجمة العربية خدمات جليلة بتعليقاتهم، وإبداء ملحوظاتهم على الأخطاء التي كتبت عن الشريعة الإسلامية، ولكن هذه التعليقات لم تخرج عن حيز الموضوعات الخاصة بالعقيدة الإسلامية، وأحكام الشريعة، وبعض المفاهيم الخاصة بالإسلام. ولم يقدموا أيّ تعليق على الموضوعات الخاصة بالتاريخ الإسلامي، وتاريخ الدولة العثمانية والذي احتوى على كثير من الأخطاء والشبهات ، وذلك للحط من قدر الدولة العثمانية ، ولم يعلق أيّ مُترجم على مدى صحة المعلومات التي أوردوها ، إضافة إلى أن المترجمين والمستشرقين – على حد سواء – اعتمدوا على مصادر ومراجع أجنبية فقط، ولم يُدخلوا مصادر إسلامية وعربية إلا فيما ندر .

وقد حرصت في هذه الدراسة على استقاء المادة العلمية من منابعها ومصادرها الأصلية؛ إمعاناً في أصالة المعلومة، حيث تمكنت – بفضل من الله وتوفيقه – من القيام برحلتين علميتين إلى إستانبول ،قمت خلالهما بجمع المصادر والمراجع اللازمة للدراسة ، وزيارة أرشيف رئاسة الوزراء واستخراج الوثائق ذات الصلة الوثيقة بالموضوع ، كما زرت

أرشيف طوب قابي سراي ، واستفدت من الوثائق والفرمانات والدفاتر الموجودة في الأرشيف، وتمت ترجمة هذه الوثائق خصيصاً للاستفادة منها في الدراسة .

كما جمعت عدة مخطوطات عثمانية قديمة أسهمت بشكل كبير في إثراء معلومات الدراسة. إضافة إلى عدد من دوائر المعارف التركية والمعاجم ذات الصلة بالموضوع ، واعتمدت في أغلب المباحث التي تتناول النقد والتحليل لمواد الدائرة الإسلامية على مصادر عثمانية ومراجع تركية؛ وذلك لوجود المعلومات الصادقة والدقيقة والحيادية فيها ، وأغلبها عبّرت عن وجهة نظر إسلامية؛ لأن أغلب المصادر كانت معاصرة للأحداث، فأخضعتها للدراسة والتحليل للخروج بمعلومات أحسب أنها ستخدم الدراسة .

عوضاً عن المصادر العربية ذات الصلة بالموضوع مثل تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد المحامي، وتاريخ الدولة العثمانية ليلمازا وزتونا ، وتاريخ الدولة العثمانية وحقائق الأخبار عن دول البحار لإسماعيل سرهنك ، وغيرهم من المصادر التي أثرت معلومات الدراسة .

أما المراجع العربية فلا يمكن إنكار فضلها على الدراسة ، سواء ما كتب عن تاريخ الدولة العثمانية بصفة عامة ، ولكن بطريقة حيادية موثوقة. أم ما كتب عن الاستشراق ومواجهته من الناحية الشرعية .

ولكن يعاب على بعض المراجع وخاصة المستشرقون لنجيب عقيقي أنه لم يذكر المراجع التي رجع إليها وترك أغلب صفحات كتابهِ دون هوامش وبذلك يفوت على القارئ الاستفادة من المراجع والعودة لها .

على الرغم من أن كثيراً من المؤرخين والمفكرين كتبوا عن الدولة العثمانية إلا أن أغلب كتاباتهم جاءت مكررة ولم تأت بجديد ، وينقصها الدقة في أكثر الأحيان ، خاصة أنهم اعتمدوا على ما كتبه من سبقهم من المؤرخين أو ما ترجم منذ مدة طويلة ، ولم يتحمل المؤرخ عناء البحث عن معلومات جديدة ، أو إعادة الترجمة لتجديد المعلومات وإنما اكتفى بالنقل عن السابقين فقط .

أما عن كتب المستشرقين فلم استعن بأي منها؛ وذلك لوجود الآراء الفاسدة نفسها التي جاءت في دائرة المعارف الإسلامية على الأغلب ، وأما الحقائق التي ذكروها فقد تناولتها أو عرضتها الكتب التركية والعربية .

ومن أهم الصعوبات التي واجهتني ندرة المعلومة الصحيحة التي تتسم بالوضوح والدّقة، وسيتضح ذلك من خلال صفحات الدراسة، إذ اعتمدت في بعض المباحث على مصادر

ومراجع محدودة جداً؛ وذلك لعدم توفر المعلومة المقنعة في كتب أخرى،مما عرقل كثيراً من مسيرة الدراسة نظراً لتشابه الهوامش إلى حد كبير. وذلك لأن بعض الموضوعات لم تتناولها كتب التاريخ العثماني، أو كتب الاستشراق إلا بإشارات عابرة ، ومقتطفات صغيرة مما شكل ندرة في وجود المعلومة، مثل دور الكنيسة في دعم حركة الاستشراق، وتنامي كراسي الاستشراق في جامعات أوروبا على إثر ظهور الدولة العثمانية، إضافة إلى دور اليهود في الحركة الاستشراقية ، وتوجيه الكتابة عن التاريخ العثماني .

ومن أكثر الصعوبات تأثيراً على مسيرة الدراسة عدم إتقاني للغة التركية مما سبب لي عائق عدم اختيار الوثائق والحصول عليها فاضطررت للأنتظار لشهور طويلة حتى وصول الترجمة من الخارج، حيث تمت في إستانبول والقاهرة ؛ لعدم وجود مترجمين متخصصين في المملكة. كما أن عدم توفر الكتب داخل المملكة جعلني أتحمل مشقة السفر إلى الخارج لإحضار الكتب المطلوبة ، وذلك أن المعلومات المحايدة ليست متوفرة في كل الكتب وإنما في القليل جداً منها.

أضف إلى ذلك صعوبة الحصول على الوثائق من أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول نفسها ، فالأمر يتطلب إجراءات طويلة تمتد لعدة شهور، تبدأ من القنصلية التركية في جدة ، واستخراج الإذن، إضافة إلى صعوبة إجراءات الدخول إلى أرشيف طوب قابي سراي ؛ لأن له إجراءات مختلفة وإذن آخر، مما زاد الأمر تعقيداً .

عوضاً عن غموض بعض مواد الدائرة الإسلامية ، وتداخل معلوماتها بشكل كبير، مما زاد من صعوبة تفنيد المعلومة، ليتم نقضها وكذلك عدم الالتزام بالتسلسل التاريخي للأحداث ، وخير مثال على ذلك مادة الترك التي قدمها كرامرز ، ومادة شيخ الإسلام ، وهي أيضاً من عمل كرامرز ،وهذه السمة غلبت عليه في أكثر المواد التي كتب عنها في الدائرة الإسلامية.

وأخيراً فإن كثرة أسماء الشخصيات والمواقع كانت ستشكل عبئاً ثقيلاً على صفحات الدراسة لو تمت الترجمة لهم جميعاً في الهوامش ، لهذا اكتفت الدراسة بترجمة الأسماء والمواقع المهمة فقط .

أما عن المنهجية والطريقة التي اتبعتها الدراسة في نقض آراء المستشرقين في مواد دائرة المعارف الإسلامية ، فتمثلت في تقسيم الدراسة للآراء التي ترد في المادة ، والمراد نقضها على هيئة نقاط يشار إليها أولاً وثانياً ... ثم يتم نقض كل نقطة حسب ترتيب المادة ، مع ذكر النص كاملاً لتلك المادة .

قد يلاحظ المطلع على الدراسة بأن هناك عدم إلتزام بالتسلسل التاريخي للحدث في المادة المقدمة عن أي سلطان ، مثال على ذلك مادة السلطان عبدالحميد الثاني ، حيث قدمت المادة ولادته ووفاته ثم أهم الأحداث في عهده ، وذلك مخل بالسياق التاريخي لأن الوفاة لابد و أن تأتي في نهاية السيرة الذاتية للسلطان مما اضطرني الى السير على نفس المنهجية التي سردت بها دائرة المعارف الإسلامية السير الذاتية للسلاطين حتى يسهل على القارئ تتبع وتحليل النقد .

ويجب التنويه إلى أن هامش دائرة المعارف الإسلامية المترجمة يكتب بالعربية ، أما هامش دائرة المعارف الإسلامية الغير مترجمة والتي ترجمت موادها للدراسة فقط تكتب بالإنجليزية.

وتمثل هذه الدراسة إعادة لكتابة التاريخ العثماني من منظور إسلامي ، في عصر القوة بعكس ما هو متعارف عليه من الرجوع إلى كتب مستشرقين أوروبيين ، وذلك بالرجوع إلى وثائق عثمانية ومخطوطات قديمة ، بالإضافة إلى كتب عثمانية و كتب تركية ، وهي في الواقع أكثر قربا للحدث وإدراكاً لجوانبه . وليست كتاباتي هنا عبارة عن نقد وتحليل فقط للمادة العلمية .

فمن الأهمية بمكان أن توجد كتب صادقة تلقي الضوء على عصري القوة والضعف في الدولة العثمانية بمصداقية وحيادية وكان ذلك هدفي من اختياري لهذا الموضوع.

وفيما يتعلق بالخطة التي سارت عليها الدراسة فهي تتضمن تمهيداً وأربعة فصول ، إضافة إلى الخاتمة والملاحق وثبت المصادر والمراجع .

وقد تضمن التمهيد شرح منهجية كتابة المستشرقين للتاريخ الإسلامي بصفة عامة قبل العهد العثماني ، بدءًا بالسيرة النبوية الشريفة والصحابة ووصولاً إلى الدول الإسلامية عامة.

وناقش الفصل الأول أثر قيام الدولة العثمانية في ازدياد الاستشراق من خلال زيادة أعداد كراسي الاستشراق في الجامعات الأوروبية ، وبالتالي زيادة أعداد الخريجين منها الذين كان لهم الدور الأكبر في قيادة الفكر الاستشراقي في الكتابة عن التاريخ العثماني. وأدَّى إنشاء هذه الكراسي إلى زيادة مراكز الاستشراق في الجامعات الأوروبية ، وتأسيس وإصدار العديد من المجلات التي تخدم أفكارهم وتروج لأبحاثهم .

وتطرق هذا الفصل إلى دور الكنيسة والبابوية في تشجيع حركة الاستشراق ، وما تبعه من دعم مادي ومعنوي على جميع الأصعدة ، حيث رصدت الميزانيات الضخمة لدعم

الكتابة ضد كل ما هو إسلامي ، وذلك بهدف التغلب على الإسلام وتعويض خسارة الحروب الصليبية .

وناقش هذا الفصل ردود فعل أوروبا على الفتوحات العثمانية ، وتجسدت في الدعوة لتكوين الأحلاف الصليبية ضد الدولة العثمانية ، كان للبابوية والكنيسة دور كبير فيها ، بالإضافة إلى ترأسها لهذه الأحلاف بدعوة دينية .

و أختتم هذا الفصل بسياسة التسامح الديني التي كان لها الأثر الأكبر لدعم حركة الاستشراق ضد المسلمين ؛ وذلك لأنها فتحت المجال والأبواب أمام المستشرقين واليهود ليتوغلوا في الأراضي العثمانية ، مما أعطاهم الحرية في الكتابة عن الدولة العثمانية ، بل والعمل على بث الفتن داخل أراضيها.

والفصل الثاني ركزت الدراسة فيه على تاريخ دائرة المعارف الإسلامية ، فتناول التعريف بالدائرة ، وتاريخ طباعتها ، إضافة إلى التعريف بالترجمات التي انبثقت من النسخة الأصلية ، عوضاً عن توضيح عدد الطبعات المتوفر منها حالياً، واحتوى على أبرز الأقوال حول الدائرة الإسلامية ، والتعريف بأهم مُترجميها . ثم تطرق هذا الفصل أيضاً إلى التعريف بالمستشرقين الذين تناولت الدراسة موادهم التي دارت حول تاريخ الدولة العثمانية وسلاطينها، واحتوى هذا التعريف على سمات أسلوبهم ، وأفكارهم وأهم أعمالهم ومؤلفاتهم .

وأخيراً اهتم هذا الفصل بدور اليهود في توجيه الكتابة عن التاريخ العثماني، والأسلوب الذي اتبعوه في ذلك من وسائل وخطوات للوصول إلى الصورة التي أرادوها لتاريخ الدولة العثمانية ، مستغلين في ذلك الأوضاع التي نالوها فيها ، وسيطرتهم على المصارف والأمور المالية ، إضافة إلى تدخلهم في الشؤون السياسية والاقتصادية .

واختص الفصل الثالث بمناقشة رؤية المستشرقين عن بعض سلاطين الدولة العثمانية، ومعالجة أسباب قيامها، وسلاطين التأسيس مروراً بسلاطين العصر الذهبي، أمثال محمد الفاتح ، سليم الأول ، سليمان القانوني ، وانتهاءً بسلاطين عصر الضعف أمثال سليم الثالث ، عبد الحميد الثاني ، عبد العزيز ، محمد وحيد الدين ، عبد المجيد الثاني ، وذلك من خلال مناقشة آرائهم وافتراءاتهم ، والرد عليها من الوثائق والمصادر العثمانية والتركية الحديثة الموثوقة ، وهذا الرد يوضح إسلامية الدولة العثمانية في المقام الأول. وفي نهاية كل فصل استخلصت الدراسة عدة نتائج مهمة تلقي الضوء على عدم صدق معلوماتهم التي أوردوها.

والفصل الرابع ،يعالج ويناقش رؤية المستشرقين عن النظم العثمانية ، وقد أخذت الدراسة أمثلة على بعض النظم العثمانية مثل نظام الإنكشارية ، وذلك للرد على قضية ضريبة الغلمان والاتهامات التي وجهت نحو الدولة العثمانية في هذا الأمر. تناول الفصل كذلك نظام الحريم الذي يكاد يكون مجهولاً للمؤرخين والمستشرقين على حد سواء ،ومع ذلك خاضوا فيه من خلال شخصيات مهمة في الحريم، أمثال خرّم سلطان ، وماه بيكر كوسم ، بواقع خيالهم المريض، وحياة النساء في قصور أوروبا، وإلقاء الشبهات والإفتراءات حول نظام الحريم ، بل صياغة القصص الخيالية عنهن دون دراية ،مما يؤدي إلى خروج الحريم بصورة مخالفة عن الواقع تمامًا، وقد عالجت الدراسة في هذا المبحث الافتراءات حولهن، ومحاولة نقل النمط الذي كان سائداً في حياتهن .

وأخيراً تطرق الفصل للنظم الشرعية من خلال نظام شيخ الإسلام أنموذجًا وناقش آراءهم حول منصبهِ، والتهم التي وجهت إلى شخصياتهم، والرد عليها .

ويختتم كل فصل بعدد من النتائج التي توصلت إليها. وفي الخاتمة خرجت الدراسة بعدة توصيات تتأمل من خلالها الباحثة أن تصل بالقارئ إلى الصورة الحقيقية للدولة العثمانية، بعيداً عن افتراءات المستشرقين، وذلك من خلال نتائج، وحقائق تاريخية ثابتة غفل عنها التاريخ ، وترك المجال مفتوحًا لأقلام حاقدة ، تصوغ تاريخ دولة من أكثر الدول الإسلامية خدمةً للإسلام والمسلمين والعالم الإسلامي .

وإذا كان العهد العثماني قد مضى وانقضى ، فإن واجب الإنصاف يقتضي أن نزيل من الأذهان التهم المغرضة التي أُلصقت بالتاريخ الإسلامي .

إن الحكم على دولة أمتدّ عمرها نحو ستة قرون من الزمان يقتضي آفاقاً أبعد ، وتفاصيل أشمل .

وآخرًا : أود أن أشير إلى أن ما قمت به من عمل هو محاولة علمية لطالبة علم مبتدئة في مشوار البحث العلمي، فإن أصبت فيما قمت به فهو توفيق من الله ﷻ وإن أخطأت فمن نفسي ، فأستغفر الله ﷻ من الخطأ ، وجّل من لا يخطئ .

وإنني بعد هذا الجهد أشكر الله ﷻ أن وفقني للقيام بهذا العمل. ومن باب الوفاء والتقدير أشكر كل من له علاقة بإنجاز هذا الجهد ، وأبدأ بوالداي الكريمين فلهما الشكر والتقدير، لتشجيعهما المتواصل باستكمال دراستي وكرمهما الدائم معي ، ودعائهما المتواصل لي بالتوفيق والهداية ، ودعمهما المستمر الذي لا حدود له .

والشكر موصول إلى أستاذتي المشرفة سعادة الأستاذة الدكتورة أميرة علي مداح التي تابعت مسيرة الدراسة منذ اختيار الموضوع ووضع الخطة ، ولم تدخر وسعاً في توجيهي والمراجعة المتواصلة لي ، وتقديم النصح والإرشاد ، والتقويم الذي أنار طريقي في البحث فلها مني كل الشكر والتقدير على ما بذلته من جهد ووقت ، ولا أنسى أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأخي سليم وأختي نهله على دعمهما لي ومساعدتي المتواصلة لإخراج الدراسة بهذا الشكل ، واجتياز الصعاب والعقبات . ولا يفوتني أن أشكر منسوبي قسم التاريخ، على دعمهم وتشجيعهم لي في كل ما يخدم مصلحة طلاب وطالبات القسم ، كما أود أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى سعادة القنصل العام باستانبول الأستاذ عبد الوهاب الشيخ على مساعدتهِ لي في تسهيل الإجراءات اللازمة لزيارة دور الأرشيف والمكتبات ، وأود أن أشكر سعادة الدكتور تحسين أوغلي الذي أسهم بشكل كبير في إنجاز الترجمة اللازمة للدراسة في وقت قياسي .

كما أتوجه بالشكر والاحترام لقسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة على دعمهِ المتواصل لي، وتقديم المساعدة الدائمة ، وعلى رأسهم سعادة الدكتور عمر يحيى ، وسعادة الدكتورة ثريا دمنهوري ، وكافة منسوبي القسم الذين حرصوا دائماً على تقدمي العلمي .

وأعُرب عن شكري لأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول ، وأرشيف طوب قابي سراي، والمكتبة السليمانية ، ومكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض ، ومركز الملك فيصل الإسلامي بالرياض ، وكل من قدم لي المساعدة سواء بالكلمة والتشجيع أم بالمعلومة المفيدة .

وأشكر الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة الفحص والمناقشة ، راجية من الله ﷻ أن يكون هذا العمل المتواضع إسهامًا علميًا يستفيد منهُ المتخصصون في مجال التاريخ الحديث والتاريخ العثماني .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

انتًهيذ

انًستثيُهشحليٍ في كتابنتبسيخ ا.س.يي
لبلإيعثًبَيٍ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين الهادي الأمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

إنطلاقاً من قولهِ تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ [1]

وقولهِ تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ [2]

وقولهِ تعالى: ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[3]

وقولهِ تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [4]

ندرك أنَّ التاريخ الإسلامي في واقع الأمر هو الإسلام مطبقًا منفذاً واقعاً ، فتشويه التاريخ الإسلامي يعني تشويه الإسلام ، لأن الإسلام منهاجُ ربانيّ سماويّ مثاليّ التطبيق لجميع فئات البشر .

وهدف الاستشراق الحقيقي هو تنفير المسيحيين من الإسلام ، وإبعاد المسلمين عن جوهر دينهم ، والآيات السابقة توضح تماماً موقف أهل الكتاب من الإسلام والمسلمين ، وبالتالي موقف المستشرقين في كتابتهم عن الإسلام ، فلم يأتوا فيها بجديد ، بل رددوا ما لاكته ألسن المشركين منذ أكثر من خمسة عشر قرناً ، مع إضفاء لونٍ من العلمية والمنهجية بأسلوب متطور وحديث وهدف المستشرقين الأساسي إصابة أجيال الشباب بالشك والكراهية والانتقاص من أمجاد تاريخ الإسلام ؛ لينصرفوا عنه ويقع الشك واليأس في نفوسهم .

وتعتبر دائرة المعارف الإسلامية من أكبر الجهود الاستشراقية العالمية ، فقد تناولت موضوعات مختلفة ، إلاَّ أن تركيزهم جاء بالدرجة الأولى على الإسلام والمسلمين ، بهدف تشويهه وإضعاف المسلمين ، والكيد لهم ، والطعن في تعاليم دينهم ، وهي الصورة الحقيقية للتطبيق العملي ، والناطق الرسمي لكل مناهج الاستشراق وأساليبه . وقد حوت في صفحاتها

---

[1] سورة النساء ، آية 89 .

[2] سورة البقرة ، آية 217 .

[3] سورة آل عمران ، آية 69 .

[4] سورة الحجرات ، آية 6 .

تطبيقًا لكل منهج وأسلوب وطريقة. ولهذا تعتبر مرآة حقيقية لفكر وأسلوب وطريقة ونفسية المستشرقين ، وما الاستشراق إلا صورة من صور ممارسة القوة الثقافية على الشعوب .

ولأهمية التاريخ الإسلامي وأثره في الأمة اتجه المستشرقون في أبحاثهم إلى التاريخ، حتى جاء معظم نتاجهم في مجال التاريخ سواء أكان أبحاثًا أم تحقيقًا أم نشرًا أم ترجمة.ولعل هذا يقودنا إلى ضرورة تعريف الاستشراق.

أولاً : لغة

لم ترد كلمة الاستشراق في معاجم اللغة العربية القديمة . فهذه الكلمة مترجمة عن كلمة (Orientallsm) وهي مشتقة من كلمة (Orient) التي تعني الشرق . فيقال : أشرقت الشمس شرقاً وشروقاً إذا طلعت . واستشرق أدخل نفسه في أهل الشرق ، وصار منهم . وتعني أيضاً : طلب الشرق ؛ لأن "السين والتاء" للطلب .

ثانيًا : أما اصطلاحًا

طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم. ويوصف بذلك لمن يعُنى به من علماء الإفرنجة .
وهو حركة فكرية غربية ، تُعنى بدراسة علوم الشرقيين ، ودياناتهم ، ولغاتهم ، تواريخهم ، أوضاعهم الإجتماعية ، ونحو ذلك .

وبدأ الاستشراق لدراسة الإسلام واللغة العربية ، وبعد ذلك توسع ليشمل جميع ما يتعلق بالشرق .

"فالمستشرق" مصطلح واسع يشمل طوائف متعددة ، تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، وتَدرُس العلوم والآداب الخاصة بالهند والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق .

والمستشرق اسم يطلق على عضو الكنيسة الشرقية، إلا أنه في القرن 11هـ / 17م أصبح يطلق على من لديه معرفة بدراسة الشرق .

ويرجع السبب في تعلق الغرب بالشرق وعلومه ما شهدوه من تقدمه في العلوم والمعارف، وامتلاكه لخيرات الأرض، وكونه مهبط الوحي، ومبعث الرسالات . [1]

---

[1] سهيل صابان : الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري ، رسالة دكتوراة لم تطبع ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، 1415هـ / 1994م ، ص 132 ، 133. مانع حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان = =والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ط3 ، الرياض : دار الندوة العالمية للطباعة ، 1418هـ ج2 ، ص 697 . أحمد عبد الله الزغيبي : العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، ط1 ، الرياض : مكتبة العبيكان ، 1418هـ / 1998م ، ج3 ، ص 546 .

يعد الاستشراق ظاهرة فريدة في تاريخ الفكر الإنساني ، فلم يعهد أن طوائف متباينة العقائد والثقافات والجنسيات أطبقت كلمتها على دراسة دين لا تؤمن به كما فعل المستشرقون. [1]

والدراسات الاستشراقية مستمرة إلى وقتنا الحالي، إذ تنطلق في دراساتها للعالم الإسلامي عبـــر العقيدة والشريعة والتاريخ والأخـــلاق ، وغيـــر ذلك من المجالات. مستندة إلى الجهود الاستشراقية الأولى (لجولد زيهر) ، و (شاخت) ، و (بيكر) ، و (نولدكه) ، و (توماس أرنولد) وغيرهم.ولا يزال البحث في كل قضايا المسلمين قائماً وإن تغيرت بعض مناهج الدراسات ، أو أساليبها أو طريقة عرضها.[2]

وقد ارتفعت أصوات الدراسات الاستشراقية بالسخرية من تاريخ الإسلام، وأحدثت من الأساليب ما أوغر الصدور نحو الصفحات المشرقة منه، في محاولة لتحطيم روح الثقة والاعتزاز في صدور شبابنا بأمجاد أمتهم المسلمة.[3]

وتمثل منهج المستشرقين في تناول التاريخ الإسلامي لتنفيذ مخططاتهم وتحقيق مآربهم في التالي :

أولاً : المنهج من حيث الشكل الخارجي (اختيار الموضوعات ترتيب الاهتمام بها وطريقة تناولها) .

ثانياً : المنهج من حيث استكمال شروطه والالتزام بقواعده .

أولاً : المنهج من حيث الشكل الخارجي

1) حاولت الدراسات الاستشراقية الفصل بين العقيدة الإسلامية، والواقع التاريخي للدولة الإسلامية مع التركيز على نشوء الفرق الإسلامية تركيزاً واضحًا، والاهتمام بالصراع بين هذه الفرق ، وعوامل نشأتها ، ومحاولة إثارة أخبارها، ووضعها في دائرة الاهتمام ، مع إعطاء فكرة أن هذه الفرق سياسية بحتة، وذلك مثل تاريخ الشيعة وخلافاتهم مع السنة، والمرجئة والمعتزلة، وإعطاء هذه الموضوعات أهمية قصوى، كما اعتنت بتاريخ الزندقة

---

[1] محمد الدسوقي : الاستشراق والفقه الإسلامي ، بحث ضمن حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة قطر ، ج 5 ، 1407هـ / 1987م ، ص 701 .

[2] مازن مطبقاني : الاستشراق المعاصر من منظور الإسلام ، ط1 ، الرياض : دار أشبيليه ، 1421هـ ، ص13 .

[3] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ط1 ، لبنان : مؤسسة الكتب الثقافية ، 1405هـ / 1985م ، ص75 . لمزيد من التعرف على نشأة الاستشراق وأهدافه الرجوع إلى : أحمد عبد الله الزغيبي : مرجع سابق ، ج3 ، ص547 ، ص550 .

والزنادقة ، وإبرازهم في صورة أصحاب الفكر الحر وقادته، مع تتبع واضح لمواضع الضعف في التاريخ الإسلامي. فكان هناك تركيز شديد على أخبار الفتن والصراع ، وتضخيم والإكثار من الحديث عنها ؛ حتى تصبح الصورة العامة لتاريخ الإسلام ، معتمدة في ذلك على الروايات الضعيفة والواهية ، وما عُرف بالإسرائيليات بغية خدمة أغراضهم في تحوير الحدث بصورة مزرية مخالفة للواقع تمامًا. في حين أن هذا المنهج يصلح لدراسة المسيحية في أوروبا ، حيث نشأت بيئة دينية حفلت بعوامل مؤثرة خارجية، ارتكز تاريخ أوروبا في العصور الوسطى على الفرق والصراعات الدينية . [1]

وبهذا نجد أن أبحاث المستشرقين ودراساتهم ارتكزت داخل الإطار الذي يحقق أهدافهم، ويتضح من خلالها مدى التحيز لنوع معين من الموضوعات دون أي نوع آخر ، موحية بأنها الأصل في حقيقة التاريخ الإسلامي .

فجاءت جميع دراساتهم التاريخية في صورة واحدة ، وهي أن العصور الإسلامية عصور دامية مليئة بالحروب والصراعات الخارجية، والنزاعات السياسية والمذهبية الداخلية ولطفي لومينان يصور ذلك في قوله: "إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح " [2]

وبالتأكيد هذه الموضوعات لا تعطي صورة واضحة كاملة عن التاريخ الإسلامي فلم يكن هناك تناول لقضايا تظهر الإسلام على حقيقته، ومدى التسامح الديني في الإسلام، بل اعتمدوا على أحداث فردية صغيرة تم تضخيمها لتغطي التاريخ الإسلامي كله، وهذه الحقيقة واضحة في أبحاثهم ، فلم تتناول الأبحاث موضوعات تتعلق بالتكافل الاجتماعي مثلاً ، أو أهمية النظام الاقتصادي ، ودوره في معالجة الفقر ، وإقامة التوازن المالي بين أفراد المجتمع المسلم، كما لم يتناولوا مثلاً فوائد الصيام الصحية ، أو الاستشهاد بسيرة القواد المسلمين ، والجوانب الإنسانية المضيئة لشخصياتهم مثلاً ، وبذلك عمدوا إلى حجب المواقف الحاسمة المشرقة التي تبرز عظمة أبطال التاريخ الإسلامي .

---

[1] نخبة من العلماء المسلمين : الإسلام والمستشرقون ، ط 1 ، جدة : عالم المعرفة ، 1405هـ / 1985م ، ص 282. محمد جلاء الدين إدريس : الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية ، ط1 ، القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، 1416هـ/1995م، ص 39 .

[2] لطفي لومينان نقلاً عن : شوقي أبو خليل : أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين ، ط 2 ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ، 1999م ، ص9.

فغضوا البصر مثلاً عن ما كشفته البرديات مؤخراً عن مدى سماحة الإسلام وعدالته في معاملة أهل مصر ، وتحريرهم من حكم الرومان الظالم المستبد ، لقد كان الفتح عملاً كريماً بالغ الأثر في نفوس أهالي مصر ، ولم يكن الفاتحون مجرد غزاة جياع مغامرين من البدو راكبي الجمال ، وإنما كانوا قوة محاربة منظمة ، يحملون أسلحة من الحديد والرصاص، يقاتلون ببسالة في سبيل الله، وأوضحت البرديات كيف أنهم حرروا مصر من الظلم البيزنطي ، وحموا دماء وأملاك المصريين ، واحترموا شخصية البلد النابعة من حضارة قديمة ، وقد أشار الأسقف يوحنا إلى أن عمرًا بن العاص لم ينزع شيئاً قط من أملاك الكنيسة. [1]

2) القفز وراء العصر الإسلامي ، والاهتمام بالتاريخ القديم لأقاليم دار الإسلام كإحياء التاريخ الفرعوني في مصر، وتشجيع حركة كشف الآثار القديمة وتصويرها على أنّها أساس حضارة مصر، والاهتمام بحضارة بلاد الرافدين القديمة (البابلية والآشورية)، وتركيز أغلب مؤتمرات الاستشراق على حضارتهم، وإبراز أهميتها ، وتجاهل تاريخ بلاد الرافدين الإسلامي ، وفي ذلك إثارة للنعرات الإقليمية ؛ لتمزيق جسد الأمة الإسلامية .

ومن المؤتمرات الدورية التي عقدها المستشرقون وتؤكد المعلومة السابقة:.

المؤتمر الخامس في كوبنهاجن 1326هـ/ 1908م ، وجاء في جدول أعماله:

التاريخ البابلي ، آثار مصر التاريخية ، تاريخ مصر القديم واكتشاف البردي ، وقد بذلوا جهودًا كبيرة للإشادة بهذه الحضارات البائدة وإغراء كل إقليم بماضيه القديم حتى صارت الفرعونية في مصر تناطح العروبة .

مؤتمر المستشرقين الدولي الحادي والعشرين في باريس عام 1368هـ / 1948م :

من المحاور وأوراق العمل التي دارت في ردهات المؤتمر ما اختص بعلم الشؤون المصرية ، ودروس في السامية ، وعلم الشؤون الآشورية ، والتراث اليوناني في الشرق ، واهتم هذا المؤتمر بالقوميات والحضارات التي سبقت بعثة الرسول ﷺ ومن ذلك الاهتمام بالفراعنة وبالآشوريين والكلدانيين والفينيقيين وغيرها من القوميات القديمة .

---

[1] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 77 . عدنان محمد وزان : الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر – دعوة حق ، السنة الثالثة ، ربيع الأول 1404هـ / يناير 1984م ، العدد 24 ، ص 132 – 134 .

ومن أبرز توصيات المؤتمر إعادة النظر في دائرة المعارف الإسلامية ، وإقامة شعبة خاصة بالشرق المسيحي في المؤتمر المقبل . [1]

إن نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها مجال تخصص فيه كثير من المستشرقين، فعكفوا على دراسة اللغات البائدة ، والتنقيب عن آثار الغابرين ، ولفقوا من رفات هش ما أسموه بالتاريخ الحضاري للعرب قبل الإسلام ، ثم مدوا آثار تلك الحضارات إلى العصر الحاضر ، فبدا الفتح الإسلامي وحضارته نشازاً في هذه السلسلة ، فبالإضافة للحضارات القديمة في مصر والشام وبلاد الرافدين اختلاقهم للاتجاه الطوراني لحساب الجمعيات السرية في تركيا .

فنتج عن ذلك نتائج خطيرة منها: تحسين سمعة الجاهلية وتمجيد طواغيتها، وبعث النعرات الانفصالية، وقطع صلة الأمة بماضيها الحقيقي، وتهيئة النفوس لتقبل إمكانية قيام الحياة المتحضرة دون إسلام ، كما عاشت تلك الحضارات قبله. والأهم من ذلك إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية التي كانت مثلاً لوحدة الأمة الإسلامية [2].

وقد وقع المستشرقون الأوروبيون فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام ، وتظهر هذه الحقيقة واضحة في أبحاثهم ، وكأن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث علمي ، بل على أنه متهم يقف أمام القضاء .

3) يسعى كثير من المستشرقين في دراساتهم التاريخية إلى وضع منهج لا ديني للبحث العلمي الذي يتمسح بالموضوعية والحياد العلمي، وهو أبعد ما يكون عنهما، وخير مثال على ذلك تناولهم لشخصية الرسول ﷺ ، فهم يذكرون لفظ " محمد " ﷺ دون ذكر السلام أو الصلاة عليه، كما أنهم يتحكمون في المصادر التي يختارونها ، فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوي ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه ، ويكذبون ما يرويه الإمام مالك في الموطأ ، ويهاجمون صحيح البخاري ويمجدون كتاب الأغاني، وألف ليلة وليلة . [1]

4) عمد المستشرقون إلى استخدام المنهج التحليلي الذي يعتمد على تفتيت الحدث التاريخي إلى مجموعة من المكونات والعناصر غير المترابط ، ويتم التأليف بينها بصورة غير

---

[1] مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 182 . مانع حماد الجهني : مرجع سابق ، ج2 ، ص 684 .

[2] عبد الرحمن حبنكه الميداني : أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التبشير . الاستشراق . الاستعمار ، ط 6 ، دمشق : دار القلم ، 1410هـ / 1990م ، ص 147 .

[1] عبد الرحمن حنبكه : مرجع سابق ، ص 175 .

متجانسة على الإطلاق ، وهذا المنهج يُرجع العناصر والمكونات إلى الظروف الدينية والبيئة الاجتماعية أو السياسية ، وفي هذا تكمن حتمية تأثر المستشرق بدينه وثقافته وبيئته [2]. وهذا المنهج يظهر بوضوح في مواد دائرة المعارف الإسلامية .

وقد انبرت أقلام المستشرقين الحاقدة بكثير من التزييف والمغالطة لشخصية وأحداث حياة الرسول ﷺ فأخرجوا عشرات الكتب التي كان من أبرز مميزاتها التعصب والحقد والخصومة بالرغم من ادعائهم الإنصاف والاعتماد على البحث العلمي ، فقد خضعوا للأهواء والظنون ، كاشفين عن هدفهم الحقيقي في إفساد الصورة الحية المشرقة لرسول الإسلام [3].

إن ذلك السيل المنهمر من التشويه والافتراء على رسولنا الكريم مارسه رجال دين من قلب الكنيسة النصرانية باتجاهاتها كافة ، ومارسه أيضاً رجال علمانيون لا علاقة لهم بالكنيسة .

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يدل على تخبط المستشرقين وجهلهم بالإسلام وشخصية الرسول الكريم ﷺ .

كتب المستشرق (مرجليوث [4] Margoliouth) مشككاً في نسب الرسولﷺ الشريف وأنه غير معروف النسب ، لكنه في ثنايا الكتاب يذكر أنه ابن عم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهذا يدحض قوله تماماً . [1]

وهذا يدل دلالة واضحة على كذبهم وافتراءهم فمن خلال كتاباتهم يستطيع الناقد أن يكشف خبثهم وكذبهم ، ويتضح تلفيقهم للأحداث.ومحاولات (جولدزيهر [2] Goldziher)

---

[2] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 45 .

[3] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 75 ، 76 .

[4] مرجليوث : دافيد صمويل : 1275هـ – 1359هـ / 1858م – 1940م ، درس الآداب الكلاسيكية في جامعة أكسفورد ، ومنها انتقل إلى اللغات السامية ، واهتم بالعربية بدأ دراساته عن الإسلام بكتاب " محمد ونشأة الإسلام ، ثم " الإسلام " ثم ألقى محاضرات عن تطور الإسلام في بدايته ، وهو يعتبر من أكثر المستشرقين الإنجليز المتعصبين ضد الإسلام ، كما أن منهجه غير علمي في تناول موضوعاته . عيّن عضوًا مراسلاً في المجمع العربي بدمشق عام 1339هـ / 1920م . انظر عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، ط4 ، الأردن : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2003م ، ص 546 . عبد الحميد صالح حمدان : طبقات المستشرقين ، د. ط ، مصر : مكتبة مدبولي ، د. ت ، ص 199 .

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 137 .

[2] جولدزيهر : أجنتس ، مستشرق يهودي مجري غزير النتاج ، ولد عام 1267هـ / 1850م في المجر ، وتعلم في بودابست ثم انتقل إلى برلين ، عاش في مصر فترة بحكم عمله ، حضر دروس في الأزهر ، ثم عين في جامعة بودابست ، واهتم بالدراسات

المستشرق اليهودي مثلاً إتهام الصحابي الجليل أبي هريرة ﷺ بتلفيق الحديث دليل على ذلك.[3]

أما ما أورده (المونيسنيور كولي) في كتابه " البحث عن الدين الحق" قوله : "برز في الشرق عدو جديد ، هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب ، وقد وضع محمد السيف في أيدي الذين تبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة". [4]

وتقابل معه في هذه الأفكار المريضة النابعة من الحقد الأعمى على الإسلام ورسوله الكريم ﷺ (ول ديورانت) في كتابه"قصة الحضارة " إذ قال : أعانه نشاطه وصحته على أداء واجبات الحب والحرب ، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره ، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لحميات ، ونوبات غريبة ... "

أي إفتراء تمادى فيه هذان المستشرقان ، وكأنه قائد أمة عادي لجيش غزاة ، وليس نبياً مرسلاً ، بل والأسوأ من ذلك أنه خان المنهج العلمي ، بقوله : " وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم " فاستخدام هذا اللفظ "ظنّ" يريد منه أن ينفي صحة الخبر ، ويبرئ اليهود من جريمة محاولة قتل الرسول ﷺ بالسم ، والصحابي الجليل الذي أكل معه .

وغني عن التعريف أن هذا الخبر موجود في كل كتب السيرة والأحاديث الموثوقة ، مثل طبقات ابن سعد ، وابن هشام في سياق غزوة خيبر . [1]

العربية والإسلامية ، ثم صار أستاذاً للغات السامية ، أهم كتبه عن الإسلام " دراسات إسلامية " وأشهر مؤلفاته " العقيدة والشريعة في الإسلام " و " اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين " توفي عام 1340هـ / 1921م . عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 115 ، 116 . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 197 – 199 . لمزيد من المعلومات انظر :
يوهان فوك : تاريخ حركة الاستشراق ، ترجمة عمر لطفي سالم ، ط 2 ، لبنان : دار المدار الإسلامي ، 2001م ، ص236 – 241.

[3] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 70 .

[4] عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية ، ط1 ، بيروت : دار ابن كثير للطباعة والنشر ، 1426هـ / 2005م ، ص19 .

(1) ورواه البخاري في : 176/5 ، ومسلم 14/7 – 15 وكلاهما من حديث أنس بن مالك ﷺ.

ورغم ثبوت هذا الحديث ، وكثرة مصادره أبت الأمانة العلمية لهذا المستشرق أن تذكر الحقيقة ، واتَّبع المنهج الخاص به . [2] وفي هذا دليل واضح على أن المستشرق دائماً غير مدرك لمعاني القرآن الصحيحة ، ولديه عدم فهم باللغة العربية ، كما أنه مقتنع بعدم صحة الدعوة المحمدية ، لهذا يبحث عما يبرر معتقده ، فهو إذن ليس باحث عن الحقيقة ، وإنما باحث عن شيء آمن به من قبل، بينما نحن المسلمون نؤمن بسيدنا موسى عليه السلام ، وعيسى عليه السلام وغيرهما من الأنبياء ، وحين نتحدث عن اليهودية أو المسيحية نحمل في قلوبنا احترامًا لدعاتها وأنبيائها . [3]

لهذا فإن كتاباتنا عن الأنبياء مختلفة عنهم ، فليس فيها ذلك التعصب الأعمى ، ولا الحقد الدفين ، بل على العكس من ذلك، نكن لهم كل الحب والتقدير والإيمان الكامل بهم ؛ لأن ديننا الحنيف يأمرنا بالإيمان بالأديان السماوية والأنبياء والرسل كافة ، قال تعالى:
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [4]

وهذه الكتابات عن الرسول ﷺ ما هي إلا انعكاس للصورة التي في داخلهم، تمثل واقع مجتمع فاسد ليس به أخلاق أو قيم ، وديانة محرفة ليست معروفة تعاليمها الأصلية ، وقصصًا ملفقة حول أنبيائهم ترتكز على محور واحد، إضافة إلى كره وحقد صليبي على الإسلام والمسلمين ليس له ما يبرره ، وهذا منهجهم في كتابة التاريخ الإسلامي .

5) طبق المستشرقون منهج الشك قاعدة صلبة لتحليل ثوابت الشريعة الإسلامية، فأخذوا يشككون في نصوص القرآن الكريم ، وفي صحة السنة النبوية ، وفي صدق الوحي ... ، ومن الغريب أنهم لم يطبقوا هذا المنهج على تراثهم الثقافي ، ولو طبقوه لما وجدوا شيئاً ذا قيمة مثل الإسلام .

وكثر عندهم التعبير عن الحقائق التاريخية بصيغ الشك أو الظن ، مثل "من الممكن "، " أظن " ، " يبدو " ، " لعله " وهذه الكلمات لها أبلغ الأثر في التشكيك وزعزعة الحقائق . [1]

كما دأبوا على التشكيك في الروايات التاريخية الإسلامية ، والتحريف في النصوص عند الاستشهاد بها ، والطعن في علماء المسلمين الثقات الذين دونوا هذه الروايات ، والزعم

---

[2] عبد العظيم الديب : المستشرقون والتراث ، ط2 ، مصر : دار الوفاء للطباعة والنشر ، 1408هـ / 1988م ، ص31-32.

[3] عبد الجليل شلبي : الإسلام والمستشرقون ، د. ط ، مصر : مطبوعات الشعب ، د. ت ، ص27 .

[4] سورة البقرة ، آية 143 .

[1] محمد فتح الله الزيادي : الاستشراق أهدافه ووسائله ، ط1 ، دار قتيبة ، د.ت ، ص 123 .

باختلاقهم الأخبار وتلفيقها، إضافة إلى الطعن في الأسانيد والمتون. بمحاولات المستشرق (شاخت) [2] في تزييف مفهوم الشريعة الإسلامية، والادعاء بأنها قامت على العرف البدوي الذي كان سائداً قبل الإسلام ، ويؤكد ذلك بكل وسائل المكر والخداع . [3] كما درج (جولدزيهر) وكثير ممن جاءوا بعده على الإسقاط في الروايات التاريخية ، لتفسيرها وفق غاياتهم المدسوسة ، إضافة إلى تفسيرها تبعًا لواقع حياتهم ومجتمعاتهم .

أما (فان فلوتن vloten) [4] يرى في كتابه " السيادة العربية " أن الصراع على الخلافة هو الذي فرق المسلمين أحزابًا وشيعًا ، ثم أخذ في تفضيل هذه الأحزاب وفق منهج خاص به ، فقسمها إلى أربعة أحزاب :

أ) حزب بني أمية ب) حزب أهل المدينة .

ج) حزب الشيعة . د) حزب الخوارج . [5]

6) ناهيك عن تلفيق الافتراءات والأكاذيب والتزوير المتعمد ، مثل تقرير روايات تاريخية لم تحدث قط ، ولإخفاء هذه الجريمة العلمية ، يتعمدون عدم ذكر مصادرهم ، وهذا وحده خروج عن منهج البحث العلمي ، فضلاً عن التحريف والاختلاق . وقد امتلأت كتبهم بأمثلة كثيرة عن هذا الأمر ، يكفي أن تجد الواقعة التاريخية مذكورة في كتاب أحد المستشرقين ، وينفرد بها دون غيره من المؤرخين ، فهذا دليل اختلاقهِ للحدث. [1] وخير مثال على ذلك كتاباتهم التي دارت حول الجهاد في سبيل الله ، وتصويره على أنه حروب لنشر دين جديد بحد السيف والدماء ، طمعًا في الأموال والغنائم ، وإثبات صفة المستعمر على الدولة

---

[2] شاخت : جوزيف 1320هـ –1389هـ / 1902م – 1969م مستشرق ألماني تلقى اللاهوت فيها ، ثم عمل في جامعة كينجسبرج ، ثم أستاذاً في جامعة القاهرة ، لفقه اللغة العربية ، وأشرف في ليدن على طباعة دائرة المعارف الإسلامية ، اهتم بدراسة المخطوطات الموجودة في استانبول ، وله عدة مؤلفات حول الفقه الإسلامي ، وعلم الكلام وتاريخ العلوم عند المسلمين خاصة الطب ، يعتبر من المستشرقين المتعصبين الذين وضعوا بصماتهم على كل ما يختص بالإسلام . للاستزادة عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 151 – 154 . عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ، ص 366 – 371 .

[3] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمين قيد التبعية والحصار ، ص 71 .

[4] فلوتن : فان ولد عام / 1903م ، مستشرق هولندي ، تتلمذ على يد المستشرق الكبير (دي خويه) المشرف على تحقيق تاريخ الطبري ، وفتوح البلدان للبلاذري ، ومن أهم أعمال (فلوتن) في التحقيق والنشر: كتاب " مفاتيح العلوم للخوارزمي ، كتاب البخلاء " للجاحظ " ، رسائل صغيرة للجاحظ ، وألف الأبحاث التالية " مجيء العباسيين إلى خراسان " أبحاث في السيطرة العربية، التشيع والعقائد المهدوية في عهد الخلافة الأموية "إمستردام. انظر عبد الرحمن بدوي:مرجع سابق ،ص410.

[5] فان فولتن : السيادة العربية ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، د. ط ، مصر ، د. ت ، ص 15 .

[1] محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 117–118 .

الإسلامية ، وذلك لكي يظهر الإسلام والحاكم المسلم والمسلمين عامة مثل شعوب أوروبا وحكامها المستعمرين الذين يسيرون على مبدأ البقاء للأقوى ؛ لكي لا تكون الأفضلية للأمة الإسلامية .

ولا شك أن تزييف أحداث التاريخ الإسلامي سيكون له الأثر البعيد في هدم مقومات الإيمان بالإسلام ، والأمة الإسلامية في نضالها الطويل في وجه الباطل ، وفتوحاتها في سبيل الله . [2]

أما عن حملاتهم المغرضة ضد أبطال الإسلام يبرز ما فعلوه بتاريخ الخليفة العباسي هارون الرشيد ، حيث صورته كتابات (جورجي زيدان) ، و(ول ديورانت) ، بمنتهى السوء والمجون وحب النساء والخمر . [3] والواقع أن كل ما كتبه هؤلاء عنه ملفق ليس له أساس من الصحة ، قاموا بادِّعاء الحيادية والسير على المنهج العلمي ، لكنهم كتبوا من واقع حياتهم وعصرهم ، متأثرين بخلفيتهم الثقافية السوداء عن الإسلام والمسلمين ، إن تصويرهم للأحداث لا يعكس سوى منهجهم في الكتابة عن الإسلام ، من عدم معرفة به وبتاريخه ، ووصولاً إلى وضع الحكم المسبق على الحدث ، والحط من الشخصيات المشهورة ورموزها.

كما عمد الاستشراق إلى إيجاد الكثير من الشُّبه حول التاريخ الإسلامي في محاولة لحياكة نسيج مؤامرة خطيرة على الإسلام لتغيير مفهومه الأصيل ، وتزييف قيمته الأساسية مع إنكار كامل لفضل الفكر الإسلامي على الحضارة والفكر العالمي المعاصر ، ومن ذلك الخداع الشديد والادعاءات الباطلة بأن المسلمين والعرب هم مجرد نقلة لحضارة اليونان . [1]

7) استخدام المستشرقين دائمًا للتعميم وكلمة "كل" على جميع الأحداث التاريخية دون إيراد شواهد أو أدلة علمية ، وعدم ذكر المصادر والمراجع المعتمدة في البحث ، وتعمد عدم إيراد أسماء من يستشهدون بآرائهم ، كأن يقال: ويذكر بعض العلماء ، أو قد قال بعض الباحثين ، أو تحدث مؤرخ مجهول عن الحدث. وبهذا تفقد الكتابة الصفة العلمية والدقة واليقين ، وتميل إلى المراوغة ، وهذه صفات تهدم أساس البحث العلمي. ودائرة المعارف الإسلامية حافلة بهذه النماذج ؛ لأنها في معظمها بحث غرضي يستهدف الوصول إلى أفكار وآراء محددة ،

---

[2] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 75 .

[3] للاستزادة الرجوع إلى : مرجع سابق ، ص 77 . عبد العظيم الديب : مرجع سابق ، ص 35 ، 36 .

[1] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحضارة ، ص 69 .

قد لا تكون لها صلة بالمنطق والنسق التاريخي . [2] لذلك فالتعميم يساعد على الوصول إلى المراد دون عناء ، وإيصال الصورة التاريخية كما أراد المستشرق .

8) تأليف الموسوعات التي عالجت تاريخ الإسلام بمنهج شمولي ، كدائرة المعارف الإسلامية التي حق لنا أن نطلق عليها " دائرة المعارف الاستشراقية " ؛ إذ حوت كثيراً من المغالطات التي تخص التاريخ الإسلامي، سواء في وقائعه أم رجاله ، أم سير أحداثه بشكل عام ، ناهيك عما ورد فيها من مغالطات أخرى عقدية وتشريعية وغيرها ، فكانت نظرة المستشرقين في هذه الموسوعة إلى التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية وفق مفهوم القيم الأوروبية الوسطية باعتباره مكملاً أو مقابلاً لها ، ويلاحظ فيها التأكيد على الحروب الصليبية أو حركة الاسترداد النصراني في الأندلس ، إضافة إلى الفعاليات الأوروبية في آسيا وإفريقيا وهو ما عرف بـــ " الاستعمار "، وفي المقابل لم يكن لإنجازات المسلمين في التاريخ والحضارة إلا حيز ضيق .[3]

لقد جاءت تلك المؤامرة واضحة على كتابة التاريخ الإسلامي بأسلوب غربي يفتقر للمعنويات الحقة التي صنعت التاريخ الإسلامي ، وأعطته الحيوية ، وأخضع للتفسير المادي الذي لا يظهر عظمة هذا التاريخ بل يطمس حقيقته وهكذا أخضعوا أحداث التاريخ الإسلامي لآلية منظورهم الشخصي من خلال تاريخ بلادهم .

وامتدت خيوط تلك المؤامرة إلى تغيير بعض أحداث التاريخ الإسلامي، ليلائم الفلسفة الأوروبية ، متخذين أسلوب إلباس الباطل ثوب الحق ، والطعن في رجال الإسلام ، وإضعاف عقائد المسلمين عن طريق تعرضهم فقط لصفحات الضعف في الدول الإسلامية لبلوغ مآربهم . [1]

9) سار المستشرقون في مؤلفاتهم عن التاريخ الإسلامي على منهج إقحام المفاهيم والمصطلحات الغربية كإطلاق "العصور الوسطى" للتعبير عن فترة تاريخية تضبط من خلالها حركة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مما يؤدي إلى إهدار الحقيقة العلمية والتاريخية ؛ إذ إنَّ تعبير العصور الوسطى إشارة إلى العصور الأوروبية المظلمة التي توسطت بين إشراقات الحضارة الصينية وبين البعث الحضاري الأوروبي الحديث ، مما

---

[2] محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 123 .

[3] عبد الرحمن حنبكه الميداني : مرجع سابق ، ص 175 .

[1] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 75 ، 76 .

يجعلنا حتماً ننتهي إلى جعل عصور النهضة الحضارية الإسلامية المضيئة عصور ظلام وتأخر حضاري [2] لما يلقيه هذا الاصطلاح من ظلال مظلمة .

ولهذا فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي تتبعتها أغلب الدراسات الاستشراقية ، تذكرنا بوقائع محاكم التفتيش في أوروبا في العصور الوسطى التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها . تتلخص طريقتها في أنها لم تنظر قط للقرائن التاريخية بتجرد ، بل تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، أملاه عليها تعصبها لرأيها .

10) محاولتهم إثبات عدم أصالة الدين الإسلامي ، بإرجاع الظواهر الإسلامية لعوامل خارجية مثل ردهم التوحيد الإسلامي إلى تأثير يهودي على الإسلام ، على الرغم من الفرق الشاسع بينهم ، وإرجاع الفلسفة الإسلامية إلى أصول يونانية، والتصوف الإسلامي قالوا :إنه صدى لديانة الفرس والهنود.[3]

ولكن ما فات على المستشرقين أنه لابد أن تتشابه الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام ، وهذا ليس عيباً ولكنه ميزة لديانات منزّلة من السماء .

11) توجيه نشر الكتب المخطوطة وإخراجها، وبخاصة في العناية بأمر الطباعة والنشر، ولعل ما ناله كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني من عناية فائقة تنوعت بين حسن الطباعة والإخراج ؛ لأن العين تبهر أولاً ، والتهذيب ، والتلخيص ، والتقديم ، والتعريف ، والتنويه ، والدراسة ، كل ذلك بتوجيه المستشرقين وعون منهم حتى صار هذا الكتاب من أكثر الكتب تأثيراً في الفكر التاريخي والدراسات الأدبية ، مع أنَّ أبا الفرج الأصفهاني معروف عند علماء الجرح والتعديل بأنه وضَّـــاع يأتي بالغرائب والعجائب بلفظ حدثنا وأخبرنا. فكيف يؤخذ التاريخ من مثل مرويات هؤلاء ؟! [1]

ثانياً : المنهج من حيث استكمال شروطه ، والالتزام بقواعده :

---

[2] جمال سلطان : الغارة على التراث ، ط1 ، مكتبة السنة ، 1410هـ / 1990م ، ص 48 .

[3] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 44 .

[1] نخبة من العلماء : مرجع سابق ، ص 280 .

لمزيد من المعلومات عن تقديم كتاب أبي فرج الأصفهاني انظر : أنور الجندي : أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي ، ط3 ، القاهرة : دار الصحوة ، 1413هـ / 1993م ، ص 45 ، 46 .

إن منهج المستشرقين في الدراسات الاستشراقية بصفة عامة سواء أكان ذلك في التاريخ أم الدراسات الأدبية، أم القرآن أم السنة أم كل ما يتصل بالإسلام والعربية له سمات وملامح واحدة ، وهي كالتالي :

أ) الخضوع للأهواء وعدم التجرد للبحث ؛ إذ إنه من المتعذر بل من المستحيل ، كما يؤكد (أتيين دينيه) : "أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة. ولذلك بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يُخشى على صورتها الحقيقية ؛ لشدة التحريف فيها، وبرغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة، ولقوانين البحث العلمي الجاد، فإننا نجد من خلال كتاباتهم أن محمدًا ﷺ يتحدث بالألمانية إذا كان المؤلف ألمانيًا ، وبلغة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليًا ... وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب!"، وإذا بحثنا في هذه السيرة عن الصورة الصحيحة فإننا لا نكاد نجد لها أثراً .[2]

وهم بهذا يخضعون خضوعًا تامًا لأهوائهم ونزعاتهم الشخصية يحركهم حقدهم على الإسلام ورسوله ، وكرههم لحضارة المسلمين .

وقد عجز المستشرقون عن تمثيل الثقافة واللغة ، وهذا ما أكده (دينيه) في قوله السابق ؛ إذ وصف كتاباتهم بأنه يغلب عليها الطابع العلماني ، والرؤية المحدودة للمناهج الغربية في تعاملها مع تاريخنا. والأجدى بهم أن يكونوا أكثر تجرداً وموضوعية في تناول أحداث التاريخ الإسلامي ، فدينيه لا يطالبهم بأن يؤمنوا بالقرآن وأن الرسول ﷺ نبياً من عند الله ، وإنما يريد كتاباتهم أكثر موضوعية .

ب) لم يستطع المستشرقون أن يكتبوا بمنظار الزمن الذي يتناولونه بل كتبوا بعقلية أوروبية مسيحية ، وبذلك عجزوا عن تمثيل الثقافة واللغة العربية والإسلامية، حاولوا تفسير أحداث التاريخ الإسلامي انطلاقاً من خلفياتهم الثقافية ، ووفق مناهجهم ومقاييسهم الخاصة بظروف بيئتهم ، بدلاً من الاعتماد على المصادر التاريخية الصحيحة ، فعمدوا إلى وضع الفرضيات والتعميمات ، وأطلقوا عليها " نظريات " ووصفوها بالعلمية ، بل بذلوا جهوداً لترجمة ونشر تلك الافتراءات ، ومنح الدرجات العليا للباحثين فيها .

وقد تطور هذا الأسلوب مع مرور الوقت ؛ وذلك لأنهم كانوا يكتبون للجمهور الغربي المسيحي ؛ لينفروهم من الإسلام ، وتوارث المستشرقون النظريات نفسها بل وعملوا على تطويرها .فنصبوا أنفسهم قضاة يحاكمون أحداث التاريخ الإسلامي ورجالاته ، وذلك

---

[2] عماد الدين خليل : مرجع سابق ، ص 27 .

لأن آراءهم وقراراتهم موجهَة إلى قراء يفتقرون للتكوين الفكري اللازم لتقييم أعمالهم ونقدها، وعدم تمكنهم من سوق الحجج اللازمة لدحض نظرياتهم وافتراضاتهم ونتائجهم ، وسايروا في كثير من الأحيان تقاليد معينة ، حيث مدوا القراء الغربيين بما يتوقع منهم أن يمدوهم به . ومن هنا جاءت مواقفهم مبنية على الوجهة العامة للاستشراق دون نقد أو تمحيص ؛ للتأكد على كماله ، أو باعتباره أمراً لا يأتيه الباطل أبداً .

وغالباً ما يقدم المستشرقون لنا صورًا خيالية أبعد ما تكون عن الحقيقة والواقع الذي حدث؛ وذلك لأن هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم ، ويلبسونهم رداء الشخصيات الإسلامية؛ لأنهم لا يستطيعون تقديم الصورة الحقيقية لرجالات الدول الإسلامية، فصوروهم حسب منطقهم الغربي وخيالهم العصري[1]

ج) اعتمد المستشرقون الأوائل على منهج العكس في البحث ، يعملون وفق منهج خاطئ من أساسه ، إذ أنهم يبيتون فكرة مسبقة ثم يختارون من وقائع التاريخ ما يناسب أفكارهم حتى وإن كانت غير ثابتة تاريخياً ، ويستبعدون ما دون ذلك ، وهذا يعني أنهم يضعون رأياً وفكرة ثم يستعينون بكل خبر من الأخبار، ضعيفها وقويها ، ولا يبالون بسند الخبر الضعيف، ثم يبنون النتائج ، ويصدرون الأحكام قاطعة بغير دليل أصلاً. [2]

إن دأب المستشرقين دائمًا أنهم يُعيّنون لهم غاية ، ويسيرون في الطريق؛ لتحقيق هذه الغاية ، إذ يقومون بجمع المعلومات ، وغالباً لا يكون لها علاقة بالموضوع ، سواء أكانت تلك المعلومات مأخوذة مِن كُتِبِ التاريخ أم الأساطير أم من تصورات خاصة ، أم قصص من الشعر ينسجونها في نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم. فأي منهج علمي هذا؟

وخير دليل على هذا الأمر ما جاء في كتاب "محمد واليهود" لمؤلفه بركات أحمد ، [1] إذ اتضح أنهم يقومون بالاعتقاد قبل الدليل ، والاستنتاج قبل المقدمات، فيكون أحدهم صائغًا فكرة مسبقة ، ثم يحاول جاهداً أن يلتمس لها الأدلة ، ولو أدىّ ذلك إلى تشويه الحقائق أو بتر

---

[1] عماد الدين خليل : مرجع سابق ، ص 27 – 28 . محمود بن عبود : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج1 ، د. ط ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، د. ت ، ص 364 .

[2] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 44 – 45 . عماد الدين خليل : المرجع السابق ، ص 28 . محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، 116 ، 117 .

[1] بركات أحمد : كاتب هندي مسلم ، لكن يبدو أنه لم يكن له نصيب من الكتاب سوى الاسم ، فإنه من فريق عمل بعض المأجورين الذين صاغوا الشبهات ، وبثوا سمومهم . انظر إسماعيل علي محمد : مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام ، رد على كتاب محمد واليهود ، ط1 ، مصر : دار النيل ، 1427هـ / 2000م ، ص 5 .

النصوص، أو استخدام أية وسيلة غير نزيهة. ومثال على ذلك كَوَّن بركات أحمد فكرة سابقة عن الرسول ﷺ فاعتقد أنه ليس نبيًا – معاذ الله – ثم نزل ميدان البحث بهذا الاعتقاد السيء ، وكرّس كل جهده لإثبات هذا الاعتقاد . [2]

د) يكاد يكون الملمح الأساسي في مناهج المستشرقين التعسف في التفسير والاستنتاج والتشكيك في الدليل القاطع، إذ إنهم يمضون مع شكوكهم ، ويطرحون افتراضات لا رصيد لها في الواقع التاريخي ، بل ينفون العديد من الروايات الثابتة ، ويتشبثون في المقابل بكل ما هو ضعيف وشاذ ، على سبيل الاختلاف والتمويه، مما يوضح الكذب وعدم تحري الأمانة. وغالباً ما تفوح من آرائهم رائحة المخالفة المذهبية أو الدينية .

فأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك ، حتى حول اسم الرسول ﷺ ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجوده ، ولكنهم مهما قالوا في نسبه ، فإن سيرة الرسول ﷺ أوضح وأنقى وأطول سيرة نعرفها بين سير الأنبياء والرسل. [3] ، ومن الأخطاء الواضحة نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما يورده (مونتجمري وات) عن آيات الاستئذان في الدخول على المنازل، فسرها على أنها دلالة على تدني المستوى الأخلاقي الذي ساد عصر الرسول ﷺ وهنا يظهر عدم درايتهم بتفسير ألفاظ اللغة العربية ، أو حتى فهمها. [4]

ومثال على ذلك ما ردده المستشرقون حول أن اسم "محمد" اتخذّ بتأثير من القراءة في الإنجيل والاتصال بالنصارى ، كما شككوا في نفي أحداث السيرة النبوية ، طالما أنها لم ترد في القرآن الكريم ، وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفصيل حياة محمد ﷺ وبذلك يكون هدفهم التحريف والتزييف والإدعاء فقط .

لقد سلك المستشرق مسلكاً عجيباً في الكتابة ، فإذا كانت هناك رواية تتصادم مع فكرته التي كونها مسبقاً ، أو تتعارض مع هواه ، ردها بكل بساطة ، وقال في جرأة عجيبة : إنها لا تصح ، وهكذا وبكل بساطة يهيل التراب على حقائق التاريخ ، وصحيح الروايات ، غير مكترث بمسلمة من مسلمات البحث ، وهي تقديم الدليل على ما يدعيه الباحث من

---

[2] مرجع سابق ، ص 24 ، 25 .

[3] عماد الدين خليل : مرجع سابق ، ص 24-26 . محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 119 – 120 .

[4] محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 119 – 120 .

دعوى، سواء أكانت تصديقاً أم تكذيباً ، وهذا ما قرره القرآن الكريم في إيجاز وإعجاز ، [1]
فقال سبحانه:﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. [2]

وكان الأجدى بالمستشرقين أن يبدأوا بدراسة الموضوع بمنهجية علمية صحيحة ، وهي البحث عن جوهر الحقيقة دون أن يكون لهم رأي خاص في بادئ الأمر ، فالقراءة الواعية وجمع المادة العلمية وتفهمها ، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر، ستوصله إلى الحقيقة، دون أن تتحكم به الأهواء ، أو توجهه الميول الخاصة. فالباحث يبدأ الدراسة لا ليبرهن على شيء ، بل ليكتشف شيئًا كان خافيًا، وهو لهذا لا يتجاهل وسيلة تساعده على بلوغ هذا الهدف، ويكون على أتم الاستعداد لأن يغير رأياً قد يكون كونه مسبقًا ، إذا جد ما يستدعي هذا التغيير ، مهما استلزم ذلك التغيير من عناء .

هــ) دأب المستشرق على بتر النصوص ، واجتزاء الروايات ؛ لخدمة أغراض دفينة في نفسه تشوه الحقيقة ، فهو يركّب الأحداث تركيباً عشوائيًا حتى يصل إلى مبتغاه ، مما يؤدي إلى ظهور الحدث التاريخي في صورة مبتورة مقطعة غير واضحة. ولعل خير مثال على ذلك اتهام بعض المستشرقين لعلماء السيرة والتاريخ بالتحامل على اليهود ، وافتراء الروايات الكاذبة عنهم .[3]

و) عدم دقتهم في استعمال المصطلحات داخل البحث ، فيستعملون مصطلحات ذات علاقة بالإسلام ، ولكن يراد منها الإساءة والتشويه إلى الدين الإسلامي ومقوماتهِ. فمثلاً يعبرون عن المسلمين بكلمة "الإسلام" وشتَّان ما بين المصطلحين في المعنى، ولكن الغرض واضح يتجلى في تقديم الإسلام من خلال سلوك المسلمين ، وتصرفاتهم ، مما يسهم في الحد من انتشار الإسلام ؛ لأنه يعمل إلى إخفاء الحقائق، وكذلك استخدام "المحمدية" بدلاً من الإسلام ، وإرجاع كلمات عربية أصلية إلى العبرية مثل كلمة " قرآن" . [1]

ز) ترك أغلب المستشرقين بصماتهم العميقة على مناهجهم في التعامل مع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي عموماً ، مع العلم أن أغلب المستشرقين كانوا من رجال الدين، أو من خريجي كليات اللاهوت ، وهم عندما يتطرقون لموضوعات الإسلام يحاولون جهدهم ردها

---

[1] إسماعيل علي محمد : مرجع سابق ، ص 27 .

[2] سورة الأنعام ، آية 64 .

[3] إسماعيل علي محمد : مرجع سابق ، ص 29 .

[1] محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 122 .

إلى أصل نصراني. أما المستشرقون اليهود فإنهم يردونها لأصل يهودي، خاصة بعد تأسيس إسرائيل ، وتحكم الصهيونية في غالبيتهم ،وكلتا الطائفتين في هذا الأمر تتبع الأهواء والعواطف.[2]

ح) استخدامهم لطريقة مبتكرة في الكتابة عن التاريخ الإسلامي، وهي منهج البناء والهدم ، ويظهر هذا المنهج بوضوح في كتاباتهم التي تناولوا فيها أحداث التاريخ الإسلامي ، حيث يقوم المستشرق بإطراء ومدح جوانب عديدة من الحدث الذي يتناوله ، ثم يبدأ في الهدم وتجريد أهم أركان موضوعه من كل مقوماتهِ حتى يسقطه تماماً بضربات قاصمة له . [3] هذه النقطة تظهر بوضوح في مواد دائرة المعارف الإسلامية ، خاصة التي تناولت ترجمة السلاطين العثمانيين .

ط) في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ، ويضخمونه حتى يتمكن من نفس القارئ ، ويصبح كافيًا لطمس أي محاسن ، ثم يذكرون عدة محاسن تافهة ليست ذات قيمة ؛ حتى يتأكد القارئ من صدق نواياهم [4]. إنهم يدسون مقداراً معيناً من السم – لا يقتل ولكن يضعف – ويحرصون على عدم زيادته حتى لا يستوحش القارئ ، ولا تُثار ريبته. إن كتابات هؤلاء أشدُّ خطراً من المؤلفين الذين يكاشفون العداء، ويشحذون كتبهم بالكذب والافتراء ، لدرجة أنه يصعب على القارئ غير المتخصص الخروج منها دون الخضوع لها . [1]

والواقع أن منهج المستشرقين المعوج في الكتابة لا يظهر إلا عند الكتابة عن الإسلام، وما يتصل به ، وكأنهم وضعوا منهجاً مصطنعًا خاصًا للدراسات الإسلامية ، أما حينما يكون مجال الدراسة شيئاً غير الإسلام ، أو تاريخ غير المسلمين ، فإن التزام الموضوعية والدقة والحياد ، والأمانة العلمية ، والسير في ركاب الأدلة والوصول إلى النتائج المقبولة هو خط سيرهم . [2]

والغريب في الأمر أن المستشرقين توارثوا آراء معينة من بعضهم ، ينقلها أحدهم عن الآخر دون مراجعة أو تدقيق ، خاصة تلك المسائل التي لها علاقة بالقرآن الكريم ، أو

---

[2] عماد الدين خليل : مرجع سابق ، ص 33 .

[3] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 46 .

[4] وخير من يمثل هذا المنهج غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب .

[1] أبو الحسن علي الحسين الندوي : الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ، د. ط ، مؤسسة الرسالة ، د.ت، ص16 ، 17 .

[2] إسماعيل علي محمد : مرجع سابق ، ص 33 .

السنة النبوية الشريفة ، أو غيرها مما له صلة بكل ما هو إسلامي، مما جعل هناك ثوابت ومصادر في حركة كتابة المستشرقين لا تقبل الشك ، حتى صارت آراؤهم لا تناقش مطلقًا ، وإنما يتلقفها غيرهم من المستشرقين لترويجها فقط دون أن يدرسوها ، وربما نالت المعلومة المزيفة بعضاً من الزيادات والتلميع . [3]

وقبل أن نختم الحديث عن منهج المستشرقين في التاريخ الإسلامي ينبغي أن نشير إلى أن أعمالهم تسير وفق خطة مدروسة ، ولذلك فهي تتغير تبعاً لمقتضيات العصر. فقد اختفى من مؤلفاتهم ذلك الأسلوب الفج الاستفزازي ، والطعن المكشوف ، فبدأوا خطة احتواء الفكر الإسلامي ، بمعنى التفسير المادي للتاريخ ، بحيث يرفض وينفي ما لم ينسجم مع مطالب المنهج الجديد ، وتخضع الوقائع لتحليلات قسرية .

ومواد التاريخ العثماني في دائرة المعارف الإسلامية توضّـــح بشدة هذه المناهج والأساليب التي اتبعها المستشرقون في الكتابة عن التاريخ العثماني ، وتعتبر تطبيقًا عمليًا حيًا لكل منهج وطريقة وأسلوب .

لقد أدرك المستشرقون تحيزهم ضد الإسلام مؤخراً ، فأعادوا النظر في منهج كتاباتهم ؛ ليغيروا الفكرة السائدة، ويصرفوا النظر عن أغراضهم الحقيقية . ويؤكد ذلك المستشرق (منتجمري وات) حيث أكد أنَّ كتابات المستشرقين خلال عصر النهضة كان يشوبها التشويه والافتراء على الإسلام ؛ لإحساسهم بالنقص ، لكن في ق 20م تغّير الوضع حيث أصبح ذكر الحقائق دون تحريف السمة المميزة لكتابات المستشرقين ، خاصة بعد انتقال زمام المبادرة والسيادة لأوروبا.[1]

ولكن هذا القول ليس إلا لذر الرماد في العيون ؛ ليوهَم المسلمون بأن أهدافهم قد تغيرت ، ونظرتهم للإسلام نظرة تقدير وإنصاف، والحقيقة هي الخداع والتضليل ؛ لأن حملات تشويه الإسلام لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا، فالمستشرقون أحسوا بعدم موضوعيتهم ، وتحيزهم ؛ فلجاءوا إلى صنع جو من الاطمئنان بين المسلمين ؛ لخلق التفاهم بينهم ، ولتحقيق غايات بعيدة المدى.

فقد تراجعوا عن الأسلوب القديم المباشر في الافتراء والتشويه، واستخدموا أسلوباً أشدَّ مكراً ، وأسوأ سبيلاً ، وهو اتخاذ الإنصاف الجزئي مدخلاً للطعن في التاريخ الإسلامي ، إذ يدخلون في الموضوعات من باب التقدير والمدح حتى ينخدع القارئ ويكسبوا ثقته ، ثم لا

---

[3] محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 120 .

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 134 .

يلبثوا أن يثيروا الشبهات خفية في إطار هذا التقديم الكاذب بكلمات مقتضبة بين الجمل ، وأبلغ دليل على ذلك دائرة المعارف الإسلامية . [2]

ولا يقول بعضهم إننا نتصيد أخطاءهم ، فإنّ أخطاءهم واضحة ،ولا تحتاج إلى تصيد، وهم ليسوا خطائين، وإنما هم قاصدون التشويه، وهذا أسلوبهم الاستشراقي الجديد. [3]

لا نستطيع أن ننكر أنهم نظموا تاريخنا ، وحفظوا مخطوطاتنا، وكذلك وثق مثقفونا بأبحاثهم ظناً بأنهم يستخدمون المنهج العلمي السليم لكن مع تزايد الشعور بالاستقلال الفكري، والشعور بشخصيتنا المسلمة ، استطعنا أن نكشف حقيقة هؤلاء وأبحاثهم . [4]

العوامل المفسرة لكتابات المستشرقين :

١) الوجدان النصراني المفعم بالحقد على المسلمين ، ومفاهيمه الثابتة ، والموروث الثقافي الغربي في نفوسهم الذي يقع ضمن دائرة الصراع العرقي والديني مع المسلمين .

٢) طبيعة الاستعلاء الغربي على الأمم نتيجة ما يسمى بالجنس الأبيض صانع الحضارات ، وما يتبع ذلك من انتقاص للحضارات الأخرى .

٣) عَجْزُ المستشرقين عن امتلاك ناصية اللغة العربية ، واستيعاب البيان العربي والبلاغة ، خاصة في فهم معاني الكلمات ومجازاتها ، مما شكل عائقًا حقيقيًا أمامهم في فهم وإدراك معاني الكلمات، وخاصة في فهم النصوص القرآنية ، والأحاديث الشريفة .

٤) انعدام الخلفية الثقافية الكافية في موضوع كتابة المستشرق ، والاعتماد على مصادر ثانوية لإثراء معلومات هي في الأصل ناقصة تماماً ، مما أدى إلى ابتعادهم عن المنهج العلمي الصحيح . [1]

لا أشك أن الخوف من الإسلام من الأسباب التي أدت إلى نشأة الدراسات الاستشراقية،ومع كل التشويه الذي نال من شخصيات وأحداث التاريخ الإسلامي، إلا أنه لم تحظَ أي دولة إسلامية بقدر ما حظيت به الدولة العثمانية من اهتمام أقلام المستشرقين إلى يومنا هذا. فقد عُدَّت مادة خصبة ثرية للكتابة عنها ، وتشويه تاريخها ، واختلاق الأكاذيب

---

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 134 – 136 .

[1] عبد العظيم الديب : مرجع سابق ، ص 40 – 41 .

[2] مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ط1 ، لبنان : دار الوراق ، 1420هـ / 1999م ، ص83.

[1] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 71 . محمد فتح الله الزيادي : مرجع سابق ، ص 115 .

حول أحداثها. فكُتبت عن الدولة العثمانية مئات الكتب ، وعن سلاطينها أكثر على اعتبار أنهم قادوا الفتوحات الإسلامية في العصر الحديث ، فكانوا بحق أهل السنة والجماعة اعتقاداً وعملاً .

إن المحاولات التي تمت في عهد تركيا الحديثة لتشويه التاريخ العثماني لم يقع مثلها في أي دولة من دول العالم ، ونتج عن ذلك أنّ الجيل الذي تربى على الثقافة الغربية في عصر الجمهورية أصبح من ألدّ أعداء الدين والتاريخ الإسلامي والعثماني . [2] وبالتأكيد يعود ذلك إلى أنَّ الدولة العثمانية حملت الإسلام إلى أوروبا ، إضافة إلى افتقار أوروبا نفسها لسمات لم تستطع على مر تاريخها إلى يومنا هذا أن تتحلى بها ، في الوقت الذي كانت تمارسها الدولة العثمانية بشكل طبيعي ، ولعل من أبرزها سياسة التسامح الديني التي ميزت الدولة العثمانية في فتوحاتها .

وسلاطين الدولة العثمانية هم أقل السلاطين حظًا في التاريخ ، حيث إنهم أُتهموا كثيرًا في الكتب والدراسات التاريخية ، فتاريخهم تعرض لكثير من الافتراءات والأكاذيب، ولذلك لابد من توضيح خصائص حكمهم ، ومجاهدتهم في سبيل الله ؛ لنشر الإسلام في آفاق جديدة .

كان عصر الدولة العثمانية العصر الذهبي للإسلام بعد اختفاء نوره فترة من الزمن ، إذ كان العثمانيون إذا فتحوا بلداً احتضنهم سكانه ، ولم يهاجر منه أحد ، وإذا انسحبوا منه فر الأهالي وراءهم . [1]

ومحاولات التشويه والهجوم التي تعرض لها تاريخ الدولة العثمانية لم تقتصر على المؤرخين الأوروبيين واليهود ، بل انجرف وانساق في التيار نفسه أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم ، إضافة إلى المؤرخين الأتراك أنفسهم الذين استخدموا هذا الأسلوب ؛ لنشر الأفكار القومية العلمانية في تركيا الحديثة .

ومن الشواهد على ذلك ما شاع في أوساط المتعلمين عن المناهج الجديدة من حرصٍ على إنكار الماضي ورفضه ، واعتبار ذلك من مقتضيات التحضر والمعاصرة ، وبات الحديث عن العثمانيين وتشويه تاريخهم من الأمور التي يتباهى بها كثير من المثقفين ،

---

[2] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 291 – 292 .

[1] عبد القادر ده ده أوغلو : ألبوم العثمانيين ، ترجمة : محمد جان ، د. ط ، إستانبول : الدار العثمانية للنشر ، د. ت ، ص5 .

إضافة إلى تصوير السلاطين العثمانيين بصورة أقرب إلى الخيال ؛ فنسجت حولهم قصص عن حياة مليئة بالمجون . وكتب عنهم ما ينافي الأخلاق والتربية الإسلامية ، وأصبحت كلمة "عثماني" مرادفة لكل أنواع السيئات . [2]

وجاءت الكتب المترجمة من اللغات الغربية إلى العربية ذات المعلومات المشوهة أصلاً عن التاريخ العثماني ، هي المراجع الأساسية التي ينبغي الرجوع إليها في كل شاردة وواردة . [3]

إن موقف المؤرخ الأوروبي جاء متأثراً بنزعة الحقد والمرارة الموروثة نتيجة للدور الذي قامت به الدولة العثمانية على الساحة الأوروبية ، فقد أسقط السلطان محمد الفاتح الجدار الشرقي المسيحي للإمبراطورية البيزنطية ، وأتخذ عاصمتها القسطنطينية 857هـ / 1453م عاصمة له باسم جديد "إسلامبول" أي دار الإسلام. ولم يكتفِ الفاتح بهذا ، بل سعى إلى إعلاء كلمة الله في الأرض ، والجهاد في سبيله ، وإسقاط الإمبراطورية المسيحية في أوروبا، أي روما. وأقسم على مواصلة الجهاد حتى يقدم الطعام لفرسه في مذبح الكنيسة الرومانية ، لكن الأجل المحتوم وافاه قبل البرّ بقسمه ، ولو حدث هذا لتغير وجه التاريخ . في تلك الأيام سادت فكرة السعي لاختراق أوساط أوروبا بالإسلام ؛ للوصول إلى الأندلس ، وإنقاذ المسلمين فيها ؛ فعاشت أوروبا في فزع ورعب ، لم ينقذها منه سوى نبأ وفاة محمد الفاتح. لكن الجهاد في سبيل الله استمر بتولي السلطان سليمان القانوني حتى أصبح شرق أوروبا كله ترفرف عليه رايات الإسلام. ففتحوا بلغراد 927هـ/1520م ، وبودابست ، 932هـ / 1525م وحاصروا فينًا عاصمة النمسا في قلب أوروبا 935هـ / 1529م ، وسنة 938هـ / 1531م .[1]

في الأزمنة السابقة لم يكن معروفًا من هو المسلم بالنسبة لعامة الأوروبيين بشكل مباشر منذ الفتح الإسلامي الأول حتى مجيء الفاتح العثماني ، إذ إنّ المسلم معروف عنه – طوال هذه القرون – ما يردده رجال الدين المسيحي من صيحات داعية إلى حشد الأموال

---

[2] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 292 .

[3] المرجع السابق ، ص 292 .

[1] جميل عبد الله المصري : حاضر العالم الإسلامي ، ط 8 ، جدة : العبيكان ، 1423هـ / 2002م ، ص114 . زكريا سليمان بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ط1 ، جدة : عالم المعرفة ، 1411هـ / 1991م ، ص7 .
محمد محمود السروجي : أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة العربية والإسلامية ، مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة ، العدد الأول – رجب 1417هـ / نوفمبر 1996م ، ص 85-86 .

والمتطوعين ؛ لمهاجمة المسلمين الكفرة البرابرة ، وكلما مُنيت هذه الجموع بالهزيمة على يد المسلمين ازدادت موجة الكره والحقد على المسلمين. فقد تصوروا أن المسلمين قراصنة ومغتصبون لمقر الدين المسيحي، ومهبط المسيح (بيت المقدس).وقد دعم المستشرقون هذا التصور من أجل مكاسب سياسية ومادية نعمت بها عدة أسر ، ظلت قابعة على صدر المجتمع الأوروبي في الحكم فترة زمنية طويلة. وحقق رجال الدين مكاسب ، وأثروا من وراء هذه الإدعاءات الباطلة ثراءً كبيراً ، ورسموا حول أنفسهم هالة كبيرة اعتمدت في مجملها على الضلال والتضليل [2].

هذا بالتأكيد يبرز مدى الدور الذي قام به رجال الدين المسيحي في دعم الفكر الاستشراقي ضد الإسلام ، ورغم دخول أوروبا عصر النهضة ، ومرحلة جديدة من تاريخها، إلا أنها لم تتخلص من تلك الرواسب الموروثة تجاه العالم الإسلامي عامة ، والدولة العثمانية خاصة. وبقدر اندفاع الحملات الصليبية المشحونة بقوات عسكرية هائلة لتصفية الحساب مع الشرق الإسلامي ، كان اندفاع المؤرخين الأوروبيين لتشويه التاريخ الإسلامي والدور الإسلامي للدولة العثمانية موازيًا لها . [1]

وزادت مهاجمة الكتاب الأوروبيين للدولة العثمانية زمن السلطان عبدالحميد الثاني ؛ لتبنيه حركة الجامعة الإسلامية التي كانت تهدف إلى توحيد صفوف المسلمين حول السلطان العثماني للدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد أطماع أوروبا.

ولموقفهِ المشرف ضد أطماع الحركة الصهيونية ، ومحاولاتها المستميتة بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، بسبب هذا الموقف الصلب الذي لا يلين ، قام دعاة الصهيونية وكتابها بمهاجمة وتشويه صورتهِ أمام العالم الخارجي.[2]

لم تختلف إستراتيجية كتابة المستشرقين في التاريخ العثماني ، بل زادتْ فجاجة أسلوبهم، وأحكامهم قاصرة تدل على الحقد الموروث على الإسلام والفاتحين، فحاولوا إضفاء القداسة ، وهيبة العلم على أبحاثهم ، مدعين قدرتهم على البحث والتمحيص والتدقيق ، وتجردهم للبحث العلمي ، لكنهم أخفوا وراءه كل أغراضهم وأهوائهم ، وقد ردد ذلك أبواق

---

[2] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 7 .

[1] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 8 .

[2] محمد محمود السروجي : أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة العربية والإسلامية ، ص 87 ، 88 .

المستشرقين ، والذين لو وضعوا هذه الغشاوة عن أعينهم لرأوا الحقيقة واضحة كضوء الشمس . [3]

وزعموا أن الهدف من دراساتهم للحضارة والتاريخ العثماني العمل على تمحيص الإسلام بوجهة نظر علمية تتسم بالموضوعية التي تخضع لقواعد المنهج العلمي في نظرهم، والنتيجة معلومات محرفة ومشوهة ، ومخالفة للحقائق الثابتة.

وفي كتاباتهم هذه ظهر الكذب والتناقض في الحقائق بوضوح، فضلاً عن الأخطاء المنهجية ، ولم يكن تفكيرهم منطقيًا قط ، أو متسلسلاً ؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لتوصلوا لنتائج عكسية. ولم يحاولوا الرجوع إلى أي مصادر إسلامية، بل ضربوا بها عرض الحائط، واستبدلوا بها مصادر أجنبية عن التاريخ العثماني الإسلامي .

كيف لمن لا يتقن اللغة العربية الوقوف على أسرارها، وتمييز أحكامها الشرعية ؟ كيف لمن يجهل الدين الإسلامي أن يدلي بدلوه فيه ؟ أليس هذا أكبر تهاون في شروط المنهج العلمي للبحث ؟ أليس الأجدى بهؤلاء المستشرقين أن يُعملوا النظر في أنظمتهم ، وقوانينهم ، وتطبيق المعايير النقدية عليها . إن مثل هذه الأمور تدل على فساد منهجهم وعدم موضوعيته؛ لأنه ليس للمستشرقين علم ودراية بحقيقة الإسلام سوى أنه دين يهدد عرش المسيحية وعقائدها الزائفة .[1]

وهكذا نجد أن المؤامرة واسعة النطاق ، أحد أطرافها إنكار فضل المسلمين وعظمة تاريخهم وتزييف الحقائق ، وبتر النصوص التاريخية ، واختيار بعض الوقائع والأحداث حسب الهوى والغرض ، وظهر لنا هذه الخصومة الشديدة ضد الدولة العثمانية ، لما لهم معها من علاقات لمدة أربعة قرون ، أُوقدت خلالها نيران الحقد على العثمانيين بسبب اقتحام الإسلام لقارة أوروبا . [2]

ثم إنّ حرب الجيوش تحرق وتدمر ، لكن حرب الأفكار والكلمات تكون ضربتها أخف وأرق ولكن أوقع أثراً ، وكلما تباعدت الضربات والطعنات ، وغلفت بغلاف كاف من الحقائق الملفقة كان الأمر أوقع وأوجع وأخطر . [3]

---

[3] عبد العظيم الديب : مرجع سابق ، ص 27 .

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 125 – 127 .

[2] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 78 .

[3] عبد العظيم الديب : مرجع سابق ، ص 27 .

انفصل الأول
ثش لأيبوذورن تنلًعيت فصيدايبد زركة الاستشراق

المبحث الأول :

تُبيي أعذاد كشاسي الاستشراف يدلنيعبت الأوروبية والجامعات الأمريكية .

انًبسث انثبَي :

دور البابوية في تشجيع حركة الاستشراق

انًبسث انثبنث :

أصفذانترانعثًبَييفلأوسوبوبس ورنًستشليِ فـي إركبء سوذ انعذاء .

انًبسانثشابع :

أثر التسامح الديني للمسلمين في نمو حركة الاستشراق .

المبحث الأول :

تنامي أعداد كراسي الاستشراق في الجامعات الأوروبية :

أوجد ظهور العثمانيين ثم فتوحاتهم في أوروبا ما يمكن تسميته بالوجود الإسلامي في أوروبا ، وهي تجربة رائدة لنشر الإسلام في أوروبا ، مما ولد شعور بالكراهية والضغينة والرفض للإسلام ، وبدأ الاستعداد لمواجهة أوروبا المسيحية للخطر الإسلامي الذي أخذ يدق بشدة على بوابتي أوروبا الشرقية والغربية على السواء . ولم تقتصر مواجهة الغرب المسيحي للشرق الإسلامي على الحروب وساحات القتال التي عجزوا عن مواجهتهم فيها ، وإنما كانت مواجهة من نوع آخر لا تقل خطورة أو أهمية عن المواجهة العسكرية ، وهي من أكثر وسائل الغرب قوة وفتكًا ، ألا وهي الدراسات الاستشراقية .

انطلقت حركة الاستشراق بباعث ديني ، فكان أول المهتمين بدراسة العربية هم الرهبان ورجال الكنيسة الذين أرادوا أن يعينوا قومهم على الشعوب الإسلامية بفهم اللغة العربية والشريعة الإسلامية ، مما أدَّى إلى تعلم رجال السياسة الأوروبية ورجال الدين اللغة العربية بهدف خدمة أغراضهم في الاستشراق ، وخاصة اليهود لأنهم الأبرع في اللغة العربية .

ولعل هذه الصورة تتضح أكثر في أيام الدولة الأموية في الشام حيث نشط الراهب يوحنا الدمشقي57هـ-132هـ/676م-749م في نشر أفكاره من خلال كتابين ، الأول: " حياة محمد " ، والثاني : "حوار بين مسيحي ومسلم" ، وكان هدفه الأساسي إرشاد النصارى في جدل المسلمين.كما أن الاستشراق له نشاط واضح أثناء حركة الاسترداد المسيحي في الأندلس،وبذلك يتضح أن حركة الاستشراق انطلقت بباعث ديني استهدف خدمة الاستعمار وتسهيل عمله ونشر المسيحية . [1]

وعلى اعتبار أن الاستشراق تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق ، فطبيعي أن يعبر عن اتجاه فكري يُعنى بدراسة الحياة الحضارية لأمم الشرق بصفة عامة، مع بحث أمورهم وثقافتهم وتاريخهم ، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة ، وقد تناولت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته ، ثم امتدت الدراسات الاستشراقية للتاريخ الإسلامي مسهمة في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة ومعبرة عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما . [2]

---

[1] البدايات الأولى للاستشراق . سلسلة كتاب الأمة ، 2008/5/24م . http :// www. Islam.gov.ga.
الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي 2009/5/19م ، . http : // www. Saaid .net

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 15 .

ليس الاستشراق خيالاً أوروبيًا متوهمًا عن الشرق ، بل إنه كيان له وجوده النظري والعملي ، وقد استثمرت فيه استثمارات مادية كبيرة على مر الأجيال وقد أدّى استمرار هذا الاستثمار وضخ الأموال إلى أن أصبح الاستشراق شبكة متفرعة ومقبولة ، تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى الغرب ، وتحوله إلى مصدر رزق حقيقي للإنتاج والكسب ، مما أدى إلى زيادة الأقوال والأفعال التي تتسرب من الاستشراق إلى الثقافة العامة . [1]

ولنلقي نظرة في البداية على وصول الدولة العثمانية إلى العالمية، ووصول الفتوحات إلى شرق أوروبا ، مما أدى إلى إثارة الشعور الأوروبي المعادي للدولة العثمانية وبالتالي إلى نشاط حركة الاستشراق .

لقد تولى الحكم السلطان أورخان 750هـ- 764هـ/ 1324م -1362م، وبدأ سلسلة من الفتوحات أولها فتح غاليبولي ، في عام 755هـ/1354م ، وكان قائد الجيش في هذا الفتح سليمان بن أورخان الذي خاض عدة معارك وحروب أسقط خلالها عددًا من الحصون والمدن الصغيرة الواقعة على ضفة البسفور وأهمها غاليبولي ؛ وذلك لأنها أول مدينة أوروبية وأقوى مركز استراتيجي لحماية القسطنطينية سقط بايدي العثمانيين . [2]

ولمَّا سقطت مراكز المقاومة البيزنطية التي كانت بمثابة حلقات في سلسلة دفاعهم وفتحها العثمانيون ساعدهم ذلك على ترسيخ وجودهم فوق أراضي الحدود البيزنطية . [3]

وعندما تولى السلطان مراد الأول 764هـ-792هـ/1362م-1389م وبدأ الحركة الجهادية ، فتح أدرنة [4] عام 761هـ / 1362م ثم سالونيكا [5] وفليبنو ، ومقدونيا ومعظم بلغاريا ، وموناستر [6] ونيش [7] ، وأجزاء من صربيا حتى غدت القسطنطينية محاطة بالفتح

---

(1) إدوارد سمير : الاستشراق . المفاهيم العربية للشرق ، ترجمة : محمد عناني ، ط1 ، لبنان : دار رؤية ، 2006م ، ص50.

(2) يوسف علي الثقفي:موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ط1، الطائف:دار الحارثي، 1417هـ، ص17.انظر الخريطة في الملحق إسماعيل سرهنك:تاريخ الدولة العثمانية،مراجعة:حسن الزين، د. ط، لبنان:دار الفكر الحديث، 1408هـ/ 1988م ، ص17، 18.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ج1 ، ترجمة : صالح سعداوي ، ط 1 ، إستانبول : مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة ، 1999م ، ص 12 .

(4) أدرنه : تقع في تراقيا في أوروبا ، قال عنها الدمشقي إنها من أعظم مدن الدنيا ، كثيرة البساتين تجري فيها ثلاثة أنهار. انظر: يوسف علي الثقفي : مرجع سابق ، ص 19 .

(5) سالونيكا : تقع في شمال شرق اليونان على خليج سالونيكا ، كانت تحت الحكم الروماني وبيزنطة ثم دخلت تحت الحكم العثماني . انظر : مرجع سابق ، ص 19 .

(6) موناستر : وتكتب أيضاً مُناستر ، مدينة في تركيا الأوروبية ، في مقدونيا ، بنيت عند السفح الشرقي لجبل بريستري ، ويعبرها نهر دراغور . انظر : س . موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية : ترجمة : عصام محمد ، ط1 ، بيروت : دار ابن حزم ، 1423هـ / 2002م ، ص 483 .

(7) ونيش : تأتي نيسا ، مدينة في تركيا الأوروبية ، تقع على نهر نيشاوه ، مقر أسقفية يونانية تتبع بطرياركية القسطنطينية . =

العثماني ، وبهذا تحقق الوجود الإسلامي في الولايات البلقانية " البوسنة والهرسك والصرب " وصارت القسطنطينية في متناول أيدي العثمانيين . [1]

ثم بدأت إطلالة الإسلام على أوروبا وبشكل يفخر به المسلمون ، فقد توجت الفتوحات العثمانية بفتح القسطنطينية ،وهي أهم ثغر للدولة البيزنطية على الحدود مع المسلمين وهي قلعة الروم المنيعة ، ومركز المسيحية في الشرق ، وفي عام 857هـ / 1453م فتحت هذه المدينة على يد السلطان محمد الفاتح ، وفزعت أوروبا لهذا الخبر وبدأت في التصدي لهذا الخطر ، ثم تقدمت الفتوحات العثمانية في بلاد الصرب ، وضمت نهائيًا للدولة العثمانية ، ثم فتحت أثينا عام 860هـ/1456م ، وفي العام نفسه فتحت باقي بلاد شبه جزيرة المورة ، وبعدها بعام تم فتح طرابزون وما أن حل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، حتى تمكن الجيش العثماني من فتح إقليم الأفلاق والبغدان والبوسنة والهرسك وسينوب.[*] [2]

أما السلطان سليمان القانوني 227هـ - 974هـ / 1520م - 1566م فقد بدأ حركته الجهادية بفتح بلغراد عام 927هـ / 1520م ، ثم فتح رودوس عام 929هـ / 1522م ، كما أتم فتح بلاد المجر عام 932هـ / 1526م ، وتوقفت فتوحاته عند أسوار فينا، واستعصت عليه [3] وأصبح الجيش العثماني في نظر الأوروبيين الجيش الذي لا يقهر .

فكان رد الفعل الطبيعي لهذه الفتوحات خوف أوروبا جميعًا من الدولة العثمانية، لذا فكرت في المواجهة العسكرية ، وعندما فشلت وتأخرت نتائجها فكرت في الغزو الفكري [4]، ومنه

= س. موستراس : مرجع سابق ، ص 469 .

[1] وديع أبو زيدون : تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى الاستقلال ، ط 1 ، الأردن : الأهلية للنشر والتوزيع ، 2003م ، ص 38 ، عبد المنعم الهاشمي : الخلافة العثمانية ، ط1 ، لبنان ، دار إبن حزم ، 1425هـ /2004م ، ص46 ، 47. يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص 19 - 25 .

[*] سينوب : سيوب ، مدينة في تركيا الأسيوية " الأناضول " في ولاية قسطموني ، على البحر الأسود ، كانت من المستعمرات اليونانية على البحر الأسود . في عام 1270هـ / 1853م هاجمت مجموعة من الأسطول الروسي ميناء سنوب ودمرت فيه قسماً من الأسطول العثماني . انظر : س . موستراس : مرجع سابق ، ص 317 .

[2] يوسف علي الثقفي : مرجع سابق ، ص 34 . علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ط3 ، مصر : المكتب الإسلامي ، 1415هـ / 1994م ، ص39 . أنظر الخريطة في الملحق .

[3] عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص ص 275 ، 920 . يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص45 .

[4] الغزو الفكري : الغزو مصدر غزا ، يغزو ، ويعني هنا الهجوم الذي يشن على المسلمين وبلادهم في صورة مفاجئة ولم يحسب له حساب ، ففيه مد أجنبي واجتياح خارجي وهجوم مخطط . والفكري : يشمل كل ما ينسب إلى الفكر من أعمال العقل والدين من قيم معنوية وروحية وخلقية ، وعلى ذلك فإن الغزو الفكري : يعني هجمات فكرية متلاحقة ذات صلة بتاريخ المسلمين=

انبثقت الدراسات الاستشراقية ؛ إذ شكل لهم الإسلام مشكلة بعيدة المدى على مستوى العالم المسيحي.وحتى وإن نجحت أوروبا في القضاء على الدولة العثمانية فيما بعد إلا أنها – على المدى البعيد – ضمنت عدم قيام حركة جهادية إسلامية أخرى تُدْخِل أوروبا مرة أخرى في دائرة الخسران .

وفي عام 976هـ / 1568م أصبح من السهل طباعة الكتب العربية في أوروبا ، عن طريق المطابع التي أقامها الكاردينال (فريناند المديسي Frenand Elmedesi) ، وتم فيها طباعة كتب عربية مختلفة من بينها كتب ابن سينا في الطب والفلسفة ، ثم أعقب ذلك نشاط ملحوظ للاستشراق في القرن 13هـ /19م في جمع المخطوطات الإسلامية ، ومع حلول نهاية ذلك القرن أصبحت الدراسات الإسلامية تخصصًا قائمًا بذاتهِ داخل الحركة الاستشراقية العامة .

وأنشأت في مختلف بلدان أوروبا وأمريكا جمعيات [1] لمتابعة الدراسات الاستشراقية التي نشطت في إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة . كما شهد هذا القرن بداية المؤتمرات [2] الدولية للمستشرقين ومع بداية القرن 14هـ /20م لم يعن إنحسار المد الاستعماري عن العالم الإسلامي القضاء أو نهاية الحركة الاستشراقية ، إنما عدَّ الاستعمار العسكري مرحلة ارتبطت بها جهود بعض المستشرقين. وهكذا كان القرنان 13هـ-14هـ / 19م -20 م فترة ازدهار الدراسات الاستشراقية وجيل العمالقة من المستشرقين . [3]

= وحاضرهم تطرح شبهات وأفكار مزيفة حول تراث الإسلام والمسلمين . انطلقت من بلاد غربية بأقلام مستشرقين وأعمال المستعمرين بعيدة عن العمل العسكري المسلح . انظر: أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ط1 ، الطائف : دار الحارثي ، 1419هـ/ 1998م ، ص69 .

[1] الجمعية : هو إجراء عملي تقوم فيه منظمة مخولة ، بتقييم برنامج أو مؤسسة استوفت المتطلبات ، وتتألف من طائفة من الناس أصحاب تخصص واحد لأغراض علمية .

[2] المؤتمر : مجمع علمي للتشاور والبحث في موضوع ما ، وعرض آراء حولهِ .

المعاني – قاموس متعدد اللغات ، مصطلحات عربي عربي ، 1432/1/2هـ .

http : // www. Almaany.com

[3] محمود حمدي زقزوق : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان – شوال 1409هـ / إبريل 1989م ، ص202 – 204 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م . http : // www. Marefa.org .

يوسف الباز بلغيث . ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، 2008/1/26م . http : // www. Merbad . net

وبالتأكيد لم تكن هذه بداية الاستشراق ، فقد ظهر بداية لمحاربة الإسلام في أواسط القرن 7هـ/13م حين أدرك الغرب الأوروبي ضرورة الاتصال ثقافيًا بالحضارة الإسلامية وتعلم اللغة العربية ، بل والتسلح بأفكار المسلمين وطرائقهم في المحاججة للرد عليهم ، وظل هذا الاتجاه يتنامى إلى أن ظهرت شخصية(رايموند لول Raymond LOL) 633هـ-714هـ / 1235م – 1314م. وهو فيلسوف مسيحي قضى تسع سنوات من حياته665هـ-674هـ /1266م – 1275م في تعلم اللغة العربية ودراسة القرآن الكريم وقد وضع كتابًا في عام 706هـ / 1306م شرح فيه الطريقة المثلى للقيام بحرب صليبية جديدة ضد بلاد المسلمين ودعا فيه إلى التنصير ، وذهب إلى أبعد من الحرب الصليبية ، حيث شدد على ضرورة تعلم اللغات الشرقية ، ولا سيما اللغة العربية فكان أول من نادى بإيجاد كراسي للدراسات الشرقية في الجامعات الأوروبية ، وذلك لتنظيم تخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام ، وهو بذلك نادى بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تنصيرية، وقد استحسن البابا والمجمع المنعقد في فينا [1] عام 712هـ/ 1312م هذا الكتاب وأوجب العمل به ، وقرر المجمع أمران:

١) القيام بحملة صليبية جديدة ضد الدولة العثمانية .

٢) قرر المجمع إنشاء كراسي لدراسة اللغة العربية ، وفعلاً تم إنشاء كراسي تدرس اللغة العربية لتنظيم تخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام، بل والعمل على إقناعهم ببطلان الإسلام واستحبابهم للمسيحية .

---

(1) احتلفت مدينة فينا في شهر مارس من عام 1983م بالذكرى الثلاثمائة لتراجع العثمانيين أمام أسوارها عام 1683م ، وذلك بمساندة بابا الفاتيكان الذي ذهب لفينا في ذلك التاريخ. وفينا منطقة تقع جنوب فرنسا بالقرب من ليون . محمد العبده : تعليق على التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي – مئة مشروع لتقسم الدولة العثمانية ، ط1 ، الرياض : دار طيبه ، 1416هـ/1995م، ص35 . كان هذا الأسلوب الذي استخدمه (ريموند لول) لتنفيذ مشروعه الاستشراق داخل المنطقة العربية ، هو الوسيلة المفضلة للعديد من المستشرقين في أوروبا الذين فكروا في التوجه نحو البلاد الإسلامية ، فمنهم من جاء في شكل رحلة علمية أو طبية ، ومنهم من تعدى ذلك وتنكر تحت اسم مسلم ، ليتوغل بين المسلمين العرب ، ولمزيد من التفصيل. انظر: عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي : السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر . من عام 492-584هـ / 1099-1188م ، دراسة في التاريخ العسكري والاقتصادي مقال منشور في مجلة الدارة ، العدد 3 ، السنة 29 ، 1424هـ ، ص79 – 120 . مانع حمد الجهني : مرجع سابق، ج2 ، ص675 – 698 .

أما بالنسبة للحلف الصليبي فلم يتم في أمره شيء [1] . فقد أوصى المجمع بأن يتم إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أكبر خمس جامعات أوروبية ، تعدّ مراكز علمية ، وهي : باريس ، وأكسفورد ، وبولونيا بإيطاليا ، وأفينون وسلمنكا بإسبانيا ، بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية بروما .

تعد هذه الخطوة بداية محاولات الكنسية الأوروبية رسميًا للاهتمام بالعربية، إضافة إلى أن هذا المجمع يعد نقطة تحول وانتصار للاتجاه الأوروبي الداعي إلى حرب المسلمين ثقافيًا.[2]

وعلى أثر ذلك قرر الفاتيكان تعليم اللغة العربية إلى جانب اليونانية والدراسات الشرقية في مدارس إسبانيا ومدارس الأديرة والكاتدرائيات ، وما أن حل القرن 8هـ / 14م حتى كانت كراسي اللغة العربية تؤدي عملها على أكمل وجه ، وتم تكليف أساتذتها بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية ترجمة علمية ، مستعينين في هذه الترجمة بمن يجيد اللغة العربية من النصارى واليهود ، الذين يترجموها ترجمة حرفية ، ثم يعيد رجال الدين صياغتها في أسلوب لاتيني رصين. [3]

وفي القرن 11هـ / 17م كان أهم كراسي الاستشراق على الإطلاق كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج الذي أنشأ عام 1046هـ-1636م .[4]

ولم يظهر مفهوم الاستشراق orientulism في أوروبا إلا مع نهاية القرن 12هـ/ 18م ، إذ ظهر في البداية في إنجلترا 1193هـ / 1779م ، وفي فرنسا 1214هـ / 1799م ، وأدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1254هـ/ 1838م . [5]

وهذا يعني أنه بعد توجه العثمانيين إلى أوروبا ، واتضاح الرؤيا لأوروبا والكنيسة بضرورة القضاء على الدولة العثمانية كان ذلك حافزًا لزيادة الحركة الاستشراقية ، الأمر الذي أدى بدوره إلى ظهور العلاقات السياسية والثقافية مع الدولة العثمانية،مما أعطى شحنة

---

[1] إدوارد سعيد : الاستشراق . المعرفة – السلطة – الإنشاء ،ترجمة : كمال أبو الديب ، ط6 ، لبنان : مؤسسة الأبحاث العربية ، 2003م ، ص80 . محمد العبده : مرجع سابق ، ص34 ، 35 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط1 ، مصر : دار المعارف ، 1417هـ / 1997م ، ص16 . مانع حماد الجهني : مرجع سابق ، ج2 ، ص684.

[2] إسماعيل أحمد عمايرة : المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية ، مجلة المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان- شوال 1409هـ / إبريل – مايو 1989م ، ص88 .

يوسف الباز بلغيث ، ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، 26 /2008/1م . http : // www. Merbad. Net .

[3] محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ج2 ، ط1 ، الكويت : دار البحوث العلمية ، 1400هـ / 1980م ، ص25.

[4] محمود حمدي زقزوق : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، ص204 .

[5] http: // sauid net Lferaq . Forums . show post , 2008/2/17م

مضاعفة للدراسات الاستشراقية للوصول إلى أبعد مدى في القرن 12هـ / 18م ؛ بغية القضاء على العثمانيين بل وتشويه تاريخهم.

وقد نشطت بذلك الحركة الاستشراقية في أمريكا ، ودول أوروبا مثل: إنجلترا وألمانيا وإسبانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا وروسيا،وساعد على هذا النشاط زيادة حركة الطباعة التي أصدرت الكتب العربية .

ومما ساعد على توسع آثار الدراسات الاستشراقية أن الطلاب المسلمين أخذوا يفضلون الدراسة في الجامعات الأوروبية والأمريكية ، مما أدى إلى تأثر أغلبهم بآراء المستشرقين ، وأخذوا يرددون هذه الآراء كالأبواق دون محاولة الرجوع لأصلها أو التأكد من مدى صحة المعلومات التاريخية ، إضافة إلى استعانة المستشرقين ببعض النصارى العرب لنشر أفكارهم السامة بين المسلمين. فضلاً عن أن بعض المستشرقين تسللوا إلى الدوائر العلمية والجامعات في الدول الإسلامية ، بل في المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد . أمثال: هاملتون جب ، مرجليوث ، من إنجلترا ، وماسينيون من فرنسا وهارتمان من ألمانيا . [1]

ومما يصقل هذا الأمر ، أن الدراسات الاستشراقية لم تكن لتصل إلى هذا التقدم والعمق دون وجود الدعم المادي السخي ، فقد رصدت لها الميزانيات الضخمة من الحكومات والمؤسسات الخيرية ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية قامت مؤسسات خيرية كبيرة مثل : كارينجي للسلام الدولي التي أسست عام 1328هـ / 1910م ، ومؤسسة فورد الأمريكية ، بالإضافة إلى مؤسسة روكفللي، بدفع مبالغ مالية كبيرة ؛ لدعم هذه الدراسات والمستشرقين أنفسهم ، ووضعت المؤسسات الدينية والاقتصادية كافة التسهيلات أمامهم ، فضلاً عن التبرعات من شخصيات أمريكية عادية وثرية . وفي عام 1372هـ / 1952م صدر مرسوم حكومي خصصت بموجبه مبالغ كبيرة لإنفاقها على هذه الدراسات في أكثر من عشرين جامعة أمريكية ، وحتى تتأهل الجامعات لهذه المعونة كان لابد من أن تقدم برامج توافق عليها الحكومة الأمريكية ، ولا تتعارض مع المرسوم الحكومي المذكور . ولا يزال الدعم المادي للجامعات الأمريكية ينال الحظوة عند الحكومة الأمريكية على الرغم من مرور أكثر من 40عامًا على صدور المرسوم الحكومي .[2]

---

[1] محمد عبد الفتاح عليان : مرجع سابق ، ج2 ، ص15 . التعريف بالمستشرقين سيأتي لاحقاً .

[2] مرجع سابق ، ج2 ، ص15 . نجيب عفيفي : المستشرقون ، الجزء 3 ، الطبعة الثالثة ، د. م ، د.ت، ص 391 . مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص24 .

وتسعى الجامعات الغربية إلى الحصول على دعم كبير من الدول الأجنبية بإنشاء كراسي للدراسات العربية والإسلامية ، بتمويل سخي من المؤسسات الخيرية ، وعلى رأسهم مؤسسة (فورد) الأقدم في تقديم الملايين لتشجيع الدراسات العربية والإسلامية .

ومن أهم مصادر التمويل وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) التي تموّل مؤتمرات خاصة بدراسة الحركات الإسلامية ، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل إن شركة البترول البريطانية ، والبنك البريطاني للشرق الأوسط من أبرز الممولين . ويتم أيضًا استقبال التبرعات من شخصيات عربية إسلامية درست في جامعات الغرب ، وقد يكون التمويل لندوة معينة أو مؤتمر دولي . [1]

هذا عن تمويل المؤسسات والحكومات ، ولم يتوقف الأمر على هذا فقد كان للأفراد والملاك أيضًا دور في دعم الدراسات الاستشراقية ، فقد وفر الحكام الميزانيات للتعليم والبعثات ، مما ساعد على إقامة كراسي الاستشراق ، وتنظيم مكتباتها ومتاحفها ، وإنشاء المطابع الخاصة ، وإصدار المجلات والدوريات ، والمساهمة في تشجيع عقد المؤتمرات ، وإيفاد البعثات الأثرية إلى مواطنها ، ثم جمع تراثها وترجمته لعدة لغات ، وبذلك أصبح لكراسي الاستشراق أساتذة ، ومناهج وشهادات عليا . [2]

وبإمعان النظر في مرتبة دراسة التاريخ وفق مناهج كراسي الإستشراق نجد أنه احتل المركز الرابع بعد الدين واللغة والأدب ، وله الأهمية نفسها من حيث الدراسة والبحث والتدقيق . [3]

عدَّ المستشرقون الدراسات الاستشراقية مادة علمية خصبة معترفًا بها عالميًا وأكاديميًا ، ويكاد يكون في كل جامعات الغرب ممثلاً عنها ، مع وجود أعداد كبيرة من المحاضرين والمعيدين والباحثين في كافة مجالات التخصص الإستشراقي ، وهؤلاء تدفع لهم أموال بقصد تأمين مستقبلهم وضمان استمرار عطائهم ، مع شعور العاملين في هذا المجال بكامل الولاء والتقدير للحكومات والمجالس النيابية، وللكنيسة التي لا تدَّخر وسعًا في دعم المستشرقين ، وتوفير الإمكانيات اللازمة لإجراء البحوث والاطلاع والدرس ؛ للحفاظ على حيوية هذا العلم ونشاط العاملين فيه ، لما له من فوائد عظيمة سياسية وفكرية تعود على

---

[1] مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 71 ، 77 .

[2] محمد عبدالفتاح عليان : مرجع سابق ، ج2 ، ص15 . نجيب عفيفي : مرجع سابق ، ج3 ، ص391 .

[3] فؤاد احمد فرسوين : المسافة بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشراقية ، المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50، رمضان شوال / إبريل مايو ، 1409هـ / 1989م ، ص128 .

الدول الأوروبية . إضافة إلى جهود الحكومات الغربية ممثلة في وزارات التعليم التي تسعى لتوجيه طلبة الثانوية على الالتحاق بأقسام الدراسات الاستشراقية بالجامعات . [1]

وإذا ألقينا نظرة على المقررات الدراسية يتضح مدى ارتكازها على متابعة التاريخ الإسلامي ، وفيما يلي نماذج للمواد الدراسية التي تقدمها مراكز أو أقسام دراسات الشرق الأوسط ، وأقسام الأديان في بعض الجامعات الأمريكية .

أ) مادة تاريخ 561 " دراسات عليا " قضايا وأدبيات في تاريخ الشرق الأوسط.

أطلق على المادة في تفاصيل المقرر مادة تاريخ الشرق الأوسط ، مع أن المقصود هو التاريخ العربي الإسلامي ، والمراجع الأساسية للمادة هي المصادر المكتوبة باللغة الإنجليزية أو المترجمة إليها ، مع ملاحظة أن ما يترجم في العادة إلى اللغة الإنجليزية هو ما يتبنى الفكر الغربي أو المناهج الغربية في التفكير .

ب)مادة في التاريخ أيضاً ولكن تختص بالمرأة والجنسيات 668 "دراسات عليا" أو"العنوسة"

تهتم المادة بدراسة موضوع المرأة في الشرق الأوسط ، والكتابات الحديثة حول العلاقة بين الجنسين ، ومن الملاحظ أن مراجع المادة هي من كتابات مؤلفاتٍ عربيات ومسلمات عُرف معظمهن بتبني قضية ما يسمى بتحرير المرأة . [2]

وبالرغم من كثرة القراءات في هذه المادة لكنها لم تتضمن قراءات لكتَّاب إسلاميين أو كتب مهمة في موضوع المرأة ، ومثل هذه المادة تبدأ بمعرفة موقف الإسلام من المرأة ، وهل لها قضية حقيقية أم أن هذه القضية إنما هي من تأثير الغرب والفكر الغربي . [3]

الأولى بهذه المادة أن تدرس المسألة من وجهة نظر الإسلام الصحيحة نحو المرأة المسلمة ، وليس من وجهة نظر قضية المرأة في الغرب .

ولعل ما يصقل هذه المعلومات رأي الدكتور فهد السماري حول مراكز دراسات الشرق الأوسط إذ قال : " يتضح من خلال استعراض معظم المواد الدراسية التي تقوم بتدريسها معظم تلك المراكز ، وجود تركيز معتمد على بعض القضايا الصغيرة والجزئيات اليسيرة في العلوم الإسلامية وإعطائها حجمًا كبيرًا وبعدًا عن طبيعتها على حساب القضايا

---

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 16 .

[2] مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 58 .

بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15م . http : // www. Shatharat . net

[3] مازن مطبقاني مرجع سابق ، ص58 – 59 .

العامة . فمثلاً يتم التركيز على قضايا الصوفية وعلم الكلام والفتن وقضايا الخلاف بين المسلمين إلى درجة أنها تأخذ عناوين مواد دراسية كاملة في المرحلة الجامعية أو مرحلة الدراسات العليا".[1]

ولا شك أن هذا ما دأب عليه المستشرقون ، إذ يركزون دائماً على الأحداث الصغيرة وتضخيمها على أنها تصور التاريخ الإسلامي كله ، فليس من المستغرب إذن أن يوظفوا المناهج وفق أهوائهم ورغباتهم الشخصية ؛ حتى ينتجوا جيلاً من المستشرقين يحملون أفكاره موجهة .

ومن الانتقادات الأخرى التي وجهها السماري لهذه الدراسات مستشهدًا بتقرير (لامبيرت Lambert) أن من السمات التي تسيطر على معظم المهتمين بهذه الدراسات قلة العارفين باللغة العربية ، بالإضافة إلى عدم ارتباط الغالبية من خبراء دراسات الشرق الأوسط بالمنطقة التي يقومون بدراستها من حيث الدراية بأحوالها الاجتماعية والفكرية والثقافية بصورة جيدة . وهذه المراكز تحاول دائمًا الحصول على المعلومات التي تتماشى وفق أهدافها ، وليس بالضرورة أن تكون معلومات صحيحة ، وذلك خشية من إنحراف عملها . [2]

وبناءً على ما سبق يتضح أن هذه المراكز تخرج الطلاب ؛ ليترقوا في أعلى المناصب القيادية في دولهم ، وبالتالي يحققوا الأهداف المطلوبة منهم من عمل في وزارة الخارجية أو وزارات المستعمرات ، ووزارة الدفاع ، وامتد الأمر إلى المدارس الخاصة ، والمكتبات العامة والمطابع الوطنية ، ومنحوا ألقاب شرف عضوية المجامع العلمية ، وعملوا في حاشية الملوك مترجمين وأمناء سر ومستشارين وغير ذلك من الوظائف التي تخدم سياسة الاستعمار في البلاد الإسلامية . [3] وعلى سبيل المثال لا الحصر : المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيوس Louis Massingon) [4] فقد كان من أشد الحاقــدين على

---

[1] فهد عبدالله السماري : مراكز دراسات الشرق الأوسط وعنايتها بالمسلمين ، بحث قدم للمؤتمر الإسلامي الثاني في لندن ، ربيع الآخر 1414هــ ، ص20 .

[2] فهد السماري : مرجع سابق ، ص20 – 21 .

[3] خلف خضر الوذيناني : الدولة العثمانية والغزو الفكري ، ط1 ، مكة المكرمة ، 1417هــ / 1996م ، ص181 .

[4] ماسينيوس : لويس مستشرق فرنسي عظيم ، أمتاز بنفوذ النظرة وعمق الاستيطان ، ولد في ضاحية نوجان إحدى ضواحي باريس ، درس في بداية حياته الطب ثم عدل عنه ودرس الفن ، في أثناء دراسته للثانوية عام 1314هــ /1896م ، التقى بهنري ماسبيرو الذي يعد من كبار المهتمين بالدراسات الشرقية فالتحقا بالمدرسة " الوطنية الشرقية الحية ". حصل على البكالوريا في =

الإسلام، وعمـــل مستشـــارًا في وزارة الخارجية الفرنسية ، وكان تابعاً في عمله لوزارات الاستعمار ، عمل جاهدًا في مجال التنصير معتمدًا على اسمه اللامع في مجال الثقافة والتدريس الجامعي والأبحاث العلمية .[1]

وبهذا نجد أن الدول الغربية جندت بعضهم أو اتخذت منهم أعوانًا ليمهدوا لها السبيل لاستعمار البلاد العربية المسلمة ، وأصبحوا مثل ما يقال: (الطابور الخامس) ؛ فقد عملوا على خدمة الاستعمار ونشر المسيحية بشكل خفي بعملهم في الوزارات وإدارة المستعمرات – كما سيتضح فيما بعد – .

ثم جاءت المرحلة التي نشط فيها المستشرقون في النصف الأول من ق 13هـ / 19م في مختلف أنحاء أوروبا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية ، إذ أسسوا جمعيات في باريس وبريطانيا وإيرلندا وأمريكا وسرعان ما قامت تلك الجمعيات بإصدار المجلات والمطبوعات المختلفة .

وقد كان (هامر برجشتال Hammer Berjechtal) أول من أصدر مجلة استشراقية متخصصة في أوروبا ، وهي مجلة ينابيع الشرق صدرت في فينا من عام 1224هـ– 1234هـ/1809م – 1818م، ثم ظهرت مجلة الإسلام في باريس، ومنحت اهتمامها بصفة خاصة للعالم الإسلامي،وهكذا شهد القرن 13هـ/19م بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقين

= الآداب والفلسفة عام 1318هـ / 1900م ثم تابع دراساته الجامعية ، فحصل على ليسانس الآداب عام 1320هـ / 1902م ثم درس اللغة العربية بالفصحى والعامية ، ثم بدأ حياته الاستشراقية بحضور المؤتمر الدولي الرابع عــشر للمستشرقين في الجزائر عام 1323هـ / 1905م ، وهناك تعرف على جولدزيهر وأسين بلايثوس . ثم التحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة عام 1324هـ / 1906م ، وبدأت من وقتها صلته بمصر وبدأ أولى أبحاثه عن الآثار الإسلامية ، سافر إلى بغداد والقدس وبيروت وحلب ودمشق وإستانبول ، وعين أستاذاً لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية ، ثم عاد إلى باريس وعين معيداً في معهد فرنسا ثم أستاذاً ومديراً للدراسات في المدرسة العلمية العليا . تولى تحرير مجلة العالم الإسلامي ثم مجلة الدراسات الإسلامية ، حصل على الدكتوراة في كتابات الحلاج ، وله دراسات عديدة في التصوف الإسلامي وأغلب مواد التصوف في الدائرة خطت بقلمه ، انتخب عضوًا في عدة مجامع علمية منها المجمع اللغوي بمصر والمجمع العلمي العربي في دمشق ، وحاز عدة أوسمة رفيعة ، وله كثير من المؤلفات والأبحاث ، أهمها المؤلفات عن التصوف ، ومؤلفاته في نهاية حياته عن أهل الكهف حيث جمع عدة صور لآثارهم وطابق بينها وبين المسيحية . وله أبحاث عن الفاطميين عوضًا عن مقالاته الكثيرة في دارة المعارف الإسلامية، وتوفي عام 1382هـ / 1962م . بعد حياة حافلة بكثير من المؤلفات والأبحاث . انظر : عبد الحميد صالح الحمدان : مرجع سابق ، ص 190 – 193 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص263 – 268 . عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص529 – 535 . مدارس الاستشراق . المدرسة الفرنسية ، 2009/2/1م . htt: // www. Madinacenter. Com .

[1] عمر فروخ : الاستشراق ما له وما عليه ، مجلة المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان – شوال 1409م/ إبريل – مايو 1989م ، ص20. مجدي عبد المجيد الصافوري : سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية ، ط 1 ، القاهرة : دار الصحوة ، 1410هـ / 1990م ، ص330 .

التي أتاحت الفرصة لزيادة التنسيق وتوثيق أواصر التعاون بينهم والتعرف على أعمال بعضهم ، لتجنب إزدواجية العمل .[1]

وهنا لابد من إمعان النظر في وصول الاستشراق والمستشرقين إلى مركز الخلافة الإسلامية – في ذلك الوقت – إستانبول ؛ إذ حصلت بعض الدول الأجنبية على امتيازات خاصة لرعاياها المسيحيين من كاثوليك وأرمن وبروتستانت وأرثوذكس ، القاطنين ضمن حدود الأراضي التابعة للدولة العثمانية، إلى حد أن القنصليات جعلت من المسيحيين العثمانيين مواطنين متميزين عن الآخرين ، فمثلاً إذا أخطأ المسيحي لا يحق للدولة العثمانية أن تحاكمه بل يحاكم في قنصلية بلاده ، ناهيك عن حصولهم على امتيازات في حرية التجارة والثقافة وحتى الشؤون السياسية . [2]

ومع مرور الوقت تحول ولاء المسيحيين العثمانيين من السلطان العثماني إلى أصولهم الأوروبية ، وأصبحوا منفصلين عن الدولة العثمانية ، ولهم معاملة خاصة فلا يحق للسلطات العثمانية تفتيش مسكن أحد الأجانب دون إذن من القنصل الأوروبي وبمعرفة الباب العالي ، ولا يحق لها جباية أية ضرائب من المتاجر والمصانع والبنوك الأجنبية . [3]

وكان من الطبيعي جداً بعدما حصلت الدول الأوروبية على هذه الامتيازات أن تطلق العنان للمستشرقين حتى يصولوا ويجولوا في الأراضي العثمانية الإسلامية ، جامعين كافة المعلومات التي تساعد حكوماتهم ، وبذلك قدموا أكبر دور للمستشرقين لكي يتنقلوا عبر الأقاليم في خدمة الدول الاستعمارية. وهكذا فإنّ تلك الامتيازات أعطت حرية مطلقة للمستشرقين لكي يتنقلوا بمنتهى السهولة لعمل الدراسات ، مما كان له أسوء الأثر على الدولة العثمانية .

من الملاحظ أن أغلب المستشرقين الذين مروا في هذه الدراسة كان لهم دور فعَّال في الاستعمار، والتنصير– كما سيتضح فيما بعد– حيث قدموا خدمات عظيمة للاثنين ، فمن

---

[1] محمود حمدي زقزوق : الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص43 ، 44 .

[2] أصبحت الدول الأوروبية تتدخل بشكل مباشر في سياسة الولاة والباشوات في الأقاليم ، وتشجيع الحروب بينهم وتعينهم بالمساعدات المالية والعسكرية لمن يرغب في الانفصال عن الدولة العثمانية ، مما شجع أقليات أخرى على الإنفصال ، مثل نصارى البوسنة وزاد عصيانهم ، وقد ساعدت الامتيازات على إشعال بؤر الفتن وأربكت الدولة وشغلتها عهودًا طويلة ، مما جعل أوروبا تتخذ هذه التمردات ذريعة للتدخل بحجة حماية الرعايا وبالتالي العدوان . وقد فعلت ذلك بوضوح في مساندة الحاكم النصراني في لبنان وتشكيل حكومة مستقلة تحت السيادة العثمانية زمن السلطان عبدالمجيد الأول . سلمى أحمد : وعد بلفور – وقفة تأمل ، مجلة المنطلق، العدد 7 ، محرم 1400هــ ، ص64 . مجدي عبد المجيد الصافوري:مرجع سابق، ص161 ، 162، قيس جواد العزاوي :الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، ط1، الدار العربية للعلوم ، 1414هــ/1994م ، ص25 .

[3] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 25 .

الملاحظ أن الدول الغربية عندما قويت شوكتها ، تطلعت لاستعمار الشرق الإسلامي ، وهنا برز دور المنصر بين المستشرقين الذين أتقنوه وتفننوا فيه ، فقد انتفعت منهم الحكومات أيما منفعة ، حيث قدموا لهم الدعم الكافي ، وبالتالي وضع المنصرون كل أبحاثهم وأفكارهم في خدمة الاستعمار ، وأيضاً حرصوا على أن يبقوا حراساً للمؤسسات الإرسالية مدعمين لها حتى تتم مهمتها ، وتركز أقدامها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاؤها عن قواعدها.[1]

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين ، فعمل بعضهم موظفين في الدوائر الاستعمارية ، وجذب عددًا من الضباط والجنود والمترجمين الذين وظفوا خبراتهم لخدمة الاستعمار ، فجمعوا بين العمل الاستشراقي والعمل الاستعماري، وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا أن يقوموا بدور مهم في إذلال المسلمين ، ومن الأمثلة على هؤلاء : (كارل هينريش بيكر Carl Henrish Becke) [2] الذي أسس مجلة " الإسلام " في ألمانيا التي قدمت دراسات عديدة تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في إفريقيا ، والمستشرق الروسي (بارتولد Bartald) [3] مؤسس مجلة " عالم الإسلام " ، وقد تم تكليفه من الحكومة الروسية للقيام بأبحاث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الصغرى ، وكان أشهر من قدم خدمات للاستعمار المستشرق الهولندي (سنوك هرُخْرونيه Snouk Hourkhrona)،[4] ففي

---

[1] محمد عبد الفتاح العليان : مرجع سابق ، ج2 ، ص25 ، مصطفى الخالدي ، عمر فروخ : مرجع سابق ، ص 57 .

[2] بيكر : كارل هينريش مستشرق ألماني ، له نزعة لدراسة الأديان عاش في القاهرة ، درس اللغة العربية وأتقنها ، اتصل بالشيخ محمد عبده ثم عمل أستاذاً ، وزار إستانبول وإيطاليا واليونان ، وشغل عدة مناصب في الحكومة الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتدرج في المناصب حتى وصل إلى مستشارًا في وزارة المعارف ، ثم وكيل وزارة ثم وزير عام 1921م ، غادر ألمانيا بعد ذلك ليعنى بالكتابات الاستشراقية خاصة في مجال الاقتصاد والحضارة الإسلامية ، والتاريخ الحضاري للمسلمين توفي عام 1933م . انظر : عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 99 ، عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص313-316 . محمود حمدي زقزوق : مرجع سابق ، ص 48- 49 .

[3] بارتولد : ف . ف مستشرق روسي . تخرج من جامعة بطرسبرج 1891م وعين أستاذاً لتاريخ الشرق الإسلامي فيها 1901م، أول من درس تاريخ آسيا الوسطى ، وعين بالشرق الإسلامي وحقق المصادر العربية المتعلقة به ، أنتخب عضواً . في مجمع العلوم الروسي 1912م . سهيل صابان ، مرجع سابق ، ص 142 . الاستشراق الروسي : مصادر الإستعراب الروسي ، 2009/5/7م http : // www. Awu- dam.org .

[4] هُرخْرونيه :سنوك مستشرق هولندي له مكانة عالية بين المستشرقين ، درس اللاهوت على يد أستاذ توراة ، ثم درس العربية، تعلقت أغلب دراسته بالإسلام ، ديناً وشريعة ، حصل على الدكتوراة في موضوع " موسم الحج في مكة " وانتهى بأن الحج من بقايا الوثنية . وفي عام 1303هـ / 1885م سافر إلى جدة وأظهر إسلامه احتيالاً ، ودخل مكة ، ومكث فيها ستة أشهر ونصف، واتخذ لنفسه اسم "عبد الغفار" كما حضر مجالس العلماء وشيوخ التعليم ووطد علاقاته بكثير من علماء مكة ، وخاصة شيخ العلماء في مكة : أحمد زيني دحلان ، ثم طرد من مكة لأسباب مجهولة ، أو ربما لاكتشافهم حقيقته الكاذبة ، وكان بارعاً في تمثيل دور المسلم براعته في إخفاء إسلامه الاحتيالي على الأوروبيين ،فقد استطاع أن يخدع أحد أمراء جاوه المسلمين بإسلامه وتزوج =

سبيل إستعداده للعمل في خدمة الإستعمار توجه أولاً إلى مكة المكرمة عام 1302هـ / 1885م، ثم قام بدور بارز في تشكيل السياسة الاستعمارية والثقافية في المناطق التابعة للحكومة الهولندية في الهند الشرقية ، وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في إندونيسيا . [1]

أما المستشرق (هانوتو Hanoto) فقد كشف بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الإفريقية الإسلامية ، وما تهدف إليه هذه المقترحات من إضعاف لعقيدة المسلمين حتى يسهل قيادتهم .

أما الحكومة البريطانية فقد كانت ترسم سياساتها الاستعمارية في الشرق بعد التنسيق والتشاور مع فريق من المستشرقين الذين يقدمون الدراسات المطلوبة.[2]

لا شك أن نشأة الاستشراق وتطورهِ في ظل الصراع الغربي ضد الإسلام سلاح فكري من أسلحة الغرب الموجهة ضد الإسلام ديناً وحضارةً ، وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركة الاستعمارية الأوروبية في بلاد العالم الإسلامي ، وتركزت وظيفة المستشرق في التعريف بالأوضاع السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالبلاد الإسلامية ، للقائمين على شؤون الحركة الاستعمارية في أوروبا ، مما يسهل عملية الاستعمار ، وتيسير طرق التعامل مع أهل البلاد المستعمرة . [3]

=بابنته وأنجب منها أولادًا ، ثم بدأ الاختلاط بالمجاهدين ، وجمع المعلومات التي يمكن أن تفيد في وضع خطط الاستعمار، ثم أقام في تافيا في رحلة تجسسية عجيبة تتصف بالخسة والخيانة والكذب ،إذ جاء تقريره يفيض بالحقد والتحريف والكذب على العلماء ، الذين حملوا راية الجهاد في وجه الاستعمار الهولندي وأسماهم " العصابة " وأوصى الحكومة الهولندية باتباع سياسة العنف والإفناء لهم . وقد حاول أن يلقن المسلمين كيف يكونوا خاضعين خانعين قابلين للاستعمار في سلسلة من المقالات أبدى فيها الوجه الاستعماري . وانصبت خطته في ربط المستعمرات في إندونيسيا بروابط ثقافية أوروبية بهولندا ، وقصده إبدال الإسلام بثقافة أوروبية ، وعندها تسهل التبعية السياسية والدينية فهو يمثل بالفعل سياسة الاستشراق ، في هولندا ، عمل مستشارًا في الشؤون الإسلامية في إندونيسيا ، وأهم كتبه " مدينة مكة" في جزئين ، والذي يعتبر صورة حية لوجهة النظر الاستشراقية ، على الرغم من أنه شرح العديد من جوانب الحياة في مكة لكن بشكل مشوه وكاذب، والكتاب الثاني (محاضرات على الإسلام) . انظر: عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 353 ، 354 . جميل عبد الله المصري : مرجع سابق ، ص 465 ، 466. قيس الأنصاري . منجزات الاستشراق في ظل المعلوماتية ، الصباح ، 2009/10/13م . http : // www. Alsabaah.com .
لمزيد من المعلومات الرجوع إلى : سنوك هُرخْرونيه : صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة : علي عوده الشيوخ ، ج 1 ، ط2 ، الرياض : دارة الملك عبد العزيز ، 1419هـ / 1999م .

[1] عبد القادر طاش : الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام والعرب في التراث الغربي ، مجلة المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان – شوال 1409هـ / إبريل 1989م ، ص 303 .

[2] محمود حمدي زقزوق : الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 48 – 49 .

[3] محمد خليفة حسن أحمد : آثار الفكر الإستشراقي في المجتمعات الإسلامية ، ط 1 ، القاهرة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية، 1997م ، ص 37 .

ولم ينحسر عمل المستشرقين بانحسار الاستعمار ، بل عمل أغلب المستشرقين كخبراء في وزارات الخارجية الأوروبية والأمريكية ، وفي مجالات السياسة والاقتصاد والدين ؛ لتقديم المعرفة اللازمة عن شعوب المسلمين للدوائر السياسية في بلادهم ، فساعدوا في إعداد التقارير السياسية والاقتصادية عن البلاد التي تخصصوا فيها ، وشاركوا في وضع استراتيجيات بلادهم والتخطيط السياسي لبلاد المسلمين . [1]

وقد أدت الأطماع الاستعمارية إلى حرص دول أوروبا على الوقوف على التاريخ الإسلامي ، والكشف عن الحضارة الإسلامية ، فالاستشراق والغزو الاستعماري وجهان لعملة واحدة ، فإذا كان الاستعمار غزا بلاد المسلمين تلك الغزوات العسكرية التي ندركها ، فإن المستشرقين غزوا التاريخ الإسلامي وأخذوا يتدافعوا عليه ويألفوا فيه الكثير من الكتب ، وساعدوا على تحقيق كثير من المخطوطات الإسلامية ، ونقلوها إلى مكاتبهم ، وبناءً عليه قامت صناعة نشر التراث الإسلامي في عدد من العواصم والمدن الكبرى في أوروبا . [2]

ثم تمتع الاستشراق في ظل حماية الاستعمار بعصره الذهبي ؛ إذ فتحت أمام المستشرقين أبواب البلاد الإسلامية على مصراعيها يصولون ويجولون بحرية تامة . وقدم الإستشراق عدة فوائد لأوروبا ، أهمها المعلومات اللازمة لاستعباد الشعوب المستعمرة ، وعمل المستشرقين تحت خدمة السيد الجديد فقدم لهم الدعم لمزيد من الدراسات وتهيئة الأذهان لأحقية الرجل الأوروبي في البلاد الإسلامية .

تحكمت الدول الاستعمارية في توجيه التعليم ، وحظي المستشرقون بحرية تامة في التجول بين مكتبات الشرق الإسلامي ، يسطون على مخطوطاتها وكتبها، وينبشون الآثار القديمة في الأراضي الإسلامية ، ويسلبون معظمها ، وظهر المستشرقون بمظهر البراءة والعلم ، مؤكدين حسن نواياهم ، وأنهم يريدون دراسة التاريخ على المنهج العلمي الحديث ، فنتج عن هذا الأمر أن المؤرخين العرب لم يجدوا أمامهم إلا أبحاث المستشرقين ، لذلك يجب علينا أن ندرك أن أبحاث هؤلاء موجهة لغاية معينة .

وهكذا اتسعت دائرة الاستشراق في ظل حماية الاستعمار ، إذ توفر له الجو المناسب والعون المادي والأدبي ، فتدخل المستشرقون في مجالات التدريس الجامعي وجمع

---

[1] محمد خليفة حسن أحمد : المرجع السابق ، ص 385 .

[2] علي حسن خربوطلي : المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، مصر : مطابع الأهرام ، د. ط ، 1970 ، ص52 .

المخطوطات وحرية فهرستها وتحقيقها ونشرها وترجمتها إلى اللغات الأوروبية ، وأتيح لهم وضع مناهج دراسية لتسير دفة الحكم فيها على النظام الأوروبي . حتى أن الساسة في شؤون الشرق الأوسط يجتمعون بالمستشرقين قبل اتخاذ أي قرار ، ويستمعون إلى آرائهم ثم يقررون في ضوء ما سمعوه . [1]

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتد إلى تسلل هؤلاء إلى المجامع اللغوية العربية ، وغرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين في الوقت الذي يحرفون فيه التاريخ الإسلامي . بالإضافة إلى ذلك كانوا يدعون إلى مؤتمراتهم بعض الشخصيات البارزة في الدراسات الإسلامية ؛ ليتحدثوا في موضوعات يدسوا من خلالها أفكارهم المعروفة ، وانطلت هذه الخدعة على الكثيرين ، مع مراعاة جمال الإخراج وجودة الطباعة في دورياتهم ؛ لجذب النظر واسترعاء الانتباه ، لأن العين تنبهر أولاً قبل العقل ، وبهذه الأبحاث تغلغل المستشرقون في مجال التعليم الجامعي ، وصار منهم أساتذة نستقدمهم ، وننفق عليهم أموالاً طائلة في جامعاتنا . [2]

يظهر هذا الجانب بوضوح في مراحل الاستعمار الأخيرة خلال القرنين 19م – 20م وتعد هذه المرحلة من أهم مراحل الاستعمار وأخطرها فكرياً وسياسياً على المسلمين ؛ إذ لم يكتف المستعمر بنهب الموارد الاقتصادية وفرض السيطرة السياسية والفكرية ، بل اتَّجه إلى تنفيذ هدف أكبر وهو إحداث التغيير في التفكير السياسي عند المسلمين ، وإجبارهم على تبني النظم السياسية الغربية والتخلي عن النظم الإسلامية .

وبدأت الدعاية ضد النظم الإسلامية ، بوصفها بالجمود والتخلف وعدم الصلاحية وفي المقابل شرح النظم الغربية وإظهار محاسنها وتزينها في أنظار المسلمين ، ومحاولة فرضها بالقوة ، واندسَّ المستشرقون بين العلماء المسلمين يروجون للنظريات السياسية الغربية ونشرها بين المسلمين . [3]

وللأسف لم يكن عمل هؤلاء المستشرقين تشويه التاريخ الإسلامي فقط أو خدمة الاستعمار ، وإنما عمل أغلب المستشرقين في التنصير ، وأخذوا يستخدمون الطعن في الإسلام أداة للتنصير ، واختاروا الموضوعات التي تثير الأوروبيين على المسلمين ،

---

[1] مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص327 .

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 612 . مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 325 – 326 .

[3] محمد خليفة حسن أحمد : مرجع سابق ، ص 37 – 38 .

بالإضافة إلى أنهم كانوا يضعون الاتهام أمامهم أولاً ثم يبحثون عن الأدلة التي تقوي وتعضد هذا الإتهام ، وكانت الحروب الصليبية بمثابة المنهل الذي أخذ منه الغرب ، وقاموا من خلالها بحركة تنصير على نطاق واسع ، فالتنصير هو ثمرة الحروب الصليبية ؛ حيث نجح التنصير في تنظيم الحروب الصليبية حتى صارت أشبه بحركة مقاومة علمية للإسلام ، عن طريق الهدم المعنوي ، ظاهرها حركة علم وبحث وباطنها مكر وخداع وخبث . [1]

لم ينفصل عمل المستشرقين عن عمل المنصرين يوماً ، فالاستشراق أداة من أدوات التنصير ، وفي بداية الأمر كان مصدرهما واحدًا وطابعهم الديني واحد ، ثم اختلفا في الطريق ، لكن التعاون والتنسيق بينهما ظل مستمرًا وقائمًا ، ويمكن القول بأن الاستشراق المصنع ، والتنصير موزع للمعلومات التي يضعها الاستشراق .

ومن أهم المستشرقين والمنصريين في آنٍ واحد :

مرجليوث ، وماسنيون ، وهنري لامسن ، فنسك ، وجولدزيهر . وهم من أشد المستشرقين تعصبًا وعداوة للإسلام . [2]

ومن الجدير بالذكر إن التنصير والاستشراق يلتقيان في أسباب واحدة وهي الحيلولة دون وحدة المسلمين ؛ باستمرار تمزيقها ، وإثارة الشبهات حول الإسلام والطعن فيه ، وإذا كانا قد التقيا في وحدة الأسباب فإنهما أيضاً التقيا في الوسائل؛ للتعرف على عقائد وحضارات الشرق ، إذ يحتم التنصير ضرورة معرفة اللغة العربية أو لغات من يراد تنصيرهم ، وقد ظهرت دعوة لتعلم لغات المسلمين من قبل دعاة التنصير في القرن 7هـ / 13م إذا أرادوا لعملهم النجاح ، وقد ترجمت هذه الدعوة لحظة ظهورها إلى عمل ، وكانت عاملاً مهماً في تطور الاستشراق ، ومن أبرز الدعاة لهذه القضية (روجر بيكون Roger Bacon) [3] وهو من أبرز المستشرقين أيضاً ، وقد وضع ثلاثة شروط لبلوغ أهدافه :

١) معرفة اللغات الضرورية .

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 612 ، 613 . عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 328 .

[2] محمد عبدالفتاح عليان : مرجع سابق ، ج2 ، ص 24 – 25 . خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص 180 . عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 328 – 329 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص28 . الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19م ، http : // www. Said. Net .

[3] بيكون : روجر 611هـ – 692هـ / 1214م 1292م ، مستشرق إنجليزي تلقى تعليمه من أكسفورد ، وباريس حيث نال شهادة الدكتوراة في اللاهوت . تعلم العبرية ودرس الطب وكون علاقات متميزة مع الرهبان والقساوسة ، ونشط في التنصير ، له عدة كتابات حول اللاهوت والعلوم . نجيب عفيفي : مرجع سابق ، ج1 ، ص120 .

٢) دراسة أنواع الكفر وتميز بعضها عن الآخر .

٣) دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها .

ويمكن أن يقال أن حركة التنصير اعتصمت بعد الحرب العالمية الثانية بحركة الاستشراق بعد أن اسودت صفحتها ونفر الناس منها ، لذلك خلعت حركة التنصير أثوابها في السنوات الأخيرة واختفت وراء ستار الاستشراق . [1]

وقد حرص الاستشراق ومعه التنصير على إنشاء جيل متأثر تمامًا بالأفكار الاستشراقية ، فركز المستشرقون على إنشاء المعاهد والجامعات والمدارس التابعة للنفوذ الأجنبي ، وإرساليات التنصير في العالم الإسلامي التي حرصت على صياغة فكر الأطفال المسلمين ، والعمل على تقبلهم آراء التغريب، وتقبل النفوذ الإستعماري على أنه حضارة ، وتقدير فضل الغرب على العالم الإسلامي . وإن كان التنصير قد ركزّ جهوده على جهات التعليم والملاجئ والمستشفيات ، فإن المستشرقين عملوا في مجال البحث والكتابة عن الإسلام، والتدريس في الجامعات الإسلامية . ثم إن التنصير اليوم تطور وأصبح يصل إلى الأجيال عن طريق السينما وأفلام الأطفال ، والألعاب ، وكذلك المقالات التي تقدم الآراء في مرونة ولباقة .[2]

وأبلغ مثال على ذلك الكلية الإنجيلية التي تحولت إلى الجامعة الأمريكية التي لها فروع في كل من القاهرة وبيروت وإستانبول . [3]

والاستشراق من أول الأسلحة التي وجهت إلى الدولة العثمانية ، ودفعت الكنيسة إلى التخصص في الدراسات العثمانية ، بهدف تحليل أوضاع الخلافة العثمانية في الداخل ومعرفة أحوالها في البلاد الأوروبية التي تحت حكمها ، وتأثيرها أيضاً في البلاد الأوروبية الواقعة على حدودها ، وبدأ المستشرقون في تغطية الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية لبلاد الدولة العثمانية، للتعرف على مواطن الضعف ، وسبل تقويض دعائم الخلافة من الداخل والخارج، بإثارة النعرات القومية ، واستقطاب الشعوب العربية والإسلامية ضدها. إلى أن نجح الإستشراق في التمهيد لوضع نهاية سياسية للخلافة العثمانية من خلال الدراسات المجتمعة التي قدمها الاستشراق لدول الغرب ، والتي استخدمت

---

[1] عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 329 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص28. لمزيد من المعلومات عن الاستشراق والتنصير الرجوع إلى مانع حماد الجهني : مرجع سابق ، ج2 ، ص675 – 330.

[2] عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 330 .

[3] بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15م . . http : // www. Shatharat. Net .

استخدامًا جيداً في تحقيق مأرب الدول الأوروبية من إضعاف الخلافة العثمانية وتغريب المجتمع التركي المسلم .[1]

عندما لجأت أوروبا إلى عقد الامتيازات مع الدولة العثمانية كان واضحًا السبب في ذلك أنها لم تستطع الانتصار على الدولة العثمانية خلال التحالفات الصليبية القوية التي عقدتها ضدها ، فلجأت إلى أسلوب اقتصادي يمكنها من هزيمة المسلمين فكريًا وعقائديًا حتى يسهل احتلال بلادهم ، بل ويصبح دخولهم مطلبًا أساسيًا لمصلحة أهل البلاد .

وقد أعطت الامتيازات الحرية للمستشرقين للاندماج في المجتمعات الإسلامية بل والكتابة عنها بمنتهى الحرية ، وادعاء الحيادية في الكتابة ، وكانت تلك حجتهم ، عوضًا عن دراسة اللغة العربية والإطلاع على التراث الإسلامي ، أما أهدافهم الحقيقية فيمكن تلخيصها فيما يلي :

١) التجسس على المسلمين في بلادهم ومعرفة وجوه التأثير فيهم .

٢) وضع الخرائط ودراسة طبيعة البلاد الجغرافية لتكون في خدمة الجيوش القادمة .

٣) زرع أكبر عدد من الشكوك والإشكاليات في أوساط المسلمين حول الإسلام والقرآن الكريم والرسول ﷺ.[2]

ونشط المنصرون الأمريكان بعد دخولهم الساحة في سياسة الدولة العثمانية بين عام 1256هـ – 1267هـ / 1840م – 1850م وكثر تدخلهم في شؤون البلاد الإسلامية التي تحت حكم الدولة العثمانية ؛ تنفيذاً لسياسة استعمارية بعيدة المدى . وعندما عزمت الدولة العثمانية على التصدي لهم أثارت الولايات المتحدة أمام العثمانيين مشاكل كثيرة صرفتهم عن أمر المنصرين وأعوانهم المستشرقين.[3]

ويمكن تقسيم الأعمال التي قام بها الاستشراق فيما يخص الدولة العثمانية إلى ثلاثة أقسام :

١) تأليف الكتب الخاصة بتركيا والأتراك .

---

[1] محمد خليفة حسن أحمد : مرجع سابق ، ص 44 .

[2] سلمى أحمد : وعد بلفور ، ص 64 .

[3] محمد عبدالفتاح عليان : مرجع سابق ، ج2 ، ص25 .

٢) التشجيع على الحفريات والاكتشافات الأثرية والقيام برحلات استكشافية.

٣) التدريس في الجامعات التركية .

أولاً: بالنسبة لتأليف الكتب الخاصة بتركيا والأتراك ، ارتكزت على إظهار محاسن اللغة التركية والحس التركي بصفة عامة ، ومن أبرز رواد هذا المجال (آرثر ليملي ديفيدس[1] Arthur Lumley Davids) الذي كان له دور كبير في التأثير على المفكرين الأتراك.

لقد أدى إظهار مزايا الأتراك وأمجادهم ، ودور القبائل التركية في آسيا الوسطى إلى تعزيز روح القومية التركية في الدولة العثمانية ، إذكاء روح الطورانية ، وبالطبع بعد سقوط الدولة العثمانية لم يخفِ الاستشراق فرحته بما حصد من نتائج ، أهمها إبعاد الأتراك عن الإسلام والارتباط به عقيدة وثقافة وتاريخاً ، وإلغاء الخلافة الإسلامية واتخاذ الإجراءات الكثيرة المنافية لها . وقام عدد من المستشرقين في أوروبا وأمريكا بامتداح من أطلق عليهم المصلحون في تركيا ، وكتبوا فيهم كتبًا ومقالات مجدوا فيها الانقلابات في تركيا والابتعاد عن الإسلام ، وشبهوا أتاتورك بـــ (بمارتن لوثر) في إصلاحاته ، وبـــ (جورج واشنطن) في علمانيته [2] .

وقد عرضت هذه الكتب الحياة التركية الجديدة بأسلوب المدح والإشادة بمزايا النظام الجديد ، والتركيز على ما اعتبروه من مساوئ النظام القديم ، وترجمت هذه الكتب إلى اللغة التركية ، وما زالت متداولة حتى الآن مثل : الإسلام في تركيا الجديدة لـــ (جارتارد جاسكي) .

Yeni Turkiyede Islamilik / Gottard Jaschke

ونشأة تركيا الحديثة لـــ (برنارد لويس) [3]

---

(1) سأتي الحديث عنه لاحقا .

(2) سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 139.

(3) لويس : برنارد مستشرق إنجليزي ولد في لندن عام 1335هـــ/1916م وحصل على الليسانس من جامعة لندن عام 1355هـــ/1936م ثم دبلوم الدراسات السامية من جامعة باريس عام 1356هـــ/ 1937م ، والدكتوراة من جامعة لندن عام 1358هـــ/1939م ، وهو أستاذ الدراسات الخاصة بالشرق الأدنى في جامعة برنستون ، وعضو دائم بمعهد الدراسات المتقدمة في برنستون . تدرج ودرس في عدد من الجامعات منها جامعة لندن وكولومبيا ، عوضاً عن عضويته في عدد من المعاهد والجمعيات التاريخية مثل الجمعية التاريخية التركية ، وعضواً أيضاً في وزارة الثقافة التركية . وله عدة مؤلفات ومقالات وأبحاث مثل:إستانبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية ، ملاحظات ووثائق من المحفوظات التركية ، والإسلام من النبي محمد حتى أسر=

Modern Turkiyenin dogusu / Bernard lewis

ثانيًا: أما بالنسبة للتشجيع على الحفريات والاكتشافات الأثرية ، فمنذ العقد الأول من عهد الجمهورية التركية أصبحت حفريات الآثار القديمة علمًا مستقلاً ، يتخصص فيه الطلاب، ويُعرف بالأنتوغرافيا Entografya ، أي العلم الذي يدرس السلالات البشرية ، ومع زيادة حركة الكشوف الأثرية تحول من علم الآثار والمسكوكات القديمة إلى علم يدرس العلاقة بين الجماعات البشرية التي عاشت في الأناضول في الزمن السحيق من التاريخ ، وذلك من خلال الآثار التي ظهرت من الحفريات . (1)

ومع تقدم الحفريات والاكتشافات الأثرية أصبح لهذا العلم مجلات متخصصة مثل مجلة أبحاث العالم التركي – الثقافة التركية – ومجلة بلتن التي تصدر منذ أكثر من نصف قرن وعلى درجة عالية من إتقان المعلومات ، وقد ارتكزت أهداف هذه المجلات على التعقيب على أعمال الحفر في مختلف أنحاء الأناضول وبخاصة التي يقوم بها المستشرقون ، ونشر أبحاث مطولة عن أصل الترك . (2)

والهدف الأساسي للقائمين على هذه الحفريات إقناع الشعب التركي ، بما أراد (برنارد لويس) إقناعهم به ، وهو أن الإسلام حدث طارئ في حياة هذا الشعب ، وأن الحضارة التي أقامها الترك قبل الإسلام كانت حضارة عظيمة ، وبالتالي فإن الإسلام ليس عنصرًا أساسًا في تاريخ هذا الشعب . (3)

وهدف آخر يكمن في أن بعض المستشرقين يتيسر لهم القيام بأعمال جاسوسية لبلادهم بحجة الحفريات والبحث عن الآثار العتيقة ، فيتوصلون إلى المعلومات بسهولة واطمئنان، وفي هذا الصدد ذكر السلطان عبد الحميد الثاني أن الإنجليز طلبوا منه السماح لهم بالبحث عن الآثار القديمة في سوريا والحجاز ، وأن الحكومة الإنجليزية ستتكفل بتكاليف

= القسطنطينية. عوضاً عن الأبحاث الكثيرة في الأدب والاقتصاد والسياسة في الإسلام ، ومقالات متنوعة في دائرة المعارف الإسلامية عن التاريخ الإسلامي والدول الإسلامية . ولويس مستشرق معاصر جمع بين اليهودية ، وميله الشديد إلى الصهيونية وتكريس نفسه وأبحاثه لخدمتها ، ظل يتعامل مع النص التاريخي العربي والقديم ، وسجلات الضرائب العثمانية ، وعينه على الزحف الصهيوني المعاصر على الأراضي العربية ، ولم يعد يرى من الإسلام وحضارته غير المفهوم الأمريكي للشرق الإسلامي. اتسمت كتاباته عن التاريخ العثماني بالعنصرية وتلفيق الأحكام . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، 143 – 145. محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 91 – 92 .

(1) سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 142 .

(2) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، تحقيق : شكيب أرسلان ، ج 4 ، د. ط ، القاهرة : الفكر العربي ، د.ت ، ص175.

(3) سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 142 . نقلاً عن برنارد لويس : نشأة تركيا الحديثة .

الحفر ، ثم طلبوا السماح لهم بحفر آبار المياه للشعب الفقير في الحجاز ، ففطن السلطان عبد الحميد إلى أن غرضهم البترول . [1] ولم يوافق على الأمر ، إذ لم يهتموا يومًا بحفر آبار للمياه للشعب الفقير .

ثالثًا : قام المستشرقون بالتدريس في الجامعات التركية وبخاصة في أقسام حساسة ، مثل (أرنست فون أستر Ernest Von Aster) في قسم الفلسفة بجامعة استانبول و(فون كاباين Von Kapayn) [2] في جامعة أنقرة وكان متخصص في اللهجات التركية، وعقب إنشاء جامعة إستانبول شغل (اثنان وثلاثون) أستاذاً من الألمان اكثريتهم يهود مناصب قيادية في الجامعة .

ويقوم عدد آخر من المستشرقين بين الحين والآخر بإلقاء محاضرات دورية ، ويشارك في مؤتمرات لغوية وعلمية ، أمثال (برنارد لويس) الذي حاز على نفوذ كبير في الأوساط العلمية بتركيا ، فضلاً عن الدور الذي أدّاه في خدمة المخابرات البريطانية ، والدبلوماسية الغربية والاتصالات الوثيقة مع إسرائيل. [3]

إن اشتراك مثل هؤلاء المستشرقين في الجامعات التركية ساعد الاستشراق على نشر نفوذه الفكري في الأوساط العلمية وأعانه على قبول أرائه ومبادئه . أما الموضوعات التي تناولها هؤلاء المستشرقون فليست أعمالاً علمية قيمة تستحق المدح من قبل الأتراك ، وإنما موضوعات تافهة ، تلعب بمشاعر الناس وعواطفهم ، وتشجع على الانتماءات القومية وتفتت المجتمعات الإسلامية . وقد نتج عن هذه الموضوعات أن أنشيء في جامعة إستانبول معهد التركيات 1342هـ/1924م ، وفي أنقرة مجمع اللغة التركية ، ومجمع التاريخ التركي ، وأنشئت في بعض الجامعات الأخرى مؤسسات مثل : معهد أبحاث الثقافة التركية، ومؤسسة الحقوق التركية وغيرها من المؤسسات التي تبحث في ثقاة الأتراك وتاريخهم ، من خلال دراسات مجردة من الإسلام وأي أثر للعثمانيين .

---

[1] السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ط4 ، دمشق : دار القلم ، 1419هـ /1998م ، ص77 .

[2] كاباين : فون مستشرق ألماني درس في جامعة برلين وتخصص في التركيات ، وبخاصة بعد أن درس في جامعة أنقرة ، وعندما عاد إلى ألمانيا درس في جامعة هامبروج اللغة والآداب التركية ، يعتبر من أكثر المستشرقين نتاجًا في تخصصه ، له كثير من المؤلفات في مجال التركيات باللغة الألمانية . سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 145 .

[3] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 145 .

ولا يزال المستشرقون على صلة وطيدة بما يجري على الساحة في تركيا اليوم ، وخاصة ما يخص المظاهر الإسلامية ، فمثلاً استغرب المستشرقون الألمان إصرار بعض الطالبات على ارتداء الحجاب ، وتفوق خريجي معاهد الأئمة والخطباء في الجامعات التركية، وتخصيص حافلات النقل الجماعي للطالبات في مدينة قونيه ، وتخصيص بعض المستشفيات للنساء .[1]

ويتضح مما سبق أن دور المستشرقين لم يتوقف عند تشويه التاريخ الإسلامي للدولة العثمانية ، والعمل على إسقاطها وإلغاء الخلافة الإسلامية ، بل إن أعمالهم تتطور باستمرار متخذة أشكالاً جديدة ؛ للعمل على إنسلاخ تركيا من الإسلام حاليًا ، وإلحاقها بالركب الأوروبي ، وكأن ما حدث لم يخفف من حقدهم على العثمانيين .

ونظرًا لأهمية الدراسات الاستشراقية فقد كرست الدول الأوروبية جهودًا متواصلة لزيادة أعداد كراسي الاستشراق في كبرى الجامعات ، وبذلت الكثير لتطويرها وزيادة أعدادها بشكل مستمر ، وستلقي الدراسة – بإذن الله – الضوء على أعداد هذه الكراسي في الدول الغربية مرتبة حسب أهمية الدراسات الاستشراقية في الدول الأوروبية .

<u>أولاً: فرنسا</u>

إن علاقة الشرق بفرنسا تعود إلى فترة قديمة في التاريخ الإسلامي ، عندما وصلت جيوش المسلمين إلى جنوب فرنسا ، ومنها قامت علاقات تجارية وسياسية وعسكرية وأخيرًا ثقافية ، ثم تطورت العلاقة في عهد الخليفة هارون الرشيد والملك شارلمان . [2]

ثم بدأت فرنسا تتلقى الثقافة العربية في مدارس الأندلس وصقلية منذ القرن 12م ثم جاء العهد الذي بدأ فيه إنشاء المدارس والمعاهد الخاصة بالدراسات الاستشراقية في فرنسا ، مثل مدرسة ريمس Reims بأمر من البابا (سلفستر الثاني) ، ومدرسة شارتر Chartes ، ثم مدرسة الطب في مونبليه التي وصلت شهرتها الآفاق وتوافد عليها الطلاب من كل صوب، ثم جاءت مدارس أديرة الرهبان على تعدد رهبانهم ، واعترفت باريس بنقابة الأساتذة، وهم نواة جامعة باريس . [3]

---

[1] سهيل صابان :مرجع سابق ، ص ص 145 – 147 .

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 104 – 105 .

[3] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 138 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م ، . http : // www. Marefa . org . =

هذه نواة المدارس والمعاهد في الفترة القديمة ، وقد شكلت الأساس الذي قامت عليه بعد ذلك الجامعات التي حوت بين كراسيها كراسي لدراسة اللغات السامية والتراث الإسلامي.

ثم دعم البابا (هونوريوس الرابع) معهدًا لتعليم اللغات الشرقية 684هـ/1285م ، وقضى البابا (إكليمنمس الخامس) في مجمع فينا 712هـ/1312م بإنشاء كراسي لدراسة اللغة العبرية والعربية والكلدانية في العواصم باريس ، روما ، أكسفورد ، بولونيا .

وبعدهما أُنِشأ في جامعة باريس كرسي للغات السامية ، وهو تتمة للقسم العربي في السوربون ، ثم أنشأت كرسي للدراسات الإسلامية وتاريخ حضارة العرب والفقه الإسلامي ، وأُلْحِق بالجامعة معهد للدراسات الإسلامية .

ثم أسست جامعة تولوز Toulouse 614هـ/ 1217م التي أنشأها رجال الدين ، وجامعة بوردوز Bordeaus 845هـ / 1441م إذ يوجد بها معهد الآداب للغة العربية والتمدن الإسلامي .

هذا بجانب جامعة السوربون Sorbonne 600هـ/ 1258م التي بدأت بهبة الأب (روبري سوربون) كاهن القديس (لويس) ، ثم جدد (الكردينال ريشليو) بناءها عام 1036هـ / 1626م ثم ضمها (نابليون) إلى جامعة باريس 1223هـ/ 1808م ، وعني معهد الآداب فيها Institut de literatures بتاريخ الفن الإسلامي ، وتاريخ الشعوب الشرقية ودراسة اللغة والحضارة العربية ، ثم ألحق بمعهد الآداب معهد الدراسات الإسلامية Institut d' etudes Isianiques ودرس فيه التاريخ والدراسات الدينية . [1]

وفي ما بين عام 1080هـ / 1670م – 1091هـ / 1680م ظهر اهتمام بالغ في الأدب الفرنسي بالدراسات العثمانية ، وبدأ الرحالة في نشر رحلاتهم لأراضي الدولة العثمانية. [2]

= ناظم الديراوي :صورة الإسلام في الاستشراق المُبكر ، الحوار المتمدن ، العدد 1846 ، 2008/2/27م .
http : // www. Ahewat org. .

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 138 – 139 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م ، . http : // www. Marefa . org . بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15م ، http : // www. Shatharat.net .

[2] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 138 .

ثم جاء عصر الازدهار الحقيقي للاستشراق في القرن 13هـــ - 14هـــ/ 19م -20 م ، ففي نهاية القرن 12هـــ / 18م قامت الحكومة الثورية في باريس 1210هـــ / 1795م بإنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية ، وبدأت حركة الاستشراق في فرنسا تأخذ طابعًا علميًا على يد (سلفستر دي سياسي) ت 1250هـــ/ 1838م والذي أصبح عميد المستشرقين في عصره ، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزًا للدراسات العربية ، وهدفًا للتلاميذ والعلماء من مختلف البلاد الأوروبية ليتتلمذوا على يديه .

لقد لون الاستشراق الأوروبي بصبغة فرنسية ، وشملت دراسة اللغة العربية وآدابها، والتاريخ والجغرافيا في فترة لم يكن التخصص معروفًا في تلك الفترة ،فكان المستشرق يستطيع أن يكتب في كل ما يخص الإسلام والمسلمين.[1]

وأصبحت مدرسة اللغات الشرقية في عهده الأنموذج الأمثل لمؤسسة الاستشراق العلمي والعلماني . [2]

وفي عام 1223هـــ / 1808م أُسست جامعة ليون Lyon ، وفيها كراسي للغة العربية والآثار المصرية والتمدن الإسلامي .

كما وجد في السوربون قسم العلوم الدينية التابع للمدرسة العلمية للدراسات العليا في باريس الذي أسس عام 1285هـــ / 1868م ، وهذا المعهد مختص بدراسات الإسلام والأديان السابقة لشبه الجزيرة العربية والفقه .

وأخيرًا جامعة سترابورج عام 1289هـــ / 1872م Strarbourg ودُرس فيها تاريخ الشرق ، ثم تحولت إلى ألمانيا 1288هـــ / 1871م فأشتهرت بكبار مستشرقيها كـــ

---

(1) قاسم السامرائي : الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية ، جامعة الإمام سعود ، 1408هـــ ، ص 9 . مدارس الاستشراق المدرسة الفرنسية ، 2009/2/1م . http : // www. Madinacenter . com

(2) محمود حمدي زقزوق : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، ص205 .

(نولدكه Noldecka)[1] وغيره من الأعلام حتى استعادتها فرنسا مرة أخرى عام 1336هـ / 1918م . [2]

يتضح مما سبق أن أغلب المعاهد والكراسي التي تناولت تاريخ الشرق والإسلام أسست بدعم من الكنيسة والباباوات ، وذلك يظهر بوضوح تام في إخضاع الدراسات لمقاييس معينة حتى تعطي النتيجة المطلوبة منها ، ثم إن تأثير القساوسة والباباوات على تأسيس هذه الكراسي يعطينا صورة واضحة عن أهدافهم في تشويه الإسلام والتاريخ الإسلامي .

ونشط الاستشراق الفرنسي قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها ، فقد اصطحب نابليون بونابرت معه عددًا كبيرًا من العلماء في المجالات المختلفة ليحدث موجة انبهار لدى المسلمين وعلمائهم بالحضارة الغربية ، وليزيد في دراسة أوضاع المجتمعات الإسلامية ، وقد صَدَر عن هذه الحملة كتاب ضخمٌ بعنوان (وصف مصر) كما أنه زاد نفوذ البعثات العلمية في عهده ، وكانت تحت إشراف المستشرق الفرنسي (جومار Jomar) ، وقد أرسلت إلى تركيا وإيران والمغرب الأقصى بعثات مماثلة، ويقول الأستاذ (محمد الصباغ) في كتابه عن الابتعاث ومخاطرة إنَّ السبب في أن أولى البعثات العلمية قد وجهت من قبل إلى فرنسا أنها كانت أول الدول الأوروبية التي أتخذت العلمانية منهج حياة ، وأن الفساد الأخلاقي كان ينتشر فيها أكثر من غيرها من الدول الأوروبية . [3]

حتى إنَّ المشرف على البعثة المغربية كتب إلى السلطات الفرنسية لتسمح للمبتعثين بالبقاء في فرنسا مدة من الزمن بعد انتهاء مهمتهم ؛ ليتشبعوا بالحضارة الفرنسية وعظمة فرنسا ، ويقول المستشرق الإنجليزي (برنارد لويس): إن المعلمين الفرنسيين الذين بعثتهم فرنسا لتدريب الجيش التركي حملوا معهم كتباً مختارة في الأدب والفكر ، كما أن الطلاب المبتعثين شجعوا على قراءة كتب الأدب والثقافة.[4]

---

[1] تيودور : نولدكه يعتبر شيخ المستشرقين الألمان ، تمتع بذهن صافٍ وله نشاط دائب واطلاع واسع على الآداب اليونانية ، وله كتابات عن تاريخ إيران وتركيا ، حصل على الدكتوراه في تاريخ القرآن ، ثم قام برحلات علمية ، وعكف على دراسة المخطوطات العربية ، تولى عدة وظائف مهمة منها أستاذاً في جامعة ستراسبورج . توفي بعد أن ترك عدة أبحاث عن اللغات السامية القيمة . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 595 – 598 عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 208-209 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 225-228 .

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 138 – 140 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 105 .

[3] مدارس الاستشراق . المدرسة الفرنسية ، 2009/2/1م ، http : // www. Madinacenter . com .

[4] قاسم السامرائي : الفهرس الوصفي للمنشورات الاستراتيجية ، نقلاً عن المنوني في كتابه " يقظة المغرب العربي الحديث " مرجع سابق ، ص 9 Said Orientalism .

أما عن دعم ملوك فرنسا ، فقد بذلوا بسخاء على الدراسات الاستشراقية لخدمة مصالحهم الاستعمارية ، فنجد الملك (فرانسوا الأول) أنشأ كرسياً للعربية والعبرية في ريمس عام 925هـ / 1519م وعهد إلى (جويستنياني) أسقف نيبويه، بإدارة هذا الكرسي والتدريس فيه ، وحاز الأخير على مكانة عالية ، ولم يكتف الملك بذلك ، بل أنشأ معهد فرنسا – كوليبج دي فرانس 937هـ / 1530م في السوربون Gollege de France وأعد فيه كرسيين للعبرية واليونانية ، وأضاف إليهما الملك هنري الثالث كرسياً للعربية 996هـ / 1587م ، ثم كلف الملك (لويس الثالث عشر) (جبرائيل) الصهيوني بتنظيم كرسي للعربية والسريانية فيه، وقلّده الأستاذية عليها . وإلى يومنا الحالي تقدم دراسات علمية عالية عن اللغة العربية والتاريخ الإسلامي .

ثم رأت حكومة فرنسا أن مقتضيات الدولة باتت في حاجة إلى علماء يتقنون اللغات السامية كتابة وخطابة ، طبقًا لخدمة أهدافهم الاستعمارية ، فألفت بعثة من فتيان فرنسا ، عرفت بفتيان اللغات وذلك بقرارات رسمية وقع عليها الملك (لويس الرابع عشر) خلال الأعوام التالية 1111هـ 1699م – 1131هـ / 1718م – 1134هـ / 1721م ، فأتقن هؤلاء الفتيان اللغات السامية من معاهد فرنسا ، ثم درسوا في مدرسة الشباب الملحقة بمعهد لويس الكبير على نفقة الملك الخاصة ، ثم أُرسلوا لإستانبول عاصمة الخلافة العثمانية للاستزادة ، وليختلطوا بالمسلمين حتى يسهل عليهم الكتابة والدس فعمل هؤلاء في السلك الدبلوماسي ، وفي مجال الترجمة ، وعينوا في المعاهد الفرنسية أساتذة للغات السامية . [1]

وبجانب هذه الجامعات أنشأ عشرات المعاهد الدينية والقومية التي لم تخل من أقسام للدراسات العربية والإسلامية ، وهي من أهم المراكز الاستشراقية وعلى سبيل المثال :

١) المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية في باريس 1210هـ / 1795م Ecole Nationale des Langues Orientales Vivantes, Paris .

وكانت خاصة بسفراء وقناصل وتجار الدول المتعاملة مع بلدان الشرق أسوة بالمدرسة التي أنشأتها الإمبراطورة (ماريا تيريز) في فينا ، ثم أصبحت مركزًا علميًا لامعًا في أوروبا يتوافد إليها الطلاب من ألمانيا وإنجلترا والسويد وإسبانيا وغيرها . [2]

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 139 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م ، http : // www. Marefa . org . . مؤتمرات المستشرقون . وسائل المستشرقين ، 2008/12/25م ، http:// www. Eltwhed.com.

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 105 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ص 140 .

٢) معهد اللغات الشرقية بباريس 1303هـ / 1885م وكانت مهمته الأساسية الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وبلدان الشرق الأقصى ، مما شكل أرضية خصبة تسهل على المستشرقين عملهم ، وبالتالي تسهيل عملية الاستعمار في تلك المناطق .

٣) المدرسة الشرقية في إستانبول 1217هـ / 1802م التي عنيت بتخريج رجال السلك السياسي .

٤) معهد مصر بباريس أسسه (نابليون بونابرت) 1213هـ / 1798م Institut d Egypt .

٥) المعهد الكاثوليكي في باريس 1292هـ / 1875م Institut cath . de Paris ودُرست فيه اللغة العربية ، واللغتان السريانية والقبطية. [1]

٦) معهد البحوث والدراسات حول العالم العربي والإسلامي .

Institut De Recherches Et D' Etudes sur le monde Arabe Et musnan :

ويعد هذا المعهد من أهم مراكز البحث العلمي حول العالم الإسلامي والعربي في فرنسا ، يشارك فيه عدد كبير من الأساتذة والباحثين ، وتعتمد ميزانية هذا المركز على المركز القومي للبحوث ووزارة البحث العلمي والتعليم العالي وبعض الوزارات المختلفة ، وذلك لتشجيع برامج البحث التي تهتم بالمجلات السياسية والتاريخ واللغات وغيرها ، ويهدف المعهد بهذه الدراسات إلى التعمق في المعرفة والتعريف بالأبعاد السياسية والتحديات والتطورات المتعلقة بالعالم العربي ، وبالأبعاد الثقافية والتاريخية أيضاً . [2]

بالإضافة إلى تأسيس الجمعيات الخاصة بالمستشرقين ، حيث أُسست عام 1202هـ/ 1787م جمعية فرنسية للمستشرقين ، وألحق بها أخرى عام 1236هـ / 1820م . [3]

وكما أن السلطات الفرنسية أوجدت في بعض الدول الإسلامية والعربية التي احتلتها مدارس ومعاهد ، وزودتها بالمكتبات والمطابع والعلماء، فأصدرت الكتب والمجلات بلغاتها ، وبالفرنسية في تونس والجزائر وهي:

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 104 . الإستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م . http: // www. Marefa.org.

[2] بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 2008/12/15م http: // www. Awu-dam.org مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 46 .

[3] محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ط12 ، القاهرة : مكتبة وهبة ، د. ت ، ص432 .

١) المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، أنشأه ماسبيرو عام 1298هـ /1880م
Institut Francais d' Archeologie oriental , au caire .

٢) كلية (بورجاد) في تونس 1257هـ / 1841م Bourgade أنشأها الأب بورجاد من الرهبان البيض ، ثم تحولت إلى معهد الأدب العربية عام 1356هـ / 1937م.
. Inst . des Belies letters Arabes .

٣) معهد قرطاجنه عام 1313هـ / 1895م Inst. Des Garthaga .

٤) معهد الدراسات العليا في تونس 1365هـ / 1945م Institut des Hautes Etudes de Tunis .

أمَّا الجزائر فقد أسست فيها :

1) مدرسة الآداب العالية عام 1299هـ / 1881م ، أنشأها Unirersite d' Alger ، ثم تحولت إلى جامعة عام 1327هـ / 1909م تعنى باللغة العربية العصرية وعلم الآثار الإسلامية والتاريخ ، ثم ألحق بها معهد للدراسات الشرقية .

وفي المغرب عملت فرنسا على تأسيس العديد من المدارس والمعاهد فيها: أسست معهد للدراسات المغربية في الرباط عام 1350هـ / 1931م .

Institut des Houtes Etudes marocaines

كما أسست المعهد الفرنسي في طهران عام 1368هـ / 1948م .

Institut franco - iranien de Teheran

وأسست المعهد الفرنسي في دمشق عام 1341هـ / 1922م .

Institut Francais de Damas

ثم عملت فرنسا على تطوير التعليم الثانوي وأدخلت بعض المواد الجديدة عن حضارات الشرق ، وقد أصاب العرب والإسلام منها حظًا وافرًا . (1)

هذه المراكز التي أسستها فرنسا في البلاد التي احتلتها يدل على حرص فرنسا على إخراج جيل مشبع بآراء وأفكار الغرب ، وحتى يكون تربة خصبة صالحة لزراعة أفكار الدراسات الاستشراقية ، وذلك لزعزعة قيم ومبادئ الإسلام الأصيلة ، وبالتالي يفقد هذا

---

(1) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 141 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 105-106 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م ، . http : // www. Marefa . org .

الجيل إعجابه بالماضي وثقته بالمستقبل فيسير في ركب الحضارة الفرنسية دون اختيار ، وهو ما حدث اليوم وما نعانيه من حرب للأفكار الإسلامية ، وبجانب تلك المعاهد والمراكز والجامعات وجدت المكتبات المشهورة التي تقدم كثير من الخدمات للدارسين وتضم بين أروقتها كثيرًا من المصادر الإسلامية والرسائل العلمية المتخصصة بالإضافة للمخطوطات والوثائق المهمة. [1]

لقد أنتجت فرنسا جيلاً من المستشرقين ، وقد أتضح ذلك في تنصيب أعداد كبيرة منهم مستشارين في وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال إفريقيا.[2]

ثانيًا: بريطانيا

يعد شعب بريطانيا من أكثر أمم الغرب توثيقًا واهتمامًا بحضارة الإسلام، وقد بدأ ذلك بشكل واسع منذ اتصال بريطانيا بالشرق الإسلامي والشرق الأقصى، اتصالاً عسكريًا استعماريًا وثقافيًا فكريًا واقتصاديًا ، في القدس والهند، والعراق ، ومصر ، والصين ، وأثناء ذلك اتخذ طابعًا علميًا ، بتوفر كل السبل للمستشرقين.

ويرجع تاريخ حركة الاستشراق البريطاني إلى عام 553هـ/1158م أي بعد الحملة الصليبية الثانية بعدة سنوات ، وبالأصح عندما وفد الفيلسوف الأسباني إبراهيم بن عزرا – يهودي – من مدينة طليطلة إلى لندن ودرس فيها ، إضافة للعلماء الذين قصدوا صقليه والأندلس ودرسوا الثقافة العربية ، مثل (توماس براون Thomas Bron) الذي عمل قاضيًا في صقلية ، و (روجر بيكون Roger Bacon) ، وهؤلاء درسوا العربية وأفادوا من صلتها باللغات السامية لتفسير الكتاب المقدس ، مما حمل كبير الأساقفة (لود Laud) على إنشاء كرسي للغة العربية في جامعة أكسفورد ، و (إدموند كاستل Edmond Castel) من أوائل أساتذة اللغة العربية في كمبردج ، ومن أشهر مؤلفاتهِ " قاموس مجمل للغات السامية " قضى في جمعهِ 18 عاماً ونشر عام 1080هـ / 1669م ، وتعمل جامعة كمبردج حالياً على تشجيع الجامعات لتوفير الدراسات الشرقية وتعميمها .

---

[1] مثل مكتبة باريس الوطنية ، مكتبات الجامعات والمعاهد ، مكتبات المستشرقين أنفسهم ، مكتبة الجامعة الآسيوية في باريس . وتصدر هذه المكتبات المجلات والدوريات والتي تتعلق بالدراسات الاستشراقية ومنها : المجلة الأسيوية ، مجلة تاريخ الأديان ، نشرة الجمعية اللغوية ، مجلة الشرق المسيحي ، الدراسات الإسلامية ، انظر : عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 106 محمد البهي : مرجع سابق ، ص432 .

[2] عبد القادر طاش : الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام والعرب في التراث الغربي ، ص 303 . يوسف الباز بلغيث . ماهية الإستشراق ، أسواق مربد ، 2008/1/26م ، http :// www. Merbd.net

إن حركة الاستشراق في بريطانيا قوية ونشيطة على مر السنين وكانت موجهة توجيهًا علميًا مقننًا لخدمة مصالح استعمارية وتنصيرية ، وذلك بفضل ما توفر لها من تشجيع ودعم مادي ومعنوي .

وفي مطلع القرن 12هـ/ 18م ، زاد ازدهار الاستشراق وخطا خطوات واسعة بفضل إنشاء كرسيين جديدين للعربية في جامعتي أكسفورد وكمبرديج على يد السير توماس آدمز ، واستدعى التوسع الاستعماري الأوروبي اهتمام العلماء لمعرفة كيفية استعمار الشعوب، وقد أُنشئت في الهند عدة مدارس استشراقية لتدريب الموظفين للتعامل مع أهل تلك البلاد . [1]

ويعد السير (وليم جونز) رائدًا للدارسات الهندية في أوروبا ، بالإضافة إلى جمعيات استشراقية مثل الجمعية البنغالية التي أسست في بداية القرن 13هـ/19م ،عندما زاد إقبال الطلاب على دراسة النصوص السنسكريتية [2] في إنجلترا وفرنسا ، مما حتَّم على مديري الجامعات إنشاء قسم خاص بها في العلوم الشرقية ، وامتد أثر هذا القسم إلى ألمانيا في القرن 19م وغيرها من العواصم الأوروبية ، ومع نهاية القرن 19 م استمر ازدهار الدراسات الاستشراقية مع زيادة كراسي الاستشراق ، وإصدار المجلات المتخصصة ، وتأسيس الجمعيات الآسيوية ، وإتاحة الفرصة لمعظم المستشرقين في زيارة الشرق الإسلامي ، فتوافد عليه أعداد كبيرة من الدارسين والرحالة والعلماء. وقد تناولت دراسة هؤلاء شتى الموضوعات في اللغات والآداب والفنون والعقائد والتاريخ والجغرافيا ، بالإضافة لحل رموز الآثار . [3]

وقد أسست مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في أوائل القرن الـ 20م عام 1335هـ / 1916م ، وقد انتقل إليها بعض كبار المستشرقين مثل (توماس ووكر أرنولد) وغيرهما وقد استمرت هذه المدرسة في النمو والازدهار ، حتى أصبحت المركز الاستشراقي الأول في بريطانيا ، بل وتنافس أكبر المراكز الاستشراقية في العالم . [4]

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 429 ، 430 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 112 .

[2] السنسكريتية : أقدم لغة منطوقة أكتشفت إلى الآن ، تكلم بها أقوام العصر الحجري . أنور محمود زناتي . التحقيق من آراء المستشرق البريطاني مرجليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي ، 2009/10/31م http: // www. Doroob.com .

[3] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 430 – 431 .
Alastair Hamilton : William Bedwell The Arabist 1563 – 1632 . Leiden : 1985 – P . 69 .

[4] ناصر عبد الرزاق الملا جاسم . تأسيس مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية ، جامعة الموصل ، 2009/4/1م ، http . //
. Alastair Hamilton : William Bedwell The Arabist – P 69 . www. Adabihail.com

وفي عام 1365هـ / 1945م شكل وزير الدولة للشؤون الخارجية لجنة لبحث وسائل وبرامج تعليم اللغات والثقافات الشرقية ، وقد أفادت الدراسات الشرقية من تنفيذ توصيات تلك اللجنة بفضل الزيادة الكبيرة التي أدخلتها على هيئات التدريس ، والمنح التي خصتها بالأقسام الشرقية .

وفي عام 1380هـ / 1960م انبثقت عنها لجنة أخرى طورت التدريس الجامعي وأوصت بتدريس تاريخ وجغرافية واقتصاديات دول آسيا وإفريقيا ، تدريسًا مستوعبًا بدلاً من الاقتصار على تعليم لغاتها ، واقترحت زيادة دراسات هذه المناطق دراسة خاصة ، ومما أسفر عن تنفيذ التوصيات إنشاء مركز لدراسة هذه المناطق . [1]

ويمكن ملاحظة نشاط حركة الإستشراق في بريطانيا بما توفر لها من تشجيع ودعم مادي ومعنوي ، وما صاحب هذه الحركة من إنشاء العديد من المراكز الاستشراقية ، وأهمها كراسي اللغات الشرقية .

ومن أبرز الجامعات التي تحتوي على كراسي الاستشراق :

1) جامعة أكسفورد 563هـ / 1167م Univ. of oxford

أنشئت على غرار جامعة باريس ، خصصت أول كرسي فيها للعبرية والعربية والكلدانية والسريانية ؛ وذلك نزولاً على قرار البابا (إكليمنص الخامس) في مجمع فينا ، ثم أنشا كبير الأساقفة (لود) كرسيًا للغة العربية عام 1046هـ/ 1636م. وفي القرن 18م أُضيف إليها كرسي آخر ، درس فيه اللغة العربية ، وتاريخ الشرق الأدنى الحديث والدراسات الإسلامية . لا زالت وهذه الكراسي تؤدي عملها إلى اليوم . [2]

2) جامعة كمبريدج 655هـ / 1257م Univ. of Gambridge

بدأت عملها في عام 606هـ/1209م عندما غادر ثلاثمائة طالب أكسفورد إلى كمبريدج ، وتعلموا اللغات الشرقية فيها. ثم استحدث السير (توماس أدامز Thomas) كرسياً للعربية فيها عام 1043هـ / 1633م ، وفي مطلع القرن 14هـ/ 18م أُضيف إليه كرسي آخر تخرج منه كثير من المستشرقون ، ويوجد فيها

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص430 ، 431 .

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 432 .

يوسف الباز بلغيث . ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، 2008/1/26م . . http : // www. Merbad . het . بحث الإستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15م . . http : // www. Shatharat . net .

اليوم أساتذة ومحاضرون وقارئو نصوص عربية، ومحاضرون في التاريخ الإسلامي ، كما أنشيء فيها مركز للدراسات الحديثة عن الشرق الإسلامي ، وخصت اللغة العربية الحديثة بأحد كراسيها عام 1381هـ / 1961م .

3) جامعة لندن 1344هـ / 1828م Univ. of London

أنشأت للغة العربية كرسيًا ، بالإضافة للوظائف الخاصة بالدراسات الشرقية ، وتصدر عن الجامعة مجلة ثقافية اسمها أصوات ، تصدر باللغة العربية أربع مرات في السنة.

4) جامعة دينام 1254هـ / 1838م Univ. of Dunam

مدرسة الدراسات الشرقية وفيها أساتذة للغات السامية ، وباحث للغة التركية . وهذه الجامعة تؤدي عملها إلى اليوم .

5) جامعة فيكتوريا 1297هـ / 1880م في مانشستر Victoria Univ. of Manchester

وفيها كرسي للغات الشرقية ، وكرسي للغات السامية .

٦) جامعة ليفربول 1321هـ / 1903م Univ. of Liverpol

فيها كرسي للآثار المصرية ، وعنيت بآثار الشرق الإسلامي ، حيث أوفدت بعثة تنقيب إلى تركيا . [1]

7) جامعة برستول 1327هـ / 1909م Univ. of Pristol

8) مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية . 1335هـ / 1916م .

The School of oriental and African Studies

درست اللغات الشرقية ، ودرس فيها كبار المستشرقين ، وتصدر بإسمها نشرة كل ثلاثة شهور .

9) جامعة هال 1374هـ / 1954م Univ . of Hull

أما عن إسكتلندا فقد وجدت فيها أيضًا الجامعات التي اهتمت بالدراسات الشرقية .

10) جامعة سانت أندروز 814 هـ / 1411م Univ. sant Andrews درست العربية لغة وأدبًا .

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ،ج2 ، ص 432 – 434 . يوسف الباز بلغيث . ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، 2008/1/26م . http : // www. Merbad . het . ناظم الديراوي : صورة الإسلام في الاستشراق المُبكر ، الحوار المتمدن ، العدد 27، 2008/2/1846م ، . http : // www. Ahewar.org

11) جامعة جلاسجو 855هـ / 1451م Univ. of Glasgow يوجد بها محُاضر للدراسات الإسلامية والعربية .
12) جامعة أدنبرة 991هـ / 1583م Univ. Edinburg وفيها باحث للعربية ، ومُحاضر للتركية . [1]

ومن أهم المراكز الحديثة في لندن التي تعنى بدراسات الشرق الإسلامي "مركز دراسات الشرق الأدنى والأوسط " ، و " مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن " وأنشئ هذا المركز عام 1386هـ / 1966م بهدف تشجيع الدراسات والبحوث وتبادل الرأي حول الشرق الإسلامي.[2]

وبالتأكيد هذه الدراسات والأبحاث كثيرًا ما أفادت المستشرقين ، وقدمت لهم المعلومات اللازمة لأعمالهم الاستشراقية ، وبالتالي تقديم خدمات عظيمة للاستعمار .

وعنيت بريطانيا بتأسيس كثير من المراكز الاستشراقية في المقاطعات الاستعمارية ودول الكومنولث التابعة لها ، حيث يوجد مراكز في كلٍ من كندا ، واستراليا ، ونيوزلندا ، ومالطة ، والسودان ، وجنوب إفريقيا ، والهند ، ومصر، وتحوي بريطانيا أكبر مجموعة من مصنفات العلوم الإسلامية والعبرية ، وما يتعلق بتاريخ الشرق وحضارته ، بالإضافة إلى مجموعات الكتب في المتحف البريطاني ، ومكتبة لندن ، بالإضافة إلى تأسيس بعض من المستشرقين البريطانيين لعدد كبير من الجمعيات الاستشراقية ، وإصدار الحوليات والمجلات الاستشراقية ؛.[3] وذلك نظراً لعدد البلاد التي ابتلعتها في الاستعمار ونهبت ثرواتها.

إن الاستشراق البريطاني والفرنسي خاصة كان هدفه تشويه صورة الحكم العثماني ؛ لتهيئة أذهان الشعوب بعدم أهلية العثمانيين لحكم البلاد الإسلامية وبذلك تخف المقاومة للاستعمار ، ولا يعني هذا عدم وجود مقاومة وإنما يعني أن الشعوب لا يناسبها الحكم العثماني ، بالإضافة إلى أنها لا تستطيع حكم نفسها، وبالتالي تأتي بريطانيا وفرنسا في صورة الفارس المنقذ ، كما حدث في بلاد الشام ودخول فرنسا إليها ومصر وبقاء البريطانيين فيها .

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 434 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 296 . مؤتمرات المستشرقون . وسائل المستشرقين ، 2008/12/25م ، http : // www. Eltwhed.com .

[2] مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 47 .

[3] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 113 . مدارس الاستشراق . المدرسة البريطانية ، 2009/2/1م . http : // www . madinacenter .com

ثالثًا : روسيا

بدأت الصلات الروسية ببلاد الإسلام منذ العصر العباسي الأول عن طريق التجارة في بغداد وعن طريق الزوار الروس النصارى إلى بيت المقدس ، وبعد سقوط إمبراطورية المغول اتصلت روسيا بالمسلمين ودخلت أعداد كبيرة منهم في دين الإسلام ، وبعدها ازداد الاهتمام بالإسلام واللغة العربية . [1]

ومع قيام روسيا القيصرية وبداية سياستها التوسعية زادت رغبتها في اقتناص ممتلكات الدولة العثمانية ، ودخولها في معارك وأحلاف صليبية ضد العثمانيين ، ولم تصل إلى مبتغاها فظهرت الحاجة بوضوح للدراسات الاستشراقية لوضع الخطط لكيفية ضرب العثمانيين فكريًا وعقائديًا فأدخلت الجامعات السوفياتية عام 1219هـ / 1804م مراكز الاستشراق ضمن كلياتها المعترف بها ، وأدرجت اللغات العربية والفارسية والتركية في مناهجها .

ومن الجامعات التي تحتوي على كراسي الاستشراق :

1) جامعة خاركوف 1219هـ / 1804م Univ. Kharkov

تعتبر أول جامعة روسية تطبق النظام الجامعي بتدريس اللغة العربية ، وأشرف عليها كبار المستشرقين أمثال (كريمسكي). [2]

2) جامعة قازان 1219هـ / 1804م Univ. Kazan

بدأت بتدريس العربية 1222هـ / 1807م عندما استدعى قيصر روسيا المستشرق الألماني (فران Fran)، وعهد إليه بقسم اللغات السامية ، وتطور الكرسي حتى انبثقت عنه عدة كراسي للعربية والتركية والفارسية ، وتدرس فيها اليوم اللغة العربية وآدابها وتاريخها .

3) جامعة موسكو 1169هـ / 1755م Univ. moscon

أنشئ فيها معهد الألسنية عام 1226هـ / 1811م فوجه عنايته إلى اللغات الشرقية والأدب العربي ، وازدهرت الدراسات العربية فيه ازدهاراً فريداً.

4) كلية لازاريف 1230هـ / 1815م Univ. Lazarev

---

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 115 . أغناطيوس كراتشوفسكي : من تاريخ الاستشراق في الاتحاد السوفيتي ، ترجمة : أنا دولنينيا، سلسلة كتب الثقافة المقارنة ، العدد 2 ، فبراير 1987م ، ص 56 – 59 .

[2] كريمسكي : 1288هـ – 1360هـ / 1871م – 1941م . ولد في أوكرانيا ، وتخرج من جامعة موسكو عام 1314هـ/1896م ، رحل إلى سوريا وأهتم باللغات العربية والتركية والفارسية ، عين أستاذاً للعربية وآدابها في كلية لازاريف ، وللعربية في قازان ، وترأس الدراسات العربية في فاركوف ، له عدة مصنفات عن العرب واللغة والتاريخ والدين والنقد الأدبي. نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص81 .

في موسكو ، حيث أنشأتها عائلة (دي لازاريف) ، وهي من أعرق أسر الأرمن ، حيث اتصلوا ببلاط روسيا القيصرية فشملوها برعايتها ، وفي البداية كانت مدرسة فقط لتعليم أبناء الأرمن لغتهم ، ثم طارت شهرتها إلى تركيا وإيران والهند ، وانحصرت رسالتها في إعداد موظفين وتراجمة للشرق الأدنى ، ودرست العربية بجانب الأرمينية .

5) جامعة بطرسبرج 1235هـ / 1819م Univ. Petersbourg

تدرس العربية لمدة أربع سنوات ، يتلقى فيها الطلاب سورًا من القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية وأمثال لقمان ، ثم يتعلمون من خلال مختارات كتب المستشرق دي ساسي التي كانت مشوهة ومدسوسًا عليها الكثير من الافتراء، فهي لا تعبر عن صدق أصالة الإسلام ، أمثال ملخصات رسائل إخوان الصفا ، وألف ليلة وليلة ، ومقامات الحريري ، وكليلة ودمنه وغيره .

وأنشئت فيها كلية للغات الشرقية – العربية والتركية والفارسية والعبرية – ثم أنشئت فيها شعبة لتدريس تاريخ الشرق الإسلامي . [1]

وقد اهتمت روسيا بالدراسات الاستشراقية ، ووفرت لها الدعم المادي والمعنوي ، وذلك لرغبتها الشديدة في اقتناص ممتلكات الدولة العثمانية والقضاء عليها ، وبالإضافة للجامعات أسست روسيا المعاهد مثل معهد اللغات الشرقية في لينجراد ، وجمعية المستعربين، ومعهد المركز للغات الشرقية الحية بموسكو عام 1338هـ / 1920م ، وجمعية المستشرقين الروسية في موسكو أيضاً 1341هـ/ 1922م التي تصدر مجلة الشرق الجديد ، ثم توسعت كليتا التاريخ واللغة والأدب بجامعة موسكو بتدريس التاريخ واللغات والآداب العربية والتركية والفارسية .ويوجد في روسيا أيضًا الكثير من المكتبات التي تضم مئات الكتب العربية والإسلامية . [2]

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 55 – 56 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م . . http : // www . marefa . org . أغناطيوس كراتشوفسكي : مرجع سابق ، ص59. الاستشراق الروسي. الاستشراق الجامعي ببطرسبورغ ، كراسي الاستشراق في روسيا ، 2008/8/20م ، . 132 – 135 . 85 . 20g // : http. الاستشراق الروسي . مصادر الاستعراب الروسي ، 2009/5/7م ، . http : www. Awa- dam . org . محمد سليمان حسن . كراتشكوفسكي والشرق الإسلامي ، 2008/8/17م . .http : // www. Awu-dam.org

[2] مثل المكتبة الإمبراطورية العامة ، المتحف الأسري ، ومكتبة لينجراد . نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 3 ، ص56 . الاستشراق الروسي. الاستشراق الجامعي ببطرسبورغ ، كراسي الاستشراق في روسيا ، 20 /2008/8م، . http : // 20g . 85 135 . 132 .

واهتم المستشرقون الروس بإصدار عدد كبير من المجلات والحوليات التي تعني بالإسلام واللغة العربية وآدابها . [1]

رابعًا إيطاليا

قامت حركة علمية واسعة تعنى بدراسة حضارة الإسلام في إيطاليا عن طريق الترجمة والحفظ والتأليف والنشر وتعليم اللغات الشرقية ، وذلك بتوجيه من الفاتيكان ومقام البابوية المعادية للإسلام التي قدمت الدعم المادي الكبير لإنشاء الجامعات والمعاهد والمدارس، وعملت على تأسيس المطابع وإصدار الكتب والدوريات ، ومن هذه الجامعات والمعاهد :

١) جامعة بولونيا 1118هـ / 1706م Univ. Boloyna واختصت بالاهتمام بعلوم العرب والمسلمون .

٢) جامعة نابولي 261هـ / 1224م Univ. Napili التي اهتمت بثقافة المسلمين والعرب .

٣) جامعة روما 646هـ / 1248م Univ. Roma التي اهتمت بدراسة الآثار والتاريخ واللغة والآداب العربية .

٤) جامعة فلورنسا 721هـ / 1321م Univ. Flirenze.

٥) الجامعة الغريغورية 961هـ / 1553م التي ركزت على الدراسات الإسلامية والقانون الإسلامي . [2]

أما عن المدارس والمعاهد فقد أسست من قبل البابوات ، وأدت عملها تحت إشراف كنسي صرف لتوجيه الدراسة لمصلحة الكنيسة في روما التي كان شغلها الشاغل القضاء على الإسلام ، ووأد الفتوحات العثمانية ، وقد قادت الحملات الصليبية ضد العثمانيين ، وأيضاً دعمت الاستشراق للقضاء على الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا ؛ وللحد من انتشاره .

---

[1] مثل عالم الإسلام ، والآداب العالمية ، العالم الشرقي. انظر : عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص116 .

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 405 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 109 .الاستشراق الروسي . الاستشراق الجامعي ببطرسبورغ ، كراسي الاستشراق في روسيا ، 2008/8/20م . 132 . 135 . http : // 20g.85 . مدارس الاستشراق المدرسة الإيطالية ، 2009/2/1م ، . http : // www. Madinacenter . com .

وبالنسبة للمدارس :

١) أنشأ البابا (غوريغوريوس الثالث عشر) المدرسة المارونية في روما 992هـ/1584م .

٢) كلف مجمع الإيمان الراهبات بتأسيس مراكز للغات الشرقية في روما فعين الأب (جارديان الفرنيسكاني) من القدس أول أستاذ للعربية .

٣) مركز نابولي عام 1140هـ / 1727م .

وفي عام 1306هـ / 1888م أُسس فيها كرسي لتدريس العربية والتركية .

أما المعاهد :

١) معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب بجامعة روما 1323هـ/ 1905م . ولها مجلة الدراسات الاستشراقية .

٢) المعهد الإيطالي لإفريقيا 1324هـ / 1906م ، وهو خاص بحفظ الوثائق.

٣) المعهد البابوي للكتاب المقدس 1327هـ / 1909م ، وبه كلية للدراسات الشرقية .

٤) المعهد البابوي للشرق 1337هـ / 1918م .

ويعنى بدراسة التركية والنظم الإسلامية ، وألحقت به مكتبة غنية بالمخطوطات العربية النادرة .

٥) المعهد الشرقي 1339هـ / 1920م .

يعنى بتعريف الشرق الإسلامي ، ولديه مكتبة ثمينة وفصول لتعليم العربية والتركية .

٦) مؤسسة كايناني 1343هـ / 1924م .

تعنى بالدراسات الإسلامية ، وتتعاون مع مجمع لنشاي لنشر المصنفات والمدونات والأبحاث المتعلقة بالشرق الإسلامي . [1]

إن هذه المؤسسات التعليمية توضح مدى الاهتمام بالاستشراق في إيطاليا خلال القرن 18م – 19م حيث ازداد تنظيم الدراسات الشرقية ، وخصوصاً في تدريس اللغات الذي عهد به إلى كبار المستشرقين ، كما كان هناك اهتمام بالحوليات التي تهتم بالشرق. [2]

---

(1) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 407 – 408 .

(2) مثل الشرقيات 1339هـ / 1920م Oriantalia ، مجلة فلسطين 1342هـ / 1923م Pulestina ، مجلة الشرق والغرب 1354هـ / 1935م East and West .

ونتيجة لهذا الاهتمام بحركة الاستشراق وجدت الحاجة إلى إنشاء المطابع الشرقية مثل مطبعة البندقية 874هـ / 1469م ، ومطبعة فانو 920هـ/1514م.[1]

ونلاحظ أن الاستشراق في إيطاليا نشأ أولاً بتدعيم الكنيسة والبابوية ؛ وذلك لدعم اتجاهها في القضاء على الدولة العثمانية ، وإيقاف المد الإسلامي إلى أوروبا ونشر نفوذ المسيحية ، وبالتالي نفوذ البابا المنحرف .

خامسًا: هولندا

بدأ اتصال هولندا بالعالم الإسلامي عندما نشط الغرب في الدراسات الاستشراقية ، فاستعان الهولنديون بتحقيق تراثه وتاريخه ، فتخرج المستشرقون الذين وضعوا المؤلفات ، وتعاونوا على إصدار المجموعات الخاصة ، وقد آثروا نشر مؤلفاتهم في مطابعهم الخاصة ، حتى غدت هولندا ولا سيما جامعة ليدن بمكتبتها ومطبعتها من أشهر مراكز الاستشراق العالمي . [2] وهذه الأخيرة تولت الإشراف على طباعة دائرة المعارف الإسلامية ، حتى إن أول المشرفين على المواد العثمانية كانوا هولنديين .

وأولى المحاولات العلمية الجادة للتعرف على الإسلام جاءت على يد المستشرق الهولندي (هادريان ريلاند Hadrian Renald) ت 1131هـ/ 1718م " فقد وضع كتابًا باللاتينية عن الإسلام في جزءين بعنوان " الديانة المحمدية " ، وصدر الكتاب في عام 1117هـ/ 1705م ، وقد أثار هذا الكتاب اهتمامًا عظيمًا لدرجة أدت إلى إثارة الشبهات حول المؤلف بأنه يريد القيام بعمل دعائي للإسلام ، ومن أجل ذلك أدرجت الكنيسة الكاثوليكية الكتاب في قائمة الكتب المحرم تداولها .[3]

وعلى الرغم من تحريم الكنيسة لتداول هذا الكتاب ، إلا أنه بلا شك احتوى على كثير من الافتراءات والتشويه والدس على الإسلام ، وأول نقد يوجه إليه تسمية الكتاب بالديانة المحمدية ؛ فهي لم تكن ديانة باسم سيدنا محمد ﷺ أو لقومهِ العرب فقط وإنما للبشر جميعًا ، وهي رسالة سماوية من عند الله ﷻ ، وسيدنا محمد نبي مرسل ، وعليه لم تكن قط ديانة محمدية باسمهِ ، وإنما دين الإسلام ، أي السلام بين الناس ، وهو ما تفتقده أوروبا.

---

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 110 .

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 644 .

[3] محمد حمدي زقزوق : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، ص204 . مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية ، 2009/2/1م http :// www. Madinacenter . com

ثم إن الكنيسة عندما حرمت تداول الكتاب أصبح ذلك أقرب إلى الدعاية للكتاب ، فتسابق الناس للحصول عليه وقراءته ، وربما وصل الأمر إلى التأثر بما جاء فيه .

ومما يميز الاستشراق الهولندي وجود مؤسسة برل التي تولت طباعة الموسوعة الإسلامية ونشرها في طبعتيها الأولى والثانية ، وتقوم هذه المؤسسة بطباعة كثير من الكتب حول الإسلام والمسلمين . [1]

انتشرت كراسي الاستشراق في الجامعات الهولندية :

1) جامعة ليدن 983هـ / 1575م : Univ. Leiden

أنشأت كرسيًا للعربية عام 1022هـ / 1613م ثم استحدثت وظيفة مترجم للتراث الشرقي ، ويوجد في الجامعة اليوم كرسي للعربية والدراسات الإسلامية ، ومدرس للعربية الحديثة ، وأستاذ للتركية . [2]

ومن أهم المستشرقين في هولندا في القرن 17م (توماس أرينيوس Thomas Arineous) 992هـ - 1034هـ / 1584م - 1624م ، كان أول أستاذ يشغل كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن 1022هـ / 1613م ، والذي كان لجهوده العلمية ومؤلفاته في النحو العربي الأثر في جعل هولندا في مكان الصدارة في الدراسات العربية في أوروبا ما يقرب من قرنين .[3]

2) جامعة جروننجين 1023هـ / 1614م Univ. Groningen

وفيها أستاذ للعربية واللغات السامية ، ومن بينها الآداب العربية وتاريخها .

3) جامعة أمستردام البلدية 1042هـ / 1632م Univ. Amsterdam وبها أستاذ للعربية.

4) جامعة أوترخت 1043هـ / 1633م Univ. Utrecht

ويوجد بها محاضر للعربية والدراسات الإسلامية .

5) جامعة أمستردام الكلفنية الحرة 1297هـ / 1880م . Univ Amsterdam يوجد بها كرسي لتدريس العربية وتاريخ الإسلام .

---

[1] قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، ط1 ، الرياض ، 1403هـ ، ص103 .

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 645 .

[3] محمود حمدي زقزوق : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، ص 204 .

6) جامعة نيجميجن الكاثوليكية 1342هـ / 1923م Univ. Nijmeyen

وفيها كرسي للعربية والدراسات الإسلامية .

هذا عن الجامعات أما المعاهد فيوجد :

1) المعهد الشرقي لدراسة الشرق والإسلام . [1]

ومع اقتراب القرن الواحد والعشرين أصبح لهولندا مركز للبحوث والدراسات العربية والإسلامية في مصر ، وقد تولت جامعة ليدن تنظيم مؤتمر عالمي حول الإسلام في القرن 15هـ / 21م بالتعاون مع وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية ، وقد بحث المؤتمر أوضاع العالم الإسلامي في القرن 21م . [2]

سادسًا: ألمانيا

بدأ اهتمام ألمانيا بحضارة الإسلام منذ الحملة الصليبية الثانية 542هـ-544هـ / 1147م – 1149م وعودة حجاجها من بيت المقدس واصفين وناقلين شيئًا من حضارة الإسلام ، ثم جاءت مرحلة ترجمات الرهبان ورجال الدين – وبعضهم ألمان – للكتب العربية، وميل (فردريك الثاني) ملك صقلية ثم إمبراطور ألمانيا للإسلام وتفضيله على الكنيسة ، وقد لمس العلماء الألمان أهمية الحضارة الإسلامية وفائدة دراستها عن طريق النمسا عندما أنشأت مدرسة على غرارها في برلين 1305هـ / 1887م ، وجمعت المخطوطات العربية في مكتباتها واهتمت بمخطوطات التاريخ الإسلامي ، فظهر كتاب المغازي للواقدي محققًا بالألمانية ، بالإضافة إلى تحقيق كتاب الطبري ، ثم ظهرت جهود بروكلمان في كتابة " تاريخ الأدب العربي " .

كما ظهر تأثر المفكرين الألمان بالدراسات العربية الإسلامية منذ فترة مبكرة فقد ثبت أن (مارتن لوثر) كان من الذين تأثروا بالفكر الإسلامي حينما تمرد على الكنيسة الكاثوليكية في روما ، ولكن موقف (لوثر) كان عدائيًا جدًا من الإسلام وبخاصة. الدولة العثمانية . [3]

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 645 – 646 . مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية ، 2009/2/1م . http : // www. Madinacenterr.com .

[2] قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، ص 103 .

[3] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص 268 . عبد الكريم علي الباز : افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي ، د. ط ، جدة: تهامة للنشر ، 1403هـ / 1983م ، ص 28 .مدارس الاستشراق . المدرسة الألمانية ، 2009/2/1م، http : // www. Madinacenter . com .

ثم تأثر كثير من المستشرقين الألمان بمنهج المستشرق الفرنسي (رينان دي ساسي Renan De Sasi) ولكن مصطبغ بالصبغة الألمانية ، وتتلمذ على يديه كثير من مؤسسي الدراسات الاستشراقية العربية في ألمانيا ، ومن أشهرهم (فلايشير Flaysher) . الذي عمل أستاذاً للغات الشرقية في جامعة جوتنجين ، وقد تخرج منها كبار المستشرقين الذين أسهموا بنصيب وافر في توسيع أفق الدراسات الاستشراقية في ألمانيا وفهرسوا المخطوطات التي تناولتها الدراسات الشرقية الإسلامية في المكتبات ، وأسسوا المطابع والجمعيات والمجلات ، وعملوا على نشر أعمالهم.[1]

ومن كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الألمانية ما يلي :

١) جامعة هايدلبرج 788هـ / 1386م Univ. Heidelberg

٢) جامعة كلون 790هـ / 1338م Univ Klon

٣) خورز بورج 508هـ–990م/1402هـ–1582م. Wurzburg Univ.

٤) جامعة بون 1201هـ– 1320هـ / 1786م – 1902م Univ. Bonn

٥) جامعة برلين 1224هـ / 1809م . Univ. Berlin

٦) جامعة مونستر 1320هـ / 1902م . Univ. munster

٧) جامعة ارلنجبين 1156هـ / 1743م Univ. Erlangen

٨) جامعة ليبزيج 812هـ / 1409م Univ. Leipzig

٩) جامعة رستوك 822هـ / 1419م . Univ. Rostock

١٠) جامعة جرايفسفالد 861هـ/ 1456م . Univ. Greifswald

١١) جامعة ميونيخ 877هـ / 1242هـ / 1472م – 1826م . Univ. munchen

١٢) جامعةماينس 881هـ – 1366هـ / 1476م– 1826م Univ. Mainz

١٣) جامعة توبنجين 882هـ / 1477م Univ. Tubingen

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 678 – 679 . ظاهر يوسف . الاستشراق الألماني إلى أين ، مجلة التراث العربي ، العدد 68 ، 2008/4/21م . http : // www. Dahsha. Com .

الاستشراق . الموسوعة الحرة بخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م . http : // www.marefa.org.

١٤) جامعة هاله 908 هـ - 1106هـ/ 1502م - 1694م Univ Halle

١٥) جامعة ماربورج 934هـ / 1527م Univ. Mabburg

١٦) جامعة جينا 966هـ / 1588م . Univ. Jena

١٧) جامعة جيسن 1016هـ / 1607م . Univ. Giessen

١٨) جامعة كييل 1076هـ / 1665م . Univ. Kiel

١٩) جامعة جوتنجين 1149هـ / 1736م Univ. Gottingen [1]

إن هذا العدد من كراسي الاستشراق له دلالة واضحة على مدى اهتمام ألمانيا بالدراسات الاستشراقية ؛ لما تعود به من معرفة كاملة عن كيفية استعمار الشعوب الإسلامية، وإزالة أي أثر للدولة العثمانية في أذهان المسلمين حتى لو كان معنوياً .

ومن المعاهد والمدارس التي اهتمت بتعليم اللغة العربية وبعض اللغات الشرقية :

1) معهد اللغات الشرقية 1305هـ / 1887م

أسسه (زاخاو) في برلين ، فأصدر سلسلة من الكتب المدرسية أرست القواعد الأساسية لتعليم اللغة العربية . ومن أهم من تخرجوا منها (مارتن هارتمان) [2] ، وله عدة مقالات في دائرة المعارف الإسلامية خاصة بالتاريخ العثماني .

2) مدرسة للدراسات الإسلامية والإفريقية في هامبورج .

وتهتم مراكز الاستشراق في ألمانيا بإصدار عدد كبير من الحوليات والنشرات . [3]

اهتم المستشرقون الألمان بإعداد الفهارس وحفظ المخطوطات ، وإعداد قوائم عامة للمراجع والكتب الإسلامية والعربية ، وهي موجودة في معظم مكتبات المراكز الاستشراقية ،

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 678 ، 679 . ظاهر يوسف . الإستشراق الألماني إلى أين ، مجلة التراث العربي ، العدد 68 ، 2008/4/21م . http : // www. Dahsha. Com .

الاستشراق . الموسوعة الحرة بخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م . http : // www. Dahsha .com

[2] سيتم تعريفه لاحقاً .

[3] أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم عام 1258هـ/ 1842م ، المجلة الآشورية التي أسسها (كارل بستولد) ، مجلة الآداب الشرقية 1316هـ / 1898م أسسها (فيلكس باير) ، مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الفلسطينية تصدر عن معهد اللغات في برلين ، مجلة الإسلام 1339هـ / 1920م ، أنشأها الوزير (كارل هنرينش بيكر) وهي تصدر عن الجمعية الألمانية في هامبورج. انظر : محمد البهي : مرجع سابق ، ص 432 . عدنان محمود وزان : مرجع سابق ، ص108 .

أمثال مكتبة برلين الوطنية في جوتنجين ، وفي هايدلبرج.[1]

إن هذه القوائم تتيح لهم سرعة الرجوع لأي موضوع من أي كتاب ، وهذا يعني سهولة في الآراء ، وسرعة في الإنتاج ؛ لأن كل شيء في متناول أيديهم .

وقد ازدهرت الدراسات الاستشراقية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وازداد الإقبال عليها ، مع زيادة عدد المشتغلين بها من طلاب ومدرسين وباحثين ، وأصبح لها في جامعات ألمانيا الغربية وحدها 35 أستاذًا و 36 مدرسًا، 15 محاضرًا ، ومجلسان علميان ، ويقبل الطلاب على اختلاف مناهجهم، ولا سيما الخاصة بالعالم العربي ، والشرق الأدنى ، ولا أدل على ذلك من تزايد الجمعيات الشرقية في ألمانيا مثل الجمعية الشرقية الألمانية التي تأسست عام 1262هـ / 1845م . [2]

سابعًا: الولايات المتحدة الأمريكية

دخلت الولايات المتحدة الأمريكية مجال الدراسات الاستشراقية متأخرة فهي لم تعرفه إلا في القرن 19م ، وقد غلب عليها الطابع الديني ، مع عدم إغفال الأطماع السياسية ؛ إذ إنهم عرفوه عن طريق اليهود ، فقد تمكن اليهود من السياسة الأمريكية وخدمة أهدافهم عن طريق أمريكا ، وأول ظهور كان في عام 1246هـ / 1830م ، ورغم قصر المدة الزمنية لحركة الاستشراق في أمريكا إلا أن المستشرقين الأمريكان نجحوا في تنشيط هذه الدراسات، وإعطائها الصبغة العالمية بما أنشأوا من محافل استشراقية وإصدار المجلات والكتب ، حتى توَّجوا هذه المجهودات بتأسيس أول جمعية استشراقية أطلقوا عليها الجمعية الشرقية الأسيوية عام 1258هـ / 1842م التي تصبوا إلى تحقيق هدفين ،هما :

تحقيق المطامع الاستعمارية لأمريكا ، والقيام بدراسات الاستشراقية لمساعدة هذه الأطماع على الخروج إلى حيز التنفيذ . لذلك بدأت الجمعية في إرسال باحثيها إلى العالم العربي والإسلامي ، وقد اهتمت بإصدار دوريات عن الأدب العربي والإسلامي وترجمة بعض الكتب العربية الإسلامية . [3]

---

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 109 .

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 681 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 108 .

[3] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص114 . محمد قطب : المستشرقون والإسلام ، د.ط ، القاهرة : مطبعة وهبه ، 1999م ص226 – 230 . محمد البهي : مرجع سابق ، ص 432 .

كما نشطت البعثات التنصيرية الأمريكية في بلاد الشام فأسست المدارس والمعاهد العلمية وأرسلت البعثات إليها ، أشهرها بعثة (صموئيل زويمر) [1] عام 1307هـ / 1889م . ومنذ منتصف القرن 20 م شهد الاستشراق الامريكي نهضة شاملة وذلك عندما أخلت بريطانيا مواقعها للنفوذ الأمريكي ، وعندها أحس الأمريكيون أنهم بحاجة إلى عدد كبير من المتخصصين في شؤون الشرق الإسلامي ، فأصدرت الحكومة الأمريكية مرسومًا عام 1372هـ / 1952م خصص بموجبه مبلغ مالي ضخم لتشجيع الجامعات على افتتاح أقسام الدراسات العربية والإسلامية . [2]

وأصبحت تُلقي دروس عن العربية والعلوم الإسلامية واللغات السامية لطلبة الماجستير والدكتوراة ، وفتح المجال لجميع التخصصات في الدارسات العربية والإسلامية .

واستمرت هذه الحركة في الظهور والازدهار حتى بلغت شأنًا بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث ظهر الاهتمام بتكثيف عدد مراكز الاستشراق وتأسيس الكراسي الاستشراقية في الجامعات الأمريكية . [3] وزاد الاهتمام بحضارات وديانات آسيا وإفريقيا ، فأعدت جامعة كولومبيا بالاتفاق مع ثمانية عشر معهداً وجامعة منهجًا شرقيًا حديثًا تسهم الحكومة في نصف نفقاتهِ لتدريس لغات الشرق الأوسط وآسيا ، فأصبح عدد الجامعات المعنية بالعربية 16 جامعة و 5 جامعات معنية بالتركية ، ثم أعدت برامج عن الشرق الإسلامي درست في 21 جامعة وكلية . ومن أبرز أساتذتها العرب (جورج حوراني) أستاذ العلوم الإسلامية بقسم دراسات الشرق الأدنى في جامعة ميتشيجان وفيليب حتى في جامعتي كولومبيا وبرنستون وقد تجنس بالجنسية الأمريكية . [4]

ومن أبرز الجامعات التي تحتوي على كراسي للإستشراق :

1) جامعة هارفارد 1046هـ / 1636م كانت كلية ثم تحولت إلى جامعة 1194هـ/1780م Univ. Harrfard ، يبلغ عدد طلابها عشرات الآلاف وأساتذتها بالمئات وفيها مجموعة متاحف تضم نفائس حضارة الآشوريين والبابليين والعبرانيين والفينيقيين

---

[1] سيتم التعريف له لاحقاً .

[2] محمد قطب ، مرجع سابق ، ص 230 – 235 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م . . http : // www. Marefa. Org

[3] يوجد اليوم (1300) جامعة ما بين حكومية وأهلية . نجيب عقيقي ، مرجع سابق ، ج3 ، ص 120 .

[4] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 120 – 121 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 114 . بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15م . http : // www. Shatharat het .

والعرب ، وتعتبر هارفارد أكبر الجامعات الأمريكية التي عنيت بتاريخ الشعوب السامية ولغاتها وتاريخها ولا سيما العربية، وقد رصد على كرسيها مبلغ وقدره مائتا ألف دولار ، ثم أنشأت ثلاثة مراكز مستقلة ، الأول للشرق الأوسط درس فيه 28 برنامجاً أشرف عليه السير (هاملتون جب) باللغات العربية والتركية والفارسية ، أما الثاني فلشعوب آسيا ، والثالث للأبحاث الروسية.

2) جامعة بيل Bul .Univ 1113هـ / 1701م كانت كلية ثم حولت إلى جامعة 1299هـ / 1881م في نيوهيفن ، وهي تعنى بالشرق الأدنى ، وبها مطبعة خاصة لنشر ذخائر الكتب العربية . [1]

3) جامعة برنستون Princeton .Univ 1159هـ / 1746م

بدأت بتعلم اللغات السامية وآدابها ، ثم أنشئ فيها قسم اللغات والآداب الشرقية ، وأسهمت فيه مؤسسات : روكفلر ، كليفلاند ، وأرامكو ، وقد عمد الدكتور (فيليب حتى) ، منذ كان أستاذًا مساعداً للآداب السامية بتجهيز مطبعة عربية خاصة بالجامعة ، ويعود له الفضل في جعل الدراسات العربية والإسلامية ذات مكانة رفيعة في الجامعة ، وذلك عندما عين رئيسًا لقسم اللغات والآداب الشرقية فقد تولى في فترة رئاستهِ 16 عالماً متخصصاً كانوا يدرسون برامج الاستشراق.

تستغرق دراسة هذا البرنامج سنتين يتقن الطالب خلالها – على الأقل – لغة تخص بلاد إسلامية واحدة ، ومعظم الطلبة يختارون العربية ، وتشتمل الدراسات الإسلامية على : التاريخ الإسلامي القديم ، وعالم الإسلام من العصر العباسي حتى الدولة العثمانية ، والشريعة الإسلامية ، وتعطي الجامعة شهادة الدكتوراة بعد أربع سنوات من الدراسة مع إتقان لغتين تخص بلاد إسلامية – واللغات المقررة عربية وتركية وفارسية – وسياحة عامة في ربوع الشرق الأدنى.

ولم تقتصر دراسة برامجه على الأمريكيين وإنما أتيحت لجميع طلاب الشرق الأدنى، ويعقد القسم مؤتمرًا سنويًا يدعو إليه الأقطاب ؛ العلمية لمعالجة موضوعات الشرق الأدنى ،

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص121 .

وتعزيز التفاهم بينه وبين الولايات المتحدة ، ولطالما اشترك (فيليب حتى) بنفسه في حلقات الدراسات الاستشراقية . [1]

لقد أسس (فيليب حتى) هذا البرنامج " برنامج دراسات الشرق الأوسط " عام 1927م بدعم من الرئيس (ويلسون) من الجامعة الأمريكية في بيروت ، ومن أشهر أساتذة هذا القسم (مانفرد هالبرن Manfred Halpern) و(برنارد لويس Bernard Lewis) المؤرخ اليهودي المتصهين ، على أن الجامعة تضم بين أروقتها ثاني أكبر مجموعة للمخطوطات العربية في الغرب . ولديها فهرسان لهذه المخطوطات ، بالإضافة لمكتبة عامة للكتب تضم قسمًا كبيرًا للكتب العربية والاستشراقية ، وثمة مكتبة قسم دراسات الشرق الأدنى، وأخيراً مكتبة خاصة بالرسائل الجامعية .

أما النشاط الأهم لهذا البرنامج فهو الندوة الأسبوعية التي تعقد كل يوم أربعاء ، ويحضرها طلاب الدراسات العليا ، وأعضاء هيئة التدريس ، وبعض الضيوف المهتمين بقضايا الشرق الأوسط ، وتتناول هذه الندوة مختلف [2] القضايا الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية ، أما عن الرسائل الجامعية فتنوعت موضوعاتها بين سياسية وعقائدية واقتصادية واجتماعية ، وهناك تعاون وثيق بين هذا القسم والأقسام الأخرى في الإشراف على هذه الرسائل . ومن الأمثلة على هذه الرسائل رسالة عن " التنصير في الخليج العربي " ورسالة عن " الفكر السياسي الإسلامي" [3]

ومن أعمال (فليب حتى) في تعميق الدراسات الاستشراقية يتضح الدور الذي أدته الولايات المتحدة في دعم ودفع حركة الدراسات الاستشراقية بالشكل الذي يخدم أغراضها في تشويه التاريخ الإسلامي بما فيه التاريخ العثماني ، وأيضًا سياستها الاستعمارية في ثوبها الجديد .

4) جامعة كولومبيا 1168هـ / 1754م Univ. Colombia

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 121 – 122 . الاستشراق . الموسوعة الحرة بخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م. http : // www. Marefa. Org.

[2] ومن الأمثلة على هذه الموضوعات " تركيا والديمقراطية " ، " الإصلاح اللغوي في تركيا : الإصلاح الكارثة " .

[3] مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 33 – 35 . بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 2008/12/15م ، http://www.awa-dam.org

في نيويورك وهي للغات السامية ، ثم أعدت مع ثماني عشرة جامعة ومعهدًا منهجًا شرقيًا حديثًا للغات الشرق الإسلامي . وعينت سبعة عشر أستاذًا لتدريسها في معهد الشرق الأوسط .

5) جامعة بنسيلفانيا 1282هـ / 1765م Univ. Pennsylvania

لقيت اللغات الشرقية فيها ازدهارًا.

6) جامعة ميتشجان 1233هـ / 1817م Univ. Micnigan

ويدرس في قسم دراسات الشرق الأدنى ولغاته 25 برنامجًا ، منها : التاريخ عموماً، وتاريخ الإسلام وعلومهِ واتجاهاتهِ السياسية .

7) جامعة بوسطن 1287هـ / 1870م Univ. Boston

أنشئت لدراسة اللاهوت والفلسفة ، وتضم اليوم منظمات الطلبة التي تمثل الطوائف الدينية الرئيسة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتدرس الإسلام وغيره من الأديان العالمية ويلحق طلاب اللاهوت بالمعاهد الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس وبغداد .

8) جامعة شيكاغو 1310هـ / 1892م Univ. Chicgo

عنيت بالدراسات السامية ، وأصدرت لها مجلة ، وأنشأت معهداً شرقيًا .

9) جامعة جونز هوبكنز 1310هـ / 1892م Univ. Johns Hopkirrs

تأسست في جامعة بالتيمور ، وفيها قسم للغات الشرقية . [1]

10) جامعة إنديانا – بلومنجتون : Indiana Univ. – Bloomington

تأسست عام 1820م ومن أبرز الأقسام فيها أقسام اللغات الأجنبية وقسم دراسات الشرق الأوسط ؛ إذ إن هذا القسم هو أحد الأقسام التي تحصل على معونة مالية من الحكومة الأمريكية . [2]

11) جامعة جورجتاون: مركز الدراسات العربية المعاصرة Univ. Jorge Town

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 123 – 124 . مؤتمرات المستشرقون . وسائل المستشرقين ، 2008/12/25م ، http : // www. Eltwhed . com

[2] مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 41 وسائل الاستشراق . شذرات ، 2009/8/24م ، http : // www. Shatharat.net

تعد هذه الجامعة أقدم معهد كاثوليكي للتعليم العالي في الولايات المتحدة الأمريكية وقد تأسست عام 1212هـ / 1797م ، وتضم الجامعة بين ردهاتها مركز الدراسات العربية المعاصرة ، ومكتب العلاقات الإسلامية النصرانية ، وللمركز نشرة شهرية تتناول نشاطاته من ندوات ومحاضرات وإصدارات مختلفة، ومن أهم الموضوعات التي يتناولها المركز " الفن والثقافة الشعبية في التاريخ العثماني ، وتحت هذا العنوان يتم إلقاء عدد من المحاضرات والندوات باستمرار.[1]

وإضافة إلى هذه الجامعات انتشرت المعاهد في أنحاء الولايات الأمريكية ، مثل:

1) معهد السلك الخارجي 1367هـ / 1947م .

أنشأته وزارة الخارجية بناء على توصية من الكونغرس الأمريكي ، ودُرِست فيه سبعون لغة ، منها العربية الفصحى ولهجاتها العامية كالشامية والعراقية والسعودية والمصرية وغيرها .

ثم أوصى الكونغرس بتوسيع برامجه ، فأشرف على برنامج الشرق الأوسط الذي يدرس نشأة الإسلام وعلاقته باليهودية والنصرانية والتاريخ الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية والتراث التركي . [2]

إن تدريس اللهجات العامية له دلالة واضحة على أن خريجي هذا المعهد سيعملون في السلك السياسي ، وسيرسلون إلى البلاد العربية فيكونون أقدر من غيرهم على الاختلاط بالشعوب والأهالي ، والتغلغل داخل عاداتهم وتقاليدهم وتاريخ الدول الإسلامية بحكم إتقانهم للهجات المحلية ، مما يعطي فرصة لتنفيذ المخططات الاستعمارية ، وتدمير التراث التاريخي الإسلامي .

2) معهد الشرق الأوسط :

تأسس هذا المعهد في واشنطن عام 1366هـ / 1946م مرتكزًا على مكتبة ضخمة وغنية بالكتب المتنوعة ، وذلك لملء الفراغ في حاجة الأمريكان لفهم مستوعب للشرق الأوسط . وقد تم افتتاحهِ بموجب مراسيم حكومية ، وفي عام 1375/ 1955م بدأ مشروعه في نشر الكتب .

---

[1] مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 39 .

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 123 – 124 .

والهدف الرئيس لهذا المركز على مر السنيين هو إصدار مجلة الشرق الأوسط ، وعقد مؤتمر سنوي في واشنطن بالإضافة إلى مؤتمرات وحلقات دراسية ، ودورات ابتدائية في لغات المنطقة ، وترتيب محاضرات في واشنطن ومدن أخرى .

ويعمل المعهد حاليًا متعاوناً مع الجامعات ومجموعات سياسات الشرق الأوسط في تثقيف نطاق واسع من مواطني أمريكا حول الشرق الأوسط ، والتي تنشر بالتبعية في محاضرات المعهد ، أو بالكتابة الصحافية ، أو تقديم آراء على وسائل الإعلام ، كما تصدر مجلة للمعهد تتناول المسائل الشائكة للبلاد الإسلامية.[1]

3) معهد بروكنجز Brookings Institution

يعتبر هذا المعهد مؤسسة خاصة ، تهدف بالدرجة الأولى إلى تحليل مشكلات السياسة العامة الحالية وزيادة الوعي بها ويقدم هذا المعهد ثلاثة برامج بحثية ، وهي :

الدراسات الاقتصادية ، الدراسات الحكومية ، ودراسات السياسية ، ويقوم المركز حاليًا بإدارة مركز لسياسة التعليم العام ، ومركز لقواعد المعلومات حول العلوم الاجتماعية ، ويوجد أيضًا قسم لدراسات الشرق الأوسط .

4) معهد الولايات المتحدة للسلام .

هو معهد حكومي يتم تمويله من الكونجرس ، يدعو إلى تقوية قدرات الأمة على الحلول السلمية للمشكلات الدولية ، وتحقيق سلام عادل مبني على الكرامة الإنسانية والحرية، يهتم المعهد بالحركات الإسلامية ، ويعطي اهتمامًا خاصًا بالدول الإسلامية.[2]

هذا بالإضافة إلى الجامعات والمعاهد التي اتفقت مع جامعة كولومبيا على المنهج الشرقي الحديث – السابق الذكر – ومن بينها : جامعات نيويورك وويسكونسن ، ومن أهم أساتذتها (وسترمن) الذي عينه الرئيس الأمريكي (ولسون) في أثناء الحرب العالمية الأولى مستشاراً في الشئون العثمانية ، وأيضاً جامعتي كانساس وواشنطن ، وأبرز طلابها وأساتذتها (ستانفورد) الذي له طابعه ونشاطه الخاص ، وإن خضعت جميعها لاتجاه واحد وهو دراسة كل السبل لإمكانية الدخول في الإسلام لتشويهه وهدم أسسه جميعها ، بالإضافة إلى 47

[1] مثل المسألة الكردية ، مسألة الديمقراطية التركية ، انظر : مازن مطبقاني ، ص36 ، 37 .

[2] مازن مطبقاني : مرجع سابق ، ص 38–39 . وسائل الاستشراق . شذرات ، 2009/8/24م .
http: // . www.shatharar.net

معهدًا أمريكيًا يدرس في أقسامها العادية تاريخ الشرق الأوسط ، وجغرافيته، وعلومه السياسية ولغاته بالإضافة إلى تاريخه . [1]

أما عن المكتبات فأهمها :

١) مكتبة الكونجرس 1215هـ / 1800م .

٢) مكتبة نيويورك العامة 1272هـ / 1855م .

٣) مكتبة جامعة برنتسون 1318هـ / 1900م .

٤) المكتبة الحبشية 1322هـ / 1904م .

وجميع هذه المكتبات تضم على رفوفها الكثير من المصنفات والكتب التي تُعنى بالشرق وحضارة الإسلام . [2]

فضلاً عن ذلك هناك الكثير من الجمعيات التي تركز على الشرق الإسلامي .[3]

وأصدر المستشرقون الأمريكان عدة مجالات.[4]

كلها لها طابع الاستشراق والتنصير ، وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكان في الوقت الحاضر هي مجلة " العالم الإسلامي The World Muslim " أنشأها (صموئيل زويمر) عام 1329هـ/1911م وطابع هذه المجلة تنصيري سافر . [5]

كما أسست أمريكا جامعات في العالم العربي لها الاتجاه والأسلوب نفسه ، مثل:

١) الجامعة الأمريكية في بيروت 1283هـ / 1866م .

٢) الجامعة الأمريكية في القاهرة 1337هـ / 1919م .

٣) مدرسة الدراسات الشرقية الأمريكية في القدس .

٤) المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في بغداد . [6]

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 124 .

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 115 .

[3] مثل جمعية دراسات الخليج ، رابطة الشرق الأوسط لدراسة المرأة ، انظر : مازن مطبقاني ، ص42 ، 43 .

(4) أ) مجلة جمعية الدراسات الشرقية ، وتصدر من مدينة جامبير Gambier بولاية أوهايو Ohio ، ولها عدة فروع في لندن وباريس وليبيزج ، وطابعها العام – على كل حال – طابع الاستشراق السياسي .

ب) مجلة شؤون الشرق الأوسط . ج) مجلة الشرق الأوسط

[5] محمد البهي : مرجع سابق ، ص 432 .

[6] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 125 .

وإذا أمعنا النظر نجد أن الاستشراق لم ينشط بوصفه حركة علمية في أمريكا إلا في القرن الماضي والقرن الحالي ، وذلك أكثر من أي بلد آخر ؛ لما للقضايا السياسية المتعلقة بالشرق الإسلامي من تأثير بالغ ، وخصوصاً المنطقة العربية منه ، ولما لليهود من تأثير على هذه الحركة ، حيث تركز اهتمامهم على دراسة اللغة العربية فصحى وعامية ؛ وذلك لكي يتغلغلوا داخل الوجدان الإسلامي لتشويهه .

ثامنًا: إسبانيا

بدأ الوجود الإسلامي في الأندلس منذ عام 92هـ / 710م بدخول القائدين المسلمين طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومن لحظتها بدأ الحقد الصليبي على المسلمين الذي ترجمَ – بعد ذلك بمئات السنين – في حركة الاسترداد المسيحي التي حققت أول مخططاتها بإسقاط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية عام 897هـ / 1491م ، ثم عملت القوة الصليبية على انتزاع الإسلام من الأندلس ، فاتخذت سبيلين لذلك ، أولهما : القوة الحربية في القضاء على ما تبقى من تاريخ المسلمين ، وثانيهما : تشويه هذا التاريخ لزعزعتهُ من نفوس المسلمين في الأندلس .

وقد انتشرت ثقافة المسلمين في إسبانيا وحضارة الإسلام واللغة العربية ، فأقبل الإسبان على دراسة وترجمة وتصنيف المخطوطات واللغة العربية ، وعملوا على إنشاء المكتبات ومكاتب الترجمة والمدارس الخاصة بها .

وإذا ألقينا نظرة على نشأة الاستشراق في إسبانيا نجد أنه نشأ في أحضان حركة عدائية لكل ما هو مسلم وعربي ، وهدفها دائمًا التحقير والانتقام والتشويه.

وقد اختلط الدافع الديني الحاقد بالدافع الاستعماري حينما بدأت حركات الاحتلال الأوروبي للعالم الإسلامي ، فطمعت إسبانيا في المناطق المجاورة لها فجندت مستشرقيها لإعداد الدراسات لمعرفة مواصفات السكان وطبائعهم ولغاتهم، وقد أنشأت الحكومة الإسبانية العديد من المراكز لتعليم اللغة العربية والعامية والمغربية ، تجاوزت الخمسين مدرسة . [1]

---

[1] خوان غويستولو : في الاستشراق الإسباني ، ترجمة : كاظم جهاد ، د. ط ، بيروت ، 1987م ، ص165 . عبد العالي المتقي، حركة الاستشراق الإسباني والإهتمام بالتراث العربي ، 2009/11/11م . htt// : www. Doroob.com

أما عن كراسي الاستشراق في إسبانيا فهي على التوالي :

١) جامعة صلمنكه 625هـ / 1227م Salamanca التي عدها مجمع فيينا أحد المراكز العلمية الأربعة في أوروبا ، فاشتملت على 25 كرسيًا منها العربية ، وما زالت في اطراد مستمر حتى بلغت في القرن 17م سبعين كرسيًا .

٢) جامعة إشبيلية 652هـ / 1254م Univ. Sevilla

٣) جامعة بالما 679هـ / 1280م Univ. Palma

٤) جامعة لريدا 700هـ / 1300م Univ. Lerida

٥) جامعة برشلونة 854هـ / 1450م . Univ. Barcelona

٦) جامعة بلنسيه. 879هـ / 1474م Univ. Valecia

٧) جامعة سرقسطه. 879هـ / 1474م Univ. Zaragoza

٨) جامعة مدريد 914هـ / 1508م Univ. Madrid

٩) جامعة غرناطة 947هـ / 1540م Univ. Granada

١٠) جامعة سانتيا جودي كومبو تسيلا 951هـ / 1544م

Univ. Santiago de Univ.Gompostela

١١) جامعة أوبيادو 965هـ / 1557م Univ. Oviedo

١٢) جامعة لا لاجونه 1370هـ / 1950م Univ. Lalaguna [1]

وقد نشطت حركة العناية بالعربية في عهد الملك (كارلوس الثالث) "1129هـ/1203هـ / 1716م – 1788م " الذي وسع المكتبة الملكية ، ونظم مكتبة دير الأسكوريال 965هـ / 1557م Diblioteca Del Escorial التي كان قد أنشأها الملك (فليب الثاني عشر) ، وجعل من معرفة العربية مبررًا لترقية الموظفين ، وشجع على التضلع في اللغة العربية ، ونشر تراثها ، وفي أواخر النصف الأول من القرن 19م أصلح شأن

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 573 .

الجامعات فدرست اللغة العربية رسميًا في كراسيها ، وأفاد طلابها من مخطوطاتها الفنية في المكتبات العامة والخاصة فنشروا الكثير منها مترجمًا ومصنفًا . [1]

ويوجد اليوم في إسبانيا عدد كبير من المكتبات الشرقية إضافة إلى المكتبة الوطنية ومكتبة الأسكوريال التي تحتفظ فيها بكثير من المخطوطات العربية والإسلامية ، مثل مكتبة مدريد الوطنية Biblioteca Nacional de Madrid 1129هـ / 1716م .

مكتبة جمعية الأبحاث العلمية Junta de Amplication de Estudios 1325هـ/ 1907م .

كما أسست عدد من المطابع التي تهتم بطباعة ما يكتبه المستشرقون من مجلات . [2]

تاسعا : الدانمرك

يرجع تاريخ الاستشراق في الدانمرك إلى عهد الإصلاح الديني ، وذلك عندما انفصلت عن الفاتيكان لتأسيس كنيسة إنجيلية متأثرة بألمانيا يومئذ ، وتم تدريس بعض اللغات الشرقية ، والآثار الآشورية والمصرية والفارسية في جامعة كوبنهاجن Kopenhagen 884هـ / 1479م ، وفي مطلع القرن 11هـ/ 17م، ضمت إليها أستاذاً للغات السامية تشبهًا بالدول الكبرى التي أخذت في تعليمها .

إلا أن الاستشراق في الدانمرك ظل ضيق الحيز ، بطيء العطاء ، ضعيف الأثر ، حتى تشعبت العلاقات بين الدانمرك وألمانيا والتحقت الأولى بالثانية في ثقافتها ، فبدأ الطلاب الدنمركيون يسافرون لألمانيا طلباً للعلم وخاصة الآداب الشرقية ، ثم ساعد الاتصال التجاري بين الدانمرك والشرق الإسلامي على ازدهار الدارسات الشرقية . [3]

واتسمت بداية القرن 18م بالرحلات التي أخرجت جزءًا كبيرًا من الدراسات الاستشراقية الدنمركية ، ومن أشهر هذه الرحلات بعثة إلى جنوب الجزيرة العربية [*]

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 573 – 574 . عبد العالي المتقي . حركة الإستعراب الإسباني والاهتمام بالتراث العربي ، 2009/11/11م . htt: // www. Doroob.com.

[2] مثل مجلة إفريقيا ، مجلة الأندلس ، مجلة مدينة الله ، مجلة الشرق الأوروبي ، وقد تم وضع الكثير من الفهارس وقوائم بأسماء الكتب والمصادر التي تتعلق بالشرق خاصة منذ عام 1343هـ / 1924م عندما ازداد الاهتمام بالاستشراق. انظر : عدنان محمد وزان ، ص165 . خوان غويستولو ، مرجع سابق ، ص165 .

[3] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 835 .

[*] هذه البعثة اقترحها (ميخائيليس) على (فردريك الخامس) ملك الدانمرك ، فأمر بالانفاق عليها ، وقام رئيس وزرائه بتدريبها وتجهيزها فضمت خمسة من العلماء المتخصصين على رأسهم المستشرق (فون هافين) . وهو عالمٌ متخصصٌ يدرس اللغات =

واقتصر الاستشراق الدانمركي في أواخر القرن 12هـ/ 18م على علماء اللغات السامية والآثار والتاريخ الإسلامي . [1]

عاشرًا : البرتغال

إن اهتمام البرتغال بدراسات العربية الاستشراقية يبدأ بقيام دولة البرتغال، ففي عهد (ألفونسو هنري) كان في شنتمره وهو مجلس الأعيان من المسلمين يستشيرهم الملك في الشؤون الخطيرة مستعيناً بالمترجمين العرب والبرتغاليين ، ثم أنشأ الملك (دينيس) جامعة لشبونة 1290م / 689هـ ، وبها اشتدت العناية بالعربية بعد استيلائهم على مناطق في المغرب ، ومع أواخر القرن 12هـ/18م نشطت الدراسات العربية بفضل أعمال الأب (مانويل فيلاس بواس)، فأنشأ في دير يسوع للفرنسيسكانيين بلشبونة كرسيًا للعربية ، عني بهذا الكرسي من ناحية تدريس اللغة العربية وتاريخ الإسلام ونشر المصنفات ، وذلك لتحديد الصلات بين البرتغاليين والعرب ، وتخرج من هذا الكرسي مترجمون لوزارة الخارجية ونلاحظ هنا أن أغلب من عملوا بتدريس اللغة العربية في ذلك الدير رهبان وقساوسة . [2]

ويتضح بجلاء أن الغرض من الدراسات الاستشراقية في البرتغال خدمة الاستعمار مع دعم الكنيسة والرهبان ، لدرجة أنهم عملوا في تدريس اللغة العربية لتوجيه الطلاب حسب رغباتهم ومصالحهم الشخصية ، ويتضح هذا الأمر في أن خريجي الكراسي العربية عملوا بوزارة الخارجية والترجمة لتنفيذ مخطط الاستعمار .

الحادي عشر: النمسا

بدا واضحًا تمامًا أن الدراسات الاستشراقية في النمسا نشأت لمواجهة الخطر العثماني الذي بلغ قمته في عهد السلطان سليمان القانوني ، وحصاره لفينا عاصمة النمسا ، ثم طفقت الدولة العثمانية تتدخل في سياسة أوروبا تدخلاً أشعر أقطارها جميعًا بأن توازنها يتوقف على

= السامية في جامعة جوتنيجن بألمانيا لعلوم الاستشراق ، ثم عادت البعثة كوبنهاجن في 1175هـ / 4 يناير 1761م ، وعلى متن طراد دانمركي حربي إلى أزمير فإستانبول فمصر ، ثم اليمن ، حيث عزمت على قضاء بضع سنوات ثم العودة عن طريق البحر، كما اتجهت البعثة إلى حلب إلا أن هذه لم يكتب لها النجاح ، ولو حدث ما خططت له لأعطتنا كمية من الدراسات الاستشراقية المشوهة . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 835 – 836 .

[1] مرجع سابق ، ص 836 .

[2] مثل الأب دوروزا ريوبا تستا Fr. A. Dor . Baptista ، الأب جان دي صوصه Fr. J . de Souza ، الأب مانويل ريبيلودي سيلفا Fr . M,R. De Silva ، الأب خوسه مورا Fr. J . de Santo Amorta وقد شغل منصب المترجم الرسمي. انظر : نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص618 ، 619 .

قوة النمسا في رد الهجمات العثمانية والتفاهم معهم ، عن طريق البعثات الدبلوماسية إلى إستانبول والعمل على التفاهم السلمي ، ثم بدأت النمسا في إرسال بعثات لجمع المعلومات ، أهمها على الإطلاق بعثة (فون بوشبيك) إلى الآستانة ، وأقام فيها سبع سنوات ، جمع أثناءها عددًا وفيرًا من المخطوطات الشرقية الفريدة . [1]

دخلت النمسا في حروب طويلة ضد الدولة العثمانية ، في محاولة من الأولى للقضاء على الثانية ، وعندما تأخرت نتائج هذه الحروب ، أو على الأقل لم تقض على الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا ، اتجهت إلى تشويه تاريخ هذه الدولة الإسلامية وإلى غزوها فكريًا حتى يتسنى لها القضاء عليها .

ورغم أن الدراسات الاستشراقية في النمسا لم تكن وفيرة العطاء وواسعة النطاق كما في فرنسا وبريطانيا على سبيل المثال ، إلا أنها دخلت هذا المجال من أوسع أبوابه .

وقد أسست النمسا كرسيًا لـــلغات الشرقية ، في جامعة فيينا 766هـ / 1364م Vien univ، وزاد الاهتمام باللغات الشرقية منذ قيام الأسرة المالكة بتدعيم هذه الدارسات وتشجيعها ماديًا ومعنويًا ، فقد بدأت تنشر بعض من أبحاثها باللغة العربية ، وأضيف بعد ذلك تدريس اللغة التركية والدراسات الإسلامية ، واللغات السامية ، في المعهد الشرقي التابع للجامعة . ثم أنشأت النمسا قسمين شرقيين في جامعتيها : جراتس Graz 995هـ / 1586م و إنسبروك Innsbruek 1088هـ / 1677م .

كان سفراء أوروبا لدى الدولة العثمانية يستعينون في البداية بنصارى الدولة العثمانية مترجمين لهم ، على الرغم من ثبوت خيانتهم في وقت لاحق ، وأنهم عملوا لمصلحتهم الخاصة ، أو ثبت أنهم جواسيس ضد الدولة العثمانية ولمن يدفع أكثر ظهر ذلك بوضوح نتيجة لثراء بعضهم الفاحش ، هنا قررت الإمبراطورة (ماريا تيريزيا) 1153هـ - 1195هـ/ 1740م - 1780م إنشاء مدرسة اللغات الشرقية في فينا عام 1167هـ/1753م للسفراء والقناصل والتجار والعلماء ، وانضم لها أعلام المستشرقين وبعض الشرقيين ، وتخرج منها سفراء وقناصل ومترجمون وقد طارت شهرتها لأرجاء أوروبا ، فأُنشئت على

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 623 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م ، http : // www. Marefa. Org .

غرارها مدارس في كل من روسيا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا ، وأصبحت اليوم تسمى بأكاديمية القناصل. [1]

وهكذا عاش الاستشراق عصر ازدهاره منذ القرن 10هـ/ 19م والنصف الأول من القرن 14هـ/20م بصفة عامة ، وشهدت تلك الفترة جيل العمالقة من المستشرقين ، وقد ظهرت الآن أجيال جديدة تسير على الدرب نفسه وتترسم خطا السابقين .

ويكاد يوجد – اليوم في كل جامعة أوروبية وأمريكية – معهد خاص للدراسات العربية والإسلامية .

وقد بلغ عدد المؤلفات التي ألفها المستشرقون عن الشرق منذ بداية القرن 13هـ/ 19م حتى منتصف ق14هـ/ 20م حوالي ستين ألف كتاب بالإضافة للموسوعات الكبرى ، وأهمها دائرة المعارف الإسلامية ، والمعاجم الحديثة واللغوية ، ولا يزال نشاطهم العلمي متواصلاً ، فهم يعملون جميعًا لخدمة أهداف مشتركة .

إن هذه الحقبة الزمنية هي التي شغل العثمانيون فيها مساحة من تاريخهم وخاصة عصر الضعف وسيطرة العوامل الخارجية على سياسة الدولة العثمانية ، وهي الحقبة نفسها التي قررت فيها الدول الأوروبية اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية ، بل وتشويه كل ما هو جميل في الحكم العثماني ، وإظهار مساوئ العثمانيين في أبشع صورة ، وإلصاق عدد من الافتراءات مع طمس وتجاهل واضح للجوانب المضيئة في تاريخ العثمانيين ، كما تعرضوا لأكثر الحملات المغرضة منذ بدايات القرن 14هـ/20م وإلى الآن ، وأصبح لهذه الحملات الريادة في تشويه كثير من القضايا العثمانية وخاصة العقائدية ، مما أدى إلى مسخ الجوانب الحسنة ، ونقلها بصورة مبتورة ، وإلقاء علامات الاستفهام حولها، بسبب الأحقاد الصليبية والصهيونية التي تعود إلى أربعة عوامل :

أولاً : وصول الفتوحات العثمانية لقلب أوروبا ونشر الإسلام بها . حيث فتحت بلاد المجر ، وبلاد المورة وشبه جزيرة البلقان .

ثانياً : التزام معظم السلاطين العثمانيين بمبادئ الإسلام والجهاد في سبيل الله وتطبيقهم لسياسة التسامح الديني التي اتبعوها اتجاه الذميين ، وإصرارهم على أن يكون الانتماء الإسلامي هو الأساس .

---

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 623 – 624 . الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م ، . http : // www. Marefa. Org

وثالثاً : موقفهم تجاه فلسطين ومحافظتهم عليها وتمسكهم بها وعدم التفريط فيها مطلقاً .

رابعاً : أسهمت هذه الكراسي الاستشراقية ومن قبلها بابوات روما في نشر الدعاية الكاذبة حول سوء الحكم العثماني في الولايات الأوروبية .

وقد عمدت الدول الغربية منذ وقت بعيد إلى أن تُدخل في مناهج كتب التاريخ التي تدرس في المدارس الوطنية في العالم الإسلامي كله صورة قاتمة مظلمة للدولة العثمانية ولأعمالها في العالم الإسلامي ؛ وذلك لضمان استمرار البغض والكره للدولة العثمانية ، وهذا أبلغ دليل على الحقد الصليبي .

إن قضية الاستشراق تحتاج منا إلى وقفة نفهمها ونستوعبها وننقحها ، فنعطي كل ذي حق حقه ، ونكشف النقاب عن هؤلاء الذين دخلوا حركة الاستشراق بقصد الهدم والمسخ والتدمير لتاريخنا الإسلامي المشرق .

ولم تصل حركة الاستشراق وتطور الكراسي الاستشراقية إلى هذا الحد من الازدهار والانتشار وغزارة العطاء إلا بفضل دعم وتشجيع الكنيسة – كما ظهر من العرض السابق – وعلى رأسها البابوات ، بالإضافة للتسهيلات المادية والمعنوية التي حصل عليها المستشرقون من الكنيسة ؛ بهدف الأخذ بالثأر من الإسلام والمسلمين .

المبحث الثاني :

دور البابوية في تشجيع حركة الاستشراق :

لقد ظهرت كراسي الاستشراق في أوروبا لأول مرة بدعم مادي ومعنوي من الكنيسة والبابوية ، وكان لهذا الأمر أبلغ الأثر في ازدهار وتطور الدراسات الاستشراقية ، وقبل الخوض في دور البابوية وتشجيعها لحركة الاستشراق العالمية وخاصة في أوروبا ، لابد من التعرف على ظهور الاستشراق لأول مرة في أوروبا بدعم من الكنيسة حينذاك .

بداية لم تظهر الدراسات الاستشراقية في أوروبا دفعة واحدة وإنما اختلفت بداياتها من جهة لأخرى ، ومن بلد لآخر تبعاً لاحتكاك هذا البلد أو ذاك بالعالم الإسلامي ودنوه منه أو بعده عنه . وفي ضوء هذا نستطيع أن نفهم أن ظهور الإسلام وإعتناق كثير من المسيحيين له جعل الدافع الأول للاستشراق ديني .

عندما ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية كانت تدين بالوثنية والبلاد العربية وبالأخص بلاد الشام ومصر كانت تدين بالمسيحية ، وسرعان ما انتشر الإسلام في هذه البقاع وأخرج منها المسيحية وأنحسر على فئة ضئيلة في البلاد العربية مما ولد شعور بالكراهية والحقد على هذا الدين جعل من الأهمية بمكان ، مواجهتهُ بالقوة الفكرية بجانب القوة العسكرية.

ويتضح من هذا أنَّ الباعث الأول والأساسي للاستشراق باعثٌ ديني هو التعرف على الدين الإسلامي وعلى عالم الإسلام ؛ في محاولة لتحطيمه. وخير مثال على ما سبق ما حدث في الأندلس .

ظهر الاستشراق في الأندلس خلال القرن 7هـ / 13م ، حينما قام الأسبان بتشديد حملتهم الصليبية على المسلمين في إسبانيا وأوروبا بصفة عامة ، حيث قام الفونس (ميشيل سكوت Michel Scot) ملك قشتاله بالدعوة لحث مسيحي أوروبا على القيام بالبحث في علوم المسلمين وحضارتهم وجمع المخطوطات الإسلامية . [1]

ومما لا شك فيه ، أن هذه الدعوة بالرغم من العداوة الدينية والسياسية التي كانت تخفيها المسيحية الأوروبية للمسلمين ، إلا أن ظاهرها يختلف عن باطنها ، حيث تدل دعوة

---

[1] محمد عبد الفتاح عليان : مرجع سابق ، ص7 . عبد العالي المتقي . حركة الإستعراب الإسباني والإهتمام بالتراث العربي ، 2009/11/11م . http:// www. Doroob. Com .

هذا الملك الأسباني على مدى التفوق العلمي والحضاري الذي وصل إليه العرب المسلمون ، وكان سببًا في وصولهم لتلك القوة العسكرية والعلمية والحضارية التي أدت بهم إلى قطع مسافات طويلة في المناطق الإسلامية المختلفة ، وركوب البحار والسفر الطويل ، إلى أن سيطروا على تلك البقعة من الأرض الأوروبية ولفترة طويلة .

وعليه فإنَّ التعرف الأوروبي على الإسلام وعالمه وليد فترة مجابهة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي أمَّا الهدف منه فمحاربة الإسلام والإساءة إليه ، والحد من انتشاره، فموقف الغرب المسيحي من الإسلام يقوده الغليان والمشاحنة، حتى إنَّ البابوات والمستشرقين – في تعرضهم للإسلام – كانوا مقيدين بأحكام سابقة خلاصتها أن هذا الدين الإسلامي معادٍ للمسيحية ، ولا يمكن أن يكون خيراً.

وأول الطرق التي سلكها الملك (سكوت) لتنفيذ مخططاتهِ جمع مجموعة من الرهبان ، وهيأ لهم الإقامة اللازمة في إحدى الأديرة ، وشرعوا في ترجمة بعض الكتب المؤلفة باللغة العربية إلى لغة الفرنجة ، ثم قدم تلك الترجمة لملك صقلية الذي قام بدوره بتوجيه أوامره لاستنساخ هذه الكتب، وبعث بها هدية إلى جامعة باريس التي كانت تعد منارة التعليم والحضارة العلمية في أوروبا عمومًا وفرنسا خاصة . [1]

والحقيقة أن ما فعله ملك صقلية أدى إلى أن تكون باريس – المتمثلة في جامعتها – بمثابة الحاضنة التي اهتمت بالاستشراق .

وأبلغ دليل على ما سبق أن أوائل المستشرقين والرحَّالة لم يكونوا إلا رهباناً وقساوسة، ارتدوا زي العلم المزيف للطعن في الإسلام وتشويه تاريخه ورموزه .

كما ظهرت أول دعوة للاستشراق في أوروبا على لسان البارون (دويتز Doits) 1075هـ / 1664م إذ طالب هذا البارون بتأسيس مدرسة أو كلية ، تكون قاعدة لتعليم التنصير ، ويعُلم فيها لغات الشرق كالعربية والتركية والفارسية وغيرها للطلاب الذي يناط بهم أمر التنصير ، وقد ارتأى أحد بابوات الكنيسة أن يعهد إلى الروم بمسئولية تنصير الأتراك، لكن البارون فشل في مشروعه . [2]

---

[1] محمد عبد الفتاح العليان : مرجع سابق ، ص7 . ناظم الديراوي . صورة الإسلام في الاستشراق المُبكر ، الحوار المتمدن ، العدد 1846، 2008/2/27م ، http : // www. Ahewar arg.

[2] خلف الوذنياني : مرجع سابق ، ص177 ، 178 .

وعلى الرغم من هذه الحرب الشرسة الموجهة من المستشرقين والنصارى عامة إلى الإسلام والمسلمين ، إلا أنها باءت بالفشل ، بل وكان تأثيرها عكسيًّا تماماً ، حيث كان للعربية تأثير مباشر على اللغات العالمية نفسها ، وهو ما أشاد به (ماريوبل Moriobill)[1] بأن العربية هي اللغة العالمية في حضارات العصور الوسطى ، وكانت رافدًا عظيمًا للإنجليزية في نهضتها وكثير من اللغات الأوروبية ، وقد أورد قاموسًا أحتوى على قوائم بما اقتبسته هذه اللغات من مفردات عربية ، وكانت أولها الإسبانية ثم الفرنسية والإيطالية واليونانية والمجرية وكذلك الأرمينية والروسية وغيرها ، ومجموعها 27 لغة ، وتقدر المفردات بالآلاف .[2]

وكانت النتيجة في ذلك أنه بالرغم من الجهود التي بذلها المنصرون، ومكانة الحضارة التي جاءت بها الشعوب النصرانية ، لم يخرج أحد من الإسلام إلى النصرانية ، ولم تبق لغة أوروبية واحدة لم يصلها شيء من العربية ، وانــقلب الاستشراق على نفسه – كما رأينا سابــقًا – .[3]

وهنا أصبحت الأمور واضحة تمامًا ، فأسباب الحروب الصليبية كان ظاهرها ديني ، وغايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في حقيقتها سبيلاً للسيطرة على الشرق الإسلامي ، بما يتمتع به من ثروات طبيعية وخيرات كثيرة . والحقيقة التي لا شك فيها أنه منذ أن انتهت الحروب الصليبية بالفشل من الناحية العسكرية والسياسية ؛ بل والفشل التام في محاولة التنصير التي سعت لها البابوية لتحويل مسلمي الشرق من الإسلام وجعلهم يعتنقون المسيحية الكاثوليكية، ويصبحون أتباعاً لكنيسة روما ، منذ ذلك الوقت لم ينقطع تفكير الغرب في الانتقام من الإسلام والمسلمين بطرق أخرى، فكانت الطريقة الأولى هي دراسة الإسلام ونقده، وفي جو هذا التفكير الذي ساد البيئة المسيحية في الغرب خلال القرون الوسطى نشأت فكرة الاستيلاء على البلاد الإسلامية عن طريق القوة والغلبة ، حتى بدأ العالم الإسلامي يتدهور سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا وثقافيًا ، فأخذ الغرب يسطو على العالم

---

[1] هو مؤلف كتاب قصة اللغات The Story of Language .

[2] إبراهيم بدوي البيلاني : فن الترجمة وعلوم العربية ، القاهرة ، د.ط ، 1973م ، ص91 .

[3] عبد العزيز بن سعد الدغيثر : المستشرقون والعربية ، مقال منشور في المجلة العربية ، العدد 3344 ، السنة 29 ، ذو القعدة ، 1425هــ / يناير 2005م ، ص 86 ، 87 .

الإسلامي مرة بعد مرة وعلى بلدٍ تلو الآخر، وجاءت ردّة فعل الكنيسة – ترجمة لما سبق – متمثلة في أمرين ؛ أولهما: الاستعمار ، وثانيهما : الاهتمام بالثقافة الإسلامية .[1]

وبالنسبة للاستعمار فإن الحروب الصليبية ودوافعها الدينية التنصيرية كانت وراء الحركة الاستعمارية والسياسية التي دفعت ملوك أوروبا إلى غزو الشرق واستعماره ، خصوصًا بلاد الشام والأراضي المقدسة التي كانت تتمتع بطمأنينة روحية ظلهم بها الدين الإسلامي ، وحضارة مدنية عظيمة لا عهد للنصارى واليهود بها أو بمثلها في بلادهم ، إضافة إلى الجو المُناخي الذي يسود هذه المنطقة . كل هذه الأمور خلقت لدى الصليبيين التصميم على الاستيلاء على هذه البلاد مهما طال الزمن وكثرت التكاليف . وكانت هناك كرَّات وفرَّات طالما انتصر فيها المسلمين ، وبعد أن أخفق الغرب عسكريًا في الحروب الصليبية ، لجأ الغرب كلّه مجتمعًا إلى حرب الفكر للنيل من الإسلام والمسلمين ، وليسهل المهمة الاستعمارية والتي هي إمتداد للحروب الصليبية فيما بعد. [2]

وفي سبيل تحقيق هدف الاستعمار تبرعت الكنيسة والبابوية بمساندة الرحلات الاستكشافية للأراضي الإسلامية ؛ وذلك لتوفير المعلومات اللازمة التي تخدم كتابات المستشرقين ، وبالتالي تخدم الأمر الثاني وهو الاهتمام بالثقافة الإسلامية ، ودعم الغزو الفكري الذي قادته الكنيسة .

والدليل على ذلك ازدياد الرحلات الاستكشافية المتعددة الأغراض والأهداف والأسلوب.[3] وكان أغلب الرحالة من القساوسة والرهبان ، ومنهم ما يلي :

-هربردي أورلياك327هـ394هـ/938م- 1003مHerbert de Oraliac: وهو أحد المرسلين من الرهبانية البندكتية ،حيث قصد الأندلس وقرأ على أساتذتها هناك ، ثم انتُخب – بعد عودته – حبراً أعظم باسم (سلفستر الثاني Selvester) 390 هـ394هـ / 999 م- 1003 م فكان بذلك أول بابا فرنسي.[4]

---

[1] مصطفى السباعي : مرجع سابق ، ص78–79 . سهام عبد العظيم : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، بحث منشور في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة المنيا ، العدد 46 ، أكتوبر ، 2002م ، ص 11–12 .

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص33 .

[3] بيتر برنيت : بلاد العرب القاصية رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب ، ترجمة : خالد أسعد عيسى ، أحمد غسان سبانو ، ط1، بيروت : دار قتيبة ، 1411هـ / 1990م ، ص89 .

[4] مانع حماد الجهني: مرجع سابق ، ج2 ، ص698.

- بطرس المكرم " المبجل " 487هـ - 551هـ / 1094م - 1156م Prerre le Venerable الفرنسي الذي كان ينتمي لإحدى الكنائس البندكتية ، وأحد رهبانها حينذاك ، وكان في الوقت نفسه يشغل رئيسًا لدير كلوني ، قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام، وكان وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام 538هـ/1143م التي قام بها الإنجليزي (روبرت أوف كيتون Robert of Ketton) .
- جيرار دي كريمونا 508هـ - 583 هـ / 1114م - 1187 م Gerard de Gremona الإيطالي الذي قصد في رحلة علمية إلى طليطلة، وترجم أيضًا ما لا يقل عن (87) مصنفاً في الفلسفة والطب والفلك .
- روجر بيكون 611هـ- 694هـ / 1214م - 1294م Roger Bacon وهو إنجليزي الأصل وقد تلقى علومه في أكسفورد وباريس ، حيث نال الدكتوراة في اللاهوت وترجم عن العربية مرآة الكيمياء .
- يوحنا الإشبيلي Juan de Sevilla ، وهو يهودي الأصل متنصر ، وقد ظهر في منتصف القرن الثاني عشر ، وعني بعلم التنجيم ، وقد نقل إلى العربية أربعة كتب لأبي معشه البلخي 1133م ، وقد كان ذلك بمعاونة (أدلر أوف باث) .
- وفي عام 1130هـ / 1717م قام رئيس أساقفة طليطلة بترجمة بعض الكتب العلمية العربية التي تركها المسلمون العرب في تلك الأماكن ، وكانت تعد تراثًا علميًا أنار وأضاء الساحة العلمية والثقافية الأوروبية كلها.[1]

وهناك وثيقة خطيرة تلقي الضوء على تحول الصليبين من الغزو العسكري إلى الغزو الفكري ، وهي وصية القديس (لويس التاسع) ملك فرنسا ، وقائد الحملة الصليبية الثامنة التي انتهت بالفشل والهزيمة ووقوعه شخصيًا أسيرًا في أيدي المصريين في مدينة المنصورة إحدى مدن الوجه البحري وشرق الدلتا بمصر ، ولم يطلق سراحه إلا بعد تقديم فدية عظيمة استطاع بها الخلاص من الأسر، وبعد أن عاد إلى فرنسا أيقن أنه لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ؛ لأن تدينهم بالإسلام دفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس والنفيس في سبيل الله ؛ لحماية دار الإسلام وصون أرضهم ومقدساتهم

---

[1] حماد مانع الجهني : مرجع سابق ، ج2 ، ص 698 . الاستشراق : الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة، 2008/6/28م . http // www. Marefa. org .

وأعراضهم ، فالمسلمون قادرون دوماً للانطلاق من عقيدتهم إلى الجهاد ودحر الغزاة ، من هنا فلابد من سبيل آخر وهو تحويل التفكير الإسلامي ، وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري ، وذلك بأن يُجنَّد الأوروبيون بدراسة الحضارة الإسلامية ، ليأخذوا منها السلاح الجديد ، ثم يغزون به الفكر الإسلامي.[1]

ويعدُّ (لويس التاسع) ملك فرنسا رائد حركة الغزو الفكري .

وقد سار الأوروبيون في طريق تنفيذ هذه الوصية للوصول إلى الهدف المرسوم، وبخاصة عندما تأكدوا من فشلهم في الحروب الصليبية ، وعدم تحقيق أهدافهم ، واجتمع لديهم رجال الكهنوت والسياسة والفكر لمناقشة طرد المسلمين من الأراضي المقدسة ، ووضع الخطط التي تكفل لهم تخليص بيت المقدس من المسلمين ، وإعادة الأراضي الإسلامية إلى السيطرة النصرانية ، والمناداة بالغزو الفكري بدلاً من الحروب الصليبية . [2]

ولعل الكنيسة لم تكتفِ بهذا الأمر بل لجأت إلى المهاجمة بالجدل تارة ، والمناظرات في أسس العقيدة الإسلامية تارة أخرى ، وهذه أسلحة فكرية تحمل في موضوعاتها العديد من الدسائس والشبهات ، سواء أكانت في أسلوب الحكم الإسلامي ، أم في تطبيقه بين المسلمين ، مستخدمين بعض الظروف أو الأحداث السياسية السيئة التي مرت بها الدولة العثمانية ، أو بعض هفوات سلاطينها ، متذرعين بها لشن حربهم الشعواء على العثمانيين .

وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح إلى معركة في ميدان العقيدة والفكر ؛ بهدف تزييف عقيدة المسلمين الراسخة التي تحمل معنى الجهاد ، وتدفع المؤمنين إلى الاستشهاد في سبيل الله .

أما عن إهتمامهم بالثقافة الإسلامية فمما لا شك فيه أن نشأة الاستشراق في أحضان الكنيسة شجعت على قيام العديد من الدراسات ، وهيّأت لها الإمكانيات المادية لمساعدتها على الانتشار. فبدأت الجهود الاستشراقية المتعددة ، وأوعزت إلى رجال الفكر والمبشرين بتكثيف العمل والعكوف على دارسة الإسلام والشرق؛ لمعرفة حقيقة الإسلام والمسلمين ، وبالتالي رسم الخطط المناسبة للهجوم على الإسلام والقضاء عليه ، فتواصل قدوم الرحالة الغربيين

---

[1] خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص 178 .

[2] مرجع سابق ، ص 179 .علي محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام ، د. ت ، ص19 .

إلى الجزيرة العربية في أوائل القرن 13هـ/ 19م ؛ وتميز من بينهم (جون لويس بوركهارت [1] Ljohn L. Burckharett) والكثير غيره .

كانت سمة القرن 10هـ/16م ازدهار تجارة المعلومات أو التجسس ، وكان للمستشرقين دور مهم في ذلك الصراع بين القوى الإسلامية والأوروبية ، وقد وصل إلى قمته في منطقة الشرق الإسلامي عمومًا ، بل إنَّ حركة الكشوف الجغرافية – في حقيقة أمرها – هي حركة لجمع المعلومات عن كل الطرق المؤدية إلى موطن الثروة والرخاء الاقتصادي في الشرق الإسلامي ، حيث كان الهاجس الاستخباري يسيطر على العقلية الأوروبية ، وخاصة الكنيسة وحكوماتها في ذلك الوقت ؛ وذلك لجمع المعلومات اللازمة للدراسات الاستشراقية التي – بالتالي – ستفيد المستعمر بالدرجة الأولى ، وتشويه التاريخ الإسلامي العثماني مما يسهل القضاء على الدولة العثمانية .

وكان التجسس أحد هذه الوسائل التي استخدمتها الكنيسة داخل أراضي الدولة العثمانية – وخصوصاً العربية منها – كما توضحه تلك التقارير المرسلة إلى مركز الدولة العثمانية بإستانبول ، وهي تكشف النوايا الخفية والوسائل المستترة التي استخدمتها الكنيسة لمعرفة المزيد من المعلومات عن هذه المناطق الإسلامية العثمانية ؛ حتى تكون هناك الاستعدادات اللازمة لضربها فكريًا وثقافيًا، ومن ثمَّ العمل على هدمها إن أمكن .

وهكذا عرفت البلاد الإسلامية منذ فترة بعيدة وخاصة خلال فترة العصور الحديثة زيارة العديد من الرحالة الأوروبيين ؛ لتحقيق أهداف محددة ومختلفة في آن واحد ، ما بين التنصير والتجسس ، والبحث الدقيق في أحوال المجتمعات الإسلامية التي ظلت عبر عصور طويلة مشعل الحضارة .

فألمانيا وحدها أرسلت ما يقرب من أحد عشر مواطنًا ألمانيًا رحلوا واستكشفوا وسط الجزيرة العربية خلال الفترة من 1009هـ –1318هـ/ 1600م – 1900م نذكر منهم الرحالة (ستيفن وايلد Steven Willd) 1013هـ – 1020هـ / 1604–1611م الذي

[1] من أهم الأعمال التي ترجمت لجون لوس بوركهارت : رحلات في شبه جزيرة العرب . ترجمة . عبد العزيز الهلابي ، وعبد الرحمن الشيخ : بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط1 ، 1413هـ .

رحل إلى المجر في شبابه ، ثم بيع في سوق النخاسة بمصر، واشتراه تاجر إيراني ، وأخذه للحج في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وقد نشر روايته عام1022هـ / 1613م.[1]

وهناك أيضاً (كارستن نيبور Carsten Niebuhr)1175هـ- 1181هـ/ 1761م-1767م ، وقد أرسله ملك الدنمارك (فردريك الخامس) مع مجموعة من ستة أشخاص إلى الجزيرة العربية وكان (كارستن) الناجي الوحيد بينهم .[2]

ومن الذين استخدموا أسماء إسلامية ليتستروا خلفها الرحالة الإسباني (دومينجو باديا أي ليبليش[3] Domingo Badia Y lebich) الذي دخل منطقة الحجاز عبر مدينة جدة تحت اسم (علي باي العباسي) حيث قام في ذي الحجة 1216م / 7 إبريل 1801م بتقديم مذكرة إلى الحكومة الإسبانية تحمل مخططًا لرحلته الاستكشافية والعلمية والسياسية ، وأشار في هذه المذكرة إلى أن رحلته لا يمكن أن تكلل بالنجاح في البلدان الإسلامية ، وأنه لا يستطيع تخطي الصعوبات والعقبات التي قد تعترض طريقه عند الشعوب الإسلامية إلا إذا تقدم إليهم في صورة مسلم ؛ يحمل اسمًا إسلاميًا ، وينحدر من عائلة مسلمة تنتمي إلى شجرة الأشراف ؛ حتى يحوز على الحظوة والمكانة لدى المسلم الآخر، ومن أجل مشروع كهذا لا ينبغي فقط أن يلبس ويتقلد الزي الإسلامي ، وإطالة اللحية – من وجهة نظره-

---

[1] كارل شميث كورته Karl Schmitt Korte : الرحالة الألماني في الجزيرة العربية (1600-1900) بحث ضمن بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية الرياض 24-27 رجب 1421هـ / 21-24 أكتوبر 2000م ، تحت إشراف دارة الملك عبد العزيز الرياض ، ص5-6 .

[2] كارل شميث كورته : مرجع سابق ، ص24-30 . جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة : قدري قلوجي ، د.ط ، د.ت ، ص146 – 178 . وانظر أيضًا .

Zahra Freeth and H.V.E. Winstone : Explorers of Arabia , londan . George Allen and unwin, 1978, PP.86-87 .

[3] ولد دومينجو باديا في برشلونة سنة 1766م ، من أم ذات أصل بلجيكي ، ومن أب كان يعمل أمينًا في الجهاز المالي للمدينة ، وبعد زواجه نُقل إلى قرطبة ليشغل مدير الاحتكارات الملكية للتبغ ، وكان لهذه المدينة تأثير كبير عليه ، دفعه إلى التأمل وحب المعرفة ، للقيام برحلات استكشافية كانت انطلاقتها الأساسية موجهة نحو البلدان الإسلامية ، فكان تركيزه واهتمامه على تعلم اللغات الشرقية وخصوصاً العربية وغيرها التي يمكن أن تساعده في رحلته ، انظر :

G . Spillmann : Napoleon et L Islam Paris , Edit . L ./ A.P. 1969 , P. 275 .

وبغية تنفيذ ذلك قرر (دومينجو باديا) تقمص شخصية أمير عربي من أصل سوري ، ولد بمدينة حلب، ينتمي إلى سلالة العباسيين، ولقب نفسه باسم (علي باي العباسي) فأخذ تحت ستاره يتجول داخل الأقطار الإسلامية . انظر :

El . Abbassi Ali Bay : Voyages d' Ali Bay el Abbassi en Alrique et en Asie Pendant les Annes, 1803 – 1807 , Paris, 1814, Tome I , P. 15 ,

والتكلم بالعربية فحسب ، بل ينبغي بالأساس أن تُثْبِت أنك عربي المولد والمنشأ ، وهذا هو المفتاح لكل أبواب إفريقيا . [4]

ومن فرنسا قام (ليون روش الفرنسي Leon Roches) برحلة إلى الحجاز خلال الفترة 1257هـ - 1258هـ / 1841 - 1842م متنكراً في زي حاج مسلم يدعى (عمر بن عبدالله) ، وكان هدفه الظاهري مقابلة شريف مكة عندئذ محمد بن عون ، والحصول من علماء الحرم على الموافقة على نص فتوى شرعية جاء بها من الجزائر ، وتلك الفتوى تجعل الجهاد ضد الفرنسيين من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، ومن ثمة ضرورة الرضا بحكم الفرنسيين في الجزائر، وعدم شرعية حركة المقاومة التي كان يقودها الأمير عبدالقادر الجزائري حينذاك.[1]

أما الرحالة النمساويين في جنوب الجزيرة العربية فقد أخذوا نصيبهم أيضاً من تلك الرحلات العلمية والاستكشافية التي جاءت لدراسة المنطقة ، ولاستكمال دراساتهم وأبحاثهم الاستشراقية التي كانت بدعم من الكنيسة ومن المحافل العلمية والجامعات الأكاديمية في النمسا.

وقد وفد هؤلاء الرحالة النمساويين على المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية خلال القرن 13هـ / 19 م ، ونذكر منهم على سبيل المثال :

- أدوارد جليز Eduard Glaser 1272هـ - 1326هـ / 1855 م- 1908م الذي قام بعدة رحلات إلى اليمن في الفترة ما بين الأعوام 1299هـ - 1312هـ / 1882م-1894م ، ونجح في وضع الأسس لتطوير دراسة اللغات القديمة في جنوب الجزيرة العربية في حقل دراسة اللغات السامية . [2]

---

[4] H.De . Castires : " Napoleon et le maroe " dons Revue Hebdomadaire , N Ib , 8 avril, 1908 . P.4.

[1] بلقاسم سعد الله : رحلة ليون روش إلى الحجاز 1841 - 1842م ضمن بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، مرجع سابق ، ص5 .

[2] وولتر دوستال : الرحالة النمساويون في جنوب الجزيرة العربية ، ضمن بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، مرجع سابق ، ص6-7 .

- ويلهم فيرهرفون Wilhelm Freiherr von Tegetthoff 1243هـ/ 1288هـ/ 1827م- 1871م ذلك المستشرق الذي كان يختلف عن بقية المستكشفين ، وخاصة على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية وجزيرة سومطرة .
- الدكتور هـ . مولر David Heinrich Muller المستشرق في جامعة فيينا ، والذي كرس أبحاثه ودراساته الاستشراقية لجنوب الجزيرة العربية ، حتى إنه أصبح أحد الشخصيات القيادية في البعثة الأكاديمية للعلوم بجامعة فيينا ، والمرسلة إلى جنوب الجزيرة العربية في سنة 1317هـ/ 1899م.[1]

لقد كانت هناك عوامل عدة ساعدت الأوروبيين على تحقيق أهدافهم،التي تتمثل في جمع أكبر قدر من المعلومات عن العرب والمسلمين على الرغم من الصعوبات التي واجهتهم، ومن هذه العوامل – على سبيل المثال – الحصول على التوصيات من الحكام والولاة العثمانيين إلى أمراء وشيوخ المناطق العربية التي قام هؤلاء الأوروبيين بالسياحة فيها ؛ للسماح لهم بحرية التجول، وتزويدهم بمرشدين محليين على درجة عالية من المعرفة الجغرافية بهذه المناطق العربية .

ولقد كانت دراسة أهالي المنطقة العربية والقبائل التي تعيش فيها من بين الأهداف التي سعى إليها المستشرقون ، حيث قام هؤلاء باقتناص المعلومات اللازمة لهم عن القبائل المختلفة ؛ وقدراتها العسكرية والاقتصادية ، وكذلك نجحوا في تقصي العلاقات بين الأفراد في القبيلة الواحدة أو بين القبائل المختلفة . وسيتبين من خلال الوثائق العثمانية ذلك القدر الهائل من الرحلات الكشفية والعلمية والجغرافية المتعلقة بطبيعة المنطقة العربية ؛ وهي تشكل دليلاً واضحاً على مدى الخطأ الفادح الذي وقعت فيه الدولة العثمانية دون قصد ، ودون الانتباه إلى المخاطر التي ستنجم عن هذه الاتصالات التي لم تسلم منها لا الدولة ولا الولايات العربية نفسها ، حيث كانت عاملاً من عوامل سقوطها ، وسقوط العديد من الولايات العربية في أيدي الدول الأوروبية ، لاسيما إنجلترا وفرنسا ، ومن هذه النماذج ذلك الالتماس المقدم من أحد الأطباء الإنجليز ، ويدعى (تشارلز بيري Charles Perys) إلى السلطات العثمانية بتاريخ جمادى الأولى عام 1151هـ / سبتمبر 1738م يطلب فيه القيام

---

[1] ولتر دوستال مرجع سابق ، ص4-10 .

برحلات سياحية في مناطق يافا – القدس – الشام – القاهرة ، ويطلب منحه تصريحًا للمرور في هذه المناطق ، وحمايته فيها . [2]

وهناك التماس آخر مقدم من السفير الروسي في إستانبول إلى السلطات العثمانية بتاريخ 12رجب 1217هـ/7 نوفمبر1802م يطلب فيه التصريح بالمرور وحماية أحد بكوات روسيا ، ويدعى (ج. شافيوسكي J. Shaveskoy)، وبصحبته ثلاثة من المساعدين له ، للقيام برحلات إلى مناطق الشام طرابلس مصر الجزيرة العربية والمناطق المحيطة بها ، والمطلوب تقديم كل عون ومساعدة له خلال رحلته . [1]

وما يبلور المعلومات السابقة الأوامر الصادرة من الباب العالي بخصوص الجواسيس الأجانب، وهي :

- أمر صادر إلى رجال الدولة العثمانية بتاريخ 24 ذي الحجة 1236هـ / 20 سبتمبر 1821م ، يتضمن تنبيهات الباب العالي وتحذيراته الحازمة بضرورة تأديب كل من يتم القبض عليه من الجواسيس الأجانب بالوسائل السرية ، وبالاعترافات أو يستخدم أي أساليب لنشر الفساد والفتنة بين المسلمين في أنحاء الدولة العثمانية.[2]
- التقرير المرسل من ولاية الحجاز إلى الدولة العثمانية بتاريخ 27 جمادى الأولى 1265هـ / 19 إبريل 1849م ، يقول فيه : " مثلما حدث في بلاد الهند ، فإن الدولتين العظمتين (إنجلترا وفرنسا) تقومان منذ مدة بإرسال بعض قناصلهم ليقوموا بالتجول والسياحة في المنطقة العربية ، وترسلان موظفيهما أيضاً إلى هذه الأماكن ، ويصرف لهم بدل سفر ، حتى إن وكيل القنصلية الفرنسية الموجود في (جدة) يقوم بالتجسس لحساب بلاده ، ولابد من ضرورة المطالبة بالتحقيق في هذا الأمر ، وعدم تسهيل مهامهم أو مساعدتهم في ذلك ". [3]
- وفي تقرير مرسل بتاريخ 7 شوال 1328هـ / 10 أكتوبر 1910م يتضمن إجراء التحقيق وتقصي الحقائق في قيام بعض جواسيس إنجلترا في مصر بالتزين والتخفي

---

[2] أحمد سالم : الاتصالات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة العربية ، ص210 ، 211 .
BoA. Cavdet Tasnifi , Hariciye , No : 9111 , Tarihli, Ca . 1157 H .

[1] أحمد سالم : الاتصالات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة العربية ، ص 211
A.G.e No : 8748, Tarihli, 1213 . 1217 H .

[2] أحمد سالم : الاتصالات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة العربية : ص217 .
BoA. " Cavdet Tasnifi , Dahiliyel , No : 6599 , Tarihli, 24 Z. 1236 H .

[3] أحمد سالم : الاتصالات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة : ص217، 218 . عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص162 .
BoA. " IR.DH. Tasnifi " No : 11063 , T . 27 Ga . 7265 H .

في لباس بدوي وذلك للدس بين القوافل المنتشرة في المدن المصرية (القنطرة – الإسماعيلية – السويس) ثم توجههم من هناك إلى منطقة القصيم بالجزيرة العربية ، ولابد من وقف هذه الرحلات والتحقيق فيها.[4]

- برقية بتاريخ 16 جمادى الأولى 1330هـ /2 مايو 1912م بشأن التحقيق في المعلومات العسكرية والسياسية التي يحتفظ بها الدنماركي (بركيلايرا انكيار) التي أدلى بها خلال قيامه بإجراء أبحاث في المناطق العربية (الهفوف – بغداد – البصرة)[1]

- وبرقية أخرى بتاريخ 24 جمادى الآخرة 1330هـ / 9 يونيه 1912م حول التحقيق بشأن قيام اثنين من اليونانيين بالدخول إلى جدة وهما متخفيان في ملابس نسائية ، وقيامهما بتصرفات غير لائقة في الشوارع ، وقد تم إبلاغ سفارتهم بذلك ، والتنبيه على بقية السفارات الأجنبية في الدولة العثمانية بعدم تكرار مثل هذه التصرفات حتى لا تتسبب في مشكلة سياسية مع بلدانهم . [2]

- وبرقية أخرى في التقرير المرسل بتاريخ 3 جمادى الآخرة 1331هـ / 8 مايو 1913م بشأن الجواسيس العاملين لصالح إيطاليا ، والذين يقومون بإفساد العربان في مناطق بيروت وسوريا والحجاز ، وينشرون أخبارًا كاذبة ، ويثيرون بها الأهالي للقيام بتمردات في وجه الدولة العثمانية . [3]

وهكذا نجد أن دعوات الاستشراق التي بدأت في أوروبا وبتشجيع من الكنيسة ، بل ونشأت في أحضانها ، تنوعت أهدافها ما بين حق الممارسة التجارية، والرحلات العلمية والكشفية والتجسس وإثارة الفتن وتقسيم الحدود وبيع الأراضي وتهريب الأسلحة وبيعها ... ، مع توفر الدعم المادي اللازم لهذه الرحلات .

ويتضح هنا أن هؤلاء كانت تصرف عليهم أموالاً طائلة ، ويمولون بدعم من الكنيسة حتى تدخل رغباتها حيز التنفيذ ، وبهذا يظهر تحول فكرة الكنيسة والدول الأوروبية

---

[2] A.G.e . No : 1166317 , Tarihli , IB 1265 H .

[1] BoA. " DH. Mul. Tasnifi " , No : 911 – 129 T . 16 Ca 1330 H .

[2] BoA . DH.ID. Tasnifi " No : 421116 " Tarihli , 24 c.

[3] BoA . DH . SYS . Tasnifi , No : 2127 , Tarihli , 19 m . 1332 H .

من فكرة الغزو العسكري والاستعماري إلى الغزو الفكري والثقافي للمنطقة العربية والإسلامية ومنذ فترة بعيدة ، وهذا ما نلمسه من خلال ازدياد البعثات الاستكشافية والإرساليات التنصيرية إلى تلك المناطق .

ولعله من المعروف أن المستشرقين كانوا يعتمدون في تحقيق أهدافهم وتسيير نشاطاتهم على ما يجدونه من التمويل الكافي سواء أكان من المؤسسات الدينية أم السياسية التجارية في الغرب .

كما أن ملوك وأمراء أوروبا وأثرياء أمريكا ، والمؤسسات الخيرية ينفقون الغالي والنفيس في سبيل النهوض بالدراسات الاستشراقية ، ويوفرون المنح الدراسية للمساهمة في هذا المضمار.[1] وهذا ما يقرره أحد المستشرقين في قوله:

" الاستشراق في ألمانيا حاليًا وفي العالم الأوروبي الحديث كله مادة علمية معترف بها من الجميع ، ولا حاجة بها وإن قل عدد المشتغلين بها إلى البرهنة على أنها مادة علمية جديرة بالوجود ، فقد تم لها هذا ، وتوشك أن تكون ممثلة في كل جامعة من الجامعات بكرسي رسمي يشغله أستاذ ، ثم هناك عدد عظيم من وظائف المدرسين والمعيدين في تخصص الاستشراق إلى جانب الأساتذة ، ويعني هذا أن الناشئة من المستشرقين يلقون ما يؤمن مستقبلهم من الناحية المالية نوعًا ما. ونحن جميعًا المتمتعون بهذه النظم نعترف بأن المجتمع ممثلاً في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق ، وللحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار . ويسرنا أن نرى كل عام أفرادًا من الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية يدفعهم اهتمامهم بالمادة وتحفزهم موهبتهم اللغوية إلى الاتجاه لدراسة العلوم العربية أو الإسلامية أو أي فرع من فروع الإستشراق الأخرى".[2]

وقد شاهدنا وسائلهم فيه من إقامة معاهد ومكتبات ومتاحف ومطابع ودور نشر ومؤتمرات وبعثات علمية ، وما خُصت به كلها من هبات الأفراد ، إذ وصلت هبات الأفراد فقط على كرسي اللغة العربية في جامعة هارفارد إلى أكثر من نصف مليون دولار سنوياً،

---

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص141 .

[2] عدنان محمد وزان ، مرجع سابق ، ص142. ظافر يوسف ، الاستشراق الألماني إلى أين ، مجلة التراث العربي ، العدد 68 ، 2008/4/21م . http : // www. Dahsha.com .

عوضًا عن مساعدات المؤسسات التي تصل سنويًا إلى 35 مليون دولار ، إضافة إلى ميزانيات الحكومات التي لا سبيل إلى تقديرها .

ولنلقي نظرة على وضع الكنيسة عندما بدأت الدولة العثمانية فتوحاتها في أوروبا ، فالصراع المذهبي الذي دار بين الكاثوليك والأرثوذكس مزق الكنيسة داخليًا وجعلها مشتتة ، وهذا هو الذي مهد الأرض للفتح العثماني في أوروبا كلها، فمنذ أن حدث الانفصال التام بينهما عام 446هـ/ 1058 م – حيث السياسة والسلطة تشكل جوهر الخلاف – أصبح الانشقاق أمرًا طبيعيًا وازدادت الهوة بينهما شيئًا فشيئًا . [1]

واستمر الصراع الكنسي وساد معه عصر الظلم والاستبداد ، ومارس أتباع كل مذهب على الآخر السلب والنهب ، مما حذا بهؤلاء إلى تفضيل المسلم التركي على قبعة الكاردينال ، وعندما أحاط الخطر العثماني الإسلامي بالقسطنطينية حاول البابا ضم الكنيستين والاعتراف بالذنب ، إلا أنَّ المساعي باءت بالفشل ، وزادت الفجوة بين الكنيستين ، وتعالت صيحات العامة والخاصة ، الترك ولا اللاتين.[2]

لدرجة أنه أثناء حصار القسطنطينية صاح الدوق (نوتاراس) – ثاني رجل في الدولة بعد الإمبراطور من حيث المكانة – صيحته المشهورة : لأن نرى في القسطنطينية عمامة الأتراك خير من أن نرى فيها قبعة الكاردينال . وذلك بسبب أنه أثناء الحصار أديت الصلاة في كنيسة آيا صوفيا على الطريقة الكاثوليكية، وبحضور الإمبراطور تمهيدًا لتوحيد الكنيستين مما آثار سخط الأهالي الأرثوذكس.[3]

وفي هذا العمل دلالة واضحة على التلميح بأن أصحاب المذهب الأرثوذكسي سيتعرضون للاضطهاد والقتل في حال ضمت الكنيستين . في المقابل كان الإسلام يوعدهم بالحرية والتسامح الديني .

ولم يتوقف هذا الأمر على القسطنطينية بل تعداه إلى صربيه ؛ إذ إنَّ حاكمتها (هيلين) أرادت أن تحمي بلادها من الأتراك ، ولم تعتبر بما حدث في القسطنطينية من فتن وثورات حينما أراد إمبراطورها ضم الكنيستين ، فأرسلت إلى البابا (كاليكست الثالث) تطلب منه الحماية ، ولم يكن عداء أهل صربيا للكاثوليكية أقل من عداء أهالي القسطنطينية لها ، بل

---

[1] علي حسون : مرجع سابق ، ص 93 .

[2] مرجع سابق ، ص94.

[3] سالم الرشيدي : محمد الفاتح ، ط1 ، مصر : دار البشير ، 1420هـ / 2000م ، ص77 ، 78 .

صاح أهالي صربيا وهاجوا في وجه هيلين وقالوا " لأن نكون من الأتراك خير من أن نكون من الرومان الكاثوليك". [4]

وهكذا آثروا الحكم العثماني المتسامح ، وفتحوا أبوابهم للأتراك على أن يفتحوها لبابا روما ؛ لأنهم كانوا على يقين تام بأنهم سينالون الحرية الدينية في ظل العثمانيين المسلمين.

وقد وصل الأمر بأن أحد بابوات روما قال لبعض الأمراء: " إذا ما وصل الترك إلى راجوسا [1] فإننا سنضع أنفسنا بين أيديهم ". [2] أي دليل أكثر من هذا يعبر عن مدى كرههم للاضطهاد الديني الذي تمارسه الكنيسة عليهم ، ومدى إرهاقهم من حياة القسوة والمذلة والاضطهاد .

في الوقت نفسه كانت الدولة العثمانية قد أكملت نشأتها وبدأت بوضع أقدامها على البر الأوروبي ، ثم فتحت القسطنطينية ، وانضم البعض من الأرثوذكس إلى الجانب العثماني نتيجة لهذا الانشقاق ، وقد نسب إلى رهبان الصرب أنهم ساعدوا سليمان القانوني وهو يحاصر قلعة بلغراد لتسهيل فتحها، وهم لم يفعلوا ذلك إلا كرهًا للكثالكة وأهلها . [3]

ولم يقتصر الأمر على الشقاق المذهبي الكاثوليكي – الأرثوذكسي ، وما نجم عنه من كوارث ، بل والأهم من ذلك هو وصول شخصية الحكام إلى درجة كبيرة من انحلال الأخلاق.

كما وصف المؤرخ (لويتراند) القسطنطينية بقوله : "إن هذه المدينة التي كانت غنية وزاهرة من قبل ، هي الآن مستقر العار والكذب، وبؤرة الخيانة والمداجاة والشدة ، ومستودع البخل والزهو ، حتى إنهم لما عقدوا مجلسًا للتباحث في كنيسة آيا صوفيا عندما حاصرها السلطان العثماني محمد الفاتح ، تزاحموا على التقدم بالجلوس ، تزاحمًا أوصلهم إلى التضارب بالكراسي" . [4]

ولا شك أن هذه الخصومة والعداوة التي اتخذت إطارًا دينيًا وسياسيًا بين الكاثوليك والأرثوذكس حينذاك ، قد أضعف من قوة الحملات التنصيرية وتماسكها سواء داخل أوروبا

---

[4] مرجع سابق ، ص167 .

[1] راجوسا : إقليم يقع على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي ، دفعت الجزية للدولة العثمانية وأبرمت معها عدة معاهدات تجارية، تتبع حالياً دولة النمسا بموجب مؤتمر ويانه . محمد فريد المحامي ؛ مصدر سابق ، ص 202 .

[2] أحمد سعيد نونو : الآكلة حول القصعة ، ط1 ، مصر : الروضة الثقافية ، 1420هـ / 1990م ، ص40 .

[3] علي حسون : المرجع السابق ، ص94 .

[4] مرجع سابق ، ص95 .

أم خارجها ، مما سمح للقوة الإسلامية التي بدأت تظهر ملامحها آنذاك – وهي القوة العثمانية – بالتقدم والانتصار .

ولعل أعجب ما في هذه الخصومة أن يختار بابا الفاتيكان يوم 1 ذي الحجة 1404هـ/ 15 سبتمبر عام 1983م موعداً لزيارة النمسا ، ويتعرض في خطابه إلى انتصار القوات المسلحة في القرن 11هـ / 17م على العثمانيين الذين كانوا يحاصرون فيينا في ذلك الوقت ، هذه المناسبة هي المعركة التي دارت أحداثها في مرتفعات فيينا عام1095هـ / 1683م بين الجيوش المسيحية في أوروبا وبين الجيش العثماني في عهد السلطان محمد الرابع، وهي مناسبة لها ظروفها وتاريخها ، وليست كالمناسبات التي تثار اليوم بغرض إثارة الأحقاد والكراهية ، دون أن يكون لها ظروف وأوضاع خاصة بها [1].

وبدأت المؤامرات من داخل الكنائس الأوروبية ضد الدولة العثمانية ، وسعت إلى خلق العديد من المشاكل داخل الدولة العثمانية ، ولا سيما المشاكل الدينية ؛ لتظهرها أمام العالم المسيحي والأوروبي كله على أنها غير جديرة بالقيادة للعالم كله ، سواء الإسلامي أم غيره ، وخاصة في أوروبا ولنرى ذلك الخطاب الذي وجهه الأسقف (جرمانوس) – أسقف باتراس، ورئيس تنظيم الجمعية السرية في المورة – لنفهم منه ما يحمله خطابه من حقد وضغينه ضد المسلمين المتمثلين في العثمانيين وحكامهم ، إذ أراد بخطابه هذا أن يثير الفتنة داخل اليونان، فخطب في شعبها قائلاً :

" يا أيتها الأمة اليونانية ، هيا أفيقي واقتلي الأتراك العثمانيين " ، ثم قام بالدعوة العامة لكل الروم للقيام بالحرب ضد العثمانيين .

وكان لخطبة هذا الأسقف، الأثر البالغ في بداية التمرد الذي قام به اليونانيون عام1237هـ / 1821م ، مكتسبًا هذا التمرد شخصية وطنية ودينية ، وقاده رجال الدين بأنفسهم ، مما جعله يأخذ في الاتساع والانتشار على نطاق واسع. حيث قال :" ربما تعلمون أن الكنيسة قادت تمرد اليونان ضد العثمانيين عام 1237هـ/ 1821م ، وكان القساوسة هم

[1] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص81

الذين أخذوا بزمام المبادرة ، أي أنهم أول من رفع راية التمرد ، وعن طريقهم حصلت اليونان على استقلالها من الدولة العثمانية ... " .[2]

واستمرت دعوة الكنيسة للمطالبة بالمواجهة العسكرية مع العثمانيين بل والقضاء عليهم لخطورتهم على مستقبل الكنيسة في العالم وأوروبا ، لكن ما كتبه البطريرك (جريجوريوس) في رسالته إلى القيصر (الكسندر) تشير إلى أن خطة الكنسية بدأت تتوجه للمواجهة بشكل آخر غير الشكل العسكري ، فيقول: " من المستحيل سحق وتدمير الأتراك العثمانيين بالمواجهة العسكرية ؛ لأن الأتراك العثمانيين ثوريون جدًا ومقاومون ، وواثقون من أنفسهم ، وهم أصحاب عزة نفس واضحة ، وهذه الخصال التي يتمتعون بها إنما تنبع من ارتباطهم بدينهم ، ورضائهم بقضاء الله وقدره ، وتشبثهم بهذه العقيدة ، وأيضًا من قوة تراثهم وتاريخهم ، وطاعتهم ومؤازرتهم لسلاطينهم وقادتهم واحترامهم لكبارهم الأتراك العثمانيون أذكياء ، وهم مجدون مجتهدون متجاوبون مع رؤسائهم الذين يوجهونهم ويقودونهم في الطريق الإيجابي الصحيح ، مما يجعلهم قوة هائلة يخشى منها ، فهي تتميز بالقناعة والتصميم وشدة المراس والثبات عند المواجهة . إن كل مزايا الأتراك العثمانيين هذه بل وبطولاتهم وشجاعتهم إنما تأتي من قوة تمسكهم بدينهم ، وارتباطهم بأعرافهم وتقاليدهم وصلابة أخلاقهم" . [1]

وبعد أن عدد البطريرك (جريجوريوس) المزايا التي يتمتع بها العثمانيون والصفات التي أرست قواعد ثباتهم واستمرارية نجاحاتهم العسكرية وتفوقهم في أي مواجهة عسكرية مع أوروبا ، بعد ذلك كله فطن هذا البطريرك إلى الحلول غير العسكرية التي يمكن أن تساعد على هدم هذه الصفات . وإسقاط تلك المزايا لدى العثمانيين ، والبدء في تخريب عقيدتهم الراسخة في نفوسهم، فأشار على القيصر (الكسندر) بهذه الحلول التالية:

أولاً : لابد من كسر شعور الطاعة عندهم تجاه سلطانهم وقادتهم وتحطيم روحهم المعنوية وروابطهم الدينية ، وأقصر الطرق لتنفيذ هذا تعويدهم التعايش مع أفكار وسلوكيات غريبة لا تتواءم مع تراثهم الوطني والمعنوي .

---

[2] ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية ، ترجمة : محمد حرب ، ط 1 ، جدة : دار المنارة للنشر والتوزيع ، 1418هـ / 1997م ، ص64 .

[1] ثريا شاهين : مرجع سابق : ص70-71 .

ثانياً : لابد من إغراء الأتراك العثمانيين لقبول المساعدات الخارجية التي يرفضونها بدافع من إحساسهم بعزتهم ، وتعويدهم عليها ، حتى لو أدى ذلك إلى إعطائهم قوة وقدرة ظاهريتن فقط ولمدة محدودة .

وفي الوقت واليوم الذي تهتز فيه روابطهم ومعنوياتهم ستهتز قدراتهم الذاتية ، فهذه المعنويات والروابط هي التي تدفعهم نحو النصر ، إضافة إلى قدراتهم الأخرى وكثرتهم العددية التي تبدو في الشكل أكبر مما هي عليه في الواقع ، الأمر الذي مكنهم من السيطرة والحكم والوجود في المجتمع الدولي .

كذلك يمكن هدمهم وتدميرهم بإعلاء وقيمة الأمور المادية وأهميتها في تصوراتهم وأذهانهم – أي إفسادهم بالإغراءات المادية – ولهذا فإنه ليس بكاف إحراز انتصارات عليهم في ميدان الحرب العسكرية فحسب ، ولكن العكس هو الصحيح ؛ لأن اتباع طريق الحرب – وحده – لتصفية الدولة العثمانية ، من شأنه أن يمس أحاسيس ومشاعر الوفاء لدى الأتراك العثمانيين ، فيكون سبباً في تنبههم وسرعة إيقاظهم ، ووصولهم لمعرفة حقيقة ما يُخطَّط ويُبيَّت في الخفاء لهم ولوطنهم من تخريب وتدمير .

إن ما يجب عمله هو إكمال هذه التخريبات في بنيتهم الذاتية والاجتماعية ومكانتهم الدولية دون أن يشعروا بشيء .[1]

وهكذا أورد التقرير السابق الذي تضمنه رسالة البطريرك إلى القيصر (الكسندر) كل الحلول والأساليب غير العسكرية التي يمكن أن تضعف من قوة العثمانيين وتماسكهم ، بل إنها قد تقضي على الأسس التي تقوم عليها تلك القوة ، كالبنية الاجتماعية والدولية ، وقبلها البنية الدينية والعقائدية ؛ وبذلك رسم البطريرك الخطوط الأساسية لحركة الدراسات الاستشراقية ، ورمى العثمانيين بكثير من الشبهات الكاذبة والافتراءات المغرضة ؛ للوصول إلى هدم الدولة العثمانية داخليًا وخارجيًا ، والتخلص من أي بقايا لها أو محاولة إعادة حكمها مرة أخرى .

والرسالة تبين بوضوح تام المنهج الذي سار عليه المستشرقون بدعم من الكنيسة والبطريرك الذي أقسم على عدم خيانة الدولة العثمانية ، فكسر شعور الطاعة عند العثمانيين وتحطيم روحهم المعنوية ، وإغراءُهم بقبول التدخل الخارجي ، لا يأتي إلا بتشويه تاريخهم

---

[1] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص8 . علي محمد الصلابي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط 1 ، دار البيارق ، 1420هـ / 1999م ، ص576 – 577 .

والافتراء على حاضرهم لضمان المستقبل بيد الكنيسة. وهكذا فإن التسامح الديني للعثمانيين أعطى المجال لتشويه صورة العثمانيين بدعم من المسيحيين أنفسهم .

لقد كان البطريرك (جريجوريوس) بطريرك إستانبول عضوًا فعالاً في خدمة الجمعية التي أسست لخدمة قيام دولة اليونان الكبرى ، على اعتبار أن البطريركية أصبحت الوريثة الشرعية لحقوق الإمبراطورية البيزنطية على الرغم من عدم وجود أي صلة سواء تاريخية أم عرقية بينهم وبين الدولة البيزنطية ، وكان يستخدم كل موظفيه وكل نفوذه لتنفيذ أوامر الجمعية السرية التي تسعى لقيام دولة اليونان الكبرى ، وكانت خطوات الجمعية كالتالي:

١) إنشاء جمعيات سرية في كل مكان في الدولة العثمانية ، والقيام بتسجيل أغنياء الروم وأكثرهم نفوذًا في هذه الجمعيات ؛ لضمان المساعدات المادية والمعنوية .
٢) تعيين المشهورين من الهيلنينين من رجال الكنيسة رؤساءً للجمعية .
٣) تأسيس شركات تجارية لتأمين مصدر مالي للجمعية السرية .
٤) الإفادة من الشباب الهيلينين الذين يدرسون في أوروبا .
٥) العمل على تأمين مساعدة الدول الكبرى . [1]

ومنذ ذلك الحين بدأت البطريركية تنفذ مخططاتها لتشويه صورة الدولة العثمانية والقضاء عليها ، ففي عام 1337هـ / 1918م بدأت جمعيات بالظهور مرتبطة بالبطريركية التي أمدتها بالمساعدات المالية ، وهذه الجمعيات كانت تستُغل في شن الحملات الصحفية المضادة ، وتقديم تقارير وإحصاءات غير صحيحة عن الدولة العثمانية للدول الأجنبية ، وذلك مساعدة لها للقضاء على الدولة العثمانية . فعلى سبيل المثال كانت البطريركية تنشر رسائل ضد الأتراك موجهة للعالم الغربي ، مفادها. " تعالوا لتنقذونا نحن المسيحيين من بين براثن ظلم الأتراك الظالمين القتلة المتوحشين " [2] ، كما أنها كانت دائمًا تحث أوروبا على مؤازرة المسيحيين ومساعدتهم عسكريًا ، وهذا ما يفسر لنا بوضوح أن أعمال العنف

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، 577 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ط2 ، دمشق : دار العلم ، 1419هـ / 1999م ، ص131 .

[2] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 139 – 141 .

والمجازر في اليونان ضد العثمانيين جاءت قوية ومنظمة مما يدل على أنها مدعمة تدعيم جيدًا .

وكانت علاقات البطريركية والروم مع الروس أفضل منها مع غيرهم ، لذا كانوا يعملون معهم ، واتضح ذلك من خلال رسالة البطريرك (جريجوريوس) إلى قيصر روسيا – كما سبق أن أوردناها – بيَّن له فيها كيفية القيام بهدم الدولة العثمانية من الداخل ، دون استخدام القوة العسكرية ، اعتماداً على هدم البنية الاجتماعية والدينية للدولة .

وذكر الجنرال (أغناتييف) – السفير الروسي المشهور الذي بذل مساعي كثيرة وكبيرة ضد العثمانيين في عهد السلطان عبد الحميد الثاني – ، عندما كان سفيرًا لروسيا في إستانبول في مذكراته ما يلي :

" توجهت إلى البطريركية في ذلك اليوم الذي استقال فيه (محمود نديم باشا) من رئاسة الوزراء ، والتقيت هناك بالبطريرك (يرمانوس) ، وأثناء حديثنا قرأ لي مسوَّدة خطاب كان في صندوق عثر عليه أثناء عمليات بناء وإنشاءات البطريركية.مسودة هذا الخطاب كانت لرسالة أرسلها البطريرك (جويجوريوس) – هذا الذي أُعدم شنقًا في عهد السلطان محمود الثاني بتهمة تقديمه العون لانفصال اليونان – إلى قيصرنا في ذلك الوقت القيصر (الكسندر) وقد كان هذا الخطاب يحمل توصيات جديرة بالاهتمام كما رأينا . [1]

وقد صرَّح السفير الروسي بكل هذه المعلومات التي عرفها عن الأتراك العثمانيين من خلال قيامه بعمله السياسي الرسمي لدى الدولة العثمانية في إستانبول ، حيث دون كل ما عرفه وشرحه حول تشخيصاته عن صفات وأخلاقيات الأتراك العثمانيين التي يمكن عن طريقها الدخول إلى ذلك الكيان القوي، ومن ثمَّ العمل على هدمه .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآراء ووجهات النظر التي صرَّح بها السفير الروسي بإستانبول – من خلال مذكراته تجاه سياسة بلاده نحو الدولة العثمانية ، واتفاق سياستها العدائية مع سياسة الكنيسة – لأمر غير غريب ولا مفاجئ من رجال السياسة والدولة في روسيا ؛ فمن المعروف أن روسيا كانت تتحين الفرصة منذ قديم الزمن لتوجيه ضرباتها للدولة العثمانية ، فمنذ أن دخلت فارس في حرب طاحنة مع الدولة العثمانية – بحكم الحدود

---

[1] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص70

الجغرافية المشتركة والجوار – كانت روسيا تقدم المساعدات العسكرية لنجدتها ، ولا شك أن مساعدة روسيا لفارس ضد الدولة العثمانية يعود من جهة لمعاداة روسيا للدولة العثمانية ، ومحاولتها السيطرة على الولايات الإسلامية في وسط آسيا من جهة أخرى . ونتيجة لتلك الضغوط السياسية والعسكرية تنازلت الدولة العثمانية لروسيا عن مناطق إقليمية مهمة ، كمنطقة البحر الأسود الإستراتيجية التي سهلت لها الوصول إلى البحر المتوسط ، وإلى فارس والخليج .[2]

وكانت روسيا تدرك تمامًا مدى أهمية النشاط الاجتماعي ، فهو أحد الأنشطة التي يجب ممارستها في المنطقة العربية والإسلامية الخاضعة للدولة العثمانية للسيطرة عليها . فأدركت أهمية مهنة الطب ودورها في تحقيق التفاهم بين الشعوب الشرقية والإسلامية ، واتخذت ذلك ذريعة للتدخل في شؤون فارس والخليج . والحقيقة أن هذه المهنة الجليلة ذات منحى سياسي خطير [1] ؛ إذ إن للطبيب إمكانية واسعة وصلاحية في الدخول إلى البيوت ، والتعامل مع العامة من الناس البسطاء بكل سهولة قد لا تتوافر لدى الآخرين ، لهذا آثرت روسيا أن يكون الموظفون الروس من الأطباء، وبدأت في إرسالهم في بعثات طبية إلى المنطقة للتأثير فيها.[2]

وحين انتشر وباء الطاعون في الهند استغلت روسيا الفرصة ، وبدأت الوفود الطبية زيارة مناطق الخليج ، وأهمها بندر عباس والبصرة بحجة دراسة المرض المنتشر الذي لم يتأكد انتشاره بعد .

---

[2] نادية وليد الدوسري : محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي 1297م – 1325هـ / 1880 – 1907م ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ، 1422هـ ، ص39 .

[1] جمال ذكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ، 1840 – 1914م ، القاهرة : جامعة عين شمس ، 1966م، ص78 . مانع حمد الجهني : مرجع سابق ، ص 683 .

[2] الأرشيف الروسي في مركز أرشيف الدولة ، موسكو ، ملف 3 ، د. 346 القنصلية العامة للإمبراطورية الروسية ، بغداد 2/26/ 1890م ، موجهة إلى القسم الآسيوي في الخارجية للإمبراطورية الروسية .

British Documents on Foreign Affairs , Part I, Volum 13, Doc. 50 , report on the British Indian Commercial mission to south – eastern Persia during , (1904 – 1905) .

وقد أثارت زياراتهم شكوك السلطات البريطانية حينذاك في الخليج ، وبدأت تطلق الشائعات بأن هؤلاء ليسوا أطباء ، وإنما لهم أهداف أخرى قدموا لتنفيذها ، وخاصة بعد أن استقر بعضهم وبصحبتهم الضباط الروس في بندر عباس وبوشهر. [3]

فأعلنت روسيا ردها على الشائعة التي روجها الإنجليز بأن هدفها من إرسال هؤلاء الأطباء هو خوفها على رعاياها من فتك هذا المرض المخيف وحمايتهم صحياً منه ، الأمر الذي جعلها تكثر من إرسال البعثات الطبية فأرسلت روسيا طبيبين روسيين خبيرين في الطب، هما المستر (أوست Ost) ، والمستر (مير Mair) ، وكان الأخير طبيب البعثة الدبلوماسية الروسية في طهران ، وقد أُرسل إلى بوشهر لدراسة الطاعون ، كما تبعهما طبيبان آخران هما(رودزفيتش Rod Zevitch) ، والطبيب (باسكوفسكي Baskoveski).

ولقد قام جميع هؤلاء الأطباء بزيارات متواصلة إلى البصرة وبندر عباس وبوشهر ، وبقية مناطق الدولة العثمانية ، وكان من أهم الأطباء الروسيين أيضاً الطبيب البري (شانيا فسكي Shan Veski) الذي يعد من كبار أطباء مستشفى تفليس ، كما أنه كان مستشاراً ، وكان موجوداً في الخليج بتكليف من لجنة مكافحة وباء الطاعون المرخص لها من السلطات العليا ، وكانت مهمته تنحصر في مراقبة سير الأوبئة في الخليج. [1]

ومهما يكن من أمر فإن الطبيب الروسي (مارك Mark) كان يرسل التقارير السياسية الرسمية من بندر عباس إلى الحكومة الروسية بمساعدة روسي آخر يدعى (أداموف Adamov) ، الذي ثبت أنه كان ضابطاً في المدفعية الروسية ، وكان يزور بانتظام بوشهر والبصرة ، أما الدكتور (أبو سكوريسكي Boskareski) فيعد أحد

---

[3] طارق نافع الحمداني : العثمانيون والروس في الخليج العربي ، دراسة في العلاقات السياسية بينهما 1878 – 1907م الوثيقة ، العدد 16 ، جمادى الآخرة 1410هـ / يناير 1990م ، ص98 .

[1] الأرشيف الروسي في مركز أرشيف الدولة ، موسكو ، ملف ب – ب5 – أ ب ث ر – ف – الأرشيف السياسي – د – 1954– 183 – د – 41 – 105 – 106 ، تقرير مفصل عن مهمة القنصل الروسي في بغداد والمستشار كروغلوف واستقباله للباخرة الحربية جيليال في رحلتها إلى البصرة والمحمرة والكويت وبغداد ، 17 إبريل ، 1900 .

الأرشيف الروسي في مركز أرشيف الدولة ، موسكو ، ملف السفارة الإمبراطورية في إستانبول ، الإضبارة 1244 ، بلاغ كروغلوف إلى إستانبول ، بتاريخ 1900/9/10 رقم 282 . وانظر أيضاً ، ريزقان : الحج قبل مائة عام ، الرحلة السرية لضباط الروس عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة 1898– 1899م ، ط2 ، بيروت : دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، 1414هـ / 1993 ، ص9–11 .

الأطباء الروسيين النشطين ، وقد قام بنشاط بارز أثناء انتشار الوباء في بوشهر وبندر عباس طوال مدة إقامته فيهما ، وقد انتهت برحيله إلى روسيا ليحل محله طبيبان آخران . [2]

وهكذا صدقت رؤية البطريرك (جريجوريوس) في رسالته السابقة التي أشرنا إليها ، والتي أرسلها إلى القيصر الكسندر ، والمتضمنة الأساليب والخطط غير العسكرية نحو هدم الدولة العثمانية والولايات العربية والإسلامية ، والخاصة بالشكل الاجتماعي والطبي كما رأينا.

والحقيقة أن مثل هذا الاهتمام البالغ بالدراسات الاستشراقية من قبل الحكومات والمجالس النيابية والأوساط الكنيسية ، يعد مؤشرًا مهمًا لما يهدف إليه الاستشراق وما يمثله من خطورة ، وهذه الخطورة تتمثل في كتابات المستشرقين التي تهدف إلى تشويه حقيقة الإسلام وحضارته .

إضافة إلى أن الكنيسة الغربية قد شرعت في اتخاذ سبيل جديد هو خلق جو ومناخ من التعصب الديني ، أشعلته في نفوس الشعب الأوروبي وذلك باختلاق الأكاذيب حول اضطهاد المسلمين للمسيحيين وادعاءاتهم عن تخريب الكنائس والأديرة . [3] متخذين من تحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد نموذجًا بارزًا لهذا التخريب ، فقد قام المسلمون بإزالة الصور من آيا صوفيا ، وتغطيتها بالجص ؛ امتثالاً للشريعة الإسلامية التي تحرم التصوير ونحوه . وذلك لتشويه صورتهم في الغرب . والتبرير لإستخدام العنف ضدهم ، ولتأييد حربها ضد الأتراك أطلقت على تلك الحرب اسم (العنف المسيحي المقدس) ، فتعاون القساوسة مع الأدباء والمصلحين على تحريض الشعوب الأوروبية ضد الأتراك ، بالتحذير منهم تارة ، وتشويه صورتهم وأفعالهم في عقول العامة تارة أخرى . فأعادوا إلى الأذهان روح الحرب الصليبية ، ومن أشهر هؤلاء (مارتن لوثر) الذي أكد أن التقدم العثماني ما هو إلا أن الشيطان سينطلق من سجنه ، وهذا الأمر يحقق رؤيا القديس (يوحنا) الذي قال: "انظروا أنا أسلط عليكم السيف ، سآتي بأحط الشعوب لتحتل بيوتكم ". [1] وإنما نشروا هذه الأقوال لتبرير حقدهم على المسلمين وهجومهم المتواصل عليهم .

---

[2] Russian Plague dactors in the Gulf , seeretE ., may 1898 , Nos . 73 – 103 . Secret E., April 1899 , Nos . 145 – 163 , Seeret E ., September 1899 , Nos . 203 – 213 .

[3] سهام عبد العظيم : مرجع سابق ، ص9 .

[1] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص40 . محمد سليمان العبده : مرجع سابق ، ص13 .

ومع ذلك كانت البابوية تترقب بفزع دائم مجيء العثمانيين إليها ، وفي قرارة نفسها تعتزم الاستسلام لها .

وكما سبقت الإشارة وجدنا أن الكنيسة والمحافل العلمية والثقافية والحكومات المختلفة في أوروبا كان لها هدف واحد ، هو الاتفاق على ترك القوى العسكرية ، وإحلال الغزو الفكري والثقافي في هدم الدولة العثمانية. واستغلت الدولة العثمانية هذا الخلاف فسيطرت على معظم أراضي أوروبا الشرقية بما فيها القسطنطينية . [2]

وبدأت بعدها الكنيسة الأوروبية تعيد اتحادها مرة أخرى وتتماسك ثانية لهدم أركان الدولة العثمانية بشتى الطرق والوسائل سواء العسكرية منها أم الفكرية والثقافية التي تبنتها الكنيسة الأوروبية منذ زمن بعيد .

ومن خلال التقارير الواردة يمكن لنا معرفة الأساليب الخفية التي استخدمتها الكنيسة في أوروبا ، وخاصة تلك الكنائس التي تعيش تحت إدارة الحكم العثماني ، وذلك استعدادًا للمواجهة العسكرية المسيحية الإسلامية مع الدولة العثمانية ، نذكر منها على سبيل المثال :

جاء في أحد التقارير المرسلة : " وقد وضعوا في صناديق المواد الغذائية والمعدات العسكرية من ملابس عسكرية وأسلحة وذخيرة فأرسلوها إلى الكنائس على أنها مليئة بالمساعدات الغذائية والمعونات – من طعام وملابس – للفقراء لتوزيعها عليهم ، وقد استطاعت الحكومة العثمانية كشف هذا المكر والخديعة ومعرفة ذلك وتسجيله ". [1]

وفي تقرير آخر ، تضمن ذلك المعنى الذي يطالب بالانتقام من كل ما هو عثماني ومسلم في أوروبا عمومًا ، واليونان على وجه الخصوص ، حيث يقول : " لقد حرض (خيروستوموس) الجنود اليونانيين والأروام المحليين على ذبح الأتراك المسلمين خلال خطابه الذي قال فيه : " إن شرب دماء التركي ثواب ، فبقدر كمية الدماء التي تشربونها من جسد الأتراك بقدر ما تقتربون من الجنة!! اقتلوا كل من يلبس الطربوش – الأتراك حينذاك – ولم يكن هذا الشعور المليء بالكراهية والأحقاد للعثمانيين نابعًا من داخل الكنيسة الأوروبية فحسب ، بل نجد أيضًا تدخل الدول العظمى والمجاورة لدعم الكنيسة اليونانية والأروام ، وقد شعرت روسيا بالخيانة التي يدبرها الأروام ، وزكمت أنفها رائحة ما يحدث

---

[2] Kemal Pasa Zade : Tevarih – I Al- I Osman , Ankara, 1957 , P. 540 .

[1] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص16 .

فأرادت أن تأخذ شيئًا من الغنيمة ، ودخلت لتسرق ثورة الآروام لحسابها ، فاضطرت الدولة العثمانية إلى مجاراة روسيا ومنحها امتيازات ، فبدأ عندئذ التدخل كل دولة تريد أن ترعى مصالح طابورها الخامس ". [2]

والحقيقة أن خلفيَّة الصراع بين المسيحية والإسلام ليس قصة للصراع بين المسيحية والإسلام أبدًا ، فالإسلام والمسيحية دينان سماويان نزلا من عند الله لإخراج البشرية من ظلمات التعصب والجهل والأنانية ، ومن ظلمات التآمر والكيد والمكر الشيطاني الذي يُستغل أسوأ استغلال لإثارة النعرات الدينية ، لتحقيق المصالح الخاصة ، بل إن هذا الصراع سياسي من الدرجة الأولى ، وتدعمه العصبية الدينية الموجهة ضد الإسلام والمسلمين المتمثلين في الدولة العثمانية .

وعلى الجانب الآخر ، تسبب اليونانيون في عدة ثورات في منطقة "الأناضول " كالتي أحدثوها في " تمردات المورة " و " حرب البلقان " سواء أكان ذلك أثناء تقدمهم نحو " أنقرة " أم انتشارهم في منطقة "مرمرة" أو انسحابهم ، أو أثناء العمل على إحياء مبدأ جمهورية " بو نطوس " من جديد .[1]

ولا شك أن كل ما حدث هو دليل قاطع على ذلك الحقد الدفين من الأروام واليونانيين تجاه المسلمين وخاصة الأهالي الأتراك ، وتأكيد على أنهم يقومون بتنفيذ تعليمات ووصايا الكنيسة لهدم الدولة والأهالي معًا.

وإنه لمن النادر – في التاريخ – أن يحدث مثلما حدث من الروم المحليين تجاه مواطنيهم الذين عاشوا معهم في سلام وأخوة ، وتجاه دولة هي الدولة العثمانية ، هم تابعون لها واستفادوا منها بكل أنواع النعم، ونعموا فيها بحياة آمنة حرة هيأتها لهم دولتهم العثمانية ، فقد نسوا كل هذه النعم ، وجحدوا الإحسان ، وقاموا بمنكرات لا يمكن تخيلها .

ونخص بالذكر رجال الدين الذين قاموا بتحريض الشعب للقيام بهذه التصرفات، بل إن تطبيقهم لهذه الأمور باسم الدين وباسم رجاله لأمر يبعث على الخجل .

---

[2] مرجع السابق ، ص 16 لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : وثائق وزارة الخارجية البريطانية ، مكتب السجل العام، رقم 874/78 ، رقم 20 بتاريخ 1851/11/7م وهي رسائل مدونة بخط يد الملكة فيكتوريا .

[1] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص110 .

والدليل على تلك النفسية التي يتعامل بها رجال الدين المسيحيين الأروام تجاه الأهالي المسلمين ، ويؤكد – بالتالي – ما نرمي إليه ، هو اعتراف المنصفين من كتاب النصارى بالحوادث المفجعة والمجازر التي قام بها الروم المحليون واليونانيون ومنهم على سبيل المثال: الكاتب اليوناني (ديمتري كيتسيكيس) الذي يعترف بهذه الحوادث المفجعة ، وكذلك (جي بيرين) والبروفيسير (جيشكه) ، فهؤلاء تحدثوا وكتبوا عن هذه الحوادث الإجرامية بشكل واقعي يتسم بالموضوعية.

وقد قامت لجان تقصي الحقائق المكونة من ممثلي البلاد المحايدة بتسجيل هذه الحوادث المفجعة مدعمة بالوثائق من أماكن حدوثها ومن ثم إبلاغ المسؤولين في تلك الدول بتقارير من قبل ممثليهم في هذه اللجان . [2]

وبهذا نرى كيف تعاملت الكنيسة في اليونان مع أهالي الدولة العثمانية وخاصة الموجودين منهم في اليونان والأناضول ، وكيف قاموا بالدَّعوة للنهوض ضد الأتراك بل والقضاء عليهم، وإثارة الأرمن ضد الدولة العثمانية في كل مكان.

إن الصلاحيات التي حصل عليها البطريرك والكنيسة –كما سيتضح لاحقاً– وراءه كانت من المساحة بحيث أساء الطرفان استخدامها ، وتحول البطريرك لمجرد جاسوس وعين للبابا في روما على الدولة العثمانية ، لنقل الأخبار أولاً ، ولتحين الفرصة لإثارة الفتن والقلاقل ثانياً ، ولدعم الرحالة والمستشرقين الذين ارتدوا رداء العلم ، وهم في الأصل جواسيس للكنيسة لنقل الأخبار والمعلومات .

إن صلاحيات البابا في توجيه حركة الاستشراق ضد الدولة العثمانية مهد لها الصلاحيات الممنوحة للبطريرك الذي بدوره قدَّم الدعم المادي وسهل المرور بأراضي الدولة العثمانية لكتاب الدراسات الاستشراقية .

ويقوم مجلس الكنائس العالمي والفاتيكان وهيئات أخرى بتقديم التوجيه والدعم المالي لكافة الأنشطة الاستشراقية والتنصيرية ، وتتوفر مصادر تمويل ثابتة من مختلف الحكومات والمؤسسات في الدول الغربية ، فضلاً عن المشاريع الاقتصادية والأراضي الزراعية والأرصدة في البنوك والشركات والموقوفة لتمويل هذه الأنشطة ، بالإضافة إلى حملات جمع التبرعات التي يقوم بها القساوسة من حين لآخر .

---

[2] مرجع سابق ، ص111 .

وتوجد مراكز للبحوث والتخطيط لهذه الأمور ، وهي تابعة للكنائس والبابوية في الفاتيكان ، ومن أهمها :

١) مركز البحوث التابع للفاتيكان .

٢) مركز البحوث التابع لمجلس الكنائس العالمي . [1]

ومن خلال العرض السابق لأعمال الكنيسة في تدعيم الدراسات الاستشراقية ، وتوفير كافة المعلومات اللازمة إضافة للدعم المادي ، يتضح مدى الدور الذي أدته الكنيسة وعلى رأسها البابا والبطريرك لتشويه التاريخ العثماني ، حفزها على ذلك إندفاع الفتوحات الإسلامية العثمانية في مناطق كانت خاضعة لنفوذهم فبدأت في المواجهة الفكرية والعسكرية عن طريق تكوين الأحلاف الصليبية.

---

[1] مانع حماد الجهني : مرجع سابق ، ج2 ، ص685 .

المبحث الثالث :

أصداء الفتح العثماني في أوروبا ، ودور المستشرقين في إذكاء روح العداء:

إن فتوحات الدولة العثمانية في أوروبا قد غيرت التاريخ الأوروبي وأرغمت الكنيسة وملوك أوروبا أنفسهم على التصدي لهم بل والقضاء عليهم ، كما أنَّ أصداء الفتح العثماني في أوروبا جاءت قوية وجلية ، وساعدت الكتابات الاستشراقية على إذكاء روح العداء والحقد على الإسلام المتمثل في العثمانيين .

والحقيقة التي لا شك فيها ، أن الفتوحات العثمانية في أوروبا قد توغَّلت في وقت كانت فيه موجة التيار الإسلامي تنحسر عن الأندلس ، وذلك بسقوط غرناطة في أيدي الأسبان عام 898هـ / 1492م ، لكن خسارة المسلمين في غرب أوروبا عوضها العثمانيون دينيًا ومعنويًا على شرق أوروبا ووسطها .

والواقع أنَّ للفتح العثماني عدة خصائص يمكن إيجازها في التالي :

1) في الوقت الذي انطلقت فيه الفتوحات العثمانية في قلب أوروبا خاصة في القرن 11هـ/ 17م كانت أوروبا تنعم باليقظة القومية ، وتنفض عنها معالم الحياة الإقطاعية التي سادت في العصور الوسطى ، مع تطور ملحوظ في النظام العسكري وتسليح الجيوش ، وظهور واضح للتنظيم الاقتصادي ، والتزود بأسباب النهضة التي أشرقت على أوروبا . [1]

وعلى الرغم من هذه الظروف غير المواتية بالنسبة للعثمانيين إلا أن أوروبا وقفت موقف المدافع عن كيانها وأراضيها ، وانهارت مقاومتها أمام الفتح الإسلامي العثماني الذي انتقل من نصر إلى آخر ، وتوغلوا في قلب أوروبا حتى إنَّ العثمانيين فتحوا جبهة بحرية في حوض البحر المتوسط ، حيث فتحوا ردوس وقبرص وكريت . [2]

2) علاوة على ذلك عندما شقت الفتوحات العثمانية طريقها وسط الشعوب المسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط كانوا يحاربون في مناخ وبيئة صحية ؛ إذ ضم الحوض الغربي هذا شعوبًا إسلامية تعاونت مع العثمانيين في الحرب ضد خصومهم ، كما أن شمال

---

[1] إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط 2 ، الرياض : العبيكان ، 1419هـ/ 1998م ، ص16 . محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة : أحمد السعيد ، د. ط ، القاهرة ، 1967م ، ص 118 – 119 ، سيد محمد السيد محمود : إنهيار الدولة العثمانية " الأسباب " ، ط1 ، القاهرة : مكتبة الآداب ، 2003م ، ص 46 .

[2] أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ط2 ، مصر : دار الشروق ، 1413هـ / 1993م ، مرجع سابق ، ص 20–22 .

إفريقيا الذي يدين سكانه بالإسلام أرادوا أن يثأروا لإخوانهم في الدين الذين طردوا من الأندلس.[1]

لكن لم يكن هذا سبب نجاح العثمانيين وتفوقهم على أوروبا ، إنما تمكن الإسلام من قلوبهم هو الذي جعلهم يتفوقون في حروبهم على أوروبا، ولا يمنع ذلك تلقيهم المساعدة من المسلمين ، وزاد من قوتهم أيضًا أن الشعور الديني كان متأججًا عند العثمانيين وحافزًا قويًا للاستبسال في القتال وطلب النصر أو الشهادة.

3) ومما تجدر الإشارة إليه أنه في الوقت الذي كانت الفتوحات العثمانية الإسلامية تسير داخل مناطق مسيحية ، كانت تسبقها أخبار سياسة التسامح الديني ، فتجد كل العون والترحيب من شعوب أتعبها طول الاضطهاد الديني ، مما ساعد على استقرار الحكم العثماني بها ، وسرعان ما انهارت مقاومة أوروبا أمام الجهاد الإسلامي للعثمانيين الذين انتقلوا من نصر إلى آخر .

وظهرت الدولة العثمانية بمظهر الحامية للكنيسة الأرثوذكسية ، وملايين المسيحيين الأرثوذكس ، فقد ضمن الإسلام للشعوب المسيحية حماية حياتهم وممتلكاتهم مقابل دفع الجزية، وطبقت سياسة التسامح الديني بأقصى درجاتها خلال العهد العثماني [2] ، إذ اتبعوا سياسة استهدفت تحقيق النهج الإسلامي في معاملة أهل الديانات الأخرى ؛ لكسب ثقة المسيحيين وغيرهم .

هذا التسامح اتضح من التزام السلاطين بالشريعة حيال الديانات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة ، حيث عاش الرعايا المسيحيون واليهود في أمن وسلام جنبًا إلى جنب داخل الدولة العثمانية . [3]

ونتيجة لهذه الانتصارات وأمام هذا العملاق العثماني المسلم الذي لا يخبوا ولا يهدأ له بال في نشاطه الحربي ، اختبأت أوروبا خلف الفكرة الصليبية لتعمل على استمرار ضراوتها وعنفها ، وتكونت الأحلاف الدولية ضد العثمانيين، تغذيها وتدفعها روح صليبية

---

[1] كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : منير بعلبكي ، ط12 ، دار العلم ، 1993م ، ص 401 – 410 .

[2] خلف دبلان الوذيناني : مرجع سابق ، ص 84 .

لمزيد من التفاصيل الرجوع إلى : محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 128 ، 129 .

[3] خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص 84 .

وتباركها البابوية الأوروبية التي وجدت الفرصة سانحة للانتقام من الوجود الإسلامي المتمثل في الوجود العثماني داخل أوروبا ، مما دفع العثمانيين للتصدي لهذه الحملات . [1]

4) ويجب تسليط الضوء على العوامل التي تضافرت وساعدت العثمانيين على تحقيق هذه الانتصارات ، وأولها الشعور الديني المتأجج ، فالعامل الديني كان له أكبر الأثر في استبسال الجنود العثمانيين بجانب القوات الكافية ، والموارد المالية التي أوقفتها الدولة العثمانية على الجهاد . وانعكس هذا الأمر بوضوح في تزايد دخول أعداد كبيرة من البيزنطيين والأرمن والأرناوؤط في الإسلام ، وقد حرص العثمانيون على فتح قلوبهم وأراضيهم لهؤلاء المسلمين الجدد . كما فتحوا أمامهم المجال لمشاركتهم أعباء الجهاد وإدارة الدولة بدون أية حدود ، ولم يكن لانتماءاتهم العرقية أو القومية السابقة أي تأثير يمنع من ارتقائهم في مناصب الدولة سواء العسكرية منها أم المدنية ، ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر : الأمير (خوسيه ميخائيل) الذي أسلم في عهد السلطان عثمان ، وأصبح فيما بعد من قادة الدولة العثمانية المرموقين ، ثم تبعه أبناؤه وأحفاده على الطريق نفسه. والقائد البيزنطي (أفرنيوس) حاكم مدينة بورصة الذي عهد إليه السلطان (أورخان) بقيادة أحد جيوشه ، ثم خلفه ابنه علي بن إفرنيوس في قيادة الجيوش الإسلامية ، إذ عهد له السلطان العثماني محمد الفاتح بقيادة أحد جيوشه في أوروبا.[2]

وكان الأمير أحمد إستيفان– ابن ملك البوسنة – من قادة الجيوش ، بالإضافة إلى الصدر الأعظم محمود باشا في عهد السلطان محمد الفاتح الذي بلغ من شدة تدينه وحسن إسلامه أنه لقب بالولي . [*] [3]

---

[1] إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 16 .

[2] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص60 . أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص46 .

[*] فيما يلي إحصائية تعتبر دليل دامغ على رفض العثمانيين الوقوع في متاهات العصبية العرقية أو القومية ، فقد بلغ عدد الذين تولوا منصب الصدر الأعظم من الذميين الذين أعلنوا إسلامهم حوالي مائتين واثنين وتسعين شخصًا وتوزعوا حسب انتماءاتهم القومية على النحو التالي :

من أصل تركي (132) ، ومن أصل أرناؤطي " سكان ألبانيا (49) ، ومن أصل بيزنطي (23) ، ومن أصل سلافي (6) ، ومن أصل يوغسلافي " بوشناق (13) ، ومن أصل شركسي (14) ، ومن أصل شيشاني (1) ، ومن أصل عربي (4) ، ومن أصل أرمني (3) ، ومن أصل روسي (1) ، ومن أصل يهودي (1) ، وينتمي البقية إلى قوميات مجهولة غير التركية .

زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص 61 . نقلاً عن :

Ismail Hami Danismend izahli osmanli Tarihi , Istanbul , 1950 , P . 92 .

[3] مرجع سابق ، ص 61 .

ولا يمكن للتاريخ الإسلامي نسيان فضل الدولة العثمانية ، لا سيما دور العثمانيين الأوائل في نشر الإسلام داخل الأراضي الأوروبية ، فالدولة العثمانية تعد آخر وأقوى دولة إسلامية تمكنت من التصدي للغزو الأوروبي داخل أراضي ومياه عربية وإسلامية ، بل تمكنت من نقل المعركة العسكرية والدينية إلى أراضي أوروبا نفسها لأكثر من ثلاثة قرون عاشتها أوروبا في رعب وقلق دائم من الخطر العثماني الذي كان من الممكن أن يداهم أراضيها في أي وقت من الأوقات .

كما أن فتوحاتهم في أوروبا كانت لنشر الإسلام فيها وليس لاستعباد شعوبها، ولذلك كانت روح المقاومة في أوروبا تجثوا عاجزة تحت سيوف الدولة العثمانية ؛ فالعثمانيون كانوا ينظرون لأنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء ، وأنَّ ولاءهم أولاً للدين الإسلامي ، ثم للسلطان العثماني ، فالدولة العثمانية ، رافعين بذلك راية الجهاد . ، وقد ازدادوا قوة وصلابة عندما كانوا في الأناضول قرب حدود العالم المسيحي (الدولة البيزنطية) ، واحتفظوا بهذه الروح أيضًا في مسيرتهم الحربية لأوروبا ، وفي أثناء مواجهتهم للتكتلات الصليبية ، وفي فتحهم القسطنطينية فتحًا إسلاميًا 857هـ / 1453م . [1]

لذلك عدّ الأوروبيون الدولة العثمانية الرمز الحي المجسد للإسلام ، وأمست عبارة " الدولة العثمانية " مرتبطة بالدين الإسلامي ، مما أدى إلى تصاعد موجات الحقد والعداء الصريح بين الغالبية العظمى من الدول والملوك والباباوات في أوروبا تجاه الدولة العثمانية ؛ بصفتها دولة الخلافة الإسلامية التي تحكم شعوبًا مسيحية أوروبية .

وتعود أيضًا موجات العداء هذه إلى أن الدولة العثمانية نشرت الإسلام في أوروبا ، قضت على نظام الإقطاع ، وانهت بذلك مرحلة العبودية التي عاشتها أوروبا ، وقد مثلت مشكلة اجتماعية وسياسية بين الأهالي ؛ فقد اهتم السلاطين بتقديم الصدقات والعطايا والمساعدات للأهالي والفلاحين من الشعوب الأوروبية التي دخلت تحت الحكم العثماني .

إن الحروب الصليبية التي شهدها العالم الإسلامي في القرن 5هـ / 11م وساندتها البابوية لم تختلف في مضمونها وأهدافها عن التكتلات الصليبية التي واجهت الدولة العثمانية ، فقد نالت الدعم المادي والمعنوي بما فيه الكفاية لكي تنفذ في وحدة الصف الإسلامي

---

[1] أميره علي مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1، الطائف : دار الحارثي ، 1419هـ / 1998م ، ص99-100 . إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 249 .

العثماني، لكن الحركة الصليبية لم تجد هذه الثغرة فكان النصر حليف العثمانيين في أغلب الأحيان .

إن الدولة العثمانية تعد تجربة رائدة لنشر الإسلام في أوروبا ، فقد انتشر سريعًا في بعض الأقاليم الأوروبية [1] وغدت العواصم الأوروبية التي فتحها العثمانيون مدنًا إسلامية عثمانية ، [2] حتى إن العثمانيين تقدموا بالمساعدة لعرب الشمال الإفريقي خلال الصراع الصليبي الذي احتدم بينهم وبين الأسبان والبرتغاليين ؛ لتقوية الجهاد الإسلامي ضد خطر القوى الأوروبية المسيحية المتصاعدة على ديار الإسلام في شمال إفريقيا ، ومحاولة تحويل سكانها إلى المسيحية بعد تسيد الاستعمار في المنطقة ؛ إذ نشطت العمليات البحرية الإسلامية العثمانية التي يقوم بها ربابنة مسلمون في البحر الأبيض المتوسط بهدف تخليص المسلمين من الحكم الإسباني الاستبدادي ، والانتقام للمسلمين الذين طردوا من الأندلس . [3]

لذلك نجد أن الدول الأوروبية سعت بقوة لتصفية الوجود العثماني والإسلامي من أراضيها ، بل وأسهمت معها دول أوروبية أخرى لم يمتد إليها الحكم العثماني ، وإنما جمعت بينهم وحدة الهدف ، والقضاء على الإسلام المتمثل في العثمانيين ، ودعم مصالحها الاستعمارية بتوزيع الممتلكات العثمانية . ويظهر ذلك بوضوح في التحالفات الدولية ضد الدولة العثمانية التي سادتها الروح الصليبية المتعصبة .

وقد طبق هذا القول بصدق (جوستاف لوبون) في كتابه " حضارة العرب " فذكر " أن الأتراك العثمانيين قد اكتسبوا أسباب العظمة في ساحات الحرب ، وقد ارتعدت فرائص أقوى ملوك أوروبا أحقابًا طويلة فزعًا من سلاطين الدولة العثمانية الذين قاموا مقام القياصرة ، وأحلوا الهلال محل الصليب البيزنطي فوق كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية" .[4]

ومن ضمن الأساليب التي استخدمها الغرب إذكاء روح العداء ضد الدولة العثمانية ، وتحريض بعض الدول الأوروبية رعاياها على الثورة والتمرد داخل أراضي الدولة العثمانية ، مع مدهم بالأسلحة والذخيرة والأموال ؛ طمعًا في إحداث مذابح عامة بين الرعايا العثمانيين

---

[1] مثل قونيه وبروسه وأدرنه وإستانبول التي أصبحت مركزًا للدراسات الإسلامية والحياة الإسلامية ، إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 250 .

[2] مرجع سابق ، ص250 .

[3] إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص215 ، محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة ، ط1 ، لبنان : بيروت المحروسة ، 1415هـ / 1995م ، ص 208 ، 209 .

[4] إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 19

المسلمين أصلاً ؛ لنشر الفزع والرعب وإلصاق التهمة بالدولة العثمانية وسلاطينها ، حتى إن الدول الأوروبية كانت تكافئ هؤلاء بالهدايا والعطايا إذا نجحوا في تحقيق مرادهم ، وذلك لأن انتصارات العثمانيين العديدة أعادت للأذهان فتوحات العرب المسلمين الأوائل في الأندلس.[1]

وخير مثال على ذلك مساعدة الدول الأوروبية للحركات الانفصالية وتقديم الدعم المادي والتشجيع اللازم لتحقيق ذلك ، بل والثورة على الدولة العثمانية، في محاولة لتفتيت أجزائها ، وإثارة النعرة القومية خاصة في الولايات العربية ، على الرغم من أن العناصر الوطنية كانت تقف ضد هذه الحركات إذا لمست العداء لدولة الخلافة والتعاون مع الدول الأوروبية ، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى فشل أغلب الحركات الانفصالية ، فقد عرضت روسيا المساعدة على علي بك الكبير في مصر في حالة رغبتهِ الحرب ضد الدولة العثمانية.[2]

وحصل الأمير فخر الدين المعني على معونة من دوق تسكانيا في إيطاليا؛ وذلك بغية تحقيق أهداف دينية تعبر عن العداء المتمكن من النفوس الأوروبية ، وليست المسألة أهدافًا اقتصادية ؛ إذ إن الأطماع الاقتصادية – في ذلك الوقت – لم تكن قد تبلورت في تلك المنطقة. ومن شدة رغبة الأمير فخر الدين في التعاون مع الدول الأوروبية سمح ببناء العديد من الأديرة والكنائس ، حتى إنه موّل عمل البناء بنفسهِ، لدرجة أن أحد الرحالة الإنجليز ظن أنه مسيحي ، وأن إظهاره الإسلام صوري أمام العثمانيين فقط ، وقد أعطاه هذا الأمر القوة لأن يطلب من البابا تولي أمر المسيحيين الموارنة في لبنان ومعاونته . [3]

ويظهر دور فرنسا بوضوح في تشجيع الصراع ما بين الدروز والموارنة عن طريق القنصل الفرنسي في بيروت ، فنتج عنه مذابح بين المسلمين والمسيحيين عام 1277هـ / 1860م ؛ [4] وذلك لتوجد لنفسها مبررًا لتدخلها العسكري في لبنان بحجة حماية الموارنة الكاثوليك من المذابح ، وقد حرصت طوال مدة استعمارها لبلاد الشام على تمكين الموارنة

---

[1] يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص9 .

[2] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 116 .

[3] عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، د. ط ، مصر : دار النهضة العربية ، د.ت ، ص 167 ، 168 . أحمد عزت عبدالكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، د. ط ، بيروت ، 1970م ، ص 75 .

[4] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 118 .

المسيحيين من الحكم، وفرضت على الدولة العثمانية ضرورة تعيين حاكم مسيحي يساعده مجلس إداري يمثل بقية الطوائف . [1]

ومما يلقي الضوء على المعلومات السابقة ما حدث من روسيا لدعم الثوار والحركات التمردية في بلاد البلقان من البوسنة والهرسك ، ثم بلاد المجر وصولاً إلى صربيا ، حيث ساعدوا على إثارة البلبلة والفتن ، وإضعاف الدولة العثمانية والتهديد بسلخ الدولة من جميع الولايات العثمانية في أوروبا ، وتقسيمها بين روسيا وفرنسا والنمسا . [2]

وقد جُنَّ جنون رجال الكنيسة لسرعة انتشار الإسلام في أراضيها ، واعتناق كثير من المسيحيين الإسلام في بلاد أوروبية مسيحية صافية ، ولولا انتشار الإسلام لما قامت الأوساط البابوية بالمناداة بالأحلاف الصليبية . [3]

ومن رحلة فتوحات الدولة العثمانية يتضح أنها اتخذت سياسة المهادنة والمسالمة ، فعندما فتح السلطان (أورخان) مدينة أزنيق 731هـ/1330م اتخذها عاصمة له ، وهادن شعبها ، ثم فتح (مدرني – كمليك) فأرسل له قيصر الروم جملة من الهدايا ، وعُقدت بين الطرفين هدنة لمدة عشرين سنة ، واستمرت الهدنة لا يشوبها شائبة ، حتى إنها جددت عام 746هـ / 1345م ، إلا أنه بعد فتح (إسكودار) ظهر ما كانت تبطنه دولة الروم من عداوة للعثمانيين ؛ إذ كانت تنتهز الفرصة للإيقاع بهم ، فخالفت شروط المعاهدة بعد مضي عشر سنوات من توقيعها ، واتحد القيصر مع البنادقة الذين كانوا في أغلب الأوقات يهاجمون حدود الدولة العثمانية من جهة البحر ، لذلك أصدر السلطان (أورخان) أوامره بالاستعداد والزحف على أرض الروملي وعبروها وأدخلوا المناطق المحيطة بها في دائرة الإسلام ، واقتربوا من غاليبولي ، ومع تطور الفتوحات العثمانية ، قام الروم بالاتفاق مع أهالي المجر والصرب والبلغار والأفلاق والبغدان ، بالتصدي للعثمانيين ومحاربتهم ؛ وذلك لعدم درايتهم بحقيقة الإسلام والعثمانيين ، إلا أن الحلف انتهى لصالح العثمانيين .[4]

وفي حقيقة الأمر أن القرن 9هـ / 15م يعدُّ فترة خصبة جدًا في تكوين الأحلاف الصليبية الأوروبية العسكرية ضد الدولة العثمانية ، حيث كونت تحالفات صليبية متماسكة

---

[1] رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، د. ط ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، 1991م ، ص 56-57 .

[2] يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص 87 ، 88 .

[3] يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص 9 .

[4] إسماعيل سرهنك : مصدر سابق ، ص 18 ، 19 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 30-33 عبدالمنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 35 – 38 .

للقضاء على الحكم الإسلامي في أوروبا، والانقضاض على جزء عظيم من كيان الدولة العثمانية . [1]

وقد اجتمعت على الدولة العثمانية عدة جبهات عسكرية كثيرة العدد والعدة ظلت متربصة بالدولة العثمانية قرون طويلة برًا وبحرًا ، وعلى الأخص دولتا روسيا والنمسا اللتان استمرتا في حروب متقطعة لمدة قرن ونصف من الزمان بناء على اتفاق بينهما . [2]

وقد قام التحدي الأوروبي على مقومات ثلاث هي :

أولاً : امتداد العداء القديم المستحكم بين الإسلام الذي تمثله الدولة العثمانية ، والمسيحية التي تمثلها أوروبا ، واعتبار الصراع بين الطرفين جولة ، هي امتداد لما مضى من جولات .

ثانيًا : الرغبة القوية في استعادة المناطق التي فتحها المسلمون عمومًا ، والعثمانيون خصوصًا ، ويأتي في مقدمتها مركز الكنيسة الشرقية في القسطنطينية سابقًا وبيت المقدس .

ثالثًا : الحرص على تخليص المسيحيين في أنحاء العالم من الحكم الإسلامي ، وخاصة مسيحي أجزاء الولايات العثمانية ، والسعي لتحويل المسلمين إلى أكثرية مستضعفة .

وقد أدرك الغرب أنه لا يمكن تحقيق هذه الأهداف طالما أن هناك تشكيلاً سياسيًا وعسكريًا قويًا للدولة العثمانية ، إذًا لابد من إضعاف هذين التشكيلين بالقوة العسكرية والمعنوية في محاولة لتفكيك الدولة . [3]

إن ما يترجم أصداء الفتح العثماني في أوروبا بوضوح شديد التحالفات الصليبية المبكرة التي كونت ضد الدولة العثمانية ، ومن اللافت للنظر أن أغلب هذه التحالفات الصليبية كونت تحت رعاية ودعم الكنيسة ، وعلى رأسهم البابا الذي بارك جميع التحالفات .

ولا شك أن فكرة القضاء على العثمانيين ولدت منذ فترة مبكرة لم تكن الدولة العثمانية حينها مترامية الأطراف ، وقد ظهرت بوضوح وشراسة إلا أنها لم تتطور إلى حروب وأحلاف صليبية ، ولكنها ولدت كأفكار على ورق لم تخرج لحيز التنفيذ .

---

[1] سيد محمد السيد : مرجع سابق ، ص 46 .

[2] إبراهيم حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلمية " التحفة الحليمية " ط1 ، لبنان : مؤسسة الكتاب الثقافي ، 1408هـ/ 1988م ، ص9 .

[3] سيد محمد السيد : مرجع سابق ، ص 47 ، 48 .

ومنذ بداية القرن 8هـ/14م بدأت الأحلاف الصليبية ضد العثمانيين والمسلمين حيث قدم (مارينو سانوتو Marino Sanoto) – ينسب هذا الرجل إلى إحدى الأسر النبيلة في البندقية – مشروعاً للبابا (يوحنا الثاني والعشرين) في عام 721هـ/1321م، وقد تضمن المشروع توحيد الكنيستين الشرقية والغربية لمحاربة المسلمين . [1]

ثم تقدم الراهب (بروكارد Brocard) عام 733هـ / 1332م بتقرير إلى ملك فرنسا يشير عليه بحرب صليبية ضد العثمانيين ردًا على فتوحات السلطان (أورخان) ، وبذل في مشروعه الشرح الوافي للطرق وأهم السبل للوصول إلى الهدف المرجو، فنال استحسان الملك ، وعرضت عليه البندقية المساعدة ضد الأتراك ، ودخل في التحالف إمبراطور القسطنطينية وفرسان القديس يوحنا ، وأعلن البابا (يوحنا الثاني والعشرين) بدء الحملة ، ولكن لم تلبث أن قامت الحرب بين إنجلترا وفرنسا ، ثم تداعت بيزنطة أمام قوات العثمانيين ، وعقدت الصلات والمعاهدات بين جنوه والبندقية والدولة العثمانية ، وأصبحت العاصمة البيزنطية في خطر وانتصارات العثمانيين في ارتفاع . [2]

ثم واصل السلطان مراد الأول فتوحاتهِ حتى وصلت حدود دولتهِ إلى القسطنطينية ، فاضطرب ملوك أوروبا وأكثر من استشعر الخطر الإمبراطور البيزنطي (يوحنا باليولوغوس) الذي استصرخ البابا لنجدتهِ ، فاشترط الأخير أن يمثل الإمبراطور أمامه ليعلن الولاء والطاعة ، ويعلن أنه تخلى عن مذهبه الأرثوذكسي واعتنق المذهب الكاثوليكي . [3]

ويتضح أن الكنيسة لم تكن تساعد الملوك والأباطرة إلا إذا حققت شيئًا من رغباتها ، فكانت تستغل مساعدة إمبراطور بيزنطة مثلاً في مقابل أن تضم كنيسة الشرق أو تسيطر عليها وعلى خيراتها ، وهذا الموقف سيتكرر لاحقًا أثناء حصار السلطان محمد الثاني للقسطنطينية ، ثم إن البابا يحاول دائمًا أن يستغل الظروف ولا يكسب أمرًا واحدًا وإنما أكثر من ذلك ، والنهاية الخسارة التامة .

وكان البابا (أوربان الخامس) زعيم الصليبية المعادية للإسلام قد دعا إلى حلف صليبي في أعقاب سقوط أدرنة في يد المسلمين العثمانيين ، واستجاب لدعوتهِ ملوك أوروبا لإخراج العثمانيين من أدرنة ، لكن البابا لم ينتظر جواب الملوك واستعان بأمراء الصرب

---

[1] محمد العبده : مرجع سابق ، ص 37 .

[2] مرجع سابق ، ص45 – 47 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 36 .

[3] محمد العبده : مرجع سابق ، ص47 .

وملك البلغار ، حيث كوَّنوا جيشًا كبيرًا عام 765هـ / 1364م تقدموا به إلى أدرنة ، [1] ممنيين النفس بالانتصار على العثمانيين ، ومستفيدين من انشغال السلطان مراد الأول بمحاصرة (بيجا) بالقرب من بورصة بآسيا الصغرى.

وعندما وصل خبر تقدمهم للعثمانيين واجهوهم بقوة كبيرة ألقت الرعب في قلوبهم ، ووقعت مذبحة مروعة اضطرب على إثرها الجيش الصليبي المتحالف ولاذا بالفرار . كما غرق الأميران الصربيان في نهر مارتيزا ، ونجا ملك المجر بأعجوبة، لكن هذه المعركة تمخضت عن ضم باقي إقليم تراقيا ومقدونيا وصولاً إلى جنوب بلغاريا وشرق صربيا .[2]

أما ثاني هذه التحالفات القوية فالتحالف الصليبي الذي قاده لازار ملك الصرب عام 790هـ / 1387م ضد السلطان مراد الأول ، إذ أثارت فتوحات السلطان مراد الأول وتوغله في بلاد البلقان مخاوف لازر ملك الصرب ، فانتهز فرصة انشغال مراد الأول بالحروب في آسيا الصغرى ، وتزعم حلفًا صليبيًا من الأمم المسيحية في الجنوب الشرقي من أوروبا حيث تحالف الصرب مع البوسنة والألبان والمجريين والبلغار خاصة . [3]
قاد هذا الحلف لازار إلى هزيمة منكرة في معركة " قوصوه " أو "الطيور السوداء " عام 791هـ / 1389م ، ودفع الاثنان حياتهم ؛ الأول ثمنًا لهزيمته ، واستشهد السلطان مراد في أرض المعركة كما تمنى.[4]
ترتب على هذا الانتصار الإسلامي العظيم :

١) انتشار الإسلام في منطقة البلقان وزوال استقلال بلاد الصرب ، ودخول بلاد البلغار والروملي ورومانيا والمجر تحت الحكم العثماني .
٢) اضطرت كثير من الدول الأوروبية إلى خطب ود الدولة العثمانية ، فبادرت بدفع الجزية ، وأعلن البعض الآخر الولاء والطاعة للعثمانيين خشية قوتهم. [5]

---

[1] إبراهيم حليم : مصدر سابق ،ص 42 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 130. شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص62 ، 63 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 23 .

[2] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص130 . وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص39 ، 40

[3] عندما علم بانهزام رفيقه ملك البلغار قرر الميل بجيوشه جهة الغرب للانضمام إلى أمراء ألبانيا لمحاربة العثمانيين ، وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 42 .

[4] إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص43 .عبدالمنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 49-54. علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 103 – 107 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص24 .

[5] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 110 .

وباستشهاد السلطان مراد الأول تولى الحكم السلطان بايزيد الأول الـــملقب بالصاعقـــة [1] ، وقد سار على خطا والده حيث أسقط آخر ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى (لاشهر) ، وأرسل جيوشه إلى بلغاريا فاكتسحها وفتح إقليم (ولاشيا) عام 795هـــ / 1393م .

والواقع أن هذه الانتصارات العثمانية التي حققها السلطان بايزيد قد أفزعت أوروبا ، وخاصة ملك المجر (سيجسموند Segsemond) الذي تأهب للحرب واستصرخ فرنسا والبابا لمساعدته ، فدعا البابا (بونيفاس التاسع) إلى حرب مسيحية ضد المسلمين ، وأعلنت الحرب الصليبية على العثمانيين المسلمين ، ويعتبر هذا التحالف الصليبي من أكبر التحالفات الصليبية التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن 8 هـــ / 14 م ؛ إذ ضم مقاتلين من ألمانيا والمجر وفرنسا وإنجلترا وأسكتلندا وسويسرا ولوكسمبرج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الإيطالية ، لكن هذه الجموع المسيحية منيت بهزيمة نكراء في معركة (نيقوبولس) 798هـــ / 1395م ، وتفتت جموعهم وأصبحت أسلحتهم ومعداتهم غنيمة للجيش العثماني ، ووقع أغلب أمرائهم في الأسر ودفعوا الفدية لفك أسرهم، كما قتل البعض الآخر وكان الانتصار بسبب يقين العثمانيين بالله وإصرارهم على نشر الإسلام . [2]

ومع استمرار الإمبراطور البيزنطي في طلب نجدة أوروبا أعلن البابا (غريغوريوس الثاني عشر) الحرب الصليبية على المسلمين في عام 810هـــ/1407م إلا أنه فشل تمامًا. [3] وعلى الرغم من مرور الدولة العثمانية في تلك الفترة بكارثة أنقرة إلا أن الحملات الصليبية كانت تهتز أمام العثمانيين .

ومع تولي مراد الثاني الحكم واستتباب الأوضاع في أعقاب كارثة أنقرة على يد السلطان محمد الأول ، استهل الأول حكمه بإخضاع التمرد الذي قام به شعوب البلقان ، وأخضع إقليم ولاشيا وفرض الجزية عليه .

---

[1] لقب بايزيد " يلدرم " أي الصاعقة ، لحمله على أعدائه بطريقة سريعة وخاطفة . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 26 .

[2] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص52 ، 53 . شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 65 ، 66 . أميره مداح : مرجع سابق ، ص 26 / 27 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 141 – 144 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 113م ، 114 .

[3] محمد العبده : مرجع سابق ، ص47 .

في الوقت نفسه كانت صرخات إمبراطور القسطنيطينية إلى دوق بورغونيا (فليب لوبون) الذي جهز أسطولاً عاث نهبًا وقام بأعمال القرصنة ، إلا أنه لم يحقق نصرًا يذكر ، ثم وطد دعائم الحكم في بلاد اليونان ، ولكن عندما حاولت القوات العثمانية التوغل في إقليم ترانسلفانيا المجرية ، وجدت مقاومة عنيفة من حاكمها (حنا هنيادي Hanna Henadi) الذي كان كاثوليكيًا متعصبًا هدفه الوحيد في الحياة إخراج العثمانيين من البلقان وأوروبا ، وقد كون تحالفاً صليبيًا برعاية الكنيسة شمل المجر وبولندا ، والصرب ، وبلاد الأفلاق والبندقية والإمبراطورية البيزنطية ، وقد ترأس هذا التحالف البابا ، ودعا ملك أراغون ونابولي ، وهم أقوى الشخصيات الأوروبية في حوض البحر المتوسط آنذاك .

وقد درس (حنا هينادي) تكتيك الحرب العثماني بصورة جيدة ، وتمكن من هزيمة بضعة جيوش عثمانية سارت إليه ، فاضطر على إثرها السلطان مراد الثاني خلع نفسه وتولية ابنه محمد الثاني الحكم للتصدي لهذه المهمة الصعبة ، لكن ما لبث أن اقتربت الجيوش المتحالفة من أدرنة ، فعاد السلطان مراد الثاني مرة أخرى للحكم وقاد الجيش بنفسهِ ليحقق الانتصار على (حنا هينادي) مرتين الأولى 848هـ/1444م ، والثانية 852هـ / 1448م، وبذلك تصدى السلطان مراد الثاني لهذا التحالف بعد عناء . [1]

إن أصداء الفتوحات العثمانية في أوروبا استمرت بقوة أكبر في القرون التالية ، حيث إنه أثناء استعداد السلطان محمد الثاني فتح القسطنطينية وتحويلها إلى إستانبول أي مدينة الإسلام ، بدأ في العمل على تحديد مواقف الدول المجاورة من تحركاته السياسية والعسكرية في شرق أوروبا ، ولذلك نجده يبدأ في عقد الهدنة مع القوى المجاورة مثل القائد (حنا هينادي) المجري ، ومع صاحب صربيا ، أمير ولاشيا ، حتى يضمن عدم تحرك تلك الفئات ضده في وقت من الأوقات ، ثم اتجه بعد ذلك إلى عقد معاهدة مع حاكم البندقية وأمراء الأفلاق والبوسنة ، بالإضافة إلى أنه عقد معاهدة مع فرسان القديس يوحنا في رودوس ، وغيرها من الدول المجاورة له ، وحتى البعيدة . [2]

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 159 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 29 ، 30 .عبدالمنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 92 ، 93 . يوسف الثقفي : مرجع سابق، ص 28 ، 29 محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 78 ، 79 .

[2] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 150 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 89 . محمد العبده : مرجع سابق ، ص49 لمزيد من لتفاصيل حول هذه المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح ومع غيره من حكام الدول الأوروبية حينذاك ، انظر أكمل الدين إحسان أوغلي :مرجع سابق ، ج 1 ، ص 25–75 . أميرة مداح :مرجع سابق ،ص35. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص71 .

وعلى الرغم من عقد هذه المعاهدات والتحالفات إلا أن هذا لم يمنع هذه الدول والبابا من محاولة إعادة تكوين حلف صليبي جديد ؛ لأنه في أثناء حصار القسطنطينية من قبل السلطان محمد الثاني " الفاتح " أرسل الإمبراطور مئات الرسائل والمبعوثين إلى الملوك والأمراء في أوروبا ؛ يدعوهم لشن حرب وحملة صليبية جديدة على العثمانيين لصد هجومهم على القسطنطينية ، لكن فكرته لم تلق نجاحًا كبيرًا في تلك الفترة ؛ لأن فكرة الحروب الصليبية كانت قد ضعفت تمامًا في أوروبا . وعلى الرغم من ذلك فقد أرسلت البندقية له مساعدات بحرية ، واشترك عدد كبير من الجنود المسيحيين من مختلف دول أوروبا في جيش لإنقاذ القسطنطينية ، وعندما طلب معونة عاجلة من بابا روما لإنقاذ القسطنطينية اشترط البابا (نيقولا الخامس) لمساعدة الإمبراطور البيزنطي خضوع الكنيسة الشرقية لسلطته هو ، وقد وافق قسطنطين على ذلك مرغمًا على الرغم من أن رئيس حكومته كان معارضًا للكاثوليكية ومشمئزًا من ضم الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية معاً ؛ لأن البيزنطيين كانوا لا يزالون يتذكرون الأعمال الوحشية التي قام بها اللاتين عندما احتلوا القسطنطينية عام 601هـ / 1204م ، ومع ذلك فقد أرسلت الكنيسة موجات المتطوعين إلى القسطنطينية بناء على طلب إمبراطورها ، لكن الأمر لم يأت بنتيجة لأن القسطنطينية سقطت فعلاً في يد العثمانيين المسلمين وفتحت على يد الفاتح محمد الثاني في 20 جمادى الأولى 857هـ / 29 مايو 1453م . [1]

إن سقوط القسطنطينية 857هـ / 1453م أحدث دويًا هائلاً على مستوى الأوساط السياسية والدينية الثقافية ، فمن ناحية البلاد الإسلامية زفت البشرى إلى جميع المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي ، فأرسل إلى صاحب مصر ، والحجاز وبلاد فارس والهند والذين عادوا ، وأرسلوا له مراسلات يهنئونه بالفتح العظيم، ومن هذه المراسلات يستطيع القارئ أن يلمس صدق العاطفة الإسلامية وحب الجهاد في سبيل الله عند العثمانيين . [2]

أما أصداء سقوط القسطنطينية على أوروبا ، فقد كان النبأ كوقع الصاعقة على رؤوس ملوكهم وأوقعهم في حيرة واندهاش شديدين ، فانحصرت ردود أفعالهم في البداية على العاطفة والحماسة الدينية ، إذ طفق المستشرقون ومؤرخوهم على التقليل من شأن

---

[1] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص35 . محمد حرب : مرجع سابق ، ص 71 . يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص33 .

[2] محمد بن أحمد بن أياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور : تحقيق : محمد مصطفى ، ج2 ، د. ط ، مصر : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، د. ت ، ص316 . ولمراجعة نصوص الرسائل الرجوع إلى . سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص ص 141 – 156 .

العثمانيين ، بزعم أن استيلاءهم على المدينة لم يتم بسبب قوتهم وشجاعتهم بل بسبب كثرتهم العددية ، وتمادوا في غيِّهم حتى إنهم رددوا أن العثمانيين ما كان لهم أن يدخلوا القسطنطينية لولا أن حامية إحدى الأبواب نسيت أن تغلق الباب فانتهز العثمانيون الفرصة ودخلوا من ذلك الباب .[1]

أيعقل أن تكون مدينة محاصرة من الأعداء وتنسى الحامية أن تغلق الباب؟! إن هذه ترهات لا ينخدع بها القارئ العادي .

إن أكثر مؤرخي الغرب وخاصة مؤرخي اليونان أوهموا الغرب والأهالي بصورة مغايرة للحقيقة إذ وصفوا الحكم العثماني بالخشونة والقسوة والجبروت ، ونسبوا له أفعالاً لم يرتكبها ، [2] وهذا يدل دلالة واضحة على زيادة حركة الاستشراق ونشاطه ضد الفاتح .

وقد حرصت كتابات المستشرقين على تضخيم أمر الخلافات المذهبية بين الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية ، والكنيسة الكاثوليكية البابوية ، فروجوا لفكرة أنه لو انضمت الكنيستين وأغلقت صفحة هذه الخلافات لما تمكن العثمانيون من اقتحام المدينة مطلقًا . [3]

إن هذا الأمر مخالفة للواقع لأن الإمبراطور البيزنطي قد وافق على اتحاد الكنيستين ، لكن الأمر لم يتم نتيجة لتمسك البابا برغبات محددة لم يقبل التنازل عنها ، إضافة إلى أن الخلافات امتدت لمئات السنين وليس في زمن الفاتح فقط . ومع هذا لا نستطيع أن ننكر أن الكثرة العددية والخلافات المذهبية من العوامل المساعدة ، والعامل الأول هو الإيمان بالله وقوة الجهاد الإسلامي .

وبعد فتح القسطنطينية تفتحت للسلطان محمد الفاتح جبهات لمزيد من الفتوحات والجهاد ، حيث فتح أكثر مناطق البوسنة عام 858هـ / 1454م ، وأعلن أحد أمراء الصرب (برنكوافيتش Branco Vetch) الخضوع للسلطان العثماني ، ثم قصد بلاد المورة وطلب من شقيقي الإمبراطور (دمتريوس وتوماس قسطنطين Demetrios Tomas Qustantine) أن يكونوا تابعين له ويلتزموا بدفع الجزية السنوية (1200) من الذهب فقبلوا ذلك . [4]

---

[1] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ط1 ، الأردن : دار الفرقان ، 1403هـ / 1983م ، ص102 .

[2] إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص46 ، 47 . شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص87 .

[3] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص102 .

[4] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 97- 99 .

كما عقد معاهدة تحالف مع البنادقة وفك أسراهم مقابل فدية رمزية ، ومنحهم امتيازات تجارية في الموانئ العثمانية ، وتعهد بحماية البنادقة أينما وجدوا داخل حدود الدولة العثمانية ، في مقابل دفع مبلغ مالي سنويًا مقداره مئتا ألف دوقية ذهبية ، وحماية الرعايا العثمانيين . [1]

وقد قبل أمراء الأفلاق والبغدان السيادة العثمانية بعد أن تأكدوا من عدم تعرض الدولة العثمانية لشعائرهم الدينية . [2]

وحتى أثناء الفتوحات – السابقة الذكر– التي لم يثبت فيها أي تخريب أو تعدي على المقدسات المسيحية ، استمرت ردود الفعل والأصداء على الفتح العثماني للقسطنطينية ، فبدأت تنبري الأقلام لتصوير الفتح بعكس ما كان في الحقيقة ، فهذا راهب دير (أجاراثوس Agarathos) سجل الفتح " بأنه أسوأ مما حدث ولن يحدث مثله". [3]

ويعتبر (جورج فرانتزتش George Phrantzes) صديق الإمبراطور قسطنطين وأمينه وصاحب مشورته ، [4] وأبرز من كتب عن فتح القسطنطينية وما أعقبه من أحداث ، ونفث في كتاباته كل سمومهِ وأحقاد المغلوب المهزوم، ونسج الأكاذيب خاصة حول السلطان محمد الفاتح . [5]

وكان للبنادقة دور مهم في التأليف عن فتح القسطنطينية وتشويهه ، إذ استولى الرعب على جمهوريتهم ، وبعثوا برسالة إلى البابا (نيقولا الخامس) ، طالبوا فيها باتحاد البابوية مع الدول المسيحية ضد العثمانيين ، ووصفوا أن القتل والنهب في المدينة لم يرحم أحدًا ، وأنه تم ذبح كل سكانها ابتداءً من ست سنين وما فوق.[6]

والأحداث التي جرت بعد ذلك توضح كذب ادعاءاتهم ؛ حيث بقي أهل المدينة فيها ومارسوا حياتهم اليومية صبيحة يوم الفتح بمنتهى السكينة والطمأنينة .

---

[1] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص108 .

[2] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص165 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 97.

[3] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص148 .

[4] أسر هو وأهلهِ بعد الفتح ثم خرج من القسطنطينية بعد إطلاق سراحهِ ، وعاش في بلاد المورة ثم إيطاليا ، واستقر به الحال في جزيرة كورفو حيث ترهب وشرع في كتابة تاريخه عن الدولة البيزنطية في سنة 1258م إلى 1476م وخصص منه عدة أقسام عن فتح القسطنطينية . سالم الرلشيدي : مرجع سابق ، ص 8 .

[5] سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص8 .

[6] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص148 .

ومن أشهر البنادقة الذين كتبوا عن حصار القسطنطينية (نيكولو باربارو Nicolo Barbaro) [1] وقد كان شديد العداء للعثمانيين بسبب قضائهم على المركز التجاري للبندقية، وقد ترجم كرهه وحقده على العثمانيين في كتابتهِ خاصة على السلطان الفاتح .[2]

وتناول الكاردينال (إسيدور Isidore) حادثة فتح القسطنطينية بكتابات مشوهة، حيث تواجد داخلها أثناء الحصار ، وهو المبعوث من البابا لمناقشة مسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وقد كان أول ما فعله بعد خروجه من القسطنطينية ووصوله إلى إيطاليا أن استنفر الدول النصرانية إلى حرب العثمانيين. [3]

هذا فضلاً عن الفارين الذين طفقوا ينشرون خبر سقوط القسطنطينية مرددين الأخبار الواهية والأكاذيب دون الانتظار لمعرفة ما ستسفر عنه الأحداث.[4]

وقد كتب عن هذا الحدث المهم طائفة من المؤرخين النصارى عاصروا الحدث لكنهم لم يكونوا على مقربة منه ، فلم يشهدوا القتال أو الصراع والحصار ، واعتمدوا على قصص الفارين أو المقهورين والأسرى ، وبالتالي جاءت كتاباتهم مطبوعة بنزعة الانتقام والحقد الصليبي . [5]

ومن أبرز الكتب التي أذاع فيها المستشرقون أفكارهم عمومًا عن الحكم العثماني ، كتاب " معاناة المسيحيين المحكومين والمستعبدين من قبل الأتراك " لـــلمؤلف الكرواتي (بارثولوميو جوفيتش Parthlomio Jovetch) عام 951هــ/ 1544م الذي أثار حملات ضد العثمانيين لما احتواه من تشويه وكذب وافتراء .[6]

هذا على صعيد التأريخ للحدث وإظهاره بشكل مشوه ومغاير للحقيقة ، أما على صعيد الأحلاف الصليبية والحملات المعادية للعثمانيين والإسلام فهي كثيرة تكاد لا تحصى ، وأول هذه الأحلاف على مستوى النصارى تلك المؤامرات والحركات التي تزعمتها إمارة

---

[1] هو نبيل بندقي كان بالقسطنطينية أثناء حصارها وكتب يوميات خاصة عن حوادث الحصار والقتال . سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص8 .

[2] سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص8 .

[3] مرجع سابق ، ص8-9 .

[4] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص149 .

[5] سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص9 .

[6] محمد العبده : مرجع سابق ، ص13 .

طرابـــزون . [1] وإمبراطورها يوحنا الذي أخذ في حياكة المؤامرات والدسائس ضد السلطان محمد الفاتح ؛ في محاولة منه لوقف زحف المسلمين على مناطق حكمهِ ، لكن أسقط في يده بعد اكتشافهِ تفوق المسلمين العثمانيين عليه ، واضطر أن يكون تابعًا للسلطان محمد الفاتح ويدفع له الجزية السنوية ويطلق ما في يده من أسرى ، واستمر يوحنا يعد العدة ويرسم الخطط للقضاء على الفاتح حتى باغته الموت فجأة وقضى عليه قبل أن يشهد شيئًا مما أعده ودبر له . [2]

هذا من ناحية آسيا فقط ، أما في أثناء ذلك فكانت دعوة البابا (نيقولا الخامس) قد نشطت تمامًا ضد الدولة العثمانية ، وكان من أشد الذين تأثروا بنبأ سقوط القسطنطينية وفزع بشدة ؛ بسبب تحول ملايين من سكان جنوب شرق أوروبا للإسلام ، فعمل بكل جهده في تزعم حملة دعائية نشطه لدعوة نصارى الغرب من حكام أوروبا والإمارات الإيطالية إلى نبذ خلافاتهم ، وتوجيه كافة طاقاتهم لمواجهة العدو المشترك ، وتكوين حلف صليبي وتشجيعه على قتال المسلمين ، وفي سبيل ذلك ترأس مؤتمرًا عقد في روما ، أعلن فيه قتال العثمانيين. وقد شارك الأدباء والشعراء في بذل الجهود المضنية لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين ، وسار المستشرقون من بعدهم على نفس الخطى ، وقد تحمس لهذا الحلف الأمير فليب الطيب دوق بورجونديا وألتهب حماسًا وحمية ، واستنفر ملوك النصارى في شتى أنحاء أوروبا إلى قتال المسلمين الذين يمثلهم العثمانيين وقوتهم العسكرية ، والذي زار إمبراطور ألمانيا (فردريك الثالث) قي تجاوبًا كبيرًا في المساهمة في أي حملة صليبية ضد العثمانيين ، وحذا حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم ، وقد قدم الأمير فليب كافة الدعم اللازم لقيادة حملة دعائية ضد العثمانيين ، لكن السلطان محمد الفاتح كان بالمرصاد لكل تحركات النصارى سواء في أوروبا أم في داخل إستانبول وما حولها ، وقد خطط ونفذ ما رآه مناسبًا لتقوية دولتهِ وتدمير أعدائه ، واضطر النصارى الذين يجاورون السلطان أن يكتموا شعورهم الحقيقي ، لكن سرعان ما بدأت تخبوا آثار هذا

---

[1] طرابزون : إمارة رومية نصرانية تقع في شمال شرق آسيا الصغرى وتطل على البحر الأسود ، حظيت هذه البلدة بموقع حسن وثروة طبيعية مما جعلها هدفًا للغزاة ، وعلى إثر سقوط القسطنطينية في يد الصليبيين عام 601هـــ ، 1204م فر كثير من أمراء الروم إلى آسيا الصغرى واستقر بها (داودكومينين) وأسس دولة صغيرة في طرابزون أطلق عليها إمبراطورية طرابزون ، حاول مراد الثاني فتحها عام 846هـــ / 1442م لكن أسوارها ردته ومنعته . سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص215 .

[2] سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص216 – 217 .

الحماس والحملات الدعائية إثر وفاة البابا (نيقولا الخامس) في 859هـ / 1455م بعد معاناة طويلة مع المرض من جراء صدمة سقوط القسطنطينية التي تسببت في همهِ وحزنهِ.[1]

تولى البابوية بعده البابا (بيوس الثاني) وأراد أن يكمل ما بدأه البابا (نيقولا الخامس) فحاول أن يذكي نار الحقد الصليبي مرة ثانية ضد العثمانيين ، بكل ما لديه من مقدرة خطابية ، وحنكة سياسية ؛ لتأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى داخل شعوب وملوك أوروبا قادة وجندًا ، لكن الحماس في الدول الأوروبية كان قد خف وضعف ولم يستجب له سوى دوق بورغوينا – السابق الذكر – الذي بدأ في تجهيز حملة لكنه فشل في إرسال مقاتلين ، وكذلك ملك المجر – الكاثوليكي – (لاديسلاس الخامس Ladeslass VI) الذي أعد جيشاً كبيرًا بقيادة القائد المجري (هونيادي) ، ليكون في طليعة الدول النصرانية التي ستقاتل الدولة العثمانية، وقام بإغراء ملك الصرب (برانكوفيتش) الذي كان يتحين الفرصة للانتقام من العثمانيين ، أما باقي الدول فقد أعتذرت بسبب متاعبها الداخلية ، ومشاكلها وحروبها الأهلية ومذاهبها ، فمثلاً بريطانيا منهكة من مشاكلها مع الدستور ، والأسبان منشغلين بالقضاء على مسلمين الأندلس ، والجمهوريات الإيطالية تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية الاقتصادية مكرهة ؛ وحبًا في المال وحفاظاً على سيادتها التجارية، وفي النهاية فشل هذا الحلف عام 859هـ / 1455م بسبب تصدي الفاتح له ، وحالت نزاعات ملوك أوروبا دون تحقيق هدفه.[2]

وعندما أدرك البابا (بيوس الثاني) فشل دعايته وحملاته الصليبية ركز جهوده في محاولة إقناع الأتراك العثمانيين باعتناق الدين النصراني ، وفي إطار هذه المحاولة أرسل خطابًا إلى السلطان العثماني يطلب منه أن يعضد النصرانية كما عضد قبله قسطنطين و وعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو اعتنق النصرانية [3] مخلصاً ووعده بمنحه بركته واحتضانه ، ومنحه صكًا بدخول الجنة، ولما فشل البابا – بالتأكيد – في خطته تلك لجأ إلى التهديد والوعيد واستعمال القوة إن اضطر إلى ذلك ، وقد فشلت هذه الخطة أيضًا.[4]

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص189 . خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص 116 ، 117 . زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص108 ، 109 . محمد محمود الحويري : مرجع سابق ، ص157 .

[2] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص190 ، 191 . زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص110 . محمد العبده : مرجع سابق ، ص49 .

[3] وقد أرسل كذلك بعده البابا سيلفويوس يطلب الطلب نفسه إلا أنه فشل. محمد العبده : مرجع سابق ، ص34 .

[4] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 110 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص192 .

طبيعي أن لا تجد هذه الرسالة أي صدى في نفس الفاتح ؛ إذ إنه عرض ساذج مضحك ، غير مجدٍ مع شخصية مثل الفاتح التي تعد مثلاً يحتذى به في الدولة الإسلامية ، وانتهى هذا المشروع بوفاة البابا .

ثم واجه الفاتح بعد ذلك حلفًا صليبيًا جديدًا مكونًا من ملك نابولي وحاكم ألبانيا (إسكندر بك) مع البندقية التي سعت لدعم بابا روما ؛ لاستعادة ما أخذه منها العثمانيون من أملاك ونقاط اقتصادية ، لكن هذا الحلف فشل وانتصر العثمانيون ، واضطر البنادقة إلى عقد معاهدة صلح مع السلطان محمد الفاتح تنازلوا فيها عن مزيد من الأماكن المهمة التابعة لهم ، وتبعه انتصار جديد للعثمانيين على فرسان القديس يوحنا في رودس وكل هذه الانتصارات في عام واحد ، [1] مما أدى إلى إذكاء روح العداء ضد الدولة العثمانية .

بدأ الجيش العثماني بقيادة السلطان محمد الفاتح في الاستعداد لحصار بلغراد عام 860هـ / 1456م ، وما إن انتشر الخبر في أوروبا حتى ثارت حملة صليبية جديدة ودعاية لشن الهجوم على العثمانيين المسلمين ، وطفق الراهب المجري (جيوفاني دي كابسترانو) يجوب أسبانيا وفرنسا وألمانيا والمجر يلهب الحماس ضد العثمانيين بخطاب بليغة ، ويدعو لشن حملة صليبية ضدهم وتزامن ذلك مع هوى البابا (كالكستس الثالث) الذي أعلن منذ لحظة إعتلائهِ كرسي البابوية أنه سيبذل قصارى جهده في إعلان الحرب على العثمانيين ، فبدأ البابا في مشروعهِ لتكوين حلف صليبي ضد العثمانيين ، وأرسل الرسل إلى أنحاء أوروبا وحتى أمراء الشرق ، مثل إمبراطور طرابزون وأوزون حسن ، وقد استقبلوا بحفاوة باللغة من المدن الأوروبية التي زاروها ، واختار البابا كالكستس لقيادة هذه الحملة القائد المجري (هونيادي) يعاونه الراهب (كابسترانو) وكثير من رجال الدين الذين قاموا بحملة صليبية على حدود الدولة العثمانية ، لكن السلطان محمد الفاتح تصدى لهم ، وتقدم لحصار بلغراد إلا أن جماعة الراهب أبدوا مقاومة عنيفة للحصار وقام القائد (حنا هونيادي) بمهاجمة الأسطول العثماني أثناء الحصار ، واستطاع أن يتلف جزءًا منه ، فاضطر الفاتح إلى رفع الحصار بعد إنزاله هزيمة ساحقة بهم ، وتوفي على إثرها القائد المجري (حنا هونيادي). [2]

---

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 87 . شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 90 ، زياد أبو غنيمه : السلطان محمد الفاتح ، ص 114 .

[2] إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية ، 47. محمد سهيل طقوش: مرجع سابق ، ص 98 – 113.محمد محمود الحويري : مرجع سابق ، ص 157 – 161 . سليمان الرشيدي : مرجع سابق ، ص 218 ، 219 . محمد العبده : مرجع سابق ، ص50 .

وأثناء هذه الأحداث توفى البابا (كالكستس الثالث) وجاء بعده البابا (بى الثاني) الذي فاق سلفه في الحماس إلى قتال الأتراك ، فعضد الحلف وقدم له المساعدة وجعل مهمتهُ الأولى نشر النصرانية ، وقد كان رجلاً واسع المعرفة ذا خبرة وإطلاع ، تدرج في كثير من الوظائف الدينية ، وآلمه بشده فشل الحملات الصليبية، وكان يدرك مدى تسامح السلطان محمد الفاتح فرأى أن يدعوه للنصرانية كسابقه وطبعًا هذه الخطوة لم تأت بنتيجة مطلقًا ففشلت . [1]

وما كاد السلطان محمد الفاتح ينهي فتح البوسنة 867هـ / 1463م حتى تنامت إليه الأنباء بأن البندقية والمجر قد تحالفتا لقتالهِ ، وأن البابا (بى الثاني) كان له الدور الفعال في هذا التحالف حيث دعا إلى حرب مقدسة ضد العثمانيين بالخطب البليغة والمنشورات الحماسية، ولم يكن الفاتح غافلاً عما يدبره البابا ، فأرسل إلى (إسكندر بك) أمير الأرناؤوط يذكره بالعهد والميثاق المعقود بينهم لكن الأخير سخر منه ولم يكترث ، فاعتمد على نفسهِ لمواجهة هذا الخطر الصليبي الجديد ، وخرج البابا (بى الثاني) بنفسهِ لقيادة الحملة لأول مرة في تاريخ البابوية والنصرانية ، لكن في الطريق واجه عدة مشاكل وعراقيل ، آخرها وفاة البابا (بى الثاني) 868هـ / 1464م الذي انتهت حياته دون أن يستطيع حتى مواجهة الفاتح ، وبعد وفاته ضاعت الآمال وفشلت الحملة ، وتملك النصارى اليأس من نجاح إعداد حملة صليبية أخرى . [2]

أسفرت حملة السلطان محمد الفاتح على ثغور النصارى عام 875هـ/ 1471م إلى وقوع خسائر فادحة مما زاد من مخاوف نصارى أوروبا من الخطر العثماني ، فبعثت الروح الصليبية مجددًا ، وبدأ البابا (بول الثاني) يستحث دول أوروبا لتشكيل حلف صليبي جديد ، فاستجابت له البندقية بثرائها الضخم ، وزعماء نابولي والأراغون ، وفلورسنا وسيتي لوكوس، وزعماء دوقيات ميلانو ، ولم يكتف البابا بذلك بل حاول استغلال الخلاف بين المماليك في مصر والعثمانيين، بالإضافة إلى محاولة استمالة حسن الطويل حاكم إقليم آك كوينلو وعاصمته سيواس ، أما المماليك فقد خشوا من هذا التحالف في أن يثير استياء المسلمين ضدهم ، فيزداد انخفاض شعبيتهم ، ويتطور الأمر إلى تفاقم شعور النقمة ضدهم فيثور الأهالي مما يغري العثمانيين بدخول مصر والشام .

---

[1] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص 139 . سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص 228 ، 229 .

[2] سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص ص229 – 235 .

أما حسن الطويل فقد استطاع البنادقة استمالتهِ مستغلين طموحاته الشخصية وخيانتهِ لأبناء دينه ، معتمدًا على بعض المنافقين المسلمين لإضفاء الشرعية على تصرفاته ، وهكذا واجهت الدولة العثمانية خطرًا حقيقيًا بهذا التحالف ، فبدأ السلطان محمد الفاتح في اتخاذ الإجراءات السريعة لصد هذا الخطر ، فأمر بتحصين المراكز الدفاعية في إستانبول وحشد الأسطول في خليج (جناقلعة) تحسبًا لأي هجوم ، وأخذت الاستعدادات العسكرية تحتشد من كلا الطرفين ، والتقى الجيشان في مكان يقال له كيرالي بقرب بحيرة بيشهر في الأناضول عام 877هـ / 1472م ، وأسفرت المعركة عن انتصار العثمانيين ، وهزم حسن الطويل في معركة لاحقة ، وبهذا اهتزت أوروبا غضبًا عندما علمت أنها فشلت في تكوين جبهة نصرانية إسلامية ضد العثمانيين . [1] لدرجة أن قائد الأسطول البندقي (الأميرال بيترو موسينيفو Petro Mosenefo) صبَّ جام غضبهِ على مدن أنطاليا وأزمير وميدللي ، وخاصة أزمير حيث هدم مساجدها وأحرقها، ولم تسلم الكنائس من التخريب وأعمال القتل والسلب والنهب وانتهاك الأعراض ضد المسلمين ، [2] وفي نهاية المطاف تولى كرسي البابوية (سيكست الرابع) الذي واصل جهود سلفه في تأليف جبهة صليبية ضد العثمانيين لكن جهوده باءت بالفشل نتيجة لعدم قدرتهِ على استئصال الخلاف بين ملوك أوروبا وحكامها . [3]

ومن خلال العرض السابق تتضح الجهود التي بذلتها الكنيسة والبابوية للقضاء على الدولة العثمانية ، وهذا بسبب فتوحات السلطان محمد الفاتح ونشر الإسلام ، فقد تركز في عهده كثير من الأحلاف انتهت كلها بفشلها ، ولم تستطع قوة البابوية أن تقف أمام المد الإسلامي ، وطبيعي جدًا أن تتجه البابوية وحليفاتها إلى التشويه والافتراء واصطناع مستشرقين للنيل من أعدائهم .

وقد فشل آخر حلف صليبي في عهد السلطان بايزيد الثاني الذي سعى لتحقيقه جِمْ أخو السلطان ، ودخل مع أخيه في صراع على الحكم ، حيث توجَّه إلى رودس وحاول أن

---

[1] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص ص 153 – 166 . سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص258 – 260 .

[2] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص168 . نقلاً عن إسماعيل حامي دنشمند . سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص273 .

[3] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص168 .

يتحالف مع ملوك أوروبا وأمرائها ليوجه حملة صليبية ضد أخيه ، لكن جهوده باءت بالفشل في رودس مع فرسان القديس يوحنا ، وانتهى الأمر بوفاته . [1]

وحتى السلطان سليم الأول الذي تركزت في عهده حركة الضم العثماني على بلاد المشرق الإسلامي ، لم يسلم من مؤامرة البابوية والكنيسة ؛ حيث قام البابا (ليون العاشر Leon) بمحاولة تجميع ملوك أوروبا على كلمة واحدة لمحاربة الأتراك ، حيث كتب إلى ملك إنجلترا وإمبراطور روما وملك بولونيا وملك فرنسا وملك المجر ، ودعاهم لحملة صليبية ، وانتدب عليها (لويس الثاني عشر) ملك فرنسا لقيادة الحملة حتى إن البابا راسل ملك البرتغال ، وقام البابا بالاستعداد التام لهذه الحملة ، إلا أن إمبراطور روما (مكسيميليان) مات 925هـ/ 1519م ، وانتهت هذه الحملة قبل أن تبدأ . [2]

أما في عهد السلطان سليمان القانوني فقد قامت عدة مشاريع لمحاربة العثمانيين واسترداد القسطنطينية ، فهناك مشروع (كوسبينانوس Cospenanos) الألماني عام 948هـ / 1541م الذي وضع أفضل خطة للهجوم على القسطنطينية ، وأورد الأدلة لنجاح الهجوم ، وفي عام 949هـ/ 1542م وجه (كوسبينانوس) شخص اسمه (جيورجنيتز Jror gnetz) إلى أرشيدوق النمسا (مكسيميليان Maxmilian) يدعوه إلى الاشتراك في هذه الحملة الصليبية التي لم يكتب لها الخروج لحيز التنفيذ .[3]

ونتيجة لسياسة الدولة العثمانية الإسلامية واتباعها للشرائع بدأت الشعوب الأوروبية الدخول في الإسلام أفواجًا ، رغم أن تلك الشعوب وقفت في بداية الأمر ضدَّ الدولة العثمانية ، خاصة البلقان التي تشمل (يوغوسلافيا ورومانيا واليونان وألبانيا والصرب والجبل الأسود) وقد ارتبطت بعض شعوب البلقان مثل ألبانيا بالعاصمة إستانبول – على الرغم من البعد الجغرافي – إذ دخل شعبها في الإسلام وترقوا في وظائف الدولة الإدارية والعسكرية وظهر منهم قادة ومجاهدون وولاة، ولا يزال الإسلام حيًا في كثير من المدن البلقانية ، حتى بعد الهجمات الشرسة الصليبية لهدم الخلافة العثمانية والقضاء على الإسلام فيها ، وليست مسألة البوسنة والهرسك إلا امتداد للصراع الذي كان بين الدولة العثمانية والدول المسيحية في تلك

---

[1] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 39 . أحمد عبدالرحيم مصطفى مرجع سابق ، ص 102 علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 268 . محمد العبده : مرجع سابق ، ص53 – 54 .

[2] محمد العبده : مرجع سابق ، ص 54-59 .

[3] مرجع سابق ، ص 62 – 64 .

المنطقة ، واستغلال الدول الصليبية عدم وجود قوة كبرى تحمي هذه المناطق الإسلامية ، كما كانت تحميهم الدولة العثمانية. [1]

كان الأوربيون ينظرون إلى الدولة العثمانية وسلاطينها على أنهم أعادوا الصراع الإسلامي المسيحي الصليبي إلى الأذهان ، بعد أن توقفت سطور التاريخ السياسي والديني عن الكتابة فيه وسرد أحداثه فترة طويلة من الزمن .

وقد أفاقت حكومات وشعوب دول أوروبا التي خضعت للدولة العثمانية لتجد نفسها تخضع لأول مرة في تاريخها لحاكم مسلم ، بعد أن كانت هي التي تغزو ديار المسلمين ، ومن ثمَّ عملت جاهدة على تصفية هذا الوجود الإسلامي من أراضيها ، وساعدتها دول أوروبية أخرى جمع بينهما وحدة الهدف ، وهو الانتصار للمسيحية والقضاء على الإسلام ودعم حركة الاستعمار بتوزيع ممتلكات الدولة العثمانية ، ولولا اهتمام الدولة العثمانية بنشر الإسلام لما أخذت هذه المواقف كل هذه الحدة . [2]

هذه نظرة أوروبا ، لكن في المقابل كانت الدولة العثمانية تتعامل مع هذه الشعوب بحنكة سياسية ، ومثال على ذلك أن الجزية ومجموع الضرائب التي فرضها العثمانيون على رعاياهم المسيحيين أقل بكثير من التزاماتهم تجاه الإقطاعيين في بعض فترات الحكم البيزنطي، ومَنَحَ العثمانيون العمال والمزارعين المسيحيين حرية شخصية ، وإمكانية التمتع بنتائج عملهم على غير ما كانوا عليه في ظل الإقطاع البيزنطي ؛ حرصًا على تدعيم النواحي الاقتصادية بشكل عام .

وحينما فتح العثمانيون امتيازات موسعة للمسلمين الذين ينخرطون في سلك الجيش من ناحية الرواتب والعطايا ، أو في مرافق الدولة لم يتقيدوا بالجنسية التي ينتمي إليها المسلم، مما أدى إلى تشجيع كثير من العناصر المسيحية على اعتناق الإسلام . [3]

---

[1] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 46 ، لمزيد من المعلومات عن المسلمين في هذه المناطق البلقانية الرجوع محمد حرب : العثمانيين في التاريخ والحضارة ، ص 204 – 208 .

[2] مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 59 . يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص 8 ، 9 .

[3] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق . ص48 . أماني جعفر الغازي : دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية ، ط 1 ، مصر : دار القاهرة ، 2007م ، ص80 ، 81 . جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، ج 8 ، 1326هـ ، 1909م ، ص 461 .

وقد سلك العثمانيون سبلاً كثيرة لإغراء المسيحيين في الدخول في الإسلام :

١) الاحتفال بمن يعلن إسلامه ، وإمداده بكل السبل التي تعينه على الحياة الدينية الجديدة ، ونشر ذلك في المساجد مع تبسيط أداء الشعائر الدينية حتى يتسنى للمسلم الجديد أداءها بسهولة ويسر .

٢) سلكوا سياسة اللين في معاملة الأسرى من المسيحيين ، وخير دليل على ذلك معاملة السلطان محمد الفاتح للأسرى في القسطنطينية ، حيث كانوا يعتقونهم إذا ما ثبت إخلاصهم حتى لو ظلوا على دينهم ، ويتولون رعايتهم وبخاصة كبار السن منهم بعد العتق ، سواء أكان مسلمًا أم لا ، مما كان له الأثر البالغ في نشر الإسلام ، كما أن السلطان أعطاهم الأمان لحظة أن وطأت قدماه أرض إستانبول ، ولم يثبت أن قام جندي واحد بالقتل أو النهب. [1]

٣) حاول الكثير من الذين أعلنوا إسلامهم سحب ذويهم للإسلام ، مما دفع بعض الكتاب المسيحيين لأن يعدوهم مثالاً وقدوة سيئة دفعت عددًا كبيرًا لتغيير ديانتهم ، ومساعدة الدولة العثمانية بذلك .

٤) وحينما أقبل كثيرون من الأتراك على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن فيها ، مما دفع ببعضهن إلى اتباع دين أزواجهن ، أما اللاتي بقين على المسيحية ، وقمن بتعميد أبنائهن في الكنيسة فلم يلاقين في الغالب أية معارضة من الأزواج العثمانيين مما خلق روحًا من الود البعيد عن التعصب ، الأمر الذي أثار إعجاب بعضهم فتشجعوا على الدخول في الإسلام .

٥) وأخيرًا أسهم الصراع المذهبي بين الطوائف المسيحية والمذابح التي أدت إلى تصفيتهم، أسهم في دفع جموع غفيرة منهم لاعتناق الإسلام.[2]

فإذا عدنا بذاكرة التاريخ إلى الوراء قليلاً ، فسنجد أنه بمجرد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية البيزنطية عام 315م ، دمرت العصابات المسيحية الكثير من المعابد الوثنية وقتلوا الكهنة الوثنيين ، وتمت مذابح كثيرة بعد ذلك حتى القرن 6 م.

---

[1] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، مرجع سابق ، ص75 ، 76 .

[2] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 48 ، 49 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 179 . خلف الوذيناني ص14، محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 74 ، 75 .

أما بعد القرن 6م فقد اختلف الوضع وأصبحت تقام المذابح ضد من يرفض أن يعتنق المسيحية ، لدرجة أن من يعجز من الفلاحين منهم عن دفع الضرائب الباهظة يكون نصيبه الذبح ، ولم يسلم أحد سواء أكانوا رجالاً أم نساء أم أطفالاً . وكانت تتم هذه المذابح بناءً على أوامر الكنيسة . [1]

وقد استمر هذا الأمر حتى عهد شارلمان في القرن 2هـ / 8م إذ قام بمذابح مروعة ضد (الأفار) وهم شعب رعوي تركي ، بالإضافة لمذابح عنيفة ضد (السكسون) إحدى قبائل الجرمان ، في محاولة منه لنشر المسيحية بينهم.[2]

ونتيجة لفشل هذه التحالفات الصليبية العسكرية ضد الدولة العثمانية فقد صرفوا النظر عن المواجهة العسكرية ، واتجهوا بتفكيرهم إلى مواجهتها فكريًا ومحاولة تشويه تاريخها وحضارتها الإسلامية ، حيث ظهر هذا الحقد بوضوح في هذا الأمر ، وعملوا على إلصاق التهم والافتراءات والخزعبلات بها ، وإحاطتها بالأساطير . [3]

وقد جرب الاستشراق جميع الطرق التي قد تساعده في إبعاد المسلمين عن دينهم ، مثل إثارة القضايا والنعرة العصبية ، أو بث الشبهات في كثير من الموضوعات الحساسة ، وعمل المستشرقون على نشر الأفكار المعارضة للإسلام، وفي مرحلة لاحقة كانوا مصدرًا موجهًا للسياسة الغربية ، والمتخصص الجاهز لخدمة الاستعمار.[4]

إنَّ كل نصر حققه العثمانيون هو في نظر أوروبا نصر إسلامي ، لذلك فإن التحالفات الأوروبية والتكتلات جاءت كلها ضد الإسلام في صورة الدولة العثمانية، ويتضح ذلك بجلاء عندما طلب ملوك أوروبا من البابا (أوربانوس الخامس) دعوة المسيحيين لإعداد حملة ضد العثمانيين في إطار حروب أوروبا المقدسة ضد الدولة العثمانية لوقف زحفها الإسلامي إلى وسط أوروبا . [5]

ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العسكرية الرائعة التي أحرزها العثمانيون ، أضفت عليهم هالة من المجد في أرجاء العالم الإسلامي كله، ونظر المسلمون للسلطان

---

[1] word press . 19 march 2009 , http : // islame ofy . Wordpress.com .

[2] سهام بيومي : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، ص 7 .

[3] محمد عبدالفتاح العليان : مرجع سابق ، ص 19 .

[4] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 137 .

[5] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 5 .

العثماني على أنه الأمل المرتجى في إعادة المجد للإسلام والمسلمين . في هذا الوقت المبكر لم تكن فكرة القومية قد تكونت بعد ، وكان الإسلام هو الرابط بين الولايات العثمانية .

وكانت النتيجة حركة استرداد مسيحية شرسة على نطاق واسع ، قضت على الإسلام تمامًا وأرجعتها مسيحية لحمًا ودمًا ، ولم يبق للإسلام فيها أثر إلا القليل جدًا .

ونأتي لموقف السلطان عبدالحميد الثاني الذي واجه تاريخه وسيرته موجه من الحقد والتشويه أكثر من أي سلطان آخر ، فالحملة الهجومية على الدولة العثمانية ، جزء من خطة التغريب والغزو الفكري ، وما زالوا يطلقون على الحكم العثماني الاستعمار العثماني أو التركي ، بينما لم تكن كلمة استعمار قد وجدت في تلك المرحلة من التاريخ .

وقد أثار المستشرقون بعض الشبهات على الدولة العثمانية ؛ لإذكاء روح العداء ، بدعوة أن هذا الحكم العثماني – في نظرهم – أدخل البلاد في عزلة وضعف وتخلف فترة طويلة ، غافلين عن أن الدولة العثمانية هي التي حمت البلاد العربية والإسلامية من الغزوات الأوروبية المسيحية والاستعمار الأجنبي لمدة طويلة .

إن موقف السلطان عبدالحميد الثاني من الصهيونية هو العامل القريب الذي دفعهم إلى تلك المحاولات ، حيث وقف شامخًا وصامدًا أمام مؤامرات الغرب والدول المسيحية للسيطرة على بيت المقدس ، بالرغم من الإغراءات التي قدموها له لمعالجة مشاكله المادية . (1)

وحينما رفض السلطان عبدالحميد رغم احتياجه للمال هذه العروض تألبوا عليه، وخططت المحافل الماسونية وحزب الاتحاد والترقي لإسقاط حكمه ، وقد حبكت خيوط تلك المؤامرة بعد وقت طويل ، وبدأوا في صب سمومهم في كل الأنحاء.

ولما اكتشفت هذه الحقائق اليوم اعترف المجتمع المسلم للدولة العثمانية بذلك الدور التاريخي. ولا أدل على أصداء الفتوحات العثمانية إلا نشاط الإرساليات التنصيرية وخاصة إرساليات الولايات المتحدة الأمريكية ، ودورها في إشعال الفتن الطائفية سواء المسيحية أو اليهودية التي كانت توزع على الكنائس والمدارس المسيحية في زي رجل الدين المسيحي ،

---

(1) السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبدالحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ط4 ، دار القلم : دمشق ، 1419هـ / 1998م ، ص28-31 .

ولكن في حقيقة الأمر كانوا يخططون لتنفيذ أغراضهم السياسية والاستعمارية عن طريق عملاء يأتون في زي سياح أو تجار .[1]

ومن أهم الأهداف التي حققتها البعثات التنصيرية العمل على تغذية الفكرة القومية في البلاد العربية ، حيث بثت هذه الأفكار من المدارس التابعة للدول الاستعمارية المنتشرة خاصة في بلاد الشام ، إذ أصبحت هذه المدارس المنبع والمحرك الأول للحركة القومية العربية في الدولة العثمانية ، فهي التي حرضت على انفصال العرب عن الدولة العثمانية، ويظهر هذا الأمر بوضوح في عهد السلطان عبدالحميد الثاني ؛ إذ أمر بإغلاق المدارس الأجنبية حين اكتشف أنهم يثيرون الفتن ضد الدولة ، ويتجسسون لحساب دولهم ، وأمر بإغلاق الصحف التي تعمل على بث هذه الأفكار . [2]

وبالتأكيد فسرت هذه الأعمال على أنها حكم عبدالحميد الاستبدادي، ورغبته في السيطرة والحكم المركزي ، وما إلى ذلك من تشويه وافتراء ، ولم يتوقف المؤرخ لسؤال نفسه عن سبب هذه الأعمال !

أما عن تدبير الدول المسيحية واليهود للمذابح فحدث ولا حرج ، فقد كانوا سببًا في تدبير إنجلترا لمذبحة الإسكندرية والفتنة الطائفية ؛ حتى تجد ذريعة للتدخل العسكري ، وقد وجد قتلى مسيحيين في لباس المسلمين ، يعني أنهم يتنكرون في زي المسلمين فيقتلون المسيحيين ، وذلك لإثارة المسيحية على المسلمين . [3]

وما يصقل المعلومة السابقة ما أورده السلطان عبدالحميد الثاني بشأن الفتنة التي أشعلتها الدول المسيحية لتستقل أرمينيا عن الدولة العثمانية ، فقد ذكر أن الأرمن كانوا يلبسون زي الأتراك ويقتلون الأرمن المسالمين ابتغاء الفتنة بين المسلمين والأرمن ؛ ليطلبوا تدخل الدول المسيحية لإنقاذ الأرمن ، كما أنشأ الأرمن جمعيات هدفها ارتكاب المذابح بين المسلمين والأرمن بهدف إثارة الرأي العام في أوروبا . [4]

---

[1] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 82 . ربيع عبدالرؤوف الزواوي : الدولة التي ظلمها التاريخ ، ط1 ، قطر : دار الثقافة ، 1425هـ / 2004م ، ص194 . محمود حسن منسي ، مرجع سابق ، ص86 .

[2] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية ، ج 1 ، ط1 ، دمشق : دار العلم ، 1423هـ/ 2002م محمد حرب : مذكرات السلطان عبدالحميد ، ص 115 . محمود حسن منسي : مرجع سابق ، ص 87 ، 88 .

[3] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص23

[4] محمد حرب : مذكرات السلطان عبدالحميد ، ص 126 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 472 .

وحقيقة قضية الأرمن ، تتمثل في نجاح مساعي اليهود في إفساد العلاقة بين الدولة العثمانية والأقليات النصرانية ، فقد سعت طائفة اليهود في الإيقاع ما بين العثمانيين والأرمن ؛ وذلك لتسهيل دخولهم مجال السيطرة والنفوذ على الاقتصاد ، واعتمد اليهود والماسون على الدس المتواصل بينهم ، وإظهار الأرمن أمام الحكومة العثمانية بمظهر المتآمرين على سلامة الدولة العثمانية مع أوروبا ، بينما في الوقت ذاته أوحوا إلى الأرمن بأن السلطات التركية تريد الفتك بهم في أول فرصة ، وسهلوا لهم الاتصال بدول أوروبا لضمان حمايتهم ، ولما كان من طبعهم التجسس ، فقد كانوا ينقلون كل تحركات واتصالات الأرمن للدولة العثمانية، مما وسع هوة الخلاف بينهم ، ووقعت أحداث مؤسفة بينهم ، استغلتها الصحافة الأوروبية أبشع استغلال للتشهير بالدولة العثمانية وتحريض الأقليات عليها ، فبدأت شقة الخلاف تتوسع بين العثمانيين والأرمن يومًا بعد يوم . [1]

وجاءت معركة نوارين البحرية ترجمة واضحة على غدر الدول الأوروبية بالدولة العثمانية ، حيث حدث تحالف بين نصارى الدولة العثمانية وبين روسيا وإنجلترا وفرنسا ، وذلك لمساعدتهم ضدها ، فعندما رفض إبراهيم باشا بن محمد علي والي مصر إنذار الدول الغربية بشأن سحب أسطوله وجنوده دخلت قوات هذه الدول البحرية نوارين 1243هـ/1827م وأغرقت السفن الحربية العثمانية ، وفي هذا وصمة عار على جبين الحضارة الأوروبية ، وذلك لأن الأساطيل الغربية دخلت مرفأ نوارين دون أن ترفع أعلام الحرب ، فباغتت الأسطول العثماني المصري وغدرت به . [2]

إن كتابات مؤرخي الغرب تعطينا انطباعًا واضحًا عن وجهة النظر السائدة عن أعداء الإسلام ، ومدى ما يكنونه من بغض للإسلام والمسلمين ، وقد حفظت السجلات التاريخية لنا

---

[1] أحمد عبد الله الزغيبي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 618 – 619 . لمزيد من المعلومات عن فتنة الأرمن الرجوع إلى : فرج عبد الباري أبو عطاالله : الاختراق اليهودي في المجتمعات الإسلامية نشأته وتطوره ، ط 1 ، القاهرة ، 1412هـ / 1992م . ص216 – 219 .

[2] هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية – نموذج الإمام سليمان حلمي ، مصر : دار الآفاق العربية ، ط 1 ، 1418هـ / 1998م ، ص 166 . وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 231 .

شواهد كثيرة من كلام رجال الغرب ومشروعاتهم الداعية إلى استخدام كافة الوسائل لمقاومة الوجود الإسلامي في أوروبا . [1]

وأبرز هذه المشروعات في عام 1202هـ / 1788م قدَّم (دوبريون ولاتور Dobrion Lator) مشروعًا سماه " اقتسام جلد الدُب " وهو يهدف إلى تقسيم أملاك وأراضي الدولة العثمانية في أوروبا. وفي عام 1293هـ / 1876م نشر (جلادستون Gladstone) وزير المستعمرات البريطاني كتابًا بعنوان "الأحوال البلغارية والمسألة الشرقية " ولأنه متعصب يمقت الإسلام والمسلمين فقد حث في كتابه الأوروبيين على طرد المسلمين من أوروبا وبالأخص من البوسنة والهرسك ، وقام مدفوعًا بشعوره الديني المتعصب ضد المسلمين بجولات في المدن الإنجليزية وألقى فيها الخطب الحماسية ، مستغلاً بلاغته وقدرته الخطابية ، وهاجم المسلمين في كل مكان ، وكان يرى أن يعقد مؤتمرًا لتصفية الوجود الإسلامي والعثماني في أوروبا ، وأفاض في ذكر مذابح البلغاريين وادّعى أن المسلمين ظلموهم ، ونسي المذابح التي تعرض لها المسلمون في كل مكان في بلغاريا نفسها وغيرها، ولم يذكر أن البلغاريين هم الذين أخذوا زمام المبادرة بذبح المسلمين ، وكان المسلمون يدافعون عن أنفسهم عندما أصابوهم البلغاريين ، ومع الأسف كان لحملات (جلادستون Gladstone) أثرها السلبي والسيِّئ على المسلمين ؛ حيث ساد الاعتقاد في أوروبا بأن المسلمين هم الذين فتكوا بالبلغاريين ، مما أدى إلى إثارة الرأي العام وإحداث البلبة ساعد على ذلك مناداته بين الحين والآخر بضرورة إبادة المسلمين والعثمانيين وطردهم من أوروبا كافة.[2]

---

[1] يقول المنصر (ستيفان نيل) في كتابه " تاريخ الإرساليات المسيحية: " إن الصليبيين يعتقدون أن سحقهم – أي سحق المسلمين– أمر ضروري وخلقي أيضًا ، أما من يسمح له بالحياة منهم فإلى عبودية دائمة ، وحيث انهم – يقصد المسلمين – كفار ، فليس لهم الحق في الوجود ، فلا عهد معهم ، وينبغي أن يذبحوا بلا رحمة ، أو شفقة ؛ تمجيدًا لإله المسلمين "

في عام 900هـ / 1494م قال (كارلين الثامن) ملك فرنسا ما يلي :

" قد أخذنا على أنفسنا أن لا نضن بنفسنا ولا بشيء من وسائلنا في دفع الطواغيت الأتراك والاستيلاء على الأرض المقدسة وغيرها من الممالك التي انتزعوها من أيدي المسيحيين " .

دعا أحد أدباء الغرب ويدعى (إيرازم) إلى طرد العثمانيين من كل الأراضي الأوروبية وقال : " إن المسيحي لا يمكنه أن يعيش إن لم يصرع الترك ، ولا تهولنكم عظمة السلطنة العثمانية ، فإن السلطنة الرومانية والفتوحات الإسكندرية ، كانت أيضًا بمنتهى العظمة " .

ولمزيد من هذه المشاريع انظر : يوسف الثقفي : موقف أوروبا ، ص 99 – 101 .

[2] يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص 101 . جميل المصري : مرجع سابق ، ص 620 . محمد العبده : التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ، ط1 ، الرياض ، 1416هـ / 1995م ، ص 150 .

وفي واقع الأمر لم يكن هذا المشروع الوحيد لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية ، فقد ثبت من الوثائق المحفوظة في دور الوثائق العثمانية عبر أوروبا أن هناك ما لا يقل عن مئة مشروع لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية وتفتيت جميع أجزاءها تتخلل هذه المشاريع الروح الصليبية ، وقد تمت برعاية الكنيسة ومباركة البابا ، وبعض هذه المشاريع كانت من شخصيات عادية تمتلك القوة والبلاغة الخطابية ، أما البعض الآخر فكانت من البابوات مباشرة . [1]

والحقيقة أنَّ كل هذه الشواهد لا تدع مجالاً للشك بأن أعداء الإسلام منذ زمن طويل وهم يخططون ويعملون ما استطاعوا من أجل الحيلولة دون قيام كيان إسلامي مستقل في القارة الأوروبية ؛ إذ لا يروق لأعداء الإسلام أن يشاهدوا آلاف المساجد والمدارس الإسلامية تنتشر في الأراضي الأوروبية ، ويتم تطبيق القوانين الإسلامية فيها ، وتنتشر دعوة التوحيد في قرى ومدن البلقان . وليس من السهل عليهم أيضًا أن يشاهدوا حوالي ثلاثة آلاف مسجد ، تنتشر في البلقان ، منها 1092مسجدًا في مدينة سراييفوا وحدها .

ولهذا وقفت الدول الغربية ، تلك المواقف السلبية من تقدم الدولة العثمانية في أوروبا ، ثم إنها سعت حثيثًا لإضعافها وتمزيقها واقتسام أملاكها فيما بينهم .

إن ذاكرة التاريخ لا تنسى أبدًا المذابح التي ارتكبتها الحملة الصليبية الأولى؛ إذ كانت مذابحهم من البشاعة بحيث شملت كل الفئات والأعمار ، ولم يسلم منهم المسيحيون أصحاب المذاهب الأخرى ؛ فقد ارتكبوا في دالماشيا الفظائع ضد السلاف من تنكيل لهذه القبائل وتشويه أسراهم ببتر أطرافهم وجدع أنوفهم ، إضافة إلى إنزالهم الخراب والدمار بهنغاريا ، فضلاً عن اتباعهم السلوك الوحشي نفسه في إنطاكيا ومعمرة النعمان . [2]

أما عن المجزرة الوحشية التي اقترفها الصليبيون عند دخولهم أنطاكيا 490هـ / 1097م إبان الحروب الصليبية ، فغنية عن التعريف ؛ فما حدث فيها من أسر وسبي للمسلمين ونسائهم وأطفالهم لا يدركه الحصر ، فقد ارتعب الأهالي من مجرد وصول أخبار طلائع الصليبيين، أما ما حدث بعد ذلك فيعجز القلم عن وصفه ، إذ حدثت مذبحة رهيبة راح ضحيتها أعداد كبيرة من النساء والرجال ولم يرحم حتى الأطفال.[1]

---

[1] لمزيد من المعلومات انظر محمد العبده : مرجع سابق ، ص150

[2] سهام عبدالعظيم بيومي : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، مرجع سابق ، ص8 .

[1] الموسوعة الحرة ، معركة ساحة الدم ، 2008/12/9م ، htt : // ar . wikpedia. Org.

وكان من نتائج أصداء فتح العثمانيين لكثير من البلاد الأوروبية كثرة المذابح وبشاعتها ، فمثلاً نجد أن القائد المجري (هونيادي) بعد أن هزم جيشاً من جيوش العثمانيين المسلمين في زمن السلطان مراد الثاني ، قام بقتل جميع الأسرى المسلمين وكان عددهم يربو على عشرين ألفًا ، ويتلذذ أثناء تناوله لوجبات طعامه بمشاهدة جلاديه وهم يقطعون رؤوس الأسرى المسلمين ، ويأمر بتجميع الرؤوس على شكل أكوام حتى تصبح أهدافًا له ولحاشيته للتسلية .[2]

وقد عانى مسلمو الأندلس من التعذيب والاضطهاد نتيجة أصداء الفتح العثماني ، فقد مارست محاكم التفتيش عليهم صنوف العذاب إذ ساقت المسلمين مكبلين بالحديد للموت ، ثم تخيرهم بين النصرانية أو الموت ، حتى لم يبق أي مسلم واحد ينطق بالشهادة ، وبلغت بهم الوحشية والحقد إلى محو مقابر المسلمين، من على وجه الأرض، هذا فضلاً عن حركات التهجير الإجبارية وطردهم إلى بلاد المغرب العربي ، وقد اتبع نصارى أسبانيا كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمي الأندلس وتحويلهم للمسيحية ، فلجأوا إلى العنف وحرَّموا على المسلمين التحدث بالعربية ، والاتصال بالمسلمين في الشمال الإفريقي ، ومنعوا النساء من الخروج إلى الشوارع متحجبات ، وحطموا الحمامات ، ومنعوهم من إقامة احتفالاتهم الدينية .[3]

ثم إن طبيعة شعوب أوروبا الوحشية المتمردة لم تقتصر على الشعوب الإسلامية بل تعدتها إلى كل المذاهب المخالفة لهم ، إذ عدّوا مسيحيي الشرق هراطقة فنهبوا كنائسهم وأملاكهم ، ومنعوا النصارى من الحج إلى بيت المقدس ، وهم أنفسهم الذين دعا البابا (أوربان الثاني) من أجلهم الحركة الصليبية للدفاع عنهم ، وهذا الموقف تكرر مع البيزنطيين، فعند مرور الحملة الصليبية بالقسطنطينية قاموا بأعمال همجية ولصوصية، فهدموا القصور وأشعلوا النيران في الكنائس بعد نهبها . وبهذا ساعدت الكنيسة على خلق جو عدائي صليبي ضد المسلمين .[1]

كان ذلك قطرة من غيث من الفظائع التي ارتكبها المسيحيين في بلاد الإسلام . ولم تكن الأحداث والتصرفات السيئة التي ارتكبها الإيطاليون أقل مما فعله غيرهم من الدول

---

[2] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص 90 ، 91 .

[3] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 408 . عبداللطيف بن محمد الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ط1 ، الرياض : العبيكان ، 1414هـ / 1993م ، ص 42 .

[1] سهام بيومي : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، ص 13 .

الأوروبية والمسيحية بل فاقت المجلدات ، إذ ارتكب جنود إيطاليا الكثير من الموبقات طوال عشرين سنة في طرابلس أثناء الاحتلال الإيطالي لليبيا إبان القرن 12هـ / 20م ، ومن ضمن هذه الفظائع إخراج ثمانين ألف عربي من الجبل الأخضر من أوطانهم وإسكانهم في صحراء قاحلة ، مات أغلبهم ، وجمعوا أطفالهم ما بين 4 سنوات و 15 سنة وحملوهم إلى إيطاليا لينشأوا تنشئة مسيحية . [2]

من العرض السابق يتضح أن الدول الأوروبية ارتكبت الكثير من الفظائع والمجازر ، ولا زالت ترتكب هذه الأعمال الوحشية إلى يومنا الحالي بوسائل غير مشروعة لإبادة الشعوب المسلمة ، فأين كتَّابهم ومؤرخوهم من هذه الأحداث ، لماذا لا يتناولونها ويتشدقون بها في كل محفل ؟! فهي على الأقل صحيحة ، وليست افتراءات وأكاذيب يبثونها ثم يصدقونها . لكن مهما يكن من أمر فإن التاريخ لا ينسى أحدًا أبدًا .

فلا يحق لهم إذن الكتابة عن أمورٍ هم أصلاً ارتكبوها على مر تاريخهم ففاقد الشيء لا يعطيه .

ثم إنهم استخدموا كافة الأساليب للانتقام من الإسلام والدولة العثمانية ، فلما لم تأت معهم الحملات بنتيجة مثمرة اتجهوا للكتابة عن التاريخ الإسلامي والدولة العثمانية ، فأذاعوا عدة حملات تشويهية وتشهيرية بالدولة العثمانية ، وقاموا بعدة رحلات لبلاد الدولة العثمانية ، وسجلوا ملاحظاتهم بدقة ، وكتبوا عيوب الشعوب الإسلامية و ضخموها ، وتحسسوا علاقة هذه الشعوب بالدولة العثمانية سواء أكانت علاقة مودة أم بغض تجاه مركز الخلافة، كما أنشأوا علاقات مع زعماء القبائل والحكام المحليين، وبدأوا في الضغط على مسألة الخلافة الإسلامية وكيف أنها بدأت في العرب وانتهت في يد الأتراك ، وغيرها من الأمور التي تؤدي إلى انفصال العرب عن الترك ؛ وذلك لتفتيت الخلافة العثمانية الإسلامية والقضاء على الوحدة الإسلامية ليسهل احتلالهم ، [1] وخير مثال على ذلك تلويحهم بمنصب الخلافة الإسلامية للشريف حسين بالحجاز .

إن التمويل المستمر لحركة الاستشراق هو الباعث على استمرارية هذه الحركة منذ ماضيها وحتى حاضرها . ولا زالت حركة الاستشراق مستمرة إلى يومنا هذا ، وأبرز

---

[2] مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص 76 ، 77 .

[1] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 117 .

صورها التدخل الدائم بصورة أو بأخرى في سياسة الحكومات الإسلامية ، والعمل على قتل روح الدعوة الإسلامية داخل البلدان الإسلامية والعربية ، أما على المستوى الخارجي فيكون في تدخل القوى الاستعمارية ، كما حدث في الأمس القريب وما زالت هذه السياسة متبعة حتى اليوم .[2] ثم إن الاهتمام بالدراسات الاستشراقية في الغرب وتمويلها ماديًا ومعنويًا ، جعلها في حالة حركة دائمة ومستمرة .

والحقيقة أن الغرب عندما لجأ إلى الاستعمار وقهر الشعوب الإسلامية ، كان للأخذ بالثأر ، وما لحق بهم أيام الحروب الصليبية ، ولم يكتفوا بالقوة وكثرة السلاح ، بل ذهبوا إلى استخدام الفكر والدراسات المكثفة عن الإسلام ، والتي عكف المستشرقون عليها منذ أن وجهت الكنيسة نداءها لدراسة الشرق الإسلامي ، إن من أهداف المستشرقين العمل على الوقوف في وجه الشعوب التي لا تدين بالإسلام ، ليمنعوهم من الدخول في دين الله ، مع العمل على تشويه صورة الإسلام الحقيقية ، لزعزعة ثقة المسلمين بدينهم ، واعتمد المستشرقون في ذلك على استغلال الكراهية والتعصب الموجود بين الغربيين وأتباعهم منذ الحروب الصليبية ، كما عملوا على رد المسلمين عن الإسلام ، وإجبارهم على الكفر وقبول النصرانية أو اليهودية دينًا أمثل وأفضل من دين الإسلام ، وهذا ما يشهد به معظم المستشرقين أنفسهم .[3]

إن المستشرقين هم من أبناء اليهود والنصارى ، أو ممن يحقدون على الإسلام ، لذا فهم يعملون على تشويه صورته ، وزعزعة أفكار المسلمين وإشعارهم بالنقص أمام اليهودية والنصرانية .

ودأب المستشرقون على تشويه صورة الفتح العثماني في أوروبا ، وصبوا أفكارهم وسمومهم في دائرة المعارف الإسلامية ، ولكن بشكل مستتر ، ومغلف بروح البحث العلمي،[*] وهذا ما سيتضح من خلال عرض مادة الدولة العثمانية في الفصول القادمة .

أما عن سياسة التسامح الديني التي سار عليها العثمانيون فإن الصفحات التالية ستعالج هذه القضية .

---

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 142 ، 143 .

[3] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص 37 ، 38 .

[*] وصل تأثيرهم على تشويه العثمانيين في اللغات الأوروبية فمثلاً كلمة تركي في اللغة الهولندية تعني غبي . محمد العبده : مرجع سابق ، ص 14 .

المبحث الرابع :

أثر التسامح الديني للمسلمين في نمو حركة الاستشراق :

ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التي تأمر المسلمين بمعاملة أهل الكتاب معاملة احترام لديانتهم ، وهو ما يتضح من خلال بعض تلك الآيات التي تحث المسلمين على معاملة أهل الذمة معاملة تسامح وأخاء وحب ، وهي الدعامة الأساسية التي جعلت حكام وسلاطين الدولة العثمانية منذ تأسيس دولتهم يتخذون من هذه الآيات والقرآن الكريم منهاجًا لهم في تعاملهم مع أصحاب الديانات الأخرى .

فقد بيّن المولى ﷻ كيفية التعامل مع أهل الذمة معاملة الرحمة والعدل بقوله تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1].

وورد أيضاً في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ [2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [3]

كما يأمر القرآن الكريم المسلمين بالكف عن مجادلة أهل الذمة إلا بالتي هي أحسن ، ومعاملتهم المعاملة الكريمة ، ويتمثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [4]

ويأتي أمر الله ﷻ بدعوة المسلمين إلى الاستقامة ، وأن يحكموا بالعدل بينهم وبين أهل الكتاب [5]، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا

---

[1] سورة الممتحنة آية : 8 .

[2] سورة آل عمران آية :75 .

[3] سورة آل عمران آية :113-114 .

[4] سورة العنكبوت آية : 46.

أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (1).

بل ويحث الله المسلمين أيضًا على الصبر عليهم ، ومعاملتهم بالحسنى كما في قوله تعالى ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ (2).

ويحث القرآن الكريم المسلمين للوصول إلى أقصى درجات التسامح مع أهل الكتاب ، ويظهر هذا أيضاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (3).

كما يحل القرآن الكريم للمسلمين طعام أهل الذمة ، من الذبائح ، ويتضح ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ (4).

ولقد أثبت التاريخ الإسلامي ذلك الاضطهاد الذي واجه اليهود في الأندلس، وما تعرضوا له من حرق صحف التوراة أكثر من مرة ، في الوقت الذي كان فيه نبينا الكريم يأمر المسلمين بتسليم اليهود صحائفهم في غزوة خيبر .

ومما يدل أيضاً على تسامح الدين الإسلامي مع أهل الذمة أنه سمح لزوجة المسلم سواء أكانت يهودية أم نصرانية أن تذهب إلى الكنسية ، ولا يحق لزوجها أن يمنعها من ذلك.(5)

وقد أجمع جمهور العلماء على أن قتل المسلم للذمي يعد من الكبائر ، ويظهر ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها

---

(5) أهل الكتاب : اليهود والنصارى . أهل الذمة : هم المعاهدون من اليهود والنصارى وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام ويقرون على كفرهم بشرط بذل الجزية والالتزام بأحكام الإسلام . وعليه فلا تلازم بين أهل الذمة وأهل الكتاب فقد يكون ذمياً غير كتابي وقد يكون كتابي غير ذمي وهم من كان في غير دار الإسلام من اليهود والنصارى .

الموسوعة الفقهية : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ط2 ، الكويت : دار السلاسل ، 1427هـ ، ج7 ، ص141 .

(1) سورة الشورى آية : 15.

(2) سورة المزمل آية : 10.

(3) سورة الجاثية آية :14.

(4) سورة المائدة آية : 5 .

(5) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1 ، ط1 ، دمشق : دار القلم ، 1423هـ / 2002م ، ص152 .

ليوجد من مسيرة أربعين عامًا " . [6] وقد اتخذت الدولة العثمانية من هذه الآيات والأحاديث منهاجًا لها ، وحرمت قتل الذمي ، وعدت دمه كدم المسلم وديته مثل دية المسلم .[7]

فالإسلام أقر لأهل الذمة التمتع بالحرية في ظل مجتمع من التسامح والإخاء والعدل والمساواة ، فلهم حق حماية أعراضهم ودمائهم ، وعدم إكراههم على اعتناق الإسلام ، والسماح لهم بممارسة شعائرهم في كنائسهم ومعابدهم ، ولم يثبت في التاريخ الإسلامي كله أن قام المسلمون بهدم كنيسة أو معبد يهودي أو دير نصراني ، بل إن ما نراه من أعداد هائلة من هذه الكنائس والمعابد لأكبر دليل على ذلك التسامح .

وقد رأينا من خلال عرضنا للعديد من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أن الأمر واضح من حيث حث المسلمين على معاملة أهل الكتاب – من يهود ونصارى – المعاملة الحسنة التي كفلت لهم جميع الحقوق الإنسانية ، من حقوق دينية أو مدنية أو حتى سياسية ، ويحكم الإسلام على المسلم أن تقطع يده إذا سرق مال الذمي ؛ لأنه مال محرم . [1]

وقد خاض الكثير من الباحثين في مسألة التسامح الديني، وخاصة فيما يتعلق بصحة ذلك التسامح الذي تعامل به العثمانيون مع غير المسلمين في الدولة ، وإن الأساس في هذه القضية الذي اعتمد عليه العثمانيون في ذلك النهج الذي ساروا عليه هو العقد الشرعي الذي أقره الشرع والسنة النبوية المطهرة ، حتى إذا حدثت بعض المضايقات التي تعرضت لها بعض الطوائف الذمية من حين لآخر ، فإن هذا لا ينفي قاعدة التسامح الديني الذي تعاملت به الدولة العثمانية مع رعاياها غير المسلمين الذين يتمتعون بالحماية والرعاية الكاملة من حكامها [2].

وهناك لبس خطير في مادة الذمة في دائرة المعارف الإسلامية حيث عرَّف (ماكدونالد) الذمة بأنها : " العهد الذي يعطى للمسلمين الذين دخلوا في الإسلام حديثاً بعد الفتح الإسلامي لبلادهم." [3] وهذا خطأ لأن الذمة في حقيقتها العهد الذي يعطى لأهالي البلاد

---

[6] أخرجه البخاري ، رقم (3166) ، وابن ماجة رقم (2686) .

[7] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1، ص152 .

[1] هدى درويش : مرجع سابق ، ج1 ، ص 153 ، انظر على سبيل المثال ، ما فعله اليهود تحت ستار أنهم مسلمون في الدولة العثمانية ، محمد عمر : يهود الدونمة ، مؤسسة الدراسات التاريخية ، 1984م.

[2] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ج 1، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، ط1 ، استانبول ، 2000م ، ص 343 .

[3] ماكدونالد : الذمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج1 ، ص390 .

المفتوحة حديثًا ولم يدخلوا في الإسلام ، حيث يطلق عليهم أهل الذمة ، مما يضمن لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وحرية الحياة بالنسبة لهم.

فضلاً عن ذلك فإن مادة الذمة جاءت مختصرة ركيكة جدًا ومفككة ، ولم تعطِ أي نسبة عن صورة التسامح الديني التي تمتع بها أهل الذمة في ظل الإسلام.

وقد اعترفت أقلام المستشرقين بسياسة التسامح الديني التي سار عليها السلاطين العثمانيون ، وبالرغم من ذلك فهناك العديد من المستشرقين الأوروبيين الذين ذكروا – عَرَضًا ضمن كتاباتهم – مدى التزام السلاطين العثمانيين بسياسة التسامح الديني ، لكنهم كالعادة أدخلوا فيها بعضاً من التشويه ؛ لأنهم لم يستطيعوا ذكر الحقيقية كاملة قط .

وعلى سبيل المثال (السير توماس أرنولد Sir Th . Arnold) الذي قال في حق العثمانيين كلامًا يعد شهادة في التسامح الديني والإسلامي الذي تعامل به العثمانيون مع غيرهم من الملل والطوائف المسيحية داخل أراضيهم بعد فتح القسطنطينية ، وهي من الأقوال المنصفة للمسيحيين الذين تعايشوا داخل المجتمع العثماني ، حيث يقول : " إن المعاملة التي أظهرها العثمانيون للرعايا المسيحيين –على الأقل بعد غزو بلاد اليونان بقرنين – لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفًا في سائر أوروبا ، وإن أصحاب calvin في المجر ترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد Unitarians من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا ، لطالما آثروا الخضوع للعثمانيين على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورغ المتعصبة، ونظر البروتستانت إلى العثمانيين بعيون الرغبة ، وتمنوا بسرور أن ينشدوا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي" . [1]

كتب (جين بودن Jean Bodin) في كتابه [2]، مبديًا إعجابه واحترامه الشديد بالتسامح الديني الذي كان أحد الشعارات الأساسية للدولة العثمانية ، حيث كتب في وصف التسامح الديني الذي نهجه السلطان العثماني : "إن ملك(سلطان) العثمانيين الذي يحكم جانبًا كبيرًا من أوربا يحمي شعائر الأديان بطريقة أفضل من أي أمير في هذا العالم ، أضف إلى هذا أنه لا يجبر أحدًا ، بل على العكس أنه يسمح لكل فرد أن يعيش وفقًا لما يمليه عليه ضميره ، ويسمح بممارسة شعائر أربعة أديان مختلفة، منها شعائر اليهودية ، وشعائر

---

[1] توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، ط1 ، القاهرة ، 1957م ، ص181.

[2] كان اسم الكتاب هو " كتب الجمهورية الستة " وقد ألفه وصدر عام 984هـ/1576م ، خلال الحقبة المريرة التي يمكن تسميتها بحقبة الحروب الفرنسية الدينية . محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 235 ، 236 .

المسيحية وفقًا لطقوس الكنيسة الرومانية، وشعائر المسيحية وفقًا لطقوس الكنيسة الأرثوذكسية ، وشعائر الإسلام بطبيعة الحال " .[3]

وبشهادة المستشرق (جون سوندرز Jhon Sonders) كانت الولايات العثمانية أكثر تسامحًا، وأفضل حكمًا وازدهارًا من معظم دول أوروبا . [1]

وذكر المؤرخ المسيحي (ألبرت حوراني فيري) ما يلي :

" أنه بعد سقوط القسطنطينية فقد تمتعت الطوائف المسيحية واليهودية بالاعتراف بها رسميًا ، فقد أقرت السلطنة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح للبطاركة والأرثوذكس والأرمن ولحاخام العاصمة الأعظم ، بأنهم ليسوا رؤساء طوائفهم الروحيين فحسب ، بل رؤساؤها السياسيون كذلك ، أما الطوائف الأخرى، كالأقباط في مصر والموارنة والناطرة والسريان والأرثوذكس في لبنان وسوريا والعراق فكانت على اتصال أقل ؛ لإقامتها بعيدًا عن العاصمة. ومع ذلك ، فقـــد كان بطاركتها ينالون اعتراف السلطان بهم من وقت لآخر، وكان السلطان العثماني يقــوم بتنصيب البطاركة والحاخامين رسميًا، وكان هؤلاء يتعاملون مع حكومته في جميع الشؤون العائدة لأبناء طوائفهم [2]. وكان للقرارات والأحكام الصادرة عنهم في نطاق الطائفة صفة القانون النافذ ، وكانت تسري عليها في الأحوال الشخصية والدعاوي المدنية القانونية أحكام قانونهم الديني وعرفهم " .

والحقيقة التي نراها أن تمسك السلاطين العثمانيين بمبادئ الإسلام وتعاليمه يعد أكبر دافع لاحترام حقوق الذميين ، وإبداء العطف اللازم تجاههم، يدفعهم إلى ذلك هاجس وجوب حفظ حقوقهم ، والالتزام بتنفيذ الأحكام كما نصت عليها التشريعات الإسلامية.وهناك كثير من الوثائق المحفوظة في أرشيفات إستانبول تدل على سياسة التسامح الديني مع أبناء الملل الأخرى .

وقد أحسن المستشرقون أنفسهم وصف تعايش المسلمين مع المسيحيين في ظل الدولة العثمانية ، ويصف (روبير منتران) حياة الإستانبولي اليومية خلال القرنين 10هـــ-11هـــ/16م-17م للتأكيد على ذلك ، فيقول:" لقد كان التركي [3] المسلم ، قانعًا بما عنده ، يسعى إلى العيش حسب طاقته وإمكاناته ، وكان حريصًا على أن يكون على علاقة جيدة مع

---

[3] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 236 .

[1] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص42 .

[2] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص 82 ،38

[3] المقصود به العثماني سواء كان من الأتراك أم غيرهم .

أصدقائه وجيرانه ولو كانوا غير مسلمين ، فهو ليس متعصبًا ، ولهذا لم نعثر على أي أثر لاعتراض أو معاداة للمسيحيين خلال هذه الفترة ، وبالمقابل فإن اليهود واليونان والأرمن من جهتهم كانوا يتجنبون كل ما قد يثير غضب المسلمين " .[1]

وأخيرًا لابد من الاختتام باستشهاد أخير نورده (لاندريه ميكال Andreai Mechail) الذي يقول فيه: " لقد قدمت الدولة العثمانية لكل هؤلاء كيان الوطن ضمانًا ، أي أنها قدمت لهم كفالة الأمة المنظمة والحماية اللازمة تحت سيطرتها الخاصة ، وبذلك أصبح كل يهود الدولة العثمانية خاضعين للحاخام باشي ، أي رئيس الحاخامات ، المقيم في إستانبول ، ويعتبر شخصية رسمية في الدولة. أما الطائفة الأرثوذكسية فكان وضعها أكثر اعتبارًا ؛ لأنها كانت خاضعة للبطريرك اليوناني للقسطنطينية . أما الطائفة الأرمينية فلم تكن أقل مكانة ؛ إذ إن البطريرك كان له نفوذ على الكاثوليك والنسطوريين واليعقوبيين ، وبشكل عام كان له نفوذ على جميع الطوائف المسيحية غير الأرثوذكسية" [2]

وقد أشاد كل مؤرخي الدولة العثمانية – وحتى اليهود منهم – بالمركز الذي احتله الذمي في الدولة العثمانية والعيش تحت إدارتها ، حيث كانت إدارة الدولة وسلاطينها لا تتدخل في قضايا الدين ولا ممارسة الشعائر الدينية، فقد انتهت في الواقع إلى أن تصبح ملجأً للحرية الدينية بالنسبة لليهود المطرودين من أسبانيا ، وذلك بعد أن صدر قرار ملكي من هناك بتاريخ 898/6/10هـ – 1492/3/30م يقضي بطرد اليهود الذين لم ينتصروا من أراضي (قشتالة) خلال أربعة أشهر من تاريخه ، وألا يعودوا إليها أبدًا ، ويتعرض المخالف للموت ويقضي أيضًا بمصادرة أموالهم.

وقد سرى الأمر نفسه على المسلمين الذين أكرهوا على الطرد أو التنصير، وارتكبت بحقهم المجازر المروعة ، وكانت الدولة العثمانية وإستانبول عاصمتها ملجأً لليهود الهاربين من مذابح القياصرة ، والقادمين من النمسا وبولندا ، حتى بلغ عدد السكان اليهود في الحي اليهودي بإستانبول عام 999هـ/ 1590م نحو عشرين آلفًا ؛[3]

وعلى هذا نجد أن المهتمين والمختصين بالتاريخ العثماني والمستشرقين اعترفوا بما كان لأهل الذمة من مكانة دينية وقوانين خاصة ، فضلاً عن اندماجهم التام داخل المجتمع العثماني وبين شرايين الدولة ، على نحو لم يعرفوا مثله خلال الحكم البيزنطي ، كما رأينا

---

[1] روبير ما نتران : مرجع سابق ، ج1، ص22 .

[2] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص84 .

[3] مرجع سابق ، ص 84 .

أراء المستشرقين أنفسهم في سياسية التسامح الديني تجاه طوائف الدولة العثمانية ومللهم والرعايا غير المسلمين فيها .

هؤلاء هم بعض من المستشرقين الذين ذكروا الحقيقة كاملة ، أمّا بعضهم الآخر فظهر في كتاباتهمِ بوضوح مدى التخبط وعدم القدرة على وصف سياسة التسامح الديني ، فعلى الرغم من ذكرهم للحقيقة شبه كاملة ، إلا أن طبعهم الحاقد على العثمانيين لابد وأن يطغى فيدفعهم إلى إضافة شيء من التشويه والدس ؛ فهذا دأبهم لا يستطيعون تغيره . وخير من يمثل المعلومة السابقة رأي (برنارد لويس B.Leweis) فقد قال : " لقد فتح محمد الفاتح نافذة على الغرب ، وأعطى حظوة وامتيازًا لليونانيين واليهود ، وجعل نفسه حاميًا للفنانين والعلماء القادمين من أوربا المسيحية "لكنه عاد واستدرك مدحه للعثمانيين بقليل من الافتراء." أما ابنة السلطان بايزيد الثاني الذي كان معروفًا بكثرة تقواه وشدة تأثره بكلام شيوخ الإسلام والعلماء ، إلا أنه تعامل مع اليهود والنصارى بأسلوب مختلف ، إذ طرد الموظفين اليهود والنصارى وحسب بعض المصادر اليهودية ، أنه أمر بإغلاق معظم المحلات التجارية في إستانبول ، وهذا ما يناقض الشريعة الإسلامية ". [1]

والحقيقة أن (لويس) قد ذهب إلى ما ذهب إليه اقتناعًا منه بأن طريقة بايزيد الثاني المتشددة دفعته لا محالة إلى التعصب للمسلمين ضد غيرهم ، ثم إن عدم انفتاحه على الغرب على غرار ما فعله والده قد يكون في ذلك كراهية للمسيحيين واليهود بصفة عامة ، وهذه أحكام اعتباطية لا أساس لها من الصحة ، واعتمد هنا على مصادر يهودية ، ومن المفروض أن يقابلها بمصادر عثمانية إسلامية ويحلل الحدث نفسه حتى يصل إلى حكم نهائي منصف ، وليس من خلال كتب أعدائهم ، كما أن السلطان بايزيد الثاني قد عرف عنه تمسكه الشديد بتعاليم الدين الإسلامي، حتى سماه بعض المؤرخين الأتراك "بايزيد الصوفي" ، ومدحه بعضهم الأخر وأثنوا على عدالته وزهده وتدينه ، بل واعتبروه من الأولياء [2]، ولذلك لم يكن له أي صلة تضر بتسامحه مع الطوائف الأخرى الدينية، بل عكس ذلك، فالرجل بحكم نزعته الصوفية ميال للسلم والمسالمة ، ولم يثبت بالدليل الصحيح عدم التسامح الديني الذي تعامل به السلطان العثماني بايزيد الثاني مع الطوائف والملل الدينية الأخرى من غير المسلمين ، لذلك

---

[1] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسالة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص346 ، نقلاً عن برنارد لويس .

[2] أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق، ج1، ص30 .

فإن تلك اتهامات باطلة لا أساس لها من الصحة، وليس هناك دليل على هذا التسامح أكثر من قيامه باستقبال اليهود الأسبان الفارين من المذابح والمظالم في إستانبول على عهده [1].

ويقول عنه (توماس أرنولد) : " إن المؤرخ البيزنطي الذي خلف لنا قصة سقوط القسطنطينية ، يحدثنا كيف كان بايزيد الصارم [2] نفسه رحب الصدر ، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية كاملة".[3]

ويمكن القول بأن فكرة (برنارد لويس) السابقة التي مفادها أن شدة التقوى لدى بعض سلاطين الدولة العثمانية كانت حافزًا على التهوين من شأن الذميين والإخلال بحقوقهم ، هي نفسها التي تتكرر في كثير من كتابات الغربيين وخاصة المستشرقين غير المنصفين منهم ، وخاصة حينما يتناولون السلاطين العثمانيين من الناحية الدينية والإسلامية ، وأثرها على التعامل مع غير المسلمين داخل أراضي الدولة العثمـانية ، فنجـد مثلاً في كتاب (هاملتون جب Hamlton. Gibb) و (هارولد بووين Harold Boween) " المجتمع الإسلامي والغرب "ما يلي: "لقد أصبحت أعداد المسلمين أكثر من أعداد الذميين بعد أن كان العكس هو الصحيح قبل ذلك ، وقد أثر هذا في اتجاه المسلمين بوجه عام ، فمن ناحية كان غالبية رعايا السلاطين الجدد يفوقون سابقيهم في تشددهم السني، مما أدى إلى ازدياد الاتجاه إلى السنية المتشددة التي كانت قد تجلت على السلاطين وحكومتهم لمدة تزيد على قرن، وترتب على ذلك نمو الاتجاه إلى عدم التسامح مع غير المسلمين ". [4]

ونظراً لبعض الظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها الدولة العثمانية، طرأت بعض المضايقات للطوائف غير المسلمة والذمية فستُغلَّ ذلك من طرف الكتاب والمستشرقين ليكون ذريعة لاتخاذ بعض المواقف المتشددة ، والكتابات الجارحة ضد المسلمين . وبالرغم من ذلك فإنها لا تلغي قاعدة التسامح والتعايش بين المسلمين والذميين ؛ لأن ما حدث هو استثناءات طبيعية تحدث في كل الحضارات وداخل كل الدول سواء في التاريخ القديم أم الحديث ، وخاصة إذا تعلق الأمر بكيان سياسي بهذا الاتساع والتنوع العرقي والديني.

---

[1] أكمل الدين إحسان أوغلي : المرجع السابق ، ج1، ص 222.

[2] وهي بالتركية العثمانية (يلديرم بايزيد) ومعناها بايزيد الصاعقة أو الصارم ، انظر: شمس الدين سامي: قاموس تركي ، مرجع سابق ، ص1553.

[3] توماس أرنولد : مرجع سابق ، ص 173 .

[4] H.A.R. Gibb- Harold Bowen : Islamic Society and the west, landom , 1969. vol.I-II.

والحقيقة التي لا شك فيها أنَّ الدولة العثمانية كان يعيش على أرضها وتحت حكمها العشرات من ملايين المسيحيين والذميين والطوائف غير المسلمة الأخرى ؛ نظرًا لأن فتوحاتها كانت في أوروبا ، وقد تمتع هؤلاء بالعديد من الامتيازات الكثيرة خلال عمل سلاطين الدولة العثمانية وساستهم بالشريعة الإسلامية وتطبيقها في شتى بقاع الدولة وأراضيها. وحينما سقطت الدولة العثمانية، وانتهى عصر الخلافة الإسلامية الممتدة لقرون طويلة ، وجاءت بدلاً منها الجمهورية التركية الحاضرة ، وتُرك العمل بالشريعة الإسلامية ، وبدأ العمل بالعلمانية الغربية، حينها أخذ الأتراك يتتبعون خطا الأوربيين وقلدوهم في كل شيء ، وساروا على سياسة التغريب ، فلم يبق في جميع أراضي تركيا الحديثة – وخاصة مناطق الأناضول – إلا فئة قليلة جدًا من المسيحيين، بعد أن كانوا ينعمون بحماية الدولة الإسلامية وصيانة حقوقهم. وفي هذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع على سماحة الشرع الإسلامي، وإمكانية معايشة المسلم للذميين في ظل الإسلام وهم يعيشون بأمان وطمأنينة ، دون المساس بحقوقهم الدينية ، أو الاجتماعية أو السياسية .

بينما نرى عكس ذلك تمامًا ونقيضه في المسيحية والديانات الأخرى ، حيث تتبرم كل ديانة من الأخرى ، وترسم سياستها الظاهرة والباطنة لإبادة خصومها أو تحقيرهم وحرمانهم من أبسط حقوقهم ؛ حتى ترغمهم على ترك دينهم وتجبرهم على النصرانية جبرًا ، وهو ما يفسر انتشار البعثات التنصيرية في كل أنحاء العالم وخاصة العالم الإسلامي ، سواء بالشكل الجماعي والرسمي أم بالشكل الخاص والفردي.

وبينما يحثنا القرآن الكريم على عدم الإكراه في الدين تنسب الكتب المقدسة إلى المسيح أنه قال لحوارييه : أجبروهم على اعتناق دينكم .[1]

إن الإسلام والشريعة الإسلامية لا تعرف في تاريخها كله التعصب الديني ، حتى إن توظيف اليهودي والنصراني في الوظائف والمناصب الكبيرة والصغيرة أمر شائع في البلاد الإسلامية إلى عصرنا الحاضر ، أما التعصب المسيحي فهو لم يتجه إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى فحسب ، بل إلى تحريم تولي الوظائف والمناصب لمن هم على غير المسيحية .

---

[1] محمد الغزالي : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، د.ط ، الكويت : دار البيان ، د.ت ، ص53.

من المعلوم أنه عندما كانت تدخل إحدى البلدان تحت سيادة الدولة الإسلامية، كان لغير المسلمين المقيمين فيها ، الحرية بين ترك أراضي الدولة الإسلامية ، أو الرضا بالإقامة فيها تحت إدارتها ، وداخل أراضيها التي يسكنونها وذلك ضمن إطار من الأسس المعينة المبنية على التفاهم والاتفاق بين الطرفين، أي بين هؤلاء الرعايا غير المسلمين من جهة ، وبين إدارة الدولة الإسلامية الجديدة وحكامها من جهة أخرى ، وكان يطلق على هذا الاتفاق الذي يعقد بين الطرفين اسم "عقد الذمة" ، ويطلق في هذه الحالة على غير المسلم الذي هو أحد طرفيه اسم " ذمي" . وبناءً على هذا الاتفاق ، يتعهد الذمي في هذا العقد بقبول ما تنص عليه القوانين والشريعة الإسلامية من حيث الأسس القائمة عليها في تلك الأحوال ، والتعهد بدفع ضريبة على كل شخص عاقل بالغ ، والتي تعرف باسم " الجزية"، مقابل إعفاء الذمي من الدخول في الجندية والاشتراك في الحروب. [1]

وتتعهد الدولة الإسلامية الحاكمة مقابل ذلك بتأمين رعاياها الذميين الذين يعيشون على أراضيها وتحت حكمها وإدارتها ، وذلك بالحفاظ على أرواحهم وأموالهم ، والسماح لهم بالعيش على الدين والمذهب الذي هم عليه ، دون تدخل من الدولة الإسلامية وإدارتها الحاكمة ، لفرض مذهب أو دين معين ، أو حتى محاولة تغييره ، بل يترك للذمي حرية الاختيار والتمذهب بما يريد ، وهو ما أثبته التاريخ الإسلامي خلال عهوده المختلفة ، وخاصة في أوائل عهد الدولة الإسلامية، حيث إنها أكدت دائمًا على تلك النقاط الثلاث الأساسية في كل عقود الذمة التي كانت تعقدها دائمًا مع المسلمين .[2]

وهذا بلا شك يعطي نوعًا من الاستقرار السياسي والاجتماعي والديني داخل الدولة الواحدة ، ما دام الجميع يعرف ما له من حقوق ، وما عليه من واجبات ، فقد سمح لهم الاختيار منذ البداية على العيش بشروط الدولة الإسلامية الحاكمة ، أو تركهم لأراضيها والبحث لهم عن أراضي غيرها يعيشون فيها ، وفي حالة قبولهم العيش تحت إدارة وشروط الدولة الإسلامية فإنهم يأمنون بأمنها ، ولهم حرية المذهب والدين وممارسة شعائرهم الدينية ، لقوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [3]

---

[1] أحمد سالم : الرحلات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة والجزيرة العربية ، ص227 .

[2] أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 497.

[3] سورة البقرة ، آية 256.

وقد أتيح لغير المسلمين أن يتولوا هم أنفسهم تنظيم حياتهم القانونية بما يتفق وأديانهم وعاداتهم وتقاليدهم ، أو بمعنى آخر اعترف لهم بالاستقلال الذاتي في الحقوق والقضاء . ونلاحظ أن حدود هذا الاستقلال كانت واسعة في البداية ، ثم أخذت في الانحسار تدريجيًا مع مرور الزمن ؛ [1] وربما يعود السبب في ذلك لاستخدام غير المسلمين حرية الشريعة والتسامح الديني الممنوح لهم بشكل خاطئ، فكان لابد من انحسار مفهوم التسامح الديني من قبل الدولة الإسلامية لرعاياها الذميين حتى لا يترك أثرًا خطيرًا ومبالغاً فيه على بقية طبقات المجتمع المسلم ، وحتى لا يؤثر على علاقاتها السياسية مع الدول غير المسلمة الأخرى .

وكما رأينا فإن تطبيق الشريعة الإسلامية على غير المسلمين – خاصة في الأمور والمسائل الفقهية – لم يكن نوعًا من الضغط الديني والسياسي على هؤلاء، بل إن غير المسلمين هم الذين سعوا إليها للبحث في نصوصها الفقهية عن حل لمشاكلهم الدينية والاجتماعية ، ومشاكل الزواج والطلاق ومسائل الأسرة والتبني والحضانة والإنفاق وغيرها ... كذلك للهروب من أعرافهم وقوانينهم الوضعية التي تحكم بها مذاهبهم الدينية التي كانت تتميز بالقسوة والجمود أحياناً، والتطبيق والتعصب في أحيان كثيرة ، فكان لجوء غير المسلمين إلى المحاكم الإسلامية والبحث في قوانينها الفقهية والشرعية هو لجوء رغبة وليس لجوء اضطراري سياسي أو ديني ، بل نتج من السماحة الدينية التي كانت تتميز بها الشريعة الإسلامية في مختلف عصورها الأولى ، فقد تميزت بالأمان الذي عاش فيه الذمي وغيره من الطوائف غير المسلمة ، وشعروا فيها بأن القانون والشريعة الإسلامية على الجميع ، والتاريخ الإسلامي مليء بالأدلة والبراهين والأمثلة على ذلك .

كان المسيحيون قبل وصول العثمانيين للأناضول قد انقسموا على أنفسهم هناك بين كنائس عدة صغيرة وكبيرة تابعة للأرثوذكسية – مذهب الدولة الرسمي عند البيزنطيين – [2] . وفي الوقت نفسه كان المسلمون على علاقة دائمة بالطوائف المسيحية التي تعيش إلى جوارهم.[3] ولوحظ نتيجة لهذه العلاقات أنه كانت تجري بين هذه الطوائف مع مرور الزمن

---

[1] أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص498 .

[2] C. Cahen : le probleme du shiisme dans l, Asie mineure pre – ottomane, le shiisme imamate (colloque de Strasbourg), paris,1970, p.125.

[3] للمزيد من المعلومات حول هذه القضية ، نظر :

A. y . Ocak : Ba21 Menakib Aamelere Gore xIII – XV yu2yillardaki ihtidalarda heterodiks . Seyh ve Dervislein Ralin , Archivum ottamaricum, wiesbaden, 1981, Vol . II, p. 31-42

عمليات تحول إلى الإسلام بقدر معين ؛ بسبب ذلك التسامح الذي شعرت به تلك الطوائف، والاختلاف في المعاملة بين ما كانو ا عليه وبين تلك الحريات التي شعروا بها خلال وجودهم تحت الإدارة والحكم العثماني ، بالرغم من الكراهية المسبقة التي كانوا يقابلون بها ذلك التسامح الإسلامي الذي لقوه على يد العثمانيين وحكامهم ، إلا أن الرهبان والقساوسة في كثير من الأماكن كانوا يتزينون بزي الأتراك العثمانيين ، بل إنهم كانوا يقرؤون كل أدعيتهم وأناشيدهم الدينية الأخرى باللغة التركية العثمانية عدا الإنجيل ، [1] وهناك بعض البحوث التي تشير إلى أن هذه الطوائف المسيحية كانت تتزين بزي الأتراك وتستخدم اللغة التركية في عباداتها ، إلا أن هذه الدراسات لم تتعمق بالشكل الكافي ولم تؤكد هل هم من المسيحيين الذين كانوا يعيشون في الدولة العثمانية أم لا ؟. [2]

وهذا دليل على مدى التسامح الديني الذي كانت تتعامل به الدولة العثمانية وإدارتها مع الطوائف، ونتيجة لهذا التسامح الديني الذي مارسه العثمانيون مع الطوائف غير المسلمة في الأراضي العثمانية الأوربية لم تعد هذه الطوائف ترتبط بالكنائس الكبرى كما كان الحال في القرن 7هـ / 13م ؛ لأن أغلب الاسقفيات والمطرانيات الكبرى في القرن 8هـ / 14م كانت قد اختفت منذ زمن ، وذلك بعد تضاؤل عدد المسيحيين نتيجة إسلامهم وانسحاب رؤسائهم الروحانيين، إما إلى القسطنطينية "إستانبول" وإما إلى الجزر المقابلة لها ، مما يعني أن التسامح الديني أدى إلى تضاؤل المسيحيين في تلك المناطق إلى مستوى متواضع كمًا وكيفًا. إلا أن حركات الفتح العثماني ، وقيام الدولة العثمانية بضم العديد من الأراضي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، والقرنيين 9هـ-10هـ/15م-16م ، قد حولت العديد من السكان المسيحيين في أراضي آسيا وأفريقيا وأوربا إلى رعايا عثمانيين يحتفظون بدياناتهم ومذاهبهم الطائفية التي هم عليها ، حتى إنهم انتشروا في أنحاء الدولة لا يمنعهم مانع أو قانون ، فلهم الحق في استخدام كافة الحريات الدينية دون أن يوقفهم أحد ، فمثلاً نجد الروم اليونانيين يعيشون في وسط الأناضول، بينما يعيش القسم الأصلي على سواحل البحر الأسود وبحر مرمرة وبحر إيجة ، أما الطوائف المسيحية التي يشكلها الأرمن فيعيشون في شرق الأناضول[3] ، بينما الموارنة في سوريا والعراق ولبنان ، ثم الأقباط الذين كانوا

---

[1] Paul wittek : mentese Beyligi , Aakara , lg44, p. 112-115 .

[2] الأرشيف العثماني – رئاسة الوزراء باستانبول – تصنيف دفاتر الطابور (سجلات الأراضي) ، دفتر (بوزاوق) المؤرخ في 1556م .

[3] OP. Cit , P. 56-60

يعيشون على أرض مصر ثم الألبان والبوشناق والكروات الذين يتبع الغالبية منهم المذهب البوجوميليه [1] في البلقان، ومعهم الصرب الأرثوذكس والرومانيين والبلغار وغيرهم . ومن خلال هذا التعدد الطائفي السابق ، يمكن لنا أن نتصور مدى التعدد العرقي والتنوع المذهبي الذي ضمته أراضي الدولة العثمانية ، بجانب رعايا الدولة وأهلها من المسلمين والعرب ، كما يعكس مدى قدرة الدولة لاستيعاب هذه الطوائف والمذاهب. وكان الأصل في ذلك يعود إلى هذا المنهج الإسلامي والتشريع الديني الذي يكفل الحرية والتسامح للجميع ، مادام الكل يعرف حقوقه وواجباته أيضًا، واستمر هذا المنهج بشكل مستقر تقريبًا على مدى تاريخ التشريع الإسلامي، وهو الذي استمدت منه الدولة العثمانية منهجها ونظامها القانوني والتشريعي ، وخاصة مع الطوائف غير المسلمة، مما زاد عدد أهل الذمة الذين كانوا موجودين في الأساس منذ قيام الدولة العثمانية ، حتى شكل قدرًا لا يستهان به من مجموع الرعايا إلى نهاية عهد الدولة العثمانية [2].

ولولا التسامح الديني وحرية العبادات التي مارستها الدولة العثمانية مع الرعايا غير المسلمين ، لَمَا قبل هؤلاء الرعايا بالاستمرار تحت إدارتها والعيش في أراضيها ، بل وتزايد أعدادهم ، ولم يفكروا يومًا في الهجرة أو الهروب من أراضي الدولة العثمانية والتوجه إلى أوربا أو غيرها من البلاد والأراضي البعيدة عن إدارة الدولة العثمانية ، إن الشعوب كانت ترحب بالفتوحات العثمانية كالبلقان وجزر اليونان ، حتى إن أهالي إقليم "ترانسلفانيا" المسيحيين رفضوا الدخول كقطاع في الإمبراطورية المسيحية الألمانية ،وفضلوا البقاء تحت حكم العثمانيين ، وذلك بعد اتفاق العثمانيين مع النمسا على ترك العثمانيين للإقليم ، كما لجأ أهل المجر إلى العثمانيين لتخليصهم من حكم النمسا المستبد في الوقت الذي كانت فيه شعوب قلب أوروبا وألمانيا ترتعد خوفًا من حكم النمسا [3]. حتى إن هذه الزيادة شكلت نقطة ضعف وضغط على سياسة الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بل كانت تعد أحد العوامل الأساسية لسقوط الدولة العثمانية نفسها .

---

(1) أخذت البوجوميلية اسمها من حركة بلغارية هرطقية أسسها في ق 10م ، في عهد الملك بطرس 927م–968م قس بلغاري يدعى بوجوميل Bogomil "حبيب الرب"وقد جاءت عبر آسيا وانتشرت في القسطنطينية ومناطق البلقان، تنادي بالتحرر من المادة، وقد واجه أهلها الكثير من الاضطهاد حتى إنهم استغاثوا بالعثمانيين ولجأوا لهم.انظر محمود محمد الحويري ، مرجع سابق ، ص236،237.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1، ص 500 .

(3) أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 40 .

وقد قال في ذلك (ماريشال فون مولتكة) : " لا يمكن تعريف التسامح الذي كان يظهره الأتراك تجاهنا نحن المسيحيين ، ولا يمكن أن يكون سبب ذلك إلا إيمانهم الذي لا يتزعزع بالإسلام ". [1]

ومما يدعو إلى الدهشة أن مقاومة اختلاف الدين لدى الشعب المسيحي المحلي كانت محدودة للغاية ؛ إذ إن الشعب المسيحي كان شاكراً للعثمانيين نتيجة للحرية الدينية التي منحها له حكام وسلاطين الدولة العثمانية التي كانت مجهولة في أوربا خلال تلك الفترة . فقد كان الأمن مختلاً قبل مجيء العثمانيين ، واتسم بعد مجيئهم بالهدوء والأمان لكل المناطق التي سيطروا عليها ، وعادت الشعوب البلقانية تعيش في أمن وحرية كانوا قد نسوها منذ فترات بعيدة ، حتى إن المجريين لم يعصوا العثمانيين سوى مرة واحدة فقط خلال العهد العثماني، ولم يكن ذلك التمرد منهم تجاه الإدارة العثمانية ، وإنما كان تجاه الإقطاعيين المجريين الذين أذاقوهم الأمرين من قبل ، حتى إن الدولة العثمانية كانت قد خففت عليهم الضرائب مقارنة بما كان يجبى عليهم أثناء حكم الدولة البيزنطية ، فتأخذ منهم ما يفرضه الشرع وهو الجزية ، وعفوا من الجندية مقابل تلك الجزية ، فلا تسيل دماؤهم كما كانت في العهد البيزنطي ، الأمر الذي أدّى إلى تكاثرهم بطمأنينة تامة داخل الدولة العثمانية، ولم يكن المسيحيون يشتركون في الإدارة العثمانية، لكن في الوقت نفسه كان ينال هذا الحق في حالة اعتناقه للإسلام ، حتى إنه كان يصل في هذه الحالة إلى منصب الصدر الأعظم ، وهو أعلى منصب قيادي بعد منصب السلطان العثماني ، ويعادل رئيس الوزراء في الوقت الحالي . وفي التاريخ العثماني العديد من الصدور العظام الذين تنطبق عليهم هذه الحالة ، ولما أسلموا شغلوا تلك المناصب العالية التي تعتبر من الأهمية بمكان داخل الدولة العثمانية [2].

فالعثمانيون شعب فاتح بطبيعته من ناحية السمات التاريخية، وحينما واتته الفرصة لبسط نفوذه على أكبر بقاع الأرض وبلادها وفي شرقها وغربها لم يستغل الفرصة في الإساءة للآخرين ، وخاصة غير المسلمين ، ولم يمسوا أراضي الفلاحين المسيحيين ، لكنهم أخذوا الأراضي الواسعة التي كانت تحت سيطرة الإقطاعيين المسيحيين وأعطوها إلى خيالتهم (جنود السباهية أصحاب التيمار) ، ولم يقم العثمانيون بمس مخزن غلال واحد أو محل يخص المسيحيين في المدن الكبيرة التي دخلوها وسيطروا عليها ، وخاصة إستانبول .

---

[1] يلماز أوزتونا : المصدر السابق ، ج2 ، ص 468 .

[2] مصدر سابق ، ج2 ، ص469 .

وكان يعيش تحت الحماية العثمانية الكثير من جماعة المسيحيين الذين تمتعوا بكل المميزات إلى درجة أنهم كانوا يعيشون حياتهم في غاية الرفاهية. [1]

ولم ينظر إليهم المجتمع العثماني نظرة سوء ، وكان هناك مسيحيون من كبار التجار ، وأصحاب السفن التجارية ، وأصحاب المصارف ، حتى إن الإدارة العثمانية خصصت لهؤلاء حرسًا من جنود الإنكشارية الذين يقومون على صيانة ممتلكاتهم .

هذا في الوقت الذي نرى النقيض منه تمامًا في الدول المسيحية التي تتاح لها فرصة السيطرة والاستعمار على البلاد الإسلامية ، وحينما احتل البنادقة بعد هزيمة فيينا جزيرة " ساقيز " لفترة قصيرة ، وجزيرة "مورا" لمدة أطول، ارتكبوا خلالها ظلمًا شديدًا ومذابح راح ضحيتها عشرات المسلمين ، إلى درجة أنه عند عودة الإدارة العثمانية إلى تلك الجزر قام شعبها باستقبال العثمانيين بمزيد من السرور والبهجة الصادقة التي دعتهم لإقامة الاحتفالات والأفراح ترحيبًا بهم [2]

وقد وصل التسامح الديني الذي كانت تتعامل به الإدارة العثمانية مع رعاياها غير المسلمين إلى أن الكثير من الأوروبيين من غير رعايا الدولة يعيشون آمنين في الموانى والسواحل العثمانية ، وكانت الدولة كفيلة بحماية جميع حقوقهم ، ويتاجرون بحرية تامة ، ويتجولون ويزورون الأماكن الدينية ، وقد كتب أحدهم وهو (John Moritt of Rokeby) بأنه قدم إلى إستانبول عام 1209هـ/ 1794م، وكان عمره حينذاك 22 عامًا، وتجول بين أهالي الدولة العثمانية بحرية تامة ، كتجواله في لندن، ولقي مساعدة كبيرة ممن حوله [3].

وهكذا تعاملت الإدارة العثمانية مع كافة فئات وطبقات المجتمع العثماني من رعاياها غير المسلمين ، سواء أكانوا القادة ورؤساء الطوائف والبطاركة أم المسيحيين أنفسهم الذين هم من عامة الشعب العثماني ، فزاول الجميع حريته ومارسها دون أي ضغوط داخلية أو خارجية ، كما زاولوا أنشطتهم الدينية والسياسية والاجتماعية وحتى التجارية بحرية تامة دون تدخل من الدولة في شؤونهم ، بل وعدّت الدولة رؤساءهم من البطاركة ضمن قوائم تشريعات الدولة العثمانية ، ومُنِح الكثيرون منهم العديد من الأوسمة والنياشين المختلفة وبكافة درجاتها ، وهذا يدل دلالة واضحة على هذا التسامح .

---

[1] يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج2 ، ص 469 .

[2] يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج2 ، ص 469 ، نقلاً عن .Grandeur de l,Asie Fernard Grenard, P. 8-126

[3] يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج2 ، ص 469 ، نقلاً عن . The letters , op.cit, London , 1914, p. 67,70

إن الأقليات المسيحية اندمجت في المجتمع الإسلامي لدرجة أنه في بعض الأحيان كانوا يلجأون إلى المحاكم الإسلامية لفض النزاع بين أفرادهم مؤمنين بنزاهة وصدق هذه المحاكم ، مثلما حدث في عهد (أديسيدي باشا الرومي) نائب أزمير حيث قال : " إن لهذه دارًا للفتوى تفصل في المسائل المعروضة عليها ، بموجب القوانين الشرعية ، فأحيلوا الأمر على رأي تلك الدار ، ونحن الأروام راضون عما ستصدره من القرار ". [1]

ومن هنا نجد أن الباشا الرومي احتكم إلى دار الفتوى المسلمة في الدولة العثمانية ، في نزاع بين المسيحيين وعلى أحقية كل طرف في امتلاك بعض الكنائس فيها ، وهو موقن تمامًا أن ما ستصدره من فتوى في فض هذا النزاع هو الصواب.

والحقيقة أن الباحث في تاريخ الدولة العثمانية لا يسعه إلا الإقرار بأن التسامح الديني وحرية التدين على أراضيها هو أحد الظواهر اللافتة للأنظار ، وخاصة الأوربيين والمستشرقين منهم ، وتعكس صورة السلاطين العثمانيين وحرصهم على تنفيذ ما جاء به الإسلام بروحه ونصوصه .

ومن الجدير بالذكر أن سياسة التسامح الديني لم تبدأ منذ عهد الفاتح ، فقد سبقه إلى ذلك جميع سلاطين الدولة العثمانية ؛ إذ بدأت سياسة التسامح الديني منذ تأسيس الدولة العثمانية حيث تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للدولة العثمانية أن أرطغرل عهد لابنه عثمان – مؤسس الدولة العثمانية – بولاية القضاء في مدينة (قرة جي حصار) بعد فتحها في عام 684هـ / 1285م ، وخلال تلك الفترة ، أثبت التاريخ العثماني أن الأمير عثمان حكم لبيزنطي ضد مسلم تركي ، فاستغرب البيزنطي ، وسأل الأمير عثمان والقاضي في الوقت نفسه : كيف تحكم لصالحي وأنا من غير دينك ؟! فأجابه عثمان قائلاً : " بل كيف لا أحكم لصالحك ، والله الذي نعبده ، يقول لنا﴿ **إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[2] . وكان التسامح الذي تعامل به الأمير عثمان مع الرجل البيزنطي سببًا في اهتداء الرجل البيزنطي وقومه إلى الإسلام [3] ، مثله مثل الكثيرين من غير المسلمين الذين كانوا يعيشون داخل الدولة العثمانية وتحت إدارتها ، فرأوا بأعينهم ،

---

[1] مصطفى محمد حلمي : الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ، ط1 ، مصر : دار ابن الجوزي ، 1426هـ/2005م، ص 102 .

[2] سورة النساء ، آية 58 .

[3] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ط2 ، إربد : دار الفرقان ، 1406هـ / 1986م ، ص75 .

ولمسوا بأنفسهم كيف كان العثمانيون يستخدمون المنهج الإسلامي وتشريعه بين رعاياه بالمساواة والعدل سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك.

واستمرت سياسة التسامح الديني في عهد مؤسسها عثمان الأول حيث اتصف بالتسامح الديني ، وعلى الرغم من حماستهِ الدينية إلا أنه استطاع أن يجذب إليه كثير من المسيحيين الذين أعلنوا إسلامهم وكونوا الركيزة الأساسية للدولة الناشئة . [1]

واتصف أورخان بالتسامح وعدم الإكراه على الإسلام ، حتى غدت سمة التسامح الديني من أهم سمات عصره ؛ إذ لم يحاول أورخان مطلقًا فرض الإسلام على رعاياه غير المسلمين، بل لجأ إلى سياسة الاستمالة وترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية . مما جعل المسيحيين يتلمسوا مدى تسامح الإسلام وبالتالي أقبلوا عليه حتى في المدن المفتوحة حديثًا ، وكان يعامل الأهالي معاملة رقيقة ولينة ، فنجده مثلاً عند فتح أزنيق يجذب إليه قلوب الأهالي بأن عاملهم معاملة طيبة باللين والرفق ، حيث ترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وأذن لمن يريد الخروج من المدينة بأخذ كافة منقولاتهِ ، وسمح لهم ببيع عقاراتهم وأَخْذ ثمنها معهم، مع تمتعهم بكامل حريتهم . [2]

وقد ذُكر هذا الحدث في الموسوعة اليونانية فجاء فيها : [3] " إن النصارى البيزنطيين آثروا البقاء في مدينتهم وأملاكهم تحت سيادة العثمانيين ، عندما خيرهم أورخان بين البقاء فيها أو أخذ كل ما يريدون من أموالهم ومتاعهم والذهاب إلى أية منطقة بيزنطية أخرى إن أرادوا البقاء على ولائهم للإمبراطورية البيزنطية ".[4]

وسجل أيضًا التاريخ العثماني والإسلامي ذلك الموقف الكريم الذي تعامل به الأمير العثماني سليمان باشا ، ففي عام 755هـ / 1354م سجل التاريخ في صفحاته أول عبور عثماني إسلامي إلى البر الأوروبي للإمبراطورية البيزنطية ، حين تسلل الأمير (سليمان باشا) على رأس ثمانين من أقوى المجاهدين في جيشه، إلى ميناء (جيمنك) ، فأخذ جميع السفن الحربية والتجارية التي وجدها راسية في الميناء الأوروبي ، واستعملها في جلب

---

[1] أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ط2 ، القاهرة : دار الشروق ، 1413هـ / 1993م ، ص36 .

[2] محمد فريد المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، ط 7 ، بيروت: دار النفائس ، 1414هـ / 1993م ، ص124 . صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1 ، الرياض : مكتبة الرشد ، 1425هـ / 2004م ، ص32 . أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 39 . زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص79 . نقلاً عن أحمد رفيق : بيوك تاريخ عمومي ، د. ط ، إستانبول ، د.ت ، ص95 .

[3] الموسوعة اليونانية المعروفة باسم " megalia Elliniki Engiklopedia " المطبوعة في أثينا عام 1932م .

[4] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص81 .

الإمدادات العثمانية من البر الأسيوي للعثمانيين ، وبالرغم من التفوق الحربي الذي مكنه من الاستيلاء على هذه السفن ، وبالرغم من طبيعة الحرب بين الأطراف المتحاربة حينذاك التي تبيح لأي طرف الاستيلاء بالقوة على ما عند الطرف الآخر ، إلا أن هذا الأمير العثماني وتربيته الإسلامية التي نشأ عليها ، هو وغيره من أمراء الدولة العثمانية وسلاطينها منذ دخولهم الإسلام و حتى نهاية الدولة العثمانية وسقوطها ، لم يرد أن ينتفع بالسفن دون أجور مجزية ، فدفع لهم أجر استخدامها [1] وقد كان بإمكانه كمنتصر أن يصادر تلك السفن المدينة مع غيرها من السفن الحربية.

واستمرت هذه السياسة التي هي أساس الدولة العثمانية في عهد مراد الثاني، فحينما استعاد (سلانيك) من حاكم البندقية ، ونال أهلها حريتهم الدينية وممارسة شعائرهم ، سمع بذلك أهل مدينة يانيا [2] فأرسلوا وفدًا يطلب من السلطان مراد الثاني أن يضم مدينتهم للدولة العثمانية لما سمعوه عن عدالتهم ، وعدم ظلمهم للرعية ؛ والتسامح الديني الذي تميزوا به ، خاصة الرحالة والتجار الذين زاروا ممتلكات الدولة العثمانية في ذلك الوقت. [3]

فما كان من السلطان مراد الثاني ، إلا أن استجاب لرجاء أهل مدينة "يانيا" وأرسل أحد قواده على رأس جيش إلى هذه المدينة ، وتم فتحها في السنة نفسها ، أي في عام835هـ/ 1431م ، ودون أن يجد أية مقاومة من الأهالي أو اعتراض على حكمهم كما وعدوه في المقابلة [4]. كان هذا هو عهد مراد الثاني السلطان العثماني الذي تعامل بالتسامح الديني دون إرغام أو إكراه للأهالي في أوربا، بل إن المفاجأة هي رغبة هؤلاء الأهالي وخاصة في "يانيا" بأن يسمح السلطان مراد الثاني بدخول بلادهم تحت حكمه العادل والشريعة الإسلامية السمحاء التي سمعوا كثيراً عنها قبل اللقاء به.

---

[1] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص128 .

[2] كانت مدينة " يانيا " ، تحت حكم عائلة " توكو Tocco " الإيطالية وعندما مات (كارلو توكو لأول) عام 1430م ، ولي الحكم بعده ابن أخيه (كارلو توكو الثاني) . ولكن أبناء (توكو الأول) غير الشرعيين ثاروا وطالبوا بالحكم ، فبدأ عهد الاضطراب والفوضى والقتال ، عانى منه الشعب الأمرين ، وعندما سمعوا بأن السلطان (مراد الثاني) بالقرب منهم في مدينة (سلانيك) قرروا إرسال وفد للتفاوض معه . ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر أورخان محمد على : مرجع سابق ، ص34 .

[3] أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص32 – 33 .

J. Anagnostis : Selanik (Thessalonikilin son zopti Hakkinda Bir Tarih ctrc .M. dellibasi), Ankara , 1989, P.103-106 .

[4] أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 34 .

إن هذا الحديث يدل دلالة واضحة على السمعة الطيبة التي سبقت العثمانيين عن تسامحهم الديني ، وأن لهم الفضل الكبير بعد الله ﷻ في ظهور الإسلام في أوربا بهذا الشكل المثير للدهشة بين الأهالي هناك ، وخاصة تلك الأماكن البعيدة عن الصراعات المذهبية والطائفية ، حتى إن هذا الوفد قدم المنهج الإسلامي الذي ينهجه العثمانيون في البلاد التي يفتحونها في أفضل صورة من حيث التعامل الديني والاجتماعي ، فالعدل سائد بين الرعية ، ولا إكراه في الدين ، بل للجميع حق مكفول من الدولة العثمانية لاعتناق ما يريد من دين ، والقانون فوق الجميع ولا فرق بين مسلم وغيره أمام العدالة الإسلامية ، وكانت هذه الشهادة والقول الحق بشهادة كل من تعامل مع هؤلاء العثمانيين سواء من الداخل أم الخارج ، وسواء بالتنقل بين بلادهم أم عن طريق التجار الذين لهم معاملات وتعاملات مالية وتجارية معهم ، ولذلك فليس من الغريب أن يطلب هؤلاء الأشخاص وعائلاتهم الحماية السياسية والدينية ليعيشوا تحت حماية الإدارة العثمانية ، أو بمنح العثمانيين الإذن للدخول لبلادهم ليسيطروا عليها دون أدنى مقاومة منهم ؛ ليخلصوهم من جور حكامهم . وهذا يعكس صورة مشرقة عن هذا التسامح الذي تميزت به الدولة العثمانية ، وهذا التميز نابع من تمسكها بالتشريع الإسلامي الصحيح .

وهكذا شهد التاريخ الأوربي والعثماني والإسلامي أيضاً للسلطان مراد الثاني ولسماحته الدينية التي كان يتعامل بها مع الأهالي غير المسلمين والطوائف النصرانية فيها ، مثله في ذلك مثل أسلافه من إخوانه وأعمامه سلاطين الدولة العثمانية منذ أن أصبحت دولة كبيرة تدعمها سياسة العدل بين الناس ، والتسامح الديني ، والحرية الكاملة المكفولة للجميع ، سواء أكان في العمل الديني أم السياسي أم الاجتماعي أم الاقتصادي ، وكذلك في تطبيق شعائر الدين والمذاهب والعبادة وممارستها .[1]

وهذا الأسلوب الذي نهجه مراد الثاني هو نوع من السعي والجهد لحل المشاكل العديدة بين الأهالي، فكانت أيام سلطنته بمثابة بداية جديدة مشرقة للدولة العثمانية ، فعفوه وحبه للتسامح الديني قد يسر له فتح البلدان الواحدة تلو الأخرى ، وعلى الرغم من توافق أهالي البلاد مع حكامهم في الديانة إلا أنهم فضلوا حكم العثمانيين الإسلامي المتسامح على حكم أمرائهم ، لأن التعايش مع العثمانيين يضمن لهم الحرية والأمان الديني . ولم تكن هذه الحادثة الوحيدة من هذا النوع فحسب بل تكرر هذا الأمر كثيرًا بعد ذلك .

---

[1] أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص35 .

فأين كتابات المستشرقين من هذه الأحداث وما يشابهها ، لم تذكر حتى في كتبهم ؛ لأن مجرد ذكرها يدحض كثير من الشبهات التي يلفقونها دائمًا على سياسة السلاطين العثمانيين ، فيسمحوا لأقلامهم بطمس هذه الروائع .

إن تعامل العثمانيين بسياسة التسامح الديني جعل الأقلام الحاقدة تحاول أن تطمس هذه الميزة الإيجابية التي تعاملت بها كل الدول والخلافات الإسلامية على مر التاريخ الإسلامي ، وتستبدلها بفرية ظالمة تزعم أن العثمانيين كانوا يضطهدون غير المسلمين ، ويجبرونهم على اعتناق الإسلام قسرًا ، ولكن الحقيقة التي لا يمكن أن يغفلها التاريخ العالمي عموماً ، والإسلامي على وجه الخصوص ، تلك الحقيقة التي تتهاوى أمامها افتراءات الحاقدين تؤكد أن العثمانيين جسدوا بصدق أخلاق الإسلام السمحة في معاملتهم ولغير المسلمين ، والأدلة على ذلك كثيرة ومتعددة ، لا يمكن أن يغفل عنها مؤرخ أو مستشرق .

وقد سارت الدولة العثمانية على نهج التسامح نفسه ، وهو عدم الإكراه على الإسلام ، وذلك منذ قيامها وحتى فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح .

وظهر ذلك بشكل جلي بعد فتح القسطنطينية ، وما قُرر وقتها أصبح نظامًا كاملاً يجري العمل به في سائر الولايات العثمانية ، والنظام الذي وضعه السلطان محمد الفاتح للتسامح الديني وللتعامل مع الأسرى هو المتبع ، عدَّه بعض المؤرخين المسؤول الأول عن بقاء شعوب دول أوروبا التي كانت خاضعة للعثمانيين على ديانتهم المسيحية واليهودية ، فلو أنه فعل معهم ما فعله الأسبان بمسلمين ويهود الأندلس لكانت دول شرق أوروبا بلاد إسلامية لا أثر فيها لأهل الكتاب . [1] ولكانت بقيت أوروبا الشرقية وشرق النمسا وجنوب بولندا على الإسلام ، لكن تطبيق الشريعة الإسلامية السمحاء حال دون ذلك .

فما فعله السلطان العثماني محمد الفاتح فور دخوله القسطنطينية فاتحًا يعدُّ قمة العدالة والتسامح الديني التي لا تنفصل عن جوهر الإسلام ، وقد سبقه إليه الخلفاء الراشدون حينما دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس ، ولم يحاول أن يفرض الدين الإسلامي على أهلها كما هو معروف في التاريخ الإسلامي ولكن وبالرغم من العداء الأوروبي المسيحي للعالم الإسلامي، وبالرغم من تعدد وتكرار الحروب الصليبية على البلدان الإسلامية، وبالرغم من كراهية الكنيسة للدولة العثمانية والعثمانيين أنفسهم ، ودعوتها للنهوض ضدها ، سواء في

---

[1] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص81 ، 82 . ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص25 .

أوروبا أم داخل الدولة نفسها، فإن السلطان محمد الفاتح تعامل بما تعلمه وأمره به دينه الإسلامي، وهو التسامح مع الآخرين، بشرط أن يعرفوا حقوقهم وما عليهم من واجبات تجاه الدولة، فترك لهمه ممارسة حقوقهم الدينية ، وترك إدارة كنائسهم لرجالهم، ولم يحاول التدخل أو فرض القوة عليها .

إن سياسة السلطان محمد الفاتح هي النبراس الذي سار عليه السلاطين العثمانيين من بعده ولولا معاملته السمحة مع أهالي البلاد المفتوحة لما أقبل الناس على الإسلام بسرعة .

لقد سلك الفاتح سياسة التسامح والرأفة مع أهل القسطنطينية ، وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم ، وافتدى عددًا كبيرًا من الأسرى بمالهِ الخاص، واجتمع مع الأساقفة وهدأ روعهم وطمأنهم على حرية عقائدهم وممارسة شعائرهم الدينية ، كما أمر النازحين بالعودة إلى أوطانهم وبحرية معتقداتهم وأصولهم الدينية، وأمنهم على حياتهم . [1]

كما وقع الرعب في قلوب جميع سكان ممالك اليونان ، حتى إنهم خرجوا من مناطقهم هائمين على وجوههم لا يدرون أي جهة يقصدون ، حتى إن البحر المتوسط اكتظ بالسفن التي تحمل الأموال ، ولجأت الأسر الإغريقية إلى الجبال والأديرة والجزر التي تسكنها البنادقة والجنويون .

لكن السلطان محمد الفاتح أمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية عبادتهم ، وأصدر السلطان فرماناً يصرح لهم فيه بحكم أنفسهم ، فشكلوا طائفة منفصلة عن الأمة العثمانية تمامًا.[2]

إن ما فعله السلطان العثماني محمد الفاتح لهو نهج المسلمين الأوائل ، فمن من الخلفاء كان يفتدي الأسرى بمالهِ الخاص ، إلا من رحم ربي ، إن هذه صورة من صور كثيرة للتسامح الديني التي عجز المؤرخون الإفرنج عن إدراكها ، وأبت نفسهم المريضة أن تنسبها لصاحبها ، وبدلاً من ذلك حاولوا بقدر إمكانهم تشويه ، صورته ، ونسب أفعال مشينة له ؛ حرصاً منهم على طمس تاريخ محمد الفاتح الناصع البياض.

وأول عمل قام به السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية مباشرة إعلانُه لكافة الجهات أنه لا يعارض إقامة شعائر ديانة المسيحيين ، ثم جمع المسيحيين ورؤساء طوائفهم وطلب منهم انتخاب بطريرك لهم فاختاروا (جورجيوس سكولاريوس

---

[1] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص93 . يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص33 .
[2] إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، 45 ، 46 .

Gorgros Scolaries) على بطريركية الروم الأرثوذكس ، ومسئولاً عن جميع شؤون إخوانه في الديانة، وقد قام الأخير بأداء القسم أمام السلطان محمد الفاتح ، بقوله : " أقسم أن أظل مخلصًا للسلطان العثماني، وأن أنفذ قوانين الدولة العثمانية واحترامها " . [1]

ونتوقف هنا عند هذا القسم ففيه ما يسترعي الانتباه ، فقد أقسم البطريرك على أن يظل مخلصًا للسلطان وينفذ قوانين الدولة العثمانية ويحترمها ، وهذا القسم الذي يسمى "يمين نامه" تلاه البطريرك في حضور خمسة أشخاص ، ولكن الأحداث والأعمال التي قام بها البطريرك بعد ذلك أوضحت أنه خان الدولة العثمانية [2].

فبمجرد ما بدأ يمارس سلطته السياسية بدأ يظهر سوء نيته اتجاه الدولة العثمانية ، فقد تناسى المسؤولية الواقعة عليه جراء قسمه الذي أداه أمام السلطان محمد الفاتح والتعهد بعدم خيانة الدولة العثمانية ، وليس هذا فحسب ، بل ترك البطريرك وهو رأس الكنيسة واجبه الديني واشتغل بالسياسة والتآمر ، وبذلك خان الدولة التي يتبعها ، بل والتشجيع على تشويه سياساتها وتاريخها ، ومد يد المساعدة للمتمردين لإثارة الفتن ، مستغلاً فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية في إطار الحرية التي يتمتع بها . وبذلك تحول التسامح الديني الذي منحه له السلطان محمد الفاتح إلى تسامح سياسي قضى على الدولة العثمانية ، حيث تحولت البطريركية إلى مركز مقاومة وتوجيه لمناهضة الدولة العثمانية .[3]

وعقد الفاتح مع البطريرك (جورجيوس) عقد ذمة يتضمن العديد من البنود بين الطرفين ، يمثل العقد النموذج الأول من العقود التي رأيناها فيما بعد مع الطوائف غير المسلمة لكنه لم يصل إلينا ، بينما وصلنا العقد الذي عقد مع أهل الذمة في حي غلطة – من أحياء استانبول القسم الأوربي – ويحتوي بوجه خاص أحكام مشابهة في موضوع حرية الدين والعبادة المكفولة لغير المسلمين ، ونص ذلك العقد على عدم التعرض بوضع اليد على كنائس أهل الذمة في تلك المنطقة المشار إليها ، أو تحويلها إلى مساجد ، وعدم التدخل في

---

[1] هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ط1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، 1418هـ / 1998م ، ص165 . قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص82 – 83 . ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 25 . شكيب أرسلان : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق : حسن السماحي سويدان ، ط1 ، دمشق : دار ابن كثير ، 2001م / 1422هـ ، ص86 – 87 .
Ahmed Ozel : Islam Hukukunda Milletlerarasi, Munasebetler ve ulke Kavrami , Istanbul , 1982 , P200.

[2] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص28 .

[3] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص129 .

شؤون عباداتهم ، أو السماح لأي ذمي بالتحول عن دينه إلى الإسلام إلا عن طواعية أو تراض منه ، ودون أدنى ضغوط سياسية أو دينية أو حتى اجتماعية تقع عليه.

أمَّا المرسوم المقدم للمطران أنذاك فقد كان يشير إلى الاستمرار بالعمل داخل الكنائس الموجودة على أرض الدولة العثمانية وتعيش تحت إدارتها ، بالشكل نفسه الذي كانت عليه من قبل ، وحتى في عهد الدولة البيزنطية ، سواء من ناحية الشكل العام للبطريركية الأرثوذكسية أو غيرها ، أم من الناحية الوظيفة التي كان يقوم بها المطران نفسه أو الشكل الذي جرى عليه الرؤساء الروحانيون قبله . [1]

ولكي يعبر السلطان العثماني محمد الفاتح للبطريرك عن أهمية ذلك المنصب ، ومنحه كامل احترامه وتقديره لدى الإدارة العثمانية ، قال له أثناء تنصيبه في 858هـ/1454م : "كن بطريركًا، وتقبل كل تهانيه الحارة، كن أيضًا على يقين من صداقتي، وبتمتعك بكامل الصلاحيات المخولة للبطاركة الذين سبقوك". [2] ثم منحه مرسومًا يضمن له ولأتباعهِ من بعدهِ وللأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة ، والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها من قبل. [3] وقد سلمه السلطان محمد الفاتح شارات وظيفتهُ مع الثياب الطقوسية والعصا والصليب الرعوي ،ومنحه "رتبة الباشوية " [4] الرفيعة ذات الشارات

---

[1] نلاحظ أن كل الشروط والبنود التي عقدتها الدولة العثمانية مع أهل الذمة والرعايا غير المسلمين الذين يعيشون على أراضيها. وتحت إدارتها تشبه إلى حد ما ما فعله الصحابة الأوائل ، وخاصة عمر بن الخطاب حينما دخل فلسطين والقدس وبيت المقدس، وهو ما فعله أيضًا عمرو بن العاص حينما دخل مصر ، وغيرهما الكثير من الصحابة الذين تعاملوا مع هذا الواقع بسماحة دينية ، ولمزيد من التفاضل حول هذا الموضوع ، انظر : أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص500 .

هذه المعاهدة المؤرخة في أواخر جمادى الأولى 857هـ / 1453م ، وانظر نصها في :

Ismail Hakki Uzuncarsili : Osmanli Tarihi , Ankara , 1983 , Vol II , P. 7-8 .

يقول (شحاته) إن الصلاحيات القضائية لرؤساء الطوائف غير المسلمة منحها إياهم السلطان سليم الأول عام 1515م ، غير أننا لا نصادف تلك المعلومة في مصدر آخر ، ولدينا مبررات كافية للشك في صحة ذلك ، انظر :

Chehata : Precis de Oroit Musulman , Paris , 1970 , P. 31 .

وسوف نرى أيضًا فيما بعد ، أن المعلومة التي أوردها الباحث المصري حول أن هذه الصلاحية القضائية جرى حصرها عام 1856م في الأحوال الشخصية ، لا تتفق والواقع التاريخي ، انظر المصدر السابق ، ص 31–32 وانظر أيضًا : شفيق شحاته : تاريخ حركة التجديد في النظم القانونية في مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ط1 ، القاهرة ، 1961م .

[2] حسن عزوزي : مرجع سابق ، ص 351 .

[3] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص27 .

Ahmed Akgunduz : Osmanli Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri , Istanbul , 1993 , Vol . I , P . 406 .

[4] "باشا " هي كلمة تركية كانت تستخدم في الدولة العثمانية طوال تاريخها ، ويعتبر من يلقب بها ضمن أصحاب المناصب العالية ووزراء الدولة ، وكبار رجالاتها وهي تعادل لقب وزير حاليًا . شمس الدين سامي : قاموس تركي ، د. ط ، إستانبول : دار السعادة ، 1317هـ ، ص345 .

الثلاث عند خروجهِ من الكنيسة، وامتطى البطريرك صهوة جواد أهداه إياه السلطان محمد الفاتح ، وطاف به مدينة إستانبول مع الرهبان ، ثم توجَّه إلى مكان إقامته [1].

لقد حاز على عدَّة أوسمة ، وحمل رتبة وزير ، كما نال الأساقفة في إستانبول مكانة عالية ، وحظوة لا بأس بها . [2]

ومنذ ذلك الحين أصبح البطريرك – رسميًا على المستوى العثماني – رجل الدولة الرفيع والرئيس الديني والروحي والمدني على طائفة الأرثوذكس ، في جميع بقاع الدولة العثمانية وخاصة أوروبا ، وصار له الحق في إدارة شؤونهم ومنح لقب " رئيس الملة " [3] ، وهذا اللقب يعني الرياسة المدنية مع الدينية . وبذلك اتسعت صلاحياته ، واعترفت به الدولة العثمانية كيانًا دينيًا مستقلاً ، يدافع عن حقوق النصارى ويضمن عدم تدخل السلطات العثمانية فيها ، وبالتالي فهو المسؤول الذي يجب أن تخاطبه الدولة فيما يخص شؤون طائفتهِ ، وباعتباره على درجة منصب وزير ، فقد غدى مرجعًا للأرثوذكس في الدولة العثمانية ، ليس في مسائلهم الدينية فقط ، بل حتى في شؤونهم الحقوقية والجزائية ، وكان تحت يده مجلس يساعده في حكم طائفة الأرثوذكس ، وفي إطار سلطته كان له حق التحدث في ديوان السلطان العثماني في أي وقت يشاء ، وفي أي موضوع يرى فائدة من طرحهِ على الديوان وأمام السلطان العثماني . [4] ولم ينقص من صلاحيات البطريرك شيء بل زادت ، والدليل على ذلك أن المؤرخ (كريتوفولس Kritovoulos) الذي عاصر السلطان محمد الفاتح ، ذكر أن الصلاحيات التي منحت لبطريركية الروم آنذاك لم تكن بأقل مما كان في العهد البيزنطي [5] ، وهذه شهادة من أهلها بسماحة الدولة العثمانية ، والتسامح الذي تعاملت به مع الأديان والمذاهب الأخرى .

---

[1] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج2 ، ص470 . حسن عزوزي : مرجع سابق ، ص351 ، 352 .

[2] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج2 ، ص470 .

[3] وكلمة " ملة " كانت تستخدم بمعنى يختلف كثيرًا عن المعنى الاجتماعي المستخدم حاليًا . حيث أن كلمة " ملة " حسب نطقها بالتركية تؤدي إلى معانٍ متعددة ، فمعناها : الدين ، المذهب ، ومعناها أيضًا الجماعة أو الأمة ، مثل " ملت إسلام " أي "الأمة الإسلامية " ، " ملل مختلفة رؤسائي " أي رؤساء الأمم المختلفة ، ولذلك فليست كلمة " ملة أو ملت " تعني المذهب أو الدين فقط كما رأينا . شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص1400 .

[4] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 128 ، 129 . محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى ، ط1 ، مصر : المكتب المصري ، 1421هـ / 2001م ، ص232 . حسين عزوزي : مرجع سابق ، ص351 .

[5] Benjamin Braude : Foundation Myths of millet system , Christians and Jews in the Ottoman Empire, New York 1982 , Vol . I . P . 78 .

وهناك شهادات من مستشرقين لهم باع طويل في التشويه والافتراء ، تشهد على التزام السلطان محمد الفاتح بسياسة التسامح الديني ، فهذه كاتبة أمريكية [(1)] عاشت في إستانبول في بداية القرن 20 م وسطرت في كتاباتها ونفثت كمًا هائلاً من العداء للإسلام والمسلمين على مدى قرونٍ طويلة ، لكنها وصفت السلطان محمد الفاتح قائلة في كتابها [(2)] :"الواقع أن السلطان محمد [(3)] قد أظهر تسامحًا عظيمًا مع المسيحيين ، وليس أولى على تسامحه معهم من قوله لهم: " إني أقسم بحرمة مساجد الله التي نتعبد بها ، أن أضمن لكم أن تجتمعوا في كنائسهم للصلاة والتضرع إلى الله " . [(4)]

ويشير المؤرخ الفرنسي (كارا دوكو) في كتابه " مفكرو الإسلام " إلى العديد من الأدلة التي تؤكد هذا الأثر الطيب الذي تركه العثمانيون عند تعاملهم بالتسامح الديني مع رعاياهم غير المسلمين فيقول : " حين دخل السلطان محمد الفاتح كنيسة آيا صوفيا ، أراد أن يراعي شعور النصارى ، فلم يشأ أن يمحو العديد من صور الفسيفساء التي امتلأت بها جدران الكنيسة ، وقد كان بإمكانه كمنتصر أن يفعل ذلك ، ولكنه اكتفى بأن أمر رجال دولته بأن تغطى ؛ لأن الإسلام يحرم الصور ". [(5)]

ويكفينا أن نقارن بين وضع البطريك الديني والسياسي في ظل الحكم العثماني، بوضعهِ السابق تحت حكم الدولة البيزنطية فالأشياء بالأضاد تعرف ، إذ كان مجرد متلقي لأوامر الإمبراطور البيزنطي ، ولعل (قول كمال قاربات K.Karpat) يدعم المعلومة السابقة إذ قال: "فخلافًا للفترة البيزنطية ، لم يعد البطريرك خادمًا صاغرًا للإمبراطور، بل أصبح عضوًا معترفًا به ، ومحترمًا من أعضاء السلطان العثماني، ويتمتع بسلطة كاملة على أتباع ملته ".[(6)]

[(1)] الكاتبة الأمريكية الدكتورة " ماري ملز باتريك " .

[(2)] كتاب " سلاطين بني عثمان " الذي ترجم إلى العربية في عام 1933م ، من قبل المترجمين : حنا غصن ، وكامل مروة، وكامل صموئيل مسيحه .

[(3)] المقصود به السلطان محمد الفاتح (1444– 1418م)

[(4)] ماري ملزباتريك : سلاطين بني عثمان ، ترجمة :حنا غصن ، وكامل مروة ، وكامل صموئيل مسيحة ، د. ط ، د. م ، 1933م، ص51 .

[(5)] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص82 .

[(6)] حسين عزوزي : مرجع سابق ، ص351 .

ومن السهل جدًا إدراك هذا ، عند قراءة الفرمانات العثمانية المنظمة لشؤون الكنيسة ؛ فهي تنص على أنه " لابد من النظر في كل أنواع الأمور والمسائل الخاصة بهم ، بمعرفة البطريرك المذكور ".[1] وهي توضح الاستقلال التام والحرية المطلقة التي يتمتع بها البطريرك في تنظيم أموره الدينية.[2]

هذا هو التسامح الديني الذي عبَّر به السلطان محمد الفاتح عن منهجه ومنهج الدولة العثمانية خلال عصورها ، والمرونة السياسية والاجتماعية بين رعايا الدولة وخاصة غير المسلمين .

وقد عدوه أهالي المدن البيزنطية المفتوحة حديثًا منقذًا ومخلصًا لهم من ظلم البيزنطيين، وليس مجرد حاكم جديد ، حيث بدأوا يشعرون لأول مرة بالأمن والثقة. [3]

والحقيقة التي لا شك فيها أن هؤلاء البيزنطيين لم يكن ليعدوا العثمانيين المسلمين وإدارة دولتهم وسلاطينهم منقذين ومخلَّصين لهم من ظلم وبطش الحكم البيزنطي والبيزنطيين، لولا أنهم وجدوا منهم كل تسامح ، ومعاملة طيبة كريمة ، شجعتهم على التصريح بهذا القول ، وساعدتهم على العيش داخل الدولة فترة طويلة .

يمكن القول إن هذا النهج الذي سار عليه سلاطين الدولة العثمانية في زمن انعدم فيه مبدأ التسامح ، مما كان له أكبر الأثر في تيسير الفتوحات ، وهو الذي أدى إلى امتداد سياسة الدولة العثمانية إلى الشرق والغرب مدة تزيد على خمسة قرون متواصلة.

وكان المغامر (يوحنا هونيادي) إبان قتاله العثمانيين قد طلب إليه (جورج برانكوفتش) ملك الصرب أن يمضي في قتالهم ، فسأله برانكوفتش : " وماذا تصنع بديننا إذا أنت انتصرت على الأتراك؟! فأجابه هوينادي : " أحمل الناس على اعتناق الكاثوليكية ، وأقيم الكنائس الكاثوليكية في كل مكان " [4].

والحقيقة أن ما صرَّح به (هونيادي) لملك الصرب هو الواقع التاريخي الذي كانت تعيش فيه الطوائف المسيحية مع بعضها البعض ، فكل طائفة كانت تريد فرض سيطرتها ومذهبها ومعتقداتها الدينية والمذهبية على الطوائف الأخرى، وتكون لها السيادة الدينية

---

[1] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 27 .

[2] Ahmad Ozel : Islam Hukukunda milletle rarasi , manase betlerr ve Wlke kavrami , P200 .

[3] أحمد رفيق : مصدر سابق ، ص 190 .

[4] محمود محمد الحويري : المرجع السابق ، ص 235 . سالم الرشيدي : مرجع سابق ، 128 .

والسياسية ولو بالقوة ، وكلما أتيحت لها الفرصة لفرض ذلك ، وفي المقابل نلمس التسامح الديني مع هذه الطوائف من سلاطين الدولة العثمانية وخاصة السلطان محمد الفاتح ، وبالرغم من انتصاراتهم العسكرية التي تفرض أن تكون لهم القوة والسيطرة ، إلا أن منهج هؤلاء السلاطين يمنع هذا والدليل على ذلك المواقف السابقة نفسها ، وما شابهها فحينما وجه ملك الصرب السؤال نفسه إلى السلطان العثماني محمد الفاتح أجابه : " أقيم إلى جنب كل مسجد كنيسة ، والناس أحرار في دينهم، فمن شاء ذهب إلى المسجد ، ومن شاء ذهب إلى الكنيسة".[1]

وعلى العموم ، فإن العثمانيين ما كانوا استبداديين أو طغاة إلا نادرًا، رغم قسوتهم في أحيان كثيرة ، وذلك إذا ما قارناهم بأوروبا المعاصرة لهم حينذاك ، حيث كان الهوس الديني والتعصب المذهبي ، بينما كان الرعايا العثمانيون المسيحيون في أوربا يتمتعون بأقصى درجات التسامح الدينية [2].

هذه السياسة الحكيمة من السلطان العثماني محمد الفاتح تجعلنا نشير هنا إلى الفروق الشاسعة بين ما فعله هذا السلطان المسلم والكثير غيره من سلاطين الدولة العثمانية ، وبين التصرفات السيئة المناقضة له من ملوك أوروبا مع المسلمين أنفسهم ، عندما كان هؤلاء غير المسلمين في موقف المنتصرين ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة ومتعددة ، ومنها تلك الانتصارات المدَّمرة للمسيحيين خلال الحرب الصليبية الأولى ، وكانتصاراتهم أيضًا على المسلمين في إسبانيا خلال عهودهم الأخيرة ، وكالانتصارات الزائفة لليهود ضد العرب في فلسطين ، فقد كانت دائمًا عبارة عن انتصارات مليئة بالحقد والظلم والدمار وملوثة بدماء كثيرٍ من المسلمين الأبرياء [3].

وفي إطار التسامح الديني العثماني قام السلطان محمد الفاتح بإلحاق مجموعة من الشبان أولاد نبلاء الروم [4] بالقصر السلطاني ، وعمل على تربيتهم تربية عثمانية تقوم على المنهج الإسلامي الصحيح ، ثم عيَّنهم بعد ذلك في بعض مناصب الدول المهمة ، وكان من أشهر هؤلاء : محمد الرومي ، وحاجي مراد باشا وأخوه مسيح باشا ، وهما من أسرة

---

[1] محمود محمد الحويري ، مرجع سابق ، ص 235. بول كولنز : العثمانيون في أوروبا ، ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط1 ، القاهرة ، 1993م ، ص160 .

[2] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص236 .

[3] Melek colak : Osmanli devletinde mormonlar, Tarih ve toplum, 35 No 210 Jun 2001 P 23-27 .

[4] كانت تطلق كلمة (الروم) في الدولة العثمانية على البيزنطيين الذين بقوا ضمن رعايا الدولة العثمانية في إستانبول بعد فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية. انظر : شمس الدين سامي ، مصدر سابق، ص675 .

(باليولوج) المشهورة في القسطنطينية قبل فتحها . واشتغل هؤلاء النصارى في الأعمال المالية والإدارية المهمة داخل الدولة العثمانية، وقد عاد إلى إستانبول بعد الفتح الإسلامي العثماني بعض كبار الشخصيات الرومية الذين فروا إلى الغرب وعاشوا فيه حياة اتسمت بالفقر والحاجة والتشرد ، ومنهم على سبيل المثال (مانويل باليولوج) الذي عين على جمارك إستانبول عقب الفتح الإسلامي العثماني للقسطنطينية [1] .

ومن أهم المناصب التي تولوها كانت في الجمارك وكتابة رسائل السلطان ، إذ إن المراسلات السياسية التي يرسلها السلطان محمد الفاتح من ديوانه إلى الغرب ، والمعاهدات التي يعقدها ، كانت تكتب باللغة الرومية، مما كان يستدعي بطبيعة الحال أن يكون العاملين في المجال الإداري والمكتبة من الروم ، وهم الذين يكتبون هذه الرسائل وتلك المعاهدات [2]. مما يلفت انتباهنا إلى المكانة السياسية والإدارية العالية والثقة التي تعامل بها هذا السلطان الفاتح مع هؤلاء الرعايا المسيحيين في مركز الدولة .

كما أن بعضهم أتقن اللغة العربية ، فعملوا مترجمين في الديوان السلطاني العثماني، يديرون العلاقات بين الصدر الأعظم ومساعده من ناحية ، وبين سفراء الدول الأجنبية من ناحية أخرى . ولمَّا كان الروم التابعين للكنيسة يحتلون كل مناصب أعمال الترجمة تقريبًا ، فقد كان لهم الدور الخطير في خيانة الدولة العثمانية والعمل على هدمها ، فأثروا تأثيرًا خطيرًا على مصيرها ومستقبلها السياسي والديني الداخلي والخارجي ، وخاصة في عهد ضعفها وصراعاتها الداخلية ، وحالات الاستقلال والثورة في الولايات العربية ، والصراعات الخارجية مع الدولة الأوربية ، وخاصة العظمى منها كإنجلترا وفرنسا حينذاك ، واقتراب موعد سقوطها النهائي ، ومن ثَّم تقسمت ولاياتها وخاصة العربية والإسلامية منها ، وانحصرت الدولة العثمانية في تركيا والحدود الغربية منها فقط . وقد تركزت أعمالهم في الآتي :

١) إثارة شعوب البلقان ضد الدولة العثمانية ، عن طريق خروج الشعراء والمثقفين بكتابات تشوه الحكم العثماني وتتهمه بجميع التهم .
٢) الوقوف عقبة أمام الاتفاقيات التي تعود بالمنفعة على الدولة العثمانية .
٣) العمل على استغلال المشكلات الخارجية .

---

[1] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 41 .

[2] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص129 .

٤) عدم تمكين الدولة العثمانية من اتخاذ قرار مفيد للدولة العثمانية .

٥) العمل على إخراج الترجمة بشكل مخالف للحقائق في علاقة الدولة بمن حولها . [3]

وهكذا رأينا أن إدارة الترجمة المشار إليها كان لها دور كبير في هذه اللعبة السياسية الخطيرة التي أدَّت إلى سقوط الدولة العثمانية . وبجانب إدارة الترجمة في الديوان السلطاني ، كانت هناك إدارة للترجمة في قيادة الأسطول السلطاني التي أوكلت جميعها إلى الروم أيضًا ، تحت مسمى ولقب " ترجمان الترسانة " [1]، كما أنهم عملوا في إدارة الأفلاق والبغدان التي كانت تسمى"المملكتين " [2] إبان الحكم العثماني لها ، ونرى بذلك أن إدارة كل الأراضي التي يقيم فيها الروم قد أسندتها الدولة العثمانية إلى هؤلاء الأشخاص الذين عرفوا في اللغة العثمانية باسم "هوسبودار" عين الأمير [3] .

وعلى الخطوات نفسها سار السلطان الفاتح مع اليهود ، حيث وجدوا التسامح والتقدير نفسه، وعين على رأس الطائفة اليهودية حاخام كبيرًا (حاخام باسي) أي رئيس الحاخامات (موسى كابسالي Mosses Kapsali) ، وقد منحه سلطات وامتيازات البطريرك الأورثوذوكسي نفسها ، وتمتع بسلطات واسعة كما نُظمت شؤون تلك الطائفة في كافة أنحاء الدولة العثمانية ، حتى تحسن وضع اليهود ، وأضحت الدولة العثمانية ملجأ لليهود الفارين من اضطهاد روسيا وأوروبا، خاصة بولونيا والنمسا وإسبانيا ، واحتلوا في إستانبول وغيرها أهم المراكز الاقتصادية والتجارية[4].

وعن الملة الأرمينية ، فيمكننا القول إنها أيضًا مرت بتطورات مشابهة، إذ يدور الجدل حول أن البطريرك الأرمني الذي عينه السلطان محمد الفاتح ، كان ذا سلطة على كافة الطوائف الأرمينية وعلى كنائسها ، فهناك من يذهبون إلى أن "بواكيم " مطران إحدى

---

[3] مرجع سابق ، ص129 – 130 .

[1] " الترسانة " : كلمة مأخوذة في الأصل من " دار الصناعة " وهي المكان المخصص لإنشاء وتعمير جميع السفن والمراكب الخاصة بأعمال الدولة ، سواءً كانت حربية أم خاصة بالمراكب التي يركبها الخليفة أم السلطان العثماني، أم من المراكب .

[2] الأفلاق والبغدان : إحدى المراكز التي كانت تتشكل فيها الدولة الرومانية في أوربا ، وهما من السهوب الواقعة في شمال البحر الأسود ، وبعد ضم العثمانيين إليها كانت بمثابة مستودع لتموين عاصمة الدولة العثمانية استانبول .انظر :

M. Brendei –G. Veinstein : Reglements fiscaux et fiscalite de province de Bender- Aqkerman 1570, cahiers du Monde Russe et Sovietique, XXII, 1981, P.251-328 .

[3] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 43 .

[4] Mark A. Epstein : " The leadership of the Ottoman jews in fifteenth centuries , Christians and Jews in the Ottoman Empire , New York , 1982 , Vol . I , P. 104 .

الكنائس في بورصة جرى تعيينه بطريركًا ، فأصبح الزعيم الروحي والقضائي على كافة الأرمن ، وأن نظام الملة الأرمنية تأسس عام 866هـ/ 1461م . [5]

وفي هذه الحالة ، يمكننا القول إن البطريركية الأرمنية كانت تنظم الطائفة الأرمنية بكاملها منذ ذلك القرن 11هـ / 17م على الأقل . وأدى هذا النوع من التنظيم إلى أن أصبح الرؤساء الدينيون رؤساء الملل ، وممثلين لطوائفهم في أمور الدين والقضاء على السواء ، ومن ثم فهم المسئولون عن طوائفهم ، والممثلون لها أمام السلطات العثمانية [1] ، ولهذا استطاعت تلك الطوائف أن تتمتع بقدر معين من الحكم الذاتي .

وردًا لجميل الدولة العثمانية شوَّه الأرمن علاقتهم بها ، من إدعاء للمذابح الأرمينية التي راح بسببها على حد قولهم – ضحايا كُثر ، وردد تلك الافتراءات المستشرقون على أنها حقائق واقعة لا مراء فيها ، بل حاولوا إيجاد الأدلة والبراهين الواهية الضعيفة لتأكيد الحدث .

ومن ناحية أخرى ، كانت هناك طوائف مسيحية أخرى – عدا تلك الطوائف الثلاث – لم يكن معترف بها كاملة ، أو جرى الاعتراف بها بعد مدة طويلة ، مثل الكاثوليك والبروتستانت وغيرها . ولكن وبالرغم من تأخر هذا الاعتراف ، إلا أنها كانت تمارس شعائرها الدينية وطقوسها بكامل حريتها في ظل التسامح الديني الإسلامي العثماني ، وجرى الاعتراف بطائفة الأرمن الكاثوليك على أنها ملة مستقلة في عام 1246هـ/ 1830م . [2]

والتاريخ خير شاهد على التزام سلاطين آل عثمان الذين أعقبوا السلطان محمد الفاتح بكل الامتيازات التي منحها هذا السلطان العثماني للنصارى والمسيحيين عامة ، بل إن امتيازات النصارى في الدولة العثمانية زادت بسبب بعض الظروف السياسية ، ونتيجة لبعض الضغوط الخارجية ، حتى وصل الأمر بأن أصبحت البطريركية " دولة داخل دولة " ، وبتعبير آخر فإن البطريرك وأعوانه لم يكتفوا بالحفاظ على كيان الكنيسة وكيانهم فقط، بل أصبح مدى النفوذ والسلطة اللذين يتمتعون بهما في ظل الحكم والإدارة العثمانية المسلمة أكبر بكثير مما تمتعوا به في ظل أعظم عهود بيزنطة النصرانية قوة ، وقام البطريرك في داخل الدولة العثمانية المسلمة بدور أكثر أهمية من ذي قبل ؛ ويرجع ذلك إلى تلك الامتيازات التي

---

[5] Gibb – Bowen , Op . cit , Vol, II, P. 221 .

[1] Gibb – Bowen ; OP . Cit , Vol II , PP. 212 – 213 .

[2] Op.Cit , Vol II P. 247 .

منحتها الدولة العثمانية وإدارة سلاطينها للكنيسة وأتباعها، وقد شهد الغربيون على هذا واعترفوا به[3].

وخير شاهد على تسامح السلاطين العثمانيين وتمسكهم بتعاليم الشريعة –بعد الفاتح – هذا الموقف ، فقد أراد السلطان سليم الأول تخيير المسيحيين في إستانبول بين الإسلام أو الرحيل خوفًا من ثورتهم يومًا ما ، فاستفتى شيخ الإسلام في ذلك ، فقام له شيخ الإسلام وقال له : " لا يحق لك هذا ، والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دمائهم وأموالهم " ، وأصدر فتوى بعدم جواز التعرض لأديانهم وأرواحهم ، فأذعن السلطان للفتوى ولم يفعل ما عزم عليه.[1]

وهنا كان لابد لنا من وقفة قصيرة لنشير إلى أن عدد أهل الكتاب ما كان ليزداد تلك الزيادة التي سجلها التاريخ الإسلامي ، لو لم يكونوا يتمتعون في كنف العثمانيين المسلمين سواء أكانوا حكامًا أم محكومين وأهالي بالحرية الكاملة في عقيدتهم ، وعبادتهم وحرياتهم الشخصية ، ولو لم يكونوا أيضًا يتمتعون بالأمان والاستقرار الذي وفره لهم عدل الإسلام وسماحة الشريعة الإسلامية .

لكن هذا التسامح مع أهل الذمة قوبل بالإساءة للدولة العثمانية المسلمة ؛ لأنهم أصبحوا النواة التي تدعم الثورات وتأجج نارها ، وربما لو خرجوا في تلك الأيام لتغير الحال ، الأمر الذي جعل التسامح الديني قد يتحول إلى تسامح سياسي جلب الوبال على الدولة العثمانية وأدى إلى سقوطها في نهاية الأمر .

ولنعرض صورًا للتسامح الديني في ترميم الكنائس مثلاً ، فقد كانت البطريركية تراعي عند القيام بترميم أي كنيسة أو ما شابهها من دور العبادة عندهم، أن يكون هذا الترميم في شكل يناسب شكل بنائها القديم ، وألا يزاد عند الترميم أي إضافات معمارية عليها ؛ حتى لا يتغير الشكل الذي اعتادت عليه. أما عند إنشائها كنيسة جديدة فالقانون العثماني كان يشترط الاستئذان في ذلك ؛ لا لشيء سوى التنظيم الإداري والديني لدور العبادة داخل الدولة العثمانية .

---

[3] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 27 .

[1] مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص104 . شكيب أرسلان : مرجع سابق ، ص 328 . أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص43 . زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص77 .

ودرجت السلطات العثمانية على الموافقة الفورية لطلب إنشاء كنيسة أو دير في بعض مناطق الدول ، وكان من بين الحقوق العديدة التي منحتها الدولة العثمانية والسلاطين على مدار عصورهم للنصارى ، الحق في إنشاء كنائس لهم في الأماكن التي لا يوجد فيها كنيسة ، بمعنى أنه يمكن إنشاء كنيسة في كل مكان فيه نصارى [2]، وكانت هذه الحقوق والامتيازات التي حصلوا عليها داخل الدولة العثمانية ، ضمن الاتفاقات والعهود التي بين السلاطين العثمانيين وبين بطاركة الروم الأرثوذكس في أواخر جمادي الأول 857هـ /1453م ، وكانت تلك الاتفاقات تنص على حرية الدين والعبادة المكفولة لغير المسلمين وعدم التعرض بوضع اليد على كنائسهم، أو تحويلها إلى مساجد وعدم التدخل في شؤون عباداتهم، والسماح لأي منهم بالتحول عن دينه إلى الإسلام ، وغيرها من الصلاحيات والامتيازات والحقوق التي لم تكن ممنوحة لهم في عهد الدولة البيزنطية [1].

قال الأمير (فان ديمتري) أمير الافلاق – في كتابه " تاريخ الدولة العثمانية"– كلمة درجت وذهبت بين الروم ، وأخذوا يتناقلونها فيما بينهم ، ما مفاده: " لقد قام الوزير العثماني – الصدر الأعظم حينذاك مصطفى فاضل باشا– ببناء كنائس أكثر مما أقام جستنيان" [2].

ولا يمكن إنكار أن هذا التصرف قد تسبب في أضرار كثيرة ؛لأن الأحاسيس القومية لدى النصارى قد هاجت بعد الفعاليات الثقافية وغير الثقافية ، مثل الإرساليات التنصيرية التي تجمعت كلها حول الكنائس ، هذا الشعور الذي أثر تأثيرًا واسع المدى في الدولة العثمانية وكان سببًا في هدمها ، والدليل على ذلك ما نتج عن ثورة اليونان التي كانت تدور حول فكرة اليونان الكبرى ، وهي أحد أسباب ضعف الدولة العثمانية وسقوطها .

وكانت الدولة العثمانية تحترم كذلك الآثار الحضارية الموجودة في أراضيها وخاصة خلال القرن 13هـ/19م ، حيث قاموا بطلاء جدران وسقف جامع أيا صوفيا – زالت معالم الكنيسة فيها بالداخل حتى الآن ، بالرغم من هدم الصلبان من على قبتها وتزويدها بمنارات ومآذن خارجية – كما فعلوا ذلك في بقايا كنيسة القديسة (هيلينا) الموجودة بالقرب من أحد جوامع حلب ، حيث قاموا بزخرفتها بعد ترميمها وصيانتها من الدمار والخراب، فوقف عليها

---

[2] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص 29.

[1] Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Tarihi, Ankara , vol . 4 , P.7-8 .

[2] أحد بطاركة الروم الأرثوذكس في استانبول خلال العهد البيزنطي وقبل دخول السلطان محمد الفاتح والسيطرة عليها عام 857هـ/1453م . أنظر ثريا شاهين ، مرجع سابق ، ص30 .

المسلمون يشاهدون ذلك التنسيق الفني والجمال المعماري بكل سرور ، حتى إن القناصل الأجانب المتواجدين على أرض الدولة العثمانية طلبوا شراء الحجارة المتساقطة من تلك الكنيسة التي أوشكت على الهدم لولا الإدارة العثمانية وما قامت به من جهود في الترميم ، وبما يعادل ثمنها ووزنها ذهبًا ، وقد أفاد والي حلب في تلك الفترة (بكر باشا) بأن الحجارة المتبقية هناك من هذه الكنيسة باقية فيها منذ عهد قسطنطين الكبير ، وأنها ستستمر في مكانها بالكنيسة ما دامت الإدارة العثمانية تشرف على صيانتها [3].

كما حصلت الكنيسة على الحق في بناء كنائس جديدة في المناطق التي لا يوجد فيها كنائس من قبل ، مما أدى إلى إثارة الروح القومية لدى النصارى، واستخدام الكنائس في أغراض غير مشروعة ؛ كقيام أتباعها بأعمال الجاسوسية لحساب الدول الأجنبية لإثارة الرأي العام ضد الدولة العثمانية على اعتبار أنهم أقلية مظلومة . [1]

و حرية إنشاء المدارس الدينية في الكنيسة جعلها تكون أول مؤسسة يقوم بتجنيدها البطريرك " مدارس الكنيسة " ، وطبقًا للقانون العثماني كان البطريرك وأساقفته هم الذين يفتحون تلك المدارس ويديرون شؤونها التعليمية والإدارية ، حتى إنه بدأ بافتتاح المدارس بعد فتح القسطنطينية مباشرة ، ولم يكن للسلطات العثمانية الحق في التدخل في هذه المدارس أو حتى برامجها التعليمية ، وقد ألحقت المدارس بالكنائس ، وكان القساوسة هم من يقوم بالتدريس في هذه المدارس ، وقد أسس (جورجيوس) مدرسة الشعب الكبرى ، كما فتح الأساقفة الآخرين في مناطقهم مدارس للعلم ، وهكذا استغلوا هذه المدارس في نشر اللغة اليونانية وجعلها لغة رسمية لهم ، واستبعاد اللغة العثمانية عن برامج التعليم في مدارسهم .

كما بدأوا في إرسال النصارى إلى أوروبا للدراسة ، ثم تحويلهم إلى رهبان ومستشرقين على حدٍ سواء . وقد قابل هؤلاء المنصرين هذا التسامح بهدم مساجد المسلمين ومدارسهم ، بالإضافة إلى أن البعثات التنصيرية نالت حريتها في ممارسة نشاطها التعليمي في يسر وسهولة ، حتى إن بعض الولاة العثمانيين قدموا لهم التصريح بالعمل على أنها بعثات لتعليم النصرانية . [2]

---

[3] يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، مصدر سابق ، ج2 ، ص 470 .

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص130 .

[2] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص232 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص128 .
M.H.M. Sarkar : The muslim world, op. cit, p. 22-24 .

وهذا يعتبر من الأخطاء التي لم تستطع الدولة العثمانية تداركها حيث تركت لهم حرية التعليم ، فوجِّه للوجهة التي أرادتها الكنيسة ، فأنشأت جيلاً من المفكرين والمستشرقين قادرًا على اختراق جدار الدولة العثمانية والعمل على هدمها.

وقد استغلت البطريركية أيضًا عدم تدخل السلطات العثمانية في الكنيسة وأن لها حماية ضد أي تفتيش ، ونتيجة لهذه الحرية المطلقة التي نعمت بها الكنيسة من قبل الحكومة العثمانية، فقد استغلتها في تخزين الأسلحة والذخيرة والمعدات الحربية داخل ردهاتها وسراديبها ، وكانت تصل إليها الأسلحة داخل صناديق المواد الغذائية والإعانات التي تفد إلى الكنائس المنتشرة في كل منطقة.[3]

وبالتالي تستخدم هذه الأسلحة في مساعدة المتمردين والثوار ضد الدولة العثمانية ، وللفتك بالمسلمين ، ومن ثم يأتي دور المستشرقين الذين يسعون إلى قلب الحقيقة ، وتصوير الصراع على أنه قتل وتعذيب من العثمانيين للنصارى والأقليات الدينية .

ولم يكن توجيه الكنيسة لرعاياها للعمل على الاستقلال عن الدولة العثمانية فقط، بل تعدى ذلك الأمر إلى توجيه دعوتها لرعاياها في الداخل والخارج للعمل على تغيير أفكار الدولة، وتغيير مفاهيمها الدينية والسياسية ، والتوغل داخل أراضيها للعمل على هدمها وإسقاطها ، فتنوعت الأساليب وتعددت الأهداف ، واتفق الجميع على العمل في شكل وقالب واحد ، فخرجت الرحلات والاستكشافات لمعرفة المزيد من المعلومات عن بقية أهالي الدولة العثمانية وأراضيها وخاصة العربية منها والإسلامية ، وخاصة الجزيرة العربية التي تعد بمثابة مركز الدين الإسلامي المتمثل في مكة المكرمة ، وهذه المعلومات تدعم المستشرقين في كتابتهم، فكان لابد من السعي وبهمة للتوجه إلى تلك المناطق وبدعم من الكنيسة والحكومات الغربية والأوروبية المسيحية للبحث عن سبل لتنفيذ مخططاتهم لهدم كيان الدولة العثمانية .

واستمر هذا المنهج بشكل مستقر تقريبًا على مدى تاريخ الدولة العثمانية وكان عدد أهل الذمة الموجودين في الأساس منذ قيام الدولة قد أخذ في الزيادة، حتى شكل قدرًا لا يستهان به من مجموع الرعايا ، واستمر ذلك إلى نهاية عهد الدولة العثمانية . ويبدو أن

---

[3] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص144 . ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص29 .

الدولة العثمانية في تلك الفترة كانت تجري على هذا النهج المستقر الذي رأيناه في الدول الإسلامية التي سبقتها.

من جهة أخرى ، فقد ساعد على توفير أجواء التسامح تجاه أبناء الطوائف الدينية الأخرى ؛ كون اجتهادات الفقه الحنفي في مجال أحكام أهل الذمة تتسم باليسر والمرونة ، مقارنة بغيرها من المذاهب ، وهو ما لاحظه – فضلاً عن الباحثين المسلمين – كثيرٌ من الباحثين الغربيين خلال حديثهم عن بعض القضايا والمسائل المرتبطة بالذميين ، (توماس أرنولد) تحدث عن بناء الكنائس في الدولة الإسلامية فقال : " ويختلف فقهاء المسلمين في هذه المسألة اختلافًا واضحًا ، ومن أكثر المذاهب تسامحًا ، المذهب الحنفي الذي يعلن أنه على الرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود مخالف للشرع ، إلا أنه يمكن إصلاح ما كان قائمًا إذا ما ضرب أو اعتراه القدم ، كما يجوز بناء كنائس ومعابد يهودية جديدة في القرى والضياع التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية " .[1]

وفيما قاله (توماس) دلالة واضحة على التسامح الديني الذي تعاملت به الشريعة الإسلامية مع غير المسلمين ، حتى إنه يشهد بقيام الإدارة الإسلامية العثمانية الحاكمة في الدولة الإسلامية – وطبقًا للمذهب الحنفي – بالترميمات اللازمة والإصلاحات الضرورية للكنائس ، أو حتى معابد اليهود التي أشرفت على الهدم والخراب ، مع أن بناءها يعد مخالفًا للشريعة الإسلامية، ألا أن الشريعة – وطبقاً لهذا المذهب أيضًا – لا تمانع من بناء الكنائس والمعابد اليهودية الجديدة ، ولكن بشرط أن تكون في القرى والضياع التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية كما تم توضيحه . [1]

وإن هذه الأحكام الفقهية والتشريعات الإسلامية وخاصة القضائية منها ، لتدلنا دلالة واضحة على مدى التيسير الذي تعاملت به الشريعة الإسلامية ومذاهبها الفقهية وخاصة المذهب الحنفي حتى مع الطوائف غير المسلمة سواء أكانوا يهودًا أم مسيحيين ، واضعة في الاعتبار العامل النفسي الذي يتعامل به غير المسلم مع الدين الإسلامي والمسلمين ، في الوقت الذي يشدد فيه الدين الإسلامي بأحكامه الفقهية وتشريعاته القضائية على عدم خروج المسلمين عن النهج الذي وضعه الدين الإسلامي في التعامل بلين ورفق مع أهل الديانات

---

[1] توماس أرنولد : مرجع سابق ، ص84 .

[1] توماس أرنولد : مرجع سابق ، ص84 .

الأخرى والذميين ، أليست هذه الفروق التشريعية والأحكام الفقهية لتدل على التسامح الديني الإسلامي مع الرعايا غير المسلمين ؟!.

في ذات الوقت عانى المسلمون في المناطق التي كانت تحت الحكم المسيحي الكثير من الاضطهاد ، ولم يقابل المسلمون فيها أقل درجة من التسامح الديني الذي تعاملت به الدولة العثمانية مع رعاياها غير المسلمين والذميين والطوائف الأخرى ، فأين كتابات المستشرقين المتعلمين المثقفين عن مثل هذه الأمور والمذابح التي كانت تتم في حق المسلمين ؟ .

لقد كان علماء الإسلام رحمة على الشعوب جميعها ، بينما باباوات الكنائس نقمة حتى على شعوبها ،[2] ومحاكم التفتيش وأفعالها المشينة خير دليل على ذلك .

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يعتمدوا في تنفيذ أوامرهم وأحكامهم الصادرة منهم على القضاة الشرعيين الذين توزعوا على الولايات العثمانية ، وهؤلاء كانوا ذوي قدر وحظوة بين رجال الدولة العثمانية ، ولشيخ الإسلام والمفتي دور كبير في حماية وتنفيذ التعاليم الصادرة من السلطان وفق النصوص الشرعية، وخاصة فيما يتعلق بفقه أهل الذمة ، وفي هذا حرص من السلاطين العثمانيين على تطبيق الأحكام الشرعية في البلاد وحماية الذميين ، وحتى تفوت الفرصة أمام أية تدخلات أجنبية في شؤون البلاد . [1]

وإذا كان السلطان محمد الفاتح قد سعى إلى استمالة الكنيسة الأرثوذكسية – كونه راعيها وحاميها ضد البابا في روما – فقد سارت الدولة العثمانية بعد ذلك على هذه السياسة نفسها التي عرفت في التاريخ العثماني باسم " الاستمالة " . ويمكن تعريف سياسية الاستمالة هذه بأنها تقوم على جذب الأهالي والسكان المحليين من غير المسلمين ، واستمالتهم لطاعة الإدارة العثمانية ، وذلك بتقديم الامتيازات المختلفة لهم، ثم إرساء دعائم الحكم العثماني في مناطقهم بعد ذلك [2].

والحقيقة أنه بناء على هذه السياسية التي انتهجتها الدولة العثمانية مع غير المسلمين من رعاياها ، كانت أيضًا تتكفل الإدارة العثمانية بحماية هؤلاء في ممارسة كافة شعائرهم الدينية ، وهذا المسلك القويم من الدولة العثمانية جعل لها مكانة وصيتًا له تأثير إيجابي بين

---

[2] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 43 .

[1] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص350 .

[2] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 233 .

السكان المسيحيين ، ودعاية سياسية كبيرة بين الدول الأوربية التي ترعى هذه الطوائف دينيًا ، ودل على نزاهة سلاطين الدولة العثمانية .

والحقيقة أن الأتراك العثمانيين كانوا أقوياء ، فحكم الدولة العثمانية الإسلامية الجديدة سلسلة من الحكام والسلاطين العثمانيين القادرين الذين اتبعوا سياسة التسامح الديني نحو رعاياهم من غير المسلمين ، فاستطاعوا بذلك أن يستميلوا الكثيرين من الأمراء المسيحيين المنشقين على حكوماتهم . [3]

وإن من يرى هؤلاء المسيحيين في عهودهم السابقة عن الدولة العثمانية يستشعر الفرق الكبير بين تلك الحقبة من الزمن ، وبين عهد الدولة العثمانية الذي بدأ مع دخول السلطان محمد الفاتح القسطنطينية ، حيث تحرروا معه من النظام الإقطاعي وأعبائه ، وعاش المسيحيون الذين كانوا يتحصنون خلف القلاع لدفع هجمات الغزاة في ظل حماية دولة إسلامية ذات نظم سمحة،وسياسية دينية مرنة.

وعلاوة على ذلك ، كانت هناك مظاهر أخرى مهمة لسياسة الاستمالة التي اتبعها العثمانيون ، تتمثل في حمايتهم لكنائس الأرثوذكس وأديرتهم وإعلانهم العفو عن بعض الضرائب التي كانت مفروضة عليهم ، أو عنها كلها في بعض الأحيان، والعمل على ترك ممتلكاتهم الدينية في تلك المناطق كما هي ، بالإضافة إلى إلغاء الامتيازات الخاصة بالطبقة العسكرية المحلية الإقطاعية ، وضم هذه الطبقة إلى النظم العسكرية العثمانية [1].

وهكذا نجح العثمانيون في استمالة المسيحيين والكنيسة والطبقات العسكرية التي كانت موجودة في المناطق المفتوحة ، حيث وطدت هذه الإجراءات أقدامهم هناك حتى إن العثمانيين في كثير من غزواتهم في المناطق المختلفة ، كانوا يلقون كثيرًا من الترحيب من جانب المسيحيين أنفسهم نتيجة هذا التسامح الديني ، فقد كانت سمعتهم الحسنة تسبقهم ، بل ويعدونهم مخلِّصين لهم من الحكم الظالم المستبد، حتى إنه عندما يخرج الحكم العثماني من منطقة يطالب أهلها بعودة حكمهم ، مثلما حدث عندما أخذ أمراء البندقية جنوب اليونان ، فقد

---

[3] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة ، ص79 ، نقلاً عن الدكتور فاضل حسين : محاضرات عن مؤتمر لوزان في البلاد العربية (د. ط) ، 1958م .

[1] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 234 .

ثار أهلها المسيحيون على البنادقة لمنعهم من إقامة شعائرهم الأرثوذكسية وطردوهم ، وطالبوا بالرجوع إلى حمى الدولة العثمانية لعدم تعرض هؤلاء لشعائرهم الدينية [2].

ولعل انتشار المدارس التنصيرية داخل أراضيها يعتبر من أكثر الآثار سلبية للسياسة التسامح الديني التي اتبعتها الدولة العثمانية ، فإن تسامحها وسماحها بوجود تعليم للمدارس التنصيرية داخل أراضيها أدى إلى أن يجوبها كثير من المستشرقين طمعًا في كتابة المزيد عنها، وكان ذلك أحد الأسباب التي أضعفت كيان الدولة ، بل أدى إلى سقوطها في النهاية .

وقد انتشرت البعثات التنصيرية الكاثوليكية ، وقد انضمت إليها البعثات البروتستينتية والتابعة للعديد من دول أوربا حينذاك ؛ نتيجة للتساهل السياسي ، والتسامح الديني ، وأنشأت مدارسها الابتدائية والثانوية للبنين والبنات ، في أنحاء معظم الولايات العربية والإسلامية ، وبصفة خاصة في المناطق التي تتجمع فيها الطوائف النصرانية ، مثل لبنان ، وشمال العراق ، ومصر ، وتعدتها إلى بعض مدن تونس وطرابلس الغرب ليبيا حاليًا وتغلغلت أحيانًا إلى أعماق الريف [3].

وقد تُرك لهذه البعثات – بادئ ذي بدء – حرية العمل ، أي دون تدخل من الدولة الحاكمة ، إلا أن الدولة العثمانية ما لبثت أن أخضعتها لنظارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) ، وألزمتها بتدريس اللغة العثمانية مادة مستقلة بجانب المواد الأخرى [1].

ولم ينته الأمر عند هذا الحد من التسامح الذي جاء بهدم الدولة تدريجيًا من الداخل ، بل تعداه إلى أكثر من ذلك ، حيث إن هذه البعثات كان اهتمامها بالتعليم الأساسي بالإضافة إلى إنشاء مؤسسات تعليمية عالية ، وقد ابتدأ هذه الطريق " البعثة البروتستينية الأمريكية " التي قدمت إلى بلاد الشام في الربع الأول من القرن 13هـ/19م ، فبعد أن أنشأت عددًا من المدارس الابتدائية والثانوية ، ودور المعلمين في بيروت ، وقرى لبنان ، دمشق وحمص وحماة؛ وحلب [2]، قررت إنشاء " كلية بيروت الإنجيلية السورية" في بيروت ، وافتُتحت عام

---

[2] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص 44 .

[3] محمود حسن منسي : تاريخ المشرق العربي الحديث ، د. ط ، مصر ، د.ت ، ص88 .
Ekmeledelin ihson : osmanli penleti, tarih ne medeniyet , 1998, vol .II , p.398
.

[1] فاضل مهـدي بيات : التعليم في العراق في العهد العثمـاني ، دراسة تاريخية على ضوء السالنامات العثمانية ، المجلة التاريخية ، العدد 57-58 ، تموز 1990م ، ص 141-142 .

[2] نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الأجنبية الدينية في العالم العربي ، محاضرات ألقيت على طلاب قسم الدراسات التاريخية ، معهد الدراسات العربية العالية، 1959-1960م ، ص18-19.

1283هـ/ 1866م، وتحولت رسميًا عام 1338هـ/ 1920م إلى "جامعة بيروت الأمريكية "، وقد أنشئت فيها الكليات المختلفة واحدة بعد الأخرى كالطب والصيدلة والتجارة والتمريض ، مع إنشاء مستشفى . ثم طب الأسنان وكلية الهندسة ثم الزراعة ، وكانت لغة التدريس فيها اللغة العربية حتى عام 1292هـ /1875م ، ثم استعيض عنها بالإنجليزية ، وقد وفد إليها الطلاب من مختلف الجنسيات ، وبصفة خاصة من الولايات العربية المجاورة كالعراق والشام ومصر ، وألحق بالجامعة مكتبة ضخمة، ومستشفى ضخم في بيروت ،وأنشأت البعثة التنصيرية مستشفى آخر في دير الزور ، وثالثًا في طرابلس ، وأسست أيضًا كلية للاهوت ، ومجلة سنوية ونشرة دينية دورية ، ومطبعة . [3]

ووسعت دائرة عملها بإنشائها كليات تعليمية أخرى في بيروت ، وصيدا، والنبطية ، وطرابلس ، وحلب ، وكان من جملة النشاطات الثقافية لهذه البعثة ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ، وكتب في العلوم والرياضيات والفلسفة، ونشر مؤلفات عربية ومعاجم لغوية عربية [4] ، وكان لخريجيها دور كبير في دعم الحركة التنصيرية داخل هذه المناطق العربية .

الحقيقة أن الدولة العثمانية – وحتى عهد التنظيمات – تركت التدخل في شؤون العناصر غير المسلمة فيما يتعلق بموضوع التعليم والمدارس الخاصة بهم ، ولم تحرك ساكنًا إلا بعد أن استغلت بعض الدول الغربية والأوروبية هذه العناصر؛ لتفرض حمايتها عليها ، مما جعل الدولة تضع بعض الضوابط على القوانين والأنظمة والقرارات للحد من نشاطاتها المعادية، ففرمان الإصلاحات الذي صدر في سنة 1269هـ / 1852م وضع لأول مرة شروطًا على مدارس الطوائف الدينية ، ومما جاء فيه : " يحق لكل طائفة في إقامة مدارس خاصة بها في مجال التربية والحرَف والصناعة ، على أن تخضع المناهج الدراسية في مثل هذه المدارس ، واختيار معلميها وأعضاءها لمراقبة وتفتيش من قبل مجلس مشترك يعين أعضاؤه من قبلنا ". [1]

وبعد إعلان التنظيمات قامت الطوائف غير الإسلامية بإحياء مدارسها وإصلاحها في داخل الدولة ، كما قام أفرادها بإرسال أبنائهم إلى الخارج لأجل الدراسة والتحصيل .

---

[3] Edmon Howie : the American university ad Beirut , Beirnt 1951, ph.k. Hilti : lebanan in Histery , 1957, P. 454 .

[4] OP. cit Osmanli penleti, OP .cit . P. 399 .

[1] فاضل مهدي بيات: التعليم في العراق في العهد العثماني ، ص415 ، 416 .

أمَّا القرارات والأنظمة التي أصدرتها بهذا الخصوص فقد كانت محاولة منها لتنظيم هذه المدارس بالشكل الذي تتمكن هي من الإشراف عليها أو مراقبتها على أقل تقدير ، فعندما أصدرت في سنة 1286هـ / 1896م نظام المعارف العام خصصت بعض مواده لتدرس في هذه المدارس ، منها على سبيل المثال المادة رقم 129 التي عرَّفت المدارس الخاصة بأنها : المدارس التي تقام من قبل الطوائف الدينية ، أو من قبل أفراد من رعايا الدولة ، أو من قبل أجانب في الدولة يعيشون فيها . [2]

غير أن الدولة في حقيقة الأمر ، كانت تتوجس خيفة من هذه المدارس ، وذلك في الوقت الذي كانت تمر فيه الدولة العثمانية بظروف غاية في الحساسية، بل ومهددة من الناحية الأجنبية ، وكانت إدارة الدولة على علم بالنوايا المبيتة للقائمين على هذه المدارس ، وكذلك بالدور الذي تقوم به هذه المدارس سواء من الناحية السياسية أم الأمنية أم الثقافية أم الاجتماعية، فضلاً عن دورها في العمل على تعبئة الرأي العام ضد توجهات الحكومة ، فقيدت دور هذه المدارس بإصدار بعض الأوامر التي من شأنها أن تحد النشاط المعادي لهذه المدارس تجاه الدولة العثمانية وإدارتها في كل ولاية من ولاياتها ، ومن الأوامر حظر تدريس المواد المخالفة للآداب الإسلامية وما يعارض سياسة الدولة بصفة عامة ، ولهذا ألزمت الدولة هذه المدارس تصديق مناهجها الدراسية وكتبها المقررة في وزارة (نظارة المعارف) ، أو في الولايات التي بها تلك المدارس نفسها . [1]

والحقيقة أن المدارس الخاصة في الإمبراطورية العثمانية كانت عبارة عن قسمين : أحدهما يضم المؤسسات التعليمية التي أقامها الرعايا العثمانيون غير المسلمين ، ارتكازًا على حق الاستقلال القانوني والقضائي الذي ظلوا يتمتعون به في إطار أحكام الشريعة على مدى التاريخ ، أما القسم الثاني فيضم "مدارس التنصير الأجنبية " التي أقيمت أول مدرسة منها في عهد السلطان سليمان القانوني في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي بامتياز خاص منحه لملك فرنسا (فرانسوا الأول). [2]

وظل التعليم لدى الرعايا غير المسلمين في الدولة العثمانية مختلفاً عما لدى الأهالي المسلمين حتى إعلان فرمان التنظيمات ؛ إذ كانت عبارة عن مدارس رهبانية يديرها الزعماء

---

[2] مرجع سابق ، ص415 ، 416 ،

[1] فاضل مهدي بيات : التعليم في العراق في العهد العثماني ، ص416 .

[2] أكمل الدين إحسان ، مرجع سابق ، ج2 ، ص590 .

الرومانيون للطائفة بقصد التعليم الديني وتنشئة رجال الدين، ولم تكن الحياة التعليمية والثقافية لدى غير المسلمين فيما قبل التنظيمات موضعًا جرى البحث فيه كثيرًا ، ويمكننا القول إن المفهوم الحديث للعمل والتعليم الذي تطور في أوروبا بعيدًا عن التعليم الموجه لتخريج رجال الدين لم يكن موضوعًا ذا أهمية كبيرة بين أقليات الرعايا العثمانيين حتى أواخر القرن 12هـ/18م ، ومع الثراء الذي بدأ يظهر في النصف الثاني من القرن 12هـ / 18م على طائفتي الروم الأرثوذكس والأرمن بوجه خاص بسبب نشاطهم التجاري المتزايد، وبداية ظهور طبقة اجتماعية جديدة أخذت في النمو ، زادت أعداد المؤسسات التعليمية الابتدائية والمتوسطة التي ليس لها علاقة بالرهبنة وارتفع المستوى التعليمي بين هذه الطوائف، كما أقيمت إلى جانب ذلك مدارس عالية موجهة للتخصص في مجالات الإدارة والطب والحقوق والتجارة والصناعة والهندسة والعمارة وغير ذلك . [3]

وكانت المدارس الخاصة التي أسستها الطوائف غير المسلمة في الدولة العثمانية قد أقيمت من قبل الأغنياء وأرباب المال من غير المسلمين فيها ، وكانت تدار من قبلهم ، كما كانت تتخذ عادة إحدى الغرف الملحقة بالكنائس ، لتكون بمثابة مدرسة يقوم الرهبان بالتدريس فيها ، أي على غرار المدارس الدينية الإسلامية الأولى التي كانت تقام في الجوامع والمساجد المنتشرة في الولايات العربية والإسلامية ، أو في أماكن قريبة منها .

ويستدل من التعليمات المتعلقة بمهام مديري المعارف التي أصدرتها وزارة المعارف العثمانية في 8 رجب 1314هـ / 14 ديسمبر 1896م أن هذه المدارس كانت على قسمين :

أ) **المدارس الملكية :** وتعود ملكيتها إلى الطوائف الدينية (المسيحية بالدرجة الأساسية) ، وتغطي نفقاتها من الأوقاف المخصصة لها ، وتدار من قبل الطوائف والبطريركيات التي تتبعها .

ب) **المدارس الخاصة :** وهي التي تقام من قبل الأشخاص ، وقد انتشرت المدارس الخاصة غير الإسلامية في معظم أرجاء الدولة العثمانية ، ولم تكن الدولة تتدخل في شؤونها أو في مناهجها مطلقًا . وبعد أن دخل السلطان محمد الفاتح إستانبول (

---

[3] مرجع سابق ، ص592 .

القسطنطينية) عام857هـ/ 1453م ترك المدارس الموجودة هناك بيد الرؤساء الرومانيين ، فكان لهم مطلق الحرية في إدارتها . [1]

ولم تشرِّع الدولة العثمانية أي قانون من شأنه أن يقيد التعليم في المدارس غير الإسلامية في بداية الأمر ، ولكن بعد أن ازداد التدخل الغربي في شؤون الدولة العثمانية ، وبرزت إلى الوجود مسألة الطوائف غير الإسلامية وخاصة المسيحية ، قامت الدولة بسن بعض التشريعات والقوانين للحيلولة دون قيام هذه المدارس بما يتعارض مع سياسة الدولة العثمانية العليا ، غير أنها لم تتمكن دائمًا من أن تحقق ما تصبو إليه ، بل جاءت هذه المدارس وسيلة للضغط الفكري والثقافي على الدولة العثمانية ، ووسيلة لتغيير أفكارها ومبادئها الإسلامية التي قامت عليها .

وليس هذا فقط بل أخذت البطريركية في إستانبول تعمل على تشجيع شعوب البلقان على إقامة مدارس رومية والعمل على نشرها ، وقد أصدرت بطريركية إستانبول أوامرها أن تصبح اللغة اليونانية هي اللغة الوحيدة التي تستعمل في العبادات والتعليم ، وقد اتخذت بذلك سياسية ترويم جبرية لمناطق البلقان في أوائل القرن 13هـ/19م ، ومع الوقت صار نهج الكنيسة بعد فتح القسطنطينية يدور في فلك تنظيم الروم تحت ستار العملية التعليمية في الكنائس متخفيين بأداء الطقوس الدينية . [1]

وبذلك إتسعت صلاحيات البطريركية ، لدرجة أنها كانت تصدر الأوامر دون مراجعة من قبل الحكومة العثمانية ، فألغت بذلك اللغة العثمانية ولم تدرسها مطلقاً .

وبالتأكيد لم يتخلف اليهود عن ركب إنشاء المدارس الخاصة بهم وجعلها تحت إشرافهم المباشر ، حيث يبدأ صبيانهم وبناتهم في تلقي تعليمهم الأولي في مدارس دينية محافظة ، يتعلموا فيها مبادئ القراءة والكتابة وأجزاء من التلمود ، ثم بدأ في منتصف القرن 13هـ/19م تطوير التعليم عن طريق تبرعات العائلات اليهودية الثرية في أوروبا ، مثل عائلة (روتشيلد) والبارون (هيرش) ، فبدأت حركة واسعة في إنشاء المدارس التي تتناول مناهج دراسية موجهة ، ساعد في ذلك منح الدولة العثمانية الحرية المذهبية والمدرسية للطوائف الأخرى في الدولة العثمانية مما أثر في بث روح القومية ، وإشاعتها في أرجاء الدولة العثمانية وساعد على تقويضها بعد ذلك .

---

[1] فاضل مهدي بيات : التعليم في العراق في العهد العثماني ، نقلاً عن سالنامة ، وزارة المعارف العثمانية لسنة 1317هـ 0 مديرية المعارف في الولايات العربية مادة 27 .

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص132 .

أول مدرسة افتتحت لليهود في إستانبول هي (خاص كوي) في الفترة ما بين 1287هـ - 1306هـ / 1870م - 1888م ، ثم زاد العدد حتى بدأ يستوعب كل أطفال الجالية اليهودية ، فضلاً عن افتتاح مدرسة ثانوية ، بمساعدة (جمعية الإليانس) التي أنشئت في باريس ؛ بهدف الدفاع عن حقوق اليهود في جميع أنحاء العالم ، وبالطبع الممول الرئيس لهذه المدارس عائلة (روتشيلد) المعروفة بثرائها .

ومن ثم انتشرت المدارس التي تدعمها جمعية (الإليانس) في جميع أنحاء الدولة العثمانية .

على أن أهم مؤسسة تعليمية في الدولة العثمانية قامت بدور كبير كانت كلية (روبرت) الأمريكية التي أنشئت عام 1280هـ / 1863م ، تميزت هذه الكلية بأنها تضم عدة تخصصات مختلفة ، ما بين تخصصات علمية ولغات وطب ، وكان خريجو هذه الكلية يعينون في المدارس التنصيرية الأمريكية المنتشرة في أرجاء الدولة العثمانية ، ومن خلال ذلك يعملون على التأثير في الطلاب الأتراك بتغيير أفكارهم وعاداتهم ، والعمل على اتباع الأساليب الغربية في شؤون حياتهم ، ومما يجوهر المعلومة السابقة أن كلية (روبرت) قامت بدور مهم من خلال طلبتها ، حيث ساعدت الطلاب البلغاريين على تنمية روح القومية لديهم ، مما جعل هؤلاء الطلاب يقومون بالثورة و التمرد على الدولة العثمانية ، بل وقتل كثير من المسلمين في بلغاريا، ومن ثم إعلان قيام دولة بلغاريا ، ولعبوا الدور نفسه مع الطلاب الأرمن ، الذين كانوا يعملون موظفين في الدولة العثمانية، ووصلوا إلى أعلى المناصب فيها ، لكن كلية (روبرت) ساندتهم ، على الرغم من أن الدولة العثمانية كثيرًا ما تحملت رعونة الأرمن ، حيث إنه أثناء تمرداتهم – مثلاً – كانوا يحرقون قرى بأكملها . [1]

وهكذا استخدم اليهود المؤسسات العلمية لأغراضهم الشخصية في إثارة الفتن حول الدولة العثمانية .

أما عن أوضاعهم الاقتصادية ، فالحقيقة أن الدولة العثمانية لم تفرق بين الروم وبين أبنائها في الوظائف المتاحة للمسلمين والذميين على حد سواء ؛ لأنها وثقت بهم ، فخصَّهم السلطان محمد الفاتح بالمناصب الحيوية ، وأسندت إليهم الكثير من الأعمال المهمة كالعمل في الترجمة – كما سبق وأن أوضحت – ودائرة الجمارك ، وفي مجال العلاقات الدولية ،

---

[1] هدى درويش : العلاقات العربية التركية ، ج2 ، ص72 – 88 .

ولم تشك فيهم ، فرغم أنه كان فيهم من ظل مخلصًا في ولائه وعمله وخدم الدولة بنزاهة واستقامة إلا أنه كان فيهم أيضًا – وبكل أسف – من استخدم تلك الثقة التي أولتها الدولة العثمانية إليه استخدامًا سيئًا ، وكان هؤلاء لا يشكلون أغلبية الروم .

وكان بعضهم يحتل بالفعل مراكز نافذة ومهمة في الدولة العثمانية ، ويقوم بدورٍ جوهري في حياة الدولة الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية أيضًا ، ومنهم على سبيل المثال: صرافي إستانبول الأرمن ، وصرافي بغداد اليهود، وعائلات الفنار اليونانية بإستانبول ، والتي كانت تقوم بأعمال الترجمة في كثير من المفاوضات الأجنبية مع الدولة العثمانية ، أو منح هذه الأقليات حكم بعض الولايات الرومانية التي تحت حكم الدولة العثمانية . [2]

إلى جانب ذلك ، سيطر الروم على التجارة البرية والبحرية إضافة إلى الاستيراد والتصدير ، وبذلك أحكموا الطوق حول التجارة العثمانية بالسيطرة على التجارة البحرية والبرية ، وخير دليل على أن هذه السيطرة كانت ضد مصلحة الدولة العثمانية ، حينما حصلت كلاً من جنوه والبندقية على امتيازات تجارية عام 857هـ / 1453م ؛ إذ كانت رغبة الدولة العثمانية من هذه الامتيازات هو نمو التجارة الذي سيزيد من دخل الدولة ، لكن الأمر لم يسير وفق هذه الرغبة ؛ إذ إنه حينما نشطت تجارة أوروبا في البحار الشرقية تراجعت وضمرت التجارة العثمانية مع مرور الوقت لاعتمادها على التجار الأوروبيين وضمائرهم .

وقد تعايش المسلمون مع غيرهم من أهل الذمة ؛ لأن هؤلاء أصبحوا أعضاء في طوائف الحرف الصناعية والتجارية ، يقفون جنبًا إلى جنب مع المسلمين ، وقد اشتهر (المارانوس) بوجه خاص كونهم صانعي أسلحة الحرب، في حين اشتد إنخراط آخرين في التجارة البرية والبحرية ، كما ازداد الطلب على المتخرجين من مدارس الطب في سلمنكا ، وكان قدر كبير من المزايا التي تمتعوا بها حتى عام1112هـ/ 1700م ناتجًا عن نفوذ أطباء البلاط العثماني ، كما كان من المعتاد جدًا أن يشغل اليهود وظائف المترجمين في الدولة العثمانية بصف رسمية، نتيجة لارتباطهم بأوربا ومعرفتهم بها .

كما اشتغلوا على وجه الخصوص بالطباعة فكانوا السباقين إلى إدخال مبادئها إلى البلاد والولايات العثمانية . ولكل ذلك قوبل اليهود النازحون من أسبانيا بحماسة شديدة ، وتم تقديرهم واحترامهم لما جلبوه معهم من تقاليد ثقافية قيمة وصناعات مهمة ، ولعل ما جعلهم

---

[2] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص85 .

يحظون بالاهتمام والتقدير كون حدث الطرد الذي طال المسلمين واليهود قد صادف سقوط إمارة غرناطة التي كانت آخر معاقل الحكم الإسلامي بالأندلس . [1]

ولم يقتصر تعايشهم على الناحية السابقة بل شمل التعايش الثقافي والفكري، حيث تتوفر وثائق عديدة تشهد بغنى التبادل الفكري والثقافي بين الطوائف الدينية الثلاث ، إذ نجد في معاجم الطب التي كتبها المسلمون الأتراك ترجمات لأطباء مسلمين ومسيحيين ويهود مجتمعة من غير تميز ، وبفضل هذه الكتب نستطيع تكوين فكرة دقيقة عن نشاط الوظيفة الطبية في ذلك الوقت.

وفي المستشفيات كان أطباء الطوائف الدينية الثلاث يبذلون جهودهم مجتمعين ، ويقرأ بعضهم كتب بعضهم الآخر ويتبادلون التلاميذ [2].

كان التسامح الديني الذي تعاملت به الإدارة العثمانية وسلاطينها هي بداية الامتيازات الممنوحة للرعايا غير المسلمين في الدولة العثمانية ، في كافة نواحي الحياة سواء السياسية أم الاقتصادية أم الاجتماعية وحتى الدينية ، وبالإضافة إلى التسهيلات البحرية والتجارية التي كانت تمنحها الدولة العثمانية للبندقية [1].

وقد ظهرت الاستقلالية في الحقوق والقضاء المعترف بها لأهل الذمة في الدولة العثمانية ، ليس نتيجة لمعاهدة دولية جرى عقدها ، ولكن نتيجة لتنظيم حقوقي داخلي على مدى السنين ، والتسامح الديني الذي اتسمت بها إدارة الدولة العثمانية منذ بداية عهودها الأولى ، وذلك ضماناً لاستقرارها السياسي والاجتماعي بالداخل .

إن حدود الاستقلال الحقوقي والقضائي المعترف به لأهل الذمة ، كانت واسعة في أوائل عهد الدولة العثمانية ثم أخذت في الانحسار على مدى مرحلة تاريخية معينة ، حتى اقتصرت على الأحوال الشخصية من حيث الأساس ، كالنكاح والطلاق والوصية والميراث وغير ذلك ، ومع هذا فالملاحظ أيضًا أن الرؤساء الروحانيين كانوا يتمتعون بصلاحيات تجيز لهم توقيع العقوبات الدينية في الغالب على من يقترف جرمًا معيناً ، مثل الإخلال براحة الطائفة المنسوب إليها ، أو الإخلال بالقواعد الدينية ، كأن يمنعه من دخول الكنيسة ، أو يرفض استقبال جنازته فيها ، كما كان يتمتع الرؤساء بصلاحيات توقيع العقوبات المادية من

---

[1] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص364 .

[2] مرجع سابق ، ص 364 .

[1] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص85 .

حين لآخر، [2] وذلك بسبب سوء استغلالهم لهذه الصلاحيات وعدم وقوف الدولة العثمانية على حقيقة نواياهم .

ويمكننا أن نرى بوضوح في الفرمانات والمراسيم السلطانية العالية الممنوحة لرؤساء الطوائف عند تعيينهم ، تلك الصلاحيات القضائية التي كانت ممنوحة لهم كامتيازات من الـــدولة. [3]

والملاحظ أن الأحكام الإسلامية التي يتقرر تطبيقها على أهل الذمة في حالة رجوعهم إلى المحاكم العثمانية ، سواء أكان المرجع القضائي جبريًا ، أم كان اختياريًا ، كانت تختلف بين الحين والآخر عما جرى تطبيقه على المسلمين ، فلا يعاقب الذمي الذي شرب الخمر ما دام دينه لا يمنع ذلك ، وما دام لا يخل بالنظام والأمن العام . [1]

كما لم يجر تطبيق حكم الرجم على الزاني غير المسلم ، حتى ولو كان متزوجًا ؛ نظرًا لأنه لا يعد محصناً لكونه ليس مسلمًا . [2]

وقد أسفر ذلك الوضع مع مرور الزمن عن نتائج انتقصت من حقوق الدولة العثمانية في السيادة ، فشاعت رفع الصلاحيات القضائية المخولة لمحاكم القنصليات، غير أن ضعف الدولة المستمر وتراجع قوتها في الصمود لمواجهة الغرب لم يسمح لها بتحقيق ذلك ، وفي النهاية أصدرت قرارًا عام 1333هــ/ 1914م من جانب واحد ألغت به كافة الامتيازات ، وفي ظروف لم تكن تسمح لها بذلك أبدًا ، وأنهت الصلاحيات القضائية المخولة لمحاكم القنصليات[3].

---

[2] إن وجود قوة شرطة صغيرة تابعة لكبير الحاخامات ، ووجود سجن داخل البطريركية يدلنا على أن الرؤساء كانوا يتمتعون بصلاحيات توقيع العقوبات في مجالات معينة ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر :

- Christians and Jews in the Ottoman Empire , New York , 1982 , Vol I. P. 440 .

[3] للإطلاع على فرمان لأحد البطاركة الأرمن المؤرخة في 27 رجب 1248هـــ 22 ديسمبر 1832م انظر : دفاتر الطوائف غير المسلمة في أرشيف الدولة العثمانية رئاسة الوزراء بإستانبول ، دفتر 1 ، ص25–26 . وهي تتعرض للأحوال الشخصية لدى هذه الطوائف .

[1] محمد أبو زهرة : الجريمة ، د.ط ، القاهرة ، د.ت ، ص338 – 339 ، وانظر أيضاً : أحمد فهمي بهنسي : الحدود في الإسلام، ط1 ، القاهرة د. ت ، ص26 ، 30 .

[2] Ahmed Ozel : Islam Hukukunda Milletlerarasi Munasebetler ve ulke kavrmi, Istanbul . 1982 , P.219.

[3] M.Akif Aydin : Batililasma , Dia, istanbul . 1992, vol ,5 , P.166-167 .

وهكذا نرى بأنه ولأول مرة في التاريخ الإسلامي تسمح سلطنة دينية وخلافة إسلامية ، بأن يحكم المسيحيون أنفسهم ، بل ويعملوا كيفما شاءوا في أغلب الولايات والإمارات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية وتعد من ديار الإسلام ، ومع ذلك فروح السماحة العظمى للإسلام المتمثل في كيان وإدارة وسلاطين الدولة العثمانية ، ومنهجها التشريعي المستمد من الروح الإسلامية السمحاء ، جعلت من نظام الملل مثالاً فريدًا لنظام تعددي تعجز الأنظمة القائمة اليوم على ما يسمونه بالديمقراطية الدستورية أن تلحق به ، والدليل على ذلك التعامل الذي كان يتعامل به السلطان العثماني مع رعاياه من غير المسلمين طوال عهود الدولة منذ نشأتها وحتى نهايتها ، حيث كان ينبع من طبيعة نظام الملل الإسلامي الذي قسم سكان السلطنة والدولة العثمانية إلى مسلمين يدفعون الزكاة بكافة أنواعها والخمس والعشر وغيرها ، ورعايا آخرين من غير المسلمين يقدمون الخضوع للسلطان العثماني والإدارة العثمانية ويدفعون الجزية ، مقابل الانتفاع بكافة حقوق المواطنين المسلمين فيها وحماية الدولة لهم في الداخل والخارج. ورغم ذلك فقد قابلوا هذه النعمة بالاشتراك في التمردات ، مثل تمرد بلاد المورة عام 1237هـ/1821م. ، وهذا الأمر يعد من الآثار السلبية لسياسة التسامح الديني .

فعندما قبضت السلطات العثمانية على رئيس المتمردين في بلاد المورة وبعض رفاقه وجدت معهم خطابات خطيرة ، فارسلت هذه الخطابات إلى الباب العالي [1]، ولم يكن موظفوا الباب العالي يعرفون اللغة اليونانية ، فأرسلوا هذه الخطابات إلى الديوان السلطاني لترجمتها ، وقام المترجمون الروم بتأويل ما في الخطابات وإخفاء حقيقتها ، وبالتالي لم يفهم أحد مضمون هذه الخطابات بشكل قاطع ، وقد اتضح هذا الموقف الخبيث الذي اتخذه المترجمون فيما بعد ، فلقوا جزاءهم ، وقد ثبت أيضًا أن التراجمة والأمراء النصارى الأرثوذكس

---

[1] الباب العالي : هو قصر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية ، وقد أنشأه السلطان محمد الرابع سنة 1654م ، وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه ، وهو يعني الوزير الأعظم ، وكان للباب العالي في الدولة العثمانية أهمية كبيرة في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي ، وعلى وجه الخصوص في عهد السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني وكان يطلق عليها قديمًا اسم " باب الباشا " وهو الاسم الرسمي لمقام الصدر الأعظم ، وقد سمي بـ " قصر الباشا " و"الباب الأصفر" ، و"باب الصدر الأعظم "، و" قصر الميري " ، و "باب الوزير" ، وذلك حتى نهايات القرن الثامن عشر الميلادي ، إلا أنه في عهد السلطان عبد الحميد الأول (1774 – 1789م) أطلق عليه " الباب العالي " حيث أصبح علمًا عليه وألغى ما قبله ، انظر :

Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Devletinde merkez ve Bahriye teskilati , isdabul , 1979, P.249-261

المحليين قد تعاونوا معًا ، وبذلوا الجهود لضمان عون فعلي من الدول الأوربية ومن روسيا وفرنسا ، مدعين أن الروم يتعرضون للاضطهاد في الدولة العثمانية . [2].

لقد بدأت فكرة طرد العثمانيين من أراضي " بيزنطة " في الذيوع والانتشار بداية هادئة، وأخذت تعمل عملها في التنفيذ ببطء ودراسة ، وبدأ الروم في وضع الأسس والقواعد ، وعملوا الاستعدادات اللازمة لوضع الفكرة العظمى ، يعني بدء إقامة دولة اليونان الكبرى موضع التنفيذ .

بعد هذه المكانة المتميزة التي وصل إليها المسيحيون في إستانبول ، أصبحوا– خاصة بعد سيطرتهم على أعمال وزارة الخارجية العثمانية – هم العناصر الرئيسة لأعمال الشغب والتحريض ، حتى إنهم أطلقوا على تلك الفترة مصطلح " فترة الأفلاق الرومي " ، وهي الفترة التي أعدت بمهارة فائقة ، وبتلقين من الكنسية وتوصف هذه الفترة بأنها الملطخة بالدماء وبالسوء وبالوحشية على أهالي الدولة العثمانية وخاصة المسلمين منهم .

والحقيقة أن الهدف الذي سعى إليه المسيحيون وركزوا جهودهم عليه في إستانبول ، هو ضمان استقلال اليونان ، وقد ثبت أن هؤلاء متعاونون مع البطريركية ، بل كانوا أيضًا في خدمتها وخدمة أهدافها سواء الخفية منها أم المعلنة.

وقد ثبت هذا ، عندما تعرضت البطريركية للتفتيش ، وقع في يد المسئولين في الحكومة العثمانية وثائق مهمة ، وأوراق تحتوي على الاستعدادات السرية التي تقوم بها الدولة العثمانية في بعض الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الدينية ، وقد حصلت الكنيسة على هذه الوثائق السرية الخطيرة من " أمراء الروم " ، الذي كانوا تابعين لكنيسة إستانبول . وقد كانت الأكثرية من هؤلاء الروم التابعين لكنيسة إستانبول ، ينتمون إلى جمعية "أتينك اتيريا " [1] التي أسست بهدف العمل على استقلال اليونان [2]

وهكذا نجد أن التخطيط المسيحي الأوربي بدأ من داخل عاصمة الدولة العثمانية نفسها، وبدأ بالتسامح والتهاون الديني والسياسي وخاصة مع الطوائف المسيحية الموجودة في الدولة ، ونتيجة الامتيازات التي حصلوا عليها سواء من الناحية الإدارية والقانونية والعمل

---

[2] ثريا شاهين : مرجع سابق ، ص43 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص134 ، 135 .

[1] هي جمعية ثورية انتمى لها أغلب الروم وهدفها الأساسي الاستقلال عن حكم الدولة العثمانية بل العمل على تفتيتها. ثريا شاهين: مرجع سابق ، ص46

[2] مرجع سابق ، ص 46 .

والتنظيم داخل كنائسهم وبحرية كاملة ، أم تلك المناصب المهمة التي شغلوها داخل الإدارة العثمانية والقصر السلطاني بحيث استطاعوا من خلالها الوصول إلى أهدافهم السياسية والدينية ، والسعي لتحقيق تلك الأهداف ؛ نتيجة للثقة التامة التي نالوها من السلاطين العثمانيين على مر الزمان والعصور .

والواقع أن الدولة العثمانية قد أخطأت عندما وثقت في أتباع كنيسة إستانبول، وأخطأت كذلك عندما لم تخضعهم لتفتيشها ورقابتها ، ولم تتنبَّه الدولة إلى ذلك الخطأ إلا بعد وضوح الرؤية تمامًا من ناحية الخيانة التي سبق أن تم توضيحها وكشف خطوطها العريضة ، وعلى هذا كانت الدولة والإدارة العثمانية مضطرة لاتخاذ التدابير اللازمة ، فمنعت تعيين النصارى في إدارة الترجمة داخل الديوان السلطاني ، واستبدلت بهم العثمانيين ، ولكن كانت الدولة العثمانية قد خسرت الكثير من التسامح السياسي ولم تستطع الصمود أمام هذا التخطيط المسيحي واليهودي ، فاضطربت وضعفت وبدت حتمية سقوطها من أوائل القرن العشرين .

ومما لاشك فيه أن ذلك التسامح الديني أدى إلى تسامح سياسي من شكل آخر ونوع مختلف ، مما جعل هؤلاء الرعايا والأقليات غير المسلمة تظن أنها نالت استقلالها السياسي والديني داخل الدولة ، وكأنَّ من حقها التدخل في شؤون الدولة، كما ظهر ذلك على الساحة السياسية منذ بداية القرن 13هـ / 19م ، فقد ازدادت حركة الاتصالات الأوربية وتوغلها داخل أراضي الدولة العثمانية العربية والإسلامية وعلى سواحلها المختلفة .

وحاولت أوربا وبشكل غير مباشر التدخل في شؤون الدولة العثمانية من خلال ذلك التسامح السياسي والسياحة والتجول في أراضيها ، والحقيقة أن التسامح الديني والسياسي كان له دور كبير ومباشر في مساعدة الدول الأوربية للتفكير في التدخل والتجول في الأراضي العربية بإذن وتصريح منها ، وقد استطاعت هذه الدول الحصول على المعلومات المطلوبة ، سواء في نشاطها التجاري الواسع ، أم الاكتشافات العلمية والبحث عن الثروات والمعادن داخل الأراضي العربية والإسلامية ، أم في إثارة الفتن للضغط السياسي على الدولة العثمانية وإضعافها من الداخل، وبذلك يمكن لهذه الدول وبسهولة بالغة القيام بتقسيم حدودها، كما أنها فرصة أيضًا لتدخل القناصل في الشؤون الداخلية لهذه الولايات العربية ،[1] بالإضافة لتدخل القوى الأوربية وتوجه سفنها ناحية السواحل العربية الإسلامية ، [2] فكانت تلك السلبيات التي

---

[1] أحمد سالم : الرحلات الأوربية وتأثيراتها على المنطقة والجزيرة العربية ، ص 227 .

[2] مرجع سابق ، ص 227 .

ترتبت من جراء التسامح الديني الذي انقلب فيما بعد إلى تسامح سياسي لهذه الأقليات وتدخلها في شؤون الدولة .

وتعتبر الامتيازات من أهم الآثار السلبية لسياسة التسامح الديني ، فمثلاً بذلت فرنسا مساعيها وجهودها الكبيرة لزيادة نفوذها وتقربها من الدولة العثمانية ، وخاصة تلك المساعي التي بذلتها في عام 942هـ / 1536هـ التي نالت فيها تصديق السلطاني العثماني سليمان القانوني على الاتفاقيات والعهود التي تمت وأبرمت بين الدولتين ، ونالت فرنسا أيضًا من السلطان سليم الثاني 974هـ-982هـ / 1566م-1574م خلال حكمه على تأييده للامتيازات القنصلية لها ، أضف عليها بعض المواد الأخرى، ومنها إعفاء كل فرنسي يعيش داخل الأراضي العثمانية ، أو يمر عليها من خارجها من دفع الضريبة الشخصية المفروضة من الدولة ، وأن يكون لقناصل فرنسا – على وجه الخصوص – حق البحث عمن يكون لدى العثمانيين في حالة الرق من الفرنسيين ، وإطلاق سراحهم، ومنها أن يقوم السلطان سليم الثاني برد ما تغتصبه سفن الممالك العثمانية التابعة له من السفن الفرنسية ومعاقبة المعتدي ، ومنها أيضًا أن تقوم السفن العثمانية ، بمساعدة السفن الفرنسية متى أصابها أي خطر أو ضرر على سواحل الدولة العثمانية . [1] ومن هذه الامتيازات أيضًا ، أن يكون للفرنسيين جميع ما لأهل البنادقة من الامتيازات التي حصلوا عليها سابقًا .

ولزيادة توثيق العلاقات والاتحاد بين الدولتين – العثمانية وفرنسا – اتفقا على ترشيح (هنري دوكالو) آخر ملك فرنسا للحكم في بلاد "بولونيا " ، ليكون للدولتين ظهيرًا ونصيرًا على النمسا وروسيا ، اللتين اتخذتا موقف العداء من الدولتين وخاصة العثمانية ، ولمَّا تم ذلك دخلت " بولونيا " تحت حماية الدولة بالفعل.

هذه الامتيازات التي نالتها فرنسا جعلتها تقبض على موارد التجارة ومصارفها بالبحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة العثمانية ، وأخذت ترسل بناء على هذه الامتيازات عدة إرساليات دينية تنصيرية ، حيث يوجد المسيحيون ببلاد الدولة ، خصوصًا إلى بلاد الشام وأمدتهم بالنقود ، وأظلتهم بنفوذها ، ليسعوا في جلب القلوب نحوها ، وخاصة من الأهالي المسلمين في المناطق التي يتعايشون معهم ، ويجتهدون في تعظيم اسمها وشأنها لديهم[2].

---

[1] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص17-25 .

[2] إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 111 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 225 – 226 .

والحقيقة أن هذه الامتيازات ، وما فيها من زيادة المواصلات والتسهيلات والتعارف كانت من الأسباب التي أدت بالدولة العثمانية إلى حالة من الضعف ، وذلك بسبب قيام القناصل والسفراء بالتدخل في أعمال الدولة الداخلية ؛ بدعوى رفع المظالم وإجراء العدالة ومحو التوحش وإبادة التعصب ، وغير ذلك من الألفاظ والأقوال التي اتخذوها سلاحًا لهم في بلاد المشرق العربي عمومًا وفي الدولة العثمانية على وجه الخصوص .

و كان من نتائج هذه الامتيازات أن ضمَّت كل دولة من دول أوربا إليها طائفة من نصارى الشرق تحركها عند اللزوم ، وتصرفها في منفعتها متى شاءت وحيث شاءت ، دون مانع يمنعها ، أو اعتراض من الدولة أو إدارتها .

وكانت هذه هي المرة الأولى ، التي استطاعت فيها دولة أوروبية وأجنبية –خاصة فرنسا – الحصول على ترخيص رسمي للعمل داخل أراضي الدولة العثمانية وبإرادتها وموافقتها الرسمية ، ومما لا شك فيه أن الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية لن تتأخر أبدًا في استغلال هذا الترخيص الممنوح من الحكومة العثمانية بعد أن انتظرته كثيرًا ، وبناءً على ذلك قامت فرنسا تحت ظل هذه المعاهدات بإرسال عدة إرساليات دينية وبعثات كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة الموجود بها مسيحيون – خصوصًا من أتباع هذه المذاهب والطائفة في بلاد الشام – لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا . [1]

وأصبحت من عادة الدول الأوروبية استغلال الأحداث التي تلم بالدولة العثمانية ، لتحرير شروط خاصة بالحماية الدينية والسياسية على المسيحيين التابعين لطوائفهم ومذاهبهم عمومًا . فبعد أن خسرت الجيوش العسكرية العثمانية أمام الجيش النمساوي ، وفرضت معاهدة "الكارلوفتش" عام 1111هـ / 1699م، اشترطت النمسا إضافة بند للمعاهدة المشار إليها ، وهو البند الثالث عشر ، الذي كان ينص على " السماح للنمسا وإدارتها بحراسة الأماكن المقدسة في القدس وغيرها" . وهذا يبين مدى خطورة الوصاية الأوروبية والغربية على المسيحيين الذين يعيشون داخل أراضي الدولة العثمانية وتحت ظل حمايتها وإدارتها . ووفقاً لمقتضيات نظام الامتيازات بين الدول ، فإن القنصليات الأجنبية تمتلك صلاحيات قانونية وسياسية ومحاكم خاصة على أعلى المستويات وهو أمر من الطبيعي أن يتيح للمسيحيين المتعاملين معها امتيازات حماية ، ويضمن لهم أعمالاً تجاريةً مربحة، وإعفاء من

---

[1] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص86 .

الضرائب المختلفة في الدولة ، وإمكانية التعليم لهم ولأسرهم في مدارس الإرساليات التنصيرية ، والسفر المجاني إلى أي دولة أوروبية . ولكي نتعرف على مدى الدور الخطير الذي أدته فرنسا في المشرق العربي والإسلامي، كان لابد من الإطلاع على المرسوم الصادر من (لويس الرابع عشر) الذي يقضي بوضع الطائفة المارونية تحت الحماية الفرنسية ، وقد صدر هذا المرسوم بتاريخ إبريل 1059هـ / 1649م . [2] وقد عدَّ (لويس الرابع عشر) – نفسه بإذن من السلطان – مسئولاً عن رعاية المسيحيين الكاثوليك في البداية ، وتطورت هذه الامتيازات مع الوقت مع ضعف الدولة العثمانية ، لتصبح حقوقًا مكتسبة للفرنسيين خاصة ، وللأوروبيين الذين دخلوا فيما بعد أطرافًا مشاركة في هذه اللعبة بشكل عام ، حتى بات السلطان العثماني ليس له سلطة إلا على المسلمين فقط ، فالحماية قد نالت كل المؤسسات الدينية والتعليمية والاقتصادية المسيحية داخل الدولة العثمانية ، وفي شتى بقاع أراضيها وولاياتها العربية والإسلامية ، وكذلك المتعاونين مع القنصليات حتى لو كانوا مسلمين ، وتم احتكار التجارة الداخلية والخارجية على حساب التجار العثمانيين الوطنيين ، وأصبح للسلع الأوروبية سيادة على السلع الوطنية ، وتراجع نظام الحرف والصناعات التقليدية أمام غزو السلع الأجنبية ، وازدهرت أحوال المتعاونين مع القنصليات . ولنا أن نستدرك ونحن نسوق الأمثلة تلو الأخرى بأنه ينبغي لنا – حتى لا نغفل أثر عامل على حساب عامل آخر – الإلمام بما آل إليه وضع الملل في السلطنة العثمانية ، والاعتراف بأن هذا الوضع لم يتشكل بسبب قوة العامل الخارجي، أو قدرة المسيحية الأوروبية على استقطاب المسيحيين الذين يعيشون على الأراضي العثمانية لخدمة مصالحها، من خلال تحقيق مصالحهم الذاتية والمادية فقط ، وإنما أيضًا بسبب مواقف السلاطين العثمانيين وسماحتهم وفرماناتهم المتناقضة حول مصير المسيحيين الشرقيين ، وهم الأكثر ولاءً للسلطنة بوجه عام ، دون الإقلال من أهمية التحولات الدولية الاقتصادية وانعكاساتها على السلطنة العثمانية وإدارتها الحكومية ، وهناك العديد من العوامل الأخرى التي لا يتسع البحث لذكرها . كل هذا ساهم في نجاح الاختراق الأوروبي للساحة الإسلامية .

ولا شك أن هذه الامتيازات ساعدت بشكل كبير على ازدياد الفكر الاستشراقي ؛ إذ قامت فرنسا بإرسال إرساليتها الدينية الكاثوليكية إلى كافة بلاد وولايات الدولة العثمانية التي يعيش فيها مسيحيون – وخصوصًا الولايات العربية وبلاد الشام – لتعليم أبنائهم وتربيتهم

---

[2] مرجع سابق ، ص86 .

على حب فرنسا ، وكان من أهم نتائج هذه البعثات حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحي ، حتى إذا ضعفت الدولة العثمانية داخليًا وخارجيًا استطاعت هذه الشعوب وطوائفها المسيحية الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية وإدارتها ، وبمساعدة الدول الأوروبية والمسيحية ، وهذا ما حدث منذ القرن 12هـ-13هـ / 18م - 19م ، حيث ازدادت الحركات التمردية والانفصالية لهذه الطوائف ، وازدادت معها مشاكلها بالنسبة للدولة العثمانية ، مما زاد من ضعفها وسقوطها حينذاك .

إن هذه الامتيازات الأجنبية أتاحت سبيل الاختراق الأوروبي للبنية العثمانية، وذلك بتحويلها لنظام الملل العثماني من نظام مثالي للتعددية والحريات الدينية والسياسية في عصر عرف بحدة الصراعات والاضطهادات الدينية إلى نظام أسهم بفضل تسامحه وخصوصيته في تسهيل ربط هذه الملل بالدول الأوروبية.

فقد تحول ولاء أعداد كبيرة من المسيحيين الذين يعيشون على أراضي الدولة العثمانية إلى أوروبا ؛ نتيجة المنافع التي كانوا يتمتعون بها عن طريق القنصليات الأوروبية ، والارتباطات الكنسية ، ومع مرور الوقت فقد هؤلاء هويتهم العثمانية ، ليلتحقوا بالهوية الأوروبية التي يؤكدها قانون الوصاية ونظام الامتيازات الأجنبية .

وإن الامتياز الذي مُنِح لفرنسا اتسع ليشمل دولاً أوروبية أخرى مثل النمسا وألمانيا وروسيا ، كل هذه الدول أدعت حقوقًا لها في حماية المسيحيين الشرقيين ، فقد ارتبطت مصالح المسيحيين الكاثوليك بفرنسا والنمسا ، ومصالح الروم الأرثوذكس بروسيا القيصرية والبروتستانت بأمريكا . [1]

وعند هذا الحد بدأ التحول في بنية العلاقات العثمانية الأوروبية ، فقد تمكنت القنصليات الأجنبية في الدولة العثمانية من تحويل نظام الحماية الدينية إلى شبكة من المصالح والحماية الاقتصادية والسياسية والثقافية للطوائف المسيحية ، فكانت القنصليات بأمر وتشجيع من الحكومات تمنح البراءات لموظفيها والعقود لمترجميها المحليين وعائلاتهم ، بحيث يمكن أن ينعم هؤلاء بالحماية الفرنسية أو النمساوية أو السويدية أو غيرها .

وقد كان لقناصل الدول الأوروبية وموظفيها الدور المؤثر في تنفيذ مخططات بلادهم في المنطقة العربية والإسلامية ، فمنهم من كان يعمل على جمع أكبر قدر من المعلومات

---

[1] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص89 .

السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ومنهم من كان يعمل أيضًا عن إثارة الفتن وإشاعة الأخبار الكاذبة ، وهو ما توضحه الوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول ، حيث ورد تقرير في إحداها بتاريخ غرة رجب 1265هـ / 22 مايو 1849م يتضمن أن القنصل الفرنسي الموجود في (جدة) لا عمل له إلا التجسس وتقصي أحوال المنطقة ، وقد تم التأكد والتحقُّق من ذلك ، فالقنصلية الفرنسية هناك تقوم بتجنيد بعض الأشخاص العاملين على بعض السفن التجارية القادمة إلى ميناء (جدة) ؛ ليكونوا تحت الحماية الفرنسية ، ويسهل عليهم تنفيذ المهام الموكل بها إليهم لتزويد القنصلية بالأخبار مباشرة . [2]

وكان آخر نتائج هذا التدخل أن استعملت دول أوربا الإرساليات الدينية لحفظ الجنسية واللغة عند كل شعب مسيحي ، حتى رأوا من الدولة ضعفاً ، سمح لهذه الشعوب طلب الاستقلال بمساعدة تلك الدولة أو الانضمام إليها ، كما حصل ذلك مرارًا ، وقد ساعد على ذلك إغفال الدولة العثمانية وإدارتها أمر هذه الطوائف في كل ولاياتها وخاصة العربية والإسلامية ، وعدم التعرض لها فيما تشيعه من الدسائس ، وتبثه من المبادئ الفاسدة ، وهناك العديد من التقارير العثمانية التي تدل على ذلك وتكشفه ، فمنها تقرير بتاريخ 20محرم 1309هـ / 24 أغسطس 1891م يفيد قيام إنجلترا بتأييد ومساعدة حركات التمرد والعصيان التي زادت بشكل كبير في مناطق مختلفة من الحجاز والجزيرة العربية ، والعمل على إثارة الفتن بين الأهالي هناك ، والسعي لفصل العرب عن الدولة العثمانية [1]

وتقرير آخر بتاريخ 27 رمضان 1322هـ / 4ديسمبر 1904م ، بشأن قيام نائب الحاكم العام للهيئة ، ويدعى اللورد كرزون Lord Corazon ، التجول في خليج البصرة ، والتدخل في شئون البحرين ، وإفساد عشائر نجد بأفكاره [2].

وبمجيء السلطان محمد الثالث كان على العثمانيين وهم حكام دولة شاسعة الأطراف ، أن يكيفوا وضع التنوع العرقي والديني على إيقاعات ، لم يسبق أن توفرت في بلدان إسلامية أخرى ، لا سيما وأن مجيء الحكم العثماني قد اصطدم بوجود طوائف دينية ذات كثافة سكانية أكبر وأضخم مما كان عليه المسلمون أنفسهم ، لذلك كان من واجب العثمانيين

---

[1] مرجع سابق ، ص89 ، 91 . BoA "IR.DH. Tasnifi" No: 1106317 , IIB. 7265H.

[1] BoA . " Y. DRK . AZJ . Tasnifi" No: 53 / 51 , T.7.Z . 1323 H .

[2] إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص112 . 1309 " Y.DRK. EsA. Tasnifi " No : 45 / 14 , T . 20m . H .

أن يوفروا لتلك الطوائف الدينية المتباينة في مذاهبها كامل حقوقهم التي تكفلها لهم الشريعة الإسلامية ، وقد سار السلطان محمد الثالث على هذا النهج الذي تأمر به الشريعة الإسلامية ، فجاء في أحد فرماناته التي أصدرها السلطان محمد الثالث عام 1011هـ/ 1602م ، مما يوضح تأكيد السلطان العثماني على أن الله رب العالمين قد أمر في كتابه المنزل حماية وضمان أمن واحترام أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وهو ما يعدّه واجبًا جماعيًا ودائمًا يفرض على المسلمين كافة ، وهو بالتالي ضرورة ملحة يتحملها جميع السلاطين ، ثم يستطرد قائلاً :" إنه إذن من المهم الضروري أن تهتم عنايتنا الملتزمة بتعاليم الشريعة بكافة أفراد هذه الطوائف الدينية التي تقوم بسداد ما عليها من ضرائب ، حيث تعيش في كنف حكمنا وخلافتنا السعيدة في أمن وأمان ، لا يضايقهم أحد ، ولا يمنعهم أو يمس حياتهم وأموالهم أحد..." [3]

وإن ما نهجه السلطان محمد الثالث ، هو الدليل القوي على أن هذا النهج استمر مع كل سلاطين الدولة العثمانية نحو الطوائف غير المسلمة .

وإذا كانت وضعية الذميين تحت أي حكم إسلامي تختلف من جهة لأخرى ، ومن زمان لآخر ، فإن وضعيتهم خلال العهد العثماني ، قد اتسمت إلى حد كبير بالاستقرار والعيش في أمن ورخاء وتعايش مع المسلمين .

وقد سعى العثمانيون وسلاطين الدولة العثمانية على وجه الخصوص إلى تأمين الاتحاد مع جميع شعوب وطوائف ولايات الدولة العثمانية ، وبموجب مرسوم "كلخانة" [1] ،

---

[3] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص348 .

[1] كلهانة : هي الساحة التي تمتد من قصر (بورنو) إلى أسوار (طوب قابي) ، والمطلة على البحر بإستانبول وسميت بذلك نظرًا لكونها كانت حدائق للزهور . أما المرسوم الملكي الذي أطلق عليه " خط شريف كلخانة" ، فهو نسبة لقصر كلخانة (قصر الزهور) الذي قرأ فيه الصدر الأعظم " مصطفى رشيد باشا" فرمان السلطان عبد المجيد (1839-1861م) المشهور الذي أعلن فيه رسميًا البدء بإجراء تغيرات جذرية في جميع مؤسسات الدولة العثمانية ، وعدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق، دون النظر إلى أديانهم أو مذاهبهم أو انتمائهم القومي ، وذلك بحضور السلطان والوزراء وكبار علماء الدين والإدارة والجيش ، كما حضره بطاركة النصارى وحاخامات اليهود ورؤساء الطوائف وممثلو الدول الأجنبية في 3نوفمبر 1839م (26شعبان 1255هـ)، وجرى فيه التأكيد على ثلاثة نقاط رئيسة ، نوردها كما يلي :

أ) ضرورة إيجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وأموالهم .

ب) ضرورة إيجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الإلتزام .

ح) ضرورة توفير نظام ثابت للجندية ، بحيث لا تستمر مدى الحياة . والواقع أن منشور (كلخانة) كان أول عهد دستوري في تاريخ الدولة العثمانية وضع قواعد الإصلاح على المبادئ الأوربية ، من حيث أنه كفل تأمين شعوب الدولة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، مهما تنوعت دياناتهم وجنسياتهم ، كما أنه قرر نظمًا جديدة لتقدير الضرائب وجباتها حسب الثروة والربح

فإن جميع رعايا الدولة العثمانية أيًا كان جنسهم أو ديانتهم يوفر لهم الأمن التام فيما يتعلق بحياتهم وكرامتهم مع احترام حقوقهم الشرعية ، جاء في مستهل الفرمان: "لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعايا الأحكام القرآنية الجليلة ، والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها، ولذا فإن قوة ومكانة سلطتنا السنية ، ورفاهية أهليها ، قد وصلت حد الغاية، ثم انعكس الأمر مائة وخمسين سنة ؛ بسبب عدم الانقياد والامتثال ، لا للشرع الشريف، ولا للقوانين المنيفة " [2]

ثم يضيف الفرمان السابق ، ما نصه : " وتمتاز سائر تبعية دولتنا العلية من المسلمين وسائر الملل الأخرى بمساعدتنا هذه الملوكية بدون استثناء ، وقد أعطيت من طرفنا الملوكي الأمنية التامة في الروح والعرض والناموس[1] والمال ، بمقتضى الحكم الشرعي لكل أهالي ممالكنا المحروسة " . [2]

وهكذا أصدر الأمر العالي والتوجيهات الرسمية من الدولة وسلاطينها بأن كل الطوائف والملل التي تعيش على أراضي عثمانية ، ويحكمها إدارة عثمانية ، هي تحت مظلة الحماية والأمن والحفاظ على الأرواح والأموال ، بمقتضى الأحكام الشرعية ، ومثلهم في ذلك مثل بقية أهالي الدولة العثمانية سواء من المسلمين أم غيرهم .

ويعد ذلك التسامح الذي انتهجه السلطان محمد الثالث مثال يحتذى ، لكن ردة الفعل الأوربية وخاصة المسيحية كانت عنيفة ضده ، والدليل على ذلك أنه لما وقعت في عهده بعض الأحداث على الحدود العثمانية الأوربية عام996هـ/ 1587م ، وعلى حدود البوسنة عام997هـ / 1588م مما دفع العثمانيين إلى توجيه أنظارهم نحو المجر ووقعت الحرب عام1002هـ/ 1593م ، واستمرت أربعة عشر عامًا ، حاول آل هابسبورغ استغلالها

، وكذلك نظمًا جديدة لتقدير للخدمة العسكرية (التجنيد) وتحديد مدتها بخمس سنوات . ومما يلفت النظر أن استصدار(خط شريف كلخانة) كان الثمن الذي حصلت عليه بريطانيا والدولة الأوربية من السلطان العثماني في مقابل تسوية النزاع بينه وبين والي مصر (محمد علي باشا) ، الذي كان يريد الاستقلال والانفصال عن الدولة .

وينبغي ألا يفهم من ذلك أن الضغط الأوربي بوجه عام والإنجليزي بوجه خاص ، كان هو وحده منشأ حركة التجديد والإصلاح العثمانية خلال القرن التاسع عشر ، فقد أسهم في هذه الحركة عامل أخر ، هو اقتناع رجال الدولة المتأثرين بالثقافة الغربية ، بضرورة إصلاح جهاز الدولة وتجديده على أساس اقتباس النظم الأوربية . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Ismail Hamid Danismend : Osmanli Tarihi, volu 4, P127.

[2] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص348 .

[1] الناموس : معناها الفقه والاستقامة والعصمة والشرف . انظر: شمس الدين سامي : قاموس تركي ، مرجع سابق ، ص 1452

[2] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص 349 .

لصالحهم في أوربا وسعوا لتصويرها على أنها صراع إسلامي مسيحي ، حتى إنهم نجحوا في استقطاب العديد من المتطوعين من بروتستانت وكاثوليك للانضمام إلى جبهة المجر المعادية للعثمانية، وأعلن الإمبراطور (رودلف الثاني) أن جيوشه هي الدرع الواقي لجميع المسيحيين، مما دفع السلطان محمد الثالث أن يقود الحرب بنفسه ، ونجح بجيشه في إلحاق الهزائم الواحدة تلو الأخرى بالألمان والمجريين عام1005هـ/ 1596م[3].

فإن ما فعله المسيحيون في أوربا من اضطهاد للمسلمين ، ووقوع الحرب السابقة في الوقت الذي تعامل فيه السلطان محمد الثالث بمنهجية التسامح مع الطوائف المسيحية داخل دولته لهو أبلغ دليل على ردة الفعل العنيفة .

ونتيجة لهذه الأوضاع المتشابكة ، فإن أغلب الطوائف غير الإسلامية لجأت إلى تحويل ولائها إلى خارج الدولة العثمانية ؛ وذلك لارتباطها بالمصالح الأجنبية وانتفاعها بها ، ولكن ذلك لم يكن العامل الوحيد ، وإنما هناك عوامل أخرى كان لها تأثيرها على سياسة الدولة العثمانية الداخلية ، يمكن تلخيصها في عاملين :

أولاً : إن نظام " الملل العثماني " ، ومواد التنظيمات قد أسهمت بشكل كبير في الوقت نفسه في ازدياد التكتل الطائفي ، عندما منحت رجال الدين صلاحيات كثيرة، مكنتهم من صيانة مفاهيم الطائفة ، فسهلت بذلك مهمة الاختراق الغربي للمجتمع العثماني بشتى فئاته .

ثانيًا : ارتباك السياسة العثمانية ، إزاء الطوائف غير الإسلامية ، هذا بالإضافة إلى صراعاتها الأخيرة فيما بينها بعد أن أصبحت كل طائفة مرتبطة بدولة أوروبية، مما جعل الباب العالي ينشغل بعملية الفصل بين الخلافات التي تنشأ بين الطوائف والمنازعات التي تقوم بين الروم والكاثوليك والتابعين للكنائس الشرقية ، من جهة ، وبين البطريركية من جهة أخرى ، مما أعطى فرصة لتدخل الدول الأوروبية في هذا ، مثل مسألة القضية الأرمينية في الولايات التابعة للدولة العثمانية ، وفي مسألة طائفة البلغار الأرثوذكس.[1]

ومهما يكن من أمر حول الاختلاف في إدارة الدولة العثمانية ، وما تضمنته هذه الإدارة طوال تاريخها الطويل من سلبيات وإيجابيات ، إلا أن الحقيقة تشير وبقوة إلى أن

---

[3] J. Schmidt: The Egri Campaign od 1596, Military History and the Problem of sources . Habsburgische – Osmanische Beziehungen , ciepo , Vieme , 1985, P.125-144.

[1] قيس جواد العزاوي : مرجع سابق ، ص96 .

العثمانيين وسلاطينهم قد بذلوا جهدًا كبيرًا لنشر الإسلام في أوربا ، وكانوا يقيمون الأفراح إذا ما دخل فرد من المسيحيين في الإسلام طوعًا ، وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل دلالة قاطعة على غيرة هؤلاء العثمانيين على الدين الإسلامي والسعي في نشره بكل السبل ، أسوة بالصحابة الأوائل فكانوا يحيون فيها من دخل طوعًا من المسلمين الجدد في الإسلام .

فكان المسلم الجديد يمتطي حصاناً ، ويطاف به في طرقات المدينة ، وهم في نشوة النصر ، فإذا توسموا فيه خلوص النية في تغيير دينه ، وعرفوا أنه دخل بمحض إرادته في حياض الإسلام ، أو كان شخصًا ذا مكانة طيبة ، استقبلوه بتكريم عظيم ، وأمدوه بما يعينه في الحياة الاجتماعية الطيبة . [2].

ومما لا شك فيه أنه مع مرور الزمن ، وبسبب هذه الامتيازات التي سبق وأن حصل عليها الذميون في الدولة العثمانية ، والعديد من الطوائف المسيحية ، أسفر ذلك الوضع عن نتائج تنتقص من حقوق الدولة العثمانية في السيادة ، وأرادت الأقليات رفع الصلاحيات القضائية المخولة لمحاكم القنصليات ، لكن المحاولة باءت بالفشل ، حتى عندما أصدرت الدولة العثمانية قرارًا عام 1333هـ/1914م من جانب واحد ، وألغت به كافة الامتيازات ، وأنهت الصلاحيات القضائية المخولة لمحاكم القنصليات ، لم يلق هذا القرار القبول المناسب من الدول الأوربية والغربية، فصار حبرًا على ورق ، وكأنه لم يكن ، وكان هذا الأمر دليلاً على ما وصلت إليه الدولة العثمانية وسلاطينها من عدم التصرف في أمورها السياسية الداخلية ، حتى في السيطرة على رعاياها من غير المسلمين ، وبذلك وأعطت الفرصة للكنسية الأوربية ودولها للتدخل في شئونها وشؤونها وشؤونهم ، مما عجل بسقوطها [1] .

من الأدلة التي تثبت لنا مدى التسامح الذي كان يتعامل به سلاطين الدولة العثمانية مع الطوائف المسيحية ، وبشكل رسمي في الدولة حتى في عصر الضعف، أنه كان لغير المسلمين في مجلس " المبعوثان " [2] خمسة عشر مقعدًا للنصارى الأرثوذكس ، وخمسة

[2] إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص253 .

[1] Seha L. Meray : Devletler Hukukuna Giris, Ankara, 1968, vol .I. P. 242 .

[2] هو مجلس النواب العثماني ومقره إستانبول ، وكان يتشكل من أعضاء الدولة العثمانية في مختلف الولايات التي يشملها التقسيم الإداري العثماني ، انظر : شمس الدين سامي : قاموس تركي ، مرجع سابق ، ص1270 .

عشر مقعداً للنصارى الأرمن ، وخمسة مقاعد لنصارى العرب ، وبالإضافة إلى هؤلاء ، كان في المجلس عدد من النواب اليهود.[3]

أثبت التاريخ – فيما بعد – أن مبدأ التسامح الديني الذي تعاملت به الدولة العثمانية مع رعاياها من غير المسلمين ، قد أدى إلى تسرب عدد من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ، ويبطنون الحقد والكراهية له ، إلى مراكز ومناصب الدولة العليا ، مما عاد على المدى البعيد بالضرر الشديد على الدولة العثمانية ، وخاصة في ولاياتها العربية والإسلامية ، بل كان أحد الأسباب الرئيسة في انهيارها والقضاء عليها ، لذا فإن هذا التسامح ينبغي أن يسجل على أنه نقطة إيجابية لصالح العثمانيين الأتراك المسلمين ، تؤكد صدق التزامهم بالإسلام ومنهجه وشريعته ، الذي جعل رابطة الدين ، وأواصر العقيدة ، فوق أية روابط عنصرية أو عرقية أو قومية .

فلا ينبغي أن يوجه اللوم إلى العثمانيين المسلمين الذين التزموا بما يفرضه عليهم إسلامهم ، فترفعوا عن العصبية القومية والعنصرية والعرقية ؛ امتثالاً لهدي نبيهم ﷺ القائل : " دعوها فإنها منتنة " ، وقد كان بإمكانهم أن يظهروا تعصبًا لانتمائهم القومي كأتراك ، لكنهم أثروا الالتزام بما يفرضه عليهم الإسلام من معاملة جميع المسلمين على قدم المساواة، وتوفير الفرص أمامهم من غير استثناء ، ليعطوا بذلك الدليل الساطع على أنهم ارتفعوا بأنفسهم فوق مستوى عصبية الانتماء القومي ، وارتقوا بها إلى رحاب الانتماء العقائدي الشامخ [4].

ولم يكن العثمانيون لينجحوا لولا سياسة المساواة والتسامح الديني التي مارسوها بين جميع رعايا الدولة ، وخاصة رعايا الدولة من غير المسلمين ، حيث قام العثمانيون بالتنظيم المللي بينهم ، وسنت القوانين بشأنهم ، وانتظمت الطوائف تحت قانون وسيادة عثمانية واحدة . وأدى هذا النوع من التنظيم إلى أن يصبح الرؤساء الدينيون رؤساء الملل ، وممثلين لطوائفهم في أمور الدين والقضاء على السواء ، ولهم صلاحيات الإدارة ، ومن ثم فهم المسؤولون عن طوائفهم ، والممثلون لها أمام السلطات العثمانية [1] ، ولهذا استطاعت تلك الطوائف أن تتمتع بقدر معين من الحكم الذاتي .

---

[3] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص85 ، نقلاً عن الأمير شكيب أرسلان الذي كان نائبًا في هذا المجلس.

[4] زياد أبو غنيمة ، مرجع سابق ، ص 64 .

[1] H.A.R . Gibb – Harold Bowen : Islamic Society and the west, volum III, P.212-213 .

على أن أهم نتائج سياسة التسامح الديني عدم فرض الإسلام على المسيحيين في أوروبا ، والحقيقة أنه لم تنجح الدولة العثمانية ولا إداراتها المنتشرة في معظم أراضي العالم شرقه وغربه نجاحًا كليًا في نشر الإسلام بين جميع رعاياها المسيحيين ، في ولاياتها الأوربية على وجه الخصوص، بل حققت نجاحًا محدودًا في مجال الدعوة الإسلامية ، وإن كانت قد تركت الدولة العثمانية بصماتها قوية وواضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوربا ، فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ، ظلت جماعات إسلامية تعيش حتى اليوم في أوربا، ولم تغير دينها بأي شكل من الأشكال رغم الضغوط التي بذلت من قبل الدول الأوربية لتحويلها إلى المسيحية ، ولم ترض هذه الجماعات الإسلامية عن دينها بديلاً.

والواقع أن الوجود العثماني في أوربا قد عجز عن أن ينبت جذورًا راسخة في الأرض بسبب إتباعه لسياسة التسامح الديني ، خاصة حين بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة وإدارتها، ومن هذه الجذور الاندماج والانصهار ونشر اللغة العربية والثقافية الإسلامية التي تحفظ للإسلام وجوده إذ لا يوجد روابط حضارية تربط بين العثمانيين وبين تلك الشعوب الأوربية ، المختلفة في اللغة والأديان والمذاهب وحتى الطوائف ولكن سياسة التسامح الديني حالت دون ذلك .

فلما زال أثر الوجود العثماني من أوربا كلها ، لم يخلف من بعده أثرًا ذا بال، وأهمية تذكر سوى بصمات في بعض الأقاليم البلقانية [2].

ولعل أبرز دليل على انقلاب نتائج سياسة التسامح الديني على الدولة العثمانية الثورة اليونانية ، حيث يتضح أن أوروبا كانت حريصة على تمزيق الدولة العثمانية من كافة جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية وتفجير الثورات الداخلية بدعمها المادي والمعنوي ، وذلك بإثارة الفتن الطائفية والدينية داخل ولايات الدولة العثمانية المختلفة ، وكانت بلاد اليونان تشكل جزءًا من ديار الإسلام، ويؤذَّن في مدنها وقراها للصلوات الخمس في اليوم والليلة قرونًا طويلة، وكانت تحكم بالشريعة الإسلامية، لذلك شرع زعماء النصارى في تأسيس جمعيات سرية في داخل بلاد اليونان وفي روسيا وغيرها، وكان الهدف من تأسيسها هو إحياء الإمبراطورية البيزنطية القديمة، على أن تكون تحت إدارة البطريركية والأرثوذكسية الرومية في إستانبول، حتى أصبح كثير من البطاركة والقساوسة ورجال الدين، أعضاء أصليين في هذه الجمعيات السرية المناهضة للدولة العثمانية، وقام رجال الدين

---

[2] إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 252-253.

باستخدام نفوذهم على الشعب وتحريكهم للثورة ضد الدولة العثمانية ؛ لما للقساوسة ورجال الدين من صلاحيات وثيقة بزعماء الدولة الأوربية وخصوصًا روسيا [1].

هذه هي سياسة التسامح الديني التي كانت تتعامل بها الدولة العثمانية مع كل أهل الذمة الذين عاشوا في أرضها وتحت إدارتها وحكم سلاطينها ، فحصلت الكنيسة على العديد من الامتيازات داخل الدولة ، وحصل رجالها على العديد من الصلاحيات والامتيازات التي كانت سببًا في هدم الدولة العثمانية في أواخر عهدها، فانقلب ذلك التسامح ضدها ، وبدأ رجال الكنيسة وساسة أوروبا في العمل معًا لإسقاط الخلافة العثمانية ، وإنهاء الدولة الإسلامية من الوجود العالمي ، وأصبحت ذكرى بعد أن كانت تأريخاً – كما سنرى في السطور القادمة – كذلك التسامح الديني مع اليهود والمسيحيين جعل أقلامهم الاستشراقية تنبري للكتابة عنها ، وتشويه تاريخها ، وكان هذا اعترافاً منهم بالجميل الذي تمثل في الحرية الدينية التي تمتعوا بها في ظل الخلافة العثمانية !! .

---

[1] علي محمد الصلابي : الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط، الطبعة الأولى، دار البيارق، 1420هـ – 1999م، ص574–575 .

لا شك أن ظهور الدولة العثمانية على مسرح الأحداث السياسية أوجد ردة فعل عنيفة لدى أوروبا ليس فقط على الصعيد العسكري وإنما أيضًا على الصعيد الفكري مما ساعد على إزدهار حركة الاستشراق الذي اتضح فيما يلي:

١) ظهور عدة شخصيات منذ ق 7هـ / 13م ساعدت على دفع عجلة الاستشراق باتجاه تحقيق أهدافها ، مما نتج عنه نشاط حركة التجسس ، وجمع المعلومات التي أفادت الاستعمار فيما بعد حيث قدمت للمستعمر ما يريده عن البلاد التي يضعها نُصب عينيه.

٢) وصول المستشرقين تباعًا إلى داخل مركز الخلافة العثمانية الإسلامية بعد حصول الدول الأجنبية على امتيازات خاصة لرعاياها المسيحيين فيها ، مما أدى إلى تخصص بعض المستشرقين فيما بعد في تاريخ الدولة العثمانية مثل (برنارد لويس) و(ستانفرد شو) واتخاذهم من الكتابة التاريخية وسيلة للطعن في الدولة العثمانية .

٣) حصول الدراسات الاستشراقية على الدعم المادي الضخم من الكنيسة متمثلة في البابوية والحكومات وحتى المؤسسات الخيرية ، فنتج عنه تمتع مادة التاريخ الإسلامي بمكانة مميزة بين المقررات الدراسية في الجامعات الأوروبية ومراكز دراسات الشرق الأوسط .

٤) تنامي أعداد كراسي الاستشراق في الجامعات الأوروبية بشكل كبير ، وما صاحب ذلك من زيادة مراكز للدراسات الشرق أوسطية مع زيادة أعداد المجلات والدوريات العلمية التي تنشر الأبحاث الاستشراقية وتروج لها.

٥) الباعث الأول والأساس كان للاستشراق باعثًا دينيًا ، للتعرف على الدين الإسلامي ومن ثم محاولة تنفير المسيحيين منه ، لذلك نشأ الاستشراق في أحضان الكنيسة ، و مما شجع الدراسات الاستشراقية أيضًا وجود الدعم المادي والمعنوي الدائم والمستمر .

٦) عملت الكنيسة بكل جهدها على تشجيع الاستعمار ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف شجعت الرحالة القساوسة والرهبان على الرحلات الاستكشافية في البلاد الإسلامية

لجمع المعلومات اللازمة للمستشرقين ودعمًا للغزو الفكري، وتواصل هذا الدعم طوال القرون الماضية حتى توج في عصر الدولة العثمانية .

٧) تفكك الكنيسة داخليًا ، إذ أن الصراع المذهبي الذي دار بين الكاثوليك والأرثوذكس جعلها تفقد كثير من مكانتها عند الشعوب المسيحية ، مما أدى إلى ترحيب هذه الشعوب المضطهدة بالعثمانيين المتسامحين .

٨) وضع البابا (جريجوريوس) الشروط التي لابد للدراسات الاستشراقية من بدايتها حتى تصل إلى مبتغاها ، متخذاً من الكنيسة مقراً لحياكة المؤامرات والدسائس ، والتجسس بكافة الوسائل على الدولة العثمانية .

٩) روح الإسلام التي تحلت بها الدولة العثمانية ساعدت على زيادة الأعداد المسيحية التي دخلت في الإسلام ، مما أدى إلى زيادة العداء من أوروبا يتقدمها البابوات والكنيسة فجاءت ردة فعلهم عنيفة وقوية تمثلت في الأحلاف الصليبية بعد انتصارات العثمانيين وتفوقهم عسكريًا ، والكتابات الاستشراقية التي ساعدت على إذكاء روح العداء على الإسلام .

١٠) بدأت ردود الفعل العنيفة في أوروبا منذ عهد السلطان أورخان ، وتصاعدت موجة الأحلاف الصليبية منذ عهد السلطان مراد الأول ووصولاً إلى محمد الفاتح و سليم الأول وسليمان القانوني . وأغلب هذه التحالفات تكونت بدعم من الكنيسة وعلى مرأى من البابا الذي باركها جميعًا ، بشرط أن تقدم له خدمات وتحقق طموحات معينة له .

١١) بدأت الكتابات الاستشراقية في الظهور ونفثت سمومها في أحداث التاريخ العثماني ، خاصة في أعقاب سقوط القسطنطينية وكأنها حجة المغلوب ، ثم صُقلت الكتابات الاستشراقية التي هاجمت الدولة العثمانية وسلاطينها وأخذت طابعًا سافرًا ورديئًا .

١٢) تجلى هذا الطابع عندما تناولوا تاريخ السلطان عبد الحميد الثاني في أعقاب إسقاط حكمهِ ، واتخاذهم لكثير من التدابير حتى يشوهوا صورتهُ أمام شعبهِ، بأحداث خيالية لم تحدث إلا في ردهات عقولهم ، ونسوا تاريخهم الأسود المليء بالفظائع والمذابح والتعصب .

١٣) جاءت سياسية التسامح الديني في الإسلام ضمن الشرائع الأساسية ، وقد انتهجتها الدولة العثمانية في تعاملها مع أهل الذمة .

١٤) عاش على الأرض العثمانية كثير من المسيحيين واليهود وغيرهم من الطوائف التي تمتعت بكافة امتيازاتها منذ بداية عهد الدولة العثمانية وتوجت وصقلت سياسة التسامح الديني وبلغت ذروتها في عهد محمد الفاتح ، فنالوا وظائف عليا في الدولة ، ومارسوا شعائرهم الدينية بمنتهى الأمن وزادت أعدادهم بشكل ملحوظ وحظي أهل الذمة بمكانة إقتصادية عالية و إمتيازات تجارية لم ينالوا مثلها في ظل دولة أخرى .

١٥) أساءت الكنيسة استخدام هذه الحرية الدينية ، وذلك لتحقيق مأربها ومخططاتها السياسية، فانتشرت المدارس التنصيرية ، وحظي أهل الذمة بمكانة اقتصادية عالية و امتيازات تجارية لما ينالوها في ظل دولة إسلامية أخرى وتحولت دور القنصليات إلى تنفيذ مخططات بلادهم في الولايات العثمانية ، مما نتج عنه إثارة النعرات القومية لتشجيع الانفصال عن الدولة العثمانية .

١٦) في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تمارس سياسة التسامح الديني بمنتهى البساطة، حتى بات جزءاً أساسيًا من سياستها فشلت أوروبا في تخطي عقبة التسامح الديني ، ولو على الأقل مع أصحاب المذاهب الأخرى من الديانة نفسها ، ولولا أن الدولة العثمانية طبقت سياسة التسامح الديني مع الأقليات المسيحية في البلاد التي فتحتها، لما وجدنا أي مسيحي في هذه البلاد ، ولاختفت المسيحية من اليونان وبلاد المجر مثلاً ، كما اختفى الإسلام من الأندلس .

انفصم انثبَي
تبسيخ َشأة انمعارف الإسلامية

المبحث الأول :

انتعشيف بذائرة المعارف الإسلامية

انًبسث انثبَي :

انًستششلىٌ انزيٍ كتبىا في دائشة انًعبرف الإسلامية عن انذونت انعثًَبَيت اسًبت وتسهيم .

انًبسث انثبنث :

دوس انًؤسخيٍ فيُه ح انكتهبيت انتبسيخيت عٍ انذونت انعثًَبَيت .

المبحث الأول :

التعريف بدائرة المعارف الإسلامية

عمل الأوروبيون متكتلين على مهاجمة الإسلام عامة والدولة العثمانية خاصة بحملات صليبية عسكرية ، وعندما لم تنجح هذه الحملات لجأوا إلى الجوانب الفكرية وتشويه الإسلام وتاريخه وثوابته.

العداء للإسلام من الناحية العلمية يأتي من تجاهل هؤلاء المستشرقين لحقيقة الإسلام وجهلهم باللغة العربية ، والعداء ظاهرة إنسانية صادرة من الحقد والحسد والضغينة ، وهذه الأمور عادة ما تدفع الإنسان إلى الظلم والتعسف ، وعدم الإنصاف بقصد قهر الطرف المعادي والاستعلاء عليه . ونحن ندرك أهداف المستشرقين وأغراضهم ، ومن أجل ذلك لن ينصفوا الإسلام ويقولوا الحق ؛ ومن هنا يمكننا القول بأن الموضوعية لا يمكن أن تقوم لها قائمة في ظل العداء والحقد؛ لأن التفكير العدائي الموروث من الصليبية القديمة مستحوذ على اتجاهات المستشرقين وطريقة تفكيرهم ، لذا فهم ليسوا من العدل في شيء ؛ ولهذا فمنهجهم ليس منهجًا علميًا ؛ لأنه موجه حسب التفكير القديم عن الإسلام . أما من لهم إلمام ببلاغة و بيان اللغة العربية – وهم قلة – فهم سكوت عن المفتريات ضد الإسلام من قبل المستشرقين ، ولذا فهم ليسوا أفضل حالاً من غيرهم ، وقد كان من المفترض أن تختفي ظاهرة التعصب الديني والعداء المبني على ظواهر غير حقيقية ، بناء على هزيمتهم في الحروب الصليبية ، لكنهم اتجهوا إلى الحرب الفكرية والتشويه بجانب الحرب العسكرية . [1]

إن الدراسات الاستشراقية الحديثة تسعى دائماً إلى بث الشعارات البراقة التي تأخذ النفس ، وتؤثر فيها ، مثل شعارات القومية والحرية الفكرية والتحرر والديمقراطية ، وهذه الحرية الفكرية يقصد بها التحرر من أي التزامات وقوانين سماوية ونظم اجتماعية فاضلة ،

---

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص122 ، 123 .

إنما تسعى جاهده إلى التعديل الثقافي لشعوب البلدان الإسلامية ، بل وتطمح إلى تعديل النظم السياسية لإدخال الخطط السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية التي تحقق أهداف الاستعمار ؛ ليتمكن بعد ذلك من إخضاع البلاد الإسلامية لهيمنة الغرب وسلطانه .

وعمل المستشرقون على هدم الثقافة الإسلامية ، فاتخذوا عدة وسائل لتزييف التاريخ ، وتصوير حملات الباطنية والقرامطة على أنها حركات ثورية إصلاحية ؛ فيؤدي ذلك لهدم الصحوة الإسلامية بما توجده من خلافات في صفوف المسلمين بسبب مناداة أهل الباطل بصحة هذه الحركات ؛ فتثور ثائرة أهل الحق فيتصدى الحاكم لهم ، ويتخذ الإجراءات العنيفة في قمع الحق (التمرد) بما يذيعه من تدليس ، وتشويه لحقيقة الصحوة الإسلامية ، وبذلك تكون الغلبة لظهور هذه الحركات . ولعمل الدعاية اللازمة لهذه الحركات العقائدية الفاسدة وسُخِّرت أقلام المستشرقين لتأليف الكتب والمقالات التي تركزت على وصف الحركات السيئة في صورة جيدة وكأنها حركات تقدمية . [1]

ومع ظهور الدولة العثمانية وفتوحاتها في أوروبا ونشر الإسلام دخل الاستشراق مرحلة مميزة ولامعة حيث ازدادت روح التعصب الصليبية ، ويتضح هذا الأمر أكثر من خلال ما قاله جوستاف لوبون:" لا جرم أن أتباع محمد ﷺ كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا، فكانوا بتهديدهم للغرب في عهد شارل مارتل وفي الحروب الصليبية ، وبعد دخول العثمانيين الآستانة ، يذلوننا بحضارتهم السامية الساحقة ، وقد تركت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا والناقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون حتى أصبحت جزءًا من نظامنا " [2]

ومما يصقل المعلومة السابقة قول المؤرخ الهندي المسلم خودا بخش عن أثر حقد الأوروبيين على العثمانيين في ازدياد الاستشراق وروح كراهيته للإسلام والمسلمين : " حينما ظهر العثمانيون بمظهر حماة الإسلام بعد سقوط الخلافة في بغداد بدأ دور جديد من صراع الإسلام والمسيحية ، أما الكنيسة الغربية فقد دفعها حرصها على انتشار العقيدة الكاثوليكية ، وخوفها وغيرتها على الدولة البيزنطية إلى تنظيم حملات صليبية للانتقام من

---

[1] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص146 ، 147 .

[2] علي حسين الخربوطلي : مرجع سابق ، ص 46 . نقلاً عن جوستاف لوبون : تاريخ الحضارة الإسلامية .

الأتراك لما اقترفوه ضد المسيحيين ، وكان غرض هذه الحملات الحقيقي مقاومة الإسلام المتزايدة " [3]

يرسم كرد علي صورة لأحقاد أوروبا على العثمانيين مما أدى إلى تعصب فكري وديني وقومي في كتابه " : وبديهي بعد هذه الأحقاد خصوصًا بعد أن هزت الدولة العثمانية في العصور الأخيرة أعصاب أوروبا زمنًا أن يقول الخصم في خصمهِ ما قد يحط من قدره ، ويصغر من أمره . ولا يفوتنا أن الجهل كان فاشياً في الغرب ، وأن الدين كان مسيطرًا على كل عالم وباحث ، وأصبحت آراء المؤرخين تختلف في الجوهر والعرض في الحادثة الواحدة، وكان من مظاهر هذا العصر اشتداد سلطان التعصب القومي " [1]

هذه باختصار نظرة المستشرقين للعثمانيين ، ومدى حقدهم وكراهيتهم للإسلام والمسلمين بصفة عامة ، وتتجلى هذه الصورة في أهداف المستشرقين الدينية والسياسية التي كان أثرها واضحًا على جميع كتابتهم ومن أهم أهدافهم التي تنطبق على طريقة تناولهم للتاريخ العثماني:

١) محاربة الإسلام ، والبحث عن نقاط الضعف فيه وإبرازها ، والمحاولة من الحط من قدرهِ ومنزلتهِ على أساس أنه مأخوذ من اليهودية والنصرانية .

٢) حماية المسيحيين من الإسلام بحجب الحقائق عنهم ، واطلاعهم على نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام للإسلام.

٣) العمل على تنصير المسلمين . [2]

٤) إضعاف ثقة المسلمين بدينهم ، وبث روح الشك في كل ما بين أيديهم من عقيدة وقيم ومثل عليا ؛ ليسهل على الاستعمار تشديد وطأته عليهم ، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم .

٥) إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بإحياء القومية التي كانت موجودة قبل الإسلام، وإثارة الخلافات والنعرات لمنع

---

[3] خودابخش : الحضارة الإسلامية ، ط1 ، مصر : مطبعة الحلبي ، 1960م ، ص39 .

[1] محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ج 1 ، ط3 ، مصر ، 1968م ، ص30 .

[2] محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص75 .

اجتماع شمل شعوبها ووحدة كلمتها ، وتصيد الأحداث الفردية في التاريخ؛ ليضعوا تاريخاً جديداً يناسب أهدافهم . [3]

٦) تسيطر على كتاباتهم البدع الدخيلة على الدين الإسلامي ، باستفاضة مثيرة ، وباستخدام أساليب الكذب المقنعة ، حتى يظن القارئ أنها من أصول الإسلام ، وحقائقه الثابتة وليست دخيلة. وهناك قصد متعمد في الجمع بين الأساطير والبدع وحقائق وثوابت الشريعة الإسلامية . [1]

ولتحقيق هذه الأهداف المشوهة ، عملوا بشتى الوسائل لنشر سمومهم بين المسلمين وفي الكتب حتى لا يصبح للحقيقة مكان ، فقد دأبوا بمنتهى الصبر على العمل للوصول إلى أهدافهم ، ومن هذه الوسائل :

١) إصدار المجلات الخاصة ببحوثهم حول الإسلام وبلاده وشعوبه .
٢) إرساليات التنصير إلى العالم الإسلامي لتزاول أعمالاً إنسانية في الظاهر كالمستشفيات والجمعيات والمدارس والملاجئ ، ودور الضيافة كجمعيات الشباب المسيحية .
٣) إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية ، ومن المؤسف أن أشدهم خطراً وعداءً للإسلام تتم دعوتهم إلى الجامعات العربية والإسلامية في القاهرة ودمشق وبغداد وكراتشي ولاهور وغيرها ؛ ليتحدثوا عن الإسلام !
٤) استطاعوا شراء عدد من الصحف المحلية في بلادنا ؛ ليبثوا سمومهم بين المسلمين . وخير مثال على ذلك استغلال الصحافة المصرية للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر مستغلين وجود الأقلية المسيحية بها .
٥) عقد المؤتمرات لإحكام خططهم في الحقيقة ، ولنشر أبحاثهم العلمية في الظاهر ، وما زالوا يعقدون المؤتمرات منذ عام 1198هـ/1783م حتى الآن .
٦) تأليف الكتب في موضوعات إسلامية شتى ، في علوم القرآن الكريم، والعقيدة ، وعن الرسول ﷺ والسنة النبوية المشرفة، وفي التاريخ الإسلامي . وجاء أكثرها محرفًا تحريفًا متعمدًا في نقل النصوص أو بترها، وفي فهم الوقائع التاريخية ، والاستنتاج

---

[3] مصطفى السباعي : مرجع سابق ، ص30

[1] الإستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19م ، . http : // www. Saaid. Net

منها . وعلى رأس هذه الكتب إنشاء دائرة المعارف الإسلامية [2] التي تعتبر تتويجًا لجهود المستشرقين على مر أعوام طويلة ، فقد تناولت الإسلام بكل ما فيه من عقيدة ، ونظم وتشريع ، وتاريخ ولغة وآداب. وكتب أساطين المستشرقين الذين تنوعت أهدافهم وتداخلت عن التاريخ الإسلامي، لكن النتيجة التي وصلوا إليها أنهم كانوا الفئة الأشد عداء للإسلام . وملئت هذه الموسوعة بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلق به .

وهي موسوعة أخرجت للقراء في بداية القرن 14 هـ / 20 م على هيئة أبحاث منفصلة ، مرتبة فيها المواد حسب الحروف الهجائية ، وصدرت منها طبعتان ، تُرجمت إلى اللغة العربية . وقد احتوت هذه الموسوعة على كمٍّ هائل من المصطلحات في العقائد والفقه ، واللغة والفرق ، والتصوف والفلسفة ، وحوت أيضاً تراجم لعامة الشخصيات المشهورة في تاريخ الإسلام ، وتوفرت بها معلومات كثيرة عن اللغة والتاريخ والبقاع والقبائل . [1]

وتحمل هذه الموسوعة في صفحاتها صورة سيئة ومشوهة عن الإسلام والمسلمين والعرب . ومثل هذا النتاج يشكل خطرًا كبيرًا على الدعـــوة إلى الإسلام ؛ لأنها تجعل مهمة الداعية أمرًا ليس يسيرًا في تغيير صورة الإسلام المشوهة والسيئة التي رسمها المستشرقون عن الإسلام بقصد الحيلولة دون قبول الإسلام واعتناقه من قبل غير المسلمين ، ناهيك عما تقوم به الحملات التنصيرية ذات الصلة القوية بالاستعمار والاستشراق من تنصير للمسلمين.[2]

وقد اعتبرت الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة دائرة المعارف الإسلامية من أبرز وأهم مؤلفات المستشرقين ؛ لما احتوته من آرائهم وأفكارهم المشوهة لكل ما يتصل بالإسلام . [3]

تعد دائرة المعارف الإسلامية من أهم مؤلفات المستشرقين على الإطلاق، ويرجع ذلك لأسباب متعددة ، منها :

---

[2] مصطفى السباعي : مرجع سابق ، ص34، 35 . وسائل المستشرقين . التوحيد . 2008/8/17م . http : // www .Eltwhed.com .

[1] خالد عبدالله القاسم : العقيدة الإسلامية في دائرة المعارف الإسلامية ، رسالة دكتوراه لم تطبع ، كلية الشريعة ، جامعة أم القرى، ص 17 ، 18 .

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص17 .

[3] مانع حماد الجهني : مرجع سابق ، ج2 ، ص702 .

١) العدد الكبير من أساطين المستشرقين المساهمين فيها .

٢) كبر حجمها ، وتنوع المعارف فيها .

٣) استمرارية إخراجها وانتشارها ، وتعدد لغاتها حيث خرجت بالإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وقد ترجمت إلى العربية والأردية والتركية وغيرها من اللغات . [4]

٤) أنها تحمل اسم الإسلام (دائرة المعارف الإسلامية) مما يجعل الجميع يطَّلع عليها ، وهي بعيدة كل البعد عن صفة الإسلام.

ونتيجة لهذه الأسباب أصبحت هذه الموسوعة مرجعًا لكثير من الباحثين، وذلك :

١) لوفرة المعلومات التي احتوتها ، وقد جمعت من مصادر شتى في تخصصات مختلفة .

٢) صياغة المعلومات فيها بأسلوب سهل يستفيد منه الجميع .

٣) سهولة الرجوع إلى المعلومات المطلوبة ، وذلك لحسن ترتيبها .

٤) محاولة كثير من كتابها إظهار عملهم بمظهر المنصف الموضوعي .

٥) اغترار بعض الناس بأسماء أولئك المستشرقين ، وقبولهم لكل ما يكتبونه .

ولهذه الأسباب وغيرها أصبحت الموسوعة مرجعاً للعلوم الإسلامية ، ولكل ما يتعلق بالمسلمين وتاريخهم خاصة العرب. كما أنه لا تكاد تخلو منها مكتبة عامة سواء كانت عربية أم إسلامية أم غربية.[1]

يضاف إلى ما سبق أنه بعد ترجمتها إلى التركية عام 1358هـ /1939م من قبل وزارة المعارف التركية أصبحت مصدرًا لكثير من المتعلمين في تركيا . يتم تداولها بصورة واسعة بسبب رخص ثمنها . وبما أنها مليئة بالافتراءات والدسائس على الإسلام يتضاعف الخطر حين يتم انتشار مثل هذه الكتب في الأوساط العلمية ، فتعامل بوصفها كتباً موضوعية ، وبذلك يقع المتعلم فريسة سهلة لما فيها من دسائس وافتراءات ، في ظل غياب الكتب الإسلامية الصحيحة.[2]

---

[4] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص55 .

[1] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص18 .

[2] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص143 .

وعلى هذا فهي وفيرة المعلومات التاريخية سواء في التاريخ الإسلامي أم الحديث أم المعاصر. ولكنه تاريخ مشوه ومغلوط . وجاءت بفهارس مميزة وسهل الرجوع إليها .

إن هذا التشويه متعمد ، إضافة إلى أخطاء كثيرة متفاوتة وقعوا فيها إما تعمدًا وكذبًا أم لجهلهم باللغة العربية وبحقائق الإسلام . وأغلب موضوعات التاريخ الإسلامي – وبالتالي العثماني – تجد فيها التخبط ؛ مما يفقد المادة سياقها وتناسقها وجاذبيتها . ولا يظنون أن ما كتبوه هو الصواب بإقرار المسلمين لهم بالسكوت ، بل ستكون الردود عليهم مستمرة – بإذن الله – بوجود النخبة المستنيرة من علماء وشباب الأمة الإسلامية .

جمعت الدائرة بين خلاصة ما كتب عن الإسلام في الكتب التي ألفها ووضعها المستشرقون وبين أبحاثهم المنتشرة بين الجامعات. والسمة الغالبة عليها الهجوم بشراسة على الإسلام طوال سنين طويلة ، وكانت هذه الكتابات متفرقة في المؤلفات ، ولم يكن يقرأها إلا بعض الغربيين الذين اختيروا للعمل في البلاد الإسلامية ، فوضعوا الدائرة ؛ لتضم هذه المقالات ، وتصبح مصدرًا إسلاميًا يرجع إليه كل المسلمين بسهولة ويسر .

أما عن لجنة تحرير مواد الدائرة فقد ضمت بين صفوفها كبار المستشرقين وأخطرهم فكرًا ، وقد كلف المستشرق الهولندي المتعصب مارتن تيودور هوتسما Martin Tiodor Hotsma [1] بإنشائها وترأس لجنة التحرير. وقامت مطبعة جامعة ليدن [2] بإصدارها، ودار نشر هولندية تسمى برايل تولت Brail أمر توزيعها ، ثم استعين بالمجامع ومؤسسات نشر العلم في أووربا للإنفاق عليها فامدتها بالمال 1309هـ/ 1891م، وابتدأ في

---

[1] هوتسما : مارتن تيودور مستشرق هولندي من أشد المتعصبين ضد الإسلام ، ولد عام 1851م ، تخرج من جامعة ليدن وحصل على درجة الدكتوراه في عام 1875م في اللاهوت برسالة عنوانها " النزاع حول العقيدة في الإسلام " بالهولندية ، ثم عمل مساعداً لقسم المخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليدن ، ثم مدرساً للغتين الفارسية والتركية في المعهد الإسلامي بليدن ، ثم أستاذاً للعبرية، قام بنشر فهرس للمخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليدن ، وحقق عدة مخطوطات عربية ، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، على أن أهم أعماله الإشراف على إصدار دائرة المعارف الإسلامية ، وباسمه ارتبطت طبعتها الأولى . انظر:عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص616 . عبد اللطيف حمدان : مرجع سابق ، ص211 . مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية 2009/2/1م . http : // www. Madinacenter .com .

[2] مكتبة جامعة لايدن : تقع في هولندا ، أنشئت بأمر من أميرها وليام في ذو القعدة 982هـ / فبراير 1575م ، مكافأة للايدن على دورها الوطني في مقاومة الإستعمار الإسباني ، ساهمت بفاعلية في نشر دائرة المعارف الإسلامية . تضم المكتبة أجنحة ضخمة عن الحضارات والمخطوطات القديمة ، بالإضافة إلى الكتب العربية والإسلامية ، ولا زالت جامعة لايدن تواصل تدريس العلوم الشرقية والإسلامية واللغة العربية وآدابها وتاريخها . تقدم خدمتها لجميع الطلبة من كل الأجناس ، وتواصل نشاطها الثقافي والعلمي بإقامة المؤتمرات والندوات الثقافية . حسين الأنصاري . منجزات الإستشراق في ظل المعلوماتية ، الصباح ، 2009/10/13م . htt : // www. Alsabaah . com

عام 1324هـ / 1906م تأليف مواد الدائرة ، ومن أوائل من بادر بها (هوتسما) ، وقد حرر الدراسات المتعلقة بالدولة العثمانية،وفارس والهند ، ثم حل محله في الإشراف على الدائرة (فنسنك Vensink) [3] ويعدّ من أشد المتعــصبين ضد الإسلام عام 1343هـ / 1924م . [1] وقد صدرت في الفترة ما بين 1331هـ/ 1913م – 1357هـ /1938م. وقد قامت الدائرة في الأصل على أساس من التعاون العالمي ، وقد اشترك في التخطيط لها اشتراكاً حاسماً المستشرق (سنوك هرُخروْنيه Snouk Hourkhronaih) [2]، ثم خلفه على كرسي ليدن في التنفيذ المستشرق (أدنت يان فينسيك) ، ومن الملاحظ أنه كان للمستشرقين الألمان دور مميز في الطبعة الأولى من الدائرة حيث اشترك لفيف منهم في كتابة عدد كبير من المواد . وفي الجزء الأول من الدائرة ، الذي طبع عام 1331هـ / 1913م ظهر منهم (أرتورشاده ArtorScheade) [3] و(هارتمان Hartmann)[4] وأما الجزء الثاني الذي ظهر عام 1346هـ/ 1927م كان(أرتورشاده) أيضاً في الإشراف، و(هانس يارو Hans Yaru) ، (وفيللي هيفيننج Velly Hevening) [5]، واشترك الأخير في نشر الجزء الثالث والرابع والمجلد التكميلي. تلك المجلدات جرى فيها العمل في

---

[3] أدنت يان فنسنك : مستشرق هولندي ، وكان تلميذاً لهوستما ، وسنوك هورجرونيه ، حصل على الدكتوراه برسالة " محمد واليهود في المدينة " وترأس مشروع معجم الأحاديث النبوية حسب الحروف الهجائية . وله عدة أبحاث عن العقيدة الإسلامية نــشأتها وتطورها وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وفصل منه نتيجة مؤلفاته التي هاجمت الإسلام والقرآن=

=والرسول ﷺ . أشرف على كتابة الدائرة في فترة من فتراتها . انظر : عبد اللطيف حمدان : مرجع سابق ، ص 164 . عبدالرحمن البدوي : مرجع سابق، ص417-418 . مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية . 2009/2/1م .

. http: // www. Madinacanter .com

[1] نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج3 ، ص371 .

[2] تم التعريف لسنوك هرُخرْونيه في الفصل الأول ، المبحث الأول .

[3] شاده : أرتور 1300هـ – 1371هـ / 1883م – 1952م . تخرج من قسم اللغات الشرقية من ليبزيج ، وعين أستاذاً في هامبورج والجامعة المصرية ، ثم مديراً لدار الكتب بالقاهرة ، ركز في كتاباتهِ على السيرة النبوية والأدب العربي الإسلامي . وله في الدائرة كثير من المواد عن الأدب العربي والإسلامي . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 448 ، 445 .

[4] هارتمان : ريتشارد 1299 – 1385هـ / 1881م – 1965م . درس في جامعتي برلين وتوبنجين ، بدأ حياته المهنية مساعد أمين لمكتبة جامعة توبنجين ، ثم بدأ في الإشراف على إصدار دائرة المعارف الإسلامية ، عام 1331هـ / 1913م ثم عين في كلتا الجامعتين السابقتين ، ومديراً لمعهد اللغات الشرقية ، كما أنتخب عضواً في مجامع كثيرة منها المجمع العلمي العربي بدمشق وصنف كتاب لتكريمه ، ومن أهم مؤلفاتهِ : تفسير القرآن ، ودراسات وافرة عن تركيا وتراجم لكبار المستشرقين . انظر . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 445 ، 446 . مدارس الاستشراق . المدرسة الألمانية . 2009/2/1م .

. http : // www. Madinacenter . com

[5] هيفيننج : فيللي 132هـ–1387هـ / 1908م – 1967م . له عدة أبحاث عن المسلمين العرب والأتراك والمذاهب العربية . انظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 139 .

وقـت واحد، وخـرجت في الأعوام على التوالي 1355هـ 1356هـ ، 1357هـ / 1936م ، 1937م ، 1938م . وقد أعدوا سجلاً عاماً لها ، لكنه لم ينشر. وقد ظهرت الطبعة الأولى بثلاث لغات : الألمانية الفرنسية والإنجليزية . أما الجانب الفرنسي فكان منه (دينيه باسه Deniah Passah)[1] الذي أشرف أيضاً على جميع المواد المحررة لشمال إفريقيا .

أما من الجانب الإنجليزي فقد اشترك في تحرير مواد الدائرة (أرنولد توماس Arnold Tomas)[2] الذي أشرف على جميع المواد المتعلقة بالبلاد المتصلة ببريطانيا ما عدا مصر .

وقد كانت المواد في غالبيتها بقلم المتخصصين في موضوعاتها، وكل مستشرق يوقع على ما يكتبه . وكانت المواد تترجم من لغتها الأصلية إلى اللغتين الأخريين . [3]

أما الطبعة الثانية فقد جاءت في ضوء ما صدر من أبحاث جديدة ، وما نشر واكتشف من مخطوطات ووثائق ، فأتت الطبعة الجديدة مشتملة على النتائج الأخيرة للبحث العلمي، وذلك تحت إشراف لجنة جديدة مكونة من (كرامرز) [4] (هاملتون جب Hamilton

---

[1] دينيه باسه : ولد في مدينة لوينفل في فرنسا ، عام 1272هـ / 1855م ، تخرج من مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم أجيز من معهد فرنسا ، وأسند إليه كرسي اللغة العربية في مدرسة الآداب العالية بالجزائر ، درس فيها الحبشية والتركية والبربرية، طاف تونس منقباً عن الآثار الإسلامية عام 1306هـ / 1888م . وكان في طليعة محرري المجلة الإفريقية ، وأسهم في مجلات علمية دورية كثيرة ، ترأس مؤتمر المستشرقين عام 1323هـ / 1905م ، عمل في وزارة الخارجية فترة إلا أنه آثر التدريس ، ثم انتخب من مديري دائرة المعارف الإسلامية ، وكان عضواً بارزاً في كثير من المجامع العلمية . ارتكزت كتابته على تاريخ المغرب العربي ، والشعر الجاهلي . انظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ص 216-218 .

[2] أرنولد : توماس Arnold Thomas Walker مستشرق إنجليزي ، تميزت كتابته بخفة حدتها على الإسلام ، تخرج في كمبردج، وعاش في الهند فترة طويلة أستاذًا في جامعة عليكرة ، وأستاذًا للفلسفة في لاهور ، وأستاذًا للدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ثم صار عميداً لها عام 1340هـ / 1921م ، وكان محباً للإسلام حتى انه في فترة وجوده في الهند كان يرتدي الزي الإسلامي الهندي ، وضع عدة أبحاث في الإسلام والعلوم الإسلامية ، وحاضر في الجامعة المصرية عن التاريخ الإسلامي . له عدة دراسات على كثير من المخطوطات الإسلامية التاريخية . أهم كتبه " الدعوة إلى الإسلام " ، وكتب عن تاريخ الفن الإسلامي ،على أن أهم كتبه على الإطلاق كتاب " الخلافة " الذي ألفه عام 1343هـ/ 1924م ، وقد وضعه بمناسبة زوال الخلافة العثمانية، تناول فيه تدرج الخلافة من الخلفاء الراشدين إلى إلغاء الخلافة على يد كمال أتاتورك . انظر . عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص9-11 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 86 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 84، 85 .

[3] عبدالعظيم المطعني : الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، ط 1 ، جدة : دار الوفاق ، 1407هـ / 1987م ، ص68 . رودي بارت : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة : مصطفى ماهر ، ط 1 ، مصر دار الكتاب العربي ، 1967م ، ص 38 . محمد حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص 70 .

[4] كرامرز سيتم التعريف له في المبحث القادم .

gepp)[5]، و(ليفي بروفنسال) [6] ، وبدأ ظهورها عام 1370هـ/1954م منقحة ومزيدة ، وتوقف إصدارها عام 1398هـ/1977م حيث أصدر منها ستة طبعات . [7]

ويتضح من المعلومات السابقة أن أول من ترأس الكتابة عن الدولة العثمانية كانوا من هولندا على الرغم من عدم وجود علاقات بين الدولة العثمانية وهولندا ، فبسبب الحقد الصليبي اتجهوا للطعن في تاريخها ، بل وأسهموا في إصدار الدائرة نفسها ، والعمل على تحقيق الهدف منها .

وقد أصيبت لجنة الدائرة بعد الحرب العالمية الثانية ، بشيء من الفتور والاضطراب ؛ فتوقف عملها ، حتى أن بعض أعضائها لقوا حتفهم في ساحاتها . ثم أستأنف نشاطها مرة أخرى ، واجتمعت اللجنة في مؤتمرهم الحادي والعشرين في باريس عام 1368هـ / 1948م ، وقرروا إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة في طبعة حديثة ، تعاد كتابة المقالات فيها بناءً على المستجدات الحديثة ، ولم تستكمل ، وقد تغيرت لجنة التحرير عدة مرات مع بقاء الهدف الأساسي . [1]

وخلال مسيرة الدائرة الطويلة تعرضت لعدة مشاكل ، من أهمها التكاليف المادية ومدى استمرارها للوصول إلى الهدف المرجو منها ، فاعتمدت على جمع التبرعات من

---

(5) جيب : هاملتون مستشرق إنجليزي ذائع الصيت ، ولد في الإسكندرية بمصر عام 1313هـ / 1895م ، تعلم في إسكتلنده ، وتخرج في جامعة أدنبره حيث تخصص في اللغات السامية ، عمل بداية حياته في الجندية ، ثم حصل على الماجستير من جامعة = لندن ، وعين مدرساً للغة العربية فيها ، ثم بدأ زيارة للشرق طويلة منذ عام 1345-1346هـ / 1926م-1927م. درس خلالها الأدب العربي ، وأصبح شاغله الشاغل ، خلف أرنولد على كرسي اللغة العربية بجامعة لندن ، وأيضاً محرراً لدائرة المعارف الإسلامية ، وفي عام 1370هـ / 1954م أصبح أحد المشرفين على إصدار الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية ، كما درس في جامعة أكسفورد وهارفرد ، وصار مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط فيها . له سلسلة مقالات عن تاريخ الأدب العربي ، أما عن التاريخ الإسلامي فكتابةُ الجدير بالذكر هو الذي وضعه مع هارولد بوون " المجتمع الإسلامي والغرب "، حيث صدر في جزئين ، تناول فيه النظم الاجتماعية في تركيا والبلاد العربية الخاضعة للحكم العثماني قبل النفوذ الأوروبي في تلك البلاد ، عوضاً عن عدد كثير من المقالات في ميدان التاريخ الإسلامي ، وترجمة لرحلة ابن بطوطة . انظر . عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص174، 175 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 111 . مدارس الاستشراق . المدرسة الإنجليزية ، 2009/2/10م . http: // www. Madinacenter .com .

(6) سيتم التعريف له في المبحث الثاني .

(7) محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص70 .

(1) نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 372 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص71 .

الأثرياء والمؤسسات الكبرى ، وأهمها مؤسسة روكفلر التي منحت لجنة الدائرة مبلغاً سخياً قدره 45ألف دولار أمريكي لاستكمال عملها عام 1382هـ / 1962م . [2]

وتعتبر الطبعة الثانية تجاوزاً للمستشرقين عن الطبعة المتداولة ، حيث أعيدت كتابة بعض المقالات بناءً على ما صدر من بحوث علمية حديثة ، وما نشر أو اكتشف من مخطوطات . وظهرت الطبعة الثانية باللغتين الإنجليزية والفرنسية .[1]

ولا شك أن أبرز المستشرقين كتبوا في الدائرة ، ولكل واحدٍ منهم أهداف خاصة من وراء الكتابة بها . وفي مواد التاريخ العثماني يظهر بجلاء تحريهم الحقيقة التاريخية للحدث ، دون التقيد بذكرها كاملة ، بل يُنقصون منها ، أو يضيفون آراءهم الخاطئة دائماً والمشوهة للحدث وتكامله بشكل يخدع القارئ ، ويجعله يوقن تمامًا بصحة ما جاء بالمادة التاريخية المقّدمة ، ومنهم من صرّح بالعداء دون حياء . وكثرت بذلك أخطاؤهم في التاريخ العثماني .

وبما أنّ الدائرة إسلامية ، وكل ما تناولته يختص بالإسلام والمسلمين فقد أُسّست لجنة علمية لترجمة الدائرة إلى العربية ، مكونة من خريجي الجامعة المصرية ، وقام إبراهيم زكي خورشيد ، أحمد الشنتناوي ، وعبد الحميد يونس [2] بالإشراف على لجنة الترجمة ، وقد عهد المترجمين لبعض أساتذة الأزهر ودار العلوم أو الجامعة المصرية بالتعليق عليها في أعقاب الكثير من المقالات؛ لتصحيح الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون.[3]

لكن هذه التعليقات والتصحيح لم تكن سوى قطرة في بحر ، وقد خرجت للنور الطبعة الأولى العربية عام 1352هـ / 1933م في خمسة عشر مجلداً ، كلّ مجلد يقارب خمسمائة صفحة ، اشتملت على المواد من الألف حتى أجزاء من حرف العين ، وتحديداً انتهى الجزء الخامس عشر بمادة " عارفي باشا " ، وطبعتها دار الفكر بالقاهرة .

---

[2] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص56-58 .

[1] عبد العظيم المطعني : مرجع سابق ، ص68 .

[2] عبدالحميد أحمد يونس : 1328هـ - 1409هـ / 1910م - 1988م . مصري المولد والنشأة - أستاذ جامعي في الأدب الشعبي ، ويعد أول أستاذ كرسي للأدب الشعبي في الجامعات العربية - عمل على إنشاء مراكز بحثية ومعاهد دراسية ، تدرج في وظائف جامعة القاهرة حتى وصل إلى أستاذ كرسي للأدب الشعبي في كلية الآداب بجامعة القاهرة . حاز على عدة جوائز تقديرية من الدولة . أبرز مؤلفاتهِ : " الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي" . "الموسوعة العربية العالمية": ج 27 ، ط2 ، الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر ، 1419هـ / 1999م ، ص417 .

[3] خالد عبد الله القاسم : مرجع سابق ، ص66 ، 67 ، عبد العظيم المطعني : مرجع سابق ، ص68 .

ثم توقف مشروع الترجمة فترة ليست بقصيرة من الزمن ، وتعثر كثيراً ، ثم جرت عدة محاولات من اللجنة العربية خلال الفترة الماضية لترجمة باقي الحروف ، وخرجت الطبعة الثانية للنور عام 1389هـ / 1969م في ستة عشر مجلداً ، كل مجلد يقارب ستمائة صفحة ، بدأت من حرف الألف حتى أجزاء من حرف الخاء ، وانتهت بمادة " خدا بخش ".[1] وهي مشتملة على ما وجد في الدائرة الأصل .

وقد بلغ عدد كتاب الدائرة في كلا الطبعتين 486 كاتباً ، حرروا 3930 مادة، شكلت المادة العثمانية حوالي 50% من مجموع المواد.[2]

لكن الطبعة الثانية لم تنتشر في دور الكتب كما حدث مع الطبعة الأولى ، ربما يعود ذلك لانتشار الطبعة الأولى على مستوى العالم الغربي والإسلامي أكثر. وقد احتوت على المواد المترجمة من الموسوعة الأصلية مضافاً إليها المواد المستحدثة في الطبعة الثانية التي صدرت عن دار بريل الهولندية . لكن للأسف الشديد لم يقدّر لهذه المحاولة الاكتمال ، حيث توقفت بعد صدور ستة عشر مجلداً، وقد اشترك في ترجمة هذه الطبعة أساتذة آخرون ، ترجموا من الطبعة الثانية الأصلية من حرف الألف إلى بداية حرف الخاء .

ورغم اشتداد المطالبة باستكمال هذا المشروع الضخم إلا أن ضخامة الموسوعة ، ورحيل رواد ذلك المشروع والكثير ممن شاركوا في ترجمتهِ وقف حائلاً دون ذلك ؛ لأنه من البديهي أن ترجمة مثل هذا العمل لا تحتاج لمترجم عاديّ ملم باللغة العربية والإنجليزية ، بل لمترجم خاص يكون متشبعاً بالثقافة الإسلامية ، ومطلعاً على تراثها [3]، ومقتنعاً بها عقيدة وفكراً .

ومما زاد الأمر صعوبة صدور طبعة من دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنجليزية في مطلع الثمانينات ضاعفت من حجم الموسوعة. وقد تألفت هذه الطبعة من عشرة مجلدات ، يحتوي كلّ مجلد على ما يقرب من مليون ونصف كلمة تقريباً ، أي أنها سوف تحتوي على خمسة عشر مليون كلمة ، وإعداد هذه الطبعة سوف يستغرق حوالي عشرين عاماً تقريباً . [4] وبما أن العشرين عامًا قد مضت فقد تكون هذه الطبقة قد ظهرت .

---

[1] رجل قانون هندي محب للكتب وجمعها . توفي سنة 1908م . خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ،ص66.

[2] مرجع سابق ، ص66 .

[3] موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج1 ، ط1 ، الإمارات : مركز الشارقة للإبداع الفكري ، 1418هـ/ 1998م ، ص ز ، ح .

[4] موجز دائرة المعارف الإسلامية : مرجع سابق ، ص ح ، ط .

وعلى الصعيد العربي فقد بدأ في أواسط التسعينات من القرن العشرين التفكير الجدي في استكمال مشروع ترجمة دائرة المعارف الإسلامية بعد حرف العين وانتهاء بحرف الياء ، وتصدرت دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب لهذا المشروع ، فصدرت الموسوعة في 32 جزءًا مرتبة ترتيبًا أبجديًا ، ومزودة بالكشافات التحليلية للأعلام والأماكن والوقائع والأحداث التاريخية ؛ كي يتيسر على القارئ الوصول إلى المعلومة المطلوبة في أي جزء منها .

أخرج هذه الدائرة كوكبة من كبار العلماء والمترجمين المتخصصين العرب والمسلمين، وقد اقترن اسم المترجم بالمستشرق كاتب المادة في الأصل الأجنبي ، وأضافت لجنة التحرير بعض التعليقات والشروحات، مع تحديث بعض المعلومات القديمة . [1]

اعتمدت هذه الدائرة على الترجمة القديمة حتى حرف الحاء ، ثم أكمل فريق المترجمين والباحثين والمراجعين باقي الحروف ، وهذه الطبعة أطلق عليها "موجز دائرة المعارف الإسلامية" ، إذ قاموا بحذف بعض المواد التي تبدو في نظرهم غير ذات أهمية في الوقت الحالي ، مثل أسماء بعض الشخصيات ، أو الأماكن ، وغير ذلك مما أفقد هذه الدائرة الكثير من أهميتها وكمال موضوعاتها . وقد نال جزء تاريخ الدولة العثمانية (موضوع بحثنا) الكثير من حذف شخصياته وأهم أحداثه ، إلا أن هذا لا يمنع من أنها طبعة ممتازة من ناحية الإخراج والطباعة ، وسهولة الوصول إلى المعلومة المطلوبة ، وتعتبر فخرًا لمركز الشارقة للإبداع الفكري.

أما عن طريقة المستشرقين في بث المطاعن والسموم في دائرة المعارف الإسلامية فتتركز على أن أغلبهم كان دأبه البحث عن مواطن ضعف التاريخ الإسلامي ، والتمسك بالأحداث الفردية، وتعميمها. وهذا ليس غريباً على أسلوبهم، فإن طريقتهم دائمًا واحدة لا تتغير. يضعون لهم غاية ، ثم يقررون تحقيق تلك الغاية بأي طريقة ، فيجمعون لها المعلومات من أي كتاب حتى ولو كان غير ذي صلة بالموضوع ، أو يحتوي على معلومات تافهة يبنون عليها نظرية لا وجود لها إلا في نفوسهم وأذهانهم .

---

[1] موجز دائرة المعارف الإسلامية : مرجع سابق ، ص ط .

ومن ذلك أنهم يتحدثون عن السلطان العثماني بكل صدق وأمانة ، إلا أنه في وسط الكلام يذكرون عيبًا واحدًا ، ويدللون عليه بالأدلة لإقناع القارئ مع ذكر عشرات المحاسن التي ليست لها أهمية كبيرة ؛ وذلك ليظهروا حيادهم .

وقد قدم لنا المستشرق النمساوي المسلم محمد أسد تلخيصًا لكرههم للإسلام، وما ينتج عنه من محاولات للنيل منه ، فيقول : " كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضاً بصفة عاطفية قوية قد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائمًا فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ، ومبني على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام . ويظهر ذلك في جميع بحوثهم على الأكثر ، كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث علمي في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته. إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة .. إنهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة – حقيقية أو خيالية – ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد "[1]

ومن العرض السابق يتضح أن وصفهِ جاء على مستوى عالٍ من الدقة ، فهو خبير بهم ، وكان منهم ، أعطانا صورة واضحة عن مشاعرهم نحو الإسلام ، التي جاءت عنها ترجمة واضحة في مواد دائرة المعارف الإسلامية .

وأخيراً فقد صدرت طبعة جديدة بالإنجليزية "مختصر دائرة معارف الإسلام" (Shorter Encyclopedia of Islam.) وهي عبارة عن اختصارات لمقالات دائرة المعارف الإسلامية ، مع مختارات لبعض المقالات ذات الأهمية الموجودة في الموسوعة الكبيرة بقصد تقديم فكرة عن الإسلام بصورة أسرع لمن لا يجد الوقت الكافي لقراءة الأجزاء الكبيرة في الموسوعة الكبرى . [2]

ولم يقف الأمر عند دائرة المعارف الإسلامية ، بل استمر المستشرقون في تنصيب أنفسهم وصاة على التاريخ الإسلامي ، والعمل على تأسيس المتاحف، وعقد المؤتمرات

---

[1] محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة : عمر فروخ ، لبنان : دار العلم للملايين ، د.ط، 1398هـ / 1978م ، ص 52 ، 53 .

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص100 .

الدولية، وتصنيف مجموعات تتناول ما للمسلمين من آداب وعلوم وفنون في إطار العنصر التاريخي والجغرافي ، إضافة إلى تناولهم الإسلام بكل ما يشتمل من عقيدة وتعاليم ومذاهب وفرق . [3]

وتتضح أهداف المستشرقين من خلال أقوال بعض المفكرين الإسلاميين في العالم العربي :

١) قال محمد رشيد رضا [1] : " إن في هذه الدائرة عيوبًا علمية وتاريخية، أهمها : أنها لم تكتب لتحقيق المسائل التاريخية والعلمية لذاتها، بل لأجل بيان آرائهم وأهوائهم ، والإعلام بما سبق لهم ولعلمائهم فيها من بحث وطعن في كتبهم ورسائلهم المتفرقة "[2]

٢) أما فريد وجدي [3] فقال عنها : "إن أكثر كتّاب الدائرة قساوسة منصرون، يهمهم أن يتهموا الإسلام لا أن ينصفوه ، وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية ، فيتغلب على عناصر التعصب"[4]

٣) قال محمد عبدالله مليباري : " ومن المؤلفات الاستشراقية التي حاولت إغراق التراث الإسلامي : دائرة المعارف الإسلامية التي نشرت بثلاث لغات ... واشترك في تأليفها عدد كبير من كبار المستشرقين . إن كل ما نشر في هذه الدائرة حاول كاتبوه أن يشككوا فيه بإعادة جذوره إلى المسيحية . " [5]

٤) وقال محمد أحمد دياب : " إن نشر هذا المعجم المسمى دائرة المعارف الإسلامية يضر بالإسلام ؛ لأنه يقلّ فيه من يفرّق بين الحق والباطل ، ويقلّ فيهم من يعلم أن مؤلفي هذه الدائرة من خصوم العرب والمسلمين واللغة العربية " [6]

---

[3] نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج3 ، ص372 ، 373 .

[1] محمد رشيد رضا المصلح المشهور 1282هـ – 1354هـ بغدادي الأصل ، له مؤلفات عدة ، أشهرها تفسيره للقرآن الكريم ، كما أصدر مجلة المنار ، وتحوي الآن على 24 مجلداً . خير الدين الزركلي : قاموس الأعلام وتراجم ، ج6 ، ط6 ، بيروت : دار العلم للملايين ، 1984م ، ص126 .

[2] أنور الجندي : سموم الاستشراق والمستشرقين ، ط3 ، بيروت : دار الجيل ، 1405هـ / 1985م ، ص19.

[3] محمد فريد مصطفى وجدي : 1295هـ – 1373هـ / 1878م – 1953م ، كاتب مصري إسلامي فاضل ، له العديد من المؤلفات ، أشهرها وأهمها " دائرة المعارف " ، ونقد كتاب " الشعر الجاهلي لطه حسين " ، وردّ على قاسم أمين " المرأة المسلمة " . خير الدين الزركلي ، مصدر سابق ، ج6 ، ص329 .

[4] أنور الجندي : سموم الاستشراق والمستشرقين ، ص18 .

[5] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 76 ، نقلاً عن المستشرقين والدراسات الإسلامية ، محمد عبدالله مليباري .

[6] محمد أحمد دياب : أضواء على الاستشراق والمستشرقين ، دار المنار ، الطبعة الأولى ، 1410هـ/1989م ، ص 125 .

٥) وقال عنها شكري النجار : " تعتبر المرجع الأساسي لفكر المستشرقين، وتصدر تحت رعاية عدة مجامع علمية غربية ، وتحوي مقالاتها خلاصة ما توصل إليه الدارسون من نتائج في مختلف الموضوعات الإسلامية ، فهي مستودع علمهم وخزانة معارفهم".[7]

٦) وقد وصفها أنور الجندي حق الوصف إذ قال :" وضُعت دائرة المعارف باللغات الأوروبية في دوائر الاستعمار والاستشراق والتنصير بهدف أساسي هو أن تكون مادة في أيدي الخبراء والمبعوثين الذين ترسلهم دوائر وزارات الاستعمار إلى عالم الإسلام والعروبة ، ولذلك فهي تنضح بالحقد والتعصب والشكوك والاضطراب ، وقد كتبها جهابذة التنصير والاستشراق وحملوها كل خصوماتهم وأحقادهم . " [1]

وقد لفت الباحثون المنصفون النظر إلى أخطاء دائرة المعارف عندما أراد أن يترجمها نفر من الكتاب في الثلاثينيات من القرن الماضي ، فقد تصدى لهم أكثر من باحث منصف يعارض خطتهم ، ويطالبهم بتصحيح تلك الأخطاء في صلب البحث لكنهم اكتفوا بالتعليق على هذه الشبهات في الهوامش ، ففوتوا كثيراً من الحقائق على القارئ المتعجل الذي لا يُعنى بالرجوع إلى الهامش " [2]

٧) وقال عنها علي عبد العليم محمود: " ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار " دائرة المعارف الإسلامية " بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة ، ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة ، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراستهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين . " [3]

٨) وقال عنها رئيس مركز الدراسات الإسلامية بوقف الديانة التركي باستانبول طيار آلتي قولاج ، معللاً تبني المركز لتأليف " الموسوعة الإسلامية " : " كنت اتصفح

---

[7] شكري النجار : لم الاهتمام بالاستشراق ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد 31 مارس ، 1983م ، ص62 ، ص63 .

[1] أنور الجندي : سموم الاستشراق والمستشرقون ، ص 17 ، 18 .

[2] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 78 .

[3] علي عبد العليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، بحث ضمن مجموعة أبحاث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي، بإشراف جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام 1396هـ ، إصدار الجامعة 1404هـ / 1984م ، ص102 .

أحياناً دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها التركية المنقحة ، وبالإضافات التي كتبها العلماء الأتراك ، غير أنني أجد فيها نقصًا كبيرًا من حيث المعلومات ونوعيتها وعرضها ، إضافة إلى أن الموسوعات التي ينشرها علماء الغرب لا تعكس الروح الإسلامية ومؤسساتها ، لأن العالم الغربي ينظر إلى هذه المؤسسات في إطار نظرته الخاصة التقليدية ، وتتسم هذه النظرة غالبًا بالتحيز والتعامل ، ولا شك أن تصحيح هذه الأخطاء وصيانة الجيل الجديد من تلك التشويهات أمر مهم ؛ فكان إنشاء الموسوعة. " [1]

٩) وقد وصفها زيد بن أحمد العبلان بقوله : " [2]من أبرز الأعمال التي تكاتف المستشرقون على تأليفها وإخراجها للعالم أجمع " دائرة المعارف الإسلامية" ... وقد ترجمت أجزاء منها إلى اللغة العربية ، وعرض المترجمون ما ترجموه على عدد من المفكرين المسلمين ، وكتبت عليها هوامش وتعليقات وردود ، وإن كانت هذه الردود غير كافية ، لأن المستشرقين قد أسفروا فيها عن خبثهم ومكرهم ." [3]

وفي ظل المعلومات السابقة تتضح أهدافهم بقوة ، حيث إنها لم تكتب مطلقاً لخدمة المسائل التاريخية والعلمية ، وإنّما لإظهار آرائهم ونتائج أبحاثهم ورسائلهم. فإن غرضها لم يكن يومًا علميًا ؛ لأن أغلبهم منصرون حاقدون على الإسلام ، فقد حاولت إغراق التراث الإسلامي في جذور المسيحية ، وقد أضرت بالإسلام أكثر مما أفادته ، حيث أحقّت الباطل وأبطلت الحق . ولمكانتها في المجامع العلمية حاول كاتبوها أن تحوي خلاصة فكرهم من نتائج ، وهي بذلك مستودع علمهم وخزانة معرفتهم .

ومن أهم أهدافها أن تكون مادة خصبة في أيدي خبراء الاستعمار؛ كي يستفيدوا منها،لذلك جاءت محملة بالكره والحقد والتعصب والشكوك ضد الإسلام .

وقد عبأوا أقلامهم بكل الأفكار الممكنة وغير الممكنة ضد الإسلام بحقد سافر ، ومع الأسف أصبحت مرجعًا لكثير من الباحثين المسلمين غير مدركين لخطورة معلوماتها وما فيها من خلط زائف وخطأ متعمد. إذ إنها لا تعكس روح الإسلام ومؤسساته ، بل تعكس

---

[1] خالد عبد الله القاسم : مرجع سابق ، ص89 ، 90 .

[2] حاصل على درجة الماجستير من جامعة الإمام سعود بالرياض ، قسم عقيدة ، برسالة بعنوان : " الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلامية " سنة 1406هـ .

[3] زيد أحمد العبلان : الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلامية ، رسالة ماجستير لم تطبع ، 1406هـ ، ص120 .

نظرة المستشرقين لهذه المؤسسات التي تتسم غالباً بالتحيز والتحامل. وقال مازن مطبقاني عندما تعثرت ترجمة هذه الدائرة إلى العربية حيث قال : "الحمد لله أن ترجمتها تعثرت فهي دائرة خطيرة ". [4]

وإذا دقَّقنا النظر في المستشرقين الذين حرروا أغلب مواد الدائرة نكتشف أن ميولهم أصلاً ضد الإسلام ،فهم لم يتحلوا مطلقاً بأخلاق البحث العلمي المجرد ، ولهم باع طويل في كراسي الاستشراق ، ودور كبير في التنصير والعمل على نشر المسيحية ، كما إنه كان من بين صفوفهم قساوسة ورجال دين لهم الفضل في التحايل غير العلمي للحصول على المعلومات حتى يشكلوها في القالب الذي يريدونه.

وبنظرة سريعة على هذه الأسماء نجد أنهم مجموعة من المستشرقين اليهود والقساوسة وعلماء اللاهوت والمنصريين ، جمعهم هدف واحد يرمي إلى تشويه الإسلام، والقضاء عليه وتنصير المسلمين. ومن أبرز الذين شاركوا في كتابة الدائرة المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون [1] Louis Massignon) الذي يعتبر رائد الحركة التنصيرية في مصر ، وقد بذل جُلّ حياته في تنصير الأميين من خلال خداعهم بتحوير آيات القرآن الكريم ؛ لإيهامهم بموافقتها للنصرانية .[2] بالإضافة إلى مشاركة عدد ليس بقليل من اليهود أمثال (جوزيف شاخت [3] Joseph Schecht) و(إجناس جولدزيهر

---

[4] مازن مطبقاني . أسئلة وأجوبة حول الإستشراق . 2008/8/17م . http : // medinacenter. org

[1] تم التعريف له في الفصل الأول ، المبحث الأول .

[2] مدارس الاستشراق . المدرسة الهولندية 2009/2/1م . http : // www. Madinacenter .com .

[3] شاخت : جوزيف مستشرق ألماني ، متخصص في الفقه الإسلامي ، ولد عام 1320هـ / 1902م راتيبور بألمانيا ، ودرس اللاهوت واللغات الشرقية في جامعتي برسلاو ولبيتسك ، وحصل من الأولى على الدكتوراة عام 1342هـ / 1923م ، ثم حصل على دكتوراة ثانية للتأهيل في التدريس الجامعي ، عين للتدريس في جامعة فرايبورج وكونسبرج ، وفي الجامعة المصرية ، وعمل محاضراً للدراسات الإسلامية في الجامعة المصرية ، وأستاذاً في جامعة ليدن ، وأثناء الحرب العالمية الثانية عمل لحساب إنجلترا، وخان وطنهُ ألمانيا ؛ وذلك لأنه يهودي ، ولكن خيانته لم تنصفه ، ولم يدّرس بعدها في أي جامعة ، فعمل حينها في ليدن بهولندا ، وأهم أعماله اشتراكه في الإشراف على الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية ، وآخر أعمالهِ كان أستاذاً في جامعة كولومبيا في أمريكا ، عكف على دراسة المخطوطات القديمة العربية ، وخاصة المخطوطات الموجودة في القاهرة وإستانبول وتونس وفاس وله دراسات في علم الكلام ، ومؤلفات في الفقه الإسلامي ، وفي تاريخ العلوم والفلسفة الإسلامية .توفي عام 1389هـ/1969م . انظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 469 – 471 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص151 – 154 . عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 366 ، 368 . مدارس الاستشراق . المدرسة الألمانية 2009/2/1م.

عوضاً عن (جورجيوليفي دلافيد Giorgio levi Della) (Jgnaz Goldziher [4]
vida[1] . والمستشرق الذائع الصيت (برنارد لويس Bernard Lewis) [2] والذي يعتبر من أشد المناصرين للحركة الصهيونية، وهو صاحب مصطلح " صراع الحضارات " الذي أعلنه عام 1411هـ/1990م ، وقصد به الصراع بين الغرب والإسلام كعدو قائم. وجاءت كل كتاباتهِ عن الإسلام داعية لمحاربتهِ . [3]

ولاستخدام الدائرة وسيلة للتنصير فقد اشترك في كتابتها كثير من القساوسة وعلماء اللاهوت ، وأشهر المنصريين أمثال (دانكن بلاك ماكدونالد Duncan Black Macdonald) [4] منصر أمريكي شهير عرف بحقدهِ الشديد على الإسلام، وتركزت مؤلفاتهُ حول كيفية تنصير المسلمين، فأنشأ معهدًا متخصصًا لهذا الأمر . وأيضاً (أدوين

---

http: www. Madinacenter .com .

[4] جولدزيهر : إجنتس ولد عام 1267هـ / 1850م بمدينة أستوليفسنبرج المجرية ، في أسرة يهودية ذات مكانة عالية ، عاش حياة مترفة ظهر أثرها على آرائه السياسية وانتمائه لبلادهِ وعلو الروح القومية عندهُ . تخرج في قسم اللغات السامية من بودابست، ودرس في برلين في جامعة ليبتسك ، وحصل على الدكتوراة عام 1287هـ / 1870م ، ثم عاد إلى بودابست وعين مدرساً مساعداً في جامعتها ، ثم ارتحل إلى الشرق ، ووجه إهتمامه للدراسات الشرقية خاصة الدينية ، وانتخب عضواً مراسلاً للأكاديمية المجرية ، وصار أستاذاً للغات السامية ، وأصبح يحضر مؤتمرات المستشرقين ، إما للاشتراك أو لإلقاء محاضرة ، وجه عنايته إلى نشر الكتب المهمة ، مثل كتاب " التوحيد " لمحمد بن تومرت ، وكتاب " محاضرات في الإسلام " الذي ترجم إلى العربية .= =انتخب عضواً في المجمع المجري ، جاءت أغلب كتاباته متحاملة على الإسلام وضده ، مليئة بالتشويه والافتراء على القرآن والسنة النبوية ، له عدة مواد حررها في الدائرة أغلبها في الشريعة الإسلامية . انظر عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 197 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 236 – 241 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 40–42 .

[1] دلافيدا : جورجيوليفي مستشرق إيطالي ولد عام 1304هـ / 1886م في أسره يهودية استقرت في إيطاليا ، درس في جنوه ، ثم انتقل إلى روما ، ودرس الجامعة بها ، وحصل على لسانس الآداب منها عام 1327هـ / 1909م ، زار مصر عدة مرات ، وقد درس اللغة العربية في " المعهد الشرقي " ، وتدرج في عدة وظائف حتى صار من كبار الباحثين في تاريخ الدين الإسلامي واللغة العربية ، اشتغل فترة طويلة في مكتبة الفاتيكان حيث قام بفهرسة المخطوطات العربية بها ، ثم غادر إيطاليا إلى جامعة بنسلفانيا ، ثم عاد إلى روما ، وشغل بجامعتها كرسي اللغات العبرية والسامية ، له عدة مؤلفات ومقالات عن تاريخ الأديان والإسلام والأدب العربي ، كتب في دائرة المعارف الإيطالية والإسلامية عن حياة الرسول ﷺ، وعن الخوارج وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان – رضوان الله عليهم – ، وعن الأمويين . اشترك في تحرير مجلات عديدة مثل : الدراسات الشرقية والشرق الحديث والعلوم والعالم الإسلامي . كانت زوجته مسيحية وأبناؤه ، أما هو فبقي على اليهودية حتى مات عام 1387هـ/1967م. أنظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص440 ، 441 .

[2] تم التعريف له في الفصل الأول – المبحث الأول .

[3] الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19م ، . http : // www. Saaid.net

[4] سيتم التعريف له في المبحث القادم .

كالغرلي Edwin Calverley)[5] المنصر الأمريكي المتعصب جداً الذي ترأس مجلة العالم الإسلامي التنصيرية لمدة من الزمن .[6]

وغني عن التعريف أن من أشهر القساوسة الذين كتبوا فيها القس (دافيد صموئيل مرجليوث David Samuel Margaliouth)[1] ، وهو قسيس في الكنيسة الإنجليزية، عرف عنه التعصب الشديد ضد الإسلام والمسلمين ، وكذلك عالم اللاهوت المستشرق (هنري لامنس Henry Lammans)[2] الذي عمل بالتنصير في بيروت ، وكان من أشد الحاقدين على الإسلام.

إن طريقة هؤلاء كانت تهدف دائماً إلى زرع الشك في صحة سماوية الدين الإسلامي، وصحة نزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ ، فقد حوت مجموعة من الأخطاء والدسائس الناشئة عن التعصب الأوروبي ، ولا يستغرب ذلك حيث إن أغلب كتابها قساوسة منصرون وعلماء لاهوت ويهود ، لا يهمهم سوى الافتراء على الإسلام وتشويه حقيقته .

---

[5] كالغرلي : أدوين تخرج في قسم اللغات الشرقية بجامعة برنستون ، وعين بعدها عضواً في البعثة العربية التي نظمتها الكنيسة في الولايات المتحدة الأمريكية 1327هـ / 1909م ، عمل محاضراً وأستاذاً للعربية والإسلاميات في مدرسة كيندي للبعثات ، ثم محرراً لمجلة العالم الإسلامي ، ومستشاراً للشؤون العربية في شركة الزيت العربية الأمريكية . ثم أستاذاً زائراً للجامعة الأمريكية في القاهرة ، وقد تولى بذلك عدة مناصب أتاحت له رؤية على بلاد المشرق الإسلامي أكثر ، ووضع عدة مؤلفات اهتمت بالتنصير وتحويل المسلمين إلى النصرانية. انظر نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 143 ، 144 .

[6] مدارس الاستشراق ، المدرسة الأمريكية ،2009/2/10م . http : // www. Madinacenter.com .

[1] مرجليوث : دافيد صموئيل ولد عام 1275هـ / 1858 ، وهو مستشرق إنجليزي مشهور ، اهتم بالدراسات الآدبية الكلاسيكية في أكسفورد ، ثم درس اللغات السامية ، وازداد اهتمامه باللغة العربية. ثم عين أستاذاً في نفس الجامعة ، وأول نتاجهِ عن الإسلام كتاب "محمد ونشأة الإسلام "، ثم كتاب " الإسلام " ، ثم ألقى محاضرات عن تطور الإسلام في بدايته ، ثم أصبح في 1339هـ / 1920م عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، كتب في الدائرة عدة مقالات عن الإسلام كلها غير علمية ، وتسري فيها روح التحيز والبغض الشديد للإسلام . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 285 – 289 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 77 –79 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 199 . عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 546 . أنور محمود زناتي . التحقق من آراء المستشرق البريطاني مرجليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي ، 2009/10/31م .
http: // www.dovoob.com .

[2] لامسن : هنري مستشرق بلجيكي ، وراهب يسوعي شديد التعصب ضد الإسلام ، يفتقر إلى النزاهة في البحث ، والأمانة العلمية في نقل النصوص ، وبذلك يعد نموذجاً سيئاً جداً للباحثين في الإسلام بين المستشرقين . ولد في بلجيكا ، عام 1279هـ/1862م ، تعلم في الكلية اليسوعية في بيروت ، ثم دخل حياة الرهبنة عام 1296هـ / 1878م في دير لليسوعيين في جبل لبنان، ثم أصبح معلماً في الكلية اليسوعية ببيروت للتاريخ والجغرافيا،ثم أستاذاً للتاريخ الإسلامي في معهد الدروس الشرقية، ثم تولى إدارة مجلة " الشرق " ، ومجلة البشير " ، وكلتا المجلتين دينية تنصيرية لليسوعيين . ونتاجه تركز حول السيرة النبوية ، وبداية الخلافة الأموية وتاريخ سوريا وآثارها . توفي عام 1356هـ / 1937م ، ويتضح من كتاباتهِ التحامل الشديد على الإسلام خاصة السيرة النبوية ، دون أدنى سند علمي ، وكل كتاباتهِ افتراء وتشويه وكراهية وحقد لحد يفوق الوصف. انظر عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 503 ، 505 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 184 ، 185 .

وسيتضح ذلك من خلال المبحث التالي الذي يترجم لمؤلفي هذه الموسوعة خاصة المستشرقين الذين حرروا المواد عن الدولة العثمانية موضوع البحث .

المبحث الثاني :

المستشرقون الذين كتبوا في دائرة المعارف الإسلامية عن الدولة العثمانية ، دراسة وتحليل .

ظلت مرارة فشل الأحلاف الصليبية ضد الإسلام والمسلمين تكدر صفو أوروبا ، وتذكرها بخسارتها الجسيمة التي حلت بها أمام الجهاد الإسلامي والوحدة الإسلامية في عهد الدولة العثمانية عندئذ ظهرت طائفة من الصليبيين تفكر في كيفية القضاء على هذا الدين الصامد ، ومن يمثله، والانتقام من المسلمين الممثلين في العثمانيين ، واستخدام أسلحة ضد الإسلام غير الأسلحة العسكرية المعروفة . إن الحملات العسكرية والحروب الصليبية لم تصل إلى هدفها ؛ لذلك كان لابد لهم من وقفة ودراسة قبل الإقدام على أيّ عمل عسكري قد يؤدي إلى زيادة قوة المسلمين، بل وزيادة فتوحاتهم . [1]

وهذا أصل ظهور المستشرقين ، ولعدم استطاعة الجيوش الأوروبية القضاء على الإسلام كان لابد من استخدام وسائل أخرى غير تلك ، وأن يتسلحوا بسلاح جديد . فقد جاءوا إلى بلاد الإسلام وفيهم نفس المقدار من الحقد والكراهية والمكر والدهاء والخديعة والتزييف الذي كان في نفوس الصليبيين القدامى ، بهدف وقف زحف العثمانيين الإسلامي في أوروبا ، والقضاء على الخلافة العثمانية الإسلامية ، وجعلها تحت الحكم الأوروبي المسيحي .

نشأت طبقة المستشرقين ، وجاءوا قادة ، لكن ليسوا قادة جيوش، فهم الذين يوجهون الجيوش ، وينصحون الملوك في أوروبا باحتلال البلاد الإسلامية، ويضعون لهم الخطط في سياستهم الخارجية ، ثم يصاحبون الجيوش عند دخولهم؛ ليعرفوهم كيفية التعامل مع الشعب

---

[1] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص95 .

المسلم سياسيًا واجتماعيًا ودينيًا وفكريًا ، وخير مثال على ذلك الحملة الفرنسية على مصر التي صاحبها عدد كبير من الباحثين والعلماء الذين هم في الأصل مستشرقون . [2]

استخدموا المكر والدهاء والتستر من أجل التجسس ، لبسوا زي الرحلات العلمية والتجارة أو طلب العلم ، في حين أن الهدف الرئيس توجيه الضربات للعالم الإسلامي ، وتحطيم الخلافة العثمانية ، واحتلال القدس .

ثم بدأت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشرق الإسلامي، والاغتراف من تراثهِ ، والتزاحم على استعماره ؛ فجندت كل دولة مستشرقيها وسخرتهم لخدمتها ، فعملوا في حاشية الملوك وتراجمه ، وفي الوزارات كالخارجية ، وانتدبوهم للعمل في سلكي الجيش والسفارات إلى بلدان الشرق، وسمحوا لهم بتولي كراسي الاستشراق في كبرى الجامعات والمدارس والمطابع الوطنية . كل ذلك مع البذل عليهم بسخاء ووفرة ، ومنحوهم ألقاب الشرف، وعضوية المجامع العلمية .[1]

إن معظم المستشرقين عملوا منصرين من خلال كتاباتهم وأعمالهم الخيرية. كما أن الرحالة وموظفي الحكومات الاستعمارية كالضباط وأصحاب الوظائف المدنية الرفيعة والأطباء في الدول الأوروبية أدوا نفس الغرض ، فعاشوا في البلاد الإسلامية ، وتعلموا الشيء القليل من اللغة العربية مع اختلاطهم بالسكان للتعرف على عاداتهم وتقاليدهم . [2]

وقد تحكمت بأقلامهم خلفيات معادية للإسلام ، والتعصب ضده باعتباره ديناً سماويًا ، والدليل على ذلك محاولاتهم نسف الإسلام أصلاً من خلال كتاباتهم ، وتتضح بعدم موضوعيتهم ، وبعدهم عن النزاهة والحيادية .

وكتب في دائرة المعارف الإسلامية عدد كبير من المستشرقين ومن ضمنهم من كتب عن تاريخ الدولة العثمانية وسلاطينها وأنظمتها ، ولكن الدّراسة ستكتفي بترجمة المستشرقين الذين ستتناول موادهم بالنقد والتحليل ، إضافة إلى من توفرت لهم ترجمة عن حياتهم وأهم أعمالهم .

---

[2] مرجع سابق ، ص ص 96 ، 102 .

[1] نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج3 ، ص604 .

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص131 .

تباينت كتابات المستشرقين عن التاريخ العثماني ، فمنهم من جاءت كتاباته متحاملة مشوهة ، مليئة بالكذب والافتراء الصريح دون تغليف ، أما البعض الآخر فاتسمت موادهم بالدّس بين الكلام دون الاستناد إلى وقائع تاريخية صريحة لإثبات أقوالهم ، وإيراد لفظ مشوه ومغاير للأحداث في منتصف الحدث بحيث لا يفطن القارئ إلى مغزى الكلام ، والقلة منهم من جاء في كتاباتهِ بعض الإنصاف .

فمن المعروف أن الحضارة الغربية قامت على أنقاض الحضارة الرومانية الوثنية ، وجعلت المسيحية ثوباً للتستر على الحقيقة . وبناءً على هذا فإن المستشرق هو بمثابة الجزء المكمل للحضارة المادية في أوروبا القائمة على الاستعمار والاستشراق ، وقد يبدو لمعظم الناس وكأنه اتجاه أكاديمي يعمد إلى دراسة الشرق وحضارته عموماً ، والإسلام والحضارة الإسلامية خصوصاً ، لكن الأمر ليس كذلك ، بل يتعدى ما يراه المطّلع العادي ، فهو جزء من التنصير وحركته الاستعمارية ، وجزء من الحروب الصليبية الحديثة التي أخذت صيغة جديدة، وصارت حرباً فكرية بدلاً من الحرب العسكرية . [1]

وسنلاحظ من خلال مواد الدائرة أن المستشرقين نصّبوا أنفسهم ولاة مسؤولين عن الإسلام ، والبحث في حقيقته ، والحديث عن تاريخه بما يمليه عليهم فكرهم ، وبما توحي به مشاعرهم صدقاً أو كذباً ، وهذا ما يقرره نظام الاستعمار المعتمد على اغتصاب الحق وإنكاره . [2]

إن سياسة الاستشراق تهدف في المقام الأول إلى القضاء على الإسلام والمسلمين أولاً، وإهانته وتشويه محاسنه والافتراء عليه ثانياً ، والإبقاء على الحياة المادية المجردة من الروح كما تمثلها حضارة الغرب. وفي النهاية الاستشراق ليس سوى كهانة جديدة تلبس ثوب العلم والبحث ، وهي أبعد ما تكون عن العلم والتجرد .

وهكذا يتّضح أن معظم المهتمين بالدراسات الاستشراقية من المستشرقين ومن شايعهم انصب اهتمامهم على تحريف الإسلام وتشويه جماله ، والسبب واضح ؛ لأن أغلبهم من رجال الدين اليهود والنصارى ، أو رجال الاستعمار الذين يسهلون عملهِ . [3]

---

[1] محمد أسد : مرجع سابق ، ص41.

[2] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص18 ، 19 .

[3] عدنان محمد وزان : مرجع سابق ، ص19 .

ومع استطلاع آراء بعض المؤرخين والمفكرين عن الدولة العثمانية والاستشراق يرى المؤرخ ابن خلدون أن مجيء الأتراك العثمانيين برهاناً على عناية الله المتواصلة بالإسلام والمسلمين ، إذ إنه عندما ضعفت الخلافة الإسلامية، وفسد أمرها ، ولم تعد قادرة على صد أعدائها قيّض الله للإسلام حكاماً وحماة جددًا؛ لينفثوا من جديد روح الجهاد الإسلامي . [4]

أما رأي أحمد فارس الشدياق فقد انصب على جعل المستشرقين بلاءً لا نفع منهم ولا دفع ، إذ وصفهم بأنهم لم يأخذوا العلم عن شيوخه، وإنما تطفلوا عليه تطفلاً ، وتوثبوا توثباً ، وتُوهّم أنهم يعرضون شيئاً هم في الأصل يجهلونه تماماً ، وإذا درس أحدهم لغة شرقية ، أو ترجم شيئاً ، تراه يخبط فيها خبطًا عشوائيًا ،فما اشتبه عليه رقعه بما شاء.[1]

أما عن رأي الدكتورة بنت الشاطئ فقد قالت عن المستشرقين: "إنهم اتخذوا من التراث ثغرات ينفذون منها إلى عقولنا ونفوسنا ، رجاءً أن يشوهوا في عيوننا صورة أمسنا ، ويطفئون نوراً لنا أضاء للبشرية طريقها وسط الظلمات ، وحتى نقتنع فلابد لنا من التنكر لشرقيتنا وعروبتنا ، وتعلقنا بركاب رسل الحضارة ، وسادة العصر " . كما أوضحت لنا دور اليونسكو. [2] في دعم الاستشراق حتى يصير الأمر أكثر وضوحًا ، إذ إنها تصدر مجلداً ضخماً عن الإسلام تقول فيه ما نصه :

١) " إن الإسلام احتفظ في ركن الكعبة بالوثن المهم لأهل مكة وهو الحجر الأسود " .

٢) " الإسلام كان توفيقاً بين نظريات مسيحية ويهودية ووثنية " .

٣) " إنّ القرآن تأليف بشري ، وإنه ذو مراتب مختلفة في نسقه ، وفي طريقة تعبيره " .

وهكذا يتضح لنا أن اليونسكو جمعَ مختلف مفتريات الاستشراق ؛ ليضمها في كتاب عالمي عن الإسلام ؛ وذلك لحبك مؤامرة تدمير التاريخ الإسلامي .

وإدوارد سعيد يرى أن دعم الكنيسة لرجال الفكر من النصارى ودعوتهم للاهتمام بالشرق الإسلامي أخرج لنا دراسات موجهة ومنتظمة ، متمثلة في كراسي الدراسات

---

[4] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون – الجزء الأول من كتاب العبر ، وديوان المبتدأ أو الخبر ، تحقيق المستشرق: م . م . كاترمير ، مجلد 2 ، بيروت : مكتبة لبنان ، عن طبعة باريس 1858م ،ص 117 .

[1] أحمد فارس الشدياق : ذيل الفارياق ، د.ط ، د.م ، د. ت ، ص2 .

[2] المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم .

الاستشراقية ، والمؤتمرات التي تعقد ، إضافة إلى الكتب والدوريات والمجلات التي تصدر في هذا الشأن ، وتُعنى بدراسة الإسلام ، وظهر هذا الاتجاه بوضوح في عام 712هـ/1312م . [3]

ويمكن حصر صفات المستشرقين فيما يلي :

١) سوء الظن والفهم لكل ما هو إسلامي في أهدافه ومقاصده .

٢) سوء الظن برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم .

٣) تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور، وخصوصاً في العصر الأول مجتمعاً متفككًا تقتل الأنانية رجاله وعظماءه .

٤) تصوير الحضارة الإسلامية تصويراً دون الواقع ، وتهوين شأنها، واحتقار آثارها ومساهماتها .

٥) الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي وحقيقته ، والحكم عليه من خلال ما يعرفه المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم.

٦) إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم ، والتحكم فيما يفرضونه ويقبلونه من النصوص . وتفسير النصوص وإخضاعها للتحليلات المادية العلمانية .

٧) تحريفهم للنصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً لخلق جو الشك والبلبلة ، كما أنهم يسيئون فهم العبارات لجهلهم بذلك ، وهذا مجال آخر للتحريف .

٨) تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها ، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوي الشريف والسنة المطهرة ، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ التشريع الإسلامي والفقه ، ويحللون الأحداث التاريخية من كتب الطرائف والغرائب . [1]

لقد ظهرت أهواء ونزعات هؤلاء المستشرقين في "دائرة المعارف الإسلامية" لأنها مؤلفة بالكامل من قبل باحثين أوروبيين ، فهي لا تعبر ولا تنقل إلا النظرة والمفهوم

---

[3] أنور الجندي : كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ص 73 ، 74 .

[1] مصطفى السباعي:السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ط2 ، بيروت:المكتب الإسلامي، 1978م ، ص188، 189 .

الأوروبي عن الحضارة الإسلامية بمفاهيم تختلف اختلافاً كبيراً عن المفاهيم التي يؤمن بها ويتبعها المسلمون أنفسهم .

إن المستشرقين منساقين وراء الهوى والانحراف عن الحق ، فكيف يمكن والأمر كذلك أن تتأتى الموضوعية والمنهج العلمي المزعوم إذا كنا نحكم ونقول على فن من الفنون بما هو موجود في كتب ومراجع فن آخر؟ كيف يكون القول صحيحاً إذا نقلنا من كتب الطب مثلاً كلاماً نريد به اطلاع القارئ عن حقيقة لغوية تتعلق بالنحو ؟ فشتان ما بين الطب والنحو !.

تراجم لبعض مستشرقي دائرة المعارف الإسلامية :

1) جان، ديني Denj 1297هـ -1383هـ/1879م- 1963م .

يعدُّ من أهم المستشرقين الفرنسيين ، له اهتمام ملحوظ باللغة والمخطوطات التركية والأنظمة العثمانية ، واهتمامه هذا جعله أستاذاً ومدير مدرسة اللغات الشرقية في باريس ، في عام 1345هـ/1926م قام بإنجاز فهرس للمخطوطات التركية استغرق عملهِ أربع سنوات ، ثم عمل في جامعة برنستون أستاذاً . [1]

له العديد من الكتابات في اللغة والنحو التركي ، وضع كتابًا أوضح فيه التطور التاريخي للغة التركية ، كما وضع فهرسة بالأنظمة الإدارية ، وقانون "نامه"، والمحفوظات العربية التركية لدى حكومة الجزائر، وله عدة كتابات في الخطبة باللغة التركية ، ووثائق تركية غير منشورة عن الجزائر ، و"دليل المترجم في سوريا"، و" مدربون عسكريون أتراك في المغرب" ، "الوثائق التركية في القاهرة" ، " ووصف المخطوطات العثمانية في مكتبة القصر الملكي بمصر "، "الوثائق التركية في مكتبة مرسيليا" ، " الفرمانات السلطانية العثمانية إلى ولاة وخديوي مصر" ، وكتاب "علاقة الدولة التركية بأوروبا " كتبه بالاشتراك مع أحد المستشرقين .

إضافة إلى كتاباته عن التوسع التركي في آسيا حتى ق 11هـ والأمثال التركية. كما كتب عن البعثة البحرية للسلطان سليمان القانوني بقيادة أمير البحر خير الدين باشا ، وأخيراً

---

[1] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 121 . نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج1 ، ص258 .

له موضوع عن السلطان العثماني أحمد الأول . [2]عوضاً عن كتاباته ومواده في دائرة المعارف الإسلامية حيث حرر في الدائرة " النسخة العربية " 11 مادة عن التاريخ العثماني فقط ، تنوعت ما بين ألقاب ومناصب في الدولة العثمانية ، أما في النسخة الإنجليزي ، فستتناول الدراسة مادتين من كتاباته، وهي مادة السلطان عبد الحميد الثاني ، والسلطان عبد المجيد الثاني . واتسمت كتاباته بالافتراء المغلف بحقائق خفيفة ، وإن لم تخلُ من حقيقة إلا أنها مشوهة إلى حد لا بأس به .

2) فرانس بابنكر Babinger . Fr 1309هـ- 1387هـ/1891م-1967م .

مستشرق ألماني الأصل ، ولد في فيدن ببافاريا ، تخرج من ميونخ بعد دراسته للغتين التركية والعربية ، ثم حاز على وظيفة أستاذ للغات السامية في جامعة برلين . عمل في التدريس في العديد من الجامعات العالمية أستاذاً زائرًا في جامعة بوخارست لبعض الوقت ، ثم أستاذاً للتركية وتاريخ البلقان في جامعة جامي برومانيا ، وأستاذاً للتاريخ والثقافة عن الشرق الأدنى والتركية في ميونيخ ، ثم مديراً للجامعة ومعهد دراسات الشرق الأدنى في ميونيخ . [1]

تعلم اللغة التركية وأتقنها ، وعُني بالتاريخ العثماني ، أهم كتبه في هذا المجال كتابان : الأول " مؤرخو العثمانيين وأعمالهم " 1346هـ / 1927م، ويعتبر كتابًا أساسيًا في هذا المجال ، وكتاب "محمد الفاتح وعصره " 1373هـ / 1953م ، أما أهم المقالات القصيرة ، فمقالة مفيدة جدًا نُشرت في بعض المجلات تحت عنوان " الإسلام في آسيا الصغرى "، وبهذه المقالة يعتبر ممثلاً للدراسات الاستشراقية .[2]

إضافة إلى العديد من الكتب الأخرى مثل : " سوق الكتب في إستانبول في القرن الثامن عشر الميلادي" ، و" الدراسات التركية في أوروبا" ، "سليمان القانوني جاء في مجموعة عظماء من السياسة" ، إضافة إلى " فهرست المصادر التاريخية التركية" ، وهذا

---

[2] نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج1 ، ص258 ، 259 . مدارس الإستشراق ، المدرسة الفرنسية ، 2009/2/1م ، http:// www. Madinacenter .com

بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15م . http : // www. Shatharat .net

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج2 ، ص458 . خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 104 .

[2] رودي بارت : مرجع سابق ، ص43 .

يعتبر سجلاً لجميع الكتب المتعلقة بالأخبار العثمانية ، وفيه 377 ترجمة عن المؤرخين من نهاية القرن الثامن الهجري حتى عام 1354هـ ، الرابع عشر الميلادي حتى عام 1935م ، والكتاب الأخير من أفضل كتبهِ ، ثم " فهارس بعض المخطوطات العثمانية في القصر الملكي المصري". [3]

جاءت أغلب المواد التي حررها في الدائرة وتصل إلى 35 مادة النسخة العربي – عن شخصيات صدور عظام وولاة أقاليم ، إضافة إلى تعريف لبعض الولايات البلقانية واليونانية التي كانت تحت الحكم العثماني ، مع تناوله بعض المناصب والألقاب .

أما المادة التي ستتناولها الدراسة فهي مادة السلطان أورخان من النسخة العربية ، وعلى ذلك لا يظهر في كتاباته كثير من التحامل إلا القليل .

3) جوهان ، هنريغ موردتمان 1269هـ 1351هـ / 1852م – 1932م . Mordtmann, J.H.

مستشرق ألماني ولد في الآستانة ، أبوه من المهتمين بالثقافة البيزنطية فأرسله لدراسة الاستشراق في هامبورج وليبزيج ، وبرلين ، ونتيجة لبراعتهِ وتفوقهِ كان ينتظره مستقبل لامع، حيث التحق بالسلك الدبلوماسي ، وبدأ حياته العملية في إستانبول ، إذ عين قنصلاً بها، ثم أستاذاً مساعداً في فيينا ، وعندما استقر في ألمانيا بدأ في دراسة الكتب التي جمعها من رحلاتهِ الطويلة من جنوب شبه جزيرة العرب وعُني بدراستها وفحص محتوياتها ، وانصب اهتمامه الأول على التاريخ العثماني . [1]

ومن أهم مؤلفاته : مجموعة المخطوطات الشرقية التي قدم ترجمة فيها لصور الأقاليم للاصطخري ، وكتب عدة مقالات عن التاريخ العثماني وتركيا . [2]

حرر في الدائرة أكثر من 34 مادة ارتكز السواد الأعظم منها على شخصيات من التاريخ العثماني ، واتّسم أسلوبه بالتحامل والتشويه ، واختلاق الأحداث لمجرد الافتراء . وستتناول الدراسة مادته عن السلطان أرطغرل ، وإبراهيم الأول إضافة إلى مادة دوشرمة والقسطنطينية .

---

[3] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج 2 ، ص459.

[1] نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 2 ، ص398 . خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص 154 . مدارس الاستشراق . المدرسة الألمانية ، 2009/2/1م . htt: // www. Madinacenter .com.

[2] نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج 2 ، ص745 . بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية . 2008/12/15م . http://www.awu-dam.org.

4) كرامرز 1309هـ 1371هـ / 1891م – 1951م
Kramers , J.H.

من أشهر المستشرقين الهولنديين ، عمل مترجمًا للسفارة الهولندية في إستانبول، ثم عُين أستاذاً للتركية والفارسية في جامعة ليدن ، ثم تولى كرسي اللغة العربية فيها . [3]

له عدة كتابات في التاريخ العثماني ، منها فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين، كما أن له عدة مقالات عن التاريخ العثماني في دائرة المعارف الإسلامية ، إضافة إلى عدة مقالات عن الجغرافيا والتشريع في الإسلام ، وترجمة للقرآن الكريم .

حرر في الطبعة الأولى من الدائرة 75 مادة غالبها في الجغرافيا والتاريخ ، ويظهر في كتابتهِ بعض الحيادية والإنصاف وعدم التعصب ، وأشهرها مادة حررها باسم السلطان سليمان القانوني ، وأبرز ما جاء في هذه المادة نقدهِ للمصادر الأوروبية التي تناولت شخصية السلطان سليمان القانوني حيث وصف المصادر بأنها أكثر نقداً وأقل معلومات ، وتتسم في الغالب بالغرض . [1]

5) إيز نبرغ " أوهير شبرج " J.Eisenber

مستشرق روسي متخصص بتاريخ اليهود في شبه الجزيرة العربية، يظهر بوضوح ميله الشديد لليهود ، ومحاولة دعم قضاياهم دائماً حيث جاءت أغلب كتاباته لإنصاف اليهود ، وإعطائهم حقوقًا ليست لهم ، من أهم كتبهِ " اليهود في الجزيرة العربية " ، تناول فيه تـــاريخهم من خراب بيت المقدس إلى الحملات الصليبية ، ومن أهم المقالات " اليهودية في الجاهلية ".[2] حرر في الدائرة أربع مواد عن أنبياء اليهود ، ومادة عن يهود الدونمة وهي ما ستشير الدراسة إليها .

6) كارل فيلهلم ، زتر ستين 1283هـ – 1373هـ / 1866م-1953م KARL VILHELM ZETTERSTEEN

مستشرق سويدي ، تلقى تعليمه بالسويد ، أهم أعمالهِ فهرس بعنوان "المخطوطات العربية والفارسية والتركية في المكتبة "حيث قام بوصف وفهرسة المخطوطات الموجودة في

---

(3) خالد عبد الله القاسم : مرجع سابق ، ص143 ، نجيب عقيقي : ج2 ، ص670 .

(1) خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص102 .

(2) مرجع سابق ، 143 ، 144. الاستشراق الروسي. مصادر الاستعراب الروسي . 2009/5/7م http://www.awu-dam.org

مكتبة جامعة أسبالا ، وقد أصدره في جزئين عام 1349هـ - 1354هـ / 1930 م - 1935م . كما نشر هذا الفهرس في المجلة التي كان يحررها وعنوانها Le monde Oriental .أما عن إصداراته في ميدان التاريخ الإسلامي فقد أخرج " إسهامات في تاريخ السلاطين المماليك في السنوات من 690هـ إلى 741هـ ، وفقاً لمخطوطات عربية ". وله إسهامات في تاريخ ولغات وآداب أوروبا وآسيا عن طريق مقالات في مجلته . أما بالنسبة لدائرة المعارف الإسلامية فله كثير من المواد التي تتناول الخلفاء والولاة وسائر الشخصيات السياسية البارزة في التاريخ الإسلامي . [3]

كتب مادة عن السلطان عبد العزيز ستتناولها الدراسة خاصة وأن أغلب المواد التي حررها تناولت حياة أبرز الشخصيات الإسلامية ، أسهم بشكل كبير في دس الافتراء والتشويه على سيرة هؤلاء العظماء .

7) دنكان بلاك ، ماكدونالد : 1280هـ - 1363هـ / 1863م-1943م .
Duncan Black Madonald

من أشهر المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام على الإطلاق، داعم نشط لليهود ، والصهيونية ، أمريكي الإقامة وبريطاني المولد ، ولد في جلاسجو عام 1280هـ / 1863م، شديد التقوى ، صرف نشاطاً كبيراً في التنصير المسيحي، وفي إعداد المنصرين . [1] يعتبر ممثلاً اسكتلنديًا للدراسات العربية والعلوم الإسلامية في أمريكا .[2]

كان صديقاً وتلميذاً للمستشرق نيكولسن في الدراسة ، تعلم في جلاسكو ثم في برلين ، أتقن اللغات الشرقية ، ثم تعلم اللغات السامية في حلقة اللاهوت بمدينة هارتفورد إلى جانب دراسة اللغة العبرية ، وتفسير التوراة . واهتم اهتماماً خاصاً باللغة العربية حيث عكف على دراسة اللغة العربية نظراً لأهميتها بالنسبة لعملهِ التنصيري المسيحي في الشرق . [3]

وأبلغ دليل على أنه منصر وأنه لم يتخذ الكتابة في التاريخ الإسلامي إلا لتشويه ودس السموم في التاريخ الإسلامي وستاراً لعملهِ الأساسي ألا وهو الدعوة إلى المسيحية والتنصير

---

[3] عبد الحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص144 ، 145 .

[1] عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص538 . الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19م . http: // www. Said. Net .

[2] يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 298 .

[3] مرجع سابق ، ص298 . نجيب عقيقي: مرجع سابق ، ج3 ، ص136 .

، عوضاً عن تأسيسه لمدرسة كنيدي للبعثات بعد طوافهِ في الشرق الأدنى عام 1330هـ/ 1911م في جامعة هارفارد ، كما إنه أشرف على القسم الإسلامي فيها لمدة طويلة . [4]

وأنشأ بمعاونة صمويل زويمر اليهودي مجلة العالم الإسلامي ، وهي مجلة دورية ، غرضها الأساسي التنصير ، حيث عمل ناشراً بها لخدمة هذا الغرض .[5]

نال عضوية المجمع العلمي العربي ، وكان من أوسع المستشرقين اطلاعاً على الدين الإسلامي . [6]

اتّسم نتاجه العلمي بالوضوح في العرض ، لكنه جاء خالٍ من التعمق في الحدث وتحصيل الباحث إلى جانب الاهتمام بالحياة الدينية في الإسلام ، اهتم بتاريخ العلوم عند العرب في الإسلام . ووجه اهتمامًا خاصًا بدراسة كتاب الحكايات والأساطير " ألف ليلة وليلة".[1] وله العديد من المؤلفات أهمها :

كتاب " سمات الإسلام " لأغراض التنصير ، " كيفية تقديم المسيحية إلى المسلمين " عام 1335هـ / 1916م[2] ، " أوجه الإسلام "وطبع في نيويورك ،

" فهرس المخطوطات العربية والتركية في مكتبة نيوبري " بشيكاغو . جمع كتاب الحكايات " ألف ليلة وليلة" في نسخة فريدة ، وكتب أيضاً عن "التصوف الإسلامي والمسيحي" . و"علم الكلام في الإسلام " ، وهي دراسة اشتملت على مصطلحاته، وما جاء عنه في القرآن والحديث والتفسير والمؤلفات الدينية واللغوية . [3]

وقام بزيارة إلى الشرق الإسلامي ، كانت مصر أبرزها ما بين 1325هـ- 1326هـ/1907م – 1908م ، ثم فلسطين وسوريا . وناقش نتائج رحلته العلمية وتجارب

---

[4] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص136 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص298 ، خالد عبد الله القاسم : مرجع سابق ، ص150 .

[5] المرجع السابق ، ص150 . يوهان فوك : مرجع سابق ، ص 298 .

[6] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص150 . مدارس الاستشراق . المدرسة الأمريكية ، 2009/2/1م http : // www. Madinacenter .com .

[1] عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص538 . نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص136 ، 137 .

[2] يوهان فوك : مرجع سابق ، ص298 .

[3] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج3 ، ص136 ، 137 ، عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص538 . الاستشراق . الندوة العلمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19م ، http: // www. Said . net .

المسلمين الدينية في كتابه " الموقف الديني والحياة في الإسلام " عام 1327هـ / 1909م. [4]

اعتمد في كتابتهِ على بصيرته في الكتابة ، والاتكاء على النصوص والشواهد الواهية وغير الثابتة التي تؤكد أقوالهِ ، ويستخلص نتائج تسير وفق رغباتهِ . وذلك في تناول الأحداث التاريخية الإسلامية ، ودوّن الجزء الأكبر من نتاجهِ في مقالات صحفية ، ومشاركات علمية ، أهمها على الإطلاق "دائرة المعارف الإسلامية" . [5]

وعندما تقاعد عن التدريس كرَّس وقته لتحقيق مشروع خطط له طوال حياته ، ألا وهو دراسة " العهد القديم " من الكتاب المقَّدس . فأصدر المجلد الأول " العبقرية الأدبية العبرية " ، ثم المجلد الثاني " العبقرية الفلسفية العبرية " [6]

يدل نتاجه الغزير عن اللغة العبرية واليهودية على مدى ميلهِ لليهودية، وظهر ذلك بوضوح تام في كتاباتهِ المتحامله على الإسلام والمسلمين خاصة المواد التي حررها في دائرة المعارف الإسلامية التي فيها تجني واضح وصريح على الإسلام . وستنتقده الدراسة في موضع وصف أهل الذمة .

8) إيوار " أوهيوار " ، كليمان cl. Huart

1271هـ - 1346هـ / 1854م – 1927م :

مستشرق فرنسي ولد في باريس ، وتلقى تعليمه في مدرسة اللغات الشرقية، ومدرسة الدراسات العليا حيث تخرج منها ، ثم عُين مترجماً في قنصلية فرنسا بدمشق ، ثم مترجماً في سفارة الدولة العثمانية ، وبعدها ترقّى إلى قنصل، ثم انتقل إلى باريس للعمل في وزارة الخارجية أمين سر ، وانتدبته لتمثيلها في مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام 1323هـ / 1905م ، وقد عين قنصلاً عاماً عام 1331هـ / 1912م . [1] يلاحظ مما سبق أنه تدرج في الوظائف الدبلوماسية ، ويدل ذلك على براعتهِ من الناحية السياسية ، مما أعطاه خلفية ثقافية عالية ساعدته على الكتابة في التاريخ الإسلامي .

---

[4] يوهان فوك : مرجع سابق ، ص298 .

[5] مرجع سابق ، ص299 .

[6] عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص538 .

[1] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص103 . مدارس الاستشراق . المدرسة الفرنسية 2009/2/10م .
http : // www. Madinacenter.com .

لم يمضِ عليه وقت طويل حتى آثر العلم على الوظيفة ، وانصرف إلى التدريس والتصنيف ، إذ أصبح أستاذاً للعربية والفارسية في مدرسة اللغات الشرقية ، ومديراً لمدرسة الدراسات العليا حيث كان يلقي محاضراته في تفسير القرآن الكريم بالفصحى ، إذ أتقن العربية الفصحى تماماً إضافة إلى التركية والفارسية ، وشغل منصب نائب رئيس مجمع الكتابات والآداب ، ثم انتخب رئيساً للمجمع ، ونال عضوية عدة مجامع علمية ومعاهد ، منها عضواً في المعهد الفرنسي، والجمعية الآسيوية ، والمجمع العلمي العربي بدمشق ، كما منح أوسمة من فرنسا وتركيا واليونان وتونس والجزائر وإيران . [2]

تعملهُ للغة العربية جعل نتاجهُ غزيراً في الكتابات الاستشراقية التي تهتم بالعلوم الإسلامية، خاصة وأنه تدرج في وظائف مهمة أدت إلى غزارة ثقافته وعطائه .

وضع عدة كتب عن التاريخ العام ، أهمها " تاريخ العرب" جاء في جزأين، وقد ترجم إلى الألمانية . [1] " تاريخ بغداد في العصر الحديث" .والكثير من الترجمات الأدبية ، عوضاً عن عدة مقالات عن التاريخ الإسلامي مثل : "أصول الدولة في الإسلام" ،و" الخلافة والجهاد"، و" الحج إلى مكة " ، و"مهد الإسلام". [2] كما قام بفهرسة الكتب العثمانية والعربية والفارسية المطبوعة في إستانبول . ووضع كتابًا عن تاريخ حملة السلطان سليمان الأول على بلغراد. [3]

يعدّ أكثر من حرّر موادَ عن العثمانيين في دائرة المعارف الإسلامية حيث كتب عن الإنكشارية ، وعن السلاطين بايزيد الأول ،بايزيد الثاني ، واتصفت كتاباته بالبعد عن الحقيقة، ولا تخلو من الافتراء والسطحية في المعلومات ، وعدم صدق أغلبها ، وتخلو من العمق والتحليل للحدث التاريخي .

9) ليفي بروفنصال LEVI PROVENCAL 1312هـ-1375هـ/ 1894م – 1956م .

---

[2] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص213 . بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 2008/2/15م . http : // www. Awu- dam. Org .

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق : ج3 ، ص500 .

[2] خالد عبدالله القاسم : مرجع سابق ، ص103 .

[3] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص215 ، 216 .

من أكثر المستشرقين الفرنسيين الذين اشتهروا بكتابة أبحاث عن تاريخ المسلمين في أسبانيا . ولد في الجزائر عام 1312هـ /1894م من أسرة يهودية ، نال تعليمه الأول في الجزائر ، ثم دخل جامعة الجزائر، وتتلمذ على يد رينيه باسه .[4]

نال الليسانس من كلية الآداب عام 1331هـ / 1913م ، وأثناء الحرب عمل ضابطاً بالجيش ، واشترك في الحرب العالمية الأولى ، ونقل إلى مصر ومنها إلى فرنسا ، ثم المغرب إذ عمل في معهد الدراسات العليا المغربية في الرباط، ثم أستاذاً به ، ثم مديراً له ، وهنا وقع في غرام مدينة مراكش ، وخطفت لبه ، ونال درجة الدكتوراة في موضوعات تخصصها، ثم عمل في جامعة الجزائر في كلية الآداب أستاذاً لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية . درس في عدد من الجامعات ، مثل جامعة السوربون بفرنسا ، وألقى محاضرات في جامعة القاهرة، ومعهد الدراسات الإسلامية في السوربون ، وعمل أستاذاً للعربية والحضارة الإسلامية بجامعة باريس . وله نشاط ملحوظ في إدارة المطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية ، وأنشأ مجلة " أرابيكا للدراسات العربية " التي أصبحت أهم مجلة متخصصة في الآداب العربية والعلوم الإسلامية . [1]

ولا شك أن رحلاتهِ الكثيرة وتنقلاتهِ قد أعطته خلفية جيدة عن البلاد الإسلامية خاصة إذا وضعنا في الاعتبار ميله للمغرب العربي ، ومعرفتهِ للغة العربية . هذه الحياة الحافلة جعلتهُ ينال رضا الحكومة الفرنسية ، ويقدم لها خدمات خطيرة في مهام سرية بين لندن والقاهرة والقدس ودمشق.[2]

وهذه كانت أعمال تجسسية بحتة ؛ لأنه كوفئ على ذلك ، وعلى جهوده في الاستشراق؛ فعُد المرجع الأكفأ عن تاريخ المغرب والأندلس . وأتمَّ عملهِ في دائرة المعارف الإسلامية بأوسمة رفيعة ، وعضوية جمعيات عديدة ، إذ إنه وجه اهتمامه الخاص بتاريخ أسبانيا الإسلامية ، وأصدر فيه العديد من المؤلفات والكتب عن تاريخ هذه الحقبةِ . [3]

---

[4] عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 520 .

[1] نجيب عقيقي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 293 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص 188 .

[2] مرجع سابق ، ج1 ، ص 293 .

[3] مرجع سابق ، ص 293 – 300 . عبدالرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص520 – 522 . عبدالحميد صالح حمدان : مرجع سابق ، ص188 ، 189 .

وأبرز كتبهِ عن تاريخ أسبانيا الإسلامية كتاب "تاريخ المسلمين في أسبانيا"، وعلى الرغم من إسهامهِ في إبراز تاريخ تلك الفترة إلا أن كتابهِ في حاجة إلى مزيد من الدراسة من عدة نواحٍ ، فبعض الافتراضات التي وضعها المؤلف مطعون في صحتها من الأساس . [4]

كتب في دائرة المعارف عدة موضوعات لكن ما يهم الدراسة مادته عن السلطان محمود الثاني التي اتسمت بالواقعية أكثر من اللازم ، وإيراد أحداث ليست لها أهمية في سياق الدولة العثمانية ، بل والتركيز عليها دون داعٍ .

10) خليل إيناليجك :

برغم أنه لا يعتبر من المستشرقين إلا أن المادة التي قدمها لنا وهي مادة محمد الفاتح تحتاج إلى إعادة نظر ومن هذا المنطلق ستنقد الدراسة بعض المواضع في المادة لأهميتها .

كان مؤرخاً تركياً ، ولد عام 1335هـ / 1916م في إستانبول ، تلقى تعليمه الأساسي فيها ، وأتم دراسته الجامعية في أنقرة ، نال شهادة الدكتوراة في التاريخ من كلية الآداب بجامعة أنقرة عام 1359هـ/1940م ، ويعمل حالياً في جامعة بيلكنت بأنقرة أستاذاً للتاريخ العثماني، وهو مؤسس دائرة التاريخ فيها ، عمل في عدة جامعات أوروبية وأمريكية ، منها جامعة كولومبيا ، وبرنستون ، وبنسلفانيا ، إضافة إلى جامعة شيكاغو ، له أكثر من 200 مقالة بحثية ، والعديد من الكتب المتعلقة بالتاريخ العثماني منها :

١) سلميان الأول وعصره .

٢) مصادر ودراسات عن البحر الأسود العثماني .

٣) مقالات في التاريخ العثماني ، إستانبول 1998م .

٤) الشرق الأوسط والبلقان تحت حكم الإمبراطورية العثمانية : مقالات في الاقتصاد والمجتمع .

٥) دراسات في التاريخ العثماني الاجتماعي والاقتصادي .

٦) الإمبراطورية العثمانية : الفتوحات والتنظيم والاقتصاد .

٧) الحضارة العثمانية : مجلدات أنقرة ، 2005م .

---

[4] محمد بن عبود : مرجع سابق ، ص 354 ، 355 .

٨) العثمانيون 12 مجلدًا بالتعاون مع أكمل الدين أوغلو وغيرهم .

٩) كمال أتاتورك مع برنارد لويس ، ميلانو ، 1998م . [1]

وشارك في دائرة المعارف الإسلامية بعدد كبير من المواد والمقالات . ارتكز أسلوبه في مواد الدائرة على منهجية المستشرقين معتمدًا على المعلومات التي سبق وأن قدموها ، ولم يحاول التأكد من مدى صحة هذه المعلومات ، وتميز بإضافة القليل من التهويل ، والاعتماد على ألفاظ أكبر من الحدث ، وصياغة أحداث غير واقعية ، تعتمد على خيال المستشرقين الذين سبقوه ، بل وعدم إيراد أدلة عليها ، وهو بذلك سار على منهجية المستشرقين تماماً دون أن يحيد عنها مع أنه تركي ، وعاش في إستانبول قلب الخلافة العثمانية ؛ والأجدى به أن يكون فاهمًا لأحداث العهد العثماني أكثر .

وللأسف لم تستطع الدراسة الحصول على نبذة عن حياة وأسلوب ثلاثة من المستشرقين الذين كتبوا في الدائرة عن الدولة العثمانية .

١) كافد بايسون الذي قدم للدائرة مادة مهمة جداً ، وهي مادة "بيكر كوسم"، وجاء أسلوبهُ مشوشًا للمعلومة وخافيًا للحقائق .

٢) E.D ، وهو الاسم المختصر للمستشرق ، وللأسف لم تستطع الدراسة الحصول على اسمه أو حتى على تعريف عنه ، رغم أهمية المادة التي قدمها للدائرة ، وهي عن الحريم " المنطقة المحرمة " .

٣) المستشرق جيس الذي كتب مادة " جندرة لي" في دائرة المعارف الإسلامية.

لم يكن عمل هؤلاء المستشرقين سطحياً ، أو غير منتظم ، فقد كان هناك دائماً مساحة لنشر أبحاثهم في المجلات والدوريات العلمية ، إضافة إلى عقد المؤتمرات الدورية ، لعرض أبحاثهم ، وآخر دراساتهم الاستشراقية . وعقد لهم أول مؤتمر دولي في باريس عام 1290هـ / 1873م ، وتتابعت المؤتمرات بعد ذلك حتى بلغت أكثر من ثلاثين مؤتمراً دولياً، فضلاً عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول ، كمؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة درسدن بألمانيا سنة 1266هـ / 1849م ، وما تزال هذه المؤتمرات تعقد إلى وقتنا الحالي .

---

[1] خليل إينالجيك : تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، ترجمة : محمد . م . الأرناؤوط ، ط1 ، بيروت : دار المدار الإسلامي ، 2002م ، ص2 .

ويحضر هذه المؤتمرات مئات من العلماء المستشرقين حيث حضر مؤتمر أكسفورد تسعمائة عالم من خمس وعشرين دولة ، وثمانين جامعة ، وتسع وستين جمعية علمية . [1]

وكما مر بنا في الدراسة إن أغلب المستشرقين يهود ، أو يميلون لليهودية ، فجاءت أعمالهم جزءاً من مخطط كبير ، ألا وهو المخطط الصهيوني والصليبي لمحاربة الإسلام وتشويه تاريخه ، بل والقضاء عليه إن أمكن . إن فهم حقيقة المستشرقين لا يمكن أن نراه إلا في إطار ذلك المخطط الذي يهدف إلى تخريج أجيال لا تعرف عن الإسلام إلا الشبهات ، وقد تم انتقاء أفراد من هذه الأجيال؛ لتتبوأ أعلى المناصب ، ومراكز القيادة للتوجيه المستمر في خدمة الاستعمار .

ولا تزال هذه الأفلام والمجلات ترد إلى العالم الإسلامي من مختلف دول العالم باسم التبادل الثقافي من دول أساساً لها أطماع استعمارية في العالم الإسلامي، فلا تقدّم إلا أنواعاً معينة من السينما والكتب والقصص ؛ لتنفذ إلى أعماق النفس العربية والإسلامية وتروج لمفاهيم خاطئة تصبح حقائق موصى بها بعد ذلك .

إن أهم ما ارتكز عليه التنصير مع الاستشراق هو دراسة التاريخ وآدابه والنفاذ داخله، ودراسة نفسية هذه الأمم ؛ ليكيفوا موقفهم معها ، ويعرفوا من أي جهة يستطيعون إخضاعها ، وما هي جوانب الضعف فيها للانتفاع بها ، وجوانب القوة للقضاء عليها . [1]

كما اتخذوا من اللغة العربية مجالاً واسعاً للخوض فيه ، فعملوا على الحط من اللغة العربية الفصحى ، وتهوين قدرها ، بل واعتبار استخدامها تخلفًا ورجعية، وإحلال العامية مكانها . وقد أقبل القساوسة أنفسهم على دراستها ؛ لفهم أغوارها وقواعدها ؛ فانتشر تعليمها في المعاهد الدينية ، وأنشئت مطابع عربية ، وجمعت لها الكتب العربية حتى أن مكتبة الفاتيكان في روما ضمت إليها مجموعات ضخمة من الكتب العربية ، فقد جاء هدف دراسة رجال الدين التابعين للفاتيكان للغة العربية ، لتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين ، ويردون عليهم بأدلة ضعيفة من الكتب الإسلامية . [2]

---

[1] مؤتمرات المستشرقون . وسائل المستشرقين ، 2008/12/25م . http : // www. Eltwhed.com .

[1] عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 331 .

[2] محمد عبدالفتاح عليان : مرجع سابق ، ج2 ، ص 24 ، 25 خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص 180 . بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 2008/12/15م . http : // www. Awu- dam. Org .

وتسلل المنصرون داخل الدولة العثمانية تحت ستار نشر العلم والخدمات الإنسانية مستفيدين من التسهيلات المتاحة لهم للتنقل عبر المناطق ، ينشئون المراكز التنصيرية ، ومدارس للتعليم على الطريقة الغربية بحجة تعليم أبنائهم، ولكن الحقيقة هدفها التنصير ، مع إقامة علاقات واسعة وحميمة مع أبناء البلاد المحليين ، وتعليم أطفال الأقليات غير المسلمة ، وتقديم المساعدات والإغراءات المالية لأبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارسهم .

وعندما أحست الدولة العثمانية بتحركات المنصرين راقبتهم مراقبة شديدة، وضيقت الخناق عليهم ، وكان العثمانيون يرتابون بالمنصرين البروتستانت ، لأن هؤلاء يتوارون وراء العلم البريطاني ، وبالمنصرين الذين يعملون للسياسة الفرنسية ، ووصل الأمر إلى بذل الدولة العثمانية لجهود كبيرة لعزل المنصرين عن شبه الجزيرة العربية ، راقبتهم بشدة ، ووضعت أمامهم العراقيل حتى لا يصيبون أي نجاح ، فمثلاً نجد أنه عندما تم افتتاح الجمعية التنصيرية لبضع مدارس في لبنان لأطفال الدروز حوالي عام 1292هـ /1875م اضطرت الجمعية إلى التخلي عنها أمام إصرار الدولة العثمانية . والحقيقة أن الدولة العثمانية تتخذ تلك الإجراءات دون الإعلان عنها ؛ وذلك لأن المنصرين يأتون رعايا أجانب ، وما أن يستقروا حتى يأخذوا في التنصير سراً . [1]

وكثيراً ما كان يتلقى هؤلاء الدعم والرعاية والاهتمام من قناصلهم ورغم ذلك كانت الدولة العثمانية تراقبهم بشدة، فقد ظلت تمنع الأطفال من دخول مدارسهم قبل أن ينهوا التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية ، وعمدت في عام 1306هـ/1888م إلى إغلاق مدارس المنصرين الأمريكية ؛ لأن هذه المدارس فتحت أبوابها دون رخصة من الحكومة . وهنا اتخذ المنصرون أسلوبًا جديدًا عندما أدركوا أن الحكومة العثمانية قد سدت جميع الأبواب في وجوههم ؛ فلجأوا إلى الاحتماء خلف الامتيازات الأجنبية ، فكانوا يجوبون البلاد كأجانب ، ويعملون كمنصرين. وتخلى هؤلاء عن تعاليم المسيحية ، وأخذوا يثيرون الفتن والقلاقل والحروب بين طوائف البلاد العثمانية كما حدث في بلغاريا واليونان ولبنان وغيرها . [2]

وعند هذا الحد يتضح لنا أن نشأة الدراسات الاستشراقية أساسها ديني محض ، ولم يكن هناك بد من ارتباط التنصير بالاستشراق حيث إن المنصرين يحتاجون في عملهم إلى ما توصل إليه المستشرقون ؛ ليسهل لهم المهمة في التعامل مع المسلمين وغير المسلمين.

---

[1] مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 333 سلمى أحمد : وعد بلفور ، ص 64 .

[2] مصطفى الخالدي ، عمر فروخ : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ط1 ، القاهرة ، د. ت ، ص134 ، 135 .

وظل التنصير مقروناً بالاستشراق حتى القرن 12 هـ / 18 م ، وأسهمت في هذا المجال الكنائس البروتستانتية لمساندة الكاثوليك . [3] اعتبر عام 1326هـ/ 1908م لدى المنصرين من الأعوام الحاسمة في حركة التنصير ؛ لأنه فصل بين عهدين: عهد التضييق ، وعهد حرية الحركة؛ لأن الانقلاب الذي قاده الاتحاديون ضد السلطان عبدالحميد كان له أبعد الأثر في توسع حركة التنصير في الدولة العثمانية كلها ؛ لأن تجولهم في أراضيها اتَّسم بالحرية والنشاط الزائد، غير ممنوع أو محظور ، ويتضح هدف المنصرين في أن السيادة الغربية في أي قطر إسلامي معناها تسهيل انتقال المسلمين إلى النصرانية . [4] وظلت العلاقة بين الطرفين أخذاً وعطاءً ، ولم تنفصل يوماً وإن تستر المنصرون خلف المستشرقين إلا أن هذا لا يعني اختفاء أحد الطبقتين.

إن أغلب المستشرقين كانوا يهوون الدراسات الاستشراقية ، ثم يتخذونها مهنة كأي مهنة حرة في المعاهد والمكتبات والمتاحف ، ولها مطابع خاصة إضافة إلى دور نشر ومجلات .

إن الحقيقة العلمية والموسوعية لا يمكن أن تتوفر في كتابات المستشرقين ؛ لأننا لو بحثنا عن حقيقة الغالبية العظمى من المستشرقين لوجدنا أن أكثرهم ليسوا من أهل العلم أو المتخصصين في حقول الدراسات الإنسانية من تاريخ وآداب ، وإنما نصبوا أنفسهم علماء وأساتذة جامعات ، و مع مرور الزمن أصبحوا مصادر ومراجع موثوقة عن تراث الإسلام وحضارته في الوقت الذي افتقدوا فيه أي شيء عن فهم العلم وعن أخلاقيات العلماء ، وعجزوا عن فهم البلاغة العربية مما أعاقهم عن تقصي الحقائق ، والوصول إليها ، وتدوينها بطريقة صحيحة في كتاباتهم ، والسبب بسيط جداً ، لأنهم في حقيقة أمرهم يهود ، أو ميولهم صهيونية واضحة في كتاباتهم . لذلك فإن لليهود دوراً منذ القدم في توجيه الكتابة عن التاريخ عامة ، والتاريخ الإسلامي خاصة . وما يهم الدراسة هو توجيههم للكتابة عن التاريخ العثماني بالذات ، ويأتي في المقام الأول السبب في ذلك ؛ للدور الذي قامت به الدولة والخلافة العثمانية للوقوف أمام أطماع اليهود والصهيونية في فلسطين . لذلك كان لهم دور كبير في إخراج التاريخ العثماني بهذه الصورة المظلمة والموحشة .

---

[3] محمد عبدالفتاح العليان : مرجع سابق ، ج2 ، ص 25 .

[4] مصطفى الخالدي ، عمر فروخ : مرجع سابق ، ص 146 .

المبحث الثالث :

دور اليهود في توجيه منهج الكتابة التاريخية عن الدولة العثمانية

اتضح مما سبق أن الاستشراق منهج فكري ديني ، طورّه المستشرقون اليهود و المسيحيون للتعبير عن وجهة نظر دينية يهودية أو مسيحية ضد الإسلام . وقد جاء القرآن الكريم بالدليل القاطع لإثبات كراهية اليهود للإسلام ، وذلك في قولهِ تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ . [1]

فالمدرسة اليهودية في الاستشراق مدرسة دينية هدفها الدفاع عن اليهودية ضد الإسلام، والرد عليه ، بمعنى أنه هدف ديني يوجه المستشرق نحو الدين اليهودي . ثم انتقلت المدرسة اليهودية من الدفاع عن ديانتهم إلى الهجوم على الإسلام ، ونقده من منطلق ديني خالص .

وعندما يتحدث الاستشراق عن إحدى الديانات الوضعية كالبوذية والهندوسية وغيرها تخلو كتاباتهم من الهجوم والافتراء والتحدي والصراع الذي يوجه كتاباتهم في الإسلام ، بل نجد أحياناً بعض التعاطف مع ديانات الشرق الأقصى لغرابتها من ناحية ، ولعدم وجود

---

[1] سورة المائدة : آية 82 .

صراع مباشر بينها وبين اليهودية ، أو لعدم تشكيل هذه الديانات خطورة على اليهودية مقارنة بالإسلام .

عندما أحس اليهود أن الاستشراق باب خطير، ويخدم أهدافهم في التسلل إلى البلاد التي يأملون السيطرة عليها وفق طريقتهم، ويريدون أن يتخذوا لأنفسهم أبواقًا من أبنائها فقد تخصص منهم عدد لا بأس به في الدراسات الاستشراقية ، ضمن المدرسة الاستشراقية اليهودية؛ خدمة لأهدافهم الصهيونية في العالم الإسلامي. [2]

فقد دفع اليهود بالكتابة التاريخية عن الدولة العثمانية ، وقاموا بتشجيع المستشرقين في أوروبا بعمل دراسات كثيرة عن العثمانيين ، وكانوا يقولون: إن خير ضمان لكفاءة أوروبا وتغلبها على العثمانيين القيام بمثل هذه الدراسات الاستشراقية لا بالحروب والثورات ، حتى إنه ظهر في فرنسا وحدها في أقل من قرنين من الزمان أكثر من ثمانين كتاباً عن الدولة العثمانية ، بينما لم يصدر في نفس الفترة عن الأمريكتين المكتشفة حديثاً إلا أربعون كتاباً فقط.[1]

اهتم الاستشراق اليهودي بالدراسات العثمانية ،وبدأ اليهود في خدمة أوروبا؛ لإضعاف الخلافة العثمانية من الداخل ، وظهر دورهم القوي في إسقاط السلطان عبد الحميد الثاني ، والإيقاع بين العرب والأتراك ، ونشر العلمانية في تركيا ، ودورهم الأكبر ظهر في التمهيد لإقامة كيان صهيوني في فلسطين مستغلين ضعف الخلافة العثمانية . [2]

إن الدولة العثمانية عبر تاريخها الطويل تعرضت لكثير من حملات التشويه المتعمدة ، تولى قيادتها الاستعمار الأوروبي ، تقوده روح صليبية ، مع الصهيونية الحاقدة على الدولة العثمانية التي وقفت أمام تحقيق أطماعها في فلسطين .

تكمن خطورة دور اليهود في الاستشراق في أنهم هم الذين أمدوا الكتابات الاستشراقية والرأي العام في الغرب بكل الصور المشوهة والمغلوطة عن الإسلام، وبالتالي عن الدولة العثمانية . [3]

ورسم المتحاملون على الدولة العثمانية صورة حالكة الظلام لتاريخها ، وألحقوا بها وبحكمها في ولاياتها الأوروبية والعربية كل المساوئ من استبداد ، وظلم ، وجهل ،

---

[2] أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج3 ، ص551 ، 552 .

[1] أحمد سعيد نونو : مرجع سابق ، ص48 ، 49 .

[2] محمد خليفة حسن أحمد : مرجع سابق ، ص 45 .

[3] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 868 .

ومصادرة لأموال الرعايا إلى القيام بمذابح عامة وصولاً إلى فرض العزلة والستار الحديدي على البلاد العربية بالأخص ، مما أدى إلى تخلفها عن ركب الحضارة والتقدم .

وأغفل هؤلاء الناقمون والمتحاملون الخدمات الجليلة التي قدمتها هذه الدولة لولاياتها العربية ، ويكفيها فخراً أنها حمتها من الاستعمار الأجنبي.[4]

وقد ارتكزت كتابات اليهود عن الدولة العثمانية على عدة نقاط:

١) روح العداء اليهودي نحو الخلافة الذي ظل حياً لم يخمد ، وظهر بوضوح في إشعال نار المعارك العسكرية والغزو الثقافي المتواصل. [5]

٢) التفوق العسكري الغربي الذي أخذ اليهود يعملون لتحقيقه منذ صدمة الغرب في الحروب الصليبية ؛ فدعم اليهود روح الانتقام والتصميم ؛ فطوقوا العالم الإسلامي بالسيطرة على المحيطات .

٣) لم يحقق أتاتورك أغراضه إلا بكسر إرادة المسلمين التي خدعها في البداية ثم تنمر عليها ، فقمع ثورات المسلمين وعلمائهم بأشد أنواع القوة والقسوة ، وتاريخ حركة الجهاد الإسلامي شاهد على ذلك. فقد قمع أتاتورك الحركات الإسلامية الشعبية بالقوات العسكرية والمحاكم الثورية الظالمة التي لا تحمل من حقيقة المحاكم إلا الاسم ؛ لأنها كانت تنفذ أحكاماً صدرت قبل انعقادها.

٤) الترويج الدائم من أعداء الخلافة العثمانية لأفكار وأباطيل من مصادر معتادة لا تحمل من حقيقة الأحداث شيئًا . [1]

٥) استغلال اليهود القاطنين في أراضي الدولة العثمانية ، والادعاء أنهم يتعرضون للتعذيب والاضطهاد ، حتى يثيروا الرأي العام لدى يهود أوروبا، وشعب أوروبا نفسه ضد الدولة العثمانية .

٦) استخدام الأساليب الملتوية والمراوغة والتضليل البشع في الكتابة عن الدولة العثمانية، فظهر من يهود الدونمة مجموعة من الضباط ورجال السياسة المختصين

---

[4] ليلى عبد اللطيف أحمد : موقف الدولة العثمانية من مطامع اليهود في فلسطين ، ط 1، مصر : دار الكتاب العربي ، 1987م ، ص7 .

[5] مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص71 ، 72 .

[1] مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص72 .

بترويج الإشاعات والأكاذيب ؛ لضرب السلطنة العثمانية ، وإشغالها بكل الأمور المتناقضة بداخلها ، ثم بدأوا بالوشاية بين المسيحيين والدولة العثمانية ، وشوهوا الإسلام ، وتلاعبوا بسمعة السلاطين العثمانيين، وبعض من هذه النماذج والقصص الكاذبة كانت تنشر في الصحف النمساوية والإيطالية والفرنسية والألمانية المعهودة للجاليات اليهودية ، ودعمت جمعية تركيا الفتاة حتى استطاعت أن تقف على قدميها أمام السلطان العثماني . [2]

٧) محاولة استعطاف الرأي العام العالمي من خلال التباكي على معاناة اليهود عبر تاريخهم الطويل ، واتخاذ ذلك ذريعة يهودية لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين .

٨) استخدام أسلوب التكرار الإعلامي لترسيخ الأفكار التي يروجون لها، وتقديمها إلى الرأي العام العالمي بكل الأشكال . [1]

وقد تشارك اليهود مع الكتاب الأوروبيين في نزعتهم العدائية تجاه الدولة العثمانية بعد أن فشلت كافة مخططاتهم في اغتصاب أيٍّ من أراضي هذه الدولة؛ لإقامة كيان سياسي لهم طوال أربعة قرون برغم من الضعف الذي أصابها ، في حين استطاع اليهود بمعاونة الاستعمار الغربي أن يحققوا هذه الأهداف بمنتهى اليسر والسهولة ، وصار اليهود يروجون ويتهمون الدولة العثمانية على طول تاريخها بالتخلف والرجعية والجمود ، واعتبرت المحافل الماسونية مسألة تشويه هذه الفترة التاريخية من أهم أهدافها. [2]

إن العداء التقليدي بين اليهود والإسلام يعود في جذوره إلى ظهور الإسلام، وإجلاء الرسول ﷺ لهم عن المدينة المنورة ؛ لخيانتهم المتكررة وعداوتهم الدائمة، ومنذ ذلك الوقت بدأوا في الكيد للإسلام ، والتظاهر باعتناقه ، وبث السموم في جسم الأمة الإسلامية، وما عداء اليهود للعثمانيين إلا باعتبارهم خلفاء المسلمين ، ورمز وحدتهم وقوتهم ، وذلك عداء تقليدي ؛ لأن اليهود يرون في الخلافة العثمانية شبحاً مخيفاً خطراً على مستقبلهم .

---

[2] محمد سرحان : النظام العثماني " الهجرة اليهودية إلى فلسطين " ، ط1 ، دمشق ، 1993م ، ص20 .

[1] غازي محمد فريج : النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة ، ط 1 ، بيروت : دار النفائس ، 1411هـ / 1990م ، ص277 ، 278 .

[2] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 108 ، ص109 .

وقد رأى اليهود أن أفضل الطرق لتحقيق أهدافهم في العالم الإسلامي هو أن يعملوا وسط المسلمين بشكل مباشر ، ولكن تحت شعار النصرانية ، فتظاهروا باعتناقها لدخول الساحة فقط ، ولكن الحقيقة هي تحقيق رغباتهم . [3]

ومن هنا بدأ الصراع اليهودي مع الخلافة العثمانية ، وتميز بطول مدته ، ولدغاته القاتلة التي أدت إلى هدم ذلك الصرح الشامخ الذي كان المسلمون يلتفون حوله ، ويعتبرونه رمز وحدتهم وقوتهم وحريتهم.[4]

وبقيت أوضاع اليهود في إستانبول على ما كانت عليه منذ أيام الدولة البيزنطية بل أفضل منها ، إذ منح اليهود إبان حكم الدولة العثمانية كثيرًا من التيسيرات في إستانبول وغيرها ، فكان لهم حي خاص يطبق الإجراءات الخاصة بحكمهم الذاتي . [5]

وبقاؤهم في عاصمة الخلافة العثمانية يعتبر بعد نظر للشروع في عمليات بث السموم، ورغم الحماية والمعاملة الحسنة التي ظفروا بها في ظلال الدولة العثمانية في أعقاب طردهم من إسبانيا إبان القرن ق 9هـــ / 15م ، إلا إن اليهود اعتبروا هذه المعاملة واجباً مفروضاً على غير اليهود .

ومع ما تبذله تلك الشعوب في خدمتهم لا يمنع ذلك اليهود من الحقد عليها والتآمر على سلامتها ، واغتصاب أموالها ، والبطش بقادتها ، وتشويه سمعة الزعماء ورجال الفكر والسياسة من أجل زعزعة ثقة الشعب بقادتهِ بتشويه سيرته وتاريخه .

بدأت هذه المجموعات اليهودية تنشط وتفكر وتعمل على إحداث التغيرات لصالحها ، إذ وجدت أنه لابد من اعتناق الإسلام حتى تتمكن في المستقبل القريب والبعيد من تحقيق أهدافها . فأعلن المتعصبون لليهودية والمطلعون على الإسلام الدخول فيه كذباً ورياءً ؛ وذلك لتحقيق أول هدف وهو المساعدة على تسهيل مهام الجماعات اليهودية ، للتغلغل في السلطنة ، فتمكنوا من شراء الذمم ورشوة البعض، ومن خلال إشهار إسلامهم حققوا مكاسب سياسية ، عوضاً عن الحنكة التجارية التي تميزوا بها ؛ وأدت إلى تدفق الأموال على ميزانية الدولة العثمانية، مما زاد الثقة فيهم ، وزادهم خبثاً وتستراً لتحقيق أهدافهم . [1]

---

[3] أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 552 ، 553 .

[4] مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص78 .

[5] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص226 .

[1] لمزيد من المعلومات عن دورهم التجاري الرجوع إلى : محمد سرحان : مرجع سابق ، ص 15-16 .

إن هذه نفسية وخلفية اليهود ، إنهم اليهود في كل زمان ومكان ، يخفون الشر والحقد في أعماق أنفسهم . [2]

والحادثة التالية توضح أنهم وراء كل عقبة واجهت الدولة العثمانية والسلاطين العثمانيين ، عوضاً عن استغلالهم لحسن رعاية وضيافة الدولة العثمانية ، مستغلين أيَّ وضع سيء تمرّ به الدولة العثمانية أو مشكلة كبيرة ، ففي أعقاب كارثة أنقرة ، وأثناء عهد السلطان محمد الأول 806هـ-825هـ / 1403م-1421م الذي قضى جلّ عهده في محاولة إعادة تنظيم أمور الدولة العثمانية ، وتركيز فتوحاتها ، والعمل على استتباب الأمن قام اليهود باستغلال الأمر ، والضعف الذي تمر به الدولة العثمانية ، فدست بين صفوف الناس شخصًا يدعى بدر الدين السيماوي متخفياً في الدين والعلم ، ولكنه في الحقيقة يشكل خطراً حقيقياً على صفاء ونقاء الدولة العثمانية .

كان بدر الدين السيماوي رجلاً متستراً خلف العلم إذ إنه ادعى أنه عالم مشهور ، وله عدة مؤلفات في الصرف والنحو ، عوضاً عن الفقه والتفسير ، ومن أشهر هذه المؤلفات "واردات " أي بمعنى الإلهام ، فسطَّر فيها كل أفكاره ومبادئه، تولى منصب قاضي العسكر ، ثم فر هارباً بعد مقتل موسى بن بايزيد ، وبدأ في دعوتهِ الهدامة التي يقوم أساسها على المساواة بين الأديان ، ووحدة الوجود ، وإنكار الجنة والنار ، ويوم القيامة والملائكة والشياطين ، وقصر الشهادة على نصفها الأول أي "أشهد أن لا إله إلا الله " ، وحذف " وأن محمداً رسول الله "[1]

ويبدو أن حركة الشيخ قد لقيت تأييداً كبيراً في المجتمع العثماني ، نظراً لوجود عدد كبير من النصارى واليهود الذين تلقفوها أملاً في تقويض الدولة العثمانية من أساسها ، وما الآراء التي نشرها إلا آراء اليهود المعروفة ، فقد شكل خطراً كبيراً على الدولة العثمانية لدرجة أن القوى الأوروبية استغلت هذه الثورة ، ودعمتها مادياً ، مثل دعم أمير الأفلاق له ؛ فكثر أتباعهُ ، وأخذوا في نشر مذهبهِ بالقوة ، فتعرضوا للناس وأموالهم بالأذى بسبب وبغير

---

[2] فاضل مهدي بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ط1 ، دار المدار الإسلامي ، 2003م ، ص 427،428 .

[1] علي حسون : مرجع سابق ، ص 22 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص53 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص69،70 .

سبب ، وقتلوا من الأهالي الكثير ، وقد تنبه السلطان محمد الأول له ، وقبض عليه ، وأعُدم بتهمة الخيانة عام 823هـ/1420م ، وانتهت الدعوة بمقتلهِ رغم انتشارها السريع . [2]

لقد اندسّ بين أتباعهِ الكثير من النصارى واليهود الذين بدأوا في إذكاء نار الفتنة وتأجيجها حتى تقضي على الدولة العثمانية ، وهذه حادثة توضح مدى حقدهم على العثمانيين ، إذ إنهم في عهد محمد الأول ترجموا هذا الحقد بالثورة على الدولة العثمانية ، أما في العهود اللاحقة فتكون الترجمة أقسى وأكثر استمرارية ، وهي تشويه صورة الحكم العثماني .

فقد كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي فتحت أبوابها لليهود إذ آواهم السلطان بايزيد الثاني عام 898هـ/ 1492م ، وذلك بعد أن أغلقت كل المدن الأوروبية أبوابها في وجوههم . وقد سكنوا إستانبول وسالونيك اللتين كانتا تضمان في الأصل طائفة يهودية ، وزاولوا مهنة التجارة ، وقد أتقنوا عدة لغات منها الإسبانية والعربية والعبرية ونادراً التركية . [1]

وعندما زاد تعرض اليهود للاضطهاد والحرق والظلم والقتل في روسيا وتشردوا بسبب أعمال محاكم التفتيش [2] استطاعوا الهجرة بأعداد صغيرة إلى البلاد العثمانية ، وأخذوا مواضع وأماكن مهمة . وانتشروا في كافة الأقطار العثمانية ، وتجنسوا بالجنسيات الأجنبية للاستفادة من الامتيازات المعطاة لهم ، وتحينوا الفرص لمساعدة الجمعيات السرية في البلاد ، كما أنهم أُعفوا من الخدمة العسكرية ، وحصلوا على امتيازات كثيرة ، كل هذا وأكبر عدو لهم بقي العثمانيون ؛ لأن فلسطين تحت حكمهم . [3]

ورغم حصولهم على العلم والمال في بلدان العالم الإسلامي، إلا أنهم لم يحصلوا على الراحة والاستقرار إلا في ظل الدولة العثمانية . [4]

فقد جذبتهم الحياة الفكرية والفرص الاقتصادية في العاصمة العثمانية؛ فهاجروا إليها ، واستقروا بها ، وكونوا مجتمعات خاصة بهم في ظل التسامح العثماني.

---

[2] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص150 . خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص277 . يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج1 ، ص118 ، محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 70 ، 71 .

[1] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص 353 . أحمد نوري النعيمي ، اليهود والدولة العثمانية ، ط 2 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1418هـ / 1998م ، ص 15 – 21 .

[2] لمزيد من التفاصيل حول أعمال العنف ضد اليهود الرجوع إلى : أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص15–21 .

[3] مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص80 . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 21–30 .

[4] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية ، ج1 ، ص33 ، 34 .

قدمت لهم الدولة العثمانية الأرض الآمنة التي طالما حلموا بها ، ورحب العثمانيون باليهود ، وقدموا لهم المعاملة الحسنة ، وحموهم من أي ضغوط ومنحوهم استقلالاً ذاتياً ، وتسامحوا معهم في ممارسة شعائرهم الدينية ، كما عملوا في كافة المرافق الصناعية والتجارية ، وبذلك تعتبر الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي لم يحدث فيها اضطهاد لليهود[5] حتى إن السلطان سليمان القانوني عندما فتح حصن شوكزيم في بلاد المجر وجد أن اليهود يعانون فيه من البؤس والفاقة الكثير ، فقدم لهم المساعدات ، وأرسل جماعات منهم إلى المدن الرئيسية في الدولة العثمانية كأدرنةّ وأزمير وإستانبول . [6]

ومن عطف السلاطين العثمانيين على رعاياهم خاصة اليهود أنهم كانوا يقدمون الحماية والأمن لليهود حتى ولو كانوا خارج حدود الدولة العثمانية ، وفي هذا الصدد أشار التاريخ الإسلامي العثماني للعديد من البراهين التي تؤكد المعنى السابق فثبت أنه لم تتخذ أيَّ إجراءات رسمية تستحق الذكر تناهض اليهود ، أو تميز بينهم وبين باقي السكان ، وحدث أن أضطهد اليهود الذين يتاجرون في ميناء أنكون [1] ، وكانوا يخفون أصلهم الديني ، وذات مرة أوقفهم بابا الميناء وصادر أموالهم ، وتوعدهم بالفتك بهم وقتلهم إن لم يعتنقوا المسيحية ، وتفاقم أمر هؤلاء إلى أن تدخل السلطان العثماني سليمان القانوني وتمكن من التدخل لدى البابا ، وانتزاع عفواً عاماً عن أولئك اليهود . [2]

وسرعان ما وصلت هذه الأنباء لبقية اليهود بأن الدولة العثمانية ترحب باليهود ، وهذا نفس ما أشار إليه (جلانتي Gallante) في خطاب أرسله حاخامان اليهود في ألمانيا إلى اليهود في العالم ، يحثهم فيه على الهجرة إلى أراضي الدولة العثمانية ، مشيداً بجمال الدولة العثمانية ومزاياها الخاصة سواء السياسية أم الاجتماعية التي تتمتع بها الأقليات غير المسلمة. وفعلاً توافد اليهود من أوروبا الشرقية والقرم وأجزاء من آسيا حتى قبل دخولها تحت الحكم العثماني إلى أراضي الدولة العثمانية . [3]

---

[5] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص226 ، 227 . رفيق شاكر النتشه : السلطان عبدالحميد الثاني وفلسطين ، ط 1 ، د.م د.ت ، ص29 .

[6] أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 29-30 .

[1] أنكون " Ancone " مركزاً تجارياً على البحر المتوسط ويقع تحت قبضة الدول الكاثوليكية المسيحية .

[2] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص353 . رفيق شاكر النتشه : مرجع سابق ، ص 30 .

[3] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني العثماني ، ص 353 ، ص 353 .

ومما يجوهر المعلومة السابقة ما كتبه الباحث اليهودي (موسى كسبالي Moses Gaspali) في عام 930هـ/ 1523م عن تاريخ الأسرة العثمانية حيث ذكر أنه في عهد السلطان محمد الفاتح دعى اليهود إلى الإقامة في إستانبول ، وقدم لهم مزايا خاصة ، وأصدر مرسوماً يحمي مصالحهم ، وأعفاهم من الضرائب، ونالوا مكانة عالية . [4] كما أوردت بعض المصادر التاريخية رسالة ليهودي يدعى (إسحاق السرفاني Issac Zarfati) سكن مدينة أدرنة في النصف الأول من القرن 9 هـ / 15 م حيث دعى أبناء دينه إلى ترك البلاد المسيحية في أوروبا حيث يعاني اليهود ويلات الاضطهاد والقمع والتشريد الديني والسياسي إلى البلاد العثمانية التي سينعمون فيها بالحماية وبين أهلها المسلمين بالأمان والاطمئنان .

وفي موقف آخر أظهرته هذه المصادر التاريخية المختلفة بعد الحادثة السابقة بقرن من الزمان كتب يهودي آخر برتغالي كتاباً سماه " مواساة عن محن إسرائيل" ، ضمَّن جانباً منه تحريض أبناء ملته على الهجرة إلى الأراضي العثمانية التي وصفها بأن أراضيها مفتوحة، فيها الحرية على مصراعيها لليهود.[1]

وقد وصف المؤرخون أن العصر الذهبي لليهود بدأ من القرن 8 هـ / 14م ، 711هـ / 1311م حيث كان اليهود يعيشون متمتعين بالنفوذ والاحترام تحت السلطة الإسلامية في بلاد الأندلس ، وفي أراضي الدولة العثمانية . [2]

ولتوضيح الصورة أكثر يكفينا أن نقارن بين دخول الصليبيين للقدس ، وبين فتح العثمانيين للقسطنطينية ، وذلك فقط فيما يختص باليهود ، إذ قام الصليبيون بتجميع اليهود في الكنيست وأحرقوهم أحياء .[3] ، أما السلطان محمد الفاتح فعين لهم حاخام ، وأعطاهم حرية ممارسة الشعائر الدينية .

وبعد استقرار اليهود في الدولة العثمانية طبقت عليهم أحكام الشريعة الإسلامية حيث تمتعوا بقدرٍ كبير من الاستقلال الذاتي والرفاهية والحرية التامة
– كما سبقت الإشارة – في عهد السلطان محمد الفاتح في عام 857هـ/1453م عين أول

---

[4] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص228 .

[1] حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني العثماني ، ص353 .

[2] هدى درويش : العلاقات اليهودية التركية ، ج1 ، ص159 .

[3] رفيق شاكر النتشة : مرجع سابق ، ص30 ، 31 .

حاخام باشي [4] لطائفة اليهود ، وهو موسى قيزالي الذي تمتع بسلطات واسعة في ممارسة السلطة في الشؤون الدينية والحقوق المدنية بحيث إن مراسيم وقرارات الحاخام يصدق عليها من قبل الحكومة إلى درجة أن تحولت إلى قانون يخص اليهود . وفي نفس الوقت أعلن السماح لليهود بالبقاء في إستانبول ، وأعطاه أسبقية بروتوكولية على البطريك . وإذا كان موسى قيزالي احتاج إلى براءة السلطان لممارسة مهامه كأول حاخام باشي ، فإن خلفاءه لم يكونوا بحاجة إلى ذلك، إذ كان يقع الاختيار عليهم بمعرفة أبناء الطائفة أنفسهم ، فقد تعاملت الدولة العثمانية مع اليهود أفضل معاملة في القرن 10هـ / 16م حتى إنهم في عهد السلطان سليمان القانوني منحوا حق تعيين كخيا " وكيلاً " لهم ؛ ليمثلهم أمام الحكومة المركزية [5].

كما شارك اليهود في الحياة السياسية في إستانبول إذ كانوا يشاركون في بعض الأحيان في البعثات الدبلوماسية المرسلة إلى الأقطار الأوروبية المسيحية.[1]

وفي هذا دلالة واضحة على مدى تمتع اليهود بالتسامح الديني والحرية السياسية . [2] والرفاهية ، فمارسوا جميع حقوقهم بمنتهى الحرية حتى في فرض الضرائب والنواحي التشريعية من زواج وطلاق ونفقة وحقوق مدنية ، أما ممارسة الطقوس الدينية فلم يحدث أن منعهم أحد عنها .

هذا عوضاً عن الوضع الاقتصادي الذي حاز عليه اليهود فأتيحت لهم الفرصة بالسيطرة على المفاصل الاقتصادية في الدولة العثمانية ، فقد شكلوا قوة اقتصادية عظمى لا يستهان بها في ظل الرخاء العثماني ، فما أن وطئت أقدامهم الدولة العثمانية حتى بدأوا في العمل على تطوير علاقاتهم التجارية الخارجية ، وإثارة الفتن والسيطرة على أسواق المال والذهب. وسمح لهم السلاطين بنقل تجارتهم إلى الأراضي العثمانية ، إلى جانب ذلك معرفة اليهود للغات الغربية وميلهم للتجارة أتاحت لهم الفرصة لشغل وظائف مهمة في الدولة العثمانية . [3]

---

[4] باشي : بمعنى رئيس الحاخامات . شمس الدين سامي ، مرجع سابق ، ص265 .

[5] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 226 . أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص502 . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص36-37 .

[1] أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص37 .

[2] لمزيد من المعلومات عن أوضاع اليهود بعد خروجهم من الأندلس ، الرجوع : هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1، ص157-161 .

[3] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1 ، ص35 .

صحيح أنهم جُرّدوا من ثرواتهم وممتلكاتهم على أيدي حركة الاسترداد المسيحي ومحاكم التفتيش ، لكنهم أتوا بقدراتهم ودرايتهم بأوروبا وطرقها ، تلك الدراية شكلت دعمهم الثقافي ومهاراتهم الاقتصادية.

ويتضح من خلال الوثائق التركية أن من أهم الأعمال والمناصب التي شغلوها في الدولة العثمانية العمل في جمع الضرائب خلال عهدي السلطانين محمد الفاتح ، وبايزيد الثاني ، كما عمل بعض اليهود في تجارة الحرير والتوابل وسلع أخرى في بروسة وإستانبول وغاليبولي وقد نبغ منهم الحرفيون والصناع أيضاً.[4]

وقد شكلوا في هذه المدن الصغيرة مجاميع يهودية صغيرة ، وقاموا بنشر اللغة الإسبانية والعبرية ، وتمركزوا في سلانيك التي تعتبر مركز تموين اقتصادي للبلقان العثماني، حيث تحكموا بالتجارة فيها. [1]

ويعدُّ (أبراهام كاموندو) من أبرز قادة اليهود في إستانبول في منتصف ق 13هــ/ 19م ، فهو من أثرياء اليهود ، قدمت عائلته كثيرًا من المساعدات المالية لعدد من المستوطنين اليهود في فلسطين ، أسس عددًا من المدارس في إستانبول ، وجمع مساعدات مالية لإنشاء مدرسة " مكفية إسرائيل " في فلسطين ، أُطلق عليه لقب " روتشيلد الشرق " لثرائهِ ومساعداتهِ الكبيرة لليهود . [2]

ولا شك أن الدولة العثمانية قد استفادت من الأنشطة والخبرات الاقتصادية التي جلبها اليهود معهم . ومن أهم المفاصل الاقتصادية التي سيطر عليها اليهود فرض أنفسهم على دور لسك العملة ، فتولوا سك العملة في الدولة العثمانية ردحاً من الزمان ، وبالتالي كانت العملة بصفة دائمة تسك مغشوشة أو ناقصة القيمة ، خاصة في فترة ضعف الدولة العثمانية ، وكثيراً ما أدى هذا الأمر إلى تمرد الإنكشارية على سبيل المثال . [3]

---

[4] محمود محمد الحريري : مرجع سابق ، ص228-229 .

ولعل سيرة اللاجئ اليهودي " يوسف ناسي " تعطي صورة واضحة عما يمكن أن يصل إليه الأجنبي ذو الموهبة والطموح من مكانة عالية. مرجع سابق ، ص230 .

[1] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1 ، ص34 ، 35 .

[2] هدى درويش : مرجع سابق ، ج2 ، ص 43 .

[3] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص118 . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 31 .

ولا شك أن المكانة التي وصلت إليها طائفة اليهود وليدة حصولهم على العديد من الامتيازات التي جاءت من خلال المعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية مع الدول المختلفة ، والخاصة بحقوق الأقليات الذين يقيمون بالدولة ، تلك الحقوق وتكفل لهم الحماية وحرية التنقل والتجارة والملاحة التي جعلتهم أكثر تميزاً من العثمانيين أنفسهم . وقد استفاد اليهود من هذه الامتيازات خاصة التجار ، فكان كل تاجر يستفيد من المعاهدة التي عقدتها دولته مع الدولة العثمانية [4]

ويعدّ أبرز ما أدخلوه اليهود الأسبان معهم إلى إستانبول المطبعة ، ففي عام 854هـ/ 1450م تمت تجربة حروف الطباعة لأول مرة ، وفي عام 857 هـ / 1453م دخلت المطبعة إستانبول في الوقت الذي لم تنتشر فيه المطابع بعد في كثير من بلدان أوروبا ، وبعدها بأربعة سنوات دخلت المطبعة أدرنة على أيدي اليهود ، وبدأت هذه المطابع بطبع الكتب المختلفة ، ونشرها باللغات العبرية واللاتينية واليونانية . وأصبحت إستانبول مركزاً للطباعة العبرية بين القرنين 11هـ - 12هـ / 17م - 18م ، وازداد عدد هذه المطابع مع مرور الزمن فأصبح في إستانبول ثلاثة ، وواحدة في سالونيك، وفي عهد السلطان سليمان القانوني طبع اليهود الترجمة الفارسية للتوراة وذلك ليهود إيران . ولكن مع الأسف لم تستفد الحكومة العثمانية من هذه المطابع رغم توفرها وانتشارها وعدم منعها ، ولم تدخل المطبعة الحكومة العثمانية إلا عام 1139هـ/ 1726م . [1]

ونتيجة طبيعية لسيطرة اليهود على المطابع فقد استطاعوا بمنتهى السهولة توجيه الكتابة عن الدولة العثمانية وفق هواهم ، ونشرها بالعبرية. وخطأ الدولة العثمانية هنا أنها لم تحكم السيطرة على تلك المطابع ، أو تفرض سيطرتها ورقابتها عليها وعلى المطبوعات التي تخرجها ، إضافة إلى أن الدولة العثمانية نفسها لم تستخدم المطابع إلا متأخراً. من جهة أخرى فقد فرض اليهود أنفسهم على البلاط بالدرجة الأولى بوصفهم أطباء مهرة أتقنوا اللغات الأوروبية مع الطب .

ويعتبر يوسف ناسي أحد الشخصيات اليهودية التي قامت بدور مهم في الدولة العثمانية، اتصل بالسلطان سليم الأول بعد هجرته من البرتغال إلى إستانبول سنة 924هـ/ 1518م حاملاً معه ثروة ضخمة وعلم وافر في الأعمال المصرفية والمالية ، امتلك شركات

---

[4] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1 ، ص177-181 .

[1] فاضل بيات : مرجع سابق ، ص428 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1 ، ص34

تجارية بحرية ، وشكَّل عنصراً في الحياة السياسية الأوروبية ، بفضل علاقاتهِ القوية بأوروبا قدّم معلومات استخباراتية للدولة العثمانية عن هذه البلاد ، وشارك في اجتماعات الديوان على اعتبار أنه مستشار في الدولة عوضاً عن تقديمه تقارير مالية واقتصادية عن الدول الأوروبية، وعن تشكيلاتها العسكرية . نال نفوذاً قويًا في عهد سليم الأول ، وأعلى المناصب في عهد سليمان القانوني .[2] ومنذ أواخر القرن 9 هـ / 15 م حتى نهاية 11هـ / 17 م أتى الكثير من الأطباء اليهود الفارين من إسبانيا أمام ضغط الكاثوليك ، وخدموا في البلاط العثماني ، ولا شك أن النجاح الذي حققه من سبقهم مهَّد لهم الطريق ليشغلوا مناصب متميزة ، وأشهرهم في هذه الـفترة (الطبيب أماتوس لوسيتانوس) الذي يعدُّ من أعظم أطباء أوروبا في القرن 11هـ/ 17م ، وقدم خدمات طبية رائعة في سالونيك وتوفي بها.[3]

وأول طبيب معروف يهودي في التاريخ العثماني الطبيب (مايستر جاكوب) الذي أخفى يهوديتهِ تحت اسم يعقوب باشا ، وأصبح طبيباً للسلطان محمد الفاتح. [1] لكن الطبيب حكيم يعقوب استرعى الانتباه نظراً للمكانة الفريدة التي احتلها في بلاط السلطان سليمان القانوني وكسب صداقته وثقته ، إضافة إلى إتقانهِ بعض اللغات ، مما وضعه في مكانة متميزة، وأصبح صاحب مشورة ، كما نجد الطبيب (ناثان سلمون أشكنازي) الألماني الأصل الذي استطاع أن ينال حظوة عالية عند الصدر الأعظم محمد صوقللي باشا .

كما استفاد اليهود من حرية العبادة ، وممارسة شعائرهم الدينية ، وبناء الكنائس ، واحترام مساكن الأجانب وغير ذلك .

وتعد حرية التعليم لطائفة اليهود من أبرز مظاهر الحرية التي تمتعوا بها ، حيث أسسوا العديد من المدارس التي تولت تعليم أبنائهم . وعلى سبيل المثال لا الحصر :

١) مدرسة الإليانس الإسرائيلية الثانوية والابتدائية .

٢) مدرسة أزيل .

٣) مدرسة التعاون اليهودي . [2]

---

[2] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص 42 – 43 .

[3] محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص231 ، أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص44 .

[1] أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 44 .

[2] فاضل مهدي بيات : مرجع سابق ، ص435 ، 436 . نقلاً عن سالنامة بغداد الصادرة 1329هـ / 1911م .

ويمكن وضع عدة ملحوظات لوضع اليهود تحت ظل الدولة العثمانية:

١) لم يندمج اليهود في المجتمع العثماني ، مما أدى ذلك إلى تكتلهم وتمركزهم في أحياء معينة ، أصبحت مع مرور الوقت مغلقة تماماً على اليهود .

٢) عند هجرة اليهود من أوروبا إلى الدولة العثمانية اتبع اليهود الأساليب نفسها التي استخدموها في القارة الأوروبية ، حيث قاموا بالتآمر على بعض السلاطين وقتلهم ، كما فعلوا في روسيا عندما قتلوا الكسندر قيصر روسيا مع فارق أن العثمانيين لم يتبعوا سياسة العنف ضد اليهود .

٣) ومع هجرة اليهود إلى الدولة العثمانية نقلوا تجارب الشعوب الأوروبية إلى الدولة العثمانية ، ونتيجة هذه التجارب نشوء بعض الأفكار السياسية والفلسفية التي لا تمت بصلة إلى تقاليد هذه الدولة العثمانية.

٤) إن جزءاً من المسئولية يقع على عاتق العثمانيين في استقرار هؤلاء في الدولة العثمانية ؛ فالسلاطين لم يعرفوا المخاطر اليهودية في المستقبل ، وذلك لأنهم انطلقوا من المفاهيم الإسلامية في مساعدة هؤلاء ، وإنقاذهم من مواقف الشعوب الأوروبية لهم ، وهذا يعني من جانب آخر أن السلاطين لم يكونوا على معرفة حقيقية بواقع الشخصية اليهودية المليئة بالنقص والعقد الاجتماعية .

٥) إن العلاقات اليهودية الأوروبية التي اتصفت بالسلبية انعكست على العرب في الوقت الحاضر ؛ لأن الوطن العربي كان جزءاً من ممتلكات الدولة العثمانية .

صحيح أن الدولة العثمانية شهدت بعض الحوادث التي لم يسلم منها المسلمون أنفسهم وحتى السلاطين ، لكن هذا لا ينفي المكانة المرموقة التي وصل إليها اليهود . [1]

إن هذه الهجرات المتتالية من اليهود كان مخططاً لها ، فأصبح العثمانيون العدو التقليدي لليهود منذ سيطرتهم على فلسطين ، ويعتبرون خلفاء المسلمين ورمز وحدتهم وقوتهم، وقد رأى اليهود في العثمانيين خطراً محدقًا بهم ، لابدَّ من القضاء عليه . [2]

---

[1] أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص45، 46 .

[2] مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص78 .

على مر العصور تطلع اليهود إلى فلسطين إقليمًا يجمع شتاتهم ، وقد نجحت الحركة الصهيونية في استقطاب الدول الكبرى ، ونالت مساعدتها ، وكان على الدولة العثمانية أن تخوض دفاعًا مريرًا عن فلسطين ضد القوى الصهيونية ، وقد نجح الصهاينة في اختراق كيان الدولة العثمانية في توقيت ممتاز يمثل فترة الضعف والاضمحلال التي كانت تمر بها الدولة العثمانية. رغم ذلك عملت في حدود إمكانياتها على الحد من الهجرة إلى فلسطين مقاومة بذلك الحركة الصهيونية. [3]

والحقيقة أن الحفاوة التي قوبل بها اليهود في الدولة العثمانية لم تثمر إلا عن زيادة الحقد اليهودي على الدولة العثمانية متناسين المكانة والتسامح والاستقرار الذي حظوا به .

على أنه لم تدرك الدولة العثمانية نوايا اليهود إلا متأخرًا بعد طرد اليهود من روسيا بخمس سنوات ، فبدأت في التحرك للحد من هجرات اليهود للقدس، وأول من تحرك كان السلطان سليم الأول في أعقاب ضمّ مصر عام 923هـ/ 1517م ، وضم فلسطين للدولة العثمانية ، ورفض السماح لليهود بالهجرة إلى سيناء فسدَّ الطريق أمامهم بإصدار فرمان يؤكد ذلك . [1]

لكن البلاد العثمانية فُتحت أمام اليهود نتيجة لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية مع الأقليات ، والمعاملة الحسنة التي تلقاها اليهود من سياسة التسامح الديني حتى أنهم تولوا مناصب مرموقة في الدولة العثمانية مثل (جوزيف ناسي) – السابق الذكر – الذي كان مقرباً من السلطان ، وكانت له بعض الأعمال المصرفية والتجارية والبحرية ، وبفضل شركاته وعلاقاته بالأوروبيين كان يعطي للحكومة العثمانية معلومات مهمة من تقارير مالية وتشكيلات عسكرية وغير ذلك تختص بدول أوروبا . [2]

ثم جاء عهد السلطان سليمان القانوني ليعيد المحاولة مرة أخرى ويحد من هجرة اليهود ، حيث أصدر فرماناً لاحقاً أكد فيه ما جاء في فرمان السلطان سليم الأول لأنه أدرك

---

[3] إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص248 ، 249 .

[1] أميره علي مداح : مرجع سابق ، ص98 . ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص25 .

[2] هدى درويش : العلاقات العربية التركية ، ج1 ، ص211 ، 212 .

مدى تمسك اليهود بسيناء على أساس قربها من فلسطين . [3] وطوال فترة قوة الدولة العثمانية لم يجرؤ اليهود على مد نفوذهم السياسي وبقوا منكمشين في أماكنهم . [4]

وعلى الرغم من هذا الانكماش إلا أنهم استطاعوا الحصول على إذن مؤقت من السلطان سليمان القانوني – ويقال إنه بمساعدة زوجته روكسلانه – باللجوء إلى الأراضي العثمانية ، وزادت الهجرة اليهودية بذلك.[5]

إلا أنَّ الباحثة ترى أن زوجته روكسلانه لم تكن يهودية بل مسلمة ، إضافة إلى أن هذا القرار جاء في أعقاب موجة التشريد والظلم والقمع التي تعرض لها اليهود في روسيا وبالتالي يأتي هذا الإذن في صورة حق لجوء سياسي ، وليس محاولة لإدخال اليهود لأغراض غير سوية .

وبنهاية عهد السلطان سليمان القانوني تنفس اليهود الصعداء وأدركوا أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلمهم في الهجرة ، فبدأت الهجرات بشكل متقطع ، وظهر ذلك بوضوح في عهد السلطان سليم الثاني حيث بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة العثمانية ، فحاول اليهود انتهاز هذه الفرصة لاستطيان سيناء ، فبدأوا بالنزوح إليها في هجرات متقطعة وعلى فترات متقاربة ، وركزوا إقامتهم في الطور؛ [1] لأهميتها التجارية بالنسبة لهم ، وقد تزعم اليهود رجل يدعى إبراهام اليهودي ، الذي استوطن الطور مع أولاده ، وسائر أفراد أسرته. وكان من الممكن أن تمر هذه الهجرة بهدوء لكن اليهود تعرضوا بالأذى لرهبان دير سانت كاترين ؛ فتضايق الرهبان من أعمالهم ، واستنجدوا بالسلطات العثمانية في مصر، وقد اهتم الباشوات العثمانيون بهذا الأمر ، ووصل الأمر إلى إستانبول ، فصدرت الفرمانات بضرورة إخراجهم من سيناء ، ومنعهم بتاتاً من العودة إليها مرة أخرى، وهكذا تصدت الدولة العثمانية لأطماع اليهود في سيناء ، وأُخرج إبراهام وأسرته نهائياً من سيناء . [2]

---

[3] تضم فلسطين في نظرهم المقدسات اليهودية ، مثل الوادي المقدس طوى ، الذي كلم الله سبحانه فيه موسى – عليه السلام – ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص25 . أميره مداح : مرجع سابق ، ص98 .

[4] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص98 . لمزيد من المعلومات عن وضع اليهود في عهد السلطان سليمان القانوني . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص28–34 .

[5] مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص79 .

[1] الطور تقع على الساحل الشرقي لخليج السويس ، وبها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية القادمة من ينبع ، جدة والعقبة ، كما إنها ترتبط برياً بخطوط قوافل مع القاهرة ، وبذلك كان يسهل عمل اليهود للاتصال بالعالم الخارجي . ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص26 .

[2] صدر في هذا الصدد ثلاث فرمانات ديوانية من باشاوات مصر ، الأول 989هـ / 1581م برقم 149 ، والثاني 991هـ/1583م برقم 151 ، أصدرهم حسن باشا الخادم ، الفرمان الثالث أصدره سنان باشا عام 993هـ / 1585م ، ويحمل

ورغم ذلك فإن أغلب المؤرخين يعتبرون أن العصر الذهبي لليهود كان خلال عهد السلطانين سليمان القانوني ، وسليم الثاني حيث تألق اليهود في الدولة العثمانية إلى حد كبير على اعتبار أنهم عاشوا في حرية تامة ، وحصلوا على العديد من الامتيازات. رغم محاولات السلطان سليمان القانوني المستمرة للحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

واستمر الأمر في شد وجذب بين اليهود والعثمانيين ، ففي عام 1301هـ/1883م أصدر مجلس الوزراء العثماني قراراً بمنع استيطان اليهود الروس في فلسطين ، إلا إنه أمام ضغط الدول الأوروبية تراجع الباب العالي عن قراره ، وأرسل تعليمات جديدة عام 1302هـ/ 1884م تفيد بالسماح لليهود بدخول فلسطين من أجل زيارة الأماكن المقدسة بشرط أن لا تزيد فترة إقامتهم عن ثلاثين يوماً ، لكن عادت الدول الأوروبية وزادت ضغطها من أجل زيادة فترة الإقامة أكثر في فلسطين من ثلاثين يوماً إلى ثلاثة شهور ، ثم وافقت الحكومة العثمانية على هذا الطلب في عام 1305هـ/ 1887م . [3]

لكن ردة فعل اليهود جاءت أشد ما يكون بعد موقف السلطان عبدالحميد الثاني ، الذي رفض بمنتهى الإباء والكرامة عرض اليهود المغري ؛ فكانت النتيجة بث الدعايات الكاذبة والافتراءات حولهِ ، وتصوير تاريخه بمنتهى السوء .

والواقع أن جمعية الاتحاد والترقي التي أسقطت السلطان عبد الحميد الثاني هي التي أقامت الاستبداد بعد ذلك ، وشهدت البلاد من المآسي ما لم تشهده خلال ثلاث وثلاثين سنة من حكم السلطان عبد الحميد الثاني حيث قتل العديد من المخلصين للبلاد ، ووقعت البلاد تحت النفوذ الماسوني اليهودي . [1]

وقد قدم (تيودور هرتزل) عرضًا مغريًا للسلطان عبدالحميد الثاني لكن رفض السطان للمال الوفير جعل (هرتزل) يستقر تماماً على ضرورة تغيير الحالة السياسية للدولة

رقم 160 . انظر : ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص26 ، 27 . أميره علي مداح : مرجع سابق ، ص 99 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص470 ، 471 .

[3] هدى درويش : العلاقات العربية التركية ، ج1 ، ص249 .

[1] سعيد عبدالكريم زيد : واقع العالم الإسلامي بين تغريب التعليم وكشف تخريب المتآمرين ، ط 1 ، مصر : مكتبة وهبه، 1418هـ / 1998م ، ص 299 .

العثمانية . [2] ورغم من المغريات والوساطات العديدة التي قدمها للسلطان مستغلاً فترة الضعف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية.إلا أن السلطان رفض كل ذلك . [3]

ودفع ذلك السلطان عبدالحميد الثاني إلى إصدار قانون يمنع الهجرة وإقامة مستعمرات لليهود في فلسطين ، وقد دفع ثمن ذلك غالياً وهو العزل والنفي بل وتشويه سيرة حياته .[4]

ثم أعقب ذلك إصدار الحكومة العثمانية تعليمات للمتصرفين في القدس ويافا بالسماح لهم بالدخول إلى فلسطين بصفة حجاج أو سياح . علاوة على ما سبق فإنها أكدت أن اليهودي الذي يصل يافا عليه أن يموّل الخزينة العثمانية بخمسين ليرة تركية ، واعتبرت ذلك بمثابة تعهّد من اليهودي على تركهِ فلسطين في مدة لا تتجاوز الواحد والثلاثين يوماً .[5]

ويكتب على جواز التنقل اليهودي إذن للدخول إلى الأرض المقدسة ، وعبارة تشير إلى أن صاحب هذا الجواز ذاهب إلى القدس للزيارة والعبادة ، ولا ينوي الإقامة في فلسطين ، حتى أن اليهود المقيمين في أراضي الدولة العثمانية كمصر وسوريا لم يكن لهم الحق في الهجرة إلى فلسطين ، بل الزيارة فقط ولمدة محدودة وبإذن خاص ، وقد أيدت الحكومة العثمانية هذه القرارات بقرارات أخرى مماثلة ومؤكدة لها سنة 1318هـ/1900م مما أدى إلى احتجاج إيطاليا التي أكدت أنها قرارات تعتبر قاسية ، ولا تميز بين رعاياها المسيحيين واليهود ، كما قدم سفير الولايات المتحدة الأمريكية مذكرة احتجاج في عام 1319هـ 1901م.

فأعلن الباب العالي أنه ليس من أهدافهِ أن يمنع اليهود من الصلاة والعمل في القدس ، ولكن الحقيقة أن المتصرف قام بمنعهم من الاستيطان فيها فقط ، وأكدت على غلق فلسطين أمام رجال الأعمال اليهود ، والسماح للأوروبيين بممارسة التجارة البحرية . [1] إضافة إلى

---

[2] يتضح سوء نيته في الخطاب الذي وجههِ إلى لجنة الأعمال الصهيونية حيث أقر أنه لابد من زج الدولة العثمانية في حروب أو مشاكل دولية ، أو الاثنين معاً . ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص42 ، 43 .

[3] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص99 .

[4] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص99 . لمزيد من المعلومات حول موقف السلطان عبدالحميد الثاني من تيودور هرتزل ، والحركة الصهيونية الرجوع إلى مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص82-87 . ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق، ص42- 45 .

[5] وفي هذا الشأن بعثت الحكومة العثمانية مذكرة رسمية إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية بقرار عام 1301هـ / 1883م ينص بمنع اليهود من استيطان القدس . أحمد نوري النعمي : مرجع سابق ، ص64 .

[1] أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص64 ، 65 .

أن الحكومة العثمانية حاربت انتقال الأراضي لليهود ، حيث صدرت العديد من فتاوي من شيوخ الإسلام تحرم بيع الأراضي لليهود ، وتكررت تلك الفتاوى عام 1310هـ/ 1892م مما كان سبباً في تدخل بريطانيا التي استطاعت التقليل من فاعلية هذه القرارات . [2]

ونظراً لوجود هذه الأعداد الكثيرة من اليهود واستمرار الهجرة غير الشرعية والتحايل للدخول إلى الأراضي العثمانية كان لابد لهم من أن يضعوا الخطط للقضاء على الخلافة العثمانية وإسقاطها بل وتشويه التاريخ العثماني بأكملهِ حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك ، فقد حددوا الطرق التي رغبوا بها ، وسلكوا عدة دروب للوصول إلى هذه النتيجة.

من الصعب تماماً تحديد الدور الذي قام به اليهود في إطار الكتابات الاستشراقية ؛ وذلك لأن المراجع التي تتحدث عن الاستشراق وتطوره أغفلت الحديث عن هذه الناحية ، ويحتمل أن يعود ذلك إلى أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً في إطار الحركة الاستشراقية، فقد وجد اليهود في الاستشراق خدمة لأهدافهم الحاقدة ؛ فاندرجوا تحته متخفين أحيانًا ، وسافرين أحياناً أخرى حيث دخلوا الميدان بوصفهم أوروبيين ليسوا يهوداً ، أمثال (جولدزيهر Goldizher) وهو يهودي مجري، استطاع أن يصبح زعيم الإسلاميات في أوروبا بلا منازع ، وصل إلى هذه المكانة عن طريق التشويه ، وبث السموم في التاريخ الإسلامي . إضافة إلى (مونتجمري وات Montgomery Watt) و (برنارد لويس Bernard Lewis)، الذين اتخذوا مكانة رفيعة في الاستشراق دون أن يعرف أنهم يهود ؛ ليكون تأثيرهم أشد .

وهكذا كانت بداية الاستشراق على موائد الاستشراق الأوروبي ، وأسهم في خلق الجو العدائي ضد كل ما هو إسلامي وبالتالي العثمانيين ، وبذلك جاء الاستشراق اليهودي متميزاً ، وذا نكهة خاصة عدائية حيث استخدموا وقائع التاريخ العثماني بعد تحريفها وتزييفها بل وتضخيمها كأداة لبناء مفاهيم تخدم مصالحهم الشخصية ، وتصويرها للمسلمين والعرب على أنها حقائق تاريخية ثابتة. ولهذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالي يقل تأثيرهم ، فقد عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين وبذلك كسبوا التالي:

أولاً : فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها .

---

[2] إسماعيل أحمد ياغي : جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية مقال منشور مجلة الدارة ، الرياض ، السنة 14 ، العدد الثاني ، محرم ربيع الأول 1409هـ / أغسطس – أكتوبر 1988م ، ص286-314 .

ثانياً : تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام ، وهي أهداف غالبية المستشرقين .
استطاع اليهود الدخول إلى حلبة الاستشراق خاصة في أعقاب تحرير يهود أوروبا الوسطى والجنوبية ، ثم دخولهم الجامعات ، فقد وجدت فيهم حركة الاستشراق ما لم تجده في سائر المستشرقين ألا وهو أنهم أكثر فهماً للتراث الإسلامي والعربي من غيرهم من الأوروبيين ؛ وذلك لتقارب اللغة العربية مع اللغة العبرية ، ويكفينا أن آراءهم هي التي سيطرت على جميع آراء المستشرقين، ولها التأثير الأول في كتاباتهم . [1]
فقد وجد اليهود في الاستشراق خدمة لأهدافهم الحاقدة ، وأقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية ، وقاموا بدور كبير لا يخفى مطلقاً.
أما الأسباب الدينية فقد تلخصت في محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمته بإثبات فضل اليهود عليه ، وذلك من خلال ادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول . [2]

ولا شك في أن اليهودية تختلف عن المسيحية كون الأخيرة تسعى إلى التنصير دائماً ، إلا أن اليهودية تعتمد أساساً على فكرة العنصرية ، وعدم السعي لتهويد الآخرين ، بل تضع القيود أمام من يرغب في الدخول إليها ؛ وذلك لأنه سيكون من غير نسل بني إسرائيل ، ولا يدخل في إطار شعب الله المختار .

ولكن اليهودية تملك من الأساليب والوسائل ما تقاوم به الديانات الأخرى ، التي تشكل خطراً عليها ، أو تقف عقبة أمام تحقيق أطماعها ، لذلك عادت اليهودية المسيحية ؛ لأنها تهدم فكرة العنصرية ، والإسلام لأنه فضح فسادهم وانحلالهم وتحريفهم للشرائع والكتب . [1]

أما عن الأسباب السياسية التي دفعت اليهود إلى ركوب وخوض حركة الاستشراق فهي عاداتهم الدائمة في استثمار الحركات الاستعمارية لتحقيق مصالح اقتصادية من ناحية ، ومساعدة الحركة الصهيونية للظهور بتسخير البحوث والدراسات الاستشراقية لخدمتهم من ناحية أخرى . [2]

---

[1] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 83 ، 85 . صلاح الصيفي . المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم الحضارة الإسلامية ، برلين : على نتفه ، 2009/5/25م . .http : // www. Said.net
الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19م . . http : www. Said . net
[2] محمد قطب : مرجع سابق ، ص49-50 . محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص52،53 .
[1] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 84 .
[2] مرجع سابق ، ص 85 .

وذلك لخدمة تحقيق هدفهم وهو إثبات أن لهم حقًا في فلسطين برسم هيكلة المنطقة العربية والإسلامية وفق هذا المنظور الاستشراقي اليهودي ، وعملوا على تأجيج عوامل الصراع بين الشرق والغرب مستخدمين آلاف المطبوعات الصادرة باللغتين الإنجليزية والفرنسية التي تصل بسهولة ويسر للباحثين الغربيين في سنوات دراساتهم الأولى، مما يجعل التحرر من هذه الأفكار صعباً جداً. ومن هنا يكون الاستشراق اليهودي مكملاً للاستشراق الغربي . [3]

ورغم ذلك فمن وجهة نظر أخرى نجد أن الاستشراق ارتبط باليهود منذ فترة مبكرة ؛ وذلك لأنهم يكرهون ويحقدون على الإسلام والمسلمين . وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين . وقد وجدوا في مجال الاستشراق باباً ينفثون فيه سمومهم ضد الإسلام والمسلمين ، فدخلوا هذا المجال متخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا في الصهيونية باباً آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب والمسلمين . [4]

ولعل ما يصقل المعلومة السابقة ظهور شخصية رجل يهودي اعتنق المسيحية في الظاهر ، وأخفى اليهودية سراً ، (يوحنا الإشبيلي) الذي ظهر في منتصف القرن 6هـ /12م، والذي ابتدع فكرة الاختفاء والارتداء أي إخفاء ديانته اليهودية وارتداء كل ما من شأنه توصيلهم لأهدافهم . [1]

وقد قام (يوحنا الإشبيلي) بترجمة مؤلفات ابن سينا الطبية ، ونسب طرق العلاج الطبية لنفسهِ ، وهذا دأب اليهود في الترجمة سرقة جهود غيرهم ونسبها لأنفسهم حيث قاموا مثلاً بترجمة الكثير من كتب الطب العربية ، ونسبوها لأنفسهم مثل أعمال أسرة ابن طبون الشهيرة في مجال ترجمة كتب الطب . [2] ومن خلال ذلك استطاع تشويه الحقائق كما أراد .

فقد مكنتهم هذه الخدعة التاريخية التي هي أصل ملازم للشخصية اليهودية عبر السنين من تنفيذ أكبر قدر من الدس والهدم والتحطيم للتاريخ الإسلامي ، إن هذه الخدعة أشهر ما استخدمه اليهود في صراعهم التاريخي ضد المسلمين ، لأنهم يدركون أن الإفصاح

---

[3] صلاح الصيفي . المستشرقون اليهود ومحاولات هدم الحضارة الإسلامية ، برلين : علي نتفه ،2009/5/25م ، http:// www.saaid.net. محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص86 .

[4] محمد قطب ، مرجع سابق ، ص50 .

[1] محمد حمدي زقزوق : مرجع سابق ، ص39 .

[2] أماني الغازي : مرجع سابق ، ص65 .

عن الهوية اليهودية سيعزلهم ، وسيثير الحفائظ ضدهم، وبالتالي يقل أثرهم الهدام ، وارتدوا لذلك عدة أثواب للوصول إلى أهدافهم الخبيثة.[3]

فإذا كانت الحروب تبقى آثارها لعشرات الأجيال اللاحقة فإن المناخ الفكري الملوث الذي أوجده اليهود سيستمر إلى عشرات الأجيال اللاحقة ما لم يتم تصحيحه. وأبرز من مثّل هذه الخدعة التاريخية هم يهود الدونمة.[4] الذين قَدموا للدولة العثمانية للقيام بالتخريب والهدم، وبقيت آثار أفكارهم الملوثة التي بثوها في عقول المثقفين في عالمنا الإسلامي إلى يومنا هذا. إذ حاولوا جهدهم إيجاد أي ثغرة ليدخلوا منها ، أو إرسال وكلاء لهم ، أو شراء ضعاف النفوس لنشر أفكارهم من خلالها ، ساعدهم على ذلك وصولهم إلى أعلى مناصب الدولة مما سهل عليهم مهمة التخريب ، والتمهيد للقضاء على الخلافة العثمانية الإسلامية بخلق الكثير من حالات الفوضى والهرج والمرج في تاريخنا الإسلامي .

قدم مادة يهود الدونمة [1] في دائرة المعارف الإسلامية المستشرق (إيزنبرغ J.Eisenber) وركزت فقط على أصل ونشوء هذه الفئة ، والمعتقدات التي تسير عليها ، وأماكن تركزهم ، واحتوت على نبذة من حياة مؤسس هذه الفئة .

---

[3] محمد أبو زهره : تاريخ المذاهب الإسلامية ، د. ط ، مصر ، 1419هــ ، ص86 .

[4] الدونمه كلمة تركية من المصدر التركي Donmek أي العودة ، أو دونمة Donme مصدر مخفف بنفس المعنى ، وتأتي أيضاً صفة ، تعني عودتي ، أما اصطلاحاً فهي تعني اليهود الذين اتخذوا أسماء إسلامية وتمسكوا بيهوديتهم ، لكنهم في الضرورة يؤدون بعض العبادات الإسلامية من دخول مساجد وصيام وحج ، ويهود الدونمة هم اليهود الذين هاجروا من الأندلس إلى أراضي الدولة العثمانية ، على إثر الاضطهاد ومحاكم التفتيش ، تركزوا في سالونيك وإستانبول ومؤسس هذه الطائفة هو شبتاي زفي ، والذي وضع وثيقة مهمة مكونة من 18 مادة تنص المادة 16 منها على أنه يجب على يهود الدونمة تطبيق عادات الأتراك المسلمين بدقة لصرف أنظارهم عنا ؛ ليستطيعوا القيام بعملهم وكان ليهود الدونمة دور في تأسيس المحافل الماسونية التي لها مؤامرات لتقويض الحكم ، وتحالفها مع القوة الخارجية لإثارة النعرات الطائفية، وارتكز عملهم السياسي في مجال الحركة الصهيونية والاستعمار ، إضافة إلى دورهم البارز في الاتحاد والترقي ،ولهم دور في نشر الجاسوسية ، واسقاط السلطان عبدالحميد الثاني . انظر. هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ص 169 – 170 . مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص88 . كما ذكر المستشرق إيزنبرغ J. Eisenberg في مادة دونمة في دائرة المعارف الإسلامية ، ج9 ، ص 330 ، أنهم فرقة من اليهود المسلمين في سالونيك . وإنه لتعبير لا ينطلي على الأطفال وليس على قارئ عادي ، وذلك لأنه لا يمكن الجمع بين ديانتين سماويتين حتى إنه لم يذكر ذلك في أي كتاب سماوي ، عوضاً على أنه أراد إلحاقهم بالمسلمين فقد دون معرفة اختيار لفظ يساعده للتعبير عن فكرتهِ ، إن ذلك لمضحك جداً ، على الرغم من أنه أعطى عنهم تعريفًا ممتازًا بعد ذلك إلا أنه لم يخــفِ حقــده على المسلمين بدعوى أنهم فرقة من اليهود المسلمين . لمعرفة المزيد عن يهود الدونمة الرجوع إلى : أحمد عبد الله الزغيبي : مرجع سابق ، ج2 ، ص 615 ، 616 .

[1] إيزنبرغ : مادة يهود الدونمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج9 ، ص330 .

ولم تشر المادة ولو بإشارة صغيرة عن دورهم في المسرح السياسي أثناء عهد الدولة العثمانية ، أو دورهم في إسقاط الخلافة العثمانية ، كما إن المادة لم توضّح دور اليهود الواضح تماماً في توجيه الكتابة عن التاريخ الإسلامي العثماني.

لقد كان لليهود دائماً التفوق في المجال الإعلامي معتمدين في ذلك على رجالهم الأثرياء ، والممولين الرئيسين لخدمة أغراضهم . والصحافة أقدم وسيلة إعلامية فتوجهوا لها لتحقيق أهدافهم ، وإيصال الأحداث التي يرغبون في توصيلها إلى الناس . وقد استخدموها من أهم الوسائل التي أدت إلى تقوية علاقة اليهود في أوروبا بيهود الشرق ، وبدأت الدعاية الإعلامية اليهودية جهودها في القضاء على الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية عن طريق عدة وسائل منها السيطرة على دور سك العملة وبالتالي التدخل في اقتصاد الدولة ، عوضاً عن إثارة الفتن والقلاقل في أراضي الدولة العثمانية .

وقد وضع اليهود عدة نقاط ، ووضعوا خططًا ساروا عليها لتشويه صورة الحكم العثماني مستغلين مرحلة الضعف التي أغرت الحاقدين من صليبين ويهود بالقضاء على الإسلام في تركيا . والمحور الأساسي الذي ارتكزوا عليه هو الدعاية والصحافة :

أولاً : تحالفت اليهودية مع الصليبية الغربية الحاقدة في دول أوروبا فرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا والنمسا لمحاربة الدولة العثمانية وحرمانها من الهدوء والاستقرار والتفرغ للبناء ، وقد أدى الضغط الصليبي المستمر إلى تضييق رقعة الإسلام في أوروبا . [2]

ثانياً : عملوا على إفساد الشباب ، وجعلهم يقلدون الدونمة في كل أمور حياتهم ، وسعوا إلى دعوة المجتمع إلى الاختلاط ، ونزع حجاب المرأة المسلمة ، واستخدموا المقالات في الصحف لنشر هذه الأفكار. وأهم الدعوات التي روجوا لها الدعوة إلى الاختلاط في التعليم الجامعي ، لمعرفتهم بأن التدريس المختلط سيعمل على إزالة الحياء من وجه الشباب ، وتنعدم البراءة في الأسر الإسلامية ، ويحول دون ظهور شباب مثقفين من أسر متماسكة .

وزاد الدونمة من دعايتهم الهدامة ، فنشروا الكتب والرسائل التي أعلنوا فيها الحرب على حجاب المرأة ، وتشجيع السفور في المجتمع العثماني المحافظ ، وطرحوا قضية الاختلاط في الجامعات ، وتبنوا فكرة مسابقة ملكة جمال تركية إلى اليوم ، وقد ألبوا

---

[2] مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص88 ، 89 .

الاتحاديين على مصادرة الصحف والمجلات التي تعترض سبيل الدونمة والتنكيل بأصحابها ، فقد كانت علاقة الدونمة بالاتحاديين علاقة وثيقة وثابتة.[1]

ثالثاً : العمل على تصوير الأتراك المسلمين ورجالات الدولة العثمانية بمنتهى السوء ، حيث أظهرتهم كتابات اليهود بمظهر المتوحشين سفاكي الدماء ، المنغمسين في الفساد والانحلال، بقصد إذكاء الحقد الصليبي الأوروبي ضد الأتراك المسلمين ، وسعت أيضاً إلى تشويه صورة العرب لدى الأتراك .

وجاء ذلك في صورة دعاية مشوهة مغرضة ، صورت الحكم في عاصمة الخلافة أبشع تصوير ، وكانت دعاية اليهود ماهرة في قلب الحقائق ، وإبراز المساوئ وطمس المحاسن ، ونجحت الدعاية في أوروبا والعالم بأسره ، حيث غدا من الأمور المسلم بها أن المسلمين الأتراك متوحشون قساة يرتعون في الفساد والانحلال . وفي نفس الوقت بدأت الدعاية اليهودية وكتابتهم في تصوير مدحت باشا اليهودي الماكر بطلاً من أبطال العالم ، وسمته أبا الأحرار ، وسخّرت صحف أوروبا إذاعاتها لتمجيد مدحت باشا حامل لواء الحرية والإصلاح في الدولة العثمانية ، وهو في حقيقة أمره يهودي متآمر على الإسلام والمسلمين، وآلة مخربة مؤذية بأيدي اليهود . [2]

رابعاً : اعتمد اليهود في كتاباتهم عن الدولة العثمانية على تأثرهم بالظروف السياسية العالمية، كظهور الحركات التحررية في العالم الإسلامي ، واستقلال معظم دوله ، مما بالمستشرقين وخاصة اليهود التركيز على دراسة قضايا فكر الأمة الإسلامية وعقيدتها ، بل ودراسة أسباب تحررها ، والتركيز في ذلك على دراسة الخلافة العثمانية ، ومحاولة دس التشويه عليها من خلال هذه الدراسات، مدعين أنهم يدرسون الفكر السياسي في الإسلام . [1]

خامساً : تحريك غرائز الطمع الاستعماري الصليبي ، وإغراء الأوروبيين بسهولة الانقضاض على الدولة العثمانية ، وإذكاء الأحقاد الصهيونية ضد الإسلام ، وبدأت الصحافة الصهيونية بنبش قصة فتنة 1277هـ/ 1860م الشهيرة التي حدثت بين الدروز [2]

---

[1] ربيع عبدالرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص104 ، 105 . هدى درويش : العلاقات العربية التركية ، ج2 ، ص17 .

[2] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، ص 47 . مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص89

[1] صلاح الصيفي : المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم الحضارة الإسلامية ، برلين : علي نتفه ، 2009/5/25م . http : // www. Said.net.

[2] كانت الصفة المميزة للدروز في النصف الثاني من ق 19م – وأوائل ق 20م هي إعلان عصيانهم وإشعال الثورات ضد الولاة العثمانيين ، وذلك حتى لا يدفعون الضريبة المفروضة عليهم . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص16 .

والنصارى في سوريا ولبنان وما صاحبها من مذابح حرصت الدعاية والكتابة اليهودية على رمي المسئولية على العثمانيين المسلمين ، وتبنت بمكر ودهاء المناداة بضرورة تدخل الدول الأوروبية النصرانية بحجة حماية الرعايا المسيحيين في سوريا ولبنان من مذابح أخرى . وذلك تمهيداً لحصول الدول الأوروبية على مزيد من الامتيازات . وقد نجحت كتابات اليهود أيّما نجاح في ذلك؛ إذ رضخت الدولة العثمانية لمطالب الدول الأوروبية .

كما نجحت الدعاية اليهودية في إيغار صدور المسيحيين في أوروبا كلها حين زوروا وقائع التاريخ المتعلقة بالفتنة التي أثارها البلغار ضد الدولة العثمانية وارتكبوا فيها أبشع الجرائم والمذابح في حق المسلمين، فاضطرت الدولة العثمانية، إلى إخماد الثورة بالقوة ، فاستغلت أبواق اليهود هذا الموقف لتشويه الحقائق ، وإظهار العثمانيين بمظهر سفاكي الدماء ، وجعلت تنادي شعوب أووربا لنصرة الشعب البلغاري المظلوم ، وتخليصه من أيدي وحشية العثمانيين الذين لا يرحمون مع أن الحقيقة عكس ذلك ، وكان لتلك الدعاية اليهودية أبعد الأثر عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى . [3]

سادساً : توجهت جهود الصهيونية نحو الإعلام لمعرفتهم بقوة دوره في المجتمعات الإسلامية؛ فعملوا على امتلاك أهم المؤسسات الإعلامية في العالم ، وتوجيهها نحو أغراضهم المشوهة ، وذلك لخدمة قضيتهم في الاستحواذ على الرأي العام ، مما يسَّر لهم أن يضمنوا دعماً لمخططاتهم، وتحكماً أوسع لتنفيذ مآربهم .

ويعتبر أخطر دور قامت به كتابات اليهود والدعاية الإعلامية اليهودية من خلال الصحف والكتابات التي كانت تسيطر عليها في أوروبا وفي تركيا نفسها هو تشويه سمعة رجالات الدولة العثمانية ، وتصويرهم في صورة الحكام المستبدين ، المستهترين بمصالح شعوبهم المنغمسين في الفساد والانحلال ، ولسنا ننكر أن البعض منهم خاصة أواخر عهد الدولة العثمانية كانوا على جانب من التسلط والشدة والانحلال ، إلا إن اليهود عمموا حجتهم لتشمل جميع رجالات الدولة العثمانية مهما بلغوا من صلاح .

ويعد السلطان عبدالحميد الثاني أبرز من تعرضت له أقلام اليهود بالتشويه والافتراء ، فشوهت صورته ، وأطلقت عليه عدة ألقاب ظلماً وبهتاناً ، منها السلطان الأحمر ، السلطان البخيل ، وأطلقت على عهده عهد الاستبداد الحميدي؛ لترسيخ أكذوبتها الكبرى التي لفقتها

---

[3] مجدي المجيد الصافوري : مرج سابق ، ص 89 ، 90 . زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 49. ليلى عبداللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص43 ، 44 . هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، " وثائق جديدة " ، ط1، عين للدراسات والبحوث ، 2003م ، ص52 .

ضده، وقصصاً أخرى كاذبة عن عمليات اغتيال مزعومة أمر بها ضد رجال المعارضة . ومن أبرز من قاموا بالهجوم إعلامياً على السلطان عبد الحميد الثاني ، جورجي زيدان ، وفارس نمر ، ويعقوب صروف ، وشاهين مكاريوس ، وسليم مركيس ، ولويس صابونجي .

والهدف من هذه الحملة الإعلامية الشعواء ضد زعماء الدولة العثمانية التمهيد وتهيئة الرأي العام التركي لتقبل فكرة التخلص من هؤلاء الزعماء ؛ ليسهل على اليهود وحلفائهم الأوروبيين بعد ذلك الانتقال إلى الخطوة التالية ، وهي القضاء على كيان الدولة العثمانية ذاتها.[1]

سابعاً : إن تشويه صورة السلاطين العثمانيين يتبعه بالتأكيد تشويه صورة دولة الخلافة الإسلامية كدولة ، وذلك بإطلاق وصف " الرجل المريض " عليها ، وهذا الوصف من ابتكار يهود روسيا ، والهدف الأول من وصف الدولة العثمانية بهذا الوصف في كتابات اليهود إنما يرمي إلى تهيئة الرأي العام التركي والعالمي لتقبل فكرة استبدال هذا الكيان المريض الذي هو دولة الخلافة بكيان قوي متطور عصري يكون على شاكلة الدول الأوروبية . [2] وهذا أحد مناهج الاستشراق.

ثامناً : وبينما كانت الدعاية وكتابات اليهود تشوه صورة الدولة العثمانية ، كانت في الوقت نفسه تنشر فكرة الدولة التركية العلمانية الحديثة المرتبطة بأوروبا، وذلك كبديلاً للدولة العثمانية ، ولكنها لم تكن تجرؤ على الجهر بذلك صراحة ، وإنما كانت تدس هذه الفكرة دساً من خلال ما تضيفه من حسنات على النظم الحاكمة الأوروبية ، وتصويرها على أنها بلغت درجة الكمال .

وحين كانت الدعاية والصحف اليهودية تشوه صورة زعماء الدولة العثمانية كانت في الوقت نفسه تضفي حالات زائفة من البطولة على بعض الشخصيات التركية التي كانت الصهيونية والماسونية بالتحالف مع القوى الأوروبية تعدها لتسلم مقاليد الأمور في تركيا ، وأهم تلك الشخصيات – كما سبق الذكر – مدحت باشا الذي استخدمته في هجماتها ضد السلطان عبدالحميد الثاني . [1]

---

[1] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 50 ، 51 .ليلى عبداللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 44. هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص18 .

[2] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص51 . هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا : ص52

[1] ليلى عبداللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص45 .

على أن النجاح الكبير الذي حققته الدعاية اليهودية كان من نصيب مصطفى كمال أتاتورك الذي صورته بصورة المنقذ المنتظر لتركيا ، فسخّرت بذلك كل مكرها وخبثها وكذبها في حملتها الدعائية لمصلحته خاصة في فترة الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء ، فانتهزت فرصة هزيمة الدولة العثمانية للمناداة بأن الوطن يحتاج إلى زعامة جديدة قادرة على إنقاذه ، وبذلك ظهر أتاتورك المنقذ ، ولحبك الصورة التي تسمح بإظهار أتاتورك بأنه المنقذ تظاهر الحلفاء بالتراجع والانهزام أمامه ، وبذلك يفتحون المجال أمام كتابات اليهود لإضفاء صفات البطولة والإقدام عليه .

وقد نجحت الكتابات للأسف الشديد بإقناع الأتراك بزعامة أتاتورك ، ساعدها في البداية تستره بالإسلام حيث أتقن الدور ، وطفق يخطب خطبة الجمعة في مساجد المدن والقرى ، وأخذ الصور الفوتوغرافية بين العلماء وأئمة المساجد ، وكانت الصحافة اليهودية تبرز هذه النشاطات لتقنع الأتراك بتقبل زعامته بديلاً للخليفة العثماني ورجاله التي صورتهم بمنتهى البشاعة والوحشية [2].

تاسعاً : أخذت الدعاية اليهودية على عاتقها العمل على نشر الدعوة للقومية المغرضة ، وأوعزت الصليبية لبعض نصارى العرب المناداة بها ، وهذه الفكرة أسهمت بشكل كبير في تحقيق مأرب اليهود في القضاء على الخلافة العثمانية ، وتشويه صورة الحكم العثماني.
وصورت القومية على أنها الخلاص من فساد الخلافة العثمانية وظلم رجالها ، ونشرت هذه الدعاية على نطاق واسع على أنها تحرير للعرب ، وفصلهم عن الخلافة مقلّدين بذلك النزعات القومية التي اجتاحت دول أوروبا في القرن 13هـ /19م ، وسيأتي الحديث عن أفضل كتاب يتحدث عن فكرة القومية ، وهذا الظلم والفساد كان السبب الرئيس فيه رجال الاتحاد والترقي الذين هم عملاء لليهود .

وتطورت القومية العربية حتى غدت أسفيناً مزقت به اليهودية والصليبية وحدة الجسم الإسلامي . ويعترف مؤرخو العرب من النصارى بأن الرواد الأوائل لحركة القومية العربية كانوا من النصارى ، وأنهم تعاونوا مع الماسونية الأوروبية ومحافلها في المشرق العربي ، وقد استغلوا مساوئ الحكم العثماني فأيد العرب الحركة القومية بحسن نية . [1]

---

[2] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تارخ العثمانيين الأتراك ، ص53 ، 54 .

[1] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تارخ العثمانيين الأتراك ، ص 54 ، 55 . مجدي عبدالمجيد صافوري : مرجع سابق ، ص92 .

ويتضح من خلال الدراسة أن اليهود أمسكوا بحبل القومية العربية ومصطفى كمال أتاتورك ووجَّهته الوجهة التي تريدها حتى استطاعت– للأسف– تحقيق رغباتها بسبب توجيه الكتاب نحو ما تريد .

عاشراً : دور الجمعيات السرية وخاصة الماسونية الصهيونية التي دخلت ميدان الاستشراق لتحول دون اجتماع كلمة المسلمين في وحدة تقاوم اليهودية العالمية ، وعمل المستشرقون اليهود من خلال محافل الماسونية والكتابات المشوهة على تحقيق هذا الهدف . [2]

وقد استخدم اليهود محافل الماسونية في فرنسا وإيطاليا لنشر الدعاية الكاذبة ضد الخلفاء خاصة السلطان عبدالحميد الثاني ، ولم تترك عيباً واحداً إلا وألصقته بحكمهِ وبشخصيته حتى غدا رمزاً للظلم والقسوة والاستبداد . وهم الذين نجحوا في الانقلاب على السلطان عبدالحميد الثاني ، ونقل السلطة إلى أيدي اليهود المتمركزين هناك.[3]

وقد عاصر السلطان عبد الحميد الثاني عدة شخصيات ماسونية ، أسهمت لأبعد حد في خلعهِ وتشويه صورته مثل :

1) (جاك سهامي) :

كتب كتابًا عن أسس الماسونية باللغة التركية اقتبس من مبادئ محفلي فرنسا وبريطانيا إلى جانب كتابات كثيرة أخرى عن الماسونية .

2) (عمانويل قره صو) :

يعدّ من أبرز زعماء اليهود الماسون ، وأحد قادة الاتحاد والترقي ، انتخب عضواً في البرلمان التركي عام 1333هـ / 1914م . شارك في الثورة الاتحادية ضد السلطان عبد الحميد الثاني عن طريق إصدار المنشورات المضادة لحكمه . وكان أحد رجال الوفد الذين أبلغوا السلطان عبد الحميد الثاني قرار عزلهِ .

3) (حاييم ناحوم) :

---

[2] محمد عبدالفتاح العليان : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 17 .

[3] مجدي عبدالمجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص90 ، 91 .

كبير حاخامات إستانبول قام بدور بارز في خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، يعتبر ممثل الحركة الصهيونية ، عُين سفيراً لتركيا في الولايات المتحدة الأمريكية ، بذل جهداً مضاعفاً ضد السلطان عبد الحميد الثاني الذي منع الهجرة إلى فلسطين ، وحاول مهاجمة القوانين التي تكبل اليهود في هجرتهم إلى فلسطين.[1]

أما الماسونية فقد ظلت مذهبًا لم تقنن معالم نظامه ، إذ ظل طابع السرية يلف هذه الحركة في اجتماعاتها وتحركاتها حتى تجرأت وأظهرت نشاطها في إستانبول. وذلك لأن كثيرًا من تعاليمها كانت تجري بصورة شفهية ، ولم ينشر بعد محتوى أرشيفات المحافل الكبرى والمحافل المحلية ، ومن المحتمل أن تكون قد عقدت له عدة مؤتمرات لم يذكر عنها شيء ، وشعارها المزيف الحرية والإخاء والمساواة . وقد بقيت محاضر وأعمال تلك الاجتماعات سرية أومحدودة التداول، وذلك لما تحمله من مكائد وشرور ضد الأمة الإسلامية.[2]

الحادي عشر : العمل على تحسين صورة اليهودي أمام الرأي العام خاصة المجتمع التركي، وفي الوقت ذاته يتم تشجيع هجرة اليهود الأتراك إلى فلسطين مع جمع التبرعات اللازمة لدعم الجمعيات والمراكز الخاصة باليهود والأتراك. [3]

الثاني عشر :و يأتي دور الاتحاديين والكماليين – أي أتباع مصطفى كمال أتاتورك –الذين ارتكبوا شتى أنواع الظلم باسم الدولة العثمانية ، وقد استأجروا أقلام الكتاب والصحفيين لنشر الأعمال الوحشية والترويج لها حتى يكره الأتراك والمسلمين والعرب الحكم العثماني ، والدليل القاطع على تعاونهم مع اليهود هو أنه لم يسلم من بطشهم إلا اليهود في حين وقع الاضطهاد على جميع الفئات بما فيهم الأتراك، وأبلغ دليل على استخدامهم الأشخاص لتشويه صورة الحكم العثماني استخدامهم جمال باشا والي دمشق الذي كان أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وشمل اضطهاده الأتراك والعرب والمسلمين عامة . [1]

---

[1] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص47 .

[2] خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص270 .

للاستزاده عن نظام ومحافل الماسونية وبداية ظهورها في الدولة العثمانية الرجوع إلى . خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص270–287. سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 161 – 171 . أما عن شروط الانضمام لها وأهدافها الرجوع إلى . سعيد عبدالكريم زيد: مرجع سابق ، ص293–296 .

[3] هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص 52 .

[1] مصطفى محمد حلمي : مرجع سابق ، ص 62–64 .

واستخدمت كتابات اليهود في الصحف والمجلات لرفع شأن مصطفى كمال أتاتورك ، وإظهاره بمظهر البطل الذي تراجع أمامه الحلفاء بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى ؛ وذلك لينسجم هذا الوضع مع تحقيق أهدافهم وكذلك روجت الكتابات اليهودية لأعمال جمال باشا " السفاح " في الشام ، وعملت على نشرها إمعاناً في تشويه التاريخ العثماني .

وقد نشروا مقالاتهم في عدة مجلات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

مجلة " معمارسنان" ، "مجلة ماسون التركية" ، "مجلة أقاسيا"، "مجلة بيوك شرق".[2]

الثالث عشر :

تسلل اليهود إلى أجهزة الإعلام في تركيا وامتلكوا كثيرًا من الصحف والمجلات ، ومن أشهر العائلات التي تموّل دور الصحف الكبرى في تركيا عائلة "قبانجي" ، و "كبار" و "أيبكجي " اليهودية ، وقد اشتهرت هذه العوائل لتأثيرها الواسع على الإعلام التركي ، ودعمه مادياً . [3]

إضافة إلى تأثيرهم في الإذاعة والتلفزيون وامتلاكهم لدور نشر الكتب والصحف التي توزع بعضها يومياً وتنشر كل إدعاءاتهم وكذبهم . واستطاع اليهود التحكم في الإعلام التركي طبقاً لأهدافهم من خلال بعض المجلات والصحف ، وقد مارس اليهود سيطرتهم على الصحافة من خلال طريقتين :

١) شراء أو إنشاء الصحف والمجلات ووكالات الأنباء .

٢) التغلغل في الصحف والمجلات الكبرى ، والاستحواذ على مراكز قيادية فيها.

وعلى سبيل المثال نجد أن اليهود أسسوا وكالة " هاشيت " الفرنسية عام 1268هـ / 1851م ،وأسس اليهودي الألماني المولد البارون (فـون رويتر Von Royter) وكالة "رويتر " للأخبار عام 1275هـ / 1858م في لندن ، أما عن الصحف فإن صحيفتي "نيويورك تايمز " " New York Times " ، و " الواشنطن بوست " " Washington Post " تمتلكها عائلات يهودية وهي أكثر الصحف انتشارًا في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم . يأتي في المركز الثاني بعدهم من حيث الانتشار " نيويورك بوست " " New York Post " ، و " وول ستريت جورنال" " Wall Street Journal " ، وجميع مدراء تحريرها من اليهود أما عن المجلات الثقافية فأغلبها يتولى تحريرها يهود ، مثل مجلة "

---

[2] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص169 .

[3] هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص49 .

كومنتاري

" Commentary " ، عوضاً عن المجلات التي تنال الدعم المادي من المصادر اليهودية . [1]

أما الصحف التي مارست ضغوطًا على الرأي العام العثماني فكانت صحف أسسها اليهود في الدولة العثمانية مثل: صحيفة " الأزمان"، "صحيفة الأمل الطيب"، صحيفة "جون ترك" ، صحيفة "عثمانيسنثرلويد" ، صحيفة " العصا" ، صحيفة "المستقبل" ، صحيفة " لاناسيون" ، صحيفة "طنين" ، صحيفة "شفق" ، صحيفة "أورور"اليهودية ، صحيفة "أبواب الشرق" ،مجلة " يني مجموعة " ،"مجلة كرمي"،

مجلة " اجتهاد " المعادية للإسلام ، صحيفة " تركيا الفتاة " الناطقة بلسان حال الاتحاديين ، صحيفة " العصا لمن عصى " التي أسست في مصر ، ونادت بهجرة اليهود إلى فلسطين ، صحيفة " اللونار " أهم صحف سالونيك التي أسسها " يهود لخما " عام 1281هـ/ 1864م . بالنظر إلى الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي 1141هـ - 1322هـ / 1728م - 1904م نكتشف أن اليهود وحدهم أصدروا حوالي 975 مطبوعة ، ما بين صحيفة ، ومجلة ، ونشرة يومية ، ونصف أسبوعية ، وأسبوعية ، وشهرية ، وفصلية ، ونصف سنوية ، وسنوية ، ترجمت هذه المطبوعات إلى 17 لغة ، صدرت في 25 بلداً ، منها 579 مطبوعة في أوروبا وحدها ، وتوزع الباقي على بلدان العالم . هذه الإحصائية لها دلالة واضحة على النشاط الإعلامي الملحوظ لليهود الذي انطلق مع بداية النهضة الأوروبية الحديثة ، وقدم خدمات جليلة لليهود وللحركة الصهيونية ،خاصة عن طريق الصحافة التي سيطروا عليها بطريقة تامة.[2]

وقد تجلى دور الصحافة اليهودية في تركيا لخدمة الأهداف الصهيونية التالية :

١) تحسين صورة اليهودي في المجتمع التركي .

٢) تشويه صورة العرب لدى الأتراك ، وذلك لتسهيل الانفصال بينهم .

٣) إزكاء روح القومية التركية .

٤) جمع التبرعات لدعم الجمعيات والمراكز الخاصة باليهود الأتراك .

---

[1] غازي محمد فريج : مرجع سابق ، ص 278 ، 279 .

[2] مرجع سابق ، ص 271 – 272 .

٥) تشجيع تأسيس المراكز والجمعيات الخاصة بهم مع تشجيع الهجرة إلى فلسطين .
٦) الهجوم على كل من يعادي الصهيونية . [(1)]

وأهم أهدافهم إحياء اللغة العبرية ، وتوثيق علاقة يهود الدولة العثمانية مع يهود أوروبا . [(2)] وزاد النفوذ اليهودي في الإعلام خاصة مع ظهور جمهورية تركيا الحديثة، حيث امتلك اليهود أكبر وأكثر الصحف والمجلات انتشارًا ، مثل جريدة " حريت " التي كانت من متزعمي الرأي العام التركي لقبول فكرة إقامة دولة صهيونية في فلسطين ، وقادت الهجمات على حجاب المرأة المسلمة . ويمتلك يهود الدونمة أيضاً جريدتي " كون أيدن " ، وجريدة "ترجمان " التي يمتلكها عثمان كبار من عائلة " كبار " اليهودية .وتمتلك عائلة (إيبكجي) جريدة " ميلليت ". وجميع هذه الصحف قد نادت بضرورة التعاون مع إسرائيل ، وألصقت التهم بالعرب ، وجردتهم من الصفات الإنسانية . [(3)]

ومن ألمع الصحفيين اليهود في تركيا الذي يروّج دائماً لآرائهم وتشويهاتهم ضد العثمانيين (عبدي أيبكجي) الذي كان ناشطاً في مجال الصحافة والكتابات ضد الإسلام والعثمانيين عبر جريدة " ميلليت " ، كان عضو هيئة تدريس في معهد الصحافة بجامعة إستانبول . وعمل رئيساً لنقابة الصحفيين الأتراك وعضواً في اللجنة التحضيرية لقانون أخلاق الصحافة ، والأمين العام لديوان الشرف الصحفي. [(4)]

إضافة إلى (أحمد أمين يالمان) يهودي من الدونمه ، أسس عدة صحف ومجلات مهمة ، أهمها صحيفة " الصباح " التركية عام 1325هـ / 1907م ، وهو رئيس تحرير صحيفة " طنين " أسهم في الدفاع عن قيام دولة أرمينية ودولة كردية تستقلان عن الدولة العثمانية ، وتقتطعان من أراضيها . ناصر الصهيونية في المجلات والصحف التي أسسها ، واشترك في المؤتمرات الصهيونية بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومن أبرز آرائه منادته بضرورة قبول تركيا للحماية الأمريكية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وناصر (أحمد يالمان) من خلال كتاباتهِ قضايا الماسون الأتراك ، دافع عن الصهيونية بضراوة ، وظهرت معاداتهِ للإسلام والمسلمين بوضوح ، قام دور بارز في حركة الأتراك الشبان في سالونيك

---

(1) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص 28 .

(2) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 113 – 115 . هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص49.

(3) هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص 50 ، 51 . محمد حرب العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 115 ، 144 .

(4) هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص55 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص115813.

حيث طالبت بالتحديث ، وتغريب الدولة العثمانية. وشارك في ثورة تركيا الفتاة ، وقد هاجمته صحف المعارضة ، وحملت الحكومة إعطاءه حرية الهجوم على الدولة[1].

وعن طريق هذه الأقلام استطاع يهود الدونمة أن يوجدوا رأيًا عامًا في تركيا مؤيدًا لقيام إسرائيل ، وغير متعاطف مع العرب والمسلمين . وعملت الأجهزة الإعلامية على خدمة اليهودية ، ودُفع الأتراك عن طريق الإعلام إلى العطف على إسرائيل واليهود . [2]

وقد نشط المستشرقون اليهود في أوروبا حيث كان لهؤلاء المستشرقين المبادرة في صقل فكرة القومية التركية بكتاباتهم ونشراتهم ، ولمعت عدة أسماء برعوا في الكتابة عن أصول فكرة القومية الطورانية في الغرب أمثال (أرمينيوس)، (ليون كوهين) و (فامبري)[3] (وآرثر ليملي ديفيدس) ، وهؤلاء أسهموا بالفكر والتأييد لجمعية الاتحاد والترقي ، وجميعهم كانوا داخل إستانبول.[4]

ومن أبرزهم (آرثر ليملي ديفيدس Arthur Lumley Davids)[5] الذي وضع مؤلفاً عن " العلم النافع في تحصيل صرف اللغة التركية " كتب فيه مقدمة طويلة عن وصف التاريخ والحضارة التركية حيث شجع الأتراك على التمسك بالقومية التركية، وأظهر مزايا اللغة التركية وتعظيم شأنها في هذا الكتاب وقد كان للمؤلف دور كبير في التأثير على المفكرين الأتراك ، واعتزازهم بالقومية الــتركية ، حيث أظهر الكتاب بعض الجوانب عن تاريخ التمدن التركي ما قبل الإسلام ، وأكد على ضرورة الرجوع إلى معرفة التاريخ التركي القديم، وبيان مفاخر هذا الشعب في التاريخ والحضارة.[6]

ومن أشهر يهود الداخل في الـــــدولة العثمانية (ليون موئيز كوهين Leon moeez Koohen)، [1] وكان يكتب جميع مقالاته باللغة التركية في الصحف والمجلات ،

---

[1] محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 113- 115 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص55. هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ج2 ، ص55 .

[2] محمد حرب :العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 117 .

[3] فامبري : عمل مستشاراً للسلطان عبد الحميد الثاني ، ولم يكن في الواقع سوى جاسوس لبريطانيا ، ولم تخفَ حقيقته يوماً عن السلطان عبد الحميد .

[4] محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ط1 ، دمشق : دار القلم ، د. ت ، ص231 .

[5] ديفيدس : آرثر ليملي مستشرق بريطاني يهودي ، اتضحت آراؤه من خلال مقدمة كتابه التي وصف فيها التاريخ ، والحضارة التركية . سهيل صابان : مرجع سابق ، ص139 .

[6] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 139 .

[1] كوهين : ليون موئيز Leon cohen ولد في سلانيك عام 1301هــ / 1883م ، وتخرج من مدرسة الحقوق ، وهو مؤرخ وكاتب من أصل فرنسي يهودي ، بدأ حياته العلمية بنشر مقالات في المجلات المشهورة ، من أهمها جريدة " روم أيلي " ، وكان

وله ضلع في الاتحاد والترقي ، ودور كبير في المذكرة التي قدمها الصهاينة للاتحاديين وضحوا فيها رغبتهم باعتراف هذه الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود في أعقاب الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثاني .

يعتبر (ليون موئيز كوهين) موجد فكرة القومية الطورانية في الدولة العثمانية ، وأسهم بشكل فعال في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها فيما بعد حكومة الاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني. وكتابه "توران" يعتبر الكتاب المقدس للسياسة الطورانية ، والمرجع الأساسي لهذا الأمر ، وتدرج في عدة وظائف سياسية لها أبلغ الأثر في الدعاية للسياسة العنصرية الطورانية ، أخذ على عاتقهِ التعريف بحركة الاتحاد والترقي والدعاية لها في الصحف الأوروبية باعتباره عضواً أساسياً فيها ، حيث أسهم بكتاباتهِ في صياغة سياسة الاتحاد والترقي ، وهي السياسة التي أثّرت على العلاقات التركية العربية ، خاصة في بلاد الشام ، شكى منها العرب خاصة إبان حكم جمال باشا الاتحادي.[2]

وحتى لا يثير ريبة وحساسية القراء العثمانيين عامة والأتراك المسلمين خاصة لم يستخدم اسمه الحقيقي في الكتابة إلا فيما ندر من المقالات. وكتاب واحد فقط نشره بالتركية ، واسمه المستعار (تكين ألب– مؤنس ألب)، وذلك ليخدع قراءه بأنه مسلم وعربي خاصة وأن أغلب القراء يتصورون أنه عربي مسلم . [3]

وجاء (ليون كوهين) باسمه المستعار (تكين ألب) بكتاب جديد اسماه "مدخل لتاريخ آسيا" ، وقد أوضح فيه دور القبائل التركية في آسيا الوسطى ، وأظهر اهتمام واضح بمزايا الأتراك وأمجادهم ، فأصبح منهجاً فكرياً للقوميين الأتراك فيما بعد . وركز كوهين على التاريخ التركي القديم في محاولة لتجريد الشعب التركي من الإسلام ، واعتباره حدثاً طارئاً

يصدرها يونس نادي وهو من يهود الدونمة ، وجريدة الاتحاد والترقي التي كان يصدرها الاتحاد والترقي ، ثم عين مديراً لمكتبة مازارين، ثم أرسل إلى الدول الشرقية في رحلات البحث العلمي ، فأجرى بحوثاً شاملة على اللغة والأدب التركي ، وبخاصة ما يتعلق بلهجات أتراك آسيا الوسطى ، له مؤلفات كثيرة في هذا الصدد . وقد ذكر في كتبه أن الذين نقلوا الحضارة إلى أوروبا هم الأتراك، وأن الشعب التركي عنصر عريق على وجه الأرض . أتقن عدة لغات أوروبية بجانب العبرية والتركية . سهيل صابان : مرجع سابق ، ص139 ، 140 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 120 . أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص166 ، 167 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص 50 .

[2] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 119– 121 .

[3] مرجع سابق ، ص 121 . محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ص232 .

في حياتهم لابد من التخلص منه ، متمثلاً في الخلافة العثمانية. ويرجع له الفضل في نشر الفكر القومي التركي بين متعلمي الأتراك من خلال تأكيده على تفوق العنصر التركي . [1]

والكتاب الوحيد الذي وضع عليه اسمهِ الحقيقي هو كتاب " ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب " ، تناول فيه الحرب العالمية الأولى حيث دعا الشباب التركي إلى فكرة العنصرية التركية ، واتحاد الأتراك بدلاً عن الوحدة الإسلامية التي دعت لها فكرة الجامعة الإسلامية . [2]

وكان تأثيره خطيراً لا سيما في الجيش العثماني خاصة فيما يتعلق بضرورة قيام دولة تركية طورانية تجمع أتراك العالم في دولة واحدة. ومناداته بضرورة تتريك البلدان التابعة للدولة العثمانية ، وهذه الفكرة هي أول سبب جوهري في نفور العرب من الأتراك .

ولليون كوهين كتاب "سياسة التتريك" الذي صدر في إستانبول عام 1347هـ / 1928م ، ويعتبر دليلاً صريحًا على أن اليهود هم أول من نادى بسياسة التتريك و إثارة النعرات العرقية ، وتحدث فيه عن تتريك الشعوب غير التركية في الدولة . [3] وهنا نستطلع حقيقة واضحة للذين يلصقون تهمة التتريك بالدولة العثمانية ،هي أنها فكرة يهودية صافية .أما بالنسبة لليهود في الخارج الذين لهم دور في تثبيت الفكر القومي فأشهرهم (إميل دور كايم Emeal Dor Caym) اليهودي الفرنسي صاحب المذهب الاجتماعي الذي ترك آثاراً في فكر رائد القومية التركية وفيلسوفها (محمد ضيا كوك ألب).

ولم تنقطع صلة المستشرقين اليهود في أوروبا بالمفكرين القوميين داخل الدولة العثمانية ، إذ أثّروا في تشكيل الفكر المدبر للاتحاد والترقي . [4]

ومن أبرز الشخصيات التي نالت الدعم والمساعدات من جمعية الاتحاد والترقي ، (أبراهام بن أروية Ibraham ben Auraih) الذي يعد من أبرز مؤسسي الحركة العمالية اليهودية في سالونيك ، حيث قام بنشر الفكر الاشتراكي فيها ، ونال المساعدة من الاتحاد والترقي من أجل نشر أفكاره بين أوساط المجتمع التركي ، وهو من أشد المتحمسين للحركة الصهيونية ، حيث هاجر إلى فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الثانية . [1]

---

[1] سهيل صابان : مرجع سابق ، ص 139 ، 140 .

[2] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص 50 .

[3] مرجع سابق ، ج2 ، ص 51 .

[4] محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ص 232 .

[1] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص52 .

ولم تتخلف النساء عن ركب الطورانية فإن أبرز شخصية نسائية يهودية في الأدب التركي الحديث المعاصر خالدة أديب ، وهي يهودية من يهود الدونمة ، والدها أديب أفندي ، عرف عنها ميولها القومية والطورانية المتعصبة ، تبوأت مكاناً بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي ، خريجة كلية روبرت الأمريكية ، وكانت على صلة وثيقة بقادة الاتحاد والترقي وعلى رأسهم (جمال باشا) كانت تقف دائماً خلف كمال أتاتورك تساعده وتسانده ، اتجهت إلى مدح اليهود والدفاع عنهم في كل كتابتها ، والدفاع عن حقوقهم المزيفة ، بل ودعت لقيام إسرائيل ، اشتهرت بمعاداتها للإسلام ولعلماء الدين الإسلامي الذين عارضوا الحركة الكمالية، ساندت الدعوة إلى الطورانية ، وتعليم العرب اللغة التركية إلى جانب دعوتها إلى نشر القومية التركية عن طريق رواياتها ومسرحياتها التي قدمتها ، ومن أشهر رواياتها " اضربوا الغانية " وكان هدفها معاداة الدين الإسلامي ومن رواياتها " طوران " التي تدعو للفكر الطوراني ، و "قميص من نار ". وقد أخرجت أوبرا " رعاة كنعان " في سوريا التي مثُلت أمام الولاة والقادة العسكريين ، ومديري الشرطة، وقادة الاتحاد والترقي ، وتهدف المسرحية إلى إعلان بشرى قرب قيام دولة إسرائيل . [2]

أما (صموئيل زويمر) المستشرق اليهودي الذي كتب العديد من المؤلفات الإسلامية ، وأسس مجلة " العالم الإسلامي" عام 1329هـ / 1911م ، فهو أحد كبار المستشرقين الذين قاموا بدور في المنطقة العربية، حيث ترأس وأدار العديد من مؤامرات التنصير من إنجلترا في أقصى الغرب إلى الهند في أقصى الشرق ، وقد بقي على يهوديته حتى مات عام 1371هـ/ 1952م ، واستطاع أن يمارس الخدعة اليهودية المعروفة حيث ارتدى ثوب النصرانية ، واعتلى المناصب المهمة في الوظائف المسيحية ، وتلقى الدعم الكافي من الكنيسة الإصلاحية الأمريكية .[3]

جاء في طليعة المستشرقين اليهود (إبراهام جايجر Ibraham Gaygar) الذي قام بدور بارز في الحركة الاستشراقية وتقدمها . أبرز آرائه اتهام الرسول ﷺ بالاعتماد على التوراة والإنجيل ، ولا شك أنه ردد ما سبق أن قاله أجداده ، حيث أصبحت آراؤه القاسم المشترك بين المستشرقين في الغرب الذين وجدوا فيها سنداً ودعماً قوياً . [1] (الخاخام

---

[2] هدى درويش : حقيقة يهود الدونمة في تركيا ، ص 52 ، 53 . هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج 2 ، ص52 ،53.

[3] عبدالله التل : جذور البلاء ، ط1 ، مصر ، المكتب الإسلامي ،1408هـ ، د. ت ، ص 25 .

[1] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 91 . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 222 ، ص223 .

اليهودي نحما) 1242هـ - 1317هـ / 1826م - 1899م " ترجع أصولهِ إلى سلانيك ، ومن أبرز القضايا التي اشتغل بها قضية تعليم اللغة العبرية ، اهتم بجمع المخطوطات والكتب الدينية اليهودية القديمة ، كان حلقة وصل لنقل الثقافة الأوروبية إلى يهود تركيا عن طريق إلمامهِ الجيد باللغات الأجنبية ، يعتبر من رواد الصحافة في تركيا حيث أصدر عام 1281هـ/ 1864م صحيفة اللونار. وأخيراً (إيزيدور باروخ Izedour Baroukh) أبرز شخصية يهودية عملت في مجال الإعلام ، حيث كان يمتلك شركة إعلان في تركيا، كانت الشركة الوحيدة الرائدة لسنوات طويلة.

ومن أشهر المستشرقين اليهود الذين لهم باع طويل في الكتابة عن التاريخ العثماني (برنارد لويس Bernard Lewis) الذي اسهم بجهد فعَّال في الترويج لكثير من المفاهيم والأفكار ضد الدولة العثمانية .كانت له قدرة عجيبة على تطويع الحقائق وبترها وإضفاء عليها الكلام والجمل الإنشائية والحماسية التي تخفي الحقيقة وتقنع القارئ برأيه .

فهو صهيوني متعصب ، أصبح أستاذاً للتاريخ الإسلامي في جامعة لندن ، كما عمل في جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، تتلمذ على يديه كثير من الأساتذة العرب ، وله العديد من المؤلفات في مختلف نواحِ التاريخ الإسلامي. [2]

وقد وجه تخصصه في التاريخ الإسلامي لخدمة الدراسات اليهودية والبحث في المسائل التي تخص اليهود في العالم الإسلامي . وله في هذا الصدد العديد من المؤلفات والدراسات التي ترضي اليهود ، ومنها كتابه "اليهود في الإسلام" الذي صوّر فيه اليهود على أنَّ لهم الدور الأكبر في بناء الحضارة الإسلامية فضلاً عن إيجاد دور مهم لهم في بناء الدين الإسلامي نفسه . [3]

وقد اتجه (برنارد لويس) في السنوات الأخيرة إلى البحث والكتابة عن الدولة العثمانية وتركيا الحديثة ، وهو رائد الاتجاه الاستشراقي اليهودي الجديد في استبعاد الطعن المباشر في تاريخ الدولة العثمانية وعهد السلطان عبدالحميد الثاني. فإن طريقته الجديدة تتلخص في اللجوء عند صياغة أفكاره وتشويهه وافتراءه إلى الحذر والدقة وافتعال حسن النية في الكتابة ، وإلى المغالطة باستخدام تحريف النص ، والعبث بذهن القارئ ، واستخدام

---

[2] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 103 . محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص232 .

[3] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 91 ، 92 . صلاح الصيفي: المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم لحضارة الإسلامية ، برلين: علي نتفه ، 2009/5/25م . . http : // www. Saaid. Net

مصادر ضعيفة ليسهل له الطعن في الإسلام والافتراء عليه ، وهو باحث مجد ودؤوب ، لكنه سيء النوايا. إنه يجيد بعضاً من اللغات الشرقية ، ومن ضمنها التركية ، ويعرف جيداً المصادر العثمانية الأصلية ، ولكنه يلوي الحقائق ، فمثلاً لم يرد أن تنسب فكرة إنشاء أول جامعة في إستانبول لزمن محمد الفاتح ، على الرغم من وجود مصدر ثابت لهذه المعلومة وهو وقفية إنشاء الجامعة إلا أنه ردها إلى مصدر تركي حديث عن العهد الجمهوري لطمس مآثر العثمانيين الأوائل بنسبها إلى السلطان عبد الحميد . [1] ويدعو في كتاباتهِ إلى العنف لتحقيق أهداف الصهيونية . ولهذا نجد أن كتاباتهِ العلمية ملوثة دائماً بأهدافهِ السياسية ، وموقفه واضح تجاه التاريخ الإسلامي والمسلمين ، حيث تتسم أهدافه بالعنف والتحامل . ومن أشهر دراساته عن اليهود تلك التي تخص الوجود اليهودي في الدولة العثمانية وفلسطين بالذات . [2]

كما تأثر برنارد بما رآه من آثار الحرب العالمية الثانية ، وظهور حركات التحرر في العالم الإسلامي ؛ فركز على هذه الحركات وقضاياها الفكرية ، ووجه اهتمامه الخاص بدراسة ظهور تركيا الحديثة والحركة العلمانية فيها التي أدت إلى تغريب تركيا . وقد خطط بالاتفاق مع (دنيال بايبس) و (ناداف سافران) على إقامة ندوة عن الحركات الإسلامية في جامعة هارفارد بتمويل مشترك مع المخابرات المركزية الأمريكية ، لكن هذه الندوة ألغيت بسبب افتضاح أمرها وانكشاف مأربها. [3]

أما الدكتور (ستانفورد شو) فمن أشهر المستشرقين اليهود الذين كتبوا عن الدولة العثمانية ، إذ له كتاب شهير عنها اسمه "تاريخ الإمبراطورية العثمانية" .

احتوى كتابهُ على عدد كبير من الافتراءات والتشويهات التي لا حصر لها، والغريب في الأمر أن كثيرًا من المؤرخين المسلمين يرجعون له في التاريخ العثماني على الرغم من أنه مستشرق يهودي لم يذكر معلومة صادقة، تعاونه في ذلك زوجته (أزل شو) . فهو مستشرق يهودي أمريكي يعمل أستاذاً للتاريخ الإسلامي في جامعة كاليفورنيا " لوس

---

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 104 . محمد حرب : ليس بالاستشراق نفهم تاريخنا ، المجلة العربية ، رجب – مارس 1407هـ / 1987، ص74 .

[2] محمد بن عبود : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية ، ج1 ، ص363 .

[3] صلاح الصيفي: المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم لحضارة الإسلامية ، برلين: علي نتفه ، 2009/5/25م . http : // www. Saaid. Net .

أنجلوس"، أما زوجته فهي أيضاً يهودية من يهود الدونمة في تركيا ، وتعمل في قسم التاريخ في الجامعة نفسها.

تخصص في البداية في تاريخ مصر العثمانية ، ثم تعداها إلى تاريخ الدولة العثمانية ويعد مستشرقًا يهوديًا مجدًا مثابرًا متميزًا في مدرسة الاستشراق اليهودي، عوضاً على أنه يمثل العنصر الأكثر حيوية بين المستشرقين اليهود ، يتقن اللغتين العربية والتركية ، قدم أطروحته في الدكتوراة عن النظم المالية والإدارية في مصر العثمانية . اعتمد في رسالتهِ على وجوده في مصر فعلياً ، كما أن له باعًا طويلاً في البحث في دور الأرشيف والوثائق الرسمية في إستانبول وأنقرة وباريس وفيينا، ولأنه كاتب يهودي يهوى الدَّس والافتراء ، والتحايل على الحقائق بل والاعتماد على أفكار واهية وأحداث ليست واقعية فإنه نال مساعدات سخية من مؤسسات "فورد" ، و "روكفلي" ، و "جوجنهايم" ؛ فلا ننتظر من كتاباتهِ إنصافاً للعثمانيين . [1]

المستشرق اليهودي المجري (إجنتس جولد زيهر) من أبرز المستشرقين الذين زاروا مصر وسوريا ، عمل أستاذاً في جامعة بودابست ، وله 592 مؤلف وبحث ، اشتهر بمنهجهِ في التشكيك بالحديث الشريف ، وبأسلوب الأخذ بالأحكام السابقة ، ثم محاولة تطويع النصوص وفقاً لهذه الأحكام ، عوضاً عن إهمالهِ لدراسة حاضر العالم الإسلامي ، وعرف عنه عدم الدقة في نقل النصوص وتحريفها .[2]

وكان متأكداً من أن المجتمع المسلم سيتقبل أفكاره وكتاباته لو كان مسيحياً أكثر من منه لو كان يهودياً ، فسلك هذا الأسلوب ، وقد أدخل بذلك أفكار بروتوكولات صهيون من بوابة الاستشراق التي تحققت على مر السنين وتظهر بوضوح في وقتنا الحالي . وبقي (صموائيل زويمر) مثلاً لكل المستشرقين اليهود.[3]

ولا شك أن جميع الأسماء السابقة قد قدمت الكثير من الخدمات الجليلة للمشروع الصهيوني ، ونشرهم لأفكار معينة خدمت الصهيونية لأبعد حد.

---

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 105 ، 106 . محمد حرب : ليس بالاستشراق نفهم تاريخنا ، ص75. مدارس الاستشراق . المدرسة الأمريكية ، 2009/2/1م http : // www. Madinacenter .com .

[2] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 89 ، 90 . عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 197 – 199 .

[3] عبد الرحمن بدوي : مرجع سابق ، ص 117 ، 118 . صلاح الصيفي: المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم لحضارة الإسلامية ، برلين: علي نتفه ، 2009/5/25م . . http : // www. Saaid. Net

ومن خلال هؤلاء الكتاب الصهاينة يمكن القول بأن هناك ثلاث عوامل رئيسة سيطرت على اتجاهات الحركة الاستشراقية منذ النصف الثاني من القرن 13 هـ / 19 م وهي :

١) استمرارية حركة التنصير .

٢) زيادة مد النفوذ الاستعماري .

٣) تنفيذ الحركة الصهيونية لمخططاتها وقد استطاعت الأخيرة أن تكيف التنصير والاستعمار لتحقيق أهدافها .[1]

وبالتالي نجد أن كل هؤلاء المستشرقين والكتاب خدموا هذه الأهداف الثلاثة، وكانوا أداة لتحقيقها ، وأبواقًا لترديد آرائها .

إن عمل الاستشراق اليهودي الآن يقوم على تبني كل الدراسات الاستشراقية ذات الطبيعة العدائية للإسلام والعرب ، والقيام بنشرها وتعميمها ، وتشجيع أصحابها ، وتقديم الدعم المالي لهم ، الهدف من ذلك هو إسكات أي صوت أو دعوة تنادي بضرورة النظر باعتدال تجاه الإسلام والمسلمين بمن فيهم العثمانيين ، معتمدة في ذلك كله على الافتراء والتشويه والتحريف وسحب أي مجد أو حق من العرب ونسبته إلى اليهود ، ومثال على ذلك تضخيمهم لدور اليهود في الجزيرة العربية ، واستيطانهم فيها ، وعلاقاتهم بالعرب في محاولة جادة لتزوير وقائع التاريخ وأحداثه . بل وتحريف النصوص المقدسة.[2]

ويتضح مما سبق الكيفية التي استطاع بها اليهود وبدعايتهم الإعلامية وكتابتهم الاستشراقية أن يوجهوا الكتابة عن التاريخ العثماني بالاتجاه الذي خططوا له ورغبوا فيه ، فقد صبت في عدة روافد تعاونت جميعها على الوصول إلى الهدف ألا وهو تشويه صورة الحكم والتاريخ العثماني بل والتأثير على أكثر كتابات المؤرخين المسلمين ، وتعبئة الرأي العام ضدها إلى يومنا الحالي .

ورغم خطورة الاستشراق اليهودي باتجاهاته المختلفة ودوره البارز في الحركة الاستشراقية إلا إنه لا يوجد تركيز عليه في الكتب التي تتناول دراسة الاستشراق إلا في جملٍ

---

[1] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 85 .

[2] صلاح الصيفي: المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم لحضارة الإسلامية ، برلين: علي نتفه ، 2009/5/25م . http : // www. Saaid. Net .

صغيرة وفقرات محدودة ، فقلما نجد دراسة منفردة عن الاستشراق اليهودي إلا قلة ، رغم عمقهِ في تاريخ الاستشراق ، وهنا تكمن الصعوبة في اكتشاف مدى تغلغل اليهود في الاستشراق . [1] لم يكن ليحقق الإستشراق اليهودي كلّ أهدافه ، وتنجح تشويهاته في التغلغل في كتب التاريخ العثماني لو لم يجد أبواقًا من أبناء المسلمين الذين يرددون أفكارهم بقصد ، أو دون قصد .

وإذا استطلعنا دورهم في الكتابة عن السلاطين العثمانيين تتضح الرؤيا أكـــثر ، ويظهر تأثيرهم بوضوح في مواد دائرة المعارف الإسلامية ، حيث دسوا التهم والافتراءات بين السطور حتى لا يفطن لها القارئ العادي ، إذ رموا السلاطين بالتهم جزافاً دون الاستناد إلى مصدر تاريخي موثق ، وذلك وصولاً للرغبة الدفينة داخلهم .

لم يتركوا سلطاناً واحداً إلا ووصموه بتهمة واحدة على الأقل باطلة، وللأسف أصبحت هذه التهم حقائق مسلَّم بها ، لا تقبل النقاش حتى على مستوى المؤرخين المسلمين . ولم يكن كتاب الدائرة كلهم يهود ، بل شكلوا نسبة ضئيلة ، لكنها جاءت ترجمة لأفكارهم بشكل لا يُصدَّق. وسيتضح من سيرة سلاطين الدولة العثمانية كيف أنهم شوهوا صورتهم جزافاً معتمدين على قوة الإقناع ، وعلى الخلفية السوداء للحكم العثماني التي كانوا سبباً فيها، والمساعدة على نشرها ،وهذا هو موضوع الفصل القادم بإذن الله.

[1] محمد جلاء إدريس : مرجع سابق ، ص 85 .

تجلى حقد الأوروبيين على الدولة العثمانية وكرههم لها ، في كتابات المستشرقين وأبحاثهم عن تاريخها ، وخير من يمثل ذلك مواد الدولة العثمانية في دائرة المعارف الإسلامية لأنها تعد من أهم مؤلفات المستشرقين :

١) تحمل في طياتها صوراً مشوهة وسيئة عن الإسلام والمسلمين والعرب وصولاً إلى العثمانيين . لأن أغلب محرري مواد الدائرة من المستشرقين كانوا من دارسي اللاهوت والديانة اليهودية ولهم عدة أبحاث فيها ، عوضاً عن أن أغلب رسائلهم التي قدمت لنيل الدرجات العلمية كانت عن الإسلام وسيدنا محمد ﷺ مما يدل على مدى تعمقهم في تشويه الإسلام . ولم يكن للكتاب العرب نصيب فيها إلا ضئيلاً . حيث حرروا مواد قليلة جداً .

٢) تخبط منهجية الرجوع إلى المصادر حيث كثيراً ما يترك المستشرقون الاستدلال بالكتاب والسنة ، ويلجأون إلى كتب القصص والعجائب والغرائب والطرائف ، لذلك يجب الحذر بما ينسبونه من معلومات للمصادر الإسلامية حيث أنهم عند إرجاع أي معلومة لمصدر ما فإن بعضهم ينسبون إلى نفس المصدر ما يصلون إليه من نتائج خاصة بهم ؛ فيظن القارئ أنه كذلك في المصدر ، وهذا الاستنتاج ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً، بل يكون وليد خيالهم المريض ، وفي النهاية يكون الاستنتاج خاطئً جملة وتفصيلاً .

٣) عندما وضع المستشرقون دائرة المعارف الإسلامية وضعوها من وجهة نظرهم الخاصة عن الإسلام التي تختلف في جوهرها ومضمونها عن نظرة المسلمين ،

صحيح أنها جاءت بمعلومات جديدة وصحيحة في بعض الأحيان تكاد تكون مجهولة للمسلمين والعرب وقت تأليفها ، خاصة في التراجم والجغرافيا والمعرفة بشكل عام، وهذه–من وجهة نظر الدراسة– الحسنة الوحيدة للدائرة ، لكنها خدّمت في إطار خاطئ، ووضعت أساساً للتأثير على إتجاه الباحثين المسلمين ، حتى تأتي أبحاثهم بعد ذلك مشوهة ومخالفة للواقع والحقيقة . وبذلك يصل المستشرق لأهدافِهِ دون عناء أو مشقة ، والحقيقة أن الوقت الذي أُلفت فيه الدائرة قبل الحرب العالمية الأولى واستمرار المشروع حتى منتصف القرن 14 هـ / 20م ، هو ذات الوقت الذي كانت ترزخ فيه الأراضي الإسلامية تحت ثقل الاستعمار، ما نتج عنه خلخلة فكرية وتأخر ثقافي وضعف في إرتباط المسلمين بدينهم وتشويهه في نظرهم ، ساعد على ذلك مقالات الدائرة التي قدمت خدمات للدول الاستعمارية ساعدتهم على إحكام سيطرتها على الشعوب المستعمرة.

٤) لم تورد الدائرة في بعض الأحيان الأسماء الكاملة لبعض المستشرقين ، أو حتى قامت بعمل جداول تعريفية لهم ، مما أسهم في صعوبة اكتشاف إسم المستشرق ، وهو ما تكرر مع الدراسة في اثنين منهم . وكأن المستشرق الذي قدم المادة ليس ذا مكانة علمية كبيرة . وإصرار مترجمي مواد الدائرة على عدم ذكر نبذ شخصية عنهم ، وعدم تصحيح الخطأ التاريخي أو حتى التعليق بالهامش على الافتراءات والمطاعن التي وضح أمرها جلياً ، وترك الأمور على علاتها ، ويعتبر هذا أكبر وأشد ضرراً ؛ لأن هذا يعني نشوء جيل من المتعلمين يعتبرها مرجعاً موسوعياً أساسياً يستقي معارفه الأولى منها . لهذا لن يكون جيلاً صحياً فكرياً وثقافياً ، وقد تضافرت جهود المستشرقين لإخراج هذا العمل ، فيستقي الباحث منها ، ويعتمد عليها دون أن يفرق بين الحق والباطل فيها ، أو يعلم أن مؤلف هذه الدائرة من ألد خصوم الإسلام والمسلمين ، لذلك فالنسخة العربية لم تقم بالدور المطلوب منها ، وهو تقديم المعلومة الصادقة الصحيحة ، ولم يعلقوا إلا على بعض الشبهات حول الشريعة الإسلامية في الهامش فقط.

٥) زيادة نشاط المستشرقين ، بعد فشل أوروبا في التصدي للجهاد الإسلامي العثماني . فعملوا على تقديم المساعدة للجيوش حيث كانوا القادة الحقيقيين الذين يقفون خلف

الستار في توجيهها ، وقدموا كافة المعلومات لكيفية تعامل المستعمر مع أهالي البلاد المستعمرة .

٦) اتصافهم بعدة صفات تظهر بوضوح من خلال ثنايا موادهم في دائرة المعارف الإسلامية ، وهي بصفة عامة سمة أغلب المستشرقين الذين ارتكزت أكثرية كتابتهم على التشويه المتعمد والطعن في الإسلام ورموزه وتاريخه حيث طبعت آرائهم بهذه الصفات .

٧) عمل أغلب مستشرقي الدائرة في التدريس الجامعي ، وخاصة في الجامعات العربية ، ونالوا عضوية المجامع اللغوية في البلاد العربية ، عوضاً عن عملهم في وزارة الخارجية ، ودوائر الترجمة مما يسهل عليهم التعرف على حياة البلاد الإسلامية ، بالإضافة إلى عملهم في المكتبات العامة والمتاحف ودور الأرشيف ، ساعدهم على ذلك إتقانهم اللغة التركية بجانب العربية مما مكنهم من إدخال سمومهم بسهولة في النصوص التي كتبوا فيها.

٨) أغلب من كتبوا في الدائرة يتميزون بغزارة نتاجهم في الأبحاث والكتب ، وإلى يومنا هذا لا يزال عطائهم مستمر .

٩) دفع اليهود للكتابة التاريخية عن الدولة العثمانية بمنتهى الدقة ووفق هدف مدروس ودعائم أساسية ، وبما أن عداوتهم للإسلام انتقلت إلى الدولة العثمانية على اعتبار أنها خير ممثل للإسلام في تلك الفترة ، فقد أهتموا بتشويه صورة الحكم العثماني خاصة أثناء عهد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي تجلى دورهم الحاقد على الدولة العثمانية في عهدهِ .

١٠) صعوبة توثيق دورهم في الكتابات الاستشراقية لإغفال أغلب المراجع لهذه المسألة ، إضافة إلى عزوف الكتاب عن تناول دورهم في الحياة الثقافية والاكتفاء بالجوانب الأخرى . حيث دخلوا ساحة الاستشراق ليسوا بصفتهم (يهود صهاينة) ، وإنما بصفتهم (مسيحيين أوروبيين) ؛ وبذلك لا ينفروا القراء المسلمين منهم .

١١) اهتمامهم بتشويه صورة الحكم العثماني عن طريق وسائل الإعلام . فظهرت عدة شخصيات تركية يهودية في مجال الصحافة أسهمت بشكل كبير في إثارة الرأي العام ضد العثمانيين ، مثل أفراد أسرة إيبكجي ، والصحفي البارز (أحمد يالمان) . أما

المروجون لفكرة الطورانية التي تخدم مصالح الصهيونية فهم (آرثر ليملي ديفيدس)، و (خالدة أديب) ، ومن داخل كيان الدولة العثمانية (ليون موئيز كوهين) .

١٢) أما عن أشهر الصهاينة الذين لهم باع طويل في الكتابة عن التاريخ العثماني (صموئيل زويمر) مؤسس مجلة " العالم الإسلامي " ، و (برنارد لويس) ، و (ستانفورد شو) ، و (إجنتس جولدزيهر) ، والذين –للأسف الشديد – تعتبر كتبهم المصدر الرئيس للدولة العثمانية لبعض المؤرخين .

وتتضح آراء المستشرقين اليهود والصهاينة بوضوح في مواد دائرة المعارف الإسلامية.

انفصم انثبنث

آساء انًستشليٍ في انكتبببث انًبنيخ انعثًبَي

المبحث الأول :

سؤيت انًستشليٍ في تُبول ليبو انذونت انعثًبَيت .

انًبحث انثبَي :

سؤيت انًستشليٍ في انكتبببت عٍ انعصش انزهبي وانشخصيبث انعثًبَيت في أثشبء سيخ أوسوبب.

انًبحث انثبنث :

سؤيت انًستشليٍ في انكتبببت عٍ ضعف انذونت انعثًبَيت واضًحلالها.

المبحث الأول :

رؤية المستشرقين في تناول قيام الدولة العثمانية .

لقد أغفلت المصادر والمراجع المعلومات الأساسية عن الأتراك قبل دخولهم الإسلام ، فلم يحظَ تاريخ الأتراك العثمانيين باهتمام جاد سواء من المؤرخين المسلمين أم غير المسلمين، إلا إشارات عابرة .

ولكن تغير الوضع تمامًا عندما دخل الأتراك في الإسلام ، وأصبحوا محط أنظار المؤرخين المسلمين وغير المسلمين ، وزاد اهتمام المستشرقين بتاريخ الأتراك العثمانيين خاصةً بعد بدء الفتوحات العثمانية في أوروبا .

لكن هذا الاهتمام كان وراءه أغراض في نفوسهم وليست الأمانة العلمية وحب البحث والتمحيص ، بل أطلقوا العنان لأحقادهم ، يلصقون التهم والافتراءات جزافًا دون أي دليل أو سند تاريخي .

ولعل المؤرخين المسلمين حذوا حذو المستشرقين إذ لم تركز – أغلب الكتابات – على بداية ظهور الأتراك العثمانيين ، واكتفت بإشارات عابرة عن بداية القائد عثمان وهجرة قبيلته، على الرغم من وجود عدد من المؤرخين العثمانيين الذين أرخوا لبدايات ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث ، لكن لا المؤرخين المسلمين تحملوا عناء الترجمة للرجوع لها ، ولا المستشرقين أيضًا ، فعدّوها فترة غامضة ، واكتفوا بحياكة الأساطير حولها .

وهذا الأمر كان سببًا في ترك المستشرقين يتجولون بحرية في مساحة الكتابة عن بداية ظهور العنصر العثماني وقوته السياسية ، مما أدى إلى أن الخلفية عن بدايات العثمانيين لا يمكن أن تأتي إلا عن طريق المستشرقين ، في الوقت الذي زاد فيه نفور المسلمين والعرب من العثمانيين ؛ بسبب كتابات المستشرقين التي ألصقت بهم كافة التهم المنطقية و غير المنطقية ، فقد أخرجوا لنا التاريخ العثماني محاطًا بالأساطير والأكاذيب الملفقة ، حتى أصبح القارئ المسلم ينفر لا شعوريًا من كلمة عثماني ؛ فقد التصقت في ذهنهِ بالدماء والقسوة والتخلف والركود .

وخير دليل على ذلك دائرة المعارف الإسلامية ، فقد وضع كرامرز في مادتهِ عن الترك كل أفكار المستشرقين وسمومهم عن بداية العثمانيين . وقد قسمتها إلى عدة أقسام ، أهمها قسم التاريخ ، وأهم ما جاء في المادة عدة نقاط تخص الدارسة :

أولاً : محاولة إثبات أن قيام الدولة العثمانية لم يتيسر إلا بسقوط وزوال الخلافة العباسية . [1]

ثانيًا : اتخذ كرامرز كل السبل لإقناع القارئ بأن إسلام العثمانيين " الأتراك " لم يأتِ مبكرًا ، وأن ديانة الإسلام التي اتخذوها على المذهب السني لم تكن سوى جزءٍ من سياستها الخارجية تجاه الدول النصرانية . ودليل كرامرز على ذلك أنها دخلت الإسلام أثناء حكم السلاجقة السني وعلى مذهب أبي حنيفة ، وقد أكَّد كرامرز على أنها احتفظت بالسنن القديمة والشعائر الدينية العجيبة المشوبة بالنصرانية ، بالإضافة إلى أن بعضًا من أسمائهم تعد من من التقاليد الشيعية الصوفية القديمة ، ووجَّه لهم كرامرز الاتهام بشدة حين زعم بأن إيمانهم لم يخلُ مِن الشك وقد زال مع الوقت بين الطبقات العليا . [2]

ثالثًا : ظهر في كتابتهِ التخبط بين الحقيقة والدَّس ، فتارة يكتب الحقيقة وأخرى تشرد الحقيقة بين الوهم والخيال والدس حيث ذكر أن فتوحاتهم السريعة في القرنين 8هـ - 9هـ / 14م – 15م لم تكن غزوات همجية أو أحلافًا للبدو وإنما، تحقيق لخطط طافت بأذهان غزاة عظام ، مثل بايزيد الأول ومحمد الثاني وسليمان الأول ، ويعود فيناقض نفسه في موضع آخر إذ يقول: إن الغارات والفتوحات في ألبانيا وبلاد المورة لم تكن تنفيذاً لمشيئة السلاطين ، وإنما كان أمراء التخوم يضطلعون بها من تلقاء أنفسهم . [3]

رابعاً : محاولة إثبات أن العادات والتقاليد البيزنطية وجدت طريقًا لها إلى آل عثمان منذ فترة مبكرة جداً ، ودليله على ذلك التعاون المبكر بين آل عثمان وبين نصارى اليونان . [4]

خامسًا : أكد أن ما روي من مختلف أخبار أرطغرل وعشيرته فيه كثير من سمات الأساطير، وهذا شأن ما قيل عن عثمان نفسه في بداية حياته ، حيث اعتمد على رواية تاريخية مفادها أن عثمان لم يكن ابنه ، بل في الغالب من جماعات السكان غير المتبدين الذين كانوا أكثر اتباعًا للسنة الإسلامية من التركمان . [5]

---

[1] كرامرز: مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : أحمد الشنتناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس ، ط1، القاهرة : دار الفكر ، 1933م ، ص 160 – 164 .

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية : مادة الترك ، ج5 ، ص 170 – 173 .

[3] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص160 ، 171 .

[4] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص168 .

[5] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص167 .

ثم ناقض نفسه وعاد يثبت أنه استعان ببني عشيرته ، ووثَّق صلته ببعض الرجال باصطناع الحيلة في بسط ملكه . [1]

سادسًا : محاولة كرامرز إثبات أن العثمانيين لم يقابلوا جيشًا بيزنطيًا نظاميًا في غزواتهم منذ عام 701هـ – 721هـ / 1301م – 1321م ، وإنما صادفوا قادة الحصون المحاصرة فقط. [2]

ويتضح من خلال استعراض النقاط السابقة أنها مليئة بالأخطاء التاريخية المتعمدة التي بنيت على مصادر تاريخية لم يذكرها مطلقًا ، ومعلوماتهِ تناقض بعضها بعضًا ، على الرغم من ذلك اتسم كرامرز بخفة قلمهِ على العثمانيين .

كما احتوت المادة على عدة حقائق ومعلومات قيمة اعتبرت الأولى من نوعها عن تاريخ العثمانيين ، ومع ذلك تضمنت معلومات خاطئة بهدف التشويه وقلب الموازين ، وقد جاءت كالآتي :

أولاً : محاولة إثبات أن قيام الدولة العثمانية لم يكن لتسير إلا بسقوط الخلافة العباسية .

" وقد لوحظ أن قيام دولة قوية جديدة في منطقة البحر المتوسط لم يكن ليتيسر إلا بعد زوال الخلافة العباسية وتقاليدها السياسية عام 1258م وانحلال الإمبراطورية البيزنطية". [3]

وبتناول هذه الفقرة يتضح أن ما ورد فيها محض افتراء ؛ لأن العالم كان يسوده جو من الاضطراب والفوضى السياسية ، ليس فقط في المشرق الإسلامي ، وإنما حتى الغرب الأوروبي وآسيا الصغرى ، فمع بداية القرن 7هـ / 13م ساد آسيا الذعر والرعب والفوضى والاضطراب نتيجة لضغط المغول المخرب على القبائل المسلمة في التركستان ، في الوقت الذي سيطرت فيه الفكرة الصليبية على أوروبا ، ونتج عن ذلك كله كثير من آثار الحرق والنهب بصورة همجية ، وقد كان من الصعب إزالة آثار الهدم والتخريب التي احدثتها هجمات المغول والحملات الصليبية على حدٍ سواء . [4]

---

[1] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص167م .

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص168 .

[3] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص159 ، 160 .

[4] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 9 . =

فهذه السنوات التي مرت بين سقوط بغداد وظهور آل عثمان سادها الفوضى والاضطراب ، ولو كان أرطغرل ينتظر سقوط بغداد لسارع فورًا عام 656هـ/ 1258م بإعلان دولتهِ وبسط سيادتهِ على المناطق التي حوله ، لكنَّ العثمانيين في تلك الفترة كانوا عشيرة صغيرة ليس لها كيان وتأثير سياسي ، ولم تظهر قوة إسلامية مهُابة الجانب إلا في عهد أورخان ، أي عام 727هـ / 1326م.

بالإضافة إلى أن المساحة الجغرافية كبيرة جدًا بين المشرق الإسلامي بما فيه العراق والشام وآسيا الصغرى مقر عشيرة أرطغرل ، فكيف وبأي وصف تسقط دولة في العراق فتسارع دولة أخرى في آسيا الصغرى باحتلال مناطقها وإعلان نفسها دون أن يكون لها جيش أو حتى تنظيم سياسي أو عمله ؟!

على الرغم من وجود المماليك في مصر وبلاد الشام إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعالُجوا الصدع الذي تركه سقوط الدولة العباسية ، صحيح أنهم أوقفوا الزحف المغولي على البلاد الإسلامية إلا أنهم انشغلوا بخلافاتهم الداخلية ، ولم يضموا إليهم المسلمين في شتى البقاع .

أما القسم الغربي من أوروبا ، فكان تحت حكم دولة بني الأحمر " أموي الأندلس " حيث كانت في أوج قمتها وعظمة الحضارة الإسلامية ، وكانت بعيدة عن أي أحداث تقع في المشرق الإسلامي أو الأناضول .

وفي تلك الأثناء قام الأوروبيين عام 601هـ / 1204م أي قبيل استيطان عشيرة قابي التي ينتسب إليها آل عثمان في شمال غرب الأناضول بحملة عسكرية على الدولة البيزنطية ، حيث استولوا على عاصمتها القسطنطينية وأسسوا فيها دولة لاتينية . وقد شهد البيزنطيون أكبر عملية غزو ونهب في تاريخهم على أيدي جيوش ينتسب أفرادها إلى دينهم نفسه وأضطر منتسبوا أسرة بالالاغوس التي كانت تحكم بيزنطة إلى الهروب والفرار بحياتهم إلى أزنيق حيث عاشوا هناك فترة من الزمن ، ونجحوا أخيرًا في إنقاذ بيزنطة من الغزو الأوروبي عام 660هـ/1261م . [1]

= Colin Imber , Osmanli Imparatorlgu 1300 – 1650 , Cev . Siar Yalcn , Istanbul 2006 , Safha 8-9 Abdurrahman Seref , Osmanl Devleti Tarihi (Tarih – I Devlet – I Osmaniye) , Hazirlayan Musa Duman , Istanbul 2005 , Safha 54 – 57 .

[1] Ernst Werner , Buyuk Bir Devletin Dogusu , Cev . Orhan Esen – Yilmaz Oner , Istanbul 1986 . Safha66 ; Serif Bastay , Bizans Imparatorlugu Tarihi (Son devir 1241 – 1461) , Ankara 1989 , Safha Vll ; Herbert Adams Gibbons , Osmanli Imparatorlugunun kurulusu , Cev . Huseyin Dag – Bulent Ari , Ankara 1998 , Safha , 34 .

ثم بدأت الإمبراطورية البيزنطية تشعر بأمان كبير إثر سقوط الدولة السلجوقية في الأناضول 641هـ - 708هـ / 1243م- 1308م ، لكن لم يمض وقت طويل حتى تزعزع هذا الأمان وذلك بانتقال السيادة في الأناضول من السلاجقة إلى العثمانيين الذين أصبحوا في فترة وجيزة جيرانا مع بيزنطة .

أما عن أوروبا فقد كان الخلاف فيها والنزاع يجري على قدم وساق بين فرنسا وإنجلترا منذ أكثر من مائة عام ، فضلاً عن أن الأوروبيين كانوا يعيشون فترة ظلام وجهل قاتل ، حيث انشغلوا بقضايا الهدف منها السيطرة على الشعوب من طبقة البابوات والقساوسة والرهبان ، فاشتغل الناس في مسألة الخلافات المذهبية والرِّق والتفرقة العنصرية ، حتى إنهم انشغلوا بمعاملة النساء مثل الحيوانات وربطهن بالسلاسل في السجون ، بالإضافة إلى الخلافات بين الطبقة الحاكمة البرجوازية والطبقات الاجتماعية الأخرى . (1)

وفي تلك الأثناء قام الإيلخانيون " مغول إيران " بمحو آثار سلاجقة الأناضول من مسرح التاريخ وسيطروا على كافة بقاع الأناضول ، لكن حكمهم لم يدم طويلاً بسبب النزاع الداخلي الذي نشب بين أمراء المغول . (2)

وتبعًا لذلك تأسست عدة إمارات تركية في الأناضول إثر سقوط الدولة السلجوقية ، كالإمارة القرمانية والمنتشاوية والإرتناوية والأيدينية والصاروخانية وغيرها . كما أن نفوذ الدولة البيزنطية امتدت سيادته إلى بعض الأقسام الغربية من الأناضول وأجزاء من البلقان ، بالإضافة إلى وجود إمبراطورية رومانية صغيرة في طرابزون الواقعة على ساحل البحر الأسود من الأناضول.(3) التي كان لها دور كبير في بعض الأحلاف الصليبية التي كُوِّنت ضد السلطان محمد الفاتـح ، وكثيرًا ما زادت الخلافات بيـن الإمارات في الأناضول مما أدَّي -أحيانًا - إلى نشوب معارك دامية بينها ، وذلك لتحقيق السيادة على كافة أراضي الأناضول، وقد استمرت تلك المعارك حتى قيام الإمارة العثمانية بتأسيس دولة قوية مترامية الأطراف من جهة الغرب في فترة وجيزة نحو حدود الدولة البيزنطية ودول البلقان .

---

(1) Enver Behram Sapolyo , Osmanli – Inklap ve Avrupa Tarihi Ozu , Ankara 1946 , Safha 21 Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , 2 baski , Istanbul 1999 , Safha 2 .

(2) Abdurrahman Seref, Osmanli Devleti Tarihi (Tarih – I Devlet – I Osmaniye) , Hazirlayan : Musa Duman , Istanbul 2005 , Safha 59 .

(3) Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , 20 baski , Isatanbul 1999 , Safha. 3 .

وذلك بطلب من أهالي المنطقة نظرًا للتمزق الحاصل في تلك الآونة فرغبوا بان تكون هناك قوة تجمعهم تحت راية واحدة .[1]

ومن هنا يلقى الضوء على الوضع السياسي في الأناضول قبيل قيام الدولة العثمانية ، ويدل ذلك على أنه لم يكن هناك دولة حاكمة تسيطر على كل أنحائه ، فكل فئة تحاول ضم تلك البقاع إلى سيادتها ، فلم يكن ممكنًا تأسيس وحدة إسلامية تركية بين تلك الإمارات ، خاصة مع انقطاع فكرة الجهاد الإسلامي ، مما سهل قيام الدولة العثمانية في تلك البقعة ، وقد خضعت أغلب تلك الإمارات للسيادة العثمانية دون أن تدخل في حرب معها ، فيما أعلنت بعضها الحرب ضد العثمانيين ولكنها فشلت في التغلب عليهم ، ودخلت تحت الحكم العثماني مستسلمة، وهكذا وحدت الأناضول تحت سيادة العثمانيين ، وليس السبب تنحي الخلافة العباسية عن الساحة السياسية في بغداد – كما ذكر كرامرز -.

ثانيًا : محاولة إثبات عدم دخول قبائل الأتراك مبكرًا في الإسلام ، وأن اتخاذهم المذهب السني ليس إلا جزءًا من سياستهم الخارجية ، وأن إسلامهم جاء مشوبًا بالنصرانية والشيعية . فقد ورد بالدائرة النصوص التالية :

" نشأت الدولة العثمانية في محيط ديني بعيد عن موطن أهل السنة فما لبثت أن اتجهت إلى السنة ودخلت في مذهب أبي حنيفة ، بيد أنها احتفظت بآثار من السنن القديمة".[2]

" اختلاط الجنود بكثير من السكان الأصليين ، وهذا الاختلاط يفِّسر تلك الأنظار والشعائر الدينية العجيبة المشوبة بالنصرانية التي قيل بعد ذلك إنها وجدت بين الطبقات الدنيا في الأناضول ، وأنها كانت شائعة بصفة خاصة بين أتباع الطريقة البكتاشية الصوفية في عهد الدولة العثمانية " .[3]

" بعض أسماء السلاطين الأول كمراد وبايزيد فيها محافظة على التقاليد الشيعية الصوفية القديمة ، ويمكننا أن نرد إلى هذا العهد المتقدم أيضًا تقليد السلطان سيفًا يتمنطق به ".[4]

---

[1] أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص15 .

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص160 .

[3] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص164 .

[4] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص170 .

" وكان الترك قد آمنوا أول الأمر بالسنة الإسلامية إيمانًا لم يخلُ من شك ، ثم زال هذا الشك بين الطبقات العليا رويدًا ، وغدت هذه الطبقات تستمسك في حياتها بأهداب السنة لا تتحول عنها ، وظل التعلق بالطوائف والمذاهب الصوفية مستمرًا وإن استتر بهذا الستار السني ". [1]

أما بالنسبة للنقطة الثانية التي تناول فيها كرامرز مسألة إسلام العثمانيين وأنه لم يكن مبكرًا وأن اتخاذهم المذهب السني لم يكن سوى جزء من سياستهم الخارجية تجاه الدولة النصرانية ، مستدلاً على ذلك بأن إسلامهم تم في أيام السلاجقة لذلك كان على مذهب أبي حنيفة النعمان فلم يورد كرامرز أي دليل واقعي على هذا الحديث ، أو على أي سند أو مصدر تاريخي اعتمد عليه ، بل إن افتراءاته تلك لم تستند إلى أدلة مطلقًا . وفي هذا الرأي دلالة واضحة على عدم مصداقيته وتظهر أغراضه المدروسة ، لأنه لو رجع إلى أي مصدر موثوق عن التاريخ العثماني لاكتشف إدعاءهِ ، لأن الأتراك انحدروا من موطنهم الأصلي [2] إلى قرب شواطئ نهر جيحون في مطلع القرن 1 هـــ / 7 م ، حيث استقرت هناك جماعات من الترك، التي هاجرت إما بحثًا عن سبيل للعيش الأفضل ، أو بسبب ضغط القبائل المغولية عليها التي أجبرتها على ترك موطنها الأصلي لتبحث عن مكان أكثر أمنًا واستقرارًا ، واستقرت في طبرستان وخراسان وجرجان ، وهكذا اقتربوا من الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس عام 21هـــ / 641م . [3] وهذا كان بداية اتصالهم بالعالم الإسلامي إذ ثبتُ إسلامهم منذ هذه الفترة المبكرة جدًا في التاريخ الإسلامي ، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وصلت طلائع الجيوش الإسلامية عام 22هـــ / 642م إلى الأراضي التي أستقر بها الترك الذين طلبوا الصلح مع المسلمين بل والانضمام للجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن، وبذلك لم تقم حرب بين الترك والمسلمين وساروا معًا إلى بلاد الأرمن لمحاربتهم ونشر الإسلام فيها . [4] كانوا غير لما استطاعوا الانضمام للجيش الإسلامي والدفاع عنه ، وهذا دليل واضح على إسلامهم المبكر .

---

[1] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص173 .

[2] موطنهم الأصلي : يقع في منطقة بلاد ما وراء النهر التي يطلق عليها حاليًا التركستان ، والممتدة من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقًا إلى بحر قزوين غربًا ، ومن السهول السيبرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوبًا ، إذ عاشت فيه قبائل رحل من عشائر الغز الكبرى عرفت بالترك . مؤلف مجهول : الأتراك العثمانيون ، ورقة 2 ، أميرة مداح : مرجع سابق ، ص7 .

[3] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص7 .

[4] مرجع سابق ، ص 8 . أنظر الخريطة في الملحق .

وفي ذلك الوقت تقدمت الجيوش الإسلامية تفتح بلدان شمال شرق بلاد فارس وتعمل على نشر الإسلام فيها ، وساعد على ذلك زوال الدولة الساسانية الفارسية على يد المسلمين ، والتي كانت بمثابة حاجز منيع أمام تحركات شعوب تلك المناطق وخاصة الترك ، فزادت أعداد الترك الذين دخلوا الإسلام لانفتاح الباب أمامهم للاتصال بالشعوب الإسلامية والانضمام لصفوف المجاهدين والمدافعين عن الإسلام ، وأصبحوا من المشاركين في نشر الإسلام . [1]

ومع زيادة تقدم الجيوش الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ دخل الكثير من الترك في الإسلام ، وانضموا بأعداد كبيرة لجيوشه .[2]

وزاد دخول الأتراك في الإسلام في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ، حيث توغلت الجيوش الإسلامية في بخارى ومرو وسمرقند بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي عام 98هـ / 717م ، ثم نشطت الدعوة إلى الإسلام في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك وأسلم عدد كبير، ومع مرور الزمن أسلم زعماؤهم ، ومن أبرزهم ملك أرشروسنه كاوس وأسلم معه قومهِ ، ثم أسلم زعيم الترك قره خان زمن الخليفة المطيع لله ابن المقتدر 349هـ/954م . [3]

وهكذا يتضح لوي الحقائق وتحريفها من قبل كرامرز حيث إنهم أسلموا منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وليس أيام السلاجقة كما ذكر في دائرة المعارف الإسلامية.

أما عن مسألة تمسكهم بالعادات النصرانية ، والشك الذي شاب إسلامهم ، وميلهم للعادات والتقاليد الشيعية فلم يثبت تاريخيًا ولو بحادثة واحدة ميلهم للعادات النصرانية ؛ لأنهم لم يدينوا بها قط وإنما الوثنية كانت ديانتهم قبل الإسلام .

وقد اتهمهم كرامرز بأن أسماءهم تعبر عن تقاليد شيعية ، فاستدل بهذا على أن لهم ميولاً شيعية ، ولم يذكر أي اسم من هذه الأسماء أصله شيعي ، فهل تعد أسماء كمحمد أو عثمان أو سليم أو حتى سليمان أسماء شيعية ؟! ، ولو أردنا الدقة أكثر فلن نجد عندهم أسماء

---

[1] محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، د. ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ب . ت ، ص 12 ، 13 .

[2] عبد اللطيف بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ط1 ، مكة المكرمة : النهضة الحديثة ، 1409هـ / 1988م ، ص11 .

[3] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص18 . لمزيد عن معرفة متى أسلم الأتراك الرجوع إلى : يلمازا أزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 45 ، 46 .

كعلي وجعفر ، بل على العكس من ذلك ، فأسماؤهم منذ عهد عثمان تدل على إسلامهم المبكر، ولا تدل على ميولهم الشيعي .

ومن واقع رحلة الهجرة التركية على الخريطة ، نجد أنهم انتقلوا من وسط آسيا إلى غربها في الأناضول ، فكان لابد لهم أن يمروا بمناطق شاسعة ساد فيها المذهب الشيعي ، ومع ذلك لم يتأثروا بها مطلقاً وفضلوا الإسلام بمذهب أهل السنة بل وتحمسوا للجهاد ونشر الإسلام ، وظلوا في قرارة أنفسهم يحملون عداءً مستحكمًا تاريخيًا للشيعة . [1] لكن لا شك أن هناك تأثيرات حضارية فقط وليست مذهبية ، وأبلغ دليل على ذلك موقف السلطان سليم الأول من الخطر الشيعي الصفوي ومحاولاته المستمرة للتصدي له وإيقافه والحد منه .

ويظهر هنا بوضوح كيف أن كرامرز قد استخدم أسلوب المستشرقين ومنهجهم في وضع فكرة مسبقة والسير نحو إثباتها ، حيث عدَّ الأوروبيون أي نصر عسكري تحققه القوات العثمانية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية ، وبما أن الإسلام يهزم المسيحية فلابد من القضاء عليه وتشويهه ، وهذه ليست فكرة كرامرز فقط وإنما جميع المستشرقين .

وأخيرًا فقد اعترف كرامرز في مادة عثمان الأول بذلك .

" أيضًا نجد أن القائد عثمان قد جعل الإسلام له منهجًا وساعده ذلك البيئة التي تتكون من مجتمع مسلم في تركيا " . [2]

وفي هذا دلالة واضحة على أن إسلامهم جاء مبكرًا بدليل أنه كان منهجًا للقائد عثمان والقبائل التركية التي أسلمت مبكرًا وظهرت آثاره على البيئة المحيطة.

ثالثاً : مسألة حقيقة فتوحات العثمانيين الأوائل .

" ومن ثم فإن فتوح العثمانيين السريعة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تكن طلائع غزوات قوم من الهمج أو أجلاف البدو وإنما كانت تحقيقًا لخطط طافت بأذهان غزاة عظام أمثال بايزيد الأول ومحمد الثاني وسليمان الأول وبعض ساستهم " . [3]

" ولم تكن معظم هذه الغارات والفتوح ومثيلاتها في ألبانيا والمورة تنفيذًا لمشيئة السلاطين ، وإنما كان أمراء التخوم يتطلعون بها من تلقاء أنفسهم " . [4]

---

[1] أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص9 .

[2] Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia Of Islam , Leaden , 1930 volume III , S. 1007 .

[3] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص160 .

[4] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص171 .

هذا سيتم الرد عليها في مواضع السلاطين في المبحث القادم – بإذن الله –[5].

رابعاً : محاولة إثبات أن العادات البيزنطية وجدت طريقها إلى آل عثمان مبكرًا وأن الأساطير تطغى على أخبار أرطغرل وعشيرته .

"وهذا التعاون المبكر بين آل عثمان وبين نصارى اليونان يجيز لنا أن نقول إنه كان منذ البداية سبيل السنن والعادات البيزنطية إلى الدولة العثمانية." [1]

" على أن ما روي من مختلف أخبار أرطغرل وعشيرته فيه كثير من سمات الأساطير ،وهذا هو شأن ما قيل عن شباب عثمان نفسه وغزواته الأولى."

" ونستطيع أن تقيم من هذه المصادر المختلفة رواية تاريخية مؤداها أن عثمان لم يكن في واقع الأمر ابنًا لأرطغرل ، بل هو في الغالب من جماعات السكان غير المبتدئين الذين كانوا أكثر اتباعًا للسنة الإسلامية من التركمان " .

" واستعان عثمان ببني عشيرته ووثق صلته ببعض الرجال واصطنع الحيلة في بسط ملكه " [2]

إن المصادر العثمانية قد أعطت صورة واضحة – وإن شابها بعض النقص – عن بداية ظهور العثمانيين ، و أخرجت الحدث في صورة علمية صحيحة أقرب إلى الحدث التاريخي فلم يختلط بالأساطير والغيبيات كما ادعى كرامرز وحاول بشتى الطرق أن يثبت أن عثمان ليس ابناً لأرطغرل وإنما من جماعات السكان الأكثر اتباعًا للسنة من التركمان .

واعتمد في هذه المعلومة على مصادر مختلفة لم يذكرها طبعًا ، ثم عاد ورد على نفسهِ في الفقرة نفسها عندما ذكر سنة وفاة أرطغرل حيث قال : ***" حتى إذا توفي عنه والده أرطغرل عام 664هـ / 1265م "*** ، وبهذا فإنه اعترف ضمنيًا ببنوة عثمان لأرطغرل . [3]

وقد أعاد هذه القصة مرة أخرى في موضع آخر من الدائرة ، حيث كتب "وفقًا للإجماع التقليدي كان عثمان أحد أبناء أرطغرل والذي نجح في قيادة العشيرة"

---

[5] السلطان بايزيد الأول ص 371 . السلطان محمد الثاني ص 403. السلطان سليمان القانوني ص 449

[1] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص168 .

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص167 .

[3] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص167 .

وكلمة الإجماع التقليدي تدل على عدم اقتناع الكاتب بذلك ، فهو يصر إصرارًا عجيبًا على التشكيك في بنوة عثمان لأرطغرل ، ليس هذا فحسب بل زاد عليه أن أورخان لم يكن ابن أرطغرل أيضًا وإنما رفيق درب له في المعارك فقط . [1]

والغريب في الأمر أن هذه التهمة التي ألقاها بالتشكيك في نسب عثمان وأورخان ليس لها أي سند تاريخي واضح ، ولم يذكر المصدر الذي يؤكد هذه التهمة ، وإنما أُلقيت جزافًا بهدف زرع الشك في نفس القارئ حتى يظن أنهما ليسا من سلالة أرطغرل ؛ وذلك للتشكيك في نسب آل عثمان وإفقادهم الهيبة والمكانة التي حازوا عليها ، والتشكيك أيضًا في مدى جدية الإسلام والسنة النبوية الشريفة عند العثمانيين .

أما مورتمان [2] فقد أكد على مسألة أن أرطغرل والد عثمان الأول ، معتمدًا في ذلك على مصدر عثماني موثوق وهو عاشق باشا زاده ، وهذا رد واضح على تشويه كرامرز ، لكنه نسب أرطغرل إلى سليمان شاه وليس كوندوز ألب ، وهو بذلك زاد الافتراء عليهم . [3] كما أن كرامرز اعترف بنفسهِ – في الفقرة نفسها – بأن عثمان استعان ببني عشيرته ووثق صلته ببعض الرجال ليصل إلى مبتغاه ، فلو أنه كان ليس ابن أرطغرل لما نال مساعدة العشيرة أبدًا على اعتبار أنه ليس من صلب حاكمهم . وهو بذلك رد على نفسهِ ، وقد وقع في الخطأ لمجرد أنه أراد أن يضيف افتراءً جديدًا على عثمان ، وهو أنه اصطنع الحيلة لبسط نفوذهِ .

وإذا دققنا النظر في مادة عثمان الأول نجد أن كرامرز أصر على التهم نفسها التي وجهها لنسب عثمان الأول . [4] ، وقد زعم كرامرز ذلك باستناده إلى أقوال بعض المستشرقين بأن عثمان ليس من أبناء أرطغرل و بحجة أن أسماء الأولاد الآخرين لأرطغرل هي أسماء تركية ، ما عدا عثمان الذي يحمل إسماً عربياً . [5] وبتشكيكهم في نسب مؤسسي الدولة العثمانية ظهر مدى تحاملهم على الدولة العثمانية وحكامها .

ولا شك أن هذه المعلومات ليس لها أساس من الصحة ، والدليل على ذلك أن السلطان عثمان الأول هو السلطان الأول للدولة العثمانية ومؤسسها ، وهو الذي أعطى اسمه

---

[1] Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia Of Islam , Leaden , 1930 volume III , S. 1006 .

[2] مورتمان أحد المستشرقين الذين قدموا عدة مواد عن العثمانيين في دائرة المعارف الإسلامية .

[3] مورتمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج1 ، ص624 .

[4] Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia Of Islam , Leaden , 1930 volume III , S. 1005 . 1006 .

[5] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص167 .

لدولة عاشت أكثر من ستة قرون وعرفت بقوتها وعظمتها ، ووصلت الحضارة الإسلامية إلى أوج قمتها زمن هذه الدولة ، وهو الابن الأصغر لأرطغرل من مجموع ثلاثة أبناء ، وينتسب إلى عشيرة قابي من فرع بوزوق المنحدر من أصل الغز التركية ، وإن وجود سكة – عملة – للسلطان عثمان الأول كتب عليها " عثمان بن أرطغرل بن كوندوز ألب " لخير دليل على دحض هذا الزعم ، [1] كما أنه رد واضح على مورتمان واتهامه .

هذا بالإضافة إلى أن بعض أبناء عثمان يحملون أسماء تركية – أيضًا – بجانب الأسماء العربية ، فمثلاً نجد أبناءه جوبان بك ، باظارلي بك ، وحوجي بك ، وفي المقابل نجد لديه – أيضاً – حامد بك ، وعلاء الدين ، وعلي بك ، وملك بك ، وكان لديه ابنه واحدة هي فاطمة خاتون . [2]

أما بالنسبة إلى بدايتهم المبكرة التي أحاطتها الأساطير بالغموض فإنَّ المؤرخين لم يتركوها مجهولة ، بل أضافوا عليها أن السنن والعادات البيزنطية وجدت الطريق إلى آل عثمان مبكرًا ، مستدلاً على التعاون المبكر بين آل عثمان وبين نصارى اليونان .

ولنشاهد الآن الصورة واضحة عن بداية العثمانيين من خلال المصادر التركية والمراجع العربية المنصفة ، فقد اتفق معظم المؤرخين المسلمين على أن الأتراك ينتسبون إلى يافث ابن سيدنا نوح ﷺ، وبعد وفاة يافث خلفه في الزعامة ابنه ترك ابن يافث، الذي كان أفضل إخوانهِ وأرشدهم ، فسار بقومهِ إلى تركستانِ حيث اصبحت الموطن المستقر للأتراك ، وهناك تناسل قوم الترك بمرور الزمن ، وتشعبوا إلى عدة أقوام ، جاء في مقدمتها شعب الغز ويطلق عليه بالتركية Oguziar ، وشعوب أخرى مثل التتار والمغول ، والخزر، والفجق ، والبجناك . [3]

إن معظم الأتراك الذين استوطنوا في الأناضول على إثر الهجرة المذكورة سابقًا كانوا ينتسبون إلى أسرة الغز ، وكان لزعيم الأسرة أوغوز خان ستة أبناء وأربعة وعشرون حفيدًا ، تكاثروا بمرور الزمن فنتج من ذلك أربع وعشرون عشيرة تركية ، وإحدى هذه العشائر هي عشيرة قابي التي كانت تسكن في قصبة مَهان [4] ، ثم هاجروا نحو الغرب على

---

[1] Ahmed Akgunduz – Said Ozturk , Bilinmeyen Osmanli , Istanbul 1999 , Safha 30 ; Atilla Cetin , "Osman Gazi nin sikkesini bulan adam " Tarih ve Medeniyet Dergisi , 12 , 1995 , S . 49 .

[2] عبالقادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص33 .

[3] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 17 .

[4] قصبة مهان : تقع بالقرب من مدينة مرو في مقاطعة خراسان . انظر : س . موستراس : مرجع سابق ، ص485 .

إثر ضغط المغول عليهم وعلى بلادهم ، واستوطنت عشيرة قابي المسلمة التي عددها يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة خيمة في موقع أخلاط الواقع بالقرب من بحيرة وان . [1]

وتشير بعض المصادر إلى أن منتسبي هذه العشيرة كانوا يقومون في تنظيم هجمات متواصلة على أراضي الإمبراطورية الرومانية في طرابزون [2] ، وبمرور الوقت انتشر أفراد العشيرة على أرض منطقتي أرضروم [3] وأرزنجان [4] ، ثم هاجروا نحو الجنوب حتى وصلوا إلى ضواحي حلب [5] واستقروا بجوار قلعة جعبر [6] وهذا رد واضح وصريح على أن إسلامهم كان مبكرًا جدًا لأنهم كانوا يشنون الهجمات على أعدائهم في الدين وهي أراضي الدولة البيزنطية ، وهذا دليل على أن البيزنطيين ناصبوهم العداء المستحكم نتيجة لاختلاف الملة ، فكيف بقوم يعتدون عليهم فيرد عليهم الأتراك بهجمات متواصلة فيتأثرون بهم وكأنهم أحباب لهم ، فليس هناك تأثير من البيزنطيين عليهم في أي شيء سوى الطراز المعماري بعد فتح القسطنطينية وبعض الأنظمة السياسية .

وفي هذه الأثناء تعرض الكثير منهم للخطر المغولي فعبروا المنطقة حتى اقتربوا من أرضروم ، وهنا آثر بعض أفراد العشيرة العودة إلى وطنهم القديم، حيث رحلوا إلى مقاطعة خراسان ، وبعضهم استقر في العراق الشمالي ، والبعض الآخر في غرب إيران ، أما

---

[1] بحيرة وان : تقع في الأناضول قريبًا من مدينة وان . شكلها مثلث غير متساو الأضلاع ، ومياهها مالحة ومدينة وان Van مدينة تركية اسيوية في الأناضول ، على الضفة الشرقية من البحيرة ، تعد مركزًا ولواءً وبها أسواق جميلة وقلعة حصينة . انظر : س. موستراس : مرجع سابق ، ص486 .

Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca , Istanbul 1995, Safha 58 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص9 .

[2] طرابزون Trabizoun مدينة تركية في الأناضول مركز الولاية واللواء وتقع على البحر الأسود ، مركز تجاري مهم ، وكانت مقر أسقفية يونانية تتبع بطرياركية القسطنطينية وهي مدينة قديمة حكمُت على مر التاريخ من عدة أسر وتعرضت للتخريب ، وفي العصور الوسطى أعلن فرع من أسرة الكومنيس استقلاله فيها عن الإمبراطورية اليونانية ، فجعلتها عاصمة لإمارة عاشت حتى سقوط القسطنطينية ، ولم تسقط أمام ضربات السلطان محمد الفاتح إلا عام 865هـ / 1460م . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 345 ، 346 . Dervis , Mehmed b. Seyh Ramazan , Subhati ' l – Ahbar , Tipkbasim Dogan , Istanbul 1968 , Varak 12b .

[3] أرضروم : مدينة تركية في الأناضول ، تقع على سفح جبل غير بعيد عن نهر الفرات ، وهي مقر أسقفية يونانية تتبع بطريرك أنطاكيا ، فتحها العثمانيون عام 923هـ / 1517م ، وقد ضربها زلزال مدمر عام 1276هـ / 1859م . س . موستراس : مرجع سابق ، ص445 .

[4] أرزنجان Erzinguian : مدينة تركية في الأناضول تقع في الشمال الشرقي منه ، في ولاية ولواء أرضروم ، بالقرب من الفرات ، مرجع سابق ، ص41 .

[5] حلب Haleb : مدينة في شمال سوريا حاليًا ، تقع في السهل الذي يمتد من نهر العاصي حتى نهر الفرات ، فتحها المسلمون في ق1 هـ / 7 م ، حاصرها الصليبيون عام 518هـ / 1124م ، ثم خربها المغول ، وأعيد بناؤها مرة أخرى ، وقد ظلت حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح مستودع التجارة الأوروبية في الهند . س موستراس : مرجع سابق ، ص251 ، 252 .

[6] Cenabi EL – Eylemu'z – Zahir Nuruosmaniye Kutuphanesi, No : 3102 / II , Varak 178 a ; Ali , Kunhu; 1-Ahbar , V. Istanbul 1277 , Safha 20 .

عشيرة قابي الصغيرة فقد واصلت المسير حتى استقرت في هضبة قريبة من أرضروم ، واستقرت بها العشيرة بقيادة رئيسها كوندوز ألب مع أفراد أسرته والبقية المتبقية من العشيرة وابنيهِ أرطغرل غازي ودوندار بيك ،وعدتهم 400 خيمة وحوالي 4000 تركي مسلم ، وقد تمت هجرتهم من جنوب غرب تركستان إلى شرق الأناضول على مدى عشر سنوات، [1] وبعد وفاة كوندوز ألب تولى أرطغرل غازي رئاسة العشيرة ، ثم بعث ابنه صاري باطي إلى السلطان السلجوقي علاء الدين الأول ليطلب منه منحهم مكاناً أنسب للاستيطان . [2]

وهذا يدل على علاقتهم المبكرة والحسنة مع السلاجقة المسلمين ، وقد اكتنف هذه العلاقة الحب والود والمنفعة المتبادلة ، والدليل على ذلك أن هذا الطلب قد لاقى قبولاً حسنًا ، إذ منحهم منطقة قراجا داغ [3] لتكون مقرًّا صيفيًا وشتويًا لهم [4] وكان ذلك ما بين عامي 630هـ - 631هـ /1232م - 1233م.[5]

ونعود مرة أخرى إلى مادة عثمان الأول ، حيث وصف بداية حياته بأنها مغلفة بالغموض والإبهام ، وأن تاريخه مفعم بالبطولات الأسطورية ، وأنه زُين بعدد من الشخصيات الأسطورية التي تبرز عظمة وقوة هذه السلالة ومصدره الأدب التاريخي التركي القديم ، مستندًا في ذلك على الرؤيا المتعلقة بالقائد عثمان الأول التي ترفع قدره بشيء من الشك، واستند إلى تاريخ عاشق باشا زاده :

" يوضح لنا دراسة التاريخ القديم أنه وبالرغم من أنه يحتوي على بعض التقاليد التاريخية القديمة فهو يحتوي على مزيد من الشخصيات الأسطورية

" وعلى أية حال فإن التاريخ المبهم للسلالة العثمانية قد تم تزيينه بعدد من الشخصيات الأسطورية ". [6]

---

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص9 ، 10 . علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ط 3 ، المكتب الإسلامي، 1415هـ / 1994م ، ص11 ، 12 مؤلف مجهول : الأتراك العثمانيين ورقة 2-3 ،

Nesri , Tarih , I . S . 60-61 ; Ali , Kunhu; 1 – Ahbar , V. Istanbul 1277 , Safha 20-21

[2] Muneccimbasi Almed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca, Istanbul 1995, Safha 64 .

[3] قراجا داغ : مدينة تركية أسيوية ، تقع قرب أنقرة حالياً . انظر :

Sukrallah , Behcetu't – Tevaarih , Nuraosmaniye Kutuphanesi , NN . 3059 , VARAK 307a – 308 .

[4] Sukrallah , Behcetu't – Tevaarih , Nuraosmaniye Kutuphanesi , NN . 3059 , VARAK 307a – 308 .

[5] Muneccimbasi Ahmed b. Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirak,ca , Istanbul 1995 , Safha 64 .

[6] Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia of Islam , Leaden , 1930 volume III , S. 1005 , 1006.

" هناك نزعة وهدفًا ... يدفع باتجاه العظمة ، وذلك في تاريخ عاشق باشا زاده لتسهم في الأحداث العثمانية التي تنسب إلى تقاليد أرطغرل مثل الأحلام النبوئية المتعلقة بعظمة وسمو عثمان وكذلك ابنه شيخ أد يبالي " . (1)

والقصة الحقيقية بعيدة عن الأسطورة ، وهي أن عثمان ولد في سكود (2) عام 656هـ / 1258م وهو العام نفسه الذي غزا فيه المغول بغداد بقيادة هولاكو ، ويتضح أن هذه من تدبير الرحمن أن تولد البذرة الإسلامية والتي ستحمل راية الإسلام بعد ذلك في عام سقوط الخلافة الإسلامية ، وقد نشأ عثمان على أسس التربية الإسلامية ، كما أنه تدرب على فنون القتال وركوب الخيل واستخدام السيف على يد قادة والده ، حيث شارك في الفتوحات وحاز على صفات القيادة ، كالشجاعة والصبر والعدالة والحنكة السياسية والوفاء والإخلاص لله في فتوحاته(3)، وعقب وفاة أبيه أرطغرل غازي 680هـ / 1281م تولى عثمان رئاسة الإمارة ، (4) ، فبدأ حياته السياسية والإدارية والعسكرية رئيسًا للعشيرة والإمارة التي تحولت على مرِّ الزمن إلى دولة عالمية كبرى ، وقد اجتهد عثمان في تأسيس الدولة العثمانية على أسس ودعائم جلية ، وبذل جهده في حمايتها والحفاظ عليها من التجزئة مهما كانت الأسباب ، ونال مساندة جميع العلماء والمشايخ وفي مقدمتهم علماء الدولة السلجوقية ، (5) و ساعده في ذلك إحساسهِ قبيل وفاته بأن أولاده سوف يشكلون دولة مترامية الأطراف ، وينشرون العدالة والإنسانية في العالم . (6)

---

(1) Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia of Islam , leaden , 1930 volume III , S . 1005 – 1006 .

وقد احتوت بعض الكتب التركية الحديثة على أفكار المستشرقين دون التكليف بمراجعة مدى صدق المعلومة ولمزيد من المعلومات الرجوع إلى الآتي :

H.inalc,k : Turkler (Osmanl.lar) , i A , Islam Ansiklopedesi, Istanbul , 1977 , CiltX11/2 , S,286-293
E.Zachariadou : Pachymeres on the Amourioi of Kastamoun , III , Byzantine and modern Greed Stubies, 1977 , p . 57 – 70 .
P. Wittek : The Rise of the Ottoman Empire , London 1988 , P . 17-19 .
Nesri : Kitab – 1 Cihannuma (nsr . Fr . Taeschner) , Leipzig , 1951 , S , 59 - 60 .

(2) سكود : Suyud مدينة تركية أسيوية ، في ولاية خُداوندكار لواء كوتاهية ، وهي أول مدينة يعطيها سلطان قونيه إلى أرطغرل والد عثمان . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 299 ، 300 .

(3) عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص17 ، علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص55 ، 56 .
Nisancizade Mehmed ramazan , Mir'at – kainat , II , Istanbul 1290 , Safha 1-9

(4) Dervis , Mehmed b . Seyh Ramazan , Subhatu'l – Ahbar , Tipkibasim , Istanbul 1968 , Varak 13 b.

(5) Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu ' d – Duvel , Hazirlayan ; Ahmet Agirakca , Istanbul 1995 , S. 56 .

(6) Ali , Kuhu l – Ahbar , V. Istanbul 1277 , Safha 24 .

ومن الملاحظ أنه بعد وفاة أرطغرل انتخب منتسبوا الإمارة والعشيرة عثمان الأول ليكون رئيسًا للإمارة رغم أنه أصغر أبناء أرطغرل سناً ؛ ولعل السبب في ذلك ما عُرف به من الشجاعة والجرأة والمشاركة في الغزوات زمن والده.[1]

وقد نسج كرامرز رواية الرؤيا التي رأها عثمان في منزل الشيخ إده بالي ، مشيرًا إلى الاحتفال المهيب الذي أقيم لتولية عثمان مقاليد الرئاسة ، ففي ذلك الاحتفال العظيم قام الشيخ الفاضل المؤمن العالم إده بالي – وهو والد زوجة عثمان – بتسليم عثمان سيف والده ، وأطلق عليه لقب الغازي . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : " من مات ولم يغزو ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبةٍ من نفاق " [2] أخرجه مسلم .

أمَّا عن السبب الذي دعا كرامرز أن ينسج تلك الرؤيا فهو تعزيز قوله بأن بداية الدولة العثمانية اعتمدت على الأسطورة والخيال . وقد وصل به الافتراء أن نسبها إلى تاريخ عاشق باشا زاده ، دون مراعاة للأمانة والدقة العلمية ، وليس ذلك بغريب على المستشرقين الذين اعتادوا نسج الأحداث ونسبتها إلى كتب لم ترد فيها ، بل إنهم قد يعتمدون على كتب لا تعدُّ مصادر للتاريخ الإسلامي ، ككتب الأدب التي اعتمد عليها كرامرز في جمع مادته .

سادسًا : – تأكيد كرامرز على أن العثمانيين في فتوحاتهم ما بين 701هـ/ 721هـ/ 1301م – 1321م لم يقابلوا جيشاً بيزنطيًا نظاميًا وإنما صادفوا قادة الحصون المحاصرة فقط . فقال :

" الأملاك الجديدة انتزعت من البيزنطيين ، وجُل هؤلاء من قادة الحصون ، إذ قلما صادف الترك في غزواتهم من عام 1301م إلى 1321م جيشًا بيزنطيًا نظاميًا " [3]

يعدُّ عام 699هـ / 1300م عامًا حاسمًا في تاريخ بني عثمان ، حيث وضع فيه عثمان بن أرطغرل الحجر الأساسي في بناء الدولة العثمانية ، حيث أغارت جموع المغول على سلطنة قونية السلجوقية ، وانتهى الأمر بمقتل علاء الدين كيقباذ الثالث ، وولي عهده الأمير غياث الدين ، فخلا موقع حاكم السلطنة ، وأمست السلطنة بدون سلطان ، وكانت رغبة السكان في الانضمام إلى قوة تحميهم السبب الأساسي في تمكين عثمان من المنطقة ،

---

[1] Nesri , Tarih , 1 , Ankara 1949 , Safha 28 – 29 .

[2] أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابن المبارك ، كتاب شعب الإيمان ، الباب 26 ، باب الجهاد ، ج6 ، ص91 .

[3] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ص 168 .

وحينها وجد عثمان الفرصة ليعلن زعامته على السلطنة تحت اسم " بادي شاه آل عثمان " معلناً بذلك ولادة إمارة بني عثمان .[1]

ومنذ عام 699هـ / 1300م بدأت مخاوف البيزنطيين فقاموا بحياكة المؤامرات وتدبير الدسائس ضد هذه الدولة الناشئة .

ويرجع أول نشاط عسكري للعثمانيين على الحدود البيزنطية إلى زمن السلطان عثمان الأول، وتخلله العديد من الأحداث السلمية تارة والحربية تارة أخرى. وللرد على هذه النقطة . يقودنا ذلك إلى الفقرة الثالثة في مادة السلطان عثمان ، حيث ركز كرامرز النقطة نفسها ، وهي أن فتوحات عثمان الأول لم تكن إلا لتأمين الأهمية العسكرية ، وليس للفتح الإسلامي ، بالإضافة إلى اتهامهِ بالضعف ، ولم يكن من القوة بحيث يستطيع فتح المدن ، وإنما اكتف العثمانيون بالنهب والتخريب للمناطق المجاورة ، حيث قال :

" يبدو أن فتح المناطق الأخيرة كان لها أهمية عسكرية عندما أصبحت أساسًا لعمليات الفتوحات " ، و " ولم يكن الأتراك أقوياء لدرجة تكفي احتلال هذه المدن ولكنهم اكتفوا بنهب وتخريب المناطق المجاورة " .[2]

عندما تولى السلطان عثمان رئاسة الإمارة كانت عشيرة قابي تقطن على الحدود البيزنطية لدولة سلاجقة الأناضول ، وكانوا يحكمون الأراضي الواقعة بين سوكود ودومانيج ، فحاول عثمان أن يقيم علاقات سلمية مع جيرانه البيزانطيين ، ولكن لم يدم هذا طويلاً ، إذ قام الحاكم البيزنطي نيقولا في منطقة ابنه جول الذي خشي من تصاعد نفوذ السلطان عثمان بعقد حلف مع ولاة المقاطعات البيزنطية الأخرى ضد العثمانيين ، حيث جمعوا قوة عسكرية في " بازار كوي " للوقوف في وجه تحركات عثمان غازي ، لكن والي " بيله جيك " الذي كانت له علاقات ودية مع السلطان عثمان قام بإخبار الأخير بخطة نيقولا ، فقام السلطان بالاستشارة مع قادته العسكريين ، وقرر مباغتة الأعداء والهجوم عليهم .

وقد استشهد باي قوجا ابن أخ السلطان عثمان في المعركة التي وقعت في بازاركوي، وهي تعد أول معركة بين السلطان عثمان والولاة البيزنطيين ، ثم قام نيقولا بإقناع والي قراجا حصار بالتحرك ضد العثمانيين ، لكن السلطان عثمان أسرع في الهجوم

---

[1] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص19 .

[2] Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia of Islam , leaden , 1930 volume III , S . 1006 .

واستولى على مرتفعات دومانيج ، وانتصر الجيش العثماني على الجيش البيزنطي في المعركة التي وقعت في أربجا (أكيزجة) بالقرب من دومانيج عام 685هـ / 1286م ، كما استشهد صاري باطي أخو عثمان في هذه المعركة . [1]

لقد قام السلطان السلجوقي غياث الدين مسعود الثاني بمكافأة عثمان غازي تقديرًا له في انتصاره على البيزنطيين في معركة أكيزجة ، فأرسل له فرمانًا ، كما بعث إليه الطبل والراية والريشة التي تعد من علامات الإمارة ، هذا إضافة إلى أنه أقطعه منطقتي أينونو وأسكي شهر ، وأعفاه من الضريبة الميرية التي كان يدفعها سنويًا إلى الدولة السلجوقية ، وبعد وصول هدايا السلطان السلجوقي وقراءة الفرمان ، قام عثمان غازي بإرسال قسم من الغنائم ، وكذلك الأسرى البيزنطيين ومن ضمنهم أخت الحاكم البيزنطي وابنته إلى السلطان غياث الدين مسعود الثاني. ومن جهة أخرى كانت الإمارات التركية الأخرى في الأناضول تقوم بتتبع أخبار عثمان غازي الذي ذاع صيته وشهرته في حربه مع البيزنطيين .

وقد أدت انتصارات عثمان العسكرية إلى مخاوف القادة البيزنطيين القاطنين في المناطق المجاورة ، وبصفة خاصة حكام المدن الكبرى مثل بروسة وأزنيق ، فقاموا بعقد أحلاف ضد العثمانيين ، فجمع عثمان قواته العسكرية وتحرك نحو معقل القوات البيزنطية المتحالفة في قلعة قراجا ، حيث استطاع أن يستولي على القلعة سنة 690هـ / 1291م وذلك بعد حصار طويل ، [2] وقد أسر قائد القلعة ، كما غنموا غنائم كثيرة أثناء المعركة ، حيث قام عثمان بإرسال القائد البيزنطي المأسور مع قسم من الغنائم إلى السلطان السلجوقي الذي قام بدوره بإرسال الفرمان والراية والطبل وشارة الرأس (طوغ) ، وهدايا أخرى إلى عثمان مع وفد رسمي برئاسة بليان جاويش ، وقد وصف أحد المؤرخين هدايا السلطان السلجوقي إلى عثمان غازي بأبيات من الشعر، [3].وجاء في الفرمان الذي يتضمن مدحًا وثناءً لعثمان ما يلي:

" لقد أخذ عثمان غازي الجهاد في سبيل الله ضد الذين عصوا عن الأوامر الإلهية شعارًا له ، وقام بأداء الفريضة الإلهية ، كما بذل جهودًا عظيمة لإقامة العدالة ونصرة

---

[1] Nesri , Tarih , 1 Ankara 1949 , Safha 84 .

[2] Feridun Bey Munse3at , I , Safha 64 .

[3] Hadidi , Tevarih –1 Al – i Osman , Suleymaniye Kutuphanesi, Esad Dfendi , No , 2081 , Varak 24a; arak 25 a – 25b Halife , Vakiat – I Ruz – I Merre , Suleymaniye Kutuphanesi, Esad Efendi , No . Varak 25a – 25 b .

المظلومين ، ودفع شرور الظالمين من على وجه الأرض " . كما تضمن الفرمان دعاءً وحمدًا لله ﷻ . يعد فتح قلعة قراجا من الأحداث المهمة في تاريخ الدولة العثمانية ، ولأول مرة تحولت الكنيسة الكائنة في القلعة إلى مسجد عقب الفتح ، إذ قام الفقيه طورسون بإلقاء أول خطبة لصلاة الجمعة في هذا المسجد باسم السلطان عثمان ، ثم توجه السلطان عثمان نحو وادي صقاريا ، وفتح على ضواحي طراقلي وجوينوك وذلك بمساعدة صمسا جاويش رئيس إحدى العشائر في مودورنو [1] . وقد قام عثمان بتشكيل النظم الإدارية في الأماكن التي فتحها ، كما قام بتعيين رجال الدين والسياسة في مناصب الإمارة . وفي الوقت الذي بدأت فيه مخاوف قادة بيزنطة من فتوحات وتوسعات عثمان غازي، كان السلطان عثمان يقوم بتكثيف التنظيمات الإدارية في الأراضي المفتوحة ، وبإسكان العدد الهائل من المجاهدين والمشايخ والعلماء الذين قدموا من الأناضول للانضمام إلى العثمانيين ، ومن جهة أخرى فإن قادة بيزنطة الذين فهموا بأنهم لن يتمكنون من التغلب على العثمانيين في ميادين الحرب ، بدأوا بتدبير المؤامرات والحيل لقتل السلطان عثمان [2]سنة 698هـ / 1298م . وكان كوسة ميخال الحاكم البيزنطي على خارمان قايا صديقًا لعثمان غازي، فبذل جهودًا كبيرة للمصالحة بينه وبين بقية القادة والحكام البيزنطيين ، فقام بدعوة كل من عثمان والقادة إلى حفل زفاف ابنته ، لكن القادة استغلوا هذه الفرصة وخططوا لاغتيال السلطان الذي نجا من كيدهم في آخر لحظة ، ومع ذلك لم يتخلوا عن خيانتهم فدبروا مؤامرة أخرى لاغتيال السلطان عثمان ، إذ خططوا لقتله هذه المرة في حفل الزفاف الذي أقيم بمناسبة زواج ابن قائد بيله جيك من ابنة قائد قلعة يار ، وقد دعي السلطان عثمان إلى حفل الزفاف ، وعلى الرغم من أن كوسة ميخال كان بيزنطيًا ، إلا أن صداقته مع عثمان غازي دفعته إلى إخباره بهذه المؤامرة الثانية وأن الدعوة خطة للإطاحة به ، فقام عثمان بأخذ التدابير اللازمة وأرسل مجموعة من رجاله المسلحين لمباغتة البيزنطيين في قصر العرس ليلة الزفاف فانتصر على العدو وهزمهم ،

---

[1] Asikpasazade , Tarih , Miralay Ali Bey Nesri , Istanbul 1332 , Safha , 12-13 ; Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agiraqkca , Istanbul 1995 , S . 74 ; Nesri , Tarih , 1 , Safha 88 .

[2] Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca , Istanbul 1995, S. 75 .

وفتح بيله جيك ووقعت العروس الجميلة في الأسر فقام عثمان بتزويجها لابنه أورخان ، وأطلق عليها اسم نيلوفر خاتون[3]، وقام السلطان باتخاذ بيله جيك مركزًا للإمارة .

وقد قتل القائد البيزنطي ومعظم رجاله أثناء المعركة وأسر عدد كبير من البيزنطيين ومن بينهم العروس ابنة قائد قلعة يار [1] ، وقد تشرفت نيلوفر خاتون بالإسلام وأنجبت ولدين هما سليمان ومراد (السلطان مراد الأول) ، حيث أصبحت زوجة لسلطان ووالدة لسلطان آخر[2]، كما أنها قامت بأعمال خيرية كثيرة . ولم تكن هذه المؤامرات لتحاك إلا لحصول القادة البيزنطيين على الدعم الكافي من الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية . ومن ثَمَّ واصل السلطان عثمان فتوحاته ، حيث قام كل من طورغود ألب وعبدالرحمن غازي وهما من قادة عثمان غازي المحنكين بفتح أينه جول ، وقام السلطان بنفسه بحصار مدينة أزنيق ، لكنه لم ينجح في فتحها بسبب كثرة الوحل في الأراضي المحيطة بالمدينة من جهة ، والمساعدات العسكرية القادمة من بيزنطة من جهة أخرى . وبعد فترة وجيزة تم فتح قلعة يني شهر على يد الجيش العثماني ، حيث جعلها السلطان مركزاً لحكمه ، [3] وقام بتشييد المؤسسات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، مثل الدور السكنية والمحلات التجارية والأسواق والخانات والحمامات ودور الطعام والمساجد . كما قام السلطان عثمان بتشكيل النظم الإدارية في المناطق المفتوحة ، حيث عين على كل قلعة محافظًا ومديرًا للأمن وقاضيًا ، فعين الفقيه طورسون – وهو أحد تلاميذ الشيخ أده بالي (أب زوجة السلطان عثمان) – قاضيًا على قلعة قراجا ، ومنحه صلاحية إصدار الأحكام والفتاوى الشرعية . [4]

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان عثمان منشغلاً بالفتوحات على الثغور البيزنطية ، قام المغول بالاستيلاء على الأناضول ، وقام الحاكم الايلخاني محمود غازان بأسر السلطان السلجوقي ونقله إلى إيران ، فانتقلت كافة الأراضي التابعة للدولة السلجوقية في الأناضول إلى حوزة المغول ، مما أدى إلى تشريد أمراء السلاجقة وعساكرهم والتجائهم إلى أماكن

---

[3] Asikpasazade , Tarih , Miralay Ali Bey Nesri , Istanbul 1332 , Safha 12-14 ; Nesri , Tarih, I , Ankara 1949 , Safha 96 – 97 . M. Qagatay ulucay : Padisatllartn kadinlari ve kizlari , Ankara : Turk Tarih kurumu Yayinlari , 1980 , 2.3 -4 .

[1] Ali , Kunhu 1 – Ahbar , V . Istanbul 1277 , Safha 33 ; Mehmet Nesri , Tarih , I , Ankara 1949 , Safha 105 .

[2] Sem danizade Findiklili Suleyman Efendi , Murii't – Tevarih , Istanbul 1338 , I , Safha 382-383.

[3] Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca , Istanbul 1995 , S. 77-78 .

[4] أنظر الخريطة في المحلق .

بعيدة خارجة عن سيطرة المغول ، حيث قام معظمهم بالذهاب إلى المنطقة التي كان يحكمها السلطان عثمان الذي كان منشغلاً بالفتوحات الإسلامية وتجمعوا حوله . [5]

وكان (أحمدي Ahmedi) صاحب كتاب التاريخ المشهور (إسكندرنامة) الذي يعد المصدر الأول في التاريخ العثماني ، قد ذكر إطراء خاصًا لصفة الجهاد هذه ووضعها على رأس الأمور ، إذ أشار إلى أن حساسية العثمانيين حول نشر العدالة [1] ، كانت من الأسباب التي مهدت السبيل – كما أكد على ذلك (شكر الله) في كتابه (بهجة التواريخ) إلى انضمام المحاربين القادمين المناطق المجاورة إلى صفوف (عثمان بك) ، [2] وبدأت نتيجة لذلك مرحلة استقطاب القوات العسكرية في الإمارات المجاورة واستقطاب الطبقات الشعبية الموالية لها .

ومما يسترعي الانتباه جهود العثمانيين في سياسة الفتح التي جروا عليها إزاء الإمارات المجاورة لها ، لا سيما محاولاتهم تطبيق النظم الشرعية عليها ، فقد كانوا يكشفون من ناحية سمو تقاليدهم القديمة وتفوق عشيرتهم ، ويسعون من ناحية أخرى لتطبيق المفهوم الإسلامي على دار الحرب [3] ، وهذه النقطة الأخيرة بعينها قد شكلت النموذج على تمسكهم بالشريعة الإسلامية .

لقد تجمع الأمراء والعساكر ورؤساء القبائل والعلماء والمشايخ الذين خابت آمالهم في الدولة السلجوقية ، وأخذوا القرار الآتي : " استولى المغول على بلادنا وسقطت الدولة السلجوقية التي كانت تقوم بحمايتنا ، ولم يستطع أحدًا من أفرادها إعادة ملكهم من المغول ، فعلينا بالبحث عن شخص ذي قوة ودراية ولياقة ليتمكن من القيام بحماية البلاد والدفاع عنها وعن الإسلام ، وطرد الظالمين والأعداء ، وقررنا بأن عثمان بيك هو أنسب رجل لهذه المهام؛ لأنه ذو حسب ونسب بين العشائر والأقوام التركمانية ، وأنه ذو أخلاق عالية وكرامة وشهامة وشجاعة ، وهو يليق للرئاسة ، وأنه ينتسب إلى عشيرة قابي التركمانية العريقة ، إضافة إلى أنه رجل مسلم ومتدين " ثم أجمعوا بالبيعة له " . [4]

---

[5] Dervis , Mehmed b. Seyh Ramazan , Subhatu'l – Ahbar , Tipkibasim , Istanbul 1968 , Varak 13 a.

[1] Ahmedi : Iskendername , (nsr , Istanbul universite Ankara , 1983 , vr . 656 – 66a,) .

[2] Behcetu't Tevarih, (Trc. N. Atsiz) , Istanbul 1949 , S . 53 .

[3] A . Ozel : Islam Hukukunda ulke kavrami , Darulislam – Darulharb , Istanbul , 1988 , S , 135 – 139.

[4] M.T.Gokbilgin , Osman Gazi Islam Ansiklopedisi , IX , Safha 442 .

والسلطان عثمان حتى ذلك الحين مرتبطٌ بالدولة السلجوقية في تحركاته، إذ كان يقوم بإعلام السلطان السلجوقي بالفتوحات والأعمال التي يقوم بها ، ولكنه اكتسب بعد البيعة له الشرعية في حكمه ، وأعلن استقلاله، وذلك إثر إنهيار الدولة السلجوقية بذلك تأسست الدولة العثمانية بصورة رسمية سنة 699هـ / 1299م ، وأصبح عثمان غازي أول سلطان للدولة، والسبب الرئيس في اختيار عثمان غازي والتوجه إليه يكمن في نشاطاته وأعماله العسكرية وغزواته وجهاده منذ زمن أبيه، ثم في زمن رئاسته للعشيرة ، ولأنه كان الشخص الوحيد الذي كان يدافع عن الإسلام ويقوم بالجهاد والغزوات ضد أعداء الإسلام ، حيث قام بتوسيع أراضيه منذ 680هـ / 1281م ، وكان لتصاعد قوته يومًا بعد يوم وذلك بالتحاق الغزاة المجاهدين المسلمين تحت رايته أثره في ذيوع صيتهِ في الأناضول .

ومن المعلوم أن الأمارات التركية الأخرى في الأناضول أعلنت استقلالها في فترة ضعف الدولة السلجوقية ، لكن عثمان بقي مرتبطاً بالدولة وواليًا لها ، ولم يعلن الاستقلال حتى سقوط الدولة وقيام أعيانها بمبايعته .

ويمكن القول بأنه كان للمشايخ والعلماء دور كبير ومهم في تأسيس الدولة العثمانية وتطورها وتقدمها ؛ إذ تجمع حول السلطان عثمان وحول من جاء بعده من السلاطين العثمانيين نخبة طيبة من رجال الدين والعلماء الأفاضل ، وعلى رأسهم الشيخ أده بالي الذي كان عثمان يستشيره دائمًا في كل الأمور ، كما أنه أوصى أولاده بتقديم الطاعة والاحترام للشيوخ والعلماء المسلمين واستشاراتهم في كافة الأمور . [1]

وبعد أن توسعت رقعة الدولة العثمانية قام السلطان عثمان بعمل التقسيمات الإدارية وتوزيع إدارات المناطق المفتوحة بين رجاله وقادته ، إذ منح إدارة مدينة بيله جيك إلى والد زوجته الشيخ أده بالي ، فيما منح إدارة أوني إلى ابنه أورخان غازي ، وإدارة أسكي شهر إلى القائد جوندوز ألب ، وإدارة أينونو إلى القائد آيقوت ألب ، وإدارة قلعة يار إلى القائد حسن ألب ، وإدارة أينه جول إلى القائد طورغود ألب .

ومن جهة أخرى قام السلطان عثمان بمواصلة فتوحاته ، حيث تم فتح يور حصار ويني حصار عام 701هـ / 1301م ، كما تم فتح قلعة كوبري 702هـ/1302م ، ثم قام

---

[1] انظر نص وصية السلطان عثمان لابنه أورخان ، ص 352،353.
علي محمد الصلابي ، مرجع سابق ، ص 60–72 . عبد المنعم الهاشمي ، مرجع سابق ، ص24 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص12 . ربيع الزواوي ، مرجع سابق ، ص50 .

السلطان بإعمار المناطق المفتوحة وإسكانها ، وإرسال العلماء والشيوخ إليها لنشر الإسلام فيها وإقامة شعائر الدين الإسلامي الحنيف .

وقد قام السلطان عثمان بتشكيل التنظيمات الإدارية للدولة على أسس الدين الإسلامي الحنيف ، كما قام بتطبيق فريضة الجهاد في الإسلام ، فصار مثالاً يُحتذى من قِبل السلاطين الذين خلفوه في الحكم . [1]

والسؤال الذي يطرح نفسه أمام تلك الفتوحات ، هل كانت بيزنطة ستقف مكتوفة الأيدي أمام هذا التوسع ؟! طبعًا بدأت باتخاذ الإجراءات التي من شأنها تحد من هذه الفتوحات، وأخذ البيزنطيون في إيجاد اتفاقيات جديدة في مواجهة التوسع العثماني السريع ، حيث تجمع ولاة مقاطعات إترانوس وكته وكستل وبدينوس البيزنطية في بروسة بدعوة من حاكم بروسة البيزنطي ، كما وُجِّهت الدعوة للإمبراطور البيزنطي (أندرونيقوس بالالاغوس الثاني Negos Palagose Second Andrew) مع أحد قادته المدعو (موسولون) للمشاركة في ذلك الاجتماع الذي ألقى فيه حاكم بروسة الكلمة الآتية : " إن الأتراك أعداء قدماء لنا ، وقد أخذوا مسكنهم حولنا ، فهم يخرجون فجأة كالسيول ويدمرون الأرض التي يمرون منها ، وفي حالة عدم تعاوننا واتفاقنا سوف يقضون علينا جميعاً ." ثم قرروا تجهيز جيش ضخم تشترك فيه جميع القوات القادمة من المقاطعات البيزنطية للوقوف ضد تحركات الجيش التركي العثماني ، فتقابل الجيشان في قلعة قويون الواقعة شمال شرق ازنيق ، وكان الجيش العثماني أقل عددًا وعدة من الجيش البيزنطي المتحالف ، ولكن تواجد السلطان عثمان في مقدمة جيشه في تلك المعركة الدامية أعطى الجرأة والروح المعنوية والحماسة لجنوده فحاربوا بشجاعة وبسالة وبطولة مما أسفر عن انتصارهم وإلحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية ، واستشهد في هذه المعركة (آيدوغدي) ابن أخ السلطان عثمان ، وفر كل من حاكم بروسة واترانوس من ساحة المعركة ، بينما التجأ حاكم كته إلى حاكم أولوباط الذي لم يشارك في المعركة ، فقام بتسليمه إلى السلطان عثمان مشترطًا عدم مرور الجيش العثماني من قنطرة أولوباط وعدم قيامهم بإلحاق الضرر بأهاليها ، فوافق السلطان على ذلك ، وأصبح هذا الاتفاق بمثابة أول معاهدة بين الدولة العثمانية ودولة أجنبية ، واعتاد منتسبو الأسرة العثمانية على عدم المرور من على تلك القنطرة في الفترات الزمنية اللاحقة وإن اضطروا إلى ذلك

---

[1] Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu d – Duvel – Hazirlayan : Ahmet Agirakca , Istanbul 1995 , S . 79 .

كانوا يعبرون عبر القوارب ، وفي هذا دلالة واضحة على التزامهم بالعهد والوفاء ببنوده، ثم واصل السلطان عثمان فتوحاته العسكرية، فانتصر على البيزنطيين في معركة دينبوز ، حيث فتح قلعتي كته وكستل . [1]

لقد عجز الإمبراطور البيزنطي إندرونيوس من صد فتوحات العثمانيين الذين امتدت سيادتهم من صقاريا وحتى سواحل بحر مرمرة ، وبدأ يبحث عن طرق التخلص منهم ، ومن جهة أخرى قامت الإمارات التركية الأخرى الحاكمة في مختلف بقاع الأناضول ، بمتابعة انتصارات السلطان عثمان على البيزنطيين ، إذ أعلنوه مجاهدًا للإسلام ، وجاء الناس أفواجًا للانضمام تحت لوائه ، ويمكن القول بأن قيام السلطان عثمان بحروبه ضد بيزنطة وبفتوحاته في الغرب دليل على شعوره الإسلامي وبصيرته في إدارة الدولة .

وقد أدى قيام السلطان عثمان غازي بتحويل الإمارة إلى دولة وبتشكيل الدولة العثمانية بعد سنوات قليلة إلى قيام بيزنطة بطلب الدعم من الغرب ، حيث وصل جيش ضخم من المرتزقة لأجل الوقوف ضد الدولة العثمانية التي صارت تشكل خطراً كبيراً تهدد الإمبراطورية البيزنطية ، ولكن سرعان ما تحول أفراد هذا الجيش المتعدد الجنسية إلى كتلة معادية لبيزنطة نتيجة للفوضى والاضطرابات التي قاموا بها في العاصمة القسطنطينية ، وتسببوا في خلق النزاعات الداخلية بين شخصيات الأسرة البيزنطية الحاكمة . [2]

أما عن الفقرة الرابعة والأخيرة في مادة عثمان ، فقد وضع كرامرز في نهاية مادة السلطان عثمان قصة عداء عثمان الأول والأميرة البيزنطية ماريا ، أخت الإمبراطور أندروسنكس الذي عاش في سنيكا ، فذكر " ***وجود عداء شخصي بين عثمان والأميرة البيزنطية ماريا*** " ، [3] ولم يذكر مطلقًا سبب هذا العداء وأرجعه فقط لأسباب شخصية تثير في خيال القارئ أفكار ساحرة مبهمة ، وذلك في إطار تعزيز فكرة أن تاريخ عثمان أحيط بالأساطير والغموض .

لقد اتضح – مما سبق – كيف أن علاقة السلطان عثمان الأول كانت متأرجحة ما بين السلم تارة والحرب تارة أخرى ، لكن العلاقة العدائية كانت نتيجة حتمية بالنسبة للطرفين

---

[1] Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirakca, Istanbul 1995, S , 79 – 80 .

[2] Omer farak Yicmaz , Belge erle Dsmanli Tarihi , 2 . baski, Istanbul , 1999 , Safha 8-10 .

[3] Kramrs : Othman 1 , the Encyclopaedia of Islam , leaden , 1936 , Volume III , S. 1007 .

، ولعل الأحداث القادمة ستلقي الضوء على حقيقة هذه العلاقة والعداء بين عثمان الأول والأميرة ماريا .

وإزاء هذه الانتصارات لم يبق أمام الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس سوى اللجوء إلى الدسائس والمؤامرات لأجل تحقيق أهدافه التي تتمثل في منع القوات العثمانية من الانتشار، فقام هذه المرة بتقديم الأميرة ماريا إلى الإمبراطور المغولي أولجايتو خدا بنده الذي ورث غازان خان في الحكم ، طالبًا منه القضاء على العثمانيين والسلطان عثمان على وجه الخصوص ، وقد جاءت الأميرة ماريا إلى أزنيق وقامت بتهديد السلطان عثمان ، ولم يكن هذا عداءً شخصيًّا بين الأميرة ماريا والسلطان عثمان – كما يزعم كرامرز – [1] إنما كان يرجع إلى حقد الأميرة البيزنطية تجاه العثمانيين ودورها في حماية أسرتها من التوسع العثماني ، لكن السلطان عثمان سار في طريقه بغض النظر عن تلك التهديدات ، وقد لفتت الإدارة العادلة التي أسسها السلطان عثمان على الحدود البيزنطية انتباه الأهالي النصارى الذين يئسوا من مظالم الولاة البيزنطيين ، ومن دفع الضرائب المفروضة عليهم ، فبدأوا تدريجيًا بالانضمام إلى إدارة العثمانيين . وقد قام كوسة ميخال القائد البيزنطي على خارمان قايا بإعلان إسلامه عام 713هـ / 1313م ، وبالالتحاق بالدولة العثمانية وقد سعد السلطان عثمان بهذا الخبر ، وقام بتعيين كوسة ميخال أميرًا للسنجق في بلده ، كما قام بتعيين ابنه في خدمته الخاصة ، وقد شارك كوسة ميخال في الحروب بجانب العثمانيين ، وقدم خدمات كثيرة للدولة العثمانية . [2]

إن المعاملة الطيبة والمشاعر الإنسانية التي كان يقدمها السلطان عثمان في المناطق المفتوحة كانت تؤثر تأثيرًا كبيرًا في نفوس الأهالي ، فكان العديد من الولاة البيزنطيين يستسلمون للعثمانيين إما طوعًا من أنفسهم ، أو نتيجة خسرانهم في المعارك ، وكان السلطان عثمان يحاول إبقاء هؤلاء الولاة في إدارة بلدهم باسم الدولة العثمانية ، ومن جهة أخرى قام السلطان بتعيين أحد رجاله يُدعى (صمسا جاويش) مراقبًا عامًا على تلك المناطق .

ثم واصل العثمانيون فتوحاتهم من سواحل بحر مرمرة حتى امتداد البحر الأسود ، وتمكنوا عام 713هـ / 1313م من فتح قلاع آق حصار وجيوا ولبلبيجي ولفكة (عثمان

---

[1] Kramrs : Othman 1 , the Ecyclopaedia of Islam , leaden , 1930 volume III , S. 1007.
Ziya Nur aksun . Osmanli Tarihi , 1 , Istanbul 1994 , Safha 25 .
[2] Lutfu Pasa , Tarih , Istanbul 1341 , Safha 19 -21 .

ايلي) وحصار جيك وتكفور بناري ويني قلعة وقراجوز وقلعة يانقيجه . وتمكن أورخان بن السلطان عثمان مع القائد قونور الب من فتح قلاع (قراتكين وأبه صويو وقراجه بيك وطوزبازاري وقابوجوك وكرسته جي) الممتدة من صقاريا حتى البحر الأسود ، وإلحاقها إلى ممتلكات الدولة العثمانية وذلك في سنة 717هـ / 1317م . وقام القائد آقجه قوجا بفتح كافة المناطق الواقعة بين أزنيق والقسم الغربي من صقاريا ، فسميت هذه الأماكن فيما بعد (قوجه ايلي) نسبة إلى ذلك القائد . [1]

إن قيام السلطان عثمان منذ شبابه بخوض الحروب ضد البيزنطيين ، وكذلك قيامه بالنشاطات الإدارية والسياسية لإرساء أسس الدولة قد أتعبته بعد الستين من العمر ، هذا بالإضافة إلى معاناته من مرض إلتهاب المفاصل مما جعله يرسل ابنه أورخان غازي على رأس الحملات العسكرية البعيدة في السنوات الأخيرة من عمره ، كما كان يرغب كذلك في أن يرى بعينيه جرأة ولده وشجاعته وغزواته وإخلاصه للإسلام وخوف الأعداء منه وتقدير المسلمين له وقابليته لإدارة الدولة ليطمئن على ذلك قبل أن يوافيه الأجل ، حيث اجتهد على أن يكتسب أبناؤه الذين سوف يقومون بإدارة هذه الدولة الكبرى من بعده لقرون طويلة تجربة وخبرة في السياسة والإدارة والحرب ، إضافة إلى كسب رضا المسلمين عنهم ، وخوف الأعداء منهم.

فخرج أورخان غازي على رأس حملة عسكرية إلى مودانيا التي تقع على ساحل بحر مرمرة عام 721هـ / 1321م وفتحها ، وقد غنم الجيش العثماني غنائم كثيرة في المعارك التي جرت مع البيزنطيين خلال فتح مودانيا ، وأدى هذا الفتح إلى تمهيد الطريق لفتح بروسة التي تعد من أكبر المعاقل البيزنطية في المنطقة ، وترتب على فتح موادنيا دخول بيزنطة في مضايقات كبيرة من الناحية المالية والاقتصادية ثم واصل العثمانيين غاراتهم في قلب الأراضي البيزنطية ففتحوا جمليك وآق يازي وآيان كوي 723هـ / 1323م وقرا مورسيل عام 725هـ / 1324م ، وقد عمرت المناطق المفتوحة وتقسمت إداراتها بين القادة والمجاهدين ، كما أقيمت فيها المؤسسات الإدارية للدولة ، وطبقت القوانين ذات العلاقة بأهل الذمة التي نصت عليها الشريعة الإسلامية على النصارى القاطنين في الدولة العثمانية ، كما فرضت عليهم الضرائب وفقاً لتلك القوانين . [2]

---

[1] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في دول البحار ، ج1 ، د. ط ، القاهرة ، 1946م ، ص487 .

[2] Osmanzade ahmed Taib, Hadikatu'l – Muluk , Bayezid Kutuphanesi, Veliyuddin Efendi, No. 1414/1 , Varak 3b – 4a .

ونتيجة لحركة الفتوحات العثمانية أصبحت بروسة التي تعد من أهم القلاع البيزنطية المستحكمة في منطقة مرمرة محاصرة تمامًا بعدما دخلت ما حولها من المعاقل البيزنطية إلى حوزة العثمانيين ، إذ لم تعد تصلها المساعدات من العاصمة القسطنطينية ، كما أن سكانها صاروا يعيشون في رعب وخوف بسبب الاستعدادات العسكرية البيزنطية المستمرة في القلعة.

وكَّل السلطان عثمان ابنه أورخان لفتح بروسة التي كان يريد فتحها منذ زمن طويل نظرًا لأهميتها الاستراتيجية ، فقام أورخان بحصار هذه المدينة التي تقع في وسط الأراضي العثمانية ، إذ قام بتشييد قلعتين 714هـ / 1314م أحداهما بجانب قابليجا (المياه المعدنية) ، وعين على قيادتها أحد أبناء عمه واسمه آق تيمور ، والأخرى بجانب أولو داغ (الجبل الكبير) ، وعين على قيادتها القائد بالابان ، وقد أعطيت للقلعتين اسمي القائدين .

ولكن لم يكن من السهل فتح هذه القلعة المنيعة عن طريق الحصار فحسب، نظراً لكثرة سكانها والجنود البيزنطيين المرابطين فيها ؛ هذا بالإضافة إلى أن الأراضي التي تحيط بها عبارة عن أراضي موحلة يصعب السير عليها ، ولكن أفراد الجيش العثماني كانوا على أهبة الاستعداد ليلاً ونهاراً بكل عزم وصبر وينتظرون الإشارة من قائدهم أورخان غازي لشن الهجوم على المدينة . [1]

وفي الوقت الذي كان الجيش العثماني يستعد لفتح بروسة ، جاء خبر وفاة السلطان عثمان غازي في شهر أغسطس 727هـ / 1326م بمدينة سوكود ، [2] ويتبين من أبيات الشعر التي كتبها الشاعر أحمدي في تحديد تاريخ وفاة السلطان عثمان بأنه توفي قبيل فتح بروسة بفترة قصيرة جدًا ، [3] ونقل جثمانه فيما بعد ودفن داخل القبة الفضية التي شيدها ابنه أورخان في بروسة عقب فتحها تنفيذًا لوصية السلطان عثمان نفسه ، [4] وكأن السلطان عثمان كان واثقًا من نفسه بأن عساكره سوف يفتحون بروسة عاجلاً أم آجلاً ، حتى إنه كان يحلم بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لينال شرف بشرى الرسول الأعظم ﷺ .

---

[1] Ahmedi , Tevarih – I Muluk – i Al – 1 Osman , Safha 9 .

[2] Osmanzade ahmed Taib , Hadikatu'l – Muluk , . Bayezid Kutuphanesi , Veliyuddin Efendi , No. 1414/1 , Varak 3b – 4a; أنظر الخريطة في الملحق

[3] Ahmedi , Tevarih – I Muluk – i Al – i Osman , Safha 9 .

[4] Solakzade Mehmed hemdemi Celebi , Tarih , I , Safha23 .

ويتبين من أبيات الشعر التي نظمها عالي يازيجي أوغلي بأن فتح إستانبول كان في مقدمة أهداف السلاطين العثمانيين منذ السنوات الأولى لتأسيس الدولة العثمانية . [1]

من العرض السابق تتضح الصورة الحقيقية لقيام الدولة العثمانية ليتأكد أنها لم تكن كما صورتها مادة الترك أو حتى مادة السلطان عثمان ، لقد أسلموا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب وحسن إسلامهم ، ولم يعتدوا على أي محرمات ، بل ساروا بالفتوحات في طريق ناصع البياض ، وأصبحت الدولة العثمانية المتنفس الوحيد للحماس الديني في الإسلام .

كما أن تاريخها واضح لم يكتنفه الغموض ، وإنما التقصير من المؤرخين المسلمين في الكتابة عن هذه الفترة المبكرة من تاريخ الأتراك وندرة المصادر الموثوقة في هذا الأمر ، وعدم المعرفة الجيدة باللغة التركية .

وقد اتضح حماسهم الديني في علاقتهم بالدولة البيزنطية وكيف أن الأخيرة ناصبتهم العداء ، بسبب ملتهم الإسلامية ، وتجلت هويتهم الإسلامية في أن الأتراك أطلقوا على الجندي التركي اسم Mahmatcik أي الجندي المحمدي ، والعديد من المراسيم والفرمانات التي كانت تصدر عن الدولة العثمانية كانت تصدر باسم الدولة العليا المحمدية ؛ تيمناً باسم النبي الكريم محمد ﷺ سيد المجاهدين . [3]

أما عن مادة السلطان أرطغرل ، فقد قدم مادته المستشرق مورتمان الذي بدأها . بالتالي :

أولاً : التشكيك في نسب أرطغرل ونسبه إلى سليمان باشا ثم صاغ الأحداث كما رسمها هو في خيالهِ المريض وليس الحقيقة .

ثانياً : قام مورتمان بنسبة بعض الفتوحات إلى أرطغرل ولم يذكر تفصيلاتها فضلاً عن أنه نسب له استيلاءه على قرة حصار وكوتاهية ، ولم يوضح الأحداث العسكرية المصاحبة أو المصادر لمادته .

غلب على المادة كثرة الاختلافات التي أوردها على أمور لا تقدم جديدًا في صلب الموضوع وإضاعة الجهد في الكتابة عنها ، وإدخال القارئ في متاهات غير مفيدة مطلقًا ، كتاريخ وفاته وعمرهِ وغير ذلك ، ولم يذكر الأحداث المهمة في عهدهِ .

---

[1] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , 2 baski , Istanbul 1999 , Safha 38 .

[3] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص25 .

وهذا ديدن المستشرقين في التوسع فيما لا نفع فيه والاختصار الشديد في الأحداث المهمة ، كما اتصفت المادة بالقصر الشديد فلم يذكر الأحداث التفصيلية بينه وبين سلطان السلاجقة ، على الرغم من الوفاء الذي أظهره لهم طوال حياته . ومع هذا فالمادة تخلو من التحامل الشديد .

" ابن سليمان شاه ووالد عثمان الأول مؤسس أسرة آل عثمان ودولتهم .. هاجر مع أربعمائة أسرة من بدو التركمان من ياسين أوواسي وسورمه لي جقور إلى آسيا الصغرى حيث أقطعه علاء الدين السلجوقي إقليم سوكود ". (1)

ومن الملاحظ غالبًا أن منهجية المستشرقين – دائماً عند الكتابة عن السلاطين العثمانيين في الدائرة – التشكيك في نسب السلطان ، على الرغم من أنها ثابتة تاريخيًا وموثقة، ولكن ذلك لزرع الشك في نفس القارئ ، فنجد أن مورتمان – كما ذكر سابقًا – قد شكك في نسب أرطغرل فنسبهُ لسليمان شاه . والحقيقة أنه والد مؤسس الدولة العثمانية السلطان عثمان بن غازي ، ووالده هو كوندوز ألب ، وليس سليمان شاه كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية ، والدليل على ذلك هو اكتشاف سكة للسلطان عثمان كتب عليها العبارة "عثمان بن أرطغرول بن كوندوز ألب " وهي محفوظة في المتحف الأركيولوجي في إستانبول.(2)

ويرجع ذكر سليمان شاه في بعض المراجع إلى الالتباس أو الخلط الذي وقع فيه بعض المؤرخين ؛ لأن سليمان شاه كان مؤسس الدولة السلجوقية في الأناضول . (3)

ولد أرطغرول سنة 584هـ / 1188م ، ثم هاجر مع عشيرته نحو الغرب نتيجة ضغوط المغول ، إذ انتقلوا من مرو إلى الأخلاط ، وبعد وصول المغول إلى هذه المنطقة – أيضاً – انتقلوا إلى أرزنجان ومنها إلى هضبة باسين ووادي سورمه لي.

وفي هذه الفترة دارت في منطقة أرزنجان معركة سميت باسم ياسي جمن بين سلطان قونيه السلجوقي علاء الدين وبين جلال الدين خوارزم شاه خاقان تركستان ، وكاد سلطان قونيه المسلم أن ينهزم ، فإذا بعشيرة قابي تتدخل لنصرة سلطان قونيه – وهو الجانب

---

(1) مورتمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج1 ، ص624 .

(2) Atilla Cetin" Osman Gazi nin sikkesini bulan adam " Tarih ve Medeniyet Dergisi , 12 , 1995 , S. 49; Rifat Okyay , Osmanli Devleti nin Kurulusu , Istanbul 1996 , Safha 11 .

(3) Ahmed Akgunduz – Said Ozturk , Bilinmeyen Osmanli , Istanbul 1999 , Safha 30 .

الأضعف – بكل حماسة واندفاع لنجدةِ إخوانه المسلمين ، فتسبب كوندوز ألب والد أرطغرل في انتصاره . [1]

وهنا لابد من التوقف قليلاً عند سبب اختياره جانب سلطان قونيه ، هل نجدة للملهوف ونصرة للضعيف أم أنه أحسَّ بأنهم أخوته في الدين الإسلامي ؟ لا شك أنَّ انضمامه إلى جانب سلطان قونيه يدل على إدراكه أنه مسلم ، فمن المحتمل أن يكون قد رأى ما يدل على أن هذا الجيش مسلم من الرايات التي يرفعونها أو الإشارات التي يحملونها .

بناء على ما سبق يتضح أنهم مسلمون منذ أوائل القرن الأول الهجري وليس منذ عهد عثمان بن أرطغرل – كما ذكر سابقًا–.

فالإسلام متأصل في نفوسهم تأصله في نفوس العرب تمامًا. وبعد نهاية المعركة عرف سلطان قونيه أن عشيرة قابي ساعدته في تحقيق الانتصار وضم قلعة كوتاهية ، وعرف أنها تبحث عن موطن لها ، فاستدعى قائدهم ووقف على حاله وأظهر لهم عظيم الكرم والارتياح ، فقد أحس منهم القوة والبراعة في القتال، فأقطعهم ثغرًا على الحدود بين سلطنة السلاجقة والدولة البيزنطية وهي المنطقة الواقعة بين جهتي إسكي شهر وبيلا جيك وكوتاهية عام 685هـ / 1286م وتلك منطقة إستراتيجية مهمة ، واستقرت فيها العشيرة وكانت نواة تكوين إمارة عثمانية صغيرة ما لبثت أن أصبحت دولة ذات شأن عظيم في التاريخ الإسلامي . [2]

ثم لم يلبث أن بدأ أرطغرل في مساعدة علاء الدين السلجوقي في أكثر وقائعه الحربية ضد المغول والدولة البيزنطية ، وكان له أثر واضح ومكانة عظيمة عند السلطان علاء الدين لدرجة أنه زاده في الإقطاعات وتنازل له عن قطعة من بلادهِ الأصلية التي فتحها من الدولة البيزنطية وهي الجهات من قونيه حتى سكود، ومنحه لقب أمير الغزاة وولاه أمر حماية قلعة كوتاهية التي استولى عليها المغول، واستعادها أرطغرل بعد قتال شديد ، فعلت منزلة أرطغرل عند السلطان علاء الدين ولم يزل على هذا الأمر حتى توفاه الله . [3]

---

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، مرجع سابق ، ص 10 ، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ط 3 ، المكتب الإسلامي ، 1415هـ / 1994م ، ص12 . زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص36 .

[2] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 14 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 10 إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج1 ، ص483 ، 484 . يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج1 ، ص87 .

[3] يلمازا أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص87 إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في أعالي البحار ، ج1 ، ص484 .

هذه حقيقة ظهور أرطغرل على مسرح الأحداث السياسية أما ما جاء في الدائرة فإنه مختصر جدًا ، ومادته قصيرة قليلة المصادر والمراجع ، اهتم المستشرقون فيها بالأحداث الأولى لحياته ، ولم يذكروا سبب هجرة القبيلة أو حتى أصلها بل اكتفوا بالإشارة فقط إلى الهجرة ، وكأنها هجرة البحث عن الغذاء وليس للفرار بدينهم ، ونسبوا المعلومة لكتاب عاشق باشا زاده . والذي ذكرها في كتابه كاملة تعبر عن الأحداث بصدق ، أمَّا ما ورد في الدائرة فأجزاء مبتورة من الأحداث الحقيقية ، وينقصها الدقة والشمولية .

" حيث أقطعه علاء الدين السلجوقي إقليم سوكود الواقع بين قرة حصار وبيله جك للرعي فيها شتاءًا .. وكانت قرة حصار وبيله جك لا تزال في حوزة الروم ، وكانوا يدفعون الجزية إلى علاء الدين "[1]

وعاد مورتمان مرة أخرى للتخبط واصطناع الأحداث حيث ذكر أن علاء الدين اقتطع لأرطغرل مناطق لا تزال في حوزة الروم ويدفعون عنها الجزية للسلاجقة وهي تلال أرمحين بلي ودومواينج وذلك للرعي . [2]

وهو بهذه الطريقة صوَّر الأمر وكأنه خدعة من علاء الدين حتى وضعه في مواجهة البيزنطيين ، على الرغم من أنه لم يثبت – تاريخيًا – أي خلاف بينهم ، بل ساد علاقاتهم الحب والمودة والوفاء الصادق من جانب الأتراك . ولا شك أن مثل هذه المسألة تثير حفيظة البيزنطيين خاصة وأن عقائدهم مختلفة ، وهو يعد حليف أعدائهم السلاجقة. وأخيرًا فلم توضح المادة الدور الفعال الذي قام به أرطغرل في الدفاع عن السلاجقة ومساعدتهم ، بل والتصدي للمغول وأغفلت هذا الجانب تمامًا ولم توضحه ، واكتفت فقط بالإشارة إلى أن المؤرخين نسبوا له فتوحات أخرى غير قرة حصار وكوتاهيه ، دون ذكر هذه الفتوحات أو المصادر التي أخذت منها ؛ وذلك للتقليل من أهميتها تمامًا . ***" على أن المؤرخ نشري ... يروي أن أرطغرل ... أستولى على قرة حصار وكوتاهية "***. [3]

أما بالنسبة للنقطة الثانية التي عرض فيها مورتمان فتوحات أرطغرل ، واستيلاءه على قره حصار وكوتاهيه ، فإنه لم يعط الحقيقة كاملة أو حتى نصفها بل أخفى أكثر من نصفها واختصرها لدرجة أنها اخلَّت بالواقع التاريخي .

---

[1] مورتمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج1 ، ص 625 .

[2] مورتمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج1 ، ص624 ، 625 .

[3] مورتمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج1 ، ص624 .

لقد منح السلطان السلجوقي علاء الدين الأول وطنًا لأرطغرل غازي بجوار قراجاداغ بالقرب من أنقرة ، فقام بنشاطاته على الأراضي الواقعة بين أنقرة وأسكي شهر ، كما منحه السلطان سنة 630هـ -631هـ/ 1232م – 1233م لقب " أوج بيك " أي " أمير الثغور " ، وهذا ما يتفق عليه معظم المؤرخين . [1]

وفي هذه الأثناء كانت القسطنطينية تحت قبضة اللاتين ، واضطر البيزنطيون إلى نقل مقرهم إلى أزنيق ، ومن هنا كان الإمبراطور البيزنطي يحاول إخضاع الأناضول مرة أخرى لحكمه .

أما السلطان السلجوقي علاء الدين الأول ، فقد وصل مع جيشه أمام منطقة سلطان أوني للوقوف في وجه تحركات الإمبراطور البيزنطي ، وهنا التحق أرطغرول غازي مع رجاله إلى جيش السلطان السلجوقي ، وقد تقابل الجيشان في موقعة " دربند " التي انتصر فيها الأتراك على البيزنطيين ، وكان لأرطغرول غازي وعشيرته دور كبير في هذا النصر ، فقدره السلطان السلجوقي تقديرًا كبيرًا وأناط إليه منصب قائد قوات الثغور . [2]

ثم توجه الجيش التركي نحو قلعة قراجا ، وفي هذه الأثناء جاء خبر تقدم جيش المغول في داخل الأناضول ، فاضطر السلطان السلجوقي للعودة إلى العاصمة قونية ، وعين أرطغرول غازي لمهمة فتح القلعة [3] فتم فتحها ، وقام أرطغرول بإرسال القائد البيزنطي الذي أسره خلال الفتح مع خمس الغنائم التي حصل عليها إلى السلطان علاء الدين ومعه هيئة يترأسها أخوه دوندار بيك ، وهنا قام السلطان السلجوقي بضم أرطغرول إلى قائمة أمرائه تقديرًا لبسالته وشجاعته وانتصاراته ، وأقطعه منطقة سوكود ودومانيج [4]، فصار أرطغرول قائدًا عامًا وواليًا على الحدود في سكود وضواحيه .

وعقب وفاة علاء الدين الأول عام 634هـ / 1236م تولى غياث الدين كيخسرو الثاني عرش السلطنة السلجوقية في الأناضول ، وفي هذه الأثناء تصاعدت ضغوط المغول

---

[1] Muneccimbasi Ahmed b . Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Istanbul 1995 , Safha 64 ;
مورتمان : مادة أرطغرل ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج1 ، ص624 ، 625 .

[2] Dervis, Mehmed b . Seyh Ramazan , Subhatu'l – Ahbar , Tipkibasm , Istanbul 1968 , Varak 12 b .

[2] Nisanci Mehmet Pasa , Tevarihu's – Selatini'l – Oamaniye , Turk . terc . Konyali Ibrahim Hakki, Osmanli Tarihleri , I , Safha 344 .

[4] Dervis , Mehmed b . Seyh Ramazan . Subhati 1 – Ahbar , Tipkibasim , Istanbul 1968 , Varak 13a .
Muneccimbas, 1 Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , Hazirlayan : Ahmet Agirarkca , Istanbul 1995, Safha 64 .

على المنطقة ، فقام معظم ولاة الدولة السلجوقية وأمراء الثغور بالانفصال عن السلطان السلجوقي ، حيث خرجوا عن طاعته وبدأوا بتشكيل إمارات خاصة بهم ، لكن أرطغرول غازي لم ينفصل عن السلطان ولم يتخلى عنه في تلك الفترة العصيبة ، بل بقي ولاءه وصداقته وإخلاصه للسلطان، فقوبل ذلك بالترحيب والتقدير من قبل السلطان ومن قبل أركان الدولة السلجوقية ، وكذلك من قبل عامة الناس في الأناضول ، مما أدى إلى تجمع عدد هائل من الغزاة والمقاتلين والعلماء الذين قدموا من كافة أنحاء الأناضول تحت راية أرطغرل غازي، وذلك بهدف الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام .

وقد قام أرطغرل بحماية الحدود الشمالية الغربية للدولة السلجوقية بصورة جيدة ، كما قام بتحقيق الأمن والسلام في المنطقة ، بالإضافة إلى إخماد الفوضى التي أحدثها أبناء جرميان في المنطقة فضمن بذلك سلامة وأمن الأهالي ، وبناء عليه ، منحه السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني رتبة القيادة ورجل الدولة . لقد كان أرطغرل غازيًا كبيرًا في العمر ، فبدأ بإعطاء الأمور تدريجيًا إلى ابنه الأصغر عثمان الذي كان يتمتع بذكاء حاد وشجاعة باسلة، كما كان متفوقًا على سائر أخوته في الدراية والزعامة – كما وضح سابقًا – وتميزت شخصية أرطغرل بالتدين والطهر والوفاء والصبر ، إضافة إلى دهائه العسكري . ولا شك أن التزامه مع السلاطين السلاجقة إلى نهاية عمره دليل على ذلك الوفاء .

توفي أرطغرل غازي في سوكود عام 680هـ / 1281م في الثالثة والتسعين من العمر ، [1] وخلف ثلاثة أولاد ، هم صاوجي بيك (صاري باطي) وجوندوز بيك وعثمان غازي الذي خلفه في الحكم ، وترك أرطغرول لابنه عثمان إمارة صغيرة وقادة عسكريين محنكين وأرضية مناسبة للجهاد ، ومن أبرز هؤلاء القادة آقجه قوجا وجوندوز ألب وقونور ألب وقره أوغلان وقره مورسيل ، وعاش بعضًا من هؤلاء القادة في زمن عثمان غازي ، ومن ثم في زمن أورخان غازي ، حيث قدموا خدمات جليلة للدولة العثمانية .

وقد وصلت مساحة الأراضي التي حكمتها الدولة العثمانية في عهد أرطغرل غازي إلى (4800) كيلو متر مربع . [2]

---

[1] Hoca sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , 1 , S . 12 ; . أنظر الخريطة في الملحق
Lutfu Pasa , Tevarih – 1 AL – 1 Osman, S . 19 Solakzade Mehmed Hemdemi Celebi, Tarih , S.7

[2] Nisanci Hazma , Takdim – 1 Zikr – 1 Ensab ve Tefhim – 1 Intisab , Suleymaniye Kutuphanesi , Esad Efendi , No . 2362 , Varak : 84a – 86a .

وبوفاة أرطغرل تولى الإمارة من بعده ابنهُ عثمان الذي كان مندفعًا بروح دينية جياشة، وطبيعة عسكرية من الطراز الأول ، كما تميزت إمارتهُ بموقع جغرافي مميز ، فضلاً عن أن الظروف المحيطة به كانت تفتح المجال والطريق أمامه للفتح ونشر الدين الإسلامي .

لكنَّ مادة أرطغرل ظلمتهُ كثيرًا ولم تعط فكرة واضحة عن ظهور العشيرة العثمانية ، على الرغم من اعتماده على مصدر عاشق باشا زاده ؛ وسبب ذلك أن المستشرقين لم يأخذوا المعلومة كاملة بل مقتضبة وصغيرة ، وأضاعوا الجهد والمادة في اختلافات لا تضيف للحدث أي قيمة ، والهدف واضح ألا وهو إيهام القارئ بأنهم يتحروا الدقة في سبيل الحقيقة .

أما ما كتب عن السلطان أورخان في الدائرة والتي قدمها المستشرق فرانس بابنجر ، فإنها حوت بعض المغالطات أو الإفتراءات على تاريخ السلطان ، وإنما جاءت قليلة وليست ظاهرة وواضحة حيث سجلت المادة سلسلة الفتوحات التي قام بها السلطان أورخان وإن حاولت المادة تصغير دوره السلمي في هذه الفتوحات والتركيز على ضعف الدولة البيزنطية وتحالفه معهم ، وهو السبيل الذي مهد لانتقال إمارة آل عثمان إلى الروملي .

وقد احتوت مادة أورخان على النقاط التالية :

أولاً : إرجاع حياته الأولى إلى الغموض وقلة المصادر . وهو دأبهم حيث أرجعوا حياة العثمانيين الأولى إلى الأساطير وعدم وضوح الأحداث .

ثانيًا : إرجاع علاقته بأخيه إلى جمل مطاطة كثيرًا ما يستخدمها المستشرقون كمنهج أساسي في كتاباتهم كقولهم " جاء في بعض الروايات "أو" يقال ".[1] وهذه إحدى أشهر مناهج المستشرقين وهي نسب المعلومة إلى بعض الروايات أو قول أحد المؤرخين .

ثالثًا : التقليل من جهود فتح بروسه وذكرها بشكل عابر ، ونسبة الفتوحات العظيمة إلى قادة الجيش وليس لتنظيم أورخان .[2] وذلك محاولة للتقليل من شأن أورخان .

رابعًا : صياغة أحداث متداخلة عن فتوحاتهِ دون الالتزام بالترتيب الزمني . وذلك لإدخال القارئ في متاهة يخرج منها غير مدرك لحقيقة الأحداث .[3]

---

[1] فرانس بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، 126 .

[2] بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 127 .

[3] بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 127 ، 128 .

خامسًا : تصوير فتح إمارة قرة سي على أنه تلبية لاستنجاد من الأخ الأصغر للحاكم ليعينهُ على الأخ الأكبر ، فيتقدم أورخان لغزو إمارة قرة سي بعد أخذ المواثيق.[1]

سادسًا : إعطاء المادة صورة مختلفة عن الواقع في علاقة أورخان بالبيزنطيين وكيف كانت تتأرجح بين السلم والحرب . [2]

ولد السلطان أورخان عام 680هـ / 1281م ، وهو ثاني أبناء الأمير عثمان ، خلف والده الذي أوصى له بالحكم لشجاعتهِ ، وإقدامهِ ومحبة الجيش له ، وقد اتبع سياسة أبيه في الفتوحات والحكم ، ويعتبر المؤسس الثاني للدولة العثمانية . أدى دورًا رائدًا في الفتوحات خلال حياة أبيه ، لما يتمتع به من عقلية تنظيمية وشجاعة وجرأة ، وتميز بعلو الهمة وسداد الرأي ، استلم أورخان الحكم في 21 رمضان 726هـ / 1326م ، وسلم أخيه علاء الدين تدبير أمور الدولة الإدارية ، وهو بذلك يعتبر أول وزير في تاريخ الدولة العثمانية ، وتفرغ هو للفتوحات والجهاد في سبيل الله . فبدأ رحلت فتوحاته بفتح بروسه واتخاذها عاصمة لحكمه، وتصدى للحملات الصليبية البيزنطية ضده وضد الإسلام المتمثل في الدولة العثمانية.[3]

يعد تأسيس جيش الإنكشارية من أهم أعماله التنظيمية ، وضرب عمله من الذهب والفضة باسمه ، رمزًا لاستقلاله وسيادته على دولته الجديدة . وتحمل على وجهها الأول عبارة : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفي هذا تأكيد على الهوية الإسلامية للدولة العثمانية. حيث جعلت من كلمة التوحيد شعارًا لها . واهتم باستتباب الأمن والتعمير وفتح المدارس ، وقد ترك الدولة بحدود واضحة بفضل فتوحاته في آسيا الوسطى وشرق أوروبا، وتنظيمات عديدة أعلت شأن الأمة الإسلامية . [4]

---

[1] بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 128 .

[2] بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 129 .

[3] أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص17 ، عدنان العطار : مرجع سابق ، ص23 .

[4] أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص21 .

وفيما يلي نقد النقاط التي أحتوت عليها المادة :-

أولاً : إرجاع حياته الأولى إلى الغموض وقلة المصادر

" ولا نعرف العام الذي ولد فيه والحق أن علمنا بتاريخ حكمه لا يزال ناقصًا نقصًا كبيرًا " ، " ولسنا نعرف إلا القليل عن شباب أورخان " . [1]

وكعادة المستشرقين دائمًا يدخلون القارئ في جو من الغموض والشك في المعلومات التي يذكروها بعد ذلك ، حيث بدأت المادة باختلاف لا طائل منه على سنة الولادة ، على الرغم من أن المصادر لم تغفل هذا الجانب مطلقاً .

وأورخان هو السلطان الثاني للدولة العثمانية ، ولد في سوكود عام 680هـ / 1281م ، أي في العام الذي أصبح والده عثمان غازي أميرًا على الإمارة العثمانية ، [2] ويعد أورخان غازي أول أمير عثماني يحمل لقب سلطان ، وهو "السلطان ابن سلطان الغزاة ، والغازي ابن الغزاة ، وحاكم الآفاق ، وسيد العالم ، وشجاع الدين ، واختيار الدين ، وسيف الدين " [3] ، كما أنه يعد المؤسس الثاني للدولة العثمانية لأنه نظمها وعمل على زيادة مساحتها،[4] . وقد تربى أورخان تربية ممتازة منذ طفولته على يد جده الشيخ أده بالي ، ثم خاض غمار الفتوحات والغزوات في سن مبكرة ، وبعد أن تولى السلطنة عام 727هـ / 1326هـ سار على سياسة والده عثمان غازي ، وطريقته في إدارة أمور الدولة ، وهي سياسة تتميز بالعدل والضرب على يد الظالم ، وقد تدرب أورخان على استخدام السلاح وفنون القتال على يد قادة والده أمثال : آقجا قوجا وقونور آلب وسلجوق آلب وعبدالرحمن غازي ، مما أكسبه تجربة عسكرية عالية ، فتمكن من قيادة الجيش وفتح القلاع في سن مبكرة وذلك في زمن والده ، كفتح قلاع قرب أزنيق في 716هـ / 1316م ، كما شارك في فتح كوبري حصار ، وفي الغارات التي شنها الجيش التركي على أزنيق . [5]

---

[1] فرانس بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 126 .

[2] Nisancizade Mehmed ramazan , Mir' at – I kainat , II ., Istanbul 1290 , S . 10-15 ; Gazi Orhan Bey Vakfiyesi, belleten , 1941 , V / 19 , S. 277-279 .

[3] محمود محمد الحريري ، مرجع سابق ، ص41 .

[4] عبدالقادر ده ده أوغلي : مصدر سابق ، ص35 . أميرة مداح ، مرجع سابق ، ص17 .

[5] Lutfi Pasa , Tevarih – I Al – I Osman , S . 23 .

عبدالرحمن شرف: تاريخ دولة عثمانية ، ج1 ، ط1 ، إستانبول : معارف نظارات جلية سنك ، مطبعة سي ، 1309هـ ، ص68 .

وفي هذا رد –أيضًا– على المقولة التي جاءت في مادة عثمان الأول : ***"أن أورخان كان رفيق درب للسلطان عثمان غازي"*** ؛ [1] لأنه لم يكن رفيق درب وإنما ابنه وقائد جيوشه.

امتاز أورخان بالدقة في أداء أعمالهِ ، بتفكير منظم ماهر غير مرتبك ، واتصف بلين الطبع والشفقة والمروءة والرأفة ، وعامل كل أهالي البلاد المفتوحة معاملة حسنة طيبة حتى غير المسلمين ، وتقرب منهم بالشفقة والحسنى وليس بالسلاح ، مع اتصافه بكثير من الشجاعة والبسالة ، وكان يحب الفقراء ويحترم مشاعرهم ، حتى أشار المؤرخون إلى أنه لم يبق في أواخر عهده فقير يحتاج إلى الزكاة ، اهتم بالعلم والعلماء واحترمهم وجالسهم ، ويعود ذلك طبعًا إلى تربيته التي كانت على حب العلم والعلماء ، بالإضافة إلى أنه كان غاية في التقوى والعدالة ، ويعرف جيدًا التحبب إلى رعيته ، فكان يدخل بين عامة الشعب ويتناول معهم الطعام ويشاركهم مآسيهم . وقد ورث الشجاعة عن والده عثمان ، بالإضافة إلى أنه مقنعًا ومدبرًا ومفكرًا ، ولم يكن متعصبًا مطلقًا . [2]

ثانياً : إرجاع علاقته بأخيه إلى جمل مطاطة كثيرًا ما يستخدمها المستشرقون كمنهج أساسي في كتاباتهم كقولهم : " جاء في الروايات " و " يقال " حيث ذكر في الدائرة .

" جاء في بعض الروايات أن أورخان أعطى لأخيه علاء الدين جزءًا من ممتلكات أجداده ، ويقال كذلك إن علاء الدين اكتفى بالوزارة ". [3]

والصحيح أن علاقة السلطان بأخاه علاء الدين معروفة تمامًا ومذكورة في أكثر كتب التاريخ العثماني قديمًا وحديثًا ، فلماذا يرجعونها إلى بعض الروايات أو يقال ؟! إنما ذلك للتشكيك في المعلومات الواردة والتقليل من شأن هذه العلاقة التي تعد بالطبع غريبة عنهم تمامًا ؛ وذلك لأنها تصور اقتناع الأخ الأكبر بأنه رجل علم ودين فقط وأنَّ أخاه الأصغر هو الأنسب للحكم والفتوحات الإسلامية ؛ نظرًا لما يتميز به السلطان أورخان منذ حياة والده بحسن القيادة العسكرية والعقلية الحربية المنتظمة ، واتصافهِ بعلو الهمة والشجاعة والإقدام ، مما جعل والده عثمان يوصي له بالملك من بعده ، وذلك لميل ابنه البكر علاء الدين إلى

---

[1] Kramers : Othman I , the Encklopaedia of Islam , Leeden , 1936 , volame III , S. 1005 .

[2] عبدالقادر ده ده أوغلي : مصدر سابق ، ص35 أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص10 .
Mehmed Sakir : Yeni osmanli Tarihi , s 795 , 796 .

[3] بابنجر : مادة أورخان : دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص126 .

الورع والعزلة والعلم ، ومن حسن الحظ أن علاء الدين لم يعارض هذه الوصية بل صادفت هوى نفسهِ في التفرغ للعبادة والزهد ، وقبلها مقدمًا الصالح العام على مصلحتهِ واكتفى بمنصب الوزارة ، وهو المنصب الذي تطور لاحقًا للصدارة العظمى ، فكان أول وزير في تاريخ الدولة العثمانية . [1]

بالإضافة إلى خبرة أورخان الطويلة في قيادة المعارك وخوض الحروب ، حيث اشترك فيها منذ أن كان يافعًا في عمر الخامسة عشرة ، فكان يرأس الجيوش بنفسه مستفيدًا مما تتميَّز به من حنكة عسكرية ، وعقلية حربية ، تاركًا تنظيم شؤون الدولة الداخلية إلى أخيه علاء الدين .[2]

ثالثاً : التقليل من جهود فتح بروسه وذكرها بشكل عابر ، ونسبة الفتوحات العظيمة إلى قادة الجيش وليس لتنظيم أورخان .

يقول : " كان أورخان قد فتح بروسه دون سفك الدماء وصارت نيقيه "إزنيق" ونقوميديه هدفين توجه إليهما سيوف آل عثمان ، وكان يعاونه فريق من القادة المحنكين أشهرهم كوسة ميخال ... وبمعاونة هؤلاء القادة قام بتنفيذ الخطط التي أرادها ووفِّق أعظم توفيق " .[3]

إن الأحداث التي مرت بفتح بروسه قوية وعظيمة تعكس الصورة التي كان عليها القائد العثماني المسلم أورخان ، ولا يعبر عنها في كلمتين أو تنسب لقادته.

كانت بروسة قلعة منيعة ومستحكمة في منطقة مرمرة ، تابعة إلى الدولة البيزنطية ، وقد حوصرت منذ زمن السلطان عثمان ، حيث قام أورخان بعملية الحصار نيابة عن والده السلطان الذي كان مريضًا ، ثم توقفت العمليات العسكرية نتيجة وفاته ، وبعد الانتهاء من مراسيم تشييع دفن السلطان عثمان واعتلاء أورخان السلطنة ، بدأ بمواصلة الحصار إذ أقام معسكره في موقع يقطع ارتباط المدينة مع العالم الخارجي .

وعلى الرغم من أن قائد الحامية البيزنطي أراد الدفاع عن المدينة ، إلا أنه أدرك عدم وصول الدعم والمعونة من الخارج ، ومن جهة أخرى حرص السلطان أورخان على

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص122 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص17 .

[2] عبدالقادر ده ده أوغلي : مصدر سابق ، ج35 .

[3] بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص127 .

دخول المدينة بدون إراقة الدماء ، فبعث قائده كوسة ميخال سفيرًا إلى قائد بروسة البيزنطي ليطلب منه تسليم المدينة ، فاضطر الأخير إلى تسليم المدينة على شرط أن لا يلحق به وبأسرته أي ضرر ، فدخل أورخان إلى المدينة مع عسكره ، وتم بذلك فتح هذه القلعة البيزنطية المهمة بشكل سلمي عام 727هـ/1326م ، دون سفك للدماء . [1]

وأرسل القائد البيزنطي مع أسرته إلى جمانك [2] بموجب الاتفاق بينهم ، ثم سافر منها إلى القسطنطينية عن طريق البحر ، وبعد خروج رجال الإدارة البيزنطية من المدينة حسب شروط التسليم ، دخل المدينة أولاً المؤذن الشيخ آخي حسين بن شمس الدين وبدأ بإقامة الآذان، ثم دخل السلطان أورخان وحاشيته بروسة حيث قاموا بأداء أول صلاة للجمعة في أحد الأديرة التي تحولت إلى مسجد [3].

ومن أهم النتائج لفتح بروسة هو رفض أهاليها النصارى مغادرة المدينة ورغبتهم في البقاء تحت الإدارة العثمانية ، لأنهم وجدوا أن الشعب العثماني يعيش في رفاهية وسعادة ، ولذلك لم يذهبوا إلى بلاد البيزنطيين الذين ينتسبون إلى نفس دينهم وقوميتهم ، ويدل هذا على المعاملة الإنسانية والتسامح الديني والعدالة والأخلاق الرفيعة للعثمانيين تجاه سكان قلعة مفتوحة حديثًا ، ولم يقتصر هذا التسامح على النصارى فحسب ، بل شمل جميع أهل الذمة ، حيث سمح لليهود أيضًا بإقامة حارة ومعبد خاص لهم في بروسة [4] ، وقد أصدر السلطان أورخان أوامره للجنود بعدم إلحاق الأذى بسكان المدينة والحفاظ على أموالهم . وفي الوقت الذي رحل فيه قائد بروسة البيزنطي إلى القسطنطينية ، بقي قائده أورتوس في بروسة ودخل في خدمة الدولة العثمانية بعد إعلان إسلامه .[5]

وانتقل مركز الإمارة العثمانية إلى بروسة عقب فتحها ، حيث شيدت فيها المباني الدينية والاجتماعية ، واكتسبت المدينة هوية إسلامية خلال فترة قصيرة جدًا ، ثم قام السلطان أورخان بنقل جثمان والده السلطان عثمان إلى بروسة تنفيذًا على لوصيته .

---

[1] Asikpasazade , Tarih , S . 29- 31 . أنظر الخريطة في الملحق .

[2] جمانك Djemenik : بلدة في تركية الأسيوية " الأناضول تابعة للواء قيصرية . س . موستراس : مرجع سابق ، ص234 .

[3] Nesri , Tarih , I ., S . 132 – 133 .

[4] هدى درويش : العلاقات اليهودية التركية ، ج1 ، ص161 .

[5] Nesri , Tarih , I ., 133 – 135 .

لقد أدى فتح بروسة إلى تصاعد قوة العثمانيين بحيث قطعوا الارتباط الشكلي بالإدارة في الأناضول وانفصلوا عنها بشكل تام ، إذ بدأت الإمارة العثمانية في السنوات الأولى من حكم أورخان تتحول تدريجياً من إمارة إلى دولة .

وفي الفترة التي فتحت فيها بروسة عام 727هـ / 1326م تمكن القائد قونور ألب من فتح القلاع المحيطة بها ، كما استطاع القائد آقجا قوجا إلحاق قلعة قاندرا إلى الأراضي العثمانية . (1)

ثم تقدم القائدان قونور ألب وعبدالرحمن غازي نحو صماندرا وأنقذوها من البيزنطيين، وبعد ذلك تقدما نحو قلعة آيدوس (2) حيث قاما بإلحاقها إلى الإدارة العثمانية ، وقد غنم الجيش العثماني غنائم جمة وحصل على عدد من الأسرى أثناء فتح آيدوس ، وكانت ابنة القائد البيزنطي من بين الأسرى ، فقام السلطان أورخان بتزويجها من القائد عبدالرحمن غازي، ونتج عن هذا الزواج قرا عبدالرحمن الذي اشتهر فيما بعد بشجاعته وجرأته .

ثم فتح القسم الجنوبي من خليج إزميد (3) المتفرع من بحر مرمرة ، وأصبح العثمانيون حكامًا على سواحل بحر مرمرة ، إذ أصبحت كل القلاع البيزنطية تحت إمرتهم فيما عدا إزميد وإزنيق . (4)

رابعاً : صياغة أحداث متداخلة عن فتوحاته دون الالتزام بالترتيب الزمني ؛ وإنما ذلك لتشويش ذهن القارئ حتى يخرج غير مدرك لحقيقة الأحداث.

كما تحدثت المادة عن فتح مدن كثيرة دون توضيح – مطلقًا – لخط سير الفتوحات بشكل جيد . (5)

---

(1) Hoca Sadedin Efendi . Tacu t Tacu t , I ., Istanbul 1279 , S. 44- 47 .

إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في أعالي البحار ، ج1 ، ص489 .

(2) آيدوس : Aldos :مدينة في تركية الأوروبية ، في منطقة تراقيا ، في ولاية أدرنه . س . موستراس : مرجع سابق ، ص127.

(3) Izmid – Kieurfuzi : خليج إزميد يقع في لجانب الشرقي من بحر مرمرة . س . موستراس ، مرجع سابق ، ص52 .

(4) Solakzade Mehmed Hemdemi , Celebi , Solakzade Tarihi , I ., Ankara 1989 , S . 24 – 26 .

(5) بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص127 ، 128 .

لقد ذكرت المادة فتوحات أورخان بشكل متداخل تمامًا ، ورغم صحة وقوعها – كما ذكر بابنجر – لكنها كانت أكثر وضوحًا في المصادر العثمانية من معلومات المادة ، ولم يسر على الخط الزمني للفتوحات بشكل صحيح .

لكن مما يذكر لبابنجر أنه ردد دائماً في مادتهِ أن أغلب فتوحاتهِ تمت دون قتال ، وذلك يرجع لسبب واحد وهو تسامح أورخان مع غير المسلمين وحسن معاملته لأهالي البلاد الأصليين ، فترقبوا فتحه . [1]

عقب الفتوحات الواسعة بدأ السلطان أورخان في السير نحو إزنيق التي كانت تعد من أهم المدن البيزنطية بعد القسطنطينية ، وقد حوصرت هذه المدينة منذ زمن السلطان عثمان سنة 702هـ / 1302م ، ولكن القوات العثمانية اضطرت إلى الانسحاب وفك الحصار إثر الدعم العسكري القادم من بيزنطة ، واكتفى الحصار بتشييد قلعة بالقرب منها لقطع المعونة الخارجية إليها كما حدث عند فتح بروسة ، ويمكن القول أن فتح العثمانيين لإزنيق التي تعد من أهم المراكز الكائنة في حوض بحر مرمرة يعني خروج هذا المركز المهم من حوزة البيزنطيين ، ولذلك فقد أدى سير السلطان أورخان صوب إزنيق إلى قلق ومخاوف الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثالث ، فقام بتجهيز جيش ضخم لإنقاذ إزنيق التي كانت محاصرة منذ فترة طويلة ، ولاسترداد القلاع التي وقعت في حوزة العثمانيين ، وعندما علم السلطان أورخان بتحرك الإمبراطور البيزنطي ، تحرك هو الآخر لمواجهة الجيش البيزنطي، فتقابل الجيشان في موقع بيله كانون بين داريجة واسكي حصار، وفي هذه المعركة الحاسمة انتصر العثمانيين وانهزم الجيش البيزنطي وفرّ الإمبراطور [2] الذي جُرح أثناء المعركة إلى معسكره ، ثم التجأ إلى القسطنطينية وكان ذلك عام 730هـ / 1329م ، وبعد هذا الانتصار الحاسم الذي أحرزه السلطان أورخان على الجيش البيزنطي في هذه المعركة عاد مع جيشه مرة أخرى على مشارف إزنيق ، حيث اضطر قائد إزنيق البيزنطي تسليم المدينة بعد أن قُطع أمله في الحصول على الدعم الخارجي ، على شرط الأمان لنفسه وأسرته والسماح لمن يرغب من الأهالي بمغادرة المدينة .

وقد طُبقت سياسة التسامح الديني والرعاية تجاه أهالي إزنيق مثلما طبقت عند فتح بروسة ، حتى إن السلطان أورخان سمح للذين غادروا المدينة إلى القسطنطينية بأن يأخذوا

---

[1] بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص128 .

[2] Hoca Sadedin Efendi, Tacu t Tevrih , 1 ., Istanbul 1279 , S . 43 .

معهم أمتعتهم وحاجياتهم ، كما وافق على أن يقوم الأهالي الذين لم يتركوا المدينة بطقوسهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية [1] ، وقد غادر القائد البيزنطي إزنيق إلى القسطنطينية عن طريق البحر مع عدد ضئيل من الأهالي ، إذ بقي معظمهم تحت الحكم و الرعاية العثمانية . [2]

وقد بدأت الحركة المعمارية تسود المدينة إذ شيدت مدرسة على أنقاض دير مهجور في المدينة ، وعين عليها الشيخ داود القيصري ، هذا بالإضافة إلى حركة إسكان وإعمار مكثفة في المدينة ، فأصبحت خلال فترة قصيرة مدينة عثمانية تركية إسلامية غنية ، وصارت من أزهى مدن الدولة العثمانية وأكثرها رخاء بعد أن مر عليها عصر عانت فيه الشدة والضيق ، كما اشتهرت بأنها مركز العلوم العقلية الإسلامية . لقد أقام السلطان أورخان وزوجته نيلوفر خاتون معظم حياتهما في مدينة إزنيق ، وقد استقبل أورخان غازي في هذه المدينة الرحالة الشهير ابن بطوطة ، وقامت نيلوفر خاتون بتشييد دار لإطعام الفقراء والمساكين " دار المرق " فيها . ولا شك أن فتح إزنيق من قبل السلطان أورخان يعد من الأحداث المهمة في التاريخ العثماني ؛ حيث استخدمت كقاعدة دفاع ضد البيزنطيين ، ولهذا اهتم السلطان بإعمارها وإسكانها اهتمامًا كبيرًا . [3]

أما عن إزميد فقد كانت مركزًا تجاريًا مهمًا تابعًا للإدارة البيزنطية ، ولذلك كانت موضع اهتمام السلطان أورخان الذي أرسل قائديه آقجا قوجا وقونور الب لفتحها، فقام القائدان أولاً بفتح شبه جزيرة قوجا ايلي وضم القرى والقلاع المجاورة حتى وصلا إلى مشارف قلعة إزميد. وقام آقجا قوجا بفتح المنطقة المعروفة اليوم باسمه ، ثم توجه صوب إزميد وحاصرها، ولكن لم يتحقق فتح المدينة نظراً لوفاة هذا القائد عام 729هـ / 1328م ، مما اضطر الجيش العثماني إلى التراجع فدخلت الأماكن الواقعة بجوار إزميد مرة أخرى تحت الحكم البيزنطي ، ولكن قام الجيش العثماني بحصار إزميد ثانية بقيادة السلطان أورخان نفسه مما حذا بالإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثالث بالتوجه مع جيشه لحماية المدينة ، فأمر السلطان أورخان بفك الحصار والتفاوض مع الإمبراطور البيزنطي سنة 734هـ / 1333م ، ويعد هذا التفاوض أول معاهدة دبلوماسية بين السلطان أورخان والإمبراطور

---

[1] هدى درويش ، العلاقات اليهودية التركية ، ج1 ، ص161 .

[2] عبدالرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 70 . Nesri , Tarih , 1 . , S . 158 – 159 أنظر الخريطة في الملحق .

[3] Ibn Batuta Seyahatnamesi , I ., Istanbul 1291 , S . 341 – 347 .

Ibn Kemal , Tevarih – i Al – i Osman , Millet Kutup . Ali Emiri , No . 26 , Varak 23 a – 24 b .

أندرونيقوس الثالث ، وبموجبه رضي البيزنيطون بدفع (120.000) مائة وعشرون ألف ذهبًا سنويًا إلى العثمانيين مقابل تخليهم عن دخول إزميد .

وفي هذه الأثناء قام سكان بعض المناطق الواقعة بجوار إزميد بالاستسلام للعثمانيين طوعًا بعدما وجدوا المعاملة الحسنة والتسامح الديني من السلطان أورخان وابنه سليمان باشا تجاههم . وتم كذلك فتح جمليك التي كانت مستودعًا للعتاد والمؤن في السنة نفسها أي في 734هـ / 1333م . [1]

لقد كانت بيزنطة تريد إبادة الدولة العثمانية من حيز الوجود في كل فرصة مواتية لذلك قبلت دفع المال مقابل خروج العثمانيين من المنطقة ، لكن قام العثمانيون بحصار إزميد للمرة الثالثة عام 738هـ / 1337م ، مما أدى إلى قيام حامي القلعة يوآنيس الذي ينسب إلى أسرة بالالاغوس البيزنطية بالتنازل عن إدارة المدينة إلى أخته الأميرة ماريكا ، والهروب إلى قلعة قويون الواقعة قرب إزميد .

وفي الوقت الذي واصل السلطان أورخان وعساكره حصار إزميد ، قامت فرقة مسلحة بقيادة آيقوت ألب وقرا علي بيك بالاستيلاء على قلعة قويون ، وقد لقي القائد البيزنطي حتفه في المعركة التي دارت بين الطرفين ، فاضطرت الأميرة ماريكا إلى تسليم المدينة إلى السلطان أورخان سنة 738هـ / 1337م بشرط إطلاق سراحها والسماح لها بالرحيل إلى القسطنطينية ، وقد وافق السلطان على ذلك ، فرحلت مع حاشيتها ، ولم يتعرض الجنود العثمانيون إلى الأهالي أو حتى أموالهم ، بل سمحوا لهم بمواصلة حياتهم تحت الإدارة العثمانية وبأداء شعائرهم الدينية كما هو الحال في بروسة وإزنيق ، ثم عاد السلطان أورخان إلى بروسة بعد أن عين ابنه سليمان باشا على إدارة إزميد والمناطق المجاورة .[2]

لقد دخلت جميع أرجاء شبه جزيرة قوجا ايلي في حوزة العثمانيين عقب فتح مدينة إزميد ، إذ بقيت في يد البيزنطيين سواحل البحر الأسود الممتدة . وكانت هذه المناطق تقع على مسافات طويلة وبعيدة في نقاط متفرقة ، فلم تشكل خطرًا على العثمانيين ، ويمكن القول بأن الدولة العثمانية أصبحت أقوى دولة بين الإمارات التركية في غرب الأناضول وذلك بفضل الله ثم بفتحهم بروسة وإزنيق وإزميد .

---

[1] Omer Faruk Yillmaz Belgelerle Osmanli Tarihi , 1 ., Istanbul 1999 , S . 55 .

[2] Asikpasazade , Tarih , S.43 – 44 ; Nesri , Tarih , 1 ., S . 164 .

خامساً : تصوير فتح إمارة قرة سي على أنه تلبية لاستنجاد الأخ الأصغر بالسلطان أورخان ليعينهُ على الأخ الأكبر دون ذكر الملابسات مطلقاً . فقال :

" وأول ما فتح من الأناضول هي بلاد قرة سي ... وكانت وراثة الملك فيها سببًا في أن قام سنة 736هــ / 1335م نزاع بين الأخوين ، كان أصغرهما طورسون يعيش في قصر أورخان فطلب منه أن يعينهُ على أخيه الأكبر ، فغزا أورخان قره سي بعد أن أخذ مواثيق معينة ". [1]

وحقيقة الأمر أن القوات العثمانية واصلت فتوحاتها صوب القسطنطينية بعد فتح إزميد مباشرة حتى سنة 743هــ / 1342م ، وكان الأهالي القادمين من شرق الأناضول يسكنون في الأقاليم المفتوحة . لينعموا بالأمن والاستقرار ، وقد رأى أورخان أنه من الضروري أن تتجمع جميع الإمارات التركية تحت إدارة واحدة ، وطبعًا كانت الدولة العثمانية هي الأنسب لذلك نظراً لأنها دولة إسلامية سنية ، والأقوى في المنطقة ، فأخذ أورخان يتوسع بجيشهِ حتى استطاع أن يفتح قلعة أولوباد [2] ثم القلعة التي بقربها قيرماستي ميخاليج [3] التابعة لبيزنطة، وهكذا أصبحت الدولة العثمانية جارة لإمارة قره سي ، وقد كان حاكمها عجلان بك على صلة طيبة بالعثمانيين واتبع سياسة الود والتقارب معهم ، حتى إنه أرسل ابنه طورسون إلى عثمان بن أرطغرل ليشارك معه في الغزوات والفتوحات ، ثم توفي عجلان بك حاكم الإمارة أثناء الفتوحات عام 736هــ / 1335م ، وبدأ النزاع بين أبنائه لوراثة العرش ، فتولى بعده ابنه دمورخان الذي كان ظالمًا قاسيًا اشتد في الحكم على الأهالي ، واتبع سياسة مغايرة لأبيه ، مما دعا قومه إلى طلب المساعدة من أورخان ، وأن يولي عليهم الابن الثاني طورسون الذي كان قد لجأ للعثمانيين ، فتوجه أورخان عام 737هــ / 1336م إلى إمارة قره سي بناء على طلب أهلها وليس للتدخل في نزاع داخلي ، ولم يأخذ أي مواثيق من طورسون ، وإنما اصطحبه معه ليتولى الحكم بعد الفتح ، لكن شاعت إرادة

---

(1) بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص128 .

(2) أولوباد : Ouloubad : مدينة في تركية الأسيوية ، تقع على نهر يحمل الاسم نفسه . تطل على الضفة الشمالية لبحيرة أبو ليونت شرق مدينة قرقباي حاليًا . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 123 .

(3) ميخاليج : Muhalidi : مدينة في تركية الأسيوية ، وهي اليوم مدينة قرة كابي ، تقع غرب بحيرة أبو ليونت . س موستراس: مرجع سابق ، ص 474 ؟.

الله أن يتوجه طورسون لأخيه دمورخان في القلعة المنيعة " برغمة " [4] التي تحصن فيها ، يطلب الصلح ، فرماه أخوه بسهم وقتله ، فحاصر العثمانيون القلعة حتى اضطرت إلى التسليم ، وأرسل دمورخان إلى بروسة حيث مكث هناك إلى أن توفي بعد سنتين من الفتح ، وألحقت هذه الأراضي بالدولة العثمانية ، وقام أورخان بتعيين ابنه سليمان باشا عليها ، ثم توالى انضمام العديد من أمراء قرة سي إلى الدولة العثمانية ، أمثال إيجه خليل والحاج إلبيك وغازي فاضل بيك الذين قدموا خدمات جليلة للدولة العثمانية .[1]

وهكذا يتضح لنا أن المحرك الرئيس للسلطان أورخان ليضم هذه الإمارة هو مساعدة الأهالي الذين استنجدوا به لينعموا بالتسامح والأمن والاستقرار . والدليل أنهم لم يقاوموا أبدًا وإنما دخلت دون إراقة دماء وهذه سمة أورخان ، التي حاول بابنجر طمسها بشتى الطرق.

سادساً : بدأت المادة في الحديث عن علاقة أورخان بالبيزنطيين وكيف كانت تتأرجح بين السلم والحرب . فقال :

"أنه لم يكن الباعث على هذه الغزوات فكرة ترمي إلى تأسيس إمبراطورية عثمانية على الجانب الغربي للدردنيل ... ولكن نشأت بمرور الزمن من هذه الغزوات العارضة حملات منظمة على يد دويلات الأناضول " .[2]

خاض بابنجر في مسألة العلاقة بين العثمانيين والبيزنطيين وشرح ذلك من منظور خاص به ، لكن المسألة أعمق من ذلك بكثير ، حيث فتوحات الدولة العثمانية التي نظم لها أورخان وليس دويلات الأناضول ، وكان الباعث الحقيقي وراء تلك الفتوحات هو نشر الإسلام في المناطق المحيطة بأورخان ، هذا الباعث الذي زاده قوة وجعله يوسع حدود مملكته، بالإضافة – كما سبق ورأينا – إلى أن المناطق كانت تتسابق لتنضم إلى رعاية الدولة العثمانية حتى تنعم بالاستقرار والأمن بعدما سئمت حياة الذل والصراعات ، وكانت حتمية الفتوحات العثمانية تتجه نحو القسطنطينية.

---

[4] برغمة : Berghama : مدينة تركية أسيوية أسسها البيزنطيين من لواء قرة سي ، على نهر باقر جابي . بلد جميلة وبها آثار كثيرة . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 153 .

[1] Hola Sadedin Efendi : Tacut Tevrin , I . Istanbul , 7279 , S . 47 – 57 .

صبحي عبد المنعم ، عبدالحميد سليمان : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1 ، الرياض : الرشد ناشرون ، 1425هـ/2004م ، ص 33 ، 34 .

[2] فرانس بابنجر : مادة أورخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص128 .

إن دخول المناطق التابعة لإمارة قرة سي تحت الحكم العثماني كان مهمًا جدًا بقدر بفتح المناطق البيزنطية ؛ لأن ذلك يعني بأن العثمانيين أصبحوا حكامًا على جميع سواحل بحر مرمرة ، بالإضافة إلى السواحل الشمالية من بحر إيجه .

وهذا يعني – أيضًا – بأن العثمانيين بدأوا يستفيدون من تجارب هذه الإمارة في فن الملاحة ، إذ بدأوا بالتحرك صوب روميلي عن طريق البحر ، وقد كان لإمراء قارة سي دور مهم في تقوية الخط الهجومي للجيش العثماني وفي فتح روميلي بصفة خاصة .

وقد ساعدت النزاعات الداخلية التي نشبت بين الأمراء البيزنطيين حول عرش الدولة البيزنطية على نجاح العثمانيين في تكثيف غاراتهم على منطقة الروميلي وليس فتحها بالكامل. وفي الحقيقة أن منطقة الروميلي لم تكن مكاناً غريبًا عن السلطان أورخان الذي كان قد قام بغارات عديدة على سواحل تراقيا منذ زمن والده السلطان عثمان ، ويعد الهجوم الذي تم على سواحل تراقيا الشرقية عقب فتح مودانيا أول تحرك عثماني نحو منطقة الروميلي ، والحقيقة أن الحملة التي أرسلها السلطان أورخان عام 748هـ / 1347م كانت قوة عسكرية تركية منظمة ، وهي تعد قوة عثمانية كبيرة تدخل لأول مرة في التاريخ العثماني شرق أوروبا ، وكان الهدف الحقيقي للسلطان من هذا الدعم العسكري هو التعرف على بلاد أوروبا وأجوائها وطبيعتها لأجل القيام بنشر الإسلام فيها فيما بعد ، [1] حيث قامت باستطلاعات أولية في المنطقة .

وتفصيل ذلك أنه بعد وفاة الإمبراطور أندرونيقوس الثاني عام 746هـ/ 1345م اعتلى العرش ابنه يوآنيس الخامس الذي كان في الخامسة من العمر ، وعُيِّن ناظر البلاط البيزنطي كانتاكوزينوس وصيًا عليه ، وبعد فترة وجيزة قام الوصي كانتاكوزينوس بإعلان نفسه إمبراطورًا في ديماطوقا ، ولكن أهالي القسطنطينية وأدرنه لم يعترفوا به ، وقاموا بطلب النجدة من الملك البلغاري الكسندر ، وفي المقابل حاول الإمبراطور كانتاكوزينوس تأمين الدعم العسكري من ملك الصرب ستيفان دوشان بعد أن وعده بمنحهِ مقدونيا ، ولكن لم يتحقق بينهما التعاون المنشود ، فاضطر كانتاكوزينوس هذه المرة إلى طلب المساعدة من أمير الأمارة الآيدينية أوموربيك الذي أمده بقوات عسكرية لمرات عديدة ، ولكن بعد وصول الأسطول الصليبي إلى أزمير واستيلائه على المدينة عام 647هـ/ 1346م بقي

---

[1] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص27 . عبد اللطيف بن دهيش : مرجع سابق ، ص 30 .
Omer Farak Yilmaz , Belgeerle osmanli Tarini , 2 . baski , Istanbul 1999 , Safha 8-10 .

كانتاكوزينوس وحيدًا في مواجهة الخطر الصليبي ، وأم الإمبراطور المخلوع ، وانقطعت الإمدادات العسكرية القادمة من أوموربيك ، فاضطر أن يلجأ هذه المرة إلى طلب العون من السلطان أورخان متعهدًا له بتزويج ابنته تيودورا منه ، فقام أورخان الذي كان ينتهز الفرص للعبور إلى منطقة الروميلي بتلبية هذا الطلب بإرسال قوة عسكرية قوامها (5–6) آلاف مقاتل لدعم كانتاكوزينوس ضد الملكة آننا أم الإمبراطور الصغير يوآنيس الخامس ، وكانت النتيجة أن استطاع كانتاكوزينوس الاستيلاء على مدينة أدرنه سنة 747هـ/1346م بفضل هذه القوة العسكرية التركية ، وأعلن نفسه إمبراطورًا ولبس تاج الإمبراطورية ، [1] ثم قام بالوفاء بوعده ، فأرسل ابنته تيودورا إلى السلطان أورخان ، حيث قام الوفد التركي الرسمي الذي أرسل من قبل أورخان باستقبال العروس في سيليوري [2] وتسليمها من الوفد البيزنطي ضمن ولائم واحتفالات رسمية ، فما لبثت ما لبثت أن أعلنت إسلامها ، وكانت الأثيرة إلى نفس السلطان أورخان .[3]

ثم دخل كانتاكوزينوس القسطنطينية من العام نفسه وذلك بدعم من السلطان أورخان أيضًا ، واعترف بالحكم شراكة مع الإمبراطور الصغير يوآنيس الخامس ، وقد تقدم السلطان أورخان في تلك الأثناء ، ووصل اسكدار التي تقع على الشاطئ الآسيوي من إستانبول عام 748هـ / 1347م ، والتقى مع كانتاكوزينوس الذي طلب منه هذه المرة دعمًا ضد الصرب. ويتضح أن هذه المساعدات العسكرية أعطت فكرة كبيرة للقادة العثمانيين عن طبيعة المنطقة ومدى قوتها لإعداد الخطط من أجل نشر الإسلام في أوروبا . [4]

ونلاحظ بعد هذا التاريخ بأن الإمبراطور كانتاكوزينوس بدأ يحيك مؤامرة أخرى ، بحيث يعمل ضد العثمانيين تارة ، ويطلب منهم العون كلما وقع في الضيق تارة أخرى . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، تمكن الإمبراطور من إنقاذ سالونيك من الحصار الذي قام به ملك الصرب ستيفان دوشان عام 750هـ / 1349م بفضل القوة العسكرية التركية بقيادة سليمان باشا ابن السلطان أورخان . ومن جهة أخرى قام الإمبراطور نفسه بتحريض بابا

---

[1] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في أعالي البحار ، ج1 ، ص 490 . يوسف الثقفي : مرجع سابق ، 16 ، 17 .

[2] سيليوري : Siliwri ، مدينة وميناء في تركية الأوروبية ، على بحر مرمرة ، في ولاية أدرنه ، س . موستراس : مرجع سابق ، ص 304 .

[3] M . Gagatay ulugay : Padis Ahlarin Kadinlari VE Kizlari , Ankara : Turk Trih kupumu Yarinlari, 1980 , S . 314 .

[4] عبدالرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 73 أميرة مداح : مرجع سابق ، ص18 . صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص34 .

الفاتيكان لتجهيز حملة صليبية ضد العثمانيين، وعندما شعر السلطان أورخان بخيانة كانتاكوزينوس بدأ في التعاون مع أعداء البنادقة حليفة الدولة البيزنطية ، فتمكن بهذه الطريقة من التحكم بالمناطق المجاورة للقسطنطينية عام 753هـ / 1352م واقترب بذلك من قلب العاصمة البيزنطية .

وبعد فترة وجيزة بدأ الصراع مرة أخرى بين كانتاكوزينوس وشريكه في الحكم يوآنيس الخامس الذي استعان بالبلغار والصرب ، فقام كانتاكوزينوس بطلب العون من سليمان باشا ، ووعده بأن يمنحه قلعة في شبه جزيرة غاليبولي ، فقام سليمان باشا بالعبور مجددًا إلى الروميلي ، وانتصر على الجيش البلغاري والصربي في موقعة ديموتيقا ، وأنقذ أدرنه والأمير مثوس ابن الإمبراطور كانتاكوزينوس الذي كان محاصرًا في أدرنه ، ولكن كانتاكوزينوس بدأ كعادته القديمة في التفكير لطرد الأتراك من منطقة الروميلي وشبه جزيرة غاليبولي فحاول التحالف مع الصرب والبلغار بحجة الدفاع عن البلقان ضد الأتراك ، فلم يؤدِ هذا التحالف إلى نتيجة إيجابية لأن كانتاكوزينوس كان منبوذًا من قبل الأهالي لقيامه بتسليم البلاد إلى الأجانب البلغار والصرب ، ثم حاول التفاهم مع الإمبراطور يوآنيس الخامس ، ولكن دون جدوى ، وأخيرًا أُطيح به وأُبعد عن العرش سنة 755هـ / 1354م إثر الثورة التي قام بها مؤيدو الإمبراطور يوآنيس الخامس ، وبهذا صار الإمبراطور يوآنيس الخامس الحاكم الوحيد على بيزنطة ، ولكنه لم يكن من القوة التي يستطيع بها إخراج الأتراك من الروميلي ، فاضطر أن يقيم علاقات طيبة مع السلطان أورخان .

وبفضل الغارات السابقة استطاعت القوات التركية ضم سواحل بحر مرمرة حتى أطراف غاليبولي ، وبعد أن علم الحامي البيزنطي في غاليبولي بسقوط هذه المناطق على يد العثمانيين تخلى عن دفاعه عن المدينة وسلمها إلى الأتراك سنة 757هـ/ 1356م حيث غادرها مع أسرته إلى القسطنطينية على متن باخرة .

وفي الوقت الذي دخلت فيه غاليبولي وضواحيها تحت السيادة العثمانية دون حرب وباستسلام حاكمها ، كانت دول البلقان في صراع دائم فيما بينها ، إضافة إلى الفوضى التي سادت بيزنطة ، مما شكل عائقًا أمام تشكيل حلف مشترك ضد العثمانيين ، وبذلك دخلت أول مدينة أوروبية في حوزة الدولة العثمانية وتمكن العثمانيون من نقل فتوحاتهم الإسلامية إلى قارة أوروبا عقر دار المسيحية .

لقد قام العثمانيون بمعاملة سكان غاليبولي والروميلي والمناطق الأخرى معاملة حسنة وطيبة ، ومن جهة أخرى وطن أورخان العنصر التركي المسلم القادم من الأناضول في المنطقة ، بحيث أصبحت المنطقة بمرور الزمن تزخر بالعادات والتقاليد التركية الإسلامية [1].

ومن الصورة السابقة يمكن دحض ورد مقولة كرامرز في مادة الترك ***أن " أسباب نجاح حملات السلطان أورخان ترجع للتحالف بينه وبين كانتاكوزينوس "*** [2] ؛ إذ إن كانتاكوزينوس كان دائم الغدر بالسلطان أورخان وناقضًا للعهد ، ولم يثبت على سياسة التحالف.

أما عن أنقرة [3] فقد كانت مركزًا مهمًا في الأناضول تابعًا إلى أبناء أرتنا ، ولكن الصراع الذي نشب بين أولاد أرتنابيك عقب وفاة الأخير عام 753هـ/ 1352م أدى إلى ضعف مقاومة المدينة مما شجع السلطان أورخان على فتحها ، فأرسل ابنه سليمان باشا لفتحها، فتحرك سليمان بجيشه من بروسة وضم في طريقه كل المناطق المجاورة لأنقرة ، ثم وصل إلى أنقرة ففتحها بدون مقاومة تذكر سنة 755هـ / 1354م نظرًا لرغبة السلطان بالحكم العثماني ، وبهذا دخلت المنطقة الواقعة من صقاريا وحتى نهر قيزيل إرماق تحت السيادة العثمانية .[4]

وبعد فتح شبه جزيرة غاليبولي واصل العثمانيون تقدمهم إلى داخل منطقة تراقيا عن طريق ثلاث قوات عسكرية ، حيث تحركت كل قوة في اتجاه ، وفي فترة قصيرة دخل الشريط الساحلي تحت الحكم العثماني ، فقطع بذلك الطريق بين أدرنه والقسطنطينية . وفي الوقت الذي واصل فيه سليمان باشا فتوحاته في اتجاه أدرنه سنة 758هـ / 1357م عبر فيه أخوه مراد بيك الذي أصبح قائدًا على الجناح الأيمن للجيش العثماني إلى منطقة الروميلي

---

(1) Asikpasazade , Tarih , S . 48 – 50 ; Nesri , Tarih , 1 ., S . 180 – 182 .
G.Ostrogorsky : Bizans Devleti Tarihi, (Trc . F . Isiltan) , Ankara , 1981 , s , 479 .
عبدالرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 73 ، 74 .

(2) كرامز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص169 .

(3) أنقرة : Ankara . مدينة في تركية الأسيوية ، بها آثار يونانية ورومانية جميلة ، تعاقب على حكمها الرومان والفرس والعرب والسلاجقة ، ثم الفرنجة الذين جاءوا مع الحملة الصليبية الأولى ، وقد خسر أمام أسوارها السلطان بايزيد يلدرم موقعته المشهورة ضد تيمور لنك ووقع في الأسر . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 115 – 116 .

(4) Enveri , Dusturname , Mukrimin Halil nesri , Istanbul 1929 , TTE kulliyatindan , Evkaf Matbaasi . S. 82 . H .iakik : Edirnenin Fethi 1361 , Edirne 600 . Fethi Yildoumu Armagan Kitabi, Ankara , 1965 , 1965 , S . 137 – 159 . أنظر الخريطة في الملحق .

وتقدم صوب سفوح استرانجا ، وفتح قلعة بيريفاتوس ، وفتح جورلو [1] بعد معركة دامية سنة 759هـ / 1358م ، وفي هذه الأثناء قام سليمان باشا بفتح خيره بولي [2] ، وكان الجيش العثماني يهدف بهذه الفتوحات صد المخاطر القادمة من بيزنطة وأوروبا وواصلت القوات العثمانية فتوحاتها إلى ديموتوقا وأدرنه ، حيث تمكن مراد بيك والحاج إلبي بفتح لولة بورغاز[3] ، وهنا بدأ سليمان باشا بجمع شمل قواته وإعداد العدة لفتح أدرنه ، ولكنه وقع من صهوة جواده خلال قيامه برحلة صيد ، واصطدم ببعض الأشجار أثناء جريه مما أدى إلى وفاته عام 760هـ/ 1359م، ونقل جثمانه إلى بولاير ودفن في الضريح الكائن بجوار المسجد الذي شيده في حياته . [4]

كان الموت المفاجئ لفاتح الروميلي سليمان باشا سببًا في توقف الفتوحات العثمانية في المنطقة ، وقد تأثر السلطان أورخان كثيرًا بوفاة ابنه سليمان باشا فقام بإسناد ولاية العهد لابنه الآخر مراد بيك الذي كان قائدًا على القوات المرابطة في منطقة الروميلي . [5]

وقبل وفاة سليمان باشا قام القراصنة القادمين من فوجا [6] ، بأسر الأمير خليل ابن السلطان أورخان والبالغ من العمر أحد عشر عامًا ، وذلك خلال تجوله على القارب في بحيرة إزنيق، وقاموا بإرساله إلى فوجا سنة 759هـ/ 1357م ، وكانت الدولة البيزنطية تدعي بأحقيتها في حكم هذه المنطقة ، فطلب السلطان أورخان من الإمبراطور البيزنطي يوآنيس الخامس إنقاذ ابنه الصغير خليل من أيدي القراصنة ، وعلى الرغم من خوف الإمبراطور البيزنطي من غضب السلطان أورخان إذا لم ينفذ مطلبه ، إلا أنه كان سعيدًا بإناطة هذه الوظيفة إليه ، ولكنه في الوقت نفسه اشترط على السلطان مقابل ذلك أن يقوم بمساندته ودعمه ضد مثيوس بن كانتاكوزينوس الذي أعلن التمرد والعصيان ضده ، ثم توجه على رأس أسطوله نحو فوجا ، وأعطى مائة ألف قطعة ذهبية إلى قائد الجنويز في فوجا مقابل إطلاق سراح الأمير العثماني الصغير ، فوافق القائد على ذلك ، وأخذه الإمبراطور

---

[1] جورلو : مدينة في تركية الأوروبية في ولاية أدنة . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 244 .

[2] خيرة بولي : kheire bolou ، تقع في تركية الأوروبية ، في ولاية أدرنه ، س . موستراس : مرجع سابق ، ص260 .

[3] بورغاز : تقع على ضفاف نهر المريج بقرب أدرنه .

[4] E.Zachariadou : the conquest ed Adrian ople by the Turks , studi veneziani , 1970 , P . 211 – 210 .
ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص22 .

[5] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 127 .

[6] فوجا : Fotscha ، مدينة تركية أسيوية ، في البوسنة ، تقع على ضفتي نهر تشيوتينا ، عند مصبه في نهر درينا . س- موستراس : مرجع سابق ، ص 378 .

معه إلى القسطنطينية ، وخطب للأمير خليل ابنته البالغة من العمر عشرة أعوام ، وجاء بهما شخصيًا إلى إزميد وسلمهما إلى السلطان أورخان [1]، وعلى الرغم من أن هذه الحادثة لم تذكر كثيرًا في كتب التاريخ ، إلا أن لها أهمية كبيرة في تاريخ علاقة السلطان أورخان بالإمبراطور البيزنطي ، لأنها تثبت مدى خوف الإمبراطور البيزنطي وخشيته من السلطان العثماني ، وتبعيته له منذ ذلك الزمن .

وبعد وفاة سليمان باشا قام السلطان أورخان بإرسال ابنه الشاب مراد بيك إلى المنطقة الغربية التي تعد من أهم مناطق الحدود مع الروميلي ، فقام مراد بيك أولاً بزيارة قبر أخيه سليمان باشا ، ثم بدأ بالعمليات العسكرية مع قادته المحنكين لالاشاهين باشا والحاج إلبي وأورنوس غازي ، وكان الهدف الرئيس من هذه العمليات العسكرية هو فتح مدينة أدرنه التي كانت تعد المعقل البيزنطي الثاني بعد القسطنطينية ، ولأجل تحقيق هذا الهدف تم فتح قلعة بنتوز التي تقع على الطريق أولاً ؛ وذلك لصد المعونة والمساعدات البيزنطية الآتية من القسطنطينية .

وكان من أهم السياسات التي اتبعتها الدولة العثمانية خلال هذه الفتوحات سياسة المعاملة الحسنة والتسامح تجاه أهالي المدن والقرى المفتوحة ، بحيث فتحت قلوبهم إلى الإسلام مما جعلهم يستقبلون الفاتحين بكل قبول وترحيب .

ومن جهة أخرى قام القائد الحاج إلبي بفتح بعض القلاع الصغيرة الواقعة على ضفاف نهر المريج ، ثم توجه صوب قلعة ديموتوقا واستطاع أسر قائدها البيزنطي الذي كان يخطط في الهجوم على الجيش العثماني ليلاً ، وفتح القلعة ، كما تمكن القائد أوره نوس بيك من فتح كشان وأيسبالا قرب أدرنه ، ثم اجتمع هذان القائدان مع مراد بيك بن السلطان أورخان في لولة بورغاز ، وقاموا بالتخطيط لفتح أدرنه التي كانت تعد من أكبر المدن البيزنطية بعد القسطنطينية ، فأرسلوا قوة نحو أدرنه بقيادة القائد لالاشاهين باشا لاستكشاف المنطقة ، وبعد أن علم القائد البيزنطي في أدرنه باقتراب العثمانيين من المدينة ، خرج من قلعته وبدأ بالإعدادات الحربية في موقع قريب منها لأجل حماية المدينة . ولكنه فر من ميدان المعركة إثر الهزيمة التي لحقت به وبجيشه ، ولجأ إلى داخل المدينة واحتمى بها ، فأصر القائد لالاشاهين باشا على ملاحقته ، فأقام معسكرًا أمام أسوار المدينة ، ثم بعث خبر

---

[1] Iskender Hoci , "Sehzade Halil' in Serguzesti " TOEM , 1/4 , S. 239-252 . 11/7/, S. 436-445 .

الانتصار إلى مراد بيك المرابط في لولة بورغاز ، فقام مراد بيك بالسير مع جيشه وقادته صوب أدرنه، [1] إلا أن مشيئة الله لم تأذن بفتح أدرنه إلا في عهد مراد الأول .

إذ توفي أورخان في الوقت نفسه عام 762هـ / 1360م عن عمر يناهز 79عام ، ودفن في بروسة بجوار ضريح والده السلطان عثمان غازي ، توفي السلطان أورخان بعد أن شهد أول استقرار إسلامي في أوروبا جهة البلقان ، وتوسعت الإمارة العثمانية حتى غدت دولة عثمانية من أنقرة إلى تراقيا ، مخلفًا وراءه دولة تقدر مساحة أراضيها بـــ (95000) كيلو متر مربع ، أي ستة أمثال المساحة التي ورثها عن أبيه . [2] ، وقد تحققت الفتوح العثمانية ليس عن طريق القوة أو إراقة الدماء بل كان أغلبها باتباع سياسة الوفاق والسلم والاستمالة حقناً لدماء الأهالي ، وهذا الأمر ساعد على بقائها،و مما ساعد على ذلك – أيضًا – الصفات التي اتصف بها أورخان نفسه في التعامل مع الأهالي والرعية وكان من الواجب ذكرها من خلال أقوال المؤرخين .

فقالوا عنه : " كان أورخان غازي شجاعًا مثل والده ومقنعًا ومدبرًا ومفكرًا ، ولم يكن متعصبًا مفرطًا " [3]

كما قالوا : " أن التسامح الذي أبداه أورخان غازي لأهالي المدينة النصارى أثناء فتح أزنيق والمعاملة الطيبة الحسنة أدى إلى إسعاد الأهالي فلم يتركوا المدينة حيث قرروا البقاء في حماية العثمانيين والعيش معهم بشكل سعيد . وكان أورخان يدرك النتائج المترتبة من المعاملة الطيبة والشفقة الإنسانية تجاه أهالي أزنيق النصارى ، إذ أصبح ذلك عاملاً مهمًا في نجاحه في كثير من الإنجازات في المستقبل ، بحيث انتشرت شهرته في كافة البقاع فمهدت الطريق إلى فتوحاته الواسعة ". [4]

وقيل : " لم يكن أورخان متوحشاً ولا قاتلاً ، بل كان عادلاً وشجاعًا ومحاربًا ماهرًا ، وأنه حكم خمسة وثلاثين عامًا ، ويعد من أكبر سلاطين آل عثمان ، وأن العثمانيين ليسوا

---

[1] I . Sahin , Y. Holasogla , F.M.Emecen : Turkish Settle . ments in Rumelia (Bulgaria) in the 15 th and 16 th Centuries , Town and village population , JTC . IV / 2 , 1989, P . 39 – 42 .
O.L.Bakan : Osmanli imperator lugunda bir islcan ve kolonizasyon metodu olarak vakiflar ve temlikler , istila dewinin kolonizatir Turk Dervisliri , vakillar Dergisi , II , 1942 , S , 279 – 386 .

[2] Enveri , Dusturname , S. 84 ; Asikpasazade , Tarih , S. 29 – 31 ; Nesri , Tarih , I ., S . 132 – 136 .
عبدالقادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص35 .

[3] Yorga , Osmanli Tarihi , 1 ., S. 162 .

[4] De la Croix , Osmanli Takvim – i Tevarihi ., S. 90 – 92 .

ظالمين بالفطرة ، بل إنهم ودودون وحليمون حسب أقوال الرحالة الذين عرفوا العثمانيين وخالطوهم ، ويجب القول بأن العثمانيين هم أفضل الحكام إذا ما قورنوا مع العناصر البيزنطية أو العناصر المنتسبة إلى دول البلقان ، ولو كان أورخان رجلاً مهاجمًا وظالمًا لوقع قتل الناس وسفك الدماء فلا يمكن في هذه الحالة أن تدوم سلطنته ، إنه لم يكن جبارًا ولا طاغيًا " [1]

" وأظهر أورخان تساهلاً وتسامحاً كبيرين مع أهل المدينة المفتوحة الذين استسلموا ، الأمر الذي دفع الكثير من سكانها إلى اعتناق الدين الإسلامي. " [2]

" ويعد عهد أورخان هو العصر العثماني الذي شهد أول استقرار إسلامي في أوروبا وخاصة في بلاد البلقان ، كما شهد عصر أورخان ظهور نظام عسكري جديد سيلقي الرعب في قلب الشعب الأوروبي لمدة أربعة قرون متتالية ، كما شهد ظهور نظام الدولة العثمانية أو الإمارة العثمانية المترامية الأطراف والتي تمتد من أنقرة إلى تراقيا بعد أن ضاعف الأراضي التي ورثها عن والده السلطان عثمان ست مرات ، ويحسب لأورخان بأنه أول من أرسى نظامًا عسكرياً للدولة العثمانية ".[3]

لقد وصف الرحالة ابن بطوطة عهد السلطان أورخان على النحو الآتي : " كان السلطان أورخان بن عثمان من أكبر سلاطين التركمان من حيث سعة الأراضي والعسكر والأموال ، كانت هنالك حوالي مائة قلعة تحت حكمه ، وكان يقضي معظم أوقاته في التجوال بالمرور على هذه القلاع ، حيث كان يمكث في كل منها فترة ما وينشغل بشؤونها وإتمام نواقصها ومتطلباتها ، على أنه لا يقيم أكثر من شهر واحد في مكان واحد ، كما كان يشارك في الحروب ضد الكفار بشكل متواصل ، إذ كان يحاصر قلاعهم ويفتحها واحدة تلو الأخرى ، قمنا برحلة من بروسة إلى قلعة إزنيق ، حيث تحيط بالقلعة بحيرة إزنيق من أحدى الجهات ، ويعسكر قسمٌ من جيش السلطان في هذه المدينة ، وتعيش في القلعة نيلوفر خاتون ، وهي زوجة السلطان ، وتتصف بالنضوج والتدين ، أصبحنا ضيوفاً على الإمام الخواجة الحاج علاء الدين أسكي شهير لي في أزنيق ، الذي يعرف بالسخاء والكمال ، متى ما زرته لا يقبل

---

[1] Gibbsons , Osmanli Imparatorlugu nun kurulusu , S. 40 – 60 .

[2] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص31 .

[3] عبد المنعم الهاشمي ، مرجع سابق ، ص42 .

أن أتركه إلا ويحضر الطعام وكان ذا أخلاق طيبة بقدر جمال وجهه ، وبعد وصولنا إلى أزنيق بعدة أيام جاء أورخان غازي لزيارة الخواجه علاء الدين ومسامرته " [1]

لقد كان لسياسة التسامح الديني التي مارستها الدولة العثمانية وطبقها السلاطين العثمانيين في بداية عهدهم وخاصة في عهد أورخان أبرز الأثر في تمهيد الطريق للفتوحات العثمانية ، وفتح المدن والقلاع برغبة من أهلها دون سفك دماء. لقد كانت السمعة الحسنة تطير في الآفاق قبل وقع حوافر الجيوش العثمانية الإسلامية .

ولا شك أن العناية الكبيرة التي بذلها العثمانيون عند تطبيق الشريعة الإسلامية على العناصر غير المسلمة ، جعل جميع المسيحيين ينحنون تحت الحكم العثماني ، خاصة بعد أن عاشوا حياة الفقر والذل والاضطراب في ظل الصراع والتناحر بين الطوائف الدينية من ناحية، وبين الاضطرابات السياسية من ناحية أخرى ، مما جعل الهلال العثماني هو الملجأ والمأمن الوحيد لهم .

وقد اتضحت علاقة البيزنطيين مع العثمانيين من خلال العرض السابق والتي تمثلت في محاولة بيزنطة دائماً خطب ود العثمانيين والتحالف معهم ، كما حدث بين السلطان أورخان وكانتاكوزلينوس ، وذلك باعتبار أنهم الأقوى مما يثبت عكس ادعاءات المستشرقين في موادهم بأن الدولة العثمانية بها كثير من العادات والسنن البيزنطية . كيف يقلدون من يريدون التحالف معهم ، والأولى أن يقلد البيزنطيين الدولة العثمانية على اعتبار أنهم الأضعف، فمن الطبيعي أن يميل الأضعف إلى تقليد الأقوى لا العكس .

وتتبلور علاقة الدولة العثمانية مع البيزنطيين بمجيء السلاطين الأقوياء إلى سدة الحكم العثماني ، وفتح القسطنطينية ، والتي ستقلب شكل العلاقة بين الطرفين كما سيتضح في المبحث القادم.

---

[1] Ibn Batuta Seyahatnamesi Tercumesi , I ., Istanbul 129 , S . 20-23 .

المبحث الثاني :

رؤية المستشرقين في الكتابة عن العصر الذهبي والشخصيات العثمانية التي أثرت في تاريخ أوروبا .

إن التطورات السريعة التي مرت بالدولة العثمانية خلال القرنين 8 و9اهـــ / 14و 15م .

قد أدت إلى استيقاظ أوروبا تجاه الدولة الإسلامية الناشئة التي نمت ووصلت حدودها بنهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إلى ثلاث قارات – أوروبا وآسيا وإفريقيا – متحكمة بذلك في مناطق استراتيجية ، فضلاً على الهيمنة الروحية على جميع مسلمي العالم بضمها للحجاز .

وما أن شارف عهد سليمان القانوني على الانتهاء حتى كانت الدولة العثمانية تحكم مناطق واسعة الأطراف ، تمتد من الدانوب حتى الخليج العربي ، ومن أوكرانيا حتى جنوب مصر.

ولا شك بأن من قام بهذه الفتوحات هم سلاطين عصر القوة في الدولة العثمانية الذين تركوا بصمات واضحة في تاريخ العالم الإسلامي وتاريخ أوروبا ، ومن خلال فتوحات السلاطين الأوائل سُجل تاريخ أوروبا بمنتهى الدقة بكل ما فيه من خلافات مذهبية وما يتبعها من مذابح مروعة ، وخلافات سياسية على الحكم وتعفنات داخل الكنيسة ومؤامرات الباباوات ورجال الدين ، ولهذا فإن سلاطين عصر القوة يعدون من الشخصيات الأساسية التي صاغت تاريخ أوروبا الحديث ، وكان لفتوحاتهم ونشر الإسلام في أصقاع أوروبية ومسيحية صلبة أبلغ الأثر في تشكيل السياسة الأوروبية آنذاك.

وما يجوهر المعلومة السابقة أن مركز ثقل الدولة العثمانية الإسلامية كان في أوروبا ، مما زاد من تأثيرها المباشر على تشكيل الاتجاهات السياسة في أوروبا .

وبناء على ما سبق فإن أقلام المستشرقين الحاقدة على الدولة العثمانية انبرت لتزييف حقائق سلاطين العصر الذهبي ، محاولةً تشويهها والمبالغة في بعض الأحداث بما يتناسب مع أهدافهم للطعن في سيرة السلاطين وفتوحاتهم التي أثرت بشكل مباشر في تاريخ أوروبا .

فجاءت مواد سلاطين عصر القوة في دائرة المعارف الإسلامية من أقلام مستشرقين لا يزالون سجناء الإستشراق ، فاستخدموا كل وسائلهم في الكتابة عنهم طامسين للحقيقة ومدلسين لها ، مما أخرج مواد السلاطين وكأنها لا تمت للواقع التاريخي بصلة .

يعد السلطان مراد الأول أول الفاتحين العثمانيين للأراضي الأوروبية وأعظمهم ، وجاءت مادة السلطان مراد في دائرة المعارف الإسلامية بقلم المستشرق كرامرز ، وأسلوبهِ واضح من قبل حيث يستخدم معلومات خاطئة ويركب عليها الأحداث تركيبًا ، فضلاً عن اختلاقه لأحداث لم تقع ، بالإضافة إلى تركيزه الواضح على أمور لا تفيد في السياق التاريخي.

وإذا ألقينا نظرة على مادة السلطان مراد الأول في دائرة المعارف الإسلامية نجد أنها احتوت على العديد من الأخطاء التاريخية وصفها :

أولاً :التشكيك في سنة الولادة ، بالإضافة إلى وصف والدته نيلوفر خاتون بالسيدة البيزنطية.[1]

ثانيًا :محاولة التشكيك في فكرة الفتوحات وأهدافها ونتائجها ، ونسب نجاح كل فتوحات السلطان مراد الأول إلى انقسام البيزنطيين والتنافس بين بلدان البلقان للسيطرة السياسية . [2]

ثالثًا: إرجاع كرامرز فشل الحلف الصليبي الذي دعا له البابا أوربان الخامس إلى العداء المستحكم بين البيزنطيين والبلغار [3].

رابعًا : اتهامهِ بالاستيلاء على أراضٍ بغرض أن تقدم كهدية زواج ، أو شرائها بالمال دون رغبة أصحابها .[4]

خامسًا : تلفيق الافتراءات والأكاذيب حول مقتل السلطان مراد الأول في معركة قوصوة ومقتل لازار ملك الصرب . [5]

وعليه ستبدأ الدراسة بالرد على كل نقطة بمفردها لتوضيح عدم صدق ادعاءاتهم .

---

[1] Kramers : murad l , the Encychopaedia of Islam , Leiden , 1993 , volame VII , S. 592 .

[2] Kramers : murad l , the Encychopaedia of Islam , volame VII , S. 592 .593 .

[3] Kramers : murad l , the Encychopaedia of Islam , volame VII , S. 593 .

[4] Kramers : murad l , the Encychopaedia of Islam , volame VII , S. 592 .

[5] Kramers : murad l , the Encychopaedia of Islam , volame VII , S. 592 .

تولى السلطان مراد الأول السلطنة بعد وفاة والده السلطان أورخان عام 762هـ/ 1630م ، ومدة حكمه 35 سنة ، قضاها في الفتوحات وترتيب أمور الدولة . [1] اتصف بالشجاعة والكرم مع جنوده ، شديد الحماس للإسلام ، بنى الكثير من المساجد والملاجئ ، وتمكن بمقدرته الحربية ومهارته العسكرية الاستمرار في الفتوحات الحربية في أوروبا وآسيا الوسطى . [2]

فاتحة أعماله حملة أنقرة ثم فتح أدرنه سنة 762هـ / 1360م واتخذها عاصمة له لموقعها المميز وبذلك نقل العاصمة من آسيا إلى أوروبا ، والتي تميزت باستحكاماتها الحربية وقربها من مسرح الأحداث العسكرية ، وتحولت من مدينة بيزنطية إلى مدينة إسلامية عثمانية، وقد أولاها اهتمام خاص فأنشئت بها دور المحاكم والمدارس والمساجد والمعاهد العسكرية . [3]

واجه حلفًا صليبيًا قويًا دعا إليه البابا أوروبان الخامس ، تكون من حكام شبه جزيرة البلقان ، والذي واجهه بقوة وشجاعة عام 765هـ / 1364م ، وواصل فتوحاته في أملاك الدولة البيزنطية مما آثار مخاوف (لازار) ملك الصرب ، والذي استغل فرصة انشغال السلطان مراد الأول بحروبه في آسيا الصغرى ، وتزعم حلفًا صليبيًا قويًا ضد السلطان مراد الأول نتج عنه المواجهة العسكرية في معركة " قوصوه " والتي انتصر فيها العثمانيون ، لكنهم دفعوا ثمن هذا الانتصار غاليًا ، حياة سلطانهم مراد الأول . [4]

بدأ كرامرز مادتهِ – كدأبهِ دائمًا – بالاختلاف حول تاريخ ولادة السلطان مراد الأول ومحاولة إدخال القارئ في هذا الاختلاف دون داعٍ ؛ وذلك ليزرع الشك في نفس القارئ بصحة المعلومات التي وردت .

وفيما يلي نقد النقاط التي وردت في المادة :-

أولاً : التشكيك في سنة الولادة ووصف والدته نيلوفر خاتون بالسيدة البيزنطية . فقال :

" بحسب التقاليد المتعارف عليها كان الحاكم الثالث للدولة العثمانية ابن أورخان وسيدة بيزنطة " " نوفر " وبالرغم من أن بعض المصادر العثمانية تدعي معرفتها بالعام

---

[1] عدنان العطار : مرجع سابق ، ص 29 .

[2] أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 22 .

[3] إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص19 .

[4] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 130 ، أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص23 ، 24 .

الذي ولد فيه Sidjill-l Othmani تشير إلى عام 726هـ / 1326م إلا أن هذا التاريخ مثله مثل كافة التواريخ المقدمة من مصادر تركية ذات الصلة بهذه الحقبة من الزمن لا يوجد ما يؤكد صحته" (1)

لقد ثبت واتفقت جميع المصادر العثمانية والعربية على تاريخ ولادة السلطان مراد الأول ولا يوجد بينها أي اختلاف مطلقاً ، فمن أي جاء بهذا الافتراء؟!

السلطان مراد الأول ابن السلطان أورخان هو السلطان الثالث للدولة العثمانية ، ولد في بروسه عام 726هـ / 1326م وهي السنة التي فتحت فيها بروسه وتوفي فيها جده السلطان عثمان .(2)

وقد تربى منذ صغرهِ تربية دينية عالية على يد أفاضل علماء عصره ، ثم بدأ في تعلم فنون الإدارة والقتال من القائد المحنك لالاشاهين باشا ، وكتطبيق عملي على الحياة السياسية ، عينه والده السلطان أورخان واليًا على أحد السناجق القريبة من بروسه ليكسب خبرة في الشئون الإدارية (2) ثم عين وليًا للعهد عقب وفاة أخيه سليمان باشا عام 762هـ / 1360م ، ثم منح قيادة الجيش العثماني المرابط في منطقة الروميلي ، ولم يلبث فترة قصيرة حتى رجع مراد إلى بروسه إثر وفاة والده السلطان أورخان عام 762هـ / 1360م وتولى عرش السلطنة العثمانية . (3)

كان محاربًا شجاعًا ، كريمًا وعادلاً مع رعاياه وجنوده ، شديد الحماس للإسلام شغوفاً بالغزوات ، كان يصطحب معه في الفتوحات خيرة القادة والخبراء العسكريين ، وشكل منهم مجلسًا لمشورته ، توسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد . على الرغم من أنه قضى جّل حياته في الجهاد ، وساحات المعارك ، إلا أنه وجد الوقت الكافي لإشادة الأبنية الجميلة والنفيسة كالمساجد والمدارس ، والملاجئ والتكايا لإطعام الفقراء في بروسه . (4)

---

(1) Kramers : murad l , the Encychopaedia of Islam , volame VII , S. 592 .

(2) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 129 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص44 .
Nisancl Zade Mehmed Ramazan : Mir at – I Kainat, II , Istanbul, S . 15-22 .
(2) As Kpasazade , Tarih, s. 43 .

(3) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 18 .
Nesri : Tarih , I , S. 197 .

(4) أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 22 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص101 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص45 .

أما عن والدته نيلوفر خاتون فقد وصفها كرامرز بسيدة بيزنطية ، وهي كلمة حق أريد بها باطل ، هي فعلاً سيدة بيزنطية لكن منذ زواجها بالسلطان أورخان أعلنت إسلامها ، والدليل على ذلك أنها كانت تحب أعمال الخير ، حيث شيدت مسجدًا ، وتكية لإطعام الفقراء في بروسه ، إضافة إلى القنطرة التي أمرت ببنائها على النهر الصغير الذي يمر من هضبة بروسه ، حتى عُرف هذا النهر باسم نيلوفر ، [1] فلا شك إذن أن أعمال البر التي قامت بها تدل على حسن إسلامها واهتمامها بتنفيذ تعاليمه السمحاء .

ثانيًا : محاولة التشكيك في فكرة الفتوحات وأهدافها ونتائجها ، ونسب نجاح كل فتوحات السلطان مراد الأول إلى انقسام البيزنطيين والتنافس بين بلدان البلقان للسيطرة . فقال:

" لم يتسنَ بعد الحصول على فكرة جلية عن سلسلة الإنجازات العسكرية التي أدت إلى نجاح الأتراك في ترسيخ وجودهم بشبه جزيرة البلقان ، وحتى الانتصارات البارزة تدحض بعضها البعض في المصادر العثمانية والغربية ، كما أن الحصول على التاريخ الدقيق حتى للأحداث المهمة تعتريه صعوبات جمة " .

وقال أيضًا " أن نجاحات الدولة العثمانية كانت نتيجة للتنافس الذي كان قائمًا بين بلدان البلقان والبيزنطيين وممالك البلغار والصرب ، علاوة على الرغبة الجامحة لقساوسة الكنيسة الكاثوليكية في استعادة اليونان إلى روما ، واستطاع العثمانيون أن يجدوا لأنفسهم على الدوام حلفاء لهم في عقر دار المسيحيين ، كذلك يتعذر تحديد الحملات العثمانية التي خطط لها فعلاً مراد ومستشاروه ، وتلك التي كانت مجرد غارات ناجحة نفذتها عصابات تركية ". [2]

بداية نقول : إن كرامرز عندما كتب هذه المادة لم يطلع مطلقاً على أي مصدر أو مرجع عثماني ؛ لأنه لو فعل لاكتشف أن أخبار فتوحات مراد الأول ملأت صفحات المخطوطات والكتب ، بالإضافة إلى أنه ناقض نفسه تمامًا بهذه المعلومات ؛ لأنه ذكر في بداية المادة أن مراد الأول أعظم الفاتحين العثمانيين للأراضي الأوروبية ، فكيف يصفه بهذا الوصف الجميل ، ثم يعود ويقول أنه لا توجد مصادر لهذه الفتوحات ومعلوماتها غير واضحة؟!

---

[1] M.Qagatay ulucay : Padisahlarin kadinlart VE Kizlari , s 4 .

[2] Kramers : murad l , the Encychopaedia of Islam , volame VII , S. 593.

إن السلطان مراد سار على خطا والده في الفتوحات ونشر الإسلام ، ويرجع تفوق العثمانيين ونجاحهم في الفتوحات الإسلامية ليس لضعف الحكم البيزنطي ولا الخلل الذي انتاب الكنيسة وإنما قوة الإيمان والإسلام في قلوب العثمانيين ، وأبلغ دليل على ذلك وصية السلطان عثمان لابنهِ أورخان :

يا بني : إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فأتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً .

يا بني : أحط من أطاعك بالأعزاز ، وأنعم على الجنود ، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك ، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة .

يا بني : إنك تعلم أن غايتنا هي أرضاء الله رب العالمين ، وأنه بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق ، فتحدث مرضات الله ﷻ.

يا بني : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت ، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل .

أعلم يا بني : أن نشر الإسلام ، وهداية الناس إليه ، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، أمانة في عنقك سيسألك الله ﷻ عنها .

يا بني ، إنني انتقل إلى جوار ربي ، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية ، مجاهدًا في سبيل الله ، لنشر دين الإسلام .

يا بني ، أوصيك بعلماء الأمة ، ادم رعايتهم ، وأكثر من تبجيلهم ، وانزل على مشورتهم ، فإنهم لا يأمرون إلا بخير .

يا بني ، إياك أن تفعل أمرًا لا يرضي الله ﷻ ، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة ، فإنهم سيدلونك على الخير .

وأعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله ، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله ، وأننا لسنا طلاب جاهٍ ولا دنيا .

وصيتي لأبنائي وأصدقائي ، اديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله ، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد ، اخدموا الإسلام دائمًا ؛ لأن الله ﷻ قد وظف عبدًا ضعيفاً مثلي لفتح البلدان ، أذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان

بجهادكم في سبيل الله ، ومن أنحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر .

يا بني : ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أجلي بأمر الله ﷻ أسلمك هذه الدولة واستودعك المولى ﷻ أعدل في جميع شؤونك .. " [1]

لقد كانت هذه الوصية منهجًا سار عليه العثمانيون ، واتضح تمامًا في حركة الفتوحات الإسلامية العثمانية ، فهي لم تكن غارات لعصابات تركية مطلقاً وإنما فتوحات إسلامية .

ومن تتبع الفتوحات الإسلامية في عهد مراد الأول نكتشف عدم صدق ادعاء ذلك المستشرق دعواه ، فبعد تولي مراد الأول الحكم مباشرة عام 672هـ / 1360هـ واجه عداءً من أولاد قرمان في أنقرة ، حيث استغل سلطان هذا الإقليم وهو علاء الدين فرصة وفاة السلطان أورخان وتولي ابنه السلطان مراد الأول الحكم ، لإثارة حمية الأمراء المستقلين وتحريضهم على قتال العثمانيين ، فاضطر السلطان مراد الأول إلى التفكير في إرسال حملة إلى أنقرة في الأناضول للقضاء على هذا التمرد ، خاصة وأنها كانت قد ضمت للدولة العثمانية في عهد أخيه سليمان باشا عام 755هـ / 1354م ، ومما قوى موقف علاء الدين تحالفه مع أولاد جرميان ضد الدولة العثمانية ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك باقتراح تحالف مع ملوك الصرب والبيزنطيين ضد السلطان مراد الأول ، وعندها استشار السلطان مراد أركان دولتهِ وعلمائه لحل هذه المشكلة ، حصل على فتوى شرعية من العلماء بجواز الحرب ، ومن فوره توجه صوب أنقرة مع حملة لإخضاعها ، وتم له ذلك دون مقاومة تذكر ، وبذلك صد الخطر القادم من الشرق وكان عاقبة عمل علاء الدين أن فقد أهم مدنهِ . [2]

ولما كان السلطان مراد الأول شجاعًا ومحاربًا من الطراز الأول ومتحمسًا لنشر الإسلام ، فقد واجه الدولة البيزنطية عندما بدأ الجيش العثماني في مهاجمة أملاك هذه الدولة في أوروبا ، وفتحت أدرنه عام 671هـ / 1360م وهي بحق أهم المدن البيزنطية .

---

[1] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ص 3 – 21 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ص 16 – 26 .

[2] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص129 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص309 ..عبد الرحمن شرف :مصدر سابق ، ص76 . مؤلف مجهول: الأتراك العثمانيون ، ورقة7. صبحي عبد المنعم وعبد الحميد سليمان:مرجع سابق، ص 35 ، 36 .
Sukrullah , Behcetu't – Tevarih , Nuruosmaniye Kutup , 3059 , Varak : 314a Nesri , Tarih , I ., S. 190-192.

لقد كان الهدف الأول للسلطان في منطقة الروميلي هو فتح أدرنه التي كانت تتمتع بأهمية إستراتيجية كبيرة ، فأرد أولاً أن يقطع الصلة بينها وبين العاصمة البيزنطية القسطنطينية .

وتمهيدًا لهذا الفتح بدأ في فتح الحصون المحيطة بها والقرى مع توطين المهاجرين الأتراك في تلك المناطق ، ممن استقدمهم في الأناضول . [1]

ثم اجتمع مع قادته العسكريين في لولة بور غاز حيث قرروا في نهاية الاستشارات الحربية إرسال القائد لالاشاهين باشا [2] على رأس قوة عسكرية نحو مشارف أدرنه للإعداد لعملية الفتح ، وإرسال قوة عسكرية أخرى من جهة اليمين نحو ساحل البحر الأسود لفتح قرى لرلي [3] وقطع الدعم البلغاري للبيزنطيين ، وإرسال قوة عسكرية ثالثة بقيادة أوره نوس بيك من جهة اليمين نحو غرب ديموتوقا وذلك لصد الهجوم المحتمل للصرب ، ثم التقى الجيشان التركي مع القوات البيزنطية والبلغارية في موقع قريب من أدرنه واستطاع الجيش العثماني أن ينتصر على القوات المتحالفة ، فتم بذلك فتح أدرنه في سنة 765هـ/1363م[4].

وبعد بقاء السلطان مراد في أدرنه لمدة من الزمن غادرها إلى ديموتوقا التي جعلها معسكرًا له ، وأرسل القائد لالاشاهين باشا لفتح فيليبة [5] وزاغرا [6] كما أمر أوره نوس بيك بالتوجه نحو جومولجينة [7].

---

[1] للاستزادة عن مسألة التوطين والتهجير في الدولة العثمانية الرجوع إلى :
H.Kaleshi: Turklerin Balkanlara Girs ve islamlastirma (Trc . K . Beydilli) ,TED , Say , 10-11 , (1981) , P. 177-194 .

[2] لالاشاهين باشا :من أعظم قادة المعارك في الدولة العثمانية زمن السلطان أورخان ، له عدة مؤسسات خيرية ، حيث أقام مدرسة في مدينة بروسة وخانقاه وجسرًا وفي عهد السلطان مراد الأول أدى للدولة العثمانية أعظم الخدمات في حروب الروميلي، وكان له أكبر دور في إدخال كثير من مناطق الروميلي في حوزة الدولة العثمانية . وفتح كثير من الحصون والقلاع وأصبح بكلر بك الروميلي وتوفي عام 778هـ / 1376م . حسين مجيب المصري : معجم الدولة العثمانية ، ط1 ، القاهرة : الدار الثقافية للنشر 1425هـ / 2004م ، ص119 .

[3] قرق لرلي: irklareli تقع شرق أدرنه ، في تركية الأوروبية ، تابعة لولاية أدرنه. س . موستراس : مرجع سابق ، ص389 .

[4] Gelibolulu Mustafa ali , Kunhu'l – Ahbar , V., S. 67 .

[5] فيليبة : مدينة فيليب نسبة إلى مؤسسها فيليب والد الإسكندر الأكبر . تقع في جنوب شرق صوفيا وأدرنه . محمد فريد المحامي: مصدر سابق ، ص 130 .

[6] زاغرا : تقع في الشمال من أدرنه .

[7] جومولجينه : تقع في تراقيا الغربية إلى الجنوب الغربي من أدرنه ، على نهر يحمل الاسم نفسه . شمال بحر أيجة . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص130 .

ونتيجة دخول أدرنه وفيليبة وجومولجينة وضواحيها في حوزة العثمانيين في فترة قصيرة من الزمن ، انقطعت ارتباطات البيزنطيين مع البلغار والصرب الموجودين في مقدونيا مما أدى إلى أن تقرر دول البلقان بضرورة استرداد فيليبة وأدرنه فقاموا بتجهيز الجيوش للحرب ، ولكن السلطان مراد خطا خطوة مهمة إذ قام بالعمل على استيطان عدد كبير من المسلمين في البلاد المفتوحة ، ومن جهة أخرى فقدت الدولة البيزنطية مساندة الأهالي النصارى ودعمهم لأن تلك الشعوب أصبحت تعيش حياة أفضل في ظل الإدارة العثمانية التي تميزت بالتسامح ومنحتهم حرية الحياة والعبادة . [1]

واتخذ مراد الأول من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام 768هـ/ 1366م وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا ، وغدت أدرنه عاصمة إسلامية :

أما عن أسباب انتصار العثمانيين :

١) كانت الشعوب البلقانية منقسمة على نفسها إنقسامًا شديدًا وتعاني من التناحر والتنافر فيما بينهم بسبب الخلافات المذهبية .

٢) في الوقت الذي كانت فيه الجيوش العثمانية متماسكة ومحققة لهدف واحد هو انتشار الإسلام والشعور بحلاوة الجهاد الإسلامي.[2]

ولا شك أن فتح أدرنه لم يكن مجرد فتح لبلد في طريق الفتوحات ، وإنما كانت للسلطان مراد الأول رؤية سياسية مهمة تقوم على أسس وهي :

١) أهمية موقعها الاستراتيجي ؛ إذ تقع على ثلاثة أنهار .
٢) استغلال مناعة استحكاماتها الحربية ، وقربها من مسرح الأحداث والعمليات الجهادية.
٣) ساعد فتح أدرنه واتخاذها عاصمة للعثمانيين على تأمين المركز المسيطر إداريًا وعسكريًا على تراقيا ؛ إذ إنها القلعة الرئيسة بين القسطنطينية والدانوب ، فضلاً عن أنها تتحكم بطريق الحملات العسكرية عبر جبال البلقان ، وبهذا الموقع فهي تكفل الاحتفاظ بالفتوحات العثمانية في أوروبا ، وتؤمن وسيلة للتوسع نحو الشمال . [3]

---

[1] Mehmed Mazhar Fevzi, Haber – I Sahih, 1. S. 99 .

[2] مؤلف مجهول : الأتراك العثمانيون ، ورقة 8 .

[3] عبدالمنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 46 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص23 .

٤) رغبة السلطان مراد الأول في ضم الأقاليم الأوروبية والعمل على هضمها، ثم مواصلة الحركة الجهادية وتثبيت أقدامهم في المنطقة . [1]

٥) وضع مراد الأول في هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة العثمانية ، حيث أراد من موقعها وسط منطقة يدين أهلها بالمسيحية ، أن يجعلها مركزًا لنشر الإسلام وقاعدة للتوسع في أوروبا .

٦) قام السلطان مراد الأول ، بجعل أدرنه حاضرة لملك آل عثمان ، فشيد بها مجموعة من المباني الرفيعة الجميلة ، وأنشأ بها مجمعةُ الخيري والذي يحتوي عادة على مسجد ومدرسة وتكية وحمام وضريحهُ في بعض الأحيان . [2]

٧) ظلت أدرنه على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني ، حتى فتحت القسطنطينية 857هـ / 1453م وانتقلت إليها العاصمة .[3]

وهكذا أصبحت القسطنطينية محاطة من جهة أوروبا بأملاك الدولة العثمانية، وفصلت عن باقي الإمارات المسيحية الصغيرة في البلقان ، وصارت الدولة العثمانية متاخمة لبلاد الصرب والبلغار وألبانيا . [4]

ثالثًا :إرجاع كرامرز فشل الحلف الصليبي الذي دعا له البابا أوربان الخامس إلى العداء المستحكم بين البيزنطيين والبلغار . فقال :

" إن العداء الذي كان مستحكمًا بين البيزنطيين والبلغار أتاح الفرصة لمراد الأول الاستيلاء على نيقوبولس ، كما أن العداء ذاته أدى إلى إخفاق الحملة الصليبية المنفذة بتحريض البابا أوربان الخامس " .[5]

لا شك أن إرجاع كرامرز سبب نجاح حملات السلطان مراد الأول إلى العداء بين البيزنطيين والبلغار هو من إرهاصات حقد أوروبا على الدولة العثمانية حيث أن أوروبا أصابها الفزع الشديد من نبأ سقوط أدرنه في يد العثمانيين المسلمين.

لقد حاول الصليبيون تجميع أنفسهم مرة أخرى ، لكنَّ العثمانيين تابعوا فتوحاتهم الإسلامية حتى فتحوا ميليبوليس عاصمة الروملي الشرقية والواقعة جنوب غرب أدرنه ،

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص101 ، 102 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص46 .

[2] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 79 .

[3] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 23 .

[4] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 130 .

[5] J.H.Kpamers : mup ADI , S. 593 .

بالإضافة إلى سيطرة العثمانيين على نهر مارتيزا الذي تمد ضفافه القسطنطينية بالحبوب والأرز ، وفصلت فتوحات العثمانيين بلغاريا عن الممتلكات البيزنطية .[1]

إن استمرار فتوحات مراد الأول والدعوة إلى الإسلام في الأراضي البيزنطية أدى إلى إحاطة القسطنطينية بخطر عظيم ، فأصبحت بين شقي الرحى العثمانية ، مما دعا القوى المسيحية إلى تأليف حلف صليبي جديد .

لا شك أن تقدم القوى العثمانية وتفوقها كان له الدوي الهائل في أوروبا مما دفع البابا "أوربان الخامس " زعيم الصليبية المعادية للإسلام والمسلمين إلى الدعوة إلى حلف صليبي جديد ضد مراد الأول ، وفي الوقت نفسه استشعر الإمبراطور البيزنطي " يوحنا باليولوغوس" الخطر القادم فتوجه إلى أوروبا لحشد القوى لإشعال حرب ضد العثمانيين ، لكن اشترط عليه البابا أن يمثل أمامهُ ويعلن فروض الطاعة والولاء ، وبالفعل توجه الإمبراطور يوحنا إلى البابا ليقدم فروض الطاعة ، وليس ذلك فحسب بل أعلن أنه كاثوليكي المذهب وتخلى عن الأرثوذوكسية .[2]

فبدأ البابا في لعب الدور الذي طالما لعبتهُ البابوية ضد الإسلام وهو الدعوة إلى حرب صليبية وحلف صليبي ضد الدولة العثمانية ، وبدأت رحلة مكاتبات ملوك أوروبا والبلقان لدعوتهم لحرب صليبية .

وفي الوقت الذي كان السلطان مراد الأول منشغلاً بإقامة المؤسسات الإدارية وتنظيمها التجأ القائد البيزنطي الذي هرب خلال فتح فيليبة إلى ملك الصرب " أوروش الخامس" حيث أبدى مخاوفه من توسع الدولة العثمانية وخطورتها على العالم النصراني والدول الأوروبية ، وحرض الملك على إيجاد حل لمنع تحركات العثمانيين ، فتجمعت مملكة الصرب والمملكة البوسنة وإمارة الأفلاق الرومانية ودول البلقان – حول مملكة المجر التي كانت تعد أقوى دولة في أوروبا آنذاك – للحرب مع الدولة العثمانية وذلك بإشارة من البابا أوربان الخامس ودعمه.[3]

---

[1] عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص47 .

[2] إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص 19 . صبحي عبد المنعم . عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 36 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص23 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص47 .

[3] Hoca Sadeddin Efendi , Tacu; t Tevarih , I . S . 76 – 79 ; Muneccimbasi , Tarih , Istanbul 1258 , III.,S293 – 295 .

وكان القائد الأعلى لهذه الحرب الصليبية هو ملك المجر لايوش الخامس ، وكان بجانبهِ ملك الصرب أوروش الخامس وبعض أمراء دول البلقان ، ويقول بعض المؤرخين بأن عدد قوات الجيش الصليبي وصلت إلى ستين ألف جندي ، ويرى آخرون بأن هذا العدد وصل إلى مائة ألف جندي . [1]

تجمع الصليبيون في صوفيا ثم دخلوا بجميع قواتهم العسكرية من جنوب نهر المريج إلى الأراضي العثمانية واستطاعوا استرداد فيليبة من أيدي العثمانيين واقتربوا من أدرنه ، وأقاموا معسكرًا لهم في موقع جيرمَن في صيف سنة 766هـ/ 1364م . [2] ، وكانت هدف التحالف الصليبي هو طرد العثمانيين من منطقة الروميلي واسترداد مضيق جاناق قلعة وأدرنه وحماية القسطنطينية من الخطر .

وبعد ما علم لالاشاهين باشا الوالي العام (بكلر بيكي) لأدرنه بخبر وصول الجيش الصليبي إلى مشارف أدرنه اضطر إلى طلب النجدة من السلطان مراد الأول الذي قام بتجهيز جيش ، وقد حدث أن قام أولاد جرميان بتجهيز حملة عسكرية ضد العثمانيين مما أدى إلى عرقلة وصول جيش السلطان إلى أدرنه ، فاضطر لالاشاهين باشا إلى المقاومة والصمود لوحده للدفاع عن أدرنه، ثم طلب العون من أحد ولاة السناجق وهو الحاج إلبي الذي كان لديه مجموعة متطوعة من الجنود والفرسان الخيالة المدربين على القتال تدريبًا متفوقًا ، فقام على رأس عشرة آلاف من هؤلاء المتطوعين وتوجه نحو جيرمن على نهر مارتيزا من غرب وادي المريج على امتداد الشمال الغربي ، حيث استمر السير من الصباح إلى المساء بشكل صامت إلى أن اقتربوا من الجيش الصليبي في جيرمن ، وكانت القوات الصليبية تتكون من الصرب والبلغار والمجر والرومان والبوسنة ، وبما أن القوات الصليبية كانت خليطًا ، فقد بدأ الجنود بالتعارف على بعضهم البعض في ساحة المعركة كما كانوا يتظاهرون بقوتهم وشجاعتهم داخل المعسكر بدون أخذ التدابير الأمنية ، إيماناً منهم بأنهم سوف يطردون العثمانيين من الروميلي ويستولون على أدرنه وذلك اعتمادًا على عددهم وعدتهم العسكرية . فاستفاد الحاج إلبي الذي كان قائدًا عسكريًا محنكًا من هذه الفرصة وقام بتقسيم قواته إلى أربع فرق وعين على كل فرقة قائدًا ، باغت الأعداء ليلاً وهم نيام داخل

---

[1] Oruc Bey , Tarih , S . 22 ; Luftu Pasa , Tevarih – I AL – I Osman , S . 34 .

[2] Tevarih – I AL – I Osman , S. 34 ; Asikpasazade , S. 56 .

معسكرهم ، واستمر الهجوم العثماني حتى الصباح حيث قتل عددًا كبيرًا من جنود الجيش الصليبي وفر الباقون وغنم الحاج إلبي المعسكر .

وقد قتل في هذه المعركة كل من ملك البلغار وملك الصرب وملك البوسنة وعدد كبير من الأمراء ، وهرب كل من ملك المجر لايوش الخامس الذي كان القائد الأعلى للجيش الصليبي والقائد الروماني ميرجة من ميدان المعركة .

وبعد انتصار الحاج إلبي في هذه المعركة على جيش يفوق جيشه أضعافًا مضاعفة من الأحداث النادرة في التاريخ العسكري في العالم . وقد مهد هذا الانتصار الطريق أمام العثمانيين بالتقدم والتغلغل السريع في منطقة الروميلي وتساقط مدنهِ الواحدة تلو الأخرى كحبات الفاكهة الناضجة ، بالإضافة إلى فتح إقليم تراقيا ومقدونيا حتى وصلوا إلى جنوبي بلغاريا ، وإلى شرقي صربيا .[1]

إن ظهور هذا التحالف المسيحي الصليبي ، وتجمع ملوك أوروبا ضد العثمانيين ، له مغزى مهم جدًا ، إذ يكشف عن ضحالة إدعاءات كرامرز بأن العداء بين البيزنطيين والبلقان هو السبب في فشل هذا الحلف ، فلو كان العداء بينهم على أشده لما تجمعوا تحت راية صليبية واحدة ضد العثمانيين ، إنما السبب الرئيس لفشل هذا الحلف هو قوة العثمانيين بإيمانهم وإسلامهم ، والعداء بينهم لم يكن بقدر ما كان ضد الإسلام والمسلمين .

بعد الانتصار الذي أحرزه الجيش العثماني في جيرمن عام 766هـ / 1364م قرر السلطان مراد الأول نقل مركز الدولة إلى ديموتوقا ليستطيع الإشراف على كل مناطق الروميلي بسهولة ، وحدث في الوقت نفسه أن قررت جمهورية راجوزا (دبر وفنيق) الدخول تحت حكم الدولة العثمانية سنة 767هـ/ 1365م ، وكانت هذه الجمهورية عبارة عن دولة صغيرة للسلاف في القسم الأسفل من ساحل دالماجيا الواقع جنوب غرب البوسنة . وكانت أراضيها قليلة المساحة وسكانها يشتغلون بالتجارة البحرية ، واستنادًا على المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين دخلت جمهورية راجوزا في حماية الدولة العثمانية وتعهدت بدفع ضريبة سنوية للدولة مقدارها خمسمائة دوقة .[2]

---

[1] Nesri , Tarih , 1 ., S . 203 .

إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 39 ، 40 . يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج1، ص98.أميرة مداح : مرجع سابق ، ص23 . أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص18 .

[2] دوقة : Duke هو النقد الذهبي المضروب في البندقية قديمًا ، وهي محرفة لكلمة دوكاتو Ducato الإيطالية . وكان يزن بين عشرة إلى اثني عشر فرنكًا . انظر سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مراجعة : عبد الرازق =

وهي بذلك دخلت طواعية دون أي ضغوط وذلك لما لمستهُ من حماية وحرية في أداء الشعائر الدينية في المناطق التي تحت الحكم العثماني .

ثم قام السلطان مراد الأول بتجهيز حملة عسكرية للهجوم على الصليبين ، فتقدم الجيش العثماني في منطقة الروميلي بسرعة فائقة ، واستطاعت الفرقة التي كانت بقيادة قراتيمور طاش من فتح مناطق جديدة في الأراضي البيزنطية ، وقد دخلت أغلب القلاع والأراضي البيزنطية في منطقة تراقيا تحت النفوذ العثماني بين عامي 769هـ - 770هـ / 1367- 1368م نتيجة هذه الفتوحات . [1]

رابعًا :اتهامهِ بالاستيلاء على أراضي بغرض تقديمها كهدية زواج ، أو شرائها بالمال دون رغبة أصحابها .

فقال : " تم امتلاك جزء من أراضي " جيرميان أوغلو " كهدية زفاف للأمير بايزيد حينما تزوج من ابنة ذلك الحاكم في حوالي 1381م ، وقد أعقب هذا التعاظم في السيطرة على الأراضي بيع الجزء الأكبر من أراضي " حامد أوغلو " لمراد " . [2]

وقد كرر كرامرز الفكرة نفسها في مادة الترك فقال : ***" استولى مراد الأول على قسم كبير من أملاك بيت جيرميان ، كهدية عرس لابنه وأشترى بالمال بلاد الحميد أوغلي ".*** [3]

إن الصورة الحقيقية للحدث بعيدة عن تشويه وافتراء كرامرز ، وهي أن الإمارة الجرميانية بقيادة سليمان بن محمد وليس خيرميان أوغلو ، كانت على علاقة جيدة مع العثمانيين وفي الوقت نفسه كانت تتنافس مع إمارة آل قرمان ، فأراد أن يكسب ود وصداقة العثمانيين فقام بتزويج ابنتهِ " دولت خاتون " إلى ابن السلطان مراد الأول بايزيد " يلدريم "، وقد صادف هذا الأمر هوى في نفس السلطان مراد إذ أراد أن يكّون جبهة تحالف إسلامي ضد التحالف الصليبي ، مع من بقي من أمراء آسيا الصغرى وتوثيق عرى الصداقة والود

= محمد حسن بركات ، د. ط ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1421هـ / 2000م ، ص61 . حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص115 .

[1] Heyet , mufassal Osmanli Tarihi , I ., Iskit yayinevi , Istanbul 1957 , S. 128 – 129 ; Asikpasazde , S.56 – 58 ; Muneccimbasi , tarih , s . 108 .

صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 36 ، 37 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص131، 132 .

[2] Kramers : murad 1 , S. 593 .

[3] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص 169 .

بينهم ، فتم الزواج، وتعبيرًا عن المحبة والود بين الصهرين الجدد قدم أمير كرميان للسلطان بايزيد يلدرم مدينة كوتاهية [1] وطوشانلي وأجريجوز مهرًا وجهازًا للعروس .[2]

وسلمت مفاتيح هذه القلاع المهمة إلى السلطان مراد الأول ، وبذلك دخلت هذه المناطق الاستراتيجية في الأناضول تحت الحكم العثماني ، أما بالنسبة لأراضي وقلاع إمارة حميد أوغلو فقد تنازل عن خمس القلاع التي تحت سلطانهِ إلى السلطان مراد الأول مقابل مبلغ من المال ، وبعدها تم التحالف بين هاتين الإمارتين والدولة العثمانية .[3]

وعليه فقد ضمت المناطق ليس بالحرب وإنما بالسلم ولم يرغم أمير كرميان على التنازل عن كوتاهية ، إنما قدمها الأخير عن طيب خاطر ليثبت حسن نواياه ، خاصة وأن العلاقات كانت متوترة في بداية حكم مراد الأول .

وبالنسبة لأراضي حميد أوغلو فقد تنازل عنها ودفع له السلطان مراد الأول ، فلم يضغط عليه ولم يأخذها بثمن بخس وإنما كانت أيضًا تعبيرًا عن المحبة والوفاق.

ومن جهة أخرى قرر السلطان مراد الأول تأسيس علاقة قربى مع الإمارة القرمانية التي كانت تشكل تهديدًا كبيرًا له من جهة الأناضول ؛ كي يحقق الأمن والاستقرار في الأناضول بأكملهِ ، ويتسنى له مواصلة فتوحاته في منطقة الروميلي براحة تامة ، فقام بتزويج ابنته نفيسة خاتون من علاء الدين علي بيك بن صاحب الإمارة القرامانية . [4]

ثم أحرزت الجيوش المظفرة للسلطان مراد الأول انتصارات عظيمة في منطقة البلقان، فقام السلطان بإعلام أخبار هذه الانتصارات إلى الدول الإسلامية المجاورة عن طريق الرسائل ، وفي هذه الأثناء قام السلطان المملوكي في مصر الملك الظاهر سيف الدين برقوق بإرسال خطاب تهنئة إلى السلطان مراد الأول ، إضافة إلى الهدايا الثمينة المكونة من الخيول الأصيلة والسيوف والأقمشة الفاخرة، بدأ السلطان الظاهر خطابه بعبارة (سلطانة الغزاة) [5]

---

[1] كوتاهية : Kutahia ، مدينة تركية آسيوية في الأناضول س . موستراس : مرجع سابق ، ص 428 ، 429 .

[2] إن مسألة تقديم العروس مهرًا للعريس عادة منتشرة إلى يومنا هذا ، فنجدها موجودة إلى اليوم في اليونان حيث تؤمن العروس سكن الزوجية ، بالإضافة إلى وجودها في الهند والباكستان وهي تقديم الدوطه من أهل العروس إلى العريس .

[3] يلمازا وزتونا :تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص99. صبحي عبد المنعم . عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص37 ، 38.

[4] Feridun Bey , Munseat , 1 ., S . 103 .

[5] Hoca Sadedin Efendi , Tacu't – Tevarih , 1 ., S . 104 .

، كما قام السلطان العثماني بإرسال رسالة للرد على التهنئة عبرَّ عن شكرهِ للسلطان الظاهر مع ممثله الذي حمل معه الهدايا .[6]

وفي الوقت الذي كان الجيش العثماني مستمرًا في الفتوحات في دول البلقان، قام السلطان مراد الأول بإعمار البلاد المفتوحة وذلك بتشييد المساجد والقصور وغير ذلك من المباني . [1]

خامسًا : تلفيق الافتراءات حول مقتل السلطان مراد الأول في معركة قوصوه ومقتل لازار ملك الصرب . فقال :

" أن الصرب قد انهزموا لأسباب مردها جزئيًا للخيانة بين صفوفهم ... إن الكيفية التي قتل بها مراد أثناء أو بعد المعركة ليست واضحة من المصادر القديمة ، بيد أن الروايات التي تناقلتها الأجيال الصربية تشمل القصة الشهيرة أن ميلوس أوبرانوفيك الذي هو صهر " لازار " قد اغتال مراد بعد أن ادعى أنه هاربٌ من الجيش ، وحينما أتيحت له الفرصة للجلوس بمعية مراد عقب المعركة قام بقتلهِ مستخدمًا سيفه " .[2]

وللتعرف على سبب هزيمة الصرب ومقتل لازار وانتصار العثمانيين ، لابد من معرفة الأجواء التي صاحبت هذه المعركة الشهيرة ، ففي الوقت الذي كان السلطان مراد الأول منشغلاً بفتوحاتهِ في البلقان كان يتواجد على رأس الإمارة القرمانية علاء الدين علي بيك الذي كان قد تزوج من ملك نفيسة خاتون ابنة السلطان مراد الأول ، وكان للتغلغل العثماني في داخل الأناضول وضمه لأجزاء كبيرة منه أثره على علي بيك ، فبدأ في تحريض ملوك وأمراء البلقان ضد السلطان العثماني ، ثم قام بالاستيلاء على بيشهير وضواحيها عام 788هـ / 1386م ، في الوقت الذي كان فيه السلطان منشغلاً بالفتوحات في الروميلي ، مما اضطره إلى الهجوم عليه بجيشه الذي كان يضم قادته المحنكين ، إضافة إلى ابنه وولي عهد بايزيد ، وتغلب الجيش العثماني على الجيش القرماني في المعركة التي دارت بينهما قرب قونية ، حيث فر علاء الدين علي بيك إليها .

---

[6] Nesri , Tarih , l ., S . 238 .

[1] Asikpasazade , S. 61 .

[2] Kramers : Murad l , Volume VII , S. 593 .

وقد منح الأمير بايزيد لقب (يلديريم) أي الصاعقة أو الرعد ؛ وذلك للشجاعة والبسالة التي أبداها في هذه المعركة ، [3] ثم حاصر الجيش العثماني قونية لأجل القبض على علاء الدين علي بيك الذي اضطر أن يبعث زوجته نفيسة خاتون إلى أبيها السلطان مراد الأول ليطلب منه العفو ، فعفا عنه السلطان ، وجاءه علاء الدين وقبل يده وأبدى ندمهِ ووعده على أن لا يعود لهذه الأعمال التمردية مرة أخرى ، كما وعده على أن يمد العثمانيين بالجنود والعساكر عند الحاجة في حملاتهم العسكرية . [1]

صاحب هذه الأحداث توغل القوات العثمانية أكثر في بلاد البلقان ، فآثار هذا الأمر حفيظة أوروبا وخاصة الصرب ، فحاولوا استغلال غياب السلطان عن أوروبا أكثر من مرة بالهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وما جاورها ، ولكنهم فشلوا في تحقيق أي انتصارات على العثمانيين ولو كانت ضئيلة ، فتحالف الصرب مع البلغار والبوسنيين وأعدوا جيشًا صليبيًا كبيرًا ، في الوقت الذي وصل السلطان مراد الأول بجيوشه إلى المنطقة التي أعدها إعدادًا قويًا على أعلى مستوى.[2]

وعسكر الجيشان العثماني والصليبي في سهل يعرف بسهل " كوسوفو " أو "قوصوه " أو " ميدان الطيور السوداء " حيث تتبع ثلاثة أنهار (نهر إيبار ونهر فاردار ، ونهر درينه).[3]

وقد قاد جيش العثمانيين السلطان مراد الأول بنفسهِ ، وصحبهِ أبناؤه بايزيد ويعقوب ، وقد وصل جيشهِ أولاً وعسكر على أفضل التلال المشرفة على الميدان، وصحبه أيضاً القائد المخنك أوره نوس بيك والقائد يخشي بك ، لقد أعد لازار لهذه المعركة جيشاً جرارًا تجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل ، وعشية الليلة التي سبقت المعركة رفع السلطان مراد الأول يديهِ إلى السماء ودعا بدعاء حفظتهُ كتب المؤرخين وهذه مقتطفات منه :-

" يا الله ، يا رحيم يا رب السموات ، يا من تتقبل الدعاء لا تخزني ، يا رحمن يا رحيم ، واستجب دعاء عبدك الفقير وأرسل السماء علينا مدرارًا ، وبدد سحب الظلام فنرى عدونا ... اعن بنصرك أهل الإسلام ، وتجاوز عن أخطائنا يا رب ، ولا تشتت المجاهدين

---

[3] Solakzade , Tarih , I , S. 53 .

[1] Nesri , Tarih , I ., S. 221 – 233 .

[2] محمد علي الصلابي : مرجع سابق ، ص 104 .

[3] عبد العزيز العمري:الفتوح الإسلامية عبر العصور، ط1، دار إشبيليا،1418هـ/1997م ، ص389 .أنظر الخريطة في الملحق

في سبيلك ، ولا تسود وجوهنا بين الناس ، واجعلني فداءً للدين وارزقني الشهادة يا رب ... واسمع لي يا إلهي هذه المرة ، أن استشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك .. " [4]

وقد تقبل الله ﷻ دعاءهِ ، فسرعان ما أكفهر الجو وتلبدت الغيوم في السماء ، وانهمر المطر الغزير ، وتصاعدت سحب الدخان والغبار مما أدى إلى إرباك الجيشين ، لكن الله ثبت أقدام المسلمين ، وربط على قلوبهم بحب الجهاد.[5]

أما عن طلب الشهادة فقد استجاب الله له أيضًا في هذا الأمر ، حيث قتل بخنجر مسموم غادر بعد نهاية المعركة في 15 شعبان 791هـ / 1388م . [1]

وهنا نلمس سبب نجاح العثمانيين في المعركة وهي استجابة الله لدعاءهِ وليس لخيانة أحد القادة ، وإنما بتوفيق من الله ﷻ وكل ما حدث أن أحد قادة لازار قد لمس القوة والانتصار بجانب مراد الأول ، ووجد جانب لازار خاسر لا محالة ؛ فهم اتصفوا بالجبن والخسة ، فانضم بجيشه المكون من عشرة آلاف مقاتل إلى جانب المسلمين ، مما أربك التحالف الصليبي .[2]

وقد جرت وقائع المعركة الحاسمة ، وخسر التحالف الصليبي خسائر فادحة في العدة والجنود ، وانتصر العثمانيون انتصارًا ساحقًا ، وتعد هذه المعركة إحدى أهم المعارك التاريخية في تاريخ الحروب الإسلامية ، وقد قتل الملك لازار في أثناء المعركة ، والعديد من الأمراء والقادة الصليبيون وهرب كثير من الجنود من ساحة المعركة [3].

وبعد أن حقق الجيش العثماني النصر قام السلطان بالتجوال في ميدان المعركة لتفقد الجرحى وقراءة الدعاء على أرواح الشهداء والعمل على دفنهم ، وفي هذه الأثناء قام أحد الجرحى الصليبيين من الأرض وطلب الاقتراب من السلطان بحجة التحدث معه وإعلان إسلامه ولم يُرِد السلطان رده ، فسمح له بالاقتراب منه وسماع حديثه ، فما كان من الجندي

---

[4] أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 19 .

[5] أورخان محمد علي:مرجع سابق ، ص19.عبد المنعم الهاشمي:مرجع سابق، ص 52. عبد العزيز العمري:مرجع سابق،ص391.

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص105 .

[2] عبد العزيز العمري : مرجع سابق ، ص391 .

[3] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص83 – 85 . أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 19 .
Ahmed Refik , Sahaif – I Muzafferiyat – I Osmaniye Istanbul 1325 , S . 65 – 114 ; Hayrullah Efendi , Tarih , IV ., S. 94-100 ; Sabahettin Doras , Osmanli Zaferleri, Istanbul 1992 , S. 21-27 .

إلا أن أخرج خنجره المسموم الذي كان قد أخفاه تحت ذراعه وطعن به قلب السلطان ، فوقع على الأرض فقام مرافقي السلطان بقتل هذا الخائن فورًا ، والذي تبين فيما بعد أنه الأمير الصربي " ميلوش كوبا وفتش " وهو يمت بصلة قرابة للملك لازار . وكان المصاب عظيمًا بمقتل السلطان مراد الذي لم يلبث أن نقل إلى خيمتهِ واستشهد في غضون دقائق ، وتوفى عام 791هـ / 1388م . [4]

ولعل الكلمات الأخيرة للسلطان مراد الأول توضح للمستشرقين مدى تقواه وحبهِ للإسلام والجهاد في سبيل نشرهِ ، فكلماته كانت منهاجًا اقتدى به بعد ذلك ابنه السلطان بايزيد يلدرم.

وعندما بدأ السلطان مراد في الاحتضار وقبل أن يلفظ أنفاسهِ الأخيرة دعا ربه قائلاً :
" لقد كنت طيلة حياتي أتضرع واصلي إلى الله – العلي القدير – أن يمنحني فرصة الاستشهاد في سبيله ، إذا ما كان نصر الإسلام يتحقق بموتي ، ومن حسن حظي أنني لا يسعني أثناء رحيلي إلا أنني أشكر الله ، إنه علاَّم الغيوب المتقبل دعاء عبده الفقير ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو ، لقد أوشكت حياتي على النهاية ، ورأيت نصر جند الإسلام ، أطيعوا ابني بايزيد ، لا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة ، وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء ". [1]

وقد أسرع أركان الدولة وقادتها الحاضرون في ميدان الحرب بمبايعة بايزيد يلديرم لتولي عشر السلطنة العثمانية لتنفيذ وصية والده أولاً ، ولاتصافه بصفات القائد المحنك سياسيًا وعسكريًا ثانيًا . وانتهت الحرب بانتصار العثمانيين ورجع السلطان الجديد بايزيد مع جيشه إلى العاصمة أدرنه بعد أن تحقق ضم الأراضي البلقانية إلى الحكم العثماني ، ونقل جثمان السلطان مراد الأول إلى بروسه حيث دفن في ضريحه الكائن مقابل مسجده المعروف باسم جامع مراد خداوندكار . [2]

---

[4] علي محمد الصلابي ، مرجع سابق ، ص 104 . أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 20 ، 21 .
Nesri , Tarih , I ., S. 300 – 308 .

[1] يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج1 ، ص101 . حليم إبراهيم بك : مصدر سابق ، ص 41 .

[2] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , 1 ., Istanbul 1999 , S . 130 .

وقد اتفقت جميع الروايات بالإضافة إلى المؤرخين المسلمين على أن السلطان مراد استشهد في هذه المعركة ، والأحداث السابقة تدحض رواية كرامرز على أنه قتل بسيف ميلوش داخل الخيمة بعد انتهاء المعركة ، فلماذا يبقى السلطان مراد الأول داخل الخيمة في حين أن عليه أن يتفقد الجرحى والقتلى في ساحة المعركة ، وينظر في تتبع فلول الجيش الهارب .

ومن الثابت تاريخيًا أنه خرج يتفقد الجرحى خاصة أنه كان محاربًا شجاعًا ومقدامًا .

إن حقد كرامرز طغى عليه حتى في تدوين معلومة ملأت كتب التاريخ ، فلم يستطع ذكرها صحيحة وإنما حاول طمسها بذكره أنه قتل في خيمتهِ لأن في ذلك مذلة وإهانة للسلطان، وتصويره على أنه هارب من المعركة مختبئ في خيمتهِ ، أما إذا ذكر الحقيقة وهي أنه قُتل أثناء تفقده الجرحى في ساحة المعركة فإنه يدل على شجاعة السلطان مراد الأول وإقدامه وأنه مجاهد إسلامي بحق ، ويدل أيضًا على عدم استطاعة الصرب الوصول للسلطان أثناء المعركة ؛ لأنه دائماً في المقدمة ، وفي تظاهر الجندي الصربي بإعلان إسلامه ليصل إلى السلطان مراد الأول تأكيد لصفة الغدر التي اتصف بها أعداء الإسلام .

وأخيرًا فقد رد كرامرز على نفسهِ في المادة حيث أوضح أن سبب نجاح الفتوحات العثمانية الإسلامية وانتصارهم في المعارك هو تعاملهم الرحيم مع أهالي المناطق المفتوحة حديثًا ، بقوله : " ***أن نجاح الإجراءات يُعزى بشكل أساسي إلى التعامل الإنساني مع السكان الأصليين بعد احتلال المنطقة*** " . [1]

ومن الجدير بالذكر أن السلطان مراد الأول اشترك في 37 معركة خلال مدة حكمه وانتصر في جميعها بقوة الإيمان والإسلام وإن كان المستشرقون يعزون هذه الانتصارات إلى ضعف الدولة البيزنطية ، وإلى الخلافات القائمة بين البيزنطيين وحكام البلقان كالصرب والبلغار وغيرهم ، ممن لم يتمكنوا من منع الانتصارات الإسلامية التي حققت فتوحات عظيمة على يد ذلك السلطان العظيم ، وكشفت عن مدى فساد الأنظمة المسيحية الداخلية ، وكان سلطاناً محبوبًا من قبل شعبه وجنوده ، ويحمل ألقابًا مختلفة مثل : سلطان الغزاة والمجاهدين ، ملك المشايخ ، غياث الدنيا والدين ، شهاب الدين ، الغازي ، خنكار ،

---

[1] Karmers : murad I , Volume VII, P. 594 .

خداوندكار ، ليث الإسلام ، أبو الفتح ، غياث المسلمين ، السلطان العادل ، السلطان المعظم والملك العادل. [2]

وقد حول الدولة الصغيرة التي ورثها عن والده إلى دولة مترامية الأطراف اشتملت على أجزاء من أوروبا ، وكان ذا عزم وثبات وإرادة ووقار ، كما اتصف بالشفقة على الرعية بغض النظر عن دينهم ، كما أدخل تنظيمات جديدة في الشؤون المالية والعسكرية ، وكان يستشير أركان دولته في الأمور المهمة كما كان يستمع إلى الآراء المخالفة له حيث أصبح ذلك عاملاً مؤثرًا في نجاحه في مدة حكمة التي قضاها في ميادين الحروب ، وقام السلطان مراد الأول بحركة إسكان واسعة للعشائر التركمانية التي جلبهم من الأناضول في المناطق التي فتحها في الروميلي ، مما أدى إلى ازدياد عدد المسلمين في هذه المناطق ، وأقام علاقات قرابة مع العديد من الإمارات الأناضولية ، وذلك لغرض تأمين الدولة بسيادة السلام بالمنطقة ليتسنى له الانشغال بالحرب مع الصليبيين ، وقد نقل السلطان مراد الأول عاصمة الدولة من بروسه إلى أدرنه ، وشيد فيها المساجد والقصور والأسواق والحمامات فتحولت إلى مدينة تركية إسلامية ، كما بنى مسجدًا ومدرسة ودارًا لإطعام الفقراء ودارًا للضيافة في بروسه ، ومسجدًا في بيلجيك ، ومسجدًا وزاوية في يني شهير. [1]ودارًا لإطعام الفقراء "دار المرق" في إزنيق باسم والدته نيلوفر خاتون.[2]

أما عن مادة السلطان بايزيد الأول التي قدمها المستشرق هيوار ، فجاء فيها كثير من الأحداث المخالفة للواقع ، حتى إن المصادر التي اعتمد عليها قليلة جدًا وأجنبية وليست تركية أو عثمانية .

وقد اختصر في الأحداث بشدة خاصة أحداث الفتوحات ، ووصفها بأنها كانت سببًا في تخريب المناطق أكثر من إصلاحها ، كما أنه نعته بالسلطان الجبان الذي يهرب من ساحة

---

[2] Mecdi Efendi , Sakayik Tercumesi , Istanbul 1269 , S , 37 ; Ali , "Birinci Murad' in Sikkeleri" TOEM, XIV / 4 (81) , S. 244 – 256 . Nesri , Tarih , I ., S . 307 – 309 . TY6225 .

وقفية السلطان مراد الأول : مكتبة جامعة استانبول ، مرجع سابق ، رقم TV 6225 .

[1] Mecdi Efendi , Sakayik Tercumesi , Istanbul 1269 , S , 37 ; Ali , "Birinci Murad' in Sikkeleri" TOEM, XIV / 4 (81) , S. 244 – 256 . Nesri , Tarih , I ., S . 307 – 309 . TY6225 .

وقفية السلطان مراد الأول : مكتبة جامعة استانبول ، مرجع سابق ، رقم TV 6225 .

[2] Memduh Turgut Koyunluoglu , Iznik ve Bursa Tarihi , Bursa 1935 , S . 185 .

أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص15 .

المعركة ويترك جنوده ، ولم يُظهر السلطان بايزيد بالمظهر اللائق به ، وإنما صوره على أنه رجل حرب فقط وليس سلطاناً لدولة إسلامية .

ويمكن ترتيب الاتهامات التي وجهت للسلطان بايزيد من خلال مادتهِ في دائرة المعارف الإسلامية كما يلي :

أولاً : أنه استن قانون قتل الإخوة . [3]

ثانيًا : الحملات التي أرسلها السلطان كانت مهمتها التخريب وحصاره للقسطنطينية وعدم تمكنه من فتحها . [4]

ثالثًا : انضمام الأمراء الذين جردهم العثمانيون من ممتلكاتهم لتيمور لنك . [5]

رابعًا: صور لأسر السلطان بايزيد بمنتهى القسوة والتشويه،وبشكل لا يليق بسلطان محارب.[1]

خامسًا : صورة بايزيد يلدريم في أسر تيمو لنك وأسباب وفاته . [2]

لقد غالى هيوار كثيرًا في مادتهِ لدرجة أن الأحداث جاءت مخالفة للواقع تمامًا .

بايزيد الأول هو السلطان الرابع للدولة العثمانية ، ولد سنة 762هـ / 1360م في بروسه ، وتولى السلطنة عام 791هـ / 1388م ولم يكن عمره قد تجاوز تسعة وعشرون عامًا ، وذلك في أعقاب استشهاد أبيه في معركة قوصوه ، حيث بايعه قادة الجيش والمشاركون في المعركة بالإضافة إلى كبار رجال الدولة والوزراء وتمت المبايعة بناءً على وصية والده السلطان مراد الأول الذي نطق بها في أنفاسهِ الأخيرة ، بالإضافة إلى شجاعتهِ وبسالتهِ في المعركة ، لقد أتصف بايزيد بالشهامة والكرم والشجاعة العسكرية والتحمس للفتوحات الإسلامية، وقد استحق لقب يلديريم أي الصاعقة ؛ وذلك لأن تحركاتهِ كانت سريعة كالبرق.[3]

---

[3] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص328 .

[4] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص328 .

[5] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص329 .

[1] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص329 .

[2] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص329 .

[3] Hoca Sa deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 94 – 98 ; Nisanci Mehmed Ramazan , Mir'at – Kainat II . Istanbul 1290 , S . 22 – 36 .

عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 55 . علي محمد الصلابي ، مرجع سابق ، ص 111 .

كان السلطان بايزيد الأول سياسيًا ومحاربًا وإداريًا ، قضى عمره في ميادين القتال منذ صغر سنه ، وكان ذا شخصية قيادية فتأسس الأسطول البحري العثماني في زمنه ، كما حاصر القسطنطينية لأول مرة في عهد الدولة العثمانية .

وقد أخذ العلم منذ صغره من علماء عصره المشهورين ، أمثال قاضي بروسه قوجا محمود والقاضي عسكر جاندارلي خليل والملا رستم القراماني ، كما درس القرآن الكريم على يد العالم الشهير محمد الجزري وتدرب على السلاح على يد القادة المحنكين زمن والده ، أما عن السياسة والإدارة فقد تلقى أصولها من أركان الدولة المرموقين في عهد والده .

وقد اهتم السلطان بايزيد الأول اهتمامًا بالغًا بالأعمال العمرانية ، إذ شيد أضخم مسجد في بروسه والمعروف باسم (أولو جامع) أي الجامع الكبير ، وبنى حوله دارًا لإطعام المساكين والفقراء ودارًا للضيافة ومدرسة وحمامًا ، ودارًا للشفاء ؛ حيث استقدم الأطباء من القاهرة للعمل فيها ، كما بنى السلطان مساجد أخرى في كوتاهية وأدرنه ، وقد خصص أوقافًا كثيرة لهذه المؤسسات الخيرية .[4]

ولنأتي لأول افتراء واضح على السلطان بايزيد يلديرم .

أولاً :أنه استن قانون قتل الإخوة . فقال :

" وقد أمر بقتل أخيه الوحيد يعقوب لأنه خشي من تعلق الشعب به ، وأصبحت الجريمة سنة جرى عليها سلاطين آل عثمان حتى عهد الإصلاح " [1]

ولم تكتف الدائرة بذلك بل ردد كرامرز هذه المسألة في مادة الترك حيث كتب **":**

وسنة قتل الإخوة التي اشترعها بايزيد الأول ، وهي النتيجة المحتومة لتلك الفتن ". [2]

إن الجزم بهذه المسألة لهو أمر خطير فعلاً ؛ وذلك لأنها تهمة لا تشمل سلطانًا واحدًا وإنما عممت على سلاطين الدولة العثمانية . فكيف تعمم تهمة كهذه ولا يوجد لديه دليل أو نص في المراجع العثمانية ، أو وثيقة تؤكد قتل الإخوة ، أليس من مقتضيات البحث العلمي والأمانة التاريخية التي أرتضى هيوار حملها أن يقدم لنا دليلاً على صدق أقوالِه ، أم يلقي التهم جزافًا دون تميز . ؟!

إن عباراتهِ مبهمة وغير واضحة ، صوَّرها على أنها جريمة عادية ، لكنه مدرك لمعناها الحقيقي ومغزاها ؛ إذ إنه لا داعي لقتل بايزيد لأخيه يعقوب طالما أن وصية السلطان

---

[4] Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S .

[1] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص328 .

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص174 .

مراد – في أنفاسهِ الأخيرة – هي مبايعة بايزيد الأول سلطاناً دون منازع ، ولم يأت على ذكر يعقوب نهائيًا ، والسبب الذي أدخله هيوار في سياق الحدث تافه جدًا ، هو خوفه من تعلق الأهالي بالأمير يعقوب مما دفعه لقتله .

إن الأهالي كانوا متعلقين ببايزيد لأنه كان شجاعًا ومحاربًا مقدامًا ، و العصر الذي جاء فيه كان عصر جهاد إسلامي بالإضافة إلى اتصافهِ بالمروءة وحسن الخلق . فلماذا يرفضه الشعب ؟

و لو افترضنا ارتكاب السلطان بايزيد لهذه الجريمة البشعة فهو وحده يتحمل وزرها ، وليس من العدل أو الإنصاف تعميمها على جميع السلاطين العثمانيين ، أو وصفها بأنها سنة ارتضاها شيوخ الإسلام والعلماء . [3]

إضافة إلى أنه كيف سيترك العلماء السلاطين يقومون بهذه الفعلة الشنيعة دون اتخاذ موقف تجاههم وكيف سيطلب السلطان بايزيد الأول من العلماء أن يغضوا الطرف عن هذه الفعلة ، وهو الذي رفض الإمام والقاضي شمس الدين فناري [1] شهادتهُ في المحكمة عندما أقتضى حضوره للإدلاء بشهادتهِ في أمر من الأمور ، وعندما وقف أمام القاضي ، رفض شهادتهِ وذلك لأنه لا يؤدي صلاته جماعة ، فتركه السلطان بايزيد الأول وخرج من القاعة بمنتهى الهدوء ، وأصدر أمراً في نفس اليوم ببناء جامع ملاحق لقصرهِ ، ليؤدي فيه الصلاة جماعة دون تأخير . [2]

وقد وقع تحت تأثير هذا الافتراء أكثر المؤرخين والمصادر والمراجع إلا من رحم ربي ، حتى إنَّ المؤرخين الحدثين الثقات وقعوا في هذا الخطأ، وذلك نتيجة لحبك خيوط الافتراء حول الحدث ، أو نتيجة للنقل دون التحليل والتمحيص في المعلومة وهي من أهم مهام المؤرخ الناقد الأمين .

أما ما حدث فعلاً في مقتل الأمير يعقوب فقد أورده المؤرخ عاشق باشا زاده ، في كتابهِ تاريخ عاشق باشا زاده ، وقد اكتملت صورة الحقيقة برأي خواجه سعد الدين أفندي مؤرخ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ومفاد الرواية أنه لم يكن قد خنق

[3] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 172 .

[1] هو شمس الدين محمد بن حمزة الفناري ، كان عارفًا بالعلوم العربية ، وعلمي البيان والمعاني ، وعلم القراءات ، أخذ عن علماء بلاده ، ثم ارتحل إلى مصر طلبًا للعلم ، ثم تولى قضاء بروسة ، وأدى فريضة الحج مرتين وزار القدس ، وله كتاب " فصول البدائع في أصول الشرائع " وغيره: شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 67 ، 68 .

[2] أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص25 ، 26 .

يعقوب بأمر من السلطان بايزيد الأول ، وإنما رأى هذا الأمر لازمًا أمراء الدولة وقادة الجيش الموجودين في ساحة المعركة ، وهم من أمروا بقتل يعقوب ، حيث خافوا من عاقبة حب الجنود له ، وأنه من الممكن أن يطالب بالحكم فتحدث فتنة تزهق مئات الأنفاس ، فرأوا تنفيذ القتل فيه في الخيمة نفسها التي لفظ فيها مراد الأول أنفاسهُ الأخيرة ، قبل وصول بايزيد الأول إلى الخيمة ، خاصة إذا ما علمنا أن أبناء السلطان مراد الأول كانوا متفرقين بعيدين عن ساحة المعركة يتتبعون فلول الجيش المهزومة ، وعندما أدركت الوفاة السلطان مراد الأول أرسلوا في طلب بايزيد الأول الذي عاد مسرعًا ، فاكتشف مقتل أخيهِ . [3]

ولا شك أن مسألة اتخاذ القادة وأمراء الدولة قرارًا مثل هذا يعد تعديًا على حدود وظائفهم ؛ لأن السلطان بايزيد الأول هو الوحيد الذي يملك زمام القرار في أمر أخيه ولا يحق لهم مثل هذا الأمر ، لكن حين وصول بايزيد للخيمة أدرك أن السهم نفذ ولا فائدة من الحديث، ومن الممكن أن يتخذه ساعده الأيمن ومستشاره لعلمهِ وحب الناس له ، بالإضافة إلى أنه عرف عن بايزيد الشجاعة والإقدام مما يرجح كفة تولية الحكم له.

وفي رأي الدارسة أن هذه المعلومة قد برأت السلطان بايزيد الأول تماماً من دم أخيه.

ثانيًا : الحملات التي أرسلها السلطان كانت مهمتها التخريب ، وحصاره للقسطنطينية وعدم تمكنه من فتحها .

الحقيقة أن هيوار قد أغفل تماماً الجانب العسكري والحربي في حياة السلطان بايزيد، واكتفى بإشارات عابرة لفتوحاته ، ولم يذكر السبب الحقيقي لضم بعض الأقاليم ، فمثلاً نجده عدما ضمت إمارات صاروخان ومنتشه للدولة العثمانية لم يذكر سبب ضمها قائلاً : "***وألحقت إمارات صاروخان [1] ومنتشه [2] بالدولة العثمانية .***"[3].

والسبب لضم هذه المناطق أن الإمارات الأناضولية قد تحالفت ضد العثمانيين بمجرد تولي السلطان بايزيد يلدرم الحكم ، فقد قامت الإمارات التركية الحاكمة في الأناضول

---

[3] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص25 .

[1] صاروخان : Saroukhan اسم لواء في ولاية أيدين ، تقع في الأناضول ومركزها مدينة مغنسيا . س . موستراس :مرجع سابق ، ص 325 .

[2] منتشه : Mentesche أحد ألوية ولاية أيدين في الأناضول ، مركزها مدينة موغلة . مرجع سابق ، ص 469 .

[3] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص328 .

بالتحالف ضد السلطان الجديد بايزيد الأول برئاسة علاء الدين بيك القرماني الذي تعود أن يتمرد على العثمانيين كلما سنحت له الفرص ، خاصة أثناء انشغال السلطان في جبهة معينة مثلاً ، فقام السلطان أولاً بأخذ التدابير الضرورية في الجانب الأوروبي (الروميلي) حيث عين على المناطق المفتوحة أحنك قادته ، ثم توجه عام 793هـ / 1390م صوب الأناضول على رأس جيش كبير ، واستطاع أن يخمد تمرد الإمارات المتحالفة مثل إمارات أبناء جارميان وأبناء آيدين وأبناء صاروخان وضم أراضيهم ، فقطع الطريق بينهم وبين علاء الدين بيك ليبقى الأخير دون الدعم العسكري القادم من تلك الإمارات ، حيث أجل الهجوم عليه في وقت آخر ، ونتيجة لهذه الحملة العسكرية دخلت كافة المناطق الواقعة غرب الأناضول تحت الحكم العثماني فيما عد أزمير التي كانت في حوزة اللاتين ، وقد عين السلطان بايزيد الأول ابنه سليمان جلبي واليًا على صاروخان ، وإبنه الآخر أرطغرل جلبي والياً على آيدين ، كما عين قرا تيمر طاش باشا واليًا عامًا على الأناضول ، وجعل كوتاهية مركزًا لها . [4]

ثم إن ضم السلطان بايزيد الأول لغرب الأناضول جعله يمتلك شريطًا ساحليًا طويلاً على بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط ، مما أدى به أن يولي اهتمامًا كبيرًا للبحرية ، وتشكيل القوات البحرية ، فتأسس أول أسطول عثماني مكون من ستين سفينة ، وعين على قيادتها صاروجاً باشا الذي قام بحملات بحرية على جزر ساقيز وأجرى بوز وعلى شواطئ بحر أيجة استعدادًا لفتح القسطنطينية .

كما قام هذا القائد أيضًا بتشييد قلعة غاليبولي وبتأسيس ترسخانة (مصنع السفن) في المنطقة لغرض مراقبة مضيق جناق قلعة (الدردنيل) ، وهذا الأسطول ساعده في ضم الإمارات الصغيرة على البحر الأسود ، حتى أستحق لقب " سلطان المجاهدين من مماليك مصر " . [1]

---

[4] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 92 ، 93 .

Asikpasazade . S. 72 – 73 ; Nesri , Tarih , I , S . 314 ; Ahmed Refik , Osmanli Kumandanlari , S. 34 .
=

= - H. Inakik : " Bayezid " Diyanet Islam Ansiklopedisi , Istanbul 1997 , Citt 5 , S , 231-234 .
- A.Ozel : Islam Hukukunda Tilke Karram , Darulislam – Darulharb , Istanbul 1988 , S, 135-139 .

محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 48 – 50 .

[1] S. Tekindag : Berkuk Derrinde memluk Sultandig , Istanbul 1961 , S, 102 .

Asikpasazade , S . 72 , Nesri , Tarih , IS . 344 ; Hoca Sa' deddin Efendi, Efendi , Tacut – Tevarih, I – S.729 .

وبذلك تم تأسيس أول أسطول بحري عثماني مما جعل السلطان بايزيد يضع حصار القسطنطينية نصب عينيه ، ***" وأرسل بايزيد عدة حملات خربت جزيرة فيوس وإيبيه وأتيكا ، ثم حاصر القسطنطينية مدة سبعة أعوام ، وأسرع يوحنا باليولوج في تحصينها "***. [(2)]

إن الحملات التي قام بها السلطان بايزيد لم تقم بتخريب أي شيء على الإطلاق ، وإنما قامت بفتح المدن والقلاع لنشر الإسلام فيها ، والدليل على ذلك أن سياسة السلطان بايزيد في الفتوحات وتسامحهُ الديني المطلق جعل هيوار نفسه يعترف بذلك في المادة نفسها حينما كتب : " وفضل أهالي توفات [(3)] وسيواس[(4)] وقيصريه أن يسلموا بلادهم إلى بايزيد على أن يتولى عليها ابن القاضي برهان الدين "[(5)] ، وفي هذا اعتراف صريح منه بمروءة السلطان بايزيد وتسامحهِ .

لقد قام الجيش العثماني بتنظيم الغارات على سالونيك وجزر المورا (اليونان) ، حيث تم فتح أغلب جزر المورا ولم يقم بتخريبها ، كما استمرت على أراضي المجر والأفلاق ، وأخيرًا استطاعت القوات العثمانية في يوليو 796هـ/1393م من فتح طرنوفا في الأفلاق وذلك بعد حصار دام ثلاث سنوات ، فسقطت بذلك دولة البلغار ووقع أميرها مانيس معاهدة يعترف فيها بسيادة الدولة العثمانية على بلاده ، ودفع مبلغًا من المال سنويًا مقابل أن يحكم البلاد بقوانينها ، فصارت الدولة العثمانية جارة مع دولة المجر . [(1)]

ثم جهزّ السلطان جيشًا كبيرًا وسار للمرة الثانية نحو الأناضول بهدف إخماد عصيان علاء الدين بيك صاحب الإمارة القرمانية الذي قام بالاستيلاء على بعض المدن العثمانية في المنطقة ، فقضى أولاً على إمارة أولاد حميد ودخل أنطاليا حيث جعلها سنجقًا تابعًا للدولة العثمانية عام 794هـ / 1391م ، ثم توجه صوب الأراضي القرمانية فاضطر علاء الدين إلى الفرار ، وأخيرًا قام السلطان بحصار قونية ، مما جعل علاء الدين يطلب الصلح والعفو من السلطان كعادته في كل مرة، حيث تعهد أن ينسحب من الأراضي العثمانية ويعيد المدن

---

(2) هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 328 .

(3) توفات : Tokat مدينة تركية في الأناضول في ولاية سيواس . س . موستراس ، مرجع سابق ، ص 222 .

(4) سيواس : Sirass مدينة تركية في الأناضول تقع على نهر قزل إرماق . مرجع سابق ، ص 317 .

(5) هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص328 .

(1) Hoca Sa' deddin Efendi , Tacut – Tevarih , I , S . 140 ; Nesri , I , S . 122 .

عدنان العطار : الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط ، ط1 ، دمشق : دار وحي القلم ، 1427هـ / 2006م ، ص35 ، 36 .

A.S. Atiye : Nigbolu Haclilor Seferi Ctvc . E. urasl , Ankara 1956 , P . 140 .

التي أخذها إلى العثمانيين ، وقد قام السلطان بايزيد الأول بتعيين صاري تيمور باشا على إدارة هذه المناطق ، ثم رجع إلى بروسه.

ومن جهة أخرى قامت بعض الإمارات الأناضولية بفسخ المعاهدات التي عقدتها مع العثمانيين وسيطرت على الأراضي الواقعة على الحدود العثمانية عام 795هـ / 1392م مستغلة انشغال السلطان بايزيد الأول في الفتوحات في أوروبا ، وكان على رأس المتمردين سليمان باشا رئيس إمارة أولاد جاندار الذي كان يحكم قسطموني [2] ، إذ تحالف مع القاضي برهان الدين ضد الدولة العثمانية ، فقام السلطان بالهجوم على قسطموني وفتحها وقتل سليمان باشا في ساحة المعركة، فدخلت قسطموني تحت السيادة العثمانية ، ولكن الجيش العثماني خسر في المعركة التي دارت بينه وبين القاضي برهان الدين في 795هـ / يوليو 1392م في موقع جوروم في الأناضول ، حيث استشهد فيها قائده أرطغرل بن السلطان بايزيد الأول ، وانسحب القاضي برهان الدين إلى سيواس ، وتمكن الجيش العثماني من الدخول إلى أماسيا عام 796هـ / 1393م ، وأصبح محمد جلبي بن السلطان بايزيد الأول واليًا عليها.[1]

وبالنسبة لحصار القسطنطينية فقد حاصرها السلطان بايزيد الأول مرتين ، حاصرها المرة الأولى عام 796هـ / 1393م ، لمدة ستة أشهر كاملة ، لكن الحصار كان به كثير من الثغرات في التدابير العسكرية فلم يتم فتحها ورُفع الحصار . [2]

وفي السنة التالية ضُرب الحصار مرة أخرى على القسطنطينية عام 797هـ/ 1394م ، حيث قام الجيش العثماني بحصار القسطنطينية للمرة الثانية إثر قيام الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني بطلب الدعم العسكري من أوروبا ضد الدولة العثمانية كعادته كلما سنحت له الفرص ، وقد استمر الحصار حتى عام 798هـ/ 1395م .

ولا شك أن تقوية الوجود الإسلامي في الأناضول – بفضل جهود العثمانيين ووصولهم إلى هذه الدرجة من التقدم ، وحصارهم للقسطنطينية التي هي محط أطماع جميع ملوك أوروبا – قد أيقظ الحمية المسيحية ، مما أدى إلى إثارة مخاوف الدولة البيزنطية

---

[2] قسطموني Kastamouni ولاية في الأناضول ، تتألف من أربعة ألوية وهي جزء من منطقة بافلاغونيا القديمة وهي المنطقة الساحلية في شمال آسيا الوسطى . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 399 .

[1] Asikpasazade , S. 72 ; Nesri , Tarih , I , S. 314 ; Hoca Sa'deddin Efendi , Tacu;t – Tevarih, I,S . 129.

[2] عبد الرحمن شرف . مصدر سابق ، ص 95 .

والبابوية ، فقام البابا بتحريض ملك المجر وحثه ضد العثمانيين ، وتم إعداد جيش صليبي من أفضل الجيوش المسلحة في أوروبا .

تجمعت هذه القوة الصليبية الكبيرة بقيادة ملك المجر " سيجسموند " والإمبراطور البيزنطي " مانويل الثاني" الذي طلب الدعم العسكري من الدول الأوروبية ، ودعا البابا لتجهيز حملة صليبية كبيرة ضد العثمانيين تكونت من عساكر المجر وألمانيا وبريطانيا وسويسرا وفرنسا وبلجيكا وبولندا وبعض الإمارات الإيطالية ، حتى إن البندقية قدمت سفناً لتلك القوات فبلغ حجم تلك القوات مائة وعشرين ألف مقاتل يمثلون تلك الدول المسيحية ، لقد كان هذا الزحف الصليبي من أخطر التحركات الصليبية ضد الدولة العثمانية ، لكن السلطان بايزيد كان لهم بالمرصاد ، فجهز قوة كبيرة تقارب قوات التحالف الصليبي وامتازت بحسن تنظيمها وإيمانها القوي بالله ﷻ ونشر الإسلام ، والتقت هذه الجيوش في موقع قرب نهر الدانوب نيقوبولس Nicopolis عام 798هـ/1395م وانتصر العثمانيون انتصارًا باهرًا وهُزم الصليبيون وتفتت جموعهم ، وغنم الجيش العثماني كل معداتهم وأسلحتهم ، وقد وطدت هذه المعركة مركز الدولة العثمانية في منقطة البلقان بأكملها . [1]

وعقب انتصاره في المعركة أرسل أنباء هذا الانتصار إلى الخليفة المتوكل العباسي في القاهرة ، فرد عليه بأن أرسل إليه تشريفاً وخلعًا وسيفاً وهذا يعني الأعتراف ببايزيد سلطاناً على إقليم الروم ، وفي هذا تأكيد رسمي لواقع العثمانيين . [2]

وبدأ السلطان بايزيد يركز جهوده على حصار القسطنطينية مرة أخرى والعمل على فتحها ، غير أن الإمبراطور البيزنطي نادى بحركة تطهير واسعة لطرد العثمانيين من المنطقة وتخليص القسطنطينية من الحصار .

غير أن هذه القوة الصليبية الضخمة التي أحتشدت في (بودا) قد أمكن إبادتها خلال مدة قصيرة عند مشارف نيكبولي عام 799هـ / 1396م . [3]

وكانت تلك القوة الصليبية خلال زحفها نحو هذه الأماكن تحرق وتهدم ما يصادفها في الطريق ، وتوقع أنواع المظالم بالسكان الأرثوذكس المحليين ، فلما منيت بالهزيمة تأكد الرأي القائل باستحالة طرد القوة العثمانية من الروملي ، كما عملت على ذيوع شهرة

---

[1] شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 65 ، 66 . عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص65 ، 96 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 50-54 . عدنان العطار : مرجع سابق ، ص 36 ، 37 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 27 ، 26 .

[2] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 22 .

[3] A.S.Atiye Nigbolu Haclilar Seferi , 1956 , 1956 , P. 755 .

السلطان العثماني (بايزيد الأول) الصاعقة في العالم الإسلامي ، فهو مجاهد كبير ومتسامح دينيًا .

هذا الانتصار هيأ الجو للسلطان بايزيد أن يضرب الحصار حول القسطنطينية ، أما الإمبراطور البيزنطي ، فقد كان يعتقد عن إيمان أن إنقاذ القسطنطينية قريب المنال . [4]

وقد صدق حدس الإمبراطور البيزنطي ؛ إذ أنقذ القسطنطينية من الحصار الخطر المغولي الداهم القادم من الشرق على العثمانيين وتأخر فتح القسطنطينية 50 عاماً .

لقد قام السلطان بايزيد الأول ببناء قلعة محكمة على الشاطئ الآسيوي من مضيق البسفور ؛ لقطع الإمدادات القادمة إلى بيزنطة عن طريق هذا المضيق ؛ لأنه قرر بشكل حاسم أن يفتح عاصمة الدولة البيزنطية ، ولهذا قام أولاً بفتح قصبة شيلة الواقعة على البحر الأسود، ثم تغلغل صوب البحر الأسود على امتداد مضيق البسفور ، حيث فتح كل المناطق الواقعة على الساحل الآسيوي للبسفور حتى أستقر في موقع القلعة التي قام بتشييدها ، وقد بدأت أعمال البناء[1] في سنة 800هـــ / 1397م ، وعرفت هذه القلعة باسم " أناضولي حصار" بمعنى قلعة الأناضول ، و" كذلك كوزلجة حصار " بمعنى القلعة الجميلة ، كما عرفت أيضًا باسم " ينيجة حصار" بمعنى القلعة الجديدة ، وقد شيدت القلعة في أضيق نقطة من مضيق البسفور إذ تبلغ المسافة بين الشاطئين الآسيوي والأوروبي في هذه النقطة سبعمائة متر ، وبعد هذه الإعدادات العسكرية طلب السلطان بايزيد الأول من الإمبراطور البيزنطي أن يسلّم له القسطنطينية عن طريق السلم والصلح ، لكن الإمبراطور رفض الطلب اعتمادًا على الدعم العسكري الفرنسي المكون من ستمائة خيالة ، كما أن الدول النصرانية الأخرى التي لم تنسَ هزيمتها أمام الجيش العثماني في معركة نيقوبوليس قامت هي الأخرى بدعم بيزنطة ، فأرسلت البندقية عشر سفن حربية ، والجنويز خمس سفن حربية . [2]

لكن السلطان بايزيد الأول لم يصل إلى تحقيق هدفه في فتح القسطنطينية على الرغم من أخذه للاستعدادات اللازمة لذلك ، لسببين : الأول هو أن القسطنطينية كانت تحتمي وراء الأسوار المرتفعة المحكمة ، والثاني والأهم اضطرار السلطان لفك الحصار والتوجه نحو

---

[4] H.Inalcik : Turkler , Islam Ansiklopedisi , 2, S, 293-294 .

[1] Ali , Kunhu'l – Ahbar , V , S . 81 ; Hayrullah Efendi , V, S. 54 ; Ibn Kemal , Tarih , Nuruosmaniye Kutuphanesi , Nr . 3078 , Varak 96 a

[2] Dursun Bey , Tarih – i Ebu; l – feth , S. 39-40 .

الشرق لمواجهة الخطر المغولي بقيادة تيمور لنك (تيمور الأعرج) الذي أجتاح القسم الشرقي من الأناضول .

أما بالنسبة لظهور الخطر المغولي واجتياحه للممتلكات العثمانية ، ومن ثم المواجهة التي تمت بين السلطان بايزيد الأول وتيمور لنك ، فإن ما جاء في مادة هيوار قد جانب الحقيقة والصواب .

ثالثًا : انضمام الأمراء الذين جردهم العثمانيين من ممتلكاتهم لتيمور لنك . فقال :

" انضم إليه الأمراء الذين جردهم العثمانيون من ممتلكاتهم " . [(3)]

ما ذكره هيوار حدث خاطئ تمامًا وغير موثق بمصادر معينة ، أو ذكر لأسماء تلك الشخصيات أو مناطق نفوذهم .

إن العلاقة بين السلطان بايزيد الأول وتيمور لنك كانت علاقة متوترة منذ البداية، وشابها كثير من الخلافات ، أولها وأهمها الخلاف المذهبي ، حيث إن السلطان بايزيد سني ، أما تيمور لنك فشيعي ، مما ولد الخلاف بينهم تلقائياً ، عوضاً عن اجتياح تيمور لنك نفسه لكل المناطق التي خضعت للدولة العثمانية سابقاً في سبيل بناء دولة كبيرة .

وينسب تيمور لنك (تيمور الأعرج) إلى الأسرة المغولية ، وكان يحكم في سمرقند ، امتلك جيشًا قويًا من حيث العدد والعدة ، فقام بموجة من التوسع ، فاستولى أولاً على شمال إيران ودخل شيراز ، ثم واصل مسيرة صوب بغداد التي كان يحكمها السلطان أحمد الجلائري الذي اضطر إلى الفرار فاستسلمت المدينة إلى تيمور لنك ، وحاول السير نحو روسيا ، وفي الوقت الذي كان منشغلاً في حملته على جورجيا رجع السلطان أحمد الجلائري إلى بغداد واستعادها ، فغضب تيمور عليه وعاد مرة أخرى إلى بغداد ، مما حذا بأحمد الجلائري أن يخرج مرة أخرى ، وقد طلب الالتجاء إلى الدولة المملوكية في مصر . ولكن لم يحصل على موافقة من والي حلب على طلبه ، فاضطر اللجوء إلى الدولة العثمانية ، حيث وافق السلطان بايزيد الأول على ذلك ، كما وافق السلطان على لجوء قرا يوسف حاكم دولة الخراف السود الذي فرَّ هو الآخر نتيجة الاجتياح المغولي لبلاده ، ولم يكتفِ السلطان بايزيد الأول بهذا فحسب ، بل قام بتعيين أحمد الجلائري واليًا على كوتاهية ، وتعيين قرا يوسف على آقسراي، وقام السلطان كذلك بإلحاق أرزنجان إلى الأراضي العثمانية وبتعيين

[(3)] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 329 .

ابنه سليمان جلبي واليًا على سيواس ، مما أغضب حكام الأمارات الأناضولية مثل حاكم إمارة جرميان وحاكم إمارة آيدين وحاكم إمارة منتشة ، فذهبوا إلى تيمور لطلب الدعم منه لأجل إعادة أملاكهم ، كما قاموا أيضًا بتحريض تميور ضد السلطان بايزيد الأول بالإضافة إلى تلقيه المساعدة من أمراء التركمان [1] ، وهذا الأمر وجد صدى في نفس تيمور لنك ، ووافق خطتهُ في القضاء على السلطان العثماني ، بالإضافة إلى أن حكام الإمارات الأناضولية كانوا دائمي الثورة على العثمانيين حتى وإن خضعوا للحكم العثماني لفترة من الزمن ، إلا أنهم يعودون دائماً للتمرد عليهم ، ويحتاجون إلى حليف قوي يساندهم ضد السلطان العثماني .

ومن جهة أخرى فإن الحكام الذين هربوا من اجتياح تيمور لنك والتجأوا إلى العثمانيين حفزوا السلطان بايزيد الأول ضد تيمور لنك ، فقام كل من تيمور لنك وبايزيد الأول بحماية اللاجئين إليهما وبالدفاع عن حقوقهم .

ثم بدأت المراسلات بين الجانبين المغولي والعثماني ، وقد تضمنت هذه المراسلات التي دامت سنتين الاتهامات والاحتقارات المتبادلة بين الطرفين ، وطلب كل طرف من الآخر الاستسلام والاعتراف بالتبعية للآخر .

لقد طلب تيمور من السلطان بايزيد الأول أن يعيد إليه بعض الأشخاص الذين هربوا منه والتجأوا إلى الدولة العثمانية ، مثل قرا يوسف وأحمد الجلائري ، وكان السلطان في تلك الأثناء منشغلاً بفتوحاته في البلقان وبحصار القسطنطينية ، فلم يرد على مطالب تيمور على الرغم من تخمينه مدى الخطورة التي سوف يواجهها .

ومن جهة أخرى كان تيمور – على الرغم من قوته وانتصاراته المتوالية في كافة حروبه – يهاب جانب بايزيد الأول ، إلا أن المحرضين وأصحاب الفتن عملوا كل ما بوسعهم لسحب الحاكمين المسلمين إلى ميدان القتال .[1]

وأخيرًا تحرك تيمور على رأس جيشه القوي والضخم نحو سيواس ، إذ وصل إلى مشارف المدينة 803هـ / 9 أغسطس 1400م وحاصرها ، فأرسل بايزيد الأول ابنه محمد

---

[1] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , Istanbul 1999 , S . 175 .

محمد عبد اللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في إنحسار المد الإسلامي عن أوروبا ، القاهرة : دار الصحوة للنشر ، ط1 ، 1408هـ / 1987م ، ص 26 .

[1] Feridun bey , Munseat , I , S. 118 .

جلبي على رأس قوة استطلاعية إلى المنطقة ، ولكن قبل أن يصل إلى المنطقة استسلمت المدينة وقلعتها إلى الجيش المغولي [2] ، ثم توجه تيمور لنك صوب الشام ، حيث قابل الجيش المملوكي بالقرب من حلب فهزمه ، ودخل المدينة ثم استولى على دمشق ، وتوجه نحو بغداد واستولى عليها مرة أخرى ، ثم انتقل إلى صحراء قراباغ ، وهنا بدأ تيمور بتكرار طلباته من السلطان بايزيد الأول ، وكان يذكره بانتصاراته المتواصلة في الحروب التي خاضها . [3]

فقد تضمنت إحدى رسائل تيمور لنك إلى بايزيد الأول العبارة الآتية : "سأقضي هذا الشتاء في قراباغ ، وسوف أكون في الربيع على الحدود العثمانية ، وانتظر السفير العثماني ، وفي حالة عدم استلامي جوابًا إيجابيًا لطلباتي ، سألتقي معك في ميدان القتال ، وأقوم بإذابتك كالشمع حتى لو كنت حجرًا [4]" وقد نفذ تهديده بحذافيره حيث أذابه من الهم والحزن حتى مات في الأسر .

[2] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص100 .
Ali , Kunhu l – Ahbar , III S. 96 – 100 : Solakzade , 1 . S. 91-96 .
[3] Nizameddin Sami . Zafername , Cev . Necati Lugal , TTK . Ankara 1949 , S. 297 .
[4] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , Istanbul 1999 , S . 180 .

وفي هذه الأثناء قام تيمور لنك بتجديد جيشه وتجهيزه للحرب ، وانضم إليه أيضًا حفيده محمد مرزا مع جيشه المختار مع العساكر المحنكين والمجربين ، وكان تيمور واثقًا من نفسه إذ لم يبق أي خطر يمكن أن يهدده من الطرف الآسيوي ، ولكن السلطان بايزيد الأول كان موقفهُ أكثر خطورة ؛ إذ أنه يواجه تهديدًا من جبهات مختلفة مثل البلقان وبيزنطة ، إضافة إلى بعض الأمارات الأناضولية التي أنضم حكامها إلى تيمور .

ثم أرسل تيمور لنك إلى بايزيد الأول رسالته الأخيرة التي تضمنت بأنه لا يريد سفك الدماء ولكنه يريد قبول شروطه وطلباته ، وإذا لم يتم القبول فإن المسؤولية عن نتائج الحرب تقع على عاتق بايزيد الأول ، كما تضمنت الرسالة أيضًا تسليم قرا يوسف وأحمد الجلائري إليه ، وانسحاب العثمانيين من قلعة سيواس . [1]

وكان تيمور لنك يقدم مع جيشه بشكل سريع ويتغلغل داخل الأناضول من جهة ، ويعلن بأنه لا يريد سفك الدماء من جهة أخرى ، وبهذا نجح في تأمين انضمام أغلب حكام الإمارات الأناضولية إليه بعد أن وعدهم بإخراج العثمانيين من أراضيهم وبمنحهم امتيازات أخرى ، وبالتالي سينضم له هؤلاء بمنتهى البساطة خاصة إذا ما أدركنا أن علاقة تلك الإمارات سيئة مع العثمانيين على طول فترة التاريخ العثماني ، وكانوا دائمي الثورة والتمرد عليهم .

وفي الوقت الذي و صل فيه تيمور إلى هضبة سيواس بعث إليه السلطان بايزيد الأول رسالة تضمنت بأن تيمورلنك هو المسؤول عن الحرب التي سوف تقع بين الطرفين ، وقد كتب السلطان اسمه بالحروف الكبيرة وباللون الذهبي ، فيما كُتب اسم تيمور بالحروف الصغيرة وباللون الأسود مما أغضب تيمور لنك فقام بتنظيم استعراض عسكري أمام السفير العثماني الذي حمل الرسالة إليه وذلك لأجل بيان قوة جيشه له ، وبعد أن رجع السفير وأخبر السلطان بقوة جيش تيمور لنك من حيث العدد والعدة قام القواد وأركان الدولة العثمانية بإقناع السلطان للعدول عن الحرب مع تيمور لنك ، لكن السلطان أبى ذلك وأصر على خوض الحرب ليثبت شجاعته وعدم خوفه من تيمور لنك ، وليدافع عن أراضيه لآخر قطرة ، خاصة وأن تيمور لبنك هو المعتدي والمغتصب ، فجهَّز جيشه وسار صوب هضبة جوبوق القريبة من أنقرة ليقابل الجيش التيموري ، وكان الجيش العثماني يتألف من مائة وخمسين

---

[1] Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 165 – 172 .

ألف مقاتل، بينما كان الجيش المغولي مؤلفًا من سبعمائة ألف مقاتل حسب بعض المصادر ، فيما حصرت بعض المصادر عددهم ما بين ثلاثمائة وخمسين ألف وخمسمائة ألف مقاتل .

وقد أخذ السلطان بايزيد الأول مكانه في مركز الجيش العثماني ، كما أخذ القادة مثل الصدر الأعظم علي باشا وتيمور طاش باشا ومراد باشا وحسن آغا وقرا يوسف أمكنتهم على رأس قواتهم في المقدمة والأجنحة والمؤخرة ، إضافة إلى موسى وعيسى ومصطفى وسليمان ومحمد أولاد السلطان بايزيد الأول ، إذ أخذ كل واحد مكانه على رأس قوة مقاتلة وضم الجيش العثماني قوة مهمة ، وهي مؤلفة من التتار السود الذين قاموا بدور مهم في تحديد كفة النصر .

وكان تيمور لنك في مركز الجيش المغولي ، ومعه حاكم جغطاي محمود خان ، وأخذ حكام الإمارات الأناضولية مثل اسفنديار بيك حاكم أسفنديار ومحمد بيك حاكم منتشة ويعقوب بيك حاكم جرميان الذين انضموا إلى جيش تيمور أمكنتهم في صفوف الجيش المغولي ، وإضافة إلى تفوق الجيش المغولي على الجيش العثماني من حيث العدد والعدة فقد استخدم الجيش المغولي عددًا من الفيلة في مقدمة الجيش ،وتراوح عددها بين أربعين – خمسين فيلاً.[1]

وقد بدأت الاشتباكات الأولى بين الجيشين صبيحة يوم 19 ذي الحجة 804هـ/ 20 يوليو 1402م ، وكانت المعركة تسير بشكل متعادل بين الطرفين في البداية ، ولكن الجيش العثماني تعرض للخيانة الداخلية ، حيث بدأت قوات التتار السود بضرب العثمانيين من الخلف والانضمام إلى جيش تيمورلنك ، ثم قام تيمور لنك بحيلة حربية أدت إلى تخلخل قوة وانضباط الجيش العثماني ؛ إذ وضع حكام الإمارات الأناضولية في الصفوف الأولى من جيشه فقام هؤلاء بدعوة قادة الجيش العثماني للإنضمام إلى جانبهم ، مما أدى إلى الأنفعال والفتنة في صفوف الجيش العثماني ، وبالفعل أنضم قسم منهم إلى الطرف الآخر ، وانسحب قسم آخر منهم من ساحة الحرب ، و ذلك بعد أن اشتد القتال فتقهقر الجيش العثماني وانفرط عقد تماسكه وتنظيمهُ . [2]

---

[1] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 101 – 104 .

Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tacu't – Tevarih , I . S . 169 – 171 .

[2] Nesri , Tarih , I . S . 350 – 351 : Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 171 – 172 .

لمعرفة المزيد عن ملابسات العلاقة بين السلطان بايزيد الأول وتيمور لنك الرجوع إلى المراجع التالية :

1- P. Wittek : Ankara Bozgunundan Istanbul / un Zaptin " trc . H.inalcik 1 , Belleten , 1943 , VII/27 P.557-589 . . أنظر الخريطة في الملحق

رابعًا : صور أسر السلطان بايزيد بمنتهى القسوة والتشويه وبشكل لا يليق بسلطان محارب. فقال :

" حارب بايزيد إلى أن أرخى الليل سدوله ، تحيط به جنوده من الانكشارية الذين قُتل أكثرهم في تلك الموقعة ، ثم حاول الهرب ولكن جواده كبا به فوقع أسيرًا في يد العدو " [(1)] .

لقد تعدى هيوار كثيرًا على السلطان بايزيد الأول عندما اتهمه بالجبن والخوف والهروب من وسط ميدان القتال ، إنَّ في ذلك كشفًا لحقدِهِ الشديد على شجاعة هذا السلطان الذي تناول حياته في المادة ، لم يتبع أي منهج علمي سليم ، ولم يتصف بصفات المؤرخ التي من أولها وأهمها الأمانة في نقل المعلومة ، وإنما تتبع هواه وصاغ الحدث من منطلق مفهومهِ الخاص .

ولنعود مرة أخرى إلى ساحة المعركة وبدأ تقهقر الجيش العثماني ، حيث بقي السلطان بايزيد الأول يقاتل حتى النهاية ، وحوله عدد قليل من رجاله المخلصين الذين نصحوه بالإنسحاب خشية على حياته لكنه رفض ذلك قائلاً بأن الانسحاب لا يليق بالسلطان ويعد هروباً من المعركة وهذا ليس من شيم المقاتل المسلم ، فواصل القتال بشجاعة وبسالة مع ذلك العدد القليل من عسكره .

وفي هذه الأثناء خطط تيمور لنك لأسر السلطان ؛ فكلف بهذه المهمة إبنه شاه رخ الذي هاجم السلطان على رأس قوة تبلغ خمسة وسبعين ألف مقاتل ، بينما لم يبق مع السلطان سوى ثلاثة آلاف مقاتل ، ومع هذا واصل السلطان القتال بشجاعة وبسالة ، فلم يحاول الهرب– كما زعم بذلك هيوار – [(2)] إلى أن أصاب سهم من سهام الجيش المغولي ساق خيله فوقع أرضًا ، فحاصره ذلك العدد الهائل من عساكر المغول بقيادة شاه رخ وقبضوا عليه وأخذوه أسيرًا إلى خيمة تيمور لنك . [(3)]

وبعد انتهاء الحرب التي أسفرت عن انتصار المغول وهزيمة العثمانيين استقر تيمور في كوتاهية ، وقام بإعلان نصره في الرسائل التي أرسلها إلى ملك فرنسا جارلس السادس

2- E . Zachariadou : Suleyman Celebi in Rumelia and the Ottoman Chronicles , Derislam , LX , 1983 , P. 268 – 296 .

[(1)] هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج2 ، ص 329 .

[(2)] هيوار : مادة بايزيد الأول : دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص329 .

[(3)] Lutfu Pasa , Tevarih – I Al – I Osman , S . 56 – 58 : Asikpasazade , S . 78 – 80 .

وملك إنجلترا هنري الرابع ، وأكد فيها انتصاره على السلطان العثماني الذي هزمهم في معركة نيقوبوليس ، [1] وفي هذا دلالة خطيرة على حقده وكرههِ للسلطان بايزيد والعثمانيين وتشجيعه للصليبيين ، مما يلقي بظلالهِ على معاملته السيئة للسلطان بايزيد بعد ذلك .

ثم أرسل تيمور لنك ابنه مرزا على رأس ثلاثين ألف من العسكر إلى بروسه ، حيث قاموا بأعمال العنف والنهب والسلب ، كما قاموا بالاستيلاء على خزينة الدولة العثمانية ، إضافة إلى أسر زوجة السلطان وابنته ، وقامت قوة مغولية أخرى بالاستيلاء على أزنيق ونهبها . [2]

كما قام تيمور لنك بمنح قونية والمناطق المحيطة بها إلى الحاكم القراماني محمد بيك وفاءً بوعده وتقديرًا له في تحالفه معه ضد العثمانيين ، كما قام أيضًا بمكافأة حكام الإمارات الأناضولية الأخرى الذين تحالفوا معه في حربه ضد العثمانيين ، حيث أعاد إليهم الأراضي التي كانوا يحكمونها قبل ضم العثمانيين لها، مما أدى إلى تأسيس الإمارات الأناضولية مرة أخرى .

وأخيرًا قام تيمور لنك بإرسال سفير إلى الإمبراطور البيزنطي طالبًا منه أن يدفع إليه الضريبة التي كان يدفعها سابقًا إلى الدولة العثمانية ، وهدده أنه إذا لم ينفذ رغبتهِ فإنه سيقوم بالهجوم على القسطنطينية ، فقام الإمبراطور بإرسال الضريبة فورًا مع السفير نفسه خوفًا على حياته وحماية لدولته .

وفي ذلك الوقت قام كل من أولاد السلطان بايزيد الأول بتأسيس حكومات في مختلف المناطق التي فروا إليها نتيجة هزيمتهم في الحرب ، وكانت تلك المناطق بعيدة عن سيطرة المغول فلم يرغب تيمور الاصطدام معهم ، بل أعترف بهم لأنَّ ذلك يسبب انقسام الدولة العثمانية وضعفها ، وهو ما يريده .

ثم قرر تيمور لنك العودة إلى وطنه سمرقند بعد أن حقق هدفه ، وهو الانتصار على السلطان بايزيد الأول في الحرب الذي عرفت في التاريخ " بكارثة أنقرة " ، [3] مصطحبًا معه السلطان بايزيد الأول وغنائم الحرب المكونة من الأموال والأسرى ، بما فيهم موسى

---

[1] Cevdet Pasa , Tarih . Tertib – I Cedid I , Istanbul 1309 , S . 346 – 347 .

[2] Nizameddin Sami , Zafername , Cev . Necati Lugal , TTK , Ankara 1949 , S . 313 – 314 .

[3] Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah , Camiu'd – Duvel , S . 39 – 147 ; Hadidi , Tevarih – l AL – IOsman , Istanbul 1991 , S . 126 – 132 .

جلبي ابن السلطان بايزيد الأول . وتعتقد الدراسة أن تيمور لنك قد تلقى مساعدات من الكنيسة والدول الأوروبية ، وذلك بناءً على أنه ما أن أوقع السلطان بايزيد في الأسر إلا وعاد إلى عاصمة ملكهِ دون إستكمال حركتهُ التوسعية وكأنه أتى للانتصار على السلطان بايزيد وإيقاف حصارهِ للقسطنطينية .

خامسًا : صورة بايزيد يلدريم في أسر تيمور لنك وأسباب وفاته : فقال :

" عامل تيمور أسيره بالحسنى ، ولكنَّ بايزيد حاول الفرار من أسرهِ ، فلم يسعَ تيمور إلى تقييده في أثناء الليل بالأغلال ووضعه أثناء السفر في قفص يجره جوادان . وكلمة قفص هي التي أوجدت الأعتقاد بأن بايزيد سُجن في قفص من الحديد ... وتوفي بايزيد بداء النقرس ". (1)

وفيما أورده هيوار في بداية الجملة بعض من الصحة ، حيث أن تيمور لنك قد سعى لمعاملة السلطان بايزيد معاملة حسنة تليق بكونهِ سلطاناً لدولة كبيرة وقع في الأسر ، ولا تشعره بمرارة حاله ، لكن السلطان بايزيد تأثر تأثرًا شديدًا لوقوعهِ في الأسر على يد تيمور لنك ، وهذه مسألة طبيعية فهو أسير وكان من أعظم سلاطين آل عثمان ، فمهما كانت معاملة تيمور لنك الحسنة له فإنها لا تتعدى معاملة أسير من قبل قائد منتصر ، وهي معاملة لا تليق بسلطان عثماني ، وهذه المعاملة استمرت فترة قصيرة ، حيث بدأ بعد ذلك في تعذيبه واحتقاره ، ومن أهم وسائل احتقاره حبسه في قفص حديدي عند الانتقال من مكان إلى آخر . فماذا ننتظر من تيمور لنك الذي وضع الخطط للإيقاع به ، أن يحبسهُ في قصر منيف ، بالطبع سيحبسهُ في قفص إمعاناً في إذالالهِ ، على الرغم من عدم اتفاق المؤرخين على مسألة القفص ، ووقوع كثيرٍ من المصادر في خطأ إنكار وجود هذا القفص ، إلا أن المصادر العثمانية والتركية جزمت بوجودهِ ، وهو الذي أسهم بشكل كبير في مرض السلطان بايزيد الأول ، إضافة إلى الحزن والهم والكمد الذي صاحبهُ في رحلة الأسر التي كانت قاسية على سلطان جال بفتوحاتهِ شرق الأرض وغربها ، فلم يتحمل قيد الأسر ووافاهُ الأجل المحتوم بعد ثمانية أشهر من الأسر.(2)

---

(1) هيوار : مادة بايزيد الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 329 .

(2) عبدالرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 104 ، 105 .
Nizameddin Sami , Zafername , Cev . Necati Lugal , TTK , Ankara 1949 . S . 322 – 323 ; Hoca Sa deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 209 ; Muneccimbasi Ahmed b. Lutfullah . Camiu'd , S.313 .

أما عن مسألة وفاتهِ بداء النقرس ، فأي داء نقرس يأتي له وهو في الأسر ؟! إنه داء الملوك المرفهين وليس المأسورين ، كما أنهم كيف عرفوا أنه داء النقرس وهو أسير ، فبالتأكيد أنه لم يكشف عليه طبيب وإنما أكتفوا بإعلان وفاته فقط .

إن الرواية الأقرب إلى الصحة هي وفاتهِ نتيجة مرض عارض ألم بهِ ، بسبب الحزن والغم الذي حاصره وأثر في نفسه .

وقد توفي السلطان بايزيد الأول بعد ثمانية أشهر من حياة الأسر ، وهو في الرابعة والأربعين من العمر ، حيث وافاه الأجل خلال مسير تيمور مع جيشه من آقشهير [1] ، وبقي جثمانه في هذه المنطقة ، ثم شيِّع بالشكل اللائق بالسلاطين ونقل إلى بروسه من قبل أبنه موسى جلبي الذي أُطلق سراحه من قبل تيمور إثر وفاة والده .[2]

وإن من أهم النتائج المترتبة على كارثة أنقرة :

١) قيام جيوش تيمور لنك بناء على أوامره بغارات على أطراف الدولة ومناطقها، فأعملوا فيها السلب والنهب على الخزائن والثروات وكبدوا العثمانيين خسائر فادحة ، وهذه سمة الجيوش المغولية القتل والسلب والنهب ، وإبادة الحضارة .

٢) على الرغم من إرسال إمبراطور بيزنطة الهدايا والأموال لتيمورلنك إلا أن منطقة الروملي والأناضول لم تسلم من تخريبه وإفساده .

٣) لم تسلم الممالك العثمانية من النهب والسلب حتى إنه لم يترك شجرة مغروسة على وجه الأرض إلا واقتلعها .

٤) إحداث الوقيعة بين الأمراء وأبناء السلطان والعمل على تقويض دعائم الدولة العثمانية، وكان ذلك من أخطر الأمور لأنه قضى مؤقتاً على الدولة العثمانية .

ولا تختلف مادة السلطان محمد الفاتح عن سابقتها حيث قدم المادة خليل إينالجيك وجاءت ممتلئة لدرجة التخمة بالافتراءات والأكاذيب وعدم تحري الصدق في معلومة الحدث التاريخي . **وقد احتوت المادة على عدة أخطاء ، ومنها :**

أولاً :الخوض في مسألة والدته ونعتها بالجارية . [3]

ثانيًا : اختلاق أسباب وأحداث خاطئة وملفقة عن الفترة الأولى لتوليه الحكم [4].

---

[1] آقشهير : Ak- Schehir مدينة في الأناضول في ولاية قره مان ، على مسافة ساعتين من البحيرة التي تحمل الاسم نفسه . س. موستراس : مرجع سابق ، ص83 .

[2] Oruc Bey , Tarih , S . 37 – 38 ; Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I . S. 209 – 210 .

[3] Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI LEIDEN , 1991 . P. 979 .

[4] Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

ثالثًا : حصار القسطنطينية وأحداثه . [5]

رابعًا :مسألة الدمار الذي أصاب القسطنطينية جراء الفتح . [6]

خامسًا : محاولة تصويره على أنه حاكم مستبد مطلق الصلاحيات . [1]

سادسًا : اتهامهِ بأنه جعل من القضاء أداة لتنفيذ رغباتهِ . [2]

سابعًا : محاولة تحديد أهداف أخرى لفتوحاتهِ غير نشر الإسلام وتأمين الجبهة . [3]

وسيتم – بإذن الله – الرد على كل نقطة على حدة ، لكن في البداية لابد من توضيح أن آخر ثلاث نقاط لا تختص بحدث بعيينه أو معلومة ذكرها صاحب المادة وإنما استخرجت من السياق العام للمادة ، ومن بعض الجمل التي وردت فيها .

يعد السلطان محمد الثاني " الفاتح " من مؤسسي الدولة العثمانية ، وأعظم سلاطينها إذ توج حياته في الحكم بفتح القسطنطينية .

والسلطان محمد الثاني " الفاتح " هو السلطان السابع للدولة العثمانية وابن السلطان مراد الثاني ، ولد في أدرنه يوم الأحد 6 شعبان 836هـ/ 30 مارس 1432م [4] ، وتلقى العلم منذ صباه من أبرز علماء عصره ، ومن أهمهم الشيخ آق شمس الدين ، عينه والده واليًا على مغنيسيا لتنشئته على الشؤون الإدارية ، وقد تلقى العديد من الدروس في مختلف علوم الفقه وتعلمه على يد الملا خسرو ، أمَّا التفسير والحديث فتلقاه من الملا جوراني [5] ، والرياضيات من علي القوشي وعلم الكلام والتاريخ من الخواجازادة وعلي الطوسي ، بالإضافة إلى أنه تعلم اللغات العربية والفارسية والإيطالية واليونانية والصربية [6] ، كما كان شاعرًا وأديبًا وله ديوان شعر باللغة التركية ويقول في أحد أبيات شعره :

---

(5) Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

(6) Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

(1) Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

(2) Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 980 .

(3) Halil Inalcik : menemmed II . the Engyclopa Edia of Islam , Volume VI . P 979 .

(4) Mustafa Ali , Kunhu l – Ahbar , V , S. 246 ; Hoca Sadeddin Efendi , Tacu t – Tevarih , I S . 345 ; Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir' at - I Kainat , II , Istanbul 1290 , S. 55-80 .

(5) علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 219 . زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 15-14 .

(6) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 145 .

نيتي هي الامتثال للأمر الإلهي " جاهدوا في سبيل الله " وحماسي إنما هو حماس في سبيل الله[7]

أحب اللغة العربية وشجع حركة الترجمة من العربية إلى التركية ، وأتقن عدة لغات ، وكان يستمتع بجمع العلماء والشعراء من حولهِ ، اتصف بالوقار والجسارة والإدارة المحنكة والتأني في اتخاذ القرار ، حتى إنه كان يخفي الأسرار حتى على أقرب المقربين إليه ، أمضى أغلب حياته في الفتوحات ، أهمها إسقاط الدولة البيزنطية جدار المسيحية العتيد .[1]

أولاً :الخوض في مسألة والدته ونعتها بالجارية

"الابن الرابع للسلطان مراد الثاني الذي أنجبه من بنت جارية كانت تقيم بالحريم العثماني" . [2]

لقد ادعى خليل إينالجيك بأن والدة السلطان محمد الثاني كانت جارية تقيم في الحريم السلطاني بطريقة تشعر القارئ وضاعة أصلها ، وأنها لم تكن زوجة رسمية ، وذلك لكي يزرع في نفس القارئ أن محمدًا الفاتح العظيم كان ابن جارية فقط ، ولكن لا ضير في ذلك لأنَّ أمهات معظم السلاطين العثمانيين كنّ من الأجنبيات الجواري ثم أسلمن بعد زواجهنّ من السلاطين العثمانيين ، والمعروف أن والدة السلطان اسمها حُما خاتون وهي مدفونة داخل التربة الخاتونية في بروسه. والسيدة التي ادعى خليل إينالجيك أنها جارية ، كانت زوجة شرعية للسلطان مراد الثاني .

وهي أم السلطان محمد الفاتح ، ويذكر المستشرق بابينكر أن اسم أم السلطان محمد الفاتح لم يرد في أي مكان أو مصدر ، حيث أعطيت لها فيما بعد بعض الأسماء مثل : حُما ، وستيللا، وأستر ، ولا تشير المصادر العثمانية المعاصرة لذلك الزمن ، إلى موضوع أم السلطان محمد الفاتح ، وتقول مصادر القرن السادس عشر الميلادي وفي مقدمتهم المؤرخ بجيوي أن أم السلطان محمد الفاتح أميرة فرنسية ، وقد قيلت مثل هذه الأسطورة عن أم السلطان بايزيد الثاني أيضاً ؛ حتى يوضحوا أن السلاطين الذين قاموا بالأعمال العظيمة تجري في عروقهم دماء أوروبية ، وهذا ما لا يصدقه القارئ المتأني ، أما المؤرخون

---

[7] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 46 .

[1] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 45 . علي حسون : مرجع سابق ، ص 45 .

[2] Halil Inalcik : Menemmed II , thk Engyglopadia of Islam. Yolume VI , P978 .

المتأخرون في زمننا مثل إسماعيل حامي دانشمند وعلي همّت برقي وعلي رضا صاغمان ، فيزعمون أن أم السلطان محمد الفاتح هي خديجة حليمة خاتون بنت إبراهيم بيك بن اسفنديار بيك ، أما عن أن والدة السلطان محمد الفاتح كانت أجنبية تؤكدة المصادر البيزنطية أيضًا وتميل الدراسة إلى أن والدة السلطان محمد الفاتح كانت جارية أجنبية غير مسلمة ولكنها ليست أميرة فرنسية ؛ إذ لا توجد إشارة إلى ذلك في أي مصدر أوروبي ، وما يؤكد ذلك وجود وقفية غير مؤرخة في أرشيف طوب قابي سراي تؤيد هذا الرأي ، ونشاهد على القسم العلوي من الوقفية طغراء السلطان محمد الفاتح ، فيما نشاهد على القسم السفلي من الوقفية في اليمين توقيع القاضي عسكر " علي بن يوسف الفناري " ، وفي اليسار توقيع قاضي عسكر الأناضول " علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد " ، كما نقرأ في الوقفية العبارة الآتية المكتوبة عن والدة السلطان محمد الفاتح : "... على تربة أمة الله التي صارت درة تاج النساء في العالمين ، وغرة جبهة الإسلام والمسلمين ملكة الملكات، مسدلة ثياب الحسنات والمبرات ، الست الجليلة المؤيدة بتأييد الملك الله ... خاتون بنت عبد الله الكائنة في محروسة بروسه الحمية عن العصاب ... بالإمارة المرادية أسكنها الله –تعالى– في أعلى طبقات جنانه ، وألبسها حلل عفوه و غفرانه، ولا زالت تربتها المشرقة بالأنوار مملوءة ، وروضتها بالآيات المقدسة متلوة ، فوقف وحبس بنية خالصة عن قيم الريا ، ورهبة صادرة عن أصل الإخلاص ونهجه في حل تلألأت شموس آرائه الكريمة عن مشارق العز والإجلال وطلعت بدور آرائه المستقيمة عن مطالع المجد..."[1]

إن عبارة " بنت عبد الله " الواردة في الرقفية تدل على أن هذه المرأة كانت غير مسلمة ، وأعتنقت الإسلام فيما بعد ، ويؤيد المؤرخ بجيوي هذا الرأي ، حيث يقول أن أم السلطان محمد الفاتح أسرت في إحدى الحملات وبيعت إلى حرم السلطان مراد الثاني ، وأنها لم تقبل اعتناق الإسلام بادئ الأمر ، لكنها قبلت ذلك بعد أن حِملت بجنينها وقد أسلمت وحسن إسلامها ، توفيت أم السلطان محمد الفاتح في بروسه عام 853هـ / 1449م ، ودفنت داخل حديقة تبعد عن ضريح السلطان مراد الثاني بمسافة مائة متر ، ثم قام السلطان محمد الفاتح بتشييد قبة على قبرها ، وتفيد كتابة الضريح على أنها والدة السلطان محمد الفاتح ، وأن الذي شيد القبة هو السلطان محمد الفاتح ، على الرغم من أن اسمها لم يكتب في المصادر وفي الوقفية وفي كتابة الضريح ، لكن المنطقة التي توجد فيها التربة الخاتونية

---

[1] وثيقة مسجلة تحت رقم 8361 في أرشيف طوب قابي سراي بإستانبول .

تعرف باسم " حي حُما خاتون " ، كما أن المعلومات المنتشرة بين الناس في المنطقة تؤيد بأن التي ترقد في هذه التربة (الضريح) هي " حما خاتون " ، هذا بالإضافة إلى أنه لم تكن توجد في القرن الخامس عشر الميلادي أمرأة بهذا الاسم سوى حما خاتون نفسها ، كما أن سجلات بروسه تؤيد كذلك بأن والدة السلطان محمد الفاتح هي حما خاتون . [2]

أما عن مسألة الابن الرابع للسلطان مراد الثاني ، فذلك محض افتراء لأن السلطان محمد الفاتح الابن الثاني للسلطان مراد الثاني ، وهو ولي العهد ، فترتيب أبنائه علاء الدين علي ، محمد الثاني ، أحمد ، حسن ، أحمد الثاني ، فكيف يتجنى ويقول أن ترتيبه الرابع وتوفي علاء الدين في حياة مراد الثاني ، وطبيعي أن يكون محمد الثاني هو المرشح الأول لولاية العهد . [1]

ثانيًا : اختلاق أسباب وأحداث خاطئة وملفقة عن الفترة الأولى لتولية الحكم . فقال :

" في الثانية عشرة من عمره تم استدعاؤه من قبل والده ليعلنه سلطانًا حيث تنازل والده عن الحكم لصالحه وذلك لضمان خلافته منعًا لمنافسة " أورخان " الذي كان موجودًا في القسطنطينية " . [2]

اعتلى عرش السلطنة العثمانية عقب وفاة والده في يوم 16 محرم 855هـ/1451م، وفي الحقيقة أن والده تنازل له عن السلطنة عام 848هـ/1444م ، ولكنه كان في الثانية عشرة من العمر فلم يستطع أن يتحمل أعباء الدولة ، إضافة إلى أن الدول الأوروبية عندما سمعت بأن السلطان الجديد في حداثة السن انتعشت آمالهم في طرد المسلمين من أوروبا، فجهزوا حملة صليبية ضد الدولة العثمانية اشتركت فيها كل من ألمانيا وإيطاليا والمجر وبولونيا ورومانيا وبلاد المجر ، فطلب من والده العودة على رأس الدولة ، وكانت النتيجة أن قام السلطان مراد الثاني بمقاومة الجيوش الصليبية حيث أحرز انتصارًا عليهم، ثم استمر في الحكم حتى وفاته ، [3] وقد فسر بعض المستشرقين هذه الحادثة – أي قيام السلطان مراد الثاني بالتخلي عن السلطنة لابنه الصغير محمد – ليضمن استمرار سلطنته ، ومنع منافسة أورخان الذي كان يطالب بالسلطنة ويتواجد في القسطنطينية ويسعى للوصول إلى حكم الدولة

---

[2] زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 13–14 .

M.Gagatay ulucayy Padisahlarim Kadinlari ve Kizlari , Ankara , 1980 , S , 14-15 .

[1] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 43 .

[2] Halil Inalcik : menemmed II , the Engy glopadia of Islam , Volume VI P 978 .

[3] Dursun Bey , Tarih – I Ebu'l – Feth , TOEM , Istanbul 1330 , S. 33 ; Oruc , Bey , Tevarih -1 AL-Iosman , nsr . Fransiz Babinger Hannover 1925 , S . 46 .

أورخان محمد علي ، روائع من التاريخ العثماني ، ص 40 .

العثمانية ، وأورخان هذا هو حفيد سليمان بن السلطان بايزيد الأول ، [4] ولكن السبب الحقيقي لتنازل السلطان مراد الثاني عن الحكم لابنه محمد وهو في حداثة السن يرجع إلى وفاة ابنه الكبير علاء الدين علي ، حيث تأثر كثيرًا وحزن عليه بشدة وزهد عن مواصلة الحكم ، فأراد أن يعتزل عن السلطة ويعيش حياة العزل والإنزواء ، إضافة إلى أنه رغب أن يرى أبنه سلطانًا وهو على قيد الحياة ، ولابد أن نشير هنا إلى أن التفرغ من الحكم يعد حركة سامية يرقى صاحبها إلى العلو والمجد ، ويدل على صفاء القلب والفكر المتطور ، ولم يحدث ذلك في تاريخ العالم إلا نادرًا .

وفي النهاية قام كل من الإمبراطور البيزنطي ، وإمبراطور طربزون ونائب ملك المجر هونداي يانوش ، وملك الصرب برانكويج وحاكم الأفلاق وحاكم الجنويز وساقز بإرسال سفراء لتهنئة السلطان الجديد محمد الثاني بعد توليه للمرة الثانية، [1] ***" نظرًا لحداثة سن السلطان وعدم مقدرته في السيطرة على الصراع الدائر حوله، فإن الدولة العثمانية لم تستطع التعامل بحزم مع أزماتها الداخلية والخارجية ... كذلك في كل مكان من البلقان بدأ حكامها الإقطاعيين بالمطالبة باستعادة استقلالهم وأرضهم ".*** [2]

إن هذا ليس عيبًا حتى يورده وكأنه ضعف في شخصية السلطان محمد الفاتح ؛ إذ إن ذلك شيء طبيعي جدًا ؛ لأن حداثة سن السلطان الحاكم تؤثر على السياسة من حوله فلا يستتب له أمر ، ويبدأ الولاة في إعلان التمرد والعصيان وطلب الاستقلال وذلك لاستضعافها الحاكم الصبي .

وقد استغل ملك المجر هذا الحدث وأغار على بلاد البلغار مخترقًا شروط الهدنة ومعاهدة الصلح مع الدولة العثمانية ، وذلك بتحريض من الكاردينال "سيزاريني" مندوب البابا الذي زين له خيانة العهد مع العثمانيين ، وأمام هذا الوضع الخطير لم يكن أمام السلطان محمد الثاني إلا أن يطلب مساعدة أبيه لعدم قدرتهِ على مواجهة الموقف ، فأعتذر السلطان مراد الثاني في البداية ، لكنه ما لبث أن اقتنع بصعوبة مواجهة السلطان الصغير في السن لهذا الموقف وعاد ليواجه الموقف . [3]

---

[4] إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 64 .

[1] وديع ابن زيدون : مرجع سابق ، ص 57 ، 58 . خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص 100 .
Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihr 1 . Istanbul 1999 , S . 268 .

[2] Halil Inalcik : menemmed II , the Engyglopadia of Islam , Volumk VI , P 978 .

[3] وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 58 . زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 17-18 .

وطوال هذه الأحداث لم يظهر أورخان ليسترد السلطة – كما ذكر المستشرق خليل إينالجيك في مادته – رغم أن الفرصة كانت مواتية له تماماً ، فالسلطان صغير السن ، والمشاكل تحيط به من كل جانب ، فيستطيع أورخان تنفيذ مبتغاه ، لكن في هذا دليل على عدم صدق ادعاء المستشرق ، واكتفائه باختلاق أحداث كاذبة ليس لها أساس من الصحة .

توفي السلطان مراد الثاني عام 850هـ / 1451م عن عمر يناهز 49 عامًا ، ثم تولى ابنه محمد الثاني الحكم وهو في عمر السادسة عشرة وبدأ شابًا محنكًا سياسيًا أعطته الأحداث التي مر بها الكثير من الخبرة والمزايا التي تؤهله ليصبح فاتح القسطنطينية .

وبعد أن استلم الحكم لم يكتف بشن الحروب على أعداء الإسلام والدولة الإسلامية فحسب ، إنما قام أيضًا بالتنظيمات الإدارية في الدولة ، وهو الذي اصدر النظام المعروف بـ " قانون نامه " الذي يضمن جميع أنظمة الدولة الإدارية والسياسية والعسكرية والعلمية ، وسارت الدولة العثمانية بموجب هذه الأنظمة مدة طويلة ، ولاسيما التنظيمات المتعلقة بالقضاة والعلماء والمدرسين حيث اعتنى بها اعتناءً كبيرًا . [1]

ويذكر المؤرخون أن هذا القانون الذي يعد بمثابة دستور الدولة العثمانية بقيت مبادئه سارية المفعول حتى سنة 1255هـ / 1839م ، وكانت تلك المبادئ كلها مستمدة من القرآن الحكيم والسنة النبوية الشريفة ، إضافة إلى أقوال الفقهاء ، لاسيما مذهب الإمام أبي حنيفة [2].

أما عن بداية دخوله معترك الحروب فقد بدأ عندما قام إبراهيم بيك حاكم الإمارة القرامانية بالاستيلاء على بعض الأراضي العثمانية مستغلاً جلوس السلطان الجديد على عرش الدولة العثمانية ، فاضطر السلطان محمد الثاني إلى تجهيز حملة عسكرية ضد الحاكم القراماني ، فوصل مع جيشه إلى آقشهير وبيشهير ، فأنسحب إبراهيم بيك وسعى إلى الصلح ، فأبرم الصلح بين الطرفين بشرط منح آقشهير وبيشهير وسيدي شهير [3] إلى العثمانيين، بالإضافة إلى تعهد الإمارة القرامانية بإرسال العساكر للاشتراك في الحملات العثمانية . [4]

---

[1] شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 918 .

[2] ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص56 .

[3] جميعها مدن في الأناضول ، تابعة لولاية قرة مان ، لواء قونية . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 83–312 .

[4] Asikpasazade , Tevarih – I Al – I Osman , Istanbul 1332 , S . 140 , Idris – I bitlisi , Hest Behist , Topkapi Sarayi , Bagdat Kutup . Nr . 196 , Varak 64 a – 65 b .

وفي هذه الأثناء قام إلياس بيك حاكم الإمارة المنتشاوية بمهاجمة الأراضي العثمانية ، فأرسل إليه محمد الثاني جيشًا بقيادة إسحاق باشا فاضطر الياس بيك الفرار إلى جزيرة رودوس ، وبذلك خضعت الأراضي المنتشاوية عام 855هـ/1451م للسيادة العثمانية . [5]

وبعد أن أتم حل المشكلة القرامانية ، بدأ في توجيه نظره لتحقيق حلم كثيرًا ما راوده كما راود سلاطين سابقين له، لتحقيق البشارة النبوية الشريفة وهي فتح القسطنطينية التي كانت أملاً يداعب مشاعره منذ أن كان فتى يافعًا ، حيث زرع في نفسهِ أستاذه ومربيه الفاضل الشيخ آق شمس الدين أنه هو المقصود ببشارة الحديث النبوي الشريف.[1]

من ناحية أخرى فإن فتح القسطنطينية سيهيئ له مكانة مهمة في السياسة الداخلية للدولة العثمانية ، ويدعم نفوذه وهو في بداية مشوار حكمهِ ، كما يكفل له القدرة على التطبيق الأمثل للإصلاحات اللازمة ، والخطوة الأولى لتفريق القوات الخارجية المتربصة بالدولة العثمانية [2].

تحدث خليل إينالجيك عن حصار القسطنطينية وكأن محمدًا الثاني ليس له دور فيه مطلقًا ، وركز على خلافات القادة فقط ، وأنهم هم الدعامة الأساسية للفتح .

ثالثًا :حصار القسطنطينية وأحداثه . فقال :

" قرر أن يضع حدًا لتهديدات إمبراطور البيزنطيين وبدأ في الإعداد لاحتلال القسطنطينية " [3]

وقال أيضًا :

" إخفاق البحرية العثمانية في منع سفن التموين من الدخول إلى (القرن الذهبي) برزت إشاعات إنهزامية في أوساط القائمين على الحصار ، فنصح كاندرلي بفك الحصار . فبرز كلاً من زغانوس وشمس الدين معارضين .. " [4]

---

[5] Idris – I Bitlisi , Varak 65 ; Mustafa Ali , Kunhu'l – Ahbar V,S . 250 .

[1] زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 26 ، 27 .

[2] H. Inakik : Fatih Devri , uzerinde Tetkikler ve Vesikalar , Ankara 1954 , S , 107- 136 .

[3] Halil Inalcik : mehemmed II , the Engyglopadia of Islam , Volume Vi , P 978 .

[4] Halil Inalcik : mehemmed II , the Engyglopadia of Islam , Volume VI , P. 979 .

لقد سبق توضيح السبب الرئيس لفتح القسطنطينية وهو تحقيق للبشارة النبوية الشريفة، بالإضافة إلى نشر الإسلام في بقاع جديدة ، ثم تحقيق الأهداف الاستراتيجية التي ذكرت في المادة .

لقد بدأ السلطان محمد الثاني الاستعداد لفتح القسطنطينية بمحاولة اكتشاف نقاط ضعف الدفاعات البيزنطية ، ونقاط ضعف أسوار القسطنطينية للاستفادة من ذلك في خطة الهجوم النهائية . فأحاط خطته بالسرية المطلقة ، وحرص على اختيار معاونيه من ثقات الرجال ، وأخيرًا وثق علاقاته بالقوى المجاورة وجمد خلافاته معهم حتى يؤمن ظهره . [5]

ثم بدأ التحرك من بروسه إلى أدرنه وتوقف في طريقة في شبه جزيرة غاليبولي ، حيث طرد منها البيزنطيين القاطنين في المنطقة [1] ، وكانت هذه الحركة الخطوة الأولى ضد البيزنطيين ، ثم قرر السلطان محمد الثاني تشييد روم إيلي حصار " بوغاز كسن " أي قاطعة المضيق على مضيق البسفور ناحية الجهة الأوروبية [2] ، وقد استهدف الفاتح من بناء هذه القلعة قطع المعونة والإمدادات التي قد تصل إلى بيزنطة عن طريق البسفور [3] ، وبدأ البناء في 856هـــ / 1452م حيث اختار السلطان بنفسه موقعه . وقام الوزير شهاب الدين بالإشراف على أعمال البناء الذي وضع مخططه المعماري مصلح الدين آغا . [4]

ويذكر أنه عمل في البناء عشرين ألف عامل ، وقد بنى داخل الحصن مسجدًا وسبيلان لشرب المياه ، وانتهى البناء بعد 4 أشهر ونصف من العام نفسه ، أي في فترة قصيرة قضيت في العمل المتواصل ، وقام السلطان بتعيين فيروز آغا على رأس حامية عسكرية قوامها أربعمائة رجل لحماية القلعة ، وكانت وظيفة هذه الحامية هي السيطرة على مضيق البسفور ومراقبة جميع السفن الأجنبية التي تمر منه وتفتيشها ، وإيقاف السفن التي لا تطيع الأوامر ، وبعد الانتهاء من أعمال بناء القلعة قام الجيش العثماني بحصار القسطنطينية ، وعلى الرغم من معارضة بعض أركان الدولة لفكرة بسبب الصعوبات التي سوف تحدث

---

[5] زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص27 – 30 . الصفصافي أحمد المرسي : إستانبول عبق التاريخ روعة الحضارة ، ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، 1419هـــ / 1999م ، ص27 .

[1] Selahattin Tansel , Fatih Sultan Mehmed in Siyasi ve Askeri Faaliyetleri , Istanbul 1971, S . 39 .

[2] Tacizade Cafer Celebi , Mahrusa – I Istanbul Fetihnamesi , TOEM , 1331 S . 5 – 8 : Cizyedarzade , Tarih , Sul . Kut . Esad Ef . Nr . 2403 , Varak 195 a – 195 b .

[3] Tacizad Cafer Celebi , Mahrusa – I Istanbul Fetihnamesi , TOEM , 1331 S.6 – 8 ; Mustafa Ali , Kunhu'l Ahbar , V, S. 250 – 251 .

[4] Ibn Kemal , Tarih , VII , Ha . Serafettin turan , Ankara 1991 , S . 32 – 36 ; Oruc Bey , Tevarih – I AL – I Osman , nsr . Fransiz Babinger , Hannover 1925 , S . 64 .

من الأسوار المستحكمة التي تحيط بالمدينة البيزنطية ، إلا أن السلطان كان مصرًا على الفتح [5] .

وقد أمر السلطان بصنع سفن جديدة للاشتراك في عملية الفتح ، حيث عين سليمان بيك بلطاجي أوغلي قائدًا على الأسطول العثماني المتكون من مائة وسبع وأربعين سفينة، والذي تحرك من غاليبولي في ربيع عام 857هـ / 1453م [6] ، أما القوة البرية العثمانية فتتكون من مائتي ألف من الخيالة والمشاة ، وتحرك الجيش العثماني بقيادة السلطان محمد الثاني في ربيع الأول 857هـ / مارس 1453م ، ووصل أمام أسوار القسطنطينية في ربيع الثاني / إبريل من العام نفسه [1] ، وتصدى عساكر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين دراغازاس لحماية المدينة ، كما شارك في هذه الحماية العساكر المرتزقة من الإيطاليين والأسبان والفرنسيين والبنادقة والمجر والروس بالإضافة إلى الأهالي الذين حملوا السلاح لأجل حماية مدينتهم . [2] ، كما قام الإمبراطور بتقوية أسوار المدينة وإعادة إحكامها ووضع الأسلحة النارية على أبراج الأسوار ، ثم وضع سلسلة حديدية سميكة في خليج القرن الذهبي لسد الخليج أمام السفن العثمانية ، ووضع على كل باب من أبواب المدينة قوة عسكرية لحمايتها .

وقد أرسل السلطان وزيره محمود باشا إلى الإمبراطور يطلب منه تسليم المدينة دون حرب حقنًا للدماء ، وذلك مقابل ضمان أرواح أهل المدينة وأموالهم ، وإرسال الإمبراطور وأسرته إلى المكان الذي يريده مع ضمان عدم التعرض له ، لكن الإمبراطور رفض ذلك الطلب لأنه كان واثقًا من نفسه ومعتمدًا على الدعم العسكري الذي سيصله من أوروبا ، فلم يهتم بكلام الوزير العثماني . [3]

---

[5] Ibn kemal , Tarih – I Feth – I Kostantiniyye , sul . kut . Sehid Ali Pasa , Nr . 2720 / 14 , Varak 14 a.

[6] Ali , Kunhu'l – Ahbar , Nuruosmaniye Kutup . Nr . 3407 , Varak 97 a – 97 b . أنظر الخريطة في الملاحق.

[1] Idris – I Bitlisi , Varak 70 a .

[2] Sari Abdullah Efendi , Munseat , Varak 34 a – 36 b .

[3] Ahmed Muhtar Feth – I Celil – I Kostantiniyye , Istanbul 1340 , S . 140 .

بدأت الحرب بين الطرفين حيث بدأ الجيش العثماني بتنظيم هجمات على أسوار المدينة بوضع عشر سفن حربية كبيرة خلف السلسلة الحديدية التي وضعوها سابقًا على خليج القرن الذهبي ؛ وذلك لصد السفن العثمانية ومنعها من عبور المضيق .

وأخيرًا دخل الأسطول العثماني إلى المضيق ودارت معركة دامية بين الطرفين نتج عنها ضحايا كُثير من كلا الجانبين ، مما اضطر الأسطول العثماني إلى الانسحاب وذلك بأمر السلطان ، ثم فكر السلطان بإنزال السفن من البر إلى مياه المضيق وحقق فكرته بطريقة مبتكرة وحديثة ، [4] فدارت معركة حامية بين الأسطول العثماني والأسطول البيزنطي ، حيث استطاعت السفن العثمانية إغراق أغلب السفن البيزنطية ونشرت سيطرتها على خليج القرن الذهبي ، وفي الوقت نفسه كانت المعركة البرية مستمرة على طول الأسوار ، ثم قام السلطان محمد الثاني بإرسال أسفنديار أوغلي سفيرًا إلى الإمبراطور البيزنطي طالبًا منه الطلب الأول نفسه ، وهو تسليم القسطنطينية ، وفي حالة رفضه هذه المرة سيكون هو المسؤول عن نتائج الحرب ، لكنَّ الإمبراطور رفض التسليم كعادته ، فقرر السلطان الهجوم على المدينة ، وعندما حلّ الليل قام الجيش التركي بإضاءة المنطقة وذلك بإشعال النيران حول الأسوار . [1]

كما بدأت فرقة الطبل العثماني بدق الأناشيد الحماسية لرفع معنويات الجيش، وبدأ العساكر بالتكبير والتهليل ، وقام السلطان بعد منتصف الليل وتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله ﷻ أن يكتب له النصر ، واستمر بالدعاء حتى صلاة الفجر ، وبعد الصلاة تقلد سيفه وركب خيله وأمر الجيش بالهجوم من البرّ والبحر فجر يوم الثلاثاء 19 جمادى الأولى 857هـ / 29 مايو 1453م . [2]

وفي أثناء القتال جُرح القائد الجنويزي جستنيانوس فانسحب من ميدان الحرب وهرب عن طريق البحر إلى جزيرة ليمني ، ثم استطاع الجندي أولوباطلي حسن مع ثلاثين من رفاقه وضع العلم العثماني على أحد أبراج الأسوار ، واقتحم الجيش العثماني أبواب

---

[4] Muneccimbasi , Tarih , Nuruosmaniye Kutup . Nr . 15 , Varak 115 a – 115 b ; Abdulgaffar Kirimi, Umdetu'l – Ahbar , Suleymaniye Kutup . Esat Efendi ; Nr . 2331 , Varak 20 a- 207b ; Solakzade , Tarih, S. 196 .

[1] Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , S . 324 .

[2] Cafer Celebi , Mahrusa – I Istanbul Fetihnamiesi , Toem , 1331 S . 19 ; Mustafa Ali , Kunhu'l – Ahbar , V , S. 253 – 356 .

القسطنطينية بالقوة ودخلوها بعد حصار استمر ثلاثة وخمسين يوماً [3] ، فسقطت القسطنطينية ومحيت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) من مسرح التاريخ ، وانتهى بذلك العصر الوسيط وبدأ العصر الحديث ،[4] وبهذا الفتح حقق السلطان محمد الثاني الحديث النبوي الشريف "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " [5] ، وأخذ لقب (الفاتح) ، ودخل المدينة حيث قام بأداء الصلاة في كنيسة سانت صوفيا، وهي أكبر كنيسة في القسطنطينية وقد تحولت الكنيسة منذ ذلك الحين إلى مسجدًا ، كما أطلقت على القسطنطينية منذ ذلك الحين أسماء تركية وإسلامية مثل:(إسلامبول) الذي يعني دار الإسلام،وقد حُرِّف فيما بعد إلى إستانبول أو أسطنبول ، وباب السعادة ،ودر السعادة ، ودر السلطنة ، ودر الخلافة[6].

وقد أمر الفاتح بمعاملة أهل المدينة معاملة حسنة كما أمر بحماية أرواحهم وأموالهم وبالسماح لهم بأداء طقوسهم وعباداتهم في كنائسهم ومعابدهم ، ودخل الفاتح المدينة وقت الظهر من يوم الثلاثاء ، وقال لعسكره : " أيها الغزاة أصبحتم فاتحوا استانبول بحمد الله ﷻ اقتلوا من يقاتلكم ولا تتعرضوا لمن لا يحمل السلاح ضدكم ، ولا تتعرضوا للأطفال والشيوخ والنساء والمرضى ، وخذوا من الغنائم التي أحلت لكم " . [1]

وقد منح الفاتح كذلك امتيازات لليهود القاطنين في المدينة ، سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية والمحافظة على أماكن عباداتهم ، إضافة إلى سماحه لهجرة اليهود الساكنين في أسكوب [2] وسلانيك [3] وخاص كوي [4] إلى استانبول، حيث أسكنهم في حيّ خاص بهم في المدينة نظرًا لحاجة المنطقة إلى زيادة السكان ، وانتظم اليهود في استانبول تحت زعامة

---

[3] Kivami , Fetihname – I Sultan Mehmed , Hazirlayan : Fransiz Babinger , Istanbul 1955 , S . 41 – 104 .

مؤلف مجهول : الأتراك العثمانيين ، ورقة 12 .

[4] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص45 . يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص32 .

[5] Imam Ahmed b. Hanbel , Musned , Kahire 1313 ; Camiu's – Sagir , Lam Harfi .

[6] يلمازا أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 140 ، 141 . الصفصافي أحمد المرسي: مرجع سابق ، ص 34

[1] Omer Faruk yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , Istanbul 1999 , S . 368 .

[2] أسكوب : Uskub مدينة في تركية الأوروبية ، في مقدونيا ، تشكل المدينة حدًا فاصلاً بين مقدونيا وألبانيا وصربيا ، بها قلعة رومانية تسيطر عليها من جميع الجهات : س . موستراس : مرجع سابق ، ص 67 .

[3] سلانيك : Selanik مدينة في تركية الأوروبية في مقدونيا ، مركز تجاري مهم وبها عدد لا بأس به من اليهود . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 302 .

[4] خاص كوي : Haskieui بلدة في تركية الأوروبية في تراقيه ، ولاية أدرنه . س . موستراس : مرجع سابق ، ص248 .

رئيس الحاخامات ، وفي عهد الفاتح قام رئيس طائفة اليهود المدعو إسحاق صفتي بدعوة يهود العالم بالهجرة إلى الدولة العثمانية ، مؤكدًا لهم أن الوضع فيها يساعد اليهود على العيش بأمان وحرية .[5]

ومن جهة أخرى قام الفاتح بإعمار المدينة فشيد فيها المساجد والقصور والمدارس ودور الطعام وقناطر المياه والأسواق والحمامات والأسبلة ، حيث صارت إستانبول مركزًا عالميًا للثقافة والعلوم والفنون ، وذلك على اعتبار تاريخها العريق ومستقبلها كعاصمة للدولة العثمانية . [6]

وخلال حصار القسطنطينية اكتشف السلطان قبر الصحابي الجليل (أبو أيوب الأنصاري) الذي أستشهد أثناء الحصار الأول للقسطنطينية زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان ، وقد بنى له مسجدًا وقبة على قبره بعد الفتح ، ويقع هذا المسجد على القرن الذهبي خارج أسوار القسطنطينية ، وقد جرت العادة أن يقوم كل سلطان عقب توليه العرش بتقليد سيف عثمان غازي – مؤسس الدولة العثمانية – في هذا المسجد ضمن احتفالات ومراسيم ، وأن هذه المراسيم تشبه إلى حد ما مراسيم التتويج لدى ملوك الإفرنج . [1]

وقد كان لفتح القسطنطينية صدى عظيم في العالم الإسلامي ، إذ عمّ الفرح والابتهاج بين المسلمين في أرجاء آسيا وإفريقيا لهذا الفتح الإسلامي المبين ، وما أن وصلت أخبار الفتح إلى مصر والحجاز حتى هلل المسلمون وكبروّا وأذيعت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صلوات الشكر وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت بالزينات وعلقت على الجدران الأعلام والرايات والأقمشة المزركشة الألوان ، وأمضى الناس في البلاد الإسلامية أيام أفراح وأعياد، فكيف لا يغتبط كل مسلم وقد رأى تحقق النبوءة الكريمة ، فها هي القسطنطينية التي استعصت على المسلمين منذ قرون طويلة قد دانت للمسلمين ودخلت في حوزتهم . [2]

أما عن الغرب ، فقد كان تأثير فتح القسطنطينية كبيرًا جدًا على أوروبا ؛ فقد انتاب كل عرش في هذه القارة خاصة الملوك والأمراء شعور بالهلع والألم والخزي بعد أن سقط الحصن الذي طالما حمى أوروبا من آسيا لأكثر من ألف سنة ، وتجسم لهم خطر المسلمين

---

[5] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1 ، ص 162 .

[6] عبد العزيز سليمان نوار : مرجع سابق ، ص 32 .

[1] محمد فريد بك المحامي : مصدر سابق ، ص 162 .

[2] الصفصافي أحمد المرسي ، مرجع سابق ، ص134 .

وتهديدهم وتوجسوا أن يكون انتصار السلطان العثماني بداية توغل العثمانيين في أوروبا ، فراحوا يتتبعون خطواته وحركاته بقلق واهتمام بالغين .

وقد رأت البابوية التي حلمت بإخضاع جميع النصارى اليونان لحكم روما بفزع سرعة تحول الملايين من سكان جنوبي شرقي أوروبا إلى الإسلام ، وكتب البابا نيقولا الخامس إلى جميع الحكام الأوروبيين يستجديهم طرح الخلافات وتوحيد الجهود ضد العثمانيين والعمل على تشكيل حلف صليبي جديد ، كما حاول خلفه البابا بيوس الثاني تجديد الهمم ، لكن النزاعات بين ملوك أوروبا وأمرائها حالت دون تحقيق الهدف . [3]

ولا شك أن فتح القسطنطينية من أعظم الفتوحات الجليلة حيث رام كثير من الخلفاء والملوك نواله فلم ينالوه مع ما صرفوه من الجهد والأموال ، وأما أفنوه من القادة والرجال . وقد أرّخ بعضهم هذا الفتح ببيت الشعر الآتي الذي يستخرج منه تاريخ الفتح على حساب الأبجدية ، وهو سنة (857) هجرية التي توافق سنة (1453) ميلادية .

رام أمر الفتح قوم أوّلون   حازه بالنصر قوم آخرون [1]

ويحمل أيضًا هذا الحدث في طياتهِ دلالات عديدة ، لعل أبرزها نقل عاصمة الدولة العثمانية من بروسه إلى القسطنطينية ، وهذا يعني أن الدولة أصبحت آسيوية أوروبية وانتقل مركز ثقلها إلى أوروبا ، مما يعني بداية انتشار الإسلام ليكون دينًا رسميًا في شرق أوروبا ، ورمزًا للدولة في التوسع والانتقال نحو الغرب .

رابعًا : مسألة الدمار الذي أصاب القسطنطينية من جراء الفتح . يقول :

"أسف محمد للدمار الذي حل بتلك المدينة ، فأعلنها على الفور عاصمة له". [2]

" ولما فتح الترك القسطنطينية فر الأهالي العزل إلى الكنيسة معتقدين أن العدو ما إن يبلغ عامود قسطنطين الأكبر حتى يظهر ملك من السماء يشتت شمل الظافرين ، لكن الترك اقتحموا أبواب الكنيسة ووقع اللاجئون غنيمة سائغة ، فأسروا رجالاً ونساءً ، ولم

---

[3] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 97 ، 98 .
S.Runciman : The Fall of Constantinople , Cambridge , 1965 .
Kemalpasazade : Teuarih – I Ali Osman , VII , Defter , (ha2 . S. Turan) , Ankara , 1957 , S, 540 .

[1] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في أعالي البحار ، ج 1 ، ص 511 . لمعرفة المزيد عن حقائق فتح القسطنطينية الرجوع إلى : زياد أبو غنيمه : محمد الفاتح ، ص 40 – 73 . عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 153 – 160 .

[2] Halil Inakik : mehemmed II – the Engyglopadia of Islam , Volume VI , P 79 .

يذكر لنا شهود العيان أنهار الدماء التي خضبت أرض هذا المكان ، وإن كان الكتاب المتأخرون قد أولعوا بذكره وتمت المأساة وأُسر اللاجئون التعساء " .[3]

في البداية أورد نبذة بسيطة عن أخلاق السلطان محمد الفاتح ، لقد تربى على مائدة القرآن الكريم ، على يد خيرة علماء عصرهِ في مقدمتهم الشيخ " آق شمس الدين " الذي درَّسهُ القرآن الكريم والسنة النبوية ، وفي الوقت نفسه كان دائمًا يحدثه بأنه المقصود بالحديث الشريف "، [4] حدث بن بشر الخثعمي عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقول "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " [5]

وبداية لابد أن أوضح أن هذا الافتراء استند على عرف كان سائدًا في حروب تلك العصور ، ويقضي بأنه إذا طلب من مدينة ما الاستسلام أثناء الحرب أو الحصار وترفض ، فإن من حق فاتحها أن يستبيحها لمدة ثلاثة أيام بلياليها يفعل هو وجنوده ما شاءوا بها . [6]

والحقيقة أن السلطان محمد الفاتح طلب من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الاستسلام مرتين ، ولكن الأخير رفض ، ولكن هذا ليس معناه أن يستبيح السلطان محمد المدينة لثلاثة أيام . [1] ، كما أنه ليس من مبادئ شريعتنا الإسلامية التي تحرم القتل في الحرب إلا في ساحة المعركة أن تبيح للقائد والجنود المنتصرين استباحة مدينة مهما كانت ديانة أهلها ، وانتهاك حرمات بيوتها ، فهذا قول مردود عليه تمامًا ، بالإضافة إلى أنه لا يعقل أن نصدق أن السلطان محمد الفاتح الذي تحققت فيه مقولة الرسول ﷺ أن يتبع عرفًا سائدًا في بلاد الكفر ويبيح لجنودهِ سلب المدينة وانتهاك أعراض النساء بعد ما أنعم الله ﷻ عليه بهذا الفتح المبين .

وقد أنعم الله على العثمانيين بفتح القسطنطينية في يوم 19 جمادى الأولى 857هـ/ 29 مايو 1453م ، وفي اليوم السابق لهذا التاريخ حث السلطان جنده على الصيام وذلك تقربًا إلى الله وتزكية لنفوسهم قبل الهجوم الأخير ، وبعد الإفطار تعالت أصوات التكبير ورتلت الأناشيد الدينية وتلا الشيوخ آيات الجهاد ثم دعا إلى عقد مجلس حربهِ وخطب فيهم :

---

[3] سو سيهم : مادة آيا صوفيا ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 175 .

[4] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 181 .

[5] أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل ، د.م ، د.ت ، ج4 ، ص335 . الطبراني: المعجم الكبير ، د.م ، د. ت ، ج2، 38.

[6] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 268 .

[1] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 270 .

" إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ومعجزة من معجزاتهِ ، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم ، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون" [2]. هذه الخطبة البليغة ترجع بذاكرتنا إلى خطبة سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ لجيشه.

وبعد أن منّ الله عليهم باختراق الأسوار المنيعة دخلها الفاتح القائد المسلم المنتصر ، وتوجه إلى كنيسة أيا صوفيا وقبل أن يصلها قال : " الحمد لله ليرحم الله الشهداء " ، وقرأ الحديث الشريف لجنودهِ ونهاهم عن السلب والنهب ، وأمرهم أن يكونوا أهلاً للشرف الذي حباهم به الرسول ﷺ ثم ترجل عن فرسهِ واستقبل القبلة وسجد على الأرض شكرًا لله ، وحثا التراب على رأسهِ شكرًا على النعمة ، ولم يقم جندي واحد بأي عمل منافي للشريعة الإسلامية، ثم توجه إلى كنيسة أيا صوفيا وصلى ركعتين شكراً لله وأمر المؤذن بصلاة الظهر، ومنذ ذلك الوقت تحولت الكنيسة إلى مسجد . [3]

ثم أصدر السلطان أمرًا بتأمين الناس على حياتهم ، وعدم القيام بأعمال السلب والنهب في المدينة ، ونادى المنادي بكل مكان بأن الأمان على كل رومي يريد الرجوع إلى وطنهِ، وترك لهم كثيرًا من كنائسهم وحرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وعَين لهم بطريركًا بعد مقتل السابق ، ثم أمر بدفن الإمبراطور قسطنطين الذي قتل أثناء الفتح بما يليق بمقامه . [1]

وقد أكد على هذه الحقيقة كثير من المؤرخين الأتراك مثل دورسون الذي عاصر الحدث في كتابه " موسوعة التاريخ العثماني " ، وأحمد رفيق في كتابه " التاريخ العمومي الكبير " إضافة إلى الصدر الأعظم كامل باشا في كتابه " التاريخ السياسي للدولة العثمانية " .

---

[2] علي حسون : مرجع سابق ، ص 36-38 .

[3] مرجع سابق ، ص 38 ، الصفصافي أحمد المرسي : مرجع سابق ، ص 32 .

[1] علي حسون : مرجع سابق ، ص 38 . الصفصافي أحمد المرسي ، مرجع سابق ، ص 32 .

أما المؤرخون النصارى المحايدون فقد أجمعوا على حسن تعامل محمد الفاتح مع نصارى القسطنطينية ، والتسامح الديني الذي نعموا به فلم يذبح أي لاجئ لأيا صوفيا [2] بل أطلق سراحهم جميعًا .

والحقيقة أن جموعًا غفيرة التجأت إلى آيا صوفيا خوفًا من الفاتح ، وعندما وصل محمد الفاتح إلى الكنيسة سجد كافة الناس وعلى رأسهم الرهبان على الأرض خوفاً منه ، إلا أنه قال : " انهضوا لا تخشوا بعد هذه اللحظة على حياتكم أو حريتكم". [3]

وقد أكد هذه الحقيقة باول وتيك في كتابه " تأسيس الإمبراطورية العثمانية" ، وكارادكو المؤرخ الفرنسي في كتابِهِ " مفكروا الإسلام " ، وماري ملز باتريك في كتابه "سلاطين بني عثمان الخمسة ". [4]

والواقع أن السلطان محمد الفاتح أظهر تسامحًا كبيرًا [5] مع الأسرى بخلاف معاصريه الذين كانوا يتلذذون وهم على موائد الطعام بمنظر الأسرى وقد اخترقت بطونهم أسنة الرماح وبرفعهم على الخوازيق ، وبالتالي ليس هناك مطلقاً مجال للمقارنة بين أعمال محمد الفاتح مع نصارى القسطنطينية وبين أعمال هولاكو وجنكيز خان في مسلمي الشرق ، وهو ينادي و فلاد الوالاشي من حكام أوروبا فأعمالهم عنوان تاريخهم ، فقد استباحوا كل ما هو إنساني ودمروا كل ما هو حضاري ، ولو كان محمد الفاتح استباح القسطنطينية وفعل ما فعل هؤلاء لما بقي فيها مسيحيًا واحدًا . [1] كما هو الحال الآن في أسبانيا التي كانت يومًا الأندلس .

---

[2] تجمع الناس في آيا صوفيا في انتظار انشقاق الجدار وظهور ملك بسيف ليخلصهم من الأتراك حسب أسطورتهم ويقول الأمير دوكاس أنه لو ظهر الملك في تلك اللحظة وسأل الناس عما يفضلون كاثوليك وينجون من الأتراك ، أم أرثوذكس ويعيشون حياة تحت إدارة الأتراك لفضل الناس الشق الثاني . سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص122 .

[3] الصفصافي أحمد المرسي : مرجع سابق ، ص 32 . شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 86 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1، ص 140 .

[4] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص 281–283 .

[5] استمر بحارة كريت في المقاومة في باغجه قابو ، فأعجب السلطان محمد الفاتح بشجاعتهم وبطولتهم وأمر بعدم أسرهم والسماح لهم بالعودة إلى سفنهم بأسلحتهم ليعودوا إلى جزيرتهم ، وطبعًا هذا منتهى التسامح الديني ، ومخالف لعقلية العصور الوسطى السائدة يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج1 ، ص140 .

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 54–55 .

ويكفي ثناء الرسول الكريم في الحديث الشريف على الأمير وجيشه بأنه نعم الأمير الذي يفتحها ونعم الجيش الذي يدخلها ، فهذا دليل واضح وصريح لا يقبل الشك أبداً بأن القائد والجيش تحلوا بكل الأخلاق الإسلامية ولم يأتوا بما ينافيها ، وهذا الرد يغلق أفواه الحاقدين .

وبناء على ما سبق يتضح أن السلطان محمد الفاتح لم يستبح المدينة ثلاثة أيام مطلقًا على عكس ما ردده الكثيرون من المستشرقين الحاقدين ، وكل ما أقامه في ثلاثة أيام كانت وليمة فاخرة للجنود احتفالاً بالنصر . [2]

إذ إن السلطان محمد الفاتح أمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم وافتدى عددًا كبيرًا منهم بمالِهِ الخاص ، أو جعل فديتهم نظير أعمالهم في بناء المدينة أطلق سراحهم بعد ذلك ، وأهتم بافتداء أمراء اليونان ورجال الدين واستقبل البطريرك الجديد ببالغ الحفاوة والتكريم ، مما جعل صورته تتغير أمام البطريرك والمسيحيين من بعده ، فقد تصوروا أن القتل من نصيبهم لا محالة ، واستأنف الناس حياتهم بسلام في ظلِ حكم عادل رحيم .

ولم يظهر السلطان محمد الفاتح ما أظهره من تسامح ديني إلا لأنه مسلم مقتدٍ بسنةِ نبيه المصطفى ﷺ. [3]

وبهذا نكشف عدم صدق دعواه في استباحة القسطنطينية ، ولا صدق الرواية الملفقة من المستشرق سوسيهم من في مادة أيا صوفيا عن أن الدماء خضبت أرض آيا صوفيا ؛ فتلك أكاذيب، وقد ذكر ذلك بنفسهِ ، حيث قال إنه لم يذكرها شهود العيان ، وإنما ذكرها المؤرخون المتأخرون ، وهم المستشرقون الذين اعتادوا نسج الافتراءات . والحقيقة أن شهود العيان لم يذكروها لأنها لم تحدث أصلاً وما هي إلا ترهات من المستشرقين .

وقد اعترف بذلك بعض المؤرخين الغربيين أمثال " فيرنارد جرينارد " الذي أكد أن العثمانيين عندما دخلوا القسطنطينية لم يقاتلوا إلا من يحمل سلاحًا ، ومما يؤكد هذه المعلومة المؤرخ الروسي " يوسبنكي " فقد ذكر أن معاملة العثمانيين لأهل القسطنطينية وحمايتهم لآثارها الحضارية أفضل ألف مرة من ناحية الإنصاف والإنسانية من معاملة الصليبيين للمدن التي كانوا يستولون عليها . [1]

خامسًا : محاولة تصويره على أنه حاكم مستبد مطلق الصلاحيات . يقول عنه :

---

[2] الصفصافي أحمد المرسي : مرجع سابق ، ص 32 .

[3] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 179-180 .

[1] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 75 .

" *استخدم محمد الفاتح الأعراف والتقاليد الشرعية لإضفاء الشرعية على مجهوداته* ."[2]

إن القارئ ليشك في أن خليل إيناليجك قد قرأ ولو جزءًا يسيرًا من سيرة محمد الفاتح الصحيحة ؛ لأنه لو قرأ عنه ولو قليلاً لأدرك مدى تميز الفاتح بأخلاق الإسلام، ويكفينا سياسة التسامح الديني التي أتبعها مع أهالي القسطنطينية ، فنرى مثلاً مقابلتهُ مع البطريرك ، حيث استقبله بحفاوة بالغة ، وكرمه تكريمًا عظيمًا ، حتى إنه تناول معه الطعام وتحدث في عدة موضوعات سياسية ودينية واجتماعية، حتى خرج البطريرك من لقاء السلطان بفكرة جديدة تمامًا عن الدولة العثمانية والسلطان محمد الفاتح بل عن الإسلام بصفة عامة ، ولم يكن الروم أنفسهم أقل دهشة من بطريركهم حيث ظنوا أن القتل والموت مصيرهم المحتوم ، لكن لم يلبثوا أيامًا حتى عادوا ليستأنفوا حياتهم اليومية بمنتهى السلاسة واليسر . [3]

فلو كان حاكمًا مستبدًا لما وقر معلمه وأستاذه " الشيخ آق شمس الدين " حيث كان يكن له الكثير من الحب والاحترام والإجلال والتوقير ، كان يزوره على الدوام ويستمع لنصائحه ، وكان الفاتح لا يقوم من مجلسهِ لأحد ، ولكنه كان يخف واقفًا إذا حضر آق شمس الدين حتى وصل به الأمر أنه يتلعثم أثناء حديثه معه.[4]

وهنا يتكرر نفس أسلوب إيناليجك وهو التلاعب بالألفاظ حيث أورد لفظي الأعراف والتقاليد وهذه لا يمكن أن تضفي شرعية على حكمهِ لأنه سار وفق الشريعة الإسلامية وليس الأعراف والتقاليد .

ولنترك وصية الفاتح تتحدث عنه وتعكس سياساته الداخلية والخارجية ، وهذه الوصية نطق بها وهو على فراش الموت ، وهي تعبر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة ، وقيمه ومبادئه التي آمن بها ، يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها : " ها أنذا أموت ، ولكني غير آسف لأني تارك خلفًا مثلك كن عادلاً صالحًا رحيمًا ، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز ، واعمل على نشر الدين الإسلامي ، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض ، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه ، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش ، وجانب البدع المفسدة ، وباعد الذين يحرضونك عليها وسع رقعة البلاد بالجهاد وأحرس أموال بيت

---

[2] Halil inalcik : mehemmed II , the Engyglopadia of Islam , Volume Vi . P 979 .

[3] زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 94 .

[4] أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 46 .

المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام ، وأضمن للمعوزين قوتهم ، وابذل إكرامك للمستحقين .

وبما أن العلماء هو بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة ، فعظم جانبهم وشجعهم ، وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال .

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند ، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك ، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة ، فإن الدين غايتنا ، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا .

خذ مني هذه العبرة : حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة ، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة ، فالزم مسلكي ، واحذ حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو ، وأكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك ". [1]

وقد جاء في وصيته هذه النقاط التي كانت النبراس الذي سار عليه في جميع فتوحاتهِ، لقد دخل الفاتح إلى قلب العاصمة البيزنطية وأعطى عالم النصرانية دروسًا في العدالة والرحمة ، فأصبحت معلمًا من معالم التاريخ العثماني.

سادسًا :اتهامهِ بأنه جعل من القضاء أداة لتنفيذ رغباتهِ . فقال :

" أصبح القضاء المبدأ الذي يستمد منه السلطان العثماني شرعيته حتى ضد أعدائه"[2] .

هذه كلمة حق أريد بها باطل ، حيث توحي للقارئ هنا أنه يستطيع استخدام القضاء في الظلم ، إذ صوره على أنه قوة يستمدها لإيقاع الظلم بالرعايا .

يكفي للرد على هذا الاتهام توضيح قصة السلطان محمد الفاتح مع القضاء. حدث أن أمر السلطان محمد الفاتح ببناء جامع في إستانبول ، وكلف أحد المعماريين الروم واسمه "إيسلانتي " بالإشراف على البناء ، لكنه لسبب ما اخطأ في إحد تعاليم السلطان في البناء، فغضب السلطان جدًا حتى أعماه الغضب وأمر بقطع يد المعماري ، لكنه عاد وندم جدًا على هذه الفعلة حيث لا ينفع الندم ، أما المعماري تقدم بشكوى للقاضي ، الذي لم يتردد وقبل الشكوى ونظر فيها ، وأستدعى السلطان للمثول أمامهُ ، فقبل الدعوة السلطان وذهب للقاضي والذي جعله يقف مع خصمهِ أمام القاضي على الرغم من أنه السلطان الذي أسقط عاصمة

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 237 ، 328 .

[2] Halil Inalcik : mehemmed II , The Engyglopadia of Islam , Volume vi , p 980 .

الإمبراطورية البيزنطية ، وعندما انتهى المعماري من عرض مظلمتهِ أمن عليها الفاتح وانتظر حكم القاضي ، والذي حكم بالقصاص من السلطان وقطع يدهُ أيضًا ، ففزع الرومي ، وتنازل عن الدعوة ، لأن أقصى أمنية له هو تعويض مادي ولم يحلم بالاقتصاص من السلطان الذي ترتجف أوروبا منه رعباً ، فحكم القاضي له بعشر قطع نقدية ، لكل يوم طوال حياته ، تعويضاً عن الضرر البالغ الذي لحق به ، لكن السلطان قرر أن يعطيه عشرين قطعة عن كل يوم ، تعبيرًا عن فرحه من الخلاص من حكم القصاص وتعبيرًا عن ندمهِ أيضًا.[1]

إن في هذه القصة لتعبير واضح جدًا عن معنى التزامهِ بالقضاء ونزوله للأحكام الشرعية فلم يحدث أن وقف ملك من أوروبا أو إمبراطور أمام القضاء للعقاب على خطأ ارتكبه فسجونهم مليئة بالمظلومين وأصحاب الحقوق المسلوبة . لا يوجد أكثر من هذا دليلاً على خضوعه للقضاء الإسلامي وعدم اتخاذه مبدأ يستمد منه قوتهِ لإيقاع الظلم على رعاياه .

سابعًا : محاولة تحديد أهداف لفتوحاتهِ غير نشر الإسلام وتأمين الجبهة . فقال :

" لكي يضفي طابع الشرعية على حملتهِ لضم الدولة الصربية كان على الدوام يتحدث عن حقهِ الوراثي فيها ، عبر زواج الحكام الذين سبقوه من أميرة صربية ، من جانب آخر فإن إحياء الإمبراطورية العثمانية الأولى التي تأسست تحت حكم بايزيد يلدريم ، قد شجعت المحتل في حملاتهِ الإحتلالية " . [2]

كيف يطلق عليه محتل وهو مسلم يعرف معنى نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله ، من المؤكد أنه لم يطلع على سيرة الفاتح مطلقًا .

فصربيا هذه التي ادعى خليل إينالجيك أن الفاتح أراد احتلالها ، إنما كان أهلها ينادون ويرغبون في الحكم العثماني للتخلص من الاستبعاد الكاثوليكي المتعصب.[3]

لقد خاض السلطان محمد الفاتح حروبًا كثيرة تحقيقًا لمفهوم الجهاد الإسلامي،ولقد كان فتح القسطنطينية فتحًا عظيمًا غير أن الفاتح لم يكتف بذلك، بل قام بسلسلة من الحملات العسكرية والفتوح ، وقد أعطته المصادر الإسلامية لقب "أبو الفتح" لكثرة فتوحاته ، حيث استطاع أن يفتح أراضي تابعة لسبع عشرة دولة[1].

---

[1] أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص 47-49 .

[2] Halil Inakik : mehemmed II , the Engyglopadia of Islam , VI , P 980 – 987 .

[3] سالم الرشيدي : مرجع سابق ، ص 167 .

[1] عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 106

فبعد أن حقق فتح القسطنطينية وجعل من الدولة العثمانية دولة عالمية بدأ ببحث السبل لتأمين السلام في البلقان ، وكانت الصرب والمجر بمثابة حجر عثرة أمام تقدم العثمانيين في تلك المنطقة ، وقد قام ملك الصرب برانكوفيج بإرسال سفير لتهنئة الفاتح ، كما قام بتسليمه مفاتيح بعض القلاع العثمانية التي سبق وأن استولى عليها الجيش الصربي ، ولكنه كان من جهة أخرى يخطط مع المجر لتجهيز حملة صليبية ضد الأتراك ، فقام السلطان بطلب مفاتيح القلاع العثمانية الأخرى التي بقيت في حوزة الصرب ، وعندما جاء الرفض قام السلطان بتجهيز حملة عسكرية في ربيع الأول عام 859هـ / 1454م حيث فتح بهذه الحملة مناطق واسعة من بلاد الصرب [2] ، ولكن بعد أن عاد الجيش العثماني من المنطقة قامت القوات الصربية والمجرية بالدخول إلى الأراضي العثمانية ، وأسر القائد التركي فيروز بيك المرابط في المنطقة ، فعاد الفاتح مرة أخرى للهجوم على المنطقة ، حيث اضطر ملك الصرب إلى إرسال سفير إلى السلطان يطلب منه الصلح ، وبموجب المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين أعيدت القلاع العثمانية التي كانت في حوزة الصرب ، كما تعهد ملك الصرب بدفع جزية إلى الدولة العثمانية بمقدار ثلاثين ألف دوقية ذهب [3]، ولكن بعد فترة وجيزة قام ملك الصرب بنقض العهد مما اضطر الفاتح لتجهيز حملة أخرى على الصرب عام 860هـ / 1455م استطاعت هذه الحملة من فتح منطقة شهيرة بالفضة وبالمعادن الأخرى ، [4] وفي طريق عودة الفاتح زار الموضع الذي استشهد فيه جده السلطان مراد الأول (خداوندكار) [5].

ولأجل الحفاظ على منطقة الصرب كان يتحتم على الدولة العثمانية السيطرة على سواحل نهر طونة " نهر الدانوب " لسد المخاطر الآتية من الشمال ، لذلك ظهرت الحاجة ماسة لفتح بلغراد ، فأعدّ الفاتح جيشاً قوامه مائة ألف جندي وتحرك من أدرنه عام 861هـ / 1456م ، وفي الطريق انضم إلى السلطان الأسطول العثماني المرابط في فيدين والمتكون من مائتي سفينة صغيرة . [1]

---

[2] idris – I Bitlisi , Varak 92 a – 92 b .

[3] Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , s . 450 .

[4] Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I , s . 452 .

[5] Asikpasazade , Tevarih – I AL – I Osman , Istanbul 1332 , S . 146 . أنظر الخريطة في الملحق .

[1] Idris – Ibitlisi , Varak 97 a ; Hoca Sadeddin Efendi , Tacu;t – Tevarih , I , S . 455 .

وفي هذه الأثناء سارعت الدول الأوروبية في الوقوف ضد فتوحات السلطان العثماني، فأرسلت كل من ألمانيا والبندقية ستين ألف مقاتل متطوع إلى بلغراد لإنقاذها من الحصار العثماني ، مما أدى إلى تقهقر الجيش العثماني إثر هزيمة الأسطول العثماني أمام الأسطول المجري ، ووفاة والي الروملي داي قراجا بيك ، وأراد السلطان رفع الروح المعنوية للجنود فاشتبك في الصف الأمامي من جبهة القتال لرفع معنويات الجيش ، ولكنه أصيب ببعض الجروح فاضطر إلى فك الحصار عن بلغراد في العام نفسه .

وفي عام 862هـ / 1457م قام البابا كاليكسقوس الثالث بإعادة المحاولة لتكوين حلف صليبي ضد السلطان محمد الفاتح ، فأرسل أسطولاً قويًا إلى بحر إيجة، وبدأ بالتفاوض مع أوزون حسن والكرجيين لغرض خلق المشاكل ضد العثمانيين ، ثم قام البابا بيوس الثاني المعروف بعداوته للعثمانيين – فيما بعد – بدعوة الحكومات النصرانية لعقد مؤتمر لمناقشة سبل التحالف ضد العثمانيين .

ولكن على الرغم من تحالف الدول الأوروبية ضد العثمانيين فقد قرر الفاتح إنهاء القضية الصربية [2] ، حيث قام بإرسال الصدر الأعظم محمود باشا على رأس جيش قوي سنة 863هـ / 1458م ، وفتح عدة مناطق منتهيًا بحصار العاصمة الصربية سمنديرة ومنظمًا لغارات عسكرية على الأراضي المجرية ، وأخيرًا تمكن محمود باشا من فتح سمنديرة في عام 864هـ/1459م ، حيث أصبحت سنجقًا تابعًا إلى ولاية الروميلي العثمانية [3] .

ومع استمرار علو نجم السلطان محمد الفاتح ، طلبت منه الكنيسة الأرثوذكسية مساعدتها في وضع حدٍ للفوضى والنزاعات القائمة في منطقة المورا ، فأعدّ السلطان جيشاً قويًا وسار نحو المورا ففتحها وجعلها سنجقًا تابعًا إلى ولاية روميلي العثمانية ، وحينها طلب أهالي أثينا التي تعدّ مركزًا للحضارة الإغريقية الالتحاق بالدولة العثمانية من تلقاء أنفسهم ، فقام الفاتح بزيارة تفقدية إلى أثينا [4] تمهيدًا لإدخالها تحت الحكم العثماني .

---

[2] Dursun Bey , Tarih – I Ebu'l – Feth , Toem , Istanbul 1330 , S . 33 ; Nesri , Tarih , II S. 721-725 .
عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 161 ، 162 .

[3] Asikpasazade , Tevarih – I Al – I Osman , Istanbul 1332 , S . 150 ; Dursun Bey , Tarih -1 Ebu'l – Feth , Toem Istanbul 1330 , S . 90 – 96 ; Nesri , Tarih , II , S . 737 – 741 .

[4] Kivami , Fetihname – I Sultan Mehmed , Hazirlayan : Fransiz Babinger , Istanbul 1955 ,S. 104-121.

ثم أخضع الفاتح سواحل البحر الأسود وألحقها بالدولة العثمانية وذلك لتأمين وحدة الأناضول ، أما أماسرا الواقعة في هذه المنطقة فقد كانت مستعمرة تابعة للجنويز فقام الفاتح بإرسال الصدر الأعظم محمود باشا على رأس الأسطول العثماني إلى المدينة في 866هـ / 1461م فاضطرت إلى الاستسلام وألحقت بالدولة العثمانية دون قتال . [1]

ثم توجه الفاتح صوب سينوب الواقعة على البحر الأسود أيضاً في 866هـ/1461م وفتحها دون قتال ، ثم سار نحو طرابزون التي كانت تحت أمرة الإمبراطور ديفيد كومنن فاستسلم الإمبراطور بدون حرب في 866هـ / 1461م ومحيت بذلك إمبراطورية طرابزون من مسرح التاريخ . [2]

واتجه السلطان بعد ذلك صوب مدينة الأفلاق حيث فتحها 867هـ/1462م واختتم عام 1462م بفتح البوسنة والهرسك وميديللي . [3]

بلغت مساحة الأراضي التابعة للدولة العثمانية زمن الفاتح 2214000 كيلو متراً في الأناضول وأوروبا ، وكانت حدود دولته الشمالية تبدأ من جنوب موسكو ، أما البحر الأسود في عهده فقد تحول إلى بحيرة عثمانية ، وكان ينوي كما يقول بعض المؤرخين أن يفتح روما، وأقسم أن يدخل مذبح الفاتيكان وكانت استعداداته البحرية توحي بذلك . [4]

وفاته :

لكن وافاه الأجل المحتوم قبل أن يبرَّ بقسمهِ حيث انتابته وعكة صحية ألزمته الفراش بضعة أيام أثناء توجههُ على رأس حملة مجهولة الوجه عام 886هـ / 1481م إلى أسكودار على البر الأسيوي ، ولم يطُلع أحد على وجهته الحقيقية ، على الرغم من أن بعض آراء المؤرخين ترجح توجهه إلى رودوس في البحر المتوسط ، ولقد أحس ببوادر الوعكة قبل مغادرة إستانبول ، لكنه تحامل على نفسهِ حبًا في الجهاد ونشر الإسلام ، ولم يستمع لنصائح أطبائه بتأجيل المسير ، واشتد عليه المرض في منتصف الطريق بين إسكودار وكبزا ،

---

[1] Nesri , Tarih , II , S . 739 – 741 .

عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 163 .

[2] Kivami , Fetihname – I Sultan Mehmed , Hazirlayan : Fransiz Babinger , Istanbul 1955 , S . 121-143 ; Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , I . S . 480 – 482 ; Nesri , Tarih , II S . 741-755 .

[3] Nesri , Tarih , II , S . 841-843 ;Dursum Bey , Tarih – I Edu'l – Feth , Toem , Istanbul 1330, S. 171; Oruc Bey , Tevarih – Tevarih – I AL – I Osman , nsr . Fransiz Babinger , Hannover 1925 , S. 131 .

[4] محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 88 .

وحاولوا فصد الدم من قدمهِ التي تورمت ، لكن داء النقرس كان قد اشتد عليه ، وأسلم الروح لبارئها في يوم الجمعة 3 ربيع الأول 886هـ / 3 يناير 1481م .[1]

توفي بعد أن جعل أوروبا ترتعد فرائصها من مجرد ذكر اسمهُ ، وأدخلها في دوامة الخوف التي لم تنتهِ إلا بموتهِ ، لقد كاد أن يفتح روما لو أن الأجل أمهله . ويتضح مما سبق أنها لم تكن خططًا طافت بأذهان غزاة عظام مطلقاً ، وإنما هي حركة فتوحات لنشر الإسلام وتأمين جبهات المسلمين .[2]

لقد عاش 49 عامًا وشهرًا واحدًا وخمسة أيام ، حارب في سنة 868هـ/ 1463م وحدها 16 جيشًا صليبياً مكونًا من عشرين دولة ، بذل فيها البابا قصارى جهدهُ لينتصر على الفاتح ، وأعلن أن من يشترك في هذه الحرب تُغفر ذنوبه لستة أشهر ، وأنهى خلال حكمه إمبراطوريتين وأربع ممالك وإحدى عشرة إمارة ، ودفن في فناء مسجده فإستانبول [3]، وترك لإبنهِ بايزد الثاني خير وصية من سلف إلى خلف .

أما عن مادة القسطنطينية [4] فقد قدمت من المستشرق مورتمان ، وجاءت ضعيفة جدًا ومختصرة وغير وافية ، ومجحفة في حق العثمانيين .

وللدراسة عدة ملاحظات عليها :

١) لم تذكر المادة أبداً تفاصيل فتح العثمانيين للقسطنطينية ، وإنما اكتفت بإشارة باهتة عن الفتح العثماني دون ذكر لتاريخ الفتح ، واكتفت أيضًا بإشارات عابرة فقط عن محاولات الخلفاء المسلمين الأوائل حصارها وفتحها .

٢) أغفلت تماماً بناء العثمانيين للحضارة الإسلامية فيها من مساجد ومدارس وقصور وغيرها ، وشرحت حضارة البيزنطيين فقط ، وكأن الحضارة الإسلامية التي خلفها العثمانيون لا تستحق الذكر .

٣) عابت المادة على الخلفاء المسلمين تمسكهم بالحديث الشريف عن النبي ﷺ الذي يبشرهم فيه بفتح القسطنطينية . فقد جاء في المادة :

---

(1) زياد أبو غنيمه : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ص 188 . رشاد أكرم قوجس : الإنكشارية ، د. ط ، إستانبول ، 1964م ، ص146 ، 145 .

(2) كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص 160 – 171 .

(3) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 45 .

(4) مورتمان : مادة القسطنطينية ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج27 ، ص 8313 .

" يقال إن النبي ﷺ قد تنبأ بفتح القسطنطينية على يد المسلمين ، يورد المؤرخون العثمانيون أحاديث عن الرسول ﷺ- تفيد أنه دعا للجيش الفاتح وقائده " . [1]

ولا يصح مطلقاً أن تكتب كلمة يقال ، لأنَّ أحاديث الرسول الكريم ﷺ ثابتة في الكتب الموثقة ، ولم يكن حديث من بنات أفكار مؤرخي الدولة العثمانية كما ادعت المادة ، إنما هو صحيح حيث ذكر في كل الأحاديث الصحيحة" لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش ".

أما مادة السلطان بايزيد الثاني فقد ارتكزت على صراعهِ مع أخيه جِمْ ، وإيراد تفاصيل كثيرة عن هذا الصراع ، فجاءت مادتهِ وعصرهِ كله بشكل مليء بالفتن والمشاكل الداخلية ، ولم يشر هيوار إلى أعماله الإسلامية أو فتوحاتهِ إلا بنتف وبلفظ تخريب للمدن .

ومن خلال استعراض مادة السلطان بايزيد الثاني والتي قام بإعدادها المؤرخ هيوار لاحظت التالي :

أولاً :عمل هيوار على استعراض الأحداث التي صاحبت توليه العرش بشكل مبالغ فيه ، مستخدمًا الأسلوب المعهود للمستشرقين وهو ذكر الحقيقة ولكن ليست كاملة ، بل دس الجمل الصغيرة والافتراءات غير المحسوسة التي تسمم الفكرة العامة للحدث التاريخي [2].

ثانيًا :خاض هيوار في تفاصيل الصراع بين الأخوين جِمْ وبايزيد الثاني بدون توضيح لتفاصيل مهمة تغير مجرى الأحداث [3].

ثالثًا :أتى على ذكر علاقته بمماليك مصر دون توضيح لأسس هذه العلاقة أبدًا.[4]

رابعًا : وصف فتوحاته بالتخريب ، وأن فتوحاتهِ سلسلة من الهزائم [5].

خامساً :التحدث في مسألة نزاع أبنائه على العرش دون ذكر الأحداث بشكل سليم[6] .

---

[1] مورتمان : مادة القسطنطينية ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج27 ، ص8314 .

لقد اكتفت الدراسة بمادة القسطنطينية من الطبعة الأخيرة من دائرة المعارف الإسلامية ، وذلك لتعذر الحصول عليها من النسخة الأجنبية وهي لم تختلف إطلاقًا عن النسخة الإنجليزية حيث ترجمت بجميع أخطائها .

[2] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 329 ، 330 .

[3] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص ، 330 .

[4] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 329 ، 330 .

[5] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 329 ، 330 .

[6] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج2 ، ص 330 ، 331 .

اتخذ هيوار هذا الأسلوب في المادة ، فكان يذكر الحقائق دون ذكر أسباب أو أحداث صغيرة تغير شكل الحدث التاريخي ، وهذا الأسلوب معروف ومتبع دائمًا من قبل المستشرقين.

وبايزيد الثاني السلطان الثامن للدولة العثمانية والنجل الأكبر للسلطان محمد الثاني (الفاتح) ، ولد عام 852هـ / 1448م في إستانبول [1] ، وقد تعلم بايزيد على أيدي علماء عصره منذ صباه ، حيث تلقى دروسًا في الفقه وكافة العلوم الإسلامية ، كما أهتم بعلم النجوم. وعين واليًا على أماسيا وهو في سن السابعة وذلك تحت نظارة علي باشا ، [2] وكانت أماسيا مركزًا مهمًا للعلوم والفنون والثقافة منذ العهد السلجوقي ، وأخذ دروسًا في الخط العربي من الشيخ حمد الله الأماسي ، كما تعلم اللغتين العربية والفارسية ، وشؤون الإدارة وفنون القتال والفروسية من أركان الدولة وقادة والده المحنكين ، وقد دعي بايزيد إلى إستانبول إثر وفاة والده عام 886هـ / 1481م وبويع له بالسلطنة .

عرف عن السلطان بايزيد الثاني ميله للتصوف وحبهِ وتقديره للعلماء والأولياء ، وكان تقيًا ورعًا عالمًا وعادلاً وحليمًا ولذلك كان يعرف بالولي ، وكان يستمع إلى آراء العلماء ونصائحهم ، كما كان كثير القراءة والمطالعة ، اهتم بالحركة العمرانية فبنى مدرسة ومسجدًا وزاوية في أماسيا ، كما بنى دارًا للشفاء ومجمعًا معماريًا في أدرنه ، وأخيرًا شيد مسجدًا ومدرسة وداراً لإطعام الفقراء وحمامًا في إستانبول وعمل على تحسين شبكة الطرق والجسور .

يميل دائمًا إلى السلم والصلح ، واهتم بتنظيم مؤسسات الدولة ، وكان دائم الإطلاع على مشاكل المسلمين في الشرق والغرب ، أحب الشعر وكان شاعرًا وله ديوان باسمه المستعار (عدلي) ، وقد أمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله ﷻ وقدرته وكانت له أشعار في الحكمة توصي بالاستيقاظ من نوم الغفلة والنظر في جمال الطبيعة التي أبدعها الله ﷻ وفي ذلك يقول :

---

[1] Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 80-103 .

[2] Asikpasazade , Tevarih – I AL – I Osman , Istanbul 1332 , S . 198 .

استيقظ من نوم الغفلة	وانظر إلى الزينة في الأشجار
انظر إلى قدرة الله الحق	انظر إلى رونق الأزهار
وأفتح عينيك لتشاهد	حياة الأرض بعد الممات [1]

و نأتي إلى تفصيل النقاط :

أولاً : استعراض الأحداث التي صاحبت توليه العرش . فقال :

" توطد عرشه بفضل الفتنة التي قام بها الانكشارية فأحبطوا دسائس الصدر الأعظم محمد باشا قرماني الذي كان يناصر أخاه الأصغر " جم " وكافأهم بايزيد على ذلك عند اعتلائه العرش .. ونفحهم بمنحة أصبحت تقليدًا جرى عليه خلفاؤه ". [2]

إن هذه كلمة حق أريد بها باطل ؛ لأنه فعلاً تولى الحكم بمساعدة الانكشارية ، ولكن لأنه الأحق ، فهو الابن الأكبر وولي عهد السلطان محمد الفاتح، فطبيعي جدًا أن ترغب الانكشارية بتوليه الحكم ، ولكن الذي أدخل الابن الأصغر جْم في المسألة هو الصدر الأعظم محمد باشا قرماني الذي حاول إرسال خبر وفاة السلطان محمد لابنهِ جْم قبل بايزيد الثاني بالإضافة إلى أن من كانوا حول جْم زرعوا في نفسهِ حب السلطة والاستيلاء على العرش .

ومما يجوهر المعلومة السابقة وصية السلطان محمد الفاتح التي تركها لأكبر أبنائهِ بايزيد الثاني وهو على فراش الموت ، التي تعبر أصدق تعبير عن منهجه في الحياة ، وقيمه ومبادئه التي آمن بها وكان يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها وهي خير دليل على حرصهِ على عدم تعرض أبنائهِ للشقاق على الحكم من بعدهِ لكن الذين حوله هم من أجج الصراع بين الأخوين .

وعندما توفي السلطان محمد الفاتح ترك ولدين أكبرهما بايزيد المولود عام 851هـ / 1447م ، وكان واليًا على " أماسيا " أما الثاني فهو جَمْ والمعروف في المراجع الأجنبية باسم زيزيم Zizim وكان واليًا على قرمان [3] ، ومنذ وفاته بدأت التدخلات الخارجية لإفساد العلاقة بين الطرفين .

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 288 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 245 .

[2] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 329 ، 330 .

[3] صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص 81 .

كان جْم النجل الأصغر للسلطان محمد الفاتح يطمع في السلطنة منذ زمن والده ، فقد حدث عند خروج الفاتح إلى إحدى فتوحاته في أوروبا سنة 878هـ / 1473م أن أخذ معه ولديه بايزيد ومصطفى ، وبقي جْم في العاصمة إستانبول وكان عمره آنذاك 13 عامًا ، وطال غياب السلطان والجيش العثماني ولم تصل عنهم أخبار لمدة أربعين يومًا ، فقام بعض المحرضين وأصحاب الفتن بنشر إشاعات سيئة تفيد تقهقر الجيش العثماني في أوروبا مع الشكوك في مصير السلطان الفاتح ، وهنا واتت الفرصة بعض أركان الدولة في العاصمة لتحريض جْم إذ قالوا له : " ماذا تنتظر ؟ إن مصير والدك مجهول ، وأخوتك في مكان بعيد، أعلن سلطنتك وكل أهالي البلد يتبعونك ، وهذه فرصة لا تتكرر " . وقد أدى هذا التحريض إلى غرس طمع السلطنة والحكم في نفس جْم دون أن يكلف نفسه بالتحقيق في صحة الأخبار والإشاعات ، حيث طلب من أركان الدولة ومن الحرس السلطاني البيعة له ، ولكن في هذه الأثناء وصل خبر انتصار الفاتح في معركة اوطلوبيلي ، فخاب أمل جْم في اعتلاء العرش ، وعندما وصل الفاتح إستانبول سمع بما جرى في غيابه فقام بمعاقبة الذين حرضوا جْم لفكرة السلطنة ، فقام بإرسالهِ إلى سنجق قونية [1]، ثم ظهرت المشكلة على السطح مرة أخرى بعد وفاة السلطان الفاتح حيث ظهر الوزير الأعظم محمد باشا القراماني [2] الذي كان من مناصري جْم،وأسرع بإرسال خبر الوفاة إلى جْم سرًا ودعاه إلى إستانبول ليخلف أباه.

وفي الوقت نفسه بعث رسالة إلى بايزيد الذي كان في أماسيا يدعوه للحضور إلى إستانبول مراعيًا في ذلك تقاليد الدولة التي تستلزم إخبار الابن الأكبر للسلطان المتوفَّي ، وقد حسب الوزير الأعظم بأن جْم سيصل إستانبول قبل بايزيد ، ولكن الشخص الذي حمل الرسالة إلى جْم قبض عليه من قبل والي الأناضول سنان باشا فلم تصل الرسالة إلى جْم في وقتها ، وبالتالي علم بايزيد بالأمر وعاد مسرعًا إلى إستانبول فوقعت الفتنة بين الانكشارية مناصري بايزيد وبين الصدر الأعظم محمد باشا القراماني والذين سارعوا بقتلهِ . [3]

---

[1] Mithat Sertoglu , " Cem Sultan neden Padisah olamadi " Yillarboyu Tarih Mecmuasi , Sayii : 6 , sene 4 , Haziran 1981 , S . 10-12 .

[2] محمد باشا القراماني : من أشهر الصدور العظام زمن محمد الفاتح ، تربى في قونيه ، وهو من نسل جلال الدين الرومي ، تتلمذ علي يد علاء الدين علي جلبي أحد العلماء الكبار في عهده ثم صار صهرًا له ، ترقى في المناصب حتى وصل إلى منصب الصدارة العظمى ، وقد نظم مجموعة قوانين ، عرفت باسم قانون نامه آل عثمان ، عين قاضيًا للعسكر ، وكان بارعًا في الخط والرماية والقوس . الموسوعة التركية – الوقف الديني بتركيا ، ج1 ، د. ط ، إستانبول ، 1988م ، ص 133 .

[3] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 179 . وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص 69 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص72 ، 73 . أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص 188 ، محمد سعيد طقوش . مرجع سابق ، ص 120 .

ثانياً : تفاصيل الصراع بين الأخوين . فقال :

"استولى جْم على بروسه ، غير أنه هزم عند " ينشهر " في 26 ربيع الأول 886هــ/ 20 يونيه 1481م، ففر إلى قونيه ثم إلى الشام فمصر ، وأدى بعد ذلك فريضة الحج ثم حاول أن يجرب حظه من جديد فعاود الهجوم وتقدم من حلب إلى قونيه ثم أتجه إلى أنقرة وفيها خذله جنوده فالتجأ إلى فرسان جزيرة رودوس ،وعمد بايزيد إلى البابا إسكندر السادس وأغراه على أن يخلصه من أخيه التعس ، وقد دفنه بعد موتهِ ... بمقبرة مراد الثاني في بروسه " [1].

ولم تختلف مادة جْم عن ما ورد في مادة السلطان بايزيد [2] حيث ركزت على صراعهِ مع أخيه بايزيد وأطوار هذا الصراع ، وقد قدم المادة مورتمان الذي أدخل فيها الكثير من التشويهات والترهات التي زادت من غموض الحدث وبعده عن الواقع .

وقد عرف جْم خبر وفاة والده في وقت متأخر وبعد مبايعة أركان الدولة لبايزيد في اعتلاء العرش ، كما علم أيضًا بمقتل الوزير الأعظم الذي كان من أكبر مؤيديه فجمع حوله جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل وتوجه نحو العاصمة العثمانية القديمة بروسه ، فارسل السلطان بايزيد الثاني جيشاً بقيادة إياس باشا لصده ، وقد تقابل الطرفان في موقعة أينه جول عام 886هــ / 1481م انتصر فيها جْم على جيش السلطان واستطاع أن يدخل بروسه حيث أعلن فيها سلطنته[3]

وقد مارس جْم خلال سلطنته التي دامت ثلاثة وعشرين يوماً كل ما يثبت أنه سلطان الدولة العثمانية فقرأت خطبة الجمعة باسمه ، وسك العملة باسمه أيضًا. [4] ثم بعث رسالة إلى السلطان بايزيد الثاني طالبًا منه تقسيم الأراضي العثمانية بينهما بشكل متساو [5] ، وبطبيعة الحال لم يكن هذا المطلب ممكنًا فقام السلطان بتجهيز جيش قوي وتوجه صوب بروسه ،

---

[1] هيوار : مادة بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 330 .

[2] مورتمان : مادة جْم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج7 ، ص 90 – 93 .

[3] إسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص 57 . Hoca Sadeddin Efendi , Tevarih , II , S. 4

[4] Ismail Galib , Takvim – I Meskukat – I Osmaniye , Istanbul 1307 , S . 61 ; Halil Eldem, Meskukat – I Osmaniye Istanbul 1334 , S . 134 – 135 .

[5] Asikpasazade , Tevarih – I Al – I Osman , Istanbul 1332 , S . 221 ; Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , II , S . 10 ; Hadidi , Tevarih – I AL – I Osman , S . 313 ; عبد اللطيف بن دهيش : مرجع سابق ،ص75.

حيث هُزم جيش جْم في المعركة التي وقعت في هضبة يني شهير ، وفر جْم إلى قونيه [1] ، ومنها إلى خارج الدولة آخذاً معه أمه وولده وابنتيه وبعض رجاله الصادقين ، فوصل إلى القاهرة في 886هــ / 1481م فاستقبله هنالك السلطان المملوكي قايتباي ، وبعد مكوثه هنالك عدة شهور ذهب إلى الحجاز في موسم الحج حيث أدى فريضة الحج.[2]

وفي ذلك الوقت استغل حاكم الإمارة القرامانية قاسم بيك الوضع المتوتر في الدولة العثمانية فأعلن التمرد ضد السلطان ، كما قام بدعوة جْم للعودة إلى الأناضول ، وتلبية لهذه الدعوة وبتحريض أصحاب الفتن رجع جْم إلى الأناضول[3] ، فبدأت رحلة من النزاع جديدة داخل الأسرة العثمانية ، وفي الوقت الذي كان فيه جْم في القاهرة أرسل إليه السلطان بايزيد رسالة وعده فيها بإعطائه مليون آقجة ذهب مقابل تخليه عن فكرة السلطنة ، ولكنه رفض طلب السلطان ، وبعد عودته إلى الأناضول طلب منه السلطان الشيء نفسه مرة أخرى وبطريقة مشفقة ، واقترح عليه أن يأخذ مخصصاته السنوية ويقيم في القدس الشريف وأن يقسم على عدم طلبه عرش الدولة العثمانية فيما بعد ، [4] ومرة أخرى رفض جْم كل هذه الاقتراحات ووصل حتى مشارف قونية وحاصرها في 887هــ / 1482م وذلك بالتحالف مع قاسم بيك القراماني ، وعندما وصل جيش السلطان بايزيد الثاني إلى المنطقة اضطر جْم إلى فك الحصار عند استشعاره الضعف وتوجه صوب أنقرة [5] ولكنه فشل في دخولها فهرب إلى الأراضي القرامانية ، حيث كان ينوي مغادرتها إلى مصر ، ولكنه انتقل إلى جزيرة رودوس بدعوة من حاكمها بيير ربسون [6] ، ووصل إليها على متن سفينة عام 887هــ/ 1482م ، والجدير بالذكر أنه عند وصوله إلى رودوس أبرمت معاهدة بين جْم وحاكم رودوس تضمنت بأن جْم يستطيع مغادرة الجزيرة متى شاء ، لكنَّ الرودوسيين نقضوا عهدهم وأجبروه على مواصلة حياة الأسر في الجزيرة . ولا شك أن لجوء جْم إلى جزيرة رودوس

---

[1] Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , S . 15 .

[2] عبد المنعم الهاشمي ، مرجع سابق ، ص 234 . Hadidi , Tevarih – I Al – I Osman , S. 313 .

[3] Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir ' at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 421-423

[4] Feridun Bey , Munseat , I , S . 290 – 293 ; Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , S . 22 ; حليم بك : مصدر سابق ، ص 72 .

[5] Asikpasazade , Tevarih – I AL – I Osman , Istanbul , Istanbul 1332 , S . 221 .

[6] Hadidi , Tevarih – I AL – I Osman , S . 314 ; Hoca Sadeddin Efendi , Tevarih , S . 15 ; هيوار : مادة بايزيد الثاني دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 330 .

يعد حادثة سوداء بالنسبة لشخصية من أفراد آل عثمان وللتاريخ العثماني على السواء ، [1]
ولا شك أن ترصد أعداء الدولة العثمانية بنظام ولاية العرش فيها ، ودعم الدول الأوروبية للنزاعات التي تنشأ بين الإخوة على الحكم ساعد على توسيع الفجوة بين الأخوين السلطان بايزيد الثاني وجْم . لقد دأب الأوروبيون على استغلال هذه المسألة حتى يضعفوا الجبهة الداخلية للدولة العثمانية .

وقد ظنت الدول الأوروبية بأنه قد حان الوقت للتغلب على الدولة العثمانية عقب لجوء جْم إلى أوروبا حتى إن هذه الدول قامت بالتشاورات الدبلوماسية فيما بينها لأجل تجهيز حملة صليبية جديدة ضد الدولة العثمانية ، وفي هذه الأثناء قام السلطان بايزيد الذي أدرك خطورة الموقف بإبرام معاهدة مع البندقية في عام 887هـ / 1482م تعهد بموجبها بإلغاء الجزية المفروضة على البنادقة للدولة العثمانية ومقدارها ألف دوقية ذهب سنويًا ، كما احتوت المعاهدة على تخفيض مقدار الضريبة التي كانت تؤخذ من بضائع البندقية التي تدخل الأراضي العثمانية من خمسة بالمائة إلى أربعة بالمائة ، إضافة إلى إطلاق سراح الأسرى البنادقة الذين أسرهم الجيش العثماني منذ زمن السلطان محمد الفاتح .

وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة تظهر في صالح البنادقة لأول وهلة ، غير أن السلطان بايزيد استطاع أن يضع البندقية خارج التحالف الأوروبي الصليبي بهذه المعاهدة لأنه أكتسب صداقتهم ، وبالفعل نرى أن البنادقة لم يشتركوا في أية حركة ضد العثمانيين طيلة سبعة عشر عامًا من إبرام هذه المعاهدة ، هذا بالإضافة إلى أن السلطان كان يأخذ أخبار التحركات التي تحدث ضده في أوروبا بواسطة البنادقة ويقوم بأخذ التدابير اللازمة في وقتها.

وفي هذه الأثناء طلب البابا اينوجينت الثامن من جْم اعتناق النصرانية ، لكنه رفض ذلك قائلاً : " لا أغير ديني لا لأجل السلطنة العثمانية فحسب إنما حتى لو أعطيتموني سلطنة العالم كله " .

وقد توفي جْم في 9 جمادى الآخرة 901هـ 25 فبراير 1495م في الغربة نتيجة لمؤامرة حاكها ضده البابا وألقى التهمة على بايزيد لكنه براء منها وأعلن السلطان بايزيد حدادًا رسميًا لمدة ثلاثة أيام ، كما صلى عليه صلاة الغائب. [2] وقد وصى جْم قبيل وفاته

---

[1] Solakzade Mehmed Hemdemi Celebi , Tarih , I , S . 364-384 ; Muneccimbasi ; Tarih , S . 372-380.

[2] Feridun Bey , Munseat , I , S . 294 ; Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , S. 40 .

بدفنه في الأراضي العثمانية فطلب السلطان بايزيد الثاني نقل جثمانه ، لكن البابا رفض وطلب المال مقابل الموافقة ، وبعد ضغوط السلطان السياسية التي مارسها وافق ملك نابولي على إرساله حيث وصل إلى الأراضي العثمانية في 905هـ / 1499م ونقل إلى بروسه ودفن بجانب أخيه مصطفى . [1] في وهذا أبلغ دليل على أنها مؤامرة من البابا لطمعه في المال .

ثالثاً : علاقته بمماليك مصر . قال :

" أما في آسيا فقد أمر على الجيش أحمد باشا ووجهه إلى تأديب مماليك مصر ولكنه هزمْ ... ولم يعقد الصلح بين الطرفين إلا عام 1491م ". [2]

لقد أورد هيوار الحدث دون ذكر أسباب أو خلفية عنه وهذا دأبه دائمًا ليس هو فقط بل أغلب المستشرقين ، حيث أورد الحدث ناقصًا حتى يصعب تحديد الحقيقة ، أما عن السب الرئيس لإرسال السلطان بايزيد الثاني للقوات على الرغم من أنه محب للسلام ويميل لحقن الدماء ، فقد حدث أن المماليك أرادوا أن تكون بلاد الشام خالصة لهم إضافة إلى الاستيلاء على منطقة جوقور أوفا في الأناضول . بالإضافة إلى عن أنهم كانوا غير راضين عن قيام الدولة العثمانية بخدمة الحرمين الشريفين لأنهم اعتبروا هذه الخدمة حكرًا لهم فقط ، وقد منعوا قبل ذلك محاولة السلطان محمد الفاتح ترميم طرق المياه في الحجاز ، كما فرضوا الضرائب على الحجاج الأتراك ، علمًا بأن العثمانيين طلبوا منهم الموافقة على القيام بخدمة الحرمين الشريفين دون أي مقابل ، حيث أن الأحواض والبرك وآبار المياه التي تقع على طول طريق قوافل الحج والتي يستقي منها الحجاج قد تعرضت للدمار والخراب ، فأرسل السلطان الفاتح سفيرًا إلى السلطان المملوكي يقترح تعمير وإصلاح هذه الأحواض والبرك وأوقف عليها أوقاف ، إلا أن المماليك اعتبروا هذا الأمر إساءة لهم ، وتدخلٌ في شؤونهم الداخلية ، فرفضوا هذا الطلب .

علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 269 .

[1] Ahmed Refik , Sultan Cem , Istanbul 1924 .

للمزيد حول صراع السلطان بايزيد مع أخيه جْم الرجوع إلى : صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : مرجع سابق ، ص81-83 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 267 – 269 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 234 – 237 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص74 ، 75 .

[2] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 330 .

وقد تصاعد التوتر بين الدولتين زمن السلطان بايزيد الثاني إثر قبول المماليك التجاء جْم لهم واستضافتهِ وتقديم المساعدة له ، كما حدث أن قام الشاه محمود بهمني الذي جلس على كرسي الإمبراطورية الهندية بإرسال سفير إلى السلطان بايزيد الثاني ، [3] لكن الوالي المملوكي في جدة ألقى القبض على السفير وأسره وصادر الأموال والهدايا التي كان يحملها معه إلى السلطان العثماني ، وعلى الرغم من أن السلطان المملوكي أمر بإرسال الهدايا إلى إستانبول في وقت متأخر ، إلا أن هذه الحادثة سببت في حدوث شرخ في العلاقة بين الدولتين ونشوب نزاع كبير بينهم حيث أدى ذلك إلى وقوع اشتباكات عسكرية بين الطرفين منذ عام 890هـ / 1485م واستمرت ست سنوات . [1]

وقد قامت القوات العثمانية لأول مرة بضم قلعة كوريك المملوكية [2]، ثم تم الصلح بين الطرفين عام 897 هـ / 1491م عندما قام السلطان بايزيد بإرسال رسول من قبلهِ للمماليك ، ومعه مفاتيح القلاع التي ضمها العثمانيين من الحدود المملوكية ، ولقد لقي هذا الأمر ترحيبًا من قبل السلطان المملوكي فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين ، وبذلك أسهمت تلك السياسة في عقد صلح بين الطرفين، حيث أُنهيت الحروب واستمر السلم حتى نهاية عهد السلطان بايزيد الثاني عام 918هـ / 1512م ، وأكد هذا الصلح حرص السلطان بايزيد الثاني على سياسة السلم مع المسلمين . [3]

أثناء الخلافات والحروب التي وقعت بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية، وصل إلى إستانبول سفير دولة بني الأحمر التي تأسست منذ زمن طويل في غرب أوروبا شبه الجزيرة الإيبرية " الأندلس " ، وكانت عاصمتها غرناطة ، وقد حمل السفير رسالة من آخر ملوك بني الأحمر أبو عبد الله محمد إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني ، يطلب منه العون والدعم . [4]

تضمنت الرسالة أن غرناطة التي تعد القلعة الإسلامية الأخيرة في غرب أوروبا على وشك السقوط ، وأن دولة بني الأحمر الإسلامية التي خدمت الحضارة الإسلامية قروناً طويلة وجعلت من عاصمتها غرناطة مركزًا للعلوم والفنون بحاجة ماسة إلى المساعدة ، وقد كتبت

---

[3] يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 189 . فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص58.

[1] Solakzade Mehmed Hemdemi Celebi , Tarih , I , S . 399 – 405 ; Ibn lysa , Bedaiu'z – Zuhur FiVekayi'd – Duhur , II , S . 221 – 270 .

[2] Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir ' at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 425 .

كويك Curlek بلده في الأناضول في ولاية أيدين لواء منتشه، علي أحد روافد نهر كيرنيس. س. موستراس:مرجع سابق، ص430

[3] Resat Ekrem , Osmanli Muahedeleri , S . 33 – 34 ;

هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص330 .

[4] عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 238 .

الرسالة باللغة العربية وعلى شكل أبيات شعرية بخط الشاعر أبي البقاء صالح بن شريف ، وهي بمثابة " رثاء للأندلس" ، فلبى السلطان بايزيد الثاني هذا الطلب وأرسل الأسطول البحري العثماني بقيادة كمال رئيس لمساعدة مسلمي بني الأحمر وإنقاذهم من مظالم الأسبان النصارى.[5]

وفي هذا الحدث دلالة واضحة على أن مكانة السلطان بايزيد الثاني في ارتفاع مستمر بين مسلمي العالم ، حيث أصبحت الدولة العثمانية محط أنظار المسلمين والمنقذ لهم من شرور النصرانية ، ولم يتأثر هذا الموقف بالمشاكل التي عانى منها السلطان بايزيد الثاني أثناء حكمهِ.

فسار القائد كمال رئيس صوب المنطقة وقام بضرب جزر مالطة وجربة وصقلية وساردونيا وكورسيكا حتى وصل إلى سواحل إيطاليا وإسبانيا ، وضرب جميع الموانئ الإسبانية بالمدافع وأشعل فيها النيران ومحى القواعد العسكرية المرابطة فيها ، كما قام أيضًا بإخراج الجنود إلى البرّ في بعض المناطق لكنه مع هذا لم يتمكن من الصمود كثيرًا لأن الحركة البحرية تحتاج إلى دعم ومساندة القوات البرية دائمًا ، وأن وصول القوات البرية العثمانية إلى الأندلس يستغرق وقتًا طويلاً ، فلم يكن ذلك ممكنًا وخاصة في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية منشغلة بمشاكل كثيرة [1]، منها مشكلة صراع جْم مع السلطان بايزيد الثاني والنزاع والخلاف مع المماليك ، وكانت النتيجة أن سقطت غرناطة على أيدي النصارى الأسبان في 897هـ / 1491م وأحرقت قصورها ومكتباتها .

رابعا : وصف فتوحاته بالتخريب ، وأنها سلسلة من الهزائم . فقال :

" تخلى بايزيد عن حصار بلغراد لتوالي انتصار المجر ، ثم وجه همه إلى ألبانيا فخرب ستيريا وكارنشيا وكارنيولا ، وهزم الترك بالقرب من قلانش ، وقتل قائدهم ... ثم حاق الانكسار بالمجر بعد ذلك عند " أبدره " غزا السلطان مودوني ونافارينو وكورون ولكنه فشل في الاستيلاء على نوبليا وتحالف البنادقة مع البابا والمجر ، واجتاحوا الأرخبيل بمساعدة الأسطولين الفرنسي والإسباني ، وهددوا الجزائر وسقطت سانتا موره في يد الحلفاء ، غير أنها أعيدت إلى العثمانيين عندما تم عقد الصلح ". [2]

---

[5] Ziya Pasa , Endulus Tarihi , I – II , S .357 ; Katip Celebi , Takvimu't – Tevarih , Istanbul 1146 .

[1] Ali Riza Seyfi , Kemal Reis ve Baba Oruc, Istanbul 1325 .

[2] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، ج3 ، ص 330 .

في البداية ترجع قلة الفتوحات في عهد السلطان بايزيد إلى ميلهِ للسلم وحقن دماء المسلمين ، وتفضيله لحياة العلم والورع والتقى وليس لضعف في شخصيته أو عدم قدرتهِ العسكرية والحربية . وإنما يرجع ذلك إلى أنه استلم حكمًا مستقرًا واتسع الأرجاء من والده محمد الفاتح فطبيعي أن يتجه إلى السلم حتى تأخذ بلاده فترة استقرار وتثبيت هذه الانتصارات التي قام بها والده .

وكل ما في الأمر قامت بعض الدول الأوروبية المجاورة باستغلال الوضع الناتج من مشكلة جُم فنظمت غارات عسكرية على الأراضي العثمانية ، فقام السلطان بايزيد الثاني بتجهيز حملة عسكرية في ربيع الأول 888هـ / 1483م متجهًا لبلاد الصرب عن طريق أدرنه ، حيث وصل بقرب بلغراد ، وأثناء مسيرهُ قام بترميم وتحكيم جميع القلاع الواقعة في هذه المنطقة ، وعلى الرغم من عدم وقوع قتال عنيف في هذه الحملة التي استمرت سبعة شهور ، إلا أنها سببت في ارتباط هذه المناطق بالإدارة العثمانية ، كما أدت هذه الحملة إلى ازدياد مخاوف وقلق المجر، فأسرع ملكها ماثياس الذي لم يجرأ على خوض الحرب بإبرام معاهدة الصلح مع العثمانيين [1] في نهاية سنة 888هـ / 1483م ، كما جددت معاهدة الصلح التي كانت قد أبرمت سابقًا مع جمهورية البندقية ، وبهذا حقق السلطان بايزيد سلامة الدولة العثمانية في البلقان .

ثم قام الجيش العثماني بفتح قلعة بُغدان " ملدافيا " Bogndan بوغدان الواقعة على البحر الأسود في عام 889هـ / 1484م ، كما قام أيضًا بفتح قلعتي كيلي واكرمان الواقعتين على البحر الأسود ، وكان فتح هاتين القلعتين حدث مهم في التاريخين العثماني والأوروبي ، وقد أرسل ملوك العديد من الدول سفراء لتهنئة السلطان مثل ملك المجر وسلطان مصر وشاه الهند . [2]

بعد أن قام السلطان بايزيد الثاني بعقد معاهدة الصلح مع المماليك ، جهز حملته العسكرية الثالثة مستهدفًا فتح بلغراد ، وقد عين سليمان باشا لهذه المهمة ، ثم سار نحو ألبانيا حيث استطاع أن يفتح بعض القلاع التي كانت في حوزة البنادقة ، [3] وقد استمرت هذه الحملة ثلاثة شهور .

---

[1] Resat Ekrem , Osmanli Muahedeleri , S. 32 .

[2] Hoca Sadeddin Efendi , Tacu't – Tevarih , S . 43 ; Hadidi – I AL – I Osman , S. 314 ; Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 424 .

[3] Solakzade Mehmed Hemdemi Celebi , Tarih , I , S . 411 – 412 .

لقد بدأت العلاقات العثمانية الروسية لأول مرة على عهد السلطان بايزيد الثاني ، حيث تمت اللقاءات بين سفراء القيصر الروسي إيفان الثالث والأمراء العثمانيين [4] ، وكان القيصر الروسي يرغب في قيام التجار الروس بممارسة الأعمال التجارية في الأراضي العثمانية ، فكتب رسالة إلى السلطان في عام 900هـ / 1492م تضمنت العبارة الآتية :

" إن أباكم محمد الثاني كان حاكماً عظيماً ، ويبدو أنه كان يرغب في إرسال سفير إلينا ، ولكن لم يتحقق ذلك ، فلماذا لا نشاهد هذه الإجراءات في الوقت الحاضر ؟ ننتظر إجابتكم " .

ثم وصل أول سفير روسي إلى استانبول عقب هذه الرسالة بثلاثة سنوات ، وهو ميخائيل بلسجيف [1] ، لكنه طرد من استانبول بعد فترة قصيرة نظرًا لسلوكه غير اللائق الذي لا يتناسب مع الآداب الدبلوماسية ، وقد بعث السلطان بهذا الخصوص رسالة عن طريق خان القرم منجلي جيراي ، جاء فيها ما يلي :

" إن السفير المرسل إلينا بعيد عن الآداب ، وسلوكه لا يتناسب مع صداقة القيصر الروسي ، لذلك طردناه وكذلك لا نرغب في إرسال سفير من طرفنا إليكم" وبناء على ذلك قام القيصر بإرسال سفير آخر إلى استانبول عام 905هـ/1499م ، كما طلب السماح للتجار الروس في الدخول إلى الأراضي العثمانية وممارسة أنشطتهم التجارية فيها . [2]

وشهد عهد السلطان بايزيد الثاني – أيضًا – بداية ظهور وتأسيس الدولة الصفوية الشيعية في بلاد فارس ، فالدولة الصفوية الشيعية التي أسسها الشاه إسماعيل في بلاد فارس[3] عام 907هـ / 1501م شكلت خطرًا كبيرًا على المسلمين والدولة العثمانية بالأخص ؛ وذلك للاختلاف المذهبي والنشاط الشيعي في الأراضي العثمانية .

وقد قام الشاه إسماعيل بالاستيلاء على العراق ونشر المذهب الشيعي فيها إضافة إلى قتل أهل السنة ، كما قام بإرسال الجواسيس إلى الأناضول لنشر المذهب الشيعي ، فبعث إليه السلطان بايزيد الثاني سفيرًا يطلب منه الابتعاد عن الأفكار المعادية والمضادة للإسلام والتخلي عن ظلم الأهالي ، ولكن الشاه قام بإعدام بعض علماء السنة أمام أعين السفير

---

[4] إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار في أعالي البحار ، ج1 ، ص 524 . شكيب أرسلان ، مصدر سابق ، ص 117 .

[1] محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 270 .

[2] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , I , Istanbul 1999 , S . 499 .

[3] Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 433-434 .

العثماني مما أدى إلى غضب السلطان بايزيد الثاني ، ومن جهة أخرى كان الشاه إسماعيل يقوم بالتحالف مع بعض الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية ؛ يستهدف من وراء ذلك إسقاط الدولة العثمانية والاستيلاء على الأناضول .

وأرسل الشاه جيشاً إلى الأناضول بقيادة أخيه إبراهيم مرزا للاستيلاء على بعض المناطق ، فالتقى بالجيش العثماني بقيادة سليم بن السلطان بايزيد الثاني بالقرب من أرزنجان ، وفي نهاية المعركة هُزم الجيش الصفوي وأسر قائده .[1]

وكان هذا الاحتكاك بداية للسلطان سليم الأول لمعرفة مدى الخطر الشيعي المحيق بالدولة العثمانية .

ولنا وقفة هنا من تاريخ السلطان بايزيد الثاني وهي موقفه من هجرة اليهود الفارين من ظلم الأسبان إلى أراضي الدولة العثمانية .

لقد أدت سياسة السلم التي اتبعها السلطان بايزيد الثاني إلى السماح لليهود بالهجرة إلى الدولة العثمانية بدون قيد أو شرط حيث أعطاهم الحرية التامة ، واستوطن قسم منهم في جزيرة ساقيز [2] ، وقد منحت سياسة السلطان هذه أملاً جديدًا للسفاردية الأسبانية (اليهود الذين طردوا من إسبانيا) في العيش بأمان في أراضي الدولة العثمانية ، حيث أمر السلطان بايزيد الثاني ولاة الأقاليم العثمانية بالسماح لليهود في الدخول إلى أراضيهم وإبداء التسهيلات لهم.[3]

خامساً :التحدث في مسألة نزاع أبناءه على العرش دون ذكر الأحداث بشكل سليم .

" قامت الفتن الداخلية في وجه بايزيد إلى جانب مشاغله في الخارج . وسبب ذلك أن إبنه سليماً أستاء من أن والده قد عقد البيعة لأخيه أحمد فترك منصبهِ في آسيا وحارب أباه بمساعدة الانكشارية إلا أن الدائرة دارت عليه .. فأحتمى بحمية خان القريم . وعلا نجمه في السنة التالية وذهب إلى القسطنطينية ثم تمكن بفضل الجيش من إجبار والده على التنازل عن العرش " [4]

---

[1] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , I , Istanbul 1999 , S . 476 .

[2] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1 ، ص 164 .

[3] أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 28 .

[4] هيوار : مادة السلطان بايزيد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 330 .

صحيح أن هيوار قد تناول الحدث صحيحًا لكن بصورة مخالفة قليلاً للواقع التاريخي ، ودون ذكر للأسباب الحقيقية لهذا التنازل .

والحقيقة هو أن فترة السلم الطويلة التي عاشتها الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد ، جعلت الانكشارية – وهم الذين تعودوا على الفتوحات لنشر الإسلام – يتحينون الفرصة للخروج من هذا الركود ، والرجوع إلى حياة المعارك والفتوحات كما في عهد السلطان محمد الفاتح .

فواتتهم الفرصة عندما لمسوا الحماس في الأمير سليم الأول ، وأدركوا أنه الورقة الرابحة في الفتوحات والجهاد الإسلامي ، لذلك اتجهوا بثقلهم لمساندته ، والعمل على توليه السلطة ، ولم يتأت ذلك لهم إلا بنقطة مهمة جداً ، وهي أن السلطان بايزيد نفسه قد عاف الحكم والسياسة ، نتيجة لفقدهِ لابنه ، ولاشتداد المرض عليه ، وعجزهِ عن الحركة ، ففضل التنازل عن العرش لابنه سليم حقنًا لدماء يجب أن لا تهدر، بالإضافة إلى أنه يعرف أن الانكشارية ستكسب المعركة لأنها لعبت معه هذا الدور قبل ذلك . كان للسلطان بايزيد الثاني ثمانية أبناء ، توفي خمسة منهم وهم صغار السن، وبقي ثلاثة وهم أحمد وقورقود وسليم ، و كانوا مختلفي الأهواء ، فخشي والدهم من وقوع فتنة فيما بينهم ، فعمل على تفريقهم ، فعين أبناءه الثلاثة ولاة على ثلاث مقاطعات مختلفة وبعيدة عن العاصمة استانبول ؛ لأنه كان يعرف الخلافات الموجودة بينهم وتنافسهم على العرش ، فعين أحمد على أماسيا [1]، و قرقودًا على مغنسيا [2] ، وسليمًا على طرابزون [3].

كان أحمد شخصية متزنة يحبها الأعيان وكبار رجال الدولة ، إضافة إلى أنه أكبر الأبناء فعينه وليًا للعهد ، أما قورقود فقد كان ميالاً للعلم ومجالسة العلماء ومحبًا للآداب ، فلم يتقرب منه الجند ، وسليم فقد كان يمتلك صفات المحارب المتحمس ، فمال بشدة نحو الفتوحات الإسلامية ، وهذا ما جعل الجند تميل إليه وخاصة الانكشارية .

---

[1] أماسيا : Amassia مدينة في الأناضول تقع على نهر بشيل إرماق ، في ولاية سيواس . س . موستراس : مرجع سابق ، ص104 .

[2] مغنسيا : Manissa مدينة في الأناضول مركز لواء صاروخان في ولاية أيدين ، تقع عند سفح جبل مغنسيا طاغ ، وعلى الصفحة اليسرى لنهر كدوس جابي . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 466 .

[3] طرابزون : Trabizaun مدينة في الأناضول مركز الولاية نفسه ، تقع على البحر الأسود ، وهي مركز تجاري مهم ، فتحها السلطان محمد الفاتح عام 865هـ / 1460م . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 346 .

وقد أصيب السلطان بايزيد الثاني بمرض شديد في أواخر حياته فضعفت قوته وعجز عن إدارة الدولة خاصة بعد وفاة ابنه شاهنشاه ، وخشية من حصول الشقاق بين أبنائه أحضر علي باشا الخادم والي مورا وفوض إليه أمر الدولة ، ولما طال المرض بالسلطان أراد اتخاذ ابنه الأكبر أحمد وليًا للعهد فوافقه الوزراء على ذلك [1] ، فأرسل له لكي يبقى بالقرب منه إذا ما وافاه الأجل المحتوم ، فأغضب ذلك ابنيه الآخرين ، فسافر الابن الأوسط قورقود إلى مصر مظهرًا أنه يريد تأدية فريضة الحج عن طريق مصر ، فقابله السلطان المملوكي بالإعزاز والإكرام ، ولكنه عاد وندم على تهورهِ وقدّم لوالده الاعتذار وطلب منه العفو ، فعفا عنه السلطان وأعاده على رأس ولايته . [2]

أما الابن الأصغر سليم فقد طلب من والده تعيينه في إحدى الولايات الأوروبية ليكون قريبًا من إستانبول ، فلم يقبل السلطان ذلك وأصرّ على بقائه في طرابزون فقام سليم بالتمرد على والده وجهزّ جيشاً واتجه صوب إستانبول ، فأرسل السلطان – أيضًا – جيشاً لإيقافه ، ولما وجد بأن ابنه مُصرٌّ على الحرب وافق على طلبه حقنًا للدماء ، فعينه واليًا على سمندرة وفيدين عام 917هـ/1511م ، وعندما سمع قورقود هذا الخبر انتقل إلى ولاية صاروخان واستلم إدارتها دون علم والده ليكون هو الآخر قريبًا من إستانبول ، ومن جهة أخرى توجه سليم نحو أدرنه وأعلن نفسه سلطاناً عليها ، فأرسل السلطان جيشاً وهزمه واضطره إلى الفرار إلى بلاد القرم ، كما أرسل السلطان جيشاً آخر لتأديب قورقود فهزمه أيضًا .

ولكن السلطان اضطر إلى العفو عن ابنه سليم تحت تأثير قادة الجيش الانكشاري الذين كانوا يحبون سليمًا لمهارته في القتال وفنون الحرب ، وأنه أثبت جدارته الحربية في انتصاره على الجيش الصفوي عندما كان واليًا على طرابزون. [3] ، فوافق السلطان على ذهابه مرة أخرى إلى سمندرة ليكون واليًا عليها، وعندما توجه سليم – وهو لم ينس أمر السلطنة خاصة مع إزدياد الخطر الشيعي – إلى سمندرة استقبله أركان الجيش الانكشاري في الطريق ، وأتوا به إلى استانبول باحتفال ضخم وساروا به إلى القصر الهمايوني ، حيث طلبوا من السلطان بايزيد الثاني التخلي عن العرش لابنه سليم ، وقد صادف ذلك هوى في

---

[1] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 504 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 127 . علي إبراهيم البويتجي الشافعي : سلوك سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد يشتمل على تاريخ سلاطين آل عثمان ، محفوظة في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم 675 تاريخ ، ورقة 23 . أماني جعفر الغازي ، مرجع سابق ، ص 193 .

[2] إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 76 .

[3] يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 210 .

نفس السلطان بايزيد حيث أنه كان قد ملَّ حياة الحكم والسياسة ويرنو بعينيه لحياة الراحة والسلم فتنازل عن السلطنة في عام 918هـ / 1512م . [4]

توفي السلطان بايزيد الثاني في عام 918هـ / 1512م إثر مرضه الشديد عن عمر يناهز 62 عامًا ، بعد أن تنازل عن الحكم لابنه سليم وانسحب من الحياة السياسية للإقامة في بلدة ديموتيقا في ولاية أدرنه ، ولكنه توفي في الطريق ، ونقل جثمانه إلى استانبول حيث دفن في فناء مسجده المعروف باسمه . [1]

لقد ظهرت مادة السلطان سليم الأول في نسختين من دائرة المعارف الإسلامية على يد كرامرز [2] ، لكن لم تكن هناك أي فروق بين المادتين ، ولم يتم التعليق في النسخة الجديدة ، أو حتى تصحيح بعض المعلومات الخاطئة .

ارتكزت المادة على صراع سليم الأول مع الصفويين والمماليك ، ولم تذكر دورهِ في التصدي للصراع البرتغالي أو في الدفاع عن المذهب السني في الدولة العثمانية ، وتصوير حربهِ مع الصفويين على أنها صراع سعيًا للسلطة فقط.

وعلى الرغم من طول المادة بالمقارنة مع الفترة الزمنية التي تولي فيها سليم الأول الدولة العثمانية ، إلا أنها لم تأتِ بجديد بل كررت وأعادت الحديث عن علاقتهِ بالصفويين والمماليك . [3]

وفيما يلي النقاط الرئيسة التي دارت حولها المادة :

أولاً :عرض صورة الأحداث التي جرت عقب توليه العرش بشكل أقرب إلى الصحة ، لكن دون ذكر الحقيقة كاملة ودون الاعتماد على مصادر موثوقة . [4] والملاحظ أن كرامرز استغل فرصة إغفال أغلب المصادر والمراجع العربية والتركية عن هذه الفترة الحرجة ، وبث السم في المعلومات التي ذكرها ، ولأن معلوماته هي الوحيدة في هذا الصدد فقد اعتمد عليها الباحثون بعد ذلك .

---

[4] إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار في أعالي البحار : ج3 ، ص 331 . محمد فريد المحامي ، مصدر سابق ، ص186-187.

[1] Hadidi , Tevarih – I Al – I Osman , S . 374 ;

ربيع عبد الرؤوف الزواوي ، مرجع سابق ، ص 62 .

[2] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 121 .

[3] كرامرز : مادة سليم الأول ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج18 ، ص 570 .

[4] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 122 .

ثانيًا : تصوير حربه مع الدولة الصفوية وكأنها سعي لفرض الذات ، وأن السبب الرئيس لها هو أن العلاقات الودية سادت مع البندقية والمجر وروسيا ، فلم تجد نزعة سليم الحربية متنفسًا لها إلا في الشرق . [5]

وتكرر هذا المعنى – أيضًا – في مادة الترك حيث قدمها كرامرز أيضًا ، فأوضح أنها كانت لمقاومة المذهب الشيعي داخل آسيا الصغرى ، وامتدت لتشمل أمم أخرى – في نظرهم– لأنه بفضل هذه الحرب ضم سليم الأول مناطق جديدة. [1]

ثالثًا :التحدث عن فتوحاته وخاصة ضم إمارة ذي القادر . [2]

رابعًا : لم يذكر كرامرز أسباب ضم السلطان سليم الأول لمصر والشام ، ولكن سرد الأحداث بطريقة توضح أنه مجرد استعراض قوة من السلطان سليم الأول.[3]

خامسًا :اتخاذه للقب خليفة والرواية التي دارت حول هذا الأمر . [4]

والسلطان سليم الأول هو السلطان التاسع للدولة العثمانية ، وابن السلطان بايزيد الثاني. ولد في 875هـ / 1470م في أماسيا [5] ، وقد أرسله والده إلى إستانبول منذ صباه فنشأ على يد جده السلطان محمد الفاتح ، تلقى دروسًا في القرآن الكريم والتفسير والحديث النبوي الشريف ، كما تدرب على فنون القتال والمصارعة والفروسية واستخدام السيف ، وتعلم اللغتين العربية والفارسية وكان يحب العلماء والأولياء ويحضر جلساتهم وحلقاتهم ، وكتب أشعارًا باللغتين العربية والفارسية ، وعين في شبابه واليًا على طرابزون حيث تعلم هناك إدارة الدولة وفنون الحرب، كما أقام علاقات مع الدول المجاورة على البحر الأسود ، وقام بثلاث حملات عسكرية على جورجيا التي كانت تزعج أهالي طرابزون باستمرار، ففتح قارص[6]وأرضروم [7] وارتوين [8] عام 914هـ / 1508م ، وكان نتيجة هذه الفتوحات أن

---

[5] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 122 .

[1] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص 172 .

[2] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص123 ، 124 .

[3] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 124 ، 125 .

[4] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 127 ، 128 .

[5] Mehmed Sureyya , Sicil – I Osmani , I , Istanbul 1308 – 1311 , S. 38 ; Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kinat , I Kinat , II , Istanbul 1290 , S . 103 – 122 .

[6] قارص : Kars " كورسه " مدينة حصينة في الأناضول على نهر يحمل نفس الإسم ، ومركز اللواء نفسهِ ، في ولاية أرضروم احتلها الروس أثناء حرب 1244هـ – 1246هـ / 1828م – 1829م ، ثم حاصروها ثانية عام 1270هـ / 1853م . ولم تستسلم إلا بعد مقاومة مستميتة .

س . موستراس : مرجع سابق ، ص 380 ، ص 381 .

أسلم جميع أهالي تلك المناطق ، ثم قام سليم بشن حملة على الجيش الصفوي حيث سجل انتصارًا عظيمًا بالقرب من أرزنجان . [1]

وقد ارتقى سليم على عرش الدولة العثمانية بعد تنازل والده السلطان بايزيد الثاني عن الحكم في سنة 918هـ / 1512م [2] ، أرسل كلٌّ من حكام البندقية والمجر وكذلك السلطان المملوكي وقيصر روسيا سفراء لتهنئة السلطان الجديد ، وقد أبرم السلطان مع ممثلي هذه الدول هدنة طويلة الأمد ليتمكن من التفرغ لمحاربة الصفويين . [3]

ونأتي إلى تفصيل ما سبق :

أولاً : الأحداث التي جرت عقب توليه العرش . فقال :

" استنفذ سليم السنة الأولى من حكمه في استئصال شأفة أخويه وأولادهما.. أعدم خمسة من أولاد إخوته ، ... وقبض على قورقود ... وقتله ، وكان هذا هو المصير نفسه الذي لقيه أحمد. " [4]

ولا تستطيع الدراسة إنكار أن ما حدث في هذه الفترة كان حقيقيًا ، في ظل غياب المصادر التي تنفي ذلك ، لكن ما تحب الدراسة أن تضيفهُ هو أن الأمير أحمد قتل على مشارف بروسه دون تدبير من سليم الأول ، وإنما من أحد الجنود الذين حاولوا التقرب من السلطان بالقضاء على أحد محاربيه .

أما الأمير قورقود فقد خاف عاقبة أعماله وخشي غضب السلطان ، فتنكر في زي مختلف عن زيه ، إلا أن أحد أفراد قبائل التركمان اكتشفهُ وتم قتله من قبلهم ، إن هذه الأحداث تركت أثرًا عظيمًا في قلب السلطان ، وقد قال في ذلك : " إن الذين ابتدعوا هذه

---

[7] أرضروم : Erzeroum مدينة في الأناضول مركز ولاية ولواء يحملان الاسم نفسه تقع على سفح جبل غير بعيد عن نهر الفرات ، فتحها العثمانيون عام 914هـ / 1508م .

س. موستراس : مرجع سابق ، ص 44 ، 45 .

[8] أرتوين : Artwin : تقع في الأناضول ، في ولاية أرضروم ، لواء جلدر ، على نهر جورك صو .

س . موستراس : مرجع سابق ، ص 39 .

[1] Latifi , Tezkire , Istanbul 1314 , S . 56 – 86 ; Yavuz Sultan Selim , Divan , Terceme : Ali Nihad Tarlan , Istanbul 1946 .

[2] لقد سبق وأن تم عرض المعلومات التي أوضحت كيفية اعتلاء العرش في مادة السلطان بايزيد الثاني .

[3] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 188 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 79 .

[4] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 122 .

البدعة في أنجالنا بعيدين عن رحمة الحق " ، وحصل قاتلو الأميرين أحمد وقورقود على جزاءهم وعقابهم . [5]

ثم أن كرامرز لم يورد وثيقة أو مصدرًا موثوقًا منه يؤكد هذه الأعمال الإجرامية ، بل تغنى بها دون سند تاريخي .

ثانيًا :علاقتهُ بالدولة الصفوية ، والصدام بينهم وأسبابه . فقال :

" احتفظت الدولة العثمانية بعلاقاتها الودية مع البندقية والمجر وروسيا نتيجة للمفاوضات التي قام بها المبعوثون الذين أنفذتهم هذه الدول إلى الآستانة ، ووجدت نزعة سليم الحربية متنفسًا لها في الشرق ... وأخذ سليم مدفوعًا بكراهية لإسماعيل أو بغيرته على المذهب السني في اضطهاد الشيعة في دولته اضطهادًا ، كان مجموع من قتلهم أو ألقى بهم في غياهب السجون أربعين ألفًا حسبما أجمعت عليه المصادر التركية ، ولم يكن بد من وقوع الحرب بين الطرفين بعد هذا ". [1]

في البداية لابد من التعرف على خلفية اتجاه السلطان سليم الأول لمحاربة الدولة الصفوية [2] ، حيث بدأ الشاه إسماعيل الصفوي في تقوية نفوذه في شيروان [3] والعراق وكردستان وبلاد ما وراء النهر ، وساعده في ذلك كثير من الحظ ، ثم بدأ في جمع القبائل التركمانية حولهُ ، فحظي بينهم بالتعظيم والتقديس ، وأخذ يبث الدعاة لنشر المذهب الشيعي في الأرجاء التركمانية المجاورة للدولة العثمانية ذات المذهب السني ، وحاول فرض المذهب الشيعي بقسوة وعنف حيث قتل كثير من أهل السنة في المنطقة ، مما أثار حفيظة السكان من السنة وأدى إلى إثارة الدولة العثمانية التي اعتبرت هذا العمل جهدًا سياسيًا منظمًا موجهًا ضدها .

---

[5] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 208 .

[1] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 122 ، 123 .

[2] الصفويين : ينسب الصفويين إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي ، الجد الأكبر للشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية ، التف حوله عدد من المريدين الذين استطاعوا نشر دعوتهِ ليس في إيران فقط وإنما في بعض أقاليم الدولة العثمانية ، وجاء إسماعيل الصفوي ليجعل الشيعية مذهبًا رئيسًا لدولتهِ وفرضه بالقوة وقضى على معارضيه بعنف وقسوة . علي محمد الصلابي ، مرجع سابق ، ص 293 ، 294 .

[3] شيروان : تقع في المنطقة الشمالية الغربية من إيران المتاخمة لأراضي السوفييت حاليًا ، محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص189 .

وقد استخدم إسماعيل الصفوي الأسلوب القسري في إرغام الأهالي على اعتناق المذهب الشيعي من قتل وسجن وتعذيب ، مما شكل ضده جبهة معارضة من السكان ، ولعب علماء أهل السنة دورًا بارزًا في المعارضة ضد إسماعيل الصفوي .

ومن هنا كان لابد أن تظهر بوادر الصراع بين الطرفين خاصة وأن انتشار المذهب الشيعي يعد تحديًا للسلطة الدينية الإسلامية السنية العثمانية ، بالإضافة إلى تحريض الشيعة القاطنين في الأناضول على التمرد ضد السلطان العثماني ، وأخيرًا توجه الصفويين لاحتلال بغداد وجنوب غرب إيران 914هـ / 1508م حيث أقام الشاه إسماعيل مذابح للسنة واسعة النطاق ، وهدم مساجدهم ومزاراتهم ، ولم يتعرض لليهود مطلقًا ، ولكن كل قسوتهِ وجهت نحو أهالي السنة .

وآخر الأسباب التي جعلت وقوع الحرب بينهم حادثة لا محالة ، هو التحالف بين الصفويين والبرتغاليين الذين احتلوا هرمز 913هـ / 1507م ، وهذا السبب جعل المماليك يبتعدون عن محالفة إسماعيل ضد العثمانيين وتوجهوا للتحالف مع السلطان سليم الأول عام 919هـ / 1513م ، خاصة وأن الشاه إسماعيل الصفوي بدأ في نشر مذهبهِ الشيعي في أملاكهم في بلاد الشام والحجاز ، لذلك بدأ السلطان سليم الأول في تركيز كل قواتهِ على جبهة القتال ضد إسماعيل بعد أن أطمأن إلى موقف المماليك . [1]

ومن أهم النقاط التي يجب التنويه إليها أن السلطان سليم الأول كان مدركًا تمامًا لنوايا دعاة الشيعة ، وحساسًا جدًا من ناحيتهم منذ أن كان واليًا على طرابزون في عهد والده السلطان بايزيد الثاني ، وهي منطقة نفوذ عثماني ، لكن تدخلت فيها أيدي الشيعة الصفويين حتى في بلاطه ، وقد وقف بنفسهِ على حركة الشاه إسماعيل الصفوي في الأناضول وأرزنجان ، والذي كان يرسل عملاءهِ إلى كل طرف منها ، وعرفوا باسم " الخلفاء " ، ثم لم يلبث أن تطور الأمر وقامت جماعة منهم بتمرد عنيف في أنطاكيا العثمانية بناءً على أوامر الشاه إسماعيل الصفوي ، وقاد هذا التمرد شخص عُرف باسم شاه قولو " أي عبد الشاه " ، وكان تمردًا رهيبًا استخدم فيه العثمانيون كل قوتهم لإخمادهِ ، وذلك بسبب وصول الدعم الخارجي باستمرار لشاه قولو ، وانتهت الحركة بإعدام عبد الشاه ، ويعد هذا التمرد الشيعي

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 189 ، 190 . عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 206 . محمد سهيل طقوش: مرجع سابق ، ص 134 ، 135 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 80 ، 81 . عبد الفتاح أبو عليه : الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير ، د. ط ، الرياض : دار المريخ ، 1429هـ ، ص140 ، 141 . أنظر الخريطة في الملحق .

بدء مرحلةٍ مهمة في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ بدأ السلطان بايزيد بعدها في معالجة الموقف بمرونة وحنكة سياسية ، خاصة أنه أمام فرقة دينية ذات عصبية عمياء وقوة حربية نامية ، وأرسل إلى الشاه إسماعيل الصفوي يحثهُ على عدم إرسال عملائه وإثارة التمردات ثانية ، لكن بالطبع ضرب إسماعيل الصفوي بهذه النصائح عرض الحائط ، وقد تلكأ السلطان بايزيد في حل هذا الأمر حبًا في السلم وحقنًا لدماء المسلمين ، مما جعل أنظار الجيش والشعب العثماني تتجه لابنه سليم الأول خاصة وقد عُرف عنه أنه عدو للشيعية ومناهض لها ، لذلك عندما تولى سليم الأول العرش بدأ في تنفيذ خطتهِ الرامية إلى تقليص نفوذ الصفويين ، وإعداد العدة لذلك ، فلا غزو ولا جهاد في أوروبا طالما أن الدولة الصفوية تنمو وتكبر ، ومن هنا جاء الهدف الاستراتيجي لعصر سليم الأول وهو القضاء على الدولة الصفوية والنفوذ الشيعي في الأناضول . [1]

وقد أرسل السلطان سليم الأول عدة رسائل إلى الشاه إسماعيل الصفوي يطلب منه الكفّ عن أعماله الهدامة ضد أهل السنة وترك الفتنة والتوبة [2]، ولكن الشاه لم يهتم بمطالب السلطان [3] ، فجهز سليم الأول جيشًا كبيرًا وسار على رأسه صوب الأناضول في 920هـ / 1514م لملاقاة الشاه ، وقد أرسل السلطان رسالة إلى الشاه يخبره فيها ببداية الحرب ويدعوه إلى ميدان القتال ، وبعد مسير أربعة شهور وصل الجيش العثماني بقيادة سليم الأول إلى وادي جالديران ، حيث كانت حشود الجيش الصفوي بقيادة إسماعيل الصفوي قد تجمعت في الجانب الآخر من الوادي ، وقدر عدد الجيش العثماني ما بين 120.000 –140.000 مقاتل ، وقد بدأت الاشتباكات الأولى بين الجيشين ، حيث سقط الشاه إسماعيل على الأرض وأصيب بجروح ، مما اضطره إلى الهروب صوب تبريز ومنها إلى المناطق البعيدة في إيران. [4]

---

[1] محمود حسن الصراف : معركة جالداران 920هـ / 1514م أولى صفحات الصراع العثماني الفارسي الأسباب والنتائج ، د.ط، مصر : مكتبة النهضة المصرية ، 1991م ، ص ص 23 – 27 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص29 ، 29 .

S.Tekindag : Sah kulu Baba Tekeli Tsyani , BTTD Belgelerle Turk Tarih Dergisi , 1/3 , 1967 , P. 34-39. 1/4 1968 , P . 54 – 59 .

[2] لمزيد من تفاصيل الرسائل المتبادلة الرجوع إلى علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 296–300 . محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص 70–86 .

[3] Feridum Bey ; Munseat , I , S . 374 .

[4] Hoca Sa ' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih II , S. 245 – 270 ; Lutfu Pasa , Tevarih – i Al – i Osman , S. 221 – 228 ; Solakzade , Tarih , S . 359 – 366 ; Muneccimbasi , Sahaifu'l – Ahbar , III , S . 451 – 454.

وعلى إثر ذلك سجل الجيش العثماني انتصارًا عظيمًا في هذه المعركة ، وحصل على غنائم كثيرة بما في ذلك خزائن الشاه إسماعيل التي ما زالت تحفظ في متحف طوب قابي سراي بإستانبول ، ثم توجه السلطان مع جيشه إلى العاصمة الصفوية تبريز. حيث دخلها بدون مقاومة وقام بأداء صلاة الجمعة في الجامع الكبير ، وقد قام السلطان بإرسال المئات من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين الذين تجمعوا في تبريز إلى إستانبول ، [1] ثم بدأ بترميم بعض المساجد في تبريز ، كما قام بإعلام انتصاره على الصفويين إلى كل دول العالم ، ثم عاد إلى إستانبول مع جيشه .

ومن أهم نتائج معركة جالديران هو دخول منطقة شرق الأناضول تحت الحكم العثماني ، كما كانت هذه المعركة خطوة مهمة في تحقيق وحدة الأناضول ، حيث بدأ السلطان سليم الأول بتطهير هذه المناطق من المعتقدات الفاسدة التي دخلت مع الصفويين حاولت إفساد العالم الإسلامي ، وبعد أن عاد السلطان إلى إستانبول بعث إليه الشاه إسماعيل سفيرًا يطلب منه الصلح ، فلم يجب السلطان على طلبه . [2] حقيقة لم تكن معركة جالديران حاسمة ولكنها أدبت الفرس وحدّت من انتشار مذهبهم في أرجاء العالم الإسلامي .

ثالثًا :الفتوحات التي قام سليم الأول بها ، وضم إمارة ذي القدر . فقال :

" هزم سنان باشا جيش ذي القدر ، وقتل علاء الدولة وقبض على أولادهِ الأربعة وقتلوا ، وكان فتح بلاد ذي القدر ، بما فيها حصن البستان ومرعش ، من الأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب بين سليم الأول والمماليك ". [3]

---

[1] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في أعالي البحار ، ج1 ، ص 527 .

Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih II , S. 268 ; Feridun Bey , Munseat , I , S. 41 .

[2] Hoca Sa deddin Efendi , Tacu't – Tevarih II , S . 323 .

لمزيد من التفاصيل عن حرب جالديران الرجوع إلى التالي : عبدالرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 208 ، ص 215 .

J.L.Bacque – Grammont : XVI , Yuzyilin ilk Yailsin da Osmanli lar ve Safeviler , Prof . Dr . Bekir Kotak Ogluna Armagan , Istanbul 1991 , S . 205 – 219 .

وانظر :

H.Sohrweide : Der Sieg der Saferiden in Persien und Seine Ruckwirkungen auf die Sehiiten Anatoliens in 16 . Jahrhundert , Der Islam , 41 . 1965 , P. 95 – 223 .

S. Tekindag : Yeni Kaynak ve vesikalarin Isigl Albinda Yauaz Sultan Selim in Iran Seferi , TD , XXII, 1968 , S , Ug- 78 .

H.inakik : Turkler (Osmanlilar) , Islam Ansklopedisi , XII , / 1 , S . 300-301 .

انظر أيضاً :

F.Demirtas (Sumer) : Bo2 – ulus Hakkirda , AUDTCFD , VII , 110 , 1949 , P. 29-60 .

[3] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 123 ، 124 .

إن مسألة ضم إمارة ذي القدر لم تكن بهذه القسوة والبشاعة ، لقد جاء ضمها ضرورة حتمية وذلك لأجل تأمين سلامة وأمن الحدود الشرقية والجنوبية للدولة العثمانية ، قام السلطان سليم الأول بتجهيز حملة عسكرية لضم باقي القلاع في الأناضول وآسيا الصغرى ، ثم توجه إلى الأراضي التابعة إلى إدارة ذي القدر وضمها له ، وذلك لعدة أسباب ؛ أهمها أن حاكم ذي القدر وهو ذو القدر أوغلي علاء الدولة بك كان يقوم بعدةِ تحركات مقلقة ومزعجة ضد الدولة العثمانية خاصة أثناء حرب سليم الأول مع الصفويين ، قد وقف علاء الدين حاكمها موقفاً معاديًا من العثمانيين بإيعاز من السلطان الغوري ، كما رفض تقديم المعونة أثناء مسيره إلى حرب الشاه إسماعيل ، فعدّ سليم الأول هذا العمل إعلان للعداوة بينهم ، فما لبث السلطان سليم الأول إلا أن ضم هذه الإمارة لأراضيه عام 921هـ / 1515م ، وأسفر هذا الأمر عن تفجر الموقف بين المماليك والعثمانيين وأظهر المماليك استنكارهم لهذا الضم عن طريق السفير الذي بعثوا به إلى السلطان العثماني [1]، ولم تذكر المصادر والكتب أنه قتل علاء الدين وأولاده فمن أين جاء كرامرز بهذه المعلومة ؟

رابعًا : لم يذكر كرامرز أسباب ضم مصر ، وسرد الأحداث بطريقة توضح أنه مجرد استعراض قوة . فقال :

" فكان البادئ بإرسال سفراء من قبله ، ولم يحسن قانصوه استقبالهم أول الأمر ، بيد أنهم عادوا يحملون عرضًا بالتوسط في الحرب التي كانت ناشبة بين السلطان سليم والشاه إسماعيل ، ولم يقبل سليم هذا العرض ، بل فعل ما يناقض ذلك إذ أعاد رسولاً كان قد أوفده إليه سلطان مصر محقرًا ذليلاً بعد أن قتل رفاقه". [2]

إن كرامرز عبر عن أحداث ضم مصر بمنتهى ضيق الأفق والسطحية ، ولم يذكر سببًا حقيقيًا واحدًا لهذه الحرب ، وكأنها قامت فقط بسبب عدم احترام مبعوثي الطرفين ، كما أنه لم يوضح العرض الذي قدمه الغوري بالتوسط بين الصفويين والعثمانيين ، خاصة عندما نعلم أن العلاقة بين الصفويين والمماليك لم تعدُ كونها تقارب لفترة من الزمن ، ولم تصل إلى حد التحالف فيما بينهما نظراً لاختلاف المذهب .

---

[1] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 214 ، 215 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 85 ، 86 .
Ahmet Akgunduz , Guneydogu Meselesi ve Cozum Yollari , OSAV ; Istanbul 1994 , 24 – 33 Hoca Sa'deddin Efendi , Tacu't – Tevarih II , S . 298 – 314 .

[2] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 124 ، 125 .

أما الأسباب التي أغفلها تمامًا ولم يذكر منها إلا نتفًا لا توصل لحقيقة الحدث فتتمثل فيما يلي :

1) أكبر وأضخم سبب فجر الموقف بين الطرفين هي الحرب بين العثمانيين والصفويين ؛ إذ إن موقف السلطان الغوري لم يكن واضحًا تمامًا بين الطرفين مما أثار حفيظة السلطان سليم الأول ، لأنه جزم أنه طالما أن الغوري سلطان دولة سنية فإنه سيقف حليفًا له ويدعمه أثناء الحرب، لكن خاب ظن السلطان سليم الأول ؛ لأن الغوري خاف من زيادة قوة العثمانيين لو انتصروا على الصفويين ، في الوقت نفسه لم يستطع التحالف مع الصفويين من أجل إضعاف العثمانيين للاختلاف المذهبي ، ولذلك وقف شبه متفرج على الموقف ، على الرغم من أنه لو تدخل لكان من الممكن أن يحل النزاع بين الطرفين ، ومما زاد الأمر سوءًا إلى حدٍ بعيدٍ عثور المخابرات العثمانية على خطاب [1] سري يؤكد العلاقة بين المماليك والصفويين ، وأحس سليم من ذلك ببوادر الخيانة ، ونظرًا لأنه أراد إعادة الكره على الصفويين ، رأي تأمين ظهره من المماليك في حربهِ مع الصفويين . فضلاً عن الرواسب القديمة ، وهي موقف المماليك العدائي القديم من العثمانيين ، حيث وقفت بجانب الأمراء العثمانيين الفارين من وجه سليم الأول ، وفي مقدمتهم الأمير أحمد أخ السلطان سليم ، وأرادت أن يكون هؤلاء أداة لإثارة المزيد من المتاعب في وجه السلطان سليم . [2]

بالإضافة إلى أن سليم الأول لم ينسَ أنهم قدموا يد المساعدة لعمهِ جم في صراعهِ مع أبيه السلطان بايزيد الثاني الأمر الذي أحدث شرخاً في العلاقة بين الدولتين المسلمتين ، وظل هذا الشرخ يتوسع تدريجيًا حتى اندلعت الحرب بين الطرفين مع فارق بينهما في القوة والسيادة، ففي ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها ، لها سمعة إسلامية باهرة وصلت إلى عنان السماء ، بفضل مقارعتها لنصارى أوروبا وتمكنها العسكري ، وجهدها المميز في نشر الإسلام ، خاصة أوروبا الشرقية .[3]

---

[1] محفوظ هذا الخطاب في أرشيف توب قابي سراي بإستانبول .

[2] علي سلطان : مرجع سابق ، ص 85 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 30 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 304 . فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 59 – 61 .

[3] عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص145 . فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 58-60.

2) تفشي ظلم المماليك الذي تمثل في مخالفة الشرع الشريف مثل الاستيلاء على أموال الأوقاف ومصادرة أموال كبار الموظفين وغير ذلك ، مما جعل أهالي مصر والشام يرحبون بالفاتحين ، ويتصلون بهم سرًا – كما سبق وأن أوضحت –.[4]

3) إن الدولة العثمانية كانت الدولة الإسلامية الكبرى في ذلك ، فكان من الواجب عليها حماية حدود العالم الإسلامي ومقدسات المسلمين ، خاصة ضد الخطر النصراني الأوروبي الذي تشكل بوضوح بعد حركة الكشوف الجغرافية وتسلط القوى النصرانية " البرتغالية والأسبانية والإنجليزية والهولندية والفرنسية " على الشعو ب الإسلامية ، وما تبع ذلك من تهديد البرتغال للحجاز ، وعدم قدرة المماليك من التصدي لهم رغم مساعدة العثمانيين ، حيث عانى المماليك من أزمات اقتصادية خطيرة ، أهمها انهيار النظام النقدي واختفاء الذهب والفضة تقريبًا من الأسواق في السنوات الأخيرة ، وسيطرة العملات الأجنبية على السوق المحلية ، وانتشار الأوبئة والمجاعات التي كان لها أثر عميق على الناحية الاجتماعية ، ومع اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، تأثرت العائدات الجمركية للمماليك ، ترتب عليه تعسف المماليك في سياستهم الضريبية ، واللجوء إلى الاحتكار في الداخل والخارج . [1]

4) ومما زاد من حدة الخلاف بين الدولتين الحدود المشتركة بينهما في طرسوس في المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام ، حيث تناثرت في هذه المنطقة قبائل تأرجح ولاؤها بين العثمانيين والصفويين، مما سبب توترًا في العلاقات بين الطرفين ومصدرًا للنزاع ، فضلاً عن نقطة التماس بينهم هي إمارة ذي القدر الذي قامت فيه كل دولة بدور في تشجيع أمير تركماني مختلفٍ ، حتى تطور الأمر إلى أن الأمير علاء الدين حاكم ذي القدر وقف موقفاً معادياً من العثمانيين بإيعاز من المماليك . [2]

5) رأى علماء الدولة العثمانية بأن ضم مصر والشام يفيد الأمة الإسلامية في تحقيق أهدافها الاستراتيجية ؛ إذ إن الخطر البرتغالي قد وصل إلى البحر الأحمر والمناطق الإسلامية ، بالإضافة إلى زيادة خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط ، هذا الأمر جعله يسرع

---

[4] محمد عفيفي : عرب وعثمانيون رؤى مغايرة ، ط1 ، مصر : دار الشروق ، 1426هـ / 2005م ، ص 10 .

[1] عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 144 ، 145 . محمد عفيفي : مرجع سابق ، ص 10 . فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 59 .

[2] محمد علي الصلابي : مرجع سابق ، ص 305 . علي السلطان : مرجع سابق ، ص 84 ، 85 .

في التوجه إلى المشرق الإسلامي متعاونًا مع المماليك في البداية ، ثم تحمل العبء كاملاً بعد ذلك. [3]

هذه الأسباب جميعًا لم يكلف كرامرز نفسه عناء البحث عنها إذا جزمنا بأنه مؤرخ صادق يريد نقل الحدث التاريخي كما حدث ، ولكن يبدو أنه مستشرق يهوى إخفاء الحقائق وتحويرها وإيرادها مبتورة ؛ فلم يذكرها نهائيًا وكأنها لم تكن .

وعلى الرغم من اجتماع هذه الأسباب في يد سليم الأول ، إلا أنه بكى بكاءً حارًا في مسجد الصخرة بالقدس وصلى صلاة الحاجة داعيًا الله ﷻ أن يفتح على يديه مصر، استنادًا لرواية المؤرخ سلاهشور صاحب مخطوطة فتح نامة ديار العرب ، وهو المؤرخ المصاحب لسليم في حملتهِ ؛ حيث إنه من الصعب جدًا أن يحارب دولة مسلمة سنية ، وقد أحتاج لفتوى شرعية لخوض غمار هذه الحرب.[1]

أرسل السلطان سليم جيشاً بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا للهجوم على الصفويين في سنة 922هـ / 1516م ، وبعد أن وصل الجيش إلى مرعش كان عليه أن يمر من ملاطية [3] التابعة للدولة المملوكية ، فطلب سنان باشا إذناً للمرور ، ولكن السلطان قانصوه الغوري لم يكتفِ برفض الطلب فحسب ، بل تحرك على رأس خمسين ألف من العسكر صوب الشام ، فقام سنان باشا بإخبار الوضع إلى السلطان سليم الأول الذي قام بدوره بجمع أعضاء الديوان الهمايوني وطلب منهم الإفتاء على مشروعية الحملة على دولة إسلامية تقوم بإعاقة حربه مع الدولة الصفوية التي تسيء إلى الصحابة الكرام ﷺ وعلماء أهل السنة ، فأفتى شيخ الإسلام زنبيللي أفندي بمشروعية الحرب مع تلك الدولة الإسلامية بقوله : " يجب معاقبة الذين يقومون بدعم المفسدين" حيث إنه احتاج إلى إيجاد أرضية شرعية لهذا الأمر ، والحيلولة دون تعرض سمعة دولته الجهادية إلى الإساءة ، خاصة أن تواجد آخر خليفة عباسي في مصر – كرأس العالم الإسلامي – منحت امتيازات كبيرة للمماليك ودورهم في رعاية آخر خليفة عباسي ، وقد استغل المماليك هذه الامتيازات الدينية لتحقيق مطامحهم السياسية ، وكان هذا عائقاً أمام الدولة العثمانية التي كانت ترغب في سد متطلبات المسلمين وتسهيل مهمة الحج.

---

[3] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 10 .

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 30 .

[3]ملاطيه: Melatia تقع في الأناضول مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه،في ولاية خربوت.س.موستراس:مرجع سابق،ص468

تحرك السلطان سليم الأول على رأس جيشه من إستانبول في 922هـ/ 1516م وانضم إليه في الطريق جيش الصدر الأعظم سنان باشا ، وحينما وصل إلى ملاطية علم بوصول الجيش المملوكي بقيادة السلطان قانصوه الغوري إلى حلب ، وقد بلغ عدد الجيش العثماني 60.000 مقاتلاً ، إضافة إلى الأسطول العثماني الذي تولى العتاد والمؤن عن طريق البحر ، فيما بلغ عدد الجيش المملوكي 70.000 مقاتلاً مجهزين بأحدث أنواع الأسلحة .

وبدأت معركة حامية بين الطرفين في هضبة مرج دابق التي تبعد عن حلب 39 كيلو مترًا ، وبعد قتال عنيف تقهقر الجيش المملوكي وقتل قائده السلطان قانصوه الغوري ، فاضطر إلى الإنسحاب حيث أحرز الجيش العثماني انتصارًا عظيمًا في المعركة . [3]

وكان آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة (المتوكل الثالث) يرافق السلطان المملوكي في ساحة المعركة ، فوقع أسيرًا من قبل الجيش العثماني ، وقد أبدى له السلطان سليم الأول احترامًا وتقديرًا كبيرين وأرسله إلى القاهرة ، على الرغم من أنه لم يكن له أي صفة سياسية، وإنما مكانة روحية مستمدة من وضعهم قديماً .

ودخل السلطان العثماني حلب حيث قوبل من أهلها بالترحاب ولقي دفء الاستقبال للمسير إلى مصر ، ومن جهة أخرى قام القادة العسكريين المماليك الذين أنقذوا أنفسهم وهربوا إلى القاهرة بانتخاب طومان باي سلطاناً على الدولة المملوكية [1] ، ثم قاموا بتجهيز جيش بقيادة جانبردي الغزالي – والذي بدأ يحس بأن كفة العثمانيين هي الأقوى والمماليك الأضعف – وأرسلوه في اتجاه غزة العريش لصد الهجوم العثماني ، وفي هذه الأثناء كان الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا ينتظر في الرملة ، فالتقى الجيشان العثماني والمملوكي في موقع خان يونس في العام نفسه ، وبعد اشتباكات دامية انهزمت القوات المملوكية ، ودخل سنان باشا غزة ، وأرسل خبر النصر إلى السلطان سليم الأول الذي انتقل في هذه الأثناء إلى القدس الشريف يرافقه المؤرخ إدريس البتليسي ، حيث أدى الصلاة في

---

[3] Hoca Sa' deddin Efendi , Tacu't – Tevarih II , S. 350 – 355 ; Lutfu Pasa, Tevarih – i Al – Iosman, S.250 ;

يلمازا أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ،ج1،ص222، 223. فاضل بيات:دراسات حول تاريخ العرب في العهد العثماني، ص61 .

[1] محمد أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في واقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، الطبعة 1 ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ج5 ، ص 73–80 . علي سلطان مرجع سابق ، ص 87 ، 88 . عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 218 – 222. إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص83 .

المسجد الأقصى ، كما زار قبر النبي إبراهيم عليه السلام الكائن في الخليل . وقبل أن يتوجه السلطان سليم الأول صوب مصر أرسل سفيرًا إلى السلطان المملوكي الجديد طومان باي ، وطلب منه الخضوع له وذكر اسمه في الخطبة ، كما عرض عليه أن تكون مصر له ابتداءً من غزة ويكون واليًا فيها من قبل الدولة العثمانية ، على شرط أن يدفع خراجًا سنويًا إلى الدولة العثمانية ، وحذره من مغبة الوقوع فيما وقع فيه سلفه قانصوه الغوري ، لأنه كان يريد ضم مصر دون حرب أو قتال حقنًا لدماء المسلمين ، غير أن طومان باي رفض طلب السلطان سليم ، وسخر من السفير الذي حمل رسالته إليه وقام في نهاية الأمر بقتلهِ . [2]

فتوجه سليم إلى غزة في بداية عام 923هـ / 1517م ، ومنها إلى صحراء سيناء التي هطلت على أرضها الأمطار مما سهل مرور الجيش بها، مارًا من العريش والقاطية والصالحية وبلبيس للوصول إلى العاصمة المملوكية القاهرة ، وفي الوقت نفسه كان الأسطول العثماني قد سيطر على البحر الأبيض المتوسط ، وبدأت الحرب بين الطرفين في موقع الرايدانية القريبة من جبل المقطم حيث استشهد الصدر الأعظم سنان باشا ، ولكن الجيش العثماني استطاع أن يهزم الجيش المملوكي في هذه الحرب التي استمرت يومين ، وقد فرّ كل من السلطان طومان باي والقائد جانبردي الغزالي من ساحة القتال ، فتقدمت القوات العثمانية نحو بولاق الواقعة شمال القاهرة واستقرت فيها ، وأقيمت الخيام على طول نهر النيل .

ثم دخل السلطان سليم الأول القاهرة بمراسيم فخمة وجلس على كرسي السلطنة وأعلن نفسه حاكمًا على مصر ، وفي هذه الأثناء استسلم القائد المملوكي جانبردي الغزالي إلى السلطان طالبًا منه الأمان ، ولم يكن خائنًا لصالح العثمانيين وإنما انضم للجانب الأقوى ، فعفا عنه السلطان وأقطعه سنجقًا . أما السلطان المملوكي طومان باي فقد قبضت عليه القوات العثمانية وعوقب بالإعدام .[1]

---

[2] فاضل مهدي بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 75 – 76 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص 88 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 148 ، 149 .

[1] محمد أحمد بن إياس الحنفي : مصدر سابق ، ج5 ، ص153–174 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص148 ، 149.

ثم قام السلطان سليم الأول بإرسال خبر نصره إلى كافة دول العالم ، وقد مكث السلطان في مصر فترة 6 أشهر حيث قضاها في تأسيس النظم الإدارية العثمانية في مصر ، وأصدر قانون نامه مصر ليطبق بموجبهِ التنظيمات الإدارية في مصر . [2]

كما أمر بإرسال أفراد أسرة السلطان المملوكي – وكذلك الخليفة العباسي وأسرته بمنتهى الإعزاز والإكرام إضافة إلى بعض الشيوخ والعلماء – إلى إستانبول عن طريق البحر. وهذا أمر طبيعي لأن إستانبول هي العاصمة .

وقد أصدر السلطان سليم الأول عقب دخوله مصر فرماناً يتضمن منع اليهود من الهجرة إلى سيناء فسدَّ بذلك الطريق أمامهم للتوجه نحو القدس الشريف.[3]

وعقب فتح مصر قام أمير مكة المكرمة الشريف أبو نمي بركات بإرسال مفاتيح مكة والمدينة ، والروضة المطهرة ، فضلاً عن مفاتيح قديمة للكعبة تعبيرًا عن خضوع مكة والمدينة لهم سلميًا ، وبقية الأمانات المباركة مع ابنه الشريف أبي نميّ محمد إلى السلطان سليم الأول ، وقدّم طاعته وخضوعه له ، [4] وقد قوبل الشريف بإكرام بالغ واستضيف في مقر قائد الجيش هو ومرافقوه الحجازيون ، ثم قابل السلطان سليم الأول وقدم له الأمانات السالف ذكرها ، وبالمقابل قام السلطان بتقديم هدايا فاخرة لأبي نميّ ، إضافة إلى إرسال براءة الأمارة والهدايا القيمة إلى والده أمير مكة المكرمة ، إضافة إلى أنه أرسل كثيرًا من الهدايا والأموال إلى أهالي الحرمين الشريفين . [1]

وقد جلب السلطان الأمانات المباركة التي أرسلت له من قبل شريف مكة المكرمة معه إلى استانبول ، وشيد مبنى خاصًا في قصر طوب قابي لتحفظ فيه هذه الأمانات ، عرف باسم دائرة البردة النبوية الشريفة " خرقة شريف ". [2]

---

[2] عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 166 ، 167 . يلمازا أزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 226 ، 228 . محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 27 .

[3] سعيد عبد الحكيم زيد ، واقع العالم الإسلامي ، ص152 .

[4] يلمازا أزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 233 .

[1] ابتسام محمد كشميري : مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن 10هـ / 16 م ، رسالة دكتوراه غير منشورة 1422هـ / 2001م ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ص17 .

[2] يلمازا أزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 234 .

لمزيد من التفاصيل عن ضم السلطان سليم الأول لمصر الرجوع إلى الآتي :

S.Tekindag : Suveyste Turkler ve Selman Reisin Arizasi , BTTD , 11/ 9 . S77 – 80

وانظر أيضًا :

M.Yakub mughul : Kanuni Derri , Ankara , 1987 , S , 27 – 77 .

ولنرى ماذا ذكر كرامرز في هذه المعركة يقول : " وتعزى الهزيمة التي مني بها المصريون في هذه الواقعة " الريدانية " إلى خيانة جانبردي الغزالي الذي كان يعمل بالاتفاق مع خاير بك الذي كان في جيش سليم ، ويقال إنهما توسلا بالخديعة إلى شل حركة المدفعية المصرية التي كان يقوم عليها الأوروبيون ". [3]

إن هذا ديدن المستشرقين دائمًا فقد أرجعوا أي انتصار للعثمانيين إلى الخيانة والخديعة، وكأن الأمر أصبح قصة مكررة في كل فتح ، ولم يخرج كرامرز عن هذا النطاق مطلقاً ، بل أكَّد عليه ولم يذكر سببًا واحدًا حقيقيًا عن مسألة انتصار العثمانيين . ومن أهم أسباب نصر العثمانيين .

١) التفوق العسكري لدى العثمانيين ؛ فسلاح المدفعية المملوكي كانت مدافعه ضخمة ثابتة لا تتحرك ، في حين كان سلاح المدفعية العثمانية يعتمد على مدافع خفيفة يمكن تحريكها في كل اتجاه .

٢) كانت معنويات الجيش العثماني مرتفعة جدًا نتيجة للتربية الجهادية الرفيعة التي تلقوها، إضافة إلى اقتناعهم بأنها حرب عادلة ، بعكس القوات المملوكية التي فقدت تلك الصفات . [1] فمثلاً نجد في بعض المعارك كمرج دابق 25 رجب 922هـ / 24 أغسطس 1516م أن المماليك استخدموا أسلحة نارية ليست في تطور وتفوق الأسلحة النارية العثمانية ، وفي هذه المعركة بالذات دخل قانصوه الغوري ليس بحرسهِ الخاص ، وإنما بالحرس الذين كانوا للسلاطين من قبلهِ ، مما جعل هذه الفئة العسكرية لا تحارب بالمستوى المطلوب ، وذلك لإحساسها بالإهانة وبمحاولة التخلص منه في مقابل المحافظة على حرس الغوري الخاص.[2]

1- Seyyid Muhammed es – Seyyid Mahmud: XVI , Asirda Misir Eyaleti , Istanbul 1990 , S , 48 , 57 ,ld.

2- Cl . Cahen : Islamiyet , Dogusundan Osmanli Devletinin Kurulusuna Kadar (trc . E. Nermi Erender), Istanbul , 1990 , P .231 .

3- A.Raymond : The Great Arab Cities in the 16 th – 18 th , Centuries , New York 1984 , B.Masters : The Origins of Western Ecoromic Dominance in the Middle East , Merean Tilism and the Islamic Economy in Aleppo , 1606 – 1750 , New York 1988 , P . 11-19 .

[3] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص125 .

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 31 .

[2] عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 147 .

٣) حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع في جميع نواحي سياستها ، واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدولة ، بعكس الدولة المملوكية التي انحرفت عن جادة الصواب والشرع ، ومارست الظلم على أهلها وذلك بشهادتهم . [3]

٤) سلامة الخطط العسكرية العثمانية ، حيث استخدموا خططًا حديثة كاستدارة القوات العثمانية من خلف مدافع المماليك ثقيلة الحركة ، كما أن دخولهم القاهرة من ناحية المقطم شلَّ المدفعية وأحدث اضطرابًا في صفوف الجيش المملوكي .

٥) قناعة مجموعة قيادية من أمراء المماليك بالانضمام لجيش السلطان سليم ، لقد تعاونوا مع الدولة العثمانية وتحملوا مسؤولية الحكم تحت إطار الحكم العثماني ، أمثال خاير بك في مصر ، وجان بردي الغزالي في دمشق .[4]

لكن هذا لا يمنع ذكر نبذة بسيطة عن جان بردي الغزالي ليتضح للقارئ حقيقة شخصيته .

ردد كرامرز وغيره كثيرًا خيانة جان بردي الغزالي للمماليك وتعاونه مع العثمانيين . وبداية من هو جان بردي الغزالي ؟

جان : بمعنى الروح ، بردي : بفتح الباء وسكون الراء بمعنى أعطي ، أما الغزالي نسبة إلى "منية غزال " في الشرقية بمصر ، وكانت ضيعة لــ " تغري بردي" وجان بردي الغزالي لم يكن عربيًا ، وإنما كان سلافيًا من كرواتيا ، يتحدث الكرواتية بطلاقة ، وقع أسيرًا أثناء فتح البلقان في عهد السلطان بايزيد الثاني ، ثم أرسل مع مجموعة أخرى إلى السلطان المملوكي كهدية ثم أعتق ، وطغى طموحهِ على كل شيء حتى وصل إلى الإمارة ، فقد كان متقلبًا ، يتحالف مع المتناقضات في سبيل الوصول إلى تحقيق طموحهِ . وكان ينضم مع الجانب الأقوى مثلما حدث عندما ساند العادل طومان باي ضد جانبلاط سيده القديم ، وصار من رجال طومان باي وتدرج في المناصب حتى قامت على الأخيرة ثورة ، وعندما لمس أن كفة الميزان كانت مع الثوار انضم لهم ، وأصبح من رجال الأشرف الغوري الذي تولى في أعقاب نهاية الثورة، وهنا تولى منصب محجوبية الحجاب في حلب ، ثم نيابة صفد ، وأخيرًا نيابة حلب 918هـ / 1512م .

---

[3] عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص 93 .

[4] مرجع سابق ، ص 92 ، محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص31 .

وعندما أتضح له أن الصفويين هم الأقوى في المنطقة من المماليك ، أرسل إلى الشاه إسماعيل الصفوي رسولاً يخبره أنه يعلن ولاءه وطاعته الكاملة له ، [1] بشرط أن يمده بجيش يؤازره ضد العثمانيين ، ورغم هذه الجهود التي بذلها ، لم يتحالف الصفويين مع المماليك .[2]

أما أثناء حرب العثمانيين مع المماليك في الشام فقد رأى أن كفتهم هي الرابحة، فآثر الوقوف إلى جانبهم ، وعُرض الأمر عليهم بواسطة خاير بك ، وأرسل إلى سليم الأول يطلب منه العفو والأمان فأمنه واستقبلهُ في خيمتهِ ، وأصدر قرارًا بتعيينه واليًا على القدس ، عام 923هـ / 1517م ، ثم صدر فرمان عثماني بتعيين جان بردي الغزالي 924هـ / 1518م على ولاية الشام مدى الحياة . [3]

من العرض السابق يتضح أنه شخصية وصولية ليس له مبدأ أو ولاء إلا للأقوى الذي سيجلب له مزيدًا من النفوذ والجاه ، لذلك كان دائمًا يسعى خلف الأقوى دون اهتمام بأي شيء، وبناءً على هذا طبيعي جدًا نراه يخون المماليك وينضم إلى جانب العثمانيين دون طلب من سليم الأول ، ولأنَّ الأخير افترض منه حسن النية والإخلاص فأعطاه ولاية الشام مدى حياته ؛ وذلك تقديرًا من جانب السلطان سليم الأول لجهودهِ وولائه ، لكن جان بردي الغزالي تأصل فيه طبع الوصولية والسعي وراء النفوذ ، فقد انتهز فرصة وفاة السلطان سليم الأول وكاعتراف بالجميل من ناحيته أراد إعلان الإنقلاب على ابنهِ السلطان سليمان القانوني ! والانفصال ببلاد الشام وإعلان نفسه ملكًا عليها ، معتقدًا أن السلطان الشاب ليس في قوة وحزم أبيه ، لكن ظنه قد خاب إذ أحبط السلطان سليمان القانوني محاولتهِ ، وأرسل له جيشاً انتصر عليه في معركة المصطبة في 27 صفر 927هـ / 6 فبراير 1521م وأعدم على أثرها ، وبذلك أنتهت حياة رجلٍ خان كل من عمل تحت رايتهم طمعًا في النفوذ . [1]

أما عن مسألة انضمام خاير بك وإسهامهِ في إنهاء الحرب لصالح العثمانيين فلنا أن نلقي نظرة على الوقت الذي انضم فيه إلى السلطان سليم الأول ، في البداية تعرف على السلطان سليم الأول من خلال الرسائل التي كان يبعثها سليم الأول إلى قونصوه الغوري ،

---

[1] الوثيقة محفوظة في أرشيف متحف طوب قابي سراي تحت رقم 5469 / 19 .

[2] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 163 .

[3] مرجع سابق ، ص 161 – 163 .

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 164 ، 165 .

فلمس منه قوة الموقف ، وكان خاير بك يأخذ موقعه في صفوف الجيش المملوكي في معركة مرج دابق لكن بعد تعرض المماليك للهزيمة حاول دخول قلعة حلب وأغلاقها على نفسهِ ، إلا أن يونس باشا أحد قادة سليم الأول قام بملاحقتهِ ، ففر إلى ناحية حمص ومعه بعض من أمراء المماليك ، عندما أدرك أنه لا يستطيع مقاومة السلطان وتوجه نحو دمشق ، وحينها دبَّ الخلاف بينه وبين الأمراء المماليك الذين معه ، فأرسل إلى يونس باشا يرجوه التوسط عند سليم الأول للدخول في خدمتهِ ، وتسنت له بعد ذلك مقابلة السلطان سليم الأول وانضم مع جميع رجالهِ في الجيش ، وبذلك نال حظوة عند سليم الأول . [2]

وفي أثناء ضم الشام ومصر طلب خير الدين بربروسا الذي انتشر صيته في البحر الأبيض المتوسط الانضمام إلى الأسطول العثماني ، فوافق السلطان على ذلك ، ثم عينه قائدًا للأسطول العثماني .

غادر السلطان سليم الأول القاهرة مع جيشه في 923هـ / 1517م ، ومرّ في طريقه في الصالحية والشام وحلب ومرعش وقيصرية وآقسراي وأفيون ، ووصل إلى إستانبول في 924هـ / 1518م ، وقد استغرقت الحملة المصرية عشرة شهور ونصف ، استطاع السلطان خلالها أن يضم القسم الأغلب من قارتي آسيا وإفريقيا إلى الدولة العثمانية ، حيث دخلت مصر وبلاد الشام والحجاز تحت السيادة العثمانية ، كما أصبحت الدولة العثمانية مسيطرة سيطرة تامة على البحر الأبيض المتوسط . [3]

وكان السلطان سليم الأول يهدف من وراء حركة توسعاته وإخضاعه جميع البلدان التي يقطن فيها المسلمون بما فيها بلاد فارس إلى تحقيق الوحدة الإسلامية ، ولهذا أرسل إلى حكام تلك البلدان سفراء لدعوتهم إلى الطاعة والخضوع تحت راية الدولة العثمانية ، وذلك قبل أن يقوم بحملاته العسكرية عليهم ، وكان السلطان سليم الأول قد شاهد الهزائم التي لحقت بالأساطيل المملوكية على يد الأساطيل البرتغالية التي كانت تطمع في تدمير العالم الإسلامي ، فقام بحماية الأماكن المقدسة من التسلط الصليبي الجديد ، حيث لم يتوجه إلى الغرب في فتوحاته كما فعل أسلافه من السلاطين ، إنما توجه نحو الشرق لأجل إنقاذ العالم الإسلامي

---

[2] فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 63 ، 64 .

[3] يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، 3/ ب ، ص 239 .

Ceresler Katibi Yusuf , Tarih – i Sultan Selim Han , Suleymaniye Kutup . Esad Ef . Nr . 2146 , Varak 22b – 45b ; Celalzad Mustafa Celebi , Selimname , S . 173 – 210 ; Kesfi , Selimanme , Suleymaniye kutup . Esad Ef . Nr . 2146 , Varak 54a – 55 b .

بصفة عامة والمقدسات الإسلامية بصفة خاصة من الموجة الصليبية الجديدة من جانب الأسبان في البحر الأبيض المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر ، والذين بدأوا يطوقون العالم الإسلامي ، ويفرضون عليه حصارًا اقتصاديًا كي يسهل سيطرتهم عليه ، وبالفعل عندما نجح السلطان سليم الأول في القضاء على المماليك وفي ضم مصر والحجاز ومناطق أخرى من العالم العربي إلى الدولة العثمانية ، وحقق الوحدة الإسلامية استطاع أن يهزم الأساطيل البرتغالية وأن يبعد خطرهم عن العالم الإسلامي [1] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن المشرق العربي رحب بالسلطان العثماني سليم الأول ، حتى يتخلصوا من ظلم وجور المماليك في أخر أيامهم ، وتعطيل الأحكام الشرعية ، وتمثل ذلك المنقذ في العثمانيين ، حيث كان علماء مصر يلتقون سرًا بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر ، ويفضون إليه شكواهم من جور الغوري ؛ لأنه كان يخالف الشرع الشريف ، ويستنهضون عدالة السلطان العثماني لكي يأتي ويضم مصر ، حتى أن المؤرخ " يانسكي " ذكر في كتابه عن السلطان سليم الأول أن علماء مصر كانوا يراسلون السلطان سليم الأول منذ توليه الحكم ، حتى يقدم إليهم ويخلصهم من حكم المماليك . [2]

أما عن بلاد الشام فإن أهل حلب كانوا راضين تمامًا عن الضم العثماني ، بسبب ما قاسوه من ظلم المماليك ، حتى إن الغوري عندما وصل حلب بجيوشه لملاقاة جيش سليم الأول ، فوجئ بأن الأهالي لقنوا أطفالهم صيحة " ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم "، حتى إن العلماء والقضاة والأعيان في حلب اجتمعوا للتباحث في حالهم ، وقرروا كتابة عريضة [3] للسلطان سليم الأول يعرضون فيها ظلم المماليك وعدم اتباعهم الشرع ، وإذا فكر السلطان في السير نحو بلاد الشام فإنهم سيرحبون به وسيخرج جميع فئات المجتمع إلى عينتاب البعيدة عن حلب ليتقوا به ، وطلبوا أن يرسل لهم رسولاً من عنده ، وزيرًا ثقة يقابلهم سرًا ، ويعطيهم الأمان ، حتى تطمئن قلوب الناس . [1]

---

[1] عبد اللطيف بن دهيش : مرجع سابق ، ص 58 . محمود محمد الحويري : مرجع سابق ، ص 208 ، 209 . أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 44 ، 45 .

[2] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 187 .

[3] العريضة محفوظة في أرشيف توب قابي سراي في إستانبول تحت رقم 11634 (26) .

[1] علي سلطان : مرجع سابق ، ص 87 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 188 .

أما في دمشق فقد استقبله الزعماء ورجال الدين بالترحاب والرضا التام ، وقد أرضاهم السلطان سليم الأول بإلغاء الضرائب الجديدة ، ووزع عليهم المال ، على جميع فئات العلماء والأهالي . [2]

ويتضح أن مسألة تقبل المشرق للسلطان سليم الأول كانت قد بدأت بوادرها قبل خروج سليم من إستانبول ؛ وهذا أمر طبيعي إذ إنه يمثل رأس أكبر دولة إسلامية اشتهرت بسياسة التسامح الديني ، وأصبحت ملاذ المسلمين الآمن فضلاً عن المسيحيين واليهود الفارين من الاضطهاد الديني .

سادسًا : الخوض في مسألة انتقال الخلافة للسلطان سليم الأول . فقال :

" والمصادر المبكرة التي تكاد تتعاصر لا تكفل بأي حال من الأحوال صحة الرواية التي ظهرت بعد ذلك بقرنين ونصف قرن من الزمان ، ومؤداها أن المتوكل تنازل رسميًا عن الخلافة إلى سليم .... ، ومن الواضح أن هذه الرواية قصد بها تبرير ادعاء سلاطين آل عثمان الحقَّ في الخلافة " . [3]

إن الدراسة ليست بصدد تحديد مدى صحة الرواية من خطأها [4]، وإنما ما يهم الدراسة هو أنه ليس هناك ما يرغم السلاطين على تبرير اتخاذهم لقب خليفة ؛ لأنه من وجهة نظر الدراسة أنه طالما قد أعلن الحجاز الولاء والطاعة للسلطان سليم الأول سلميًا ، ودخل الأشراف تحت حكم الدولة العثمانية رغبةً منهم، فأصبح تلقائيًا من حقه أن يلقب بلقب خليفة المسلمين ؛ لأنه سيطر على الحرمين الشريفين في الحجاز فضلاً عن المسجد الأقصى ، هذا إضافة إلى أن المنصب كان شاغرًا ولم يشغله أحد منذ سقوط الدولة العباسية في بغداد على يد هولاكو ومقتل آخر خليفة عباسي المستعصم بالله عام 656هـ / 1258م .

ونتيجة لاستلام السلطان مفاتيح الكعبة المشرفة من أمير مكة المكرمة أصبح يلقب نفسه منذ ذلك الحين بـــ " خادم الحرمين الشريفين " ، وقد حمل السلاطين الذين خلفوه هذا

---

[2] علي سلطان : مرجع سابق ، ص 88 .

[3] كرامرز : مادة سليم الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص127 ، 128 .

[4] لمزيد من المعلومات عن هذه الورقة الرجوع إلى :

H.Trakik : The Ottoman and Caliphate , The Cambridge History of Islam , I , 1970 , P. 320 – 323 , H.Gibb , Lucfi Pasha on the Othoman Caliphate , Oriens , XV , 1962 , P . 287 – 295 .

اللقب أيضاً ، وصارت تقرأ أسماء السلاطين العثمانيين في خطبة الجمعة في كافة أنحاء العالم الإسلامي عقب فتح مصر ، ويشار إليهم بلقب " خادم الحرمين الشريفين " . [1]

ومنذ ذلك الحين وقع على عاتق سليم الأول حماية الحرمين الشريفين وإرسال مخصصات مالية سنويًا ، ومن بعده السلاطين العثمانيين ، خاصة وأن الحرمين الشريفين كانا معرضين للخطر البرتغالي .

إن مفهوم الخلافة عند العثمانيين اختلف إلى حدٍ ما عن مفهومها في العهد العباسي ، إذ إنّ فكرة الخلافة عند العثمانيين اكتسبت مغزى جديدًا تجلى في تأمين طرق الحج وحماية الأماكن المقدسة ، والدفاع عن الإسلام والمسلمين ، ووضعهم تحت مظلة الحماية العثمانية ، وامتزج ذلك المغزى بتقاليد مبدأ الجهاد ، حتى بات السلطان العثماني يستحق لقب خليفة لأنه ناله بالجهاد الإسلامي والدفاع عن المقدسات الإسلامية ، وليس بالوراثة .

هذا الوضع دفع العثمانيين إلى التمسك بشكل صارم بمبادئ الشريعة الإسلامية ، والسعي لإضفاء الشرعية على القوانين والنظم المالية والإدارية ، وزاد تمسك العثمانيين بهذا اللقب خاصة في عهد التصدع والانهيار ؛ ليتأكدوا من هيمنتهم الإسلامية على جميع الشعوب الإسلامية في أنحاء العالم ، والحيلولة دون تزعزع نفوذهم في قلوب المسلمين .

لقد أديرت منطقة الحجاز التي دخلت تحت الحكم العثماني عقب فتح مصر بموجب نظام خاص ، وقد أعفيت مكة المكرمة والمدينة المنورة من كل أنواع الضرائب ، وأرسلت إليهما سنويًا المعونة المالية ضمن موكب الصرة وذلك لسدّ متطلباتهما .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تقوم بتعيين الولاة والإداريين على المنطقة، إلا أن أمراء مكة المكرمة كانوا هم أصحاب القول والكلمة في شبه الجزيرة العربية ، وقد استمرت إمارة مكة المكرمة حتى قرب سقوط الدولة العثمانية في سنة 1343هـ / 1924م ، وكانت أسماء الأمراء من أشراف مكة المكرمة تقرأ بعد أسماء السلاطين في خطبة الجمعة فقد تميزت الحجاز بما نسميه ثنائية السلطة وهذا يدل على أن العثمانيين فاتحين و ليسوا غزاة.

---

[1] Evliya Celebi , Seyahatname , X , S. 116 , 124 – 125 ; Ahmed Rasim , Osmanli Tarihi , II , S . 338 ; Muneccimbasi Sabaifu 1 – Ahbar , III , S. 567 .

ويرجع احترام وتقدير سلاطين آل عثمان لأمراء مكة المكرمة إلى سببين مهمين ، أولهما : حرمةً وتقديرًا لنسبهم الشريف ، ثانيهما : لقيامهم بحماية طريق الحج وتأمين سلامة وأمن الحجاج المسلمين خلال رحلاتهم إلى الحجاز .

لقد أولت الدولة العثمانية اهتمامًا بالغًا بالحرمين الشريفين ، فدائمًا ما تقوم بترميم المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف ، بالإضافة إلى إرسال كسوة للكعبة المشرفة ، وقد صُرفت عليها مبالغ طائلة من حيث الصناعة ، إذ صنعت من أرقى أنواع الحرير واستخدم في تطريزها الذهب ، هذا إضافة إلى الأقفال والمفاتيح الخاصة بالكعبة المشرفة ، والتي أرسلها السلاطين بصورة متواصلة ضمن موكب الصرة . [1]

ولم تقتصر خدمات الدولة العثمانية على سكان بشبه الجزيرة العربية فحسب، إنما شملت جميع الحجاج القادمين من الشام ومصر وعدن وبغداد والبصرة ، حيث كانت الدولة ترسل موظفيها إلى المنطقة لسد متطلبات الحجاج من المياه والمؤن . وذلك أثناء خروج قوافل الحجاج إلى الطريق ، وكان ولاة المنطقة يقومون بتعيين أمراء الحج على تلك القوافل ، يتولى حماية القوافل خمسة عشر ألف محافظ ، وعندما تصل قافلة الشام التي تحمل السنجق الشريف إلى مدائن صالح ، يستقبلها أمير مكة المكرمة أو من ينوب عنه ، وذلك بأمر من السلطان العثماني ، وتدخل القافلة مكة المكرمة برئاسة الأمير ، وبعد أن ينتهي الحجاج من أداء فريضة الحج ويعودون إلى بلادهم ، يرسل الأمير خطابًا إلى السلطان العثماني يبلغه فيه قيام الحجاج بأداء فريضة الحج في ظل الأمن ، وعودتهم إلى بلدانهم بسلام . [2]

لقد توفي سليم الأول عام 927هـ / 1520م من جراء خرَّاج صغير ظهر في ظهره، وهو على رأس حملة متوجهة إلى إستانبول ومنها إلى إسكدار ليخرج على رأس جيشهِ منها ، إلا أن الأطباء لم يفلحوا في علاجه ، فوافته المنية قبل أن يصل إستانبول . [3]

---

[1] للمزيد من المعلومات المفصلة عن كسوة الكعبة المشرفة ومفاتيحها أنظر :
خوليا تزجان : أستار الحرمين الشريفين ، ترجمة : تحسين عمر طه أوغلي ، إستانبول 1996م ، طرجان يلماز : الكعبة المشرفة، ترجمة :عمر طه أوغلي ، إستانبول ، 1993م .

[2] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , II , Istanbul 1999 , S . 57 – 58 .

[3] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ص 225 : يلماز وزوتونا : مصدر سابق ، ج1 ، ص 237 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 32 .

لقد توفي بعد أن غير الخريطة السياسية لبلاد المشرق الإسلامي تغيرًا بقي بعد ذلك قرونًا طويلة ، إضافة إلى أنه ترك الحرية لأوروبا ولم يدخل معها في حروب ، وإنما نقل دولتهِ إلى سياسة جديدة وهي التوجه نحو المشرق الإسلامي وأصبحت بذلك دولة عالمية ، ورسم ومهد الطريق للفتوحات العظيمة في عهد ابنه السلطان سليمان القانوني .

بعد أن كشف العثمانيون عن قدرتهم السياسية في الشرق ، بدأوا بشكل حاسم في استئناف حركة الجهاد في أوروبا لنشر الإسلام في أراضي جديدة . فقد أصبح في وسعهم أن يهيأوا أنفسهم لكي يكونوا عنصر توازن جديد في السياسة العالمية ، وبهذا يبدأ عصر جديد جعل من الدولة العثمانية إحدى ثلاث دول عالمية في أوروبا ، وهي إمبراطورية آل هابسبورغ في ألمانيا ، وقيصرية روسيا ، والدولة العثمانية .

ولا شك أن النشاط السياسي والعسكري المكثف الذي وقع في عهد السلطان سليمان القانوني ، قد لعب دورًا مؤثرًا في ذلك .

وعلى هذا فإن عهد السلطان سليمان القانوني ، يعد عهدًا مهمًا من حيث الشمول والتنوع ووضوح الأسلوب والهدف ؛ إذ لم يكد يتقلد زمام السلطة عام 927هـ/ 1520م حتى أصبحت الدولة العثمانية تمثل أحد أهم دول العالم من كل الجوانب تقريبًا .

حتى غدا طوب قابي سراي مركز السلطان سليمان القانوني ، وملتقى للسفراء القادمين من الشرق والغرب ، وصارت الدول الأوروبية والدول الإسلامية لا يتركون فرصة تفوتهم إلا وأرسلوا الهدايا الثمينة ، والسفراء إلى العاصمة إستانبول ، ولم يكن من السهل على هؤلاء السفراء أن يقابلوا السلطان القانوني ، فإذا كان السلطان في إحدى حملاتهِ وجب عليهم أن يذهبوا إليه في تلك الحملة مما يتطلب إتصالات عديدة وإرسال سفراء من قبلهِ أيضًا [1] .

لقد أجمع المؤرخون على أن عصره كان العصر الذي بلغت فيه الدولة العثمانية قمة مجدها وعظمتها ، ليس ذلك بسبب رقعتها الجغرافية وسياساتها تجاه أوروبا فقط ، وإنما بسبب النهضة العلمية التي صاحبت الاستكشافات العلمية والجغرافية الأوروبية والتقدم في الناحية المعمارية . [2]

---

[1] E.Kuran : Avrupada Osmanl , ikamet Elqilerinin kurulusu ve itk Eleilerin sigasi Faal iyetleri (1793- 1821) , Ankara , 1988 , S , 25 .

[2] ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 64 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 89 .

ولأهمية السلطان سليمان القانوني ، فقد أفردت له دائرة المعارف الإسلامية مادة طويلة بالنسبة للسلاطين الآخرين ، حيث تم تقديمها بقلم المستشرق كرامرز الذي أفاض في الحديث عنه وعن فتوحاتهِ ، ولكنه أغفل عدة نقاط كالعادة ومنها :

١) لم يتحدث مطلقًا على أسباب خوضهِ هذه الحملات ، وإنما ترجمها على أنها حملات توسعية لمد النفوذ السياسي فقط ، وليس للدفاع عن حدود الدولة العثمانية مثلاً أو مقاومة الأحلاف الصليبية .

٢) لم يشر مطلقًا إلى دوره في نشر الإسلام أو في إحياء حركة الجهاد الإسلامي وتوجهها نحو أوروبا .

٣) عددت المادة حملات سليمان القانوني فقط دون توضيح روح الشجاعة والجهاد التي تحلى بها السلطان ، خاصة وأنه كان يقود الحملات بنفسهِ .

وستقف الدراسة على النقاط التي ذكرها المؤرخ كرامرز ، ومنها :

أولاً : محاولة كرامرز التقليل من شأنه عندما كان والياً على مغنيسيا . [1]

ثانيًا :أهمل كرامز تمامًا التمردات التي واجهت سليمان القانوني في بداية حكمه.

ثالثًا :المرور على أعظم فتوحات سليمان القانوني مرورًا سريعًا ، ووصف الفتح العثماني بالتخريب والتدمير . [2]

رابعًا : ذكر كرامرز أسبابًا خاطئة جداً عن ضم السلطان سليمان القانوني لبغداد وتبريز . [3]

خامسًا : إطلاق صفة القرصنة على الجهاد البحري في عهدهِ . [4]

سادسًا : نسب جميع الأعمال التي قام بها إلى الرجال الأكفاء المحيطين به . [5]

والسلطان سليمان القانوني هو عاشر سلاطين الدولة العثمانية ، وثاني خليفة لها ، ولد عام 900 هـــ / 1494م ، وعندما ولد أعطي له هذا الاسم نسبة إلى النبي سليمان عليه السلام ، وقد تلقى منذ صغره العلوم العقلية والنقلية من العالم خير الدين أفندي ، ثم تعلم فن الصياغة ، كما تدرب على فنون الإدارة والحرب من خير قادة والده وجده ، وكان يجيد اللغات الشرقية لا سيما العربية ، بالإضافة إلى أنه كان شاعرًا وله ديوان رائع في الغزل ،

---

[1] كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 146 .

[2] كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 147 ، 148 .

[3] كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 149 .

[4] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص 147 ، 173 .

[5] كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 147 ، 153 .

بالإضافة إلى إتقانهِ لفن الخط حيث برع فيه واختص برسم الخط على الأحجار الكريمة ، أحب القراءة والمطالعة وكانت وسيلة الترويج لديه ، اتسمت أخلاقه بالورع والتقوى ، يستدل على روعهِ من نُسخ القرآن الثمانية التي نسخها بنفسهِ ، وهي محفوظة في مسجد السليمانية ، ويتضح تمسكه بتعاليم السنة الشريفة في القصائد الكبيرة التي نظمها في ديوانه . أحب الصيد وتحمس له ، كان يمثل الشخصية القويمة للحاكم المسلم التي لا تقبل المقارنة والقياس إلا مع شخصيات قليلة. [1]

ونأتي إلى تفصيل النقاط السابقة:

أولاً :محاولة كرامرز التقليل من شأنه عندما كان والياً على مغنيسيا . فقال :

" **وولي سليمان في عهد جده بايزيد سنجق كفهّ ، كما كان يعين في عهد سليم الأول في مغنيسيا واليًا عليها ، بيد أنه لم يكن له أي شأن مهم في حكمها** ". [2]

حاول كرامرز هنا التقليل من شأن سليمان القانوني عندما كان أميرًا على الولايات ، وهذا دأبهُ دائمًا إما أن يدخل القارئ في متاهات الاختلاف حول سنة الولادة ، أو التقليل من شأن السلطان بأي صورة .

لقد سبق واتضح كيف أن جده اهتم بتربيتهِ وتلقيه العلوم على يد خير العلماء والقادة ، وهذا ساعد على صقل شخصيته ، كما أنه تولى عدة مناصب إدارية ساعدت على ممارستهِ لشؤون الحكم في سن صغير مما أكسبهُ الكثير من الخبرة ، وقد أعتمد عليه والده السلطان سليم الأول كثيرًا عندما أصبح السلطان ، فقد كان ينوب عنه مثلاً في العاصمة إذا خرج سليم الأول على رأس حمله . وهكذا كيف يتسنى لكرامز أن يهون من أمرهِ عندما كان أميرًا ، وقد أراد بهذا التهوين أن لا يعطيهِ حقه وقيمتهُ .

منذ بلوغ السلطان سليمان القانوني سن الخامسة عشر بدأ في تولي المناصب ، حيث عيِّن واليًا علي قرا حصار [3] ، ثم واليًا على بولي [4] ، وأخيرًا على كفه سنة 915هــ /

---

[1] Nisancizade Mehmed Ramazan , Mir'at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 122-123 ; Muneccimbasi, Tarih , II , Terceme : Ismail Erunsal , S. 511 .

ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 64 .

[2] كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 146 .

[3] قرا حصار : Kara – Hissari . مدينة في الأناضول مركز لواء قره حصار شرقي ، في ولاية طرابزون . س . موستراس: مرجع سابق ، ص 393 .

[4] بولي : Bolou . تقع في الأناضول ، مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه ، في ولاية قسطموني . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 180 .

1509م ، وهذه المناصب قد أكسبته الخبرة لدرجة أن والده سليم الأول اعتمد عليه عندما أعتلى العرش ، فقد أرسل له لينوب عنه في غيابهِ عن إستانبول ، وعين بعدها والياً على أماسيا [1] ، وحينما قام السلطان سليم الأول بحملتهِ على بلاد فارس وبلاد الشام ومصر عامي 920هـ - 923هـ/ 1514م - 1517م أقام الأمير سليمان في أدرنه لحماية منطقة الروميلي ، ثم أرسله مرة أخرى على أماسيا عقب عودة والده إلى إستانبول .

وأخيرًا عين واليًا على مغنيسيا [2] ، حيث ارتقى عرش الدولة العثمانية وهو والي عليها.[3] ولا شك أن تولي إدارة العديد من المدن ساعده على أن ينجح تماماً في إدارة مغنيسيا ويكون له شأن مهم في حكمها وليس مثلما أشار كرامرز دون دليل أو استناداً لواقعة تاريخية.

ثانيًا : إهمال كرامرز تمامًا للتمردات التي واجهته . فقال :

لقد ابتلي سليمان في بداية حكمهِ بأربع تمردات عطلت حركة الجهاد الإسلامي ، إذ اعتقد بعض الولاة الطموحين أن موت سليم الأول القوي ، وجلوس ابنه الحديث السن ، سيتيح لهم فرصة الاستقلال عن الدولة العثمانية ، فنجد أنه ما أن وصل خبر توليه العرش إلى بلاد الشام حتى أعلن جان بردي الغزالي الوالي هناك التمرد والعصيان على الدولة العثمانية .فقد أرسل جان بردي الغزالي رسالة [4] إلى والي مصر خاير بك أوضح له فيها أن الوقت حان لإعادة المماليك لحكم المنطقة من جديد ، إلا أن خاير بك أرسل هذه الرسالة إلى السلطان العثماني ، في الوقت الذي بدأ فيه الغزالي خطوات إعلان استقلال الشام حيث لقب نفسه بالملك الأشرف ، وقام بسك العملة باسمه، بالإضافة إلى مراسلتهِ للشاه إسماعيل الصفوي أكبر عدو للدولة العثمانية، وسعيهِ للتحالف مع الدولة الصفوية ، وفي إطار ذلك قام بإرسال رسالة[5] ثانية للشاه إسماعيل الصفوي ، طلب منه التعاون السري فيما بينهما ، ومجيء الشاه شخصيًا للشام أو تقديم مساعدة عسكرية ضخمة له ، وقد حدث هذا الأمر في

---

[1] أماسيا : Amassia ، مدينة في الأناضول على نهر يشيل إرماق ، مركز لواء يحمل الاسم نفسه ، في ولاية سيواس . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 104 .

[2] مغنيسيا Mantissa ، تقع في الأناضول مركز لواء صاروخان في ولاية أيدين ، عند سفوح جبل مغنيسيا . س . موستراس : مرجع سابق ، ص466 .

[3] Nis ancizade Mehmed Ramazan . Mir at – I Kainat , II , Istanbul 1290 , S . 123 .

[4] الوثيقة محفوظة في أرشيف طوب قابي سراي .

[5] الوثيقة محفوظة في طوب قابي سراي تحت رقم 5469 . قسم الأرشيف .

عهد سليم الأول، ولم يكن السلطان سليم الأول يدرك خطورة الأمر إذ إنه تم من خلف ظهرهِ، فانتهز جان بردي الغزالي وفاة سليم الأول وتولي سليمان القانوني ، فعاوده الحلم القديم ، وثار على الدولة العثمانية ، حتى إنه طلب مساعدة عسكرية وأسلحة من فرسان القديس يوحنا برودوس ، لكن الفتنة لم يكُتب لها الاستمرار حيث خرج جان بردي إلى حلب وحاصرها ، وهناك أُرسلت قوة عثمانية قمعت الحركة وأعدم جان بردي عام 928هـ / 1521م وأُرسلت رأسه إلى إستانبول .[1] وبذلك لم يصل الشاه إسماعيل الصفوي إلى هدفهِ ومبتغاه في التحالف مع الغزالي ضد الدولة العثمانية .

والتمرد الثاني قام به والي مصر أحمد باشا عام 930هـ / 1524م الذي كان يطمح في أن يصبح صدرًا أعظم فلم يفلح ، فطلب من السلطان سليمان القانوني ولاية مصر فوافق السلطان ، وما أن دخل مصر حتى حاول استمالة الناس، وأعلن نفسه سلطانًا مستقلاً منفصلاً بذلك عن السلطان سليمان القانوني . لكن أهل الشرع في مصر وجنود الانكشارية لا يعرفون إلا سلطانًا واحدًا وخليفة لكل المسلمين ، وهو السلطان سليمان القانوني ، لذلك ثاروا عليه وقمعوا الحركة وقتل الوالي أحمد باشا الذي عُرف بخيانته .

والتمرد الثالث كان تمردًا شيعيًا علويًا من الرافضة ، ترأسه بابا ذو النون 933هـ / 1526م ، حيث جمع حوله ما بين ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ثائر، وفرض الخراج على منطقة يوز غاد [2]، وقويت الحركة في ظل هزيمة بعض القادة العثمانيين الذين حاولوا قمع هذه الحركة ، حتى استطاع القانوني إخماد الحركة وأرسلت رأسهِ إلى إستانبول .

والتمرد الرابع والأخير تمرد شيعي علوي أيضًا قام به قلندر جلبي في منطقتي قونيه ومرعش ، [3] وخطورة هذه الحركة تكمن في أتباعهِ الذين تسلطوا على المسلمين السنة في تلك المناطق ، حيث قاموا بقتل وتعذيب أهل السنة ، وكان شعار قلندر جلبي أن من يقتل

---

[1] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 89 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 199 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 87 .

Ali , Kunhu'l – Ahbar , I . U. Kutup . Nr . TY , 5959 , Varak 217 a – 219 b ; Muneccimbasi , Tarih , III, Terceme : Ismail Erunsal , S . 511 .

يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص261 .

[2] يوز غاد : Yozghad تقع في الأناضول في ولاية ولواء بوزاووق . س . موستراس : مرجع سابق ، ص502 .

[3] مرعش : Merasch ، مدينة تقع في الأناضول ، مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه ، في ولاية أضنه . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 461 .

مسلمًا سنيًا ويعتدي على امرأة سنية يكون قد حاز على أكبر ثواب ، وفي النهاية استطاع الصدر الأعظم إبراهيم باشا قمع هذا العصيان وقتل قلندر جلبي . [1]

ولم يشرِ كرامرز إلى هذه الأحداث ليس لعدم أهميتها في تاريخ السلطان سليمان القانوني ، وإنما للتقليل من أهميتهِ قدر الإمكان .

ثالثًا : المرور على أعظم فتوحات سليمان القانوني مرورًا سريعًا ، ووصف الفتح العثماني بالتخريب والتدمير . فقال :

" كان أولها حرب بلغراد ، وهي الحرب التي أشعلها سوء معاملة ملك المجر لرسل الترك الذين جاءوا يسألونه أداء الجزية ، فقد أستولى الصدر الأعظم بيري باشا على بلغراد 1521م ، وصاحبه قيام الجنود الترك بتدمير سرميه ". [2]

على الرغم من أهمية فتح بلغراد وانتشار الإسلام بها ، إلا أنه لم يعطِ الفتح حقه ، ولم يذكر الأحداث المصاحبة له .

كان المجريون يتولون حمايتها ، وقد توترت العلاقة بين العثمانيين والمجريين في ذلك الوقت توترًا شديدًا ، إذ إن ملك المجر لويس الثاني امتنع عن دفع الجزية السنوية للدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليم الأول ، فأرسل له السلطان سليمان القانوني رسولاً وهو بهرام جاوويش يعلمه بتولي سليمان الحكم ويطلب دفع الجزية ، فما كان من ملك المجر إلا أن قتل الرسول ، مما أغضب السلطان سليمان القانوني وجعله يعلن الحرب على بلاد المجر ، وبدأ في تجهيز جيش قوي وسار على رأسهِ صوب المجر عام 928هـ / 1521م وحاصرت القوات العثمانية بلغراد برًا ومن ناحية النهر ، وسُلِّمت المدينة بعد شهر واحدٍ من الحصار ، واتخذها العثمانيون قاعدة حربية تنطلق منها الفتوحات لقلب أوروبا ، وأثناء حرب بلغراد فتح العثمانيون العديد من القلاع المهمة في منطقة بلغراد مثل زملين ، ثم حول كنيسة بلغراد إلى مسجد حيث أدى فيه صلاة الجمعة ، [3] وهو بذلك اقتدى بأعمال جدهِ الفاتح .

وعين على حماية المدينة كل من يحيى باشا زاده وبالي بك ، وقد شارك في فتح بلغراد عدد كبير من العلماء والأولياء ، إضافة إلى طلبة العلم الذين يدرسون في مدارس

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 327 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 91 .

[2] كرامرز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص147 .

[3] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص202 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 262 . يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص 45 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 62 . إسماعيل سرهنك حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج1 ، ص 533 .

أدرنه وفليبة وصوفيا ، [1] وقد أصبحت بلغراد منذ ذلك الحين الباب الكبير الذي انفتحت على أوروبا ، ولهذا عرفت بلغراد بدار الجهاد ، وبعد أن عاد القانوني إلى إستانبول استقبل سفراء كل من راغوزا وروسيا والبندقية ، كما عقد معاهدات جديدة مع بعض الدول الأوروبية .

إن فتح بلغراد أدى إلى تأهب الدول الغربية المسيحية ضد الدولة العثمانية ، وقرر القانوني أن يجهز حملته الثانية على رودوس ، وأراد أن يجعل جمهورية البندقية خارج نطاق الحرب ، فعقد معاهدة مع السفير البندقي ماركو مثيو الذي جاء لتهنئته بمناسبة فتح بلغراد .

وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة التي تكونت من 30 مادة اتصفت بالطابع التجاري ، إلا أنها أمّنت وقوف جمهورية البندقية موقف الحياد خلال حملة السلطان على رودوس . [2]

أما بالنسبة لتخريب سرميه فلم تذكر المصادر والمراجع التاريخية الموثوقة أمرًا عن هذه المدينة أو حتى موقعها ، فكرامرز ذكر حدثًا خاطئًا في معناه لمجرد أن يسمم فكرة فتح بلغراد بصفة عامة ، حيث لم تذكر المدينة مطلقًا إلا في مادتهِ .

" وتم في العام التالي فتح جزيرة رودوس وانتزاعها من يد فرسان القديس يوحنا الذين ظلوا مدة طويلة خطرًا يهدد السيادة العثمانية ؛ لأنهم كانوا يساعدون القراصنة المسيحيين " . [3]

إن الخطر الذي شكله فرسان القديس يوحنا في رودوس لم يكن ليتلخص في كلمتين لقد تشكلت عدواتهم منذ استقرارهم فيها ، وقد قاموا بعدة أعمال عدائية ضد سائر المسلمين عامة ، وضد الدولة العثمانية خاصة .

في البداية مع إظهار عدائهم الشديد للمسلمين إنهالت عليهم التبرعات والأموال التي استغلوا معظمها لتحصين جزيرتهم التي صمدت أمام محاولات محمد الفاتح ، بالإضافة إلى اكتسابهم الكثير من الأموال الناتجة عن أعمال القرصنة التي مارسوها على الدوام ضد السفن

---

[1] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج1 ، ص 533 .
Fridun Bey , Munseat , I , S .507 – 509 ; Lutfi Pasa , Tevarih – I Al – I Osman , S. 303 ; Bostan , Gazavat – 1 Sultan Suleyman Han , Suleymaniye Kutup . Ayasofya , Nr . 3317 ; Varak 32 a – 34 b.

[2] Resat Ekrem , Osmanli Muahedeleri , Istanbul 1934 , S . 39 .

[3] كرامرز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 147 .

الإسلامية في البحر المتوسط ، لدرجة أن أصبحوا مصدرًا للفزع والرعب لكافة السفن الإسلامية الحاملة للتجارة والحجاج[1] ، بالإضافة إلى مساعدة فرسان رودوس للخارجين عن الدولة العثمانية مثل مساندتهم للأمير جْم والترحيب به وتقديم المساعدة له واستغلاله وسيلة للضغط على السلطان بايزيد الثاني ، وقيامهم بإمداد جان بردي الغزالي بالأسلحة والعتاد خلال عصيانه ضد الدولة العثمانية ، [2] وعلى الرغم من صغر مساحة هذه الجزيرة إلا أنها هددت الدولة العثمانية بشدة .

ومما زاد ترصد سليمان القانوني بهم اتخاذ فرسان القديس يوحنا لرودوس وكرًا للقراصنة إذ زادت هجماتهم على التجار المسلمين وسلب أموالهم ، وإلحاق الأضرار بالأهالي، وساعدهم على ذلك قرب الجزيرة من سواحل الأناضول ، وكان الأسير المسلم الذي يقع في أيديهم لا يتركونه ، فكانوا إما يبيعونه للبلدان الأخرى، أو إذا كان غنيًا يطلبون مبلغاً لافتداءِ ، وإذا كان الأسير فقيرًا فمصيره السجن الدائم . والعذاب المستمر ، حيث يتلقى الأسرى وخاصة الأتراك أسوء معاملة ، فبالإضافة للتعذيب يكلفون بأشق الأعمال في النهار وفي الليل يلقون في السجن ، حيث لا يستطيعون الاستلقاء والاتكاء لأن جميع أجزاء جسمهم مقيدة بالحديد والسلاسل ، وإذا طالبت بهم الدولة العثمانية رفضوا تسليمهم . [3]

أما الهدف الجغرافي والاستراتيجي ، فقد تحتم فتح رودوس من أجل تأمين سلامة طريق الحج ، والعمل على زيادة استقرار السيادة العثمانية في البحر المتوسط ؛ [4] لأنها تشكل خطرًا فادحًا على الدولة العثمانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط جعل الحملة العسكرية ضرورة حتمية .

وكان يحكم الجزيرة في ذلك فرسان سنجان ، وأرسل سليمان القانوني الأسطول العثماني المكون من 400 سفينة حربية صوب الجزيرة عام 929هـ/ 1522م بقيادة

---

[1] كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز ، العدد الثاني ، 1399هـ ن ص169 ، ص167 .

[2] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 170 . كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، ص 179 ، 180 .
لمزيد من المعلومات عن استغلال قراصنة رودوس للأمير جْم الرجوع : محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 47 . كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، ص ص 180-183 .

[3] كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، ص ص 179- 181 .

[4] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 170 . كمال الدسوقي : مرجع سابق ، ص 183 .
Pecevi , Tarih , I , S 77 . Solakzade ., Tarin , S . 440 , fridun Bey , Munseat , I , S . 529 .

مصطفى باشا ومصلح الدين رئيس قورت أوغلي [5] ، ثم انضمت إليهم 24 سفينة مصرية بقيادة بالي بك[1] ، ولحق بهم القانوني على رأس جيشه ، وقد وصل الأسطول العثماني على سواحل جزيرة رودوس بعد عشرين يوماً ونزل العساكر إلى البر ، [2] كما نقلُت القوات البرية التي وصلت إلى ميناء مرمريس [3] ، وقد طلب السلطان تسليم الجزيرة مقابل ضمان أموال أهاليها وأرواحهم ، وإذا لم تتم الموافقة فسوف يضطر إلى دخول الجزيرة عنوة ، فرفضوا الطلب واستمر الحصار ، ثم استطاع الجيش العثماني اقتحام الجزيرة وبدأت اشتباكات عنيفة بين الطرفين ، حيث اضطر الفرسان إلى الاستسلام وطلب الأمان من السلطان [4] ، وعلى الرغم من مقاومة الفرسان حتى اللحظة الأخيرة واضطرارهم إلى الإستسلام أمام قوة الجيش العثماني ، فقد عفا عنهم السلطان القانوني ولم يعاملهم معاملة الأسرى ؛ لأنه أعجب ببسالتهم وشجاعتهم في الدفاع عن جزيرتهم [5] ، وتم تسليم الجزيرة في نهاية عام 929هـ / 1522م، فخضعت جزيرة رودوس للحكم العثماني منذ ذلك التاريخ [6] ، وقام العثمانيون عقب الفتح بإنقاذ حوالي 3000 من الأسرى المسلمين الذين احتجزهم القراصنة في الجزيرة ، كما قاموا أيضًا بإعمار الجزيرة . وبهذا الفتح سقطت دولة سانت جين [7] الصليبية التي تعد الممثلة الأخيرة للبابوية في الشرق ، كما أنتهت القرصنة في غرب الأناضول ن وانتشر الأمن والسلام في الطريق البحري الذي يربط بين إستانبول وسوريا ومصر ، وكذلك في طريق الحج ، وقد أمر القانوني بتحويل كنيسة سانت جين إلى مسجد ، وصلى فيه صلاة الجمعة بإمامة الشيخ زنبيللي علي أفندي الذي يعد الفاتح المعنوي للجزيرة

---

[5] Pecevi , Tarih , I , S . 71 ; Solakzade , Tarih , S . 440 ; Fridun Bey , Munseat , I , S . 529 .

[1] Fridun Bey , Munseat , I , S . 531 .

[2] Mehmed Sukru , Esfar – I Bahriye – I Osmaniye , I , Istanbul 1306 , S . 346 .

[3] مرمرميس : Marmariss . بلدة في الأناضول ، في ولاية أيدين ، لواء منتشه ، تقع في عمق شرم صغير في الأرخبيل ، وتعد مرسى جيدًا . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 463 .

[4] Fridun Bey , Munseat , I , S . 534 – 539 .

[5] أورخان محمد علي روائع من التاريخ العثماني ، ص 73 .

[6] Ali , Kunhu'l – Ahbar , I . U . Kutup . Nr . TY , 5959 , Varak 220 a ; Pecevi , Tarih , I , S . 71-73.

[7] القوة العسكرية التي كانت تسيطر على رودس أطلق عليها سانت جين Saint- Jean وهي قوة تأسست أثناء الحملات الصليبية في عكا ، لمحاربة المسلمين ، وهي تقوم بدورها بواسطة أسطولها القوي ، حيث تضرب في سفن المسلمين المارة بالبحر الأبيض المتوسط . يلمازا وزتونا : الدولة العثمانية ، ج1 ، ص262 .

، وقد ألحقت جزيرة رودوس إلى سنجق ميديللي تحت إمرة الوالي العثماني ديزدار محمد جلبي .[8]

ولا شك أن ضم سليمان القانوني لجزيرة رودوس جعل السيادة للدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط ولو لفترة من الزمن ، وقد أثبت السلطان القانوني بتحويله لكنيسة سانت جين إلى مسجد أنه مثل جدهِ الفاتح ؛ حيث أراد إثبات أن هدفهِ الأول من فتح رودوس هو نشر الإسلام ، وقد أصبحت نقطة ارتكاز مهمة زادت من تأثيرهم ورفعت من قدراتهم في أوروبا لقرنين أو أكثر من الزمان .

ويقول : " لقي عند موهاكس الجيش المجري الذي كانت منازعات قواده قد أضعفته، وقامت هناك موقعة حربية في 28 أغسطس 1526م قتل فيها لويس ملك المجر وتحطمت مقاومة المجر ، فغدت البلاد مفتوحة أمام الغزو وبادر السلطان وواصل سيره دون توقف فاحتل المجر في سبتمبر 1526م القصبة بودا التي أصبحت طعامًا للنيران على الرغم من صدور الأوامر بتحاشي ذلك ، على أن هذا الاحتلال إنما كان احتلالاً موقوتًا ، وعبر الجيش التركي الدانوب ... مخربًا البلاد التي مر بها وقاضيًا على مقاومة القوات المتعددة التي صادفته " .[1]

لم يهدأ بال ملك المجر بعد فتح العثمانيين لبلغراد عام 928هـ / 1521م فبعد هذا التاريخ بخمس سنوات أخذ الملك لايوش يأجج نار الحقد الصليبي بجمع القوى الأوروبية لقهر العثمانيين ، حيث راسل كلاً من شرلكان الإمبراطور الألماني فرديناند الأرشيدوق النمساوي يطلب منهما التحالف معه ، وفي تلك الأثناء بدأ السلطان سليمان القانوني يعد العدة للحرب ضد المجر . [2]

قاد سليمان القانوني في ربيع الأول 933هـ / 1526م حملة عسكرية ضخمة تكونت من أكثر من 60 ألف جندي حتى وصل إلى سهول المجر ، وفي صحراء موهاج بالمجر التقى جيش القانوني بالجيش المجري بقيادة ملك المجر لايوش وهو أيضًا يلقب بلويس الثاني، ودارت بينهما معركة من أضخم المعارك الإسلامية المسيحية ، استمرت

---

[8] Fridun Bey , munseat , I , S . 534 – 538 . أنظر الخريطة في الملحق .

لمزيد من أخبار فتح رودوس . يلمازا وزتونا : الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص ص 262 – 265 . كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودس ، ص 185 ، 192 .

[1] كرامرز : مادة سليمان القانوني : دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 148 .

[2] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 92 .

ساعتين من الزمن ، حقق فيها العثمانيون انتصارًا ساحقًا بفضل الله ﷻ حيث إن الهدف الأساسي هو نشر وتحويل هذه الأراضي إلى الإسلام ، ثم بفضل الخطة الموفقة من العثمانيين ، فقد أدَّت المدفعية العثمانية المتقدمة دورها في هذا النصر السريع الذي حققه الجيش العثماني بعد قطعهِ هذه المسافات الطويلة ، وقد لحقت بالجيش المجري خسائر فادحة على الرغم أنه كان من أرقى جيوش أوروبا ؛ فقد اشتهر بفرسانهِ المدرعين الذين مات كثير منهم في ساحة المعركة ، وفرت أعداد ضخمة منهم إلى المستنقعات في المناطق المحيطة ، ومن ضمنهم ملك المجر الذي لم يلق حتفهِ بحد السيف العثماني ، لكنه لاقاه عند هربهِ إلى المستنقعات حيث مات غرقًا فيها . وواصل الجيش العثماني سيره نحو العاصمة المجرية بشت [3] التي استسلمت دون مقاومة تذكر ، حيث كانوا يريدون الحكم العثماني لما عُرف عنه من رحمة وتسامح.

ومنها أعلن السلطان سليمان القانوني خضوع مملكة المجر للحماية والإدارة العثمانية، ثم أصدر فرمانًا بتعيين جون زابوليا [1] ملكًا عليها وهو أمير منطقة فيها ، وبعد نهاية الحملة عاد سليمان القانوني إلى إستانبول وأرسل إلى الملوك والحكام يخبرهم بهذا الانتصار العظيم.[2]

لم يشر كرامرز مطلقًا لحادثة هروب وغرق ملك المجر وذلك لأنها مخجلة تمامًا ؛ حيث فر من أرض المعركة تاركًا جيشه يواجه الهزيمة بمفردهِ ، وقد تعثر أثناء هروبهِ بإحدى المستنقعات ومات غرقًا ، تغاضى كرامرز عن هذه الحادثة لأنها توصم الملك بالجبن وإنما أشار أنه قُتل في هذه المعركة ليظهره بمظهر البطل المزيف .

وكملاحظة للدراسة فعلى مر التاريخ السلاطين العثمانيين الأوائل الفاتحين الذين خاضوا المعارك على رؤوس جيوشهم لم يهربوا مطلقًا من أرض المعركة حتى ولو تأكدوا من الهزيمة ، وخير مثال على ذلك السلطان بايزيد يلدريم في موقعة أنقرة .

---

[3] تحول بعد ذلك اسمها وأطلق عليها بودابست .

[1] جون زابوليا يُعرف في المصادر الشرقية باسم الملك يانوش .

[2] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في دول البحار ، ج1 ، ص 535 ، 536 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص 92 ، 93 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج 1 ، ص 266 ، 271 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص210 ، 214 .

Solakzade , Tarih , S . 453 – 457 ; Ahmed Refik , Sahaif – I Muzafferiyat – I Osmaniye , Istanbul 1325, S. 339 – 403 ; Ali , Kunhul – ahbar , I U. Kutup . Nr . Ty , 5959 , Varak 227 a – 229 b .

وبدلاً من أن يذكر كرامرز هذه الحقيقة بدأ في صياغة أحداث ليس لها أساس من الصحة ولم تُذكر مطلقاً في المصادر ، ومن ذلك حرق بشت أو المناطق التي حولها ، وكأنه يغطي على الحقيقة السابقة بكذبة واضح تلفيقها .

إن أهم نتيجة لمعركة موهاج هي تمزيق أراضي المجر تدريجيًا ثم ضمها نهائيًا إلى الأراضي العثمانية .

ويقول : " في هذا الوقت قام التنافس بين فرديناند وجون زابوليا حول التاج المجري، وأرسل كلاهما رسولاً إلى الآستانة ، واستطاع رسول زابوليا أن يكسب عطف السلطان ، وخرج السلطان في مايو عام 1529م بصحبة الرسول وبلغا موهاكس حيث أعترف سليمان بزابوليا ملكًا على المجر وأقبل زابوليا لتقديم فروض الولاء لمولاه ". [(1)]

وهذا استهزاء آخر من كرامرز بالسلطان سليمان القانوني ، حيث صوَّره بأنه ضعيف الشخصية ، فالرسل تتحكم بهِ وكأن زابوليا هذا ليس من الموالين أصلاً للقانوني وهو الذي عينه واليًا عليها – كما تقدم – .

بعد ثلاث سنوات من الحملة العثمانية التي فرضت الحماية العثمانية على مملكة المجر، وصلت رسالة إلى السلطان سليمان القانوني من زابوليا " يانوش " تفيد بأن أرشيدوق النمسا فرديناند يقوم بإستعدادات عسكرية لأخذ المجر ، ونال تأييد كثير من أمرائها ليصبح ملكًا عليها بدلاً منه ، وبالفعل تحرك فرديناند إلى مدينة بودين وأعلن نفسه ملكًا عليها وفشل زابوليا في الدفاع عنها .

فتحركت الجيوش العثمانية عام 936هـ / 1529م ووصلت إلى بودين في المجر، واستطاع سليمان القانوني استعادتها مرة أخرى ، وفي احتفال مهيب توّج جون زابوليا ملكًا على المجر . [(2)]

[(1)] كرامرز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص148 .

[(2)] يلمازا وزتونا : الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 272 ، 273 . إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج 1 ، ص536 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 910 .

1- Gy . Kaldy – Nagy : Suleimans Angriff auf Europa , Acta Orientalia , xxvlll/2 , 1974 , P . 163 – 212; Gy . Szekely : la Hongrie et la Domination Othomane (xve – xvlle Siecles) , Studia Turco – Hungarica , Budapest , 1975 , P . 38 vd .

وفي استعادة السلطان سليمان القانوني لمدينة بودين بمنتهى السرعة دلالة واضحة على رغبة أهالي المجر في الحماية العثمانية الإسلامية ، حيث لمسوا مدى التسامح الديني والأمن والاستقرار في ظل حاكم موالي لهم .

ورغم حماس كل من فرديناند وشرلكان لحرب سليمان حيث توقع القانوني أن يتحركا ضد للحصول مرة أخرى على بودين والانتقام منه ، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث ، فقد استولى الرعب على قلوبهم والخوف من مواجهتهِ مرة أخرى ، وتكرر مأساة موهاج .

ويقول : " بدأ الجيش التركي حصاره المشهور لمدينة فينا ، لكنه اضطر لرفع الحصار والارتداد عنها مخربًا في عودتهِ أرباض المدينة ، وظل القتال دائرًا في السنتين التاليتين مع النمسا ولم تفلح البعوث المختلفة التي أرسلها فرديناند في عمل أي شيء "[1].

لكن القانوني أصر على محاربة فرديناند فحاول تتبعهُ ، وحاصر لذلك مدينة فينا عاصمة النمسا في العام نفسه حيث اشترك في الحصار مائة وعشرون ألف جندي وثلاثمائة مدفع ، لكن ملك النمسا قبل الحصار فر هاربًا من عاصمتهِ ، وحدثت مناوشات كبيرة أمام أسوار فينا لكن الجيش العثماني لم يتمكن من فتحها ، خاصة وأنه لم يكن هدف الحملة حصار فينا أصلاً ، فلم يستعد الجيش لذلك وترك جميع مدافعه الثقيلة في بودين ؛ إذ جاء الشتاء وبدأت المؤنة الغذائية تنقص . إضافة إلى قلة الاستعداد لحصار مثل ذلك ، فضلاً عن صعوبة الإمدادات في ظل المناخ القارص البرودة ، والثلوج المنهمرة ، وفي أثناء الحصار قامت قوات عثمانية أسمها " المغيرين " وهي وحدات خاصة في الجيش العثماني ، بالدخول إلى الحدود الألمانية حيث شنوا الغارات وأخذوا الغنائم وأسروا الكثير ، ثم عادت جميع القوات إلى إستانبول دون التمكن من فتحها . [2]

ولعل هذه الإغارات الصغيرة على الحدود الألمانية هي التي صورت لكرامرز أن الجيش العثماني أثناء انسحابه قد دمر وحرق أرباض المدينة ، لكن الجيش المنسحب كان في

---

[1] كرامرز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 148 .

[2] يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 272 ، 273 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص93 ، 94 .

H.G.Yardaydin : Kanuninin Culusu ve llk Seferi , Ankara , 1961 , S . 15-44 .
S . Turan : Radosun Zaptindan maha Muhasarasina , Kanuni Armagani , Ankara , 1970 , S . 57-72 .
S . Tekindage : Rodasun Febhi , BTTD , ll / 7 , 1968 , S , 58-65 .

حالة منهكة ويعاني من نقص شديد في المؤنةِ ، لذلك حتى ولو أغار أو قام بمناوشات فإنما تكون لتأمين المواد الغذائية ، هي غارات ضعيفة جدًا ، خاصة وأنه لم يكن هدف الحملة حصار فيينا ، وإنما العثور على الجيش الألماني وإبادتهِ . أما عن سبب الإغارات على الحدود الألمانية فقد كانت لأن أرشيدوق النمسا فرديناند يريد أن يعترف به القانوني ملكًا على المجر ، بل وحاصر بودين لهذا الغرض ، وقامت الحامية العثمانية هناك بالدفاع مع القوات المجرية عن المدينة لكنها لم تفلح ، لذلك قرر سليمان القانوني إرسال حملة سمُيت بحملة ألمانيا عام 940هـ / 1533م هدفها دحر القوات الألمانية . [3]

لقد علق كرامرز على هذه الفترة بأن البعوث التي أرسلها فرديناند لم تفلح، مصورًا السلطان سليمان القانوني بأنه حاكم رافض للسلم ويهوي المعارك والحروب ، بسبب عدم ذكره لهدف هذه البعوث ، وهو طلب الاعتراف بفرديناند ملكًا على المجر ، والتي هي أصلاً تحت الحماية العثمانية بل وحِصَارها من قبل الأخير . وبعد وفاة زابوليا (يانوش) عام 947هـ / 1540م قامت النمسا بالتدخل في شؤون المجر ، فلم تستطع أرملة الملك يانوش الدفاع عن حقوق ولدها الصغير فطلبت النجدة من السلطان القانوني الذي قام بإرسال الوزير محمد باشا وخسرو باشا على رأس القوات البرية ، وخير الدين باشا على رأس القوات البحرية إلى المنطقة ، ثم تبعهم على رأس جيشه واستطاع طرد الجيوش النمساوية والألمانية من المجر ، وقام بنصب ابن زابوليا الصغير ملكًا على المجر ، وتعيين مارتيشوز وصيًا عليه لحين بلوغ رشده . [1]

وعلى الرغم من انتهاء الحدث عند هذا الحد إلا أن الأمر لم ينتهِ وبقي فرديناند يتسول المساعدات من الدول الأوروبية والبابا في حربهِ ضد السلطان سليمان القانوني .

رابعًا : ذكر كرامرز أسبابًا خاطئة جدًا في مسألة ضم السلطان سليمان القانوني لبغداد وتبريز .

فقال : " وكانت الحملة السادسة من حملات سليمان موجهة ضد فارس ، وكان السبب فيها مطالبة الترك ببدليس وبغداد ، واحتل الصدر الأعظم إبراهيم مدينة تبريز عام

---

[3] محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 94 ، 95 .

لمزيد عن الصراع بين الطرفين الرجوع إلى :-

M.Guboglu : Kanuni Sultan Suleyman in Bagdan Seferi ve Zaferi (1538 M . / 945 H) . Belleten , L/198 , (1987) , P . 727 – 805 .

[1] إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 92 .

1534م ، ودخل السلطان بشخصه في شهر سبتمبر ، وسار الجيش التركي في تبريز إلى بغداد مارًا بهمدان دون أن يبدي الشاه طهماسب أية مقاومة ". [2]

لم تستطع الدولة الصفوية أن تقوم بأي عمل عدواني ضد الدولة العثمانية لمدة 19 سنة وذلك بعد هزيمتها في معركة جالديران ، لكن الشاه طهماسب الذي خلف أباه إسماعيل في الحكم بدأ حكمهِ بمظالم كبيرة تجاه أهل السنة ، كما قام بالتحالف مع الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية ، وفي هذه الأثناء قام والي بغداد ذو الفقار خان بإرسال مفاتيح بغداد إلى السلطان القانوني عام 936هـ/ 1529م ، كما بدأ بذكر اسم القانوني في خطبة الجمعة ، إضافة إلى سك النقود بإسمهِ ، ثم طلب العون من القانوني لحماية نفسه وأهل بغداد من الشاه طهماسب ، لكن القانوني لم يلتفت بعين الاهتمام إلى مطالبه لانشغاله بحملته العسكرية على فيينا . وهذه الأثناء قام الشاه طهماسب باحتلال بغداد وقَتلَ الوالي ذا الفقار خان ، إضافة إلى تخريب أضرحة أهل السنة في بغداد بما فيها ضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة ، وقد أدت هذه الحركات العدوانية الصفوية إلى أن يقوم السلطان القانوني بإنهاء حملته على النمسا ، ليتسنى له التوجه نحو معاقل الدولة الصفوية في الشرق، فجهز جيشاً قويًا وسار على رأسهِ عام 941هـ / 1534م ، ودخل تبريز بدون أية مقاومة في العام نفسه ، وأرسل السلطان جيشاً قويًا بقيادة إبراهيم باشا إلى بغداد ، ثم تبعه السلطان بجيشه ودخلها منتصرًا ، وقضى فصل الشتاء فيها ، حيث أمر بترميم مرقدي الإمام الأعظم والشيخ عبد القادر الجيلاني ، كما أمر ببناء دار لإطعام الفقراء بقرب القبر . وهكذا أُنقذت بغداد من الطغيان الصفوي ودخلت هي والبصرة تحت الحكم العثماني.[1] ولا شك أن دخول الجيوش العثمانية لبغداد وتبريز دون مقاومة جاء نتيجة لرغبة الأهالي في الحكم العثماني ، وكالعادة كانت سمعة العثمانيين المتسامحة تسبقهم دائمًا .

ثم استغلت الدولة الصفوية انشغال السلطان القانوني بفتوحاته العسكرية في أوروبا لمدة أثنى عشر عاماً ، فاستولى الشاه طهماسب على بعض القلاع الواقعة على حدود الدولتين في الأناضول ، وقام بإرسال عملائه إلى الأناضول لبث الدعاوى الشيعية فيها ، إضافة إلى القيام بقتل أهل السنة في بعض المناطق ، كما قام الصفويون بتغيير الآذان وتحريف

---

[2] كرامرز : مادة السلطان سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 149 .

[1] Tayyib Gokbilgin , Arz ve raporlarina gore Ibrahim Pasa nin Irakavn Seferindeki illk tedbirleri ve futuhati "

الفرائض، إضافة إلى شتم السيدة عائشة ﷺ والخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ وقد أدت هذه الأعمال الهدامة إلى ردود فعل عنيفة عند المشايخ والعلماء والمفكرين في الدولة العثمانية، فقرر السلطان القانوني تجهيز حملة عسكرية ضخمة ، وتحرك على رأسها في عام 955هـ / 1548م ودخل القانوني تبريز ، لكنه لم يجد فيها الشاه طهماسب الذي هرب كعادته من ساحة المعركة [2] . وبعد أن مكث السلطان خمسة أيام في تبريز عاد إلى الأناضول ، وتوجه صوب حلب حيث قضى فصل الشتاء فيها ، وغادر السلطان حلب في عام 956هـ / 1549م إلى ديار بكر إذ مكث فيها مدة طويلة .

وفي هذه الأثناء قام بإرسال الوزير أحمد باشا إلى جورجيا للقيام بفتح للقيام بفتح بعض المناطق هنالك ، وتوجه هو نحو إستانبول ، وقد استغرقت هذه الحملة سنة وثمانية أشهر .

لكن الهدوء لم يستمر إذ قام الجيش الصفوي بشن غارات على القلاع العثمانية الواقعة على الحدود بين الدولتين في عام 958هـ / 1551م ، فاضطر السلطان القانوني تجهيز حملة أخرى على الدولة الصفوية ، خرج على رأسها عام 961هـ / 1553م حيث وصل حلب وقضى فصل الشتاء فيها ، وعقب وصوله إلى قارص في عام 962هـ / 1554م قام بدعوة الشاه طهماسب إلى ميدان المعركة [1] ، لكن الشاه كعادته لم يستجب لطلب السلطان وهرب من ساحة القتال ، وفي هذه الأثناء تم فتح بعض المناطق فعاد القانوني إلى أماسيا في العام نفسه لقضاء فصل الشتاء فيها ، وقد أدت تلك التحركات إلى زيادة مخاوف الشاه طهماسب فطلب الصلح عن طريق سفرائه الذين بعثهم إلى القانوني ، وبعد مشاورات بين الطرفين أبرمت معاهدة الصلح في أماسيا في 18 رجب 963هـ/ 29 مايو 1555م بين الدولتين العثمانية والصفوية ، وقد اقتسم الطرفان بعض المناطق الواقعة على الحدود ، كما اشترط القانوني عدم قيام الصفويين بشتم السيدة عائشة ﷺ والخلفاء أبي بكر وعمر عثمان ﷺ بعد الآن . وقد وافق الشاه طهماسب على هذه الشروط ، وقدم هدايا ثمينة للقانوني وللوزراء العثمانيين ، فوعدهم القانوني بالسماح لهم بزيارة بغداد وكربلاء فيما إذا

---

[2] Pecevi , Tarih , I , S . 267 – 284 .

[1] Fridun Bey , Munseat , ll , S . 19 – 22 ; Pecevi , Tarih , I , S . 311 – 325 .

أوفوا بعهدهم ، ولكن الحجاج عندما قدموا إلى بغداد نقضوا عهدهم حيث قاموا بنشر المذهب الشيعي سرًا بين الأهالي . [2]

لقد استفاد العثمانيون كثيرًا من تجاربهم في بلاد فارس ، فلم يفكروا مطلقاً في الظروف الصعبة المحيطة بتلك الأراضي ، وإنما كان هدفهم من هذه الحروب الإيفاء بواجب ديني مقدس لرفع الظلم عن مسلمي السنة في هذه البقاع ، وذلك بسبب تأكيد أحقيتهم في الخلافة الإسلامية على مسلمي العالم ، بالإضافة إلى حصر المذهب الشيعي في إيران .

وفي الوقت نفسه تأكد لديهم يقيناً بأن سيطرتهم على تبريز لن تكون إلا عابرة ؛ نظرًا لأنها كانت تكلفهم ثمناً باهظاً في المؤن والعتاد ، وفي الغالب كان الهدف هو إرجاع الصفويين لحدودهم ، وثنيهم عن عزمهم في نشر مذهبهم الشيعي .

لقد كانت أغلب الفتوحات التي خاضها السلطان سليمان القانوني تقع تحت طائلة الدفاع عن الحدود أو استنجاد من أهالي المنطقة بحكم أنه السلطان العادل الرحيم ، وهي لم تكن خطط غزاه طافت في ذهبهِ – كما ذكر كرامرز قبل ذلك – [1] ولم يكن القانوني هو المبادر بالحرب مطلقاً ، وإنما كانت معاركه دائمًا للدفاع عن المسلمين ، ويفرضها الواقع .

ولا شك أن عهد القانوني احتوى في طياتهِ كثيرًا من المعاني الإسلامية وكثيرًا من الأحداث التي تعطيه الحق في أن يصبح من أعظم سلاطين الدولة العثمانية ؛ فيكفيه فخرًا ظهور حركة الجهاد الإسلامي البحري وتبلورها في عهده .

خامسًا : إطلاق صفة القرصنة على الجهاد البحري في عهدهِ . فقال :

---

[2]Reast Ekrem , Osmanli Muahedeleri , Istanbul 1934 , S . 45 ; Pecevi , Tarih , I , S . 336 – 340 .

لمعرفة المزيد عن تفاصيل الصراع العثماني الصفوي الرجوع إلى :

1- فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 30 – 50 .

G.Veinstein : XVI , Yazyilda Karadeniz in Kuzeyindeki Steplerde Buluran Osmanli Kolonizasyon Ciftlikleri , (trc . Y . Cezar) , IFM , Ulgenere Armagan , XI III / 1-4 (1987) , 81 – 82 =

= F. Emecen : Kanani Devri , Dogustan Gunumuze Buyuk Islam ; Torihi , Istanbul , 1989 , x, S , 328 – 329 .

F. Kirzioglu : Osmanlilarin kafkas – ellerini Fethi (1451 – 1590) , Ankara , 1976 , S. 183 – 203 , F.Emecen : Kanuni Devri , S , 333 – 336 .

I . Sahin – F . Emecen : Amasya Antlasmasi , DiA , iii , S . 4-5 . F . Emecen : Kanuni Devri , S , 340 – 342 .

T . Gokbilgin : Ar2 ve Raporlarina Gore Ibrahim Pasanin Trakeya Seferindeki ilk Tedbirleri ve Futuhat, Belleten , xx 83 , 1987 , P . 449 – 482 .

- Grammont : Osmanlilar – Safeviler – P. 215 – 218 .

[1] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص 160 .

" مغامرات بحرية قام بها ... خير الدين بربروسه .. فوطد بها سلطان الترك السياسي على ساحل إفريقيه الشمالي والمحيط الهندي ، بيد أن هذه الفعال لم تخلُ قط من خلائق القرصان " . (2)

لقد تصادف مع النجاح العسكري العثماني في البر ، نجاحات أخرى في البحر ، فعقب عهد الفاتح تضاعفت القوة البحرية العثمانية وقطعت في ذلك شوطًا كبيرًا وعظيمًا خلال ق10هـ / 16م ، لا سيما مع جهود البحارة المهرة الذين تربوا على الإسلام وحب الجهاد والدفاع عن المسلمين .

لقد أطلق كرامرز كلمة قرصنة على الجهاد البحري الإسلامي ، دون توضيح لمعنى الكلمة ، وذلك لمجرد ترك ذهن القارئ يتخيل أعمال السلب والنهب التي كانوا يقوموا بها ، ولكن في الحقيقة فهي قرصنة بمفهوم مختلف تمامًا عن اللصوصية والسلب ، إذ هي كالكمائن البحرية التي يعدها الخصم لسفن أعدائهِ لمنع الصادرات والواردات ، والاستيلاء على ما يمكن لمجرد الإضرار بالعدو ، وهي بذلك تقترب من مفهوم الحصار الاقتصادي البحري في الوقت الحاضر ، وقد لعبوا دورًا مؤثرًا في تحويل البحرية العثمانية إلى قوة مؤثرة ، وكان لأعمال الجهاد الإسلامي قوانين ونظم ، فمثلاً كانت تنتهي بانتهاء الحرب أو العداء القائم ، كما أن الجهاد الإسلامي راعى المعاهدات والقوانين المعمول بها بين الدول . (1)

وقد ظهرت هذه الحركة ردة فعل طبيعية لأعمال القرصنة الأوروبية التي تحركت تحت المظلة الدينية ضد الممالك الإسلامية في الأندلس ، ثم انتقلت إلى شمالي إفريقيا ، وقوي عود الجهاد البحري الإسلامي في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس ، حيث انضم إلى حركة الجهاد البحري الإسلامي الذين فروا من الأندلس والذين يعرفون في نفس الوقت أمور الملاحة وفنونها والمدربون على صناعة السفن .

---

(2) كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص 173 .

(1) زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 79 – 80 . أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 51 . كانت سفن القرصنة العثمانية ، تبحر لأجل (الجهاد وإعلاء كلمة الحق) للمزيد انظر : الأرشيف العثماني برئاسة الوزراء بإستانبول ، تصنيف BOA ، دفاتر مهمة ، الدفتر رقم 70 ، الحكم السلطاني ، رقم 416 ، والدفتر رقم 72 ، الحكم السلطاني رقم 264 ، 903 .

ولا شك أن الأخوين عروج وخير الدين بربروسا خير مثال على ترجمة فكرة الجهاد الإسلامي البحري ، حيث اتجهوا منذ صغر سنهم إلى الجهاد البحري في البحر المتوسط ، ثم إن حبهم للجهاد ، زاد من ضراوة الصراع بين القوى المسيحية في بلاد الأندلس والشمال الإفريقي وبين المسلمين ، فحققوا انتصارات على الأسبان والبرتغاليين ، ولم تكن هذه الانتصارات إلا تحت مظلة الدولة العثمانية التي احتضنتهم وقدمت لهم الدعم المادي والعسكري . [2]

وهكذا يتضح أنهم أطلقوا عليها القرصنة الإسلامية ولكن شتان بين قرصنة الأوروبيين وقرصنة المسلمين التي ساعدت الهاربين وأغاثت الملهوفين ، بالإضافة إلى أن السلطان القانوني قد واجه البرتغاليين في المحيط الهندي وحاول التصدي لهم .

لقد قام البرتغاليون بإغراق السفن الإسلامية في المحيط الهندي وبقتل التجار المسلمين، فأمر السلطان القانوني واليه على مصر سلميان باشا بإرسال حملة بحرية إلى الهند[1] ، لتلبية نداءات الذين تضررت مصالحهم التجارية ووقعت تحت تهديد حملات البرتغاليين ، وقد تحرك سليمان باشا من ميناء السويس على رأس أسطوله المكون من 76 سفينة حربية و20.000 مقاتل في عام 945هـ/ 1538م ، واستطاع أن يضم عدن في العام نفسه ، حيث عين بهرام بك واليًا عليها ، ثم ضم زبيد وألحقها إلى ولاية اليمن وعين عليها والي غزة مصطفى بك. وفتح سليمان باشا قلاعًا عديدة في المنطقة ، وزود مسلمي الهند بالأسلحة والعتاد اللازم ليقوموا بحماية أنفسهم من البرتغاليين ، كما قام بمساعدة مسلمي إريتريا والصومال والحبشة في طريق عودته ، وأخيرًا وصل الوالي سليمان باشا إلى جدة في عام 946هـ / 1539م حيث أرسل الأسطول إلى ميناء السويس ، وسار هو نحو مكة المكرمة للقيام بأداء فريضة الحج ، ثم عاد إلى إستانبول ، ورفع تقريرًا إلى السلطان القانوني حول حملته التجارية إلى المحيط الهندي التي استمرت عامًا واحدًا [2]، وقد أدت هذه الحملة إلى تسهيل التجارة البحرية العثمانية وضمان استمرارها في منطقة المحيط الهندي . [3]

---

[2] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 80 – 85 . أنظر الخريطة في الملحق .

G. Veinstein : les Preparatifs de la Campagne navale Franco – Turque de 1552 a travers les Orders du divan Othoman , Revue de I ' occident musulman et de la mediterranee xxxix . 1985 , PP. 35 – 67 .

[1] Y . Mughnl : Kanuni Devri , S . 109 – 137 ;

C.Orhonlu : xvi , Asrin ilk Yarisinda Kizildeniz Sahillerinde Osmanlilar , TD , XVI , 1962 , S. 1-10 . Belleten , 1957 , Sayi 83 ; Lutfi Pasa , Tevarih – I AL – I Osman , S . 3050 – 360 .

[2] Muneccimbasi , Tarih , II , Terceme : Ismail Erunsal , S . 571 – 573 .

[3] Katip Celebi , Tuhfetul – Kibar , S . 57 – 59 ; Pecevi , Tarih , I , S . 22 .

وأخيرًا لابد من ذكر موقف مشرق له ، وهو موقفهِ من اليهود ، حيث ساندهم منذ فتح رودوس بكافة وسائل الدعم على اعتبار أنهم رعايا عثمانيون .

وقد قدم اليهود الذين كانوا قد استقروا في جزيرة ساقيز [4] إلى رودوس عام 930هـ/ 1523م ، فقام القانوني بمنحهم امتيازًا لتشغيل معدن كبريت اينجيرلي ، ثم فتح القانوني بودابست عام 933هـ / 1526م فنقل اليهود القاطنين في بودين وبودابست واسترجوت الذين كانوا يعانون من ضائقة مالية إلى إستانبول ، كما أسكن بعضهم في سالونيك وفي مناطق أخرى من الدولة العثمانية .

وعندما قام القانوني بإعادة بناء أسوار القدس الشريف عام 969هـ/1561م سنحت الفرصة لليهود باستيطان بعض أجزاء فلسطين ، كما منح السلطان الطبيب اليهودي جوزيف ناسي امتيازًا على مدينة طبرية مقابل دفع مبلغ معين سنويًا ، فتمكن الأخير من استقدام اليهود وتوطينهم في المدينة مستغلاً ثقة القانوني به ، غير أن هذا الأمر لم يدم طويلاً لعدم إقبال اليهود على الإقامة في فلسطين في تلك الفترة وذلك لفقر المنطقة .

وعقب دخول القانوني إلى المجر استقدم أغلب اليهود الساكنين هنالك واستوطنهم في نيوقبولي وأدرنه ، فأصبحوا رعايا للدولة العثمانية ، ووصف اليهود معاملة السلطان القانوني تجاههم بقولهم : " لقد جاء المسيح المنقذ وجلب لنا السعادة "[1] وأوضحوا أن الطريق إلى الدولة العثمانية هو طريق الحياة بالنسبة لهم.

وكما قام القانوني بإرسال رسالة إلى البابا باول الرابع عام 974هـ / 1566م حيث طلب منه إطلاق سراح بعض اليهود على أنهم مواطنون عثمانيون ، وقد لبى البابا مطالب السلطان فورًا .

وأخيرًا لجأ اليهود الهاربين من الأندلس إلى قائد الأسطول العثماني على عهد القانوني، خير الدين بارباروس ؛ لينقذهم من المذابح التي تعرضوا لها في الأندلس ، فجلبهم القائد إلى الدولة العثمانية واستوطنهم في مختلف مناطقها . [2]

سادسًا : " نسب جميع الأعمال التي قام بها إلى الرجال الأكفاء المحيطين به " فقال :

---

[4] ساقيز : Sakiz جزيرة في بحر إيجه ، عرفُت قديمًا بجزيرة فيوس ، عاصمتها ساقيز على الساحل الشرقي منها . س . موستراس : مرجع سابق ، ص 291 .

[1] Abdurrahman Kucuk , Donmeler ve Donmelik Tarihi , Istanbul 1973 , S . 103 .

[2] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج1 ، ص 165 ، 167 .

" ومن العسير أن نحدد ما كان لسليمان من شأن في هذا التقدم ، على أننا نلاحظ أن تركيا في عهده كانت حافلة بعدد كبير من الرجال الأكفاء النابهين ... بيد أن كل واحد من هؤلاء كان له فيما يظهر شأن في محيطهِ الخاص ، ويبدو أنه كان ثمة نقص في الشخصيات العظيمة المتصلة مباشرة بالسلطان ، على أننا نستطيع أن نقول إن معظم الأسباب في تقدم الإمبراطورية العثمانية في عهد سليمان راجع إلى النظام السياسي الداخلي للدولة ، وقد وضع أساس هذا التقدم السلاطين السابقون". [3]

إن كرامرز لا يعرف ماذا يريد أن يوصل للقارئ في هذه الفقرة حيث أنه أفرد صفحات لوصف فتوحات السلطان سليمان القانوني كان هو المبادر فيها طمعًا في توسيع حدود دولتهِ أو أختلاف في وجهات النصر على حسب قولهِ ، إذ لم يذكر قط الأسباب الحقيقية للفتوحات ، ثم يعود ويناقض نفسهُ عندما ينسب هذا كله إلى رجال أكفاء حولهِ ، من هم إذا لم يذكر سوى قادة جيوشهِ والصدور العظام الذين يرافقونه ، فلو كانوا هم القائمين بأمر هذه الفتوحات لما كلف السلطان نفسهِ وخرج على رأس كل حملة ، وإنما ترك هذا الأمر للرجال الذين حولهُ ، لقد حدث ذلك فعلاً ولكن في السنوات الأخيرة من حياتهِ ، ولم يكن اعتمادًا على رجال أكفاء وإنما لحاجته للراحة والاستجمام نظرًا لكبر سنهُ ، وعلى الرغم من ذلك فقد وافته المنية وهو على رأس إحدى الحملات ، لقد كان عظيمًا في تجهيزاتهُ العسكرية ، واستخدام أحدث الأساليب في القتال . وقد ناقض كرامرز نفسه حين أورد في المادة نفسها ، أنه كان يدعو دعاءً حارًا ليلة معركة موهاج ، فضلاً عن أنه أظهر من الخشوع الكثير عندما حمُل نعوش الشهداء عقب فتح بودا . [1]

وناقض نفسهِ أيضاً عندما أكد أن هناك نقصًا في الشخصيات . أيُّ نقص وهو أكد أن التقدم قام على أكتافهم ؟! إن أعمال السلطان سليمان القانوني وفتوحاتهِ السابقة الذكر لهي أبلغ دليل على عدم صدق أقوال كرامرز الأخيرة .

لقد قام بإعادة تحريك عملية الجهاد الإسلامي حيث تخطى عقبتين من أهم ما واجههُ أثناء حكمهِ وهما :

---

[3] كرامرز : مادة سليمان القانوني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 153 .

[1] كرامرز : مادة سليمان الأول ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 152 .

الأولى : فتح بلغراد التي كانت بمثابة المدخل أمام الفتوحات العثمانية التي ستتقدم بعد ذلك إلى قلب أوروبا .

الثانية : فتح رودوس التي تمثل سدًا طبيعيًا يلزم اجتيازه بالنسبة لحركة الفتوحات العثمانية في البحر المتوسط ، لا سيما وأن الأخيرة كانت تحتل موقعًا متميزًا يمكنه قطع الارتباط مع مصر الولاية العثمانية الجديدة . إضافة إلى أن فرسان رودوس كانوا يشكلون خطرًا عظيمًا على الدولة العثمانية باعتبارهم وحدة الطلائع المسيحية الأقرب إلى سواحل الأناضول ، وكان قيام السلطان سليمان القانوني – وهو لا يزال في أوائل سنين حكمهِ – برفع راية الجهاد الإسلامي ضد بلغراد ورودس التي شاء جدهُ محمد الفاتح يومًا فتحها ، إنما هو إشارةٌ إلى بداية عهد عظيم في الفتوحات العثمانية برًا وبحرًا ، وكانت بمثابة نقاط ارتكاز مهمة زادت من تأثيرهم ورفعت من قدرتهم الحربية ، وأعطتهم المفتاح لنجاح العثمانيين بعد ذلك في الغرب الأوروبي.

لقد سار سليمان القانوني على مبدأ أسلافه فتوَّج هذا النظام بإصدار قانونه الخاص الذي نسب إليه ، حيث كان سجلاً لأحكام الشرع في تنظيم الجيش ، والإقطاع الحربي ، وفيه بنود لإصلاح أحوال الرعية ، وقد استفتى شيخ الإسلام في كل بند من بنودهِ بحيث جاء عمل تشريعي متكامل . [1]

لقد بذل القانوني جهودًا مضنية لإقرار التطوير في الدولة العثمانية بأسلوب إسلامي ، حيث تحمل مسؤولية حماية العالم السني ، وهو واجب عدَّه مقدسًا ضد الصفويين في الشرق ، بالإضافة إلى أنه أخذ على كاهلهِ نشر الإسلام في قلب العالم المسيحي ، والسعي لوضع قوانين على الشريعة الإسلامية ، وتتصدر جميع هذه الأمور العدالة والرحمة ، كل هذه الأمور جعلت من القرن 10هـ/ 16م عصر السلطان سليمان القانوني .

لقد ترك القانوني بصماتهِ الواضحة على مظاهر التقدم السياسي والثقافي والعمراني، ساعدهُ على هذا التقدم ، الأسس والنظم التي وضعها السلاطين الذين سبقوه ، فأصبحت بحق قائمة على أساس نظام ثابت ومحدد للحكم .

---

[1] حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص 7 . ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 655 .

وبلغت الأعمال العمرانية في عهدهِ حدًا يكاد يبلغ الكمال من حيث بناء المساجد والمدارس والأسبلة ، وعندما توفي تركها بدرجةٍ لا يمكن قياسها مع تكامل أي دولة أوروبية خلال المدة نفسها .

ولم يكن عهده الذي وصلت فيه الحدود إلى أقصاها من الاتساع فحسب ، وإنما كان عهدهِ العهد الذي تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إداري .

مارس سياسة التسامح الديني بمنتهى البساطة ، ويعد أجرأ وأكرم من أندادهِ المسيحيين؛ إذ سمح للمسيحيين واليهود ممارسة شعائرهم الدينية في البلاد العثمانية بحرية تامة في الوقت الذي اعتبرت فيه الدول الأوروبية ممارسة أي مذهب من المسيحية مخالف لمذهب الدولة وجريمة يستحق عليها العقاب ، ويكفي أنه أوى اليهود الفارين من بشاعة محاكم التفتيش في الأندلس ، وعلى الرغم من ذلك كله إلا أنه عانى عيوبًا كثيرة في علاقتهِ الأسرية.[2]

وقد وافته المنية عندما خرج على رأس حملته العسكرية عام 974هـ/1566م لفتح بلغراد على الرغم من مرضه الشديد ، حيث أقام عسكره في صحراء زملين مقابل بلغراد .

في هذه الحملة قام السلطان بفتح قلعة أرلوق التابعة للنمساويين والواقعة على حدود أردل ، وضمها إلى أراضي الدولة العثمانية ، وإثر قيام حاكم زيجتوار بقتل بعض رجال الدولة العثمانية وبسلب ونهب أموالهم توجه السلطان صوب زيجتوار في العام نفسه ، وأرسل إليهم سفيرًا تعهد لهم بضمان أرواحهم مقابل دفع الجزية للدولة العثمانية ، وأعلن إعفاءهم عن الجزية في حالة اعتناقهم الدين الإسلامي . [1]

ولكنهم رفضوا مطالب السلطان فبدأ الجيش العثماني بحصار زيجتوار ، وقد أشرف السلطان بنفسه على حركات الجيش وعمليات الحصار على الرغم من شدة مرضه ، واستطاع برتو باشا أن يفتح قلعة جيولا ، لكن مرض السلطان اشتد عليه وصار على فراش الموت ، فطلب من صوقللي محمد باشا أن يتولى قيادة الجيش في حالة وفاته ، كما أمر بتنفيذ فرمانه الذي أعده يتضمن تعيين أبنه سليم خلفاً له ، ثم انتقل إلى رحمة الله ﷻ بعد منتصف ليلة 20 صفر 974هـ السادس من سبتمبر / 1566م بعد حكم دام 48 سنة . [2]

---

[2] ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 56 – 67 .

[1] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli , ll , Istanbul 1999 , S . 162 – 163 .

[2] Pecevi , Tarih , I , S . 421 – 423 ; Ali , Heft Meclis , Istanbul 1316 , S . 1-40 .

كان رجلاً مهذبًا ، رحيمًا ، كريمًا ، إنسانًا عادلاً ، أحبهُ شعبهُ واحترمه ، لدرجة أنهم كانوا ينتظرون مروره أثناء ذهابهِ لتأدية صلاة الجمعة حتى يحيوه ويرد هو عليهم التحية بهدوء ، أتسم بعدم التحيز ، وإذ قارناه بنظرائه في الغرب وجدناه أكثر تمدناً وتحضرًا ، حتى وصل إلى أن عدَّه فرانسوا الأول ملك فرنسا حاميه وحليفه ، وبوفاتهِ انتهت مرحلة مشرقة ساطعة من مراحل التاريخ العثماني بلغت فيه الدولة العثمانية ذروة قمتها وقوتها . [3]

لقد جاءت مواد سلاطين العصر الذهبي في الدولة العثمانية في دائرة المعارف الإسلامية مخالفة تمامًا لما هو متوقع ، فعلى الرغم من طول بعض المواد إلا أنهم لم يعطوا كل سلطان حقه في الكتابة عن تاريخ حياته فجاءت أغلب معلوماتها مهلهلة ، يغلب عليها الاختلاف بين المؤرخين والذي لا يشكل أهمية في سياق الأحداث ، مع إغفال كثير من الأحداث الصحيحة والثابتة في سير السلاطين ، ولم تاتِ المواد على ذكرها مطلقاً .

وقد أغفلوا كثيرًا من مزايا السلاطين ، وأغفلوا أيضًا الأحداث التي تدل على عظمة أخلاقهم ولم يعطوهم حقهم في ذلك بل قدموا صور باهتة عن أخلاقهم وأفعالهم الإسلامية.

وقد دأب كتاب مواد الدائرة المختصة بسلاطين عصر القوة على ذكر الأحداث صحيحة في بدايتها ، وذلك حتى لا يستشعر القارئ منهم الخديعة ، ثم يبدأوا بعدها في نسج باقي الأحداث من خيالهم ومن واقع حياتهم وتاريخهم . مما أفقد الأحداث التاريخية مصداقيتها.

يتضح من موادهم أنهم لم يتحملوا عناء السفر والبحث والتنقيب يومًا عن المصادر الصادقة والصحيحة كما صوروا لنا ، وإنما اعتمدوا على خيالهم المريض المشوه على الإسلام ، والدليل أنهم لم يعتمدوا على مصادر عثمانية أو تركية إلا فيما ندر وفي معلومات محدودة جدًا وليست ذات أهمية ، وكانت أغلب مصادرهم أجنبية .

لكن هذا الأسلوب سيتغير في سلاطين عصر الضعف حيث ستلون المادة بحسب سلطانها .

---

[3] ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 67 .

المبحث الثالث :

رؤية المستشرقين في الكتابة عن ضعف الدولة العثمانية واضحملالها :

نحن نقف الآن على عصر مختلف تمامًا عمَّا مرَّ بنا في الصفحات السابقة، حيث انقضى العصر الذهبي للدولة العثمانية ، وذهب السلاطين الذين اهتزت أوروبا كلها تحت أقدام جيوشهم وحوافر خيولهم ، وبدأ عصر الضعف والانحلال، إلا من ومضات قليلة ظهرت تحت ضغوط أوروبية عظيمة .

فقد تغير ميزان القوى ، وأضحت الدولة العثمانية بين عشية وضحاها تعاني من الخمول الداخلي ، وسيطرة أصحاب المطامع والمصالح الشخصية ، وانتفت عن السلاطين صفات القوة والشجاعة والإقدام ، حتى إنهم ركنوا إلى حياة الرفاهية في القصور ، وتركوا قيادة الجيوش للوزراء والصدور العظام ، فتحول الجيش لأداة هدم ، وفقد صفة الإيمان وحب الجهاد ، وأصبح مأجورًا يتقاضى الأموال مقابل القيام بالواجب . وهذه سنة الله في خلقه ضعف من بعد قوة .

وفي الجهة المقابلة ظهرت الدول الأوروبية وقد نفضت عنها الكسل والركود وتقدمت في فن الحرب والأسلحة الحديثة ، وبدأت تستدير على الدولة العثمانية تنتقم منها وتلتهم أراضيها القطعة تلو الأخرى ، بمنتهى القسوة والعنف عن طريق إثارة القوميات في بلاد أوروبا الشرقية ؛ حتى تضمن عدم التفات الدولة العثمانية مطلقًا إلى محاولة تحسين أحوالها وأوضاعها الداخلية من ناحية ، ومن ناحية أخرى يسهل عليها فصل تلك المناطق عن الدولة العثمانية مما يساعد على إضعافها ، بالإضافة إلى استمرار المعارك والحروب على الجبهات الخارجية، مما ضمن للدول الأوروبية عدم ثبات واستقرار الدولة العثمانية ، مما أثار حروبًا دائمةً لا تهدأ ، نتائجها الخسارة الفادحة والدائمة للدولة العثمانية في المال والأنفس، مما أفقر الدولة العثمانية وحرمها الراحة والتقاط أنفاسها والالتفات إلى الداخل والعمل على تحسين الأوضاع ونشر العلم والمعرفة والتطور ؛ لأن هذه الأمور لا تنمو تحت قصف المدافع .

ومع حلول القرن 12هـ / 18م أُصيبت الدولة العثمانية بهزائم متكررة ومتلاحقة ، كشفت بجلاء أن الدولة العثمانية بكيانها القديم لن تستطيع حماية وجودها أمام الدول الأوروبية، خاصة مع تنامي قوة أوروبا الاقتصادية والعسكرية ، وظهرت ضرورة إصلاح

النظم العسكرية بصورة ملحة جدًا ، [1] وبات على السلاطين المصلحين خوض صراع مرير مع الأنظمة القديمة البالية ، حتى يعمَّ الإصلاح .

إن التراجع والتأخر الذي لحق بالدولة العثمانية جعلها تدفع الثمن غاليًا ، وهو خسارة أجزاء من أراضيها وتقلص حدودها في الجهات الأوروبية . [2]

وتفاقمت مشكلة الجيش وبالأخص الانكشارية ،فعندما أراد السلاطين إدخال النظم العسكرية الحديثة لم يكن أمر الإصلاح هينًا ؛ إذ واجه معارضة شديدة واستهلك قوة رجال الدولة وجهودهم لمدة تزيد عن نصف قرن ، وكانت العقبة أمام السلاطين المصلحين هي كيف أن أمة ظلت قرونًا طويلة تكره أوروبا بشدة ، ثم تضطر في حقبةٍ من تاريخها أن تأخذ منها أسباب التطور ؟! ومما يزيد من غرابة الأمر أن الفئة التي حاولت الإصلاح هم السلاطين ، في الوقت الذي جرت العادة فيه أن الشعب هو من يطالب بالإصلاح ، وهنا تكمن غرابة الأمر حيث رفضته بعض فئات الشعب والانكشارية ، وبعض رجال هيئة العلماء ممن تسرب لهم الخلل ولهم مصالح في استمرار التأخر . [3]

ولعل من أبرز السلاطين العثمانيين الذين قادوا حركة الإصلاح ودفعوا حياتهم ثمنًا لهذا الأمر ، هو السلطان سليم الثالث وهو خير من يمثل هذه المرحلة التي أحس فيها السلاطين العثمانيين بضرورة الإصلاح وإدخال الأساليب الحديثة المتقدمة التي جعلت أوروبا تصل إلى هذا المستوى من القوة .

وقد قدم المستشرق كرامرز مادة السلطان سليم الثالث ، لكنه – للأسف كديدنهِ دائمًا – أمسك بأطراف موضوع واحد فقط ودار في حلقتهِ دون الخروج بنتيجة مفيدة للقارئ ، وعلى الرغم من طول المادة إلا أنها لم تركز على إصلاحات السلطان سليم الثالث ، السياسية والإدارية والاقتصادية ، وركزت فقط على إصلاحاته العسكرية في الجيش ، والنظام الجديد الذي أدخله على الانكشارية، والذي فشل بالطبع نتيجة لعدم ترك الدول الأوروبية للدولة العثمانية حتى تركز على هذا الإصلاح .

---

[1] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص318 .

[2] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص319 .

[3] أميرة علي مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص62 .

كما اعتمد كرامرز في مادتهِ على تلفيق مجد مزيف لفرنسا ، حيث صوَّر أن التطور الذي كاد أن يحدث في الجيش كان يقوم على أكتافها وبنصائحها فقط ، وليس لأن السلاطين رغبوا في الإصلاح أكثر من الشعب .

ويمكن تقسيم ما ورد في المادة إلى ما يلي :

أولاً : توليه الخلافة في فترة حرجة واستمرارها وقتًا طويلاً من حكمه ، وأطلق كرامرز على الحروب بأنها امتياز لعهدهِ ونذير شؤم .[1]

ثانياً : ذكر سببًا خاطئًا تمامًا لمعاهدة الدولة العثمانية مع السويد [2].

ثالثًا : لم يقدم شرحًا وافيًا عن الخطر النمساوي على الدولة العثمانية ، و أرجعه لسبب خاطئ هو عقد المعاهدة مع بروسيا [3].

رابعًا :عدم إعطاء فكرة صحيحة عن الإصلاح وبرنامج إعادة الهيكلة العسكرية.[4]

وسليم الثالث هو السلطان الثامن والعشرون للدولة العثمانية ، وابن السلطان مصطفى الثالث ، ولد في جماد ثاني 1175هـ / ديسمبر 1761م في قصر طوب قابي بإستانبول [5].

تلقى السلطان سليم الثالث منذ صباه تعليمًا عاليًا ، إذ درس العلوم الإسلامية وتعلم اللغة العربية والفارسية ، وكان خطاطًا وشاعرًا وملحنًا وعازفًا على الناي.[6]

كما تدرب على شؤون الإدارة ، وقام بدراسة سياسة الدول الأوروبية والتنظيمات الإدارية والعسكرية لهذه الدول بعد أن تولى السلطنة ، ليقوم بتحديث الجيش وأجهزة الدولة على غرار النظم الغربية ، ولهذا يعدّ سليم الثالث من أشهر السلاطين المجددين والمصلحين في التاريخ العثماني ، ومن جهة أخرى قام بأعمال كثيرة من أجل رفاهية الشعب وسعادتهِ ، وقد أعرب عن خدماته للأمة والدولة – عندما كان وليًا للعهد – بهذه الأبيات الشعرية :

إن أصبحت سلطاناً في هذه الدنيا   ستكون خدمة الأمة لي شعارًا

---

[1] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص135 .

[2] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص135 .

[3] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص135 .

[4] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص136 ، 137 .

[5] Mustafa Nuri Pasa , Netayicul – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S.22 .

[6] يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص643 .

ومن أهم مميزاته أنه كان كثير التجول في أزقة إستانبول متنكراً ، وقد ارتقى عرش الدولة العثمانية في يوم الاثنين 12 رجب 1203هـ / 8 إبريل 1789م وذلك إثر وفاة عمه السلطان عبد الحميد الأول [1].

حين اعتلى العرش كانت الدولة العثمانية تمر بأحلك الأوقات ، حيث عمتها الفوضى ، واصطبغت أراضي ولاياتها بالدماء بسبب كثرة التمردات ، وأصاب الخلل جميع أجهزتها ، بالإضافة إلى أن اليأس دب في نفوس الأهالي بسبب تدهور أحوال البلاد ، فقد كانت الحرب مستعرة على الجبهةِ الأوروبية ، حيث تحالفت روسيا مع النمسا وحققوا انتصارات على العثمانيين في عام 1203هـ/ 1788م .

وفيما يلي نقد النقاط التي وردت في المادة :

أولاً : توليه الخلافة في فترة حرجة واستمرارها وقتًا طويلاً من حكمهِ ، وأطلق كرامرز على الحروب بأنها امتياز لعهدهِ ونذير شؤم فقال :

" وقد امتاز عهد سليم بالحروب المشؤومة التي شنت على الدول الأوروبية وبالفتن التي هامت داخل البلاد مما دل على ضعف الدولة العثمانية " . [2]

في الوقت الذي جلس السلطان سليم الثالث على كرسي الحكم كان الجيش العثماني يحارب في جبهتين هما النمسا وروسيا ، فقام السلطان بجمع الديوان في 2 رمضان 1204هـ / 16 مايو 1789م للتشاور مع موظفي الدولة من ذوي المناصب العليا ، من العسكريين والإداريين والسياسيين وخبراء الشؤون المالية ووضع الحلول المناسبة للحرب القائمة . [3]

وفي هذه الأثناء كان وضع الجيش العثماني عسيرًا في جبهة الحرب الروسية ؛ حيث قامت القوات الروسية بحصار قلعة بندر الواقعة على ضاف نهر دينستر ، وذلك عقب استيلائهم على قلعة أوزي ، كما تجمعت مجموعة من القوات الروسية والقوات النمساوية في البغدان ، ثم عبر الجيش الروسي نهر الطونة وهزموا الجيش العثماني في مدينة قالاس وأسروا ما يقارب من ألفي جندي عثماني ، كما قاموا بتخريب المدينة وإحراقها ، وبعد أن

---

[1] Ahmed Cevdet , Tarih , IV , Istanbul 1309 , S. 234 ; Esad Efendi , Tesrifat – i Kadime , Istanbul, S.110-117 .

[2] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص135 .

[3] Ahmed Cevdet , Tarih , IV, Istanbul 1309 , S. 280 . أنظر الخريطة في الملحق .

سمع السلطان سليم الثالث بسقوط قالاس على أيدي الروس قام بعزل قائد الجيش العثماني في المنطقة يوسف باشا ، وعيَّن حسن باشا بدلاً عنه ، ولكن الأخير لم يتمكن كذلك من التقدم في جبهة الحرب وذلك لنقص العتاد والمؤن .

وفي هذا رد واضح على قول كرامرز بأن الحرب العثمانية ضد الدول الأوروبية في عهد السلطان سليم الثالث حروب مشؤومة شنتها الدولة العثمانية ضد الدول الغربية ؛ إذ إن هذه الحروب كانت مستمرة قبل ارتقاء سليم الثالث العرش ولم يكن هو سببها ، بل السبب الرئيس هو تعدي الجيوش الروسية على حدود الدولة العثمانية ومهاجمة المسلمين الآمنين ، وفي المقابل كان هدف الدولة العثمانية حماية ممتلكاتها من هجمات الأوروبيين والروس ؛ لأنَّ الدول الأوروبية وروسيا هي التي كانت تبدأ التعدي خاصة في فترة ضعف الدولة العثمانية.[1] أما في عصر القوة فكان الهدف مختلفًا ألا وهو الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام.[2]

ثانياً : ذكر سببًا خاطئًا تمامًا لمعاهدة الدولة العثمانية مع السويد ، فقال :

" وكانت المعاهدة التي عقدت مع السويد لمعاونة تركيا ماديًا في حربها مع روسيا قليلة الجدوى". [3]

لقد اقتنع السلطان سليم الثالث بأنه لا يمكن للدولة العثمانية أن تحرز النصر بمفردها في الجبهتين الروسية والنمساوية ، فعقد معاهدة صداقة مع السويد التي كانت أيضًا عدوة لروسيا ، وبحاجة إلى الأموال والنقود والدعم لتقوم بإعلان الحرب عليها ، وقد أبرمت المعاهدة العثمانية السويدية في 29 شوال 1204هـ/ 11 يوليو 1789م ، ومن أهم المواد الأربعة التي تضمنتها المعاهدة الدعمُ المالي الذي تعهدت الدولة العثمانية بتقديمه إلى السويد بمقدار 20000 كيس ذهب خلال عشرة سنوات مقابل قيام السويد بإعلان الحرب على روسيا ، ودعم الدولة العثمانية إذا ما خاضت حربًا ضد روسيا . [4]

---

[1] Ismail Baykal , Selim III . Devrinde imdad – I Sefericin para basilmak user saraydan verilen altin ve gumus esya hakkinda ' Tarih Vesikalari Dergisi , Ankara 1944 , III , Sayi : 13 , S. 36 – 50

[2] علي حسون : مرجع سابق ، ص148 ، 149 .

[3] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص135 .

[4] Ahmed Cevdet , Tarih , IV , Istanbul 1309 , S. 361 – 363 ; Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat,IV, Istanbul 1326 , S.28 .

ويتضح من ذلك أن من عاونت الأخرى ماديًا هي الدولة العثمانية لا العكس، وليس كما ذكر كرامرز ، حيث إن هذه المعاهدة كانت لتبادل المنفعة بين الطرفين ، ولكنّ كرامرز قلب الحقيقة تمامًا وغير الحدث التاريخي .

ثالثاً : لم يقدم شرحًا وافيًا عن الخطر النمساوي على الدولة العثمانية ، وأرجعه لسبب خاطئ هو عقد المعاهدة مع بروسيا فقال :

" وفي السنة التالية خف الخطر النمساوي وخاصة بعد عقد معاهدة التحالف مع بروسيا 31 يناير سنة 1790م ". [1]

لقد وقف الملك البروسي فردريك الثاني – حين جلس على كرسي الحكم في بروسيا عام 1201هـ/ 1786م – موقفاً معاديًا كسلفه من الملوك ضد النمسا وروسيا ، واقترح التحالف مع الدولة العثمانية ، وبعد مشاورات طويلة أبرمت معاهدة التحالف بين الدولتين في جمادى الآخرة 1205هـ / فبراير 1790م ، وتضمنت المعاهدة خمس مواد [2]على الشكل الآتي :

أولاً : سوف تعلن بروسيا الحرب ضد النمسا وروسيا اعتبارًا من ربيع 1205هـ/1790م ، ولن تتراجع عن قرارها إلا بعد قيام الدولة العثمانية بعقد الصلح مع الدولتين المذكورتين .

ثانيًا : تقوم الدولة العثمانية بمنح الامتيازات للسفن التجارية البروسية في البحر الأبيض المتوسط أسوة للامتيازات التي منحتها للدول الأخرى .

ثالثًا : في حالة قيام كل من روسيا والنمسا بإعلان الحرب على بروسيا وذلك بعد صلحهما مع الدولة العثمانية ، ستقوم الأخيرة بالاشتراك في الحرب بجانب بروسيا ضد روسيا والنمسا ؛ لأن حربهم ضد بروسيا تدل على خرقهم لمعاهدة الصلح مع العثمانيين .

رابعًا : في حالة عقد الصلح سيقوم ملك بروسيا بحماية الأراضي التابعة للدولة العثمانية وتقوم الأخيرة بمنح بروسيا نفس الامتيازات التي منحتها لفرنسا وبريطانيا.

---

[1] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 135 ، 136 .

[2] Mustafa Nuri Pasa , Netayicul – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 26 – 27 .

خامسًا : تتم المصادقة على هذه المعاهدة من قبل الطرفين العثماني والبروسي خلال خمسة شهور [3].

من جهة أخرى قام الجيش النمساوي المؤلف من 30.000 مقاتل بقيادة الأمير قوبورغ بحصار قلعة بيركوي التابعة للدولة العثمانية ، لكن الجيش العثماني المرابط في القلعة استطاع أن يهزم الجيش النمساوي ويستولي على عتاده وأسلحته، وقام السلطان سليم الثالث بمكافأة قائد القلعة عبدالله باشا ومنحهُ رتبة وزير وذلك لشجاعته وبسالته في حماية القلعة . [1]

فطلبت الحكومة النمساوية الصلح مع الدولة العثمانية إثر هزيمة الجيش النمساوي في موقعة بيركوي ، حيث قام الإمبراطور النمساوي بمراجعة الملك البروسي ليقوم بالتوسط لدى الدولة العثمانية من أجل الموافقة على الصلح ، وبعد مباحثات طويلة عقدت معاهد الصلح بين الدولتين بتاريخ 9 محرم 1205هـ/ 19سبتمبر 1790م في ريجنبرغ الواقعة على الحدود النمساوية وبحضور مندوب من حليفة بروسيا وهي بريطانيا [2].

وتعهدت الحكومة النمساوية بمقتضى هذه المعاهدة بإعادة الأراضي التابعة للدولة العثمانية التي استولت عليها في المعركة ، وإنهاء حربها مع العثمانيين ، إضافة إلى اتخاذها موقفًا محايدًا في الحرب العثمانية الروسية ، ولن تقوم بتقديم أية مساعدة للروس .

وقد قرر السلطان سليم الثالث أن يكثف قواته العسكرية على الجبهة الروسية وذلك عقب إبرامه معاهدة الصلح مع النمسا ، وفي هذه الأثناء أحرزت السويد التي وقفت بجانب الدولة العثمانية انتصارات متوالية ضد روسيا في العام نفسه ، لكن ملك السويد قام فجأة بإبرام معاهدة الصلح مع روسيا وذلك بتوسط إسبانيا ، على الرغم من تحالفه مع العثمانيين ، مما أدى إلى قيام روسيا بنقل قواتها العسكرية المرابطة في الجبهة السويدية إلى الجبهة العثمانية مما أدى إلى إحرازها انتصارات عديدة على الجيش العثماني في 14 ربيع الثاني 1205هـ / 22 ديسمبر 1790م في عدة قلاع ، منها كيلي وطولجا واساقجي وإسماعيل ، حيث قام الروس بمذبحة مروعة وقتل 30.000 ألف شخص في قلعة إسماعيل بعد الاستيلاء عليها ، بدون التفريق بين رجل وامرأة وطفل وشيخ ، واستمر القتل والسفك والفتك ثلاثة أيام

---

[3] Mecmu – i Muahedat , I , S. 90 ; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , Varak 120 a – 122b

[1] Mustafa Nuri Pasa, Netayici'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , 27 .

[2] Resat Ekrem , Osmanli Muahedeleri , S . 110 – 111 .

[3] ، وقد تأثر السلطان سليم الثالث كثيرًا إثر هذه الهزائم والخسائر في الجبهة الروسية ، فقام بعزل الصدر الأعظم شريف حسن باشا وتعيين قوجا يوسف باشا على منصب الصدارة العظمى ، فقام بجمع شمل الجيش العثماني في صحراء شمنو ، وأرسل قوة مؤلفة من 6000 مقاتل لاسترداد قلعة إسماعيل ، لكن دون جدوى ، وفي هذه الأثناء قام الجيش الروسي باحتلال قلعة ماجين ، ولكنه فشل في الدخول إلى قلعة إبرائيل للمقاومة الشديدة التي أبدتها الحامية العثمانية، فاضطر إلى الانسحاب . [1]

لكن السلطان سليم الثالث رأى أن الوضع متأزم فأضطر إلى طلب الصلح مع كل من النمسا وروسيا بسبب الهزائم التي لحقت بالجيش العثماني في جبهات القتال ، فقام بإجراء مباحثات الصلح مع النمسا وذلك بتوسط حكومات بريطانيا وبروسيا والفلمنك ، حيث أبرمت معاهدة الصلح بين النمسا والدولة العثانية في 4 ذو الحجة 1206هـ / 4 أغسطس 1791م في مدينة زيشتوفي الواقعة شمال بلغاريا .

وتضمنت المعاهدة عشر مواد ، من أهمها المواد الآتية :

أولاً : تعهدت حكومة النمسا بإعادة جميع المدن والقرى والقلاع التابعة للدولة العثمانية التي استولت عليها خلال الحرب .

ثانيًا : ستبقى قلعة هوتين بيد النمسا إلى أن تبرم اتفاقية الصلح مع روسيا .

ثالثًا : تعهد الطرفين النمساوي والعثماني بإطلاق سراح الأسرى .

رابعًا : تقرر إعادة قلعة بلغراد إلى العثمانيين . [2]

ومم لا شك فيه أنَّ هذه المعاهدة كانت في صالح الدولة العثمانية التي خسرت المعارك في كل جبهات الحرب .

في الوقت ذاته قامت الدولة العثمانية بإجراء مشاورات الصلح مع روسيا وذلك عقب تأمين الصلح مع النمسا ، حيث عقدت اتفاقية أولية بين الطرفين في قالاس في 11 ذو الحجة

---

[3] يوسف الثقفي : مرجع سابق ، ص 81 ، إسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص 239 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 303 .

Uasif , Tarih , I.U. Kutup . TY 5980 , Varak 73 a – 75 b .

[1] Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S . 29 – 30 .

[2] يوسف الثقفي ، موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص82 ; Mecmu – i Muahedat , I , S. 156 – 163

1206هـ/11 أغسطس 1791م ولمدة ثمانية شهور [3]. ثم بدأت محادثات الصلح النهائية بين الطرفين في مدينة قاش ، وأبرمت المعاهدة بداية عام 25 جماد الأولى 1207هـ/ 9 يناير 1792م .

وتضمنت هذه المعاهدة ثلاث عشرة مادة [1]، من أهمها ما يلي:

أولاً : يكون نهر دينستر حدودًا بين البلدين ، حيث تُعطى الأراضي الممتدة إلى مياه أوزي إلى روسيا ، أمَّا الأراضي الواقعة على الجهة الأخرى للنهر التي استولت عليها روسيا خلال الحرب فتعاد إلى الدولة العثمانية ، مثل منطقة بوجاق وكيلي وآق كرمان وإسماعيل وبندر وبغدان .

ثانيًا : يتعهد الطرفان بإطلاق سراح أسرى الحرب .

ثالثًا : تأسيس الصداقة بين الطرفين وإعفاء مذنبي الحرب .

وبعد إبرام هذه المعاهدة انتهت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية ، بعد أن استمرت أربع سنوات من قبل تولي السلطان سليم الثالث عرش الدولة ، وبدأ الجيش العثماني بمغادرة جبهة الحرب والعودة إلى إستانبول ، حيث قام السلطان سليم الثالث باستقبال الجيش في معسكر داود باشا [2].

وفي عام 1213هـ / 1798م جاءت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت إلى مصر ، فأرسل السلطان سليم الثالث الصدر الأعظم يوسف باشا على رأس الجيش العثماني لإنقاذ مصر وطرد الفرنسيين منها وصدرت الأوامر بإرسال الأسطول الحربي العثماني إلى مصر والبدء بتجهيزه فورًا ، وفي الوقت نفسه قامت الدولة العثمانية بعقد التحالف مع روسيا في 1213هـ / 1798م ، ومع بريطانيا في 1214هـ / 1799م ؛ للتصدي للفرنسيين ، ثم

---

[3] Tahsin Oz , "Selim III. In sir katibi tarafindan tutulan ruzname" Tarih Vesikalari Dergisi , 1944, Sayi : 14, S. 103-105 .

[1] محمود شاكر : الخلفاء العثمانيون ، ط1 ، المكتب الإسلامي ، 1424هـ / 2003م ، ص225 .
Mecmu – i Muahedat , IV , S. 4 -5 ; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , Varak 120 a – 122b
اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج1 ، ص644 .

[2] Tahsin Oz , "Selim III . in sir katibi tarafindan tutulan ruzname " Tarih Vesikalari Dergisi , 1944 , Sayi : 14 , S.187 – 188 .
اسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص239 .

أرسل السلطان سليم الثالث جيشاً آخر بقيادة قائد البحرية كوجوك حسين باشا ، أسفرت هذه الحملة عن قيام الفرنسيين بالجلاء عن مصر والرحيل عنها نهائيًا . [3]

وقد أبلغت بريطانيا الدولة العثمانية عن إستعدادها الكامل لإرسال أسطولها العسكري والحربي مزودًا بالذخيرة وكافة المعدات والتجهيزات العسكرية ؛ لتقديم المساعدة في طرد الفرنسيين من مصر عن طريق البحر المتوسط ، وصدرت أوامر الدولة العثمانية بأنه لابد أن توفر له كافة أسباب الحماية ، ويعامل بمنتهى الود والصداقة . [1]

وقد ظهر هنا تعاون إنجليزي لأول مرة مع الدولة العثمانية ، ليس ذلك لأنها تريد انتصار الدولة العثمانية ، ولكن لأنها تريد بقاء مصر ضمن دائرة نفوذ الدولة العثمانية – ولو حتى اسميًّا – لضمان استمرار مصالحها وعدم انقطاع خط مواصلاتها مع مستعمراتها في الهند ، لذلك أظهرت الحب والمودة للعثمانيين للحفاظ على مصالحها ، لكن لم يكن السلطان سليم الثالث لينخدع بهذا الأمر حيث اعتمد على نفسهِ وجيشهِ لإخراج الفرنسيين من مصر بعدما أحس بأن إنجلترا تريد إخراج الفرنسيين لتدخل بدلاً عنهم ، وهذا ما حدث بالضبط حيث بدأت بريطانيا منذ بداية ق 13هـ / 19م بحركات عدائية ضد الدولة العثمانية ، على السواحل المصرية ، حتى إن الدولة العثمانية أصدرت أمرًا بتحرك الأسطول البحري من رودس للتصدي لهم ، [2]مما يدل على خطورة هذه الهجمات .

رابعًا :عدم إعطاء فكرة صحيحة عن الإصلاح وبرنامج إعادة الهيكلة العسكرية فقال :

" وقد دعا بعد ذلك بقليل عددًا من ذوي المكانة والمثقفين من صفوف الجيش ومن رجال الإدارة والعلماء إلى تقديم بعض مشروعات الإصلاح ، وحملت المشروعات كلها إلى القصر، والظاهر أن هذه المشروعات قد عولجت على نحو هيأ الفرصة للحزب المناهض للإصلاح بأن يجعل منها مادة للسخرية وأن يبدأ دعوته في مناهضتها " . [3]

وقال أيضاً :

---

[3] للمزيد عن الحملة الفرنسية على مصر الرجوع :
يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص 648 – 652 . إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص242 – 247. وديع أبو زيدون : مرجع سابق ، ص213 ، ص 219 . علي حسون : مرجع سابق ، ص149 – 154 . تفاصيل الحملة الفرنسية أرشيف رئاسة الوزراء . وثيقة C–A–S 42713 . أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة C.H.R 1417 .

[1] أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة C.HR 1417

[2] أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة C.HR 236 .

[3] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص136 .

"وقد أسهم الفرنسيون مساهمة كبيرة في إعادة تنظيم هذا الجيش ، وقيل أن بونابرت كان قد فكر 1794م في وضع نفسه على رأس المدفعية التركية ".[4]

كان السلطان سليم الثالث يفكر في إجراء الإصلاحات وتحديث الدولة منذ أن كان وليًا للعهد ؛ لأن الجيش الانكشاري قد فقد قوته وتأثيره ولم يعد صالحًا ومفيدًا في الحروب وكثر فساده خاصة في الولايات العثمانية ، وظهر هذا الانحطاط في مستواه بشكل جلي في الحرب العثمانية الروسية ، فأصبح هناك حاجة ملحة إلى قوات برية وبحرية منظمة ، وبعد أن تولى السلطان سليم الثالث السلطنة قام بتنفيذ خطته في الإصلاحات وتحديث نظم الدولة العسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية على غرار النظم المتبعة في الدول الأوروبية ، واستشار في ذلك وجوه وأعيان الدولة وطلب منهم رفع اللوائح المتبعة والتقارير في هذا الخصوص ، ثم قام ببحث ومناقشة اللوائح الواردة في الديوان الهمايوني ، وأعدّ قانون الإصلاحات والتجديدات للانكشارية التي أصبحت خطرًا يهدد الدولة ، وذلك بما يتناسب مع النظم الإسلامية ، [1] ولأجل عدم الاصطدام مع فرقة الانكشارية قام السلطان سليم الثالث بإنشاء ثكنة السليمية وثكنة لوند في خارج إستانبول للجيش النظامي الذي قرر تشكيله ، ثم أمر بتأسيس معسكرات وثكنات في الأناضول وفي الروميلي للجيش النظامي الجديد الذي عين على رأسه القاضي عبدالرحمن ، كما قام السلطان بتخصيص خزينة خاصة من موارد وبنود سرية لهذا الجيش عرفت باسم " الإيرادات الجديدة "[2]، وبذل جهودًا مضنية لإنجاح هذا النظام

ثم أصدر السلطان" نظام الترسخانة " لأجل إصلاح وتحديث الأسطول العثماني ، وقام بتعيين حسين باشا قائدًا للقوات البحرية العثمانية ، كما قام بتوسيع المهندسخانة البحرية التي تأسست زمن والده ، وأسس بجانبها المهندسخانة البرية، وهما بمثابة كلية الهندسة في ذلك الوقت ، وقد تشكل أعضاء هيئة التدريس في هاتين المؤسستين من متخصصين محليين وأجانب ، ومن أهم رجال العلم العثمانيين الذين قاموا بالتدريس في المهندسخانة : أسعد أفندي القريمي وإسحاق أفندي ، وأُنشئت في المهنسخانة مكتبة مهمة تضمنت الكتب العلمية

---

[4] كرامرز : مادة سليم الثالث ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص137 .

[1] Mustafa Necib Efendi , Sultan Selim – I Salis vekayi ine bir tarih , Istanbul 1280 ,S 5-9 .

أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص335 ، 336 .

[2] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , Cilt 3 , Istanbul 2000 , S. 217 ;

إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص191 . أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة 2787 / 64 – HAT .

باللغة التركية وباللغات الأجنبية ، كما تُرجمت الكتب العلمية من اللغات الغربية إلى اللغة التركية.[3]

ومن أهم منجزات الإصلاحات والتحديث هو فتح السفارات الدائمة في الدول الأوروبية سنة 1208هـ / 1793م ؛ وذلك لأجل الحفاظ على العلاقات الطيبة ، وتنشيط العلاقات الخارجية مع أوروبا ، فتم تعيين آجاه أفندي سفيرًا في لندن ، والسيد علي مورالي سفيرًا في باريس ، ومنيب أفندي سفيرًا في فيينا ، وعزيز أفندي سفيرًا لدى روسيا. [4]

ويتضح مما سبق أنه لم يكن لفرنسا في هذه الفترة بالذات أي دور في الإصلاح ، فأين دليل كرامرز على قوله ذلك ، بل والأدهى أن بونابرت يريد أن يقف على المدفعية التركية ، كيف وهو الآن عدو للدولة العثمانية ويخطط للحملة الفرنسية ؟!

لم يكن لهم دور إلا في إنشاء مصانع لصب المدافع الثقيلة والخفيفة ، حيث أُنشئت بخبرة فرنسية ، أما التدريب فكان على يد العثمانيين . [1]

ولا شك أن هذه الإصلاحات عمَّ من خلالها الاستقرار والنظام داخل إدارة الدولة ، حتى إن الرعية أحست أنه لا يوجد ما يوجب الخروج على السلطان ، وأحسوا بأن لديهم استعدادًا للمشاركة وبذل مزيد من الجهد لإنجاح الإصلاحات.[2]

وفي الوقت الذي كان السلطان سليم الثالث منشغلاً بأعمال الإصلاحات في الداخل ، وبالحروب الدائرة على حدود الدولة العثمانية وعقد المعاهدات مع الدول الأوروبية في الخارج؛ للحفاظ على كيان الدولة العثمانية ، في ذلك الوقت بدأ أعداء الإصلاحات والنظام الجديد بالعصيان والتمرد ضده ورفض استخدام الأسلحة الحديثة حتى على مستوى الأقاليم العثمانية ، وذلك بتحريض من بعض رجال الدولة المناوئين لسياسة السلطان ، وقام أحد أعضاء الجنود الاحتياط الجفاة الغلاظ (اليماق) المدعو مصطفى قباقجي [3] في 1222هـ

---

[3] Mustafa Nuri Pasa , Netayicu' l – Vukuat , IV, Istanbul 1219 , S, 24 .

[4] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج1 ، ص645 . أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة HAT.11971470324. لمزيد من التفاصيل الرجوع إلى وثيقة أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول HAT 1241 / 48261 Tarih , 1210 .

[1] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص 338 .

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 2157 / 42 BOA / HAT .

أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 317/98 A.mkt MTA .

[3] Ahmed Refik , Kabakci Mustafa , Istanbul 1331 , S. 1-23 .

/ 1807م بجمع المتمردين والعصاة حوله ، وقاد حركة الثورة ضد السلطان ؛ لأنهم رفضوا ارتداء الزي النظامي ، مما جعل السلطان يعمد إلى إلغاء النظام الجديد خشية تصعيد الحركة وتوسيعها .

ولكن العصاة لم يتخلوا عن حركتهم ، بل تجمعوا في ساحة الخيول (آت ميداني) القريبة من قصر طوب قابي ، وطلبوا رؤوس عشرة أشخاص من أركان الدولة المؤيدين للنظام الجديد [4] ، فرضخ السلطان لطلبهم كي لا تسفك مزيد من الدماء ، فقام العصاة بتعذيب هؤلاء الأشخاص وقتلهم ، ولم يكتفوا بهذا ، بل قام رئيسهم مصطفى قباقجي بدعوة شيخ الإسلام إلى ساحة الخيول وأجبره على إصدار فتوى في أباحة خلع السلطان سليم الثالث من الحكم ، وأرسل الفتوى مع وفد إلى السلطان في ظل تظاهرات معادية وهتافات تقول:"لا نريد السلطان سليم ". وقد اضطر السلطان إلى قبول الأمر الواقع بكل حزن وأسى حتى إن بعض الحاشية اقترحوا عليه سحب الجيش النظامي من جبهة الحرب إلى إستانبول لقمع العصيان ، لكنه رفض ذلك قائلاً : " لو عاد الجيش إلى إستانبول سوف يقوم الروس بالاستيلاء على أراضي الدولة العثمانية " . [1] وهذا يدل على أن السلطان كان يفكر في مصلحة الدولة والبلاد أكثر مما يفكر في سلطنته وعرشه .

ولا شك أن عناصر كثيرة كانت ترفض الإصلاح بل وتعمل على عرقلته، حتى إن فكرة القضاء على الانكشارية في عهد سليم الثالث كانت مرفوضة تمامًا ، حتى من كبار شخصيات الدولة ،مثل أمين الترسخانة وكتخدا الدولة العثمانية . [2]

وبعد أن تنازل السلطان سليم الثالث عن الحكم 1222هـ/ 1807م ، قام العصاة بتنصيب ابن عمه مصطفى الرابع على عرش الدولة العثمانية ، وبدأ سليم الثالث في مواصلة حياته منعزلاً وتحت الرقابة في غرفة من غرف القصر ، ثم حاول أنصار سليم الثالث بقيادة مصطفى باشا بيرقدار إنقاذه من العزلة وإعادته إلى العرش ، فهاجموا طوب قابي سراي في 4 جماد الآخرة 1223هـ / 28 يوليو 1808م ، ولكن المحاولة فشلت . [3] وقام بعض الطغاة في القصر بقتل سليم الثالث وكان عمره آنذاك 47 عامًا ، وقد أدى مقتله إلى حزن

---

[4] يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص659 . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص195 .

[1] Mithat Sertoglu , " Ucuncu Selim ' in hal' I ve Alemdar Mustafa Pasa"Hayat Tarih Mecmuasi , Ocak 1975 , Sayi : I , S . 17 – 24 ; 393 . محمد فريد بك المحامي ، مصدر سابق .

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 119 / 36 YEE .

[3] Muterci Ahmed Asim , Asim , II , Istanbul , S. 191 – 208 .

كبير في كافة أنحاء الدولة العثمانية ، وشيع جثمانه في حفل رسمي في 5 جمادى الآخرة / 29 يوليو ، ودفن داخل ضريح والده السلطان مصطفى الثالث الكائن بجنب جامع لاله لي بإستانبول ، [4] ولم يخلف السلطان سليم أولادًا ؛ لأنه كان عقيمًا ، وبوفاته انقرض فرع مصطفى الثالث واستمر فرع عبد الحميد الأول.[5]

والحق أن عصر سليم الثالث يعدُّ بداية جديدة للإصلاح ، حيث كان حريصًا على بعث وإحياء فريضة الجهاد كما كانت ، وقد دفع حياته ثمنًا لذلك ، ولم يكتب لحركة الإصلاح الاستمرار في عهدهِ وإنما وئدت قبل أن ترى النور ، وأثبتت الانكشارية أنه لابد من القضاء عليها نهائيًا ؛ لأنها أصبحت كالسد أمام أي إصلاح وكأنها عدو داخلي للدولة العثمانية .

وبوفاة سليم الثالث تسلم راية الإصلاح ابن أخيه محمود الثاني الذي يُعدُّ مجددًا للجيش العثماني ، ودفع سليم الثالث حياته ثمنًا لمحاولتهِ الجريئة الفريدة .

عُزل السلطان سليم الثالث وقُتل ولم يحقق من خططهِ الإصلاحية الكثير ، لكن السلطان محمود الثاني – وهو من تولى بعد الفترة المضطربة التي سادت الدولة العثمانية بين عزل سليم الثالث ومقتل مصطفى الرابع – استطاع أن ينفذ هذه الخطط بمنتهى الدقة ، حيث استفاد من إقامتهِ مع السلطان سليم الثالث في فترة عزلهِ ، واطلع على خطوات سليم الثالث في الإصلاح وحفظها ، وحاول أن يطبقها .

وتكمن أهمية السلطان محمود الثاني في أنه تولى الحكم في فترة حرجة جدًا من تاريخ الدولة العثمانية ، لكن إصلاحاته وأعماله زادت من عمرها سنين طويلة وارتبطت حركة الإصلاح باسمه .

أما عن مادة السلطان محمود الثاني في دائرة المعارف الإسلامية ، فقد أطل علينا بها المستشرق ليفي ، ولأول مرة نتناول مادة بقلمه ،وهي المرة الوحيدة التي سنطلع على أسلوبهِ، والملاحظ أن طريقة عرضهِ أفضل من كرامرز وهيوار ، إلا أن مادته – على الرغم من طولها – لم تذكر أيًا من أعمالهِ الإصلاحية باستثناء القضاء على الانكشارية ، وتركزت المادة على سلسلة الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود

---

[4] Mithat Sertoglu , " Ucuncu Selim in hal' I ve Alemdar Mustafa Pasa " Hayat Tarih Mecmuasi, Ocak 1975 , Sayi : I , S . 17-24 .

للاستزادة عن مقتل سليم الثالث الرجوع إلى أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، صص 349 – 354 .

[5] يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص643 .

الثاني والمعاهدات التي عقدها ، كما أنه سار على طريقة كرامرز ، يذكر الحدث دون ذكر الأسباب التي أدَّت إلى حدوثه ، وكأنه قرار أرعن وليد اللحظة .

أما عن مصادر مادتهِ فقد اعتمد على مجموعة وثائق من أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول ، وبعض المراسلات والتقارير الصادرة من المندوبين المقيمين في الدولة العثمانية ، وهو في هذا قد أجاد واعتمد على المصادر الموثوقة ، لذلك جاءت مادته أقل تشويهًا من غيرها .

وتركزت مادتهِ حول النقاط التالية :

أولاً : ذكر ليفي عدد إخوة السلطان محمود الثاني خطأ وأنه كان أصغرهم[1].

ثانيًا : إرجاع تولية العرش لحركة انقلابية دون سرد للأحداث الصحيحة حسب التسلسل الزمني [2].

ثالثًا : يذكر الحدث ناقصًا تمامًا ودون ذكر الخلفية الحقيقية له ، مما أسهم في تغير معنى الاتفاقية التي عقدها محمود الثاني مع الأعيان وولاة الأقاليم [3].

رابعًا : إرجاع انقلابات إستانبول عام 1223هـ/ 1808م إلى انتفاضة شعبية بقيادة الانكشارية . [4]

خامسًا : أطلق على معاهدة 1224عام / 1809م مع بريطانيا معاهدة سلام ، على الرغم من أنها كانت معاهدة مجحفة في حق الدولة العثمانية . [5]

سادسًا : استئناف الحرب مع روسيا ، وعدم ذكر الأحداث الصحيحة [6].

---

[1] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of islam , Volume VI . Leidenen E.J. Brill, 1997 , P.58.

[2] A.levy : mahmud II , the encclopaedia of islam , Volume VI , P. 58 .

[3] A.levy : mahmud II , the encclopaedia of islam , volume VI , P. 58 .

[4] A.levy : mahmud II , the encclopaedia of islam , volume VI P , 58 .

[5] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

[6] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

سابعًا : تصويره لحرب الدولة العثمانية مع بلاد فارس على أنها مناوشات حدودية. [7]

ثامنًا : علاقة السلطان محمود الثاني مع محمد علي باشا والي مصر .[8]

تاسعًا : القضاء على الانكشارية . [9]

عاشرًا : حقيقة معركة ميناء نوارين . [1]

الحادي عشر : لم يذكر المستشرق أي شيء عن وفاة السلطان محمود الثاني.

ومحمود الثاني هو السلطان الثلاثون للدولة ، وابن السلطان عبد الحميد الأول ولد في الثالث عشر من رمضان 1199هـ/ 20 يوليو 1785م ، وتولى الحكم بعد أخيه السلطان مصطفى الرابع في 6 جمادى الآخرة 1223هـ/30 يوليو 1808م.[1]

أنهى دراستهُ العلمية في إستانبول ، حيث تلقى العلوم الدينية والتاريخ والآداب والحساب على يد علماء عصرهِ ، واهتم السلطان سليم الثالث بنفسه وبإبن عمه محمود الثاني بتعليمهِ وتهذيبهِ وتربيتهِ ، فعلمّه كيفية إدارة الدولة من الناحية السياسية ولقنه العلوم العسكرية الحديثة ، من خلال تجاربهِ في محاولة إصلاح أمر الجيش ، وحتى بعد أن عُزل سليم الثالث كان يلتقي بهِ وينصحه ويتحدث معه عن تجاربهِ في الحكم والإدارة ؛ كي يستفيد منها عند إعتلائه للعرش.

كان شاعرًا وخطاطًا ومؤلفًا ، كتب قصائده باسم مستعار " عدلي " ، امتاز بقوة الشخصية وتمتع بالشجاعة والجسارة والصبر والطبيعة المصممة ، وفي نفس الوقت كان حليمًا وذا عزيمة جبارة ، أكثر اهتماماته العمل بما يعود على الدولة العثمانية بالمنفعة والقوة ، وكان لا يفصح عن نواياه إلا إذا أخرجها إلى أرض الواقع.[2]

---

[7] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

[8] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 59 .

[9] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 59 .

[1] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 59 .

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 398 . محمود شاكر : مرجع سابق ، 233 . عبد القادر ده ده أوغلي : مرجع سابق، ص77 ، عدنان العطار : مرجع سابق ، ص137 .

[2] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص77 . علي حسون : مرجع سابق ، ص178 .
Ahmed Refik , " Mahmud – I Sani' nin validesi" , TOEM , 87 (10) . S. 218-224 .

ويعدّ السلطان محمود الثاني سلطانًا مصلحًا ومجددًا ، حيث اهتم بالعلوم والفنون والصناعات التقنية ، وبعث الطلاب إلى الدول الأوروبية لدراسة العلوم العسكرية وتعلم استخدام الأسلحة الحديثة ؛ لأن الإسلام لا يمنع من أخذ علوم الغرب إلا إذا مست الشريعة الإسلامية ؛ لذا قام بإلغاء فرقة الانكشارية وبتشكيل الجيش الجديد ، وجلب الخبراء من أوروبا لتدريب هذا الجيش ، وقام بتغيير جذري في أزياء الجيش وأزياء موظفي الدولة من المدنيين ، وأسس أيضًا المدفعية العثمانية ، كما قام بفتح المدرسة البحرية والمدرسة الطبية العسكرية واستقدم المتخصصين من أوروبا للتدريس فيها . كما أسس دائرة للترجمة ؛ وذلك لترجمة المؤلفات الأجنبية في العلوم والهندسة .

ثم بدأ بإرسال الطلاب إلى الخارج في بعثات علمية لإدراكهِ أهمية تعلم اللغات الأوروبية في الاقتباس من حضارة ونهضة أوروبا ، وحرص على ترجمة الكتب إلى اللغة التركية ، وقد سافر إلى أوروبا ، وزار العواصم فيها ليقف بنفسهِ على أحوال التقدم ، وأثمرت هذه الجهود بظهور عدد من المترجمين ، أهمهم وصف بأنه دائرة معارف لقيامهِ بترجمة عدد كبير من الكتب الإيطالية إلى التركية، وهو المؤرخ " شاني زاده " ، وظهر أيضًا أول عالم رياضيات وفيزياء وهو إسحق أفندي .

هذا بالإضافة إلى قيام السلطان محمود الثاني بتوثيق العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأوروبية، فأرسل السفراء والقناصل إلى عواصم تلك الدول لتمثيل الدولة العثمانية ، وقد صدرت في زمنه جريدة " تقويم الوقائع " في 22 ربيع الآخر 1247هـ /1 أكتوبر 1831م ، كما صدرت الطبعة الفرنسية للجريدة لتوزيعها في الدول الأوروبية .

ومن أهم إنجازات السلطان محمود الثاني إحداث نظارة الأوقاف وتشكيل مجلس الأحكام العدلية للنظر في القضايا المهمة للشعب وللحكومة ، وللعمل على تنظيم القوانين العثمانية والأنظمة .إضافة إلى تشكيل دائرة الشورى العسكرية للنظر في الشؤون العسكرية ، وكذلك تأسيس مؤسسة البريد وإنشاء طرقها ودوائرها في كافة الولايات العثمانية . وأصبح المواطنون في زمنه يحملون تذكرة المرور خلال رحلاتهم داخل حدود الدولة ، ويحملون جوازات السفر الممنوحة لهم من نظارة الخارجية العثمانية وذلك أثناء رحلاتهم إلى الدول الأجنبية ، كما قام السلطان باستيراد السفن التجارية من الدول الغربية ، حتى إنه وضع أسس الموسيقى العسكرية " المارش " واعتمدت للجيش بصفة دائمة في عهده . [1]

---

[1] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة AH.UMUN 124/165

وقد تم تعداد السكان بالشكل العلمي الصحيح لأول مرة زمن هذا السلطان عام 1247هـ / 1831م ، كما تأسس في العام نفسه نظام الحجر الصحي ، واستُقدِام الخبراء من أوروبا لهذا الغرض ، وتأسست الجمعية الصحية العثمانية.[2]

لقد شكلت هذه الإصلاحات والتغيرات الجذرية التي قام بها السلطان محمود الثاني نقطة تحول مهمة في التاريخ العثماني ، ففي الوقت الذي قام السلطان بهذه التجديدات في سبيل رقي الدولة والأمة على الغرار الأوروبي الحديث ، بقي كذلك محافظاً على التقاليد الإسلامية التي ورثها من أجداده ، وسار في الطريق المتوازن بين العلم والإيمان ، وبين العقل والوجدان، وكان متديناً يمنح العطايا والهدايا إلى الذين يعتنقون الإسلام من أهل الذمة .

وقد اهتم السلطان محمود الثاني كذلك بإعمار البلد وتأسيس المنشآت الدينية والعلمية والاجتماعية . ومن أهم منجزاته في هذا المجال :

جامع النصرتية وجامع العدل وجامع الهداية وجامع التوفيقية ، وبرج الحريق في ميدان بايزيد ، وجسر المحمودية على خليج القرن الذهبي ، وقصر جراغان في الساحل الأوروبي من مضيق البسفور ، بالإضافة إلى ذلك قام السلطان بترميم بعض الجوامع المهمة في إستانبول ، مثل جامع وضريح الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري الكائن في أحد الأحياء القديمة في إستانبول، وجامع القادرية ، كذلك قام عام 1236هـ / 1820م بإهداء شمعدان ثمين إلى الحجرة المطهرة في المدينة المنورة [1].

والملاحظ أن هذه الأعمال والإصلاحات المتطورة لم يتطرق لها ليفي ، إلا ببعض الكلمات المختزلة ، على الرغم من أن محمود الثاني هو من دفع بحركة التجديد إلى الأمام بمعتقدات إسلامية وشكل أوروبي .

ونتج عن هذه الإصلاحات والتطور والنظرة المنفتحة على أوروبا من قبل السلطان محمود الثاني تكوين علاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية .

ويرجع تاريخ تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى عام 1198هـ / 1783م ، لكن علاقتها مع الدولة العثمانية بدأت عقب نشاطاتها التجارية في ما وراء البحار ، وذلك بعد

---

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة A.MET. MHW 68/36
Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , III , Istanbul 2000 , S. 307 – 313 .
عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص403 ، 431 .

[1] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , III , Istanbul 2000 , S. 307 – 315 .
عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص403 ، 431 .

وصول سفنها التجارية إلى حدود السواحل العثمانية . وكانت العلاقات الأولى بين الدولتين تجارية وليست سياسية .

ففي البداية قامت الولايات المتحدة الأمريكية بالاتجار مع الولايات التابعة للدولة العثمانية كالجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، ثم بدأت في الاقتراب من الدولة العثمانية التي كانت تتحكم بأجزاء كبيرة من سواحل البحر الأبيض المتوسط . وطلبت الولايات المتحدة الأمريكية من الدولة العثمانية فتح قنصلية لها في إزمير عام 1217هـ / 1802م ، وذلك إثر تطور تجارتها في شرق البحر الأبيض المتوسط ، لكن الدولة العثمانية رفضت الطلب الأمريكي نظراً لعدم وجود معاهدة تجارية بين البلدين ، فكانت السفن التجارية الأمريكية تحمل العلم البريطاني عند عبورها من المياه العثمانية ، ولأجل تلافي هذه المضايقات طلبت الولايات المتحدة الأمريكية هذه المرّة بتعيين أحد التجار الأمريكيين قنصلاً في إزمير عام 1226هـ / 1811م ، وعلى الرغم من قيام هذا القنصل بوظيفته فإن الدولة العثمانية لم تعترف به بصفة رسمية إلا في عام 1246هـ / 1830م ، وبعد ذلك التاريخ استطاعت السفن التجارية الأمريكية أن تجوب في المياه العثمانية بحرية تامة حاملة العلم الأمريكي .

ثم طلبت الحكومة الأمريكية من السلطان محمود الثاني عقد معاهدة الصداقة والتجارة بين البلدين ، وبعد مباحثات طويلة أبرمت المعاهدة في 1246هـ / 1830م ، وقامت الدولة العثمانية بموجب هذه المعاهدة بمنح التجار الأمريكان الامتيازات نفسها التي منحتها إلى تجار الدول الغربية الأخرى [1] ، ومن هنا أُطلقت يد الولايات المتحدة الأمريكية داخل الأراضي العثمانية مما نتج عنه نشاط في الحركة الاستشراقية – كما اتضح سابقًا – ومع كل ما بذله السلطان محمود الثاني من جهود إلا أنه واجه عند اعتلائهِ العرش عدة أزمات خطيرة من أهمها :

١) قوة الانكشارية .

٢) اشتداد العصيان في الولايات العثمانية .

٣) تعاظم شأن الدعوة السلفية في الحجاز .

٤) عدوانية روسيا ونشاطها في إثارة بلاد البلقان وقومياتهم ضد الدولة العثمانية [2].

---

[1] Ibrahim Baybura , Amerika , Tarihcesi , Turk – Amerika Tarihi Munasebetleri , S. 151 – 155 .

[2] عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 425 .

ولو أن السلطان محمود الثاني واجه نصف هذه الأخطار أو أكثر بقليل ، لكان تغير وجه الدولة العثمانية لفترة من الزمن ، لكن هذه الأزمات خنقت إصلاحات محمود الثاني .

ولنلقي نظرة عن كيفية معالجة ليفي للأحداث التي عصفت بتاريخ السلطان محمود الثاني .

أولاً : ذكر ليفي عدد إخوة السلطان محمود الثاني خطأً ، وأنه كان أصغرهم . فقال :

" كان أصغر أبناء السلطان عبد الحميد الأول البالغ عددهم إثني عشر ابنًا " [3]

لقد أورد ليفي معلومة صادقة لكنه بترها ولم يكملها ، فهو لم يوضح وضع الأبناء الأحد عشر وقت تولي محمود الثاني الحكم ، تاركًا الأمر لخيال القارئ ، الممتلئ بخلفية سوداء عن قانون قتل الإخوة المزعوم ، والصراع على الحكم .

وحقيقة الأمر أنه توفي من الأبناء الإثني عشر تسعةٌ في حياة عبد الحميد الأول ، بالإضافة إلى وفاة 12 ابنة في سن الطفولة ، ولم يعش من أبنائه سوى سليمان ومحمد اللذين توفيا – أيضًا – بعد والدهم عبد الحميد الأول بفترة قصيرة، وبقي مصطفى الرابع الأكبر سنًا من محمود الثاني والأخير ، ولم يصبحوا أولياء عهد في حياة والدهم حيث كان ولي عهدِه سليم الثالث ابن أخيه السلطان مصطفى الثالث الذي بقي في منصب ولاية العهد طوال فترة حكم عمه عبد الحميد الأول والتي دامت 15 سنة وشهرين . [1]

وهكذا صوره ليفي وكأنه أصغر أخوته ومع ذلك تولى الحكم ، على الرغم من أنه لم يصبح وليًا للعهد إلا في عهد أخيه الأكبر مصطفى الرابع ، [2] وعندما تولى الحكم لم يكن هناك ذكر غيره من آل عثمان .

ثانياً :إرجاع توليه العرش لحركة انقلابية دون سرد للأحداث الصحيحة حسب التسلسل الزمني . فقال :

" خلف السلطان مصطفى الرابع بتاريخ 28 يوليو عقب وقوع انقلاب عسكري بقيادة الحاكم الإقليمي مصطفى بيرقدار مستهدفًا إعادة تنصيب السلطان سليم الثالث إلى العرش الذي سبق وخُلع منه ، إلا أنه أثناء تلك العملية الانقلابية اغتيل سليم مع خلع الحاكم مصطفى الرابع وأصبح محمود المرشح الشرعي الوحيد فأعلِن سلطانًا على البلاد ،

---

[3] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of islam , volume VI , P . 58 .

[1] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج1 ، ص633 ، 643 .

[2] عبدالقادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص 73 .

وحتى تاريخ اعتلائه العرش كان محمود يعيش طول حياته في عزله وذلك وفقًا للتقاليد العـثمانية" [3].

إن دأب ليفي ذكر الحوادث صحيحة لكن دون ذكر الأسباب الحقيقة وراء ذلك الحدث والجذور التي أدت إلى تفجير تلك الثورة .

والواقع أن السلطان مصطفى الرابع الذي تولى الحكم بعد خلع سليم الثالث لم يتمكن من تحقيق الأمن والاستقرار في العاصمة إستانبول ، ومن جهة أخرى تجمع بعض رجال الدولة وأركانها – من مؤيدي الإصلاحات – تحت راية مصطفى باشا بيرقدار ؛ وذلك لإعادة سليم الثالث إلى كرسي السلطنة [4] ، فقام بيرقدار بالاقتراب من السلطان مصطفى الرابع والصدر الأعظم مصطفى باشا الجلبي ، حتى أتيح له قتل مصطفى القباقجي زعيم المتمردين الذي قاد حركة الثورة ضد سليم الثالث عام 1223هـ/1808م ، وقتل جميع الطغاة الذين شاركوا في تلك الحركة . [1]

وقد أدت إجراءات مصطفى بيرقدار إلى استياء الصدر الأعظم مصطفى جلبي باشا الذي طلب منه أن يغادر إستانبول ، مما جعل مصطفى بيرقدار يهاجم بجيشه البالغ 15000 جندي مقر الصدر الأعظم ، حيث قبض على جلبي باشا واستولى على ختم الصدارة ، ثم توجه بجيشه نحو طوب قابي سراي للقيام بخلع السلطان مصطفى الرابع وإعادة السلطان المخلوع سليم الثالث إلى الحكم .

ومن جهة أخرى قام السلطان مصطفى الرابع وتحت ضغوط الطغاة بإصدار فرمان يجيز قتل أخيه محمود وابن عمه سليم الثالث [2] ، كما قام بإبلاغ مصطفى بيرقدار بعدم تفكيره في الاعتزال ، وبناء على ذلك استخدم مصطفى بيرقدار القوة في اقتحام القصر وبدأ جيشه بكسر المدخل الرئيس له ، ومن المؤسف أنه في هذه الأثناء قام الطغاة بقتل سليم الثالث الذي كان منشغلاً بالعبادة ، لكن محمود استطاع أن ينقذ نفسه من أيدي الطغاة وذلك بفضل مساعدة بعض خدمهِ المخلصين ، حيث هجموا عليه ولكنه دافع عن نفسهِ ، وافتداه الخدم حتى استطاع الهروب من نافذة غرفتهِ إلى السطح ثم الفناء حيث جنود مصطفى

---

[3] A.Levy : mahmud II , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

[4] Mutercim Ahmed Asim , Asim Tarihi , II , Istanbul , S. 191 – 208 .

[1] Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 55-56 .

[2] Mutercim Ahmed Asim , Asim Tarihi , II , Istanbul , S. 191 – 208 . Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 56-57 .

بيرقدار، وعندما دخل الأخير إلى القصر واستولى على الوضع وقام بخلع السلطان مصطفى الرابع ، كان الأوان قد فات ؛ لأنه شاهد جثة سليم الثالث أمامه ، فما كان عليه ألا أن يقوم بتنصيب محمود الثاني الذي نجا من القتل على عرش السلطنة ، حيث بدأ بتنظيم مراسيم البيعة له أمام باب السعادة في القصر وذلك بمشاركة أركان الدولة والعلماء . [3]

وعقب تولية محمود الحكم قدم ختم الصدارة العظمى إلى مصطفى باشا البيرقدار [4]، كما طلب منه معاقبة الطغاة الذين أسهموا في مقتل سليم الثالث ، وشاركوا في التمرد والعصيان ضد اصلاحات هذا السلطان . [1]

وبذلك تم تعيين البيرقدار مصطفى باشا في الصدارة العظمى من قبل السلطان الجديد محمود الثاني ، وأوكل له أمر معاقبة المتسببين في مقتل السلطان سليم الثالث ؛ تقديرًا لموقفهِ، وإدراكهِ لضرورة إصلاح الجيش والنظم في الدولة العثمانية .

وقد تولى المنصب بناء على تقديم ختم الصدارة العظمى له ، وليس من تلقاء نفسهِ كما أورد ليفي . [2]

إن حركة البيرقدار أوضحت للعيان مدى اكتساب النظام الجديد الذي وضع أسسه السلطان سليم الثالث لمؤيدين على نطاق واسع بين أوساط الشعب ، مما هيأ الجو بعد ذلك لإصلاحات محمود الثاني .

تبقى نقطة أخيرة وهي أن محمود الثاني لم يبقَ حبيس القصر لا يعرف ما يدور حولهِ، وإنما درس كل الأحداث التي جرت حولهِ ، وكان تلميذًا لابن عمه السلطان سليم الثالث ووارثًا لجميع أفكاره .

---

[3] Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 56-57 .

محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص399 .

[4] إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج1 ، ص 660 .

[1] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص664 .

لمعرفة المزيد عن ثورة البيرقدار مصطفى باشا الرجوع إلى : التحفة الحليمية ، مصدر سابق ، ص 206 . يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص662 – 664 . إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ن ص262 – 265 .

[2] A.Levy : mahmud II , the encyclopaedia of Islam , Volume VI , P. 58 .

لقد كشف سليم الثالث توصياته السياسية لمحمود الثاني ، خلال الأربعة عشر شهرًا من سلطنة مصطفى الرابع ، حيث كان يلتقي به بحجة تعليمه الموسيقى ، لكنه كان يورثه الأفكار الإصلاحية وسرد له معظم أخطائه أثناء حكمهِ، وأوصاه بعدم الوقوع فيها مرة أخرى، وقد استفاد السلطان محمود من هذه الوصايا والأخطاء لأنه أحب السلطان سليم الثالث حبًا شديدًا [3]، وتضافرت أفكار عديدة في ذهن ولي العهد الشاب ، فولدّت داخله السلطان المصلح.

ثالثًا : مرة أخرى يذكر الحدث ناقصًا تمامًا دون ذكر الخلفية الحقيقية ، مما أسهم في تغير معنى الاتفاقية التي عقدها محمود الثاني مع الأعيان وولاة الأقاليم فقال :

" كانت السلطة الحقيقية تُمارس من قبل " بيرقدار " الذي عين نفسه كبير الوزراء ، وقد شكل مجلسًا يتألف من حكام الأقاليم في إستانبول الذي قام بإقرار وثيقة الاتفاقية ، كانت هذه الوثيقة ترمي إلى تغيير الإطار الدستوري للإمبراطورية من خلال تقليص سيادة السلطان وتأسيس نظام سياسي شبه إقطاعي . علاوة على ذلك كانت تهدف أيضًا إلى إحياء الإصلاحات العسكرية التي وضعها السلطان سليم الثالث ". [1]

يتضح هنا أن السمة الغالبة لليفي هي ذكر الأحداث مبتورة تمامًا ، وكأنها كلمات متقاطعة لا يخرج منها القارئ بشيء واضح .

إذا كانت الوثيقة أعطت للأعيان نفوذًا ، فإنها حققت السلام ، وفي الوقت الذي تحقق فيه الأمن والاستقرار في العاصمة إستانبول بارتقاء السلطان محمود الثاني العرش ، استمرت الفوضى في الولايات العثمانية في الأناضول والروميلي وبغداد وحلب والجزائر ، وغيرها من الولايات ، وفي الوقت نفسه كانت بريطانيا تحارب ضد روسيا ، كما كانت روسيا وفرنسا تخططان لتقسيم الدولة العثمانية . وكانت ميزانية الدولة العثمانية تعاني عجزًا ماليًا كبيرًا حيث كانت الخزينة على وشك الإفلاس ، وكان الجيش العثماني منقسمًا فيما بينه، كما ضعفت القوات البحرية العثمانية ضعفًا كبيرًا ، وقد حدث كل ذلك خلال سنة واحدة ، فضاعت إصلاحات سليم الثالث وإجراءاته هباءً . ولأجل تحسين أمور الدولة وإيجاد الحلول لهذه المشاكل قام الصدر الأعظم مصطفى باشا بيرقدار بدعوة أعيان الدولة إلى عقد اجتماع

---

[3] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص664 .

[1] A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 .

طارئ، فقام الجميع بتلبية طلب الباشا الذي كان يتمتع بشخصية مؤثرة عليهم ، وعُقد الاجتماع في 7 شعبان 1223هـ / 29 سبتمبر 1808م في كوشك (قصير) جاغليان بمنطقة جاغدخانة بإستانبول وبحضور السلطان محمود الثاني ، وقد أكد البيرقدار باشا في الاجتماع على ضرورة تأسيس الجيش النظامي لأجل دوام الدولة العثمانية ، وفي نهاية المباحثات أبرم سند الاتفاق المتكون من سبعة بنود بين الدولة والأعيان ، وقد تأثر السلطان محمود الثاني من هذا الاتفاق الذي أرغم على إبرامه مع الأعيان الذين وقفوا ضد الدولة العثمانية وحاولوا الاستقلال عنها بولاياتهم ، وقد ظهر تأثره عند حديثه إلى أمين العاصمة إبراهيم أفندي بهذه الكلمات : " على الرغم من أن هذه الشروط ليست في صالح مقام السلطنة ، لكني اضطررت إلى قبولها ، وسأقوم في فترة قصيرة بإنقاذ المقام السامي من هذه القيود ". [2]

ويمكن القول أن الدولة العثمانية قد اضطرت إلى قبول نفوذ الأعيان بشكل رسمي عند إبرامها لهذا الاتفاق ، ولكن في الوقت نفسه أدى هذا الاتفاق إلى تحقيق السلام وتأمين الهدوء في ولايات الدولة العثمانية ، كما شكل خلفية قوية لإلغاء فرقة الانكشارية في المرحلة القادمة التي كانت تعد مصدرًا للفتنة والقلاقل والفوضى .

ويمكن إيجاز بنود سند الاتفاق في التالي : [1]

١) تنفيذ أوامر السلطان ، وتقديم فروض الإخلاص والولاء من قبل الأعيان له.

٢) يقوم الأعيان بجمع الجنود والعساكر للجيش العثماني وقت الحروب .

٣) إطاعة أوامر الصدارة العظمى التي تتوافق مع القانون والعدالة .

٤) يجب على أركان الدولة والأعيان مراعاة شروط الاتفاق وفي حالة المخالفة تقوم الدولة العثمانية بتأديبهم .

٥) في حالة حدوث أي تمرد أو عصيان من قبل الانكشارية والفرق المعادية الأخرى يقوم الأعيان بدعم الدولة في قمع التمرد وإخماده .

٦) تنظيم ضرائب الدولة بشكل يحقق الواردات للخزينة .

٧) تخفيض مقدار الضرائب المفروضة على الشعب . [2]

---

[2] Mutercim Ahmed Asm , Asim Tarihi , II , Istanbul , S . 191 – 208 .

[1] Ahmed Cevdet Pasa , Tarih , Istanbul 1292 , IX , S. 2-9 .

ولا شك أن هذا الاتفاق ساعد على علو نجم الصدر الأعظم مصطفى باشا، بالإضافة إلى ذيوع صيته في خارج الدولة العثمانية ، لكن هذا جعل المفسدين يحرضون الانكشارية ضد السلطان محمود الثاني ، ودفع الثمن مصطفى باشا الصدر الأعظم .

رابعاً : إرجاع حركة عام 1808م إلى إنتفاضة شعبية بقيادة الانكشارية فقال :

" وفي منتصف شهر نوفمبر عام 1808م أقيلت حكومة " بيرقدار " نتيجة لانتفاضة شعبية بقيادة المجندين الجدد في إستانبول ، وكان ذلك حصيلة حركة مناوئة للإصلاحات بجانب إستيلاء عناصر من حكام الأقاليم على زمام الحكومة المركزية ". [3]

إن الافتراء واضح منذ بداية الجملة ، حيث سبق وأن أوضحت الدراسة أن النظام الجديد الذي أسسه سليم الثالث كان قد اكتسب شعبية كبيرة وعريضة خارج هيئة العلماء والانكشارية ، اكتسبها من الأهالي الذين أدركوا أهمية إدخال الإصلاحات في النظم العسكرية، وعليه فإن حركة 1223هـ/ 1808م لها أسباب واضحة وصريحة ، وهي ليست انتفاضة شعبية بزعامة الانكشارية . لأن الانتفاضة تأتي من ظلم صريح على الأهالي ، فأين الظلم في إدخال النظم الحديثة على الجيش العثماني؟! إن الظلم هو ما كانت تقوم به الانكشارية ضد الرعية .

لقد فهم السلطان بأن فرقة الانكشارية أصبحت وكرًا للفوضى والتمرد فيجب التخلص منها ، وأراد أن يعيد إصلاحات السلطان سليم الثالث والنظام الجديد الذي قام بتأسيسه ، لكن لم يكن من الممكن أن ينفذ ذلك بنفس الاسم القديم الذي وضعه سليم الثالث لما قد يسببه من فتن ، مما سيغضب الانكشاريين ، فقام بتأسيس جيش نظامي جديد تحت اسم السكبان الجديد في 22 شعبان 1223هـ/ 14أكتوبر 1808م حيث بدأ الجيش بالتدريب والتعليم في ثكنة لوند أولا ، ثم في ثكنة السليمية ، وقام السلطان بتعيين الدفتردار بهيج افندي ناظرًا على أمور الجهاد، وتعيين والي الأناضول سليمان آغا قائدًا لجيش السكبان الجديد ، كما قام بتجهيز الجيش بالزيّ العسكري الحديث على غرار الأزياء الأوروبية ، وقام الصدر الأعظم بمنح الراية والشارة والطبل إلى الجيش الجديد لتتمتع بالصفة الرسمية ، فأصبح الجيش الرسمي للدولة العثمانية . [1]

---

[2] Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S . 58 – 59 .

[3] A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 – 59 .

[1] Ahmed Cevdet Pasa, Tarih , VII ,S. 289 – 291 .

وقد أغضبت هذه الإجراءات الانكشاريين فأشعلوا نار الثورة مرة أخرى على الصدر الأعظم مصطفى باشا بيرقدار ، حيث هاجموا مقرَّه ، ولكن مصطفى بيرقدار لم يستسلم للانكشاريين ، وقد سادت الفوضى مرة أخرى في إستانبول حيث استولى العصاة على المدينة، وبقي السلطان محمود الثاني محصورًا في طوب قابي سراي ، إذ كان هدف العصاة قتل محمود الثاني وإعادة السلطان المخلوع مصطفى الرابع إلى الحكم ، لكن الصدر الأعظم مصطفى بيرقدار ، تصدى لهم ودافع عن السلطان ، فحاصروه في قصرهِ وأضرموا النيران فيه لإجباره على الفرار ، ففضل الموت على الاستسلام لمطالب الفئة الثائرة ، وهذا يدل على مدى شجاعته واقتناعه بالمبدأ الذي عاش يدافع عنه ، ثم أمر السلطان محمود الثاني الأسطول العثماني بقصف مقر قائد الانكشارية ، وبعد أن علم الطغاة بعدم استطاعتهم الوقوف أمام قوة السلطان محمود الثاني التجأوا إلى العلماء، وطلبوا منهم الصلح ووعدوهم بأنهم سيخضعون لقرارهم ، ولأجل تحقيق الأمن والسلام في الدولة ، قرر العلماء ما يلي : " وقف إطلاق النار بين رجال الدولة والانكشاريين ، وعودة الانكشاريون إلى ثكناتهم ، وقيام السلطان بإلغاء جيش السكبان الجديد " ، فوافق السلطان على ذلك فأمر بتسريح الجنود المسجلين في هذا الجيش في 29 رمضان 1223هـ/18 نوفمبر 1808م وإرسالهم إلى بيوتهم ، كما قام بمنح وظائف مدنية إلى ضباط الجيش المنحل [1].

ومع هذا فقد استمرت النيران التي أشعلها الانكشاريون في إستانبول ، حيث احترقت آلاف الدور السكنية والمحلات التجارية والمعسكرات ، وقد قام المتمردون العصاة بالتجمع حول محمد القاندر الذي استولى أثناء التمرد على الترسخانة (مقر صناعة السفن) والطوبخانة (معسكر المدفعية العثمانية) ، كما طالبوا بعزل الصدر الأعظم مميش باشا ، وتنصيب يوسف ضياء باشا بدلاً عنه.[2]

ويمكن القول بأن عهد السلطان محمود الثاني شهد ثورات وتمردات داخلية مكثفة استهدفت إخفاق الحركات الإصلاحية ، كما شهدت محاولات أجنبية تستهدف تمزيق الدولة العثمانية ، ومع هذا لم تنكسر شوكة السلطان محمود الثاني وعزمه في مواصلة أفكاره الإصلاحية وكفاحه ضد الطغاة وأعداء الدولة وأرجأ فكرة إصلاح الجيش لفترة من الوقت .

خامسًا :أطلق على معاهدة عام 1224هـ /1809م مع بريطانيا معاهدة سلام ، على الرغم من أنها كانت معاهدة مجحفة في حق الدولة العثمانية فقال :

---

[1] Ahmed Refik , kabakci Mustafa , Istanbul 1331 , S . 112 – 142 .

[2] Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S . 60-61 .

" في شهر يناير عام 1809م أبرمت معاهدة سلام مع بريطانيا بالرغم من المعارضة الشديدة من فرنسا النابليونية ". [3]

الأقرب إلى الصحة هي أنها معاهدة صلح [4]، وليس معاهدة سلام [5]؛ لأن بنودها كانت تشتمل على رد الطرفين لبعضهما الأموال والقلاع والسفن وما إلى ذلك .

في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية منشغلة بالأحداث الداخلية ، كانت روسيا وفرنسا تخططان لتقسيمها ، مما اضطر السلطان محمود الثاني إلى طلب الصلح مع بريطانيا ، وبعد مباحثات طويلة أبرمت في 3 محرم 1224هـ/5 يناير 1809م معاهدة الصلح بين الدولتين ، وقد تعهدت بريطانيا بموجب هذه الاتفاقية المتضمنة 12 بندًا بإعادة القلاع العثمانية التي استولت عليها خلال الحرب ، فيما تعهدت الدولة العثمانية بإعادة السفن والأموال التي استولت عليها أثناء الحرب ، كما وافقت على تمديد مدة الامتيازات التي منحتها لبريطانيا .

وقد نصت المعاهدة – أيضًا – على أن يتمتع قناصل كلتا الدولتين بالحقوق نفسها . إضافة إلى قيام بريطانيا بدعم الدولة العثمانية في حالة قيام فرنسا بإعلان الحرب عليها ، وتعهدت بريطانيا بالقيام بدور الوسيط لتأمين الصلح بين روسيا والدولة العثمانية في حالة قيامها بالصلح مع روسيا ، وذلك لأجل تحقيق وحدة الأراضي العثمانية . [1]

وتعد هذه المعاهدة ضربة قاضية لمطامع فرنسا في الشرق الإسلامي ، خاصة بوجود الدولة العثمانية ، كما أنها وضعت – إلى حد ما – حدًا فاصلاً للتدخل الروسي في شؤون المنطقة على الرغم من استمرار الحرب مع الدولة العثمانية.

سادسًا : استئناف الحرب مع روسيا ، وعدم ذكر الأحداث الصحيحة فقال :

" غير أن المفاوضات مع الروس الذين احتلوا منطقة مولدافيا وولاشيا عام 1806م قد أخفقت في إبريل 1809م ، واستأنفت الحرب مع روسيا بشن هجوم على المنطقة الواقعة جنوب الدانوب ، قوبل العثمانيون بهزائم في عددٍ من المعارك إلا أنهم أفلحوا في حصر

---

[3] A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 .

[4] معاهدة الصلح : بضم الصاد ، هو إنهاء الخصومة بين طرفين ، والإتفاق بعد النزاع ، وأما إصطلاحاً : عقد الصلح هو عقد للتسالم والتراخي بين دولتين ويكون العمل على طبق ما أتفقا عليه وما ورد من بنود في المعاهدة ، وهو لازم على الطرفين.

[5] معاهدة سلام : مخففة اللام ، وهو عقد معاهدة بين طرفين ، معاهدة أمن وأمان وتحية وصلح ، وهي تعبر عن الوفاق والوئام والأمان والإطمئنان بني الطرفين .

المعاني – قاموس متعدد اللغات ، مصطلحات عربي عربي ، 1432/1/2هـ .http: // www. Almaany.com

[1] Mecmu – i Muahedat ; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , Varak , I , S. 266 .

محاولة الروس في الاستيلاء على " شوملا " وأيضًا الزحف باتجاه جبال البلقان ، وفي ظل التوجس من المخاطر المتصاعدة من شن حرب مع فرنسا كان الروس على استعداد للدخول في مساومة ، انتهت الحرب باتفاقية بوخارست في يوم 28 مايو 1812م التي بموجبها حصل الروس على منطقة بيراربيا في حين استعاد العثمانيون منطقتي مولدافيا وولاشيا". [2]

إن روسيا (الدب القطبي) كانت دائمًا متربصة بالدولة العثمانية ، مستهدفة احتلال أجزاء من أراضيها ولم تتوانَ عن تحقيق الهدف ، واستغلت كل الظروف في سبيل الوصول إلى المياه الدافئة .

لقد وجد السلطان محمود الثاني في تحركات روسيا القيصرية خطورة على المناطق المتاخمة لحدوده معها ، خاصة الصرب الذين بدأوا فعلاً في إشعال الثورات والقلاقل في أوائل القرن 13هـ / 19م ، وأصل هذه الثورات كانت موجهة ضد فساد الانكشارية ، [3] ولكن بمرور الوقت نشأ لدى الصرب فكرة القومية ، وبعث الشعب الصربي بشكواه ومندوبيه إلى السلطان محمود الثاني ، لكن الأخير كان منشغلاً بمشاكلهِ الداخلية ، فلم يرد عليهم سريعًا، مما جعل الصرب يتجه إلى روسيا التي كانت توَّاقة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية ، فتأزم الموقف بين الدولة العثمانية وروسيا . [1]

وفي الوقت الذي أبرمت فيه المعاهدة العثمانية البريطانية ، كان هناك وفد عثماني آخر يجري مفاوضات مع روسيا ، وقد استغلت روسيا الأحداث الداخلية في إستانبول فطلبت البغدان والأفلاق من الدولة العثمانية ، فترك الوفد العثماني مفاوضاته وعاد إلى إستانبول وفشلت المفاوضات ، فيما قام الجيش الروسي بالتقدم نحو قلاع عثمانية واستولى عليها ، وقام السلطان محمود الثاني إثر التهديدات الروسية بجمع مجلس الشورى في جامع الفاتح لتقرير مبدأ الدفاع عن الدولة العثمانية ، والعمل على إزالة الخلافات والتنافر الداخلي ، والمضي قدمًا في الإصلاحات حتى يتم النصر للدولة العثمانية ، وأعلن النفير العام دفاعًا عن الدولة والأمة والدين ، فقام جمع غفير من المتطوعين من كافة أرجاء الدولة العثمانية ، – وكان فيهم عدد كبير من طلاب المدارس – بالمشاركة في الجهاد ، حيث انضموا إلى الجيش

---

[2] A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 .

[3] لمزيد من المعلومات حول تعرضات الانكشارية لأهالي الصرب الرجوع إلى . أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص304-308 .

[1] عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 431 ، 432 .

العثماني الذي تحرك من إستانبول في 9 جماد الثاني 1224هـ/ 23 يوليو 1809م بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا ، ومن جهة أخرى قام القيصر الروسي الكسندر بإرسال الجيش الروسي صوب إستانبول، إذ التقى الجيشان في موقع قرب قرية تاتاريجة، [2] ونشبت بينهما معركة دامية أدت إلى استشهاد ألف جندي من الجيش العثماني ، وموت عشرة آلاف جندي من الجيش الروسي الذي تقهقر في ميدان المعركة واضطر إلى الفرار . [3]

وفي هذه الأثناء كان الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت يخطط في الهجوم على روسيا ، مما جعل القيصر الروسي الكسندر يطلب الصلح من السلطان محمود الثاني ليستطيع التصدي للهجوم الفرنسي على أراضيه ؛ لكن السلطان لم يوافق على ذلك ، بل أرسل جيشًا آخر إلى شُمنو [4] بقيادة لاز أحمد باشا الذي ألحق هزيمة كبيرة بالجيش الروسي ، مما اضطر قائده إلى طلب عقد هدنة بين الطرفين ، لكن المباحثات التي جرت بين الطرفين لم تثمر بنتيجة ما وامتدت إلى 15 جمادى الأولى 1227هـ / 28 مايو 1812م وأبرمت حينها المعاهدة الثنائية بين روسيا والدولة العثمانية معاهدة بخارست والمتكونة من 16 بندًا .[1] ، وبموجب هذه المعاهدة أعيدت البغدان والأفلاق إلى الدولة العثمانية ، وقامت الدولة العثمانية بإصدار العفو العام عن العصاة والمتمردين الصرب ، كما وافقت على منح الحكم الذاتي للصرب تحت السيادة العثمانية ، واحتفظت روسيا بإقليم بساربيا وأحد مصبات نهر الدانوب.[2]

ثم أبرمت معاهدة أخرى بين السلطان محمود الثاني والقيصر نيقولا الأول في 4 ربيع الأول 1242هـ / في 7 أكتوبر الأول 1826م ، وقد منحت الدولة العثمانية بموجب هذه المعاهدة امتيازات للتجار الروس من جهة ، وامتيازات للصرب من جهة أخرى . [3]

---

[2] تاتاريجه Tatar مدينة في بلغاريا حالياً . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 211 .

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 20 / 71 y.EE . إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 207 .
Mustafa Nuri Pasa , Netayicul – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 64-65 .

[4] شُمنو Shoumnan ، هي مدينة حصينة في تركيا الأوروبية ، في بلغاريا ، وهي مدينة ذات موقع عسكري استراتيجي قوي . س. موستراس : مرجع سابق ، ص 320 .

[1] إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج1 ، ص 664
Mecmu – i Muahedat , IV; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , S49

[2] علي محمد الصلابي:مرجع سابق ، ص 541 ، 542 ، Mustafa Nuri Pasa , Netayicu 1 – Vukuat 1327 , S.68-69

[3] Mecmu– i Muahedat ,IV,; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , Varak 120 a – 122b , S. 58 , 69.

أما عن الصرب فقد دخلت فكرة القومية في أذهانهم بفضل روسيا وبدأ الصربيون يطالبون بالانفصال عن الدولة العثمانية في أوائل القرن التاسع عشر وذلك بتحريض من فرنسا وروسيا وبريطانيا ، وقام الروس خلال الحرب العثمانية الروسية بدعم الصرب بالأسلحة والأموال ، وفي معاهدة بخارست التي تطرقنا إليها أعلاه منح الحكم الذاتي للصرب ، فانفتح أمامهم طريق الاستقلال ، إذ قام الصربيون بحركة استقلالية مستغلين الضعف الذي تعاني منه الدولة العثمانية ، لكن الحركة قمُعت من قبل القوات العثمانية حيث اضطر قائدها الفرار إلى النمسا، ثم تولى ميلوش أوبرانويج قيادة الحركة الصربية ، فقام الروس هذه المرة بعقد المصالحة بين مليوش والحكومة العثمانية ، حيث تقرر تعيين ميلوش واليًا على الصرب من قبل الدولة العثمانية عام 1232هـ / 1816م ، ويقتصر عمل الدولة العثمانية على المراقبة والتمركز مع حمايتها في الحصون والقلاع ، وإدارة البلاد عن طريق مجلس منتخب مؤلف من إثني عشر عضوًا ينتخبون رئيسًا من بينهم ، كما منحت الدولة امتيازات كثيرة إلى الصرب وأصبحت شبه مستقلة ، وعلى الرغم من ذلك فقد بدأ الصربيون فيما بعد بقتل المسلمين والتمرد ضد الدولة العثمانية ، فاضطر السلطان محمود الثاني إلى قبول استقلال الصرب عام 1246هـ / 1830م.[1]

لقد بقيت روسيا دائمًا تنظر بعين المحتل للآستانة ، وتهدد بذلك ، وأطلق القيصر الروسي على الدولة العثمانية " الرجل المريض الذي لا يرجى شفاءه " حتى تهيئ الأذهان لإقتسام ممتلكات هذه الدولة المريضة .

سابعًا : تصوير ليفي لحرب الدولة العثمانية مع بلاد فارس على أنها مناوشات حدودية فقال:

" تطورت المناوشات الحدودية مع إيران عام 1820م إلى حرب شاملة ، وبعد حرب ضروس لبضع سنين تمكن الفريقان من التوصل إلى اتفاقية صلح بين الطرفين عام 1823هـ " [2]

---

[1] Mustafa Nuri Pasa , Netayiu'l – Vukuat , IV , Istanbul 1327 , S. 69 .

عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 432 ، 433 . محمود شاكر : مرجع سابق ، ص233 ، 234 .

[2] A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 58 .

إن الحرب التي دارت رُحاها بين الدولة العثمانية وبلاد فارس ، كان السبب الرئيس فيها دسائس روسيا ، وإدخال جواسيسها في أرجاء العالم الإسلامي لخلق جو من التوتر والنفور ضد الدولة العثمانية . وشيئًا فشيئًا زادت الفتن والعصيان وامتدت لسنتين . [3]

وفي الوقت الذي كانت الدولة العثمانية منشغلة بحروبها ومشاكلها في أوروبا، قامت القوات الفارسية بالاعتداء على الحدود العثمانية ، إذ بدأ عباس مرزا ابن الشاه فتح علي ، الهجوم على الجانب الشرقي من الأناضول ، فيما قام محمد علي مرزا الابن الآخر للشاه فتح على بالهجوم على منطقة العراق ، ولم تتمكن الدولة العثمانية من إرسال جيش مجهز بالشكل الذي يدافع عن حدود الدولة لانشغالها بمشاكل أخرى ، فاستغل الإيرانيون ذلك وقاموا بالاستيلاء على العديد من قلاع وحصون في المنطقة .

وفي هذه الأثناء انتشر وباء الكوليرا بين الجيش الفارسي مما أسفر عن كثير من الضحايا في الجيش بما فيهم قائدهم محمد علي مرزا ، فاضطر شاه فارس إلى طلب الصلح من الدولة العثمانية والانسحاب من الأراضي التي استولى عليها الجيش الفارسي ، وعقد الصلح بين الدولتين في 1 ذو الحجة 1239هـ / 28 يوليو 1823م [1] ، وبهذا نجت الدولة العثمانية من الخطر الفارسي بفضل العناية الإلهية ، ثم بفضل وباء الكوليرا الذي خفف من الحرب والمناوشات ، وحقن دماء المسلمين .

لا شك أن حرب إيران ضد الدولة العثمانية كانت بسبب الوشايات الخارجية التي أسهمت بدرجة كبيرة في تردي العلاقة بين الطرفين .

ثامنًا: علاقة السلطان محمود الثاني مع محمد علي باشا والي مصر. فقال عنها:

" وبينما لم يزل محافظًا على ولائه للسلطان محمود الثاني قام محمد علي بتحويل مصر تدريجيًا إلى دولة كبيرة ". [2]

إن التناقض واضح جدًا في الجملة السابقة ، فكيف يكون محمد علي على ولائه للسلطان محمود الثاني ، ويسعى إلى تحويل مصر تدريجيًا إلى دولة كبيرة ، إن في ذلك دليل واضح على أنه سعى لأن تصبح مصر والشام دولتهِ القادمة المستقلة عن الدولة العثمانية ، في الوقت نفسه حاول المستشرق ليفي أن يحسن من صورة محمد علي باشا ، فلم يصوره

---

[3] إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 208 .

[1] Sanizade Ataullah Efendi , Tarih – i Sanizade III , Istanbul 1291 , S. 127 – 129 , 145 – 146 ; IV , S. 48 – 49 .

[2] A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 59 .

كعدو للدولة العثمانية وذلك من أجل أن لا يلقي الضوء على الدور الذي لعبه محمد علي باشا مع أوروبا ضد الدولة العثمانية .

إن بوادر خروج محمد علي عن سيطرة السلطان محمود الثاني بدأت مبكرًا فمنذ أن بدأ يبالغ في إظهار نفسهِ كخادم مطيع للسلطان محمود الثاني ، أدرك أبعاد موقفهِ ، فأمر بنقلهِ من ولاية مصر ، لكن العلماء وأعيان مصر تدخلوا لتثبيته في الولاية ، فأصدر السلطان فرمانًا آخر بذلك لإعادتهِ على ولاية مصر في 24 شعبان 1221هـ / 6 نوفمبر 1806م [3].

وهنا بدأ محمد علي تدعيم مركزه الشخصي وتثبيت نفسه على ولاية مصر ، وليس من المستبعد بل ومن المؤكد أن فرنسا كانت تساند محمد علي ليكون شوكة في ظهر الدولة العثمانية ، فطبيعة الدول الأوروبية في هذه الفترة تشجع الحركات الإنفصالية وتاريخهم يظهر ذلك بوضوح لإضعاف الدولة وفتح جبهة جديدة عليها ، لأنه قد ثبت تماماً استعانته بهم لتحديث النظم في مصر وجعلها كأوروبا ، وقد كانت الصحف الفرنسية تدعم موقفه وتحاول أن تصوره على أنه حليف قوي للعثمانيين على اعتبار أنه أعدَّ مصر على النظم الأوروبية مما يعطيها تميزًا عن باقي ولايات الدولة العثمانية . [1] هذه حقيقة موقفهُ من السلطان العثماني ، وقد اتضح مع مرور الزمن .

ويظهر هذا الموقف بوضوح عند القضاء على الدولة السعودية الأولى ، حيث أرجع إبراهيم باشا الحجاز للدولة العثمانية ، لكن لكي ينفذ حلم والده في تكوين دولة مستقلة عن الدولة العثمانية أستمر بالمسير إلى عاصمة الدولة السعودية الأولى الدرعية وحاصرها بمنتهى القسوة والعنف ، ولم يقبل بشروط الصلح التي عرضها الإمام عبدالله بن سعود وانتهى الأمر باستسلام الأخير لإبراهيم باشا وتدمير الدرعية تمامًا ، ونهبها وإلحاق الضرر بالأهالي ، على الرغم من أن مرسوم السلطان العثماني اقتصر فقط على تخليص الحرمين الشريفين والوصية بالرعية والتجار ، لكن محمد علي لم يلتزم بهذا الأمر وضرب به عرض الحائط ، وتقدم في سبيل تحقيق أهدافه وذلك في عام 1234هـ / 1818م ، لقد كان محمد

---

[3] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 391 .

[1] علي محمود الصلابي : مرجع سابق ، ص546 . أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة D – 40958 / 954 . HAT

علي من الولاة العثمانيين الذين وجهوا ضربات موجعة للدولة العثمانية ، وهو كما قال عن نفسه : " شخص بعقل أفرنجي وهو يلبس القبعة العثمانية " . [2]

إن موقفه في القضاء على الدولة السعودية يعد ظهورًا مبكرًا جدًا لأطماع محمد علي باشا الاستقلالية ، تتضح صورتها مع إخماد الثورة اليونانية ثم حرب الشام الأولى والثانية .

تاسعاً : القضاء على الانكشارية . فقال :

" وفي محاولة لإضفاء موافقة عالمية عليها عمد النظام إلى تسميتها بعبارة الواقعة الخيرية وعُهِد إلى مؤرخ المحكمة أسعد أفندي بأن يدون ذلك القرار الرسمي للأجيال القادمة ، وتمت طباعة المدونة التاريخية التي أعدها أسعد أفندي عام 1828م تحت عنوان أس ظفر " .[3]

صور ليفي الحدث على أنه عديم الأهمية وأن المؤرخ أسعد أفندي هو من أعطاه الأهمية بإخراج المدونة التاريخية " أس ظفر " علماً بأن مسألة تأريخ حدث بهذه الأهمية هو عادة لجميع الحكام ولا يحتاج لسخرية من العلماء ، لأن كل حاكم كان يقوم بحمله أو عمل مهم يؤرخ له مباشرة ، وأبلغ دليل على ذلك حملة نابليون بونابرت والعلماء الذين رافقوه إلى مصر وأرخوا لكل شاردة وواردة فيها .

لقد كان السلطان محمود الثاني يفكر منذ توليه الحكم في حّل الفرقة الانكشارية التي أصبحت في الفترة الأخيرة مصدرًا للمشاكل والقلاقل والفوضى ، لكنه كان ينتظر الفرصة المواتية لذلك ، وعندما سنحت له الفرصة في 23 ذي القعدة 1242هـ/15 يونيو 1826م أمر بقصف معسكر الانكشاريين الواقع في ميدان الخيول " آت ميدان " القريب من طوب قابي سراي ، وقد توفي في هذا القصف المدفعي حوالي سبعة آلاف من الانكشاريين ، وفرّ الذين نجوا من الموت إلى خارج إستانبول ، وبهذا تخلصت الدولة العثمانية من مكرهم ، وكان هذا الحادث في صالح الدولة والمجتمع على السواء ، ولذلك عرف في التاريخ باسم " الوقائع الخيرية " ، [1] وقد تبع إلغاء الانكشارية إلغاء العديد من الرتب والوظائف العسكرية داخل الدولة العثمانية . [2]

---

[2] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 554 – 574 .

[3]A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 59 .

[1] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول وثيقة HAT.H 17393: نقلاً عن أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص375 .

أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول وثيقة HAT .H 17354: نقلاً عن أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص 382 .

Mustafa Nuri Pasa , Netayicu'l – Vukuat , Istanbul 1327 , S. 76 – 77 .

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول وثيقة L – 43944 / 1076 – HAT

إن مسألة القضاء على الانكشارية كانت ضرورة حتمية حتى تستمر الدولة العثمانية ؛ نظرًا لتاريخهم الطويل في التمردات ورفض النظم العسكرية الحديثة، وتعدياتهم وظلمهم للأهالي في الولايات [3]، ولم يكن ممكنًا إصلاحهم ، فكان القضاء عليهم هو الحل الأفضل لإدخال النظم العسكرية الحديثة في الجيش العثماني ، ليصبح لديهِ القدرة على مواجهة التحديات الأوروبية .

لقد أسُست العساكر المنصورة المحمدية على أحدث طراز ، وتوفرت لها جميع الإمكانيات والمستلزمات والدعم المادي [4]، والذي لم يكن ليوجد بهذه الصورة إذا بقيت الانكشارية ، لذلك فبالقضاء على الانكشارية دفُعت حركة الإصلاح ودب النشاط في أجزاء الدولة العثمانية ، وشُرع تكوين العساكر المنصورة على النظم الأوروبية ، حتى إنه خُصصت لهم خزينة خاصة ودربت على الأسلحة الحديثة خاصة المدفعية ، وذلك بمساعدة من بروسيا.[5]

لكن المؤسف في الأمر أن الدول الأوروبية لم تعط السلطان محمود الوقت الكافي لجني ثمار هذا الإصلاح ، حيث عقدت بريطانيا وفرنسا وروسيا الحلف الثلاثي عام 1243هـ / 1827م الذي من أهدافهِ إكراه السلطان محمود الثاني على منح بلاد اليونان استقلالها .

ثم كان انقطاع علاقة السلطان محمود الثاني بمحمد علي باشا ، فزادت الهوة بينهما ، ورفض الأخير مساعدة السلطان محمود الثاني في إرسال خبراء عسكريين لتدريب العساكر المنصورة ، مما جعل السلطان يستشعر الريبة منه.

ثم كانت جاءت معاهدة أدرنه الحزينة التي أُرغم السلطان محمود الثاني على توقيعها عام 15 ربيع أول 1245هـ / 14 سبتمبر 1829م والدموع تملأ؛ عينيه لأنها بحق كانت أسوء معاهدة في التاريخ العثماني . [1]

فكيف بعد هذه الأحداث تظهر نتائج الإصلاح ؟! إن إصلاحاتهِ طُمرت تحت كم الأطماع الأوروبية ، في الوقت نفسهِ عبر كرامز عن الوقعة الخيرية في مادة الترك : " ***ومع***

---

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة L – 21862 / 426 – HAT

[4] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 28938 / 589 – HAT

[5] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة A – 47374 / 1209 – HAT

[1] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص 386 – 391 .

ذلك فقد دلت الحوادث على أن فعلة محمود الثاني هذه كانت أقرب إلى التخريب منها إلى التعمير " . [2]

وذلك في محاولة منه لوصف إصلاحات محمود الثاني بالتخريب وعدم الفائدة ، على الرغم أنه لو نقب قليلاً في المراجع لاكتشف مدى خطأ رأيه ، وأن بلادهِ كانت السبب في عدم ظهور نتائج هذه الوقعة الخيرية ، وعلى الرغم من المواقف العسيرة التي مر بها عهد السلطان محمود الثاني إلا أن الإصلاحات التي قام بها أدت إلى إعادة الضبط والربط والهدوء في الولايات وبين الأهالي . [3]

عاشرًا :حقيقة معركة ميناء نوارين . فقال :

" فإن الكارثة التي حلت باليونانيين أدت إلى تدخل الأوروبيين فعرضت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا التوسط في القضية ، إلا أن العثمانيين رفضوا هذا العرض باعتبار أن النزاع هو شأن داخلي ، واجه الأوروبيون هذا الموقف بإرسال أساطيلهم البحرية إلى اليونان ، وفي يوم 20 أكتوبر 1827م وفي ميناء "نافرينو " قاموا بتدمير أسطول عثماني – مصري مشترك " [1]

ظلت أوروبا حريصة دائماً على تمزيق الدولة العثمانية ، وذلك بإثارة الفتن الطائفية الدينية وتفجير الثورات الداخلية بدعمها المادي والمعنوي المتواصل وإنشاء الجمعيات السرية بدعم روسي ، وبتشجيع من القيصر إسكندر الأول نفسه، وأهمها جمعية في أوديسا في بلاد اليونان على اعتبار أنها جزءٌ من الدولة العثمانية، وهدفت هذه الجمعيات إلى إحياء الإمبراطورية البيزنطية تحت إدارة البطريركية الأرثوذكسية الرومية في إستانبول ، أما القيصر الروسي فبدأ تحين الفرصة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية وافتعال الأزمات ، وبدأ رجال الدين باستخدام نفوذهم على الشعب والعمل على تحريكه للثورة ضد الدولة العثمانية ، خاصة وأنهم على علاقات وثيقة برجال وسياسيين في أوروبا ، مما سهل نقل موجة الكره والحقد على الدولة العثمانية إلى أوروبا وخاصة الولايات العثمانية منها .[2]

وهذا ما اتضح سابقًا عن دور رجال الدين في دعم الكراهية والحقد على الدولة العثمانية .

---

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص184 .

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة A . 46746 / 1185 – HAT .

[1] A.Levy : mahmad II , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P 59 .

[2] عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 433 ، 434 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص574 ، 575 .

واشتعلت الثورة في بلاد اليونان بناءً على المعطيات السابقة ، وطلب السلطان محمود الثاني من الوالي محمد علي باشا والي مصر بأن يخضع بلاد اليونان ويعيدها إلى حكم الدولة العثمانية ، واستطاع إبراهيم باشا القيام بهذا الأمر لتحقيق مآرب خاصة بمحمد علي باشا ، وإجهاض حركة التمرد في المورا ، ودخل أثينا عام 1241هـ / 1823م رغم وقوف بريطانيا وروسيا في صف اليونان . [3]

وهنا بدأ الإعلام القيام بدوره ، فأشاعت الصحافة الأوروبية أن إبراهيم باشا يذبح اليونانيين ، ويبيع الباقي عبيدًا ، ويحل محلهم فلاحين مصريين ، فهاج الرأي العام الأوروبي وطالب أوروبا بضرورة التحرك لإنقاذ اليونان من نيران المستعمر التركي . [4]

لقد أدى قيام الدولة العثمانية بقمع الحركة التمردية في بلاد المورا إلى تعاطف الدول الغربية مع الروم ، فاجتمعت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا بلندن في 1 محرم 1243هـ / 6 يوليو 1827م ، وكشفت عن وجهها الحقيقي ، وأعلنت حمايتها لليونان ، بل إن روسيا كان تدعم التمرد اليوناني علنًا ، ورأت أن الفرصة سانحة لدخول إستانبول وإعادتها إلى عهدها السابق مركزًا للصليبية والوثنية ، ووقف الإنجليزي إلى جانب روسيا ، وقررت إنجلترا استخدام الضغط على الدولة العثمانية للانسحاب من بلاد المورا ، وبدأت القوات البحرية المشتركة لهذه الدول بحصارها ، وفي هذه الأثناء كان الأسطول العثماني مرابطًا في ميناء نوارين وهدد قائد الأسطول البريطاني قائد الأسطول العثماني إبراهيم باشا بأنه إذا لم يغادر بلاد المورا سيقصف الأسطول ، لكن الباشا لم يستجب لهذا التهديد ، فهاجمت القوات البحرية الصليبية ميناء نوارين في 24 محرم 1243هـ / 1827م وقامت بقصف الأسطول العثماني لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة بحيث تحطم الأسطول العثماني وغرقت 67 سفينة عثمانية واستشهد 8000 من القوات البحرية العثمانية .

فاحتجت الدولة العثمانية وأخرجت سفراء الإنجليز والفرنسيين والروس من إستانبول، وطلبت الغرامة من تلك الدول لأنها هاجمت الأسطول العثماني في حالة السلم ، ولكن تلك الدول أرادت الهروب من المسؤولية واتهمت قادة قواتها البحرية بأنهم قاموا بذلك الهجوم بدون إذن من دولهم ، ثم عزلت الحكومة البريطانية قائد الأسطول البريطاني من منصبه .

---

[3] محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 240 ، 241 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص582 .

[4] علي سلطان : مرجع سابق ، ص281 .

والحقيقة أن بريطانيا وفرنسا اكتفتا بما حدث في نوارين وما كانتا تريدان الدخول في حرب مع العثمانيين ، لكن القيصر الروسي نيقولا استغل خسائر الأسطول العثماني في نوارين وضعف الجيش العثماني فقام بإعلان الحرب على الدولة العثمانية في 20 شوال 1244هـ / 26 إبريل 1828م ، حيث بدأ الجيش الروسي بالتغلغل داخل البلقان والقفقاس وهدفه المواصلة إلى إستانبول ، فاجتمع الديوان الهمايوني العثماني برئاسة السلطان محمود الثاني وقرر إعلان الحرب على روسيا وعين والي بروسة آغا حسين باشا قائدًا عامًا للجيش[1] ، وقد تقدمت الجيوش الروسية بسرعة فائقة فوصلت مشارف أدرنه من جهة ، واستولت على قارص وأرضروم واردهان من جهة أخرى ، وهنا حاق بالدولة العثمانية خطر كبير من الغرب والشرق ، لكن التقدم الروسي كان يعارض المصالح الفرنسية في المنطقة ، فقامت فرنسا بإقناع روسيا بعقد الهدنة مع الدولة العثمانية ، ومن جهة أخرى كان القيصر نيقولا يعاني من المشاكل الداخلية التي ظهرت في روسيا في تلك الفترة ورأى أن لا يبقى الجيش بعيدًا عن العاصمة الروسية فوافق على فكرة الصلح مع الدولة العثمانية ، وأبرمت معاهدة السلام بين الدولتين في أدرنه في 15 ربيع الآخر 1245هـ / 14 سبتمبر 1829م وذلك بتوسط فرنسا ، [1] ، وقد تعهدت روسيا بموجب هذه المعاهدة بإعادة كافة المدن التي استولت عليها خلال الحرب باستثناء الجزر الواقعة على مدخل نهر طونة ، والانسحاب من الأفلاق والبغدان وبلغاريا ، فيما تعهدت الدولة العثمانية بمنح الامتيازات إلى البغدان والأفلاق، كما تعهدت بمنح السفن الروسية حق العبور من المضائق التركية ، إضافة إلى الامتيازات التي منحتها إلى التجار الروس ، ودفع غرامة مالية إلى روسيا .

وفي الحقيقة أن فرنسا استفادت من وقوع الدولة العثمانية في مضايقات إثر هزيمتها أمام روسيا ، فقامت بإحتلال بلاد المورا عقب إنهاء وجود الأسطول العثماني فيها ، وتبع ذلك انفصال اليونان من الدولة العثمانية وإعلان استقلالها في 16 صفر 1245هـ / 15 أغسطس 1829م . [2]

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص852 .
Lutfi , Tarih , I , S . 402 – 403 , II , S. 86 .

[1] إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج1 ، ص684 .
Mecmu – i Muahedat , IV ; Vasif , Tarih , I.U. Kutup . Ty 5980 , , S. 70 .

[2] Ahmed Lutfi Efendi , Tarh – i Lutfi , II , Istanbul 1290 , S . 4-5 .

وأعقب ضياع بلاد المورة ، إحتلال فرنسا للجزائر حيث بدأت فرنسا تلتهم بلاد المغرب العربي ، وذلك لأن الثمرة نضجت .

لقد قاوم والي الجزائر داي حسين باشا الإحتلال الفرنسي بالاستيلاء على السفن التجارية الفرنسية ، ثم قام بإحتقار السفير الفرنسي الذي قدم للتفاوض معه حول إخلاء السفن. فقامت فرنسا بتوجيه إنذار إلى الدولة العثمانية ، وفي الوقت نفسه قام الأسطول الفرنسي المتكون من مائة سفينة حربية بالهجوم على الجزائر في 2 محرم 1246هـ/ 12 يونيو 1830م ، فلم يتمكن الوالي من الصمود أمام هذه القوة ، كما لم تستطع الدولة العثمانية إرسال معونة عسكرية إلى الجزائر لعجزها العسكري نتيجة الحروب المتعددة مع الدول الأوروبية ، وبعد الجزائر عن مركز الدولة ، وبذلك بدأ الاحتلال الفرنسي الغاشم ، والمظالم الفرنسية على الشعب الجزائري المسلم . فبدأ الشعب الجزائري النضال والجهاد ضد الفرنسيين بزعامة المجاهد عبد القادر الجزائري . وبعد وفاة هذا المجاهد عام 1264هـ/ 1847م، واصل الجزائريون كفاحهم ضد الفرنسيين الذين حكموهم بالدم والحديد ، حتى أنهم قتلوا في سنة1288هـ/1871م مائة ألف مسلم جزائري . [3]

أن الفرنسيين الذين يزعمون أنهم شعب متمدن ، وأنهم هم الذين نشروا العدل والحقوق والمساواة والحرية في العالم ، واصلوا ظلمهم وطغيانهم على الشعب الجزائري المسلم أكثر من قرن وربع القرن من الزمن .

وعلى الرغم من قوة السلطان محمود الثاني والإصلاحات التي قام بها ، إلا أنه ابتلي بعدة كوارث أجهضت الحركة الإصلاحية التي قادها ، أهم أسباب هذا الإجهاض كان تربص روسيا المستمر الذي تُرجم في سياسة هدفت إلى تعطيل نتائج الإصلاحات قدر الإمكان ، وذلك عن طريق الحروب المستمرة وتكبيلها بالمعاهدات المجحفة في حق العثمانيين ، وصارت الدولة العثمانية تدور في محور هيمنة روسيا ، وارتكز أمنها الخارجي على التشاور بين الدول الأوروبيةِ ، ويأتي دور فرنسا الفعال في التهام أجزاء من الدولة العثمانية بعد تفتح شهيتها .

وحلَّت كارثة جديدة بعد ضياع الجزائر على السلطان محمود الثاني ، وهي قيام الوالي محمد علي باشا بالانفصال رسميًا عن الدولة العثمانية ، وإعلان استقلال مصر تحت

---

[3] Ali Riza Pasa , Miratu'l – Cezayir , terceme : Ali sevki , Istanbul 1293 , S . 52 – 55 .

زعامتهِ عام 1249هـ / 1833م ، فبدأ في مصر – منذ ذلك التاريخ – حكم محمد علي باشا وأسرتهِ من بعدهِ . [1]

الحادي عشر : لم يذكر المستشرق أي شيء عن وفاة السلطان محمود الثاني :

لم يوضح المستشرق ليفي كيفية وفاته ، أو الأسباب التي أدت إلى ذلك وكأن الأمر لا يخص إصلاحاتهِ التي قضى عمره فيها ، ولم يرَ نتائجها .

للأسف كانت حياته سلسلة من الكفاح القاسي لإنجاز شيء في بلادهِ ، لكنه أصيب بخيبة أمل حيث لم يجنِ ثمار أعمالهِ لأنها خُنقت في المهد ، ولم ترَ النور .

لقد توفي كعمهِ وأبيه نتيجة للآثار السيئة التي تركتها الحرب الروسية في صحتهِ ، حيث أصيب بعدوى مرض السل ، وانحرفت صحتهِ بشدة ، قبل ظهور أعراض المرض عنده بخمسة أشهر ، فأشار عليه الأطباء بتبديل الهواء ، فنقل إلى مصيف جامليجة في ضواحي إستانبول ، لكن المنيَّة عاجلته في 19 ربيع الآخر 1255هـ / 1 يوليو 1839م ، ولم يتجاوز الـ 53 بـ 11 شهرًا و12 يومًا ، دامت سلطنتهِ 31 عامًا قضاها في محاولة مستميتة لمد عمر الدولة العثمانية.[1]

انتهى عصر السلطان محمود الثاني الذي بدأ فيه حركة الإصلاح على الطريقة الغربية مع التمسك بأسس وقواعد الشريعة الإسلامية ، واستمر في هذه السياسية ابناه السلطان عبد المجيد الأول ، والسلطان عبد العزيز ، ولا شك أنه من الضروري فهم تداعيات عهد السلطان عبد العزيز وإزالة الغموض عنه لربط أحداث عهدهِ بما حدث قبله وبعده ، خاصة إذا ما علمنا أن أغلب المراجع والمصادر القديمة كثيرًا ما أهملت عهده لاتصافهِ بالغموض في بعض الأحيان .

وحتى مادة السلطان عبد العزيز نتعرف فيها على مستشرق جديد لأول مرة يقدم لنا مادة وهو كارل ، الذي قدَّم المادة في دائرة المعارف الإسلامية بشكل جيد نوعًا ما ، كما أنه كان واضحًا وصريحًا في عرض المادة العلمية وبمنتهى السهولة ، لكن الأمر لا يخلو من إدخال بعض الأفكار المنحرفة قليلاً عن صحة الحدث التاريخي ، لكن تشويهه للأحداث لم يصل إلى حد من سبقوه مطلقًا .

---

[1] إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج1 ، ص686 – 688 .

[1] يلمازا أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 23 . علي حسون : مرجع سابق ، ص 178 .

ومع ذلك فهي تعتبر أفضل مادة قدمت عن سلطان في نظر الدراسة ، إذ خلت في كثير من الأحيان من الشوائب التي أُلصقت ببقية السلاطين . وستناقش الدراسة المادة من خلال نقطتين :

أولاً : إيراد الثورات والتمردات التي حدثت في عهدهِ دون تفصيل للأحداث [2].

ثانياً : ذكر الأسباب الصحيحة لعزلهِ ، ثم أردفها بأسباب من وحي خياله ، وجزم إلى حدٍ ما بصحة انتحاره . [3]

وعبد العزيز هو السلطان الثاني والثلاثون للدولة العثمانية ، وابن السلطان محمود الثاني ، ولد في 23 شعبان 1246هـ/7 فبراير 1830م بإستانبول [4] ، تلقى العلوم الدينية والعلوم الثابتة منذ صباه على يد كبار العلماء ، وتعلم اللغة العربية والفارسية ، وتدرب على ركوب الخيل والمصارعة واستخدام السيف ورمي الرماح ، إضافة إلى استخدام الأسلحة النارية الحديثة ، وبويع له بالسلطنة في 17 ذي الحجة 1277م / 20 يونيو 1861م عقب وفاة أخيه السلطان عبد المجيد . [1]

وعلى الرغم من أنه تولى الحكم في عصر أحاطت فيه بالدولة العثمانية كثير من الأزمات والثورات إلا أنه حاول قدر الإمكان عمل كثير من الإصلاحات لحماية عرش أجداده. لكن الدول الأوروبية ظلت متربصة بهذه الإصلاحات حتى قضت عليها .

لقد أقر إصلاحات مالية وإدارية كانت قد بدأت قبل توليه الحكم ، بل وأضاف عليها الكثير ، وكان يرسل بتعليماته الخاصة للولايات لإتمام اللازم . [2]

لقد ارتقى السلطان عبد العزيز العرش في وقت كانت فيه خزينة الدولة تعاني من نقص في الموارد المالية كبير ، واستمرار الدول الغربية بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية ، كما زادت الأقليات – القاطنة داخل حدود الدولة العثمانية– من حركات التمرد والعصيان لمحاولة الانفصال عنها .

---

[2] E.Z.Karal : Abd Alaziz , the Encyclopaedia of Islam , Volume I , Leiden E.J. Brill : 1968 , P. 56 .

[3] E.Z. Karal : Abd Alaziz , the Encyclopaedia of Islam , Volume I , Leiden E.J. Brill : 1968 , P. 56 .

[4] Mahmud Celaleddin Pasa , Mir'at – i Hakikat , I , Istanbul 1326 , S . 121 .

[1] Ahmed Cevdet Pasa , Ma'ruzat , nsr : Yusuf Halacoglu , Istanbul 1980 , S. 30-33 .

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 57 / 122 HR – TO

وأول ما قام به السلطان عبد العزيز هو إنقاذ الدولة من العجز المالي الذي وقعت فيه، فقرر تخفيض مرتبه الخاص ، كما أمر بجمع القطع الذهبية والفضية الموجودة في القصر وأرسالها إلى دار الضرب لصهرها وتحويلها إلى نقود ، هذا بالإضافة إلى أنه قام بتقليل عدد موظفي البلاط العثماني ، كما قام بتخصيص ثلث واردات الخزينة الخاصة لخزينة الدولة ، فبدأت أمور الدولة المالية تتحسن تدريجيًا نتيجة هذه الإجراءات والتدابير ، ومن أهم منجزات السلطان عبد العزيز قيامه في سنة 1281هـ/ 1864م بإصدار قانون لتنظيم حكومات الولايات [3]، وتجديد الجيش والأسطول العثماني وتجهيزه بالأسلحة الحديثة . [4] كما قام بتشكيل ديوان الأحكام العدلية وإصدار " المجلة " المتكونة من مقدمة و 16 مجلدًا لتطبيقها والعمل بها في المحاكم العدلية [5] ، وفي عام 1285هـ/ 1868م أسس مجلس الدولة للشورى " شواري دولت " على غرار المجالس الفرنسية ، وذلك للنظر في الشؤون المالية والميزانية .[1]

واهتم السلطان عبد العزيز كذلك بالتربية والتعليم ، حيث أصدر قانون المعارف عام 1286هـ/ 1869م ، وجعل التعليم الابتدائي إلزاميًا على جميع المواطنين ، واشترط أن يكون موظفو الدولة من خريجي المدارس العالية ، وقام بإنشاء ثانوية "غلطه سراي" التي كان التعليم فيها باللغة الفرنسية ، كما تأسست في زمنه – أيضًا – دارًا للمعلمين العالية ودارًا للمعلمات العالية في إستانبول ، ثم افتتحت كلية اللغة في عام 1281هـ/ 1864م ، وكلية الطب في عام 1283هـ / 1866م ، وكلية الصيدلة في العام نفسه ، وكلية الهندسة في عام 1285هـ / 1868م، والكلية البحرية في 1287هـ / 1870م ، ثم كلية العلوم والآداب في العام نفسه .

وبدأ السلطان عبد العزيز بإيفاد الطلاب للدراسة في الجامعات الأوروبية، للعمل في الكليات التركية ، وأنشأ السكة الحديدية بين الولايات العثمانية ، وبين إستانبول وبعض المدن

---

[3] أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 74 . لمزيد من المعلومات الرجوع إلى : عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 340 ، 341 .

[4] ربيع عبد الرؤوف الزواوي ، مرجع سابق ، ص68 .

[5] أحمد صائب بك: وقعة السلطان عبد العزيز ، ترجمة : محمد توفيق جانا ، مصر : مطابع هندية بالأزبكية ، 1319هـ ، ص54 ، 55 . إسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص 331 .

[1] أحمد صائب بك : مرجع سابق ، ص 50 . أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص 74 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 621 ، 622 .

الأوروبية ، كما قام أيضًا بتوسيع شبكة التلغراف (البرق)؛ وذلك من أجل تسهيل الاتصالات ، وبإنشاء النفق الذي يمر منه الترام لأجل سرعة المواصلات داخل إستانبول ، وأنشأ جسر حديدي على خليج القرن الذهبي، وبدأ بتشييد قصر جراغان على ضفاف الجانب الأوروبي في مضيق البسفور ، وقصر بكلربكي على الساحل الآسيوي من مضيق البسفور .

على الرغم من الإصلاحات والتجديدات التي أحدثها السلطان عبد العزيز لأجل تطور الدولة من النواحي التربوية والإدارية والعسكرية ووصولها إلى مستوى الغرب في المجالات المذكورة ، إلا أنه كان يجاهد من جهة أخرى على إلغاء بعض البرامج التي تخالف الشريعة الإسلامية لأنه كان متمسكًا بالدين الإسلامي الحنيف .

وقد قام السلطان عبد العزيز برحلة إلى كل من مصر وأوروبا بصحبة بعض وزرائه وبعض أبنائه ، حيث سافر أولاً إلى القاهرة عام 1280هـ / 1863م وذلك بدعوة من الخديوي إسماعيل باشا ، ثم سافر إلى باريس عام 1284م / 1867م ، وذلك بدعوة من الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث ، ثم انتقل من باريس إلى لندن في العام نفسه بدعوة من الملك إدوارد السابع ، وأثناء عودته إلى إستانبول مرّ على بلجيكا وبروسيا والنمسا . [1]

لقد قام السلطان عبد العزيز بكثير من الإصلاحات وأعاد جوهر بناء الدولة العثمانية ، ولكن داخل إطار الشريعة الإسلامية ، ولو قُدِّر للإصلاحات السابقة الذكر أن تجني ثمارها لكان وضع الدولة العثمانية أفضل مما آلت إليه ، خاصة أن إصلاحاته شملت جميع النواحي الإدارية والقضائية والتعليمية والاقتصادية ، لكن الدول الأوروبية تأبى أن يتنفس الصعداء فكانت تقف له بالمرصاد ، حيث أجهضت هذه الإصلاحات ، ولم تسمح لها بالاستمرار ، بالإضافة إلى اختناق الخزينة العامة بالديون ، وكثرة المصاريف التي صرفت على هذه الإصلاحات، مما أدى إلى القضاء على هذه الإصلاحات ، وعزل السلطان عبد العزيز وقتلهِ . **ولنقلي نظرة على نقد النقاط التي وردت في مادة السلطان عبد العزيز :**

أولاً :إيراد الثورات والتمردات التي حدثت في عهدهِ دون تفصيل للأحداث. فقال:

---

[1] علي حسون ، مرجع سابق ، ص199 ، إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص 218 ، 219 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق، ص622 .

Ma'ruzat , nsr : Yusuf Halacoglu , Istanbul 1980 , S. 57 – 61 ; Ali Kemal Aksut , Sultan Aziz'in Misir ve Avrupa Seyahati , Istanbul 1944 .

" في وقت كانت دولةُ محاطة بالثورات والإنقلابات في دول البلقان والهرسك والبوسنة وبلغاريا وصربيا وكريت " . [2]

لقد حدثت بالفعل حركات التمرد في عهد السلطان عبد العزيز ، لكنه أغفل تمامًا الأسباب والملابسات كدأب المستشرقين دائمًا فلماذا الإحجام عن ذكر الحقيقة ، ويعود ذلك إلى أن الأسباب الرئيسة لحركات التمرد هي دسائس من أوروبا نفسها ، لذلك لن يعترف بها المستشرقون يومًا ؛ لأنه لو اعترف المستشرق بذلك لذكر الحقيقة التي تدل على مدى طغيان أوروبا التي ينتمي لها ، وفي هذا تبرئة لساحة الدولة العثمانية وإظهار للحقائق التي أبعد ما يكون المستشرق حريصًا على ذكرها .

أما عن حركات التمرد فلها ملابسات خاصة بها فمثلاً نجد أنه في بلغراد بدأ الصربيون في عام 1279هـ / 1862م وبدعم من الدول الأوروبية باضطهاد المسلمين وإجبارهم على مغادرتها ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك الاستيلاء على جميع القلاع العثمانية الواقعة في المنطقة ، حيث قاموا بتعزيز قواتهم العسكرية حول هذه القلاع فاتخذت الدولة العثمانية التدابير اللازمة ضد الحركة الصربية ، وفي تلك الأقوات بدأ النزاع بين الأهالي المسلمين والنصارى في المنطقة ، وبدأ الصربيون بقتل المسلمين وتشريدهم ، فقامت الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا بدعوة الدولة العثمانية إلى عقد مؤتمر لحل القضية الصربية ، وقد عقد المؤتمر في 12 ربيع الأول 1279هـ / في 8 سبتمبر 1862م في إستانبول ، وصدرت القرارات الآتية :

١) إعطاء بعض القلاع العثمانية إلى الصرب .
٢) إلغاء مراكز الشرطة العثمانية الكائنة في بلغراد .
٣) إخراج المسلمين من بلغراد مع منحهم ضمانات مالية مقابل ممتلكاتهم . وقد أرغمت الدولة العثمانية بالموافقة على قرارات هذا المؤتمر .

ولم يكتفِ الصربيون بهذا ، بل أخذوا يطالبون ببقية القلاع التركية وذلك بمساندة كل من فرنسا وبريطانيا ، فاضطر السلطان عبد العزيز إلى إصدار فرمان في 25 ذي القعدة 1284هـ/ 20 مارس 1867م يتضمن إخلاء جميع القلاع التركية ومنحها إلى الصرب بما

---

[2] E.Z.Karal : Abd Al Aziz , the Encyclopaedia of Islam , Volume I , P. 56 .

فيها بلغراد التي كانت تعرف بدار الجهاد عند العثمانيين ، وتعد مركزًا للجيوش العثمانية في الحملات التي كانت تقوم بها في أوروبا الوسطى .[1]

ثم بدأت روسيا بتحريض أهالي قراطاغ [2] بالعصيان ضد الدولة العثمانية ، وبدأ القراطاغيون بالاشتراك مع عصاة الهرسك للقيام بأعمال الشغب ضد الدولة العثمانية ، فأرسل السلطان عبد العزيز جيشاً لقمع هذه الحركات التمردية في قراطاغ والهرسك ، مما اضطر العصاة والمتمردين إلى الفرار أمام المدفعية العثمانية في موقعة ريقا ، وقد وجهت كلٌ من فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا في 17 صفر 1279هـ/ 15 أغسطس 1862م إنذارًا إلى الدولة العثمانية لإيقاف الحرب . [3] ومن جهة أخرى اضطر القراطاغيون إلى طلب الصلح من الدولة العثمانية إثر تقدم الجيش العثماني صوب العاصمة القراطاغية جتينة ، فأبرمت معاهدة السلام بين الطرفين في إيسكودرا في 4 ربيع الأول 1279هـ/ 31 أغسطس 1862م ، وتضمنت المعاهدة 14 بندًا ، من أهمها:

١) يتعهد القراطاغيون بعدم القيام بالحركات التمردية خارج حدود قراطاغ .
٢) يتعهد القراطاغيون بعدم استيراد الأسلحة والعتاد من الخارج .
٣) تشكيل نقاط تفتيش عسكرية عثمانية على طول الطريق بين قراطاغ والهرسك .
٤) في حالة حدوث مشاكل مع الدول الواقعة على حدود قراطاغ ستقوم الدولة العثمانية بحسمها .
٥) اشتراط حمل جواز السفر العثماني للداخلين إلى قراطاغ .

ثم قام أمير قراطاغ نيقولا بترويج بمراجعة السلطان عبد العزيز ، حيث طلب منه تخفيف شروط المعاهدة ، فوافق السلطان على ذلك مع أخذ التدابير اللازمة.[1]

ثم جاء دور أهالي كريت [2] من النصارى حيث بدأوا بالتمرد ضد الدولة العثمانية وذلك بدعم من فرنسا وروسيا واليونان . وقاموا بتنظيم عريضة في

---

[1] يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 66 . Ali Suvi , Ali Pasa nin siyaseti , 1325 , S. 34.

[2] قراطاغ : Montenegro ، ويطلق عليها العثمانيين قره طاغ ، أما الصرب فيطلقوا عليها الجبل الأسود ، وهو إقليم صغير في يوكوسلافيا ، يقع على شاطئ البحر الأدرياتيكي إلى الشمال من ألبانيا ، أستقل عن الحكم العثماني عام 1295هـ / 1878م ، بموجب معاهدة برلين وأصبح مملكة عام 1328هـ/ 1910م ، وأنضم إلى يوكوسلافيا عام 1336هـ / 1918م ، وعاصمتهُ تيتوكراد . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص532 .

[3] Cevdet Pasa , Tezakir cuz 13 – 20 , Yayin : Cavid Baysun , TTK , Ankara 1986 , S. 142 – 144 , 151-153 .

[1] Ali Suvi , Ali Pasa nin siyaseti , Istanbul 1325 , S. 32 – 33 .

1 محرم 1283هـ/ في 14 مايو 1866م تتضمن مطالبهم ، وأرسلوا نسخة منها إلى السلطان عبدالعزيز ، كما أرسلوا نسخاً عديدة منها إلى قناصل الدول الأجنبية، [3] إلا أن الحكومة العثمانية وافقت على بعض المطالب ، ورفضت بعض المطالب الأخرى ، فقام المتمردون من النصارى بإشعال نار الثورة في 15 ربيع الآخر 1283هـ / 2سبتمبر 1866م ، وقتلوا الأهالي المسلمين ، وطالبوا بإلحاق جزيرة كريت باليونان ، وقد أثرت هذه الحركة على بقية الجزر الواقعة على بحر إيجة أيضًا.[4]

لكن الجيش العثماني الذي أرسله السلطان عبد العزيز استطاع قمع الثورة وإخمادها ، فردت الدول الأوروبية التي خططت لحركة التمرد هذه وساندتها بالأموال والأسلحة ، وذلك بتوجيه إنذار إلى السلطان عبد العزيز لإيقاف الحركات العسكرية في كريت ، كما اقترحت بتشكيل مجلس أوروبي لحل هذه القضية ، لكن السلطان الذي أكد عدم تخليه عن جزيرة كريت أرسل الصدر الأعظم علي باشا إلى الجزيرة لحسم المشكلة لصالح الدولة العثمانية . [1] فقام الباشا فور وصوله في 4 أكتوبر 23 جمادى الأولى 1283هـ/ 1867م بمنح الحكم الذاتي جزئيًا للجزيرة بناءً على رغبات الدول الأوروبية فتخلى العصاة عن أسلحتهم في انتظار الفرصة المواتية للانفصال عن الدولة العثمانية.[2]

لقد خاب أمل اليونانيين بمنح الدولة العثمانية الحكم الذاتي كاملاً لجزيرة كريت، لأنهم كانوا يهدفون إلى إلحاق الجزيرة باليونان وطالما خططوا لهذا الأمر، فواصلوا دعمهم العسكري للمتمردين للقيام بأعمال الشغب مما أدى إلى قتل عدد من المسلمين في الجزيرة ، فعبرت الدولة العثمانية احتجاجًا على ذلك بطرد السفير اليوناني من إستانبول ، واسترجاع سفيرها من أثينا ، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع اليونان ، كما أغلقت الموانئ التركية أمام السفن اليونانية ، ووجَّه السلطان عبد العزيز إنذارًا إلى الحكومة اليونانية وذلك لأجل حسم القضية الكريتية بشكل جذري.[3]

---

[2] كريت : Crete – Cairid ، جزيرة في البحر المتوسط ، كثيرة الجبال ، ذات طبيعة قاسية ووعرة ، خضعت لحكم الإغريق ، ثم الرومان ، ثم حكمها المسلمون ، ثم الجنوبيون بعدهم البنادقة ، وفتحها العثمانيون عام 1080هـ / 1669م . س. موستراس : مرجع سابق ، ص421 ، 422 .

[3] Enver Ziya Karal , Osmanli Tarihi , VII , TTK , Ankara 1977 , S . 20

[4] Lutfi , Tarih , XI , Yay . M.Munir Aktepe , TTK , Ankara 1989 , S . 56 – 58 .

[1] Ali Fuad , Rical – i Muhime – i Siyasiye , S . II ; Cemal Tekin , " Girit " IA , IV , S. 797 .

[2] Ziya Pasa , Sultan Abdulziz elayiha , Istanbul 1327 , S. 18 .

[3] Enver Ziya Karal , Osmanli Tarihi , VII , TTK , Ankara 1977 , S. 35 .

وفي الوقت نفسه قامت السفن الحربية العثمانية بحصار المناطق الساحلية لليونان ، فتدخلت الدول الأوروبية لحل القضية خشية من وقوع الحرب بين الدولة العثمانية واليونان ، فعقدت مؤتمرًا في باريس في 17 ذي القعدة 1286هـ/18 فبراير 1869م بمشاركة كلٍّ من النمسا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا وبروسيا ، قررت فيه حل النزاعات القائمة بين الدولة العثمانية واليونان على شرط سحب الدعم اليوناني للحركة التمردية في كريت [4].

وقد أكد على هذه الحقائق المستشرق كارل نفسه في المادة ، حيث أظهر الأسباب الحقيقية لتمردات كريت وهي مساندة الدول الأجنبية لاقتصاد كريت حتى جعلته يتنامى مع الوقت ليصبح أكثر قوة في مواجهة الدولة العثمانية ، وعلى رأس هذه الدول روسيا وفرنسا وإنجلترا . [5]

وأخيرًا فإن آخر منطقة قامت بإعلان العصيان ضد الدولة العثمانية بتحريض الدول الأوروبــية هي بــلغاريا [6] ، وقد أشعل البلغــار نار الثورة في 6 ربيع الآخر 1293هـ / 2 مايو 1876م ، وبداوا بقتل المسلمين وإحراق قراهم وذلك بدعم من المخابرات الروسية والصربية ، وقد أرسل السلطان عبد العزيز جيشاً لإخماد الثورة وقمع حركات التمرد . [1]

لقد مرت جميع حركات التمرد بدعم من الدول الأوروبية ولم يكن دعمًا معنويًا فقط بل ساندتها بالمال والأسلحة والتنظيم والأفكار ، بدافع الحقد الصليبي على الإسلام الذي لم ينسوه يوماً وبسبب دخول الإسلام ممثلاً في العثمانيين إلى البلاد الأوروبية ، مع ازدياد التدخل الروسي ضد الإصلاحات العثمانية والعمل على إرباك الدولة العثمانية داخليًا وخارجيًا؛ داخليًا بمحاربة رجال الإصلاح وإثارة النصارى الشرقيين ضد الدولة العثمانية مما أحدث هذا الإرباك من خلال ما يقوم به هؤلاء من تمردات وحركات انقلابية ، وهدف روسيا من ذلك تقطيع وحدة الدولة العثمانية وإضعافها ومن ثم يسهل القضاء عليها .

أما خارجيًا ، فقد تولت بريطانيا بالفعل التدخل في شؤون الدولة العثمانية فكانت ترمي دائمًا إلى إضعاف تدخلات روسيا في سياسة الدولة العثمانية وحتى لا تنفرد روسيا وحدها بتركة الدولة العثمانية ، لكنها في الوقت نفسه بدأت في إضعاف سلطة السلطان

---

[4] Cemal Tekin , "Girit" , IA , IV , S. 797 .

[5] E.Z. Karal : Abd Al Aziz , th Encyllopaedia of Islam , Volume I , P. 56 .

[6] Ahmed Cevdet Pasa , Ma ruzat , nsr : Yusuf Halacoglu , Istanbul 1980 , S . 224 – 225 .

[1] Mahmud Celaleddin Pasa , Mir'at – I Hakikat , 1 , Istanbul 1326 , S. 59 – 62 .

العثماني ، ومحاولة تكبيل الدولة العثمانية بمعاهدات مجحفة في حقها ، وأخيرًا احتضانها للأحزاب المناوئة للحكومة العثمانية ، مثل حزب تركيا الفتاة الذي سيلعب دورًا بارزًا بعد ذلك .

وقد أكد كارل على موقف روسيا هذا بقولهِ : ***" كان السفير الروسي دائمًا ما يعرض وجهات نظره على محمود نديم باشا ، وروسيا كانت دائمًا تشجع على فصل الموانئ الألبانية عن جسم الدولة العثمانية حتى الموانئ العربية والمصرية".*** [(2)]

لقد أثبتت روسيا القيصرية أنها من أكثر الدول المعادية للإصلاحات العثمانية ، وعليه فقد ركزت على شخصية الوزير الأول محمود نديم ، وعملت على تدعيم موقفهُ كأول وزير للسلطان عبد العزيز ، ومن جهة أخرى فقد رأى السلطان عبد العزيز اتفاق الدول الأوروبية وتآمرها على الدولة العثمانية ، ومحاولة إثارة الفتن والقلاقل عن طريق المسيحيين داخل الدولة العثمانية ، فحاول الاستفادة من الخلاف القائم بين دول أوروبا وروسيا لمصلحة الدولة العثمانية ، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسي أكناتييف الذي أعطاه السلطان مكانة لديه ، لينفذ ما يراه في مصلحة الدولة العثمانية ، لكن أوروبا لم يعجبها هذا الأمر وبدأت تكثف جهودها لتدمير السلطان والدولة العثمانية [(1)].

وهو بذلك اعترف ضمنيًا بالدور الخطير الذي أدَّته روسيا لتقويض دعائم الدولة العثمانية .

ثانياً : ذكر الأسباب الصحيحة لعزل السلطان عبد العزيز ، ثم أردفها بأسباب من وحي خياله، وجزم إلى حدٍ ما بصحة انتحاره . فقال :

" وكان الوضع الاقتصادي السيئ في الدولة العثمانية والأزمات المالية والثورات والانقلابات في منطقة البلقان أسبابًا في صعوبة تطبيق الإصلاحات التي كان يسعى إليها السلطان عبد العزيز ، مما جعل القوى العظمى في العالم غير راضية عن ذلك . وفي نفس الوقت كان كبار السن والشخصيات التركية يرون أن هذه الإصلاحات غير متوافقة مع الدين ، وصغار السن والشعب يرونها غير كافية وغير مرضية، وكانت النتيجة بصفة عامة عدم

[(2)] E.Z. Karal : Abd AL Aziz , the Encyclopaedia of Islam , Volume I , P. 56 .

[(1)] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 623 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 345 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 575 .

رضاء الشعب على السلطان عبد العزيز . وتم عزل السلطان في 30 مارس 1876م وهناك اعتقاد قوي بأنه انتحر بعد عدة أيام من عزلهِ ". [2]

لا شك أن الإصلاحات الكثيرة التي قام بها السلطان عبد العزيز قد أرهقت الخزينة العثمانية وأدخلتها في دوامة الديون ، مما أثار الرأي العام على السلطان والحكومة ، وهذا ما جعل الأطراف المعادية للإصلاح ، تستغل هذا الأمر وتمسك بزمام الأمور ثم بدأت الصحافة الأوروبية تلعب دورها هنا بمنتهى الدقة .

لقد استشعرت أوروبا الخوف من الدور الذي بدأ يلعبه السلطان عبد العزيز وهو التقارب مع روسيا ، فبدأت تشيع الشائعات عن تبذيره وإسرافهِ وعدم صلاحيته لإدارة مهام الحكم ، وأنه أغرق الدولة في الديون ، [3] وقد وجدت هذه الشائعات أصداءها في داخل الدولة العثمانية ، وبدأ مدحت باشا [1] في العمل مع أعوانه للتخطيط لعزل السلطان عبد العزيز ومن ثَمَّ قتلهِ متى استطاع إقناع الوزراء وشيخ الإسلام بضرورة عزلهِ .

لقد بالغت الصحف كثيرًا ومن بعدها الكتب وحتى مادة السلطان عبد العزيز، في تصوير الأزمة المالية ، بالطبع كانت موجودة ، لكن السلطان عبد العزيز لم يتركها هكذا دون حل ، فقد أظهر حبهِ للعدل والإصلاح ، وقام بإصلاحات مالية ، حيث أمر بوضع ميزانية منضبطة وأُلغيت القوائم المالية، وقضيت بذلك جميع ديون الدولة العثمانية ، وانتظمت الأحوال المالية ، لكن هذا الأمر هال الدول الأوروبية ، واستغربوا قيام السلطان عبد العزيز بتسوية الأمور المالية في وقت قصير مما سيعرقل خططهم للقضاء على الدولة العثمانية ، لذلك رأوا تدبير مؤامرة خلعه ثم قتله . [2]

ونجحت المؤامرة التي قادها مدحت باشا الذي رأوا فيه الشخصية المميزة للقيام بهذا الدور وساعده أعوانهِ لعمل انقلاب في الحكم ، وذلك بمساندة الدول الأوروبية ودعمها ، وليس لعدم رضاء طبقات الشعب العثماني – كما ذكرت المادة – حيث عزل في 7 جمادى

---

[2] E.Z. Karali Abd Al Aziz , the encyclopedia of Islam , Volume 1 , P 56 .

[3] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، 623 . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص575 ، 576 .

[1] مدحت باشا : من أشهر يهود الدونمة ، وقد روجت له الدعاية الماسونية في أنحاء العالم الإسلامي ، وصورته على أنه حامل لواء الإصلاح والحرية ، وسمته " أبو الدستور " وسخرت له أسباب الدعاية في الصحف والمجلات والإذاعة ، حتى وصل إلى منصب الصدارة العظمى بعد تنقله في الولايات العثمانية أهمها سوريا ، وهو ابن حاخام مجري يهودي ، اشتهر مدحت باشا بالمكر والدهاء ، استطاع أن يكون أقوى يهودي يتمكن من بذر الفتن داخل الدولة العثمانية ، متظاهرًا بالإسلام ومبطنًا يهوديته الحاقدة الماكرة . مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 88 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 624 .

[2] علي حسون : مرجع سابق ، ص 205 ، 206 .

الأولى 12193هـ /30 مايو 1876م ، وخُلع من عرشهِ وتولى بعدهِ السلطان مراد الخامس ، ولكن بعد ذلك بعدة أيام وتحديدًا في 12 جمادى الأولى 1293هـ / 5 يونيو 1876م أعُلن انتحار السلطان المخلوع عبد العزيز . [3]

وعلى الرغم من إعطاء صبغة الانتحار لحادث وفاة السلطان ، لكن كل الدلائل تشير إلى أنه قُتل بمؤامرة دبرتها (تركيا الفتاة) [4] مع مدحت باشا ، وقد تم قتله بصورة توضح أنه انتحر ، لكنَّ أحدًا لم يقتنع يومها بهذا الأمر ، حيث أعلنت الدولة العثمانية خبر انتحاره رسميًّا ، لكن الشعب لم يصدق وبكاه الجميع ، وكانت أسباب انتحاره كما أُعلن عدم انتظام قواه العقلية بعد عزلهِ ، لكن الأمر ظل معلقًا لعدم كفاية أدلة انتحاره على الرغم من أنهم ساقوا الأدلة لتأكيد أنه انتحر ، مثل تقرير أطباء القناصل الأوروبية ، لكن صورة الحدث في النهاية تؤكد بأنه قتل من قبل مؤامرة لمدحت باشا ، وجذور المؤامرة ترجع إلى تخطيط مدروس من قبل القناصل وممثلي الدول الأوروبية في إستانبول ، ونفذوها عن طريق عملائهم الذين تشربوا بالأفكار الهدامة من رجال الدولة ، وما يؤكد هذا القول اعتراف مدحت باشا نفسه بهذا الأمر أثناء محاكمتهِ ، حيث اعترف بتدبير مؤامرة عزل وقتل السلطان عبدالعزيز ، وهذا أمر معروف تاريخيًا ومدون في الوثائق ، وقد ذكره السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته ،[1] لكن السلطان عبدالحميد الثاني قرر محاكمة المتآمرين الذين تورطوا في قتل عمه السلطان عبدالعزيز ، وقام بتشكيل محكمة يلديز [2] في 29 رجب 1298هـ /

---

[3] عبد القادر ده ده أوغلي : مرجع سابق ، ص80 ، علي حسون : مرجع سابق ، ص200 ، 201 . عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص480 هـ . . Mahmud Celaleddin Pasa, Mir'at – Hakikat , 1 Istanbul 1326 , S . 100 .

[4] تركيا الفتاة أو الأتراك الشباب (بالتركية : Turkler Jon) هو اتحاد لمجموعات عديدة ماسونية تسعى لإثارة القومية التركية الطورانية التي كان شعارها الذئب الأخضر ، وكانت تسعى لمجموعة أهداف منها الإطاحة وتفكيك السلطنة العثمانية عن طريق إثارة القوميات لكل الأمم التي كانت تحكمها السلطنة العثمانية كرد فعل على تتريك الأتراك . ومن المعلوم أن كل قادة الجمعية هم ماسونيون وليس فيهم مسلم واحد . أدت الحركة إلى الحقبة الدستورية الثانية بواسطة ثورة تركيا الفتاة . في عام 1307 هـ / 1889م بـدأت الحركة في صفوف الطلاب العسكريين وامتدت بعدها لتشمل قطاعات أخرى ، وكانت بدايتها كممانعة للسلطة المطلقة للسلطان عبد الحميد الثاني . عند تأسيس جمعية الاتحاد والترقي في 1324هـ / 1906م ، ضمت الجمعية معظم أعضاء= = تركيا الفتاة . بنت الحركة واقعاً جديداً للانشقاقات التي صاغت الحياة الثقافية ، السياسية والفنية للإمبراطورية العثمانية في الفترة الأخيرة قبل إلغائها كرد فعل للحركة تم إنشاء جمعية العربية الفتاة على يد مجموعة من الطلاب العرب في باريس عام 1327هـ / 1909م . ويكيديا : الموسوعة الحرة ، 2010/1/17م ، تركيا الفتاة .

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 575 – 577 ، ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص68 . أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 101 / 167 YA – HUS .

Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul , 2000 , S . 72-73 .

[2] السلطان عبدالحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 88 .

27 يونيو 1881م ، وعين على رئاستها سروري أفندي الذي كان يشغل منصب رئيس محكمة الاستئناف ، وكانت هذه المحكمة علنية بحيث أعطى لجميع المواطنين حرية الدخول فيها للاطلاع والمتابعة ، وعلى الرغم من إصدار المحكمة قرار الإعدام في حق تسعة أشخاص من بينهم الصدر الأعظم الأسبق مدحت باشا وشيخ الإسلام خيري أفندي، الا أن السلطان عبد الحميد لم يوافق على تنفيذ حكم الإعدام ، بل قام بتخفيف الحكم، حيث سجن بعضًا منهم في إستانبول ، وسجن بعضًا الآخر مثل مدحت باشا وخيري أفندي ونوري باشا ومحمود باشا في منفاهم بمدينة الطائف . [3] وتفاصيل المحاكمة مسجلة بوثائق ترجمت إلى عدة لغات ونشرت في الصحف وقت المحاكمة ، حتى إن الصحف بدأت تشيع أن السلطان لن ينتظر انتهاء المحاكمة وسيعدم المتهمين لكن هذا الأمر لم يحدث مطلقًا وإنما جاء في إطار تشويه صورة السلطان عبد الحميد عن طريق الصحف والإعلام . [4]

ومع ذلك فإن خلفه مراد الخامس لم يستطع ملء فراغ عمه عبد العزيز الذي كانت الرياح الأوروبية أقوى منه ، وكان الذنب الوحيد الذي ارتكبه – فلقي هذا المصير الذي لا يليق بخليفة المسلمين – أنه تمسك بأسس قواعد الشريعة الإسلامية، حيث رفض الدساتير الغربية ، والعادات الأوروبية ، ووصل الأمر أن فشلت الدولة العثمانية في بعض الأحيان الأخذ بأسباب التقدم الأوروبي بسبب مخالفتهِ للشريعة الإسلامية ، وهذا ما حدث للسلطان عبد العزيز ، فلم يستطع تحقيق التوازن بين الإصلاح والشريعة الإسلامية ، فدفع حياتهُ ثمناً لذلك.

أما بالنسبة لمادة السلطان عبد الحميد الثاني فهي تعد أهم مادة في المبحث؛ نظرًا لكثرة التشويه والافتراء الذي تعرض له هذا السلطان ، فهو السلطان المفترى عليه .

ويعد السلطان عبد الحميد الثاني من أكثر السلاطين الذين استحوذوا على كمٍ كبيرٍ من الدراسات في أوروبا ، وهذا ما أكد عليه المستشرق جان ديني الذي قدم لنا المادة .

وللدراسة ملحوظات عديدة على مادة السلطان عبد الحميد الثاني:

١) صغر وقصر المادة العلمية المقدمة عنه ، والظاهرة بوضوح تام مقارنة بمدة حكمه التي تجاوزت الثلاثين عامًا ، بالإضافة إلى كم الأحداث التي عصفت بالدولة

[3] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000, S.159-164 ,

[4] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 67/ 525 HR. TO .

العثمانية والعالم الإسلامي في عهدهِ ، فالمادة لا تليق به مطلقًا ، ليس من ناحية الأحداث التاريخية المواكبة لعهدهِ، بل أيضاً من ناحية شخصيته وأعماله التي خدمت الأمة الإسلامية .

٢) لم تذكر المادة مطلقًا أي شيء عن مقابلتهِ التاريخية مع (تيودور هرتزل) زعيم الحركة الصهيونية ، أو حتى إشارة عابرة بسيطة عن علاقتهِ واحتكاكهِ باليهود .

٣) ركزت المادة على الحروب التي نشبت في عهدهِ وأرجعها المستشرق جان ديني إلى أسباب تافهة كسوء الطالع والشؤم الذي ساد عصره ، وليس لتكالب الدول الأوروبية عليه .

٤) جاءت النهاية باردة مقتضبة لا ترتقي لمستوى ضخامة الأحداث التي صاحبت عزلهِ وخلعهِ ، وكأن هذا الحدث نتيجة طبيعية لأعماله الشريرة كما يزعمون .

٥) أما عن مراجع المادة فهي في أغلبها أوروبية بأقلام مستشرقين بإستثناء عدد قليل جدًا من المصادر العثمانية ، يأتي على رأسها " تاريخ دولة عثمانية " لعبد الرحمن شرف و" السلطان عبد الحميد الثاني " لأحمد رفيق إستانبول 1908م .

٦) لم تشر المادة إلى إصلاحاتهِ أبدًا ، وكأنه بقي في الحكم 33 عامًا دون أن يقوم بأي عمل لصالح الدولة العثمانية ، أشار فقط إشارة صغيرة مبهمة لمشروع سكة حديد الحجاز ، أما عن فكرة الجامعة الإسلامية ، فلم يتطرق لها المستشرق جان ديني مطلقًا .

والنقاط التي جاءت في المادة هي كالآتي :

أولاً : ذكر ترتيبه بين أبناء السلطان عبد المجيد الثاني خطأ . [1]

ثانياً : الإساءة إلى السلطان عبد الحميد الثاني في مرحلة صباه [2]

ثالثًا : لم يعطِ الأحداث التي واجهها السلطان عبد الحميد الثاني في بداية حكمهِ حقها من التحليل و الدراسة. [3]

---

[1] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7114 .

[2] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7114 .

[3] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7114 .

رابعًا : أكد أن الدولة العثمانية هي التي شنت الحرب على روسيا واليونان في عهد السلطان عبد الحميد الثاني . [4]

خامسًا : لم يذكر السبب الرئيس لخلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وفي الوقت نفسه لم يشر مطلقًا لدورهِ مع الحركة الصهيونية وتصديه للخطر اليهودي .[5]

سادسًا : اتهامهِ بالاستبداد ، وأنه شجع التجسس وسيطر عليه الشك . [6]

سابعًا :لم يعطِ فكرة واضحة عن الجامعة الإسلامية ولم يعطها حقها من الشرح وإنما ركَّز فقط على أنها إرجاعٌ للشيعة إلى مذهب السنة . [7]

ثامنًا :إرجاع فكرة خط سكة حديد الحجاز لشخص لا علاقة له بالأمر .[8]

تاسعًا :مناقشة قضية الأرمن ، والاعتراف بدور الصحافة في تشويه صورتهِ . [9]

السلطان عبد الحميد الثاني يعد بحق آخر عظماء الدولة العثمانية ، وهو السلطان الرابع والثلاثون فيها والخليفة السادس والعشرون من الخلفاء العثمانيين ، ولد في يوم الأربعاء 16 شعبان 1258هـــ / 22 سبتمبر 1842م ، في قصر جراغان بإستانبول ، وهو الابن الثاني للسلطان عبد المجيد الأول ، حيث ولد بعد السلطان مراد الخامس بسنتين ، ومنذ ولادته كان ولي عهد ثالث ، وبقي كذلك طوال سلطنة والده ، وولي عهد ثانٍ لعمهِ السلطان عبد العزيز ، وولي عهد أول لأخيه السلطان مراد الخامس ، وعند ولادته احتفل بهِ والدهُ بإطلاق المدافع خمس مرات يوميًا لمدة سبعة أيام ؛ ابتهاجًا بمولد الأمير الصغير . [1]

اعتلى العرش في يوم الخميس 11 شعبان 1293هـــ / 31 أغسطس 1876م أي قبل يوم مولده الرابع والثلاثين بأربعة أيام ، على إثر خلع أخيه السلطان مراد الخامس الذي لم يكمل مائة يوم على العرش ، وبويع بالخلافة من قبل الوزراء والأعيان وكبار الموظفين

---

[4] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7114 .

[5] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7114 .

[6] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7114 .

[7] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7115 .

[8] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7117 .

[9] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7118 .

[1] يلماز وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 95 . عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج4 ، د.ط ، إستانبول ، د. ت، 107 . عمر فاروق يلمظ : السلطان المظلوم السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ترجمة : طارق عبد الجليل السيد ، مراجعة : الصفصافي أحمد المرسي ، د. ط ، إستانبول : دار نشر عثمانلي ، د. ت ، ص25 .
Abdurrahman ,Seref , Sultan Abdulhamid – I Sani'ye dair , Istanbul 1918 , S. 3-4 .

من مدنيين وعسكريين، وهنأه بالخلافة رؤساء الطوائف المختلفة ، وقد أطلقت المدافع بسائر أطراف السلطنة احتفالاً بهذه المناسبة . [2]

لقد تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني من الاضطرابات والمشاكل الداخلية ، إضافة إلى العجز المالي في ميزانية الدولة وبالتالي خزانة مفلسة ، ودولة غارقة في الديون . [3]

وقد بدأت حركات التمرد والعصيان في البوسنة والهرسك ، وخرج الجيش العثماني خاسرًا من حربه في قراطاغ ، كما كانت الحرب مستمرة في جبهة الصرب ، إضافة إلى استمرار القلاقل في جزيرة كريت ، وتمرد الجبل الأسود فضلاً عن وقوف روسيا في وجه انتصارات العثمانيين في الحرب . [4]

كما ظهرت في عهده الجمعيات والأحزاب السياسية التي وقفت ضده ، بل إن أعضاء هذه الأحزاب طالبوا الدول الأوروبية بالعمل على إنهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني ، وتعدّ " جمعية الاتحاد والترقي " التي تأسست بصورة سرية عام 1308هـ /1890م من أهم تلك المنظمات [1] ، وقد كان معظم أعضاء هذه الجمعية من منتسبي المحافل الماسونية [2] .

أما في إطار العلاقات الخارجية ، فقد كانت الدول الغربية تنظر إلى الدولة العثمانية نظرة الرجل المريض ، واستمرت روسيا بتحريض النصارى القاطنين في الدولة العثمانية على التمرد ضد الدولة ، مستهدفة تمزيقها وإقامة دول صغيرة في البلقان والشرق الأوسط ، ومن جهة أخرى كانت بريطانيا وفرنسا تعملان لتحقيق مطامعهما في أراضي الدولة العثمانية وتقومان بمنافسة روسيا في هذا المجال .

لقد حكم السلطان عبد الحميد الثاني ثلاثة وثلاثين عامًا ، حاول خلالها إنقاذ الدولة العثمانية من الانهيار والتمزق على أيدي الدول الغربية ، وواجه الحركات القومية في بلاده ،

---

[2] Mahmud Es'ad Ibn Emin Seydisehri , Asar ve muberrat – i hilafetpenahi , Izmir 1311 , S . 9 ، محمد علي الصلابي : مرجع سابق ، ص 633 .

[3] محمد مصطفى الهلالي : السلطان عبد الحميد الثاني بين الإنصاف والجحود ، ط 1 ، دمشق : دار الفكر ، 1425هـ / 2004م، ص27 .

[4] عبدالحميد الثاني:مذكرات السلطان عبدالحميد ، ترجمة: محمد حرب ، ص 45.سعيد عبد الحكيم زيد: مرجع سابق ، ص161 .

[1] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 56 .

[2] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 210 .

إضافة إلى الحركة الماسونية التي انتشرت في زمنه انتشارًا واسعًا . [3] كما تصدى للمخططات الصهيونية التي ظهرت في عهده كانت تهدف إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين ، وفي الوقت نفسه يواجه الرأي العام الأوروبي المتعاطف مع النصارى والمعادي للدولة العثمانية وللمسلمين ، وكانت الصحافة الأوروبية في عهده تقوم بالدعاية المغرضة ضده وضد الإسلام ، وتسعى لتحريض ملوك ورؤساء الدول الأوروبية لهدم وإسقاط الدولة العثمانية التي أطلق عليها الأوروبيون اسم " الرجل المريض " آنذاك .

وباختصار تولى الحكم والدولة العثمانية في النزع الأخير ، لا تقوى على مواجهة الأخطار ، إلا أنه حاول – قدر الإمكان – إعطائها قليلاً من الأمل ، حيث أدارها بطريقة مميزة وبدأ في إصلاحها .

أما عن إصلاحاتهِ التي لم يتكرم ديني ويذكر منها شيئًا ، فهي كثيرة جدًا ومنها على سبيل المثال اهتمامهِ الخاص بالتعليم ، حيث أن الرحلة التي قام بها لأوروبا مع عمه عبد العزيز – والتي سيأتي ذكرها لاحقاً – قد أفادته كثيرًا وجعلته يطلع عن قرب على مدى تطور التعليم هناك ، فأولاه اهتمامًا ورعاية خاصة ، حيث طور مدرسة العلوم السياسية " الملكية الشاهانية " وأسس كلية العلوم والآداب والحقوق " مكتب حقوق شاهانه " وأكاديمية للفنون الجميلة "مكتب شاهانه ، صنايع نفيسة " وكلية الهندسة العالية ، ومدرسة المالية ، ومدرسة عليا للتجارة حيث أصدر القانون التجاري للدولة العثمانية "المدرسة التجارية الحميدية" التي تطورت إلى أكاديمية العلوم الاقتصادية والتجارية عام 1301هـ/ 1883م بهدف تخريج متخصصين في الاقتصاد والتجارة ، وطور – أيضًا – المدرسة الحربية حتى أصبحت الكلية الحربية ، وضمت بين جنباتها مدرسة القوات البرية ومدرسة البحرية ومدرسة المهندسين ، ومدرسة الطب بالإضافة إلى إنشاء مدارس للجمارك والبيطرة والزارعة وقطع الغابات والتعدين ، كما اهتم بإنشاء مدارس لإعداد المعلمين ، والمعلمات ، ومدارس للغات ، وأنشأ مدارس متخصصة للصم والبكم والعُمْى ، ومدرسة الفنون النسوية .واهتم بإنشاء المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية على الطريقة الأوروبية الحديثة في كافة الولايات وجعل تعليم اللغة إلزاميًا في المرحلة الإعدادية وافتتح عدة مؤسسات ثقافية ، من أهمها :

---

[3] عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص147 .

متحف الآثار القديمة ومكتبة بايزيد – المتحف العسكري ، مكتبة يلدز ، ثانوية حيدر باشا . وأقام مدارس عليا في كل من دمشق وبغداد وسالونيك وقونيه وغيرها ، وسمح بدخول الكتب والمجلات والصحف ، وأرسل البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا . [1]

أما عن إصلاحاتهِ الأخرى فقد بنى مستشفى للأطفال ودارًا للعجزة من مالهِ الخاص وهو الذي نعتوه بالشحيح ومركزًا للبريد العام ودارًا للفنون ودارًا للنفوس العامة ، ومد أنابيب للمياه وأنشأ لها خزانات على الجبال ، مما نتج عنه إنشاء مؤسسة حديثة للمياه التي أجرت إصلاحات لبعض منابع المياه القريبة من إستانبول ، وتم نقل المياه منها إلى إستانبول بواسطة الأنابيب وأسس البلديات ، وبدأ في بناء غواصة ، وأنشأ غرف للصناعة والتجارة والزراعة وأنشأ مصنعًا للقيشاني والنجارة ، وأقام الخطوط للبرق ، وأنشأ إدارة للبريد ، ثم مد خط سكة حديد للحجاز وخطوطًا لنقل العربات الكهربائية (الترام) ، واهتم بتدعيم المواقع العسكرية في الدردنيل ، مما أنعكس على انتصار القوات العثمانية على الأساطيل المغيرة في موقعة الدردنيل مشهورة خلال الحرب العالمية الأولى ، ودمرت أساطيل الحلفاء ومنعتها من دخول الدردنيل ، كما أنه جهز الجيش بالأسلحة الحديثة والمتطورة ، وقد أرسل بعثات عسكرية إلى ألمانيا وأمريكا . [2]

كل هذه الإصلاحات باختصار قام بها في فترة حُكمهِ الطويلة حيث عمل ليل نهار للنهضة بالدولة العثمانية ، لقد تميز بشخصية فريدة جدًا فبجانب هذه الإصلاحات اهتم بمشاكل العالم الإسلامي ، وسعى لتوحيد الأمة الإسلامية في كافة أرجاء العالم في ظل الجامعة الإسلامية التي بذل جهودًا كبيرة في تأسيسها ، والتي كانت تحت شعار " يا مسلمي العالم أتحدو ".

ومن أهم منجزات السلطان عبد الحميد ، هو إنشاء سكة حديد إستانبول –بغداد – البصرة ، ثم إنشاء سكة حديد الحجاز التي تربط الشام بالمدينة المنورة ومكة المكرمة لكن الخط لم يكتمل وتوقف عند المدينة المنورة ، وذلك لتسهيل المواصلات بين الولايات العثمانية، وبصفة خاصة لتسهيل مهمة الحج للحجاج المسلمين.

---

[1] هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ص 171 السلطان عبدالحميد : مذكرات عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص27 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 121 .

[2] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 121 ، 122 . السلطان عبد الحميد . مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 27 . ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 71 .

ولقد جاء في الدائرة النصوص التالية :

أولاً : ذكر ترتيبه بين أبناء السلطان عبد المجيد الأول خطأ . فقال :

" وهو الطفل الخامس من بين ثلاثين ولدًا للسلطان عبد المجيد " .(1)

لقد ذكر عدد الأبناء جزافًا هكذا ، فطبيعة المستشرقين أغفال الحقائق ، ومن ضمنها السجلات الرسمية لمواليد السلاطين وكأنها ليست موجودة على الإطلاق .

إن السلطان عبد الحميد هو الابن الثاني للسلطان عبد المجيد الأول ، ولد بعد السلطان مراد الخامس بسنتين بالضبط ، ولد الساعة الخامسة من صباح يوم 16شعبان 1258هـ / 22 سبتمبر1842م ، وقد ولد للسلطان عبد المجيد الأول " احد عشر ابنًا ، وخمس عشرة ابنة ، أي أن مجموع عدد أبنائه 26 طفلاً ، توفي منهم تحت عمر الثلاث سنوات ، وفي حياة والدهم 10 أطفال ما بين ذكر وأنثى ، ولذلك لم يكن عدد إخوتهِ ثلاثين أخًا ، وإنما 26 أخًا وأختًا ، ولم يكن ترتيبه الخامس ؛ إذ إنه كان ثاني مولود ذكر للسلطان عبد المجيد الأول ، فقد ولد السلطان مراد الخامس 21 جمادى الآخرة 1256هـ/ 22 أغسطس 1840م ، ثم ولدت السلطانة بهية في 1 محرم 1257هـ / 22 فبراير 1841م لكنها توفيت صغيرة السن في 1 رجب 1264هـ / 3 يونيه 1847م ، ثم ولدت السلطانة رفيعة في 2 محرم 1258هـ / 12 فبراير 1842م، وبعدها ولد السلطان عبد الحميد الثاني ، لذلك كان ترتيبه ولي العهد الثالث منذ ولادتهِ ، فقبله ولي العهد الأول السلطان عبد العزيز، ثم ولي العهد الثاني مراد الخامس ، والثالث السلطان عبد الحميد الثاني ، فكان على المؤرخ ديني أن يوضح أن عدد الأبناء كانوا 26 طفلاً وعندما اعتلى عبد الحميد الثاني العرش لم يكونوا جميعهم على قيد الحياة ، هذا إذا ما تناسينا أن من بينهم عددًا كبيرًا من الإناث الذين لا يدخلون في عدد الأبناء لأنهم لا يكونوا ضمن ترتيب ولاية العهد . (1)

إن إدخال الحقائق وسط الأكاذيب يفقد الحقيقة معناها وبريقها وهذا ما حدث في الفقرة السابقة ، ذكر أرقام مقاربة ، لكنه أراد بها خلط الأمر على القارئ ، وإظهار السلطان عبد الحميد الثاني وكأنه مغتصب العرش من إخوتهِ الأربعة السابقين ، ولم يوضح من هم هؤلاء الثلاثين أو حتى هل هم على قيد الحياة أم لا.

---

(1) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7114 .

(1) يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 62 ، 63 . عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص78 . لمزيد عن تواريخ ولادة أبناء وبنات السلطان عبد المجيد الأول الرجوع إلى يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 62 ، 65 .

ثانيًا : الإساءة إلى السلطان عبد الحميد الثاني في مرحلة صباة . فقال :

" المعروف عنه في مرحلة صباه أنه كان طفلاً خجولاً سريع الاستياء ، وبالرغم من ذكائهِ الحاد إلا أنه لم يتلقَ نصيبًا من التعليم ، ويقال أنه بعد أن قضى شبابًا عاصفًا عاش حياة عائلية مقتصدة جعلت الناس ينعتونه " بحميد البخيل " وقد أظهر منذ وقت مبكر ميلاً شديدًا لمصاحبة الأتقياء والزهاد والمتصوفة والعرافين وأصحاب الحيل ". [(2)]

" أما ملبسه فكان بسيطاً غاية البساطة كما كان في حد ذاته مجموعة من المتناقضات ، تنتابه نوبات غضب عنيفة لكنها سرعان ما تهدأ وتتلاشى ". [(3)]

ليس هناك أي نسبة من الصدق في الفقرة السابقة ، حيث صوره على أنه طفل مختل داخليًا وغير ثابت عاطفيًا ، وفي الوقت نفسه جاهل لم ينل قسطًا من التعليم ، وهذا أمر مخالف للواقع تمامًا ، يكفي أنه قام بجميع الإصلاحات التي ذكرت سابقًا وأولى التعليم إهتمامًا خاصًا ، فلو أنه لم يدرس لما أدرك أهمية التعليم في تقدم الأمم ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، والإصلاحات السابقة خير دليل على ذلك .

ولعل مسألة تربيتهِ يتيمًا أعطت المجال للمستشرقين ليخوضوا في نشأتهِ وظروف تعليمه ، على الرغم من أن أباه السلطان عبد المجيد الأول عُرف عنه ولعهِ الشديد واهتمامهِ بأبنائهِ وتهيئة الظروف الصحية لنشأتهم والسؤال الذي يطرح نفسه : كيف نشأ هذا السلطان دون أن يتلقى التعليم وهو مرشح لمنصب ولي العهد الثالث – على الأقل لإعداده كي يكون خليفة وسلطاناً للمسلمين – في حين أن أقرانه نالوا التعليم الكافي ؟!

أمّا والدته فاسمها " تيري موجكان "، [(1)] وكانت قد بلغت التاسعة عشر من عمرها عندما أنجبتهُ ، ولأنها أحاطتهُ بحبها ورعايتها فقد نما أسرع من أترابهِ ، ولم تتوقف عن تغذيته روحيًا وأخلاقيًا ، وما أن بلغ الرابعة حتى بدأ يسأل أسئلة تدل على ذكائهِ وفطنتهِ المبكرة ، ولذلك نشأ على الحب والقدرة على استيعاب ما حوله ، مما انعكس على توازن

---

(2) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7114 .

(3) جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7118 .

(1) تيري موجكان : " تيرموزغان " كانت في غاية الأدب والظرف ورهافة الحس ، تنسب إلى قبيلة " شابسيخ " الشركسية ، وقد ولدت في القوقاز ثم نزح أهلها إلى إستانبول عام 1255هـ / 1839م ثم انضمت إلى الحريم بعد ذلك ، توفيت في قصر بكلر بكي حيث حزنت بشدة على وفاة اثنين من أطفالها مما جعل مرض السل يهاجمها، ونقلت لهذا القصر لتغير الهواء ولكن دون فائدة، ودفنت بضريح مسجد " بكي جامع " كان يقول عنها " توفيت في ريعان الشباب وصورتها إلى اليوم لا تفارقني، ولم أستطع نسيانها يومًا فقد كانت شديدة الحب لي " . أنظر عمر فاروق يلماز : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص24 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 95 .

M.Cagatay ulucay : Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S. 141 .

شخصيته وقوتها ، كما تأثر بطبيعتها المرحة والظريفة فالدفء والحنان الذي أحاطتهُ بهِ أمه في سنوات عمرهِ الأولى جعل منه طفلاً ذكيًا هادئ الطباع ، جيد الإصغاء والملاحظة ، وكثيرًا ما يبلِّغ والدته بالأشياء التي يلاحظها فكانت تسر لذكائهِ ، لكن هذا الحال لم يستمر طويلاً ، حيث فجع الأمير الطفل وهو في سن الحادية عشرة بوفاة والدته وقد حزن عليها كثيرًا ، لكن أباه السلطان زاد من رعايتهِ له واهتمامهِ ، وعهد بتربيته إلى إحدى زوجاتهِ التي لم تنجب أبدًا وهي " بره ستو" .[2] ويذكر أن عبد الحميد بكى على أمهِ كثيرًا بعد وفاتها ، وبعد شهر دعاه السلطان عبد المجيد الأول وتحدث معه ونصحه ، وخبأه بعد ذلك تحت ردائه ، وذهب إلى دائرة بروستو خاتون وقال لها : " انظري يا زوجتي لقد أتيت لك ولدًا جميلاً " ثم أخرج عبد الحميد من تحت ردائه وسلمه إياها ، وقال لعبد الحميد : " إن هذه المرأة هي أمك بعد اليوم فقم بتقبيل يدها يا ولدي " ثم قال لبره ستو خاتون: " أنه أمانة بيدك بعد الله ﷻ" وطلب منها تقبيل الطفل فقبلته ، وهكذا أصبحت هي والدتهُ ، وانضم إلى اختهِ جميلة التي توفيت والدتها دوزديديل خاتون وهي دون الثانية من عمرها ، وقد رعتها برستو خاتون أيضاً وقد أحسنت تربيتهما ، لذلك كان السلطان عبد الحميد الثاني يذكر أختهِ جميلة كثيرًا لأنها رفيقة صباه وهنا للدراسة وقفة ، فكون أنه تربى يتيم الأم لا يعني هذا أنه لم يكن متوازنًا وأن تعليمهُ أهُمل ، فإن هذا مخالف للواقع لأنَّ زوجة أبيه كانت بمثابة الوالدة له ، [1] حيث ربتهُ وأحسنت معاملته ، فكانت بمثابة الأم الحنون العطوف التي لم تهمله يومًا ، وقد أحبها كثيرًا حتى إنها عند وفاتها أوصت له بميراثها ، وقد تأثر السلطان عبد الحميد الثاني

---

[2] برستو خاتون : هي الزوجة الرابعة للسلطان عبد المجيد الأول ، قامت بتربية عبد الحميد الثاني وأختهِ جميلة بعد وفاة والدة كل منهما ، تنسب لقبيلة أو بوخ من شراكسة القفقاس ، لم تكن تنجب الأبناء ، وهي إمرأة نحيفة ناعمة الملامح زرقاء العيون ، تميزت بالإحتشام والوقار ، نذرت حياتها لتربية عبد الحميد وأختهِ جميلة ، لقد أحبها السلطان عبد الحميد الثاني كثيرًا ، وعندما كان يفتح الحديث عنها بعد وفاتها ، كان يقول : " لو كانت أمي على قيد الحياة ، لكانت ربتني ورعتني بنفس القدر الذي قامت به برستو خاتون" كان يتحدث عنها بكل حب وتقدير ، وأصبحت السلطانة الوالدة على الرغم من أنها لم تنجب السلطان ، كانت إمرأة تقية لم تضر أحدًا ، تميزت بالصدق والإستقامة في أعمالها، تقضي أيامها بالعبادة ومساعدة الفقراء ، وقد أهدى لها السلطان عبد العزيز زمن سلطنتهِ دارًا كبيرة ، في منطقة ماجقا ، حيث كان يزورها بين حين وآخر ، توفيت في دارها هذه ، عن عمر فوق الثمانين ، ودفنت في الضريح الذي كانت قد شيدته في حي أيوب ، وقد كان لها أعمالٌ خيرية ، حيث شيدت سبيل لتكية بالا في منطقة سيليوري قابي عام 1309هـ / 1891م ، وشيدت شسمة " صنبور مياه " للتكية نفسها عام 1313هـ / 1895م.

انظر : . M.Cagatay ulucay : Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S . 143 , 144

[1] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 95 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 21 .
M.Cagatay ulucay : Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S . 143 , 144 .

بهذه التربية ، وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ ، وكان لهذا إنعكاس واضح على شخصيته طوال حياته . [2]

وقد حدث في اليوم التالي لتنصيبه سلطاناً على الدولة العثمانية أن قابل زوجة والدة التي ربتهُ وقبّل يدها وقال لها : " بحنانك لم أشعر بفقد أمي ، وأنت في نظري أمي لا تفترقين عنها ، ولقد جعلُتك السلطانة الوالدة ، لكني أرجوك بإصرار ألا تتدخلي بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة"[3] وانصاعت هي لهذا الأمر تمامًا .

كانت بيرستو قادين من صاحبات أعمال الخير ، حيث أنشأت أسبلة عديدة لتوزيع المياه المجانية للفقراء ، وقضت حياتها في مساعدة النساء والبنات الفقيرات ، وكانت ذات خلق لين ومتواضعة ووقورة ، وهي السلطانة الوالدة الوحيدة التي لم تنجب . [4]

أما بالنسبة للتعليم الذي تلقاه السلطان عبد الحميد الثاني فكان كثيرًا فتعددت معارفه ، وليس كما ذكرت مادة دين ديني بالدائرة ، حيث بدأ في تلقي التعليم بشكل منتظم في القصر السلطاني على أيدي نخبة ممتازة من العلماء ومن أشهر رجالات زمنهِ خُلقًا وعلمًا ، حيث تلقى تعليمه الأول من إتقان للغة العثمانية قراءة وكتابه على يد المعلم " عمر أفندي " واللغة العربية على يد " فريد أفندي " و " شريف أفندي " . أما اللغة الفارسية فأخذها عن " علي محوي أفندي " والصدر الأعظم " صفوت باشا" وعلوم التفسير والحديث والفقه من العالم " عمر خلوصي أفندي " ، وقد أتقن الفرنسية من " أدهم باشا " و " غاردت باشا " ، أما بالنسبة للتاريخ فقد أظهر ميلاً شديدًا نحوه وخاصة التاريخ الحديث ، حيث تعلم التاريخ العثماني على يد مؤرخ الوقائع قاضي العسكر " لطفي أفندي " وقد كان يؤمن تمامًا بأن التاريخ مرآة العبر والعظات ، لذلك أمر بإعداد ملفات خاصة لكل الأحداث التي تقع في عهده ، عُرف عنه أنه كان يكن احترامًا شديدًا لرجال العلم والفكر ، حيث كان يأخذ مشورتهم دائمًا ويقربهم منه . [1] ثم إنَّ مسألة حفظ أحداث عهدهِ للأجيال القادمة تدل على مدى وعيه وسعة أفقهِ بالإضافة إلى بعد نظرهِ ، وهذه الملفات موجودة إلى الوقت الحالي في أرشيف رئاسة الوزراء

---

[2] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 629 .

[3] السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 43 .

[4] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 96 ، 97 .

[1] يلمازا وزتونا :تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 97 . عمر فاروق يلمظ :التاريخ العثماني الموثق ، ج 4 ، ص108 ، 109. عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 25 / 26 .علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 629 ، 630.

بإستانبول تحت تصنيف يلدز. وهذه الملفات وغيرها من الوثائق لم يطلع عليها المؤرخ ديني أبدًا قبل الخوض في كتابة مادة هذا السلطان المظلوم ، لقد أغفلت المادة تمامًا تعليمه السابق وكأنه لم يكن ، على الرغم من حفظ هذه الأمور في السجلات الرسمية والمخطوطات .

وبالإضافة للتعليم السابق ، حفظ القرآن وعددًا كبيرًا من الأحاديث النبوية الشريفة ، وقطعًا من الشعر القديم ، بجانب إتقان عدد من اللغات بجانب العربية الفصحى والعثمانية ، والفارسية والفرنسية والإنجليزية . [2]

لقد ركز ديني في مادتهِ على مسألة ملازمتهِ للأتقياء والزهاد والمتصوفة والعرافين وأصحاب الحيل فقط ، وما ذلك إلا مجرد دسٍ وكلام ليس له أصل في الحقيقة ، والحقيقة أنه تلقى تعليم بعض الطرق الصوفية في بداية شبابه ، ومال لمصاحبة العلماء – كما ذكر سابقًا – لاحترامهِ الشديد لهم ومحبة أخذ مشورتهم في كل الأمور .[3]

كما أنه لم يكن من عادة السلاطين العثمانيين أن يضموا لرفقتهم العرافين وأصحاب الحيل ، فلماذا السلطان عبد الحميد الثاني يشذ عن هذه القاعدة ، لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني تقيًا ورعًا يحفظ القرآن الكريم وكثيرًا من الأحاديث النبوية الشريفة ، فلن يقنع بأعمال الحواة والعرافين . فضلاً عن أنه كان ملتزمًا بواجباتهِ الدينية لدرجة أن له سلوكًا خاصًا في تعبدهِ يراعي فيه عبادة الله وطاعتهِ والإخلاص له ، حيث إنه يؤدي صلاتهِ في وقتها ، ويقرأ القرآن بانتظام ، وكان يخرج أيام الجمعة إلى جامع يلدز والجوامع القريبة من القصر ، مهما كان الطقس، وكان يسلم على الموجودين حتى إنه نبه في أوامر رسمية على الشعب بأن يدققوا في أمور عباداتهم . [4] وهذا دليل على مدى التزامهِ بمبادئ الشريعة الإسلامية حيث لم يظهر عليه تقصير مطلقًا في أداء واجباته الدينية وكذلك واجباته نحو الدولة ، وأعماله خير برهان على ذلك .

---

[2] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 22 .

[3] عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 76 .

[4] عمر فاروق يلمظ :السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 163.عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج4،ص111، ذكر المرجع السابق أن السلطان عبد الحميد الثاني ، أدى فريضة الحج سرًا ، ولم يكشف عن شخصهِ في الحج ، وكافأ دليله بدار= = كبيرة ومعاش شهري طوال حياته ، لكن لا توجد وثيقة تؤكد هذه المعلومة ، كما أن اسم المطوف مجهول ، وذكرت في كتاب : الأمن الذي نعيشه ، حسين عبد الحي قزاز ، مكة المكرمة ، 1989م ، ص391 ، 392 . وأكد على أنه نزل ضيفًا في بيت آل نصيف ، لكن للدراسة تعليق هو أنه لو حدث هذا الأمر لكان ذُكر في كتاب مذكراتهِ الشخصية ، أو مذكرات بناتهِ عائشة وشادية ، ولكن الحدث لم يذكر في أي مصدر عثماني .

وبالإضافة إلى التعليم السابق مارس هواياتهُ بدقهِ حيث أتقن النجارة والخط وامتلك ورشة نجارة ومزارع خاصة به ، وقد صنع بيدهِ كثيرًا من الأعمال الثمينة منها الدواليب الخشبية والمناضد والصناديق ، وكثيرًا ما صنع بيده تحفًا قدمها هدايا لبعض أصدقائه من ملوك أوروبا ، وأحب تربية الأغنام ، وشغل المعادن ، واكتسب من هذه الأعمال ثروة بسيطة أنفق معظمها على خدمة الدين الإسلامي والدولة العثمانية ، واهتم بالهندسة المعمارية والفنون الجميلة ، حيث امتلك حسًا فنيًا ، كما شيد مختبرًا كيميائياً يحلل فيه المشروبات المشتبه بها بنفسهِ ، فضلاً عن إتقانهِ إصلاح الساعات وجمع الكتب النادرة ، حيث أسس مكتبات زودها بالكتب النادرة والمخطوطات ، إضافة إلى حبهِ لممارسة الرياضة وركوب الخيل ، والاطلاع على الصحف المحلية والأجنبية . [1]

لقد جمع في داخلهِ شخصية الخليفة المسلم والشخص البسيط الذي يعيش على عمل يديهِ ، فهو يعد شخصية نادرة قلما أنجب التاريخ مثلها .

ونظرًا لذكائهِ وميوله السياسية ، اصطحبهُ عمهِ عبد العزيز في رحلتهِ إلى مصر عام 1280هـ / 1863م ، وإلى أوروبا 1284هـ / 1867م ، حيث التقى في بلاد أوروبا برجال دولها ، واطلع على المخترعات الحديثة واستفاد منها ، واستورد بعضًا منها من أجل تطوير دولتهِ . [2]

أما عن مسألة بخلهِ ، فقد ألصقت به هذه التهمة ؛ لأنه مال إلى البساطة في مأكلهِ ومشربه ، حتى ملابسه ، كان لديه نوعان من الملابس ، ملابس بسيطة للأوقات العادية ، ويعلق عليها بعض نياشين الدولة العثمانية ، أما في الأوقات الرسمية فيرتدي ملابس رسمية عليها نياشين الدولة العثمانية كلها . [3]

تميزت حياتهُ بالبساطة والبعد عن البذخ ؛ وذلك لأنه عاش طفولة سعيدة ومستقرة والصحيح أن البساطة لم تكن يومًا تعبيرًا عن البخل والشح وإنما عن قناعة في النفس ، ورضا بنعمة الله ﷻ.

---

[1] محمد مصطفى الهلالي:مرجع سابق ، ص 24 ، 25 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 26 ،27.

[2] عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 27 .

[3] عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 27 .

وقد كان يفرح ويسر عندما يرى وزراءه وكبار رجال دولتهِ يقلدونه في ملبسهِ البسيط، وفي طعامهِ المتواضع ، ويعزي تلك البساطة إلى الدين الإسلامي، وكثيرًا ما انتقد رجال دولتهِ الذين يبذرون الأموال ويصرفون الكثير على المأكل والملبس ولا يميلون إلى البساطة في عيشهم ، وفي الوقت نفسه يعيب على جهاز الحكومة الذي هو على رأسهِ كثرة كبار الموظفين فيه ممن هم أصحاب رواتب ضخمة دون حاجة لهم فقد سار على تعاليم ديننا الحنيف التي تأمر بعدم الإسراف والتبذير ، وتدعو إلى البساطة في كل شيء . [1]

لقد كره التبذير والإسراف فعاش ضمن حدود ريعه من المزارع الخاصة بهِ ، ولم يأخذ من خزينة الدولة مطلقًا ، بل كان يتبرع من مالهِ الخاص لكثير من المشاريع الخيرية كبناء المدارس والجوامع والمستشفيات حتى بلغ عددها 1552بناية، كما أنه افتتح التبرع لخط سكة حديد الحجاز ، وهذا يعني أنه كان يجمع مالهُ لخدمة دولتهِ وعرشهِ ، لقد كره حياة البذخ والترف نظرًا للنتائج المؤسفة التي شاهدها عن قرب في سنوات شبابهِ ، وما جره التبذير والبذخ ، على الدولة من ضائقة مالية . لذلك أخضع ميزانية الدولة للمحاسبة الدقيقة والاستثمار المعقول حتى أمكنه أن يصل إلى تخفيض ديون الدولة العثمانية .[2]

لذلك لم تكن سياسة البساطة والاقتصاد في الصرف ذات وبال على الدولة العثمانية ، بل خففت نسبة الديون بشكل كبير .

لقد تولى الدولة العثمانية وهي مثقلة بالديون ، فالدخل العام للدولة أخذ يقل عاماً بعد آخر ، والإنتاج المحلي يتضاءل بمرور الوقت ، مما أوقعه في موقف يحتاج إلى الحنكة السياسية والخبرة الاقتصادية ، فاتبع سياسة لمعالجة قضية الديون ، إذ بلغت عند توليه الحكم ما يقرب من 300 مليون ليرة ذهبية عثمانية ، فبدأ في إستقدام الخبراء الماليين ، ووضع خطة لتسديدها بشكل منتظم ، [1] وشكل إدارة للديون العامة وبدأ العمل على تلافي العيوب السابقة ، وقرر حصر الوظائف وجميع التشكيلات العسكرية ، وتوفير جميع الإمكانيات لها ،

---

[1] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 137 .

[2] للاستزادة عن سياسته المالية الرجوع إلى جدول ميزانية الحكومة العثمانية لسنة 1316هـ / 1898م ، حيث يوضح النفقات والإيرادات ، محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 138 ، 139 .

[1] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 68 – 139م . ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 74 .

وأهم من ذلك وضع أسسًا وقانونًا لموازنة المصاريف بالإيرادات ، وترتيب هذه الأمور مع جميع الأطراف المعنية لوضع اللائحة التنظيمية التي ستصدر بهذا الشأن .[2]

وقد استطاع عن طريق هذه الإجراءات أن يخفض ديون الدولة العثمانية إلى 30 مليون ليرة عثمانية ، وذلك بعد دفع ما تطلبته معركتان كبيرتان وإخماد بعض حركات التمرد الداخلية ، كذلك تمكن من تقليل مصروفات الدولة العثمانية على مر سنين حكمهِ.[3]

أمّا عن مسألة غضبه والنوبات التي تنتابهُ وتهدأ سريعًا ، فهي دون أساس أو واقع يمكن أن يستند عليه المؤرخ ديني ؛ لأن السلطان عبد الحميد الثاني عُرف بقوة الإرادة ورباطة الجأش ، وتملُّك النفس عند الغضب ، ولم يكن يثير غضبه سوى أمور تمس الشريعة الإسلامية .[4] ، ومما يدل على ذلك طول مدة حكمهِ التي واجه فيها أكثر مشاكل الدولة العثمانية تعقيدًا ، ومع ذلك استطاع حلها بكل ذكاء وحنكة وهدوء .

ثالثًا : لم يعطي الأحداث التي واجهها السلطان عبد الحميد الثاني في بداية حكمهِ حقها ، فقال :

" ورغبة من السلطان عبد الحميد الغازي في وضع حد لتدخل القوى الكبرى في مجريات الأمور السياسية العثمانية فإنه عقد بالتشاور مع مدحت باشا مؤتمرًا دوليًا في إستانبول ، فلما كان يوم افتتاحهِ 23 ديسمبر 1876م أصدر خطًا همايونيًا يعلن للناس فيه قيام أول دستور للبلاد ويسمى " بقانوني أساس " [5]. وتوضيحًا لما حدث نجد أن السلطان عبد الحميد الثاني قد إصطدم في بداية حكمهِ بعدة مشاكل جعلتهُ يرضخ لمسألة إعلان الدستور[6] وذلك حتى يستجمع قواه ويرى تعريف الأمور بطريقة مناسبة.

فكانت روسيا تعد نفسها حامية لدول البلقان ، فقامت في عام 1293هـ / 1876م بتحريض الصرب للقيام بإعلان الثورة ضد الدولة العثمانية ، وقد قام أمير الصرب ميلان بانتزاع البوسنة والهرسك من الدولة العثمانية ، ولكن الجيش العثماني تمكن من قمع هذه الحركة ، وبعد هزيمة قصيرة ، عاد الجيش الصربي بقيادة القائد الروسي جرنايف في 3

---

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 20 / 71 Y EE بتاريخ 26 ذي الحجة 1294هـ .

[3] عبد الحميد : مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 68 . ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق، ص74 .

[4] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 25 .

[5] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7115 .

[6] انظر تعريف المشروطية ، ص690 .

رمضان 1293هـ / 22 سبتمبر 1876م وهجم على الجيش العثماني ، وقد استطاع العثمانيون من تحقيق الانتصار على الجيش الصربي الذي اضطر جنوده إلى الفرار من ساحة القتال ، كما تمكن الجيش العثماني من استرداد بعض المناطق التي استولى عليها الجيش الصربي وفي هذه الأثناء قامت كل من بريطانيا وروسيا بمراجعة السلطان عبد الحميد الثاني لإيقاف تقدم الجيش العثماني ومنع تغلغله داخل الصرب ، ولقبول عقد الهدنة معهم ، وقد وافق السلطان على عقد الصلح باشتراط تخلي الصربيين عن عصيانهم ، وقيامهم بدفع التعويضات للدولة العثمانية ، وقيام الأمير الصربي ميلان بتقديم الطاعة للسلطان ، وعقدت الهدنة بين الطرفين في 11 رمضان 1293هـ/ 1 أكتوبر 1876م . [1]

كادت الأحداث التي وقعت في الصرب وقراطاغ أن تتحول إلى حرب لا مفر منها ، حيث كان الجيش العثماني على وشك الدخول إلى بلغراد ، فقام السفير الروسي في إستانبول بتوجيه إنذار إلى الدولة العثمانية ، كما قامت بريطانيا بدعوة الدول المشاركة في مؤتمر باريس عام 1273هـ/ 1856م إلى عقد مؤتمر في إستانبول ، فعقد المؤتمر في 15 شوال 1293هـ / 5 نوفمبر 1876م في مبنى نظارة البحرية العثمانية (الترسخانة) الواقعة على خليج القرن الذهبي ، وقد حضر في هذا المؤتمر الذي عرف في التاريخ العثماني باسم " مجلس المكالمة " ممثلو الدول المذكورة وسفراؤهم في إستانبول ، وتناول المؤتمر الأحداث الجارية في الصرب وقراطاغ وبلغاريا والبوسنة والهرسك ، وقام باتهام الدولة العثمانية باختلاق هذه الأحداث . [2] وعلى الرغم من إدراك الدول الأوروبية خاصة بريطانيا وفرنسا ومعهم روسيا أنها هي المحرضة على نشوب نار هذه الثورات والفتن ، إلا أنها كانت – في تلك الفترة – تمتلك قناعة خاصة وهي تمزيق ممتلكات الرجل المريض ، وللأسف لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يملك الرفض في بداية حكمِهِ .

ثم جاء إعلان المشروطية [1] الأول ليقلق حكم عبد الحميد الثاني في بدايته، لقد كان مدحت باشا الذي عين بمنصب الصدارة العظمى في 2 ذي الحجة 1293هـ/ 19 ديسمبر

---

[1] عمر فاروق يلمظ:التاريخ العثماني الموثق ، ج4 ، ص 114 ، 115. محمد علي الصلابي : مرجع سابق ، ص 643 – 645.

Ali Fuad , Osmanli – Rus Seferi , Istanbul 1326 , I , S . 176 – 180 .

[2] عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج4 ، ص 118 .

Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000 , S . 118 – 120 .

[1] المشروطية mesrutryet هو الدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني في الرابع من ربيع الأول عام 1294هـ / 16 مارس 1877م وعلى أساسِهِ تم تشكيل أول مجلس نيابي في الدولة العثمانية " المبعوثان " . وقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرمان في الحادي عشر من صفر 1295هـ / 14 فبراير 1878م بتعطيل المجلس لأجل غير مسمى بسبب ما نشب في

1876م يعتقد بأن إعلان المشروطية (النظام البرلماني) هو السبيل الوحيد في إنقاذ الدولة العثمانية من المضايقات التي تعاني منها ، فقام مع بعض زملائه بالعمل على إصدار القانون الأساسي ، فتشكل لهذا الغرض مجلسٌ برئاسته ، وَتكون من 28 عضوًا من المسلمين وغير المسلمين ، وبعد مباحثات طِويلة استطاع هذا المجلس إصدار القانون الأساسي المتضمن 144 بندًا. والحقيقة أن هذا القانون كان مستوحى من الدستور البلجيكي ، [2] وقد وافق السلطان عبد الحميد الثاني رغمًا عنه على القانون الأساسي ، وذلك بعد إجراء بعض التعديلات فيه ، كما قام بإلغاء بعض البنود حيث خفضها إلى 117 بندًا ، ثم تبع ذلك قيام السلطان عبد الحميد الثاني في 5 ذي الحجة 1293هـ / 23 ديسمبر 1876م بإعلان المشروطية الأولى بموجب هذا القانون الذي يعدّ الدستور الأول للدولة العثمانية ، وافتتح أول برلمان عثماني باسم "مجلس المبعوثان " الذي كان أعضاؤه من المسلمين والنصارى والأرمن واليهود وذلك في 4 ربيع الأول 1294هـ / 19 مارس 1877م في قصر ضولمة باغجة برئاسة أحمد وفيق باشا، وقد قام رئيس المابين (التشريفات) سعيد بك بإلقاء كلمة السلطان عبد الحميد الثاني في افتتاح المجلس ، وانتهت الجلسة الأولى بقراءة الأدعية وإطلاق المدافع.[3]

لكن هذا الدستور الأول تم إعداده دون التفكير في الظروف التي تمر بها الدولة العثمانية ، ولم يكن متوائمًا مع بنية الدولة العثمانية ، مع أن من صنفهُ اعتقد أنه نظم كل شيء، لكن عن تطبيق الدستور على أرض الواقع ظهر فشله ، فألغاه السلطان عبد الحميد الثاني عندما أتيح له ذلك .

رابعاً :أكد على أن الدولة العثمانية هي التي شنت الحرب على روسيا واليونان في عهد السلطان عبد الحميد الثاني . فقال :

المجلس من خلافات بين الأعضاء . وهذه هي المشروطية الأولى ، أما الثانية فهي الفرمان الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني في 2 جمادى الآخرة 1326هـ / 24 يوليو 1908م بإعادة المجلس بعد تعطله أكثر من ثلاثين عامًا.

سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، ص209 .

[2] يوسف حسين عمر : أسباب خلع السلطان عبد الحميد الثاني 1876 – 1909م ، إربد : دار الكتاب الثقافي ، 1426هـ / 2005م .، ص23 . عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج4 ، ص121 ، 122 .

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة Boa / Du it 10/62 ، إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج1 ، ص 729 . Hatt – i Humayun – u Serif ve Kanun – i Esasi , Istanbul 1297 , S . 62 .

" ولقد شنت تركيا في عهد السلطان عبد الحميد حربين إحداهما على روسيا 1877م – 1878م والأخرى على اليونان واستمرت من 18 إبريل حتى 5 يونيو 1897م". [1]

والحقيقة أن روسيا كانت قد كشرت عن أنيابها وبدأت تمزق الدولة العثمانية ، وهذه الحرب لم تكن إلا حلقة في سلسلة طويلة ضربت بها كيان الدولة العثمانية ، في الوقت نفسه لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يمتلك زمام الأمور أو لديه نفوذ حتى يمنع نشوب هذه الحرب ؛ نظرًا لأنه بالكاد كان قد تولى العرش، وكان يعلم مقدار الدمار والخراب الذي ستتركه حربهم مع روسيا .

وجاء دور مدحت باشا الذي كان يساعد أوروبا ضد الدولة العثمانية ، فقد أثار الشعب وكبار رجال الدولة بأقوالهِ وأفعالهِ ، وصور الحرب مع روسيا على أنها أمرٌ لا مفر منه ، لذلك عندما أعلنت روسيا الحرب رسميًا ، وجدت صداها عند الناس، خاصة وأن أخبار تحركات روسيا ضد الأهالي المسلمين كانت ترد بكثرة على حكومة عبد الحميد الثاني [2] .

وأعلنت روسيا في 9 ربيع الآخر 1294هـ / 24 إبريل 1877م الحرب ضد الدولة العثمانية ، وبما أن هذا التاريخ وافق سنة 1293هـ في التقويم الرومي ، فقد عرفت هذه الحرب في التاريخ العثماني بـ " حرب 93 "، وقد ضم الجيش الروسي جنودًا من الأرمن في هذه الحرب التي استمرت تسعة شهور ، ودار القتال بين القوات العثمانية والقوات الروسية في جبهات متعددة ، من أهمها جبهة بيلونه ، حيث دافع القائد التركي عثمان باشا عن القلعة ببسالة وشجاعة على الرغم من قلة العتاد والعسكر ، ثم وقع أسيرًا بيد الروس ، وأمام تلك الهزائم وسَّط السلطان عبد الحميد الملكة فيكتوريا للصلح حتى وافقت روسيا عليه ، واتفقت الدولتان على عقد الهدنة بين الطرفين في سان ستفانو في 29 صفر 1295 / 3 مارس 1878م ، وخسرت الدولة العثمانية في هذه الحرب أراضي كثيرة في البلقان والأناضول . [3]

---

[2] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7115 .

[1] عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 47 – 50 .

[2] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 107 – 116 .علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 648 .
Gazi Ahmed Muhtar Pasa , Anadolu' da Rus Muharebesi , Istanbul 1328 , S . 5-11 .

وقع المعاهدة " صفوت باشا " عن الدولة العثمانية وهو يبكي ؛ وذلك لأن شروطها كانت مجحفة جدًا في حقها ، حيث قدم المندوب الروسي شروطًا مسبقًا وطلب التوقيع عليها مباشرة وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل إستانبول ، ولذلك لم يبق خيار للعثمانيين إلا الموافقة على التوقيع . ومن أهم بنودها :

١) تعيين حدود للجبل الأسود لإنهاء النزاع ، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال.

٢) استقلال إمارة الصرب .

٣) استقلال بلغاريا استقلالاً ذاتيًا ، وتدفع مبلغًا محدودًا للدولة العثمانية .

٤) تحصل رومانيا على الاستقلال التام .

٥) يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن والنصارى من الأكراد والشركس .

٦) يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت .

٧) تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية مقدارها 245 مليون ليرة ذهبية ، ويمكن لروسيا أن تتسلم أراضي مقابل هذا المبلغ .

٨) تبقى المضائق مفتوحة أمام سفن روسيا في السلم والحرب .

٩) يمكن لمسلمين بلغاريا أن يهاجروا إلى حيث يريدون من أراضي الدولة العثمانية . [1]

لقد مزقت معاهدة " سان ستفانو" أجزاء الدولة العثمانية ، وأفقدتها كثيرًا من أراضيها ، بل وأدخلتها في دوامة الغرامات المالية ، في المقابل أعطت القوة لروسيا لممارسة مزيد من الضغوط على الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد .

اقتنع السلطان عبد الحميد الثاني بعدم فائدة النظام البرلماني للدولة ، فقام بإصدار فرمان في 9 صفر 1295هـ / 13 فبراير 1878م ألغى بموجبه مجلس المبعوثان. [2]

لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني راضيًا عن دخول الحرب ضد روسيا أصلاً ، وبالتالي لم يصدق على هذه المعاهدة ، فبدأ القيام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة حتى اقنع

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 649 ، 650 .

[2] Mahmud Celaleddin Pasa , Mir'at – i Hakikat , III , S. 62 .

بريطانيا أخيرًا للوقوف بجانبهِ ، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر وهو " مؤتمر برلين " لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانو من ناحية ، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا من ناحية أخرى ، حتى تصرف النظر عن استمرار الحرب، وبذلك استطاع تحقيق مكاسب للدولة ، وتقليل البنود المجحفة في حق الدولة العثمانية في المعاهدة الأولى ، في الوقت نفسه حاول أن يساعد ضحايا الحرب بالإنفاق عليهم من مالهِ الخاص ، والسعي لإيجاد مأوى وسبل الإعاشة لهم، ووسائل للتخفيف عن هؤلاء المهاجرين الضحايا نتيجة لهجمات الروس على قراهم. [1]

فدعت كل من بريطانيا وألمانيا الدول التي وقعت على مؤتمر باريس عام 1273هـ / 1856م لحضور مؤتمر برلين وذلك لمناقشة معاهدة الصلح التي أبرمت بين العثمانيين والروس في سان ستفانو بتاريخ 29 صفر 1295هـ/3 مارس 1878م ، وابلغتا القرار إلى الدولة العثمانية ، فزاد السلطان عبد الحميد الثاني تقربه من بريطانيا لتقوم الأخيرة بمساندة الدولة العثمانية في مؤتمر برلين ، لكن بريطانيا استغلت الموقف وقامت بطلب جزيرة قبرص من العثمانيين مقابل دعمها لهم ، وأبرمت اتفاقية سرية بين الدولة العثمانية وبريطانيا 2 جمادى الآخرة 1295هـ / 4 يونيو 1878م ، أعطيت بموجبها قبرص مؤقتًا إلى بريطانيا، وبالفعل قامت بريطانيا بالدفاع عن الدولة العثمانية في مؤتمر برلين ، وأرغمت روسيا على قبول بنود المؤتمر التي نصت على تخفيف شروط معاهدة سان ستفانو وقد استغرقت مفاوضات مؤتمر برلين الذي شاركت فيه ألمانيا والنمسا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا والدولة العثمانية شهرًا واحدًا برئاسة المستشار الألماني بسمارك ، وانتهى في 13 رجب 1295هـ / 13 يوليو 1878م وانتهى المؤتمر على ما يلي : [2]

١) إعطاء مقدونيا إلى الدولة العثمانية .
٢) تقسيم بلغاريا إلى شطرين ، ليكون أحدها إمارة تابعة للدولة العثمانية ، والآخر دولة مستقلة باسم الروميلي الشرقي .
٣) انتزاع البوسنة والهرسك من الإدارة العثمانية .
٤) المصادقة على استقلال كل من رومانيا والصرب وقراطاغ .
٥) القيام بعمل تعديلات في الحدود العثمانية اليونانية لصالح اليونان على الرغم من عدم دخول اليونان الحرب أو المؤتمر .

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 651 . السلطان عبد الحميد : عبد الحميد الثاني ، ترجمة محمد حرب ، ص72

[2] Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000 , S . 157 – 159 .

٦) قيام الدولة العثمانية بعمل إصلاحات في المناطق التي يسكنها الأرمن في شرق الأناضول ، مع قيامها بتزويد الدول الأوروبية بمعلومات حول الموضوع . [1]

وبهذا لم تكن نتائج مؤتمر برلين مرضية بالنسبة للدولة العثمانية ، إذ ثبت خسرانها لنفس المناطق التي خسرتها بموجب معاهدة سان ستفانو وبقاء الغرامة المالية ، لكن سُجل لبريطانيا وفرنسا رغبتهما في المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية مؤقتًا ، في الوقت الذي كشفت فيه عن نواياها الاستعمارية ، فقد احتلت فرنسا تونس عام 1299هـ / 1881م نظير احتلال بريطانيا لقبرص ، واحتلت بريطانيا بعد ذلك مصر عام 1300هـ / 1882م معلنة احتلالها مؤقتًا.[2]

وما يدلل على النوايا الاستعمارية ، أنه في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية على مذبح السلام الأوروبي ، حيث عرض على بريطانيا مصر ، أما فرنسا فعرض عليها تونس والشام ، وكانت البوسنة والهرسك من نصيب النمسا ، أما روسيا فتحتل البوغازين " البسفور والدردنيل " ، لكن هذه العروض كانت خفية ولم تدرج في مقررات المؤتمر[3] ، ولكنها نفذت بعد ذلك – كما رسمت – وبدأت تظهر المشاكل الداخلية في طرابلس وتونس ، حتى إن الدولة العثمانية أرسلت لهم المساعدات والذخيرة لمساعدتهم في حل هذه المشاكل.[4]

لقد فقدت الدولة العثمانية كثيرًا من أراضيها بموجب مؤتمر برلين الذي انعقد عقب الحرب العثمانية الروسية ، وقد أعطيت بعض المناطق إلى اليونان ، لكن اليونان لم تكتف بذلك ، وإنما بدأت تطالب بجزيرتي يانيا وكريت – أيضاً– وذلك بدعم الدول الأوروبية ، وترجمت ذلك بالهجوم والاستيلاء على جزيرة كريت في 20 شعبان 1313هـ / 16 فبراير 1895م وبقتل المسلمين القاطنين في الجزيرة ، وكانت اليونان تستهدف من وراء ذلك سحب الدولة العثمانية إلى الحرب ، فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني بإعلان الحرب على اليونان في 14 ذي القعدة 1315هـ / 17 إبريل 1897م دفاعًا عن الدولة العثمانية ، وبدأ الجيش العثماني بالتغلغل داخل الأراضي اليونانية ، حيث سجل انتصارًا عنيفاً على الجيش اليوناني، فطلبت اليونان مساندة الدول الأوروبية مما حذا بروسيا والدول الأوروبية الأخرى توجيه

---

[1] أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 119 .

[2] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 653 .

[3] أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 195 .

[4] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 67 / 525 HR.TO

إنذار إلى السلطان عبد الحميد الثاني لأجل إيقاف الحرب ، وقد وافق السلطان على ذلك بشروط قيام اليونان بدفع غرامة الحرب، وانسحابها من المناطق التي احتلت مؤخرًا .

وأبرمت معاهدة السلام في 18 ربيع الآخر 1315هـ / 16 سبتمبر 1897م بين الدولة العثمانية واليونان[1] ، وقد لُقِّب السلطان عبد الحميد الثاني بـ**(الغازي)** عقب انتصارات الجيش العثماني في الحرب العثمانية اليونانية . كما منح السلطان الغازي وسام النصر إلى القادة الذين اشتركوا في هذه الحرب. [2]

خامسًا :لم يذكر السبب الرئيس لخلع السلطان عبد الحميد الثاني، وفي الوقت نفسه لم يشِرِ مطلقًا لدورهِ مع الحركة الصهيونية وتصديه للخطر اليهودي.فقال:

"فإن المسألة المقدونية المعقدة أدت إلى تدخل أوروبي بالإجماع انتهى بالإطاحة بالسلطان عبد الحميد وقيام ثورة " تركيا الفتاة" ... ثم كانت الحركة الانقلابية التي تزعمها الرجعيون وبعض العسكر الذين اتسموا بالتعصب والتي قادها مارشال محمود شوكت ، وانتهى الأمر بصدور قرار بخلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وقد اتخذ هذا القرار المجلسان اللذان عقدا فيما بينهما يوم 28 أبريل 1909م جلسة مشتركة ، واعتمد هذا الخلع على" فتوى " صدرت في اليوم ذاته اتهمته بتحريمه كتب الشرع وحرقه إياها وتم خلعه بمقتضى هذه الفتوى " . [3]

لقد شهد عصر السلطان عبدالحميد الثاني تبلور الحركة الصهيونية بزعامة تيودور هرتزل [4] الذي سعى بشتى الطرق خلف السلطان عبد الحميد الثاني لطلب موافقتهِ على فتح باب الهجرة إلى فلسطين لكن السلطان رفض ، وقال : لا، فدفع ثمن هذه الكلمة غاليًا عرشهُ وسمعتهُ وتاريخهُ .

---

[1] Kasim bin Ahmed , 1897 Turk – Yunan Savasi (Teselya Tarihi) , Yayina Haz . Bayram Kodaman, TTK , Ankara 1993 ,
S . 36 – 50 ; Mahir Mehdi , Bedreka – i Zafer , Yayina Haz . Bayram Kodaman , TTK , Ankara 1993, S.107 – 111 .

[2] Kasm bin Ahmed , 1897 Turk – Yunan Savasi (Teselya Tarihi) , Yayina Haz . Bayram Kodaman, TTK , Ankara 1993 , S . 61 , 105 .

[1] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7115 ، 7116 .

[4] تيودور هرتزل : 1276هـ / 1322هـ / 1860م – 1904م ، مؤسس الحركة الصهيونية ، ومن أبرز قادة اليهود ، وهو أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية ، ولد في بودابست ثم انتقل إلى فينا واستقر بها ، أخرج كتاب " الدولة اليهودية " الذي طالب فيه بإنشاء وطن قومي خاص لهم ، بدأ نشاطه في بال بسويسرا عام 1315هـ / 1897م حيث خرجت المنظمة الصهيونية للنور ، حاول الحصول على موافقة الدولة العثمانية لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، واستنجد بالدول الأوروبية لتحقيق ذلك ، ولكن كل محاولاتهِ باءت بالفشل ، وتوفي متأثرًا بمرض القلب ودفن في جبل باسمه قرب القدس . أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 11 ، 12 .

لقد سارت جهود الصهيونية بزعامة تيودور هرتزل لتحقيق الوطن القومي اليهودي في فلسطين في اتجاهين متكاملين :

الاتجاه الأول :

محاولة إقناع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني – باعتبار أن فلسطين ضمن أملاك الدولة العثمانية – بقبول المشروع الصهيوني في فلسطين .

الاتجاه الثاني :

مناشدة الدول الأوروبية الكبرى – وهي بريطانيا والنمسا وألمانيا وإيطاليا وحتى الولايات المتحدة الأمريكية – كي تبذل مساعيها لدى السلطان العثماني حتى يقبل بالمشروع الصهيوني في فلسطين . [1]

ومنذ أن عقد مؤتمر بال في سويسرا عام 1315هـ / 1897م وبعد صدور كتاب تيودور هرتزل انفتح المجال للعمل في مواجهة العالم الإسلامي وخاصة الدول العثمانية ، وفي الوقت نفسه ، زادت علاقات تيودور هرتزل بالشركات الأوروبية الاحتكارية وخصوصًا شركة آل روتشلد حيث لعبوا دورًا بارزًا في تدعيم السيطرة المالية اليهودية على الدولة العثمانية ؛ وذلك لتكبيلها حتى ينفذوا مخططهم . [2]

والحق أن معاملة السلطان عبد الحميد الثاني لليهود لم تختلف عن سلفهِ من سلاطين آل عثمان ، حيث تمتع هؤلاء بكامل حقوقهم ، وقام السلطان بدفع رواتب لكبار الحاخامات بانتظام ، وبذلك أصبحوا في مكانة مسؤولة في الدولة العثمانية ، وكانت الأموال توزَّع على العائلات اليهودية الفقيرة ، ولهم أيضًا حق التصويت في أي انتخابات مثل أي أقلية دينية أخرى ، وأثناء معاناتهم في روسيا ، وتشرد آلاف من الأسر دون مأوى عام 1300هـ / 1282م حاول السلطان عبد الحميد الثاني التخفيف عنهم بكل ما في وسعهِ، وفي عام 1301هـ / 1283م منح الوسام العثماني الكبير لكبير حاخامي إستانبول " موشي ليفي " معبرًا عن تعاطفهِ مع اليهود وأسفهِ وحزنهِ على ما أصابهم من اضطهاد في الدول

---

[1] أحمد عبد الله الزغبي ، مرجع سابق ، ج3 ، ص 12 .

[2] نهدي صبحي الحمصي : العثمانيون والمشروع الصهيوني ، تاريخ العرب والعالم ، سنة 20 ، العدد 187 سبتمبر – أكتوبر 2000م ، جماد الآخرة – رجب 1421هـ ، ص81 .

الأوروبية، حتى إنه سمح لهم بالعمل في السلك الدبلوماسي ، فكان هناك قرابة 15 قنصلاً ومستشارًا من اليهود في داخل وخارج الدولة العثمانية . [1]

لكن الحركة الصهيونية سعت لتحقيق هدفها من خلال الإتجاهين – السابقي الذكر – حيث بدأت بريطانيا تلعب دورًا مهمًا في مساعدة تلك الحركة ، وهو أنها جاءت على رأس الدول الأوروبية التي قامت بدعم ومساندة المنظمة الصهيونية لأجل الوصول إلى هدفها في إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين التي يعدونها الأرض الموعودة ، علمًا بأن اليهود كانوا يشكلون نسبة ضئيلة من عدد سكان فلسطين ، إذ كان العرب المسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة من السكان على مرّ التاريخ ، ففي عام 1281هـ / 1880م شكل العرب 87 بالمائة، وفي عام 1308هـ / 1890م نقصت إلى 85 بالمائة ، وفي عام 1333هـ / 1914م وصلت إلى 83 بالمائة من مجموع السكان في فلسطين ، [2] وذلك مع إزدياد عدد المهاجرين اليهود .

وحقيقة الأمر أن اليهود بدأوا بتشكيل مراكز زراعية في أراضي فلسطين منذ عام 1287هـ / 1870م ، ثم قاموا بتأسيس جاليات تجارية أيضًا ، وقد أبدى السلطان عبد الحميد الثاني اهتمامًا بالغًا بفلسطين عندما شعر بالخطر اليهودي المندفع نحو الأراضي المقدسة ، فرفض في سنة 1293هـ/ 1876م عروض حاييم غوديلا لشراء مساحات من الأراضي في فلسطين ، وذلك لإسكان المهاجرين اليهود فيها . [3]

واتسم موقف السلطان عبد الحميد الثاني بالمعارضة الشديدة لهجرة اليهود ، ويتضح ذلك عندما طلبت جمعية " أحباء صهيون " في عام 1300هـ / 1882م من القنصل العثماني العام في أوديسا أن يمنح المهاجرين اليهود تأشيرات دخول إلى فلسطين بغرض الاستيطان فيها ، ولفت نظر القنصل العثماني عدد المهاجرين الكبير ، فأرسل يسأل عن رأي السلطان في هذا الأمر ، فرد عليه بعدم السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين إلا بعهد نيلهم للجنسية العثمانية ، مع موافقة السلطان شخصيًا باستيطانهم في ولايات أخرى غير فلسطين ، شريطة أن يكونوا رعايا عثمانيين وأن تطبق عليهم القوانين العثمانية ، وبمرور الوقت طلبت السلطات العثمانية عدم السماح لليهود الذين يحملون أي جنسية أخرى من الدخول إلى متصرفية القدس ، وعدم منح أوامر الإقامة في القدس لهم إلا إذا دخلوا في الدين الإسلامي أو المسيحي ، فقبلوا أن يكونوا رعايا عثمانيين، ويسمح لهم الدخول في فترات الحج فقط ،

---

[1] يوسف حسين عمر : مرجع سابق ، ص 155 ، 156 .

[2] فاضل مهدي بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ص 451 .

[3] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص482 .

وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد بدأت تساوره الشكوك في الحركة الصهيونية ، لكن الأمر لم يخلُ من دخولهم متحايلين بدفع الرشاوى وشراء الذمم . [1]

وقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني بعد ذلك ثلاثة فرمانات متعاقبة منع بموجبها هجرة اليهود إلى فلسطين ، وقيد زياراتهم وحددها إلى القدس في عام 1309هـ/ 1891م . وقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1309هـ / 1892م قانوناً يحرم بيع أراضي الحكومة إلى اليهود من كل الجنسيات ، حتى لو كانوا رعايا عثمانيين . [2]

لقد استشعر السلطان عبد الحميد الخطر القادم من الحركة الصهيونية وحاول التصدي لتلك الحركة لها بقدر ما يمتلك من قوة ، لكن التيار كان أقوى منه .

وعقب هذه النشاطات اليهودية استطاع اليهودي تيودور هرتزل – وهو من ترأس الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر – أن يصل إلى مجلس السلطان عبد الحميد الثاني عام 1319هـ / 1901م بتوسط الدول الغربية الحليفة للصهاينة ، و طلب منه الموافقة على تأسيس دولة يهودية في فلسطين ، مقابل تسديد جميع القروض المتراكمة على الدولة العثمانية ، [3] وقد تمت المقابلة الأولى في 1314هـ / 1896م ، والثانية في 1320هـ / 1902م وفي كلتا المقابلتين رفض السلطان عبد الحميد الثاني اقتراحات هرتزل وأعوانه ، وردّ عليه بهذه الكلمات : " أنا لا أبيع شبرًا واحدًا من أرض الوطن ، علمًا أن هذا الوطن ليس ملكًا لي ، إنما هو ملك للأمة ، وقد أخذت أمتي هذه الأراضي بدمائهم ، وهم يدافعون عنها إلى الأبد بدمائهم أيضًا ، فليحتفظ اليهود بملايينهم لأنفسهم . ولن يستطيعوا سلب أراضي فلسطين منا إلا بعد سقوط دولتنا ، ولكن في الوقت الذي لا نزل نحن فيه على قيد الحياة والدولة باقية فإنهم لا يستطيعون سوى تمزيق أجسادنا " وبعد إنهاء كلامه أمر بطرد هرتزل من مجلسه . [4]

---

(1) محمد سرحان : النظام العثماني " الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، 1492م – 1952م ، ط1 ، دمشق : دار دمشق ، 1993م ، ص30 ، 31 .

(2) ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 30 .

(3) أحمد عبد الله الزغيبي : مرجع سابق ، ج3 ، ص 13 – 14 . ليلى عبد اللطيف أحمد : مرجع سابق ، ص 34 – 35 . زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 44 – 45 . علي حسون : مرجع سابق ، ص 246 .
Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000 , S. 200 .

(4) فاروق عمر يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ج4 ، ص50. نهدي صبحي الحمصي : العثمانيون والمشروع الصهيوني ،89 .
Abdurrahman meydani , Mekazu doudm Abre't – Tarih , Cev . Enver Guvenc , Istanbul 1993 , S . 285 .

وهنا بدأ السلطان عبد الحميد الثاني بأخذ التدابير الضرورية اللازمة لأجل حماية فلسطين من الأعداء والخونة ، فأرسل فرقة عسكرية لحماية أرضها وحدودها ، كما أسس المؤسسات الزراعية لحماية الفلاحين الفلسطينيين ، وأنشأ السكة الحديدية في المنطقة ؛ وذلك من أجل راحة الأهالي المسلمين وسرعة إيصال القوات في حالة أي تعديات من اليهود ، ومن جهة أخرى أمر السلطان بمنع بيع العقارات والأراضي لليهود في فلسطين ، وبمنع هجرة اليهود إلى فلسطين وتحديد زياراتهم إلى القدس ، كما جلب بعض المسلمين من القفقاس والبلقان وأسكنهم في المنطقة ، وذلك بغرض ازدياد عدد المسلمين . [1]

وإزاء هذه التغيرات والتدابير التي اتخذها السلطان ضد اليهود بدأ الصهيوني هرتزل بتغيير شكل نشاطاته ، فبدأ بتحريض الروم والأرمن والمعارضين الأتراك للخلافة الإسلامية بالثورة ضد السلطان عبد الحميد الثاني ، ومن جهة أخرى طلب من الإنجليز الضغط على الدولة العثمانية للقيام بإعلان المشروطية الثانية (النظام البرلماني) . [2]

ويظهر لنا سببٌ آخر أسهم بقوة في عزل السلطان عبد الحميد الثاني–والذي أغفلته ولم تركز عليه أغلب الكتب والمراجع التي تناولت حياته – ويتمثل في منعهِ التنقيب عن آبار البترول ، فقد فطن السلطان عبد الحميد إلى أن أغلب البعثات التي كان عملها ظاهريًا التنقيب عن الآثار والأواني القديمة أو حتى المياه الجوفية ، لم يكن هذا هو هدفها الأساسي ، وإنما ستار يختبئ وراءه الهدف الرئيس من الحملة وهو التنقيب عن البترول ، وهذا ما رفضه السلطان عبد الحميد بشدة ، بل عمل على إغلاق الآبار التي نقب عنها الإنجليز في الموصل وبغداد ، فتأثر الإنجليز لذلك وأثاروا فتنة ضده في كريت ، بل بدأوا جديًا في العمل على إسقاطهِ من فوق عرشهِ ، والتخطيط فعليًا بالتعاون مع الأطراف الأخرى لإزالة هذه العقبة من أمام مصالحهم الاقتصادية ، وقد اتفق الألمان مع إنجلترا في هذا الأمر ، حيث صحب الإمبراطور الألماني في زيارته لإستانبول بعض العلماء الذين هدفهم التنقيب عن البترول خلف غطاء البحث عن الآثار ، وقد تلقى السلطان عبد الحميد تقريرًا يفيد بأن البعثة الألمانية تقوم بعمل البعثة الإنجليزية نفسه ، وكان لا يزال الإمبراطور ضيفًا في إستانبول ، وقد

---

[2] ربيع عبد الرؤوف الزواوي ، مرجع سابق ، ص 76 – 79 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ،ص 37 ، سعيد عبد الكريم زيد ، مرجع سابق ، ص 164 : هدى درويش ، تاريخ العلاقات التركية اليهودية، ج 1 ، ص 377 – 378 .

[3] مجدي عبد المجيد الصافوري : مرجع سابق ، ص 84 .

رفض السلطان عبد الحميد هذا الأمر ولغاه ، واعترف أنه تأثر بهذا الموقف ، فلو أن الإمبراطور تحدث في الأمر مباشرة ، لأعطاه الموافقة على أساس بعض الشروط . [3]

وقد طلب السلطان عبد الحميد من اليابان وفدًا متخصصًا في التنقيب عن البترول ، ووافقت اليابان على إرسال البعثة ، نظرًا للعلاقات الدبلوماسية الرسمية بين البلدين ، لكن الأمر لم يكتمل لاستبعاده عن العرش بعد ذلك بقليل . [1]

ومما لا شك فيه أن موقف السلطان عبد الحميد الثاني ضد تنفيذ رغبات الصهيونية كان أحد أهم الأسباب التي أدت إلى عزلهِ ، ووضعهِ تحت الإقامة الجبرية ، ومعاملتهِ بمنتهى القسوة والمهانة في المنفى .

وما يبلور المعلومة السابقة أن المتآمرين الذين قاموا بخلعهِ لم يكونوا سوى يهود وأداة بيد المنظمات الصهيونية والماسونية التي استخدمتهم لتحقيق أطماعها الاستعمارية بالقضاء على الخلافة العثمانية . [2]

لقد اضطر السلطان عبد الحميد الثاني نتيجة للضغوط الغربية عليه بإعلان المشروطية (النظام البرلماني) للمرة الثانية ، إذ افتتح مجلس المبعوثان (المجلس البرلماني) الذي يضم 266 عضوًا من المسلمين وغير المسلمين في 22 ذي القعدة 1325هـ / 17 ديسمبر 1908م ، وبعد فترة لا تتجاوز خمسة شهور ، أي في 5 ربيع الثاني 1327هـ / 27 إبريل 1909م اجتمع مجلس المبعوثان في ظل الاتحاديين الذين دعمتهم المنظمات الماسونية والصهيونية والقوى الاستعمارية الغربية لأجل إنهاء حكم السلطان عبد الحميد الثاني . [3]

إن المصير الذي لقيه مدحت باشا ، لم يردع اليهود والصهيونية ، بل طفقوا يكثفون جهودهم ، حتى وثبوا على السلطة في عام 1326هـ / 1908م ليبدأوا في تنفيذ مخططاتهم

---

[3] السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 154 – 157 . رفيق شاكر النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ط1 ، بيروت ، د. ت ، ص 135 ، 136 .

[1] السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 158 . أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 1836/41 AH –MKT .

[2] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، 391 .
Yusuf can , " Arz – i Mev'ud Fitnesi " , Tarih ve Medeniyet Dergisi , Sayi 32 , Kasm 1996 , S . 23-27.

[3] زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ، ص 272 ، 273 .

في القضاء على السلطان عبد الحميد الثاني ، وإقصائه عن الحكم [4] بالتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي .

وأثناء ذلك كانت هناك عدة أسباب جعلت من جمعية الاتحاد والترقي تُبقي السلطان عبد الحميد الثاني على العرش ، ومنها :

١) لم يكن لدى الاتحاد والترقي القوة الكافية لعزله عام 1326هـ / 1908م.

٢) سياسة المرونة التي اتبعها معهم السلطان عبد الحميد ، حيث نفذ رغباتهم وأعاد الدستور .

٣) زيادة ولاء العثمانيين لشخص السلطان ، خاصة بين الجيش ، حيث لم تستطع جمعية الاتحاد والترقي نشر دعايتها السيئة بينهم ، لأنهم كانوا يبجلونه تمامًا . [1]

لكن الصهيونية والاتحاد والترقي عملوا في الخفاء متعاونتين لتحقيق هدفهم الأساسي ، وأيضًا تحقيق مكاسب في فلسطين ، لذا لابد أولاً من التخلص من السلطان عبد الحميد ، فحاكت المؤامرة وخططت لأحداث 30 ربيع الأول 1327هـ / 21 إبريل 1909م ، وقد ترتب على هذه الفتنة اضطراب كبير في العاصمة ، وقتل عدد من عسكر جمعية الاتحاد والترقي ، وعُرفت هذه الحادثة في التاريخ بأحداث 31 مارت ، وقد تمت بتخطيط صهيوني مع الاتحاد والترقي ، وبمعاونة أوروبا وعلى رأسها بريطانيا ، حتى إن السلطان لم يستخدم القوة العسكرية أو وحدات يلدز لإخماد الفتنة ؛ خوفاً من إراقة الدماء ، وألصقت به التهمة على الرغم من ثبوت براءتهُ منها من خلال الوثائق التاريخية ، حتى إنه ذكر ذلك في مذكراتهِ، والحادث لا يحمل أي صفة دينية ، وإنما هدفه إيجاد علة لعزل السلطان عبد الحميد الثاني . [2]

بناءً عليه وجهت للسلطان عبد الحميد الثاني التهمة بتدبير أحداث 31 مارت وحرق المصاحف ، والإسراف والتبذير ، فضلاً عن الظلم وسفك الدماء ، ونجح المغرضين في عزلهِ بمنتهى القسوة ، حيث انعقد مجلس الأعيان والنواب يوم الثلاثاء في 5 ربيع الآخر 1323هـ/ 27 إبريل 1909م واعتلى المنبر أحمد مختار باشا ، وتقدم باقتراح حول خلع

---

[4] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص 71 .

[1] أحمد نوري النعيمي : مرجع سابق ، ص 168 .

[2] محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 50 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص131. عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 185 .

السلطان عبد الحميد الثاني من الحكم. بأسلوب اتضح منه أن الأمر قد تقرر سلفًا ، وبعد أن وافق أغلبية أعضاء المجلس على ذلك ، أشار الباشا إلى وجوب استناد قرار الخلع إلى فتوى صادرة من شيخ الإسلام وأمين الفتوى ، فكتب أحد أعضاء البرلمان وهو من النواب ، ويدعى " ألمالي حمدي يازار" مسوَّدة الفتوى ، ثم دُعي أمين الفتوى الحاج نوري أفندي إلى المجلس للتوقيع على الفتوى ، لكنه رفض ذلك في أول الأمر ، مبيناً براءة السلطان من التهم التي ألصقوها به في نص الفتوى ، ولكنه أجبر في النهاية على توقيعها. [1] كذلك أحضر شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي [2] إلى المجلس ، حيث قام هو الآخر بالتوقيع على فتوى الخلع مجبرًا على ذلك ، وقرر المجلس إرسال وفد من أعضائه إلى قصر يلديز لإبلاغ قرار الخلع إلى السلطان، وتقرر اختيار الوفد الذي يعدّ من الأحداث المؤلمة والمخزية في التاريخ العثماني ؛ إذ إن الوفد الذي أنيط به تبليغ قرار خلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين كان يتألف من : عمانوئيل قراصو اليهودي ، [3] وأسعد طوبطاني الألباني ، [4] وآرام أفندي

[1] عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص143 .
Ali fuad Turkgeldi , Gorup Isittiklerim , TTK , Ankara 1951 , 37 – 38 .

[2] محمد ضياء الدين أفندي:هو المفتي الذي وقع على قرار خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، عاش في الفترة 1263هـ– 1335هـ / 1847م – 1917م ، وهو محمد ضياء الدين بن عثمان نوري الأزنيلي ، والده رئيس المسودين في دار الفتوى ، آخر شيوخ الإسلام في عهد عبد الحميد الثاني ، عمل في دار الفتوى وتدرج في المناصب حتى وصل إلى مشيخة الإسلام وعين لفترتين 1/23 – 4/14 1327هـ / 2/14 – 1909/5/5م . لم يستمر طويلاً وعزل على خلفية أحداث 31 مارت ، لكن أعيد تعيينه مرة أخرى في نفس اليوم بناءًا على أوامر السلطان عبد الحميد الثاني ، عندما جاء الأمر بتوقيع فتوى عزل السلطان رفض ، وتعلل بأنه مريض ، ولا يقوى على تحمل مسئوليتها ، إلا أنه أُرغم إرغامًا على توقيعها ، وقد كان يقدم أفضل الفتاوي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، ولم يبق في المنصب كثيرًا بعد عزل السلطان ، حيث أعفي من منصبهِ بعد 21 يومًا وتوفي عام 1335هـ/1917م، انظر أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج2 ، ص 302 – 329 .

[3] عمانوئيل قراصو:وهو يهودي أسباني ونائب سالونيك في مجلس " المبعوثان " يعتبر من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة، وكان من رواد إثارة الشغب وتحريضه على السلطان عبد الحميد الثاني ، ومسؤولاً عن ذلك أمام جمعية الاتحاد والترقي ، كما أن له دور في التحريض ضده ، وتأمين التخابر بين سالونيك وإستانبول ، درس المحاماة وعمل في المجلس النيابي العثماني نائباً عن سالونيك مرة وعن إستانبول مرتين . وعمل أثناء الحرب العالمية الأولى مفتشًا للإعاشة ، حيث جمع أموالاً من هذا المنصب لحسابهِ الخاص ، لعب دورًا مهمًا في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته له إيطاليا ، ونتيجة لهذه الخيانة هرب إلى إيطاليا وحصل على حق المواطنة فيها ومات فيها عام 1353هـ / 1943م . كان أستاذًا للمحفل الماسوني في سلانيك ، وهو صهيوني حتى النخاع ، وهو الشخص الذي اقترح تقديم رشوة للسلطان عبد الحميد الثاني مقابل تأسيس دولة يهودية في فلسطين . وطرده السلطان آنذاك من حضرتهِ . انظر : فاروق عمر يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ج4 ، ص 144 . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص51 .

[4] أسعد طوبطاني : هو ألباني الأصل ، نائب في مجلس المبعوثان عن منطقة دراج . لقد عاش في نعيم السلطان لكنه خانه وجحده وخان الأتراك . انظر : علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 724 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق، ص144 .

الأرمني ، [5] وعارف حكمت باشا التركي [6] الذي عمل مرافقًا للسلطان عبد الحميد الثاني سنوات طويلة،[7] وعندما وصل أعضاء الوفد قصر يلديز ، وبينوا سبب مجيئهم إلى رئيس (التشريفات) حيث أعلم الأخير السلطان بذلك مع ذكر أسماء أعضاء الوفد ، فعندئذ غضب السلطان ، ومن بين حزنه وأسفه ، قال : "ألم يجدوا شخصًا آخر لإبلاغ قرار خلع سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين سوى شخص يهودي وآخر أرمني وآخر الباني ، وآخر تركي انتهازي وناكر الجميل ".[1]

وكان اليهودي الصهيوني عمانوئيل قراصو من أنشط أعضاء الحركة الماسونية في سالونيك، كما كان عدوًا لدودًا للأتراك المسلمين ، والأعضاء الآخرون في الوفد لم يكونوا أقل عداوة من قراصو للدولة العثمانية والخلافة الإسلامية.

وفي أثناء مقابلة السلطان لأعضاء الوفد ، قال الناطق باسم الوفد أسعد أفندي للسلطان: " لقد قررت الأمة عزلك " فقال له السلطان : " أظن أنك أردت أن تقولي لي : لقد قررت الأمة خلعك " .

والمعلوم بأن كلمة " العزل " تستخدم للوزراء وأركان الدولة ، بينما تستخدم كلمة "الخلع " للسلاطين ، وكان المتحدث باسم الوفد يجهل ذلك ، فقام السلطان بالإشارة إلى ذلك ليضرب جهله في وجهه .

ثم قام أسعد أفندي بقراءة الفتوى ، وبين أسباب الخلع ، فغضب السلطان وهتف في وجوه أعضاء الوفد ، قائلاً : " عاقب الله ﷻ أعدائي ولعنهم ".[2]

---

[5] آرام أفندي:أرمني الأصل عضو في مجلس الأعيان العثماني.عمر فاروق يلمظ:السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 144 .

[6] عارف حكمت باشا : ليس له عرق معين جاحد للنعمة التي نالها من السلطان حيث كان من مرافقيه وعضو مجلس الأعيان ، وهو كرجبي العراق . انظر : علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 722 .

[7] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 718 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 143 ، 144.

Ali fuad Turkgeldi , Gorup Isittiklerim , TTK , Ankara 1951 , 37 – 38 .

[1] علي حسون : مرجع سابق ، ص 261 . عمر فاروق يلمظ : عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 144 ، 145 .

Galip Pasa'nin Hatiralari , Hayat Tarih Mecmuasi , Sayi 8 , Eylul 1966 , S . 77 – 84 .

[2] علي حسون : مرجع سابق ، ص 261 . عمر فاروق يلمظ : عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 144 ، 145 .

Galip Pasa'nin Hatiralari , Hayat Tarih Mecmuasi , Sayi 8 , Eylul 1966 , S . 77 – 84 .

لقد وجهت للسلطان عبد الحميد تهم لعزلهِ لا أساس لها من الصحة ، فقد أثبتت الوثائق التاريخية أنه لم يتسبب في أحداث عصيان 31 مارت ، أما عن تخريب وإحراق الكتب الدينية، فإن قوة إسلامهِ وحفاظهِ على صلاته والتزامه بتعاليم الشريعة الإسلامية هي التي ترد على ذلك ، أما الإسراف والتبذير ، فقد كانت الصحافة والإعلام دائماً يتهموه بالبخل والشح ، فكيف ينقلب فجأة إلى مسرف؟!

إن عزله بهذه التهم الباطلة دليل واضح على عدم صدقها ، حتى من كتبها يدرك ذلك، لكن الاتحاديين تمادوا في غيهم لتحقيق هدفهم .

سادساً :اتهامه بالاستبداد ، وأنه شجع التجسس وسيطر عليه الشك . فقال عنه:

" أما فيما يتعلق بالاستبداد فيلاحظ أنه على الرغم من أن سلطة أسلاف عبد الحميد كانت مطلقة إلا أن تدخلهم في أمور الحكومة كان قليلاً نسبيًا ، ... ، وقد أراد السلطان عبد الحميد أن يوجد وسيلة للسيطرة تنفذ كل مآربه ورقابته الشخصية وبذلك تكون سلطة " القصر " أو البلاد هي المنفذ ، ولكن من وراء ستار ، وبعد نجاته من محاولة أرمينية دُبرت لاغتياله ازداد خوفه وشكه الجارف في كل من حوله ، وهو شك سيطر على كل جوانب حياته ، ولذلك فتح أذنيه لكل نمّام ، وشجع التجسس حتى صار كل واحد عينًا على الآخر مما أسفر عن قيام شبكة جاسوسية معقدة تعقيدًا لا يمكن لأحد أن يتصور مداها ، وتكون شيء جديد يعرف " بالخفية " وما هو في الواقع إلا " هيئة شرطة " أصبحت تضم في النهاية جميع الوشاة والمخبرين السريين ... وقد بلغت قسوة هذه الرقابة درجة كبيرة من البعد عن العرف والأخلاقيات لا يمكن تصديقها لولا ورود الخبر الذي يؤكدها في الوثائق " .[1]

إن كلمة عهد الاستبداد الحميدي قد عبأت أغلب المراجع ، ولا يكاد يخلو منها كتاب أو مقال دون الإسناد إلى واقعة تاريخية صحيحة أو وثيقة صادقة ، إن تاريخ السلطان عبد الحميد الثاني بدأ تشويهه منذ أن كان على رأس الحكم ، وانتشرت الشائعات حولهُ ، وقامت الصحافة والإعلام بدور بارز في ذلك .

---

[1] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7116 ، 17117 .

وسبب ذلك وقوفها أمام الصهيونية العالمية ، ورفضه لها ، فلهذا عُزل ، وعوُمل بقسوة بل والأدهى أن شوه تاريخهُ لدرجة أن الحقائق دفنت تحت أطنان من النسيان .

إن من يعرف سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الصحيحة الصادقة ، يكتشف أنه أبعد ما يكون عن الاستبداد ، لقد كان عدد كبار الموظفين في عهده في ازدياد ، ويتقاضون أعلى الرواتب دون الحاجة لهم في العمل ، فلو كان مستبدًا لعزل أكثرهم وما أبقى عليهم . [2]

ثم إنه كان دائم التفكير في خير الرعية ، حيث صرف كثيرًا – ومن جيبه الخاص – على حل مشاكل الأهالي ؛ إذ إن نفقاتهم وعلاجهم وحتى تدفئتهم لم تفارق ذهنهُ مطلقًا ، إذ عدَّه الخدمات التي كان يقدمها واجبًا فرضته عليه الخلافة الإسلامية .[3]

ولو كان سلطانًا مستبدًا – كما يقولون – لما فكر يومًا في تدفئة الدوائر الحكومية تدفئة مركزية ؛ وذلك لكي يحقق الراحة للموظفين بالحصول على درجة حرارة متوازنة، بالإضافة إلى تقليل النفقات التي كانت تصرف على توفير الفحم والحطب اللازم للمدافئ التقليدية ونقله.[1]

كما أنه كان حريصًا على متابعة شؤون شعبه بنفسه في جميع مناحي الحياة الصحية والتعليمية ، فهناك وثيقة ذكرت بأنه عُرض على السلطان خبر خلط الزيت بموادٍ غريبة – في بعض الأماكن – أثناء تصنيعه ، فأمر باتخاذ ما يلزم للحفاظ على صحة الشعب ، وحماية الزيت من التلف .[2]

لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يتدخل في جميع شؤون الدولة– كما صورتهُ المادة – وإنما كان يترك بعض الأمور لأهل الإختصاص ، فمثلاً عند تعيين طائفة من القضاة ، لم يكن يتدخل في اختيار أحدهم أو ترشيحه ، وعندما تعرض عليه الأسماء يوافق دون تردد ، على الرغم من حساسية هذا المنصب وأهميته ، لكنه كان يثق في اختيار من حوله .[3]

---

[2] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 145 ، 146 .

[3] ربيع عبد الرؤوف الزواوي : مرجع سابق ، ص 82 .

[1] Boa , irade Hususi nr . 81 , 27 R 1379 نقلاً عن عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص273.

[2] BoA , Irade Hususi nr , 16 , 132u Ng نقلاً عن عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص273.

[3] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 145 ، 146 .

لو كان حقًا مستبدًا وقاسيًا في الحكم ، لأمعن في الانتقام من أعدائهِ ، ولكن نجده دائمًا يخفف حكم الإعدام حتى على من يتأكد من خيانتهم ، وخير دليل على ذلك تخفيفه حكم الإعدام عن مدحت باشا على الرغم من ثبوت تدبيره لمؤامرة مقتل عمه السلطان عبد العزيز ، وأبدله بالنفي إلى الطائف لمجرد أنه تذكر بعض الخدمات التي قدمها مدحت باشا للدولة العثمانية ، وقد خُففت في عهدهِ الكثير من أحكام الإعدام إلى النفي أو السجن المؤبد . [4]

لقد امتلأ قلبهِ بالرحمة والشفقة على الفقراء ، فكان دائم التفكير في غذائهم وتدفئتهم ، والأرشيف العثماني مليء بالأوامر التي كان يصدرها لشراء مواد التدفئة وتوزيعها على الفقراء ، حتى يستطيعوا إكمال شهور الشتاء القارصة البرودة . [5] لا شك أن إلصاق تهمة الاستبداد بالسلطان عبد الحميد الثاني مرده إلى عامل مهم وهو:

الدور الإعلامي النشط الذي قادته الصهيونية لتشويه صورة حكم السلطان عبد الحميد الثاني ، عن طريق تفسير أي أعمال سياسية له بطريقة مغايرة تماماً للحدث، بغرض إشعال الفتنة في الأقاليم العثمانية ، وتشويه صورتهِ حتى يزيد النفور منه، وبالتالي تفشل سياسة الجامعة الإسلامية .

لقد وقفت الصحافة ضد السلطان عبد الحميد الثاني في جميع أنحاء الدولة العثمانية ، فمثلاً نجد أن الصحافة في مصر كانت حريصة على تغيير رأي الشعب المصري تجاه الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني ، ففي أثناء حرب الدولة العثمانية مع روسيا عام 1315هـ / 1897م زعمت صحيفة مصر –عندما أدركت – حماسة المصريين لمساندة الدولة العثمانية وتأييد الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني – بأن " الدولة العثمانية ليست بحاجة إلى هذه المساعدات ، وإذا كان لابد من التبرعات فليكن ذلك باسم غير اسم الجامعة الإسلامية. ولم يقتصر الأمر على صحيفة مصر بل تعداه إلى الصحف النصرانية الأخرى ، فقد سلكت صحيفة " المقطم " المؤيدة للسياسة البريطانية هذا المسلك أيضًا ، والتي دأبت على الطعن في سياسة الدولة العثمانية ، وابرز رجالاتها ، حيث أفسحت المجال لأعضاء حزب الاتحاد والترقي الفارين إلى مصر بالكتابة في صفحاتها ، ومهاجمة السلطان عبد الحميد واتهامهِ بالاستبداد ، وعارضت كل أساليب الدعم التي أبداها المصريين نحو الدولة العثمانية ، هذا بالإضافة إلى صحيفة الضياء التي أنشأها إبراهيم اليازجي في القاهرة عام 1316هـ

---

[4] مرجع سابق ، ص 146 .

[5] عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 277 .

/ 1898م وكانت سيفًا على العثمانيين ، وصحيفة " المشير " التي أصدرها سليم سركيس في الإسكندرية عام 1312هـ/1894م ، وقد كانت هذه الصحيفة شديدة جدًا على الحكم العثماني، والجامعة الإسلامية ، وكانت ترى ضرورة هدم الكيان العثماني، وأيضاً صحيفة " المقتطف " و"الهلال المصرية " كانت هذه الصحف تستثمر لصالح إقصاء الخليفة عن الخلافة العثمانية، وفي الوقت نفسه تعمل على تنفيذ المخطط الصهيوني من خلال حملات إعلامية منظمة ضد السلطان عبد الحميد الثاني ، ومن الصحف السورية التي عارضت الجامعة الإسلامية متخذة كل السبل لتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني صحيفة " تحرير سوريا " [1]

وظهر كثير من الكتاب الذين ناهضوا الحكم والخلافة العثمانية ، مثل نجيب العازوري الذي أصدر مجلة شهرية بالفرنسية تحت عنوان " الاستقلال العربي " نادى من خلالها إلى نزع الخلافة من العثمانيين ونقلها إلى العرب، والصحف النصرانية السورية التي ناوأت الحكم العثماني مثل صحيفة "الجنان " التي أنشأها بطرس البستاني ، وصحيفة مرآة الأحوال التي أسسها "رزق الله حسون " . [1]

وقد كانت بعض هذه الصحف توزع في أوروبا وتنشر أخبارًا ملفقة عن السلطان عبد الحميد الثاني لتشويه صورتهِ في نظر المسيحيين الخاضعين للحكم العثماني .

ولم يقتصر الأمر على الصحف العربية التي توزع في أوروبا ، وإنما تعداه إلى الصحف الأوروبية نفسها التي كانت تنشر أخبارًا عن إجراءات تعسفية يقودها السلطان عبد الحميد الثاني ضد رعيته ، مثل صحيفة " ديلي نيوز Daily News "، وكانت السفارة العثمانية في لندن ترسل تلغرافات دائمًا بهذه الأفكار لإحاطة الدولة العثمانية بما يحدث . [2]

ووصل الأمر إلى أنه في بعض الأحيان تمنع بعض الصحف من الدخول إلى الولايات العثمانية ، نتيجة لنشرها أخبارًا مغلوطة عن سياسة السلطان عبد الحميد مثلما حدث من جريدة " ديلي نيوز Daily News " في عددها الصادر بتاريخ 7 يونيو 1892م ،عندما نشرت مقالة فيها إساءة لسياسة السلطان عبد الحميد الثاني ، وذلك بتصويره بالسلطان الغادر القاسي في قمع التمردات والثورات الداخلية ، على الرغم من أن إخماد هذه الثورات يتم

---

[1] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 237 ، 238 .

[1] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 239 .

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 116 / 261 YA – HUS تلغراف رقم 130 7 يونيه 1892م .

بإجراءات هادئة جدًا لا تشمل القتل أبدًا ، وفي الوقت نفسه تضر هذه المقالات بسياسة الجامعة الإسلامية ، مما دفع بالسفارة العثمانية في لندن إلى نشر تكذيب للأخبار في الصحيفة نفسها في 14 ذي القعدة 1309هـ / 28 مايو 1892م ، ومُنع دخولها للولايات العثمانية. (3)

وهذا لا يعد استبدادًا لأن مقالات بعض الصحف بها سخرية واضحة من السلطان عبد الحميد وشخصيتهِ وسياسته ، كما أنها تساعد على نشر أفكار قومية وخاطئة تضر بالسياسة الداخلية للدولة العثمانية ، أقربها ضرب فكرة الجامعة الإسلامية ، وتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني في نظر رعاياه وشعبهِ .

ولم يقتصر الأمر على الصحافة فقط ، بل تعدى الأمر إلى إصدار الروايات المشوهة عنه ، التي تصوره على أنه السلطان البخيل المحب لسفك الدماء (السلطان الأحمر) ، والذي يظلم الأبرياء ، وخير دليل على هذه الروايات، رواية جورجي زيدان " الإنقلاب العثماني" ، التي احتوت على كل ما استطاع جورجي زيدان إلصاقهُ بالسلطان العثماني ، وصدرت الطبعة الثانية من هذه الرواية عام 1408هـ / 1988م من دار الجيل ببيروت .

ولعل الجمل التالية التي قيلت في حقهِ توضح أن اليهودية والصهيونية هي وراء تشويه تاريخ السلطان عبد الحميد الثاني ووصفهِ بالمستبد والشكاك ، فقد كتبت صحافة سالونيك اليهودية عنه : " عبد الحميد مضطُهد إسرائيل ... عدو إسرائيل " أمَّا هرتزل زعيم الصهيونية فقال عنه : " أرى عبد الحميد سلطانًا ماكرًا جدًا ، خبيثًا جدًا، ولا يثق بأحد "

ورأى حسام الدين أرتورك – العقيد في الجيش التركي – أن مقاومة عبدالحميد الثاني للصهيونية أطاحت به حيث قال : " إن تصرف عبد الحميد تجاه الحركة الصهيونية معناه أن يتسبب في هدم تاجه وهدم عرشه " .

والكاتب والمؤرخ التركي نظام الدين تبه دنلي أوغلو أشار إلى المعنى نفسه فقال : "إنّ تصرف السلطان عبد الحميد اتجاه هرتزل كان – كما فطن السلطان – من شأنه جعل هرتزل واليهود يعملون على تدعيم أعداء السلطان " .

وأخيرًا فضحت صحيفة " أورور" اليهودية نفسها عندما أطلقت عليه الألفاظ نفسها التي روجت لها الصهيونية بعد ذلك حيث جاء فيها " كان على المؤتمرات اليهودية أن تواجه

---

(3) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 116 / 261 YA – HUS .

سلطة مستبدة لشخص واحد ، وعيناً طاغية مرتابة هو عبدالحميد " ، وجاءت الجملة في افتتاح المؤتمر الصهيوني التاسع . [1]

إن صفة الاستبداد ألصقت بالسلطان عبد الحميد الثاني ، لدرجة أن كل المستشرقين اتفقوا على اتصافهِ بالاستبداد ، و أكد كرامرز على هذا الأمر ، حيث كتب في مادتهِ " ***فضل السلطان عبد الحميد الثاني أن يستبد بالحكم كأسلافه ، ... ووجه همه إلى الاحتفاظ بمكان السلطان وتقوية نفوذه ، فتوسل إلى هذا بتنمية ذلك النظام ، نظام الرقابة والتجسس الذي جعل هذه الأيام تعرف في تاريخ تركيا بإسم " دور الإستبداد " .*** [2]

ونظام الجواسيس أو التجسس والرقابة ، لم يكن مستحدثًا في عهدهِ ، فكل حاكم كان لديه عدد من العيون والمراقبين حتى ينقلوا له الأخبار ، ويطلع بذلك على أحوال رعيتهِ ، فسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ كان يسير بنفسهِ في أزقة المدينة المنورة متنكرًا حتى يعرف أمور المسلمين ويحاول أن يلبي رغباتهم . إنها طريقة قديمة لمساعدة الحاكم على حفظ الأمن والاستقرار ، وتحسس أخبار الرعية .

وعندما تحدث السلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته ، قال إنه للتعرف على تفكير الرعية وشكواهم ، وأن هؤلاء كانوا منتشرين في التكايا وبين الدراويش والمشايخ ، وهو في ذلك سار على خطى جدهِ في توسيع دائرة العيون لتشمل الدراويش والشيوخ الرحل ، وعلى الرغم من ذلك ، فلم يكن يريد أن تتحول المسألة إلى زج التهم على الناس بالباطل ، فعندما يعلم أن فلانًا يقدم معلومة لمجرد العائد المادي ، كان يرفض الأمر برمتهِ ، فهدفهُ الأصلي من إنشاء هذا الجهاز هو حماية الدولة من الأخطار الخارجية بعد تكالب تلك الدول للإطاحة بالدولة العثمانية ، فقد اكتشف أن السر عسكر حسين عوني باشا – مثلاً – ، يتسلم نقودًا من إنجلترا للإدلاء بمعلومات عن الدولة العثمانية . فكيف يحس بالأمان والأعداء وصلوا إلى الصدور العظام . [1]

فقرر إنشاء جهاز مخابرات مرتبط بشخصهِ مباشرة ، وهو فعلاً جهاز قوي جدًا ، استطاع النفاذ إلى أعماق أوروبا ومؤسساتها ، بحيث كانت تصل إليه كل أخبار ما تدبره الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية ، وكان يتخذ الخطط الناجحة الكفيلة بمجابهة هؤلاء ،

---

[1] هدى درويش : العلاقات التركية اليهودية ، ج2 ، ص 18 – 19 .

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص 188 .

[1] عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، 158 ، 159 .

فقد أستطاع أن يخمد كثيرًا من حركات التمرد والعصيان على مدى ثلاثين عامًا ، وبمنتهى البساطة – حتى قبل أن تبدأ – بفضل جهاز المخابرات هذا . [2]

لقد أسَّس السلطان عبد الحميد الثاني هذا الجهاز ، ورصد له الميزانيات الضخمة حتى يؤدي الناس عملهم دون الإضرار بأحد ، وكل ولاية لها ميزانية خاصة للصرف على رجال الشرطة السريين . [3]

لقد أسسه لا ليكون أداة ضد المواطن ، ولكن لكي يعرف ويتعقب الذين يخونون الدولة العثمانية ويتسلمون رواتبهم من خيراتها . [4]

ولابد من الأخذ في الاعتبار أنه لم يكن يجزم بصحة كل ما يرد إليه ، ولا يأخذ بصحة تقاريرهم إلا بعد أن يتأكد من صحتها ، وقد ساعده ذلك على معرفة تحركات واتصالات ومؤامرات أعدائهِ من اليهود وجمعية الاتحاد والترقي ، مما أدى إلى اتخاذِ الإجراءات السليمة في أغلب الأحيان . [1]

وفي نهاية الأمر ، فإذا كان السلطان عبد الحميد الثاني يميل إلى الشك في الأشخاص، ولا يثق بأحد ، ولذلك أسس هذا الجهاز وربطهُ بشخصه ، فإن له الحق في ذلك ؛ لأنه تعرض لأكثر من محاولة اغتيال كان من الممكن أن تنجح إحداها ، لذلك كان حريصًا على أخذ الحذر حتى من أقرب الأشخاص له ، وهذه نتيجة طبيعية للأحداث التي مر بها . [2]

كما إن ما قيل عن جهاز المخابرات هذا الخاص بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، ما هو إلا نتاج للدعاية المغرضة ضده ، ومحاولة تشويه أعماله ثم إن ما كتب عنه لا يتجاوز 10% من حقيقة الجهاز .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن السلطان عبد الحميد الثاني قد بث العيون ونشر الجواسيس وذلك لمراقبة اليهود والصهاينة وأعداء الدولة العثمانية وعملاء الدول الأوروبية ،

---

[2] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 642 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 143 .

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 17 / 1372 AH – Mkt .

أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 26 / 1380 AH – Mkt .

[4] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص160 .

[1] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 143 .

[2] مرجع سابق ، ص 144 .

فتلك الدول استخدمت جيوشاً من المخابرات داخل الدولة العثمانية وخارجها ، هدفها ضرب الخلافة الإسلامية ، فأين جهاز مخابراتهِ من مخابرات روسيا وبريطانيا وفرنسا الذين تسللوا داخل الدولة العثمانية من قبل حكم السلطان عبد الحميد الثاني بمئات السنين وكأن الأمر متاح لهم هم فقط ، بينما لا يجوز للآخرين الدفاع عن أنفسهم . [3]

لقد اتخذوا من الكنائس ، والسفارات والقنصليات وكرًا لتجسسهم على الدولة العثمانية، والأمثلة على ذلك كثيرة في الدراسة فليس عيبًا أن يقابل السلطان عبد الحميد الثاني هذه الجيوش من الجواسيس بجهاز مخابرات لحماية دولتهِ وشعبهِ .

سابعًا : لم يعطِ فكرة واضحة عن الجامعة الإسلامية ولم يعطها حقها من الشرح وإنما ركز فقط على أنها إرجاعٌ للشيعة إلى مذهب السنة . فقال :

" كان عظيم التقدير لجمال الدين الأفغاني الذي يدين له بالشكر لتوفيقه في إرجاع الشيعة إلى حظيرة السنة ، على أن هذه السياسة العقيمة ، بل والخطيرة كانت قائمة في الغالب على وهم باطل مؤداه أنه قادر على الاعتماد على وفاء أطفاله الذين أفسدهم التدليل (وهم العرب) وعلى ولائهم له " . [1]

والحقيقة أن تصوير فكرة الجامعة الإسلامية جاء خاطئًا تمامًا ، فلم تكن لارجاع الشيعة لمذهب السنة ، لأن هذه النقطة غير مطروحة للنقاش ، ولكن فكرتها أعمق أثرًا وأبعد مدى من التفسير القاصر للمستشرق جان ديني .

ولم تختلف فكرة كرامرز عن جان ديني ، حيث أرجعها كرامرز في مادتهِ الترك إلى النعرة الإسلامية . [2]

ولم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية في مسرح السياسة إلا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، إذ أرتأى أنه لابد من توحيد جميع المسلمين سنة وشيعة ، ترك وعرب وأكراد ، ومختلف الأعراق والمذاهب جميعًا تحت مظلة واحدة وهي الإسلام ، وتقوية أواصر العلاقة بينهم ، لمواجهة الخطر الأوروبي المتربص بالإسلام عامة والدولة العثمانية خاصة ، تحت شعار " يا مسلمي العالم اتحدوا " لذلك رأى ضرورة امتداد تأثير الوحدة

---

[3] مرجع سابق ، ص 141 ، 142 .

[1] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7117 .

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص189 .

الإسلامية إلى كل مسلمي آسيا بما ولا سيما مسلمي آسيا الوسطى ؛ لأن جبهة الدولة العثمانية وحدها لا تكفي في مواجهة الخطر الصليبي، والعمل على تعميق روابط الإخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم ، فعمل على تدعيم مركز الخلافة لدى المسلمين عن طريق الإسلام، وجعله يقف في مواجهة الأفكار الأوروبية . [3]

لقد أدرك السلطان عبد الحميد الثاني بثاقب نظرهِ أن عدم وجود لغة تفاهم مع مسلمين إيران لهو أمر مؤسف حقًا ، وربط التصدي لأطماع بريطانيا وخطر روسيا بضرورة وجود تقارب إسلامي على أعلى مستوى ، وقد وضح هذا الأمر في عدة مناسبات أثناء حديثه عن علاقة الدولة العثمانية بإنجلترا ، حيث أشار أنها تضع العراقيل أمام الوحدة الإسلامية ، وتريد أن تسيطر على الجزيرة العربية وتصبح تحت حمايتها ، فضلاً عن رغبتها في السيطرة على مدن المسلمين المقدسة لتحقيق هدفين ،هما: إضعاف تأثير الإسلام أولاً ، وتقوية نفوذها ثانياً.[1] وقد كاد أن يحدث تقارب بين إيران والدولة العثمانية والأرمن ، لكن الأمر لم يتعدَّ التوقعات، حتى حدث التنافر بين الأطراف الثلاثة وساءت العلاقات بينهم . [2]

وقد بدأ السلطان عبد الحميد الثاني يفكر في تشكيل جامعة إسلامية في سبيل وحدة المسلمين تحت مظلة الخلافة الإسلامية بشعار " يا مسلمي العالم اتحدوا " وقد أرسل عدة رسائل بهذا المعنى إلى الجماعات الإسلامية في كافة بقاع العالم يدعوهم فيها للانضمام إلى هذه الجامعة .

كما أرسل السفراء والوفود إلى مسلمي الهند وأفغانستان وروسيا وبخارى وسمرقند وإفريقيا وعُمان وزنجبار والكونغو والحبشة والصين ، لهذا الغرض أيضًا بصفتهِ خليفة المسلمين ، [3] ونتيجة لهذه العلاقات والاتصالات أصبح اسم السلطان عبد الحميد الثاني يذكر في خطب الجمعة في كافة مساجد العالم تقريبًا .

وقد وصل العالم الإسلامي إلى شعور قوي زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وبدأ الإسلام بالانتشار في اليابان وأمريكا وفرنسا وإنجلترا ، واستطاع السلطان كذلك شراء

---

[3] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 22 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص37 ، 38 .

[1] عبد الحميد الثاني : السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 23 .

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 26/ 15 Y . PR K EEA .

[3] ربيع عبد الروؤف الزواوي ، الدولة التي ظلمها التاريخ ، ص 71 .
Taha Toros , Abdulhamid' in Cin'e gonderdigi Turk Nasihat Heyeti , Yillarboyu Tarih Dergisi , Sayi 3. Haziran 1987 , S . 11 .

الصحف التي كانت تنشر مقالات ضد الإسلام ، وجعلها مناصرة للإسلام حيث بدأت تكتب عن عدالة الإسلام ورحمتهِ وأخلاق المسلمين.

كما تمكن السلطان عبد الحميد الثاني – بصفته خليفة للمسلمين – من منع عرض بعض المسرحيات التي كانت على وشك بدء عرضها في باريس وروما ولندن التي تضمنت أقوالاً ضد الرسول ﷺ والشخصيات الإسلامية الأخرى. [4]

نتج عن ذلك إقامة علاقة ودية إلى حدٍ ما مع شيعة إيران ، كما أنَّ هذه الأعمال والنشاطات الإسلامية – من قبل السلطان عبد الحميد الثاني – حققت الوحدة بين أجزاء العالم الإسلامي والأمة الإسلامية .

وقد نتج أيضاً عن هذه السياسة أن أصبحت إستانبول مركزًا للعلماء والزعماء المسلمين ، وأخذ السلطان يلتقي ببعض هؤلاء العلماء والدعاة ويتعرف على شؤونهم وأحوال أخوانهم المسلمين في بلادهم واحتياجاتهم ، في الوقت نفسه راسلوا السلطان يعرضون فيها ما يحتاجون لبناء مدارس وجوامع أو طلبات لمصاحف وكتب دينية ، وكان السلطان عبد الحميد ا لثاني يحرص بنفسهِ على الرد وتنفيذ هذه الطلبات ، ولعل من أطرف هذه الطلبات ، عندما بنى أهالي ساحل الذهب " غانا " مسجدًا ، لكنهم احتاجوا كتبًا دينية ومصاحَف ، فأرسلوا لسلطان الدولة العثمانية – بوصفهِ خليفة المسلمين في العالم – يناشدونه المعونة والإرشاد، وعندما وصلت رسالتهم للسلطان عبد الحميد الثاني أستعرض الخريطة للتعرف على موقع ساحل الذهب " غانا " ولم يمنعه كونها خارج إطار الدولة العثمانية من تقديم المساعدة لهم ، وإرسال المصاحف والكتب الدينية ونماذج للخطب يوم الجمعة ، ووجه دعوة رسمية لملكهم لزيارة إستانبول ، وقد خصص لهم معونة سنوية ، انقطعت بسقوط الدولة العثمانية . [1]

وقد انتشر الإسلام في الصين على نطاق واسع حتى وصل إلى إنشاء مدارس إسلامية وبناء المساجد ، التي يدعون فيها بالعربية للخليفة العثماني السلطان عبد الحميد الثاني وذلك في بكين وغيرها من مساجد الصين ، حتى إنهم أسسوا جامعة إسلامية في بكين أطلقوا عليها " دار العلوم الحميدية " أو " الجامعة الحميدية في بكين ". [2]

---

[1] Ahmed Ucar "Bati , Tatih ve II : Abdulhamid " Tarih Medeniyet Dergisi , Sayi : 40 , Istanbul 1997 , S.33 – 37 ; Ziya Ebuuzziya ," Sultan II. Abdulhamid' in Avrupa' da yasaklattigi piyesler"Turk Edebiyati Dergisi , Nisan 1986 , S . 6 – 11 ; Ziya Ebuzziya – M.Emin Gerger , Ikinci Abdulhamid'in Islami Korumadaki Kudreti , Batida yasaklattigi piyesler , Istanbul 1998 , S . 19 .

[1] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 40 ، 41 .

[2] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 674 .

هذا بخلاف طباعة آلاف النسخ من القرآن الكريم وأمر بتوزيعها في أنحاء العالم الإسلامي ، وأكثر من افتتاح المدارس الدينية في أقاليم الدولة العثمانية . [3]

تماشى كل ذلك مع أهم نقطة ، وهي تشكيل علاقات وطيدة مع أشهر رجالات الدعوة الإسلامية في مختلف بقاع العالم الإسلامي ، أمثال جمال الدين الأفغاني ، والشيخ أبو العهد الرفاعي ، إضافة إلى عدد من أشراف مكة المكرمة ، مثل الحسين بن علي ، وعلي حيدر ، وعبد الإله باشا ، وعهد بمناصب عالية في الدولة إلى كثير من العرب وصلت إلى منصب الوزارة وقيادة الجيش . [4]

وعلى الرغم من الاختلاف الفكري بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغاني [1] ، إلا أنه استفاد منه كثيرًا في الدعاية إلى الجامعة الإسلامية ، حيث أيده جمال الدين الأفغاني وقدم مشروعات للسلطان عبد الحميد الثاني أكثر بكثير من طموحهِ ؛ لأن الأخير لم يكن يأمل في أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الإسلامية ، ووحدة حركة بينهما ، وهي في النهاية وحدة شعورية عملية. في ذات الوقت تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة ، لكن الأفغاني عرض على السلطان مشروعًا يرمي إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة ، ولم تكن نظرة السلطان عبد الحميد الثاني ترمي إلى ذلك ، بل أراد فقط توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار الخارجي . [2]

وهنا يتضح أكثر أن هذا المشروع كان فكرة جمال الدين الأفغاني ، وليس السلطان عبد الحميد الثاني – كما ذكر ديني – حيث أن هدف السلطان عبد الحميد من الجامعة الإسلامية بمنتهى البساطة هو تكوين جبهة صلبة أمام العدو الأوروبي.

وبعد ذلك حدثت الوقيعة بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغاني بوشاية الأعداء – كما أشار الأخير– . [3] لكن بمرور الوقت أنتفضت أوروبا وخاصة بريطانيا خوفًا من نتائج سياسة الجامعة الإسلامية حيث كسب السلطان المشاعر الدينية من مسلمي الدولة العثمانية ومسلمي العالم الذي يخضع أغلبه للنفوذ الاستعماري ، وقد أدَّى تحول مشاعر

---

[3] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 42 .

[4] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 745 .

[1] للتعرف على أوجه الاختلاف بينهم الرجوع إلى علي محمد الصلابي ، مرجع سابق ، ص 660 – 662 .

[2] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 25 . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص660 . أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 20 / 9 Y.EE .

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 20/ 9 Y.EE .

المسلمين إلى الخلافة في إستانبول ، إلى تهديد بريطانيا في الهند ، وفرنسا في المغرب، والوجود النمساوي في ألبانيا ، وروسيا في بلاد التتر والأكراد .

وبما أن منصب الخلافة بيد السلطان عبد الحميد الثاني ، فأصبح هاجسًا وأمرًا مقلقًا بالنسبة لإنجلترا ؛ وذلك لما يتمتع به من نفوذ وسلطة على المسلمين خاصة في الهند ، فبدأت بريطانيا كالعادة بالتحرك لتدارك الأمر قبل وقوع المحظور .

وكانت بريطانيا هي من أفسدت علاقة العرب مع الدولة العثمانية ، وليس الدلال الذي تحدث عنه جان ديني ، عندما لوحوا للشريف حسين بمنصب الخلافة، مقابل أن يخلع ولاءه للدولة العثمانية [1]، ونجحوا – للأسف – في مسعاهم عن طريق جاسوسهم " لورانس " ، لكن النتيجة لم ينل الشريف حسين الخلافة ، ولم يبق عبد الحميد الثاني في الخلافة ، وانتهى الأمر بخسارة المسلمين والقضاء على منصب الخلافة الإسلامية .

لقد نجحت بريطانيا في مسعاها ، حيث رددت إشاعات عن الاستعمار العثماني للبلاد العربية ، وأيدت ببيانات تدعو العرب ليتحدوا ضد العثمانيين ، لدرجة أن وصلت الدعاية إلى المدارس والصحف ، وعلى قدر ما حاول السلطان عبد الحميد الثاني اتخاذ التدابير اللازمة لمنع مثل هذه الدعاية ، كثفت بريطانيا جهودها حتى نجحت ، [2] واستمرارًا لسياسية الجامعة الإسلامية ولدت فكرة خط سكة حديد الحجاز ، وذلك ليتخذه السلطان وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الإسلامية .

ثامنًا : إرجاع فكرة خط سكة حديد الحجاز لشخص لا علاقة له بالأمر . فقال :

" ومن الأمور العجيبة أن " فامبري " الأرمني المتترك الذي كان من يهود المجر ، ومن أكبر مشجعي عبد الحميد الثاني على هذه الاتجاهات ، وأسفرت ميوله الطيبة نحو العرب عن نتيجة محمودة واحدة فقط ، تلك هي أنها حفزه على إنشاء سكة حديد الحجاز التي تصل إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ". [3]

حاول هنا ديني نسبة فكرة سكة حديد الحجاز لليهودي فامبري وأعتبره صديق مقرب للسلطان عبد الحميد الثاني . وهو أمر بعيد فمنذ متى كان اليهود أصدقاء للسلطان عبد الحميد

---

[1] عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ص 170 ، 171 . عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة: محمد حرب ، ص 24

[2] عمر فاروق يلمظ : التاريخ العثماني الموثق ، ص 194 ، 195 .

[3] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7117 .

الثاني وهم ألد أعدائه ؟! ولا شك أن معلومة ديني هذه مقدمة لقراء لا يعرفون شيئًا عن التاريخ العثماني ، فأبجديات التاريخ العثماني توضح موقف السلطان عبد الحميد الثاني العدائي من الصهيونية ، كما لم يعط ديني دليلاً على قولهِ ، إن كل ما في الأمر أن اليهودي " أرمينوس فامبري" رئيس جامعة بودابست قد زار إستانبول عام 1308هـ/ 1890م وقابل السلطان عبد الحميد الثاني ، وأعجب بشخصيته ومدحهُ،[4] فاعتبر ديني هذا الأمر صداقة وتبادلاً للآراء ، وجزم من محض خيالهُ أنها فكرة فامبري ؛ وذلك رغبة منه في نفي فائدة وبراعة هذه الفكرة عن السلطان عبد الحميد ونسبها لشخص آخر ، لمجرد التهوين من أمر السلطان عبد الحميد الثاني .

لقد قصد السلطان عبد الحميد الثاني من إتمام هذا الخط تقوية الرابطة بين المسلمين ، وتقديم الخدمات لهم . [1]

وهو يعد استمرارًا لسياسة الجامعة الإسلامية حيث قام عزت باشا العابد [2] بدور بارز في مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة ، وعدَّ السلطان عبد الحميد الثاني المشروع من الوسائل التي أدت إلى إعلاء شأن الخلافة ، وساعدت على نشر فكرة الجامعة الإسلامية ، حيث بدأ تنفيذ هذا المشروع في عام 1319هـ / 1901م وانتهى في منتصف عام 1326هـ / 1908م وقد ربط إستانبول بالمدينة المنورة مخترقًا سوريا من الشمال إلى الجنوب، واستهدف السلطان عبد الحميد الثاني من وراء هذا المشروع تحقيق عدة أهداف هي :

١) ربط أجزاء الدولة العثمانية المتباعدة ، مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية تحت مظلة الجامعة الإسلامية .

٢) إجبار الولايات على الاندماج في الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التي تنص على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

---

[4] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 156 .

[1] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص 24 ، 25 .

[2] استقطب السلطان عبد الحميد الثاني عدد من العرب حوله من ضمنهم عزت باشا العابد عينه في عدة مناصب عليا ، ونال حظوة عند السلطان وهو من أهالي الشام ، وأصبح مستشاره في الشؤون العربية . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 676 .

٣) تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في آية جبهة من الجبهات التي تتعرض للهجوم ؛ لأن مد الخطوط الحديدية يساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وإيصالها إلى الجبهات.

٤) خفض المدة الزمنية للمسافرين والحجاج والتي تستغرقها رحلة القوافل برًا أو بحرًا إلى أكثر من النصف ، لذلك فإن خط سكة حديد الحجاز يحقق خدمة حجاج بيت الله الحرام ويسهل وصولهم إلى مكة والمدينة .

٥) خلق المشروع في أنحاء العالم الإسلامي حماسة دينية كبيرة ، وجوًا من العطف والصداقة مع دولة الخلافة . [1]

إن لنجاح خط سكة حديد الحجاز – بلا شك – آثار إيجابية مما جعل أعداء الدولة العثمانية يملء صدورهم الحقد ، سواء إنجلترا أم اليهود ، وبالتالي سعت جميع الأطراف لإعاقة هذا المشروع ، والعمل على تعطيله ، حتى لا يحقق أهدافه، فنجد بريطانيا تسرع في الضغط على مسألة الخلافة مع الشريف حسين ، وفي ذات الوقت تدعم الأعمال التخريبية لنسف هذا الخط .

أما عن المبالغ التي صُرفت عليه فلم تكن كما ذكر ديني : ***" المبالغ التي صرفت على مدّه ، فقد جمعت كلها من المسلمين ومن دخول " طابع الجهاز" .*** [2]

بالفعل قام هذا المشروع على تبرعات المسلمين ، وأولهم السلطان عبد الحميد الثاني الذي افتتح قائمة التبرعات بشراء عدد كبير من الأسهم من جيبه الخاص ، والتي أصدرتها الدولة العثمانية بقصد جمع أموال لهذا المشروع ، [3] ثم تم دفع مبلغ " مائة ألف ذهبًا عثمانيًا " من صندوق المنافع ، وبدأ تسابق المسلمين على إرسال التبرعات حتى وصلت لأكثر من ثلث مبلغ تكلفة البناء ، كما كان للشخصيات المهمة دور فعال في التبرع ، حتى موظفين الشركات قدموا تبرعات كل على حسب مقدرتهِ ، مثل ما تبرع به موظفو شركة البواخر العثمانية ، وموظفو الولايات ، كما شارك القصر الحاكم في مصر بإرسال التبرعات لهذا المشروع، وألفت لجنة خاصة بهذا الأمر ، ولم يتوقف الأمر على البلاد العربية ، بل تعداه

---

[1] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص 676 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 43 . عمر فاروق يلمظ : السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ص 218 .

[2] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، ج23 ، ص 7117 .

[3] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب : ص 229 .

إلى إيران حيث تبرع شاه إيران بمبلغ ضخم ، وتبرع أمير حيدر آباد بالهند بمبلغ مالي كبير خصص فقط لإنشاء محطة المدينة المنورة . [4]

إن هذه التبرعات تدل على مدى عمق الشعور الإسلامي الذي عم العالم الإسلامي زمن السلطان عبد الحميد الثاني ،كما تدل على مدى أهمية مثل هذا المشروع الذي لم تسمح بريطانيا بإكماله ، وكالعادة دمرتهُ ولم يعد يعمل في يومنا هذا .

وقد أولت نظارة المالية اهتمامًا خاصًا بميزانية هذا المشروع ، حيث صدرت أوامر من السلطان عبد الحميد الثاني بتشكيل لجنة خاصة ، مهمتها الإشراف المالي ومراجعة الحسابات الخاصة به ، وذلك ليتم المشروع على أكمل وجه ، وكان أول أعمال هذه اللجنة زيادة رواتب العاملين في هذا المشروع تيمناً واستبشارًا بافتتاحهِ ، وتم ضبط الرواتب في سجل الرواتب السلطانية ، لتثبيتها.[1]

ولا شك أن هذا الأمر قد ترك أثرًا طيبًا على أهالي الحجاز والعاملين في مد خط سكة حديد الحجاز وعلى المسلمين عامة ، وأظهر مدى ترابطهم وقوتهم .

تاسعًا:مناقشة قضية الأرمن والاعتراف بدور الصحافة في تشويه صورتهِ. فقال:

" لقد اتهمت الصحافة الأوروبية وراسامو الكاريكاتير الأوربيون السلطان عبد الحميد بالتعصب الأعمى ونعتوه بالسلطان الأحمر بسبب ما نسبوه إليه من العنف والقسوة في إخضاع الثورات ، وما أتهموه به من تدبير المجازر الدموية التي جرت في مقدونيا وكريت وأخصها ما كان في أرمينية عام 1894م – 1895م ، وفي الهجوم على البنك العثماني سنة 1896م ، على أن أقل ما يمكن أن يقال في الدفاع عنه – في هذا الصدد – إنه لم يتخذ أي إجراء لوقف هذه المذابح الفظيعة ". [2]

لا شك أن ديني قد اعترف في البداية بحقيقة مهمة ، وأصاب من ذكرها ، وهي أن الصحافة الأوروبية أسهمت بشكل كبير في إشعال نار الفتنة ضد العثمانيين ، تارة بالمقالات التي كانت تنشرها ، وتارة بالرسوم الهزلية التي كانت تسعى لتشويه صورة السلطان عبد الحميد الثاني ، ومن أبرز الألقاب التي نعتوه بها لقب " السلطان الأحمر " .

---

[4] محمد علي الصلابي : مرجع سابق ، ص 677 ، 678 .

[1] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 204/35 Y.MTV .

[2] جان ديني : مادة عبد الحميد الثاني ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج23 ، ص 7118 .

وقد أطلق الأرمن هذا اللقب على السلطان إشارة إلى أنه كان يستخدم أسلوب العنف والقسوة في إخماد التمردات. [3]

وقد التصقت به هذه التهمة على مدى سنوات طويلة ، حتى بعد وفاتهِ وسقوط الدولة العثمانية ، وأصبحت بالنسبة لكثيرين حقيقة لا يرتقي إليها الشك أبدًا ولا تقبل النقاش .

وعلى الرغم من ظهور مذكراته الشخصية ، ووثائق حديثة ، ومذكرات شخصية لأُناسٍ عاشوا وعاصروا فترة حكمهِ ، وأزالت ذلك الكم الكبير من التشويه والافتراء وأوضحت حقائق لم تكن معروفة من قبل ، [1] إلا أن التهمة لا تزال ملتصقة به في أذهان بعضهم . .

وربما كانت صفة الرحمة الزائدة التي أتصف بها ، من أبرز نقاط ضعفهِ التي أدت في نهاية الأمر إلى عزلهِ ، يكفي أنه كان يخفف أحكام الإعدام إلى السجن المؤبد ، أو السجن لمدة عشرين عامًا ، وفي الحالات القصوى يتم نفيهُ إلى خارج إستانبول ، وهذه الأحكام مثبتة في الوثائق الموجودة منذ عهدهِ [2] ، فليس هناك حجة لعدم الاطلاع عليها .

حتى أكثر الرجال عداوة للسلطان عبد الحميد الثاني وهم رجال الاتحاد والترقي ، عندما ثبت تآمرهم على الدولة أكثر من مرة وألقي القبض عليهم ، وقدموا للمحاكمة العسكرية، صدرت بحقهم أحكامٌ مختلفة بالسجن فقط ! ثم لم يلبث أن عفى عنهم السلطان " الأحمر " كما يزعمون ، وعندما ألقي القبض عليهم مرة أخرى في 1313هـ / 1895م متلبسين – مرة أخرى – بمؤامرة واضحة لحركة انقلاب، ماذا فعل السلطان الأحمر القاسي القلب المتسلط المستبد ، اكتفى بنفي بعضهم وتبديل وظائف جماعة أخرى ، ولم يعدم أحدًا منهم . [3]

فإذا كان مستبدًا ومتعطشًا للقتل ، لماذا لم يقم بإعدامهم فوراً ؟! ، لكنَّ الحقيقة التي أخفاها المستشرقون أنَّه لا وجود لتلك الصفات القاسية ، وإنما هي تهم وأكاذيب أطلقها المستشرقون نتيجة للحقد الأعمى الذي سكن قلوبهم فجعلهم يفسرون الأحداث والأفعال وكأنها لرئيس إقطاع أوروبي ، يعاقب بعضًا من عبيدهِ.

---

[3] سعيد عبدالكريم زيد : مرجع سابق ، ص 163 .

[1] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 152 .

[2] سعيد عبد الكريم زيد : مرجع سابق ، ص 163 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 152 ، 153 .

[3] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 153 ، 154 .

وخير دليل على رحمة السلطان عبد الحميد الثاني وعطفه وطيبة قلبه ، أنه لم ينفذ حكم الإعدام في مدحت باشا – كما سبق وأن ذكرت – .

وقد ذكر أحد الأشخاص كان يعمل كاتبًا في قصر يلدز – وهو رشيد بك – أنه أثناء فترة عملهِ التي امتدت أربعة عشر عامًا في وظيفة الكتابة في القصر صدر ما يجاوز المئة حكم بالإعدام لأشخاص ارتكبوا أعمال إجرامية ، لكن السلطان عبد الحميد كان دائمًا ما يستبدلها بسجن مؤبد لمدة 20 عامًا . وهذا مثبت في الوثائق الرسمية . [4]

إن هذه المسألة تعيدنا مرة أخرى إلى تصدر الصحافة الأوروبية للحملة الشعواء على السلطان عبد الحميد الثاني ، فقد كانت تهاجمه بشكل دائم وتحرض الرأي العام ضده ، حتى غدت المسألة الأرمينية من المسائل التي تشغل الرأي العام العالمي . [1]

والحقيقة أنه لم يكن هناك مشكلة مطلقًا من ناحية الأرمن ، حيث شكلوا نسبة 5% من سكان الأناضول ، وكانوا من رعايا الدولة العثمانية ، الأرثوذكس ، والكاثوليك ، وقد وصفهم السلطان عبد الحميد بأنهم أفضل من يبنون الدولة العثمانية ويدعمون وحدتها بكل ما تحويه من عناصر وأعراق مختلفة ، وخير من يمثلها حيث إنهم خدموا حضارة الدولة العثمانية وحافظوا على الدولة ، وقد شغلوا عدة مناصب مهمة حتى وصلوا إلى نظارة الخارجية ، وظهر بينهم عثمانيون متميزون بخدماتهم مثل الأطباء ، وحملوا التراث التركي في طيات حياتهم وكانوا خير أصدقا للسلطان ولم تكن للأرمن أي شكوى من العثمانيين . [2]

لكن للأسف لم تترك الدول المعادية للدولة العثمانية هذه العلاقات الطيبة ، فبدأت في توريط تورط الأرمن في حركات عصيان بدعم خارجي ، وخاصة من قبل إنجلترا وروسيا اللتين عرفتا بعدائهما الشديد للأتراك والمسلمين وكانتا –دائمًا– تسعيان لتمزيق الدولة العثمانية ووحدتها ، وفي إطار هذا الأمر فقد خشيت بريطانيا بصفة خاصة من سياسة السلطان عبد الحميد الثاني التي تهدف إلى تحقيق الوحدة الإسلامية بين مسلمي العالم ، وقد أدركوا أن هذه الوحدة هي عبارة عن وحدة معنوية ، وأكبر وأقوى من القوة المادية ، فقاموا بتمزيق هذه القوى الكبرى بكسر نفوذ السلطان بشتى الوسائل ، حيث حرضوا الصحافة الأوروبية

---

[4] مرجع سابق ، ص 153 ، 154 .

[1] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب ، ص128 .

[2] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 123 ، 124 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص240 ، 241 .

والتركية ضد السلطان عبد الحميد الثاني ، وبدأوا في تحريض الأرمن القاطنين في شرق الأناضول وأعطتهم بريطانيا الدعم اللازم ، مما ولد في نفسهم الجرأة لقتل المسلمين والتعدي عليهم وإعلان الثورة والتمرد على السلطان عبد الحميد الثاني .

وبدعم بريطانيا قام الأرمن بمحاولة اغتيال للسلطان عبد الحميد ، حيث استطاعوا تفجير قنبلة أمام جامع يلديز في 17 جمادى الأولى 1323هـ / 21 يوليه 1905م ، وذلك أثناء خروج السلطان من صلاة الجمعة ، وقد نجا منها السلطان، لكن توفي فيها 26 مواطناً ، وجرح 58 شخصًا . [3]

أما عن روسيا فإن آمالها عريضة جدًا في انتزاع أراضي من الدولة العثمانية ، فقد بدأوا في إرسال جواسيس لهم بصحبة قساوستهم ومعلميهم إلى الأرمن، وبدأ هؤلاء يثيرون الفتنة ويألبون الأرمن ضد الدولة العثمانية، فضلاً عن تأثير المنصرين البروتستانت والأرثوذكس الذين استفزوا المسلمين بأعمالهم.[1]

ولم ترد عليهم الدولة العثمانية – للأسف – على اعتبار أنهم رجال دين .

في الوقت نفسه بدأت فرنسا تعمل بدورها على إثارة الأرمن على الدولة العثمانية ، فأرسلت " بييركيار " إلى إستانبول عام 1311هـ / 1893م للعمل في مدارس الأرمن مدرسًا، والذي بدوره بدأ يلقي دروسًا في الفلسفة وتاريخ الأدب ، ونجح نجاحًا باهرًا في تلقين أطفال الأرمن الأفكار الثورية ، وقد اشتبه فيه رجال الأمن وقبضوا عليه ، لكن السفارة الفرنسية تدخلت وأخلى السلطان عبد الحميد الثاني سبيله ، وغادر بعدها إستانبول بعد ما أتم مهمتهِ . [2]

وبدأت هذه المدارس تطبق ما لقنها ببير كيار من أفكار ثورية وتمردية ، فحاولت الدولة العثمانية إغلاق هذه المدارس الأرمينية التي تدعو إلى الثورة ، فثار الأرمن وطالبوا بعدم إغلاقها وذهبوا إلى إستانبول لمناقشة الأمر ، في تلك الأثناء كانت روسيا بدأت تقوم بدورها في الأحداث حيث استغلت خلو جبهة القفقاس من الحامية العثمانية عام 1310هـ / 1892م وبدأت تسرب الأسلحة للأرمن مشجعة لهم على الثورة ، حتى شكلوا عصابات في ساسون سنجق موش في ولاية تبليس ، وأخذت هذه العصابات تُغير على القرى والقصبات

---

[3] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 123 ، 124 .

[1] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 124 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 55 .

[2] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 121 .

المسلمة ، وينتهكون الحرمات وينفذون مذابح مروعة في المسلمين ، لا يفرقون بين أطفال ونساء وشيوخ ، فارتكبوا مذابح شنيعة اتسمت بالتعذيب للمسلمين وحرقهم وهم أحياء ، وفي الوقت نفسه امتنعوا عن دفع الضرائب ، وبالتالي وصلت هذه الأخبار إلى الدولة العثمانية ، والغريب في الأمر أن الصحافة لم تكتب عنهم أبدًا ، ولم تذكر كيف أنهم ذبحوا المسلمين ، واستحلوا حرماتهم ، وكأن الأمر طبيعي أن يحدث ، بل من المفروض أن يكون كذلك ، وقد أرسل السلطان عبد الحميد الثاني جيشاً لإخماد هذا التمرد وتأديبهم ، وقد حدث أن ذهل الجيش الروسي من شناعة المذابح التي ارتكبوها في حق المسلمين لدرجة أن طالبهم بعض الضباط الروس وقف هذه المذابح ضد المسلمين ، ولم يستطيعوا البقاء في تلك المناطق لرؤية هذه المذابح وخرج الجيش الروسي منها بعد أن دخلها وسلمها للأرمن . [1]

وهنا قامت الصحافة ولم تهدأ ، فبدأت رحلتها في تشويه وتضخيم عمل الحملة العثمانية التي ذهبت لإخماد الثورة الأرمينية ، وقلبت صورة المذابح الدموية على العثمانيين ، وبدأت تروج أنهم هم من قام بها ، بل وصدقوا أنفسهم ، فبدأت أوروبا تطالب الدولة العثمانية بمنح الأرمن الحكم الذاتي . وبدأ بييركيار بالترويج لقضية الأرمن والمذابح التي يعانون منها، حتى إنه عمل مراسلاً إخباريًا صحفيًا لصحيفة إيللو ستراسيون لنقل أحداث الذبح الدموية .[2]

ومن الصحف التي ترأست نشر أخبار الأرمن صحيفة ديلي نيوز news daily ، والتي نشرت كثيرًا من المقالات توضح مدى قسوة الدولة العثمانية في إخماد حركات التمرد الأرمينية ، وكانت سفارة الدولة العثمانية تراسل نظارة الخارجية دائماً بهذه الأخبار . [3]

إن الأرمن الذين كانوا يعيشون في أقليم القفقاس أستاءوا كثيرًا من أعمال إخوانهم في إقليم القفقاس ؛ لأنه لم يكن لهم علاقة بالأمر ، فالجمعيات الثورية التي أسست في الخارج وأولها في باريس ، ومنظمة ثورية أخرى في أثينا هي من قادت هذه المذابح ، وفي هذا دليل قوي على أن حركة الأرمن كانت بدعم خارجي، ومارست هذه الجمعيات ضغوطًا قوية على جميع الأرمن حتى يندرجوا تحت لواء الثورة.[4]

---

[1] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص 240 ، 2412 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص55 .

[2] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، 122 .

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة 116 / 261 YA – HUS نظارة الخارجية تلغراف رقم 131 بتاريخ 7 يونيه 1892م .

[4] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص125 ، 126 . محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 56 .

ومما يزيد من صقل المعلومة السابقة ، هو أن الأرمن ارتدوا زي الأتراك، وراحوا يقتلون الأرمن الذين يحجمون عن تقديم المساعدة لهم ؛ حتى يثبتوا التهمة على العثمانيين ، وكانوا حريصين على مداومة إثارتهم حتى يصلوا إلى مبتغاهم[5].

وطبعًا لم يفت اليهود أن يخوضوا في إثارة الأرمن ضد الدولة العثمانية ، حيث شجع اليهود والصهيونية الأرمن على الإتصال ببعض الدول الأوروبية لتأمين صلات تجارية معهم، وفي الوقت نفسه يرسلون إلى السلطان عبد الحميد الثاني رسائل ووشايات بتحركات الأرمن ضد الدولة العثمانية ، حتى يتخلصوا من أرمن إستانبول ؛ لأنهم كانوا يعملون في الاقتصاد واليهود يريدون السيطرة على هذا المورد المهم ، لذلك سعوا خلف تحريض الدولة العثمانية ضدهم ، وما أن بدأت مجازر الأرمن ضد المسلمين ، حتى وجهوا الصحافة ووسائل الإعلام لتشويه صورة السلطان عبد الحميد وتصويره بمضطهد الأقليات الدينية ، لكن السلطان عبد الحميد الثاني كان أذكى منهم ، وأصدر تشريعات تنظم وتحفظ حقوق الأقليات الدينية ، لكن مسلسل مهاجمة الصحف الأوروبية استمر دون توقف . [1]

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل استمرت استفزازات الأرمن ، في سبيل تحقيق الحكم الذاتي لأنفسهم ، على الرغم من انقسامهم هم أنفسهم إلى أرثوذكس وبروتستانت وكاثوليك والصراع بينهم لا زال قائمًا ، لذلك لم يستطيعوا مطلقاً الاستقلال وتأسيس دولة [2].

أما بالنسبة لمسألة الهجوم على البنك العثماني فإن الأرمن قاموا بهذا العمل في إطار التمرد والفتن التي بدأوها ، حيث استولت جماعة من الأرمن في 10 ربيع الأول 1314هـ / 20 أغسطس 1896م على البنك العثماني في حي جالاطة في إستانبول ، وقد ألقيت قنابل في الشوارع العامة ، في محاولة منهم لشد انتباه الدول الأوروبية إلى قضية الأرمن ، وتسبب ذلك في حدوث ردة فعل عنيفة عند العثمانيين ، فعمت المذابح شوارع إستانبول ، [3] وكان هذا نتيجة طبيعية لأعمال الأرمن في العاصمة العثمانية .

---

[5] عبد الحميد الثاني : مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني ، ترجمة : محمد حرب ، ص 126 .

[1] محمد سرحان : مرجع سابق ، ص 22 .

[2] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 56 .

[3] محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ط1 ، القاهرة ، 1396هـ / 1976م ، ص 302 .

وأخيرًا صدق ديني عندما أورد أن السلطان لم يقم بعمل لمنع هذه المذابح ؛ لأنه لم تكن هناك مذابح ضد الأرمن ، وإنما المذابح كانت ضد المسلمين ، الذين دفعوا حياتهم ثمن تأخر ردة فعل السلطان عبد الحميد على المذابح التي ارتكبت في حقهم بعد أن كانوا آمنين في قراهم .

وللأسف كان السلطان عبد الحميد الثاني آخر الخلفاء العثمانيين العظماء ، حيث لفظت الدولة العثمانية أنفاسها الأخيرة بعده بقليل ، ولم يتمتع أي واحد من خلفائهِ بنصف ذكائهِ وشجاعتهِ وقوتهِ .

وبهذا انتهت سلطنة عبد الحميد الثاني التي دامت ثلاثة وثلاثين عاماً ، حيث نفي مع بقية أفراد أسرته وبعض مرافقيه إلى سالونيك في قصر أحد اليهود ، وأقام هنالك تحت رقابة شديدة وصارمة من الاتحاديين ثم جئ به إلى إستانبول في سنة 1912م ، حيث عاش تحت الإقامة الجبرية في قصر بكلربكي الكائن في الجانب الآسيوي من مضيق البسفور ، ومنع الاتصال به بل وحجبوا عنه أولاده وأخضعوه لرقابة شديدة ، وأخيرًا سمح له بمقابلة أفراد عائلته ، بناته وأولاده وأحفاده مرة كل سنة في عيد الأضحى من الساعة الواحدة حتى الساعة الرابعة . وحين اشتد عليه المرض – وكان يشكو من ضيق التنفس واختناق – سُمح لأفراد عائلته بإلقاء النظرة الأخيرة عليه ، ووافاه الأجل المحتوم يوم الأحد 29 ربيع الآخر 1336هـ / 10 فبراير 1918م ، وهو في الرابعة والسبعين من العمر ، ودفن داخل ضريح جده السلطان محمود الثاني الواقع في منطقة جمبرلي طاش بإستانبول . [1]

كان السلطان عبد الحميد الثاني حاكمًا مسلمًا تربى على الثقافةِ الإسلامية، ولم يكن ضد التقدم وإنما كان معتدلاً في تطبيق العلوم التقنية والصناعات الأوروبية والعلوم الحديثة ، وقد أكد دائمًا على أن عدم الأخذ بالجديد في العلوم من أسباب تأخر الدولة العثمانية ، واقتنع بضرورة تحديث الدولة العثمانية عن طريق التعليم ، حيث طوَّر المدارس وأرسل البعثات للدراسة في الخارج ، في الوقت نفسه وقف بالمرصاد للأطماع الصهيونية . [2] لقد كان بحق سلطانًا جاء في غير زمانهِ .

---

[1] محمد مصطفى الهلالي : مرجع سابق ، ص 235 ، 236 .
Omer Faruk Yilmaz , Belgelerle Osmanli Tarihi , IV , Istanbul 2000 , S . 236 .

[2] هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ص 169 .

وأفضل من تولى بعدهِ كان السلطان محمد السادس " وحيد الدين " الذي تولى عام 1337هـ / 1918م وهو آخر سلاطين آل عثمان ،حمل لقب "سلطان " ولقب " خليفة " في آنٍ واحد.

وقد خاض الأخير صراعًا مريرًا مع الكماليين حاول أثناءه إثبات سلطتهِ على البلاد والتمسك بحُكم أجداده ، لكن حكومة أنقرة كانت قد خططت لعزلهِ منذ توليهِ السلطنة ؛ وذلك لأنه رفض أن يكون ملكًا رمزيًا فقط لا علاقة له بالحكم .

لقد وقفت أوروبا خلف مصطفى كمال أتاتورك [1]حتى وصل إلى رأس حكومة أنقرة، ثم بدأت في وضع اللمسات الأخيرة لنجاح هدفها ، وهو إقصاء آل عثمان عن إستانبول ، وإنهاء وجود الدولة العثمانية ، فدعت إلى عقد مؤتمر لوزان عام 1340هـ / 1922م من أجل معاهدة الصلح ، وهنا رأى أتاتورك أن الوقت قد حان لإعلان فصل السلطة عن الخلافة، ولما لم يوافقه المجلس على ذلك في أنقرة ، أذاع أن الموافقة بالإجماع من تلقاء نفسهِ ، وهدد بقتل من يعلن رفضه ، وهكذا أعلن فصل السلطة عن الخلافة ، وصار منصب الخليفة العثماني مجرد صورة شكلية ليس له أي حق في ممارسة سلطة شرعية ، وكان ذلك في 11 ربيع الأول 1330هـ / 18 نوفمبر 1922م ، وبعد هذا التاريخ بخمسة أيام جرى انقلاب إستانبول الذي عُزل على إثرهِ السلطان محمد وحيد الدين ، ونفي إلى جزيرة مالطة ، ونودي بابن عمه عبد المجيد خليفة للمسلمين .[2]

هذه هي الصورة الحقيقية للأحداث في إستانبول عندما تولى آخر خليفة عثماني عرش السلطنة العثمانية .

أمّا الخليفة عبد المجيد الثاني فجاءت مادته قصيرة جدًا ولم تحوِ الكثير من الأحداث المهمة في حياتهِ ، وإنما تحدثت عن دور كمال أتاتورك في إعلان جمهورية تركيا الحديثة وكأنها مادتهُ ، فضلاً عن أنها لم تذكر موقفهُ من الأحداث الجارية حوله ، وكان يفترض

---

[1] مصطفى كمال أتاتورك : من مواليد سالونيك عاش ما بين 1299هـ – 1357هـ / 1881م – 1938م ، لقب نفسهِ بأتاتورك أي أبو الأتراك ، كثرت الشكوك حول نسبهِ ، حيث ثبت أنه ابن غير شرعي للسيدة زبيده من نساء سالونيك التي عرفت بسوء سيرتها ، وهو من يهود الدونمة ، عمل بالجيش وتدرج في مناصبه ، واتصل بالإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ حتى يمهدوا له الطريق للسيطرة على الحكومة ، فمثلت معه بريطانيا مسرحية أنها هزمت أمامه مرتين حتى كسب الرأي العام ، واحبه الشعب واعتبروه المخلص لهم من الاحتلال الأجنبي ، ثم انتخبتهُ الجمعية الوطنية الكبرى رئيسًا شرعيًا للحكومة ، فألغى الخلافة الإسلامية العثمانية ، وأعلن قيام تركيا الحديثة ، انظر : علي حسون ، مرجع سابق ، ص 251 – 254 .

[2] إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص 228 – 230 . عبد الفتاح أبو عليه : مرجع سابق ، ص 417 – 421 .

بالمادة أن تتناول جميع مراحل حياته ، ولكنها ركزت فقط على الفترة القصيرة التي بقي فيها على كرسي العرش ، ولم تأتِ على ذكر باقي أحداث حياته بعد النفي وكأنها ليست جزءًا منه، واكتفت بذكر تاريخ وفاته الذي كان بعد 20 عامًا من عزلهِ ، ولم يهتم المستشرق الذي قدم المادة بذكر أحداث حياته في المنفى .

كما أن المادة مؤلفها مجهول ، مع أن الدراسة ترجح أنه المستشرق جان ديني على اعتبار أنه كاتب مادة السلطان عبد المجيد الأول وغالبًا – في الدائرة – ما يتناول المستشرق الواحد السلاطين متشابهي الأسماء .

وأخيرًا فأن المادة لم ترجع لأي مصدر أو مرجع تاريخي يتناول تاريخ الدولة العثمانية أو سيرة سلاطينها ، وإنما عادت – كما دأب المستشرقون – إلى مراجع تختص بمصطفى كمال أتاتورك .

والحقيقة أن قصر المادة وعدم ذكر أحداث حياته كاملة ، بالإضافة إلى عدم الرجوع إلى مراجع مختصة ، تحقير لشأن آخر خليفة عثماني وعدم إلقاء الضوء عليه ، وإظهار مصطفى كمال أتاتورك بمظهر البطل الذي أنقذ تركيا.

أما المواقع التي نقضت فيه الدراسة مادة عبد المجيد الثاني فهو :

أولاً : تصوير المسلمين حوله بالمنافسين . [1]

ثانيًا : ذكر أحداث خيالية لم تحدث ، وهي أن الخليفة غادر إستانبول على متن سفينة حربية بريطانية [2].

الخليفة عبد المجيد بن عبد العزيز بن محمود الثاني ، ولد في إستانبول عام 1283هـ / 1866م ، بويع بالخلافة وهو في سن سبعة وخمسين عامًا [3] ، وهو آخر خليفة عثماني وبخروجه انتهى حكم آل عثمان .

تسلم دفة الحكم بعد تنازل محمد وحيد الدين ونفيه ، وقد تميز عهده بازدياد نجم مصطفى كمال أتاتورك الذي هيمن على مقدرات الدولة تماماً . [4]

---

[1] J.Deny : ABD AL- MADJID II , The Encyclopaedia of Islam , Volumei , Leiden , London , 1960, P.75 .

[2] J.Deny : ABD AL- MADJID II , The Encyclopaedia of Islam , Volumei , Leiden , London , 1960, P.75 .

[3] محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 314 .

[4] عدنان عطار : مرجع سابق ، ص 177 .

كان رجلاً مهذبًا ومثقفًا ، جُرد من كل سلطة حقيقية ، لكن كان على يقين تام بأمان مصيره ، حيث كان مطمئناً أن الخلافة ليست في خطر محدق ، معتمدًا في ذلك على تأييد العالم الإسلامي للخلافة العثمانية من جهة ، ومن ألتفَّ حولهِ من الوطنيين والمسلمين من جهة أخرى . [1]

ولنلقي نظرة على المواد التي تم نقضها :

أولاً : تصوير المسلمين الملتفين حولهِ بالمنافسين . جاء في الدائرة :

" خلال بعض الأشهر التالية التفَّ كل المنافسين للحكومة والتي أنشئت بطريقة عادلة ، بدأت في أنقرة على يد مصطفى كمال أتاتورك حول الخليفة عبد المجيد الثاني الذي في الواقع لم يكن له أي سلطة فعلية " . [2]

تسلم عبد المجيد الثاني الخلافة بعد إلغاء السلطنة مباشرة ، وجُرد الخليفة من السلطات السياسية كافة .

والواقع أن حكومة إستانبول " الدولة العثمانية " لم يعد لها وجود ، وأصبحت المدينة بيد الحلفاء وهم يظهرون حيادهم التام ، وقد ظهر نجم مصطفى كمال ولمع وكأنه بطل شعبي سينقذ البلاد من الاحتلال الأجنبي ، في الوقت نفسه كانت الجمعية الوطنية قد أبقت على الخلافة لأن الاتجاه السائد هو الاحتفاظ بالخلافة في محاولة لتهدئة معارضة الفئات الدينية للتغيرات السياسية التي أدخلتها حكومة أنقرة ، وعلى الرغم من أن الخليفة عبد المجيد الثاني لم يحاول أن يمارس السلطة السياسية بشكل جدي ، لكن سرعان ما اقتنع مصطفى كمال أن بقاء زعيم ديني يلتف حوله المسلمين والفئات الدينية سيشكل له منافسة حقيقية تكون نقطة التقاء لجميع هذه الفئات ، وربما تعصف بالمكانة التي حققها في أنظار الشعب التركي ، وتحيي مركز الخلافة الروحي الإسلامي .

ومما ساعد على تقوية مركز مصطفى كمال أنه بعد ثلاثة أيام من تولية الخليفة عبد المجيد الثاني الخلافة عقد مؤتمر " لوزان " وحضره وفد أنقرة فقط ، ووضع رئيس الوفد الإنجليزي " كرزون " أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا، وهي :

---

[1] نجدة فتحي صفوة : مراسل " التايمز " في إستانبول يصف مغادرة أحد الخلفاء العثمانيين عاصمته ، تاريخ العرب والعالم ، السنة 21 ، العدد 193 ، جماد الآخر – رجب 1422هـ / سبتمبر – أكتوبر 2001م ، دار النشر العربية للدراسات والتوثيق ، لبنان ، ص80 .

[2] J.Deny : ABD AL- MADJID II , The Encyclopaedia of Islam , Volumei , Leiden , London , 1960, P.75 .

١) إلغاء الخلافة الإسلامية .

٢) طرد الخليفة من بني عثمان خارج الحدود .

٣) إعلان علمانية الدولة .

٤) مصادرة أملاك وأموال بني عثمان .

ورفض " عصمت إينونو" [1] رئيس الوفد التركي هذه المطالب وعاد إلى بلادهِ ، لكن موقف كمال أتاتورك أختلف وقرر تنفيذ مقررات مؤتمر " لوزان " ، حيث بدأت المؤامرات والدسائس ، وأُحلت الجمعية الوطنية التي كانت ضد تصرفات مصطفى كمال ، ومارس الأخير الضغط وسياسة القتل للمعارضين ، وتم التوقيع على معاهدة " لوزان" عام 1342هـ / 1923م التي نصت على عودة السيادة التركية على كل الأراضي التي تشمل تركيا الحالية وأُلغيت الإمتيازات الأجنبية .

ونتيجة لذلك انسحبت قوات الحلفاء ودخلت القوات التركية إستانبول ، ودُعي المجلس الوطني لعقد جلستهِ ، وتقرر أن تكون أنقرة عاصمة للدولة بدلاً من إستانبول ، وصدر – أيضًا – قرار إعلان تركية دولة جمهورية برئاسة مصطفى كمال أتاتورك ، ثم تبعه بقرار إلغاء الخلافة العثمانية عام 1343هـ / 1924م ، وأمُر الخليفة عبد المجيد الثاني بمغادرة البلاد وإعلان علمانية البلاد ، وأصدر أيضًا أمرًا بإلغاء الوظائف الدينية ، وامتلاك الدولة للأوقاف ، وهكذا نفذ أتاتورك كل مطالب مؤتمر " لوزان " لتحقيق مصالحهُ الشخصية [2] .

لقد استطاع أتاتورك قلب صفحة الدولة العثمانية ومسحها من على الخريطة السياسية بعد أن عاشت أكثر من 600 سنة تقدم للإسلام كل الحماية .

---

[1] عصمت إينونو : 1301هـ – 1392هـ / 1884م – 1972م ، عسكري وسياسي تركي ، تولى رئاسة أركان حرب الجيش التركي ، ثم تولى رئاسة الوزراء ، وخلف أتاتورك في رئاسة جمهورية تركيا الحديثة عام 1357هـ / 1938م ، سار على خطى سلفه ، لكنه سمح بإنشاء حزب معارض وهو الحزب الديمقراطي ، الذي فاز في الانتخابات الرئاسية ، مما حمل إينونو على الاستقالة عام 1369هـ / 1950م . انظر أحمد عبد الله الزغبي : مرجع سابق ، ج3 ، ص258 .

[2] إسماعيل أحمد ياغي : مرجع سابق ، ص 231 . محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 312 . عبد الفاتح أبو عليه : مرجع سابق، ص 421 ، 422 . أحمد عبد الله الزغيبي : مرجع سابق ، ج3 ، 256 ، 257 .

ثم أين الحكومة التي أنشئت بطريقة عادلة ، أليست هي الحكومة نفسها التي أخمدت ثورة 1344هـ / 1925م بمنتهى القسوة والعنف وكان مطلبها الوحيد إعادة الشريعة الإسلامية لتركيا ، وإعادة السلطان والخليفة المخلوع .

لقد ضرب هذه الثورة بعنف ودون رحمه ، وشكَّل " محاكم الاستقلال " لمحاكمة المتمردين ، وهذه بدورها أشاعت الرعب في البلاد ، ثم أصدر قانوناً بمنع أي تيار سياسي غير تيار السلطة ، وهكذا تحول حكم مصطفى كمال إلى ديكتاتورية مكشوفة ، حيث علق المشانق في كل مكان ، وقتل المئات من المعارضين ، حتى أُخرست كل معارضة تقريبًا . (1)

إن الطريقة التي أنشئت بها ، هي القضاء على الإسلام في تركيا بكل الوسائل من قتل واضطهاد سياسي وتعنيف وممارسة الإرهاب على أوسع نطاق .

ثانياً : ذكر أحداث خيالية لم تحدث ، وهي أن الخليفة غادر إستانبول على متن سفينة حربية بريطانية . جاء في الدائرة :

" غادر إستانبول تحت الحماية البريطانية على متن سفينة حربية بريطانية". (2)

لقد مر بنا فيما سبق كيف أن بريطانيا اشترطت للانسحاب إلغاء الخلافة العثمانية وطرد الخليفة عبد المجيد الثاني ، فكيف يخرج تحت حمايتها بل وعلى إحدى سفنها ؟!

إن من واقع مراسل جريدة " التايمز" Times وهو يصف مغادرة عبد المجيد يتضح، أنه لم يترك له فرصة إعداد أغراضه للسفر ، وإنما أُبْلغ بقرار العزل والنفي ، وطُلب منه السفر قبل بزوغ النهار ، ثم استأذن أن يصحب معه زوجتيه وابنهُ وابنتهِ ، وركب سيارة مع أسرته وانطلقت بهم إلى " جطالجه " ومن هناك ركبت أسرة آخر خليفة عثماني قطارًا " سمبلون – أوريانت إكسبرس " مغادرة أراضي الدولة العثمانية نهائيًا دون رجعة متجهة إلى برن . ولم يستطع أن يحمل معه الكثير من الأموال أو المتاع ، وإنما أخذ ما استطاع حتى إنه لم يتجاوز مجوهرات بقيمة 50 ألف ليرة تركية ، وهو ما يعادل 5900 جنيه إسترليني ، وقد كان متأثرًا عاطفيًا بالموقف ، وأرسل برقية إلى أتاتورك في اللحظة التي غادر فيها

---

(1) رياض العالي : مصطفى كمال أتاتورك بين الأسطورة والحقيقة ، تاريخ العرب والعالم ، العدد 49 ، تشرين الثاني ، 1982م ، ص72 .

(2) J.Deny : ABD AL- MADJID II , The Encyclopaedia of Islam , Volumei , Leiden , London , 1960, P.75 .

البلاد ، قال له إنه سعى لخير تركيا على الدوام . ومن ثمَّ أُجبر أمراء آل عثمان على مغادرة إستانبول خلال يومين ، والأميرات خلال أسبوع .[3]

ثم انتقل الخليفة العثماني إلى نيس في جنوب فرنسا على ساحل البحر المتوسط ليعيش هناك ، وتوفي في باريس 1 شعبان عام 1360هـ / 23 أغسطس 1941م ، عن عمر يناهز السابعة والسبعين . [1]

ولا شك أن خروج آخر خليفة عثماني من إستانبول كان له عدة تداعيات ، أهمها تغير وجه تركيا الإسلامي تمامًا ، وحل مكانه وجه العلمانية بصورتهِ السافرة ، وضياع آخر أمل لبقاء مُلك آل عثمان الإسلامي .

ومن ثَمَّ خاضت تركيا الحديثة الصراع لإثبات أنها أوروبية تمامًا ولا تمت للإسلام بصلة ، وأصبحت متأرجحة في مهب الريح ، حيث اقتلعت جذور تاريخها الإسلامي العثماني، وحاولت أن تبني تاريخاً علمانيًا لم ينجح قط .

و طوى مصطفى كمال أتاتورك صفحة حكم الدولة العثمانية الذي امتد إلى ما يقارب الستة قرون ، حمت خلالها البلاد الإسلامية و الإسلام بكل ما أوتيت من قوة ، لكن قوة أوروبا والصهيونية كانت أكبر و أعظم جبروت.

---

[3] نجدة فتحي صفوة : مراسل " التايمز " في إستانبول يصف مغادرة آخر الخلفاء العثمانيين عاصمته ، ص80 ، 81 .

[1] محمود شاكر : مرجع سابق ، ص 316 .

نستخلص من عرض مواد الدائرة عن السلاطين العثمانيين سواء في عصر النشأة وعصر القوة وعصر الضعف عدة نقاط ترتكز على عدم صحة ما جاءوا به في دائرة المعارف الإسلامية ، ويتضح ذلك فيما يلي:

١) لم تتحدث أغلب المصادر عن الأتراك قبل اعتناقهم للإسلام مما أسهم بشكل كبير في إطلاق الحرية لأقلام المستشرقين ليصيغوا ما يريدون ، حيث صوروا حياة السلاطين الأوائل ممتزجة بالأساطير ، والواقع أنه لا يشوبها الأساطير والغموض ، وإنما قد تندر فيها المعلومة الصحيحة ، مما يعط إحساس للقارئ بأن تاريخهم الأول غامض .

٢) ثبت بالدليل القاطع إسلام الأتراك المبكر ، منذ القرن 1هـ / 7م وقد حسن إسلامهم ، وأتبعوه على المذهب السني ، ولم يختلط يومًا مذهبهم السني مع الشيعي .

٣) إن فتوحات السلاطين العثمانيين في فترة قيام الدولة العثمانية ، كان محركها الأول الإسلام ، أي الجهاد في سبيل الله ، وإعلاء رايته في بقاع جديدة ، ومواد الدائرة لم تعطِ الفتوحات العثمانية حقها من الدراسة والتحليل ، والاكتفاء فقط بإيرادها بإشارات عابرة وصغيرة ، وهذا دأب المستشرقين دائماً ومن أبرز مناهجهم ، وذلك لكي لا يعطوا الحدث الأهمية اللازمة له ، والعمل على تصغيره .

٤) صور كرامرز الأحداث التي جاءت في مادة الترك بدائرة المعارف الإسلامية أغلبها صور خاطئة ولا تمت للواقع بصلة ؛ حيث سلك فيها كل السبل لإقناع القارئ بصدق آراءه بحجج واهية . كمحاولة التشكيك في نسب السلاطين ، وقد ثبت عكس هذه التهم بالأدلة الدمغة .

٥) أغلب المصادر والمراجع التي رجعوا إليها أجنبية ، سواء أكانت إنجليزية أم فرنسية أم ألمانية ، وحتى العربية قليلة جداً ، وإذا رجعوا إليها أو لبعض المراجع التركية والعثمانية ركزوا على الكتب التي تجمع روايات مختلفة من كتب أهل البدع والأهواء والملل . وأما الكتب التركية فقد أخذوا المعلومات منها من مواضع عادية ظاهرة لا تحتمل اللبس أو الاختلاف ، وأخذوا منها ما يناسب الأحداث التي يكتبون فيها ،

وتخدم أغراضهم وآرائهم وأهوائهم . وأغلب مراجعهم رديئة وضعيفة لا تمت للحدث التاريخي بصلة .

٦) في بعض الأحيان يكتبون العامود المكون للمادة العلمية كله حقيقة وموثق، ولكن في آخر الفقرة والعامود يضع المستشرق جملة صغيرة جداً لا يكاد الباحث أو القارئ يأخذها بعين الاعتبار، ويكون فيها كل التشويه والافتراء ، أو تكون قلبًا لمعنى ما سبقه .

٧) مخالفتهم للمنهج العلمي في الأخذ من المصادر المعتمدة في كل فن، فمثلاً يستدلون على أحداث وقعت في التاريخ العثماني ، ويدعون أنها حاسمة ، يعتمدون في ذلك على حادثة فردية لها أسباب وظروف خاصة، فيتم تعميمها على العصر العثماني كله، بل ويدعون صدور فرمانات سلطانية بهذا الشأن مثل قانون قتل الإخوة ، ولا يذكرون حتى رقم تصنيف الفرمان ، أو وضع صورة منه ، ومثلاً يرسمون الشخصيات العثمانية في إطار قصصي مثل ألف ليلة وليلة .

٨) عدم ذكرهم في كثير من الأحيان للمصادر والمراجع التي استخلصوا منها آراءهم المشبوهة عن أي شخصية حاكمة أو حدث ، ويكتفوا بالقول ذكر مؤرخ مجهول ، أو ورد في مخطوط مجهول وهكذا ، دون ذكر الحقيقة وهي أن الرواية من خيالهم .

٩) اختلف أسلوب المستشرقين في تناول سلاطين عصر الضعف حيث قل الدس والتشويه، وصغرت المادة العلمية ، وليس مثل سلاطين عصر القوة .

١٠) ركزت الدائرة على تشويه بعض الشخصيات التي شكلت منعطفاً خطيرًا في الدولة العثمانية في عصر الضعف مثل السلطان عبد الحميد الثاني ، مع إظهار دور الإعلام والصحافة الأوروبية في تشويه سيرة هذا السلطان .

١١) اتضاح دور روسيا وأوروبا في إثارة كثير من الفتن داخل الدولة العثمانية بغية تفكيك أراضيها ، وتكبيل الدولة بمزيد من المعاهدات لشد القيد حولها . وهذا الأمر تزامن مع تطور وتبلور الحركة الصهيونية في ق 13 هـ / 19م ، والتي ساهمت بأطماعها بدفع الرياح ضد الدولة العثمانية .

١٢)إدخال القارئ في متاهات اختلاف المؤرخين حول تاريخ ولادة معين أو حدث ليس له أي أهمية ، وذلك لتشتيت ذهن القارئ عن الأحداث المهمة التي قاموا بتشويهها وإلقاء التهم حولها .

١٣)جاءت بعض معلوماتهم مخالفة تمامًا للحقيقة ، وكأن المستشرق لم يطلع مطلقًا على التاريخ الصحيح للسلطان الذي يكتب عنه . فيعمل على إدخال كثير من الأحداث غير المهمة وتضخيمها حتى تغطي مساحة أكبر لا تستحقها . مع إدخال بعض الألفاظ غير المناسبة للكتابة بها عن السلطان ؛ وذلك للاستهزاء به والتحقير من شأنه ، على الرغم من أن الأعمال التي قام بها هؤلاء السلاطين تعكس غير ذلك .

انفصم انشابع

سؤيت انًستششقيٍ نبعض انُظى انعًثبَيت

المبحث الأول :

انُظى انعسكشيت " نظام الانكشاريت انعثًبَي أًَىرجب "

انًبحث انثبَي :

النظم الاجتًبعيت وانطشق انصىفيت أًَىرجب "

انًبحث انثبنث :

انُظى انششعيت وانتعهيى " انعهًبء أًَىرجب "

المبحث الأول :

النظم العسكرية "نظام الانكشارية وضريبة الغلمان نموذجًا "

يعد النظام العسكري العثماني من الطراز الإسلامي الأول ، إذ حوى داخله كل التعاليم الإسلامية السمحة بخصوص أنظمة الحرب والقتال ، كان جيش الدولة العثمانية جيشًا إسلاميًا بحق ، تخلق جنوده بأخلاق الفاتحين الأوائل ، وإذا كانت لهم هفوات أو تعديات فهي لا تتعدى أي هفوات جيش مسلم آخر .

لقد كان جنود الجيوش العثمانية مثالاً يحتذى به للجندي الإسلامي ، إذ عاش الجندي العثماني حياة المعارك والفتوحات مئات السنين ، احتفظ خلالها بكافة الفضائل الإسلامية الحربية الرائعة في كل الظروف ، مما جعلته نموذجًا مثاليًا للجندي الإسلامي المحارب ، لكن الجيش العثماني ككل الجيوش الإسلامية والعالمية لابد أن يتعرض لكثير من المحن أثناء مسيرته الطويلة ، وتظهر عليه أعراض الفساد والانحراف ، ومع ذلك بقي في داخله عاملٌ ثابت ومفهومٌ صادقٌ لم يتغير عبر الزمن وهو الإيمان بنشر الإسلام وحماية الدين والدفاع عنه. ولهذا السبب بالذات حُشد كل أبناء الدولة العثمانية ورجالها ليحملوا على عاتقهم حماية الإسلام ونشره . [1] وبشهادة العالم الغربي إذ قالوا عنه : الجيش الذي لا يقهر.

وقد أسس العثمانيون جيشًا ، أصبح منذ عام 799هـ / 1396م ثاني أقوى جيش في العالم بعد جيش تيمور ، وفي عام 851هـ/1447م أصبح هو الجيش الأول في العالم ، ثم فقد صفته هذه في 1185هـ/1771م وحتى عام 1288هـ/ 1871م كان الجيش الثالث، [2] ويعود هذا التراجع إلى الضعف الذي أصاب جميع أجهزة الدولة العثمانية، وليس فقط النظام العسكري ، هذه سنة الله في خلقه لقوله تعالى ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[3]. وعلى الرغم من ذلك بقي ردحًا من الزمن تهابه كل أوروبا وتحسب له ألف حساب.

---

[1] بسام العسلي : فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ، د. ط ، دار الفكر ، د. ت ، ج5 ، ص 519 .

[2] يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص374 .

[3] سورة الأحزاب : آية 62 .

وتعد فرقة الانكشارية من أهم فرق الجيش العثماني وذلك لأنها حملت مسؤولية فتح البلاد ونشر الإسلام على عاتقها ، جاهدت في سبيل الله ، وحملت روحها على أكفها في ساحات المعارك لنشر دين الحق بين شعوب أوروبا المسيحية قلبًا وقالبًا . فكان الجندي الانكشاري يدخل المعركة وهو يحمل روحهُ على كفهِ ، إما الانتصار أو نيل الشهادة .

ولهذا السبب بالذات ركزت كتابات المستشرقين على فرقة الانكشارية ، لما لها من أهمية حقيقية في الجيش العثماني ونظامهِ العسكري .

أحاط بتاريخ الانكشارية في كتاباتهم كثير من الافتراء والتشويه بل واختلاق أحداث لم تكن موجودة أصلاً ؛ لإخراج صورة عن الانكشارية مغايرة للواقع والحقيقة .

وخير دليل على ذلك كتابات المستشرقين عن الانكشارية من خلال دائرة المعارف الإسلامية ، حيث أفردت لها الدائرة الكتابة في اربع مواد تناولت فيها كل ما يختص بالانكشارية ، وهي مادة الانكشارية وإيج أوغلان وكلاهما كتبهما المستشرق كليمان هوار ، ومادة دوشرمة كتبها المستشرق مورتمان وأخيراً مادة جندره لي للمستشرق جيس . وقد شملت المواد الحديث عن تربية الأطفال ، وجمعهم وصولاً إلى أنظمتهم، مع إضافة الكثير والكثير من الأحداث المختلقة والافتراءات المختلفة ، بل والتأكيد على وجود ما يسمى بضريبة الغلمان التي جعلوا صداها يتردد في خيال المؤرخ المسلم والعربي وحتى القارئ المطلع غير المتخصص مقترناً بشدة وتعسف الحكم العثماني ، وجعلوها رمزًا لقوتهِ وجبروتهِ وتسلطهِ على أهالي القرى المسيحية. وتكاد هذه الصورة تأتي في جميع الكتب التي تناولت تاريخ الدولة العثمانية لدرجة أنها أصبحت جزءًا قويًا من صميم التاريخ العسكري العثماني ولا يمكن فصلها عنه .

ويمكن تقسيم الموضوعات التي ورد فيها الافتراء والتشويه على الانكشارية في دائرة المعارف الإسلامية على النحو التالي :

أولاً : تعريف كلمة " دوشرمة " [1]

ثانياً : محاولة التشكيك في أن السلطان أورخان هو صاحب فكرة تأسيس الانكشارية والدوشرمة ، والعمل على نسبتها إلى أي طرف آخر غيره.[2]

---

[1] مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية : ج9 ، ص319 .

ثالثاً : نقلهم لصورة مخالفة تمامًا لواقع الانكشارية والدوشرمة ، إذ شوهوا بقدر إمكانهم طريقة جمع الأطفال وتقسيمهم ، وإكراههم على اعتناق الإسلام . [1]

ومواد الدائرة ركزت على طريقة جمع الغلمان بصفة عامة ، بل واستفاضت في الحديث عن حرمان هؤلاء الغلمان من ذويهم ، وتصوير معاناة الأباء والأمهات وذرف الدموع ، وخاضت في كثير من اللغط الذي لا طائل منه ولا فائدة سوى التشويه ، مثلاً من صاحب فكرة إنشاء فرقة الانكشارية ؟ ، أو في أيّ الأعوام بدأت ؟؟

وستبدأ الدراسة بالرد على الافتراءات التي وردت حسب الترتيب السابق الذكر :

أولاً : تعريف معنى كلمة " دوشرمة " :

" دوشرمة " باليونانية تعني جمع الغلمان ، هو الاسم الذي يدل على حمل أولاد النصارى قسرًا على الانخراط في فرقة الانكشارية وعلى الخدمة في القصور السلطانية " [2]

هذا المصطلح له علاقة وثيقة بالانكشارية ، وقد ركزت مادة دوشرمة في تعريفها للمصطلح على أنه فقط يعني جمع الغلمان بالقوة وقسرًا ، وإرغامهم على الانخراط في فرقة الانكشارية والخدمة في القصور السلطانية ، وهم بذلك بعدوا تمامًا عن المعنى الحقيقي للكلمة.

في محاولةً من المستشرق مورتمان تأكيد أن معنى كلمة دوشرمة جمع الغلمان بالقوة والجبروت للانخراط في الانكشارية بهدف إرساء تشويه الانكشارية .

وفي واقع الأمر أن كلمة دوشرمة كلمة تركية تكتب هكذا (Dos,orme) بمعنى الجمع والاقتطاف ، وتطلق على جمع الجند وإحضارهم لأداء الخدمة العسكرية في الجيش

---

[2] جيس: مادة جندره لي ، دائرة المعارف الإسلامية : ج 2 ، ص 119. كليمان هوار : مادة الانكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3،ص 76-78. مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج9 ، ص319.

[1] كليمان هوار : مادة إيج أوغلان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 185 . كليمان هوار : مادة الإنكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 77 . مورتمان : مادة دوشرمه ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج9 ، ص320 .

[2] مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 319 .

العثماني ، واستخدمت الكلمة صفة للجندي المجلوب . [3] وكلمة ديوشرم تعني أيضاً في الفارسية جمع الثمار والتقاطها .[4]

و Dersime هي أيضًا مصطلح عسكري ، أطلق على أبناء المسيحيين المشردين في الشوارع ، وكانوا يجمعون من طرقات البلاد المسيحية التي تم فتحها حديثًا ، وفقد هؤلاء الأطفال ذويهم إما قتلوا في الحرب أو هربوا مخلفين أبناءهم خلفهم . وخاصة من بلاد البلقان وذلك بهدف الالتحاق بالانكشارية والجيش عمومًا ، أو للعمل في السراي .[1]

كما فسرت بمعنى الاسقاط أو السقوط ، وهي كلمتان الأولى تعني إسقاط الأم لجنينها قبل إتمام شهور الحمل التسعة ، وهي لا تطلق على المواليد وإنما على الذين يموتون في الشهور الأولى من الحمل ، أما السقوط فهو يعني سقوط شيء من على علو سواء كان إنساناً أم جمادًا ، وتطلق على الشيء المعنوي كالسقوط في هاوية الرذيلة أو ما شابه ذلك من تعبيرات .[2]

وتطلق الكلمة أيضًا على الأطفال اللقطاء الذين يولدون في السر، ويُلْقَى بهم في قارعة الطريق أو على أبواب المساجد والملاجئ ، أو يصبحون مشردين في الطرقات وليس لهم ولي يعودون إليه . [3]

ومن هذا يتضح أنها تعني الجمع والالتقاط ، فضلاً عن أنها تعني أيضًا الأطفال المشردين في الطرقات ولا مأوى لهم ، نتيجة لعدة أسباب – ذكرت سابقًا– ولهذا فالمنطق يحتم أن يكون لفظ الدوشرمه أطلق على جمع الأطفال المشردين فقط ، وليس جمع الغلمان الكبار بل وقسرًا من ذويهم، وعليه فإن مادة دوشرمه لم تعرف الكلمة كاملة وإنما اكتفت فقط بالذي أراد المستشرق مورتمان تقديمه للقارئ، وهو جمع الغلمان فقط وبنى عليه بعد ذلك المعلومات التي أرادها ، وترك الأمر لخيال القارئ الغارق في تشويه الانكشارية والدوشرمه.

---

[3] حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص 60 .

[4] محمد الأرناؤوط : دراسات ووثائق حول الدوشرمة ، ط 1 ، عمان : دار قدسية ، 1991م ، ص 35 .

[1] الصفصافي أحمد المرسي : مرجع سابق ، ص 55

[2] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 126 – 127 .

[3] مرجع سابق ، ص 127 .

ثانيًا : محاولة التشكيك في أن السلطان أورخان هو صاحب فكرة تأسيس الانكشارية والدوشرمة ، والعمل على نسبتها إلى أي طرف آخر غيره .

" يقال إن السلطان أورخان هو أول من سن هذه السنة ...على أنه يحتمل أن يكون قد حدث لبس بين هذه السنة وبين إنشاء فرقة الانكشارية بتزويدها بأسرى الحرب عملاً بإتاوة الـ " بنجه " وهو النظام الذي ينسب إلى هذا السلطان. وفي عام 842م / 1438م ذكر كاتب موثوق بــه هو (برثلومباوس ده يانو Bartholomaeus de Jane) أن مراد الثاني قد أنشأ ما يعرف " بنظام عشرة الصبيان " في حين تذكر المصادر التركية أن كل ما فعله هذا السلطان هو إحياء هذه السنة بعد أن أهملت إبان اضمحلال الإمبراطورية . ومهما يكن من الأمر فالثابت أن نظام الدوشرمة كان قائمًا في عهد مراد الثاني " [1].

وقدم المستشرق جيس في مادة جندره لي ليؤكد على معلومة أنها ليست من أفكار أورخان وإنما من أحد وزرائهِ ، يقول :

" لا نعرف على التحقيق هل كان لقرا خليل بالفعل شأن هام في عهد أورخان وهل كان إنشاء فكرة الانكشارية من بنات أفكاره ؟ ... وجاء في رواية الكاتب القديم الذي لا نعرف اسمه – وأنا بسبيل نشر كتابهِ – أن قرا رستم القرماني لا قرا خليل هو الذي أوصى بإنشاء فرقة الانكشارية " . [2]

وفي مادة الانكشارية لكليمان هوار نسب الأمر إلى قر جاندارلي وكأنه أمر مسلم به ***" وفي الوقت الذي كانت تعم أوروبا فيه العصابات المسلحة كون قرا جاندارلي لأول مرة كتائب منظمة من المشاة " . [3]***

لقد حاولت مواد الدائرة سحب مسألة تأسيس الانكشارية من السلطان أورخان وذلك لتقليل من شأنه ، وصحة قراراته ، وفي نسبة أفكاره لغيره دلالة واضحة على تشتيت ذهن القارئ ، ومحاولة إشعاره بأن الأعمال العظيمة للسلاطين العثمانيين ليست من أفكارهم وإنما بنات أفكار وزرائهم .

---

[1] مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 9 ، ص 319 .

[2] جيس : مادة جندره لي ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج12 ، ص 119 .

[3] كليمان هوار : مادة الانكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 3 ، ص 76 ، 77 .

وللرد على هذا الافتراء لابد من توضيح حقيقة مهمة وهي أن السلطان أورخان عندما ورث الحكم عن والده كانت الدولة العثمانية لا تزال وليدة ، فكانت دولة ليست لها قوانين أو عملة ، أو حدود واضحة ويحيط بها جيران أقوى منها ، فوقع على عاتقهِ تنظيم هذه الدولة الناشئة ، والتوسع على حساب جيرانه ، فبدأ في إحداث التنظيمات الضرورية لتحويل إمارتهِ الصغيرة إلى دولة مترامية الأطراف، وطبيعي جدًا أن يوجه عنايته الخاصة للجيش . [4]

فبدأ في الاستزادة عن كيفية تنظيم شؤون الحكم والسياسة وحتى العسكرية بقراءة الكتب والتثقف فاطلع على كتاب سفر نامه لنظام الملك الوزير السلجوقي وهو كتاب يتحدث عن فن الحكم ، وتجاربه ، والأنظمة والدواوين ، وقد شرح نظام الملك تفصيلاً عن الطريقة المثالية لإيجاد قوة محاربة ، إذ أشار إلى اختيار عدد من الأولاد في سن مبكرة ، وتقوم الدولة بتعليمهم والعناية بهم ، وتلقينهم مبادئ الإسلام وفنون الحرب واللغات والتاريخ والمنطق ، وهكذا بدأ أورخان في البحث عن مصادر جديدة للقوة المحاربة .[1]

وقد استحسن هو وأخيه علاء الدين [2] هذا النظام وشرعوا في التفكير جديًا في إنشاء جيش نظامي من المشاة يعتمد بالدرجة الأولى على الأطفال ويسمى الانكشارية . [3] يني تشرى (الجيش الجديد) . [4]

ومن هنا رأى السلطان أورخان الاستفادة من الأطفال المشردين ، فضلاً عن أعداد من الأسرى الذين تمَّ إلحاقهم بخدمة الدولة العثمانية . خاصة وأن انتقال الأتراك إلى الأراضي الأوروبية ضاعف فتوحاتهم في منطقة الروملي ، فزادت حاجتهم إلى الجنود ،

---

[4] عبد الرحمن شرف : تاريخ دولة عثمانية ، ط1 ، إستانبول : معارف نظارات جليلة مطبعة سي ، 1309هـ ، ج1 ، ص 70 . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص 24 ، 25 . أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 38 . خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص 82 .

[1] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ج ، ص 72 . أميره مداح : مرجع سابق ، ص 20 .

[2] جاء في الروايات المتداولة أن تنظيم الجيش والتشريع العثماني كان في بداية الدولة العثمانية على يد الأمير علاء الدين الذي كان رجل علم وثقافة وسلام ، حيث اعتزل العالم في سن الصبا ، ولم يشترك في قتال ، ورفض اقتسام ممتلكات أبيه مع أخيه أورخان ، واكتفى بمنصب الصدر الأعظم ، ولقب باشا . أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص 38 .

[3] عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ، ط1 ، دمشق ، 1947م ، ص 35 .

[4] أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص19 .

فاتجهوا لأجل هذا إلى الاستفادة من أسرى الحرب ، وذلك تحت مصطلح بنجيك Pencik [5].

وبمرور الزمن عرف باسم (ينجيك قانوني) أي قانون الخُمس ويحتمل أنه صدر عام 765هـ / 1363م ، وينص على أن تحصل الدولة على خُمس أسرى الحرب أو الغنائم حق مشرع للسلطان حسب الشريعة الإسلامية وهي ليست قانوناً وإنما تشريع إسلامي ، وفي البداية كان يلحقوا بالانكشارية بعد فترة تدريبٍ قصيرة ، وعندما رأوا المحاذير في ذلك قرروا أن يسلم هؤلاء الفتيان من أسرى الحرب للأسر التركية في الأناضول ، بذلك يمكن لهؤلاء أن يتعلموا الزراعة لقاء أجر، ويتعلموا في الوقت ذاته العادات والتقاليد الإسلامية والتركية.[1]

وإذا نظرنا إلى ظروف الفتح الإسلامي العثماني للمدن البيزنطية ، نجد أن عددًا كبيرًا من الأطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم وأسرهم لموتهم في المعارك التي صاحبت الفتح ، أو أثناء هروب الأسر من مدينة إلى أخرى– كما ذكر سابقًا – فضلاً عن أن كثيرًا من العائلات المسيحية تعرضت لخطر الهلاك جوعًا ، وهذا الأمر يصاحب كل ضم ، وبالتالي بقي أولئك الأطفال مشردين في الطرقات يتامى بلا مأوى أو مكان يسترهم ، فسعت الدولة العثمانية لاحتضان هؤلاء الأطفال ، وتأمين مستقبل كريم لهم ، ولا يتوفر هذا المستقبل إلا في ظل الإسلام .[2] ولولا الله سبحانه ثم الدولة العثمانية لتعرض الأطفال للهلاك أو الانحراف .

وبناءً على ذلك يتضح أن فكرة تجميع الأطفال المشردين وأسرى الحرب من المعارك، كانت فكرة السلطان أورخان من البداية ولم يرد ذكر قرا رستم أو قرا خليل جندره لي ، وقد بدأ جمع الأطفال فعلاً في عهد أورخان ، لكنها تبلورت وأخذت الشكل المنظم مع

---

[5] بنجيك : تحريف كلمة بينج بك الفارسية التي تعني الخُمس ، وقد اصطلح العثمانيون على استخدامها للدلالة على خمس الأسرى المأخوذين من الحرب وتسجيلهم في أوجاق المستجدين بموجب القانون الخاص به ، ليلتحقوا بخدمة الدولة العثمانية بعد تدريبهم . انظر. سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مراجعة : عبد الرازق محمد بركات ، ط1 ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1421هـ/ 2000م ، ص 66 .

[1] أبو الفاروق : تاريخ أبو الفاروق – تاريخ عثمانيه ،ط 1 ، مطبعة أموي ، 1329هـ ، ج1 ، ص 71 .
Nesri : Tarih, I,S197 . 199 .

[2] زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيون ، ص 128 ، 129 . عمر عبد العزيز عمر : محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ، د. ط ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، 1999م ، ص 38 .

صدور قانون بنجيك في عهد السلطان مراد ، ومن هنا جاء خلط المستشرقين بين أطفال الدوشرمة وتأسيس الانكشارية .

أما عن مسألة خُمس الغنائم فهي قبل أن تكون قانونًا في عهد السلطان مراد، كانت تشريعًا إلهيًّا من رب السموات والأرض للحاكم في الإسلام لقولهِ تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [3]

إن تفسير الآية واضح وصريح ، حيث أن المفسرين أجمعوا على أن الغنيمه تقسم خمسة أقسام ، القسم الأول يقسم إلى خمسة أسهم ، الأول للرسول ﷺ، والسهم الثاني لذي القربى ، والثالث لليتامى ، والسهم الرابع للمساكين ، والسهم الخامس لابن السبيل ، وباقي الغنيمة تقسم على الغانمين.[4]

وعليه فإنَّ نصيب السلطان العثماني سهم من الخمسة أقسام الأولى ، وهو بالمقارنة بحجم الغنيمة يكون قليلاً جداً وليس بالضرورة أن يكون أطفالاً صغاراً، أو أن نصيبه أسرى حرب فقط ، فمن الجائز أن يكون متاعًا أو أسلحة أو أموالاً أو حتى مواشي ، مما يؤكد أن مسألة أسرى الحرب وإطلاق لفظ إتاوة على قانون البينجك هي محض افتراء دون الاستناد إلى واقع صحيح.[1]

ويتجلى هنا بوضوح أسلوب المستشرقين إذ أنَّهم يعتمدون على حدث أو لفظ صحيح في البداية ثم تبدأ صياغة الحدث وفق هواهم المريض وأغراض تشويههم ، حيث ذكروا كلمة بينجك وأسرى الحرب لكن شرحهم للحدث خاطئ تماماً ومخالف للواقع على الرغم من اعتمادهم على ألفاظ صحيحة .

وإذا ما سلمنا بأن السلطان العثماني استفاد من الأسرى في جيش الانكشارية ، فغالبًا الأسرى يكونوا رجالاً كبارًا لا يستطيع السلطان العثماني تغيير دينهم وجعلهم يحملون السلاح للمحاربة في جيش المسلمين ، إذ إنه لا يجوز لغير المسلم حمل السلاح والدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيله ؛ فهذان ضدان لا يجتمعان.

---

[3] سورة الأنفال آية : 41 .

[4] محمد علي الصابوني : مرجع سابق ، ج1 ، ص 506 .

[1] أماني جعفر الغازي :مرجع سابق ، ص 122 .

أما الأسرى الأطفال فأعدادهم ليست كثيرة ، وعددهم أقل من المعتاد دائمًا، لذا من غير المعقول أن يعتمد السلطان أورخان على أطفال أسرى الحرب فهم قلة – كما سبق أن ذكرنا – أما الأسرى الكبار فهم الذين لا يستطيعون حمل السلاح للذود عن الإسلام .

ومنذ عهد السلطان أورخان ونحن نجد أن أغلب المدن البيزنطية فتحت سلميًّا ، إما بسبب إسلام أهلها أو فرار حاميتها وحاكمها ، فيحكمهم العثمانيون بالعدل والمساواة ، فيسلم أكثر أهلها والباقي يدفع الجزية ، أما المدن التي تختار الحرب ، فيفتحها الله عليهم بعد قتال . والشاهد من هذا أنه لا يوجد أسرى دائمًا ، كما أنه من سياسة عثمان وأورخان عدم أخذ أسرى الحرب ، وإذا وُجد فإن العلماء يتعهدونهم بالتربية الإسلامية . أو يتم عقد مهادنة بين الطرفين يتم على إثرها تبادل الأسرى.[2]

ولكن هذا الوضع اختلف مع زيادة الفتوحات العثمانية في بلاد الروملي وزيادة تدفق الأسرى بأعداد وفيرة إلى العاصمة .[1] وإذا لم يتم تبادل الأسرى فإن هؤلاء يبقوا في العاصمة ، مما أدى إلى إيجاد فكرة الاستفادة منهم في الزراعة أو الصناعة ، ومن يكون سنه مناسبًا يؤخذ لينضم إلى صفوف الانكشارية.

ولذلك من الخطأ أن نعتمد على قول مادة دوشرمة من أن أسرى الحرب هم قوام الانكشارية بموجب إتاوة " البينجك " وذلك لما اتضح سابقًا من أنه ليس جميعهم يذهبون إلى الانكشارية ، أو إلى الدوشرمة . فضلاً عن الأطفال المشردين الذين يعيشون دون مأوى كان عددهم أخذًا في التزايد مع زيادة الفتوحات ، وهؤلاء مسؤولون من الحاكم الإسلامي ، وهو السلطان العثماني فمن الطبيعي أن يبحث عن حل للاستفادة منهم وتربيتهم على النهج الإسلامي .

إن مسألة أسرى الحرب قد نقاها الإسلام كثيرًا ، وهذبها من الشوائب والزوائد تهذيبًا لم تسبقه إليه شريعة من الشرائع أو قانون من القوانين، بل وضع للرق والاسترقاق شروطًا وواجباتٍ ، فمثلاً جعل من مصارف الزكاة إنفاقها في الرقاب ، أي فك الأسر ، ويحسب له من الفيء والغنيمة كحق غيرهم من الجنود ، وحث المسلمين على قبول فدية الأسير أو من

---

[2] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 134 ، 135 . كامل باشا : التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية منذ تأسيسها وحتى الفترة الأخيرة للسلطان عبد الحميد ، ج1 ، د. ط ، إستانبول :مطبعة إحسان ، 1324هـ ، ص13 .

[1] أحمد زين دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ج 2 ، ط1 ، بيروت : دار صادر ، 1417هـ ، ص120.

أوليائه لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [2]

وجعل عتق الرقبة كفارة لكثير من المعاصي ، [3] وقد سارت الدولة العثمانية على هذا النهج وعقدت الهدن والاتفاقيات لتبادل الأسرى وفك أسراها ، في الوقت الذي كانت الدول الأوروبية لا تشغل نفسها برجالها المأسورين ، حيث يبقى أسيرهم في الرق حتى يفتدي نفسه.

ثم حاول المستشرق مورتمان في مادته دوشرمة إقحام إسم السلطان مراد الثاني في مسألة جمع الأطفال وإحياء سنة مهملة .[4]

إن السلطان مراد كما هو معروف اشتهر بنشاطه العسكري وحنكتهِ السياسية واستقامتهِ ، مما ميز عهده بكثرة الفتوحات العثمانية وتدفق الأسرى عليه من جميع الجهات ، مما جعل المستشرقين يلصقون به تهمة إحياء سنة كانت قد اضمحلت مع مرور الوقت وضعف الإمبراطورية البيزنطية [1] ، وهو في ذلك مصر إصراراً عجيبًا على نسبة فكرة تربية الأطفال تربية إسلامية صحيحة خالية من القسوة والعنف إلى الإمبراطورية البيزنطية ، ولا تستطيع الدراسة إنكار وجود هذه السنة – على حد قولهم – في الإمبراطورية البيزنطية ، لكن هذه السنة جاءت مهذبة في الدولة العثمانية خالية من القسوة ومليئة بأحكام الشريعة الإسلامية.

وصورتها الحقيقية وُجدت في القسطنطينية تحت الإمبراطورية البيزنطية التي كانت إذا غزت بلاد الإسلام سبت الأطفال فقط وربتهم على النصرانية ليقاتلوا المسلمين بعد ذلك ، ويوجد أكثر من دليل ، فمثلاً عندما استولى نقفور فوكاس على حلب سبى عشرة آلاف غلام من أهلها ، ورباهم على المسيحية في دار ملكه، حتى صاروا ضمن جندهِ ، وكذلك ما حدث عندما سقطت أنطاكيا عام 359هـ / 969م في يد البطريق ميخائيل إذ سبى من أولاد

---

[2] سورة النور : آية 33 .

[3] عبد الجليل شلبي : صور استشراقية ، ط2 ، القاهرة : دار الشروق ، 1406هـ / 1986م ، ص 358 .

[4] مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج9 ، ص 319 .

[1] أماني جعفر الغازي :مرجع سابق ، ص 138 .

المسلمين عشرة آلاف، ورباهم على النصرانية في القسطنطينية ، فصاروا نصارى ، وجنودًا في الجيوش البيزنطية.[2]

وبشكل عام كلهم كانوا أسرى حرب لكن الفارق بين العثمانيين والبيزنطيين كبير جدًا؛ فالبيزنطيون نصروهم وغيروا دينهم إلى الكفر ، أما العثمانيون فقد هدوهم إلى الإسلام والجنة.

وقد تكررت فكرة مورتمان نفسها في مادة الانكشارية بقلم المستشرق كليمان هوار ***" ويرجح أن الذي أوحى إلى الترك أن يعززوا فرسانهم بجنود مشاة مدربين هو ما شاهدوه من فرق الجيوش البيزنطية ، وإن كانت في ذلك الحين قد فقدت مجدها القديم . ولكن الترك ساروا في جمع الجنود المشاة على طريقة تخالف الطريقة التي سار عليها غيرهم كل المخالفة حتى كان نظام الجنود الانكشارية لا نظير له في التاريخ "*** [3]

ولكنه اعترف أن طريقة العثمانيين التي ساروا عليها في جمع الجنود خالفت كل طرق من سبقوهم ، حتى كان نظام الانكشارية لا نظير له في التاريخ .

لكن اعترافه هذا ليس إنصافًا أبدًا ، فللوهلة الأولى يظن القارئ أنهم أنصفوا الانكشارية بوصفها نظامًا لا نظير له في التاريخ ، لكن جملتهم هذه تُخفي من الخبث ودس السموم والأفكار المشوهة الكثير بين الكلمات الرطبة ، وهو أسلوب من أساليب المستشرقين المتعددة والكثيرة في الكتابة عن التاريخ العثماني . وجملتهِ مطاطية تحتمل معنيين في فهم القارئ ، الأول : أن يكون اعترافًا بالحقيقة وأنه لم يتم جمع الغلمان بالقوة والجبروت ، وإنما جُمع الغلمان الذين لا مأوى لهم بسهولة ويسر ، أما المعنى الثاني : فهو المقصود ، وهو أن طريقة جمع العثمانيين للغلمان جاءت فيها من القسوة والشدة والتسلط الكثير وفاقوا من سبقوهم في هذا ، لذلك جاء نظام الانكشارية لا نظير له في التاريخ .

ولكن على الجانب الآخر نجد أن روبير مانتران كتب أن السلطان العثماني إذا فتح مدينة يقوم بترحيل جزء من السكان إلى إستانبول ، ويُدخِل رجالاً كثيرين في سلك الخدمة الخاصة به أو بخدمة وزرائهِ .[1]

---

[2] شكيب أرسلان : مصدر سابق ، ص 59 .

[3] كليمان هوار : مادة الانكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 77 .

[1] روبير مانتزان : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : بشير السباعي ، ط 1 ، القاهرة : دار الفكر للدراسات والنشر ، 1993م ، ج1 ، ص 135 .

وتؤكد الأحداث التاريخية أن السلطان محمد الفاتح كان إذا فتح بلداً تخير من أهلها رجالاً أشداء أعلنوا إسلامهم لينضموا إلى صفوف الانكشارية .[2]

وهذا يعني ليس بالضرورة أن يكونوا أطفالاً وإنما رجالاً بالغين لهم الحق تمامًا في الدفاع عن الإسلام والذود عنه .

ثالثاً : نقلهم لصورة مخالفة تماماً للواقع إذا شوهوا بقدر الإمكان طريقة جمع الأطفال ، وتقسيمهم ، والبلاد التي يجمعوا منها .

وقد تكرر الأمر في مادتي دوشرمة – والانكشارية ومادة إيج أوغلان ، إذ كلها جاءت فيها الفرية على نسق واحد بإختلاف تفاصيل صغيرة.

وفي مادة الانكشارية كتب كليمان هوار أن ***"حكومة آل عثمان كانت تفرض على الشعوب المسيحية التي تتغلب عليها جزية من الأولاد يحملونهم على الإسلام ويعلمونهم في مدارس خاصة بهم ، وظلوا يعتبرون رقيقاً للسلطان ، وكان أبناء الانكشارية يتزوجون نساء من أهل البلاد في الولايات غير المتحضرة وأبناؤهم يسمون (قول أوغلي) أي أبناء الأرقاء، على أن مثل هذا النظام كان مخالفًا للشريعة الإسلامية التي لا تبيح للحاكم أن يرغم الذميين على أن يسترق أبناءهم، وكان يباح إنشاء فرق الانكشارية بقانون يصدره الحاكم (العرف) غير مقيد بأحكام الشريعة" .***[1]

مادة إيج أوغلان كررت الفكرة نفسها ولكن بأسلوب آخر حيث كتب هوار أيضًا ***"كانوا عادة من الأطفال المسيحيين الذين يسبون في الحرب أو يقدمون جزية من أوروبا وحدها ، ذلك لأن الترك كانوا لا يجمعون مثل هؤلاء الغلمان من سكان آسيا .ويختار أجملهم وأعدلهم قوامًا وأكثرهم نجابه واستقامة خلق ، فتسجل أسماؤهم وأعمارهم وأوطانهم ثم يحولون إلى الإسلام ويختتنون ويعلمون تعليمًا منظمًا تحت إشراف الخصيان أربعة عشر عامًا "*** [2]

---

[2] أيمن أحمد العُقبي : آراء المستشرق " جوزيف هامر " حول شخصية السلطان محمد الفاتح من خلال كتابه " تاريخ الدولة العثمانية" رسالة ماجستير لم تطبع ، قسم الاستشراق ، كلية الدعوة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، 1419هـ ، ص 37 .

[1] كليمان هوار : مادة الإنكشارية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 77 .

[2] كليمان هوار : مادة إيج أوغلان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 185 .

وفي مادة دوشرمة صور لنا المستشرق مورتمان الأمر وكأنه مشهد من فيلم سينمائي ***" وما إن يصدر فرمان سلطان بتجنيد الغلمان حتى يشخص ضابط الانكشارية الموكل بتنفيذه، في صحبته عدد من السائقين (سروجي) إلى الأحياء التي تخصص له ، ويقوم بجمع غلمان القرية الذين تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والخامسة عشرة ، وفقًا لقائمة يعدها شيوخ القرية النصارى ليمكنوه من أن يختار أكثر الغلمان صلاحية للخدمة العسكرية" .***[3]

تلاعبت مواد الدائرة على لفظ جزية وصورة جمع الغلمان ،وصُوِّرتها على أنها جزية فرضتها الدولة العثمانية على الأمة المهزومة تأخذها من أبنائها ، إلا أنَّ الأدلة والبراهين على عدم صدق إدِّعائهم كثيرة ، أولها تناسي المستشرقين تماماً لترسخ الإسلام في نفوس العثمانيين ، إذ إن إسلامهم جاء في فترة مبكرة جدًا على المذهب السني ، مما هذَّب أخلاقهم وأوجد فيهم حب الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام ، وبذلك صارت الدولة العثمانية دولة إسلامية سنية أخذت على عاتقها حماية الإسلام والمسلمين والجهاد في سبيل الله طبقًا لأحكام الشريعة الإسلامية.[4]

لقد تحلى السلاطين العثمانيون بكل الأخلاق الإسلامية وحاولوا قدر إمكانهم تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية ، لذا فمن غير المعقول أن الله ﷻ يمُنُّ على السلاطين العثمانيين الفاتحين الأوائل بالنصر والفتوحات الإسلامية ونشر الإسلام في أصقاع جديدة ، ثم يقابلوا هذه النعمة بفرض جزية على النصارى ليس لها أصل في الشريعة الإسلامية.

والمشروع في الإسلام أن يؤخذ من أهل الذمة جزية مادية على حسب المستوى الاقتصادي للمدينة المفتوحة حديثًا ، وذلك مقابل إقامتهم في ديار الإسلام كل عام لقوله تعالى: ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون ﴾ [1] ومن السنة النبوية الشريفة : " أن المغيرة بن شعبه قال لجند كسرى يوم نهاوند أمرنا نبينا رسول ربنا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو

---

[3] مورتمان : مادة دوشرمة ، دائرة المعارف الإسلامية : ج3 ، ص 320 .

[4] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص 115 .

[1] سورة التوبة ، آية 29 .

تؤدوا الجزية " وإن التزموا بدفع المبلغ المالي المقرر يحرم قتالهم والاعتداء عليهم ، وهي تؤخذ من أموال القادرين فقط ، فلا تجب مثلاً على المرأة والصبي والفقير.[2]

وإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى ألا يؤخذ الصبي نفسه من أهل الذمة؛ إذ لا يغلب أهل الذمة على صبيانهم ولا نسائهم سواء أكانوا أغنياء أم فقراء ، بل إن الفقراء يعُفون من أداء المقرر من الجزية تسامحًا معهم، فكيف يضع المستشرقون فرية بهذا الشكل ، مع وضوح عدم صدق إدعائهم وعدم واقعية الكلام .[3] فلو بحث القارئ عن مدى صدق معلوماتهم في الكتب قليلاً لاكتشف كمية الكذب والخداع التي صبوها على الجزية المنسوجة من خيالهم .

أضف حقيقة مهمة جدًا ، أغفلها المستشرقون تمامًا ألا وهي أن العائلات المسيحية كانت تتسابق على تقديم أبنائها طواعية للانخراط في الديوشرمة ، والدليل على ذلك أن الجيش قد زاد عدده بسرعة فائقة في أول أمره وذلك لتطوع كثير من المسيحيين أنفسهم الذين أعلنوا إسلامهم ؛ حيث وجدوا أن هذه أفضل وسيلة للتخلص من خطر الهلاك جوعًا أو بسبب اليتم ، ولم يورد أي من المستشرقين الثلاثة أي وثيقة ولو حتى واحدة تشير أو تؤيد هذا القول ، أو تدل على أن العثمانيين مارسوا أي وسيلة للضغط على الأسر المسيحية لاختطاف أبنائها ، لقد نظرت تلك الأسر للانكشارية على أنها نوع آخر للفروسية ، فاق فروسية أوروبا في العصور الوسطى ، إضافة إلى أن التسامح الديني ونظام أهل الذمة الذي طبقته الدولة العثمانية ، وعدّ جزءًا أساسيًا من نظمها الإسلامية ، بهرت به أوروبا في وقت انعدمت عندهم الحرية الدينية ، بل إنَّ إقبال الأسر المسيحية على تقديم عدد كبير من أبنائها للانكشارية دفع بالسلطان أورخان إلى إصدار خط شريف بألا يقبل منهم إلا من الابن السادس إلى الابن العاشر في الأسرة الواحدة.[1]

وقد ذهب توماس أرنولد إلى أنه لم يكن ثمة ما يدعو القادة الذين كانوا يجمعون العدد المعين من الأبناء إلى استخدام القوة والإكراه ، ذلك أن الآباء كانوا مشتاقين في الغالب إلى

---

[2] ابن أبي شيبة : مصنف ابن أبي شيبة ، د.ط ، د.م ، د.ت ، ج 13 ، ص9 . الموفق ابن قدامه : المغني ، ج 1 ، د. ط ، بيروت: دار الكتاب العربي ، د. ت ، ص 567 .

[3] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص 116 .

[1] أميره مداح : مرجع سابق ، ص 20 . حسين عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص 356 عبد اللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، العدد الرابع ، السنة 13 ، 1408هـ/ 1988م، ص 204 ، 205 . خلق الوذيناني : مرجع سابق ، ص 95 ، 96 .

تقديم أبنائهم للدوشرمة ، لأنها تهيئ لهم في كثير من الأحيان حياة سعيدة وعيشة رغدة ناعمة مريحة ، وفي النهاية يعد هؤلاء الصغار هم أولاد السلطان نفسه . [2] وكان الآباء في نهاية الأمر موقنين من أن أبناءهم سيظفرون برتبة راقية وثقافة رفيعة وأن مستقبلاً زاهرًا ينتظرهم عندما يتخرجون؛ إذ سيتقلدون المناصب الرفيعة ، وتحيط بهم أسباب السعادة والثراء .[3]

ويقال إن الأمر وصل إلى حد أنَّ القرويين الفقراء كانوا يتطوعون ويلتمسون من رقيب التجنيد أخذ ابنهم بدلاً من ابن الجار .[4]

وهناك أمر وهو أن عادة بيع الأبناء المسيحيين أرقاء كانت معروفة ومنتشرة على نطاق واسع في ذلك الوقت ، مما جعل حركة التجنيد هذه أقل إثارة للدهشة والرفض ، ولذلك لم يكن هذا الأمر بالشيء الجديد ، وما هو إلا استمرار لنظام ساد في أوروبا في العصور الوسطى في ظل الدولة العثمانية ، حيث اعتاد الآباء والأمهات على فراق أبنائهم ، كما أن كثرة الحروب الطاحنة في أوروبا وما تخلفه وراءها من دمار ، إضافة إلى انتشار الأمراض القاتلة والأوبئة الفتاكة ، ساعد على دعم هذا الإحساس في نفوس الأهالي . [5]

ويؤكد كريزي أنه لم يرد أي حدث يدلل على حدوث إكراه للأسر المسيحية على تقديم أبنائها ، بل إن الآباء أنفسهم كانوا يسعون لإلحاق أبنائهم في الانكشارية.[6]

وللدراسة ملاحظة مهمة ، وهي أن هؤلاء الأطفال كانت أعمارهم تتراوح ما بين التاسعة والخامسة عشر ، فهل من المعقول أن ينسى هؤلاء أسرهم وهم في هذه الأعمار الناضجة ، ولنفترض أنه أكره على البقاء والتدريب العسكري فكيف ينسى قريتهُ ورفاقه ؟! لا يوجد لدى المستشرقين ردٌ على ذلك خاصة أنه لا توجد حادثة واحدة على الأقل تدل على أن الغلام الذي حُرم من أهلهِ صغيرًا عاد إليهم كبيرًا ، أو أنه ساعد أهلهِ وأرسل لهم معونة ، أو حتى ساعد أهل قريتهِ أو قدم لهم خدمات مميزة ، خاصة أن بعض هؤلاء الغلمان قد تولوا مناصب عالية مرموقة بدءًا بالمراتب العسكرية ومرورًا بالوزارة ومنصب الصدر الأعظم وانتهاءً بمناصب الولاة في الأقاليم ، ولم يثبت في المصادر والمراجع التاريخية أنه قامت

---

[2] حسين عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني ، ص 356 .

[3] عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص 39 .

[4] حسين عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ص 357 .

[5] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص 117 ، عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص 38 ، 39 .

[6] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني في عصر محمود الثاني ، ط 1 ، القاهرة : 1398هـ / 1978م ، ص51 نقلاً عن كريزي .

ثورة أو تمرد أو قُدِّم طلب للدولة العثمانية من الأسر المسيحية القروية يتضمن احتجاجًا على انتزاع الأطفال ويطالب بإلغاء ذلك ، كما أنه في بعض الأحيان يكون الغلام تجاوز العاشرة وهذا سن يستطيع فيه الطفل مقاومة آخذيه أو حتى الهرب منهم بعد ذلك .

ثم لماذا تتحمل الدولة العثمانية عناء انتزاع الأطفال المسيحيين وتربيتهم والصرف عليهم ماديًا ، بل والقيام بتنظيم بعثات دورية يصطحبها عدد من السائقين (سروجي) والحراس حتى يشنوا حملة شعواء على أطفال القرى المسيحية ويروِّعوا الآمنين وينتزعوا الأطفال من أحضان أسرهم ؟! الإجابة أنه لا يوجد سبب عقلي لجعل الدولة العثمانية تتحمل هذا العناء ، إن انتظار أطفال صغار حتى يكبروا ويستطيعوا حمل السلاح لهو انتظار سنوات طويلة ، فما الداعي لها طالما أنه يوجد أطفال المسلمين الذين تربوا أصلاً على تعاليم الدين الإسلامي ، والجهاد في سبيل الله وإعلاء راية الإسلام .

وتوجد وثيقة تدعم أن المسألة كانت مجرد جمع جنود قادرين على حمل السلاح وإرسالهم إلى أدرنة للانخراط في سلك الانكشارية ، وذلك في إطار التجنيد الإجباري المتبع في أغلب دول الإسلام عبر التاريخ ، وليس انتزاع الأبناء المسيحيين من ذويهم . [1]

وهذا يدل بوضوح على أن عملية الانتزاع لم تتم أصلاً ، وإن تمت فلم تكن بتلك القسوة التي تحدثت عنها مواد الدائرة .

أما بالنسبة لتقسيمهم بناء على جمال الوجوه واعتدال القوام وظهور علامات الفطنة والذكاء فهذا أمر طبيعي جدًا ؛ لأنه ليس كل الأطفال الأيتام يتم إلحاقهم بالانكشارية ، المناسب وغير المناسب ، كما أنه لابد وأن يُنتَقَى من هؤلاء الأطفال من يرشَّح ليعمل في سراي القصر، والذين لابد أن يكونوا على قدر من الذكاء والوسامة ؛ لأن من سيتخرج منهم من المدرسة الخاصة سيصل إلى أعلى مناصب الدولة كالوزراء والصدور العظام ، وكانوا جميعًا يخضعون للتدريب ، رغم صرامته ، إلا أنه اتسم بالإنسانية ، والغاية من تلك الصرامة خلق رجال شجاعان على قدرٍ من الكفاءة والتميز ، حتى أن السلطان سليمان القانوني 926هـ - 974هـ / 1520م - 1566م كان يتفقد أطفال مدرسة القصر ليلاً ليطمئن على أحوالهم بنفسهِ[1]

---

[1] وثيقة 8265 أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول. خط همايوني 011011 نقلاً عن أماني جعفر الغازي: مرجع سابق ، ص139.

[1] أماني جعفر الغازي :مرجع سابق ، ص 55- 56 .

أما عن مسألة أن الانكشارية كانوا يتزوجون من نساء أهل البلاد في الولايات غير المتحضرة ، ويطلق على أبنائهم أبناء الأرقاء فإنَّ الخداع والتزييف واضح تمامًا ؛ لأنه من المعروف بين كل المؤرخين والمستشرقين وثابت تاريخيًا أن أحد أهم القوانين الخاصة بالانكشارية هي عدم زواجهم مطلقًا ، فمن أين جاء كليمان هوار بهذه المعلومة الغريبة والشاذة ، إنَّ السلاطين الأوائل لم يسمحوا بزواج الانكشارية وذلك خوفًا من نمو الروابط الأسرية التي قد تؤدي إلى تقاعسهم عن الجهاد ، وتجعلهم يعيشون خارج ثكناتهم العسكرية . وهذه الحقيقة أكدتها جميع الكتب والمخطوطات ، فكيف يتزوجون بل وينجبون أبناء يسمون أبناء الأرقاء؟!

سبق وأوضحت الدراسة أنهم لم يكونوا أرقاء ولا مرتزقة فكيف يطلق على أبنائهم أبناء الأرقاء ؟! إن أيَّ مُراجع لتاريخ الانكشارية يكتشف أن أغلب ثوراتهم وتمرداتهم كانت لطلب زيادة الأعطيات والرواتب ، فكيف يكونوا أرقاء؟! إن كليمان هوار قد وقع في افتراء مفضوح ولا يخفى على دارس التاريخ .

وللدراسة تعليق على عدم السماح للانكشارية بالزواج ، فهذا قرار ليس من أحكام الشريعة بشيء ؛ لأنه عندنا دليل في التاريخ الإسلامي وهو صحابة الرسول ﷺ حيث كانوا متزوجين ولديهم أبناء ولكن ذلك لم يثنيهم عن حب الجهاد والاستشهاد في سبيل الله. وعليه فإنّ هذا القانون يعد العيب الوحيد في الانكشارية لأنه ينافي الفطرة الإنسانية التي جبل الناس عليها .

وأخيرًا خاض المستشرقون في مسألة فقهية واضحة في الشريعة الإسلامية، ولا تغفل عن أي مؤرخ أو مجرد مسلم عادي ألا وهي إكراه الأطفال على الإسلام، إنَّ حكم الإسلام في هذا الأمر واضح وصريح لا غبار عليه لقوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾[1]

وهذه قاعدة شرعية ثابتة ، وهي من مبادئ الإسلام ، ومبادئ السلاطين العثمانيين المسلمين كذلك ؛ إذ لا يجوز إجبار أحدٍ أو إكراهه على دخول الإسلام ؛ فالدين يرفض هذا الأمر رفضًا تامًا ، واتضح هذا الأمر في الآية الكريمة السابقة الذكر.[2]

---

[1] سورة البقرة : آية 256 .

[2] محمد علي الصابوني : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 163 .

وإذا كان الإسلام يمنع الإكراه على الإسلام فكيف يسوِّغ أن يسمح بانتزاع الأطفال من أحضان أسرهم ، كما أن الإسلام يحرص على تنشئة الأطفال في كنف أسرهم وتوفير البيئة النفسية الملائمة لنموهم الصحي .[3]

ولا يمكن إكراه إنسان على اعتقاد شيء وترسيخه في قلبهِ الذي يمتلكه بين ضلوعهِ ، خاصة وأنه تجاوز العاشرة ووصل إلى الخامسة عشرة من العمر ، فهذا يعني أن المسيحية متأصلة في نفسه ، فهل يعقل أن ينسى تعاليم ديانته الأولى ويعتنق ديانة أخرى ، بل ويحمل السلاح ليدافع عنها ضد أبناء دينهُ ؟! إنَّ ذلك أمر يصعب تصديقه ، وقد أورد المستشرقون المعلومة تلك دون سندٍ تاريخي أو حتى تفكير في أنه من الممكن أن يستوعبها ذهن قارئ عادي .

إنه لأمر واضح تمامًا فكذبهم وافترائهم وخبثهم المتجلي في هذه المعلومة لا يمكن تصديقها ، حتى إنهم أوردوا ذلك بين السطور ؛ لكي لا يتنبه لها القارئ ، وتمر عليه كأمر حقيقي واقعي .

ثم إن إرغام شاب في الخامسة عشرة على تغير معتقدهِ واعتناقهِ للإسلام لهو مسألة صعبة ، لأنه من الممكن أن يتظاهر بالإيمان ، ولكن يظل في قرارة نفسهِ رافضًا له ، وراغبًا في الانضمام إلى صفوف الأعداء ، ليحارب ضد العثمانيين؛ لأنه يحقد عليهم ويكره دينهم ، لأنه أكره على اعتناقهِ ، لكن ذلك لم يحدث قط ، وإن حدث ذلك لكانت أقلام المستشرقين الحاقدة أول من أبدع في الكتابة عن هذه الأحداث . بل على العكس تمامًا كان الجندي الانكشاري يحلم بالشهادة دائمًا ، ويرى جنات ربهِ وهو يتلوى محترقًا تحت سيل من الزيت المغلي الذي تصبه قوات الأعداء المدافعة عن الأسوار، وإذا انفتحت ثغرة في تلك الأسوار كانت الأصوات ترتفع بتكبير يتردد في المعسكر العثماني وكأنه زلزال الحشر ، وبروح فدائية حقة كانت القوات العثمانية تريد كسب الانتصار أو الاستشهاد في سبيل الله .[1]

لقد أعلن الجنود الانكشاريين الإسلام بمحض إرادتهم ولم يفرض عليهم ، وقد حسن إسلامهم وكانوا أثناء القتال يتوقون إلى الشهادة ، ويندفعون في القتال لينالوها ؛ وذلك لأنهم اقتنعوا منذ صغرهم بمبادئ الجهاد الإسلامي ، وقابلوا القتال بقوة وعزم وثقة بالنصر .

---

[3] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 128 .

[1] عبد العزيز نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية العصر الحديث ، د. ط ، القاهرة : دار الفكر العربي ، 1419هـ / 1998م ، ص13 .

أكد كرامرز في مادة الترك على مسألة إكراه الأطفال النصارى على الدخول في الإسلام ، على الرغم من أن سياسة الدولة العثمانية قد جرت على التسامح الديني مع اليهود والنصارى . [2] إلا أنهم أصروا على رأيهم على الرغم من أن الدلائل التاريخية توضح أن الانكشارية كانوا كتلة واحدة تشعر بواجبها الإسلامي وبالمهمة التي أُعدِّوا من أجلها ألا وهي الجهاد في سبيل الله ، السيف سلاحهم ، ودعوة الحق شعارهم ، يذهبون إلى ساحات القتال وهم يحملون أرواحهم على أكفهم ، إما غازٍ وإما شهيد ، وقبل دخولهم أي معركة كانوا يتطهرون ويصلون ، ويطيلون السجود في صلاتهم خشوعًا لبارئهم واستعدادًا للشهادة . [3]

إن ملوك الفرس اعترفوا بشجاعة الانكشارية ، والدليل أنه أثناء حرب الدولة العثمانية مع بلاد فارس كان القادة يسألون عيونهم وجواسيسهم عن الجنود الذين يكثرون السجود ، وهم بذلك يقصدون الانكشارية . [4]

وعليه فإن الانكشارية حسن إسلامهم واقتنعوا به ودافعوا عنه ، بل ووصلوا إلى تمني الشهادة في سبيل الله ، فكيف يكتب المستشرقون أنهم أكرهوا على الإسلام ونصدقهم ، لو أنهم أسلموا بالإكراه ودون اقتناع لوجدنا صورة الانكشارية تغيرت تمامًا في كتب التاريخ وأقلها أنهم لن يحققوا أعظم الانتصارات في التاريخ العثماني .

والصبي إذا لم يكن له والدان أو كانا غير معلومين فإنَّ التبعية في الدين تنتقل إلى تبعية الدار ، (أي البلد) وبما أن كثيرًا من الصبيان لم يكونوا على علم بآبائهم فإنَّ التبعية تكون للدولة العثمانية المسلمة صاحبة الدار ، وكذلك إن انتقل الصبي من دار أخرى إلى دار الإسلام بسبب الحروب التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، فإن الصبي يتبع الإسلام ، فهو مسلم بالتبعية لانتقالهِ إلى دار الإسلام . [1]

ويتضح من هذا أنه لا يوجد حكم شرعي في الإسلام يوجب الإسلام على الأطفال بالإكراه ، وليس من المعقول أن السلطان أورخان المتدين التقي يوجب الإسلام بالإكراه على الأطفال لمجرد أنه حصل عليهم ، وقد كان معروفًا أيضًا عن أخيه علاء الدين العلمُ الواسع

---

[2] كرامرز : مادة الترك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج 5 ، ص 174 .

[3] ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط2 ، بيروت : دار العلم للملايين ، 1960م ، ص 17 . خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص 96 .

[4] أحمد جودت : تاريخ جودت ، تحقيق : عبد للطيف محمد الحميد ، ط 1 ، لبنان : مؤسسة الرسالة ، 1420هـ / 1999م ، ص195 .

[1] الكاساني الحنفي : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ط1 ، بيروت : دار الكتاب العربي ، 1402هـ ، ج7 ، ص104 .

بالشريعة والتعفف عن الدنيا وزينتها ، فكيف يشير أو يوافق لأخيه أورخان على شيء مخالف للشريعة الإسلامية ؟! .[2]

ثم ما العبرة في أن الدولة العثمانية تجمع هؤلاء الغلمان من أوروبا وحدها دون آسيا؟ لا يوجد مصدر يوثق هذه المعلومة وقد جُمع الأطفالُ المشردون واليتامى من أوروبا ؛ وذلك لأن الفتوحات العثمانية كانت تدور في شرق أوروبا ، ولأنَّ أغلب مناطق آسيا التي دخلت تحت الحكم العثماني دخلت سلمياً فلم ينتج عن الضم أطفال يتامى بلا مأوى ، لهذه الأسباب جمعت الدولة العثمانية هؤلاء الغلمان من أوروبا وحدها دون آسيا .[3]

وأخيرًا فإن فكرة نظام الانكشارية في أساسها عبارة عن مؤسسة تقوم بتربية الأطفال وتدربهم تدريبًا عسكريًا وتعلمهم الدين الإسلامي ، وهو ليس نظامًا قهريًا استبداديًا – كما صوره المستشرقون – ولا أداة للتحول القهري للإسلام . ولم يكن جنود الانكشارية مرتزقة أبدًا ؛ لأنهم – ببساطة شديدة – كانوا ينالون رواتب وأعطيات .

ولهذه الدراسة الحق في التساؤل من أين استقى هؤلاء المستشرقون روايتهم؟ فهم لم يذكروا مصادرهم أو الوثائق التي اعتمدوا عليها ، كما أنه لم ترد معلومات عن الانكشارية في المخطوطات العثمانية –كما ذكروها– فمن أين لفقوا هذه التهمة الخطيرة لسلاطين الدولة العثمانية ؟! ثم أليس ذلك من مقتضيات البحث العلمي؟! لقد حملت التهمة بين طياتها دليل بطلانها ؛ لأنها لم توثق علميًا ، وافتقدت للتوثيق التاريخي ، وافتقد المستشرقون أول سمة للمؤرخ وهي الأمانة العلمية .

وبناءً عليه نكتشف حقيقة مهمة هي عدم استناد المستشرقين إلى أيِّ سند تاريخي أو مصدر أو وثيقة أو مخطوطة وإنما يتولد لدى القارئ الواعي إحساس بأن ذلك من تأليف المستشرق نفسه ، وفي نهاية الأمر لا نجد مصدرًا موثوقًا يعتمد عليه للجزم بصحة الفرية .

والغريب في الأمر أن المؤرخين المسلمين اعتمدوا على المستشرقين في نقل هذه الفرية والتشويه ، ولم يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث عن مدى صحتها أو مصدرها ، بل عدّها بعضهم أمرًا مسلمًا .

---

[2] زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، ص 144 – 153 .

[3] كليمان هوار : مادة أيج أوغلان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3 ، ص 185 .

وإذا دققنا النظر في أنظمة الجيوش في التاريخ ، نكتشف أن العثمانيين ليسوا مبتدعين، أي أنهم لم يبتدعوا أو يأتوا بشيء غير مألوف في ذلك الوقت أو حتى مخالف للشريعة الإسلامية أو العرف والتقاليد ، وذلك حينما أنشأوا جيش الانكشارية ؛ إذ إنَّ فكرة إيجاد جيش محترف فكرة عسكرية عبقرية ، مارستها كل شعوب العالم.[1]

وخير مثال على ذلك جيش إسبرطة عند الإغريق ، ومن اللافت أنَّ أنظمته مماثلة تمامًا لما صاغهُ المستشرقون في فريتهم على الانكشارية ، وكأنهم أخذوا نظام جيش إسبرطة ونسبوه للعثمانيين بكل ما فيه، ولغوا نظام الانكشارية الصحيح وفيه يفُصل الطفل عن أهلهِ وذويه منذ السابعة من العمر ، ويربَّى من قبل الدولة في ثكنات عسكرية خاصة ، ويقُسم الصبيان إلى مجموعات تحت إشراف مدرب ، وبذلك تقطع أواصر الصلة والمحبة بينهم وبين أسرهم نهائياً ، ويتم تدريبهم بمنتهى القسوة ، مفتقدين لأبسط المعاني الإنسانية؛ حتى يشبوا على القسوة والجبروت ، ويصبحون جنودًا أقوياء – في نظرهم – للدفاع عن إسبرطة .[2]

وفي الواقع من الغريب جدًا أن يهاجم المستشرقون نظام الانكشارية ، بل وينسبون له الافتراءات ، دون أن يأتوا على ذكر نظام إسبرطة أو حتى الإشارة إليه ، وكأنه لم يكن موجودًا أبدًا .

ولماذا نذهب بعيدًا ، ففي كتب التاريخ الحديث الأمثلة كثيرة ، فنجد مثلاً أن بلاد المستشرقين أنفسهم ، سيرت جيوشاً من أبناء المستعمرات ليحاربوا الأعداء ، ولولا جيوش المستعمرات الإنجليزية والفرنسية لما استطاعت هذه الدول الصمود أمام الدولة العثمانية ؛ إذ ساق الإنجليز جيوشاً من الهند وغيرها من المستعمرات لخوض المعارك ، أما فرنسا فقد كانت مقدمة جيشها من المغاربة والجزائريين وإفريقيا السوداء ، وبالطبع هم من يتلقى الصدمة الأولى .[1]

ولم يذكر المستشرقون– للأسف– في موادهم أي شيء عن دورهم الناصع في الفتوحات الإسلامية العثمانية ، ونشر الإسلام ، وكيف تدرجوا في المناصب حتى استطاعوا

---

[1] محمد فريد المحامي :مصدر سابق ، ص 768 .

[2] محمد كامل عياد : تاريخ اليونان ، ج1 ، ط 3 ، دمشق : دار الفكر ، 1414هـ/ 1993 ، 186 – 189 .

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص 769 .

أن يخطوا في أحيان كثيرة تاريخ الدولة العثمانية ، وانحصر دورهم في بث أفكار مشوهة هم – أصلاً – واضعوها ، وكذلك قيامهم بالتمردات والثورات ضد السلاطين ، وللأسف فقد صدقوا في هذه النقطة وصوَّروا تلك الثورات والتمردات بدقة متناهية. وكأن حياتهم دائمًا هكذا ، بالإضافة إلى وضوح تقسيماتهم وأنظمة حياتهم الداخلية ، وأنواع أسلحتهم المستخدمة .

وإذا كان المستشرقون قد نقدوا هذا النظام ، ورقت قلوبهم الحاقدة على الإسلام لهؤلاء الأطفال اليتامى ، فإنه لا يصل مطلقاً لما قامت به محاكم التفتيش ضد مسلمي الأندلس من تعذيب واضطهاد وتخيير ما بين النصرانية والموت ، أو ما فعلته دول المستشرقين أنفسهم بالزنوج الأفارقة في عهد الاسترقاق المروع ، أو تخريب الدول الاستعمارية بالبلاد المستعمرة مثل مصر والجزائر والمغرب والشام وغيرها ، وإذا كان المستشرقون قد صوروا الانكشارية بشكل سيء في دائرة المعارف الإسلامية ، فإنهم نسوا تمامًا تاريخ أوروبا المليء بالخزايا والظلم، ونسوا أن هذا النظام كان مقبولاً في تلك الفترة.

ألبس العثمانيون فكرة تربية الأطفال المشردين والأيتام لباسًا نظاميًا وشرعيًا يحترم حرية الفرد ، حيث أعطته حياة كريمة وعيشة رغدة بدلاً من التشرد والضياع ، وفي الوقت نفسه لم تحرمهُ من ذويه ؛ لأنهم – حقيقة – ليسوا موجودين .

المبحث الثاني :

النظم الاجتماعية " نظام الحريم أنموذجًا "

يعد موضوع الحريم العثماني من أكثر موضوعات التاريخ العثماني صعوبة في البحث وجمع المعلومة الصادقة ؛ وذلك بسبب افتقاره إلى المعلومات الصحيحة من مصادر موثوقة ، بالإضافة إلى أنَّ موضوع المرأة في المجتمعات الإسلامية من أكثر النقاط المثيرة للجدل والحساسية ؛ ويعود ذلك إلى التهميش الكبير لدور المرأة المسلمة في الكتابات الإسلامية، والتركيز على الجانبين السياسي والاقتصادي في التاريخ الإسلامي عامة .

لكن هذا الإهمال من قبل المؤرخين المسلمين قابله اهتمام ملحوظ من قبل المستشرقين بالكتابة عن الحريم العثماني ، وإخراجه بالصورة التي ترضي ذوقهم حتى وإن كانت مخالفة تماماً للواقع التاريخي ؛ إذ يعد بالنسبة لهم من أكثر المعلومات إثارة وتشويق . كما يعد أيضًا ضربًا من الخيال ؛ لأنه لم يكن مسموحاً لأي أحد دخول الحريم السلطاني فنسجوا من وحي خيالهم المريض الكثير من الأمور .

قدَّم المستشرقون المرأة الشرقية وخاصة الحريم العثماني للمجتمعات الغربية كما يتوقعونها ، وبصورة تؤكد المفاهيم السابقة عنهن ، والتي تعتمد في الأصل على نماذج من نساء ليسوا من الحريم العثماني أو ممن عشن فيه ، وإنما يلتقط المستشرق معلوماتهِ ويستقيها من أفواه نساء عاديات جدًا قابلهن صدفة، بالإضافة إلى أفكار من وحي خياله ، ويبني عليها صورة المرأة في الحريم العثماني ، ثم يأتي من بعده من يعتمد عليها ، ويتسع نطاقها حتى تكاد تصبح هي الواقع والحقيقة وما عداها ضرب من الخيال . وهناك مصدر خصب للمستشرقين وهي لوح الفنانين الذين تخيلوا المرأة في الحريم العثماني ، وترجموها على لوح عالمية استقى منها المستشرقون بعد ذلك حياة الحريم العثماني .

لقد عمل الاستعمار دائمًا ومن ورائهِ الاستشراق على ترسيخ الصورة القديمة للمرأة في الشرق ، وذلك بربطها بصورتها في العهود السحيقة ، ورفض تمامًا إمكانية تغيرها أو تطورها ، والمستشرقون جميعًا مهما اختلفت مذاهبهم ينطلقون من الإيمان الثابت بالصورة الجامدة عن الشرق ، وفي إطار هذه الصورة تبقى المرأة كما هي إلى الأبد ، كائنًا مسلوب الإرادة والفكر ، وهم بذلك ينكرون التطور التاريخي. [1] والصحيح أن وضع المرأة تغير مع

---

[1] إدوارد سعيد : الإستشراق ، المفاهيم الغربية للشرق ، ص29 ، 30 .

تقدم الزمن ونالت حريتها بالإسلام ، والصورة التي اعتمد عليها المستشرقون هي صورة المرأة في عصر معين وثقافة معينة ليست لها علاقة بالعصور الإسلامية .

في الوقت نفسه تعمد المستشرقون إغفال العديد من الكتابات المنصفة عن المرأة ، وخاصة في العهد العثماني ، ومنها على سبيل المثال أقوال الليدي ميرى ورتلى مونتاج (1103هـ – 1688م / 1177هـ/ 1762 م) وهي زوجة السفير البريطاني في إستانبول ، والتي اعترفت بأن المرأة التركية بالرغم من الحجاب واليشمك كانت تتمتع بقدر كبير من الحرية في الدولة العثمانية ، لماذا ؟ لأن لها الحق في تملك الممتلكات وإدارتها ، ولها حق الوراثة أيضًا ، وهو حق لم تحصل عليه المرأة الإنجليزية إلا في القرن العشرين [2].

وتقدم وثائق المحاكم الشرعية والأوقاف معلومات مهمة حول أوضاع المرأة في العصر العثماني ، وبصفة عامة فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ، والحالة الاقتصادية للمرأة ، وهذه الوثائق تقدم العديد من النماذج حول كيفية صيانة المرأة لأوضاع أسرتها من خلال تفهمها لطبيعة عقد الزواج في الإسلام ، فهو عقد بين طرفين يحتمل وضع العديد من الشروط التي تصبح ملزمة طالما ارتضاها الطرفان .

من هنا رصدت لنا الوثائق العديد من الحالات التي اشترطت فيها الزوجة على زوجها أنه " متى تزوج عليها زوجة ثانية بأي شكل من الأشكال أو سافر أكثر من مرة في العام أو ارتحل بعيدًا للتجارة ، أو ضربها ضربًا مبرحًا يترك أثرًا ، فمن حقها طلب الطلاق " .

كما تقدم لنا الوثائق معلومات مهمة حول " الخلع " وهو حق المرأة في طلب الطلاق للضرر من زوجها . فعندما تتقدم الزوجة إلى القاضي لطلب الخلع ، يرفض الزوج أحياناً ، ويطلب الزوج أن تعوضه زوجته عن الصداق وتتنازل عن النفقة ، وغالبًا ما يتم النقاش حول المبلغ المطلوب في المحكمة للوصول إلى اتفاق، وفي هذه الحالة لا يستطيع الزوج رد زوجته إلى عصمته خلال الثلاثة أشهر التي تسمح بها الشريعة الإسلامية ، ولا يتم الوفاق فيما بينهما إلا على أساس عقد زواج جديد ، وبشروط جديدة وصداق جديد . والخلع حق

---

[2] محمد عفيفي : مرجع سابق ، ص 81 .

شرعي أصيل للمرأة كان مطبَّقًا طيلة العصر العثماني . [1] فالمرأة في العهد العثماني نالت جميع حقوقها الشرعية ولم ينقص منها شيء ، وقياسًا عليه الحريم العثماني .

لقد تناولت دائرة المعارف الإسلامية موضوع الحريم العثماني بشيء من الاختصار في المواد ، حيث ورد ذكرهن في ثلاث مواد فقط ، الأولى كلمة حريم [2] والثانية في مادة خرّم سلطان [3]، وأخيرًا مادة ماه بكير كوسم .[4]

كل مادة تناولها مستشرق مختلف ، وكلٌ يقدم آراءه على حسب خلفياتهُ الثقافية . أما عن مادة الحريم فقد تناولت الحريم العثماني من ناحية :

أولاً : تعريف كلمة حريم وحصرهِ في معنى مختصر جدًا .

ثانياً : محاولة إثبات اختفاء السيدة الحرة المعروفة منذ القدم نظرًا لتعدد الزوجات والجواري.[5]

قدم المادة المستشرق E.D وهو لم يحرر في الدائرة مواد كثيرة ، وإنما اكتفى بعدد قليل. من أهم المواد التي كتبها (مادة حريم) التي تميز أسلوبهِ فيها بالاختصار الشديد والخلط بين المعلومات ، فعندما كتب عن حريم المسلمين جاءت معلوماتهِ مبالغاً فيها ، وكأنه يتحدث عن حريم القصور الأوروبية ، ولا يوجد أي ترابط بين معلومات المادة ؛ فكل معلومة من فترة زمنية مختلفة ، فضلاً عن أنه نسب المعلومات إلى مصادر خاطئة ليثبت صحة معلومتهِ ، وهو مستشرق مجهول لم يكتب اسمه بالكامل وكأنه دخيل على المستشرقين .

وفيما يلي نقد للنقاط التي أحتوت عليها مادة الحريم :

أولاً : تعريف كلمة حريم وحصره في معنى مختصر جدًا .

" مصطلح يطلق على تلك الأجزاء من الدار التي يحُرم الدخول إليها ، كما يطلق بالأخص على أجنحة الحريم " [6].

---

[1] محمد عفيفي: مرجع سابق ، ص 81 ، 82 .

[2] E.D : Harim , the Encyclopaedia of Islam , Leiden , 1971 , III , p.209 .

[3] هيوار : مادة خُرمّ ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج8 ، ص 297 .

[4] M.Cavid Baysun : Kosem Sultan , the Encyclopaeia of Islam , Leiden , 1991 , VT , P . 272 .

[5] E.D : Harim , The Encyclopaedia of Islam , III , P. 209 .

[6] E.D : Harim , The Encyclopaedia Of Islam , III , P . 209 .

والتعريف في هذه الصورة مختصر جدًا لا يعبر عن حقيقة الكلمة ، فهي كلمة يندرج تحتها الكثير من المعلومات التي تعطي الصورة الحقيقية عن الحريم بصفة عامة .

أ) المعنى العام للحريم

يشتق لفظ الحريم من كلمة الحَرَم . وحَرَم الرجل ما يقاتل عنه الرجل ويدافع عنه ويحميه . والحُرمة ما لا يحل انتهاكه من ذمةٍ أو حق ، وأيضًا بمعنى المرأة ، وأهل الرجل . وعليه فإنَّ معنى الحريم لغة : هو حُرم فلا ينتهك . وحريم الدار هو ما أضيف إليها من حقوقها ومرافقها ، وهن ما يغلق عليهن في الدار . [1]

وبهذا المعنى أطلق لفظ الحريم في معناه العام على الجزء المخصص من البيت الذي يعيش فيه الرجل مع أهل بيته من النساء والأبناء والقائمات على خدمتهن ، ولا يحق للأجانب من الرجال انتهاك حرمته ودخوله ، وهي تسمية ذات دلالة حضارية عمّا يكتنف هذا المكان من مظاهر الاحترام . [2]

ب) معنى الحريم عند العثمانيين

انتقلت كلمة الحريم بهذا المدلول الحضاري إلى العثمانيين ، وأصبحت تعني في المصطلح التاريخي العثماني واحدًا من ثلاثة أقسام يتكون منها القصر، وهذه الأقسام هي : القسم الخارجي ، والقسم الداخلي ، والحرم أي الحريم . ويعني الحريم في هذا المصطلح الجزء الخاص من القصر الذي يعيش فيه السلطان مع أهل بيته من النساء ومن يقوم على الخدمة الداخلية فيه من النساء أيضًا. وأشهر قسم للحريم العثماني هو حريم قصر " طوب قابي " ، وقد اتخذه السلاطين العثمانيين سكنًا لهم ومقرًا للحكم منذ عهد السلطان سليمان القانوني 927هـ-974هـ/ 1520م- 1566م حتى زمن السلطان عبد المجيد 1255هـ-1278هـ/1839- 1861م[3] ، وقد أخذ الحريم عند العثمانيين عدة ألفاظ كلها تدل على الحريم العثماني.

- **حرم همايوني :** هي إدارة (دائرة الحريم) : وهي إدارة مخصصة لإدارة قسم الحريم في القصر السلطاني العثماني .

---

[1] المعجم الوجيز : نخبة من العلماء ، ج 2 ، ط1 ، القاهرة : دار الكتب العلمية ، 1401هـ / 1980م ، ص147 . حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص48 .

[2] ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، 1418هـ / 1998م ، ص10 .

[3] ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص10 .

- **حرم آغاسي :** هو الآغا الخادم الذي يُسمح له بالدخول والخروج على الحريم في قسم الحريم داخل القصر السلطاني العثماني .
- **حريم** :هو المكان المحترم والمصون والممنوع فيه دخول أي شخص.
- **حريم خاص:**هو الإدارة الخاصة لإدارة قسم الحريم في بيوت كبار الذوات . [1]

- دائرة الحريم (حريملك) أو (حريم دائرة سي) :

حريملك : كلمة تركية مكونة من مقطعين هما :

حريم : معناها الحريم أو النساء ، وهي كلمة عربية الأصل .

لك : وهي لاحقة تركية تدخل على الاسم فتعطيه معنى المصدرية . [2]

دائرة : بمعنى إدارة الحريم أو المكان المخصص لحريم السلطان العثماني بالقصر السلطاني .

و(دائرة الحريم) أو (إدارة الحريم) ، مصطلح عُرف في التاريخ العثماني باسم (الحرم السلطاني أو الهمايوني) ، وهو القسم أو المكان الذي يشغل مكاناً في القسم الخلفي من القصر السلطاني ، ويكون موقعه على يسار المساحة الثانية في قصر أو سراي (طوب قابي) المعروف بإستانبول ، وهو يطل على خليج البوسفور أو القرن الذهبي .

ويتكون حريم السلطان أو دائرة الحريم من عدة غرف وأجنحة وممرات وشقق ومبانٍ للخدمة ، وهو مغطى بقباب ، وقد غُلفت جدرانه بأثمن أنواع الرخام والقيشاني ، وزُينت بأجمل أنواع الخطوط والكتابات البديعة بالإضافة إلى تزينها بالآيات القرآنية [3].
وهو منظومة من المباني التي تشكل الدار الخاصة لإقامة السلطان العثماني .
والحريم اصطلاح تاريخي معروف منذ القدم في العالم الإسلامي ، وقد استخدم القسم المخصص منه لإقامة النسوة وحدهن في السرايات والبيوت الكبيرة ليكون مقابلاً لقسم السلاملك . ولأنَّ (طوب قابي) سراي كان المكان الذي أقام فيه السلاطين العثمانيون ، فقد

---

[1] شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص 545 ، 546 . يلماز أوزتونا : مادة : (الحريم) ، موسوعة التاريخ الكبرى ، د. ط ، إستانبول : الغروب ، د. ت ، ص251 .

[2] شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص546 .

[3] للتعرف على كافة النقوش الكتابية الخاصة بالسراي وتواريخ عمائره ، انظر :
S.H.Eldem – Feridun Akozan : Topkapi Sarayi , 53-55 .
أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص154 .

أطلقوا اسم (الحرم الهمايوني) على القسم المخصص لأفراد عائلة السلطان والنسوة اللائي يقمن على خدمته .

وسيد هذا المكان هو السلطان العثماني ، ولهذا فإنَّ تسلسل المراتب وأوضاع المباني القائمة وأثاثها والمسافات الواقعة بينها قد تحددت كلها على أساس (دائرة السلطان) .

وعلى ذلك نرى أن دائرة أو دوائر إقامة والدة السلطان والخاصكية (زوجاته) والأمراء والأميرات والقلفاوات (المعاونين لهم من مدرسين وغيرهم) والجواري ، كل تلك الدوائر كانت تأخذ مكانها داخل الحريم ضمن ترتيب محدد .

وينقسم المقيمون في الحريم إلى قسمين : أحدهما يُخدم ، وهم : السلطان وزوجاته وبناته وأولاده ، والقسم الآخر يقوم بالخدمة كالقلفاوات والجواري وغيرهن. [1]

وأهم ما يميز الحريم العثماني هو عدم وجود ملكة في الدولة العثمانية ، وذلك لكثرة نساء السلطان مما يتعذر معها اختيار ملكة منهن . [2]

وعلى هذا فإن معنى الحريم ليس المكان المحرم الدخول إليه فقط ، وإنما تحوي الكلمة معاني عديدة تشير بوضوح لحياة الحريم العثماني بصفة خاصة .

ثم خاض المستشرق E.D في صورة معيشة الحريم العثماني مطلقًا عليهن، أسماء لا تنطبق عليهن مطلقًا ، وهي محظيات وأتباع وخصيان ، وهذا يظهر تمامًا خلفيته الثقافية المتأثرة بالنساء في قصور ملوك أُمراء أوروبا ، حيث امتلأت بالعشيقات والأطفال غير الشرعيين وما إلى ذلك من صور الفساد ، وهو بذلك يحاول قدر الإمكان طبع هذه الصورة على الحريم العثماني في قصور وسرايات الدولة العثمانية ؛ لأنه لا أحد من الأجانب استطاع دخول هذا المكان فكانت كتاباتهم مبنية على خيال وليس على واقع .

ثانياً : محاولة إثبات اختفاء السيدة الحرة المعروفة منذ القدم نظراً لتعدد الزوجات والجواري .

" الطبقات الغنية استفادت من النصيب الشرعي من الزوجات ، واتخذته مقّار للمحظيات والأتباع والخصيان والحراس وأصبح هذا الوضع الطبيعي في المجتمع الإسلامي خلال العصور الوسطى ". [3]

---

[1] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص295 . يلمازا وزتونا : مادة الحريم ،موسوعة التاريخ الكبرى ، ص252 .

[2] حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص48 .

[3] E.D : Harim , The Encyclopaedia of Islam , III , P. 209 .

إلا أن قولهِ هذا مجحف جدًا لحقيقة نظام الحريم العثماني ، فقد كان له نظام دقيق روعي فيه جميع نظم الشريعة الإسلامية ، مع التكفل بحماية النساء من المخاطر الخارجية ، دون الإخلال بحقوقهن الشرعية .

وقد كان مسكن زوجات السلاطين والنساء في القصر العتيق الكائن في منطقة بايزيد بإستانبول ، حيث كان قصر طوب قابي مقرًا للسلطان وحاشيته ، ومركزًا للإدارة . ثم بنيت دائرة الحريم في ق 10هـ / 16م مع بداية انتقال خرّم سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني إلى طوب قابي سراي ، في أجمل مكان من القصر ؛ إذ يطل على البحر ، وتحيط به الحدائق التي تحتوي على أحواض للسباحة وجداول المياه. وقد بنيت هذه الدائرة من قبل أشهر المهندسين المعماريين، وزخرفت جدرانها من قبل أشهر النقاشين والخطاطين الخزفيين ، وحليت الجدران من الداخل بالخطوط والكتابات الجميلة ، وطليت بأنواع فاخرة من الخزف ، كما طعمت بالصدف وبالأحجار الكريمة الأخرى ، بحيث يشعر الإنسان بين هذه الجدران بالهدوء والبهجة والطمأنينة .

إن قسم الحريم في القصر السلطاني مخصص لسكن السلطان ونسائه ، والقائمات على الخدمة ، وتحيط به الأسوار العالية ، والجدران السميكة مما يحول تمامًا دون تطلع أحد من الخارج إلى ما يدور بداخله ، وبذلك يصبح الحريم عالمًا مستقلاً تمامًا عن كل ما يدور خارجه ، وقد أعدت بداخله حدائق واسعة مزينة بكل أنواع الزهور ونافورات المياه وذلك لنزهة الحريم . ويتكون قسم الحريم من عدة أجنحة، كل جناح منها يسمى (دائرة) ، ويغلق على الأجنحة كلها باب رئيس يتولى حراسته من الخارج الأغوات .

أما غرف قسم الحريم وكذلك غرفة نوم السلطان فتزينها الآيات القرآنية ، كما أن كل أبوابه تعلوها الآيات القرآنية مما يضفي على المكان كله وقارًا واحترامًا ، ولهذا القسم من القصر العثماني تنظيم دقيق يخضع له كل جواري الحريم بلا استثناء سواء كن من نساء السلطان أم من الموظفات . [1]

لقد كانت أسرة السلطان في مركز الدائرة بالنسبة لجميع العاملات في الحريم ، وكانت تخصص عدة أجنحة في قصر الحريم لسكن والدة السلطان ، وجـــناح مستقـــل لكل

---

[1] ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص11 . يلمازا وزتونا : مادة الحريم ، موسوعة التاريخ الكبرى ، ص252.
Cengiz Koseoglu , Harem , Istanbul 1979 , S . 14 .

زوجة "قادين" من زوجات السلطان يطلق عليه دائرة ، وكل ذلك في شكل مبانٍ مستقلة ، وقد فرشت بأجمل الأثاث والرياش وتعددت الحجرات والقاعات فيه . [2]

أما بالنسبة لترتيب الحريم العثماني [1] فإنه يعتمد بصفة عامة على الترتيب الهرمي ، مثله مثل باقي التشكيلات العثمانية ، وقد روعي في هذا الترتيب تنظيم درجات ووظائف الحريم في القصر العثماني ، إذ اعتمدت كل الوظائف على الحريم فقط ؛ لأنه لا يمكن لرجل أن يخطو إلى الحريم باستثناء السلاطين وأبناء السلاطين والأمراء ، والمعلمين والأطباء .

وتنقسم الجواري داخل الحريم إلى قسمين ، هما : نساء السلطان والقائمات على الخدمة والإدارة . وتأتي والدة السلطان على قمة نساء الحريم ، ثم زوجات السلطان، ثم المستولدات ، ثم المحظيات .

أما المسؤولات عن الخدمة والإدارة فلهن سلك آخر ، تأتي على قمته كبيرة المسؤولات عن خزينة السلطان ، ثم الرئيسات ، ثم النائبات ، ثم المستجدات من الجواري ، وهؤلاء يمثلن قاعدة الشكل الهرمي ، ولكل فئة من هذه الفئات رئيسات ومساعدات .

أما الخدمة الخارجية لهذا القسم ، فموكلة إلى عدد من الرجال لهم أيضًا درجات ذات ترتيب هرمي ، يطلق على الواحد منهم اسم " أغا " [2] ، ومهمتهم تنظيم علاقة قسم الحريم بالعالم الخارجي ، ويرأس هؤلاء الأغوات " أغا البنات " (قيزلر اغاسي) [3] ، ويعرف أيضًا

---

[2] عبدالعزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 435 .

[1] انظر ترتيب الحريم داخل القصر السلطاني في الملاحق ص 670.

[2] أغا : وهو المنطوق التركي لكلمة (أقا) الفارسية وتعني السيد ، رئيس الأسرة ، الأخ الأكبر ، وهو لقب من ألقاب التعظيم ، وليس معروفًا متى بدأ استخدام الأغوات داخل القصر في قسم الحريم ، لكن المرجح أنه منذ عهد السلطان مراد الثاني ، ويتم تربية الأغوات داخل القصر السلطاني منذ نعومة أظافرهم لإعدادهم الإعداد اللازم ثم يجري توزيعهم على القصور العثمانية ، ومن الطبيعي أن يكون مكان الأغوات خارج أبواب القصر ولا يمكنهم الدخول مطلقًا ، فمهمتهم الأساسية منع دخول أي شخص بما فيهم أنفسهم إلى داخل قصر الحريم وفتح الأبواب صباحًا وإغلاقها مساءً ، وحراسة أبوابه ، وملاحظة الداخلين والخارجين منه ، ومرافقة عربات الحريم أثناء النزهة ، ولابد أن يتوفر فيهم الصدق والأمانة وغض البصر ، ومن يضبط وهو يختلس النظر إلى أي واحدة في الحريم فإنه يعاقب بشدة انظر :

C. agtay ulusay , Harem . Ankara 1980 S. 20 .

حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص18 . يلمازا وزتونا : مادة الحريم موسوعة التاريخ الكبرى ، ص252 .

[3] "أغا البنات" " قيزلر أغاسي " : لقب وظيفي يتكون من أغا دار السعادة ، وهو أكبر موظفي القصر السلطاني ، يعمل تحت إمرتهِ مئات من الموظفين ، عمله الأساسي تلبية احتياجات الحريم ويأتمر بأمره جميع الجواري في الحريم ، حيث يقوم بإدارتهم ، وفي الاحتفالات الرسمية يأتي بين شيخ الإسلام والوزراء ، لقد حظي باهتمام مميز من السلاطين ، ونالوا نفوذًا سياسيًا وجمعوا ثروة طائلة ، ولم يكونوا كلهم زنوجًا بل كانوا من أعرق الأجناس ، وعندما يتم تغيير السلطان جرت العادة أن يستأذن أغا دار السعادة من السلطان ويكمل حياته في القاهرة ومتنقلاً بين مكة والمدينة فهم متدينون كثيرًا بصفة عامة ، ومنهم من له ثقافات في العلوم والفنون ، وفي بعض الأحيان يكمل حياته في الإشراف على أوقاف السلطانة الوالدة ، في مكة والمدينة . ولهم نظارة أوقاف

باسم " أغا دار السعادة " [1] (دار السعادة اغاسي) ، ويتمتع بدرجة رفيعة في البروتوكول العثماني تعادل درجة الوزير في التنظيم المدني ، ودرجة المشير في التنظيم العسكري ، وهو المسؤول الأول عن تنظيم علاقات الحريم بخارجه .

وتتحدد مكانة الجارية عند التحاقها بالحريم ، وهل ستلحق بالخدمة والإدارة أم بالقسم الآخر من الحريم ، تبعًا لعدة معايير أهمها ذكاؤها وجمالها اللذان قد يؤهلاها لأن تترقى في سلك موظفات الحريم حتى تصبح كبيرة المسؤولات عن خزينة السلطان ، وقد يبتسم لها الحظ من ناحية أخرى فتصبح محظية أو مستولدة أو زوجة للسلطان ، أو والدة سلطان وهي أرقى ما يمكن أن تصل إليه الجارية في الحريم . [2]

السلطانة الوالدة " والدة سلطان "

هي الرئيسة الشرفية لقسم الحريم ؛ لكن هذه الرئاسة لا تعطيها حق التدخل في النظام الخاص بالحريم ، حيث أن هناك موظفات داخل الحريم وموظفين خارجه مهمتهم حفظ هذا النظام وقوانينه وتقاليده . [3]

ويطلق عليها بالتركية اسم (سلطانة والدة) La Sultane Valide [4] ، وهي أم السلطان الجالس على العرش ، كما عُرفت في المصادر التاريخية بلقب (مهد عُلياي سلطنت) أي (مهد السلطنة العالي) . وكان يطلق عليها في البداية اسم (خاتون) استمرارًا للتقاليد السلجوقية [5] ، ثم بدأت تعرف منذ القرن السادس عشر باسم (سلطانة) وحملته والدة السلطان سليمان القانوني السلطانة حفصة ، ولم تحصل على لقب (والدة سلطان) من أمهات السلاطين العثمانيين البالغ عددهن ستًا وثلاثين إلا ثلاث وعشرون سلطانة [6] ، أما الأمهات

الحرمين الشريفين وهو المشرف على الدولاب (الاسم الذي يطلق على خزانة أوقاف الحرمين)، وقد عظم نفوذه في ق 12هـ – 13هـ/ 17م – 18م ، وكانت رتبتهُ تلي رتبة الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، وكان يخاطب رسميًا في المكاتبات بـ " سيدي حضرة صاحب الدولة والغاية " . مصطفى بركات : الألقاب والوظائف العثمانية ، ط 1 ، القاهرة : دار غريب ، 2000م ، ص 183 . يلمازا وزتونا : مادة الحريم موسوعة التاريخ الكبرى ، ص 252 ، 253 .

[1] " أغا دار السعادة " : الاسم الأصلي لقسم الحريم في القصر العثماني هو دار السعادة ، لكن غلبت عليه التسمية العربية (حرملك) وصارت هي السائدة لدى العثمانيين . ماجدة مخلوف . الحريم في القصر العثماني ، ص 12 .

[2] ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص 12 ، 13 .

[3] ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص13 .

[4] شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، مصدر سابق ، ص 1484 .

[5] المصدر السابق ، ص 565 .

[6] أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص155 .

الأخريات فقد توفين قبل أن يعتلي أبناؤهن العرش . وواحدة فقط أصبحت السلطانة الوالدة دون أن تكون أم السلطان وهي (بيرستو سلطان) زوجة السلطان عبد المجيد الأول وهي الأم المعنوية التي ربت السلطان عبد الحميد الثاني .

والسلطانة الوالدة تلقب أيضاً بـــ " تاج المستورات " وعلى من تريد المثول أمامها أن تغض الطرف وتحني الرأس وتضع اليدين على الصدر . [1]

ووالدة السلطان هي أكثر السيدات نفوذًا داخل السراي وأكثرهن اتصالاً بمن في خارجه حيث تتمتع بمكانة رفيعة بين كل الحريم ، فكانت السلطانة التي يعتلي ابنها العرش تنتقل من السراي القديم إلى سراي طوب قابي في موكب يعرف باسم (والدة آلاي) أي (موكب السلطانة الوالدة) ، وتصبح منذ تلك اللحظة وعلى امتداد سلطنة ابنها أوسع السيدات نفوذاً داخل الحرم الهمايوني ، وتخاطب بلقب "صاحبة الدولة " و" صاحبة العصمة " وتعيش في جناح خاص بها ، ويقوم على خدمتها عدد من الجواري [2] ويقوم " أغا باب السعادة " بإدارة أمور السلطانة الوالدة خارج السراي [3].

وكانت تحظى باحترام عظيم من كافة المقيمين في الحريم وعلى رأسهم السلطان نفسه، ومن العلماء ورجال الدولة وكبار الضباط ، ومنهن من اتجهن إلى الخوض في السياسة واستخدمن نفوذهن بما جلب الضرر على الدولة العثمانية ، ومن هذه النماذج السيئة السلطانة (نور بانو) والسلطانة (ماه بيكر كوسم) . [4]

وكانت السلطانة الوالدة تنتقل إلى السراي أو القصر العتيق الكائن في منطقة بايزيد مع خادماتها في حالة وفاة السلطان أو خلعه من الحكم، حيث كانت تترك مكانها إلى والدة السلطان الجديد . [5]

وكان للسلطانة الوالدة إيرادات تأتيها من أماكن شتى من أنحاء الدولة العثمانية ، وهي من ريع أراضي الخاصة السلطانية التي تعرف بإسم "باشمقلق "[6] ومخصصات كثيرة صيفية وشتوية . فضلاً عن أنه تصرف لها مخصصات عينية وأخرى نقدية مباشرة من دار

---

[1] حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص48 .

[2] أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 155 .

[3] شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص 38 .

[4] أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص155 .

[5] Mualla Anhegger – Eyuboglu , Topkapi Sarayihde Padisah Evi (Harem) Istanbul , S . 33 .

[6] شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص266 .

سك العملة ، وهن بذلك حققن ثراءً واسعًا وثروات طائلة ، ولم يقتصر هذا الثراء على السلطانة الوالدة فقط ، بل طال زوجات السلاطين وجواريهم ، وبناتهمِ ، فبدأن في توجيه هذه الأموال للإنفاق على المؤسسات الخيرية والأوقاف المختلفة وبناء المدارس والمساجد والأسبلة ، والمستشفيات مع تقديم العلاج المجاني والأدوية للفقراء ، كذلك أوقفن أموالهن على قراءة القرآن وتوزيع الطعام على الفقراء ، وغيرها من الأعمال الخيرية في إستانبول وبلاد الحرمين الشريفين والقدس ، وقد شكلت الهدايا التي كن يتلقينها من كافة أمراء وملوك الدول الأجنبية ومن رجالات الدولة العثمانية – هذا فضلاً عن هدايا السلطان لهن – جزءًا كبيرًا من الثراء الذي حققنه .[1]

وقد وصلت نسبة أوقاف حريم القصر السلطاني العثماني 30% من نسبة الأوقاف عامة ، حتى أنشئت نظارة خاصة لإدارة هذه الأوقاف .

ولأن أمهات السلاطين كن في الأغلب جواري ، فقد حصلن في الغالب على نصيب وافر وكافٍ من التعليم ، وكن على دراية بأصول البروتوكول العثماني.[2]

زوجات السلطان :

تسمى الواحدة منهن " قادين " وهي أعلى درجة من درجات نساء السلطان ، وأطلق عليها أيضًا " السيدة حرم السلطان" " قادين أفندي " ، وتخاطب الزوجة بلفظ "ذات العصمة " "عصمتلو " وهو لقب حفيدات السلطان نفسه. [3]

وعادة لا يزيد عدد الزوجات عن أربع ، أي لا توجد حالات طلاق إلا فيما ندر ، وهذا الترتيب ليس مبعثًا على أفضلية إحداهن على الأخرى ، وإنما يدل على أقدميتها بالنسبة لزواجها من السلطان ، وكن زوجات السلاطين في الأغلب من الجواري ، غير أن السبعة السلاطين الأوائل قد تزوجوا بحرائر ، أميرات في بعض الأحيان ، لكن منذ عهد سليم الأول بدأ السلاطين الزواج من الجواري . [4]

---

[1] أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص155 . للتعرف على أسماء السلطانات الوالدات وعلى الأعمال الخيرية التي قمن بها ، انظر : (الحريم السلطاني) .

Cagatay ulucay : Harem II . Ankara 1971 , S . 61 – 66 .

[2] للتعرف على رسائل السلطانة صفية إلى الملكة إليزابيث ، انظر :

Skilliter : Three Letters from the Othoman " Sultana Safiye to Queen Elizabeth 1 , Oriental Studies III, Documents from Islamic chancelleries , Oxfrd 1965 . P . 119-157 .

[3] Yilmaz Oztuna : Turk Tarihinde Yaprakar , Istanbul , 1958 , S 215 .

[4] باستثناء السلطان عثمان الثاني حيث تزوج من عقيلة هانم بنت شيخ الإسلام أسعد أفندي وكانت حرة انظر :

وعادةً الجارية التي يقع عليها الاختيار عند انضمامها للحريم ، حتى تصبح زوجة للسلطان أو إحدى نسائهِ ، فإنها لا تكلف بأي عمل في الحريم ، وتوجه العناية كلها لتربيتها وتهذيبها وتعليمها مبادئ قواعد الدين الإسلامي ، وآداب الحريم ، بالإضافة إلى تلقيها دروسًا في اللغات والآداب والموسيقى .

ولم تكن زوجة السلطان في العادة تنجب أكثر من ثلاثة أطفال إلا في حالات نادرة ، وتتولى بنفسها تربيتهم ، وإذا توفيت تسند المهمة إلى زوجة أخرى للسلطان تسمح ظروفها بتربيتهن وعندئذ يدعونها " الأم الثانية " ويعاملنها بنفس الحب والاحترام . [1] مثلما حدث للسلطان عبد الحميد الثاني ، حيث ربتهُ زوجة أبيه التي كانت لا تنجب ، وكان يحبها حبًا جمًا بسبب إحسانها له وعطفها عليه.

ويصرف لكل زوجة راتبًا شهريًا وكميات عينية كافية من الطعام والفاكهة ، فضلاً عن صرف المستلزمات الخاصة باستخدامهن من الصابون والشمع وغير ذلك بصفة دورية.[2]

المستولدات :

وتسمى الواحدة منهن " إقبال " وتأتي بعد الزوجات في الترتيب ولقبها "هانم" ، وليس بالضرورة أن يكون لكل سلطان مستولدات ، حيث لا نجد هؤلاء النساء إلا لدى ستة سلاطين فقط هم : أحمد الثالث ، محمود الأول ، سليم الثالث ، محمود الثاني ، عبد المجيد الأول ، عبد الحميد الثاني .

ويخضعن لنفس ترتيب الزوجات من حيث الأقدمية ، ويحق للسلطان أن يتزوج بإحداهن فتصبح زوجة " قادين " وتنال جميع حقوقهن . [3]

ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص15 . عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، د. ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، 1980م ، ج1 ن ص442 .

[1] ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 15- 16 .

[2] Cagatay ulugay , Harem , S . 54 .

[3] Cagatay ulucay , Pudisaharim kadinlari ve kizlari , Ankara , 1980 , S , 38 .

المحظيات :

وتسمى الواحدة منهن " كوزده " وتأتي بعد المستولدة ، ويمكن للمحظية أن تترقى في المناصب حتى تصبح زوجة سلطان . [1]

وإذا توفي السلطان تنقل قاديناته إلى القصر القديم ما عدا الباش قادين إذا تولى ابنها العرش تتغير مكانتها وتصبح والدة سلطان . [2]

الأميرات بنات السلاطين :

كان يطلق عليهن بوجه عام لقب " سلطانة " ، وهو لقب كان يأتي بعد أسمائهن الخاصة ، وأصبح علمًا عليهن منذ عهد السلطان محمد الفاتح ، والملاحظ على أسماء بنات السلاطين بوجه عام أنهن يتسمين بأسماء إسلامية مثل : عائشة وفاطمة وخديجة وأمينة وزينب ورقية وأم كلثوم ، أما زوجات السلاطين فكن يحملن في الغالب أسماء فارسية مركبة يتم تغييرها من قبل السلطان في أغلب الأحيان . [3]

وانعكست بعض الأحداث المهمة في حياة الأميرات بنات السلاطين على مصادر التاريخ العثماني ، فرأيناها تصف المواكب التي تقام احتفالاً بميلادهن وعُرفت باسم (بشيك آلاي أي موكب المهد) ، وتصف الاحتفالات الفخمة والضخمة التي كانت تقام لتجهيزهن وأعراسهن وأعمال الخير التي قمن بها ، غير أن لأعراسهن موقفاً متميزًا بين تلك الأحداث[4]، وقد قام السيد (Cagatay Ulucay) بدراسة ذلك الموضوع باستفاضة ، معتمدًا في ذلك على الوثائق المحفوظة في أرشيف سراي طوب قابي[5] .

وكانت الأميرة تقضي حياتها داخل دائرة الحريم السلطاني حتى تبلغ سن الزواج ، يقوم على خدمتها عدد كبير من الجواري .

---

[1] ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص17-18 .

[2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص458 .

[3] أكمل الدين أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص157 .

[4] M.Cagatay ulucay : Padisahlarin Kadinlar , ve Kizlar , 41 – 42 .

[5] لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر :

M.Cagatay Ulucay : Padisahlarin Kadinlar , ve Kizlari . 43-46 .

ولمزيد من التفاصيل حول زواج السلطانات " بنات السلطان وإخواته " الرجوع إلى يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص288 – 291 .

وحينما تبلغ سن التعلم تبدأ في التحصيل الدراسي ، وكان يُعقد لها احتفال كبير ، يُعرف باسم (بدء بسملة) أي (البدء باسم الله) . ويقوم على التدريس لها أشهر المعلمات ، وفي أحيان كثيرة يحضر السلطان العثماني بنفسهِ بعض الدروس، وكانت الأميرة تتلقى العلوم الدينية وعلى رأسها القرآن الكريم ، بالإضافة إلى الخط والتاريخ والجغرافيا ، فضلاً عن اللغات. ولا زالت هناك بعض من رسائل الأميرات محفوظة إلى اليوم في أرشيف (طوب قابي سراي) بإستانبول ، وهي تدلنا دلالة كبيرة على إجادتهن للغة التركية إملاءً وتعبيرًا ، غير أن أغلب النماذج الموجودة من تلك الرسائل ترجع إلى ق 12هـ / 18م ، وفي عهد التنظيمات ، بدأن يتلقين دروسًا أخرى في الموسيقى ولا سيما على آلة البيانو، وتظل الأميرات في القصر حتى يتم تزويجهن إلى أحد كبار رجال الدولة، وعندها تغادرن القصر بعد إتمام مراسم الزفاف . [1]

أما عن ترتيب القائمات على الخدمة داخل الحريم فهذه لمحة سريعة عن تنظيمهن :

لقد كان هناك عدد كبير من الجواري يقمن على أعمال الخدمة والإدارة داخل قسم الحريم ، فهن موظفات لهن درجات وترقيات ، وتصرف لهن رواتب شهرية حسب درجتهن ، ثم يُحلن إلى التقاعد وتصرف لهن مكافأة نقدية في نهاية الخدمة ، والمسؤولات ترأسهن جميعاً:

١) كبيرة المسؤولات عن خزينة السلطان " باش خزينة دار " .

٢) الخبيرات " أوسطى " وهن المسؤولات عن المطبخ والقهوة والتموين .

٣) المسؤولات عن التشريفات والمراسم داخل الحريم .

٤) النائبة " قالفة " وهي المسؤولة عن الجواري داخل الجناح الواحد .

٥) المستجدات ، ويطلق عليها " عجمي " وهي الجارية الحديثة في الحريم.[2]

---

[1] لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، انظر :

عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص462

- Ulucay , Cagatay : Harem , II , S 67 – 115 .
- I . H . Uzun Carsili : Saray Teskilati , (Osmanli , Devletinde Sarauy Teskilat , Ankara , 1984, S. 158 – 166 .
- Uzun Carsili , Ismail Hakki : Osmanli Devletirde Saray Teskilat , Ankara 1984 ,

[2] يلمازا وزتونا : مادة الحريم ، موسوعة التاريخ الكبرى ، ص 254 ، ص255 . ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني، ص18 – 24 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص296 ، 297 .

وقد امتثل السلاطين العثمانيون لأحكام الشريعة الإسلامية في معاملتهم للجواري ، فأحسنوا تعليمهن وأسسوا لهن القصور وزوجوهن ، ومنهن من أدت فريضة الحج ، حتى أصبح الحريم العثماني حلم يراود الفتيات الشركسيات منذ نعومة أظافرهن ، ووصل الأمر إلى أن أهالي القوقاز يبادرون ببيع بناتهن بمحض اختيارهن ، وهنا ما لبث أن نشطت تجارة الرقيق حتى أصدر السلطان عبد المجيد الأول مرسومًا في عام 1263هـ / 1846م يأمر بمنع هذه التجارة رسميًا في الدولة العثمانية ، ومع ذلك استمر أهالي القوقاز في تقديم بناتهم هدايا للقصر السلطاني .[1]

وتبدأ رعاية السلاطين العثمانيين للجارية عقب التحاقها بالحريم العثماني مباشرة ، حيث يختار لها السلطان اسمًا جديدًا ذا دلالة جميلة ؛ لأن أغلب الجواري من أصول غير مسلمة فتُغَيَّر أسماؤهن .

ولكي تصبح الجارية جديرة بحياة الحريم فإن إعدادها يمر بعدة مراحل من تربية وتثقيف وإعداد للحياة القادمة ، فتبدأ في تعلم القراءة والكتابة على أيدي الجاريات المسنات ، مع مبادئ الإسلام وحفظ السور القرآنية لأداء الصلاة وتعلم أدب وأصول البروتوكول العثماني ، ثم تبدأ الجارية بعد هذه المرحلة – إذا كان لديها استعداد عقلي للدراسة النظرية – في تعلم الفارسية أو العربية ثم التاريخ الإسلامي والعثماني والجغرافيا والحساب وقراءة الشعر ، ويتعلمن الحياكة والتطريز والموسيقى والعزف على الكمان والعود والدفّ وغيرها من الآلات الموسيقية ، والنقش والحرف اليدوية ، ومنهن من تعلمن فن الخط وبلغن درجة رفيعة في إتقانه ، وصارت لوحاتهن الخطية تزين بعض غرف الحريم ، وسمح لهن بمطالعة الصحف وخاصة نساء السلطان [2].

وكان مجموع عدد سكان دائرة الحريم يعادل 1000 ألف شخص تقريبًا ، وقد شكل عدد الجواري أغلبية ساحقة فيها ، بحيث كان هذا العدد يفوق أسرة السلطان كثيرًا . وكان لكل سيدة من أفراد دائرة الحريم مرتب خاص بها يدفع من خزينة الدولة ، إضافة إلى توفير متطلباتها الضرورية والهدايا والعطايا في المناسبات المهمة . [3]

---

[1] ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص 24 – 25 .

Cagatay Ulucay , Padisahlarin , S 1 .

[2] ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص 25 . مع الكتاب الأجنبي .

Mualla Anhegger – Eyuboglu , Topkapi Sarayinda Padisah Evi (Harem) , Istanbul , S . 33 .

[3] M.Cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , Ankara 1980 , S . 1 .

وكان السلاطين يعدون أنفسهم مسؤولين أمام الله عن تعليم الجواري ، فيأتون بالمعلمات إلى الحريم لهذا الغرض ، ولابد أن تتصف المعلمة بالوقار والخلق الرفيع وإلا أُقيلت من عملها .

ومثال على ذلك حين علم السلطان محمد رشاد أن المعلمة التي تعلم الحريم قراءة القرآن الكريم كانت تدخن أثناء الدرس ، وتجلس بطريقة لا تتناسب مع حرمة القرآن ، فدفع لها راتب سنة مقدمًا ومبلغاً من المال وأعفاها من مهمتها .

لذا كانت المعلمة تحظى باحترام خاص ، ومعاملة متميزة داخل الحريم ، احترامًا لعلمها ، أما تلميذاتها من الأميرات فكن يقبلن يدها ، وكان السلطان ينهى المعلمة عن الركوع تحية له ، ويستقبلها واقفاً تقديرًا لعلمها .

وتتضمن مذكرات من عملن داخل الحريم أمثلة تعبر عن عمق الشعور الديني لدى حريم القصر ، وخير مثال على ذلك أن الموظفات الكبيرات في السن كن يتعلمن قراءة القرآن محبة في قراءاتهِ صحيحًا دون أخطاء . [1]

اعتاد السلطان العثماني أن يعتق عددًا من الجواري بين الحين والآخر ، ولذلك فعندما تنتهي مدة خدمة الجارية داخل الحريم وهي مدة لا تزيد عن تسع سنوات ولم تصبح من نساء السلطان ، فيكون من حقها أن تعتق وتزوج بمن ترغب من خارج القصر السلطاني ، ويتولى السلطان تجهيزها وتخصيص بعض المال لها الذي يكفل لها حياة كريمة ، وينطبق هذا الأمر أيضًا على الجواري اللائي بلغن الخامسة والعشرين ، ولم يتحدد مستقبلها بعد ، فمن حقها الخروج من السراي والزواج ، ويكتب بذلك صك عتق للجارية " عتق نامه " وتعطى مبلغاً ماليًّا وهو " جراغ إيديلر " ، وفي أغلب الأحوال كان الرجال ذوو المكانة الرفيعة يسعون للزواج من الفتيات اللائي عملن في الحريم ، وذلك لما يتميزن به من صفات وجمال ، وهن دائمًا على درجة فائقة من الثقافة والأدب والأخلاق ، ويجدن كثير من الأعمال كفن الحياكة والتطريز فضلاً عن إتقان الطهي ، والعزف على الآلات الموسيقية ، وأهم من ذلك تمتعهن بقدر من الثراء حيث أنهن وفرن رواتب شهرية لمدة تسع سنوات ، بخلاف الهدايا والمجوهرات التي تعطى لهن ، وكن يعتبرن بنات معنويات للسلطانة الوالدة أو للباش

---

[1] ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 28–30 . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص455 ، 456 . يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص292 .

قادين ، ولا يقطعن صلتهن بالحريم حتى بعد الزواج ، إذ يزرن الحريم دائمًا ، ويطلق عليهن "سرايلي خانم" أي سيدات القصر .[1]

ولم تكن تنقطع رعاية السلطان للجواري حتى بعد زواجهن وخروجهن من الحريم ، إذ يشملهم بحبهِ وعطفه ، فمثلاً إذا تقدم العمر بزوج إحداهن ولم يعد قادرًا على العمل ، أو توفي ، فإنه يصرف لهن مخصصات يومية من مطبخ القصر ، ويستمر صرف هذه المخصصات حتى بعد وفاتها لأبنائها ، ويضم الأرشيف العثماني الأوامر والفرمانات بهذا الخصوص . [2]

وهذه تعد أبلغ صور التكافل الاجتماعي للجواري اللائي يعتبرن السلطان بمثابة الأب لهن.

وإذا رغبت الجارية في التقاعد أو العتق ، فإنها تكتب رسالة للسلطان ترجوه فيها أن تحال إلى التقاعد وتعتق ، عندئذ تجهز الأوراق الخاصة بتقاعدها وعتقها وتسمى هذه الأوراق " عتق نامه " ، وتتم هذه الإجراءات بكل سرعة وترحيب من جانب السلطان ، وبعض الجواري كن يعتقن دون طلب منهن ، فكن يمزقن ورقة العتق ويفضلن التقاعد مع البقاء في الحريم . وعندئذ يسمح لها بالتفرغ للعبادة وتنال التكريم والعناية خاصة من يتقدم بها العمر، فقد كان السلطان يهتم بالجواري الكبيرات في السن اللائي يفضلن البقاء في الحريم ، فكان يدعوهن من حين لآخر ليسألهن عن أحوالهن واحتياجتهن ، ومن تتوفَّ قبل عتقها يكتب صك العتق ويوضع على صدرها وتدفن به . [3]

وللحياة داخل الحريم قواعد وآداب تحكم السلوك الشخصي لهن ، حيث تدور في إطار ما أمر به الإسلام من نظافة وطهارة وحسن المظهر ، فالجواري كلهن نظيفات ، يحظر عليهن السير حافيات مثلاً ، أو التثاؤب على الملأ ، فضلاً عن توفر الحمامات

---

[1] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص292 .
Gagatay ulucay , Harem ,S , 67. Yilmaz Oztuna , Turk Tarihinde , S 300 .

[2] Gayatay ulucay , Padisuhlarin Kadinlarive Kizlari , S 31 .

[3] Gagatay ulucay , Pudisuhlarin Kadinlarive Kizlari , S 22 .
ولم تكن رغبة البقاء داخل الحريم العثماني في حريم السلطان وحده لكن في قصور العثمانيين الأتراك ؛ وذلك لحسن معاملتهم للجواري حيث نجد أن الجواري اللائي يصبحن حرائر كن يرفضن عتقهن ويفضلن عليه البقاء في قصور أسيادهم ، فهن لا يعرفن لهن مأوى آخر ، وتبقى حرة في بيت سيدها . ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 32 نقلاً عن : حلمي أحمد شلبي: الأقليات العرقية في مصر في ق19م ، ط1 ، القاهرة ، 1993م ، ص69 .

ونظافتها وترتيبها ، بالإضافة إلى التزامهن بآداب السلوك العامة ، ومنها عدم التكلم بصوت مرتفع ، ولابد الالتزام بهذه القواعد ، وكن يؤدين العبادات على أكمل وجه من صلاة الجماعة والصيام والاستغفار والأدعية والمحافظة عليها خاصة خلال شهر رمضان الذي يسوده جو ديني عميق، إذ تقام صلاة التراويح كل ليلة مع الالتزام بقراءة القرآن ليل نهار ، وفي ليلة 15 رمضان تزور والدة السلطان وبناته وزوجاته حجرة الخرقة النبوية الشريفة ، وكن يؤدين صلاة العصر كل يوم في أحد المساجد في الأماكن المخصصة لهن . [1]

يتضح مما سبق أنه ليس كل الحريم ملكًا للسلطان فهناك بناتهُ ، وزوجات أبنائهِ ، والموظفات القائمات على الإدارة والخدمة ، وليس كما يتصور المستشرقون بأن الحريم كلهن ملك يمين للسلطان ، أو أنه يملك أعدادًا كبيرةً منهن، إن الواقع الصحيح يختلف تمامًا. وتنحصر معاشرة السلطان للجواري اللاتي أُهِلْن للتعامل معه فقط فيصبحن زوجاته ومستولدات أو محظيات ، بشرط أن تلقى قبولاً عنده ، أما التي ترفض معاشرته فلا يحق له أن يجبرها ويحترم رغبتها في الامتناع ، ثم يساعدها على اختيار زوج آخر لها ، وقد أوردت الأميرة شادية بنت السلطان عبد الحميد الثاني أن إحدى الجواري تمنعت عن أبيها السلطان عبدالحميد الثاني لمدة خمس سنوات ؛ لرغبتها أن تكون الزوجة الوحيدة لمن تتزوجه، فاحترم السلطان رغبتها ، واختار لها زوجًا يليق بها من رجال القصر ، وأسس لها قصرًا في أجمل أحياء إستانبول . [2]

وقد أصبح زواج السلاطين العثمانيين من الجواري أمرًا مستقرًا منذ زمن السلطان سليم الأول ، حين تزوج من الجارية حفصة أم السلطان سليمان القانوني. ولا يؤثر في زواج السلطان من الجارية العرق الذي تنحدر منه ، وأشهرهن (ماه بيكر كوسم) زوجة السلطان أحمد الأول وكانت ابنة قسيس رومي ، أمّا خرمّ سلطان زوجة سلمان القانوني فتنحدر من عرقي سلافيّ ألباني . وبصفة عامة فإن أمهات السلاطين العثمانيين ابتداءً من سليم الثاني كلهن من الجواري وينحدرن من أصول غير تركية . ولم يكن السلطان يتقيد بضرورة العقد الشرعي، يكفي أن يقال أن فلانة زوجته ، حتى تصبح زوجته الشرعية [1] ، وفي ذلك إشهار الارتباط بينهم.

---

[2] ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 33-38 .

[2] مرجع سابق ، ص 26 .

[1] ماجدة مخلوف : الحريم في العصر العثماني ، ص26 . حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص 49 . أميرة مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين . صورة للتضامن الاجتماعي والديني خلال العصر

وكانت لعلاقة السلطان بنسائه قواعد وآداب لا تهاون فيها ، فمثلاً عندما يريد السلطان زيارة قصر الحريم أو أحد أجنحته فإنه ينتعل حذاء له نعل معدني حتى يسمع وقع أقدامهِ ويخلو الطريق من أمامهِ . [2]

هذا الواقع الذي عشنه الحريم العثماني بكل ما فيه من أنظمة وأنشطة اجتماعية وثقافية، الواقع الذي لم ينقله المستشرقون سواءً عرفوه أم لم يعرفوه ، وإنما كتبوا ما صوره لهم خيالهم من واقع قصور ملوكهم وأمرائهم ، وخلفيتهم الثقافية البعيدة تماماً عن أي تعاليم للشريعة الإسلامية .

وإذا ألقينا نظرة سريعة على بلاط ملوك فرنسا فإنه يحوي من الخليلات والعشيقات العدد الكثير وبصوره تكاد تكون رسمية ، وما ينتج عن هذه العلاقات من أبناء غير شرعيين فإنه لا يقارن بما كان في قصور بعض الأمراء أو السلاطين الشرقيين ، ولا يوجد مجال للمقارنة بين قصور السلاطين العثمانيين وقصور الأسر المالكة في الممالك الأوروبية كقصر فرساي في فرنسا ، وباكنجهام في إنجلترا ، فضلاً عن قصور قياصرة روسيا وملوك النمسا وأباطرة ألمانيا ، بل إنها لا تقارن بقصور البندقية ونابولي وروما وغيرها ، وعلى الأقل سار السلاطين العثمانيون في علاقتهم بالحريم في إطار الشريعة الإسلامية .

وإذا كانت هناك بعض القيود أو النواقص في نظام الحريم فإن ذلك سببه في المقام الأول حمايتهن من أعين الفضوليين ؛ لما لهن من مكانة عالية ولا يجب النظر إليهن .

والمادة الثانية التي تناولت مسألة الحريم العثماني في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة " خُرمّ " وفي مادة مختصرة جداً ، بالنسبة لأول امرأة من الحريم العثماني استطاعت أن تدخل أنفها في السياسة العليا وتدير دفتها على هواها ، ولم تُشير المادة إلى الأعمال الخيرة التي قدمتها إلا بإشارات عابرة ، وحتى دورها في المؤامرات والدسائس لم يلحقوا به الأسباب . وقدَّم المستشرق هيوار صورة عنها، تمثلت في جانبين :

أولاً : إرجاع نسبها إلى روسيا ، وأنها محبوبة السلطان سليمان القانوني . [1]

ثانياً : دورها في المؤامرات والدسائس . [2]

العثماني ، المؤرخ المصري دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، العدد 24 ، يناير ،2001م ، ص292.

[2] ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص 27 . عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج2 ، ص437 .

[1] هيوار : مادة خّرم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج8 ، ص 297 .

لقد بدأت الحريم التدخل في إدارة الدولة العثمانية وسياستها ، وأصبحن صاحبات السلطة والنفوذ في البلاط العثماني بعد ظهور خرّم سلطان على مسرح التاريخ [3] في عهد السلطان سليمان القانوني ، وبعد أن كانت زوجات ونساء السلاطين الأوائل بعيدات عن السياسة والإدارة ، بدأت خرّم سلطان بكسر العادة القديمة ، وفتحت عهدًا جديدًا في حياة المرأة ودورها الإيجابي في المجال السياسي والإداري ، بحيث أصبحت المرأة تقوم بدورٍ مهم في تعيين الوزراء والصدور العظام ، وعزلهم ، وكذلك في تنصيب السلاطين وخلعهم ، وأسهمت المرأة في إصدار القرارات الخاصة بالدولة باسم السلاطين . ويمكن القول أن مهندسة هذا التطور الذي حصل في الدولة العثمانية هي خرّم سلطان التي استغلت حبّ زوجها السلطان سليمان القانوني الجمّ لها ، ووقوعه تحت تأثيرها .

وقد فتحت خرّم سلطان الطريق لنساء وزوجات السلاطين اللاتي أتين من بعدها للتدخل في شؤون الدولة ، وللقيام بالمؤامرات والدسائس من أجل تقوية نفوذهن وتنصيب أبنائهن على عرش السلطنة ، ومنع أبناء أزواجهن من النساء الأخريات من الجلوس على العرش ، وقتلهم إذا اقتضى الأمر ، وإن أدى ذلك إلى ضرب مصلحة الدولة والوطن .

ومن أبرز النساء اللاتي أخذن خرّم سلطان قدوة لهن وحذون حذوها في سياسة الدولة وإدارتها ، وفي المؤامرات والمكايد التي قمن بها ، كوسم سلطان زوجة السلطان أحمد الأول التي أصبحت في قمة الدولة خلال سلطنة أبنيها وحفيدها . [4]

إن خَّرمُ سلطان امرأة عظيمة تميزت برجاحة العقل وسداد الرأي ، على الرغم من أنها ليست جميلة كثيرًا ، إنما تميزت بالجاذبية ، لقد أحبها السلطان سليمان القانوني من شغاف قلبهِ ، ووقع تحت تأثيرها ، حيث استحوذت على أفكارهِ ، فكان لا يرد لها طلبًا ، ويعمل بنصيحتها في كل الأمور ، كانت امرأة شديدة الطموح ، بعيدة النظر ، داست على كل شيء في سبيل أن تحقق طموحها ، وهي بحق مثالاً متجسدًا لتسلط الحريم العثماني وقوة نفوذهم في فترة من أهم فترات التاريخ العثماني . [1]

---

[2] هيوار : مادة خّرم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج8 ، ص 298 . .

[3] Yilmaz Oztuna " Kanuni ' nin Turk ve Dunya Tarhindeki Yeri " Kanuni Armagani , Ankara 1970, S.43 – 44 .

[4] M.Cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , Ankara 1980 , S . 48 .

[1] حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص66 .

وهي أول امرأة اشتهرت في الأسرة العثمانية ولعبت دورًا بارزًا ومهمًا في تحديد مقدرات الدولة العثمانية . [2]

ومع ذلك فإن هيوار المستشرق الذي قدم المادة لم يعطها حقها أبدًا ، فقد جاء كلامه عنها مختصرًا جدًا لا يحوي الكثير إلا المؤامرات والدسائس فقط .

ونأتي إلى تفصيل ما ذكره المستشرق هيوار :

أولاً : إرجاع نسبها إلى روسيا ، وأنها محبوبة السلطان سليمان القانوني .

" محبوبة " خاصكي " السلطان العثماني سليمان القانوني ، ... وكانت خُرّم جارية من أصل روسي " [3]

و Kourrem هي لفظه تركية معناها الباسمة أو ذات الوجه الباسم . [4]

وخُرّمُ : معناها السرور ، السعيد ، الفرح ، المرح . [5]

خاصكي : صيغة تركية للكلمة الفارسية " خاصكي " المأخوذة من الكلمة العربية "خاّص " وهي تطلق على العاملين في الخدمة الشخصية للسلاطين العثمانيين ، ثم تطور اللفظ وأصبح يستخدم لمن يعمل في خدمة القصر العثماني منذ ق10هـ/16م ، وأول من استعمله من نساء السلاطين كانت خُرّم خاصكي زوجة السلطان سليمان القانوني ، ثم صار يطلق على الزوجة أو المستولدة التي تنجب ولد ذكرًا . [6]

أما عن مسألة أصلها فقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين ، حيث رجَّح بعضهم أنها من أصل روسي ، وأبوها قس روسي ، مستدلين بذلك من اسمها روكسلانه الذي يعني الروسية [1] ، وأكد بعض المؤرخين أنها تنحدر من أصول إيطالية أو فرنسية [2] ، لكن هذا

---

[2] Gagatay ulucay , Padisahlarin Kadinlaive kizlari , S 34 .

[3] هيوار : مادة خّرم ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج8 ، ص 297 .

[4] شمس الدين سامي : قاموس الأعلام ، ص 579 .

[5] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص477 .

[6] للاستزادة عن معنى خاصكي الرجوع إلى ما يلي :

- P.Rycaur : The present state of the ottoman Empire , London , 1668 , PP . 40-41
- Spandonyn : Petu Trade' de l'orgine des Turcgz , Cantacasin , Paris , 1896 , PP . 321 – 322 .
- J . Von Hammer : Staatver Jassung und staatsver – Waltung des Osmanischen Reichs , 1963 , Vol II, P. 69 , 1072 , 196 , 204 .
- D'Ohsson : Tableau general de L'Empire Ottoman , Paris , 1824 , Vol . VII .
- Gibb & Bowen : Islamic Society and the west , London 1951 – 1957 , Vol . I , P. 321 , 322 , 350
- A.D.Alderson : The Structure of the Ottoman dynasty Oxford 1956 , P . 80 , 81 , 106 .

[1] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 477 .

[2] Gagatay ulugay , Padisahlarin kadinlarive kizlari , s 34 .

احتمال ضعيف حيث أنه لم يكن من السهل الإيقاع بهن في الأسر، كما أنهن لا يقدمن كهدايا للقصر السلطاني حتى يصلن إلى الحريم العثماني ، فضلاً عن أنه في تلك الفترة لم يكن هناك معارك دائرة مع هاتين الدولتين حتى يصبح من المحتمل سقوط بعض الأسيرات منهن .

وعلى الرغم من هذه الاختلافات ، فإن المرجَّح رأيان :

أولهما : أنها وقعت أسيرة بيد القائد إبراهيم باشا في إحدى الحملات العسكرية على بلاد السلاف ، وعندما التمس منها الفطنة والذكاء قدمها هدية إلى السلطان سليمان القانوني . [3]

ثانيهما : أنها وقعت أسيرة أيضًا في أيدي تتار القرم في إحدى غاراتهم ، وهي ابنة راهب كاثوليكي أوكراني من أصل سلافي فقير الحال يعيش في منطقة روغاتين التابعة لدولة بولندا، وفي الوقت الحاضر هذه المنطقة تابعة لأوكرانيا ، واسمها الحقيقي الكسندر السيوسكا ، وقد ورد اسمها في المصادر الغربية على شكل : روسّا ، روزا ، روسانا ، رفزيا ، روكسلانه ، وهذا النطق الأخير الأكثر شيوعًا واستخدامًا ، ثم قدمت هدية إلى القصر السلطاني.[4]

وهذان الرأيان أكثر الآراء رجاحة فقد اتفقا على أنها وقعت أسيرة ، ثم قدمت كجارية للقصر السلطاني ، وكانت صغيرة السن ومن أصل سلافي من أوكرانيا .

وقد وصلت إلى البلاط العثماني بصفة جارية في عمر يتراوح بين 14-17 سنة ، ويشار إلى أنها ولدت عام 910هـ / 1504م وأطُلق عليها اسم خَوَّرُم لأنها تميزت بالمرح ، وخفة الظل ، على الرغم من أنها لم تكن جميلة ، لكن لياقة جسمها وبياض بشرتها ، وعيونها الزرقاء والشعر الأحمر الذي يحيط برأسها في ضفيرتين صغيرتين عوض عن عدم جمال ملامحها بالإضافة إلى تمتعها بحديث ساحر وفكاهة حاضرة ونظرات مليئة بالمعاني تلفت إليها الانتباه فورًا . وقد قدَّمت هدية إلى الأمير سليمان بن السلطان سليم الأول من قبل حفصه سلطان "والدة سليمان وزوجة سليم الأول ". [1]

أما بالنسبة لمسألة أنها محبوبة السلطان سليمان القانوني ، فهي محبوبتهِ وزوجتهُ أيضًا، عشقها القانوني منذ أن وقع نظره عليها ، فأنجبت له محمدًا ابنه عام 927هـ /

---

[3] Gagtay ulugay , Padisahlarin Kadinlarive Kizlari , S 34 .

[4] ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ص47 .
Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 18 , Istanbul 1998 , S . 498 – 499 .

[1] حسين مؤنس : الجارية روكسلانه تتزوج السلطان الفاتح ، د. ط ، القاهرة : دار ومطابع المستقبل ، د. ط ، ص5 .
Gagatay ulugay , Padisahlarin Kadinlarive kizlari – S 43 .

1521م . ثم أنجبت ابنتها مهرماة ، وأولادها عبدالله وسليمًا وبايزيد وجهانجير ، وتوفي عبد الله وهو لا يزال صغير السن ، ثم أرادت أن ترتفع مكانتها أكثر فألحت أكثر على السلطان القانوني حتى يعقد نكاحه عليها مخالفًا بذلك التقاليد السائدة ووافق أخيراً على طلبها ، وهذا يدل على مدى الحظوة التي نالتها في قلب السلطان .

لقد أقيمت الإحتفالات والولائم احتفالاً بهذا الزواج ، ومن ضمنها توزيع إفطار الزواج. وهو خبز وزيتون للفقراء ، وخبز وجبن ومربى للمقتدرين ، طوال الأسبوع ، وقد ازدانت إستانبول بالزينة والورود والأعلام ودارت المواكب في أنحاء شوارعها ، وأقيمت العروض الترفيهية والألعاب العسكرية والرياضية كالطعن بالرماح والمصارعة في المسرح البيزنطي القديم ، الذي يحضره السلطان وفي ختام العرض توزع النقود على الحاضرين، ووزعت الأشربة على المارة ، وقدمت لهم الهدايا من جميع أنحاء العالم من فضة ونجف وفراء وغيره ، وقد تحاكى الأهالي عن هذا الزواج كثيرًا.[2]

ثانياً : دورها في المؤامرات والدسائس .

" اتهمت بأنها دبرت مقتل مصطفى ... على أن براعتها في تدبير المؤامرات دفعتها إلى اقتراف الجرائم " [3]

وفي حقيقة الأمر فقد أجمعت جميع المصادر والمراجع التركية والعربية على أنها المحرك الرئيس في المؤامرة التي أودت بحياة الأمير مصطفى الابن البكر للسلطان سليمان القانوني ، وهذه المؤامرة التي مهدت لها فترة طويلة نجحت في تنفيذ هدفها الأول ألا وهو إخلاء السبيل أمام تولي أحد أبنائها السلطنة بعد القانوني ، إما الأمير سليم أو الأمير بايزيد الثالث .

وفي تدبيرها لهذه المؤامرات تعبر عن شخصية المرأة المتسلطة التي تريد تولي أحد أبناءها السلطة بأي ثمن حتى ولو بقتل الأبرياء ، فجعلت تدبر الخطط وتزيل العوائق من وجهها حتى تصل إلى متبغاها وتحقق غايتها ، فعملت على التخلص منه .

---

[2] حسين مجيب المصري : مرجع سابق ، ص66 ، 67 . حسين مؤنس ، مرجع سابق ، ص44 ، 45 .
Gagatay ulugay Padisahlarin Kadinlarire Kizlari , S 34 .

[3] هيوار : مادة خُرّمُ ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج8 ، ص298 .

لمعرفة المزيد من تفاصيل مقتل الأمير مصطفى الرجوع إلى
Gagaay ulugay Padisanlarin Kadinlarive Kizlari , S 34 – 35 .
عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص478 .

وهذه حيلة المرأة على مر العصور وهي الاعتماد على جمالها وذكائها لتحقيق مأربها، فهي لم تأتِ بجديد بل مارست ما اعتبرتهُ حقًا لها ، ولكن للأسف وضعت أسسًا لتسلط الحريم العثماني بعد ذلك .

لقد أدى حب السلطان القانوني لخرّم واهتمامهِ بها إلى وقوع نزاع شديد ومنافسة بينها وبين "ما هي دوران جولبهار سلطان" ، الزوجة الأولى للقانوني ، ووالدة ابنة البكر الأمير مصطفى ، مما نتج عنه إرسال السلطان القانوني زوجته الأولى ماهي دوران جولبهار سلطان إلى مغنسيا لتقيم عند ابنها مصطفى الذي كان والياً على تلك المدينة ، وذلك عقب و فاة حفصة سلطان والدة القانوني ، التي كانت دائمًا تعمل على إقامة التوازن بين الزوجتين ، ولم يكتفِ القانوني بذلك ، بل قام بعقد نكاحهِ على خرم سلطان ، علمًا أنه لم يكن هناك – حتى ذلك الحين– عادة عقد النكاح مع الجواري . [1]

وفي الحقيقة أن خرّم سلطان قد كسبت حب السلطان في مدة قليلة من الزمن ، كما استطاعت أن تسيطر عليه ، وتجعله تحت تأثيرها ، ويتجلى حب القانوني لخرّم سلطان بصورة واضحة في الرسائل التي كان يبعثها لها خلال رحلاته العسكرية وبعده عن إستانبول[2] كما كانت خرّم سلطان تجيب على تلك الرسائل بأبيات شعرية جميلة ، وتكتب في أسفلها اسمها على شكل "الفقيرة الحقيرة جاريتكم " ، لتوضيح حبّها للسلطان ، ولتأمين استمرارية ذلك الحب الذي وصل إلى درجة العشق ، وكانت خرّم سلطان تقوم كذلك بتقديم الهدايا الجميلة للسلطان لتكسب ودّه وتربطه بها فقط وتبعده عن سائر نساءهِ وجواريه.[3]

وبعد أن تخلصت خرّم سلطان من منافستها "ماهي دوران جولبهار سلطان"، بدأت تخطط وتكافح في سبيل تنصيب أحد أبنائها لولاية العهد ليخلف السلطان القانوني في الحكم ، وكان الأمير مصطفى النجل الأكبر للقانوني من زوجته الأولى "ماهي دوران جولبهار سلطان" يشكل عائقاً أمام خرّم سلطان في تحقيق أهدافها ، خاصة وأنه نال تأييد الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا حيث كان ينظر إليه نظرة ولي العهد إضافة إلى أنه كان محبوبًا من قبل أفراد الجيش والشعب على السواء ، وتؤيد الرسائل المتبادلة بين الصدر الأعظم

---

[1] Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 18 , Istanbul 1998 , S . 499 .

[2] M.Cagatay Ulucay , Oamanli Sultanlarina Ask Mektuplari , Istanbul 1950 , S . 5-47 .

[3] Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 26 , Istanbul 2002 , S . 271 .

مقبول إبراهيم باشا والأمير مصطفى خلال تواجد الأخير في مغنيسيا مدى التقارب القائم بينهما.[1]

وقد بدأت خرّم سلطان بتنفيذ خطتها بإبعاد رجال الدولة المقربين من الأمير مصطفى، ومما ساعد على زيادة نفوذها وفاة والدة السلطان القانوني حفصة سلطان في عام 941هـ/1534م ، ومما فتحُ المجال أمام خرّم سلطان لتحقيق أهدافها ، والوصول إلى مطامعها ؛ لأنها أصبحت سيدة القصر الأولى وصاحبة الكلمة المطلقة فيها.

وقد تمكنت خرّم سلطان من التدخل في شؤون الدولة بشكل أوسع وذلك بعد مقتل الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا ، ففي بداية عام 948هـ /1541م نقلت دائرة الحريم التي كانت حتى ذلك الحين في القصر العتيق في منطقة بايزيد إلى توب قابي سراي مقر السلطان والبلاط العثماني ، فصارت بذلك تتابع الأحداث عن قرب ، ثم قامت خرّم سلطان بإبعاد الأمير مصطفى من مغنيسا إلى أماسيا لضمان بعده عن الأنظار وعن العاصمة إستانبول ، كما أدت خرّم سلطان دورًا مهما في إرتقاء رستم باشا "زوج ابنتها مهرماه " إلى رتبة وزير ، ثم إلى منصب الصدر الأعظم ، وذلك خلال فترة زمنية قصيرة .

وكانت خرّم سلطان ترغب في أن يكون ابنها الأكبر الأمير محمّد وليًّا للعهد ، لكن وفاة الأمير المفاجئة في مغنيسا عام 950هـ / 1543م جعلها تفكر في ابنيها الآخرين لولاية العهد ، وهما بايزيد وسليم ، وكانت تفضل بايزيد لهذه المهمة نظرًا لتربيته ونشأته الجيدة منذ صغره ، وكان والياً على قرامان ، فيما كان سليم والياً على مغنيسا . [2]

وقد حثت خرّم سلطان القانوني على منح بايزيد وسليم مناصب عليا في إدارة الدولة وقيادة الجيش ؛ كي يتسنى لهما كسب حبّ وتقدير الجيش والشعب وأركان الدولة ، وليثبتان جدارتهما بمهام ولاية العهد . وبالفعل عندما قام السلطان القانوني بحملته العسكرية على إيران عام 955هـ / 1548م أسند إلى بايزيد قيادة إحدى الفرق العسكرية في الجيش العثماني ، وعين سليمًا على ولاية أدرنه القريبة من إستانبول ليقوم بحماية العاصمة من المخاطر الآتية من الغرب . ويلاحظ هنا أن السلطان القانوني لم يوجه أي مهام لابنه الأكبر مصطفى الذي كان واليًا على أماسيا ؛ لبعده عن الأنظار ، ويدل أيضًا على التقليل من شأنه .

[1] Cagatay Ulucam , "Kanuni Sultan Suleyman ve Ailesi ile ilgili Bazi Notlar ve Vesikalar " Kanuni Armagani , Ankara 1970 , S . 232 , 256 – 257 .

[2] Meral Altindag , Osmali da Harem , Altin Kitaplar , Istanbul 1993 , S . 113 ; Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , Cilt 18 , Ista . 498 – 499 nbul .

ثم لعب الحلف الثلاثي المكون من خرّم سلطان ، وابنتها مهرماه سلطان ، وصهرها " زوج مهرماه سلطان " رستم باشا دورًا مهمًا في المؤامرة التي أدت إلى مقتل الأمير مصطفى في ضواحي قونية خلال الحرب العثمانية الإيرانية في عام 961هـ / 1553م ، بعد أن قاموا بنشر الشائعات حول نيَّة مصطفى في القضاء على والده والجلوس على عرش السلطنة .

وقد أدى مقتل مصطفى إلى استياء ونفور شديدين بين قادة الجيش العثماني وأركان الدولة العثمانية ، مما جعل السلطان القانوني يعزل رستم باشا من منصب الصدارة العظمى ويعين الوزير قرا أحمد باشا في هذا المنصب ، ونجا رستم باشا من الموت بفضل خرّم سلطان التي طلبت من السلطان العفو عنه .

وبعد مقتل الأمير مصطفى بأشهر قليلة ، توفي الأمير جهانجير النجل الأصغر لخرّم سلطان في حلب ؛ وذلك لحزنه العميق على مقتل مصطفى الذي كان يحبه كثيرًا مما أحزن خرّم سلطان حزنًا شديدًا على وفاة ولدها الأصغر .[1]

وعلى الرغم من الدور السيئ الذي لعبتهُ في مؤامرة مقتل الأمير مصطفى، إلا أنها كانت أول امرأة من الحريم العثماني تمارس شؤون السياسة والحكم ، حيث أسهمت خرّم سلطان ببعض النشاطات الدبلوماسية فقد راسلت أخت الشاه طهماسب الصفوي ، وعندما أرسل الشاه طهماسب الهدايا إلى السلطان القانوني بمناسبة افتتاح جامع السليمانية في إستانبول، قامت خرّم سلطان بكتابة خطاب الشكر له .[2]

في ذات الوقت كان لخّرم سلطان أعمال خيرية وحسنة ، حيث شيدت كثير من المؤسسات الخيرية والأوقاف لرعاية الفقراء والمحتاجين ، من أهمها : جامع الخاصكي الذي يضم حوله مدرسة ودارًا لإطعام الفقراء ، ودارًا للشفاء ، ولا يزال الحيّ الذي بني فيه الجامع يعرف بحيّ الخاصكي ، وقامت كذلك بتجديد تكية للمحتاجين حولتها إلى مدرسة ، [3] إضافة إلى تشييدها حمامًا يعرف باسم حمام الخاصكي بالقرب من طوب قابي سراي ، كما قامت بحفر الآبار الخيرية في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف ، وأنشأت أوقافًا تضمن إيرادات عالية لتلك الأعمال الخيرية . [1]

---

[1] Ali , Kunhu l u Ahbar , I . U . Kutup . Nr . 5959 , Varak 431 a . Gagaay Ulugay : Padisanlarin Kadinlarive Kizlari , S . 34 – 35 .

[2] Feridun Bey , Munseat , II , S . 65 .

[3] Baltaci , Osmanli Mdreseleri , S . 234 .

[1] Omer Barkan , Istanbul Vakiflari Tahrir Defteri , Istanbul , S . 434 – 435 .

وحوت الوقفية الخاصة بها على تفاصيل مفيدة جدًا عن كيفية إدارة أوقافها، حيث أسست مؤسستين خيرتين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأوقفت عليها كثيرًا من الأراضي في قرى مصر للإنفاق عليها من ريعها ، وكثيرًا من الدور والحوانيت في مكة المكرمة بكل ما فيها من أدوات ومخازن وغيرها ، بالإضافة إلى بئر ماء وصهريج ، وأخيرًا سفينتين في قناة السويس مع جميع آلاتهما وأدواتهما ولوازمهما لنقل الغلال التي تنتجها القرى الموقوفة في مصر إلى مينائي ينبع وجدة ، مع جميع لوازم المؤسستين الخيرتين في مكة والمدينة . (2)

توفيت خرّم سلطان في إستانبول في 6 رجب 966هـ/15 إبريل 1558م، وكان عمرها 55 عاماً ، ودفنت في فناء جامع السليمانية ، ثم قام السلطان سليمان القانوني بإنشاء قبة ضخمة على قبرها . (3) وهذا بالطبع مخالف للشرع ولكنها كانت عادة لديهم .

والمادة الثالثة التي تناولت حياة الحريم العثماني هي مادة " ماه بيكر كوسم" التي تناولها المستشرق كافيدبيسون ، وهي المادة الوحيدة التي ستنقدها الدراسة له.

أما عن النقاط التي ستتناولها الدراسة فهي :

أولاً : الجزم بأنها تعود إلى أصول يونانية ، على الرغم من عدم ثبوت ذلك . (4)

ثانياً :عرفت المادة حياتها السياسية بصورة صحيحة إلى حدٍ ما ، تكاد تخلو من التشويه والافتراء ، ولكن بطريقة متداخلة غير واضحة . (5)

ثالثاً : المرور على قضية مقتلها دون توضيح. (6)

رابعاً : لم تفصل المادة الكثير من أعمالها الخيرية ، وفي ذلك هضم للجانب الخيرِّ فيها . (7)

جاءت مادتهُ مقتضبة وصغيرة و مشوشة ، وأسلوبه متداخل و خافي للحقائق ، وعلى الرغم من ذلك لم تحو كثير من الافتراء أو التشويه ؛ ويعود ذلك لأن حياة "ماه بيكر كوسم" كانت مليئة بالدسائس والمؤامرات أصلاً ، والعيب الوحيد في المادة أنها لم تركز كثيرًا على

---

(2) Tahsin Omer Tahaoglu , Istanbul' da Osmanli Turbelerinin Tipolojisi , I , U . Doktora Tezi , 1988, S . 127 – 133 .

(3) ماجدة مخلوف: أوقاف نساء السلاطين العثمانيين – وقفية زوجة السلطان سليمان القانوني على الحرمين الشريفين ، ص16،15.

(4) M.Cavid Baysun : Kosem sultan , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , Leiden : e. J . Brill , 1997 , S . 272 .

(5) M. Cavid Baysun : Kosem Sulan , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 272 .

(6)M. Cavid Baysun : Kosem Sulan , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 273 .

(7) M. Cavid Baysun : Kosem Sulan , The Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 273 .

الجانب الخيرّ في شخصية صاحبة المادة، حيث أهمل كافيد بيسون الأعمال الصالحة والخيرة التي قامت بها "ماه بيكر كوسم" لمساعدة المحتاجين والفقراء والمساكين ، وخاصة أوقافها للحرمين الشريفين .

إن ظهور "ماه بيكر كوسم" على مسرح الأحداث السياسية ، يعطي دلالة واضحة على أن الحريم العثماني لم يكن قط منعزلات عن الحياة السياسية ، وإنما تدخلوا بها وفكروا وقادوا مقدرات الدولة العثمانية في فترة من الزمن .

ولنلقي نظرة على نقد نقاط مادة ماه بيكر كوسم :

أولاً : جزم بأنها تعود إلى أصول يونانية ، على الرغم من عدم ثبوت ذلك .

" كوزم سلطان وهي زوجة السلطان أحمد الأول ووالدة السلطان مراد الرابع وإبراهيم الأول، كانت يونانية بالميلاد " [(1)]

تعد من أشهر حريم الأسرة العثمانية على الرغم من اسمها ماه بيكر وفقاً لعادات وتقاليد الأسرة العثمانية ، يعني ضوء القمر ، إلا أنها عُرفت عمومًا باسم " كوسم سلطان " . وقد ورد اسم ماه بيكر في أغلب المصادر العثمانية التاريخية عند الحديث عنها ، ونالت هذا الاسم لجمالها وظرفها وذكائها ، أما عن اسم كوسم والذي شاع استخدامهُ في القصر السلطاني ، فهو يدل على أنها كانت ذات بشرة بيضاء ناعمة وملساء خالية من الشعر ، هذا إضافة إلى أن كلمة كوسم تعني أيضًا الكبش الذي يسير في مقدمة الأغنام ، مما يشير إلى مطامحها في الرئاسة والقيادة . [(2)]

لا تتوفر معلومات وافية عن طفولتها أو أسرتها ، أو عن زمن دخولها ووصولها إلى القصر العثماني ، أما عن أصلها فقد اختلف حولهُ المؤرخون ، فمنهم من أرجع أصلها إلى الروم وأنها ابنة أحد القساوسة الرومان الذي يمتلك مقاطعة قرب إستانبول ، وكان اسمها أناستيا . أما الفريق الثاني ، فيرجح أنها ابنة قسيس أرثوذكسي من البوسنة ، وأن آغا البنات أحضرها من أحد ولاة البوسنة .

ومن المحتمل أن ولادتها تصادف عام 988هـ / 1589م ، ووصولها ودخولها إلى القصر العثماني في حدود عام 1018هـ–1019هـ/1609م–1610م ، وقد أهديت إلى

---

(1) M.Cavid Baysun : Kosem sultan , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 272 .

(2) M. Cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S . 48

أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ، ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص294 .

القصر العثماني من قبل والي بوسنة في زمن السلطان محمد الثالث ، وكان عمرها آنذاك في حدود 6-7 سنوات . [1]

عرف عنها ظرفها وخفة دمها ولطفها في معاملة الآخرين ، وقد جلبت بهذه الصفات إضافة إلى عن جمالها انتباه السلطان أحمد الأول ، عقب توليه العرش بعد وفاة والده السلطان محمد الثالث ، وتفوقت على حريم القصر ، فتزوجها السلطان ، وقد لمع نجمها أكثر عقب ولادة ابنها مراد ثم إبراهيم ، وأخيرًا ابنها قاسم ، وأنجبت من البنات فاطمة وعائشة ، وبذلك زاد نفوذها وتفوقت على جميع نساء القصر ، وبحسب التقاليد العثمانية أرسلت عقب وفاة زوجها السلطان أحمد الأول إلى القصر القديم الكائن في منطقة بايزيد ، لكن إقامتها هناك لم تطل أكثر من ستة سنوات [2] عادت بعدها والدة سلطان لتمارس سلطات سياسية تاقت نفسها لها .

ثانياً : عرضت المادة حياتها السياسية بصورة صحيحة إلى حدٍ ما ، تكاد تخلو من التشويه والافتراء ، ولكن بطريقة متداخلة غير واضحة . [3]

بعد أن أصيب السلطان أحمد الأول بمرض الحمى المميت ، بدأت "ماه بيكر كوسم سلطان" القيام بنشاطات مختلفة لأجل إعداد أولادها لتولية الحكم ؛ لأن السلطان أحمد كان له ولدان أكبر في العمر من أبنائها ، فحاولت الاقتراب من كبار رجال الدولة بشتى الطرق وذلك لاستمالة تأييدهم ودعمهم ، وعقب وفاة زوجها السلطان أحمد في 23 ذو القعدة 1026هـ / 23 نوفمبر 1617م ، قامت كوسم سلطان بدور كبير في تنصيب الأمير مصطفى شقيق السلطان أحمد الأول على عرش السلطنة بدلاً من الأمير عثمان أكبر أبناء السلطان أحمد الأول من زوجته الأولى "ماه فيروز" ؛ وكانت كوسم سلطان تمهد الطريق أمام أولادها الذين كانوا في سن صغيرة في ذلك الوقت ؛ لأنها تعلم أن مصطفى لا يستطيع

---

[1] Yilmaz Oztuna , Osmanli Hareminde Uc Haseki Sultan ; Istanbul 1988 , S . 80 .

أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ، ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص294 .

[2] M. Cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , S . 48

أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ، ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص294 .

[3] M.Gavid Baysun : Kosem Sultan , the Engyglopaedia of Islam , Volume VI , P . 272 .

* أنظر المادة في الملاحق .

الاستمرار كثيرًا في الحكم لأنه ضعيف الشخصية ، بالإضافة إلى أنه كان عقيمًا ، فالحكم سيرجع إلى إبنائها آجلاً أم عاجلاً . [1]

وبالفعل لم تدم سلطنته كثيرًا ؛ إذ خلُع وجاء بعده النجل الأكبر للسلطان أحمد الأول وهو عثمان الثاني ، من زوجتهِ الأولى ماه فيروز .

وقد أقامت كوسم سلطان في القصر العتيق خلال حكم السلطان مصطفى والسلطان عثمان الثاني ، وانشغلت بتربية أولادها وإعدادهم للسلطنة . وبعد فترة قصيرة لم تدم أكثر من خمس سنوات خلع السلطان عثمان الثاني ، ثم قتل إثر مؤامرة غادرة ، فانفتح الطريق أمام الأمير مراد لتولي الحكم في 15 ذو القعدة 1032هـ / 9 سبتمبر 1623م ، فانتقلت كوسم سلطان إلى طوب قابي سراي ضمن مراسيم خاصة ورسمية وفخمة بصفتها والدة السلطان مراد الرابع الذي كان في الثانية عشرة من العمر عند ارتقائه العرش ، وكان عديم التجربة والخبرة السياسية ، ثم حدث أن توفيت " خانذان خاتون" والدة السلطان أحمد ففتح بذلك المجال أمام "ماه بيكر كوسم سلطان" وغدت صاحبة السلطة في الدولة العثمانية لمدة عشر سنوات ، بحيث كانت تشارك في الاجتماعات مع أركان الدولة ، وتسهم في حل شؤون الدولة وإصدار القرارات ، وقد تربى السلطان مراد الرابع على يد أم قوية الشخصية لا تتردد في عمل أي شيء في سبيل السياسة والسلطة ، وكان السلطان الصغير يرافق والدته في هذه الاجتماعات ليتعلم أمور الدولة ، وهو ينتظر من جهة أخرى اليوم الذي يتسلم فيه الإدارة من والدته ، لكن كوسم سلطان لم تكن تنوي أبدًا تسليم إدارة الدولة إلى ابنها السلطان ، ومع ذلك فإن الأحداث الداخلية التي تطورت في إستانبول والأناضول أدت إلى عزل الصدر الأعظم خسرو باشا ، وتعيين طوبال رجب باشا في منصب الصدارة، والذي قام بمناورات عديدة لكسر نفوذ كوسم سلطان وإعطاء الإدارة إلى السلطان مراد الرابع ، ونجح في ذلك عام 1041هـ / 1631م ، ومع هذا كان السلطان يستمع إلى والدته ، إذ إنه لم يكن قد تخلص من تأثيرها ، حتى أنها كانت أثناء رحلاتهِ الخارجية هي التي تدير شؤون الدولة العثمانية ، وفي الوقت ذاته حاول منعها من التدخل في السياسة ، بل وهددها بإعادتها إلى القصر العتيق. وبعد وفاة السلطان مراد الرابع عام 1050هـ / 1640م اعتلى عرش الدولة العثمانية الابن الآخر لكوسم سلطان، وهو إبراهيم ، إلا أنه كان يعاني من مرض الشقيقة الذي جعله عصبيًا دائمًا لا يستطيع القيام بعمل أي شيء ، وهذا ما جعل المستشرقين يتهموه

---

[1] Meral Altindag , Osmanli ' da Harem , Altin Kitaplar , Istanbul 1993 , S . 100 .

بالجنون، وحقيقة الأمر أنه كان يصاب بصداع شديد لا يحتمل. مما أدى إلى تصاعد مسؤولية كوسم سلطان ، حيث بدأت تمسك إدارة الدولة بيدها مرة أخرى ، وقد قامت بتقديم عدد كبير من النساء والجواري إلى ابنها السلطان لينجب ذكرًا ؛ وذلك لأنه كان الرجل الوحيد المتبقي من نسل آل عثمان ، وإذا لم ينجب ضاع ملكهم ، وهي بذلك قدمت خدمة للدولة العثمانية بالحفاظ على نسل آل عثمان ، ولكن الازدياد المفرط في عدد النساء والجواري أدى إلى تدخل بعضهن في شئون الدولة العثمانية مما أضعف سلطة كوسم سلطان في البلاط العثماني ، أضف إلى ذلك أن السلطان إبراهيم الأول أصبح لا يستمع إلى والدته نتيجة وقوعه تحت تأثير نسائه وجواريه وعلى رأسهم خديجة تورخان ، إذ قام بإبعاد والدته وإجبارها على الإقامة في جنينة أسكندر جلبي . وهنالك رواية تفيد بأن السلطان أراد أن ينفي والدته إلى جزيرة رودوس للتخلص من تدخلها في شؤون السياسة وهذه الرواية التي ترجحها الدراسة ، حيث قامت كوسم سلطان بالاتفاق مع رجال الدولة وشيخ الإسلام بخلع السلطان إبراهيم بحجة جنونه في 16 رجب 1058هـــ / 8 أغسطس1648م، وبتولية حفيده محمد بن السلطان إبراهيم الذي كان عمره سبع سنوات في مقام السلطنة . [1]

ومع حبها للحكم والسياسة ، تميزت بالخبرة والمعرفة والحنكة السياسية ، فنجد أنها عالجت كثيرًا من مشاكل الحكم و الإدارة بشخصية قوية وعقل مفكر ، فمثلاً استطاعت أن تقضي على تمرد للانكشارية في عهد ابنها السلطان مراد الرابع ، حينما لم تدفع لهم العطايا المتبعة نظرًا للقصور المالي في خزينة الدولة ، فأمرت الصناع بأخذ مقدار من الأواني الذهبية والفضية من القصر السلطاني وصهرها لتحويلها إلى نقود منحتها للانكشارية ، وبذلك قضت على تمرد اعتادوا عليه . [2]

ثالثاً :المرور على قضية مقتلها دون توضيح .

" إن نفوذ السيدة خديجة تورخان خاتون ومعاونيها شكل تكتلاً ضدها ، أدى هذا الصراع إلى سوء تفاهم بين مسئولي الدولة ومعاوني والدة سلطان "خديجة تورخان " وخلق جو من التوتر في إستانبول فقررت ماه بيكر كوسم ، ومعاونيها إستبدال السلطان

---

[1] Yilmaz Oztuna , Osmanli Hareminde Uc Haseki Sultan ; Istanbul 1988 , S . 104 .

يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص489 .عبد المنعم الهاشمي : مرجع سابق ، ص 346 ، 347 .

m. Gagalay ulucay : Padisahlarin . kadinlari ve Kizlayi , s. 49 .

[2] أميرة علي مداح : خبرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 296 .

محمد بأخيه سليمان ، وعندما علمت " تورخان سلطان " بهذه النوايا أخذت بزمام المبادرة ، وقامت بشنق " ماه بيكر كوسم " مستخدمة حبال الستارة ". [1]

كان التقليد السائد في البلاط العثماني يقرّ انتقال والدة السلطان المتوفَّي أو المخلوع إلى القصر العتيق الكائن في منطقة بايزيد ، وعلى سحب يدها من شؤون الدولة ، حيث تأخذ مكانها وصلاحياتها والدة السلطان الجديد ، ولكن كوسم سلطان لم تفعل ذلك ، إنما بقيت في طوب قابي سراي كجدة السلطان الجديد محمد الرابع ذي السبع أعوام ؛ إذ أصبحت صاحبة السلطة في القصر ، وواصلت تدخلها في شؤون الدولة في السنوات الأولى من حكم حفيدها . بينما كانت خديجة تورخان سلطان والدة السلطان محمد الرابع شابة وعديمة التجربة ، فلم تتمكن من الوقوف أمام رغبات كوسم سلطان .

وبدأ الناس يحترمونها أكثر وخوطبت باسم " الوالدة المعظمة " فكانت تدير الدولة العثمانية كما تشاء ، ونالت دعماً من الانكشارية ، لكن بمرور الزمن استاءت خديجة تورخان والدة السلطان محمد الرابع من تسلط ودكتاتورية كوسم ؛ لأن خديجة تورخان بدأت بالتدخل تدريجيًا في أمور الدولة العثمانية على اعتبار أنها والدة السلطان ، ولكن لأنها عديمة الخبرة السياسية ، فقد ظهر التنافس الشديد بين الجدة والوالدة ، مما أدى إلى نشوب الاضطرابات في الحريم العثماني الذي انعكس سلبًا على إدارة الدولة العثمانية ، وقد انقسم رجال الدولة إلى قسمين : قسم يساند ماه بيكر كوسم ، وقسم آخر يساند خديجة تورخان سلطان ، في الوقت نفسه قامت الأخيرة باتصالات سرية مع بعض أركان القصر لكسب تأييدهم ودعمهم لها ووقوفهم ضد ماه بيكر كوسم سلطان ،[2] ومحاولة إبعادها عن توب قابي سراي وليس قتلها – كما أوحت بذلك المادة – .

في الوقت نفسه علمت ماه بيكر كوسم بتلك المؤامرة فخططت لخلع محمد الرابع وتولية السلطنة لأخيه سليمان ، وخططت أيضًا للتخلص من خديجة تورخان سلطان بالقتل ، وذلك بالاتفاق مع أنصارها من رجال الدولة ، لكن المحاولة باءت بالفشل عندما نقلت إحدى الجواري خبر المؤامرة لخديجة تورخان سلطان التي بدأت تسابق الزمن وتسبق " الوالدة المعظمة " فوظفت أحد الحراس للتخلص منها، فتوجه مع فرقة من جنودهِ إلى جناح الجدة العجوز ، وما أن وقعت عيناه عليها حتى قتلها في غرفتها بدائرة الحريم في 16 رمضان

---

[1] M. Cavid Baysun : Kosem Sultan , the Encyclopaedia of Islam , vdume VI , P. 272 .

[2] M. Gagalay ulucay : Kosem Sultan , Padisanlarin Kadinlari ve Kizlari , S 49. Naima ,Tarih, V,S.166

1061هـ/ 2 سبتمبر 1651م ، وقد دفنت داخل ضريح زوجها السلطان أحمد الأول الكائن في إحد أركان جامع السلطان أحمد . [1]

وذكرتها المصادر العثمانية كذلك بألقاب مختلفة ، فبالإضافة إلى لقب الوالدة المعظمة لقبت بالوالدة الكبيرة التي تعني جدة السلطان ، وأم المؤمنين ، وصاحبة المقام ، ومهد العلى، والوالدة العتيقة .[2] ولكنها ذكرت بعد وفاتها بلــقب " الوالدة الشهيدة " و" الوالدة المقتولة "[3].

وقد قامت بجدارة بدور أساسي في المؤامرات السياسية إبان سيطرتها على الحكم ، إذ كانت ذكية إلى درجة استثنائية ، ماكرة ومراوغة ، أستاذة في صنع الخطط السياسية والمؤامرات متعددة الوجوه ، مؤثرة ومقنعة في كلامها ، اعتنت بإرضاء الشعب ، لذا تركت كثير من المؤسسات الخيرية التي استفادت منها شريحة عريضة من الفقراء والمحتاجين .

رابعاً : لم تفصل المادة الكثير من أعمالها الخيرية ، وفي ذلك هضم للجانب الخيِّر فيها .

" أن جانبًا كبيرًا من ثروتها كان يُصرف في الأعمال الخيرية وغيرها من الأعمال الإنسانية ، مثل بناء المساجد " [4]

على الرغم من الحياة السياسية التي عاشتها ماه بيكر كوسم ، والمكائد والدسائس التي خاضتها في سبيل الوصول إلى تحقيق أهدافها ومطامحها داخل القصر السلطاني ، إلا أنها تركت خلفها أعمالاً خيرية كثيرة تلقي بضوئها على الجانب الخيِّر والحسن في شخصيتها .

لقد كانت ماه بيكر كوسم ذات ثراء واسع ، حيث امتلكت كثيرًا من الأراضي الزراعية في أماكن عديدة من الدولة العثمانية وخاصة في الأناضول وقبرص ، كانت تهدى إليها من الدول المجاورة ، إضافة إلى أنها عند وفاتها انتقلت صناديق مجوهراتها القيمة

---

[1] يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص497 . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص 492 .
Katib Celebi , Fezleke , II , S. 376 . Tahsin Omer Tahaoglu , Istanbul' da Osmanli Turbelerinin Tipolojisi , I . U . Doktora Tezi , 1988 , S . 224 – 231 .

[2] Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 26 , Istanbul 2002 , S . 275 .

[3] M. Cagatay Ulucay , Padisahlarm Kadinlari ve Kizlari , S . 49 .

[4] M. Cavid Baysun : Kosem Sultan , the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , S . 273 .

وأموالها التي يقال أنها بلغت عشرين صندوقًا مليئًا بالعملات الذهبية " السلطاني " إلى خزينة الدولة العثمانية . [5]

كانت تؤدي الأعمال الخيرية بنفسها حيث تذهب سنويًا لزيارة السجون ، وتقوم بتسديد قروض المساجين لإنقاذهم من العقوبة ، بالإضافة إلى توزيع الأعطيات والهدايا عليهم ، كما أن حبها للخير دفعها أيضًا إلى أن تؤدي دور الأم الحنون للفتيات الفقيرات المقبلات على الزواج ، إذ تقوم بإعداد جهاز العرس ، والإشراف على تزويجهن ولم يقتصر الأمر على الفتيات الفقيرات فقط بل حتى الجواري اللاتي يعملن بخدمتها ، حيث توزجهن على نفقتها الخاصة . [1]

كما أسست مؤسسة خيرية باسم " عطايا السادات " كان يستفيد منها حوالي 200 فقير ومسكين ، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الأسبلة التي أنشأتها في مختلف أحياء إستانبول ، مثل سبيل بجوار جنيلي جامع " جامع الخزف " وسبيل بجوار تكية أبو الهدى ، وسبيل آخر بجوار تكية معمار عجم ، بالإضافة إلى سبيل كوسم سلطان في حي يني قابي ، وأخيرًا سبيل ملحق بمسجد الصدر الأعظم أوزد ميرأ وغلي عثمان باشا ، فضلاً عن تأسيسها أوقافًا في قبرص ومديللي[2] واكريبوز.[3]

وأنشأت جنيلي جامع Cinili Comi Kulliyesi أي جامع الخزف 1050هـ / 1640م ، وقد أحاطته بمدرسة ومكتبة وخصصت أعمالاً خيرية للصرف على أجور الأئمة ، أما عن المدرسة فقد أدت دورها العلمي ، وألحقت بها مدرسة للأطفال ودار للحديث ، وأنشأت حمامًا مزدوجًا بجوار الجامع ، وهو مقسم إلى قسمين : قسم للنساء وقسم للرجال ، وأنشأت مسجد قواغي في نهاية الأناضول بجانب البسفور ، وأنشأت كذلك نُزلاً عُرف باسم " والدة خاني" قدم خدمات لكل الأشخاص والقوافل ، دون النظر إلى لون أو دين أو لغة أو

---

[5] أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 296 .

[1] M . Cagatay ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari , Ankara , 1980 , S . 49 .

[2] مديلّلو : midillon ، جزيرة في الأرخبيل ، وهي مركز ولاية الجزر العثمانية في البحر المتوسط ، اشتهرت الجزيرة قديمًا بكثرة مدنها ، فتحها العثمانيون عام 867هـ / 1462م ، وبها ميناء ومدينة بنفس الاسم وهي عاصمة جزر الأرخبيل العثماني . س. موستراس: مرجع سابق ، ص 456 – 459 .

[3] اكريبوز : Egri-Gueuz بلدة في تركيا الآسيوية ، الأناضول في ولاية حذاوندكار ، لواء كوتاهية ، س . موستراس : مرجع سابق ، ص88 انظر :

Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi , cilt 26 , Istanbul 2002 , S . 275 .

أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة السلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 301 .

ثقافة ومذهب . فضلاً عن أعمال خيرية موسمية توزع على أكثر من مائتي رجل وامرأة في الأشهر المباركة شعبان ورمضان . [4]

وقد ذكرت المادة أوقافها التي أوقفتها على الحرمين الشريفين فقط – حتى هذه المعلومة لم تعط حقها من الشرح – حيث خصصت مبالغ معينة لأعمال عينية، وجزءًا آخر لأعمال معنوية كقراءة القرآن الكريم ، وقامت بتمويل مشاريع الري في مصر ، بالإضافة إلى إنشائها لخزانات مياه في طريق الحجيج ، حتى لا يهلك الحجاج نتيجة لقلة المياه وشدة الحرارة ، وترسل الأموال إلى مكة والمدينة لمساعدة الفقراء والمساكين مع الصرة سنويًا ، وكانت ترسل الكسوة لمائة فقير من فقراء مكة ومثلها لفقراء المدينة حتى إنها كانت تقدم إعاشة للحجاج . [1]

ورغم أن ماه بيكر كوسم والدة سلطان كانت متسلطة ومستبدة ، فإن هذا لا يمنع أنها أحست بشدة بحاجات الفقراء والمحتاجين وصرفت جزءًا كبيرًا من أموالها على أعمال الخير، وهذا ما يجب أن يذكره لها التاريخ .

يعد تناول مسألة الحريم في العصر العثماني من أصعب الموضوعات في تاريخ الدولة العثمانية وذلك لسببين :

أ) لم يكن مسموحًا مطلقًا لأي شخص الدخول إلى الحريم إلا بإذن شخصي من السلطان، وبالتالي أغلب كتابات المستشرقين جاءت من محض خيالهم ، ومن وجهة نظرهم عن وضع المرأة الأوروبية وليس عن وضع الحريم العثماني الصحيح .

ب) قلة المصادر والمراجع الصادقة في هذه المسألة مما أسهم في ندرة المعلومة الصحيحة .

لم تنقل مادة حريم ، الصورة الحقيقية للواقع الذي عشنه ، فقد صورتهم على أنهم فئة محجوب عنها أي أحداث خارجية ، ولا يتفاعلن مع المجتمع المحيط بهن ، والحقيقة أن الحريم كن على اتصال دائم بالحياة الاجتماعية ومتطلبات المجتمع ، ولم يعشن في عزلة كما تصور المستشرقون ، وإنما تفاعلن مع المجتمع في إطار الشريعة الإسلامية عن طريق الأوقاف التي أسهمت في الكثير من الأعمال الخيرية .

---

[4] أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 297 – 302 .

[1] أميرة علي مداح : خيرات ماه بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين ، ص 297 – 302 .
M.Cavid Baysun : Kosem Sultan the Encyclopaedia of Islam , Volume VI , P . 273 .

لطالما حاول المستشرقون إخفاء حقيقة الحريم والجزم بحقيقة وصحة ما هو عكسها تمامًا ، مخفين واقعها الحقيقي ، وهي أن جميع الحريم ملك للسلطان يتحكم بمقدراتهن كيفما شاء ، لكن الحقيقة عكس ذلك ، فهناك موظفات وعاملات قائمات على الخدمة والنظافة وغيره، وجميعهن يقضين مدة في العمل ثم يتقاعدن ، ويحصلن على صك العتق ، ويبقين على صلة دائمة بالحريم العثماني ، لدرجة أن السلطان هو من يتولى تزويجهن ، إذ يعتبرونه الأب الروحي لهن .

والخطر الذي يكمن خلف صورة المستشرقين هذه ، أن أغلب المؤرخين المسلمين استقوا معلوماتهم عن موضوع الحريم العثماني خاصةً ، من كتابات مستشرقين ، وهي كتابات خاطئة وحاقدة على الإسلام ، فجاءت كتابات المسلمين ترجمة لصور خاطئة دفعها المستشرقون في الأذهان ، وانتقلت عبر الأجيال .

إن نظام الحريم ليس وليد الدولة العثمانية وإنما يعود بجذوره إلى أنظمة الدول الإسلامية السابقة على الدولة العثمانية ، ومن قبلهم جميعاً قواعد الشريعة الإسلامية .

المبحث الثالث :

النظم الشرعية " هيئة العلماء أنموذجاً "

اعتمدت الدولة العثمانية منذ أن كانت إمارة صغيرة على الشريعة الإسلامية في تسيير أمورها ، فقد تشكلت علاقة العثمانيين بالدين الإسلامي منذ فترة مبكرة جدًا ، ومن هذا المنطلق حازت هيئة العلماء على مكانة عالية ومرموقة .

ومنذ بداية الدولة العثمانية وتشكلها كإمارة صغيرة حظيت الشريعة الإسلامية باعتراف ووجود واستمرار ، ذلك أن اهتمام العثمانيين بالجانب الديني الإسلامي جاء ضمن إطار اجتماعي سياسي يخدم الدولة العثمانية. والواقع أن القانون في قلب الكيان السياسي للعثمانيين كان محصورًا بالتشريع الإسلامي ، واستمر رجال الدين الإسلامي بشكل عام يشكلون جزءًا أساسيًا من منظومة الدولة العثمانية . [1]

وعليه فقد غلبت النزعة الدينية على العثمانيين ، حتى صبغوا كل مظاهر الدولة بالصبغة الدينية ، وخصوا العلماء والفقهاء بكثير من الاهتمام والولاء ، حيث أغدقوا عليهم العطايا والاهتمام ، وانعكس هذا بدورهِ على أعمال الدولة العثمانية اليومية ، إذ أصبح التشريع الإسلامي والمفتشين هما المحوران اللذان تدور حولهما حياة الدولة العثمانية ، وازداد تعلق الناس بالعلوم الشرعية وأصبح الناس على اختلاف ميولهم وتعدد أصولهم وأعراقهم متصلين بالشريعة الإسلامية.[2]

وبمرور الوقت صارت الحياة اليومية في أنحاء الدولة العثمانية مرآة تعكس نظم الشريعة الإسلامية وقواعدها .

ومما يؤكد المعلومة السابقة النفوذ الكبير الذي حاز عليه العلماء وذلك بسبب طبيعة مراكزهم الدينية والقضائية ، ومناصب الإفتاء ، حيث جاءوا في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان العثماني والصدر الأعظم ، وقد انقسمت هيئة العلماء إلى :

١) شيخ الإسلام .

---

[1] أحمد صدقي شقيرات : تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني ، ج 1 ، ط1 ، الأردن ، 1423هـ / 2002م ، ص83.

Sehabehin Tekindag : Medrese Donemi , Cumburiyetin 50 . Yilnda Istanbul universitesi Istanbul , 1973, S, 3-4 .

[2] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ص 84 .

٢) القضاء العثماني " قاضي عسكر الروملي – قاضي عسكر أناضولي وقضاة المدن الكبرى مثل إستانبول – القاهرة – مكة المكرمة " .
٣) المفتون " دار الفتوى " .
٤) معلمو السلطان .
٥) نقيب الأشراف .
٦) هيئات التدريس في المدارس الإسلامية .
٧) رئيس الأطباء " حكيمباشي "
٨) رئيس المنجمين " منجم باشي "
٩) خازن الكتب " خزندار "
١٠) ويلحق بالهيئة الدينية الإسلامية الإداريون في القطاع الديني . [1]

وهكذا جاء ترتيب شيخ الإسلام الثاني بعد الصدر الأعظم في هرم وظائف الدولة العثمانية ، فهو موظف كبير قدرًا ومقامًا .

وقد جاء تأسيس مشيخة الإسلام نتيجة للوضع القائم على الساحة العثمانية ، وهو رعاية القطاع الديني الإسلامي في الدولة ، في عهد السلطان مراد الثاني المتدين المتصوف ، الذي أنشأ الكثير من المنشآت الخيرية المتعددة ، وهو لم يكن رجلاً تقيًّا ورعًا فحسب ، بل كان أيضًا سياسيًا موهوبًا وناضجًا ، استطاع خلال عشرين عامًا أن يعيد الدولة العثمانية إلى سابق قوتها بعد أن دمرها تميور لنك . ونعود إلى مشيخة الإسلام التي أُنْشِئت نتيجة أمرين :

الأول : جاء تقليدًا لما كان موجودًا ومعروفًا أصلاً في الدول الإسلامية ، لذا جاء منصب شيخ الإسلام تقليدًا لما هو موجود أصلاً في ديار الإسلام ، مثل المفتي والقاضي ، وذلك ضمن مجموعة من المناصب والمؤسسات التي نقلها العثمانيون عن الدول الإسلامية .

الثاني : أنه جاء بعد تطور طويل لمنصب المفتي . [2]

---

[1] Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Devleti teskiatindan " التشكيلات علمية " 2 Baski , Ankara, Turk Tarih Kurumu Basimevi , 1984 , S 60 – 80 .
عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص310 ، 311 . أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ج1 ، ص299 ، 306 . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص183 .

[2] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص86 –89 .

وفي عهد السلطان عثمان الأول وعلى الرغم من صعوبة تعقب تطور الناحية العلمية في عهده إلا أنه كان يرفع من شأن رجال العلم والمشايخ والعلماء ، وقد أحاط بمجلسه وديوانه عدد من المشايخ الذين استمروا مع ابنهِ أورخان الذي كان يستشير العلماء والمشايخ ورجال العلم من حوله في كل ما يتعلق بأمور الدولة الداخلية والخارجية . [1]

وتحققت الاستفادة من المشايخ ورجال العلم إبان قيام الدولة في أشكال مختلفة ، تأتي الاستشارة في مقدمتها ، إذ كان سلاطين الدولة العثمانية يتباحثون مع العلماء والمشايخ في كل الأمور التي تهم الدولة العثمانية ، ثم يصدر السلطان القرار بعدها . وهذا الأسلوب كان يأخذ شكل مجلس استشاري غير رسمي ، وفي المقابل استفاد علماء الدولة ومشايخها – من ناحية أخرى – من هذه الاستشارات بتعيينهم بالفعل في عضوية الديوان الهمايوني ، فكان منهم الوزير والصدر الأعظم وقضاة العسكر وغيرها من المناصب المهمة في النظام العثماني ، [2] حيث إن أغلب هذه المناصب تولاها رجال علم ومشايخ منذ البداية .

ونظرًا لهذه الأهمية العظيمة الذي حاز عليها شيخ الإسلام على اعتبار أنه رئيس هيئة العلماء ، اهتمت دائرة المعارف الإسلامية بمنصب شيخ الإسلام وأفردت له مادة طويلة في الجزء الثالث عشر ، حيث قدمها المستشرق كرامرز ، وجاءت طويلة متعمقة في جوانب المنصب على مر العصور الإسلامية .

إلا أن الدائرة أهملت تمامًا باقي أفراد هيئة العلماء ، حيث لم تعرِّف إلا لشيخ الإسلام وحكيم باشي ، وقدمت تعريفاً متواضعًا عن خازن الكتب ، ذكرت فيه تطور المنصب عبر الدول الإسلامية حتى توقفت المادة عند العهد المملوكي ولم تأت على ذكر فترة الدولة العثمانية مطلقًا . [3]

وعلى الرغم من أن هيئة العلماء مقسمة إلى عدة أقسام – كما ذكر سابقًا – فإن الدائرة أهملت هذا التقسيم متعمدة ولم تشر له أصلاً للحط من قدر هيئة العلماء وشيخ الإسلام ، وعدم إعطاء القارئ إحساسًا بأهمية هذه الهيئة ومناصبها، وحصرها في شخصية شيخ الإسلام فقط وكأنه هو المسيطر على جميع الشؤون الإسلامية .

---

[1] ويظهر ذلك بوضوح في وصية عثمان الأول لابنه أورخان ، أنظر ص 352،353.

- Aydin Taneri : Osmanli Devletinin Kurulus Doneminde Hukumdarlik Kurumunun Gelismesi ve Saray Hayati Teskilati , Ankara 1978 , S . 269 .

[2] Kanunname-i Ali Osmani , Seuy , 13- 15 eki (1329 – 1330) .

[3] Orhonlu : Khazine , The Encyclopaedia of Islam ,1990 , Volume T V , LEIDEN , D . 1183-1186.

ولنلقي نظرة على مادة شيخ الإسلام من دائرة المعارف الإسلامية التي احتوت على الافتراءات التالية :

أولاً :لم يورد كرامرز تعريفًا مفصلاً لكلمة شيخ الإسلام . [1]

ثانياً : تصويره لأهمية منصب شيخ الإسلام .[2]

ثالثاً :محاولة الحط من شأنه ، وذلك لأنه لا يحضر جلسات الديوان السلطاني.[3]

رابعاً : صورة كرامرز على أنه لا يلتزم بإرادة السلاطين ، والدليل على ذلك أنه اتخذ لقب شيخ الإسلام من تلقاء نفسهِ . [4]

خامساً : أرجع كرامرز نظام شيخ الإسلام إلى التأثير بطبقات رجال الدين النصارى. [5]

سادساً : تصوير كرامرز لبعض السلاطين بأنهم استهانوا بشخصية شيخ الإسلام ، لتحقيق رغبات ومصالح خاصة بهم وإصدار فتاوى مخالفة للشرع .[6]

سابعاً : قدم كرامرز أمثلة عن الفتاوى التي كان يصدرها شيخ الإسلام ، دون توضيح للظروف الصحيحة لهذه الفتاوى . [7]

ثامناً : أرجع تدهور الدولة العثمانية إلى رجعية مشيخة الإسلام . [8]

تاسعاً : أرجع كرامرز الفضل في التعبير عن أي فكرة لشيخ الإسلام للكُتاب الأوروبيين النصارى . [9]

وعلى الرغم من ذلك فقد تميزت المادة التي قدمها كرامرز بتعمق شديد في أشياء مكررة وشرح تطورات هذا المنصب ، ومتى أخذ اللقب ومن أول من أطلق عليه ، لكن يعاب عليها إدخال القارئ في اختلافات ليس لها طائل ، والتركيز فقط على الجانب السيئ في منصب شيخ الإسلام ، وعدم ذكر حسناته مطلقًا أو حتى حقيقة مهامهِ ، وكررت المادة

---

[1] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص471 .

[2] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص473 .

[3] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 .

[4] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 .

[5] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 .

[6] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 .

[7] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص476 .

[8] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص476 .

[9] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص477 .

إلصاق التهم بمنصب شيخ الإسلام ، وعدته المساعد الأول لتنفيذ رغبات ونزوات السلطان عن طريق إصدار الفتاوى التي تتماشى مع هفوات السلاطين .

وعلى الرغم من أن المادة امتلأت بكثير من النواقص إلا أنه أعيد طباعتها كما هي في الطبعة الحديثة التي صدرت من مركز الشارقة للإبداع الفكري ، ولم يوضع عليها أي تعليقات أو حتى إعادة صياغة للأخطاء الفادحة التي احتوتها.[1]

أما مادة " حكيم باشي " فقد تركزت حول أبرز من تولى هذا المنصب ، بالإضافة إلى مسؤولياته في علاج سكان القصر السلطاني ، وأوضحت المادة الرواتب التي كان يتقاضاها وأبرز مهامهِ ، من تعين وعزل الأطباء والجراحين ، وفي حقيقة الأمر جاءت شاملة لجميع نواحي هذا المنصب ، ولم تحتو على افتراءات أو تشويهات ؛ [2] ويعود ذلك لعدم وصول أهمية منصب حكيم باشي لأهمية منصب شيخ الإسلام ، لذلك لم تركز عليه الدائرة .

وفيما يلي نقد النقاط التي جاءت في مادة شيخ الإسلام :

أولاً : لم يورد كرامرز تعريفًا مفصلاً لكلمة شيخ الإسلام ، واكتفى بأن أطلق عليها لقب من ألقاب التشريف .

" لقب من ألقاب التشريف التي ظهرت أول ما ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري " [3].

لم يعرض كرامرز له أي تعريف على الرغم من وجود هذه التعريفات في كتب اللغة والتاريخ العثماني أيضاً .

الشيخ : من أصل الفعل " شاخ " ويأتي منه – أيضًا شيخاً وشيوخية وشيخوخية ، وجميعها تعني صار شيخاً أو أدرك الشيخوخة ، ويقال : شاخ الإنسان ، أي سن وكبر في العمر ، والشيخوخة غالبًا عند سن الخمسين .

والجمع منها مشايخ أو أشاييخ ، وتطلق عرفًا على الكبار في السن ، وعلى العلماء وذي المكانة والعلم والفضل أو رئاسة من كبار العلماء ورجال الآداب والدين والحكم . [4]

---

[1] موجز دائرة المعارف الإسلامية : مرجع سابق ، ج20 ، ص 6365 – 6376 .

[2] M.Tayyib Gokbilgin : Heim – Basai , The Encyclopaedia of Islam , 1974 VolumeIII , LEIDEN , P339 , 340 .

[3] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص471 .

[4] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص 126 . مصطفى بركات : مرجع سابق ، ص216 .

أما ظهور لقب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية فيعود إلى أن أوّل من حمل هذا اللقب من العثمانيين هو شيخ الإسلام المولى نجم الدين أبو الحفص عمر النسفي ، [1] إلا أن الموضوع لم يأخذ أهميته في المصادر كلقب رسمي إلا بعد إطلاقه على رئيس الجهاز الشرعي الديني في الدولة العثمانية ، كما حمل لقب "المفتي " أو " المفتي الأكبر " وكان أول ظهور للقب بشكل جلي في عهد محمد الفاتح في أعقاب فتح القسطنطينية . [2]

ويُعدُّ شيخ الإسلام من أهم رجال الدولة ، وهذا المنصب أحد أهم مناصبها، وهو ينوب عن السلطان العثماني في كل الأمور العلمية ، ومنها مثلاً ما يتعلق بأعمال الطلاب في المدارس والنظر في أمور المحاكم الشرعية ، وكل ما يتعلق بالأمور الدينية .

والإدارة التي يشرف عليها شيخ الإسلام ويجلس فيها يطلق عليها شيخ الإسلام "كابو" أي باب شيخ الإسلام أو إدارة شيخ الإسلام . [3]

وهو المفتي الأول ورأس العلماء ، ثم يليه مباشرة قاضي عسكر الروملي، الذي يشرف على التعليم والقضاء والإفتاء في أرجاء ممتلكات الدولة العثمانية في أوروبا ، ويوازيه في الأهمية قاضي عسكر أناضولي الذي يشرف بدورهِ على التعليم والإفتاء في كل أنحاء الدولة العثمانية غير الأوروبية ، ثم يليه قضاة المدن الكبرى في إستانبول والقاهرة والقدس ثم مكة المكرمة " مولاسي " أي قاضي مكة ومثله في المدينة المنورة . [4]

ثانياً : تصويره لأهمية منصب شيخ الإسلام ، حيث قال :

" اكتسب منصبه في دولة سلاطين آل عثمان بمرور الزمن أهمية سياسية ودينية لا نظير لها في الدول الإسلامية الأخرى " .[5]

في البداية يظهر لنا بوضوح كيف أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة كثيرًا ما امتدح العلم وحث على طلبه ، كما رفع من شأن العلماء وأعطاهم مكانة مميزة ، وجاءت تطبيقات الرسول ﷺ تزيد من رفعة قيمة العلم والعلماء واستمرت هذه النظرة نفسها في جميع الدول الإسلامية بخلفائها وسلاطينها ، ونال العلماء والمشايخ مكانة مرموقة بمرور الزمن ،

---

[1] نجم الدين أبو الحفص عمر النسفي : فقيه حنفي ، ماهر في الكلام عاش في سمرقند ، أهم مؤلفاته العقائد النفسية ، وتاريخ بخاري توفي عام 537هـ / 1142م . انظر : أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص133 .

[2] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص133 .

[3] شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ج1 ، ص792 ، 793 .

[4] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص 57 .

[5] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص473 .

لكن طريقة عرض كرامرز صورتها وكأنها تهمة ألصقت بالمنصب دون النظر إلى الخلفيات الإسلامية لأهمية ومكانة العلماء والمشايخ .

إن منصب شيخ الإسلام ظهر بعد 125 عام على قيام الدولة العثمانية بتعيين المولى شمس الدين الفناري [1] مفتيًا عام 828هـ / 1425م أيام السلطان مراد الثاني وانتهى المنصب مع استقالة شيخ الإسلام محمد نوري أفندي [2] عام 1341هـ / 1922م وهو يعد آخر مشايخ الإسلام العثمانيين ، وهذا يعني أن دائرة مشيخة الإسلام استمرت قوية منذ عام 828هـ / 1425م حتى عام 1341هـ/ 1922م أي لمدة 497عام ، وهي فترة تقترب من خمسة قرون ،[3] بقيت خلالها قوية بل ازدادت خطورة قراراتها إلى أن وصل الأمر إلى أنها تعزل وتعين السلاطين .

لقد بدأت بشكل متواضع ثم لم تلبث أن حظيت بالتقدير والاهتمام والاحترام والمكانة العالية . [4]

وعلى اعتبار أهمية منصب شيخ الإسلام فقد كان وضعه استثنائيًا ، وهو أحد أهم مناصب هيئة العلماء ، وقد أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتي العاصمة نظرًا للمسؤوليات

---

[1] محمد شمس الدين فناري أفندي : يعد الفناري أول شيخ للإسلام في الدولة العثمانية " 751هـ - 834هـ / 1351م-1431م بدأت المؤسسة الدينية الكبرى على عهدِهِ هو محمد شمس الدين بن حمزة بن محمد الفناري الرومي ، نسبة إلى فنار إحدى القرى تقع على بحر إيجه ، كان عارفًا بأصول الدين والعلوم الدينية وعلم القراءات والعلوم العربية والمعاني والبيان ، أدى فريضة الحج عام 822هـ/1419م،مشيخته 828هـ-834هـ/ 1325م - 1331م، وهو أول من أطلق عليه لقب "مفتي العرش العثماني" له عدة مؤلفات في مختلف العلوم الدينية والفلسفية والمنطق. انظر: أحمد صدقي شقيرات: مرجع سابق، ج1، ص301-305.

[2] محمد نوري أفندي المدني : 1276هـ - 1346هـ / 1859م - 1927م ، يعد آخر شيخ إسلام في الدولة العثمانية ، حيث ألغيت عند استقالتهِ ، وهو محمد نوري عثمان كامل محمد رشيد الطرطوسي ، نسبة إلى مدينة طرسوس ، ينتمي إلى عائلة تولى عدد من أفرادها منصب شيخ الإسلام ، نال تعليمه الأساسي ، ثم عمل مدرسًا في مدارس إستانبول وتدرج في الوظائف حتى وصل إلى منصب قاضي في مصر في 19 صفر 1327هـ / 12 مارس 1909م ، عين في مشيخة الإسلام لفترتين 1339هـ - 1341هـ / 1920م - 1922م ، وبعد إسقاطهِ من منصبه للمرة الثانية بقي معزولاً في بيته حتى توفي في 29 محرم 1346هـ / 29 يوليو 1927م وكان رجلاً فاضلاً عُرف عنه مساعدتهِ للفقراء والمحتاجين ، فضلاً عن علمهِ وثقافتهِ الواسعة . انظر: . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج2 ، ص480 - 489 .

[3] أكمل الدين إحسان أوغلي : الدولة العثمانية ، ج1 ، ص302 .

[4] أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص302 .

لا يزال موضوع شيخ الإسلام بعيدًا عن الدراسة الشاملة ، إلا ثلاث رسائل علمية تناولته من جوانب مختلفة ، وهي :

- Repp : the mufti of Istanbul , Oxford 1988 .
- Ekrem kaydu : Die institution des sheyh-u Islam in Osmanisehen staat , Erlanger 1971 . (وهي رسالة دكتوراه لم تطبع)
- I.S. Sirma : L' institution et les biographies des shah al – Islam Sous le regne du Sultan Abdulhamid II (187 b – 1909) Strasbourg 1973 . (رسالة دكتوراه لم تطبع)

الكبيرة الملقاة على عاتقهِ ، حيث كان السلطان نفسه يأخذ برأيه في كل المسائل المهمة ، منها أخذ رأيه في القضايا الجنائية التي يكون حكمها في الأغلب الإعدام ، وهذا الإجراء كان يستهدف الاطمئنان إلى صحة القرائن والأدلة وبالتالي صحة حكم الإعدام ، وأيضًا أخذ رأيه في القوانين الوضعية ومدى مطابقتها للشريعة الإسلامية ، ولم يكن يصدر شيخ الإسلام فتوى دون موافقتهُ شخصيًا ، ولابد أن تتماشى مع الشريعة الإسلامية ، وكان شيخ الإسلام إذا رفض أمرًا لا يملك السلطان إرغامهِ عليه خاصة في عصر القوة . [1]

ولشيخ الإسلام اختصاص مهم يتصل بالسياسة العليا للدولة ، لم يكن يقدم السلطان على أي حرب دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى ، يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين ، وأن لها أسبابًا قوية لا تتعارض مع وجهة النظر الإسلامية [2].

وقد حدث ذلك بالفعل في حرب السلطان سليم الأول مع الشاه إسماعيل الصفوي في بلاد فارس حين تمردت الانكشارية رفضًا للحرب على اعتبار أن الشيعة مسلمين ، فأصدر شيخ الإسلام والعلماء فتوى ببطلان مذهب الشيعة لأنهم أحلوا ما حرم الله ، وحرموا ما أحل الله وبذلك يحل للسلطان محاربتهم . [3]

ويصدر شيخ الإسلام فتاوى بشأن تنازل الدولة العثمانية عن أقاليم لها لصالح دولة أجنبية والفتاوى التي تجيز عزل السلطان وتولية آخر . [4]

ولذلك فمن الطبيعي أن ينال أهمية سياسية ودينية بمرور الوقت ليس تعدياً منه وأخذ حق ليس له ، وإنما فرضت هذه المكانة نتيجة لطبيعة المهام الملقاة على عاتقهِ .

ثالثاً :محاولة الحط من شأنهِ ، وذلك لأنه لا يحضر جلسات الديوان السلطاني .

" كان قاضيا العسكر لا يزالان لهما السبق عليه لأنهما كانا يجلسان في الديوان السلطاني ، أما المفتي فكان لا يجلس فيه ." [5]

---

[1] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص311 . أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج 1 ، ص302 . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص126 . صبحي عبد المنعم . عبد الحميد سليمان ، مرجع سابق ، ص236 .

[2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص311 .

[3] أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص255 ولمراجعة نص الفتوى الرجوع إلى : أماني جعفر الغازي : مرجع سابق ، ص425 .

[4] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص311 .

[5] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 .

إن هذه كلمة حق أريد بها باطل ، فعلاً في البداية كان لا يحضر شيخ الإسلام "المفتي" جلسات الديوان السلطاني ، ولكن ذلك ليس للتقليل من شأنه ، أو عدم أهميته ، وإنما لأنه كان يستطيع الدخول على السلطان وقتما يريد لاستشارتهِ في أحد الأمور ، لقد تبوأ مشايخ الإسلام مكانة رفيعة من الناحية السياسية ، وليس معنى أنه لم يكن عضوًا في الديوان الهمايوني أنه محظور عليه حضور جلساتهِ ، بل على العكس تمامًا فقد كان يدعى وقت الحاجة إلى الديوان الهمايوني ، وفي مقدروهِ أيضًا أن يتوجه هو إلى الديوان وقتما يريد لعرض أمرٍ من الأمور المستجدة .

لقد احتل المرتبة الثانية بعد الصدر الأعظم ، وفي بعض الأحيان كان بعض السلاطين يقدمون مشايخ الإسلام على الصدر الأعظم نفسه ، ثم تطور الأمر في أواسط القرن 13هـ / 19م في عهد التنظيمات ، وعندما بدأت الدولة العثمانية تتخذ نظام مجلس الوزراء على الطريقة الأوروبية ، صار شيخ الإسلام عضوًا فيه . [1]

إن منصب شيخ الإسلام ظهر متأخرًا بالنسبة لمنصب مفتي السلطنة ، ومنذ تأسيس الديوان الهمايوني كان يضم بين أعضائه في البداية قاضيًا واحدًا للعسكر ، ثم زاد العدد إلى اثنين للاضطلاع بالقضاء الشرعي ، وهما عضوان بارزان في الديوان ، وركنًا من أركانهِ الأساسية ، وكان لكل مجالٍ من يمثله ويضطلع بأموره، ومن ثم فإن التمسك بمحدودية عدد الأعضاء في الديوان جعلهم لا يرون ضرورة لاشتراك عضو آخر يكون مسؤولاً ثانيًا عن أمور القضاء الشرعي . [2]

ونظرًا لأن منصب الإفتاء جاء متأخرًا عن منصب قاضي العسكر ، لم توجد ضرورة لتعيين شيخ الإسلام في الديوان طالما أن أمورهُ تسير على ما يرام، وليس معنى أن قاضي العسكر هو الذي يحضر الديوان الهمايوني وأن شيخ الإسلام لا يحضره أنه ليس هناك من يمثل الجانب الشرعي ، فإن قاضي العسكر يمثل قوة الشرع الشريف والقانون . [3]

---

[1] أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص302 ، 303 .

[2] مرجع سابق ، ج1 ، ص303 .

[3] لمعرفة المزيد عن منصب قاضي العسكر ومهامهِ الرجوع إلى الآتي :

- Halil Sahilli Oglu : " Askeri " DiA Istanbul , 1991 , C. III , S , 488 – 489 .
- A.Mumcu : Hukuksal ve Siyasal karar Organi olarak Divan-1 Humayun , Ankara 1976 , S . 131-133.
- Uzuncarsili : Ilmiye Teskilati , Ankara 1963 , S, 125 .
- Omer Lutfi Barkan : XV ve XVI . Asrlarda Osmanli Imparator , Lugunda zirai Ekorominin Hukuki ve Esaslari Kanunlar Istanbul 1943 , s . 123 .

وابتداءً من أواخر القرن السادس عشر ، أخذ يتضاعف نفوذ شيخ الإسلام أمام نفوذ قضاة العسكر ، حتى أصبح أمر تعيين قاضي العسكر نفسه منوطًا بطلب من شيخ الإسلام ، وفي القرن التاسع عشر دخل منصب قاضي العسكر ضمن كيان باب المشيخة (أي المشيخة الإسلامية) ، واستمر بقاؤه حتى نهاية الدولة كمنصب ورتبة تمنح لرجال الهيئة العلمية . [1]

وفي النهاية أغلب من تولوا منصب شيخ الإسلام كانوا قد تولوا منصب قائد العسكر ، وعليه فإن قاضي العسكر لابد أن يكون عالمًا بالشريعة والفقه الإسلامي، لذلك يكتفي الديوان به .

رابعاً : صوره كرامرز على أنه لا يلتزم بإرادة السلاطين ، والدليل على ذلك أنه اتخذ لقب شيخ الإسلام من تلقاء نفسهِ .

" ارتفاع شأن مفتي إستانبول – على أية حال – أمرٌ متعلق بشخصهِ لا تفرضه إرادة السلاطين السامية ، ويتجلى ذلك في اتخاذه من تلقاء نفسه لقب شيخ الإسلام"[2] .

كان شيخ الإسلام يتمتع بمركز مرموق للغاية وكان السلطان والصدر الأعظم والوزراء في أحيان كثيرة يلتمسون منه المشورة في المسائل المهمة ، ويعرضون عليه مشروعات القوانين قبل إصدارها بشكل رسمي ونهائي ، ويطلبون منه الرأي في مدى مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية ، ومن أهم مهامهِ إحالة بعض القضايا الجنائية له .

وأخيرًا كانت أهم اختصاصاته إصدار الفتاوى ذات الطابع السياسي ، فمثلاً السلطان لا يقدم على حرب دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى بأن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين الإسلامي ، بل أن أسبابها قوية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية ، وكان شيخ الإسلام يوفد الوعاظ إلى سائر أنحاء الدولة العثمانية ليوضحوا للشعب أن يقفوا صفاً واحدًا مع الدولة العثمانية ، وكذلك كان شيخ الإسلام يصدر الفتاوى التي تجيز عزل السلاطين.[3]

وفيما سبق – أيضاً – رد على كرامرز الذي أورد أن شيخ الإسلام لم يكن له سلطان قضائي ، وإنما يمثل ضمير الناس " وهي سنة كانت تقتضي أن يقوم إلى جانب السلطة

---

[1] M. Ipsirli : Osmanli Imparator Lugunda kadiaskerlik Muessesesi , Istanbul 1982 , 226 – 228 .

[2] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص477 .

[3] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص311 .

الزمنية سلطة دينية ليس لها سلطان قضائي ، ولكنها تمثل ما نستطيع أن نسميه الضمير الديني للناس " . [1]

والمقصود بالسلطة الزمنية هي سلطة السلطان العثماني ، لكننا رأينا سلطة كلا الشخصين محاطة بقيود لا يستطيعون كسرها ، وهي قواعد ونظم الشريعة الإسلامية ، وهي النقطة الأساسية التي لا يستوعبها كرامرز وغيره من المستشرقين مطلقًا .

أما بالنسبة للقب شيخ الإسلام فقد وقع حوله لغط كثير وإختلاف في الوقت الذي أطُلق فيه هذه اللقب ، [2] لكن مهما وصلت درجة الاختلاف لا يمكن أن يكون قد أطلقه شيخ الإسلام على نفسهِ من تلقاءهِ نفسه .

ومن الثابت تاريخيًا أن المشيخة العثمانية قد تأسست عام 828هـ/ 1425م، إلا أن لقب شيخ الإسلام جاء بعد فترة ليست قصيرة نسبيًا ، حيث أطُلق في البداية على رئيس هذه المؤسسة في الدولة العثمانية لقب " مفتي " ، " المفتي الأكبر" ، " مفتي التخت " أو " مفتي العاصمة " ، " مفتي الأنام " إلا أن لقب شيخ الإسلام أطُلق على مفتي العاصمة بعد حوالي 28 عام على الأقل ، عندما ظهر لقب شيخ الإسلام في قانون السلطان محمد الفاتح " فاتح قانون نامه " الذي صدر بعد فتح القسطنطينية ، ثم في الفترة ما بين 857هـ- 886هـ /1453م -1481م بدأ يأخذ اللقب حيزًا شيئًا فشيئًا ، حتى أصبح خلال ق 10هـ/ 16م لقبًا رسميًا يطلق على رئيس المشيخة أو رئيس قطاع الشؤون الشرعية والدينية في الدولة العثمانية ، وتلاشت أمامه بقية الألقاب . [3]

وقد حظي شيخ الإسلام باحترام خاص من السلطان ، حيث أن أكبر الامتيازات التي حصل عليها في استقبال السلطان له في المراسم أن له الحق في الإمساك بيدي السلطان أو كتفه .

وتقبيل ياقة ثوب السلطان ، ويكون السلطان بذلك احترم الدين والعلم والعدالة في شخص شيخ الإسلام . وحتى في عصر ضعف الدولة العثمانية تمسك السلطان العثماني باحترام الإسلام في شخص شيخ الإسلام ، وقد كان السلطان يصطحب شيخ الإسلام في

---

[1] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 .

[2] لمعرفة المزيد عن هذا الإختلاف الرجوع إلى عبد العزيز الشناوي ، ج1 ، ص312 ، 313 .

[3] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص123 .

حملاتهِ وفتوحاتهِ ، وكانت الدولة العثمانية تبيح له التقدم حتى على الصدر الأعظم في الاجتماعات واللقاءات [1].

ومن اللافت للنظر هنا أن شيخ الإسلام كان الموظف الوحيد الذي يتمتع بحصانة مقدسة ، وقلما يجرؤ السلطان العثماني على المساس به ، ولم يحدث أن تعرض شيخ الإسلام لأي اضطهاد إلا في أحوال نادرة جدًا حتى أصغر الموظفين في هيئتهُ العلمية تمتعوا بهذه الحصانة المكتسبة . [2]

ووظيفته الأصلية الإفتاء ، ولانشغاله بأمور كثيرة يحضر الفتوى التي تطلب منه ، موظف في الهيئة العلمية بدرجة قاضي عسكر ، ويسمى " فتوى أميني" "أمين الفتوى " الذي يعرضها بدورهِ على شيخ الإسلام للمصادقة عليها ، وأمين الفتوى يكون من أعظم فقهاء عصرهَ ، ويحق لأي مواطن أن يطلب الفتوى من المشيخة ، فإن طلبه يجاب بصورة أكيدة.[3]

وعادة ما يكون المفتين والقضاة هم مَن درسوا القانون والإفتاء وتقدموا في دراستهم وبعد إكمال الدراسة يعينون في المدن المهمة ، ومن يبقى منهم فإنهم يوزعون أئمة على المساجد، ، وكان يحق لجميع العثمانيين الدخول في هيئة العلماء ، وهي قاعدة عامة في الدولة العثمانية ، ولا تقتصر على طبقة معينة ، وكانوا يدرسون تحت مسمى صوفت "تلميذ" في مدارس ملحقة بالمسجد ، والمتقدمون والمتفوقون في دراستهم يعدون لمناصب القضاء ، وهؤلاء يجتازون مراحل مطولة وامتحانات متعددة تستغرق سنوات طويلة حتى يصل لمرحلة الإفتاء . [4]

أما من حيث المنصب فهو منصب ديني وعلمي ، يسلك من يرغب العمل بهِ التعلم في المدرسة التي كانت عبارة عن المؤسسة الإسلامية التقليدية المستقرة لدى العثمانيين ، وبعد أن يحصل الطالب على القدر اللازم من التحصيل العلمي والديني ، ينال شهادتهِ

---

[1] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج2 ، ص475 . علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية ، ط1 ، دمشق : منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية ، 1991م ، ص151 .

[2] علي سلطان : مرجع سابق ، ص152 .

[3] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج2 ، ص476 .

[4] أميرة علي مداح : مرجع سابق ، ص57 . علي سلطان : مرجع سابق ، ص153 ، 154 .

وإجازته ويتخرج ، ثم يشغل إحدى الوظائف القضائية أو الدينية أو بعض المواقع المهمة في مجال تخصصه ، ولا شك أن كلّ المنخرطين في هذا المجال من العثمانيين المسلمين .

وحافظت هذه الفئة على تقاليدها جيدًا ، وتمسكت بصلاحياتها وامتيازاتها.

المراحل التي مرت بها المناصب الدينية في الدولة العثمانية :

هناك أربع مراحل أساسية مرت بها هذه المهنة :

١) دور التشكل مع الخصائص المميزة لها على مسار التاريخ .

٢) دور النضج .

٣) دور الضعف .

٤) دور محاولات استجماع القوة فالانكماش .

وفي المرحلة التي بدأت من أواسط ق 9هـ / 15م التي استمرت حتى أوائل ق 11هـ / 17م تشكلت نظرة مهنية سليمة ، إذ حدثت تطورات مهمة على من يتولى المنصب، مثل تحديد الدرجات المقررة في مجال التعليم والقضاء، وتحديد وظائف العلماء الدينية والتشريعية وإطار عملهم وصلاحياتهم ومسؤولياتهم. واستمر ذلك التطبيق حتى أواسط القرن 13هـ / 19م ، ثم لم يلبث أن أخذ في الانكماش بعد عام 1236هـ/ 1820م ، غير أن الميزة الأساسية التي ميزت مرحلة النضج هذه ، هو أن مكانة العلماء وشيوخ الإسلام الإيجابية المتماسكة قد ظهرت بوضوح واستشعرتها الدولة وكل طبقات المجتمع العثماني . أما في القرن 11هـ / 17م فقد بدأ شيخ الإسلام يدخل شيئًا فشيئًا في معمعة السياسة؛ نظرًا لتغير الظروف داخل وخارج الدولة العثمانية. [1]

خامسًا : أرجع نظام شيخ الإسلام إلى التأثر بطبقات رجال الدين النصارى .

" نجد أن تنظيم علماء الدولة العثمانية تحت رياسة شيخ الإسلام من رجال الدين قد يكون متأثرًا من جهة بطبقات رجال الدين النصارى في الإمبراطورية البيزنطية يرأسهم بطريق يشرف على شؤون النصارى جميعًا. " [2]

---

[1] أكمل الدين أحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص335 – 338 .

[2] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 .

إن دأب المستشرقين دائمًا إرجاع أي تنظيم إسلامي إلى التنظيمات النصرانية ، دون إيراد وجه الشبه بينهم أو أدله وبراهين لتثبيت صحة أقوالهم، وإنما الحديث فقط في ترهات متكررة دون سبب واضح .

ومن الأمثلة الكثيرة في ذلك إرجاعهم نظام شيخ الإسلام وما معه من رجال إلى التأثر بطبقات رجال الدين النصارى في الإمبراطورية البيزنطية ، ولا تعرف الدراسة على أي شيء استند أو ما هي أدلته التاريخية ؛ إذ لا يوجد مجال أو شكل للمقارنة بينهم .

فالهيئة الدينية الإسلامية في الدولة العثمانية تختلف تمامًا في طبيعتها وتكوينها عن جميع الهيئات الدينية المسيحية في أوروبا ، فالدين الإسلامي لا يعترف بوجود طبقية دينية ، فالناس سواسية ، ويتميز الإسلام بالبساطة والسماحة والبعد عن التعقيدات ، ولا يضع وسيطًا بين العبد وربه ، وهناك أفراد تفقهوا في الدين الإسلامي وشريعته السمحاء ، وهم العلماء الذين لا يشكلون طبقة خاصة أو مغلقة ، وإنما يكفي الشخص أن يتعلم أصول الدين الإسلامي حتى يصبح قادرًا على الآذان وإمامة الناس في الصلاة أو قول الخطبة ، أو أداء أي من الأعمال التي تتصل بإقامة الشعائر الدينية ، ولا يشترط مكانًا معينًا لأداء هذه الشعائر ، كما لا يشترط كما لا يشترط أنَّ تؤدَّى من قبل شخص بعينه ، ولا يحكم ببطلانها إذا أدَّاها أي شخص عادي .[1]

وهناك أمر آخر يفرِّق بين الهيئات الإسلامية والمسيحية ، وهو أن رجال الكنيسة في أوروبا يضعون القوانين من عند أنفسهم ، وكانوا مستبدين بقوة في تنفيذ هذه القوانين الوضعية بإسم التشريع ، وفي المقابل نجد علماء الإسلام يعتمدون على الاجتهاد ، وليس لهم حق التشريع أبداً ؛ لأن الإسلام تشريع سماوي من عند الله ﷻ فسلطة التشريع في إخراج الأحكام فقط وليس سنها .[2]

كما أن رجال الكنيسة الأوروبية يتكلمون وكأنهم يمسكون بمصائر الناس ، فهم يمنحون الغفران لمدة محدودة إذا قاموا بعمل يحقق مصالح شخصية ومادية لرجال الكنيسة،[3] والشعب كأنه آلات مسخرة لخدمة الكنيسة ، في الوقت الذي يعطي فيه علماء الدين الإسلامي الطمأنينة والسكينة والفهم الحقيقي للشريعة الإسلامية .

---

[1] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج1 ، ص310 .

[2] مصطفى حلمي : مرجع سابق ، ص106 ، 107 .

[3] ذكر بعض الأمثلة عن صكوك الغفران في الفصل الأول المبحث الثاني .

والشكل الحقيقي لمشيخة الإسلام هو في منتهى البساطة وبعيد عن التعقيد فمشيخة الإسلام عرفت في الاصطلاح العثماني باسم (باب مشيخت) أو (فتواخانه) [4] ، وتضم عددًا كبيرًا من موظفي الهيئة العلمية ، يشتغلون بالأمور الإدارية والعلمية والدينية ، ثم يجعلونها جاهزة حتى يطّلع عليها شيخ الإسلام . ويأتي على رأس هؤلاء الموظفين أمين الفتوى (فتوا أميني) [1] ، بينما كانت دور الإفتاء في الأيالات والسناجق والأقضية هي الأجهزة التابعة لمنصب المشيخة خارج العاصمة . وكما كان لشيخ الإسلام صلاته الوثيقة بالسلطان الحاكم وكبار رجال الدولة ، والأهالي ، كان المفتون أيضًا خارج العاصمة على الصلة نفسها مع الإداريين والأهالي حيث يعملون . [2]

سادساً : تصوير كرامرز لبعض السلاطين بأنهم استهانوا بشخصية شيخ الإسلام، لتحقيق رغبات ومصالح خاصة بهم وإصدار فتاوى مخالفة للشرع .

" بلغ الأمر بالسلطان عثمان الثاني أن حرم المفتي جميع امتيازاته لرفضهِ إصدار فتوى بتحليل أن الأخ يقتل أخاه " .[3]

كل المستشرقين – تقريبًا ودون استثناء – تحدثوا عن أمر قتل الإخوة ، لكنّ أحدًا منهم لم يورد نصًا صحيحًا عن هذا الأمر ، أو حتى وثيقة أو نص فتوى، وإنما يرددون الفرية دون سند تاريخي ، وقد أخذ كرامرز يردد الكلام نفسه محض تأليفه الخاص .

وسبق أن رأينا كيف حظي شيخ الإسلام بمكانة متميزة عند السلاطين ، ولم يتجرأ أحد أن يتعدى على هذه المكانة إلا فيما ندر ، ويوجد في التاريخ العثماني كثير من الأمثلة عن مدى احترام السلاطين لشخص شيخ الإسلام .

ولكن في البداية لابد من توضيح أمر مهم ، وهو أنه من خلال البحث والاطلاع على سيرة حياة الشيخ محمد أسعد ، وهو شيخ الإسلام المقصود من الفقرة السابقة ، [4] يتضح أنه

---

[4] شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص982 .

[1] شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص982 .

[2] أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص303 .

[3] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 ، 476 .

[4] محمد أسعد أفندي : 978هـ – 1034هـ / 1570م – 1625م ، تولى مشيخة الإسلام في عهد السلاطين : أحمد الأول – مصطفى الأول – عثمان الثاني – مراد الرابع مشيخته الأولى 1024هـ – 1031هـ / 1615م – 1622م ، الثانية 1032هـ – 1034هـ / 1623م – 1625م ، هو محمد أسعد محمد سعيد الدين حسن التبريزي ولد في عائلة تولى أفرادها مشيخة الإسلام ، فوالده وأخيه شيوخ إسلام . كان عالمًا متبحرًا في العلوم ، متدين ومتقنًا للفارسية والعربية والتركية ، أحسن علماء عصرهِ ، عمل

لم يطلب منه إصدار فتوى كهذه أبدًا لأنه لم يرد ذكر مثل هذا الأمر في سيرة حياته ، وإذا حدث كان لابد أن تُذكر هذه الحادثة على الأقل في دفاتر فتاويه الموجودة إلى اليوم ؛ لأنها على درجة عالية من الأهمية ، وتحمل تهمة خطيرة في طياتها لسلطان مظلوم ، كما أن محمد أسعد تولى مشيخة الإسلام مرتين ؛ الأولى في عهد السلطان عثمان الثاني ما بين عامي1024هـ- 1031هـ/ 1615م- 1622م ، وعُزل عن منصبهِ نتيجة حادثة مقتل السلطان عثماني الثاني، ولم يذكر مطلقًا أنه جُرد أثناءها من امتيازاته، ورغم أن علاقته بالسلطان عثمان الثاني لم تكن حسنه ، لكن هذا لا يعني الاستهانة بقدسية منصبهِ [1] ، بالإضافة إلى أن السلطان عثمان لا يستطيع طلب فتوى كهذه تضيع باقي العلاقة الطيبة بينهما. وإذا كان كرامرز حريصًا على تأكيد هذه المعلومة ، فلماذا لم يورد نص الفتوى ؟! فبإمكانه الرجوع إلى دفاتر الفتاوى المحفوظة في دور الأرشيف لكنه لم يكلف نفسه عناء البحث ، وإنما اكتفى فقط برمي التهم خطأ .

" وقد أمر مراد الرابع بقتل المفتي أخي زاده حسين دون أن يرعى حرمة لجلال المنصب " . [2]

لقد حدث هذا الأمر فعلاً ، لكن كرامرز لم يكلف نفسه عناء شرح سبب وقوع مثل هذه الحادثة ، وهي واقعة قتل شيخ الإسلام ، فقد آلّم الشيخ أخي زاده [3] والعلماء جميعًا قرار السلطان مراد الرابع إعدام قاضي إيزنيق ؛ وذلك لكثرة ظلمهِ وجورهِ على الأهالي

بالتدريس في بداية حياته ، ثم سلك القضاء حتى وصل إلى منصب قاضي عسكر الأناضول ، أدى فريضة الحج ، وبعدها مباشرة تولى منصب شيخ الإسلام ، عزل على إثر مقتل السلطان عثمان الثاني ، وأهم فتوى أصدرها بشأن عدم لزوم حج السلاطين ، حتى لا تقع فتنة ، وذلك عندما أعلن السلطان عثمان الثاني رغبتهِ في أداء فريضة الحج . وله عدة مؤلفات أهمها ، تاج التواريخ ، وترجمة الرسالة القشيرية ، بالإضافة إلى تركهِ عددًا من اللوح لأنه كان خطاطًا ماهرًا . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1، ص462 – 466 .

[1] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص462 ، 465 . الموسوعة التركية : الوقف الديني بتركيا ، ج1 ، إستانبول 1995م ، ص340 ، 341 .

[2] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص474 .

[3] حسين أفندي أخي زاده : أول شيخ إسلام يقتل في عهد السلطان مراد الرابع 980هـ – 1043هـ / 1572م –1634م . هو حسين محمد نور الله بن يوسف المعروف بأخي زاده ، كان أحد أهم العلماء في الفضل والذكاء والمعرفة وأعجوبة وقته في التبحر في الفنون والعربية ، ولد في إستانبول ونشأ بها وعمل بالتدريس ثم عين في القضاء حتى تولى منصب شيخ الإسلام عام 1041هـ- 1043هـ / 1632م – 1634م في فترة عصيبة جدًا حيث عمت شوارع إستانبول حركة تمردية من الإنكشارية والصدر الأعظم رجب باشا ، ودعم من والدة سلطان ماه بيكر كوسم واستمر في منصبه على الرغم من صعوبة الفترة التي تولى بها ، وانتهى الأمر بمقتلهِ بدسيسه من والدة سلطان ماه بيكر كوسم في 1 رجب 1043هـ / 7 يناير 1634م . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص477 – 482 .

فشكوه للسلطان ، وبعد التحقيق في الشكوى أمر بإعدامهِ ، في الوقت نفسه أرسل الشيخ أخي زاده إلى السلطانة الوالدة ماه بيكر كوسم يرجوها أن تنصح ابنها بالامتناع عن الإقدام على هذا الأمر ؛ نظرًا لأن النظام العثماني لا يقر إعدام أي فرد من العلماء ، والاكتفاء بعزلهِ أو نفيهِ ، لكن المفسدون وشوا به عند السلطانة الوالدة ، فاعتقدت أن شيخ الإسلام يخطط لخلع ابنها السلطان ، فسارعت بإرسال رسالة لابنها السلطان لحثه على العودة ؛ لأنه كان في طريقهِ إلى بروسهِ ، وضمنت معها رسالة شيخ الإسلام ، فعاد السلطان مراد الرابع مسرعًا ، وأمر بإعدام الشيخ آخي زادة شيخ الإسلام . [1]

ولا شك أن إعدام شيخ الإسلام يعد خطوه جريئة من السلطان مراد الرابع، وتؤكد أنه لا يوجد امتياز عنده لأي صنف من الأصناف ، حتى ولو كان رأس الهيئة الدينية في الدولة ، مع ضرورة التنبه إلى أن السلطان كان واقعًا تحت تأثير والدته بشكل مباشر .

وفي ذلك أيضًا إخطار للعلماء الذين أصبحوا أداة عمياء في يد الطامعين في السلطة، وذلك في أعقاب مقتل السلطان عثمان الثاني . [2]

هذه وجهة نظر سلطان أراد أن يحافظ على حياتهِ وعرشهِ من أي خطر ، ولم يكن يريد أن تطاله أيدي الأشقياء كما طالت من سلفهِ ، ويتضح أنه لم يكن أمرًا عابرًا وإنما جاء نتيجة وشاية مغرضة .

وعند الحديث عن علاقة السلاطين بشيوخ الإسلام لابد من إدراك حقيقة مهمة ، وهي أن شيوخ الإسلام نالوا احترام السلاطين العثمانيين على مدى التاريخ العثماني ، ولم يكن هناك إلا استثناءات قليلة ركز عليها كرامز وكأنها أساس العلاقة بين الطرفين وترك الأصل دون ذكر أبدًا .

ولتعميق هذه النظرية لابد من التعرف على حادثة تاريخية ذات مغزى عميق وقعت في أوائل القرن 10هـ / 16م ، توضح لنا مدى اهتمام سلاطين الدولة العثمانية بالعلماء والمشايخ ، وكانت تلك الحادثة عام 898هـ / 1492م إبان عهد بايزيد الثاني ، حينما دخل أحد الشيوخ على مجلس يجتمع فيه كل الوزراء ورجال الدولة العثمانية ، فاجتاز ذلك العالم الديني كل رجال الدولة حتى وصل إلى جانب الصدر الأعظم ثم جلس إلى جواره، وأخذ كل رجال الدولة من وزراء وغيرهم يتطلعون والحيرة تأخذهم إلى ذلك القاضي الشاب وهو

[1] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص482 .

[2] يلمازا أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج1 ، ص472 .

يجلس في موقع يفوق كل الرتب والمناصب الوزارية حينذاك ، وحينما سأل الجميع عن تلك المكانة التي جعلت هذا العالم وغيره من العلماء ينالون الاحترام ، كانت الإجابة بأن رتبة العلم والدين أعلى الرتب . [3]

إن هذه النظرة إلى رجل الدين ومكانته في المجتمع العثماني الأول ، والاحترام الكبير الذي ناله داخل القصر السلطاني منذ بدايته ، جعلت العديد من النماذج في المجتمع العثماني تبني على هذه النظرة في وقت لاحق .

والواقع أن أصحاب هذه المهنة التي كانت تجمع بين العلم والدين ، وخاصة الذين تخصصوا في القضاء والإفتاء كانوا حتى أوائل القرن 11هـ/17م يفرضون وجودهم على كافة قطاعات المجتمع ؛ بفضل ما كانوا يتحلون به من العلم والأخلاق ، ثم لم يلبثوا بعد ذلك التاريخ أن استنزفت قواهم وفقدوا اعتبارهم ومكانتهم السابقة بسبب الفساد والانحطاط في أساليب تعليمهم ، والأحداث التي زجت بهم في تيار السياسة . [1]

لقد جاء في قانون نامه الفاتح قوله : " لقد فوضنا إصدار الأحكام تحت نظرائنا الشريفة إلى ثلاث جهات ، فالأحكام التي تتعلق بأمور العالم تكتب إلى العموم بأمر من وزيري الأعظم ، والأحكام التي تتعلق بأموالنا تكتب بأوامر دفترداربنا ، وأحكام قضايا الشرع الشريف تكتب بأوامر من قضاة عسكرنا" . [2]

ومعنى ذلك أن كافة شؤون الحكم دنيوية أم دينية كان تُجرى باسم السلطان، واعتمادًا على ذلك يمكننا القول إن السلطان كان يفوض الصدور العظام في استخدام صلاحياته الدنيوية، أما صلاحياته الدينية فكان يفوض عليها قضاة العسكر في البداية ، ثم فوض فيها شيخ الإسلام فيما بعد .

فالمعروف أن عمليات التعيين والعزل التي تُجرى لهذين المنصبين كانت من صلاحيات السلطان المطلقة ، كما أن كافة القرارات الصادرة عن الديوان الهمايوني كان لابد

---

[3] Arif Bey : Devlet-I Osmaniye nin Teessus ve Takarruru Devrinde ilim ve Ulema Darulfunun Edebiyat Fakultesi Mecmuasi , Sayi II , Istanbul 1332 , S. 137 – 144 .

[1] أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص282 .

[2] Abdulkadir Ozcan : Fatihin Teskilat Kanunname ve Nizam – 1 alem iqin kardes katli meselesi . TD. Istanbul 1982 , SY . 33 , S . 36 .

من عرضها على السلطان للتصديق عليها عقب اجتماعاته، وهذا يؤكد أن السلطان كان المرجع النهائي في كل الأمور .

ولكن يجب الإشارة إلى وجود ثوابت تحد من صلاحيات السلاطين العثمانيين الذين اعتقدنا أنهم أصحاب صلاحيات مطلقة ، لأن أقوى السلاطين العثمانيين أنفسهم مثل سليم الأول وسليمان القانوني قد أدركوا من خلال حوادث كثيرة كيف أن سلطاتهم محدودة ، ويأتي على رأس تلك الثوابت قواعد التشريع الإسلامي ، وهو الأمر الذي تعرض له المفتي المشهور أبو السعود أفندي [1] في بعض فتاواه المتعلقة بإدارة الدولة بقوله : " لا يصح الأمر السلطاني فيما لا يقرُّه الشرع" .[2]

ويكفي أن نلقي الضوء على علاقة بعض السلاطين الأقوياء بشيوخ الإسلام، فنجد مثلاً السلطان سليم الأول عندما نما إلى علمهِ مدى المشكلات التي تسببها الأقليات غير المسلمة الموجودة في إستانبول ، من إثارة الفتن والقلاقل، فغضب لذلك ، وأمر بأن تُسلِم جميع الأقليات أو يضرب عنق من يرفض.

وعندما علم شيخ الإسلام " زمبيللي علي أفندي " ساءه ذلك جدًا ، إذ كيف يكره الناس على اعتناق الإسلام ، وفي ذلك مخالفة للشرع ، فأصر على التصدي لسليم الأول ، فقابله وشرح له كيف أن هذا الأمر فيه مخالفة صريحة للنصوص الشرعية ، وضرب له مثلاً على تسامح السلطان محمد الفاتح أثناء فتح إستانبول ، حتى اقتنع السلطان سليم الأول الذي أدخل

---

[1] الشيخ أبو السعود أفندي : 896هـ – 982هـ / 1491م – 1574م ، تولى مشيخة الإسلام في عهد السلطان سليمان القانوني وسليم الثاني ، وهو من أشهر شيوخ الإسلام على الإطلاق ، والعلماء أيضًا داخل الدولة العثمانية وخارجها ، برع على جميع علماء عصرهِ هو الشيخ محمد أبو السعود محمد محي الدين مصطفى أبو السعود العمادي ، ولد في قرية ديركلوبلي بالقرب من بلدة إسكليب ، والده من علماء المتصوفة ومقرب للسلطان بايزيد الثاني ، نشأ في كنف والده طالبًا لمراتب العلوم الشرعية ، ونقل عدة كتب وبرع في الأدب ، ثم بدأ في التدريس ، حتى تولى قضاء بروسة عام 939هـ / 1532م ، ثم تدرج إلى منصب قاضي عسكر الروم إيلي ، ثم تولى منصب المشيخة في شعبان 952هـ / أكتوبر 1545م ، تميزت علاقته بالسلطان القانوني بالعمق والحب الشديد أسهم في تطوير المنصب والمهام الموكلة إليه ، وساعد على صياغة القوانين التي وضعها القانوني واستندت على المذهب الحنفي وعرفت باسم " قانون نامة " واستمر في منصبهِ إلى عهد السلطان سليم الثاني ، من أشهر مؤلفاتهِ : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، مجموعة الفتاوي الخاصة بهِ ، بضاعة القاضي في الصكوك ، تحفة الطلاب في المناظرة ، حسم الخلاف في المسح على الحفاف ، قصة هاروت وماروت . وغيرها مؤلفات عده ما يقرب 13 مؤلفًا . توفي في يوم الأحد 5 جماد الآخر 982هـ /23 أغسطس 1574م ، وقد حزن عليه السلطان سليم الثاني حزنًا شديدًا . انظر : أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص386 – 400 .

[2] M.Ipsirli : Insan Haklari ve Sasyal Aaisindar Osmanli Fetualari , Turklerde insani Degerler ve insane Haklari , II , Istanbul 1992 , S , 115-117 .

الحرمين الشريفين للحكم العثماني بقرار شيخ الإسلام ، وتراجع عن قراره ولم يكره أحدًا على الإسلام . [3]

سابعاً : قدم كرامرز أمثلة عن الفتاوى التي كان يصدرها شيخ الإسلام ، دون توضيح للظروف الصحيحة لهذه الفتاوى .

" الفتوى التي أصدرها علي جمالي في شأن الحرب التي شنت على مصر 1516م والفتوى التي أصدرها أبو السعود بخصوص الحرب على البندقية 1570م ". [1]

بالنسبة للفتوى الأولى التي صدرت بشأن حرب الدولة العثمانية على الدولة المملوكية 922هـ - 923هـ / 1516م - 1517م فقد حررها شيخ الإسلام علاء الدين بن علي الجمالي [2]، والمشهور بزنبيللي علي أفندي شيخ الإسلام في عهد السلاطين بايزيد الثاني وسليم الأول وسليمان القانوني ، وهناك اختلاف حول اسمهِ حيث ذكرت بعض المصادر أن اسمه الأول علي ومصادر أخرى أنه علاء الدين [3]، فكان الأولى بركرامرز أن يذكر اسم شهرتهِ ، ولا يحاول هذه المحاولة الملفقة الواضحة للتهوين من أمر شيخ الإسلام الذي أصدر هذه الفتوى ، فقد اكتفى بذكر اسمه الأول الذي هناك اختلاف حوله .

أما بالنسبة للفتوى التي أصدرها الشيخ زنبيللي علي أفندي ، فهي ثلاث فتاوى صدرت مستندة إلى قواعد الشريعة الإسلامية لتجيز حرب المماليك [4] ، وليست فتوى واحدة كما ذكر كرامرز وجاءت صحيحة تمامًا من الناحية الشرعية.

---

[3] أورخان محمد علي : مرجع سابق ، ص56 - 58 .

[1] كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص476 .

[2] زنبيللي علي أفندي : 932هـ / 1525م ، من أشهر شيوخ الإسلام ، عاش زمن السلطان بايزيد الثاني ثم سليم الأول ثم سليمان القانوني ، وهو من أشهر مؤرخي الدولة العثمانية ، هو علاء الدين علي ، أحمد محمد الجمالي جمال الدين ، الاقسرا أبي محمد التبريزي ، المشهور بـ " زنبيللي أفندي " أخذ العلم والفقه والدين من علماء عصرهِ ، وحفظ كثيرًا من كتب الحديث ، درس العلوم الشرعية والعقلية ، وكعادة شيوخ الإسلام عمل بالتدريس ثم تولى أمر الفتوى في أماسيا وبروسه ، أدى فريضة الحج ، ثم عين في منصب شيخ الإسلام 908هـ - 932هـ / 1503م - 1525م ، وأهم فتاواه تلك التي أصدرها لتحليل قتال المماليك في مصر والشام والدولة الصفوية في بلاد فارس ، استمر في منصبهِ حتى بعد تولي سليمان القانوني الحكم . من أشهر مؤلفاته : "المختارات" وهو كتاب لطيف جدًا في مختارات المسائل الفقهية ، ومجموعة من الفتاوى التي أصدرها ، توفى وهو على رأس المشيخة . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص345 - 353 .

[3] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ص345 .

[4] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص350 ، 351 .

أما الفتوى الثانية فلها ظروف مختلفة لم يوضح منها كرامرز شيئًا ، وهذا ديدنه دائمًا الاكتفاء بالإشارة دون توضيح ، وفي الوقت نفسه هذه الإشارة تعطي عكس المعنى تمامًا .

والمعروف أن العثمانيين استعانوا بالفتاوى في العلاقات الدولية ، فعندما عزموا على فتح جزيرة قبرص كانت بينهم وبين البندقية معاهدة صلح ، فطلبوا الفتوى حول وجود هذه المعاهدة ، وهل تشكل عائقًا أمام الفتح أم لا ؟ فكان الرد من أبي السعود أفندي : أن قبرص كانت في أيدي المسلمين قبل ذلك ، وأن فتحها واجب ، وأن معاهدة الصلح القائمة لا تحول دون ذلك ، ثم ضرب مثلاً بأن الرسول ﷺ كان قد تعاهد مع أهل مكة على الصلح لمدة عشر سنوات في العام السادس للهجرة ، وأن الإمام علي ﷺ ، قدم لهم المعاهدة ، ومع ذلك قام المسلمون بفتح مكة بعد عامين ، أي في العام الثامن للهجرة ، فقدم بهذه الفتوى مثالاً نموذجيًا على منحاه ، [1] مع توضيح أمر مهم جداً وهو عدم التعرض للآمنين وقتلهم دون وجه حق .

وفي عام 1205هـ/1790م عقدت الدولة العثمانية تحالفًا مع بروسيا ، فكان هو التحالف الأول الذي عقدته مع دولة غير مسلمة ، وكان العلماء قد اعترضوا على ذلك بدعوى أنه يخالف الشريعة الإسلامية ، فأصدر شيخ الإسلام حميدي زاده مصطفى أفندي [2] فتواه بجواز ذلك ، فتم عقد التحالف ، كما أرسل حميدي زاده خطابًا إلى الصدر الأعظم حول الموضوع ، ذكر فيه أن الدخول في تحالف مع دولة مسيحية جائز شرعًا ، وأن هناك أمثلة عليه ، وأن العلماء إنما يعبرون عن رأيهم في المسائل الشرعية ، ثم أشار إلى أن القرار في ذلك إنما يصدر بطلب من الصدر الأعظم وأمر من السلطان العثماني نفسه ، كاشفاً عن أمر طريف في كيفية سير المعاملات في مثل هذا الموضوع . [3]

ثامناً : أرجع تدهور الدولة العثمانية إلى رجعية مشيخة الإسلام .

---

[1] كاتب جلبي : تحفة الكبار في أسفار البحار ، استانبول ، 1329هـ ، ص88-89 .

[2] حميدي زاده مصطفى أفندي :- 1144هـ - 1208هـ / 1731م - 1793م تولى المشيخة في عهد سليم الثالث ، هو مصطفى محمد حميدي زاده الأسبارطي لم يعرف مكان والدته ، كان مجتهدًا بالتعليم وحصل على شهادة ، والده أحد أبرز قضاة القاهرة ،أما هو فمن كبار علماء الصوفية النقشبندية . عمل في أول أمرهِ معلمًا في السرايا ثم تولى قضاء إسكدار ونال عدة رتب ، ثم تولى مشيخة الإسلام في 27 محرم 1204هـ / 17 أكتوبر 1789م ، انشغل بأمور العبادة والدعاء أثناء مشيختهِ حتى عزل في 8 رجب 1205هـ / 13 مارس 1791م ؛ عاش حياته المتبقية في مغنيسيا وتوفي بها . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج2 ، ص125 ، 126 .

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول ، تصنيف (خط همايوني H.H) وثيقة رقم 1095 ، وأنظر أيضاً .
Kemal Beydilli : 1790 Osmnli Prusya ittifaki Istanbul , 1992 .

" ويعزى تدهور الدولة العثمانية في بعض الأحيان إلى روح الرجعية التي يتسم بها نظام مشيخة الإسلام ، ومع ذلك فإن من الأمور الواجب ذكرها أن المفتيين بدوا أقل رجعية من معظم رجال الدين " (4)

كثيرًا ما يصف المستشرقون أي شخصية تتمسك بالشريعة الإسلامية بالرجعية والتأخر ورفض التجديد . وقد سبقت الإشارة كيف أن السلاطين العثمانيين كانت سلطتهم محدودة وليست مطلقة ؛ فهم محكومون بقواعد الشريعة الإسلامية ، وهذه القواعد دليل الرجعية عند المؤرخين ! .

فأولى أن يكون شيخ الإسلام يسير وفق تعاليم الإسلام ، لا يستطيع مخالفتها أبداً فهل تعتبر هذه رجعية في نظر المؤرخين ؟

والصحيح أن تدهور الدولة العثمانية لا يرجع إلى تمسك شيوخ الإسلام بقواعد الشريعة الإسلامية ، ولكن له عدة أسباب أهمها على الإطلاق انحراف العثمانيين عن جادة الطريق ، وتركهم الحكم بتعاليم الشريعة الإسلامية ، وسعيهم خلف القوانين الأوروبية .

أما عن السبب في أن المفتي أقل رجعية من رجل الدين – على حد قولهِ– فهو أن المفتي متفقه في الدين وعلى مستوى عالٍ فيه ، لذلك فهو يتصف بالمرونة والتسامح أكثر من عالم الدين .

تاسعاً : أرجع كرامرز الفضل في التعبير عن أي فكرة لشيخ الإسلام للكتاب الأوروبيين النصارى .

" أن أول من عبر عن فكرة ما لشيخ الإسلام من أهمية كبرى في نظر العالم الإسلامي بأسره هم الكتاب الأوروبيون النصارى " (1)

يبدو أن كرامرز عندما كتب هذه الجملة لم يدرك مدى خطأه ، لأنه لو اطلع قليلاً على سِيَر شيوخ الإسلام لوجد أن أغلبهم – إن لم يكن جميعهم – تركوا مجموعة من المؤلفات والكتب التي تناولت جوانب هذه المؤسسة العريقة ، بالإضافة إلى ترك جميع الشيوخ لمجموعات من فتاواهم ، تمثل أهم منجزات مشيخة الإسلام على الصعيد العملي في الحياة الاجتماعية والقانون ، حيث تطرقت هذه الفتاوى إلى مختلف النواحي من قضايا اجتماعية ، وأحوال شخصية ، وجُمعت كثيرًا من الفتاوي في مجلدات خاصة ، محفوظة في

---

(4) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص476 .

(1) كرامرز : مادة شيخ الإسلام ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج13 ، ص477 .

دار الأرشيف برئاسة الوزراء بإستانبول ، ودار الكتب المصرية ، [2] ولو أن كرامرز أطلع عليها لأدرك مدى بعد الكتاب النصارى عن أي فكرة عن هذا المنصب ؛ لأن أصحاب المنصب قد تركوا إرثًا يعطي صورة واضحة عنهم .

ومن أهم الفتاوى التي جمعت على نطاق واسع فتاوى الشيخ أبي السعود أفندي ، وفتاوي زنبيللي علي أفندي ، والفتاوي السعدية للشيخ سعدي سعد الله جلبي أفندي ، [1] وغيرها. [2] بالإضافة إلى أنه في عام 1286هـ / 1869م شكلت لجنة في الدولة العثمانية خاصة لتتبع شيوخ الإسلام برئاسة جودت باشا ،[3] وشرعت بوضع أول قانون مدني عثماني يستند إلى أحكام الشريعة الإسلامية ، ثم صدر الكتاب ويطلق عليه كتاب "البيع" ، ثم توالى صدور هذه الكتب حتى بلغ عددها 16 كتابًا عام 1293هـ / 1876م ، وتضم هذه الكتب بين صفحاتها 1851مادة ، وترجمت إلى العربية والإنجليزية والفرنسية. [4]

إضافة إلى الكثير من المؤلفات العثمانية التي لابد أنها تناولت ولو القليل عن بعض ملامح هذه المؤسسة التي زاد ظهورها في ق 13هـ/ 19م . بالإضافة إلى سالنامه التي يسهل الوصول إليها في أرشيف رئاسة الوزراء أو المكتبات بإستانبول .

عندما كتب كرامرز مادتهِ عن شيخ الإسلام جاءت كبقية مواده إذ ينقصها الدراية الكاملة والفهم التام للشخصية التي يتناولها أو المنصب .

إن مادة شيخ الإسلام لم تعط الصورة الحقيقية مطلقًا لهذا المنصب ، بل جردتهُ من كل المعاني الجميلة فيه ، وأخرجته بشكل جاف خاوٍ من الداخل ، ولم تكن مادة شيخ الإسلام

---

[2] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص121 .

[1] سعدي سعد الله جلبي أفندي : 945هـ / 1539م . شيخ إسلام في عهد سليمان القانوني هو سعد اللهبن عيسى أمير خان التامي الطاطاي الحنفي الرومي المشهور بـ " سعدي " أو جلبي ، ارتحل مع والده إلى إستانبول وتلقى تعليمه الأول فيها ، ثم أصبح قاضيًا في إستانبول عام 930هـ / 1523م ، ثم عمل في التدريس ، وفي 3 شوال 940هـ / 17 إبريل 1534م تولى المشيخة وبقي فيها حتى وفاته في 2 شوال 945هـ / 22 فبراير 1539م . أهم مؤلفاته : له العديد من الرسائل والتعليقات والكتب والحواشي ، ومجموعة من الفتاوى المجموعة باسمهِ . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص387 – 369 .

[2] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص121 .

[3] جودت باشا : 1238هـ – 1313م / 1822م – 1895م ، هو أحمد جودت باشا شاعر وأديب ومؤرخ وسياسي عثماني ، أشرف على قطاع التعليم النظامي في الدولة العثمانية في بداية عهد االإصلاحات ، أشرف على إعداد مجلة الأحكام العدلية العثمانية

[4] تولى نظارة العدلية العثمانية 5 مرات ، أهم مؤلفاته " تاريخ وقائعي دولتي عليه " والمعروف باسم تاريخ جودت في 12 مجلد . أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص122 ، يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج2 ، ص503 ، 504 . أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ج1 ، ص517 ، 518 .

بأفضل حال من مثيلاتها من مواد كرامرز ؛ إذ جاءت كلها على شاكلة واحدة ، فأهم ما يميزها نقص المعلومة الكاملة الصحيحة الموثقة .

وأخيرًا فقد تم إلغاء المشيخة الإسلامية من على أرض الواقع ، ودخلت هذه المؤسسة الكبيرة في التاريخ ،عندما أُلغيت السلطنة في 11 ربيع الأول 1341هـ/ 1 نوفمبر 1922م ، وأُسقطت حكومة السلطان محمد وحيد الدين السادس، فغادر البلاد وسقطت مشيخة محمد نوري أفندي آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية ، وانتهت دائرة المشيخة التي استمرت 513 سنة . [1]

وهكذا أُسدل الستار على مؤسسة من أعرق المؤسسات الدينية على مستوى التاريخ الحديث والمعاصر ، ولم يعد هناك من يحمل لقب شيخ الإسلام كما كان في الدولة العثمانية .

---

[1] أحمد صدقي شقيرات : مرجع سابق ، ج1 ، ص480 .

ومن العرض السابق لمواد تختص بالنظم العثمانية من دائرة المعارف الإسلامية يتضح ما يلي:

١) المشروع في الإسلام أن أهل الذمة تؤخذ منهم الجزية فقط مقابل الإقامة في ديار الإسلام بأمان ، وإذا أدّوا الجزية نقدًا حُرِّم قتالهم أو الاعتداء عليهم ، كما أنها تؤخذ من القادرين فقط ، ويعفى منها الفقير والمرأة والصبي ، فلا يغلب أهل الذمة على صبيانهم ولا نسائهم ، فكيف يُقال أنَّ العثمانيين كانوا يأخذون الصبيان من أهل الذمة . فباي حق إذٍ لا يوجد نص شرعي يوجب هذه الضريبة الغريبة . لم تنتزع الدولة العثمانية أطفالاً بل اعتمدت على ما تقدمه الأسر المسيحية طواعية من أبنائها للانخراط في الانشكارية ، بل لا توجد وثيقة واحدة تشير صراحة إلى هذا القول ، أو تدل على أن الدولة العثمانية مارست أي ضغوط على الأسر المسيحية. في المقابل توجد وثائق تدعم أن المسألة كانت مجرد جمع جنود وإرسالهم إلى أدرنه للانخراط في الانكشارية ، وذلك في إطار التجنيد الإجباري المتبع دائمًا في أغلب الدول الإسلامية عبر التاريخ .

٢) الأولاد الذين أدعت الفرية أنهم انتزعوا من ذويهم تراوحت أعمارهم ما بين العاشرة والخامسة عشر عامًا . فهل من المعقول أن ينسى هؤلاء أهلهم وقراهم وحياتهم السابقة ؟! إذ لا توجد حادثة واحدة أو وثيقة تدل على أن أحدهم اعترض على جمع أبناء قريته المسيحية فيما بعد ، أو تقديم المساعدات المالية لقريته بعينها ، على الرغم من أن بعضاً من هؤلاء يمتلك القوة للقيام بهذا الأمر ؛ لأنَّ بعضهم وصل إلى مرتبة وزير وصدر أعظم ، ولم يتجرأ أحد المستشرقين وأورد دليلاً واحدًا أو مصدرًا أو وثيقة أو حادثة تدل على وجود هذه الضريبة . و هذا – لا شك – من مقتضيات البحث العلمي ؛ فرواية كهذه تحمل في طياتها تهمة لشعب بأسره.

٣) أن خمُس الغنائم للحاكم حق مشروع في الإسلام وليس انتزاعها ، لقوله تعالى :
﴿اعْلموُا أَنَّمَا غَنِمْتمْ مِنْ شَيْء فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَللرسُول وَلذِي القُرْبىَ واليَتَامَى وَالمسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيل ﴾ [1]
والآية واضحة وصريحة ، فالغنيمة تقسَّم على من حددتهم الآية ، وليس من الضروري أن يكون نصيب الحاكم أطفالاً صغاراً ، بل يمكن أن تكون متاعًا أو مالاً

[1] سورة الأنفال : آية 41 .

أو دوابَ . فما الذي يجعل غنيمة الحاكم أطفالاً صغارًا فقط وتجمع كل سنة ؟ إن الغنيمة تجمع في وقت الحرب فقط ، لا تنتزع بصفة دورية .

٤) لا يوجد شيء اسمه الإكراه في الإسلام ، فالقاعدة الشرعية في هذا الأمر واضحة لا غبار عليها : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ ﴾[2] فالآية واضحة إذ لا يجوز إجبار أحد ولا إكراهه على الدخول في الإسلام، فكيف بانتزاع الأطفال من ذويهم ؟ ثم أنهم إذا أكرهوا على الإسلام فمن البديهي أن تبقى النصرانية في قلوبهم ، وعند أول معركة يخضونها سينضمون لصفوف العدو من أبناء ملتهم ، ويتركون العثمانيين ، لكن ما حصل على العكس تمامًا ، فالجندي الانكشاري كان دائمًا يحلم بالشهادة .

فليس هناك سبب منطقي يجعل الدولة العثمانية تتحمل عناء انتزاع الأطفال وصرف الجهد والمال والوقت في انتظار أن يكبروا هؤلاء الأطفال ويستطيعوا حمل السلاح ، في الوقت الذي يوجد فيه شباب المسلمين الذين تربوا أصلاً على حب الجهاد في سبيل الله .

٥) أشارت (مادة حريم) للحريم العثماني باختصار لدرجة أنه أخل بالسياق العام ، ولا يستطيع القارئ الخروج منها بمعلومة مفهومة ، وإنما شذرات عن وضع الحريم عبر العصور الإسلامية التي هي أيضًا خاطئة في أصلها ، وبالتالي طمست الحقيقة تمامًا . ولم تذكر المادة أي معلومة عن أنظمتهم الداخلية أو علاقتهم وإنما اكتفت فقط بالإشارة إليهم بكلمات متقضبة ومخالفة للواقع تمامًا .

٦) لم يستطع أحد المستشرقين الدخول يومًا إلى الحريم العثماني ، أو حتى استراق النظر إليه ، وحتى النساء الأوروبيات اللائي استطعن الوصول إليه لم يدخلون إلى جميع المناطق فيه ، وإنما بعض الصالات المخصصة لاستقبال الضيوف وليس لمعيشة الحريم ، مما لا يعطي صورة واضحة ، وإنما أثارت خيالهم فقط ، مما زاد من قوة تخيلهم في الاتجاه الخاطئ تمامًا عندما تناولوه بالكتابة . مع اقتناع المستشرقين بأن أي نماذج تخالف ما كتبوه أنها شواذ عن القاعدة .

٧) أغلب المصادر الموثوقة التي تناولت الحريم العثماني اعتمدت على مذكرات شخصية لحريم سبق لهن العمل في الحريم العثماني ، أو مقابلات شخصية معهن على اعتبار أنهن معاصرات للأحداث ، أو من خلال الخطابات التي تبودلت بين سيدات القصر

---

[2] سورة البقرة : آية 256 .

العثماني وبعض الأميرات الأوروبيات أو بين الحريم بعضهن البعض ، ولم يكلف المستشرق نفسه عناء البحث عن أي معلومة صحيحة ، وإنما اعتمد على خياله المريض، ولوحات الفنانيين الذين صور لهم خيالهم الحريم العثاني بصورة خاطئة ، ومعلومات التقاطها من مجتمعات نسائية خاصة لأسر ليس لها علاقة بالحريم العثماني.

٨) للأسف ركزت دائرة المعارف الإسلامية على نماذج متسلطة للحريم العثماني ، تلك النماذج استخدمت نفوذها لدى السلطان زوجها أو السلطان ابنها لتنفيذ رغباتها ، أي نماذج مستبدة ، ولم تذكر نماذج عن نساء سلاطين بعيدات عن الحياة السياسية أو لهن أعمال خيرية واضحة ، أو حتى ممن كن على علاقات مع أميرات أو ملكات في أوروبا .

٩) لقد أغفلت مادة شيخ الإسلام حقائق مهمة عن علاقة السلاطين بشيوخ الإسلام ومدى احترامهم ومكانتهم في الدولة العثمانية . حيث ركزت المادة فقط على ذكر نماذج لفتاوى تختص بالمعارك وخوض الحروب ، ولم تذكر فتاوى عن التسامح الديني مثلاً، ولم تذكر أن فتاوى شيخ الإسلام كانت تستند دائمًا إلى الشريعة الإسلامية .

١٠) محاولة كرامرز إقحام نظام رجال الدين والمؤرخين النصارى في المادة بشكل أو بآخر ، حتى جاءت الجمل التي ذكرها ركيكة جدًا ويتضح فيها الدَّس .

١١) وصف كرامرز النظام بالرجعية ؛ وذلك لالتزام شيوخ الإسلام بقواعد وأسس الشريعة الإسلامية ويعاب عليه تكرار الافتراءات نفسها دون سند تاريخي موثق ، مثل الفتوى التي تبيح قتل الإخوة لدرجة أن الأمر أصبح مملاً من كثرة التكرار .

١٢) تأكيد كرامرز على عدم وجود مصادر واضحة لمنصب شيخ الإسلام، على الرغم من قلة هذه المصادر إلا أنها ليست معدومة ، ولو بحث كرامرز قليلاً لوجد الكثير ، يكفيه فقط (الشقائق النعمانية) وهو كتاب تراجم لشيوخ الإسلام .

انتىصياث

التوصيات

إن وجود الاستشراق على مائدة الفكر العالمي ونشاطهُ يفرض على المسلمين جميعًا مسئولياتٍ ضخمة في سبيل المواجهة العلمية للمؤسسة الاستشراقية العالمية ؛ وذلك من أجل تصحيح المفاهيم وإثبات الحضور الإسلامي على المستوى العلمي في الغرب ، ولا يتأتى هذا الأمر إلا بإتباع عدة خطوات تستهدف في النهاية تعريف غير المسلمين بالإسلام وحضارته ، ومن ثمّ إعادة بناء صورة هيكل الإسلام المتهالك في الغرب ، بالإضافة إلى تثقيف أبناء المسلمين الذين يعيشون في الغرب مما سيعطيهم حصانة فكرية وثقافية عند الاطلاع على مؤلفات المستشرقين ، فيصبح الطريق أمامهم واضحاً ومنيراً لهم وللأجيال القادمة .

ومما لا شك فيه أن دور المملكة العربية السعودية الرائد بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبدالعزيز – حفظه الله – في الدعوة إلى حوار الأديان لهو دليل ساطع على بداية اتخاذ المملكة لهذه المبادرة ، وهي إظهار الإسلام بصورتهِ الحقيقية للغرب ، فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى الإسلام لا سيما في ظل الظروف الراهنة ، ولعل زيارة الملك عبد الله بن عبد العزيز– حفظه الله– إلى الفاتيكان تدل على مدى حرص المملكة على سلوك هذا الاتجاه ، وتعريف الغرب بصورة الإسلام الحقيقية الخالية من الشوائب ، والعمل على تقريب وجهات النظر بين الغرب والإسلام .

ويمكن تلخيص التوصيات في النقاط التالية :

١) العمل على إنشاء جيل مسلم قادر على محاورة المستشرقين والرد عليهم ، ليكونوا مؤسسة إسلامية تقف في مواجهة مؤسسة الاستشراق .

٢) ومن الأولويات العلمية إصدار موسوعة معارف إسلامية جديدة ، إذ لا يجوز أن نظل – إلى الآن – نستقي فكريًا من دائرة المعارف الإسلامية التي قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية ، إذ لابد أن يكون هناك حضورًا إسلامي على المستوى العلمي في الغرب ، وتكون هذه الموسوعة بأقلام إسلامية أصيلة خالصة ، وأن يكون أصحاب الاختصاص في الموضوعات الإسلامية ذوي طبيعة عالمة بالإسلام ، تحتوي على وجهات النظر الإسلامية ، لتشكل قاعدة عريضة للرد على الكثير من المزاعم الاستشراقية .

٣) تنقية التراث الإسلامي مما فيه من إسرائيليات وغيرها .

٤) إعادة مفاهيم التاريخ على أسسه السليمة الدقيقة .

٥) إعادة بناء الشخصية المسلمة ضرورة حتمية ، وبناءها مرتبط بالتراث الإسلامي ، وبعث العادات والتقاليد والأخلاق الإسلامية والتليدة ، وذلك من خلال الاهتمام بالمناهج الدراسية والبرامج الفكرية .

٦) الاهتمام بتصحيح الحقائق التاريخية ، وإضفاء صبغة الدراسة والموضوعية واتباع المنهج العلمي للقضاء على كل ما يزلزل الحقائق التاريخية الثابتة.

٧) مواجهة ما صنعه الاستعمار في الشعوب المسلمة التي استعمروها ، حيث لم يمكنهم الاستعمار من تأسيس قاعدة فكرية قوية لها قدرة على التخطيط للمستقبل ، مما أدى إلى نشأة أجيال تعاني من التناقص الفكري والتشوش الداخلي المتضمن عدم اكتراثهم بالتاريخ الإسلامي بل واستقاءه من موائد الاستشراق ، فكانت النتيجة حصولهم على تاريخ إسلامي مشوَّه مختلط لا يمت للواقع بصلة .

٨) من واجب المسلمين أن يدرسوا ويفهموا موقف الغرب من الإسلام ، وأن يأخذ علماؤنا المسلمون زمام الأمور بيدهم ، فقد انقضت المرحلة التي كنَّا نقف فيها من المستشرق موقف المقلد ؛ فقد تهيأت للباحثين سبل البحث والتحقيق بعدما كانت مسالكها وعرة على الباحث قبل النهضة العربية ، وعلماء المسلمين أدرى بأسرارهم وأقدر على تفسير ذلك وتطبيقه ، وأعلم بما يحقق رسالته في حضارة الشرق والغرب.

٩) تقع مسؤولية تحسين صورة التاريخ الإسلامي على عاتق الدعاة والمؤسسات التربوية والعلمية ، وأجهزة الإعلام ؛ إذ لابد أن تقابل الحجة بالحجة المتأنية؛ لمواجهة أهداف الاستشراق المغرضة من خلال وسائل الإعلام ، فالاستشراق يهدف إلى إبقاء الأمة الإسلامية تحت سيطرة أفكار ومعتقدات تضمن استمرار مصالح الغرب والصهيونية العالمية .

١٠) استعراض مؤلفات المستشرقين العلمية ومحاسبتها في ضوء الحقيقة والواقع حتى يكشف الغطاء عن آرائهم المشوهة ، وأخطائهم في فهم النصوص وتبين المعنى الحقيقي لها ، مما يُظهِر للناس ضعف مصادرهم التي يعتمدون عليها ، وخطأ النتائج التي يستنبطونها منها ، ويطلع الرأي العام المسلم على ما يضمره كثير من هؤلاء في نفوسهم من عداء واضح للإسلام من خلال كتاباتهم ، وما يكنونه من أغراض سياسية ودينية في خفايا كتاباتهم وأبحاثهم.

١١) إصدار موسوعة للرد على المستشرقين تختص فقط بالتاريخ الإسلامي ، تتوفر فيها جميع المواصفات التي ذكرت بالنسبة لموسوعة المعارف الإسلامية – السابقة الذكر– ولا يغيب عنا أنه " توجد موسوعة للرد على المستشرقين " ولكنها موسوعة محدودة في إطار الرد على شبهات معينة أثارها المستشرقون ، ومناقشة هذه الشبهات وتفنيدها، أما دائرة المعارف الإسلامية المطلوبة فهي عامة وشاملة لكل جوانب الإسلام والفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية .

كما يلزم أن تحيط هذه الموسوعة بالموضوعات العلمية ، وتقدم للعالم الإسلامي المعلومات الإسلامية المؤكدة ؛ لسد تأثير المستشرقين السلبي من جهة ، وإصلاح الفساد الذي أحدثوه في هذه الموضوعات من جهة أخرى ، ومراعاة للجوانب المحمودة التي يمتاز بها المستشرقون ، ولابد أن تتصف هذه الموسوعة بأصالة موادها ، وصحة تحقيقاتها وسعة الدراسة وعمق النظر ، وتؤكد على ذلك باعتمادها على المصادر الأصلية والاستدلال القوي ، بعيدة عن النقائص العلمية ومصححة للمعلومات .

وعلى الأقل تقف على مستوى دائرة المعارف الإسلامية نفسه ، من حيث التخطيط والتنظيم ، بل لابد أن تتفوق عليها علميًا ، وتشتمل على فروع الدراسات الإسلامية المختلفة ، وتقدم بعدة لغات عالمية ؛ لتنقل وجهة النظر الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين.

١٢) إنشاء لجان علمية متخصصة لرصد الكتب والدوريات الاستشراقية الجديدة والرد عليها .

١٣) إنشاء دوريات بلغات متعددة ونشرها في البلاد الغربية لتعريف الناس بالإسلام بصورتهِ الحقيقية ، وتبيان الأخطاء التي تتخلل كتاباتهم .

١٤) عقد المؤتمرات العلمية في البلدان الغربية التي يشارك فيها العلماء المسلمون المهتمون بالاستشراق ، ويدعى لها المستشرقون البارزون . وفي هذه المؤتمرات تكون فرصة لإقامة صلات علمية بهم ، لمحاولة إفهامهم الجوانب التي أخطأوا في فهمها أو عرضها . وفي المقابل يتم دعوة هؤلاء المستشرقين لحضور مؤتمرات علمية تعقد في البلاد الإسلامية.

١٥) تبني أعداد من الرسائل العلمية في الجامعات الإسلامية موضوعات تختص بالرد على أخطاء وافتراءات المستشرقين ، ثم تتولى دور نشر إسلامية متخصصة نشرها بل وترجمتها إلى عدة لغات عالمية .

وأخيرًا كلمة حق وإنصاف لابد أن تقال في حق الدولة العثمانية :

العثمانيين لم يكونوا يومًا مستعمرين وقد مثلوا الإسلام بكل ما تحتويه الشريعة الإسلامية من نظم وشرائع ونواميس ، خاصة في العصر الأول للدولة .

لقد حاول المستشرقون زرع كلمة الاستعمار العثماني في أذهان المسلمين وحتى البلاد التي استعمروها ، حيث صورت أوروبا نفسها أنها المنقذ من المستعمر التركي ، رغم أنّ أوروبا هي المستعمر الحقيقي للبلاد الإسلامية .

وجاءت هذه الكلمة في كل كتب المستشرقين ومقالاتهم وبالتأكيد وردت في دائرة المعارف الإسلامية على نطاق واسع .

إن العثمانيين حكموا البلاد الإسلامية العربية مثلهم مثل الأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين فلم نطلق عليهم مستعمرين ، فلماذا نطلق على العثمانيين مستعمرين ؟! فإذا أسقطت عن هؤلاء ، فإنها تسقط تلقائيًا عن العثمانيين .

إن سياسة التسامح الديني التي حكم بها العثمانيون البلاد الأوروبية لهي نجمة ساطعة في جبهة التاريخ العثماني وقد كانت – للأسف – أحد أسباب سقوط الدولة العثمانية .

وقد كان من نتائج هذه السياسة أن وصلت عناصر غير تركية إلى أرقى المناصب ، فكيف نطلق عليهم مستعمرين رغم أنهم لم يكونوا يومًا كالدول الاستعمارية الكبرى التي تمتص خيرات البلاد وتسوق العبيد في الجيوش لتتلقى الضربة الأولى ، أو لبناء أضخم القصور والكنائس في العواصم الأوروبية ، ولم يتعاملوا مع البلاد التي استعمروها إلا بالضغط والاضطهاد والعنف والقوة .

أما بالنسبة لإسلامهم فإن خير دليل على وضوح هذا الدين لديهم هو وصية السلطان عثمان الأول عند وفاته ، فقد حوت النقاط الأساسية التي سار عليها السلاطين بعد ذلك ، وعندما مالوا عن جادتها فقدوا ملكهم . [1]

---

[1] أنظر نص الوصية الفصل الثالث المبحث الثاني .

الملاحق

نص الفتوى الشرعية التي تم بموجبها عزل السلطان عبدالحميد الثاني

" الموقع عليها من شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي ووافق عليها مجلس المبعوثان بالإجماع " إذا قام أمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طي وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية وجمع الكتب المذكورة والتبذير والإسراف من بيت المال واتفاقية خلاف المسوغات الشرعية وقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائر المظالم الأخرى ثم أقسم على الرجوع عن غيه ثم عاد فحنث وأصر على أحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلمين من كافة الأقطار الإسلامية بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً فلوحظ أن في بقائه ضرراً محققاً وفي زواله صلاحاً فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم . الجواب . نعم يجب " [1]

---

[1] علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط 1 ، بيروت : دار البيارق ، 1420هـ / 1999م، ص721 .

شجرة سلاطين آل عثمان

أرطغرل

1- (عثمان الأول)
680-725هـ / 1281-1324م

2- (أورخان)
725 – 764هـ / 1324 – 1362م

3- (مراد الأول)
764 – 792هـ / 1362 – 1389م

4- (بايزيد يلدرم – الصاعقة)
792- 806هـ / 1389 – 1402م
فترة خلافات بين أولاد بايزيد ونفوذ أجنبي (مغول)
816- 825هـ / 1413-1421م

(سليمان)	(موسى جلبي)	5- (محمد الأول)	(عيسى)
805-814هـ	814هـ - 816هـ	816 – 825هـ	806- 807هـ
1402-1411م	1411- 1413م	1413-1421م	1403-1404م

ثم انتهى سلطان المغول وانفرد محمد الأول بالسلطة

6- (مراد الثاني)
825-855هـ / 1421- 1451م

7- (محمد الثاني – الفاتح)
855 – 886هـ / 1451- 1481م

8- (بايزيد الثاني)
886-918هـ / 1481- 1512م

9- (سليم الأول)
918-926هـ / 1512-1520م

10 – (سليمان الأول – القانوني)
" خُرّمَ خاصكي سلطان "
926-974هـ / 1520-1566م

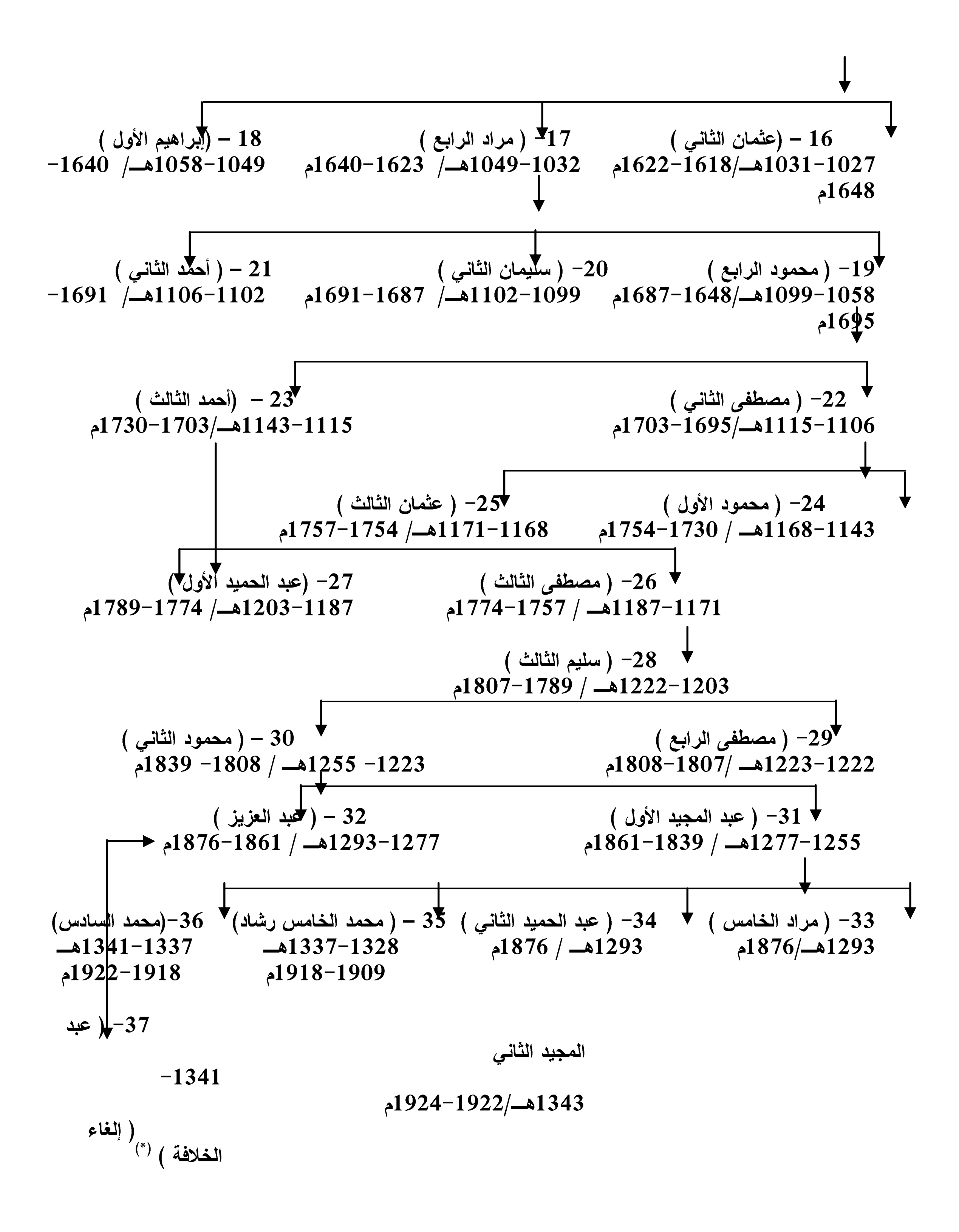
11- (سليم الثاني)
974-982هـ / 1566- 1574م

12- (مراد الثالث)
982- 1003هـ / 1574 – 1595م

13 – (محمد الثالث)
1003-1012هـ / 1595- 1603م

14 – (أحمد الأول)
"ماه بيكر كوسم "
1012-1026هـ / 1603-1617م

15- (مصطفى الأول)
1026 – 1027هـ / 1032 – 01033هـ
1617-1618م / 1622 – 1623م



(*) أكمل الدين إحسان أوغلي : الدولة العثمانية – تاريخ وحضارة ، ترجمة : صالح السعداوي ، د. ط ، إستانبول ، 1999م .

الحريم العثماني

↓

أغا دار السعادة
" أغا البنات "

↓

أكبر أغوات القصر السلطاني والعاملين داخل القصر – وهو أكبر أغوات الحريم والمشرف على الحراسة والأوقاف

↓

نساء القصر السلطاني

↓

السلطانة الوالدة " أم السلطان " الجالس على عرش الدولة العثمانية

↓

القادينات " قادين "

↓

هن زوجات السلطان الأربع
أطلق هذا اللقب منذ بداية ق18 وقبلها كان يطلق عليهن خاصكي سلطان
قادين أفندي – باشا قادين " الزوجة الأولى "
أكنجي قادين " الزوجة الثانية "
أوجنجي قادين " الزوجة الثالثة "

↓

الكدكليه – كديكلي

↓

إحدى الوظائف التي تشغلها الجارية ومنها ترتقي لتصبح محظية للسلطان أو زوجه

↓

الأسطاوات " أسطى "
وهي منصب خبيرة في القصر العثماني . مثل خبيرة أو رئيسة الممرضات " ماهرة "

↓

القلفاوات – قلفه

↓

كبيرات نائبات القصر – منها المسئولة عن المراسم والتشريفات
داخل الحريم . كاتبة قلفه – النائبة تكون في أي موقع أو جناح
من أجنحة القصر

↓

المساعدات – شاكرد

↓

معاونة
يكن في أي مناصب تحت إمرة القلفاوات

↓

الجواري – المستجدات
والجارية المبتدئة والتي لم تكمل تحصيلها تسمى " أعجمي " وتخدم بلقب جارية . ثم تتدرج من شاكرد إلى قلفه ثم أسطى .
وإذا أكملت 9 سنوات خدمة في القصر السلطاني براتب ورغبن في الاستمرار داخل القصر تسمى " كويكلي " متقدمه .

↓

يمنحو الرتب حسب الرضا عن خدماتهن[*]

---

[*] من وضع الباحثة مع الاستعانة بكتاب : ماجدة صلاح مخلوف : طبعة 1 ، مصر : دار الآفاق العربية ، 1418هـ / 1998 م.

ماه بيكر كوسم:-

"كوزم واليدي" أو(كوزم سلطان) وتدعى أيضاً "ماهبايكار"(1589م-1651م) وهي زوجة السلطان أحمد الأول العثماني ووالدة السلطان مراد الرابع وإبراهيم الأول. كانت يونانية بالميلاد ، وتقلّدت السلطة في الدرجة الأولى عبر "الحرم" الذي كان يتمتع بتأثير حاسم على مجريات شئون الدولة خلال حكم إبنيها وحفيدها محمد الرابع .

إن الآراء المقدمة بشأن أصولها وأسمها الأول " ناسيا " المنسوب إلى "آنستاسيا" لا تبدوا واقعية . وبحسب المؤلف " بيسترو ديلا فالي " في كتابه بعنوان "فوياجزن روين 1645م " فقد كانت تكنى باسم " كوزم " بسبب بشرتها الملساء الخالية من الشعر (كلمة كوزى تعني أملس دون شعر) . بالإضافة إلى أنه أطلق عليها هذا الاسم (كوزم) بسبب مقدرتها القيادية وحكمها العادل .

ومن خلال جمالها وذكاؤها كانت " كوزم واليدي " محل إعجاب السلطان أحمد الأول حيث تصدرت في مكانتها زوجات لهن الأسبقية في القصر . وقد أنجبت للسلطان أربعة أبناء وهم : مراد وسليمان وإبراهيم وقاسم إضافة إلى ثلاثة بنات وهن : عائشة وفاطمة وجوارخان (راجع كتاب " فون هامر) . وقد استخدمت هؤلاء البنات لاحقاً لتعزيز موقفها السياسي من خلال زيجات إستراتيجية وتزويجهن لمختلف الوزراء .

عقب وفاة السلطان أحمد الأول بتاريخ 22 ذو القعدة 1026هـ الموافق 23 نوفمبر 1617م ، ساندت خلافة أخيه مصطفى الأول فاستطاعت تحت إدارته الضعيفة أن تمارس سلطة فاعلة في شئون الدولة . لكن تنحية السلطان مصطفى من الحكم بعد مضي ثلاثة شهور فقط كان نكسة بالنسبة لها حيث أودعت القصر القديم (سراية إيسكي) بمنطقة بايزيد تحت إمرة الإبن الأصغر للسلطان أحمد المدعو عثمان الثاني إلا أنها سرعان ما عادت إلى الواجهة مرة أخرى حينما تم إقصاء السلطان عثمان وإعدامه ليعود السلطان مصطفى إلى الحكم لفترة وجزية (9 رجب 1031هـ / 20 مايو 1622م) .

بلغ تأثيرها منتهاه حينما تولى العرش إبنها الأصغر مراد الرابع عام 1032هـ / 1623م وتقلدت رسمياً لقب " والدة سلطان " لتحكم نيابة عنه لمدة خمسة سنوات حتى يبلغ إبنها السن القانونية لتولي مقاليد الحكم بنفسه . حتى بعد تلك الحقبة الزمنية كان السلطان مراد يحترم آراء والدته التي كان لها اهتمامات لصيقة بشئون الدولة عندما يكون السلطان خارج العاصمة . وقد أبلغت السلطان بعدم موافقة " شيخ الإسلام / أخيزادي حسين إيندي " على القرار الذي اتخذه السلطان مراد بإعدام قاضي " إيزنيك " . فعلى إثر ذلك وفي طريقه

إلى " بورسا" عاد على الفور إلى اسطنبول وقام بشنق " أخيزادي حسين " علماً بأن هذا الإجراء قد حدث ثلاث مرات فقط عبر التاريخ العثماني.

أسهمت والدة السلطان في إنقاذ السلالة العثمانية من الانقراض بمنعها السلطان مراد من قتل أخيه إبراهيم بعد أن قتل إخوته الثلاثة الآخرين بمن فيهم سليمان وقاسم.

أصبحت " والدة السلطان " أكثر نشاطاً بالتعاون مع كبير الوزراء" مصطفى باشا " خاصة بعد أن تولى إبنها إبراهيم العرش عقب وفاة السلطان مراد الرابع بتاريخ 16 شوال 1049هـ /9 فبراير 1640م . ومما ساعدها في إحكام قبضتها على مقاليد الحكم إنشغال إبنها مع خليلاته من النساء غير الشرعيات وتداعيات المنصرفات الهائلة على علاقاته بهن التي أرهقت خزينة الدولة . وفي وقت لاحق وقع تحت تأثير النساء في قصور أخرى مما أفقد " كوزم والدة " فرصة تبؤ مقاليد الحكم لتغادر قصر السلطان المعروف باسم " سراية جديدي عامر" لتعيش بمنزل صيفي خارج مدينة " توبكابي " .

عندما علم السلطان إبراهيم بأن والدته بصدد التخطيط مع كبير الوزراء صالح باشا للإطاحة به من العرش قام بنقلها إلى حديقة " إسكاندا سلبي " بمنطقة فلوريا ثم أعدم كبير الوزراء صالح . إنحدرت شئون الدولة نحو الأسوأ نتيجة لضعف حكم السلطان إبراهيم في الوقت الذي كانت فيه حرب " كريت " تتصاعد لتخلق شعوراً عاماً ضده . قام مسئولي المجندون المستجدين تحت إشراف " كارا مراد أغا " ومصلح الدين وبكتاش أغا بقتل كبير الوزراء أحمد باشا هزرباري وقرروا عزل السلطان إبراهيم من الحكم .

حصل كبير الوزراء الجديد المدعو " سوفو محمد باشا " وشيخ الإسلام عبدالرحيم أفندي بصحبة مسئولين آخرين بارزين على موافقة " كوزم والدة " بعد الاجتماع بها بمدينة " توبكابي " لإزاحة السلطان إبراهيم من الحكم ثم قاموا باستبداله بأكبر أبنائه البالغ من العمر سبع سنين الأمير محمد وذلك بتاريخ 18 رجب 1058 هـ / 8 أغسطس 1648م . بعد مضي عشرة أيام قام المدعو "كارا علي " بشنق السلطان إبراهيم خوفاً من أن الأطراف المتعاونة معه قد تحاول استعادة أمجادها بموافقة والدته وبفتوى قد تصدر من شيخ الإسلام (راجع كتاب كارا سليبي زادي)

عندما تولى السلطان محمد الرابع مقاليد الحكم بدأت " خوزم والدة " تستيعد نفوذها حيث لقبت بألقاب عديدة مثل : " بيوك والدة " أي جدة السلطان – "الوالدة المعظمة " – " أم المؤمنين " – " صاحبة المقام " – " الوالدة العتيقة " – ألخ .. إلا أن تأثيرها لم يكن دون حدود ، إذ أن نفوذ المجندين المستجدين وكذلك " ترخان سلطان " ووالدة السلطان محمد

وأرملة السلطان إبراهيم شكلوا تكتلاً ضدها . أدى هذا الصراع المحموم وسوء التفاهم بين مسئولي الدولة والمجندين المستجدين إلى خلق جو متوتر في اسطنبول والأناضول . قررت " كوزم والدة " ومعاونيها استبدال السلطان محمد بأخيه سليمان والذي كانت والدته " ديلاشوب سلطان " تعتبر غير مكترثة بشئون الدولة .

علمت " ترخان سلطان " بهذه النوايا فأخذ بزمام المبادرة وقامت بشنق " كوزم والدة " مستخدمين حبال الستارة على يد المجندين المستجدين . كان الشخص الذي قام بإعدامها يدعى " كويوك " أو " كوشيو " محمد (راجع كتاب ريكوت هستوار دى لي إيتا بريسنت ..) ثم نقل جثمانها من مدينة " توبكابي " إلى قصر " إيسكي سراي " ودفنت بضريح زوجها السلطان أحمد الأول .

مارست " كوزم والدة " السلطة في الشئون العامة لفترة امتدت لنحو ثلاثون عاماً .

وقد خلفت ورائها ثروة وأملاك كبيرة ، وأن جانباً كبيراً من ثروتها كان يصرف في الأعمال الخيرية وغيرها من الأعمال الإنسانية مثل بناء مسجد لصلوات الجمعة بمدينة " اسكودار " الذي اكتمل بناؤه عام 1060هـ /1650م ومسجد " والدة خان " في اسطنبول الذي تم تشييده عام 1056هـ /1646م إلا أن هذا المبنى الأخير قد انهار في شهر مارس 1926م . ومن عائدات هذه الإيرادات كانت تمول مشاريع الري في مصر وقدمت المساعدات للفقراء في مكة المكرمة . في واقع الأمر فإنها قد تركت في أذهان عامة الأتراك سمعة تتسم بالعظمة والسخاء والذكاء الحاد .

الوثائق

Y.MTV 204 /35

نظارة الأمور المالية :

حضرة ولي النعم الذي يعد من أعظم الغايات أصدر الفرمان والأمر العالي من أجل القيام بتمديد وتأسيس خط حديد الحجاز ما بين الحجاز وسوريا وذلك لتسهيل مأمورية فريضة الحج الشريف والتي تعد من أشرف الأمور التي نالت عناية سلطان البلاد .

ولقد صدرت الأوامر العليا للصدارة العظمى بمخاطبة نظارة المالية الجليلة للقيام بتسوية كل المبالغ المالية والمصروفات التي كلفها ذلك المشروع العظيم . والذي سوف يكون له دور بارز في إبراز قوة المسلمين وحميتهم ، وهو ما يستدعي من أجله صرف وبذل الجهد والأموال من أجله .

ولذلك فقد صدرت الأوامر بتشكيل لجنة من الأعضاء تحت رئاستي تكون من مهامها الإشراف المالي والحسابات على هذا المشروع والذي بدأت جلساته في الانعقاد أمس لمناقشة زيادة رواتب العاملين في هذا الإجتماع تيمناً واستبشاراً بافتتاح هذا المشروع .

وقد تم تسجيل هذه المعاشات والرواتب في سجل الرواتب السلطانية متضمناً المضبطة الخاصة بالمجلس مع رسالة شكر تم تقديمها لولي الأمر والأمر معروض وإن الأمر والفرمان لحضرة من له الأمر.

7 ربيع الأول 1318هـ

21 حزيران 1316 رومي

رئيس لجنة إعانة خط

سكة

حديد الحجاز وناظر المالية

سكة حديد الحجاز

Y.MTV 204 /35

لقد تشرفت الأوامر السلطانية بالصدور ، والأوامر العليا بالإحسان بتقديم المساعدة والإعانة لتخصيص رواتب سلطانية همايونية تكرماً من خليفة المسلمين والذي تضمن زيادة في هذه المعاشات بأمر من أشراف العالم وذلك ضمن تسوية المصارف الإنشائية للخط الحديدي الذي قام السلطان العثماني بإصدار أوامره العالية والفرمان العالي بخصوص تأسيس وتمديد خط سكك حديد الحجاز ما بين أطراف الحجاز وبدأ في الموقع الشريف داخل سوريا وذلك تسهيلاً على المسلمين لآداء فريضة الحج والتي نالت كل عناية واهتمام من ولي النعم وخليفة المسلمين وأصبح عصره الهمايوني كله مقرون بالسعادة .

ومما لا شك فيه أن هذا الأمر السلطاني والفرمان الهمايوني العالي قد ترك أثراً طيباً لدى المسلمين وأظهر قوتهم . وقد صدرت الأوامر السلطانية العليا بتشكيل لجنة تشرف على جمع الإعانات المالية والمساعدات من الولايات العثمانية لإكمال مشروع تمديد وإنشاء سكك حديد الحجاز ليكون مفخرة للمسلمين ، وسوف يتم فتح سجل همايوني مخصوص للإعانات المالية التي سيتم جمعها والصرف منها على المشروع السابق ورواتب العاملين فيه ، وقد كلفت بأمر رئاسة هذه اللجنة ، وسوف يثبت الجميع من خلال وظيفته في هذه اللجنة كدليل على صدق وغيرته على الدولة ، مما يستوجب التوجه بالدعاء والآيات الخيرة للسلطان والدولة ، وتوجيه الشكر والشكران لولي النعم .

والأمر معروض كما سبق ، وإن الأمر والفرمان لحضرة ولي الأمر .

محاسب الحسابات المالية العمومية	عضو ومحاسب الديوان العمومية في الخزينة المالية	ناظر المالية ورئيس لجنة إعانة خط سكك حديد الحجاز
السيد محمد الصياد	محمد مسعود	السيد أحمد رشاد

التوقيعات

العضو معاون مستشار العضو محاسب الحسابات القديمة
نظارة المالية للخزينة المالية
محمد سعيد بن لامع السيد عبد الله بهجت

كاتب لجنة التفتيش
ومدير شعبة سجلات حسابات
المالية العمومية
محمد عثمان مظفر

8 ربيع الأول سنة 1318هـ
21 حزيران 1316 رومي

A.MKT MTA 317 / 98

1276-2-26

رفض نظام الجيش الجديد

إلى طرف القيادة العسكرية

طبقاً للأخبار الواردة مؤخراً من قنصلية النمسا الموجودة في جزيرة رودس إلى دار السعادة باستانبول ، فإن جنود المدفعية المحليين الذين يخدمون في نظام الجيش الجديد ، قاموا بترك أسلحتهم رافضين الاستمرار في العمل بالخدمة العسكرية .

واستطاع كبار الضباط هناك الغيورين على الدولة أن يقوموا بإعادة هؤلاء الجنود مرة أخرى للعمل بالخدمة وتعود الأمور للاستقرار والسكون مرة أخرى ، وبناءاً على هذا التخوف من الباب العالي ، فقد تم إبلاغ الأمر حيث لم يبلغ الأمر مرحلة الخطورة .

ومع ذلك فإن الأمر سوف يتم الاعتناء والاهتمام به لعدم تكراره مرة أخرى .

HAT . 426 / 21862 – D

ظلم الإنكشارية

صاحب السعادة والعناية والمرحمة ولي النعم وكثير اللطف والكرم أفندينا
" عرض التلغراف المرسل من السيد عطاالله آغا أحد الأغوات العاملين في (أيزورين) " :
الدعاء للدولة والسلطان بدوام العمر والنصر ، ونعرض هذا التلغراف عليكم بمعرفة لطيف بك وبمعرفة صاحب السعادة ذو الفقار باشا متصرف سنجاق أيزوريتي وبعض من الأهالي هناك ، حيث أن هؤلاء المشار إليهم قاموا بالنظر في الدعوى المقامة في محكمة أيزوريتي الشرعية ، وبعد تلاوة الدعوى حرفاً بحرف ، وأداء اليمين فيها ، فإنه صدر القرار في رفع الظلم والتعدي على الأهالي في الآيالة المذكورة ، وقد صدر الفرمان العالي لرئيس الجنود الإنكشارية بالخروج من القلعة ، وكف يده عن الظلم الواقع على الجنود والأهالي . وصدور الأوامر للإدارة الكائنة هناك بالنظر في الدعاوى الشرعية المقامة والمرفوعة من الأهالي والتحقيق فيها والتثبت منها والعمل بالأحكام الصادرة في شأنها وأن الأمر والفرمان لصاحب العناية والسعادة والرحمة وولي النعم حضرة سلطاننا .

عطاالله بك

أوزرتين

HAT 589 / 28938

العساكر المنصورة

المحمدية

تقرير من ناظر المدفعية العامرة :

إن الضباط والجنود العاملين طبقاً لدستور العمل الذي تم تطبيقه على النظام الجديد والصادر في عام 1207هـ والخاص بسلاح المدفعية والمركبات ، فإنه نظام يسير طبقاً للأصول والنظام في كل موقع من مواقع الدولة .

وقياساً ومقارنة بالمعسكر الذي تم الاستغناء عنه طبقاً للقانون السلطاني الذي تم تنظيمه في التاريخ المشار إليه فلقد تم تنظيم الاصطلاح حول صنف الجنود (الأوجاق) وكذلك تشكيلات الضباط وهيئتهم وما يطلق عليه اصطلاحاً (الأورطة) . وإلى الآن فإن الضباط المشار إليهم ما زالوا مستمرون في العمل والخدمة العسكرية ، والموجودين في معسكراتهم والجنود التي يطلق عليها بالعسكر المنصورة ، فقد تم استبدالهم وربطهم بنظام وأصول جديدة ، وطبقاً للمذكرة المرفوعة من أغوات سلاح المدفعية والمركبات فإن عدد الفرق الموجودة في سلاح المدفعية يمين حوالي 82 من المشاة ، وآخرين حوالي 41 فرقة يسار ، بحيث يكون الجانب اليمين يبدأ من الفرقة الأولى ثم الثانية ، وكذلك على اليسار الفرقة الأولى ثم الثانية وهكذا في الترتيب حتى يصل إلى العدد 41 .

ولقد تم أيضاً في الجيش الجديد استخدام ما يطلق عليه ضابط رئيس الأغوات ، وأغا الشورباجي . وفي داخل النظام الجديد للعساكر المنصورة يوجد نظام الطعام والشراب لهؤلاء الجنود وغيرها من الأمور الحياتية للجنود ، ولذلك تم توفير وتدبير وظائف مناسبة لهم مثل حامل العلم (علمدار) ، ووكيل الخرج (مسئول المصروفات) .

ومن بين الوظائف التي يمكن استخدامها في هذه المنظومة العسكرية الجديدة ، ما يطلق عليه رئيس الطباخين ومقدمي الشوربة ، والحمد لله يوجد الآن في المعسكرات هؤلاء العاملين طوال 24 ساعة خدمة متواصلة ويتبادلون أوقات أعمالهم .

كما يوجد جنود مخصوصون لسقاية أفراد الجيش ، كما يوجد شرطة عسكرية داخل سلاح المدفعية والمركبات ، ويوجد في كل سلاح من الأسلحة السابقة خمسة جنود لطبخ الشوربة واليخن في المدفعية وخمسة غيرهم للغرض نفسه في المركبات ويوجد على كل نقطة حراسة وسجن ضابط ، على ما يقرب من ثلاثين جندي يعملون في مركز الشرطة تحت خدمته ، ويمكن الاستغناء عن أعداد مراكز الشرطة الفرعية الكثيرة والإبقاء فقط على أربعة مراكز كبيرة للشرطة ، واثنين في المدفعية يعملون تحت إدارتها ، ومخزنين للسلاح يعمل طوال 24 ساعة ولا يجوز تحصيل أية أموال أو الاستيلاء عليها من أي شخص يتم حبسه.

ولا يجوز التدخل في صدور حكم بالحبس بعد اتخاذ كافة الإجراءات القانونية لحبسه ويمكن زيادة عدد الجنود السقا والطباخين لسلاح الفرسان والمدفعية والعمل على زيادة رواتب هؤلاء الطباخين ، بحيث يحصل كل واحد منهم على 12.510 أثنا عشر ألف وخمسمائة وعشرة قروش شهرية .

ولقد تمت الموافقة على بنود المواد السابقة من قبل القيادة العسكرية العليا طبقاً لدستور العمل العسكري والذي تم إضافته لقانون المدفعية والمركبات الهمايوني ، وليتم العمل به فور الإبلاغ عنه وتعميمه على كل الأسلحة والأمر والفرمان لحضرة من له الأمر .

ناظر المدفعية العامرة

HAT – 1185 / 46746 – A

الأمان والهدوء في عهد محمود الثاني

معروض على حضراتكم ما يلي :

الدعاء بدوام الدولة والسلطان ولي النعم الذي وهبه الله النعم الكثيرة والعقل الكامل المدبر ، ومدير شئون العالم .

نود إبلاغكم بأنه تم العودة إلى الضبط والربط بين إدارات الدولة المختلفة مما جعل الانضباط والأمان والهدوء يعود بين الرعية ، وذلك بفضل الأنظمة الخيرية التي تم إقرارها والموافقة عليها من سلطاننا ، مما أدى بكل الصحف العالمية الأجنبية أن تشيد بها وخاصة في أوروبا التي لديها دراية كاملة عم يحدث داخل الدولة العثمانية ، فاستوجب المدح والثناء عليها.

وهذا للعلم وعلى كل حال فإن الأمر والفرمان لحضرة ولي الأمر

5 ربيع الأول 1254هـ

رفعت محمد يافت

HAT 1076 / 43944 – L

إلغاء بعض الوظائف في عهد

السلطان محمود الثاني

صاحب السعادة والمكرمة سلطاني العظيم :-

لقد تم الاستعلام من أصحاب الفخامة الوزراء العظام وكبار رجال الدولة عن النظام العسكري الجديد ، وعن بعض الوظائف التي سيتم إلغاؤها ورفعها من السلك العسكري مما يستوجب عودة النظام والانضباط للدولة ، وعلى أية حال ، فإنه لم يرد أية ردود على ذلك حتى الآن .

ولذلك فلابد من ضرورة الموافقة على الأصول والنظم التي سيتم التعامل معها داخل دولتنا العلية ، والاستعلام عن رتب صف الضباط والشاوشية التي سيتم الاستغناء عنها ، وقد تم إبلاغ جميع الوزراء العظام بهذا الأمر حتى يتسنى الانتهاء في أقرب وقت ليتم تسجيله والتصديق عليه .

6 رمضان 1245هـ

عبدكم محمد

HAT – 0954 / 40958 – D

خلاصة ترجمة بعض الأحداث التي وردت ونشرتها بعض الصحف الفرنسية بتاريخ 21 كانون ثاني الشهر الماضي

نعرض ما ورد إلينا من محررينا المقيمين في الدولة العلية . وفي رسائلي السابقة التي أرسلتها بهذا الشأن ، أبلغت أن سلطان دولتنا العلية ، يبذل كل ما في وسعه من مساعي حميدة بصفته ملك البلاد ومنظم شئون العباد ليضع كل الأمور تحت سيطرته وإدارته خاصة أنه سلطان البلاد الإسلامية وهو ما ترك آثاراً مستحسنة لدى الحكومات الأجنبية المختلفة الموجودة لها سفارات في (باريس) ، وحينما كانت تسعى إدارة الدولة العثمانية في وضع أصول للنظام والحكم في الولايات التي تحت إدارتها ، تصادف أن محمد علي باشا في مصر كان حريصاً كل الحرص لدى الدول الأوروبية أن يثبت لها أيضاً حرصه الشديد على إتباع الوسائل الحديثة في النظم والإدارة وطبقاً للأصول المتبعة في تلك البلاد ، وهو ما أدى بسلطان البلاد العثمانية من وضع كل التسهيلات لتنفيذ أصول هذه النظم في البلاد . وكان نتيجة ذلك أنه لم تجد حكومة مصر حينذاك أية معارضة أجنبية تجاه ذلك بل على العكس من ذلك تماماً ، وجدت مصر كل معاونة ومساعدة من تلك البلاد الأجنبية في كل النواحي حتى أنه كان هناك فروقاً شاسعة بين ما يحدث في مصر من نظام حديث ومعاصر ، وبين ما يحدث في بقية الممالك الإسلامية الأخرى داخل الدولة العثمانية ، وهذا ما يميز أهالي مصر على مدى السنين عن بقية أهالي البلدان الإسلامية في قوة تحملهم للصعاب والمشاق وذلك بفضل ما بدأه والي مصر محمد علي باشا المشار إليه في الأخذ بأسباب التحديث والنظم الجديدة ، والذي لم يجد أية معارضة من الأوروبيين .

وإنه بسبب إلغاء بعض الأوجاقات (الفرق) العسكرية في الدولة العثمانية ، وفائه بسبب المفاسد الكثيرة نحو الإدارة العثمانية ، فإنه تتاح الفرصة للعديد من الدول المجاورة لاستخدم الدسائس والمكائد نحو الدولة العثمانية .

وإن ما فعله محمد علي باشا والي مصر في ولايته كان يستحق كل المدائح والاستحسان من قبل الإدارة العثمانية التي تنظر إليه بعين الاهتمام . وعلى أية حال فإن محمد علي باشا يعتبر ذو عقل ومدبر ورجل حكيم ، وأن ما يشاع عن قيام محمد علي باشا بتنصيب ابنه إبراهيم باشا خلفاً له هو كذب وافتراء بل إن إبراهيم باشا ما هو إلا قائد عسكري ، وأنه لا يوجد من بين أولاد محمد علي من يستطيع أن يتحمل المسئولية بعد وفاة أبيهم ، ولذلك فإنه يقوم بتقسيم أراضيه في حال حياته بين أولاده حيث أعطيت برية الشام على إبنه إبراهيم باشا والبقية الأخرى لأكبر أولاده وأحفاده والذي يتراوح عمره بين 15-16 سنة ، مما دعى إبراهيم باشا لإعلان غضبه واعتراضه على ذلك سراً .

والحقيقة أن الأهالي في تلك المناطق سواء كانوا معترضين أم غير ذلك فإن أمر التقسيم قادم لا محالة ، وهو ما سيتم تحقيقه في نهاية الأمر وإن كل آمال أي سلطان وحاكم عثماني أن يسود الأمن والأمان والطمأنينة داخل الولايات الإسلامية .

وإن قوة محمد علي باشا هي في الوقت نفسه قوة للدولة العثمانية وأن الإدارة العثمانية تؤيد وتقدم كل العون لمحمد علي باشا نحو قيامه بتحديث قوته وزيادتها ، وأن ما يقوم به هو تدعيم لقوة الدولة العثمانية العسكرية واستقراراً في الوقت نفسه وتدعيماً لحكمه وولايته .

HR – TO 525 / 67

الباب العالي

نظارة الخارجية الجليلة **مسألة المحاكمة ومناقشة**

غرفة الترجمة **مقتل عبد العزيز**

ترجمة الرسالة التي نُشرت من قبل دار السعادة
بتاريخ 13 تموز 1281 وطُبع في صحيفة (كافور)
المطبوعة في (مارسيليا)

فيما يتعلق بالمحاكمة التي تمت في قصر (يلديز) والتي أثارت النفور والكراهية ومهما يكن من رفض الناس لأي ظلم ، إلا أنه يجب توضيح الأمور ، لأنه لم يكن هناك شخص إلا وتعجب من القرار الصادر من محكمة التمييز (ديوان التمييز) . لأن الديوان المشار إليه قد أصدر حكمه الأول وكل شخص كان يعلم أنه مركب من (لوباردمون) و(جفريس) ، ومع ذلك كان هناك بعض الاستثناءات فيه ، حيث أنه في المحكمة الأولى كان يوجد حاكماً مستقلاً ، وهو (أمين افندي) .. وشاعت حوله إشاعات في أنه أقدم على الانتحار بسبب خلافاته مع زملائه ، وأشارت الصحف العثمانية إلى تلك التهديدات التي وجهها (ناظر عدم العدالة) جودت باشا وأنه سوف يقوم بعزله ولقد تم التصديق على الحكم الصادر في حق كل من رشدي أفندي وأحد النصارى ويُدعى (اقياديس) أفندي في محكمة الجنايات المشار إليها .

ومن أجل قيام أعضاء مجلس ديوان التمييز وعددهم 12 عضواً ، بإعلان أحكامهم من داخل قصر يلديز ، أغلقت أبواب القصر حينذاك وكان (جودت) الغير آدمي موجوداً في تلك المحاكمة ، حيث وجه حديثه إلى الأعضاء المشار إليهم قائلاً لهم (إن الأوراق المتعلقة بالمحكومين قد تم التصديق عليها في الحكم الأول الصادر بشأنهم وضدهم دون استكمال إجراءات التحقيق والبحث حولهم ومعهم "

ولذلك تم إحضار تسعة من الأعضاء المعروف عنهم بقوتهم وصرامتهم من أجل القيام بتهديدهم والدفع بأسباب إصدار حكم الإعدام ضدهم وهو ما أدى بسكوت القائلين وترك الفرصة للدفاع أن يتحدث في المحكمة .

وإن شهدي أفندي كان على صلة وعلم بعائلة مدحت أفندي جيداً ومن المعلوم أن شهدي أفندي هو المحامي الموكل بالقضية ، ولقد تم تعيين شيخ الإسلام الأسبق خير الله أفندي والأخ الصدر الأعظم الأسبق محمد رشدي باشا لاستكمال المحاكمة بدلاً من قاضيين اعتذرا عن استكمال المحاكمة بسبب ضيق التنفس داخل قاعة المحاكمة داخل قصر يلديز ، وإن هذا لمن الأسباب التي أشارت إليها إحدى الصحف الرسمية الصادرة في الدولة ويطلق عليها (صحيفة دقت) ، بأنه لابد من إعادة المحاكمة على المتهمين مرة أخرى في تلك القضية ، وهو ما تنتظره الأهالي بفارغ الصبر وحينما جرت محاكمة المتهمين لم يكن هناك شاهد واحد في المحكمة .

ولم يكن هناك سوى شاهد واحد هو الدكتور قاسطرو ، وهو ما كان على غير قبول واستحسان من قبل المدعي العام وأعضاء المحكمة ولقد نالت الهيئة المشكلة التي يطلق عليها اسم (مجلس الأعيان العثماني) كل سخرية واستهزاء ولقد كان اجتماع المحكمة في اليوم السابع والعشرين من شهر (حزيران) .

وكان المدعي العام هو لطيف بك والذي كان أحد المقربين من وكيل (السلطان المنتقم) والذي كان يقصد به المرحوم السلطان عبد العزيز في حضور تلك المحكمة .

ثم صدرت بعد يومين أوامر بتحديد إقامته وحبسه في مكان آمن وتم السعي وراء الحصول على أية أخبار عن الشهود وخاصة فيما يتعلق بالسيد ماسطرد الذي كان محمياً من الإنجليز ، والذي غادر البلاد راكباً إحدى البواخر يوم الأربعاء الماضي وهو يهزأ قائلاً (ومحقراً إستانبول بلد خلافة عبد الحميد – السلطان عبد الحميد الثاني) .

وإنه محتمل صدور مثل هذا القرار والآن يوجد ما يقرب من إحدى عشر شخصاً محبوسون داخل قصر المابين الهمايوني . وعلى أية حال فإن من بين الإشاعات التي أثارت جنون مدحت باشا ، أنه أشيع عنه نفسه أنه كان " أكثر قدرة من الظالم نفسه " وأنه لابد من القيام بحماية عقلي بقدر كاف . ولقد أُبتلى المشار إليه بنوبة الأرق وعدم التمكن من النوم لدرجة أنه لم يستطع النوم لمدة أربعة أيام متواصلة نتيجة الاضطراب والقلق الذي كان فيه .

ولقد صدرت الموافقة السلطانية على إجراء الكشف الطبي والمعاينة عليه ، مما دعاه لتوجيه الشكر إليه . وفجأة توفيت والدة محمود باشا متأثرة تماماً بما حدث لكريمة وإبنة مدحت باشا في مرضه .

وإن عدم القيام بتأمين إعدام الكثير من المتهمين لسوف يؤدي إما للتدخل الأوروبي أو حتى لمدحت باشا نفسه . وخاصة أن تلك الاضطرابات قد تركت أثرها بحق أخو وأخت

مدحت باشا التي كانت موجودة بالقرب من زوجة طوسون باشا والي ((أشقودرة) السابقة .

ولقد أشارت صحيفة (نيم = النصف) الرسمية إلى هذا التدخل الصارم ، وإن هؤلاء لسوف يقومون بالتحقير بالمحكوم عليهم من ناحية ، وبالإشارة إلى عدم جرأتهم وشجاعتهم من ناحية أخرى .

ولقد نشرت في صحيفة الحوادث بعض ما يتعلق بهذه المسائل ، حيث جاء فيها "إن هؤلاء لا يريدون أن يروا أي شيء طيب على أوروبا ، ويجب أن يكون محرري هذه الصحيفة على درجة عالية جداً ، نحن لا نريد من الأتراك أي شيء ولقد قامت القوانين العثمانية باستكمال قوانينها واقتباسها من القوانين الأوروبية وأشارت الجريدة إلى أنه لابد من عدم التخلي عن الانتقام " ولقد وجُهت هذه الاتهامات لكافة الأهالي المرهقين من العمل والفقراء .

ولقد قامت صحيفة استانبول المطبوعة في (غلطة) بأن كلاً من كمال كرمي وعزت قاما بالدفاع عن مدحت باشا وتجاوزاته وكان الهدف مما جاء في كل الجرائد والصحافة حينذاك هو توجيه التحقير الكامل ، وإنه سوف يتم اتخاذ كافة التدابير اللازمة نحو هذه الصحف الصادرة والذي سوف يقوم بذلك هو مدير المطبوعات (بك أوغلي) .
ويجب بحث ما يتم تدبيره من دسائس وفتن تتعلق بهذه المسألة من الباب العالي في طرابلس وتونس . حتى أنه يمكن حساب ما يصدر من حاكم تونس بمفرده حوالي 200 عمل تقريباً وأنه لا شك من القيام بإرسال مسئول إلى الذات الشاهانية لعرض دوام الصداقة والتابعية له وللدولة .

ولقد تم إبلاغ ذلك وهذه المعلومات وعرضت على الحضرة السلطانية في اليوم الأول من شهر (تموز) حيث أبلغ بالقيام بإرسال الآلاف من البنادق (المارتيني) وثلاثمائة صندوق من الذخيرة إلى طرابلس عن طريق الباخرة (مجيدي) .

ولأنه بسبب القيام بتقوية الأفكار الهائجة والثائرة في طرابلس وتونس ، فقد تقرر القيام بإرسال آلاف الجنود على خمس سفن إلى هناك وأن المقربين من حضرة السلطان ، فقد قالوا بأن ما سوف يتم إرساله من آلاف ومئات الآلاف من الجنود إلى طرابلس إنما هو الهدف منه التوجه نحو حل مسألة اليونان صلحاً وتسويتها سلماً .

ولقد تم استكمال الأسطول العثماني الحربي بإرسال خمسين ألف جندي وشخص وتم نقلهم على ثلاث قطع حربية منها . وإنه مما لا شك فيه أن هدف السلطان من ذلك هو التوجه وصرف الانتباه عن الدولة .

وفي العنوان الرئيسي هذا الصباح لجريدة (ترجمان حقيقت) الصادرة هذا الصباح (إننا لن نحارب فرنسا) ويبقى السؤال بلا إجابة ولكن مضطرين للإجابة على هذا السؤال أنه سوف يتم تعيين (هوبار باشا) قائداً للأسطول العثماني الحربي في البحر الأبيض المتوسط حيث يتمتع هذا القائد بخبرة عسكرية بحرية واسعة يتشرف بها كل الأتراك .

أما فيما يتعلق بامتياز المعادن في سنجاق (قره حصار) الموجودة في الأناضول للاستفادة منها في البرنامج السياحي الواقعة في لندن فقد قامت صحيفة (لندن) بنشر إعلان عنه في صفحاتها وذلك لما سيعود على الدولة من منافع كبيرة .

وسوف يتواجد في مجلس الإدارة مع (هوبار باشا) اثنين من العلماء والوكلاء وسوف يكون لرأس المال الفرنسي من الفرنسيين دور كبير في ذلك .

HR- TO 525 / 67

الباب العالي
نظارة الخارجية الجليلة
غرفة الترجمة

المعلومات المنشورة في جريدة (سمافور) المطبوعة في مارسليا والتي تتعلق بمحاكمة قتلة السلطان المرحوم عبد العزيز

كان قرار محكمة الاستئناف هو منع دخول الدكتور (قاسطرو) وهو من أعضاء مجلس الأعيان من دخول قصر يلديز الهمايوني خلال أوقات المحكمة التي تنظر في قضية المتهمين والمحكوم عليهم وخاصة على أعضاء المحكمة التي تنظر تلك القضية .

ولقد تم إبلاغ هذا القرار الخاص المشار إليه إلى سفارته من قبل (محسن خان) ، وقد تم تقديم عريضة إلى السلطان العثماني بذلك . حتى أن ابنة مدحت باشا قامت بمراجعة سفارة إنكلترا لاحتمال توقيع عقوبة عليها ، وهو ما أشارت إليه الصحف الرسمية وهو ما توجه به بعض موظفي البنوك النصارى في البنوك الروحية .

ولقد تصادف يوم ميلاد السلطان مع اليوم المخصوص بالفرنسيين في إستانبول يوم الرابع عشر من شهر تموز والذي تم فيه تعيين هربارت باشا قائداً عاماً على الأسطول العثماني البحري في بحر سفيد (الأبيض المتوسط) ، وذلك لإرسال الجنود والأسلحة إلى طرابلس مرة أخرى .

ولم يكن أحد متعجباً مما يحدث من المحاكمة التي جرت في سراي يلديز من طرف ديوان التمييز وخاصة من قبل رجال الأعلام . ولم يكن أحد يصدق ويؤيد من قبل أعضاء محكمة الجنايات بأمر الانتحار سوى أمين أفندي فقط ، حتى أن كل المطبوعات والصحف الصادرة باللغة التركية وجهت كل التوبيخات الشديدة لوزير العدلية . وبمجرد قيام ديوان التمييز بإصدار قراره ، قام كل من العضوين من أعضاء ديوان التمييز وهما رشدي أفندي وأكياوس أفندي بعدم التصديق على هذا القرار وبمنتهى الوضوح ، بل وقاما بالتشكيك فيه. وأغلقت المحكمة من قبل أعضاء الديوان المشار إليه على المتهمين الضعفاء في قصر يلديز السلطاني . حتى أن عديم الوفاء والرحمة والخائن جودت باشا ، قال لنفسه " أنه لم يكن هناك بحث ولا إطلاع حتى على أوراق المهتمين ولكن لابد من ضرورة قيام الأعلام بتصديق ما ينسب ضدهم من أحكام "

وقابل المحامون عن المتهمين الأمر بالصمت والسكوت حتى أن محامي مدحت باشا أشار بأنه سوف يبحث الأمر والموضوع مع عائلته .

وحتى لو أن عائلة المشار إليه مدحت باشا قامت بالبحث عن محامي غيره ، فإنه أمر غير مقبول ، وإن هذه المرة هو إثبات كاف لهدف هذه المحاكمة أصلاً .

وبقيت محاكمة كل من خير الله أفندي ورشدي باشا الآن ولم يكن هناك شاهد واحد قط خلال محاكمة المتهمين المشار إليهما ولكن كان الدكتور قاسطرو فقط هو الشاهد الوحيد الذي يؤمل فيه أن يوجد خلاف بشأنه ما بين المدعي العام وأعضاء المحكمة في شهادته .

حيث أن المشار إليه مؤمن تماماً بأن السلطان عبدالعزيز هو الذي قام بالانتحار ولم يكن هناك من يقتله .

ولكن بعد يومين قام المشار إليه بالفرار عن طريق إخفائه لدى أحد التجار الإنجليز قبل أن يصدر أمر بشأن تحديد إقامته ومنعه من السفر خارج البلاد وحبسه ، إلا أنه قام يوم الأربعاء بالفرار عن طريق ركوبه إحدى السفن .

ومهما يكن من ترويج الإشاعات حول قيام السلطان بإعدام المتهمين أو نيته في ذلك ، فإنه لابد أن يأتي قيام أوروبا بالاعتراض على ذلك ولفت النظر إليه .

فمن ناحية سوف تقوم أوروبا بطرح الأسئلة حول قيام السلطان العثماني بالانتظام وتنفيذ الإعدام بنية الأخذ بالثأر ، ومن ناحية أخرى سوف يقوم السفراء الأجانب بتوجيه اللوم على عدم انتظام المحاكمة طبقاً للأصول المتبعة في أوروبا وإبلاغ الحكومة العثمانية بذلك.

ولكي لا يحدث سوء تأثير على هذه الناحية ، فقد قام وزير الخارجية وناظرها الباشا باختيار حضرة محسن خان لكي يقوم بعرض وثيقة السفارة والسفراء وعرضها على الحضرة السلطانية حيث أن لديه لغة يستطيع استخدامها للترجمة في هذا الشأن .

Y.EE 71/20

إصلاحات عبد الحميد الثاني للمالية

إنه من أجل التمكن من تأدية الديون فإنه سوف يتم تلافي العيوب فيما سبق من أجل الاستقرار وحسن التأسيس للمواد القانونية الأساسية الخاصة بتنظيم عمل الضبط والربط للشرطة ، وتقرير الوظائف وجميع التشكيلات التي سوف تكون أساساً للإدارة المدنية ولتوفير احتياجات العصر في بعض المسائل القانونية من أجل إتمام إجراءات المحاكمات الخاصة بالتقسيم والتحصيل والتقسيم في شكل يوافق الثروة ودفع الضرائب المكلف تحصيلها على كل نوع منها .

وسوف يتم التفضل بطرح كل الوسائل والقوانين والمحاسبات وما يتعلق بها من وظائف والديوان العالي ومجلس الوكلاء والوكلاء والانتخابات العمومية وأصول المحاكمات القانونية التي سيتم طرحها من أجل التهيئة والإعداد والتنظيم في شورى الدولة وإن الأمل المعقود على ذلك .

ولقد تم إبلاغ الجميع بضرورة المسارعة للبدء في عرض الأمر والاهتمام به وخاصة فيما سيتم اتخاذه نحو استكمال الإجراءات المطلوبة حسب الوظيفة من أجل قانون الموازنة للسنة القادمة وفيما يتعلق بالمسائل المختلفة المتعلقة ببعض القوانين المذكورة سابقاً في الاجتماع السابق والبحث من جميع الأطراف المشتركة في اللائحة التنظيمية التي ستصدر بشأن ذلك .

وعلى كل حال فإن الأمر والفرمان لحضرة ولي الأمر والإحسان يا سيدنا .

26 ذي الحجة 1294هـ / كانون أول 1292 رومي

مطابقة للأصل

هيئة الأعيان

1294هـ

جمال الدين الأفغاني

Y.PRK. EEA 15/26

إن الانفعال الشديد جداً للشيخ جمال الدين الأفغاني والموجود في لندن والذي سبق وأن تم تقديمه حول قيامه بتفسير مقصد الأرمن من طرف بعض المحبوسين وملكم خان ، فقد أظهر أمس لي سوء نيته بعض الشيء .

وبناءً على حالة الانفعال الصادرة من دولة إيران تجاه الاثنين المشار إليهما معاً ، فإننا نرى أن هذا الحدث سوف يكون له شأن في خدمة فكرة الجامعة الإسلامية لما ينجم عنه من اتحاد في الحس . وعلى أية حال فإنه من أجل ما جاء في الصحف وما نشر خاص بمحاولة تخليص هؤلاء أو قيامه هو نفسه بذلك في إيران ، فإن ذلك ليس معناه أن هناك اختراق دولة الأرمن عن الممالك العثمانية المحروسة .

فربما أن يكون أي مسلم موجود في المغرب أو إيران أو بلاد الهند يريد الالتحاق بالممالك المحروسة ، له هدف آخر غير الذي يدور في نفسه . فعلى سبيل المثال فإن الهدف من وراء قيام الإنجليز باحتلال مصر والحجاز واليمن ربما يدور في فكرهم نحو تلك المناطق لا يعلم به أحد .

ولقد نشرت مقالات كثيرة في صحيفتي (باريس) و (تيرزبورغ) ، ضد الاحتلال الإنجليزي العسكري بناء على ما يدور في فكر الإنجليز وأثبته التاريخ نحو بلاد اليمن والحجاز أو حتى أي دولة في مصر .

وسوف يتم توجيه الوسائط المختلفة نحو تلك المسألة وأنه من أجل الضغط على الإنجليز وإجبارهم على الخروج من مصر ، فإنه لابد من توحيد الصف بين العالم الإسلامي لتدبير الحلول والأسباب اللازمة لتحقيق ذلك ، وسوف تقوم الدولة العثمانية بالسعي في ذلك والأمر لحضرة السلطان حفظه الله .

لندن / 4 فبراير 1307 رومي = 16 فبراير 1892م

عبد الحق حامد

BOA / DUIT 10 / 62

عهد السلطان عبد الحميد الثاني (إعلان القانون الأساس)

سياسته مع المبعوثان

معروض من عبدكم ما يلي :

أنه من الطبيعي أن تاريخ اجتماع المجلس العمومي لمناقشة القانون الأساس سوف يكون مع بداية شهر مارس . وسوف يكون التأسيس فور صدور الفرمان السلطاني العالي بهذا الشأن . وبمقتضى أصول المشورة فقد صدر الفرمان العالي بدوام الوظائف الخاصة بهيئة الأعيان والمبعوثان وظهور الدليل العلني والفعلي والرغبة الحقيقية في الإصلاحات الداخلية والموجود داخل سياسة الدولة العثمانية فوق العادة .

وبناءً على الحماس الزائد للإحساس الموجود في المجلس العمومي فإن كل السعادة والسرور وكمال التقدير للوفد العالي الذي يبذل مساعيه المشكورة نحو هذا الإصلاح .

وإنه حسب ما يراه المجلس المشار إليه عند إصدار والنطق بالقانون الأساس وعدم كفاية الوظائف التي يتضمنها المجلس العمومي حسب الأصول المرعية والتي يكتسبها الأحوال العمومية لحياتنا هذه الأيام ، فإن له الحق في تصور المدة المطلوبة لتحديد أو تقصير مدى الاجتماعات الخاصة بهذه المسألة ، فقد صدر الأمر السلطاني العالي بهيئة مجلس الأعيان والمبعوثان بضرورة بذل كل الجهد لعدم تعطيل ما يقتضي عمله بهذا الشأن ، وقد تم إبلاغ الفرمان السلطاني العالي لكل من الهيئة وهي هيئة رؤساء وأعضاء مجلس المبعوثان والأعيان والأمر والفرمان لحضرة ولي الأمر.

10 صفر 1295هـ

DUIT /10/62

إنه لمن المعلوم أن الإجراءات التي تم اتخاذها تماماً سواء من ناحية مناقشة المذكرات والأبحاث الخاصة بصدور اللائحة الأصلية للقوانين الأساسية بوظائف مجلس العموم الذي صدر بشأنه الأمر العالي ، أنه من الطبيعي أن يكون هناك تبادل في الأفكار حول هذا الموضوع بين هيئة الأعيان والمبعوثان مع وكلاء الدولة في الأحوال والأزمنة العادية ، ومع هذا فقد ظلت سياسة الدولة وحركتها في شكل غير عادي .

وإنه لا يمكن الاستغناء عن المعاملات التي تجرى في الأوقات غير العادية وخاصة أنه لابد من إبلاغ المبعوثان والأعيان بأسس القرارات التي تم اتخاذها بين الوكلاء في الإدارة الداخلية أو في السياسة وفي الأحداث التي تظهر كل ساعة وربما كل يوم والتي يداوم عليها مجلس العموم وبشكل مستمر .

ومع هذا فإنه لا يمكن لأي طرف من الأطراف السابقة أن يعرض على مجلس العموم في أي وقت أو زمان نتائج المباحثات التي جرت مع الدول المشتركة معنا بأحوال فوق العادة وبصرف النظر عن قطع المساعدات أو المصالح في أي وقت.

وسوف يبقى المجلس الآن في ختام اجتماعه لمدة شهر واحد ولحضرة السلطان كل الصلاحيات في تحديد أو إنقاص مدى اجتماع المجلس العمومي طبقاً للقانون الأساس وأحكامه وهذا الأمر منوط للسلطان العثماني وحده وإن كل الأمور قاطبة والأمر والفرمان لحضرة من له الأمر .

10 صفر 1295هـ

عبد اللطيف صبحي – محمد كافي – السيد محمد سعيد – محمد نامق – السيد خليل

YA – Hus 261 / 116

الباب العالي

دائرة الصدارة

الديوان الهمايوني

لقد تم القيام باتخاذ الإجراءات اللازمة نحو إبلاغ سفارة الدولة العثمانية في (لندن) من أجل القيام بتكذيب ما ورد في صورة التلغراف المنشور والمؤرخ في السابع من شهر حزيران افرنجي في جريدة (ديلي نيوز)

وذلك بمنع دخول هذه الجريدة إلى الممالك السلطانية العثمانية أو إلى أي إدارة تحت إدارة الولايات السلطانية العثمانية أو حتى إلى إستانبول .

وهذا ما تم عرضه على نظارة الخارجية الجليلة متضمناً صورة من الأمر السلطاني العالي في هذا الشأن .

14 ذي القعدة 1309هـ الصدر الأعظم والبار والأكرم

28 مايو 1308هـ رومي جواد

YA-Hus 261/116

الباب العالي

دائرة الخارجية

قسم الرسائل

إلى حضرة الصدارة العظمى

معروضي ما يلي :

يُشاع أن الإجراءات المتخذة ضد الأشخاص الذين لديهم شبهة أنهم منسوبي لفرقة الحكومة المشروطة ، يحيدون عن الحق بصفة دائمة . وأما فيما يتعلق بأمر إرسال جنود لمنع الثورات القائمة في مناطق موشى وصامون ضد الإدارة العثمانية فإن تخوف الولايات العثمانية الأخرى ودار السعادة أدى إلى القيام بإرسال وإبلاغ سفارة الدولة العثمانية في لندن بإرسال تلغراف بتاريخ 7 حزيران 1292رومي .

والذي تلقته السفارة هناك ويشمل ويتضمن طلب معلومات حول ما قامت به جريدة (ديلي نيوز) في عددها الصادر بتاريخ 74 يونيو من عام 1292 رومي والذي يتضمن حول هذا الموضوع .

وقد صدرت الأوامر السلطانية العليا بمنع دخول هذه الجريدة إلى أي ولاية من الولايات التي تكون تحت إدارة الدولة العثمانية والقيام بتكذيب ما ورد فيها وإبلاغها إلى السفارة المشار إليها .

ناظر الخارجية

13 ذي القعدة 1309هـ

27 مايو 1308 رومي

YA- 261 / 116
HUS

الباب العالي
نظارة الأمور الخارجية
غرفة الترجمة

الأرمن وإثارة الصحافة

(ترجمة التلغراف رقم (131) الوارد من السفارة السنية للدولة العثمانية في (لندن) بتاريخ 7 حزيران (يونيه) 1892م إلى نظارة الخارجية :

نظراً للتلغراف الذي تم إدراج نسخة منه اليوم حول ما نشرته جريدة (ده يلي نيوز)، فقد ظهرت بعض الاضطرابات والثورات في سناجق صامون وموشى وخاصة بين الأهالي والأرمن الذين يعيشون في الولايات العثمانية .

ولمنع مثل هذه الثورات في المناطق المشار إليها ، فقد تم إرسال جنود إليها .
وبناءً على ذلك فقد التمسنا إرسال تلغراف يطلب المزيد من المعلومات من كل الأطراف حول حقيقة هذه المسألة .

YA – HUS 261 / 116

الباب العالي

نظارة الأمور الخارجية

غرفة الترجمة

ترجمة التلغراف رقم (130) والوارد من السفارة السنية للدولة العثمانية في (لندن) بتاريخ 7 حزيران يونيه 1892م إلى نظارة الخارجية

لقد تم نشر ما أوردته إحدى الأعداد الصادرة في هذا التاريخ من صحيفة (ده يلي نيوز) حول ما يشاع من أن الحكومة العثمانية مستمرة في إجراءات التعسفية والظالمة ضد الأشخاص المنسوبين ضد فرقة الحكومة المشروطة .

وهذا محرر تحت أصول الإدارة التي نالت كل تعجب ودهشة في الولايات السلطانية أو أي دولة أخرى .

مسودة تلغراف إلى نظارة الخارجية **AH- MKT**

اسم كاتب المسودة / بهاء الدين **1836/41**

تاريخ التسويد / 11 مايو 1307رومي

تاريخ التبييض : 17 شوال 1308هـ = 14 مايو 1307 رومي

الوفد العثماني إلى اليابان خلال عهد لسلطان عبد الحميد الثاني

فيما يتعلق بإبلاغ نظارة الخارجية بما أفادت به نظارة المحاسبة والذي يتضمن إصدار الفرمان السلطاني العالي والذي بمقتضاه يتم تكريم ست من الرجال الأفاضل سبقت لهم الخدمة الرسمية بصورة طيبة خلال إقامتهم في طوكيو وياكوهاما ضمن الهيئة الديبلوماسية الرسمية لسفارة الدولة العثمانية المرسلة إلى اليابان .

نظارة الداخلية

إلى الصدارة العظمى

10 جمادى الأولى 1309هـ = 29 كانون الأول 1307رومي

سفينة ارطغرول التي غرقت في طريقها إلى اليابان

خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني

لقد ورد إشعار من نظارة المالية الجليلة مقابل إجراء المعاملة اللازمة والإجراءات المحسوبة في صورة التخصصات الداخلية عن عام 1306 رومي وذلك بمنح مبلغ مائة وتسعة ألف وخمسمائة قرش (109500) قروش تصرف بمقتضى الإرادة السلطانية بواسطة البنك الموجود في اليابان وذلك لعدد ست ضباط وثلاث وستين جندي كهبة وذلك بعد إنقاذهم من السفينة السلطانية (ارطغرل) التي غرقت في (قضاز)

وسوف يتم تسوية هذه المبالغ المشار إليها من موازنة الداخلية وعلاوة على فتح الموازنة وتسويتها فقد تم استئذان نظارة المحاسبة للبدء في تنفيذ ذلك .

إلى نظارة المالية :

بناءاً على التذكرة التي تم تحويلها إلى نظارة المحاسبة بتاريخ 13 أغسطس 1307 رومي فإنه سوف يتم تحديد التاريخ الذي سيتم فيه سداد هذه المبالغ في الفترة التي تزيد فيها الموازنة .

y.EE 9/20

دور الأفغاني مع عبد الحميد الثاني

رسالة جمال الدين الأفغاني

إن قلبي مطمئن لما سوف تقوم به الخلافة العثمانية في حفظ وصيانة حقوق الإسلام التي تتعرض لهجوم الأعداء من كل صوب وجهة .

ويجب أن نقوم بحماية كافة المسلمين الموجودين على وجه الكرة الأرضية الضعفاء من أي تعرض يتعرضون له . وسوف يتم ذلك وبسهولة إذا كان ذلك تحت سيطرة الدولة العثمانية . إن فكري المشغول باستكمال أسباب نشر وتعميم هدفه على أقطار العالم ، أرى من خلال عيوني أن الأمر غير مستحسن على كل الوجوه مما أراه من تلك المعاملة التحقيريه الآن . لأن من أجل سلامة الإسلام ، فإنه يجب أن نتحمل ما نلاقيه من آلام وما يعترضنا من ابتلاء . لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال التعرض من قريب أو بعيد للخلافة العثمانية العظمى .

إننا يجب أن نرى الوجه المنير للخلافة العثمانية ، وقبل أن نعتني بها ، سواء من ناحية المقام السلطاني أو من ناحية مقام الخلافة ، فإنه لابد أن نؤمن بأن تأييد وتصديق وتقديس السلطان والخلافة هو أمر وفريضة دينية بكل تأكيد .

وخلال وجودي في أوروبا ، نشرت ذلك في صحافة (باريس) وروسيا العمومية ، وكتبت أيضاً في جريدة (العروة الوثقى) العديد من المقالات التي تشير إلى ضرورة تقديس الخلافة العثمانية بالقلب والروح . ولكن كان في الوقت نفسه هناك بعض الأشخاص عديمي الذمة وضعيفي النفوس ممن يتعرضون للخلافة بالسوء وملأوا أعينهم بالوساوس والهواجس نحو الخلافة والسلطان والحمد لله فلقد نلت من الشرف والفضيلة المادية والمعنوية الكثير .

ولقد كنت أتمنى أن أثبت حسن صدقي وإخلاصي في هذا الوجود ولكن يا أسفاه لم يكن هذا ميسر لي . بل إن ما قامت به يدي كسيف مسلط ضد أعداء الدولة العثمانية في الداخل والخارج أمثال ذو الفقار حيدر كرار لم يجد قبولاً ولا استحساناً .

ولقد قمت بعرض وتقديم كل ما أستطيع بذله من جهد للخلافة العثمانية وبمقتضى الإرادة السنية ، وكنت مسروراً لدرجة أنني تخيلت أن أبواب الجنة العثمانية قد فتحت لي من أجل توحيد كلمة الإسلام والمسلمين .

وإلى الآن لم تخرج كلمة واحدة تنصفني وتؤيد ما بذلته من مجهود بل خرج علينا أصحاب المصالح الفاسدة بنيران حقدهم ونعاقهم علينا وصوبوها تجاهنا ، أو خرج أصحاب العقول في آخر الزمان بسوء تفسيرهم لما نفعله وليعلم خليفة المسلمين أنني كنت أدافع عن الخليفة والخلافة بكل صدق من روحي وقلبي .

ومن المعلوم أن مسيو غاراجينو لديه من الأحقاد والضغائن الظاهرة والخفية ضد الخلافة والمسلمين وربما أنه يعمل ذلك بتعليمات من الإنجليز الذين يحملون كل كراهية للخليفة والخلافة . وهل هناك شك آخر في سبب قيام الملعون غارجينو بأنكار ما قلته أو أخبرت به ؟!

ولكن تظهر هذه الحقيقة كان لابد من عقد المواجهة معه . ولكي لا يتم ذلك كان لابد من استخدامه لنشر الإشاعات والأكاذيب . ولا يمكن أن أنسب أية أمور مخالفة لخليفة رسول الله والعقل الملهم من الله في أرضه .

وإنني أعلم جيداً أن جبابرة شمر الأشقياء يستخدمون كل الدسائس ضدي لآخر نفس لديهم . وإن الله يعلم كم يتعلق قلبي وروحي من أجل خدمة العالم الإسلامي . وإنه لحرام عليّ أن أبذل وقتي وجهدي من أجل الهذيان . وأنني أستودع الخلافة المقدسة أمانة في يد الله .

الداعي / جمال الدين الأفغاني

Y.EE 71/20

إعلان حرب روسيا دولياً على الدولة العثمانية

اللهم وفق جناب السلطان العالي وسهل أموره في كل الأمور الخيرية والإعمارية وإنه من أجل علو همة الدولة والخلافة ، فقد تقرر توجيه الشكر على صدور الأمر السلطاني في يوم السابع من شهر ذي الحجة الشريفة واليوم الأول من شهر كانون الأول (الخميس) من مجلس العموم بحضور السلطان العثماني بشأن دراسة الأحوال الحاضرة وتجهيز كل ما يلزم من مواد مهمة وبحث كل المسائل .

ولقد تضمن ذلك الأمر السلطان أن الدولة العثمانية مضطرة للدفاع عن نفسها بمجرد قيام دولة روسيا بإعلان الحرب عليها ، ولكي تمضي هذه الأزمة على خير ، فقد تقرر التنبيه على كل الأهالي والمواطنين بالتعامل مع الأزمة بكل مسئولية ووطنية والبعد عن كل خصام وتنافر بينهم ، وليشعر المواطنين بمدى خطورة الموقف لكي يعود على كل ممالك المحروسة بالنفع والخير .

وبمجرد قيام دولة روسية قيامها إعلان الحرب على الدولة العثمانية انتشرت معها الأكاذيب ومنذ فترة طويلة . ولم يكن هناك أدنى شك في أن هناك العديد من الذين استغلوا الأزمة والموقف بشكل عدائي مع الدولة والخلافة ، لدرجة استعدادهم لسفك الدماء .

وكما تسعى الدولة العثمانية وتجتهد في استكمال كل الاستعدادات العسكرية والحربية للجنود السلطانية واستكمال تشكيلاتهم العسكرية ، وبما يمتاز به هؤلاء العساكر من فداء وبطولة للوصول إلى أعلى مستوى حربي ، فإنه أيضاً لابد من تآلف القلوب وارتباطها بعضها ببعض في أفضل صورة من التعاون والصداقة .

لأن كل فرد وشخص يعيش تحت ظل الخلافة العثمانية واثق تمام الثقة في أن الدولة تبحث عن كل ما يجلب الراحة والأمن والأمان وإننا كلنا أمل في أن يعيش الوطن في راحة ومدنية وأمان .

ولابد للحصول على كامل الحرية والسعادة واستغلال الوطن المحترم والمحافظة على ذلك . ولذلك صدرت الأوامر السلطانية العليا للوقوف ضد أية تجاوزات أو تعدي سواء مادي أو معنوي ضد الوطن والأهالي .

ومن بين الأحوال الحاضرة التي تم بحثها ومناقشتها في الاجتماع هو استكمال أسباب الإصلاحات التي تجري بالفعل ، وإزالة كل العوائق عن استكمالها وسوف يتم في المستقبل القريب تلافي كل الأخطاء السابقة .

وإن الاجتماع الذي تم في العام الماضي ، أشرت إلى توجيه الشكر في العريضة المقدمة إلى المجلس ، وإن ما قامت به الخلافة العثمانية لخير دليل عادل وشاهد على تاريخ الأمم السابقة ، وما تفعله هذه الخلافة من أعمار وإصلاح وإعادة الأمن والأمان للأهالي والمواطن ، وأن العالم الإسلامي يسعى على الدوام وعلى العموم بكل اهتمام وجد وجهد لإعادة الحق والعدل والقانون والاعتصام بالشرع الشريف الذي هو مصدر نصرهم وتوفيقهم.

وكما أن الله اصطفى أراضي وجبال وأنهار وسواحل الممالك المحروسة بالدولة العثمانية وحفظها من كل سوء ، وكذلك حفظ أهلها وساكينها وكل التابعين فيها من أي ضرر وسوء ، قادر أيضاً على أن يحفظ الدولة والخلافة من أية أفكار أو سوء نية في كل زمان ومكان ، حتى يتفرع أهلها لكل خطوات الإصلاح والأعمار المدنية واستكمال ثرواتها ، وذلك بإصدار الأوامر السلطانية الموجهة لكل أهالي الممالك المحروسة . لتوجيه طاقاتهم المادية والمعنوية لاستكمال خطوات الإصلاح .

<u>إلى الصدارة العظمى</u>

<u>AH – MKT 1372 / 17</u>

<u>التشكيلات السرية</u>

<u>عهد عبد الحميد الثاني</u>

تاريخ كتابة المسودة = 15 ذي القعدة 1303هـ

الذي قام بإصلاحها : رائق بك

تاريخ التبييض : 15 محرم سنة 1304هـ = 2 تشرين أول 1302هـ

إنه من أجل تحقيق ما يتلائم مع أحوال الروم ايلي الشرقية وبلاد البلغارستان فقد تم الإبلاغ عن ولاية (أدرنه) بضرورة القيام بتخصيص تشكيل من رجال الشرطة السرية والقيام بصرف مبلغ 15000 خمسة عشر ألف قرش راتباً شهرياً ومصروفات الطريق لهذا التشكيل .

وبناءاً على ما سبق اتخاذه من قبل ومعرفة لجنة التفتيش في بلغارستان من تحقيقات ونتائجها التي تعود على بلغارستان وبناءً على ما يستلزم فعله في الولاية المشار إليها ، فقد تم صرف مبلغ 50000 خمسون ألف قرش ضمن الموازنة الداخلية المقرر لهذا العمل . وبمقتضى الإرادة السنية الصادرة ، فقد تقرر ضم مبلغ 10.000 عشرة آلاف قرش للمبلغ السابق لتنفيذ المهام المكلفين فيها .

وفي حالة عدم كفاية المبالغ السابقة ، فإنه يستلزم إبلاغ ذلك للصدارة العظمى لكي يتم إضافة مبالغ أخرى للمبالغ السابقة . وفي حالة عدم كفاية الموازنة المقرر لعام 1301 رومي لهذه الميزانية ، فإنه يتم ترحيل ما يستكمل من أموال من ميزانية 1302 رومي .

إلى ولاية آدرنه

AH- MKT 1380/26

رد على السابقة

تاريخ التسويد : 20 صفر 1303هـ

كاتب المسودة : شوكت أفندي

تاريخ التبييض : 28 صفر 1304هـ = 13 تشرين ثاني 1302 رومي

لقد تم القيام بتشكيل هيئة شرطة سريعة من أجل تحقيق الأمن المناسب وإعادة الأحوال إلى بلغارستان والروم ايلي الشرقية ، ولذلك فقد تقرر صرف مبلغ 15000 قرشاً كراتب شهري للعاملين في هذه الهيئة ، ومصروفات طريق لتنفيذ المهام المكلفين بها . وهذا ما ورد من الولاية المشار إليها وسوف يتم تنفيذ ذلك بمعرفة لجنة تفتيش بلغارستان ، وسوف يتم الصرف عليها من موازنة بلغارستان ، أما الروم ايلي الشرقية فسوف يتم تخصيص مبلغ 50000 قرش كموازنة لها لتنفيذ ما يعهد إليه من مهام . وقد صدرت الأوامر السلطانية لزيادة الميزانية المخصصة لها من 10000 عشرة آلاف قرش لتصل إلى 60000 ستين ألف قرش وذلك حسب أوامر الصدارة العظمى وإن هذه الإرادة السنية متوقفة على رأس مجلس شورى الدولة .

YA – HUS
261 -116

الباب العالي
نظارة الخارجية الجليلة
غرفة الترجمة

عيد ميلاد عبد الحميد الثاني

الإبلاغ عن قيام السفراء وقدومهم إلى المابين الهمايوني بالقصر السلطاني من أجل تقديم التهنئة والتبريك الذي تصادف يومهم غداً مع يوم ولادة السلطان العثماني ، وهذا للعلم .

YA – HUS 261 – 116

عبد الحميد الثاني

لقد طلب المشار إليه القدوم إلى دار السعادة (استانبول) مع معيته ولقد واصلت جريدة (استانبول) في قيامها بالدفاع عن مدحت باشا والتصدي لذلك ، واستمرت أيضاً جريدة (النهار الرسمية) في التعرض به . والآن يجب أن يقوم الباب العالي بالبحث حول الفتن والدسائس المشتعلة في كل من طرابلس وتونس . وأنه لا يمكن السماح بأن يحدث ذلك وغير مقبول من بكوات تونس ، ولقد قاموا بإرسال موظف من طرفهم إلى السلطان العثماني لإظهار صداقتهم نحوه .

ولقد أرسلت إلى طرابلس عدد ثلاثمائة صندوق من الذخيرة وعدة آلاف من البنادق والأسلحة محملة على سفينة (الشام) ولقد تقرر إرسال عدد عشرة آلاف جندي محملين على السفن الحربية العثمانية من أجل التصدي للأفكار الثورية الموجودة في كل من تونس وطرابلس . وسوف يتم من أجل ذلك تعيين هوبار باشا قائداً عاماً على الأسطول العثماني الموجود في (بحر سفيد = الأبيض المتوسط) .

ولقد تصادف غداً يوم الرابع عشر من شهر تموز أن يلتقي هذا اليوم بين عيد الفرنسيين وعيد ميلاد السلطان عبد الحميد الثاني ولذلك فقد كان يوماً مناسباً لسفراء الدول الأجنبية للقدوم إلى القصر السلطاني لتقديم التبريك والتهنئة .

ولقد صدرت الأوامر السلطانية بالتعامل بما فيه الرحمة والإنسانية والشفقة تجاه كل المهتمين . وقد حدث ذلك في المضبطة التي تم تحريرها يوم الأحد الماضي .

وإن الأمر شورى ، ولسوف يؤثر الحكم والإعدام على المتهمين ويترك أثراً بالغاً إلى مالا نهاية . ولقد تم تلاوة الأحكام المعروضة على المجلس والخاصة بالمتهمين ، حيث أن البعض منهم محكوم عليه بالإعدام والبعض الآخر محكوم عليهم بالنفي .

ولقد صرف النظر عن تناول قيام البدو بإعلان عصيانهم على الدولة .

وفيما يتعلق بحالة الجنون التي ارتابت مدحت باشا ، نجد أنه الأساس والأصل في كل ما خرج من إشاعات وحوادث .

ولقد تأثرت كريمة مدحت باشا حزناً بوفاة والده محمود باشا كما كان ذلك له تأثير على أخت مدحت باشا نفسه وبعض من أقاربه وإنه لن يكون هناك إعدام لمدحت باشا ولا لكثير من المتهمين معه وسوف يتم الحصول على ضمان بذلك . ولقد تناولت العديد من الصحافة الرسمية الصادرة في إستانبول المهتمين ، ببعض من التحقير .

ولقد جاء في جريدة (الحوادث) " إن أوروبا سعيدة بالمواد القانونية التي يتناولها قانون بلدنا " ونحن لا نريد أن نكون مادة خبرية يتناولها الغير عن الأتراك هكذا ، لأن القوانين العثمانية في أبهى صورة دستورية لها ، وتتصف بالتمام والكمال .

ولكن تحتاج الدولة العثمانية فقط لتبديل في السلوك والأخلاق فلقد قام المدعو (خرستاكي أفندي) من إحدى الصحف الصادرة بأن قام بوصف ما يحدث بأنه (أخلاق السراي أو القصر) .

167 / 101
YA – HUS

الباب العالي
نظارة الخارجية الجليلة
غرفة الترجمة

ما يتعلق بوفاة السلطان عبد العزيز
صورة التلغراف الوارد بتاريخ 4 حزيران 1281 رومي
إلى مقام نظارة الخارجية الجليلة

أنقل إليكم الرسالة التي قام بإرسالها إلينا رجل يُدعى (قله مانتي قالي بدري) كما يلي:

" أورد إليكم الكثير من المعلومات التي وقفت عليها المتعلقة بنتيجة التحقيقات التي ظهرت وأجريت في دار السعادة (إستانبول) اليوم والمتعلقة بوفاة السلطان عبد العزيز رحمه الله .

وإنني أعلم تماماً الأشخاص الذين قاموا بقتل السلطان المشار إليه وتسببوا في تلك النكبة التي يمر بها وطننا العزيز وقاموا بتخريب وهدم الدولة العثمانية ولابد من عرض الأمر سريعاً على مجلس شورى الدولة حتى يُساق المتهمين إلى العدالة لينالوا عقابهم .

وإن كافة المعلومات التي سوف تحقق العدالة على المتهمين متوافرة لدي ولكن هذه المعلومات المذكورة قد أبلغها لي أشخاص وقد أوردتها وأبلغتها لدار السعادة ، وسوف يتم التنسيق في هذا العمل هنا مع سفراء الدولة الأجنبية في إستانبول . وسوف يتم القيام بتعيين بعض الموظفين من قبل حكومة اليونان ، وسوف يتم تشكيل لجنة وهيئة مختلطة وسوف يكونون منهم ، ومع أنني رفضت أن أكون أحد أعضاء هذه اللجنة إلا أنني مضطر لأن أقوم بمراجعة ما تتداوله الصحف اليومية من أجل نشر الحقيقة على الشعب والأهالي "

ولقد أرّخ هذا المكتوب أو هذه الرسالة في الثالث من شهر حزيران وكان التوقيع باسم (قله ماني قالي بدري) وسوف أدوام على البحث والتحري حول هذا الموضوع .

ولو تم إحضار المشار إليه إلى السفارة ، فإنه سوف يخرج على الناس لإعلان كل الحقائق . وعلى أية حال فيما يتعلق بهذا الموضوع فإنني انتظر الأوامر العليا من النظارة (الخارجية) الجليلة .

HR – TO 122 / 57

ترجمة التلغراف الوارد من سفارة الدولة العثمانية إلى مقام نظارة الخارجية الجليلة بتاريخ 10حزيران 1279 رومي .

فيما يتعلق بالتحريرات السامية التي تم التفضل بإرسالها إلى الهيئة العليا في الدولة العثمانية والتي وردت لي مع الأحداث التي صاحبت (بارون هوفمان) فلقد أرسلت التعليمات المفصلة الخاصة بهذا الموضوع والتي تتعلق بقيام المرحوم السلطان عبد العزيز خان ببعض الإصلاحات في عهده ، كما أنه أعتمد لائحة الإصلاحات التي قبلت في عهد السلطان مراد خان وإنه لابد بالالتزام بالمواد التي أضيفت عليها والعمل بتنفيذها .
ولقد قمت بعرض تلك المعلومات عليكم كما وردت إلينا .
كما أنه تأكدت من مصادر موثوقة لدينا ، بأنه سوف يتم إرسال الذخيرة والأسلحة اللازمة من أجل التصدي للأشقياء في الدولة وامتثالكم لأوامركم ، وأنهم لن يستطيعوا الوقوف هذه المرة أمام العساكر السلطانية .

A.MET . MHW 86 / 36

(إلى والي مصر)

القانون الأساسي في عهد السلطان محمود الثاني

لقد قام السلطان العثماني بتشكيل المجلس العالي كنوع من التجديد في عهد الدولة من أجل التجديد المستمر في الأسس التنظيمية في الأنظمة والقوانين العثمانية التي تقتضي التحكيم والإصلاح مع التنظيم والترتيب للأحكام الموجودة حالياً في القانون وخاصة فيما يتعلق بالمعاملات الأساسية للأقوام والرعايا في الدولة وإن تبنى قاعدة أساسية للأمور الإدارية المدنية الأساسية .

ولقد عُرض الأمر على المجالس العالي العمومي للبحث في الأمر ومناقشته خلال جلساته طبقاً لأصول النظم والقوانين ، وطبقاً لدستور العمل في الدولة .

وقد تم طباعة نسخ متعددة من هذه التعديلات القانونية حسب الأوامر السلطانية الصادرة في هذا الشأن ، وسوف يتم نشرها وإعلانها وبمجرد اليوم الذي سيتم فيه الإعلان عن النظام الجديد فسوف يتم إرسال مائة نسخة منه إليكم .

وعلى كل حال فإن الأمر والرمان لمن بيده الأمر

16 رجب / 1331هـ

HH.UMUN 124 /195

وثائق عن التحديث في الموسيقى العثمانية

خلال عهد السلطان محمود الثاني

الباب العالي

نظارة الداخلية

مديرية الإدارة العمومية الداخلية

حضرة سلطاننا العظيم

فيما يتعلق بالموافقة على المارش (الموسيقى العسكرية) العثمانية وبصورة دائمة والذي كان مشهوراً به من الغرفة الموسيقية العثمانية التي تم الموافقة عليها لأول مرة خلال أحداث النظام العسكري الجديد الذي قام به المرحوم السلطان محمود الثاني ، فقد صدرت الأوامر السلطانية والتذكرة السامية بأن يكون هذا المارش (الموسيقى العسكرية) هو المارش المعتمد لدى الدولة العثمانية والعمل به .

وليتم تعميم هذا الأمر والبدء في تنفيذه على الفور

ذي القعدة 1336هـــ باسم ناظر الداخلية

أغسطس 1334 رومي المستشار

وليتم تقديمه إلى المديرية العليا للأمور المحلية / في الولايات العثمانية

BOA , / HAT
24/2157

إصلاحات سليم الثالث :

صاحب الدولة والسعادة حضرة أفندينا معروض عليكم ما يلي :

بعد الحمد والثناء والدعاء بدوام الدولة والسلطان ، ومن أجل إعادة الأمن والانضباط للدولة في كل ولاية من ولاياتها ، وطلباً للاستقرار الإداري فيها ، فقد صدرت الأوامر العليا والفرمانات السلطانية من أجل استكمال أسباب النظام والانتظام في الدولة .

وقد تعاهد الرعية على عدم الخروج عن طاعة السلطان والدولة ، لأن ذلك مخالف للدين وخروج عن العقيدة ، وأن الجميع لديه استعداد لبذل الروح والجسد من أجل إعادة هيبة الدولة واستقرارها .

ولكن معلوماً أنه تم استدعاء والي سلسترة محمد باشا الذي توجه إلى استانبول ليقدم طاعته للدولة العثمانية والسلطان .

وعلى كل حال فإن الأمر لوي النعم سلطاننا

3 جمادى الآخرة 1221هـ

مصطفى

HAT. 1197 / 470324

علاقات الصداقة بين الدولة العثمانية وإنجلترا – تعيين السفراء

خلاصة ترجمة العريضة الواردة إلينا بتاريخ 15 شهر كانون الثاني من طرف خادمنا بانقة ماوروباني

حضرة سلطاننا ، إنه بعد رؤيتنا لرئيس وكلاء دولة إنجلترا ومما يتصف به من رزانة عقل وحزم واستقامة ، فقد وعدنا بأنه سوف يشارك في جهود الدولة الإصلاحية والتنظيمية ، وأنه لن يكون مثل أسلافه من الوكلاء السابقين عديمي الذمة والانحراف وسوف يقوم برعاية روح القوانين العثمانية الأساسية في البلاد ، وأنه مبدئياً موافق على كل خطوات الدولة في التعديلات القانونية والنظم الأساسية التي تقوم بها الدولة ، وأنه موافق أيضاً على فكرة انضمامه إلى عضوية مجلس المبعوثان ، وأن تلك المسألة التي كانت الدولة تعاني منها خلال تعاملها مع الوكلاء السابقين والحاليين سوف يتضح ذلك خلال انعقاد المجلس في الثامن من شهر فبراير القادم ، وسوف تأتي خطوات الإصلاح من خلال التعامل مع هؤلاء الوكلاء ومما سيترتب على معايشتهم للأمور والقضايا التي تهم الأمور الداخلية والخارجية في البلاد .

ومن الأمور التي يمكن بحثها هو الحفاظ على العلاقات الدولية مع دولة النمسا وانجلترا كعلاقة دولية متوازنة لما بين البلدين من تقارب جغرافي وسوف تكون النتيجة في العلاقات الدولية بينهما طيبة حسب الهدف والغرض والمصالح المشتركة بيننا وبينهما . حيث كان هناك تأثير على جانب النمسا حينما قررتا انجلترا من خلال الحدود المشتركة بالتصدي عليها ولذلك فإنه سوف يتم تلافي ذلك مقرراً فيما بعد وإزالة آثار هذا التعدي .

بعد اللقاء مع السفراء في لندن ، ومن ناحية أخرى فسوف يكون هناك تفهم للحالة الاقتصادية التي تمر بها بلاد النمسا ، والسعي وراء تخفيض القروض المالية عليها ، ومحاولة أيضاً تخصيص التجهيزات العسكرية كتخفيض عدد الجنود لديها .

والآن فإن العلاقات العثمانية الروسية وكذلك مع إنجلترا ، تعد من أهم العلاقات السياسية التي تحرص الدولة العثمانية على ربط أواصرها بالصداقة الدائمة ، وسوف يتم

تعيين سفير لدى الدولة في باريس ولندن على أعلى مستوى من الخبرة والدراية السياسية والدولية .

فمنذ أربعين سنة تقريباً وخلال عهد بونابرت قامت السفن الحربية الفرنسية بالاعتداء على سفن التجار التابعين للولايات المتحدة الأمريكية ، مما أوقع عليهم خسارة وضرراً كبيراً وقد تم إعادة مراكب وسفن التجار الأمريكان مرة أخرى ، وقد تعهدت جمهورية فرنسا بأداء مبلغ 2000 كيسة من العملة الفرنسية لهؤلاء التجار تعويضاً على هذه الخسارة التي لحقت بهم.

A 1209/47373HAT -

بروسيا ودورها في تدريب العساكر المنصورة

خلاصة ترجمة التحريرات التي قام بتقديمها سفير بروسيا

إنه سوف يتم إجراء الإصلاحات اللازمة في العساكر السلطانية المنتظمة فلقد كان من الصواب السعي نحو إلغاء فرقة الإنكشارية التي سعت فساداً وكراهية إلى يوم الساعة . ولكي يتم استكمال نظام الجنود المنتظمة ، فإنه قد تقرر جلب ضباط من بروسيا كمعلمين لهؤلاء الجنود السلطانية حيث أنهم على دراية بكل جديد في التعليم العسكري والتدريب على الأسلحة الحديثة ، مما سيجلب المنفعة للدولة ، حيث أن تجديد العساكر المنتظمة لم يكن من عهد بعيد ، ولذلك فسوف يتم التجديد لكل أسلحة الجيش سواء الضباط أو الجنود أو المدفعية أو الفرسان والمشاة أيضاً ، وبهذا الأسلوب استطاع إمبراطور روسيا (بترو) التغلب على ملك أسوج الملك شارل الثاني عشر ، وهذا ما نأمل من حدوثه من نتائج طيبة ومتوقعة في تدريب هذه الطائفة من الجنود . لأنه من المعلوم أن العساكر السلطانية يمكن أن تكون من عدة ملل وطوائف مختلفة . فمنها الروم والأرمن واليهود ، ونحن في احتياج للشباب من هؤلاء والذين سيصلون بنا إلى نتائج طيبة وأن مناقشة مثل هذا الأمر مع وكلاء الدولة العثمانية لمنتهى العقل ولابد من تطوير الجنود وضباطهم في أسلحة الجيش المختلفة سواء في المدفعية أو المشاة أو الفرسان لأن ذلك سوف يساعد على الاستقرار العسكري للدولة في الممالك العثمانية المختلفة . ولابد من استكمال الإنشاءات الخفيفة وإنشاء معسكرات بجانب القلاع في منطقة الروم ايلي ، وخاصة لجنود المشاة من الجنود السلطانية ، وسوف يرأس تدريب هؤلاء الضباط موظف أجنبي على دراية وخبرة عسكرية كافية وليتم نشر هذه الأوامر العسكرية .

HAT – 6412787

تتناول الوثيقة بعض أمور الفساد وأصحابه في ولاية (أدرنه) بتركيا بتاريخ 2 جمادى الأولى 1221هـ ، وذلك بعد إلغاء محاولة إصلاح فرقة الإنكشارية وتحديث الجيش بالنظام العسكري الجديد والمحاولات المبذولة التي تم التصدي لها في مناطق أدرنه والروم أيلي .

YEE 36 / 119

رفض مسألة إلغاء الإنكشارية

فيما يتعلق بتناول لائحة النظام الجديد الخاصة بالمشار إليه السلطان سليم خان ، فلقد صدرت الأوامر لكل من الحاج إبراهيم أفندي أمين الترسانة وإبراهيم نسيم أفندي تتخذ الدولة بالبحث حول هذا الموضوع . ولقد أشار إبراهيم أفندي بأن مسألة إلغاء فرقة الإنكشارية واستبدالها بالنظام العسكري الجديد هو أمر غير مقبول ويجب البحث حوله ومناقشته ، لأنه منذ أربعمائة سنة تقريباً من الآن فقد ارتبطت فرقة الإنكشارية بالدول والأمم الإسلامية ارتباطاً وثيقاً ، مما كان له لفت نظر لدى الدول الأوروبية ، وكان له الأثر الكبير في ارتباط تلك الممالك الإسلامية .

وأن مسألة إلغاء فرقة الإنكشارية واستبدالها بالنظام الجديد ، سوف يلاقي العديد من المشاكل التي ستعوق الأمر ، منها مثلاً على سبيل المثال تعداد السكان في الممالك العثمانية والذي يعاني من نقص شديد في هذا النظام وإثبات العديد من المجهولين فيه ، ولكن من خلال العمل بالنظام الجديد وتحرير تعداد السكان في الدولة ، سوف يكشف لنا تعداد سكان المسلمين من الدول الأجنبية بالرغم من قلة عددهم ولكن فإنه في النهاية فإن القيام بإلغاء ومحو فرقة الإنكشارية يُعد من الأمور غير العقلانية التي تم التصديق عليها .

ومن المعلوم أن الفرقة المشار إليها وبعد حادثة التجسس المعروفة في التاريخ كان العقاب عليهم شديداً أسوأ من ناحية الهجوم على معسكراتهم وإحراقها بالنيران ومحاولة إبادتهم وهو من الأمور غير الإنسانية التي تم التعامل بها مع الموضوع والمسألة .

1417 C.HR

موقف الدولة العثمانية من تعدي

فرنسا على مصر وموقف الإنجليز من ذلك

أواخر شهر صفر 1213هـ

إلى شريف مكة المكرمة الشريف غالب بن مساعد

من المعلوم أن بين الدولة العثمانية وإنجلترا أواصر صداقة وود ، وعلى العكس من ذلك فإن ما بين الدولة العثمانية وفرنسا العديد من العداوة والخصومة . حيث قام الفرنسيون بالهجوم على (مصر) بغتة عن طريق الإسكندرية ، ومنها تمكنوا من الوصول إلى القاهرة معلنة الحرب على الدولة العثمانية ، وسوء نيتها تجاه الباب العالي والدولة العلية .

ولذلك فقد صدرت الأوامر بإرسال أسطول حربي وعسكري عثماني إلى هناك ، والبدء في تجهيزه على الفور ، وقد أخطرتنا وأبلغتنا دولة إنجلترا بأن أسطولها العسكري والحربي جاهز لتقديم المساعدة لطرد الفرنسيين من مصر ، وسوف يتقدم الأسطول التابع لدولة إنجلترا نحو البحر الأبيض المتوسط ، وسوف يأتي إلى سواحل الجزيرة ولذلك فقد صدرت الأوامر بتجهيز كل المستلزمات العسكرية والاستعداد بالذخيرة وغيرها ، وتدبير الأموال اللازمة لتنفيذ تلك الاستعدادات ولابد من القيام بحماية وصيانة الجزر والسواحل العثمانية .

وللعلم ، فإن الأسطول البحري العسكري التابع لإنجلترا ، يتكون من ثلاث قطع بحرية كبيرة ، وسوف ترسو تلك السفن في ميناء السويس حسب الظروف ، وسوف تأتي أيضاً إلى نواحي موانئ جدة ، ولذلك فقد صدرت الأوامر السلطانية العالية بأن يتم تقديم كل المعونة لهذه السفن والأسطول التابع لإنجلترا ، ومعاملتها بكل صداقة وود ، والتصريح لها باستكمال كل التجهيزات الحربية وغيرها في تلك الموانئ سواء من الناحية المالية أو الناحية المادية والإمدادات المختلفة وتوفير الميزانية المالية المناسبة لذلك . ولقد صدرت مثل هذه الأوامر الشريفة لكل من والي جدة الأسبق ومحافظ المدينة المنورة الحالي الحاج الوزير يوسف باشا وأرسلت له الفرمانات الصادرة مكتوبة .

وهذا للعلم

236 C.HR

احتلال الإنجليز لمصر في بداية القرن 19 وبعد خروج الفرنسيين من مصر عام 1215هـ

صاحب العزة الدفتر دار :

في تلك الأثناء قامت دولة إنجلترا بحركات عدائية ضد الدولة العثمانية حيث قامت بالتوجه نحو السواحل المصرية للتعدي عليها واحتلالها ولذلك فقد صدرت الأوامر العالية والفرمان السلطاني بأن يتم تجهيز الأسطول الحربي العثماني محملاً بالجنود من جزيرة (رودس) ويصاحبهم بعض العاملين من الجنود لا يقل عددهم عن 300 جندي وتوفير الميزانية المالية لذلك .

18 رجب 1215هـ

ىأَت انًصبدس
وانًشاخع

ثبج المصادر والمراجع

أو.:الوثائق :

1) وثائق غير منشورة :

أ) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول .

1) تصنيف BoA ، دفاتر مهمة . الدفتر رقم 70 ، الحكم السلطاني رقم 416 – الدفتر رقم 72 ، الحكم السلطاني رقم 264 ، 903 .

2) تصنيف دفاتر الطابور " سجلات الأراضي " ، " بوزاق " المؤرخ في 1556م .

3) دفاتر الطوائف غير المسلمة في أرشيف الدولة الدولة العثمانية، دفتر 26،25.

4) وثيقة رقم 48261 / 141 AAT 1210هـ Tarih

5) وثيقة رقم 17 / 1372 AH – MKT

6) وثيقة رقم 1380/26 AH – MKT

7) وثيقة رقم 41/ 1836 AH – mkt

8) وثيقة رقم 86/36 A.met mhw

9) وثيقة رقم 98 / 317 A.MKT mta بتاريخ 1276/2/26هـ .

10) وثيقة رقم 10/62 BOA / Duit

11) وثيقة رقم 2157 / 24 BoA , / HAT

12) وثيقة رقم 42713 C-A-S

13) وثيقة رقم 236 C. HR

14) وثيقة رقم 1417 C.HR

15) وثيقة رقم 2787 / 64 HAT

16) وثيقة رقم D – 21862 / 0426 HAT

17) وثيقة رقم 28938 / 589 HAT

18) وثيقة رقم D 40958 / 954 HAT

19) وثيقة رقم L 43944 / 1076 HAT

20) وثيقة رقم A 46746 / 1185 HAT

21) وثيقة رقم 470324 / 1197 HAT

22) وثيقة رقم HAT 1209 / 47374 A

23) وثيقة رقم 8265 خط همايوني . H.H.

24) وثيقة رقم 1095 خط همايوني H.H

25) وثيقة رقم 165 / 124 H.H umun

26) وثيقة رقم 122/57 HR – To

27) وثيقة رقم 67 / 525 HR – TO

28) وثيقة رقم 71/20 Y.E.E

29) وثيقة رقم 9/20 Y. EE

30) وثيقة رقم Y. EE71/20

31) وثيقة رقم 35 / 204 Y.mtv

32) وثيقة رقم Y.PRK. EEA 15/26

33) وثيقة رقم YA – Hus 167 / 101

34) وثيقة رقم 261/116 YA - Hus

35) وثيقة رقم 36/119 YEE

ب) أرشيف طوب قابي سراي :

1) وثيقة رسالة جان بردي الغزالي إلى الشاه إسماعيل الصفوي. 5469 .

2) وثيقة رسالة جان بردي الغزالي إلى خاير بك .

2) وثائق منشورة :

1- A.G.e No : 8748 . Tarihli , 1213 . 1217 H .

2- A.G.e . No : 1766377 , Tarihli , IB 1265 H .

3- BoA . " TR.DH. Tasnifi " No : 11063 , T. 27 Ga . 7265 H .

4- BoA .Cavdet Tasnifi , Hariciye , No : 9111 , Tarinli , Ca . 1157 H.

5- BoA " DHSYS . Tasnifi " , No 1/31 Tarinli , 71 1328 H .

6- BoA." Cavdet Tansifi , Dahiliyel , No : 6599 , Tarihti , 24Z. 1236 H .

7- BoA. " DH . mui . Tasnifi " , No : 911129 T . 16 Ga 1330 H.

8- BoA . " DH . SYS . Tasnifi " No : 2127 , Tarihli , 19 m . 1332 H.

9- BoA . " Ir . DH. Tasnifi " No : 71063 Tarihli , 27 ca 1265H.

10- BoA . " DH . ID . Tasnifi " No : 421116 " Tarihti , 24 c .

11- Boa " IR.DH . tasnifi " No : 1106317 HB . 7265 H .

12- Boa " Y.DRK Azi . Tasnifi " No : 53 / 51 , T.7.Z. 1323 H .

13- BoA " YPPIK . EsA . Tasnifi " No : 45 / 14 , 1 . 26m 1309H.

ثانياً : المخطوطات :

أ) المخطوطات العربية :

1) علي إبراهيم البويتجي الشافعي : سلوك سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد يشتمل على تاريخ سلاطين آل عثمان ، محفوظة في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، تحت رقم 67 تاريخ.

2) مؤلف مجهول : الأتراك العثمانيين .

ب) المخطوطات العثمانية :

1- Abdülgaffar Kırımi , Umdetü"l – Ahbar , Süleymaniye Kütp. Esat Efendi , Nr. 2331
2- Bostan Çelebi , Gazavat - ı Sultan Süleyman Han , Süleymaniye Kütp. Ayasofya , Nr. 3317
3- Celalzade Mustafa Çelebi , Selimname , TSK , Revan Kütp. Nr. 1274
4- Cenabi , El – Eylemu'z – Zahir Nuruosmaniye kütp. Nr. 3102/11
5- Cerkesler Katibi Yusuf , Tarih – i Sultan Selim Han , Süleymaniye Kütp. Esad Ef. Nr. 2146
6- Cizyedarzade , Tarih , Sülemaniye Kütp. Esad Ef. Nr. 2403
7- Hadîdî , Tevârih – i Âl – i Osman , Süleymaniye Kütp. Esad Efendi , Nr. 2081
8- İbn Kemal , Tarih – i Feth – i Kostantiniyye , Süleymaniye Kütp . Şehid Ali Paşa , Nr . 2720 / 14
9- İdris – i bitlisi , Heşt Behişt , Topkapı Sarayı , Bağdat Kütp. Nr. 196
10- Karamanlı Nişancı Mehmet Paşa ,Tevârihü"s – Selâtîni"l – Oamaniye ,Süleymaniye Kütp. Ayasofya , Nr. 3204
11- Keşfi , Selimname , Süleymaniye Kütp. Esad Ef. Nr. 2146
12- Nişancı Hamza , Takdim-i Zikr - i Ensâb ve Tefhim-i İntisâb , Süleymaniye Kütp. Esad Efendi , Nr. 2362
13- Osmanzâde ahmed Tâib , Hadikatü"l – Mülûk , Bayezid Kütp. Veliyüddin Efendi , Nr. 1414 / 1
14- Sarı abdullah Efendi , Münşeat , Süleymaniye Kütp. Nr. 3333
15- Şükrullah , Behcetü"t – Tevaârih , Nuruosmaniye Kütp. Nr. 3059
16- Vasif , Vasıf Tarih , I.U.Kütp . Ty 5980

ثالثاً : المصادر :

أ) المصادر العربية :

١) القرآن الكريم .
٢) إبراهيم حليم : التحفة الحليمية ، ط 1 ، مؤسسة الكتب الثقافية ، 1408هـ/1988م .
٣) ابن أبي شيبة : مصنف ابن أبي شيبة ، د.ط ، د.م ، د .ت ، ج13.
٤) أحمد فارس الشدياق : ذيل الفارياق ، ط1 ، د. م ، د.ت .
٥) أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، د.ط ،د. م ، د. ت ، ج4 .
٦) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، مراجعة : حسن الزين ، د.ط، لبنان : دار الفكر الحديث ، 1408هـ / 1988م .
٧) ــــــــــــ : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج 1 ، د. ط، القاهرة، 1946م .
٨) شكيب أرسلان : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق : حسن السماحي ، ط 1 ، دمشق : دار ابن كثير ، 2001م / 1422هـ .
٩) صحيح مسلم – باب من سن سنة حسنة أو سيئة ، ج13 .
١٠) صحيح مسلم من حديث إبن مبارك : كتاب شعب الإيمان ، الباب 26 ، باب الجهاد ، ج6 .
١١) الطبراني : المعجم الكبير ، د. م ، د . ت ، ج2.
١٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون ، تحقيق : أ .م كاترمير، ج1 ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مجلد 2 ، بيروت : مكتبة لبنان ، عن طبعة باريس 1858م ، د. ت .
١٣) الكاساني الحنفي : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ج 7 ، ط1 ، بيروت: دار الكتاب العربي ، 1402هـ .
١٤) محمد بن أحمد بن أياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق: محمد مصطفى ، ج2 ، د. ط ، مصر : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، د.ت.
١٥) محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، ط1 ، لبنان : دار القرآن الكريم، 1401هـ / 1981م .

١٦) محمد فريد المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي، ط7 ، لبنان : دار النفائس ، 1414هـ / 1993م .
١٧) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ط3 ، مصر ، 1968م .
١٨) محمد مختار : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية ، تحقيق : محمد عمارة ، ط 1 ، الدار العلمية للدراسات ، 1400هـ / 1980م .
١٩) الموفق إبن قدامه : المغني ، ج1 ، د. ط ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت .

ب) المصادر العثمانية :

١) أبو الفاروق : تاريخ أبو الفاروق – تاريخ عثمانيده ، د 5 ، ج1 ، ط1 ، إستانبول : مطبعة أموي ، 1329هـ .
٢) أحمد رفيق : بيوك تاريخ عمومي ، د. ط ، إستانبول ، د. ت .
٣) عبد الرحمن شرف : تاريخ دولت عثمانية ، ج 1 ، ط1 ، إستانبول : معارف نظارات جليلة سنك ، مطبعة سي ، 1309 م .
٤) كاتب جلبي : تحفة الكبار في أسفار البحار ، إستانبول ، 1329هـ .
٥) كامل باشا : التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية منذ تأسيسها وحتى الفترة الأخيرة للسلطان عبد الحميد ، ج1 ، د. ط ، إستانبول: مطبعة إحسان ، 1324هـ .

ج – المصادر المترجمة :

١) أحمد جودت : تاريخ جودت ، تحقيق : عبد اللطيف محمد الحميد ، ط 1 ، لبنان: مؤسسة الرسالة ، 1420هـ / 1999م .
٢) يلمازا وزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود سليمان ، مراجعة : محمود الأنصاري ، د. ط ، إستانبول : منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، 1988م .

د) المصادر التركية المطبوعة قبل سنة 1900م

1- Abdurrahman Şeref , Tarih – i Devlet – i Osmaniyye , I – II, İstanbul 1309 – 1312
2- Abdurrahman Şeref , Sultan Abdülhamid – i Sani‘‘ye dair , İstanbul 1918

3- Ahmed Cevdet Paşa , Tarih – i Cevdet , İstanbul 1309
4- Ahmed Vasıf , Mehasinü‛‛l – Asar ve Hakayıku‛l - Ahbar , İstanbul 1219
5- Ali Rıza Paşa , Miratü‛l – Cezayir , terceme : Ali şevki , İstanbul 1293
6- Asie Pendant Les Annes , 1803 – 1807 , Paris, 1814 Tome , I .
7- Cevdet Paşa , Tarih , Tertib – i Cedid , I, İstanbul 1309
8- D ' Ohsson : Tablean general de I'Empire ottoman . Paris , 1824 , vol . VII .
9- Feridun Ahmed Bey , Münşeatü‛‛s - Selatin , I – II, Dersaadet 1264 – 1265
10- Ferik Mehmed Mesud Paşa , Mecmua – i Muahedat , I - IV, İstanbul 1294 – 1307
11- Halil Edhem , Meskukat – ı Osmaniye , İstanbul 1297
12- Hatt – i Humayun – u Serif ve Kanun – i Esasi , Istanbul 1297
13- Hayrullah Efendi ,Tarih - i Osmani , 1 – XVIII, İstanbul 1273 – 1292
14- Hoca Sa‛‛deddin Efendi , Tacü‛‛t -Tevarih , I – II, İstanbul 1280
15- İbrahim Peçevi , PeçeviTarih , İstanbul 1281
16- Imam Ahmed b . Hanbel , Musned , Kahire 1313
17- İsmail Galib , Takvim – i Meskukat – ı Osmaniye , İstanbul 1297
18- Katip Çelebi , Fezleke – i Tarih – i Osmani , I - II, İstanbul 1286 – 1287
19- Katip Çelebi , Takvimü‛‛t – Tevarih , İstanbul 1146
20- Katip Çelebi , Kitab – ı Cihannuma , Kostantiniyye 1145
21- Latifi , Tezkire , İstanbul 1314
22- Mustafa Naima , Naima Tarihi , İstanbul 1147
23- Mustafa Necib Efendi , Sultan Selim – i Salis asrı vekayi‛‛ine bir tarih , İstanbul 1280
24- Mahmud Es'ad Ibn Emin Seydisehri , Asar ve muberrat – i hilafetpenahi , Izmir 1311
25- Mecdi Efendi , Şakayık Tercümesi , İstanbul 1269
26- Mehmed Süreyya , Sicil – i Osmani , I - IV, İstanbul 1308 – 1311
27- Mehmed Şükrü , Esfar – ı Bahriye – i Osmaniye , İstanbul 1306
28- Nişancızade Mehmed Ramazan , Mir‛‛at – ı Kinat , İstanbul 1290
29- Solakzade Mehmed Hemdemi Çelebi , Solakzade Tarihi , İstanbul 1298
30- Şanizade Ataullah Efendi , Tarih – i Şanizade , İstanbul 1291

رابعاً : المراجع :

أ) المراجع العربية :

١) إبراهيم بدوي البيلاني : فن الترجمة وعلوم العربية ، د. ط ، القاهرة ، 1973م.

٢) أبو الحسن علي الحسين الندوي : الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ، د. ط ، مؤسسة الرسالة ، د.ت .

٣) أحمد صدقي شقيرات : تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام ، في العهد العثماني، ج1 ، الأردن ، 1423هـ / 2002م .

٤) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ج 2، ط ، بيروت : دار صادر ، 1417هـ .

٥) أحمد سعيد نونو : الأكلة حول القصعة ، ط1 ، مصر : الروضة الثقافية ، 1420هـ / 1999م .

٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ط 2 ، مصر: دار الشروق ، 1413هـ / 1993م .

٧) أحمد عبد الله الزغيبي : العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها ، ط1 ، الرياض : مكتبة العبيكان ، 1418هـ / 1998م ، ج3 .

٨) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث، د. ط، بيروت، 1970م .

٩) أحمد فهمي بهنسي : الحدود في الإسلام ، ط1 ، القاهرة ، د. ت .

١٠) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، ط 2 ، بيروت : مؤسسة الرسالة، 1418هـ / 1998م .

١١) إسماعيل علي محمد : مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام رد على كتاب محمد واليهود ، ط1 ، مصر : دار النيل ، 1427هـ/2000م.

١٢) إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط 2 ، الرياض : العبيكان ، 1419هـ / 1998م .

١٣) أماني جعفر الغازي : دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، ط 1 ، القاهرة: دار القاهرة ، 2007م .

١٤) أميرة علي مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، ط1 ، الطائف: دار الحارثي ، 1419هـ / 1998م .

١٥) أنور الجندي : أصالة الفكر العربي الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي ، ط 3 ، القاهرة : دار الصحوة ، 1413هـ / 1993م .

١٦) ـــــــــــ: سموم الاستشراق والمستشرقين ، ط 2 ، بيروت ، دار الجيل، 1405هـ / 1985م .

١٧) ـــــــــــ: كيف يحطم المسلمون قيد التبعية والحصار ، ط 1 ، لبنان : مؤسسة الكتب الثقافية ، 1405هـ / 1985م .

١٨) أورخان محمد علي : روائع من التاريخ العثماني ، ط 1 ، القاهرة : دار الصحوة، 1417هـ / 1996م .

١٩) بسام العسلي : فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ، د. ط ، دار الفكر، د.ت، ج5 .

٢٠) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي – دراسة لتاريخ الإمارات العربية – 1840م– 1914م ، القاهرة : جامعة عين شمس ، 1966م .

٢١) جمال سلطان : الغارة على التراث ، ط1 ، مكتبة السنة ، 1410هـ/1990م .

٢٢) جميل عبدالله المصري : حاضر العالم الإسلامي ، ط 8 ، جدة : العبيكان ، 1423هـ/ 2002م .

٢٣) حسين مؤنس : الجارية روكسلانه تتزوج السلطان الفاتح ، د. ط ، القاهرة: دار مطابع المستقبل ، د. ت .

٢٤) حلمي أحمد شلبي : الأقليات العرقية في مصر في ق 19م ، ط1 ، القاهرة، 1993م .

٢٥) خلف خضر الوذيناني : الدولة العثمانية والغزو الفكري ، ط 1 ، مكة المكرمة ، 1417هـ / 1996م .

٢٦) رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، د. ط ، القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، 1991م .

٢٧) ربيع عبد الرؤوف الزواوي : الدولة التي ظلمها التاريخ ، ط 1 ، القاهرة: دار الثقافة ، 1425هـ / 2004م .

٢٨) رفيق شاكر النتشة : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ط 1 ، بيروت، د. ت.

٢٩) رفيق شاكر النتشه : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، ط1 ، د.م ، د.ت .

٣٠) ريزقان : الحج قبل مائة عام ، الرحلة السرية للضباط الروس عبد العزيز دولتشين إلى مكة المكرمة 1898- 1899م ، ط2 ، بيروت : دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، 1414هـ / 1993م .
٣١) زكريا سليمان بيومي : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ط1 ، جدة : عالم المعرفة ، 1411هـ / 1991م .
٣٢) زياد أبو غنيمة : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، ط 1 ، إربد : دار الفرقان، 1403هـ / 1983م .
٣٣) ــــــــــــ: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، ط 2 ، إربد : دار الفرقان، 1406هـ / 1986م .
٣٤) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط 2 ، بيروت : دار العلم للملايين ، 1960م .
٣٥) سالم الرشيدي : محمد الفاتح ، ط1 ، مصر : دار البشير ، 1420هـ/2000م.
٣٦) سعيد عبد الحكيم زيد : واقع العالم الإسلامي بين تغريب التعليم وكشف تخريب المتآمرين ، ط1 ، مصر : مكتبة وهبه 1418هـ / 1998م .
٣٧) سيد محمد السيد محمود : إنهيار الدولة العثمانية " الأسباب " ، ط 1، القاهرة: مكتبة الآداب ، 2003م .
٣٨) شفيق شحاته : تاريخ حركة التجديد في النظم القانونية في مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ط1 ، القاهرة ، 1961م .
٣٩) شوقي أبو خليل : أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين ، ط 2 ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ، 1999م .
٤٠) صبحي عبد المنعم ، عبد الحميد سليمان : دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ، ط1 ، الرياض : الرشد ناشرون ، 1425هـ/2004م .
٤١) الصفصافي أحمد المرسي : إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة ، ط 1، دار الآفاق العربية ، 1419هـ / 1999م .
٤٢) عبد الجليل شلبي : الإسلام والمستشرقون ، د. ط ، مصر : مطبوعات الشعب ، د. ت .
٤٣) ــــــــــــ : صور استشراقية ، ط 2 ، القاهرة : دار الشرق ، 1406هـ / 1986م .

٤٤) عبد الحميد صالح حمدان : طبقات المستشرقين ، د. ط ، مصر : مكتبة مدبولي ، د. ت .
٤٥) عبد الرحمن حنبكه الميداني : أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها – التبشير ، الاستشراق ، الاستعمار ، ط6 ، دمشق : دار القلم ، 1410هـ/1990م.
٤٦) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، د. ط، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، 1980م .
٤٧) عبد العزيز العمري : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ط 1 ، دار إشبيليا، 1418هـ / 1979م .
٤٨) عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، ط 1 ، القاهرة : دار الفكر العربي ، 1419هـ / 1998م.
٤٩) عبد العظيم الديب : المستشرقون والتراث ، ط2 ، مصر : دار الوفاء للطباعة والنشر ، 1408هـ / 1988م .
٥٠) عبد العظيم المصطفى : الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ، ط 1 ، جدة : دار الوفاق ، 1407هـ / 1987م .
٥١) عبد الفتاح أبو عليه : الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، د.ط ، الرياض : دار المريخ ، 1429هـ .
٥٢) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ، ط1 ، دمشق ، 1947م .
٥٣) عبد الكريم علي الباز : افتراءات فيليب متى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي ، د. ط ، جدة : تهامة للنشر ، 1403هـ / 1983م .
٥٤) عبد اللطيف بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ط 1 ، مكة المكرمة: النهضة الحديثة ، 1409هـ / 1988م .
٥٥) عبد اللطيف بن محمد الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ط1 ، الرياض : العبيكان ، 1414هـ / 1993م .
٥٦) عبد الله التل: جذور البلاء ، ط1 ، المكتب الإسلامي ، 1408هـ .
٥٧) عبد المنعم الهاشمي : الخلافة العثمانية ، ط 1 ، لبنان : دار ابن حزم ، 1425هـ / 2004م .
٥٨) عدنان العطار : الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط ، ط 1 ، دمشق : دار وحي القلم ، 1427هـ / 2006م.

٥٩) عدنان محمد وزان : الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر، د.ط ، مكة المكرمة: إدارة الصحافة والنشر ، 1404هـ / 1984م .
٦٠) علي محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو العسكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام ، د.ت .
٦١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ط 3 ، مصر : المكتب الإسلامي ، 1415هـ / 1994م .
٦٢) علي حسين خربوطلي : المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، مصر : مطابع الأهرام ، د. ط ، 1970م .
٦٣) علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية ، ط 1 ، دمشق : منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية ، 1991م .
٦٤) علي محمد الصلابي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ط 1 ، دار البيارق ، 1420هـ / 1999م .
٦٥) عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية ، ط 1 ، بيروت : دار ابن كثير للطباعة والنشر ، 1426هـ / 2005م .
٦٦) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، د. ط ، مصر : دار النهضة العربية ، د. ت .
٦٧) ـــــــــــــ: محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ، ط1 ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، 1999م .
٦٨) غازي محمد فريج : النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة ، ط 1 ، بيروت: دار النفائس ، 1411هـ / 1990م .
٦٩) فاضل مهدي بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، ط 1 ، دار المدار الإسلامي ، 2003م .
٧٠) فرج عبدالباري أبو عطاالله : الاختراق اليهودي في المجتمعات الإسلامية نشأته وتطوره ، ط1 ، القاهرة ، 1412هـ / 1992م .
٧١) فؤاد بخش : الحضارة الإسلامية ، ط1 ، مصر : مطبعة الحلبي ، 1960م.
٧٢) قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والانفصالية ، ط 1 ، الرياض : 1403هـ .

٧٣) ــــــــــــــ: الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية ، جامعة الإمام سعود ، 1408هـ .
٧٤) قيس جواد العزاوي : الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ط 1، 1414هـ / 1994م .
٧٥) ليلى عبد اللطيف أحمد : موقف الدولة العثمانية من مطامع اليهود في فلسطين ، ط1 ، مصر : دار الكتاب العربي ، 1987م .
٧٦) ماجدة مخلوف : الحريم في القصر العثماني ، ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية، 1418هـ / 1998م .
٧٧) ــــــــــــــ : أوقاف نساء السلاطين العثمانيين ، وقفية زوجة السلطان سليمان القانوني ، ط1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، 1427هـ/2006م.
٧٨) مازن مطبقاني : الاستشراق المعاصر من منظور الإسلام ، ط1 ، الرياض: دار إشبيليه ، 1421هـ .
٧٩) مجدي عبد المجيد الصافوري : سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية ، ط1 ، القاهرة : دار الصحوة ، 1410هـ / 1990م .
٨٠) محمد أبو زهرة : الجريمة ، ط1 ، القاهرة ، د. ت .
٨١) ــــــــــــــ :تاريخ المذاهب الإسلامية ، د. ط ، مصر ، 1419هـ.
٨٢) محمد أحمد دياب : أضواء على الاستشراق والمستشرقين ، ط 1 ، دار المنار ، 1410هـ / 1989م .
٨٣) محمد الأرناؤوط : دراسات ووثائق حول الدوشــرمه ، ط 1 ، عمان : دار قديسة، 1991م .
٨٤) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، د. ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، د. ت .
٨٥) محمد بن عبود : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، ج 1، د. ط، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم ، د. ت .
٨٦) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ط 12، القاهرة: مكتبة وهبة ، د. ت .
٨٧) محمد جلاء إدريس : الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العربية ، ط 1 ، القاهرة: العربي للنشر والتوزيع ، 1416هـ / 1995م .

٨٨) محمد حرب: السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، ط 1، دمشق: دار القلم ، د. ت .

٨٩) ــــــــــ : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ط 2 ، دمشق: دار القلم ، 1419هـ / 1999م .

٩٠) محمد خليفة حسن أحمد : آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ط 1 ، القاهرة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، 1997م.

٩١) محمد سرحان : النظام العثماني " الهجرة اليهودية إلى فلسطين " 1492م – 1952م ، ط1، دمشق ، 1993م .

٩٢) محمد سليمان العبده : تعليق على التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي، مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ، ط 1 ، الرياض : دار طيبه، 1416هـ / 1995م .

٩٣) محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط 1 ، لبنان : بيروت المحروسة ، 1415هـ / 1995م .

٩٤) محمد عبد الفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ج 2 ، ط1 ، الكويت: دار البحوث العلمية ، 1400هـ / 1980م .

٩٥) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني في عصر محمود الثاني، ط1 ، القاهرة : 1398هـ / 1978م .

٩٦) محمد عبد اللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في إنحسار المد الإسلامي عن أوروبا ، القاهرة : دار الصحوة للنشر ، ط 1، 1408هـ/1987م.

٩٧) محمد عفيفي : عرب وعثمانيون رؤى مغايرة ، ط 1 ، مصر : دار الشروق ، 1426هـ /2005م .

٩٨) محمد الغزالي : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، د.ط ، الكويت: دار البيان ، د. ت.

٩٩) محمد فتح الله الزيادي : الاستشراق أهدافه ووسائله ، ط1، دار قتيبة ، د.ت.

١٠٠) محمد فهيم بيومي : مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العــصر العثماني ، ط1 ، القاهرة: دار القاهرة لــلكتاب ، 1421هـ /2001م .

١٠١) محمد قطب : المستشرقون والإسلام ، د. ط ، القاهرة : مطبعة وهبة ، 1999م .

١٠٢) محمد كامل عياد : تاريخ اليونان ، ج 1 ، ط3 ، دمشق : دار الفكر، 1414هـ / 1993م .

١٠٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ط 1 ، القاهرة ، 1396هـ / 1976م .

١٠٤) محمود حسن الصراف : معركة جالداران 920هـ /1514م أولى صفحات الصراع العثماني الفارسي الأسباب والنتائج ، د. ط ، مصر: مكتبة النهضة المصرية ، 1991م .

١٠٥) محمود حسن منسي: تاريخ المشرق العربي الحديث ، ط1 ، مصر، د.ت.

١٠٦) محمود حمدي زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط 1 ، مصر : دار المعارف ، 1417هـ / 1997م .

١٠٧) محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى ، ط 1 ، القاهرة : المكتب المصري ، 1421هـ / 2001م .

١٠٨) محمود شاكر : الخلفاء العثمانيون ، ط 1 ، المكتب الإسلامي ، 1424هـ/2002م .

١٠٩) مصطفى السباعي : الإستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ، ط 1 ، لبنان : دار الوراق ، 1420هـ /1999م .

١١٠) ـــــــــــ : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ط 2 ، بيروت: المكتب الإسلامي ، 1978م .

١١١) مصطفى محمد حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، ط 1، مصر : دار إبن الجوزي ، 1426هـ / 2005م .

١١٢) مصطفى الخالدي، عمر فروخ :التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ط 1، القاهرة ، د. ت ، ص319 مبحث سير المستشرقين.

١١٣) نجيب عقيقي : المستشرقون ، ط3 ، د. م ، د.ت .

١١٤) نخبة من العلماء المسلمين : الإسلام والمستشرقون ، ط 1 ، جدة : عالم المعرفة، 1405هـ / 1985م .

١١٥) هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية ، ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، 1418هـ / 1998م .
١١٦) ــــــــــــ: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية ، ط 1 ، دمشق : دار العلم ، 1423هـ / 2002م .
١١٧) وديع أبو زيدون : تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى الاستقلال ، ط1 ، الاردن : الأهلية للنشر والتوزيع ، 2003م .
١١٨) يوسف حسين عمر : أسباب خلع السلطان عبد الحميد الثاني 1876م – 1909م، إربد : دار الكتاب الثقافي ، 1426هـ / 2005م .
١١٩) يوسف علي الثقفي : موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ط1 ، الطائف : دار الحارثي ، 1417هـ .

ب) المراجع التركية المطبوعة بعد سنة 1900 م :

1- Abdulkadir Ozcan : Fatihin Teskilat Kanunnane ve Nizam Alem icin Kardes Katli meselesi , Istanbul , 1982
2- Abdurrahman Küçük , Dönmeler ve Dönmelik Tarihi , İstanbul 1973
3- Ahmed Akgündüz – Said Öztürk , Bilinmeyen Osmanlı , İstanbul 1999
4- A.D. Alderson : The structure of the ottoman dynasty . Oxford 1956
5- A . S. Atiye , Nigbolu Haçlılar Seferi , Çev. Esat Uras , Ankara 1956
6- Ahmedi , Dasitan Tevarih – i Muluk – i Al – i Osman , Haz. Nihad Sami Baranlı , İstanbul 1936 .
7- Ahmedi , İskendername , Tıpkıbasım ,nşr .İsmail Ünver, TTK. Ankara 1983
8- Ahmed Akgündüz , Güneydoğu Meselesi ve Çözüm Yolları , OSAV ; İstanbul 1994 ,
9- Ahmed Akgunduz : Osmanli Kanunnameleri ve Hukuki Tahlilleri , I, Istanbul 1993
10- Ahmed Özel , İslam Hukukunda Ülke Kavramı : Darulislam – Darulharb , İstanbul 1998
11- Ahmed Cevdet Paşa , Ma"ruzat , nşr : Yusuf Halaçoğlu , İstanbul 1980
12- Ahmed Lütfi , Tarih , Yay . M.Münir Aktepe , TTK , Ankara 1989
13- Ahmed Muhtar , Feth – i Celil – i Kostantiniyye , İstanbul 1340

14- Ahmed Rasim , Osmanlı Tarihi , İstanbul 1330
15- Ahmed Refik , Kabakçı Mustafa , İstanbul 1331
16- Ahmed Refik , Meşhur Osmanlı Kumandanları , İstanbul 1318
17- Ahmed Refik , Sahaif – i Muzafferiyat – ı Osmaniye , İstanbul 1325
18- Ahmed Refik , Sultan Cem , İstanbul 1924
19- Ahmet Mumcu , Hukuksal ve Siyasat Karar organi Olarak Divan-i Humayun , Ankara 1986
20- Alastair Hamilton : William Bebwell the Arabist 1563 – 1632. Leiden , 1985
21- Ali Fuad , Osmanlı – Rus Seferi , İstanbul 1326
22- Ali Fuad , Rical – i Mühime – i Siyasiye , İstanbul 1928
23- Ali Rıza Seyfi , Kemal Reis ve Baba Oruç , İstanbul 1325
24- Ali Suvi , Ali Paşa‟nın siyaseti , İstanbul 1325
25- Aydin Taneri : Osmanli Devletinin Kurulus Doneminde Hukumdarlik Kurumunun Gelismesi ve saray Hayati Teskilati , Ankara 1978
26- Ali fuad Türkgeldi , Görüp İşittiklerim , TTK , Ankara 1951
27- Âli , Mustafa b. Ahmed , Künhü‟l – Ahbar , Yay.Haz. M.Hudai Şentürk , TTK . Ankara 2003
28- Aşıkpaşazade , Tevarih – i Al – i Osman , Miralay Âlî Bey Neşri , İstanbul 1332
29- Benjamin Braude : Foundation myths of millet system , Ghristians and Jews in the ottoman Empire , New York , 1982, Vol I .
30- C . Cahen : le probleme du shiisme dansi , Asie mineure Preottomane , le shiisme imamate , Paris , 1970 .
31- Chehata : Precis de Droit musulman , Paris , 1970
32- Christians and Jews in the ottoman Empire , New York , 1982 . Vol .
33- Cengiz Köseoğlu , Harem , İstanbul 1979
34- Cevdet Paşa , Tezakir , cüz 13 – 20 , Yayın : Cavid Baysun , TTK , Ankara 1986
35- Colin İmber , Osmanlı İmparatorluğu 1300 – 1650 , Çev. Şiar Yalçın , İstanbul 2006 ,
36- Derviş Mehmed b. Şeyh Ramazan , Subhatü‟l – Ahbâr , Tıpkıbasım Doğan , İstanbul 1968
37- Dursun Bey , Tarih – i Ebu‟l – Feth , Haz. Mertol Tulum , İstanbul 1987
38- Enver Behram Şapolyo , Osmanlı – İnkılap ve Avrupa Tarihi Özü , Ankara 1946

39- Enver Ziya Karal , Osmanlı Tarihi , TTK , Ankara 1977
40- Ernst Werner , Büyük Bir devletin Doğuşu , Çev. Orhan Esen – Yılmaz Öner , İstanbul 1986
41- Esad Efendi , Teşrifat – ı Kadime , Tıpkıbasım , Neş. Çağrı ,İstanbul 1979
42- Fahreddin kizioglu : Osmanlilarin kafkas – ellerini fethi (1451- 1590), Ankara , 1976
43- G . Ostrogorsky : Bizans Devleti Tarihi, (Trc . F. Isiltan) , Ankara , 1981
44- G . Spillmam : Napoleon I Islam Paris , Edit . L. LA.P. 1969.
45- Gibb – H.A.R – Harold Bowen , Islamic Society and west, London 1969 Vol 11 .
46- Gibb & Bowen : Islamic Socienty and the west . London 1951- 1957 , Vol . I ,
47- Ercüment Kuran , Avrupa"da Osmanlı ikamet Elçiliklerinin Kuruluşu ve İlk elçilerin Siyasi Faaliyetleri 1793 – 1821 , Ankara 1988
48- E.Zachariadou: Pachymeres on the Amourioi of Kastamonu , III , Byzantine and modern Greed Stubies , 1977
49- E . Zachariadou : Suleyman Celebi in Rumelia and the Ottoman Chronicles , Derislam , Lx , 1983 .
50- E . Zachariadou : the conquest ed Adrian ople by the Turks, studi veneziani , 1970 .
51- E.Z.Karal : Abd Al Aziz , the Encyclopaedia of Islam, Volume I .
52- Edmon Howie : the American university ad Beirn I . 1951
53- El . Abbassi Ali Bay : Voyages d' Ali Bay el Abbassi en Arique et en Ph.k. Hilti : Lebanan in Histery , 1957 .
54- Enver Behram Şapolyo , Osmanlı – İnkılap ve Avrupa Tarihi Özü , Ankara 1946
55- Enveri , Düstürname , Mükrimin Halil neşri , İstanbul 1928
56- Evliya Çelebi , Evliya Çelebi Seyahatnamesi , İstanbul 1928
57- Gazi Ahmed Muhtar Paşa , Anadolu"da Rus Muharebesi , İstanbul 1328
58- H . De . Castires : Napoleon et le maroe dons Revue Hebdomadaire , Nib, 8 avril , 1908
59- H . G. Yardaydin : Kanuninin Culusu ve ilk Seferi , Ankara , 1961
60- H . Inalcik : Fatih Devri , uzerinde Tetkikler ve Vesikalar, TTK. Ankara 1954
61- Herbert Adams Gibbons , Osmanlı İmparatorluğunun kuruluşu , çeviren : Hüseyin Dağ – Bülent Arı , Ankara 1998

62- Heyet , Mufassal Osmanlı Tarihi , İstanbul 1957
63- H . Atik : Edirne‟nin 600 . Fethi Yildoumu Armagan Kitabi , Ankara , TTK .1993
64- HAR. Gibb – Harold Bowen : islamic society and the west, Londom , 1969 . vol .
65- İbn Battuta , Şerefeddin Ebu Abdullah , Seyahatname ,1- 3, Terc. Mehmed Şerif Paşa , İstanbul 1333 – 1338
66- Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Devletinde merkez ve Bahriye teskilati, Istanbul , 1979
67- Ismail Hakki uzuncarsili : Osmanli Tarihi , Ankara , 1983, Vol II .
68- Ismail Hakki uzuncarsill : Osmanli Devleti Teskiatindan İlmiye Teşkilatı " 2 Baski Ankara : Turk Tarih Kurumu Basimevi , 1984
69- Ismail Hakkı Uzunçarsili : Saray Teskilati , Cosmanli Devletinde Saray Teskilati Ankara , 1984
70- Ismail Hami Danismend : İzahlı Osmanli Tarihi , İstanbul 1950
71- J . Schmidt : The Egri Campaign od 1596 , military History and the problem of sources . Habsburgische O smanische Beziehumgen , ciepo , Vieme , 1985 .
72- J . Von Hammer : Staatves Jassung und staatsver – wafting des Osmanischen Reichs , 1963 , vol II ,
73- Kasım bin Ahmed , 1897 Türk – Yunan Savaşı (Teselya Tarihi) , Yayına Haz. Bayram Kodaman , TTK , Ankara 1993
74- Kemal Beydilli : 1790 Osmanli Prusya ittifaki Istanbul , 1992
75- Kemal Pasa Zade : Tevarih – I AT – I Osman , Ankara , 1957
76- Katip Çelebi , Tuhfetü‟l – Kibar fi Esfari‟l – Bihar , İstanbul 1329
77- Kıvami , Fetihname – i Sultan Mehmed , Hazırlayan : Fransız Babinger , İstanbul 1955
78- Lütfi Paşa , Tevarih – i Al – i Osman , İstanbul 1341
79- M . Brendei – G . Veinstein : Reglements Fiscauy de Province de Bender Aqkerman 1570 . cahiers du monde Russe et sovietique .
80- M , Gağtay ulucay , Harem , Ankara , 1980
81- M. Çağatay Uluçay , Padişahların Kadınları ve Kızları , Ankara 1980
82- M.Çağatay Uluçay , Oamanlı Sultanlarına Aşk Mektupları , İstanbul 1950
83- M . Ipsirli : Insan Haklari ve Sosyal Asisindan Osmanli : Fetualari , Turklerde insani Degerler ve Insan Haklari , II , Istanbul 1992
84- M.ipsirli: Osmanli Imparatorlugurda Kadiaskerlik Muessesesi, Istanbul 1982

85- Mahir Mehdi , Bedreka – i Zafer , Yayına Haz. Bayram Kodaman , TTK , Ankara 1993
86- M . Brendei – G . Veinstein : Reglements Fiscauy de Province de Bender Aqkerman 1570 . cahiers du monde Russe et sovietique .
87- Mark A . Epstein : the Jeadership of the ottoman jews in fifteenth centuvies , Christians and Jews in the ottoman Empire , New York , 1982
88- Meral Altındağ , Osmanlı‟da Harem , Altın Kitaplar , İstanbul 1993
89- Mahmud Celaleddin Paşa , Mir‟at – ı Hakikat , I - II, Nşr. İsmet Miroğlu , İstanbul 1980
90- Mehmed Neşri , Neşri Tarihi, I – II, yay. Mehmet Altay Köymen , TTK , Ankara 1983
91- Mehmet Zeki Pakalin : Osmaili Tarih Deyimleri Sözlüğü , I - III .
92- Mustafa guler , osmainli Derletinde Haremeyin Vabiflare , Istanbul , 2002
93- Mualla Anhegger – Eyüboğlu , Topkapı Sarayında Padişah Evi (Harem) , İstanbul 1986 .
94- Müneccimbaşı Ahmed Dede b. Lütfullah , Câmiu‟d – Düvel Hazırlayan : Ahmet Ağırakça , İstanbul 1995
95- Memduh Turgut Koyunluoğlu , İznik ve Bursa Tarihi ,Bursa1935
96- Mütercim Ahmed Asım , Asım Tarihi , I - II, İstanbul , tarihsiz
97- Mustafa Nuri Paşa , Netayicü‟l – Vukuat , I - IV, İstanbul 1327
98- Nizameddin Şami , Zafername , Çev. Necati Lugal , TTK, Ankara 1949
99- Nicolae Yorga , Osmanli Tarihi , Terc. Bekir Sıtkı Baysal , Ankara 1948
100- Omer Lutfi Barkan : XV ve XVI Asrlarda Osmanli imporatorlugunda zirai Ekoraminin Hukuki ve Esaslari Kanunlar Istanbul 1943
101- Ömer Lütfi Barkan – Ekrem Hakkı Ayverdi , İstanbul Vakıfları Tahrir Defteri , İstanbul 1970
102- Ömer Faruk Yılmaz , Belgelerle Osmanlı Tarihi, IV cilt, İstanbul 1999
103- Oruç Bey , Tevarih – i Al – i Osman , nşr. Fransız Babinger , Hannover 1925
104- Paul wittek : mentese Beyligi , Trc. O.Ş. Gökyay , TTK, Ankara 1944.
105- P . Rycaur : The present state of the ottoman Empire , London, 1668.

106- Resad Ekren Kocu , Yeniceriler Istanbul , 1964
107- Runciman : the fall of Constantinople , Cambridge , 1965 .
108- Rıfat Okyay,Osmanlı Devleti"nin Kuruluşu , İstanbul 1996
109- Reşat krem Koçu,Osmanlı Muahedeleri ve Kapitülasyonlar 1300–1920 ve Lozan Muahedesi 24 Temmuz 1923, İstanbul 1934
110- S.H Eldem – Ferldun Alcozan : Topkapi Sarayi , İstanbul 1981
111- Seha . meray : Devletler Hukukuna Giris, Ankara, 1968
112- Spandonyn : petu Trade de L'orgine des turcqz ; Cantacasin, Paris, 1896
113- Sabahettin Doras , Osmanlı Zaferleri , İstanbul 1992
114- Samih Nafiz Tansu , İki Devrin Perde Arkası , İstanbul 1964
115- Selahattin Tansel , Fatih Sultan Mehmed"in Siyasi ve Askeri Faaliyetleri , İstanbul 1971
116- Şehabettin Tekindag : medrese Donemi , Istabul , 1973
117- Şehabettin Tekindag : Berkuk Derrinde memluk Sultandig , Istanbul 1961
118- Şem"dânizâde Fındıklılı Süleyman Efendi , Müri"t – Tevarih , I – II, Yay.Haz. M. Münir Aktepe , İstanbul 1976
119- Şerif Baştay , Bizans İmparatorluğu Tarihi (Son devir 1241 – 1461) , Ankara 1989
120- Tacizade Cafer Çelebi , Mahrusa – i İstanbul Fetihnamesi , Sadel. Şeref Kayaboğaz , İstanbul 1953
121- Tahsin Ömer Tahaoğlu , İstanbul"da Osmanlı Türbelerinin Tipolojisi , İ.Ü. Doktora Tezi , 1988
122- Uriel Heyd:studies in old ottoman criminal law axhard , 1973
123- Yavuz Sultan Selim , Divan , terceme : Ali Nihad Tarlan , İstanbul 1946
124- Yilmaz Altuy : Yabancilarin Hukuk Durumu , Istanbul . 1971
125- Yılmaz Öztuna , Osmanlı Hareminde Üç Haseki Sultan , İstanbul 1988
126- Yılmaz Oztuna : Turk Tarihinde Yaprakar , Istambul, 1985
127- Ziya Nur Aksun , Osmanlı Tarihi , 1- 3 , İstanbul 1994
128- Ziya Paşa , Endülüs Tarihi , Haz. Yasemin Ödük – Kazım Masumi – Fatma Şahin , İstanbul 2004
129- Zahra freeth and H.V.F . winstone : Explorere of Arabla , Londan , George Allen and unwin , 1975
130- Ziya Paşa , Sultan Abdülziz"e Layiha , İstanbul 1327

ج) المراجع المترجمة :

١) أحمد صائب بك : وقعة السلطان عبد العزيز ، ترجمة . محمد توفيق جانا، مصر : مطابع هندية بالأزبيكية ، 1319هـ .
٢) إدوارد سمير : الاستشراق ، المفاهيم الغربية للشرق ، ترجمة : محمد عناني، ط1 ، لبنان : دار رؤية ، 2006م .
٣) أغناطيوس كراتشوفسكي : من تاريخ الإستشراق في الإتحاد السوفيتي ، ترجمة : أنادولنينا ، سلسلة كتب الثقافة المقارنة ، 1987م .
٤) أكمل الدين إحسان أوغلي : الدولة العثمانية ، تاريخ وحضارة ، ج 1 ، ترجمة: صالح سعداوي ، ط 1 ، إستانبول : مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة ، 1999م .
٥) بول كولنز : العثمانيون في أوروبا ، ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط1 ، القاهرة ، 1993م .
٦) بيتر برنيت : بلاد العرب القاصية رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب ، ترجمة : خالد أسعد عيسى–أحمد غسان سبانو ، ط 1 ، بيروت : دار قتيبة، 1411هـ / 1990م .
٧) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، ط1، القاهرة ، 1957م .
٨) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية ، ترجمة : محمد حرب، ط1 ، جدة : دار المنارة للنشر والتوزيع ، 1418هـ / 1997م.
٩) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة : قدري قلعجي، د.ط، الرياض : الفاخرية ، د. ت .
١٠) خوان غويستولو : في الاستشراق الأسباني ، ترجمة : كاظم جهاد ، د.ط، بيروت ، 1987م .
١١) خوليان نزجان : أستار الحرمين الشريفين ، ترجمة : تحسين عمر طه أوغلي ، إستانبول ، 1996م .
١٢) روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : بشير السباعي ، ج 1 ، ط1 ، القاهرة : دار الفكر للدراسات والنشر ، 1993م .

١٣) رودي بارت : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية – المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه ، ترجمة : مصطفى ماهر ، ط 1، مصر : دار الكتاب العربي للطباعة ، 1967م .

١٤) س . موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ، ترجمة : عصام محمد ، ط1 ، بيروت : دار إبن حزم ، 1423هـ / 2002م .

١٥) السلطان عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة : محمد حرب، ط4 ، دمشق : دار القلم ، 1419هـ / 1998م.

١٦) سنوك هُرخرونيه : صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة : علي عوده الشيوخ ، ط2 ، الرياض : دارة الملك عبد العزيز ، 1419هـ / 1999م.

١٧) طرجان يلماز : الكعبة المشرفة ، ترجمة : تحسين عمر طه أوغلي ، إستانبول ، 1993م .

١٨) عبد القادر ده ده أوغلو : ألبوم العثمانيين ، ترجمة : محمد جان، د.ط ، إستانبول : الدار العثماني للنشر ، د. ت .

١٩) عمر فاروق يلمظ: السلطان المظلوم السلطان عبد الحميد الثاني بالوثائق ، ترجمة : طارق عبد الجليل السيد ، مراجعة : الصفصافي أحمد المرسي، د.ط ، إستانبول : دار نشر عثمانلي ، د. ت .

٢٠) فان فولتن : السيادة العربية ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، د. ط ، مصر، د. ت .

٢١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : منير بعلبكي ، ط 12 ، دار العلم ، 1993م .

٢٢) لو ثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ، تحقيق : شكيب أرسلان ، د.ط ، القاهرة : الفكر العربي ، د. ت .

٢٣) ماري ملز باتريك : سلاطين بني عثمان ، ترجمة : حنا غصن ، كامل مروه – كامل صموئيل مسيحه ، د. ط ، د. م ، 1933م .

٢٤) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة : عمر فروخ ، د.ط، لبنان : دار العلم للملايين ، 1398هـ / 1978م.

٢٥) محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة : أحمد السعيد ، د.ط، القاهرة ، 1967م .

٢٦) يوهان فوك : تاريخ حركة الاستشراق ، ترجمة : عمر لطفي سالم ، ط 2، لبنان : دار المدار الإسلامي ، 2001م .

خامساً : الموسوعات :

أ) الموسوعات العربية :

١) حسين مجيب المصري : معجم الدولة العثمانية ، ط 1 ، مصر : الدار الثقافية للنشر ، 1425هـ / 2004م .

٢) خير الدين الزركلي : قاموس الأعلام وتراجم ، ج6 ، ط6 ، بيروت: دار العلم للملايين ، 1984م .

٣) سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مراجعة: عبد الرازق محمد حسن بركات ، د. ط ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، 1421هـ / 2000م .

٤) عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، ط4 ، الأردن : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2003م .

٥) مانع حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ط3 ، الرياض : دار الندوة العالمية للطباعة ، 1418هـ ، ج2.

٦) مصطفى بركات : الألقاب والوظائف العثمانية ، ط 1 ، القاهرة : دار غريب، 2000م .

٧) الموسوعة العربية العالمية : ج 27 ، ط2 ، الرياض : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر ، 1419هـ / 1999م .

٨) نخبة من العلماء : المعجم الوجيز ، ج 1 ، ط1 ، القاهرة : دار الكتب العلمية، 1980م .

٩) وزارة الأوقاف والشئوون الإسلامية : الموسوعة الفقهية ، ج 7 ، ص21 ، الكويت: دار السلاسل ، 1427هـ .

١٠) يلمازا وزتونا : مادة الحريم ، موسوعة التاريخ الكبرى ، د.ط ، إستانبول : الغروب ، د.ت .

ب) **الموسوعات التركية :**

١) شمس الدين سامي : قاموس تركي ، د. ط ، إستانبول : دار السعادة ، 1317هـ .

٢) الموسوعة التركية : الوقف الديني بتركيا ، ج1 ، د. ط ، إستانبول ، 1988م. 1995م .

٣) عمر فاروق يلمظ: التاريخ العثماني الموثق ، ج4، د. ط، إستانبول ، د.ت.

ج) الموسوعات الأجنبية المترجمة :

١) مجموعة من المستشرقين : دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : أحمد الشنتناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس ، ط 1 ، القاهرة : دار الفكر ، 1933م .

٢) مجموعة من المستشرقين : موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة: مجموعة من الباحثين ، ط 1 ، الشارقة : مركز الشارقة للإبداع الفكري ، 1418هـ / 1998م.

د) الموسوعات الأجنبية :

1- The Encyclopaedia of Islam Leiden , E.J . Brtll , London , Luzacsco , New York , 1936 . 1960 , 1977 , 1993 .

سادساً : الرسائل الجامعية :

١) إبتسام محمد كشميري : مكة المكرمة من بداية الحكم العثماني إلى نهاية القرن 10هـ / 16م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، 1422هـ / 2001م، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

٢) أمين أحمد العُقبي : آراء المستشرق " جوزيف هامر " حول شخصية السلطان محمد الفاتح من خلال كتابة " تاريخ الدولة العثمانية " ، رسالة ماجستير لم تطبع ، قسم الاستشراق ، كلية الدعوة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، 1419هـ .

٣) خالد عبد الله القاسم : العقيدة الإسلامية في دائرة المعارف الإسلامية ، رسالة دكتوراه لم تطبع ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، 2002م.

٤) زيد أحمد العبلان : الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلامية ، رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة أم القرى ، كلية الدعوة وأصول الدين ، 1406هـ .

٥) سهيل صابان : الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، رسالة دكتوراه لم تطبع ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، 1415هـ / 1994م .

سابعاً : الدوريات :

أ) الدوريات والمجلات العلمية العربية :

١) أحمد سالم : الرحلات الأوروبية وتأثيراتها على المنطقة والجزيرة العربية، بحث منشور في مجلة دارة الملك عبد العزيز ، الرياض.

٢) إسماعيل أحمد عمايره : المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية ، مجلة المنهل، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 – رمضان – شوال 1409هـ / إبريل – مايو 1989م .

٣) إسماعيل أحمد ياغي : جهاد شعب فلسطين ضد الهجرة اليهودية والصهيونية، مقال منشور بمجلة الدارة ، الرياض ، السنة 14 ، العدد الثاني ، محرم – ربيع الأول 1409هـ / أغسطس – أكتوبر 1988م .

٤) أميرة علي مداح : الأوقاف العثمانية بمكة ودور المرأة فيها ، رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، العددان الثالث والرابع، 2005م .

٥) ـــــــــــــــ: خيرات ماة بيكر كوسم والدة سلطان ووقفيتها لخدمة الحرمين الشريفين صورة للتضامن الاجتماعي والديني خلال العصر العثماني، المؤرخ المصري دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة ، العدد 24 ، يناير 2001م .

٦) ـــــــــــــــ : مكانة مكة المكرمة لدى السلاطين العثمانيين وأوقاف نسائهم فيها ، مجلة الأمانة ، العدد 33 شوال / ذو القعدة 1426هـ .

٧) بلقاسم سعد الله : رحلة كيون روش إلى الحجاز 1841م – 1842م ، بحث ضمن بحوث ندوة الرحلات شبه الجزيرة العربية، الرياض ، 24 – 27 رجب 1421هـ / 21-24 أكتوبر .

٨) جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، ج 8 ، 1326هـ/1909م .

٩) حسن عزوزي : ملاحظات حول مسألة التسامح الديني في العهد العثماني ، ج1، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ط1 ، إستانبول : 2000م .

١٠) رياض العالي : مصطفى كمال أتاتورك بين الأسطورة والحقيقة ، تاريخ العرب والعالم ، العدد 49 ، تشرين الثاني ، 1982م .

١١) سلمى أحمد : وعد بلفور – وقفة تأمل ، مجلة المنطلق العدد 7 ، محرم ، 1400هـ .

١٢) سهام عبد العظيم : التحضر الإسلامي والبربرية الصليبية ، بحث منشور في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة المنيا ، العدد 26 أكتوبر ، 2002م .

١٣) شكري النجار : لم الاهتمام بالاستشراق ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد 31 مارس ، 1983م .

١٤) عبد العزيز سعد الدغيثر : المستشرقون والعربية ، مقال منشور في المجلة العربية ، العدد 3344 ، السنة 29 ، ذو القعدة 1425هـ / يناير 2005م.

١٥) عبد الله عبد الرحمن الربيعي : السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر من عام 492هـ - 584هـ / 1099م – 1188م ، دراسة في التاريخ العسكري والاقتصادي . مقال منشور في مجلة الدارة ، الرياض ، العدد 3، السنة 29 ، 1424هـ .

١٦) عبد اللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، الرياض ، العدد الرابع ، السنة 13 ، 1408هـ / 1988م.

١٧) عبدالقادر طاش : الجذور التاريخية للصورة النمطية للإسلام والعرب في التراث الغربي ، مجلة المنهل ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان – شوال 1409هـ / إبريل 1989م.

١٨) علي عبد العليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، بحث منشور ضمن مجموعة أبحاث مقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي بإشراف جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، عام 1396هـ ، إصدار الجامعة 1404هـ / 1984م .

١٩) عمر فروخ : الاستشراق ماله وما عليه ، مجلة المنهل ، جدة ، العدد 471، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان – شوال 1409هـ إبريل مايو 1989م .

٢٠) فؤاد أحمد فرسوين : المسافة بين الدراسات الإقليمية والدراسات الإستشراقية ، مجلة المنهل ، جدة ، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان – شوال 1409هـ / إبريل مايو 1989م .

٢١) فاضل مهدي بيات : التعليم في العهد العثماني دراسة تاريخية على ضوء السالنامات العثمانية ، المجلة التاريخية العدد 57 – 58 ، تموز ، 1990م.

٢٢) فهد عبد الله السماري : مراكز دراسات الشرق الأوسط وعنايتها بالمسلمين، بحث مقدم للمؤتمر الإسلامي الثاني ، لندن ، ربيع الآخر 1414هـ.

٢٣) كارل شـميث كروته : الرحالة الألـمان في الجزيرة العـربيـة (1600م – 1900م) ، بحث ضمن بحوث ندوة الرحلات شبه الجزيرة العربية ، الرياض 24-27 رجب 1421هـ / 21-24 أكتوبر 2000م .

٢٤) كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودوس ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، العدد الثاني ، 1399هـ ، كلية الشريعة الدراسة الإسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز .

٢٥) محمد الدسوقي : الاستشراق والفقه الإسلامي ، بحث ضمن حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة قطر ، ج5 ، 1407هـ/ 1987م.

٢٦) محمد حرب : ليس بالاستشراق نفهم تاريخنا ، المجلة العربية ، المملكة العربية السعودية ، العدد 1 رجب – مارس 1407هـ / 1987م .

٢٧) محمد محمود السروجي : أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة العربية والإسلامية ، مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة ، العدد الأول، رجب 1417هـ / نوفمبر 1996م .

٢٨) محمود حمدي زقزوق : الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق ، مجلة المنهل، جدة، العدد 471 ، السنة 55 ، المجلد 50 ، رمضان ، شوال 1409هـ/ إبريل 1989م .
٢٩) نادية وليد الدوسري: محاولات التدخل الروسي في الخليج 1297م – 1325هـ / 1880م – 1907م ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، 1422هـ .
٣٠) نجدة فتحي صفوة : مراسل " التايمز " في إستانبول يصف مغادرة آخر الخلفاء العثمانيين عاصمته ، تاريخ العرب والعالم ، لبنان : دار النشر العربية للدراسات والتوثيق ، السنة 21 ، العدد 193 ، جماد الآخرة – رجب 1422هـ / سبتمبر – أكتوبر 2001م .
٣١) نهدي صبحي الحمصي : العثمانيون والمشروع الصهيوني ، تاريخ العرب والعالم ، سنة 20 ، العدد 187 ، سبتمبر – أكتوبر 2000م ، جماد الآخرة – رجب 1421هـ .
٣٢) نور الدين حاطوم : نشاط البعثات الأجنبية الدينية في العالم العربي ، محاضرات ألقيت على طلاب قسم الدراسات التاريخية ، معهد الدراسات العربية العالية ، 1959م – 1960م.
٣٣) وولتر دوستال : الرحالة النمساويون في جنوب الجزيرة العربية ، بحث ضمن بحوث ندوة الرحلات شبه الجزيرة العربية ، الرياض، 24–27 رجب 1421هـ / 21–24 أكتوبر .

ب) الأبحاث والدوريات التركية :

1- Ahmed Refik , " Mahmud – I Sanin in validesi " TOEM , 87(10) .
2- Ahmed Uçar , “ Batı , Tatih ve II. Abdülhamid “ , Tarih Medeniyet Dergisi , Sayı : 40 , İstanbul 1997 .
3- Âli , “ Birinci Murad‟ın Sikkeleri”, TOEM , XIV/ 4 , 1981.
4- Atilla Çetin , “ Osman Gazi‟nin sikkesini bulan adam”, Tarih ve Medeniyet Dergisi,12,1995 .
5- Arif Bey : “Devlet-i Osmaniye'nin Teessus ve Takarruru Devrinde ilim ve Ulema” , Darulfunun Edebiyat Fakultesi Mecmuasi , Sayi II , Istanbul 1332 .

6- C.Orhonlu : xvi,Asrin illk Yarisinda Kizildeniz Sahillerinde Osmanlilar , TD , XVI , 1962 .
7- Cemal Tekin , " Girit " , IA , IV .
8- Çağatay Uluçay ," Kanuni Sultan Süleyman ve Ailesi ile ilgili Bazı Notlar ve Vesikalar ",Kanuni Armağanı, Ankara 1970 .
9- G.Veinstein :Les Preparatifs de la Campagne navale Franco-Turque de 1552 a traversles orders du divan ottoman; Revue de I ' occident musulman et de la mediterranee xxxix.
10- G.Veinstein: XVI, Yazyilda karadeniz in kuzeyindeki Steplerde Buluran Osmanli Kolonizasyon Ciftlikleri, (trc.Y.Cezar),IFM , Ulgenere Armagan, Xi III / 1-4 (1987).
11- Gy . Kaldy – Nagy : Suleimans Angriff auf Europa , Acta Orientalia , xxxvlll / 2 , 1974 .
12- Gy . Szekely ; la Hongrie et la Domination Ottomane xve– xvlle Siecles) , Studia Turco – Hungarica , Budapest , 1975 .
13- Halil Inalcik : Murad II , Islam Ansilopedisi , Istanbul 1990 , vol . VII .
14- H.inalc,k : Turkler (Osmanl.lar).iA , Islam Ansiklopedesi, Istanbul , 1977 , Cilt X 11/2 .
15- H , Inalcik " Bayezid " , Diyanet islam Ansitlopedisi , Istanbul , 1997 , Cilt 5 .
16- H . kaleshi : "Turklerin Balkanlara Girs ve islamlastirma" (Trc.K.Beydilli) , TED , Say 10-11 , (1981) .
17- H . Sohrweide : Der Sieg der Saferiden in Persien and Seine Ruckwirkungen auf die Schiiten Anatoliens in 16 . Jahrhandert. Der Islam , 41 . 1965 .
18- Iskender Hoci,"Sehzade Halil" in Serguzesti"TOEM , 1/4 .
19- İsmail Baykal ," Selim III. Devrinde imdad – ı sefer için para basılmak üzere saraydan verilen altın ve gümüş eşya hakkında",TarihVesikaları Dergisi, Ankara 1944, III, Sayı: 13 .
20- I.Sahin–F.Emecen:"Kanuni Devrinde Amasya Antlasmasi", Dia , III.
21- J.L.Bacgue – Grammont : XVI , yuzyilinilk Yallsin da Osmanlilar ve Safeviler , Prof . Dr . Bekir Kot Ogluna Armagan , Istanbul 1991 .
22- M. Akif Aydin: Batililasma , Dia , Istanbul 1992 , Vol . 5 .

23- M.H.N. Sarkar : Islam and muslims in Mongolia , The muslim world league journal , vol . 30 , No , "Jumad AL Aakhiran 1423- August 2002" .

24- Melek Colak : Osmanli devletinde mormonlar , tarit ve Toplum, 35 No , 210 , jun2001 .

25- Mithat Sertoğlu , " Cem Sultan neden padişah olamadı" , Yıllarboyu Tarih Mecmuası , Sayı : 6 , sene 4 , Haziran 1981.
26- Mithat Sertoğlu , " Üçüncü Selim"in hal"i ve Alemdar Mustafa Paşa", Hayat Tarih Mecmuası , Sayı : 1 Ocak 1975.
27- Ö.L.Bakan : Osmanli imperator bir islcan ve kolonizasyon metodu olarak vakiflar ve temlikler , istila dewinin kolonizatir Turk Dervisliri , vakillar Dergisi, II , 1942 .
28- Paul Wittek : Ankara Bozgunundan Istanbul „ un Zaptin trc.H.inalcik, Belleten , Sayı 27 , Ankara 1943 .
29- S.Tekindag : Sah kulu Baba Tekeli Isyani, BttD (Belgelerle Turk Tarih Dergisi, 1/3 , 1967) 1/4 1968 .
30- S. Tekindag : Yeni Kayrak ve Vesikalarin Tsigi Albinda Yauuz Sultan Selim in Iran Seferi TD , XXII, 1968 .
31- Skilliter : Three Letters from ottoman "Sultana Sagiye to oueen Elisabetht " , oriental studies III , Documents from Islamic Chanceleries oxford , 1965 .
32- Şerafettin Turan : Radosun Zaptindan malta Muhasarasina , Kanuni Armagain , S. 47 - 117 Ankara , 1970 .
33- Taha Toros , Abdulhamid in Cine gonderdigi Turk Nasihat Heyeti , Yillarboyu Tarih Dergisi , Sayi 3 . Haziran 1987.
34- Tahsin Öz , " Selim III."in sır katibi tarafından tutulan rüzname" ,Tarih Vesikaları Dergisi , 1944 , Sayı : 14 .
35- Tayyib Gökbilgin , " Osman Gazi" , İslam Ansiklopedisi , IX ,
36- Tayyib Gökbilgin ," Arz ve raporlarına göre İbrahim Paşa"nın Irakayn seferindeki ilk tedbirleri ve fütühatı" , Belleten , Sayı 83 , Ankara 1957 .
37- Y. Holasogla : Turkish Settle.ments in Rumelia (Bulgaria) in the 15 th and 16 th Centuries , Town and village population , JTS . / V/2 , 1989 .
38- Yılmaz Öztuna , " Kanuni"nin Türk ve Dünya Tarihindeki Yeri " , Kanuni Armağanı , Ankara 1970 .
39- Yusuf can , " Arz – ı Mev"ud Fitnesi " , Tarih ve Medeniyet Dergisi , Sayı 32 , Kasım 1996 .

40- Ziya Ebuuzziya , “ Sultan II. Abdülhamid‟in Avrupa‟da yasaklattığı piyesler “ , Türk Edebiyatı Dergisi , Nisan 1986 .
41- Ziya Ebuzziya – M. Emin Gerger , İkinci Abdülhamid‟in İslamı korumadaki Kudreti , Batıda yasaklattığı piyesler , İstanbul 1998 .

ثامناً : مواقع الشبكة العنكبوتية :

١) الاستشراق الروسي . الاستشراق الجامعي ببطرسبورغ ، كراسي الاستشراق في روسيا ، 2008/8/20م ، .http : // 209 . 85 135 . 132

١) البدايات الأولى للاستشراق . سلسلة كتاب الأمة ، 2008/5/24م ، http: // www islam gov . ga.

٢) الاستشراق . الموسوعة الحرة لخلق وجمع المحتوى العربي ، المعرفة ، 2008/6/28م ، http : // www. Marefa org

٣) ظافر يوسف . الاستشراق الألماني إلى أين ، مجلة التراث العربي ، العدد 68 ، 2008/4/21م http : // www . dahsha. Com.

٤) بحث الاستشراق والمستشرقين ، شذرات ، 2008/11/15م .

٥) http : // www. Shatharat . net

٦) يوسف الباز بلغيث . ماهية الاستشراق ، أسواق مربد ، 2008/1/26م . http : // www. Merbad. Net

٧) ناظم الديراوي . صورة الاسلام في الاستشراق المُبكر ، الحوار المتمدن، العدد 1846 ، 2008/2/27م . http : // www. Ahewar. Org.

٨) حسين الأنصاري . منجزات الاستشراق في ظل المعلوماتية . الصباح ، 2009/10/13م . http : // www. Alsabaah. Com .

٩) الاستشراق . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، 2009/5/19م .

١٠) http :// www. Saaid .net .

١١) وسائل المستشرقين.التوحيد.2008/8/17م .http://www.eltwhed.com

١٢) مدارس الاستشراق . المدرسة الإيطالية – الألمانية – الفرنسية – الإنجليزية – الأسبانية – الأمريكية – الهولندية . 2009/2/1م .

١٣) http : // www. Madinacenter .com

١٤) أنور محمود زناتي . التحقيق من آراء المستشرق البريطاني مرجليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي . 2009/10/31م .

١٥) http : // www . doroob. Com

١٦) مازن مطبقاني . أسئلة وأجوبة حول الاستشراق 2008/8/17م .
١٧) http : // medinacenter .org
١٨) بسام عمار . تدريس العربية في الجامعات الغربية ، 2008/12/15م ، http :// www. Awu-dam. Org
١٩) الاستشراق الروسي . مصادر الاستعراب الروسي ، 2009/5/7م
٢٠) http : // www . awu – dam . org .
٢١) مؤتمرات المستشرقين . وسائل المستشرقين ، 2008/12/25م .
٢٢) http : // www . eltwhed. Com
٢٣) صلاح الصيفي . المستشرقون اليهود في الغرب ومحاولات هدم الحضارة الإسلامية ، برلين : علي نتفه ، 2009/5/25م .
٢٤) http : // www. Saaid . net .
٢٥) Forums . Show Post , January . 17 / 2008 . http : // sauid net lferaq .
٢٦) عبد العالي المتقي . حركة الاستعراب الإسباني والاهتمام بالتراث العربي، 2009/11/11م . http : // www. Doroob .com .
٢٧) ناصر عبد الرزاق الملا جاسم . تأسيس مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، جامعة الموصل ، 2009/4/1م .
٢٨) http : // www. Adabihail .com .
٢٩) محمد سليمان حسن . كراتشكوفسكي والشرق الإسلامي ،2008/8/17م، http : // www. Awu- dam. Org .
٣٠) وسائل الاستشراق . شذرات ، 2009/8/24م ،
٣١) http : // www. Shatharat.net .
٣٢) أنور محمد زناتي . الاستشراق الأسباني ، 2009/1/5م .
٣٣) http : // www . alnoor . se .
٣٤) Word press . 19 march 2009 , http : // Islame ofy . wordpress .com .
٣٥) الموسوعة الحرة . معركة ساحة الدم ، 2008/12/9م .
٣٦) htt : // ar . wikpedia.org.
٣٧) المعاني – قاموس متعدد اللغات ، مصطلحات عربي عربي ، 1432/1/2هـ . ht:// www. Almaany. Com .

فهرســـت